من تراث
السهروردي
كتب ورسائل
تأليف
شيخ الإسلام المحدث العارف
شهاب الدين أبي حفص
عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي
رحمه الله تعالى
(٥٣٩ - ٦٣٢ هـ)
دراسة وتحقيق
أ.د. عائشة يوسف المناعي
مديرة مركز محمد بن حمد آل ثاني لإسهامات المسلمين في الحضارة
جامعة حمد بن خليفة - قطر
دار الحاوي
للطباعة والنشر والتوزيع

مِنْ تُرَاثِ

السُّهْرَوَرْدِيِّ

كُتُبٌ وَرَسَائِلُ

تأليف

شيخ الإسلام المحدث العارف

شِهَابِ الدِّينِ أَبِي حَفْصٍ

عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ السُّهْرَوَرْدِيِّ

رحمه الله تعالى

(٥٣٩ - ٦٣٢ هـ)

دراسة وتحقيق

أ. د. عائشة يوسف المنّاعي

مديرة مركز محمد بن حمد آل ثاني لإسهامات المسلمين في الحضارة

جامعة حمد بن خليفة - قطر

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

دار الحاوي للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان
هاتف 00 961 71 251323

ISBN: 978 - 9933 - 502 - 99 - 7

الموزّعون المعتمدون

اليمن
مكتبة تريم الحديثة ـ حضرموت
هاتف 417130 ـ فاكس 418130

لبنان
مكتبة التمام ـ بيروت
هاتف 707039 ـ جوال 03662783

الكويت
مكتبة دار البيان ـ حَوَلّي
تلفاكس 22616490 ـ جوال 99521001
دار الضياء للنشر والتوزيع ـ حَوَلّي
هاتف 22658180 ـ فاكس 22658180

البحرين
مكتبة الفاروق ـ المنامة
هاتف 17272204 ـ فاكس 17256936
مكتبة الريان ـ المنامة
هاتف 0097339247759

سورية
دار السنابل ـ دمشق
هاتف 0988156620 ـ فاكس 2237960

مصر
دار السلام ـ القاهرة
هاتف 22741578 ـ فاكس 22741750

الإمارات
حروف للنشر والتوزيع ـ أبو ظبي
هاتف 5593007 ـ فاكس 5593027

المغرب
دار الأمان ـ الرباط
هاتف 0537723276 ـ فاكس 0537200055
الدار العالمية ـ الدار البيضاء
هاتف 052282882 ـ فاكس 052283354

روسيا الاتحادية ـ داغستان
مكتبة دار الرسالة ـ محج قلعة
هاتف 0079285708188
مكتبة نور الإسلام ـ محج قلعة
هاتف 0079882124001

الأردن
دار محمد دنديس ـ عمّان
هاتف 4653390 ـ فاكس 4653380

تشاد

مكتبة الشيخ التيجاني ـ أنجامينا

هاتف 0023599978036

أندونيسيا

دار العلوم الإسلامية ـ سوروبايا

هاتف 0062313522971

جوال 00623160222020

ماليزيا

مكتبة توء كنالي ـ كوالا لمبور

هاتف 00601115726830

فرنسة

مكتبة سنا ـ باريس

هاتف 0148052928 ـ فاكس 0148052997

تركية

مكتبة الإرشاد ـ إستنبول

هاتف 02126381633 ـ فاكس 02126381700

الصومال

مكتبة دار الزاهر ـ مقديشو

هاتف 002525911310

الهند

دار الكتاب العربي ـ كيرلا

هاتف 0091483274003

جوال 00919946476748

مكتبة الشباب العلمية ـ لكنهو

هاتف 00919198621671

إنكلترة

دار مكة العالمية ـ برمنجهام

هاتف 01217739309 ـ جوال 07533177345

فاكس 01217723600

أستراليا

المكتبة الإسلامية

هاتف 0061297584040

جنوب إفريقية

دار الإمام البخاري

هاتف 0027114210824

تجدون منشوراتنا على:

موقع مكتبة نيل وفرات . كوم لتجارة الكتب

www.nwf.com

موقع رائد لتجارة الكتب والبرمجيات العربية

www.furat.com

مَنْ كانَ في ظُلَمِ اللَّيالي سارِيًا

رَصَدَ النُّجُومَ وأُوْقَدَ المِصباحا

حتّى إذا ما البَدْرُ أَرْشَدَ ضَوْءُهُ

تركَ النُّجُومَ وراقبَ الإصْباحا

حتّى إذا انجابَ الظَّلامُ بأَسْرِهِ

ورأى الصَّباحَ بأُفقْهِ قدْ لاحا

تركَ المَسارحَ والكواكبَ كلَّها

والبَدْرَ، وارتقبَ السَّنا الوضَّاحا

الإمام السّهروردي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
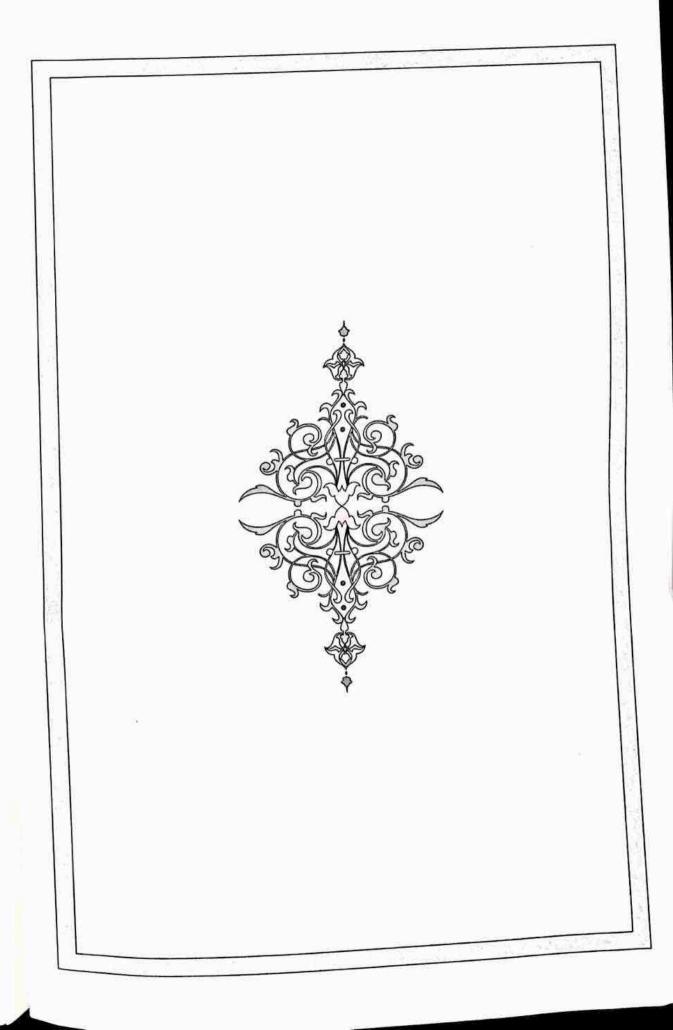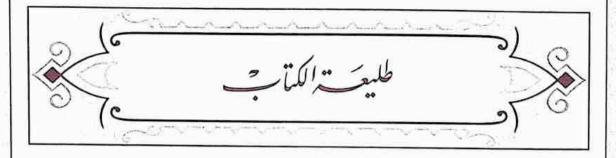
والصَّلاة والسَّلامُ علىٰ سيِّدِ الخَلقِ ؛ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ ، وعلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ أجمعينَ .

الشَّيخُ أبو حفصٍ عُمَرُ بنُ محمَّدٍ السُّهْرَوَرْدِيُّ (ت ٦٣٢ هـ) شخصيَّةٌ صوفيَّةٌ لها أَثَرُها الكبيرُ في عَصرِها والعصورِ اللَّاحقةِ بها .

ولِاشتباهِ اسمِ السُّهْرَورديِّ بأسماءِ علماءَ يَنتسِبُونَ إلىٰ سُهْرَوَرْدَ ؛ عُرِفَ السُّهْرَوَرديُّ بمَوسُوعتِه الَّتي اشتَمَلَت علىٰ مَنهجِهِ العِلميِّ في التَّصوُّفِ والأخلاقِ والمعرفةِ ؛ أعني : « عوارف المَعارِفِ » ، فيُقالُ تمييزاً له وتعريفاً به : السُّهْرورديُّ صاحبُ « عوارفِ المعارفِ » .

وحين كنتُ أُحَضِّرُ لأُطرُوحةِ الماجستير عن تلك الشَّخصيَّةِ ؛ قُدِّرَ لي أن أَحصُلَ علىٰ مجموعةٍ من المخطوطاتِ القيِّمةِ للسُّهْرَوَرْدِيِّ ، وكانت بمَثابةِ المصادرِ الأساسيَّةِ لِدراستي ، ولٰكنَّني للأَسَفِ لم أَتمكَّن مِن الحُصولِ على الكثيرِ منها أيضاً ، والَّتي جاءَ ذِكرُها عندَ المؤرِّخِينَ للسُّهْرَورديِّ .

وبعدَ فترةٍ مِنَ الزَّمنِ في البَحثِ والتَّقصِّي حَصَلتُ علىٰ مجموعةٍ منها ، وقد قمتُ بتحقيقِ « كشف الفضائحِ اليونانيَّة ورَشف النَّصائحِ الإيمانيَّة » ، وعَكَفتُ علىٰ جَمعِ ما تَبقَّىٰ مِن نُسَخِ مخطوطةٍ أُخرىٰ ؛ لِأَتمكَّنَ مِن التَّثبُّتِ مِن نِسبتِها للشَّيخِ السُّهْرَوَرْدِيِّ ، إضافةً إلى التَّأكُّدِ مِن صِحَّةِ نُصوصِ تلك المُؤلَّفاتِ ، وقدِ استَغرَقَ ذٰلك منِّي وقتاً طويلاً ، وبعد أن حَصَلتُ عليها

شَغَلَتني الحياةُ بأعبائِها ؛ مِن إدارةٍ لكلِّيَّةِ الشَّريعةِ بجامعةِ قَطَرَ ، ومِن العَمَلِ الأكاديميِّ والتَّدريسِ ، والعَمَلِ الاجتماعيِّ مِن خلالِ مُشاركتي في كثيرٍ مِنَ الهيئاتِ والمؤسَّساتِ الاجتماعيَّةِ .

وظلَّت فكرةُ التَّحقيقِ تُراوِدُني كثيراً ، إلىٰ أن شَعَرتُ بأنَّ الزَّمَنَ يَمضي ، وقد يَنقضي العُمُرُ ولا أستطيعُ أن أَفِيَ بحقِّ الشَّيخِ السُّهْرَوَرْدِيِّ ، مِن خِلالِ تحقيقِ أُطروحاتِهِ تحقيقاً عِلميّاً صحيحاً مُوثَّقاً ودقيقاً ؛ **فرأيتُ أن أُخرِجَ تلك المؤلَّفاتِ مِن مكنونِ المخطوطِ إلى المطبوعِ** ؛ خِدمةً لِشَيخِنا ، وخِدمةً للمكتبةِ الإسلاميَّةِ ، وبذلتُ أقصىٰ ما أستطيعُ مِن جُهدٍ وتركيزٍ وانتباهٍ مِن أجلِ أن يَجِيءَ النَّصُّ قدرَ الإمكانِ مطابقاً لِما أَلَّفَهُ الشيخُ مِن رسائلَ ، ولا أزعمُ أنَّني أشرفتُ على الكمالِ ، ولٰكن يكفيني أنَّني مهَّدتُ الطريقَ لمَن يأتي بعدي من الباحثين والدَّارسين ممَّن يَهتمُّون بالشَّيخِ وعلومِه في التَّربيةِ والسُّلوكِ .

ولعلَّ ذٰلك يكونُ مُحفِّزاً للباحِثِينَ على المزيدِ مِن تحقيقِ تُراثِ الشَّيخِ السُّهْرَوَرْدِيِّ ؛ فهو يستحقُّ ذٰلك ، بل أكثرَ منه .

ولقد تَفاوتَ تراثُ الشَّيخِ في هٰذا المجالِ مِن رَسائلَ قصيرةٍ لا تَزيدُ علىٰ أَربَعِ صَفَحاتٍ يُوَجِّهُها الشَّيخُ لأشخاصٍ مُعيَّنِينَ ، أو لمُريدِيه بصفةٍ عامَّةٍ . . إلىٰ كُتُبٍ كاملةٍ تربو على المِئَتي صفحة ؛ مِثل « إدالة العِيانِ » .

وقد آثرتُ أن أُحقِّقَ هٰذا الكتابَ وأمثالَه ضمنَ رسائلِ الشَّيخِ ؛ جمعاً لِما أَمكَنَ مِن تُراثِ الشَّيخِ السُّهرَورديِّ ، وَلِيَقِفَ القارئُ علىٰ فِكرِه متكاملاً قدرَ الإمكانِ .

ولا يَخفىٰ على الباحِثِينَ والمُحقِّقين جُهدُ المُقابَلةِ بين النُّسَخِ ، بل حتَّىٰ في النُّسخةِ الواحدةِ ؛ مِن عَدَمِ وُضوحِ النَّصِّ أحياناً ، ومِن طَمسٍ لبعضِ الجُمَلِ ، وعَدَمِ وُضوحِ بعضِ الكلماتِ ، وتصحيفِ البعضِ ؛ وذٰلك بِحَسَبِ النَّاسخِ الَّذي

قد يكونُ مِن أصلٍ غيرِ عربيّ ، إضافةً إلىٰ عَدَمِ ذِكرِ تاريخِ النَّسخِ في كثيرٍ مِن المخطوطاتِ ، والالتباسِ الَّذي يَحدُثُ في بعضِ النُّسَخِ الَّتي تُنسَبُ إلىٰ عالِمٍ ، وهي في الحقيقةِ لعالِمٍ آخَرَ .

ومِثالُ ذٰلك : رسالتانِ وَجَدتُهما ضِمنَ فهارسِ المخطوطاتِ الَّتي تُنسَبُ إلى الشَّيخِ السُّهْرَوَرديّ صاحبِ « العوارفِ » ، وحِينَما رَاجَعتُها وطَبَعتُها . . اتَّضَح لي مِن أُسلوبِها وموضوعاتِها أنَّها للشَّيخِ السُّهْرَوَرْدِيّ المقتولِ ؛ وهما :

١ ـ رسالةُ : « تقسيمُ الموجوداتِ » ، وعددُ صفحاتِها : ستُّ صَفَحاتٍ .

٢ ـ رسالةُ : « الغُربةُ الغريبةُ » ، وعددُ صفحاتِها : خمسَ عَشْرَةَ صَفحةً .

فَأَخرَجتُهما مِن تلك المجموعةِ الَّتي أُقَدِّمُ لها .

ولا شكَّ في أنَّ هٰذا المجموعَ مِن مؤلَّفاتِ السُّهْرَوَرْدِيّ يُعَدُّ أساساً ورَكِيزةً في التَّعرُّفِ علىٰ مَنهجِهِ الصُّوفيّ ، وطريقتِه المُسمَّاةِ : السُّهْرَوَرْدِيَّة ، هٰذا المنهجُ القائمُ على الاعتدالِ والوسَطيَّةِ ، والتَّعلُّقِ باللهِ تعالىٰ ، والزُّهدِ في مَتاعِ الحياةِ الدُّنيا الزَّائلةِ ، وهو في كلِّ ذٰلك يَرسُمُ لأصحابه وتلامذتِهِ الصُّورةَ الحقَّةَ لِعَلاقةِ الإنسانِ باللهِ تعالىٰ ، تلك العَلاقةُ الَّتي يُؤكِّدُها بكلامِ اللهِ تعالىٰ مِن خلالِ الاستشهادِ بآياتِه العظيمةِ ، وبكلامِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِن خلالِ الاستشهادِ بأحاديثِهِ والمرويَّاتِ عنه .

وقد عُرِفَ تَصوُّفُ السُّهْرَوَرْدِيّ مِن خلالِ ذٰلك المنهجِ بما يُسمَّىٰ بالتَّصوُّفِ السُّنِّيّ القائمِ على الكتابِ والسُّنَّةِ ، حتَّىٰ إنَّ المُطالِعَ لِكُتُبِه يَحسِبُهُ أَحَدَ المحدِّثِينَ أوِ المفسِّرينَ .

ولم يَفُتْهُ أن يُوصِيَ أَتباعَهُ بعدمِ اتِّباعِ الفلاسفةِ في طريقِهم وأدواتِهم للوُصولِ إلى المعرفةِ ، وقد أَلَّفَ في ذٰلك : « كَشف الفضائحِ اليُونانيَّة ورَشف النَّصائحِ الإيمانيَّة » ، وكذٰلك : « إدالة العِيانِ على البُرهانِ » ، و« كشف الغِطاء

لإخوانِ الصَّفاء » ، وفي كلِّ ذٰلك لا يَكُفُّ عن دَعوةِ مُريديهِ وتَلامِذتِه إلىٰ تَركِ الاعتمادِ في المعرفةِ على البُرهانِ والدَّليلِ ، والاعتمادِ على النَّصِّ قُرآناً وسُنَّةً .

وبعـد :

فإن أكُن وُفِّقتُ فيما قصدتُ إليه من بيانِ تَصوُّفِ هٰذا الشَّيخِ الجليلِ . . فذٰلك مِن اللهِ وبفضلِ توفيقِه ، وإن يكُن غيرُ ذٰلك . . فيَكفي أنَّني بذلتُ جُهدي وطاقتي ما استطعتُ ، وما توفيقي إلَّا باللهِ .

عائشة يوسف المناعي
الدوحة ـ قطر

(١٧) جمادى الآخرة (١٤٣٨هـ)
(١٦) مارس/آذار (٢٠١٧م)

المدخل
إلى كتب شهاب الدّين السّهروردي ورسائله

وفيه :

أ ـ ترجمةُ السُّهْرَوَرْدِيّ .

ب ـ كُتُبُه ورسائلُه في « المجموعِ » الذي نُقدِّم له .

ج ـ سِيرتي في قراءةِ كتبِ ورسائلِ الإمامِ السُّهْرَوَرْدِيّ والتَّعليقِ عليها .

أ ـ ترجمة السهرورديّ[1]
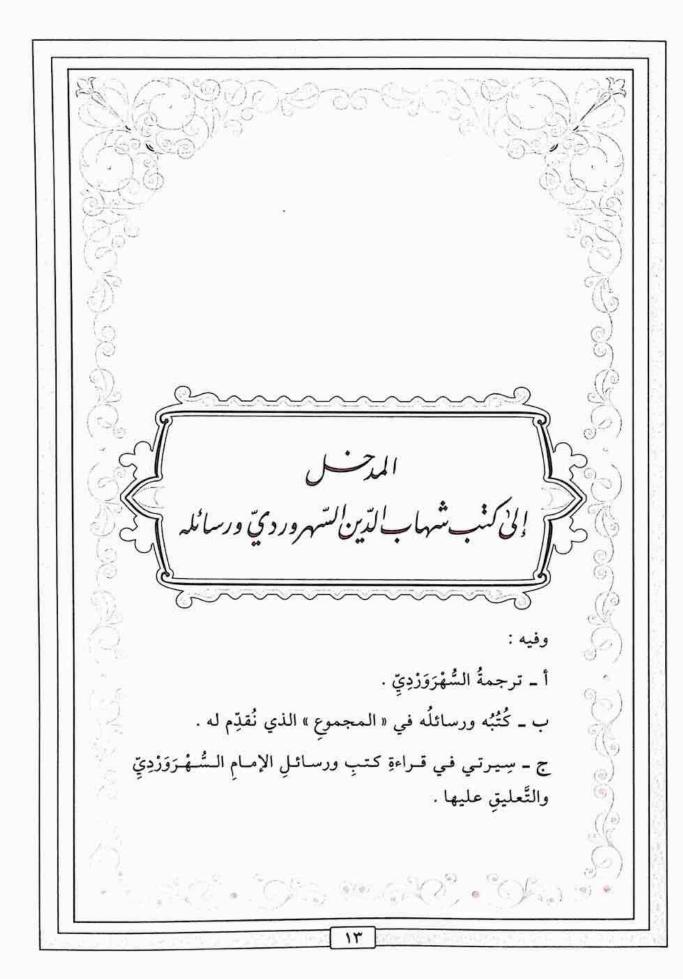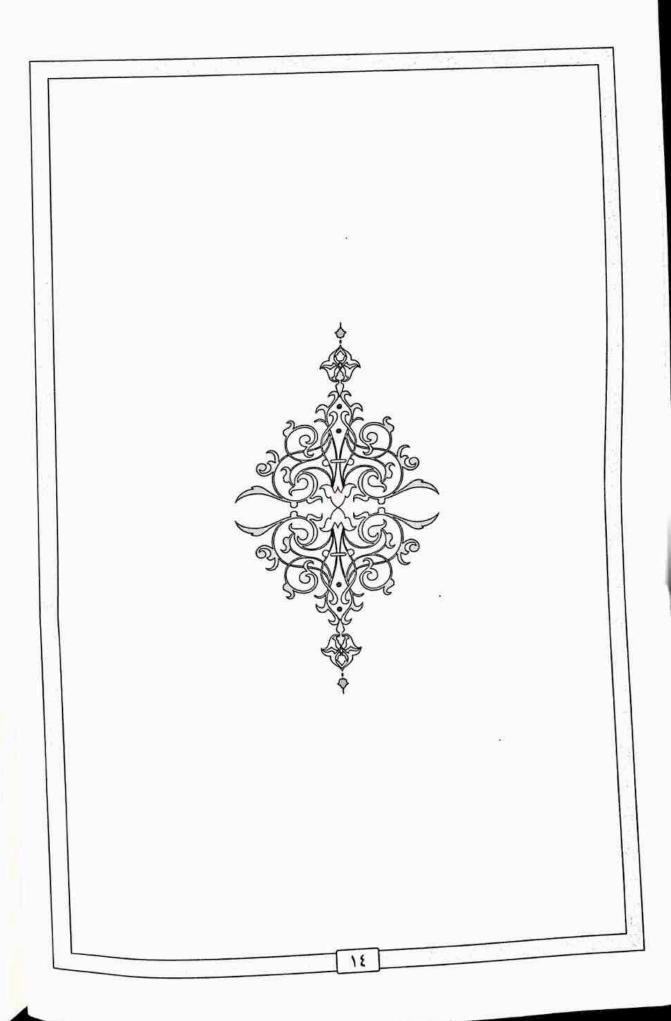
أولاً : اسمُ السُّهْرَوَرْديّ ولقبُه ونَسَبُه :

اتَّفَق جميعُ مَن تَرجَمَهُ على اسمِه ونَسَبِه ولَقَبِه ؛ فهو : عمرُ بنُ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عَمُّوَيْه ـ واسمُه عبدُ اللهِ ـ ابنِ سعدِ بنِ الحسينِ بنِ القاسمِ بنِ عَلقمةَ بنِ النَّضرِ بنِ مُعاذِ بنِ عبدِ الرَّحمٰنِ بنِ القاسمِ بنِ محمدِ بنِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه ، شهابُ الدِّينِ ، القُرَشيُّ التَّيْميُّ البَكْريُّ السُّهْرَوَرْديُّ[2] .

واختَلَفُوا في كُنيتِه ؛ فقيلَ : أبو حفصٍ ، وقيلَ : أبو النَّصرِ ، وقيلَ : أبو القاسمِ[3] ، وقيلَ : أبو عبدِ اللهِ[4] ، وأشهرُ هٰذه الكُنىٰ بعدَ تقليبِ النَّظرِ في مصادرِ ترجمتِه : أبو حفصٍ ، ولٰكن قال ابنُ المُستَوفي : (وأبو نصرٍ أَكثَرُ)[5] .

ثانياً : أُسرةُ السُّهْرَوَرْديّ :

يَنتسِبُ أبو حفصٍ السُّهرورديُّ إلىٰ أسرةٍ معروفةٍ بالعلمِ والزُّهدِ ؛ فأبوه أبو جعفرٍ محمدٌ كان فقيهاً واعظاً ، معروفاً بالدِّيانةِ والصَّلاحِ والوَرَعِ ، وتذكُرُ

---

(١) ينظر ما كتبناه عنه رحمهُ اللهُ في ترجمته في البابِ الأوَّلِ مِن رسالتي للماجستير : « أبو حفص عمر السُّهرورديُّ : حياتُه وتصوُّفُه » (٥١ ـ ٨٤) ، وقد طُبِعَت بدار الثَّقافةِ بالدَّوحةِ سنةَ : (١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م) .

(٢) ينظر « مشيخة السهرورديّ » (ص ٦٠) ، وفيه ساق الشيخُ السُّهرورديُّ نَسَبَ عمِّه ضياء الدين إلىٰ أبي بكرٍ رضي الله عنه ، وينظر أيضاً « وفياتُ الأعيانِ » لابن خِلِّكان (٤٤٦/٣) .

(٣) يُنظر « تاريخ الإسلام » للذَّهبيِّ (٧٨/١٤) ، و« طبقات الشَّافعيَّة الكبرىٰ » لابن السُّبكيِّ (٣٣٨/٨) .

(٤) يُنظر مثلاً « التكملة لوَفَيَات النَّقَلة » للمنذريّ (٣٨٠/٣) ، و« تهذيب الكمال » للمِزّي (٥٥٥/١٢) .

(٥) يُنظر « تاريخ إربِل » (١٩٢/١) .

بعضُ المَصادرِ أنَّهُ كانَ يَخدُمُ الشَّيخَ عبدَ القادرِ الجيلانيَّ ، فدعا له الشَّيخُ بأن يَرزُقَهُ اللهُ الولدَ ؛ فرُزِقَ بالشَّيخِ شهابِ الدِّينِ ، فحُمِلَ بعد ولادتِه إلى الشَّيخِ عبدِ القادرِ ، فدعا له بطُولِ العُمُرِ ، وقالَ : (سمَّيْناهُ بشهابِ الدِّينِ عُمَرَ ، وسيكونُ له الرُّتبةُ العاليةُ بينَ الأولياءِ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ)[١] .

قَدِمَ أبوه بغدادَ ، وتفقَّهَ علىٰ أَسعَدَ الميهنيِّ ، وتولَّىٰ قضاءَ سُهرَوردَ ، ودرَّسَ بالنِّظاميَّةِ ، وقُتِلَ بسُهرَوردَ في فتنةٍ وَقَعَت ، وكان عُمُرُ الشَّيخِ شهابِ الدِّينِ حينَ وفاتِه ستَّةَ أَشهُرٍ ، وذٰلك سنةَ (٥٣٩ هـ)[٢] ، ثمَّ كَفَلَهُ عمُّه الشَّيخُ الإمامُ الصَّالحُ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهرِ ، وعنه أخَذَ التَّصوُّفَ والوعظَ .

ففي هٰذا الجوِّ المُفعَمِ بالزُّهدِ والوَرَعِ وأخلاقِ أهلِ التَّصوُّفِ وُلِدَ السُّهرورديُّ .

ثالثاً : مولدُ السُّهْرَوَرْديِّ :

أمَّا عن تاريخِ مولدِه : فقد وُلِدَ سنةَ (٥٣٩ هـ) باتِّفاقِ مَن تَرجَمَهُ ، وأخبرَ هو بهٰذا عن نفسِه ؛ فقد قال ياقوتُ الحَمَويُّ : (وقد سُئِلَ الشِّهابُ عن مولدِه ، فقال : في سنةِ ٥٣٩)[٣] ، وذٰلك في أواخرِ رَجَبٍ أو أوائلِ شعبانَ ، والشَّكُّ منه كما يقولُ الدَّاووديُّ[٤] .

وأمَّا عن مكانِ مَولدِه : فهو بلدةُ « سُهْرَوَرْد » ، بضمِّ السِّينِ المهملةِ وإسكانِ الهاءِ ، وبعدها راءٌ مهملةٌ مفتوحةٌ وواوٌ مفتوحةٌ ، ثمَّ راءٌ مهملةٌ ودالٌ مهملةٌ[٥] ؛ وهي بلدةٌ قريبةٌ مِن زَنْجانَ ، يُنسَبُ إليها جماعةٌ من العلماءِ والصَّالحين[٦] ،

---

(١) تُنظر هٰذه الواقعة في « تِبيان وسائل الحقائق في بيان سلاسل الطَّرائق » لكمال الدِّين الحريريِّ (ل/١٥٠) مخطوط بمعهد المخطوطات العربيَّة .

(٢) يُنظر « تاريخ الإسلام » (١٤/٧٨) ، ولأبيه ترجمةٌ موجزةٌ في : « طبقات الشَّافعيَّة الكبرىٰ » لابن السُّبكيِّ (٦/١٢٢) .

(٣) يُنظر « معجم البلدان » (٣/٢٩٠) .

(٤) يُنظر « طبقات المفسِّرين » (٢/١٣) .

(٥) يُنظر « وَفَيَات الأعيان » (٣/٢٠٥) .

(٦) يُنظر « مُعجم البُلدان » (٣/٢٨٩) .

وتقعُ اليومَ في إيرانَ ، ثمَّ انتقلَ إلىٰ بغدادَ وهو صغيرٌ ، وبها تَلقَّى العلمَ والتَّصوُّفَ .

رابعاً : شيوخُه :

سَمِعَ السُّهرورديُّ الحديثَ ، وقرأَ الخلافَ والعربيَّةَ والأدبَ ، وتلقَّى التَّصوُّفَ والوعظَ عن غيرِ واحدٍ مِن أهلِ العلمِ ، وقد انتهَت إلينا « مَشْيَخةُ السُّهْرَوَرْديّ » ، وفيها جملةٌ مِن شيوخِه الَّذي سَمِعَ منهم [١] ؛ ومن هٰؤلاءِ :

١ ـ عمُّه الشَّيخُ الزَّاهدُ ضياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهرِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ (ت ٥٦٣ هـ) ، وهو الَّذي كَفَلَ السُّهرورديَّ بعدَ وفاةِ أبيهِ ، ولقَّنَهُ الوَعظَ ، وأَلبَسَهُ خِرْقةَ التَّصوُّفِ ، وأَسمَعَهُ الحديثَ [٢] .

٢ ـ الشَّيخُ الإمامُ العارفُ القدوةُ مُحيي الدِّينِ أبو محمَّدٍ عبدُ القادرِ بنُ عبدِ اللهِ الجيلانيُّ (ت ٥٦١ هـ) [٣] ، وقد قدَّمْنا حكايةَ دعائه للشَّيخِ السُّهرورديِّ وهو رضيعٌ ، وقال الذَّهبيُّ عن السُّهرورديِّ : (وصَحِبَ قليلاً الشَّيخَ عبدَ القادرِ) [٤] .

٣ ـ الشَّيخُ أبو المظفَّرِ هبةُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ محمَّدٍ الشِّبليُّ (ت ٥٥٧ هـ) [٥] .

---

(١) و« المَشْيَخات » عند المصنِّفين في الحديثِ : كُتُبٌ يَجمَعُ فيها مؤلِّفوها الأحاديثَ مُسنَدةً مرتَّبةً علىٰ أسماءِ الشيوخِ الذين لَقُوهم وسَمِعوا منهم أو أجازوهم ، وقد يَذكُرون معها بعضَ الفوائدِ المتعلقةِ بأحوالِ الشيوخِ ، وزمانِ التلقِّي والسماعِ ومكانِه ، وهٰذه الأحاديثُ قد يَجمَعُها الشَّيخُ نفسُه صاحبُ « المشيخةِ » ، وقد يجمعُها تلاميذُه والآخِذون عنه .
يُنظر « الرِّسالةُ المُسْتَطرَفةُ لبيان مشهور كُتُبِ السُّنَّةِ المُشرَّفة » لمحمد بن جعفر الكَتَّانيّ (ص ٩٤) .

(٢) ينظر « مشيخة السُّهرورديّ » (ص ٦٠) ، وتُنظر ترجمةُ عمِّه في « تاريخ إربل » لابن المستوفي (١٠٧/١) ، و« وَفَيَات الأعيان » (٢٠٤/٣) ، و« مرآة الجنان » لليافعي (٢٨٠/٣) .

(٣) تُنظر ترجمة الجيلاني في « سِيَر أعلام النبلاء » (٤٣٩/٢٠) ، و« فَوَات الوَفَيَات » (٣٧٣/٢) ، وليست للشيخ الجيلاني أحاديثُ في « مشيخة السُّهرورديّ » .

(٤) يُنظر « سير أعلام النبلاء » (٣٧٤/٢٢) .

(٥) يُنظر « مشيخة السُّهرورديّ » (ص ٦٣) ، و« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدُّبَيثيّ » للذَّهبيّ (٣٦٣/١٥) .

٤ ـ الشَّيخُ أبو الفتحِ ابنُ البَطِّي محمَّدُ بنُ عبدِ الباقي بنِ أحمدَ بنِ سَلمانَ البغداديُّ (ت ٥٦٤ هـ)[١] .

٥ ـ القاضي أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ البيضاويُّ (ت ٥٥٨ هـ)[٢] .

٦ ـ الشَّيخُ أبو بكرٍ أحمدُ بنُ المُقرِّبِ بن الحسينِ الكَرخيُّ (ت ٥٦٣ هـ)[٣] .

٧ ـ الشَّيخُ أبو القاسمِ يحيى بنُ ثابتِ بنِ بُندارِ بنِ إبراهيمَ البقالُ (ت ٥٦٦ هـ)[٤] .

٨ ـ الشَّيخُ أبو محمَّدِ بنُ أبي الفوارسِ ، عبدُ اللهِ بنُ منصورِ بنِ هبةِ اللهِ الموصليُّ (ت ٥٦٧ هـ)[٥] .

٩ ـ أبو المعمر الوزَّانُ ، عبدُ اللهِ بنُ سعدِ بنِ الحسينِ بن الهاطِرَا الأزجيُّ ، ويُعرَفُ بـ « خُزَيْفة » ، بخاءٍ معجمةٍ ، وزايٍ بدَلَ الذَّالِ[٦] (ت ٥٦٠ هـ)[٧] .

---

(١) يُنظر « مشيخة السُّهرورديّ » (ص ٦٧) ، و« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدُّبَيثيّ » (١٥/٤٣) .

(٢) يُنظر « مشيخة السُّهرورديّ » (ص ٧٦) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبيّ (١٢/١٥٢) .

(٣) يُنظر « مشيخة السُّهرورديّ » (ص ٧٩) ، و« سير أعلام النبلاء » (٢٠/٤٧٣) .

(٤) يُنظر « مشيخة السُّهرورديّ » (ص ٨٢) ، و« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدُّبَيثيّ » (١٥/٣٧٨) .

(٥) ينظر « مشيخة السُّهرورديّ » (ص ٨٤) ، و« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدُّبَيثيّ » (١٥/٢٢٥) .

(٦) يُنظر في ضبطه « تبصير المُنتبِه » لابن حجر (١/٤٢١) .

(٧) يُنظر « مشيخة السُّهرورديّ » (ص ٨٨) ، و« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدُّبَيثيّ » (١٥/٢١٥) ، و« تاريخ الإسلام » (١٢/١٦٩) ، ووقع في المشيخة المذكورة : « الحسن » بدل « الحسين » ، وهو تحريف .

١٠ ـ الشَّيخُ أبو بكرٍ التاجرُ ، سلامةُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ المَلِكِ بنِ الصَّدرِ البغداديُّ (ت ٥٥٨ هـ) [١] .

١١ ـ الشَّيخُ أبو الحجَّاجِ التَّنُوخيُّ ، يوسفُ بنُ محمَّدِ بنِ مُقلدٍ الدِّمَشقيُّ ، المعروفُ بابنِ الجماهريِّ ، وتكنَّىٰ بعدُ أبا الفتحِ ، ويُعرَفُ بابنِ بنتِ الدَّوانيقيِّ (ت ٥٥٨ هـ) [٢] .

١٢ ـ القاضي أبو الرَّشيدِ أحمدُ بنُ محمَّدِ بنِ أبي القاسمِ الأَبهَريُّ الخَفِيفيُّ (ت ٥٧٧ هـ) [٣] .

١٣ ـ القاضي أبو المُرَجَّىٰ سالمُ بنُ عبدِ السَّلامِ بنِ عُلوانَ البوازيجيُّ ، المعروفُ بابنِ الرَّبعِ (ت ٥٨٢ هـ) [٤] .

١٤ ـ أبو القاسمِ عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ بنِ محمَّدٍ ، المعروفُ بابنِ الظَّرِيفِ البَلخيِّ ، لم يُعلم تاريخُ وفاتِه ، ولٰكن سَمِعَ منه السُّهرورديُّ سنةَ (٥٦٠ هـ) [٥] .

١٥ ـ أبو أحمدَ مَعمَرُ بنُ عبدِ الواحدِ بنِ الفاخرِ القُرَشيُّ ثمَّ الأصفهانيُّ (ت ٥٦٤ هـ) [٦] .

---

(١) يُنظر « مشيخة السُّهرورديِّ » (ص ٩٠) ، و« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدُّبَيثيِّ » (١٩٦/١٥) ، و« تاريخ الإسلام » (١٣٧/١٢) .

(٢) يُنظر « مشيخة السُّهرورديِّ » (ص ٩٣) ، و« تاريخ دِمَشق » (٢٢٥/٧٤) ، و« تاريخ الإسلام » (١٥٥/١٢) ، وفيه : (المعروفُ بابنِ الدَّوانيقيِّ) .

(٣) يُنظر « مشيخة السُّهرورديِّ » (ص ٩٦) ، و« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدُّبَيثيِّ » (١١٩/١٥) ، و« تاريخ الإسلام » (٥٩٥/١٢) .

(٤) يُنظر « مشيخة السُّهرورديِّ » (ص ٩٩) ، و« الوافي بالوَفَيَاتِ » للصَّفَديِّ (٥٢/١٥) .

(٥) يُنظر « مشيخة السُّهرورديِّ » (ص ١٠٢) ، و« إكمال الإكمال » لابن نُقطةَ (٧٢/٤) ، و« الوافي بالوَفَيات » (٢٠٣/١٧) .

(٦) يُنظر « مشيخة السُّهرورديِّ » (ص ١٠٤) ، و« المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدُّبَيثيِّ » (٣٤٩/١٥) ، و« مُعجَم ابنِ عساكرَ » (١١٤٧/٢) ، وكَنَاهُ من تَرجَمَهُ بأبي أحمد ، وكُنِيَ في مشيخة السُّهرورديِّ بأبي محمدٍ .

١٦ ـ بشارةُ بنتُ الرَّئيسِ أبي السَّعاداتِ مسعودِ بنِ موهوبٍ ، ولم نَقف لها علىٰ تاريخِ وفاةٍ ، وسماعُ السُّهرورديِّ منها كان سنةَ (٥٥٦ هـ) [١] .

وغيرُهم مِن الشُّيوخِ كثيرٌ [٢] .

خامساً : تلاميذُه :

تَتلمَذَ للسُّهرورديِّ العديدُ مِن أكابرِ أهلِ العلمِ في زمانِه ، وكان الطُّلَّابُ يَقصِدُونه مِن النَّواحي والأقطارِ ؛ لِيَسمعوا منه الحديثَ ، وينتفعوا بوعظِه ، ويتلَقَّوا عنه التصوُّفَ [٣] ، وفيما يَلي ذِكرُ أشهرِ مَن أَخَذَ عنه :

١ ـ الإمامُ الحافظُ أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ عبد الغنيِّ البغداديُّ الحنبليُّ ، المعروفُ بابنِ نُقْطةَ (ت ٦٢٩ هـ) صاحبُ « التَّقييدُ لمعرفةِ رُواةِ السُّنَنِ والمسانيدِ » [٤] .

٢ ـ الإمامُ الحافظُ أبو عبدِ اللهِ ضياءُ الدِّينِ محمدُ بنُ عبد الواحدِ ، المَقدِسيُّ الجَمَّاعيليُّ ثمَّ الدِّمَشقيُّ الحنبليُّ (ت ٦٤٣ هـ) ، صاحبُ كتابِ « الأحاديثِ المُختارةِ » وغيرِه [٥] .

٣ ـ الإمامُ الحافظُ المؤرِّخُ أبو عبدِ اللهِ محبُّ الدِّينِ محمَّدُ بنُ محمودِ بنِ الحسنِ البغداديُّ ، المعروف بابنِ النَّجَّارِ (ت ٦٤٣ هـ) ، صاحبُ التَّصانيفِ البديعةِ في التَّاريخِ وغيرِه [٦] .

---

(١) يُنظر « مشيخة السُّهرورديِّ » (ص ١٠٤) ، و« إكمال الإكمال » (٢٦٨/٣) .

(٢) يُنظر « التَّقييد » لابن نُقطةَ رقم (٥٢٥) ، و« التَّكملة » للمُنذريِّ (٣٨٠/٣) .

(٣) يُنظر « تاريخ دُنَيْسَر » لابن اللمش رقم (٤٠) .

(٤) يُنظر « تَذكِرة الحفَّاظ » للذهبيِّ (١٣٨/٤) ، و« التَّقييد لمعرفة رُواة السُّنَن والمسانيد » لابن نُقطةَ رقم (٥٢٥) ، وفيه : أنه سمع من السُّهرورديِّ « سننَ ابن ماجه » .

(٥) يُنظر « سير أعلام النبلاء » (١٢٦/٢٣) .

(٦) يُنظر « سير أعلام النبلاء » (١٣١/٢٣) ، و« ذيل تاريخ بغداد » لابن النَّجَّارِ (١١١/٢٠) ، وفيه يقول عن شيخه السُّهرورديِّ : (كتبتُ عنه وقرأتُ عليه كثيراً ، وصَحِبتُه مدةً) .

٤ ـ الإمامُ الحافظُ أبو محمَّدٍ زكيُّ الدِّينِ عبدُ العظيمِ بنُ عبدِ القويّ بنِ عبدِ اللهِ المنذريُّ (ت ٦٥٦ هـ) ، صاحبُ « التَّرغيب والتَّرهيب » و« تهذيب سُنَن أبي داوود » ، وغيرِهما من المؤلَّفاتِ النَّافعةِ[١] .

وغيرُهم مِن أفاضلِ العلماءِ[٢] .

سادساً : صفاتُه وأخلاقُه :

أَجمَعَ الذين ترجموا للشَّيخِ شهابِ الدِّينِ السُّهرورديّ رضيَ اللهُ عنه ـ سواءٌ أكانوا ممَّن رآهُ وأخَذَ عنه ، أم كانوا مِن غيرِهم ـ أنَّهُ كان زاهداً ، صالحاً ، وَرِعاً ، تقيّاً ، مُقبِلاً على العبادةِ والذِّكرِ والأورادِ ، مُلازِماً لقراءةِ القرآنِ ، فقيهاً شافعيّاً ، جواداً سخيّاً ، كريمَ النَّفسِ ، طيِّبَ الأخلاقِ ، حُلوَ المُعاشَرةِ ، متواضعاً ، ليِّنَ الجانبِ ، قالوا هٰذا ولا عَجَبَ ؛ فقد تَربَّىٰ في بيتِ الزُّهدِ والوَرَعِ ، رَحِمَهُ الله تعالىٰ ورضيَ عنه .

قال تلميذُه ابن نُقطةَ (ت ٦٢٩ هـ) في « التَّقييدِ » : (كان شيخَ العراقِ في وقتِه ، صاحبَ مجاهدةٍ وإيثارٍ وطريقةٍ حميدةٍ)[٣] .

وقال في « إكمال الإكمال » : (لازَمَ الخَلوةَ والمجاهدةَ حتَّىٰ صارَ شيخَ العراقِ في وقتِه ، يَرجِعُ إلىٰ فضلٍ وإيثارٍ ومُروَّةٍ تامَّةٍ ، وأورادٍ دائمةٍ علىٰ كِبَرِ سِنِّه ، ووعَظَ النَّاسَ مدَّةً ببغدادَ وغيرِها ، فما أُخِذَ عليه شيءٌ ممَّا يُكرَهُ مِن قولٍ ولا حركةٍ)[٤] .

---

(١) يُنظر « سير أعلام النبلاء » (٣١٩/٢٣) ، و« التَّكملة لوَفَيَاتِ النَّقَلة » للمنذريّ (٣٨٠/٣) ، وفيه يقولُ عن شيخِه السُّهرورديّ : (ولنا منه إجازةٌ كَتَبها إلينا غيرَ مَرَّةٍ) .

(٢) ذكر الذهبيُّ جملةً ممَّن سَمِع منه في « سير أعلام النبلاء » (٣٧٤/٢٢) ، وفي « تاريخ الإسلام » (٧٨/١٤) .

(٣) يُنظر « التَّقييد » رقم (٥٢٥) .

(٤) يُنظر « إكمال الإكمال » (٥٥٦/٣) .

ويقول تلميذُه ابنُ النَّجَّارِ (ت ٦٤٣ هـ) : (كان شيخَ وقتِه في علمِ الحقيقةِ وطريقِ التَّصوُّفِ ، وإليه انتهتِ الرِّئاسةُ في تربيةِ المُريدِينَ ، ودعاءِ الخَلقِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وسُلوكِ طريقِ العبادةِ والزُّهدِ في الدُّنيا . . . ، وكان مليحَ الخلقِ ، متواضعاً ، كاملَ الأوصافِ الجميلةِ ، والأخلاقِ الشَّريفةِ)[١] .

وقال تلميذُه المنذريُّ (ت ٦٥٦ هـ) : (كان شيخَ وقتِه في الطَّريقةِ وتربيةِ المُريدين ، ودعاءِ الخلقِ إلى اللهِ تبارك وتعالىٰ ، وكان مع عُلُوِّ سِنِّه كثيرَ العَبادةِ)[٢] .

هٰذه أقوالُ طلَّابِه الذين جالَسُوه وأَخَذوا عنه ، وأفضلُ مَن يَخبُرُ أحوالَ الرَّجُلِ جُلساؤُه وخاصَّتُه .

وقال الإمامُ الحافظُ الناقدُ شمسُ الدِّينِ الذهبيُّ (ت ٧٤٨ هـ) : (الشَّيخُ ، الإمامُ ، العالمُ ، القدوةُ ، الزَّاهدُ ، العارفُ ، المُحدِّثُ ، شيخُ الإسلامِ ، أوحدُ الصُّوفيَّةِ . . .)[٣] .

سابعاً : وفاتُه :

تُوُفِّيَ الشَّيخُ شهابُ الدِّينِ السُّهرورديُّ في أوَّلِ ليلةٍ مِن سنةِ (٦٣٢ هـ) في قولِ الأكثرين[٤] ببغدادَ ، وفيها دُفِنَ ، رحمهُ اللهُ تعالىٰ ورضيَ عنه[٥] .

* * *

---

(١) يُنظر « ذيل تاريخ بغداد » لابن النجار (٢٠/١١١) .

(٢) يُنظر « التَّكملة » (٣/٣٨٠) .

(٣) يُنظر « سِيَر أعلام النُّبَلاء » (٢٢/٣٧٤) .

(٤) يُنظر « وَفَيات الأعيان » (٣/٤٤٨) ، و« سِيَر أعلام النُّبَلاء » (٢٢/٣٧٧) ، وفي « أبو حفص عمر السُّهرورديّ ؛ حياتُه وتصوُّفُه » (ص ٦٠) مناقشةٌ للآراءِ الأخرىٰ في تاريخِ وفاتِه .

(٥) ذَكَر الدكتور عامر صبري في مقدِّمةِ تحقيقِه لـ « مَشْيَخةِ السُّهرورديّ » (ص ٢٣) تفاصيلَ مفيدةً عن موضعِ قبرِ السهرورديّ ، فلتُنظَر .

ب ـ كتبه ورسائله في « المجموع » الذي نقدّم له[1]

تَحصَّلَت لَدَينا عدَّةُ كُتُبٍ ورسائلَ للشَّيخِ السُّهرورديِّ وَقَفنا عليها أثناءَ الكتابةِ عن حياتِه وتَصوُّفِه ، وهي متنوِّعةٌ في أبوابِها وموضوعاتِها ؛ فمنها ما هو في آدابِ التَّصوُّفِ والتَّزكيةِ ، ومنها ما يتناولُ مصطلحاتِ التَّصوُّفِ ، ومنها ما هو في العقائدِ ، ومنها ما يَتعلَّقُ بشرحِ أسماءِ اللهِ تعالىٰ ، ومنها أسئلةٌ وُجِّهَت إليه فأجابَ عنها ، ومنها رسائلُ وَجَّهَها إلىٰ بعضِ أهلِ العلمِ في زَمنِه ، ومنها ما يتعلَّقُ بأدبِ الوصايا ، وهي ـ علىٰ حَسَبِ التَّرتيبِ الَّذي رَتَّبناهُ عليه في المجموعِ ـ كما يلي :

١ ـ « أعلامُ الهُدىٰ وعقيدةُ أربابِ التُّقىٰ » .

٢ ـ « إرشادُ المُريدين وإنجاد الطَّالبين » .

٣ ـ « إدالةُ العِيَان على البُرْهانِ » .

٤ ـ « أسئلة سئل عنها السهروردي شهاب الدين وأجوبة عليها وجمل من كلامه ووصاياه » .

٥ ـ « زادُ المسافرِ وأدبُ الحاضرِ » .

٦ ـ « جذبُ القلوب إلىٰ مُواصلةِ المحبوبِ » .

٧ ـ « الرَّحيقُ المختومُ » .

٨ ـ « رسالةُ في الإرادةِ » .

---

(١) وقد ذكرتُ في أُطروحَتي للماجستيرِ « أبو حفصٍ عُمَر السُّهرورديُّ ؛ حياتُه وتصوُّفُه » (ص ٦٣ ـ ٨٤) ما استطعتُ أن أقفَ عليه مِن مؤلَّفاته المطبوعةِ والمخطوطةِ ؛ فقد ذَكَرَ العلماءُ في ترجمتِه ، وذَكَرَ أصحابُ فهارسِ المخطوطاتِ : أنَّ له مؤلفاتٍ كثيرةً ، وبيَّنتُ هناك طبعاتِ المطبوعِ ، وأماكنَ وُجودِ المخطوطِ منها .

٩ ـ « حِليةُ الفقيرِ الصَّادقِ » .

١٠ ـ « رسالةُ الفتوَّةِ » .

١١ ـ « الفتوحاتُ » .

١٢ ـ « الأسماءُ المباركةُ » .

١٣ ـ « رسالةُ السُّهرورديِّ إلى العارفِ باللهِ تعالىٰ عليٍّ الموقانيِّ في الوعظِ » .

١٤ ـ « رسالةُ السُّهرورديِّ إلى الإمامِ فخرِ الدِّينِ الرَّازيِّ » .

١٥ ـ « وصيَّةُ الشَّيخِ شهابِ الدِّينِ عُمَرَ بنِ محمَّدٍ السُّهرورديِّ لولدِه عمادِ الدِّينِ » .

١٦ ـ « سببُ الغمِّ والهمِّ » .

١٧ ـ « رسالةُ السَّيرِ والطَّيرِ » .

١٨ ـ « كشفُ الغِطاءِ لإخوانِ الصَّفاء » .

ج ـ سيرتي في قراءة كتب ورسائل الإمام السّهروردي والتّعليق عليها

عِشتُ مع الشِّهابِ السُّهْرَوَرْدِيّ في هٰذه الكُتبِ والرَّسائلِ وكأَنَّني في رَوضةٍ مِن رِياضِ المعرفةِ ، وكان جُلُّ اعتنائي مُنصَبّاً علىٰ إخراجِها في صُورةٍ مُقاربةٍ لِما تَرَكَها عليه المؤلِّفُ ، والتَّعليقِ عليها بما يُضيءُ النصَّ ، ويُعينُ القارئَ علىٰ تفهُّمِه .

ويُمكنُ تَلخِيصُ سِيرتي في قِراءةِ الكُتبِ والرَّسائلِ في النِّقاطِ التَّالية :

ـ نسختُ النصَّ بالطَّريقةِ الإملائيَّةِ المعاصرةِ ، وحلَّيْتُه بعلاماتِ التَّرقيمِ ، وشَكَّلْتُ منه ما يُشكِلُ ، ووقفتُ عندَ عِباراتِه واصطلاحاتِه وَقَفاتٍ مُتأنِّيةً ، لا سِيّما تلك الَّتي تحتملُ أكثرَ من رَسْمٍ وشَكْلٍ .

ـ أثبتُّ في الأصلِ ما رأيتُه أنسَبَ للسِّياقِ ، وذكرتُ أهمَّ فروقِ النُّسَخِ ، وأشرتُ إلى المُحتمَلِ منها وغيرِ المُحتمَلِ ، وأقمتُ ما اعوجَّت فيه أقلامُ النُّسَّاخِ ؛ فإنَّ بعضَ النُّسخِ المُعتمَدِ عليها مع جودةِ خطِّها إلَّا أنَّ آثارَ العُجمةِ ظاهرةٌ عليها ، حتىٰ كأنَّ النَّاسخَ يرسُمُ الكلماتِ رَسماً ، فاجتهدتُ قَدْرَ طاقتي في إصلاحِ ما وفَّقني اللهُ إليه ، مع الإشارةِ في الهامش إلىٰ بعض ذٰلك .

ـ عزوتُ الآياتِ القرآنيَّةِ بذِكرِ اسمِ السُّورةِ ورَقمِ الآيةِ .

ـ خرَّجتُ الأحاديثَ النَّبويَّةَ مِن مصادرِها مِن كُتبِ السُّنَّةِ المُعتمَدةِ ، وإذا لم أَقِف على الحديثِ في دواوينِ السُّنَّةِ المُعتمدةِ . . اجتهدتُ في عَزوِه إلىٰ أقربِ المصادرِ الَّتي ذَكَرَتهُ ، وأمَّا ما لم أَقِف عليه في المصادرِ المُتاحةِ بين يديَّ . . فاجتهدتُ في ذِكر ما يَشهَدُ لمعناهُ ويُؤيِّدُه ، وربَّما عَزا الحديثَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وهو في الواقِعِ مِن حديثِ غيرِه مِنَ الصَّحابةِ أوِ التَّابعِينَ ، أو عزاهُ إلى الصَّحابيِّ فمن دونه وهو في الواقِعِ مِن حديثِ النَّبيِّ

٩ ـ « حِليةُ الفقيرِ الصَّادقِ » .

١٠ ـ « رسالةُ الفتوَّةِ » .

١١ ـ « الفتوحاتُ » .

١٢ ـ « الأسماءُ المباركةُ » .

١٣ ـ « رسالةُ السُّهرورديِّ إلى العارفِ باللهِ تعالىٰ عليِّ الموقانيِّ في الوعظِ » .

١٤ ـ « رسالةُ السُّهرورديِّ إلى الإمامِ فخرِ الدِّينِ الرَّازيِّ » .

١٥ ـ « وصيَّةُ الشَّيخِ شهابِ الدِّينِ عُمَرَ بنِ محمَّدٍ السُّهرورديِّ لولدِه عمادِ الدِّينِ » .

١٦ ـ « سببُ الغمِّ والهمِّ » .

١٧ ـ « رسالةُ السَّيرِ والطَّيرِ » .

١٨ ـ « كشفُ الغِطاءِ لإخوانِ الصَّفاء » .

* * *

ج ـ سيرتي في قراءة كتب ورسائل الإمام السّهرورديّ والتّعليق عليها

عِشتُ مع الشِّهابِ السُّهْرَوَرْدِيِّ في هٰذه الكُتبِ والرَّسائلِ وكأَنَّني في رَوضةٍ مِن رياضِ المعرفةِ ، وكان جُلُّ اعتنائي مُنصَبّاً علىٰ إخراجِها في صُورةٍ مُقاربةٍ لِما تَرَكَها عليه المؤلِّفُ ، والتَّعليقِ عليها بما يُضيءُ النصَّ ، ويُعينُ القارئَ علىٰ تفهُّمِه .

ويُمكنُ تَلخِيصُ سِيرتي في قِراءةِ الكُتبِ والرَّسائلِ في النِّقاطِ التَّالية :

ـ نسختُ النصَّ بالطَّريقةِ الإملائيَّةِ المعاصرةِ ، وحلَّيْتُه بعلاماتِ التَّرقيمِ ، وشَكَّلْتُ منه ما يُشكِلُ ، ووقفتُ عندَ عِباراتِه واصطلاحاتِه وَقَفاتٍ مُتأنِّيةً ، لا سيّما تلك الَّتي تحتملُ أكثرَ من رَسْمٍ وشَكْلٍ .

ـ أثبتُّ في الأصلِ ما رأيتُه أَنسَبَ للسِّياقِ ، وذكرتُ أهمَّ فروقِ النُّسَخِ ، وأشرتُ إلى المُحتمَلِ منها وغيرِ المُحتمَلِ ، وأقمتُ ما اعوجَّت فيه أقلامُ النُّسَّاخِ ؛ فإنَّ بعضَ النُّسخِ المُعتمَدِ عليها مع جودةِ خطِّها إلَّا أنَّ آثارَ العُجمةِ ظاهرةٌ عليها ، حتىٰ كأنَّ النَّاسخَ يرسُمُ الكلماتِ رَسماً ، فاجتهدتُ قَدْرَ طاقتي في إصلاحِ ما وفَّقني اللهُ إليه ، مع الإشارةِ في الهامش إلىٰ بعض ذٰلك .

ـ عزوتُ الآياتِ القرآنيَّةِ بذِكرِ اسمِ السُّورةِ ورَقمِ الآيةِ .

ـ خرَّجتُ الأحاديثَ النَّبويَّةَ مِن مصادرِها مِن كُتبِ السُّنَّةِ المُعتمَدةِ ، وإذا لم أَقِف على الحديثِ في دواوينِ السُّنَّةِ المُعتمدةِ . . اجتهدتُ في عَزوِه إلىٰ أقربِ المصادرِ الَّتي ذَكَرَتهُ ، وأمَّا ما لم أَقِف عليه في المصادرِ المُتاحةِ بين يديَّ . . فاجتهدتُ في ذِكر ما يَشهَدُ لمعناهُ ويُؤيِّدُه ، وربَّما عَزا الحديثَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ وهو في الواقِعِ مِن حديثِ غيرِه مِنَ الصَّحابةِ أوِ التَّابعِينَ ، أو عزاهُ إلى الصَّحابيِّ فمن دونه وهو في الواقِعِ مِن حديثِ النَّبيِّ

صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ ؛ فبيَّنتُ جميعَ ذٰلك ، وأمَّا الأحاديثُ الَّتي رَواها المؤلِّفُ بإسنادِه . . فاجتهدتُ في تَوثيقِها مِنَ المصادرِ الَّتي رَوَىٰ مِن طريقِها ، واستَعنتُ بذٰلك علىٰ إصلاحِ غَلَطِ النُّسَّاخِ في أسماءِ كثيرٍ مِنَ الرُّواةِ ممَّن وَقَعَت أسماؤُهم مُصحَّفةً ومُحرَّفةً في الأصولِ .

ـ خرَّجتُ الآثارَ ، ووثَّقتُ النُّقولَ من مصادرِها الأصليَّةِ ما أَمْكَن ، وقصدتُ في جميعِ ذٰلك إلىٰ مُقابلةِ نصِّ المؤلِّفِ علىٰ مصادرِه التي استقىٰ منها ، مع الإشارةِ إلىٰ ما قد يُفيدُ القارئَ .

ـ شرحتُ الغريبَ بالرجوعِ إلىٰ معاجِمِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ المُعتمَدةِ ، وعلَّقتُ علىٰ بعضِ المواضعِ بما يُبينُ عن مَقصدِ المؤلِّفِ .

ـ افتتحتُ كلَّ كِتابٍ ورسالةٍ بمُقدِّمةٍ تعريفيةٍ بهما وبموضوعاتهما ، وأَتْبَعْتُ ذٰلك بوصفِ النُّسَخِ الخَطِّيَّةِ المُعتمَدةِ ، وغَيرِها ، وأرفقتُ بين يدي كُلِّ كِتابٍ ورِسالةٍ نَماذِجَ مِن الصُورِ المُتاحةِ مِن المَخْطُوطاتِ المُعتمَدةِ في التَّحقيقِ .

ـ ختمتُ الكُتبَ والرَّسائلَ بكشَّافاتٍ علميَّةٍ مُتنوِّعةٍ ، تُعينُ الباحثَ والقارئَ على الوصولِ إلى الفائدةِ مِن أقصرِ طريقٍ .

هـٰذا ؛ وما أقدِّمه للقارئِ الكريمِ إنما هو جُهْدُ مَن حُمِّل بالكثيرِ مِن الأَعْباءِ ، وأَحاطَتْ به الكَثيرُ مِن المَشاغِلِ ، وإنَّما أردتُّ به خِدمةَ التُّراثِ الإِسْلامِيِّ ، والإِمامِ السُّهْرَوَرْدِيِّ ، والسَّالِكينَ مَسْلَكَهُ .

فاللَّهم ؛ اجعلْ هـٰذا العَمَلَ مَقْبُولاً ، وانفعني به وعبادَك الصَّالحينَ ، وارْضَ اللهم عن الإمامِ السُّهْرَوَرْدِيِّ ، واجْزِه عن الإسلامِ والمُسلمِينَ جَزَاءً حَسَناً بِما قدَّمَ ، واجْمَعْنا به في جَنَّةِ الخُلدِ بصُحبةِ الأنبياءِ والأولياءِ ، آمين .

عائشة المناعي
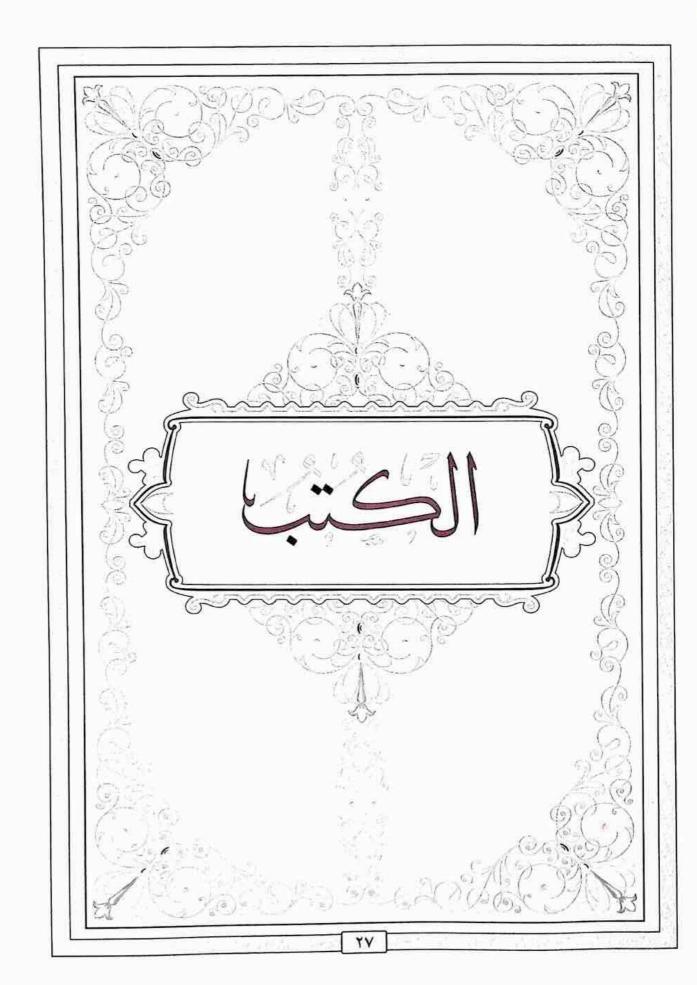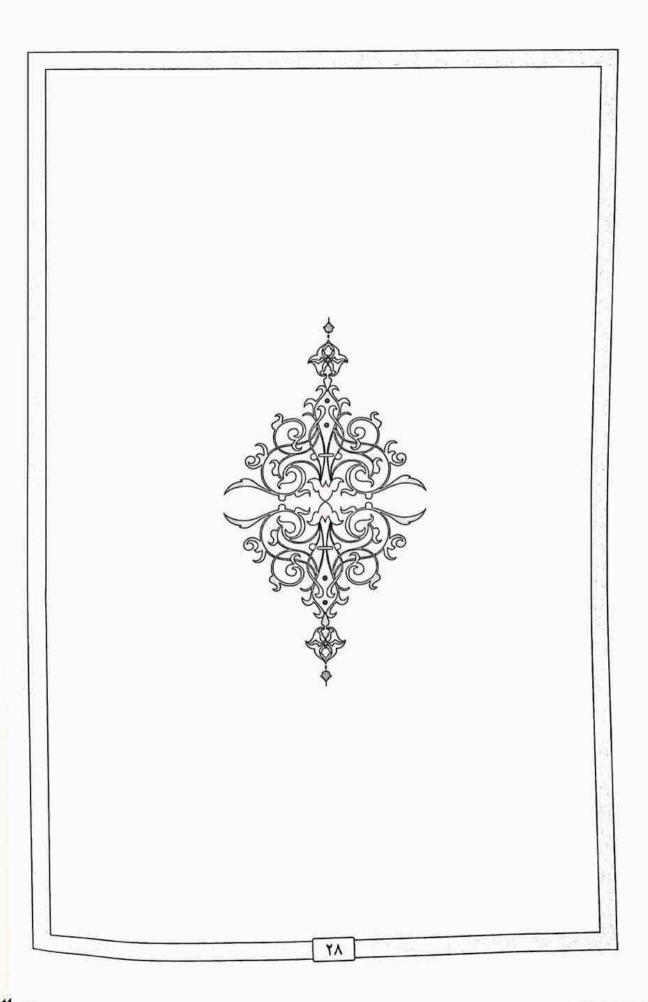
الدوحة قطر

الكتب

من تراث

الإمَامِ أبي حَفْصٍ عُمَر السُّهْرَوَرْدِيِّ

الكتاب الأول

أعلام الهدى

وعقيدة أرباب التقى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
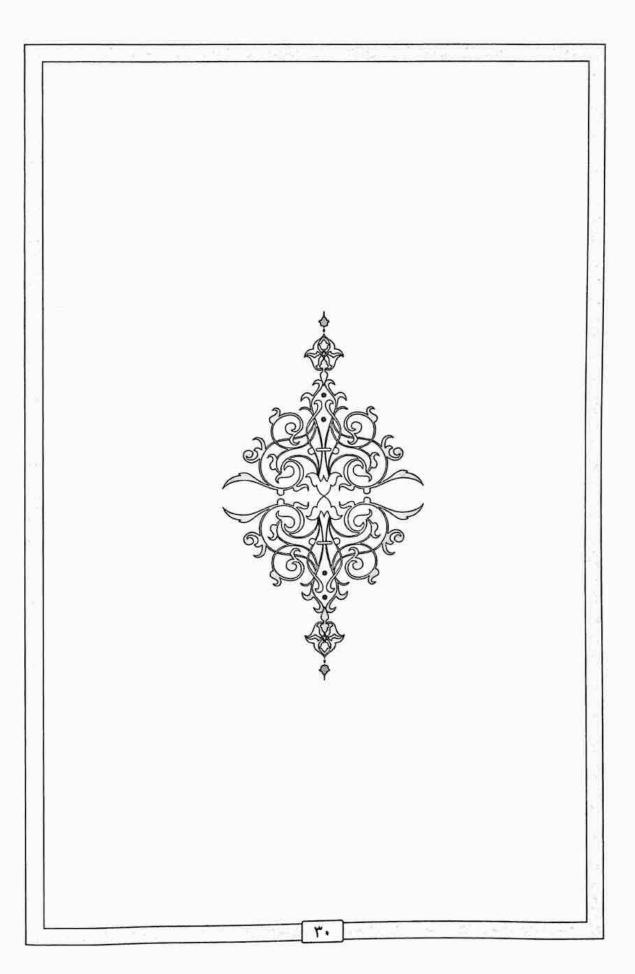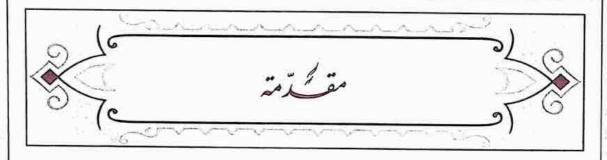
يدورُ الكتابُ حولَ العقيدةِ الصحيحةِ الَّتي ينبغي أن يَعقِدَ عليها المسلمون قلوبَهم ؛ ما هي ؟ وماذا تكونُ ؟ وكيف يحصلُ الاهتداءُ إليها ؟

وقد أَفصَحَ السُّهرورديُّ في مُقدِّمةِ الكتابِ عن الحاملِ له علىٰ كتابةِ هٰذه العقيدةِ المختصرةِ ، وأنَّهُ كَتَبَها بالتماسِ رَجُلٍ لَقِيَهُ أثناءَ أداءِ الطوافِ بالبيتِ العتيقِ ، فحرَّكَ طَلَبُهُ همَّةَ السُّهرورديِّ لتدوينِها .

وقد آثَرَ السُّهرورديُّ أن يَجعَلَها موجزةً مختصرةً جامعةً ؛ بحيثُ تَحوي أصولَ المسائلِ الاعتقاديةِ التي يحتاجُ المكلَّفون إلىٰ معرفتِها أشدَّ الاحتياجِ ، مُقسِّماً لها علىٰ عَشَرةِ فصولٍ شاملةٍ لأبوابِ الاعتقادِ الثلاثةِ : الإلٰهيَّاتِ ، والنُّبوَّاتِ ، والسَّمعيَّاتِ .

أحسَنَ السُّهرورديُّ في تلخيصِها وتهذيبِها غايةَ الإحسانِ ، ووُفِّقَ في ذِكرِ الأصولِ مِن مسائلِ عقائدِ أهلِ الحقِّ كلَّ التوفيقِ ؛ مِمَّا حدا بالعلماءِ إلىٰ أن يُثنوا علىٰ هٰذه العقيدةِ الثناءَ العاطرَ ؛ منهم : العلَّامةُ الحسينُ بنُ عبدِ الرحمٰنِ الأهدل اليمنيُّ (ت ٨٥٥ هـ) في كتابِه : « كشفُ الغطاءِ عن حقائقِ التوحيدِ »[1] ، فقد ذَكَره ضِمنَ أصحابِ العقيدةِ الصحيحةِ ، ومنهم : اليافعيُّ (ت ٧٦٨ هـ) فقد قال عن عقيدتِه : (وعقيدتُه معروفةٌ مشهورةٌ ،

(١) في (ص ٦٠) منه ، طبعة الاتحاد العام التونسي ، بتونس (١٩٦٤ م) ، علىٰ نفقة أحمد بكير .

الخزانةُ باسم : « عقيدة السُّهروَردِيِّ » ، وذكرها المعجمُ باسم : « عقيدةُ أربابِ التُّقَىٰ » في الكلامِ .

ويوجَد منها نسخٌ أخرىٰ عِلاوةً علىٰ ما ذكرنا ؛ وهي كما يلي :

المملكةُ العربيَّة السُّعوديَّة :

ـ مركزُ الملكِ فيصل للبُحوثِ والدِّراساتِ الإسلاميَّة بالرِّياض : بأرقام : (ب ٨٤٧٧) ، (ب ٩٦٧٠) ، (ب ١٠٤٥٤) ، (١٤٠٧٤) .

ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : برقم (٦٨٥٤) رسالة رقم (٢) ، الأوراق (١٩ ب ـ ٣٩ أ) .

العراق :

ـ مكتبةُ الأوقافِ العامَّة : برقم (١/٦٧٨٤) (١٦ ورقة) مكتوب في (١٢٥٤ هـ) ، ورقم (٥/١٣٨١٤) (١٤ ورقة) ، مكتوبٌ في (١٣٢٨ هـ) في بغداد .

ـ المكتبةُ القادريَّة : برقم (٥٥٧) (٢٣ ورقة) ، كُتبت في (١٣٢٦ هـ) .

ـ مدرسةُ الحجيَّات : (٢٣/٤/٢٢) مجاميع ، بالموصل .

تركيا :

ـ عاشر أفندي : برقم (١٠/٤١٦) ، الأوراق (١٧٠ ـ ١٩٠) .

ـ مراد بخاري : برقم (٢/٢١٠) ، الأوراق (٤٩ ـ ٧٣) .

ـ وليُّ الدِّين : برقم (١٧٩٦) ، الأوراق (١١٦ ـ ١٢٢) ، كُتبت في (٨٣٨ هـ) ، ورقم (١٨٢١) ، الأوراق (١٣٨ ـ ١٥٠) .

ـ وهبي أفندي : برقم (٢٠٢٣) ، الأوراق (٦٩ ـ ٨٠) .

ـ قسطموني Kastamonu : (٢/٦٠٤) ، الأوراق (١٧ ـ ٣٥) ، مكتوبة في (٧٠٧ هـ) .

الهند :

ـ مكتبة خُدابخش : برقم (١/١١٣) (١١٨٦) ، ورقم (١٠/٥١٩) .

ـ مكتبة بوهار : برقم (٨٦) بكلكتا .

ألمانيا :

ـ مكتبةُ الدَّولة ببرلين : برقم (١٧٤٢) .

ـ مكتبة جامعة توبنغن : برقم (٣/٨٩) ، الأوراق (٥٣ ب ـ ٧١ أ) .

بريطانيا :

ـ المتحفُ البريطاني : برقم (٥٨٩٢) .

نماذج من صور المخطوطات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع غشاوة العمى عن بصائر أهل الوداد، وهداهم بشموس ضيائه إلى أقوم
مناهج الرشاد، وزكى نفوسهم عن الميل إلى الدنيا حتى سلكوا أعدل طرائق الرشاد
وحبس عقولهم عن الزيغ في الأهواء المردية بصحيح الاعتقاد، فلاح لهم من مناهل صفو اليقين حتى انمحت
من مواطنهم مادة الريب والعناد، وأترعت لهم كؤوس الفهوم من كوثر غرائب العلوم بما تمادت
عليهم من الإمداد، تعرف في وجوههم نضرة النعيم المعرفة وبشرى الظفر بالمراد، ونودي على سرائرهم
إن هذا لرزقنا ما له من نفاد. أحمده على ما منح من السداد، وأشكره على
ما منع من موجبات الإبعاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة دائمة التجدد
أبد الآباد، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث إلى كافة العباد، صلوات الله عليه وعلى آله
الأكرمين الأمجاد. **وبعد** فقد التمس مني وأنا بمكة حرسها الله وزادها شرفا
أخ من المسلمين وأنا وإياه في الطواف حول الكعبة المقدسة المعظمة أن أكتب له عقيدة
يتمسك بها ذكا من قلبه [illegible] من الالتماس من [illegible] ولم [illegible] صدقا [illegible] في الورد
على مسألة هذا الأخ المسلم ووجدت من باطني محبا له إلى ذلك ثم إني توقفت إذ رأيت الوقت يكاد
عن [illegible] أن يشغل بغير العلوم والطواف [illegible]
لا الأكل والنوم والاهتمام بمصالح ضرورية، ومسألة الأخ المسلم تتقاضاني إذا لقيته، ثم علمت أني
إن أرخيت عنان المراد ربما اتسعت النفس وجذبت إلى مطالعة الكتب واستخراج المسموعات
المسندة لتحقيق ما أذكره بالأحاديث المسندة ومطالعة أقاويل الفرق، ويصير لها فطرة
شعبا يضيق الوقت به، فاستخرت الله تعالى ودعوت في الملتزم والمستجار، وتمسكت بالأركان
والأستار، وسألت الله تعالى أن ينفع بما أذكره، ويجعله خالصا لوجهه، ويعصمني فيه من الخطأ
والزلل، بعد الاستخارة والدعاء استمليت هذا المختصر من باطني، وشرطت على نفسي أن
يكون القلب ناظرا إلى الله تعالى مستعينا به، وربما كان الحال يقتضي كتب شيء منه فأطوف حول
الكعبة حتى ينشرح الصدر للقول، وسميته **أعلام الهدى** وعقيدة أرباب
التقى، ورتبته عشرة فصول، والله تعالى هو الموفق والمعين

الفصل

نسخة دار الكتب المصرية (أ)

اذا انبسط النجوم والشمس تطلع من مغربها كل ذلك حق لا شك فيه ويعتقد ان الملائكة
في قريش عدال يوم القيمة لا يؤاخذهم عليها غيرهم ويعتقد وجوب الانقياد للامام الوقت من
بني العباس ولسائر ولاة الامر من قبله ومن بعده فاني قال من يخرج على الامام ويعتقد
الجمعة والجماعات ووجوب قضاء حقوق المسلمين والاتفاق معهم على ما اتفقوا عليه و
انعقد اجماعهم فيه ولا نستبد بارائنا دون اجماع المسلمين وذلك كله بتوفيق
الله العلي العظيم ٥

تمت العقيدة المسمى بعلم الهدى وعقيدة ارباب التقى
قدس سره للشيخ شيخ الاسلام في العالمين
شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن
سعيد بن الحسين بن القسم بن عبد الله بن عبد الرحمن
بن القاسم السهروردي رحمه الله عليه
في اوايل ذي الحجة حجة سبع وعشر وسبعمائة

نسخة دار الكتب المصرية (أ)

نسخة دار الكتب القطرية (ب)

لا تعجل فليس الرزق بالعجل انما الرزق في اللوح مكتوب مع الاجل فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ولكن خلق الانسان من عجل

كنتبي الي يوم الدين وصلى الله وسلم على ...

لا تعجل فليس الرزق من بالعجل انما الرزق في اللوح مكتوب

مع الاجل فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ولكن

خلق الانسان من عجل

وكان الفراغ نهار الثلاثا ثاني عشر

رجب الحرام ١١٩٠ سنة

على يد الفقير الي الله محمد

القنفذي عفى الله له ولوالديه وللمسلمين اجمعين

امين

قصيدة

لسيدي عبد القادر الكيلاني

شهدت بان الله والي ولايتي

وقدمني بالشرق في كل حالتي

لا تعجل فليس الرزق بالعجل انما الرزق في اللوح مكتوب مع الاجل فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ولكن خلق الانسان من عجل

نسخة دار الكتب القطرية (ب)

رسالة في العقائد المسماة بإعلام الهدى
وعقيدة أرباب التقى للشيخ شهاب
الدين عمر بن محمد السهروردي
قدس سره

٧٧٠

نسخة المكتبة السليمانية تركيا (ج)

١٦

والدجال يخرج وان الشمس تطلع من مغربها كل ذلك لا نشك فيه ونعتقد
ان الخلافة في قريش الى يوم القيمة لا يجاد لهم عليها غيرهم ونعتقد وجوب
الانقياد لامام الوقت من بني العباس ولسائر ولاة الامر من قبله
ونرى قتال من يخرج على الامام ونعتقد الجمعة والجماعة ووجوب قضاء
حقوق المسلمين والاتفاق معهم على ما اتفقوا عليه وما نعتقد اجماعهم
فيه ولا نستبد بارائنا دون اجماع المسلمين وكل ذلك بتوفيق
الله العظيم الرؤف الرحيم وصلى الله على
سيدنا محمد النبي الامي واله الطاهرين
واصحابه الاكرمين والحمد لله
رب العالمين

أعلام الهدى
وعقيدة أرباب التقى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمدُ للهِ الَّذي رَفعَ غِشاوةَ العَمَهِ عن بصائرِ أهلِ الوِدادِ [١] ، وهَداهُم بنُورِ اصطِفائِه إلىٰ أقوَمِ مناهجِ الرَّشادِ ، وزكَّىٰ نُفوسَهم عنِ الميلِ إلى الدُّنيا حتَّىٰ سَلَكُوا أعدَلَ طرائقِ الزُّهَّادِ ، وحَمَىٰ قلوبَهم عنِ الزَّيغِ بالأهواءِ المُرْدِيةِ بصحيحِ الِاعتقادِ ، وأوردَهُم مَناهِلَ صَفْوِ اليقينِ حتَّى انحَسَمَت عن بَواطِنِهم مادَّةُ الرَّيبِ والعِنادِ ، وأُتْرِعَت لهم [٢] كُؤوسُ الفُهومِ مِن كَوثرِ غَرائبِ العُلومِ بما تَرادفَت [٣] عليهم مِنَ الإمدادِ ، تَعرِفُ في وُجوهِهِم نَضْرَةَ نَعيمِ المعرفةِ وبِشْرَ الظَّفَرِ بالمرادِ ، ونُودِيَ في سرِّهِم إخْفاءً مِن زِرِّهِم [٤] : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [٥] ، أحمَدُه علىٰ ما مَنَحَ مِنَ السَّدادِ ، وأشكرُه علىٰ ما مَنَعَ مِن مُوجِباتِ الإبعادِ ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ؛ شهادةً دائِمةَ النُّورِ أبدَ الآبادِ ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه المبعوثُ إلىٰ كافَّةِ العبادِ ، صلواتُ اللهِ عليه وعلىٰ آلِه الأكرمِينَ الأمجادِ [٦] .

---

(١) العمهُ : التحيُّر والتردُّد ، وهو في البصيرة والرأي كالعمىٰ في البصر .

(٢) قال ابنُ فارس : (والتَّرَع : الإمتلاءُ ، وقد تَرِعَ الإناءُ ، وكان بعضُ أهلِ اللُّغةِ يقول : لا أقولُ : تَرِعَ ، ولٰكن : أُترِعَ ، وهٰذا مِنَ البابِ ؛ لأنَّه إذا أُترِعَ . . بادرَ إلى السَّيلانِ) . « مقاييسُ اللُّغة » مادَّة : (ت ر ع) .

(٣) في (ب) : (ترادفَ) .

(٤) كُتِب مُقابله في حاشية (د) ما نصه : (الزِّر : عَظْمٌ تحت القلبِ صَغيرٌ يكون قِوامَ القلبِ) .

(٥) سورة صٓ : (٥٤) ، يكثرُ المصنِّفُ رحمه الله تعالىٰ مِن هٰذا الأسلوبِ البلاغيِّ في الِاقتباسِ مِن الآيِ يُذيِّلُ به حديثَه ، وهو تلطُّفٌ معروفٌ لدىٰ أربابِ السُّلوكِ والإشارة ، لذا سنتجاوزُه ولا نعلِّقُ عليه كلَّ مرَّةٍ .

(٦) في (ج) : (قال الشَّيخُ العارفُ المحقِّقُ حجَّةُ الحقِّ علَمُ الهدىٰ شيخُ الإسلامِ شهابُ الحقِّ والمِلَّةِ والدِّينِ عمرُ بنُ محمَّدٍ السُّهرَورديُّ قدَّسَ اللهُ روحَه ونَوَّرَ ضَريحَه . . .) .

وبعد :

فقدِ التَمسَ مِنّي وأنا مُجاوِرٌ بمكَّةَ ـ حرسَها اللهُ تعالىٰ وزادَها شَرَفاً ـ أخٌ مِنَ المسلمينَ ، وأنا وإيَّاه في الطَّوافِ حولَ الكعبةِ المقدَّسةِ المُعظَّمةِ ؛ أن أكتُبَ له عقيدةً سليمةً [١] يَتمسَّكُ بها .

وكانَ مِنْ قبلِهِ سبقَ هٰذا الالتِماسُ مِنْ غيرِه ، ولم يَنشرِحْ صَدرِي للإجابةِ ، فلمَّا ورَدَتْ عليَّ مسألةُ هٰذا الأخِ المسلمِ . . وجدتُ مِن باطِني مُجيباً له إلىٰ ذٰلكَ ، ثمَّ إنِّي توقَّفتُ إذْ رأيتُ الوقتَ بمكَّةَ عزيزاً جِدّاً ، يَعِزُّ أن يُشغَلَ بغيرِ الصَّلاةِ والطَّوافِ والتِّلاوةِ ، مع ما بُليَ بهِ الإنسانُ مِن صَرفِ بعضِهِ إلى الأكلِ والنَّومِ والاهتمامِ بمصالحَ ضَروريَّةٍ ، ومسألةُ الأخِ المسلمِ تَتَقاضىٰ [٢] بأداءِ حقِّهِ .

ثمَّ علِمتُ أنَّني إنْ أرخَيتُ عِنانَ [٣] المُرادِ . . رُبَّما اتَّسعَتِ النَّفسُ وجُذِبَتْ إلىٰ مُطالَعةِ الكُتُبِ ، واستِخراجِ المسمُوعاتِ المُسنَدةِ ؛ لتَقييدِ ما أذكُرُهُ بالأحاديثِ المسنَدةِ ، ومُطالَعةِ أقاوِيلِ الفِرَقِ ، ويَصيرُ لما خَطَرَ لي شُعَبٌ لا يَفِي بها الوقتُ .

فاستَخَرتُ اللهَ تعالىٰ ودعوتُ في المُلتَزَمِ والمُستَجارِ ، وتمسَّكتُ بالأركانِ والأستارِ ، وسألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يَنفعَ بما أذكُرُهُ ، ويَجعلَهُ خالِصاً لوجهِهِ ، ويحرُسَنِي فيهِ مِنَ الخطأ والزَّلَلِ .

وبعدَ الاستِخارةِ والدُّعاءِ ـ استَملَيتُ هٰذا المختَصَرَ مِنْ باطِني [٤] ، وشَرطتُ

---

(١) كلمة (سليمة) : زيادة من (هـ) .

(٢) أي : تتطلَّب .

(٣) العِنان : سيرُ اللِّجامِ الَّذي تمسَكُ به الدَّابَّةُ ، والجمع : أعِنَّةٌ . ينظر « تاج العروس » (٣٥/٤١٤) .

(٤) فلم يرجع فيه إلىٰ مصادرَ ومراجعَ ؛ كما هي عادةُ المصنِّفينَ في الغالبِ ؛ نظراً لضيقِ وقتِ إقامَتِه ، وبُعدِه عن مَكتَبتِه ، ومُراعاةِ حالِ سائلِه ؛ فكان يُملي مِن عَفوِ خاطرِه وبَناتِ فكرِه ممَّا جادت به قَريحتُه وقتَئذٍ ، ومِن هنا نقِفُ علىٰ سِرِّ عدمِ شُمولِ الكتابِ لكلِّ أبوابِ الاعتقادِ ؛ حيثُ قصدَ به مُمليه رؤوسَ المسائلِ ، ومُجمَلَ اعتقادِ السَّلفِ ، والضَّروريِّ منه ؛ ممَّا يجبُ على المسلمِ أن يَعلَمَهُ مِن أمرِ دينِهِ ، لذا نجدُه يَسلُكُ فيه مَسلكاً هو أقربُ ما يكونُ إلى المحدِّثينَ منه إلى المتكلِّمين في سَرده ؛ مِن حيثُ الإجمالُ والاستِفصالُ في طرائقِ العرضِ والاستدلال . والله تعالىٰ أعلم .

علىٰ نفسِي أنْ يكونَ القلبُ ناظراً إلى اللهِ مُستعِيناً بهِ ، وربَّما كانَ الخاطِرُ يقِفُ في شيءٍ منهُ ، فأَطوفَ حولَ الكَعبةِ حتَّىٰ يَنشرِحَ الصَّدرُ للقَولِ .

وسمَّيتُهُ :

« أَعلامُ الهُدَىٰ وعقيدةُ أربابِ التُّقَىٰ »

ورتَّبتُه علىٰ عشرةِ فُصولٍ ، واللهُ الموفِّقُ والمُعينُ :

الفصلُ الأوَّلُ : في شرحِ العقيدةِ الصَّحيحةِ ومَنشئها ووجهِ تَطرُّقِ الفسادِ إليها .

الفصلُ الثَّاني : في شهادةِ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وتَنزِيهِه سُبحانَهُ .

الفصلُ الثَّالثُ : في صفاتِ اللهِ تعالى الذَّاتيَّةِ .

الفصلُ الرَّابعُ : في قُدرةِ اللهِ تعالىٰ وخَلقِ أفعالِ العبادِ .

الفصلُ الخامسُ : في كلَامِ اللهِ تعالىٰ ، وما خاضَ النَّاسُ فيه مِنَ القَولِ .

الفصلُ السَّادسُ : في القَولِ في الآياتِ والأخبارِ الواردةِ في الصِّفاتِ .

الفصلُ السَّابعُ : في رُؤيةِ اللهِ تعالىٰ .

الفصلُ الثَّامنُ : في شهادةِ أنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم .

الفصلُ التَّاسعُ : في ذِكرِ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ورضِي عنهُم .

الفصلُ العاشرُ : في ذِكرِ الموتِ وما بعدَه مِنَ الأمورِ الأُخرَوِيَّةِ وذِكرِ السَّاعةِ .

وأنا أسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يَحفَظَ القلبَ الَّذي هو مُقَلِّبُهُ ، والمُودِعُ فيهِ ما يشاءُ مِنْ آثارِ رحمتِهِ ونفائسِ مَوهبَتِهِ . . مِن نَزَغاتِ الشَّياطينِ ، وهَفَواتِ الطَّبعِ ، وتكونَ حركةُ يدِي وإرادةُ قَلبِي لا تَنفَكُّ عنِ النِّيَّةِ الصَّالحةِ فيه ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

الفصل الأوّل

في شرح العقيدة الصّحيحة، ووجه تطرّق الفساد إليها

اعلمْ ـ أيّدك اللهُ تعالىٰ ـ : أنَّ العقيدةَ الصَّحيحةَ هي العقيدةُ السَّليمةُ مِنَ الأهواءِ ، أَنتَجها قلبٌ حيٌّ بذِكرِ اللهِ تعالىٰ ؛ وهو القلبُ المزَيَّنُ بالتَّقوى ، المؤيَّدُ بالهُدى ، الَّذي تَشَعْشَعَ [١] فيه نُورُ الإيقانِ ، فظهرَ أثَرُ نُورِه على الجوارحِ والأركانِ ، حتَّىٰ صارَتْ مُقيَّدةً بأوامرِ الشَّرعِ ، محفوظةً مِن هَفَواتِ الطَّبْعِ ، وهو قلبٌ ردَّهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ طهارةِ الفِطرةِ ، وخَلَّصَه عَن أثَرِ كُلِّ مسمُوعٍ يَتَكَرَّرُ على النَّفسِ ، فيَنطبِعُ في النَّفسِ منهُ ظَنٌّ وَوَهْمٌ يَشْغَلُ كُلِّيَّتَها [٢] ، فلَا يَبقَىٰ فيها لغيرِ ما ظنَّته وتَوهَّمَته مَساغٌ .

ولا يكونُ مثلُ هٰذا القلبِ إلَّا لزاهدٍ في الدُّنيا ؛ لأنَّهُ قلبٌ مَحفوفٌ بالنُّورِ ، والقلبُ المحفوفُ بالنُّورِ : قلبُ الزَّاهدِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « إِنَّ ٱلنُّورَ إِذَا دَخَلَ فِي ٱلْقَلْبِ . . ٱنْشَرَحَ وَٱنْفَسَحَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هل لذٰلك مِن عَلامةٍ ؟ ، قالَ : « نَعَمْ ؛ ٱلتَّجَافِي عَنْ دَارِ ٱلْغُرورِ ، وَٱلْإِنَابَةُ إِلَىٰ دَارِ ٱلْخُلُودِ ، وَٱلِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوتِ قَبْلَ نُزُولِهِ » [٣] .

وكثيرٌ مِنَ المُعلِّمِينَ [٤] تمسَّكوا بعقيدةٍ تقرَّرت عِندَهم أدِلَّتُها ، وظهَرت بزَعْمِهم بَراهِينُها ، إذا اعتَبرَهُمُ العالِمُ الزَّاهِدُ . . وجدَهُم يَخلُدونَ إلىٰ تقليدٍ هو

---

(١) تشَعشعَ : انتشر وتلألأ .

(٢) في (ج) : بزيادةِ (نفسٌ) ، ولعلَّها تكونُ بيانيةً مِن وضعِ النَّاسخِ .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « قِصر الأمل » (١٣١) ، والحاكم في « المستدرك على الصحيحين » (٣١١/٤) ، والبيهقي في « الزهد » (٩٧٤) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) في (أ ، ب ، د ، هـ) : (المسلِمينَ) .

عندَهُم كَمالُ التَّوحيدِ ، وإذا سَبَرتَ[1] أحوالَهم . . تَجِدُهم مُقلِّدِينَ لِمَن حَسُنَ فيه ظَنُّهُم مِن مَشايِخِهِم وأئِمَّتِهِم ، واعتقَدوا فيهِم قُوَّةَ العلمِ ، والظَّفَرَ بالصَّحيحِ ، فتَلقَّوا منهُم العقيدةَ وسَمِعوا منهُم أدلَّتَها ، فامتَلأَ وَهْمُهُم وخَيالُهُم بما سَمِعوا ، وظَنُّوا أنَّهم ظَفِروا ، ﴿ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[2] .

وقدْ يتَمسَّكُ بعضُهُم بعقيدةِ مَن لم يُخالِطِ العلماءَ زِيادةَ مخالَطةٍ ، ولٰكن يَسمَعُ مِنَ المُخالِطِينَ لهم والمجالِسينَ والمجتَمِعينَ على الشَّيءِ مِن أهلِ مَحَلَّتِه وبَلدَتِه ؛ فيتمسَّكُ بما تمسَّكُوا بهِ ، ويُكفِّرُ مَنْ لا يَعتقِدُ مُعتقَدَهُ .

وقدْ يَلتحِقُ كثيرٌ ممَّن يَزعُمُ أنَّه ظَفِرَ بالدَّليلِ بهٰذا العامِّيِّ ويكونُ مُقلِّداً مِثلَهُ ، والنُّفوسُ تُستَرَقُّ[3] ويَنطبِعُ ويَنتقِشُ فيها أشياءُ ، وهٰذا مِن غيرِ أن يَشْعُرَ بها أصحابُها ، وعلىٰ هٰذا جُبِلَتْ وطُبِعَتْ ، ولهٰذا شرحٌ عميقٌ وغَوْرٌ بعيدٌ .

ولمَّا كانَتْ هٰذهِ الفِتنةُ ممَّا عمَّ بها البَلوَىٰ ، وصَدَّت عنِ الهُدَىٰ . . فلا طريقَ إلى النَّجاةِ إلَّا صِدقُ الِافتقارِ وحُسنُ الِالتجاءِ إلى المَولىٰ ؛ حتَّىٰ يَكشِفَ هٰذه الغُمَّةَ ويُرشِدَ إلى الحقِّ الصِّرْفِ[4] .

مَنْ[5] قَرَعَ بابَ الطَّلَبِ مِنَ الأُمَّةِ[6] ، ومَنِ انتَزَعَ مِن قلبِه الهَوىٰ ، وظَفِرَ

---

(١) السَّبرُ ـ بفتحِ فسكون ـ : امتحانُ غَورِ الجُرحِ وغيرِه ، يقال : سَبَر الجرحَ يَسبِره ويَسبُره سَبراً ؛ نظرَ مقدارَه ، وقاسَه ليعرفَ غَورَه ، هٰكذا بالوجهينِ عند أئمةِ اللغةِ ، وصرَّح به غيرُ واحد . ينظر « تاج العروس » (١١/٤٨٧) .
ومصطلَح سَبرِ العلَّة والأدلَّةِ معروفٌ لدى الأصوليينَ ، ومعناه هنا : الاستقراء .

(٢) سورة الروم : (٣٢) .

(٣) في (ب) : (تشرفُ) وفي (أ ، ج) : (تشرقُ) ، وتقرأ : (وتُسْتَرَقُ) .

(٤) الصرف : المحض الخالص الَّذي لم يُشَب بشائبةٍ .

(٥) في (د) : (فمن) .

(٦) في (أ) : (الأئمَّة) .

بحُسنِ الِاهتِداءِ . . يَنظُرُ بعَينِ الرَّحمةِ إلى المحجُوبِينَ ، ولا يكونُ فَظّاً غَلِيظَ القلبِ علىٰ أربابِ اختلافِ الآراءِ مِنْ كافَّةِ أهلِ القِبلَةِ مِنَ المُسلمينَ ، ويستعينُ باللهِ تعالىٰ في تَفهيمِ الطَّالِبينَ المُسترشِدِينَ .

ولمَّا صحَّتِ العُقولُ واعتَدلَتْ في زَمنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ بما أفاضَ اللهُ عليهم مِنْ آثارِ الوحي السَّماوِيِّ ، وأَنوارِ القلبِ المُقدَّسِ النَّبَوِيِّ . . انخَلَعَت[1] النُّفوسُ مِنَ العَادةِ ، وأَذعنَتْ للطَّاعةِ والعبادةِ ، وتَشرَّبَتِ القُلوبُ الزُّهدَ في الدُّنيا ، وعانَقَتِ الإقبالَ على اللهِ تعالىٰ والأُخرَىٰ ، واستَشفَّتْ أنوارَ اليقينِ مِنْ وراءِ أستارِ الغَيبِ ، وانسَلخَتْ عن كُلِّ شَكٍّ ورَيبٍ ؛ لا جَرَمَ اتَّحدَتِ العقائدُ[2] ، وصارتِ القلوبُ قلباً واحِداً ، والآراءُ رأياً واحِداً ؛ كما وصَفَهمُ اللهُ : ﴿ كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرصُوصٌ ﴾[3] .

فتَبيَّنَ بذٰلك أنَّ ما حدَثَ فيما بَعدُ مِنَ الِاختلافِ ، لم يكُن إلَّا لِما يكونُ مِنَ الِانحرافِ .

فلمَّا انحلَّتْ عزائمُ الزَّاهدِينَ ، وتَزَعْزَعَتْ أَبْنِيَةُ المتَّقِينَ . . تَطرَّقَ إلى العقائدِ الشَّيطانُ ، وزَعزَعَ أصُولَ الإيمانِ .

فمَنْ أراد العقيدةَ الصَّحِيحةَ السَّلِيمةَ مِن كلِّ عَيبٍ وعَوارٍ . . فعَليهِ باقتفاءِ تلكَ الآثارِ ؛ حتَّىٰ يَكشِفَ عن قلبِهِ غِشَاوةَ الحُجُبِ والأَستارِ ، ويَظفَرَ بكَنزِ الأَسرارِ ، ويتواترَ عليه الإمدادُ والأَنوارُ .

---

(١) في (ج) : بزيادةِ قوله : (النَّبويّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علىٰ ذٰلك القلبِ والقالَبِ إلى انقطعت) ، وفي الحاشيةِ علَّقَ النَّاسخُ بقوله : (إلىٰ بمعنىٰ حتَّىٰ) .

(٢) لا جرمَ : كلمةٌ في الأصلِ بمنزلةِ : لا بُدَّ ، ولا مَحالةَ ، ثمَّ تحوَّلت إلىٰ معنى القَسَمِ ، وصارت بمعنىٰ : حقّاً .

(٣) سورة الصف : (٤) .

قالَ اللهُ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] ، جَعلَ العِلمَ النَّافعَ مَعذوقاً[2] بالتَّقوىٰ ، ولا شُبهةَ بأنَّ الهَوىٰ شريكُ العَمَىٰ ، واللهُ تعالىٰ بفَضلِه يُنقِذُ مِنَ الضَّلالِ ، ويُعِينُ علىٰ إصلاحِ الحالِ .

۞ ۞ ۞

---

(١) سورة البقرة : (٢٨٢) .
(٢) مَعذوقاً : مُرتَبِطاً مُعلَّقاً ، وفي حاشية (هـ) : (مخلوطاً) .

الفصل الثّاني

في شهادة أن لا إلٰه إلّا الله، والتّوحيد والتّنزيه

عَلِمَ القلبُ الصَّحيحُ ، وحَكَمَ العقلُ السَّليمُ ، وشَهِدَ العلمُ الرَّاسخُ . . بما شَهِدَ اللهُ تعالىٰ بهِ لنَفسِه وشَهِدت بهِ ملائكتُه وأُولو العلم ؛ حيثُ قال : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] ، تعالى اللهُ لا إلٰهَ إلَّا هو ، لا ضِدَّ لهُ ، ولا نِدَّ لهُ ، ولا شِبْهَ لهُ ، ولا مِثْلَ لهُ ، ولا وَلدَ لهُ ، ولا والدَ لهُ ، ولا وزيرَ لهُ ، ولا نَظيرَ لهُ ، ولا تُدرِكُ كُنْهَ عَظَمَتِهِ الأوهامُ ، ولا تَبلُغُ شأْوَ كِبريائِهِ الأفهامُ ، ولا يَعترِي ذاتَهُ المُقدَّسَ التَّأَثُّرُ والتَّغيُّرُ والآلامُ والأَسقامُ ، والسِّنَةُ والمَنامُ ، والإفتراقُ والإلمامُ[2] ، جلَّ عمَّا يَجُولُ بهِ الوَسْواسُ ، وعَظُمَ عمَّا تُكتِفُه الحَواسُّ ، وكَبُرَ عمَّا يَحكُمُ بهِ القِياسُ ، لا يُصوِّرُه وَهْمٌ وخَيالٌ ، ولا يُشاكِلُهُ مِثالٌ ، ولا يَنُوبُهُ زَوالٌ ، ولا يَشُوبُه انتِقالٌ ، ولا يَلحَقُهُ فِكرٌ ، ولا يَحصُرُهُ ذِكْرٌ ، قيُّومٌ أزَليٌّ ، دَيمُومٌ سَرْمَدِيٌّ ، لا تُحَدُّ أزَليَّتُه بـ (مَتىٰ) ، ولا تُقيَّدُ أَبدِيَّتُه بـ (حتَّىٰ) ، لا يَنطلقُ عليهِ التَّعيينُ ، ولا يَتطرَّقُ إليه التَّأْيينُ ، إنْ قلتَ : أينَ ؟ . . فقدْ سبَقَ المكانَ ، وإنْ قلتَ : متَىٰ ؟ . . فقد تقدَّمَ الزَّمانَ ، وإنْ قلتَ : كيفَ ؟ . . فقدْ جاوزَ الأَشباهَ والأمثالَ والأَقرانَ ، وإنْ طَلَبتَ الدَّليلَ . . فقدْ غَلبَ الخبرَ العِيانُ ، وإنْ رُمْتَ البيانَ . . فذرَّاتُ الكائناتِ بَيانٌ وبُرهانٌ .

أوَّلٌ آخرٌ ، ظاهرٌ باطنٌ ، تفانَتِ الأوائلُ والأواخرُ في أزليَّتِهِ وأبدِيَّتِهِ ، تَفرَّدَ في الأزَلِ بنَعتِ العَظَمَةِ والجَلالِ قبلَ الكَونِ والمكَانِ ، والدُّهورِ والأزمانِ ، والحِينِ والأَوانِ ؛ فالمكَانُ جَواهرُ وأجسامٌ خلقَها ، والدُّهورُ أوقاتٌ وأزمانٌ قَدَّرَها ، كُلُّ ذٰلكَ موسُومٌ بالحدَثِ .

---

(١) سورة آل عمران : (١٨) .

(٢) في (د) : (والالتئام) .

عرَّفَنا المكانَ والزَّمانَ بتعريفِهِ إيَّانا ، ولو شاءَ . . كَوَّنَنا ولَمْ نَعرِفْ مكاناً ولا زَماناً ، كوَّنَنَا في المكانِ ، ولوْ شاءَ . . كوَّنَنَا ولا مكانَ ؛ فعِلمْنا بأنَّا لا نكونُ إلَّا في مكانٍ . . مِن قضايا عُقولِنا ، وهٰذه القضايا هيَّأَها لنا نَعقِلُ بها المعقولَ ، ونَعلَمُ بها المعلومَ ، ولوْ شاءَ هيَّأَ لنا غيرَ هيئاتِنا ؛ فعوالمُ قدرتِهِ غيرُ مَحصورةٍ ، وغَرائبُ مَشيئَتِهِ غيرُ مَنكُورةٍ ، وما نحنُ فيهِ مِنَ العالَمِ بما نحنُ عليهِ مِنَ العقلِ والعلمِ . . عالَمٌ مِنْ عوالِمهِ .

ولا تَستَبعِد قَولي : (لو شاءَ . . كَوَّنَنا في غيرِ مكانٍ) [١] ؛ فقدْ كوَّنَ المكانَ لا في مكانٍ ؛ إذ لو كانَ في مكانٍ . . لتَسلسَلَ ، فلا تَحصُرِ القُدرةَ بعقلِكَ ؛ إذِ العقلُ قُوَّتُهُ أنْ يَحصُرَ الحِكمةَ ، فأمَّا القُدرةُ . . فلا يحصُرُها حادثٌ [٢] ، فحَدِّثْ عنِ البَحرِ ولا حرجَ .

ومِنْ هٰذا الأساسِ تمشَّتْ وتَبيَّنَتِ الأمُورُ الأُخرَوِيَّةُ ، وعَلِمَها مَنْ عَلِمَها ، وأنكَرَها مَنْ عَجَزَ عقلُهُ عنْ إدراكِها ؛ فمَنْ يُكوِّنُ المكانَ والمُكوَّنَ فيهِ ، والزَّمانَ

---

(١) يُقرِّرُ هنا الإمامُ السُّهرَورديُّ رحمه الله مُعتقدَ الأشاعرةِ بخُصوصِ القُدرةِ الإلٰهيَّةِ ؛ وهي الإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ قادرٌ علىٰ كلِّ شيءٍ فعلَه أو لم يفعله .
ومِنَ المعلوم عادةً : أنَّ أيَّ شيءٍ مخلوقٍ لا يمكنُ أن يكونَ إلَّا في مكانٍ وزمانٍ ، والمكان : كوَّنته قدرةُ اللهِ تعالىٰ دون أن يكونَ في مكانٍ آخرَ ، وإلَّا . . تسلسَلَ الأمرُ ، والتَّسلسُلُ باطلٌ ؛ يستلزمُ منه أنَّ الحوادثَ لا أوَّلَ لها ؛ بمعنىٰ : أنَّ المكانَ الَّذي سيكونُ فيه المكانُ أيضاً يحتاجُ إلىٰ مكانٍ ، وهٰذا الآخرُ يحتاجُ إلىٰ مكانٍ . . . وهٰكذا دواليك بما لا ينتهي مِنَ الأمكنةِ في سلسلةٍ لا تنقطعُ ، والتَّسلسلُ في حُكمِ العقلِ مستحيلٌ ؛ لأنَّه لا بدَّ وأن ينقطعَ إلىٰ مكانٍ ليس لهُ مكانٌ يكونُ فيهِ .
أمَّا قدرةُ اللهِ تعالىٰ فليس للمُستحيلِ العادي عليها طريقٌ كما يرى الأشاعرةُ ؛ فهي قدرةٌ مُطلَقةٌ ، لو أرادت جَعلَ المستحيلِ عادةً مُمكِناً . . لَجَعلَته ، واللهُ تعالىٰ قادرٌ علىٰ أن يُريَ الأعمَىٰ وهو في المَشرقِ دبيبَ النَّملةِ السَّوداءِ على الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ في اللَّيلةِ الظَّلماءِ وهي في المَغربِ ، وهٰذا المثالُ الَّذي يَذكرُه علماءُ الأشاعرةِ تتَساقطُ فيه شروطُ الرُّؤيةِ وأسبابُها ؛ حيثُ إنَّ قدرتَه إذا شاءت لا بُدَّ وأن تُسقِطَ اتِّصالَ الأسبابِ بالمُسبَّباتِ ، وهٰذا ما يُحدِثُه اللهُ تعالىٰ لمن يَختَصُّهم بالمُعجزاتِ أو الكَراماتِ .
وانظر كتبَ الأشاعرةِ على اختلافها ، مع الفصلِ الرَّابعِ مِن هٰذا الكتابِ : (خلقُ أفعالِ العبادِ) .
(٢) كلمة (حادث) : زيادة من (هـ) .

والمُقدَّرَ فيهِ[1] ، عالَماً مِن عَوالِمه ، ويَسيراً مِن عَظيمِ قُدْرَتِه . . كيفَ يَحصُرُهُ الزَّمانُ والمكانُ ؟!

فما أُظهِرَ مِن عالَمِ المُلكِ والشَّهادَةِ . . عالَمُ الحكمةِ ، والعقلُ الموهوبُ لنا الَّذي نَتصَرَّفُ بهِ مُوكَّلٌ بهٰذا العالَمِ ، وهٰذا العالَمُ مِنَ العَرشِ إلى الثَّرَىٰ معَ العقلِ الَّذي فَهِمَهُ وعَقَلَهُ وعَلِمَهُ ، وقسَّمَهُ أجساماً وجَواهِرَ وأَعراضاً . . عالَمٌ مِن عَوالِمِهِ ، فصورُ العالَمِ وكُلُّ ما حواهُ ـ وهو العالَمُ الَّذي عَقَلَهُ العُقلاءُ ؛ بمَا فيهِ مِنَ الأَرضِ والسَّماءِ ، والماءِ والنَّارِ والهواءِ ، والعرشِ والكُرسِيِّ ، والجِنِّيِّ والإِنسيِّ ، والأَفلاكِ والأَملاكِ ، والأَلوانِ والأَكوانِ والأَجرامِ والاِصطِكاكِ ، والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ ، إلىٰ أَعماقِ أَطباقِ التُّخومِ[2] ـ بالنِّسبَةِ إلى العَظَمَةِ الإلـٰهيَّةِ . . أقلُّ وأَحقَرُ مِن خَرْدَلَةٍ بالنِّسبَةِ إلىٰ جَميعِ العالَمِ .

فَفَرِّغ بالَكَ عندَ ذٰلكَ مِنْ قِياسِكَ ؛ أنَّهُ سُبحانَهُ داخِلَ العالَمِ أو خارِجَ العالَمِ ؟ فما أَحقَرَكَ وأحقَرَ عِلمَكَ ! فلو فتَحتَ عينَ بَصِيرتِكَ . . استَحيَيْتَ مِن قياسِكَ وفِكرِكَ ، وَوهْمِكَ وخَيالِكَ .

أيُّها المحصورُ المحدودُ ؛ لا يُنتِجُ فِكرُكَ إلَّا محصوراً محدوداً .

وأيُّها المحيطُ بِهِ الجِهاتُ ؛ لا يَحكمُ علمُكَ إلَّا بالجهاتِ ، فالجهاتُ مِن جُمَلةِ العالَمِ ، وقدْ علمتَ نِسبتَهُ إلىٰ عَظَمَةِ اللهِ تعالىٰ ؛ فتباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ .

* * *

---

(١) في (هـ) : (فمن يكوِّنُ المكانَ بما فيه مِنَ المقدَّرات عالَماً) .

(٢) التُّخومُ : حدودُ الأرضِ ومعالمُها . ينظر « غريب الحديث » لأبي عُبيد (٣/١١١) .

الفصل الثالث

في صفات الله الذاتية[1]

لِلّٰهِ تعالى الأسماءُ الحُسنىٰ والصِّفاتُ العُلا ، لا نُسمِّيهِ إلَّا بما سَمَّىٰ بهِ نفسَه ، ولا نَصِفُهُ إلَّا بما وصفَ به قُدْسَهُ ، فكُلُّ اسمٍ مِنَ الأسماءِ يُنْبِئُ عن صِفَةٍ مِنَ الصِّفاتِ ، ولهُ بكُلِّ صِفَةٍ مِن صفاتِه أثَرٌ مِن آثارِ رُبوبيَّتِهِ في خَلقِهِ ، وهو مُطالِبٌ بعُبوديَّةٍ مُلائمَةٍ لتلكَ الصِّفةِ ، وهٰذه الصِّفاتُ الَّتي أذكُرُها ذاتِيَّةٌ ؛ هي مِنْ لَوازِمِ كَمالِ الذَّاتِ المُقدَّسِ ، وما أَبرَزَها إلَّا لنَعلَمَها ، وما ذَكرَها إلَّا لنَفهَمَها ، ولولَا ما أَخبَرَ وأَنزلَ ، وفهَّمَ وعَلَّمَ . . لعَظُمَ شأنُ اللهِ أنْ يَتفوَّهَ بها لِسانٌ ، أو يُعرِبَ عنها بَيانٌ .

فمنها : **الحياةُ** : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[2] .

حياتُهُ سَرمَديَّةٌ مُستمِرةٌ في الآزالِ والآبادِ ، جَلَّتْ عنْ مَددِ العَناصرِ ، أو مَعُونَةٍ مِنَ الباطنِ والظَّاهرِ ؛ لأنَّه صَمَدٌ لا يتطرَّقُ إليهِ التَّأثيرُ ، قَيُّومٌ لا يَعتَرِيهِ الزِّيادَةُ والنُّقصانُ والتَّغييرُ ؛ فالزِّيادَةُ لقُصورٍ عنِ الغايةِ ، والنُّقصانُ لتَخلُّفٍ عنِ النِّهايةِ ، وهو خالقُ الغَاياتِ والنِّهاياتِ .

ومنها : **القُدرَةُ** : قادِرٌ ، جميعُ الكائناتِ مَقدُوراتُهُ ، لا يُعجِزُه شيءٌ ، ولا يتكوَّنُ دونَ قُدرتِهِ شيءٌ ، قادرٌ علىٰ أن يُعدِمَ الكَونَ بأَسْرِهِ ، وقادرٌ علىٰ أن يُبدِعَ غيرَهُ كمِثلِهِ ، آخذٌ بناصِيَةِ كُلِّ ما في أَرضِهِ وسَمائِهِ ، وبَرِّه وبَحرِه ، المَقدُوراتُ قائِمةٌ بقُدرَتِهِ ، مُسَخَّرةٌ في قَبضَتِهِ ، أَوجَدَها بِـ (كُنْ) فكانَت ، ولوْ شاءَ . . أعدَمَها فتَلاشَت وتَفانَتْ .

---

(١) أو الوجوديَّة ؛ وهي ما تُسمَّىٰ عند الأشاعرة بالصِّفاتِ السَّبعِ ، أو صفاتِ المعاني ، سيأتي المصنِّفُ عليها .

(٢) سورة غافر : (٦٥) .

ومنها : العلمُ : عالِمٌ ، أحاطَ بجميعِ المعلوماتِ بعلمٍ واحدٍ قديمٍ أَزَليٍّ ، لا يَعْزُبُ عن عِلمِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ ولا في الأرضِ ، يُحصِي أعدادَ الرِّمالِ وذرَّاتِ الجبالِ ، عَلِمَ ما كانَ قبلَ كَوْنِهِ ، ويعلَمُ ما يكونُ ؛ فإنَّهُ سُبحانَهُ مُستقِلٌّ بعلمِ الكَوْنِ مُطلقاً ، أوّلاً وآخِراً ، وظَاهراً وباطِناً .

عالِمٌ بالجُزئيَّاتِ ؛ كما هو عالِمٌ بالكُلِّيَّاتِ .

فمِثَالُ العلمِ الأَزَليِّ الواسعِ ، وإحاطَتِه بالجُزئيَّاتِ والكُليَّاتِ : أنَّكَ لو أخَذتَ كَفّاً مِنَ الخَرْدَلِ وتَركتَه في وِعاءٍ ضَيِّقٍ . . عجَزتَ عن إحصائِه ؛ لتَزاحُمِه وضِيقِ وِعَائِهِ وقُصورِ إدراكِكَ ؛ فإنْ أنتَ بَسَطتَهُ حتَّىٰ تَفرَّدَتِ الحَبَّاتُ . . فما قَلَّ مِن ذٰلكَ تُدرِكُه وتُحصِيهِ ، وما كَثُرَ لا تُحصِيهِ ؛ لنُقصَانِ شُعاعِ بصَرِكَ المُنبَعِثِ مِنْ حَدَقَتِكَ ؛ فلو كَثُرَ الشُّعاعُ . . لأَدركتَ الكَثيرَ كما أدرَكتَ القَليلَ ، ولو كَبُرَ الوِعَاءُ . . لأَحصَيتَ الجَمِيعَ .

فالمعلوماتُ كُلِّيُّها وجُزئِيُّها في علمِ اللهِ سبحانَه وتعالىٰ في أوسَعِ بسيطٍ[1] ؛ إذ سَعَةُ عِلمِ اللهِ سبحانَه أَخرَجَ المعلوماتِ مِن مَضِيقِ الخَفاءِ والخِباءِ ، وأَحصَاها جميعاً بعلمٍ واحدٍ إحصاءً واحداً ؛ ما كانَ وما يكونُ .

فهو سبحانَهُ عالِمٌ على الإطلاقِ ، وسائرُ العُلومِ وجَمِيعُها هو خالقُها ومُوهِبُها ، فسَمَّىٰ نفسَهُ بذٰلكَ ؛ فسَمَّيناهُ بما سَمَّىٰ بِهِ نفسَهُ ؛ حيثُ قالَ : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾[2] ، و﴿ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾[3] ، و﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا

---

(١) البسيطُ : المنبَسِطُ الواسعُ ، وكأنَّه يقول : في أوسعِ واسعٍ .

(٢) سورة الأنعام : (٧٣) .

(٣) سورة طٰه : (٧) .

تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ (١) ، ويعلمُ خَطَراتِ الضَّمِيرِ ، ويُحصِي ذَرَّاتِ الهَباءِ في لَفْحِ الهجيرِ (٢) .

ومنها : الإرادةُ : مُريدٌ على الإطلاقِ ، لا إرادةَ لأحدٍ مِنَ الخلقِ ؛ مِنَ الجِنِّ والإنسِ ، والملائكةِ والشَّياطينِ . . إلَّا وهو مُنشِئُها ومُرِيدُ مُرادِها ، ما شاءَ كانَ ، وما لم يَشأ لم يكُنْ ، لا يَجري في ملكِهِ مِن كُفْرٍ وإيمانٍ ، وطاعةٍ وعِصيانٍ ، وعَطاءٍ وحِرمانٍ ، وعَمدٍ وخَطأً ونِسيانٍ . . إلَّا بمَشِيئَتِهِ .

عَدْلٌ في جميعِ أَقْضِيَتِهِ ومُرادَاتِهِ ، غيرُ مَوصُوفٍ بالظُّلمِ في بَرِيَّتِهِ ومَصْنُوعاتِهِ ،

---

(١) سورة غافر : (١٩) .

(٢) اللَّفحُ : لفحته النَّارُ والسَّموم بحرّها ؛ أحرقَته ، قال الأصمعيُّ : ما كان من الرياحِ له لَفحٌ فهو حَرٌّ ، وما كان له نَفحٌ فهو : بردٌ . ينظر « الصِّحاح » مادة (ل ف ح) .
والهجيرُ : نصفُ النَّهار عند اشتدادِ الحرِّ . ينظر « جمهرة اللغة » (١/٤٦٨) .
والمصنِّفُ رحمه الله يُعرِّضُ بالفلاسفةِ الَّذين قالوا : يعلمُ الكلِّيَّاتِ دون الجزئيَّاتِ ، تعالى اللهُ عمَّا يقولون علوّاً كبيراً ، والله يقول : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا ﴾ [الأنعام : ٨٠] ، و(كل) عند علماءِ اللُّغةِ : مِن ألفاظِ الشُّمولِ والعمومِ ، وكأنَّ اللهَ عناهم لما قال : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .
قال حُجَّةُ الإسلامِ الإمامُ المُجدِّدُ أبو حامدٍ الغزاليُّ رحمه الله : (أمَّا المسائلُ الثَّلاثُ : فقد خالفُوا فيها كافَّةَ الإسلاميِّينَ ؛ وذٰلك في قولهم :
ـ إنَّ الأجسادَ لا تُحشَر . . .
ـ ومن ذٰلك قولُهم : إنَّ اللهَ تعالىٰ يعلمُ الكُليَّاتِ دونَ الجُزئيَّاتِ ، وهو كفرٌ صَريحٌ ، بل الحقُّ : أنه لا يَعزُبُ عن علمِه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ .
ـ ومن ذٰلك قولُهم : بقِدَمِ العالَمِ وأزليَّتِه .
فلم يذهب أحدٌ مِنَ المسلمينَ إلىٰ شيءٍ مِن هٰذه المسائلِ) . ينظر « المنقِذُ مِنَ الضَّلالِ » (ص ٧٥ ، ٧٦) .
وقد جمعَها بعضُهم في قوله :

بثلاثةٍ كفرَ الفلاسفةُ العِدا ... إذ أنكروها وهي قطعاً مُثبَتَة
علمٌ بجُزئيٍّ حُدوثُ عوالمٍ ... حشرٌ لأجسادٍ وكانت ميِّتَة

انظر « حاشية البجيرمي على الخطيب » (٢/١٣٨) .

لا رادَّ لأَمرِهِ ، ولا مانِعَ لِقَضائِهِ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾[1] .

وصفَ نَفسَه بالإرادَةِ ؛ فوصَفناهُ بما وصَفَ بهِ نَفسَهُ ؛ فقالَ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] ، وقالَ : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾[3] ، وقالَ : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا ﴾[4] .

ومنها : السَّمعُ : سَميعٌ ، يَسمعُ النِّداءَ ، ويُجيبُ الدُّعاءَ ، يَسمَعُ نِداءَ الضَّميرِ مِن غيرِ تعبيرٍ باللِّسانِ وتفسيرٍ[5] ، لا يَشغَلُهُ سَمْعٌ عن سَمعٍ ، ولا تشتَبِهُ عليهِ الأَصواتُ ، ولا تُغْلِطُهُ المَسائِلُ ، ولا تَختَلِفُ عليهِ اللُّغاتُ ، يَسمعُ حَفيفَ الطُّيورِ[6] ، ونِداءَ الدِّيدانِ في بُطونِ الصُّخورِ ، ودَوِيَّ الحِيتَانِ في قُعُورِ البُحورِ .

ومنها : البصرُ : بصيرٌ ، يُبصِرُ دَبيبَ النَّملَةِ السَّوداءِ في حَنادِسِ الدَّيْجُورِ[7] ، ويَرىٰ في اللَّيلةِ الظَّلْماءِ تَقلُّباتِ الهَوامِّ وهي تَمُورُ ، وصَفَ نفْسَه بالسَّمعِ والبصرِ فقالَ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[8] .

ومنها : الكَلَامُ : مُتكَلِّمٌ بكَلامٍ قَديمٍ عَجزَ عن مِثلِهِ الفُصَحاءُ ، وقَصُرَ دُونَ الإتيانِ بآيةٍ منهُ البُلَغاءُ ، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[9] .

* * *

---

(١) سورة يونس : (١٠٧) .

(٢) سورة النحل : (٤٠) .

(٣) سورة الإسراء : (١٦) .

(٤) سورة الكهف : (٨٢) .

(٥) في (ج) : (مِن غيرِ تعبيرٍ بآلةِ البيانِ والتَّفسيرِ) .

(٦) حَفيفُ الطَّائرِ : صوتُ جناحيه .

(٧) في (ج) : علَّق النَّاسخُ في الحاشيةِ بقولِه : (الحِندِسُ : اللَّيلُ الشَّديدُ الظُّلمةُ ، وليلةٌ ديجورٌ ؛ أي : مُظلِمةٌ) .

(٨) سورة الشورىٰ : (١١) .

(٩) سورة فصلت : (٤٢) .

الفصل الرّابع

في قدرة الله تعالىٰ وخلق أفعال العباد

ليسَ لأحدٍ مِنَ الخَلقِ قُدرَةٌ إلّا بما أَقدَرَه اللهُ تعالىٰ[1] ؛ فاللهُ خالِقُ القادرِ وخالقُ قُدرتِهِ ، فقُدرةُ القادِرِ وفِعلُ الفاعلِ كتأثيرِ الشَّمسِ بالحرارَةِ ، فالشَّمسُ خَلقُ اللهِ ، وتأثِيرُها في الأشياءِ ـ أيضاً ـ خَلقُ اللهِ ؛ لأنَّ المُؤثِّرَ إذا كانَ خَلقاً . . يكونُ الأثَرُ خَلقاً ، وإذا كانَ الفَاعِلُ خَلقاً . . يكونُ الفِعلُ خَلقاً .

فإنْ ظَنَّ الظَّانُّ أنَّ الفاعِلَ ذُو إرادةٍ ، بخِلَافِ الشَّمسِ . . يُقالُ لهُ : تلكَ الإرادةُ أَيضاً أثَرٌ مِنَ المُريدِ ، والمُريدُ خَلقٌ أيضاً ، فتكونُ إرادتُه خَلقاً .

فإنْ أسندَ الإرادةَ إلى العلمِ . . فنَقولُ : العلمُ أثَرٌ ووصفٌ للعالِمِ ، فإذا كانَ الموصوفُ خَلقاً . . يكونُ الوصفُ أيضاً خَلقاً .

فإنْ قلتَ : إذا كانَ اللهُ خالقَ الفعلِ ، فكيفَ يُعاقِبُ علىٰ فِعلِ[2] شيءٍ خَلَقَهُ ؟

فنقولُ : كما يُعاقِبُ خَلقاً خلَقَهُ ؛ فليسَ عُقوبَتُه علىٰ ما خَلقَ بِأبعَدَ مِنْ عُقوبَتِه مَن خَلقَ[3] ، يَفعَلُ ما يشاءُ ، ويَحكُمُ ما يُريدُ ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[4] .

ثمَّ نقولُ له أيضاً : اعلمْ : بأنَّ اللهَ خلقَ الكافرَ وكُفْرَهُ ، والفاسِقَ وفِسْقَهُ ، ثمَّ أمَرَ الكافرَ بالإيمانِ ولم يَخلُق لهُ إيماناً ، فأمرُهُ إيَّاهُ بالإيمانِ قَهرٌ مَحضٌ ، وعَدمُ خَلقِهِ لإيمانِهِ قهرٌ مَحضٌ ، وإدخالُهُ النَّارَ بسببِ الكُفرِ حيثُ خلقَ لهُ الكُفرَ قهرٌ

---

(١) في (أ) : بزيادةِ (عليه) .

(٢) قوله : (فِعلِ) ساقطٌ من (أ ، ب) .

(٣) قوله : (خلقَ) : ساقط من (أ) ، والفرقُ بين الجملتينِ في المعنىٰ يَنبني على الفرقِ بين (مَن) و(ما) في اللُّغةِ .

(٤) سورة الأنبياء : (٢٣) .

مَحضٌ ؛ لأنَّه قَهَّارٌ ، وصِفَةُ القَهرِ اقتضَت ذٰلكَ بسبَبِ الكُفرِ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾[1] .

وخَلَقَ المؤمِنَ وخلقَ لهُ إيماناً ، وخلقَ الطَّائعَ وخلقَ لهُ طَاعةً ، ولمْ يكُنْ للطَّائعِ والمُؤمِنِ في ذٰلكَ مِنَّةٌ ، وأَضافَ العملَ[2] إليهِ تكرُّماً مَحضاً ، ولمْ تكُنْ طاعتُهُ إلَّا خَلقُ اللهِ تعالىٰ ، وأسكَنَهُ الجنَّةَ بمَحضِ الكَرَمِ والفَضْلِ والرَّحمةِ ؛ لأنَّهُ الرَّحمٰنُ الرَّحيمُ ، الغفورُ الوَدودُ .

أمَا ترىٰ كيفَ جعلَ الآدَمِيَّ ذا مالٍ ، وقالَ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[3] ، والأموالُ والمُمَلَّكونَ مِلكُهُ ومُلكُهُ ؟! فقياسُك أنَّ هٰذا كيفَ ؟ ولِمَ ؟ وأنَّ هٰذا يكونُ ظُلماً . . لضِيقِ وِعَائِكَ وقُصُورِ فَهمِكَ ؛ إذْ لمْ يَنكشِفْ لكَ سِرُّ ذٰلكَ ، وتَقِيسُ أمرَ اللهِ تعالىٰ على الخَلْقِ ، جلَّ أمرُهُ سبحانَهُ عنِ القِياسِ ، وعَظُمَ عن أن يُحِيطَ بحَقِيقَتِهِ أفهامُ النَّاسِ ، وما اشتَبَهَ على الخَلْقِ مِن سِرِّ القَدَرِ فمُنِعَ الخلقُ عنِ الخَوضِ فيه ؛ لمَوضِعِ إشكَالِهِ ، وقدْ يُكشَفُ للعُلماءِ الرَّاسِخينَ بإطلَاعِ اللهِ إيَّاهُم علىٰ ذٰلكَ ؛ مِنحةً مِنهُ سبحانَهُ وتعالىٰ[4] .

---

(١) سورة المائدة : (٧٢) ، وقوله : (بسبب الكفر . . .) إلىٰ آخر الآية : مثبت من (ب) وحدها .

(٢) في (ج) : (العلمَ) .

(٣) سورة البقرة : (٢٤٥) .

(٤) من بديعِ مناظرات الإمام الأشعريِّ : ما دار بينه وبين أستاذِه أبي عليٍّ الجُبَّائيِّ في شأنِ ثلاثةِ إخوةٍ : أحدُهم كان مؤمناً برّاً تقيّاً ، والثاني كان كافراً فاسقاً شقيّاً ، والثالثُ كان صغيراً ، فماتوا ، فكيف حالهم ؟ فقال الجُبَّائي : أما الزاهد . . ففي الدَّرجات ، وأما الكافر . . ففي الدَّرَكات ، وأما الصَّغير . . فمِن أهل السَّلامة .
فقال الأشعري : إن أراد الصغير أن يذهب إلىٰ دَرجات الزَّاهد هل يُؤذَن له ؟ فقال الجُبَّائي : لا ؛ لأنه يُقال له : إنَّ أخاك إنما وصل إلىٰ هٰذه الدَّرجات بسبب طاعاته الكثيرة ، وليس لك تلك الطاعات .
فقال الأشعري : فإن قال ذٰلك الصَّغير : التقصيرُ ليس مني ؛ فإنك ما أبقيتني ولا أقدَرتني على الطَّاعةِ ، فقال الجُبَّائي : يقول الباري جلَّ وعلا : كنتُ أعلم أنك لو بقيت . . لعَصيت وصِرت مُستحقاً للعَذابِ الأليم ، فراعيتُ مصلحتك .
فقال الأشعري : فلو قال الأخ الكافر : يا إلٰه العالمين ؛ كما علِمت حاله . . فقد علمتَ حالي ، فلمَ رَاعيتَ مصلحته دوني ؟ فقال الجُبَّائي للأشعري : إنَّك لمجنون ، فقال : لا ، بل وقف حمارُ الشَّيخ في العَقبة ، فانقطَع الجُبَّائي . ينظر « وفيات الأعيان » (٤/٢٦٧) .

ثمَّ اعلمْ : أنَّهُ لا يكونُ مِنكَ فِعلٌ إلَّا بحركةِ جارِحَتِكَ ، وجارِحَتُكَ لا تَتحرَّكُ إلَّا بإرادةٍ تَنشَأُ مِنَ القلبِ ، فلولا إرادةُ القلبِ . . ما تَحرَّكَتِ الجارِحَةُ حرَكةً مَخصُوصَةً في أمرٍ مَخصُوصٍ ومَحلٍّ مَخصُوصٍ ، ولَكانَتِ الجارِحَةُ كالجمادِ ، فَمَا صارَ الفِعلُ فِعلاً إلَّا بإرادةِ القَلبِ ، والقَلبُ أمِيرُ الجوارحِ ؛ فَجارِحَتُكَ جمَادٌ لولا قَلبُكَ ، ونِسبَةُ قلبِك إلى اللهِ تعالىٰ كنِسبَةِ جارِحَتِك إلىٰ قلبِك ، فلولا إحداثُ الإرادةِ في القلبِ وخَلقُ اللهِ تعالىٰ إيَّاها . . لكانَ القَلبُ أيضاً جَماداً ، فصارَتِ الجارِحَةُ ذاتَ فِعلٍ بالقلبِ ، وصارَ القلبُ ذا إرادَةٍ باللهِ تعالىٰ ، فاللهُ خَلَقَ الإرادةَ في القَلبِ وأَحدَثَها ، فيكونُ الفِعلُ بإرادةِ القَلبِ ، وتكونُ إرادةُ القلبِ باللهِ ، فيكونُ الفِعلُ إذاً باللهِ تعالىٰ .

فإنْ قلتَ : كيفَ يُضافُ إليَّ ضَمانُ المُتْلَفاتِ وأُرُوشُ[1] الجِنَاياتِ وتُقامُ فيَّ الحُدودُ ؟

يُقالُ لك : الفِعلُ مِنَ اللهِ تعالىٰ خَلْقاً ، ومِنكَ كَسْباً ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ عالَمَ الحِكمَةِ ، ودبَّرَهُ بالأَسبابِ والوَسائطِ ، والآلاتِ والأَدواتِ ، وخلقَ كُلَّ شيءٍ ، وأضافَ كُلَّ شيءٍ إلىٰ شيءٍ ، والكُلُّ منهُ وبِهِ ، فلَا تَجعَلْ للشَّيءِ وُجوداً على الِاستقلالِ والِاستِبدادِ ، ولا تكُن قاصِرَ النَّظَرِ ، فأيُّ فِعلٍ لكَ ؟! وأيُّ وُجودٍ[2] لكَ إلَّا ما وَهَبَ لكَ وَاهِبُ الوُجودِ سُبحانَهُ وتعالىٰ ؟!

ولا تَعلَم غيرَ هٰذا ؛ حتَّىٰ لا يكونَ ما تقولُهُ وتَتَوهَّمُهُ إشراكاً في الرُّبوبيَّةِ ، واللهُ تعالىٰ يتولَّى الصَّالحينَ .

* * *

---

(١) الأروش : هي ديةُ الجوارح والأعضاء . ينظر « الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي » (ص ٣٦٦) .
(٢) في (ب) : (شيء) .

الفصل الخامس

في كلام الله تعالىٰ وخوض النّاس في ذٰلك

اعلم : أنَّ كلامَ اللهِ تعالىٰ عَظِيمٌ ؛ إذْ عَظَمَةُ الكلَامِ علىٰ قَدْرِ عَظَمَةِ المتكلِّمِ بهِ ، فكلَامُ اللهِ عَظُمَ بعظَمَتِهِ ، وجَلَّ بجَلالِهِ ، وكَبُرَ بكِبريائِهِ ، وقَرُبَ ودَنَا بِوَعدِهِ وَوَعيدِهِ وحُدُودِهِ وأَحكامِهِ وأَنبائِهِ ، وبَعُدَ ونَأىٰ بِكُنْهِهِ وغايَتِهِ وعِظَمِ شأنِهِ وقَهرِ سُلطانِهِ وسُطوعِ نُورِهِ وضِيائِهِ ، فهو عالي الرُّتبةِ ، عَظِيمُ المنزلةِ ، ناهِيكَ بِعِظَمِ شأنِهِ قولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (1) .

فمِثَالُه مِن عالَمِ الشَّهادةِ : الشَّمسُ الَّتي يَنتفِعُ الخلقُ بشُعاعِها وَوَهَجِها ، ولا قُدرةَ لأَحَدٍ مِنَ الخلقِ أن يَقْرَبَ مِن جِرْمِها إنْ لو وجدَ إلىٰ ذٰلكَ سبيلاً .

فَمِنْ قائلٍ : بأنَّهُ لا حَرفَ ولا صَوتَ لمَّا عَظُمَ عليهِ أنْ يَحضُرَ ، ومِن قائلٍ : إنَّهُ حرفٌ وصوتٌ لمَّا عزَّ عليهِ أنْ يَغِيبَ ، ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ (2) .

فالقائلُ الأوَّلُ : نَفَرَ (3) لِما رأىٰ مِن مَزْجِ الحدَثِ بالحُروفِ والأَصواتِ ، فقال : لا حَرفَ ولا صَوتَ ؛ صِيانةً للقديمِ عن مَزْجِ الحَدَثِ .

والقائلُ الثَّانِي : رأَىٰ أَشِعَّةَ العَظَمَةِ القديمَةِ تَخْرِقُ أجْرامَ الأصواتِ واللُّغاتِ ؛ فقالَ : هو حَرفٌ وصَوتٌ ، كما قيلَ : [من الكامل]

رَقَّ ٱلزُّجَاجُ وَرَقَّتِ ٱلْخَمْرُ ... وَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ ٱلْأَمْرُ

---

(1) سورة الإسراء : (٨٨) .

(2) سورة البقرة : (١٤٨) .

(3) في (هـ) : (نَفَىٰ) .

فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدَحٌ   وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرُ (١)

فالسَّبيلُ الأمثَلُ والطَّريقُ الأعدَلُ ، أيُّها الإخوَانُ مِنَ الطَّائفَتَينِ : أنْ تَترُكا المُنازَعةَ فيما حمَلَ كُلُّ واحدٍ مِنَ الطَّائفتَينِ أنْ يخُوضَ فيما خَاضَ فيهِ ، ويَتَعرَّضَ لِمَا تَعرَّضَ لهُ ، إلَّا ما بُليَ بهِ مِنْ تَعلُّقِ الشُّبَهِ بِبَواطِنِ أَهلِ الزَّمانِ ؛ فأَحْوَجَهُ أمرُ الوقتِ أن يَشرَعَ فيما لمْ يَشرَعْ فيهِ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ورضِيَ عنهُم ، حيثُ بُليَ بما لم يُبْلَ بهِ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الأَهواءِ المختلِفَةِ ؛ وإلَّا . . فلَا يَخفَىٰ على العاقلِ أنَّ العَبدَ إذا قالَ : القرآنُ كلَامُ اللهِ تعالىٰ ، واعتقَدَ أنَّه يَجِبُ عليهِ اتِّباعُ أمرِهِ ، واجتِنابُ نَهيِهِ ، والِالتزامُ بأَحكامِهِ ، وحَلالِهِ وحَرامِهِ ، واستِماعُ وَعدِهِ وَوَعِيدِهِ ، والقيامُ بحُقوقِهِ وحُدودِهِ ، ولا يتَعرَّضُ بعدَ ذٰلكَ لِقِدَمٍ وحَدَثٍ ، وتِلاوةٍ ومَتْلُوٍّ ، وحَرفٍ وصَوتٍ . . لا يَضُرُّه ذٰلكَ شيئاً ، ولا يَفُوتُهُ مِمَّا يَجِبُ عليهِ شيءٌ .

فما تصوَّرَهُ مِنَ المسألةِ : أنَّهُ إنْ لم يَقُلْ كذا . . يَلزَمُ منه كذا ؛ فلعلَّه يَعِيشُ مئةَ سنةٍ ولا يَخطُرُ ببَالِهِ شيءٌ مِمَّا تَصوَّرَهُ ، فدَعْهُ يَمضِي لِسَبيلِهِ .

فهٰذا الطَّريقُ القَويمُ والمنهَجُ المُستقِيمُ ، وإلَّا . . فمتَىٰ تَعرَّضْتَ لِلقِدَمِ . . تعرَّضَ الخصمُ لِلحَدَثِ ، وأنتَ تُكَفِّرُهُ وهو يُكَفِّرُكَ ، وما أرى التَّكفِيرَ إلَّا قَولاً مِن غيرِ فِعلٍ بمُقتَضاهُ ؛ فالَّذي تُكفِّرُهُ أراكَ تُخالِطُهُ وتُمازِجُهُ ، وتُوادُّهُ وتُزَوِّجُهُ ، وكَفاكَ أنَّ فِعلَكَ يُكَذِّبُ قولَكَ ، فلا أراكَ تَزيدُ خَصْمَكَ بقَولِكَ إلَّا إغراءً وعَصَبيَّةً وغَيظاً ، فاعمَلْ في تِلاوةِ كتابِ اللهِ آناءَ لَيلِكَ وأَطرَافَ نهارِكَ ، وتَدبَّرْهُ في صَلاتِكَ وغيرِ صَلاتِكَ ؛ فإنَّهُ كتابُ اللهِ إليكَ ، وحُجَّتُه عليكَ .

فالمُنازَعةُ في ذٰلكَ : كمَنْ يأتِيهِم كتابٌ مِن سُلطانٍ يأمرُهُم فيهِ ويَنهاهُم ،

---

(١) هما للصاحب إسماعيل بن عبَّاد ، كما في « وفيات الأعيان » (١/٢٣٠) ، و« سير أعلام النبلاء » (١٦/٥١٣) ، وانظر « ديوانه » (ص ١٧٦) .

فَهُم يتَشَاجَرُونَ في أنَّ الكتابَ : كيفَ خَطُّهُ ؟ وكيفَ عِبارَتُهُ ؟ وأيُّ شيءٍ فيهِ مِن صَنْعَةِ الفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ ؟ ويَذْهَلُونَ عن صَرْفِ الهَمِّ إلى الاِنتِدابِ إلىٰ ما نُدِبُوا إليهِ ، واللهُ بفَضلِهِ يُلهِمُ الصَّوابَ .

الفصل السّادس

القول في الآيات والأخبار الواردة في الصّفات

أخبرَ الحقُّ سبحانه وتعالىٰ أنَّهُ اسْتَوىٰ ؛ فقالَ تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[1] .

وأخبرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالنُّزُولِ وغيرِ ذٰلكَ مِمَّا جاءَ في اليدِ والقَدَمِ والتَّعجُّبِ والتَّردُّدِ .

وكلُّ ما وَرَدَ مِن هٰذا القَبيلِ دَلائلُ التَّوحيدِ ، فلا تتصرَّفْ فيها بِتَشبيهٍ وتَعطِيلٍ ؛ فلَولا إخبارُ اللهِ تعالىٰ ، وإخبارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ . . ما تَجاسَرَ عقلٌ أن يَحُومَ حولَ ذٰلكَ الحِمَىٰ ، وتَلاشَىٰ دونَ ذٰلكَ عقلُ العُقلاءِ ولُبُّ الألِبَّاءِ ، فاللهُ تعالىٰ دَنا مِن عبادِه بما أَخبرَ ، ودلَّ علىٰ نَفسِهِ بما أظهرَ ، ورفَعَ حِجاباً مِنَ الحُجُبِ عن وَجهِ الكِبْرِياءِ ، وكَشَفَ شيئاً مِن سُبُحَاتِ العَظَمَةِ والعَلاءِ ، فكُلُّ أَخبارِ الصِّفاتِ تَجلِّياتٌ إلٰهيَّةٌ ، وكُشُوفٌ وأَلطافٌ جَلِيَّةٌ ، عَقَلَ مَن عَقَلَ ، وَجَهِلَ مَن جَهِلَ ، فلا تَبعُدْ عنِ اللهِ بالتَّشبيهِ وقدْ قَرُبَ مِنكَ ، ولا تَفِرَّ منهُ بالتَّعطِيلِ وقدْ دَنَا إليكَ ، أَطلِقْ لِسانَ الِاستِواءِ وأَعرِضْ عنِ الكَيفِيَّةِ ، وهٰكذا سائرُ الصِّفاتِ ، فهو سبحانَهُ بما تَجلَّىٰ لِعبادِهِ بهٰذِهِ الأَخبارِ ظَاهرٌ ، وبما قَصُرَتِ العقولُ عن إدراكِ كُنْهِها وكَيفِيَّتِها باطِنٌ ، فلا تَستَكشِفْ مِن عَظِيمِ شأنِهِ ما بَطَنَ ، ولا تَستَشِفَّ مِن عُلُوِّ سُلطانِهِ ما انكَمَنَ .

وإيَّاكَ ـ أيُّها الرَّاغِبُ في الدُّنيا ، الغالِبُ عليهِ محبَّةُ الجَاهِ والعُلُوِّ والرِّفعةِ بينَ النَّاسِ ـ أن تَتَصَرَّفَ فيها بعِلمِكَ ؛ فإنَّها أسرارٌ وإنْ كانَتْ أَخباراً ، وأَنتَ مَريضٌ ؛

---

(١) سورة طه : (٥) .

فَداوِ أَوَّلاً مِزَاجَ قلبِكَ مِنْ مَرَضِ الميلِ إلى الدُّنيا الفانِيَةِ ؛ حتَّىٰ يَستَقِيمَ مِزاجُ عَقلِكَ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ المُتصرِّفِينَ في ذٰلكَ مِنَ الطَّوائفِ مأجُورونَ ؛ مِن حيثُ إنَّهُم قَصَدُوا التَّوحِيدَ ، ومُؤاخَذُونَ مِن حيثُ إنَّهُم عَدَلُوا عنِ المنهَجِ القَويمِ ، والإخلادِ إلى التَّشبيهِ والتَّعطِيلِ .

فانظُر ـ أيُّها المُنصِفُ ـ ودَعْ عنكَ الهوَىٰ والعَصبيَّةَ ، ورَاجِعْ فِكرَكَ مِن غيرِ فَظاظَةٍ وغِلَظٍ ، واتَّقِ اللهَ في نفسِكَ ودِينِكَ أن تُطلِقَ القَولَ في أَخِيكَ المُسلمِ بِسُرْعَةِ طَبْعِك ونُفُورِ نفْسِكَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ عندَ كَلِمَةِ كلِّ قائلٍ .

واعلمْ أيُّها الأخُ الحَنبليُّ : أنَّ أَخاكَ الأشعريَّ ما ذَهبَ إلى التَّأويلِ إلَّا لِمَا تَوهَّمَ مِن مُخامَرةِ البَواطنِ مِنَ التَّشبيهِ والتَّمثِيلِ ، ولو سَلِمَ لهُ مُجرَّدُ الِاستواءِ . . ما أوَّلَ ، وأَيُّ حاجَةٍ كانَ لهُ إلىٰ ذٰلكَ لولَا خَوفُ التَّشبيهِ ؟!

وأيُّها الأخُ الأَشعَرِيُّ : أنَّ أَخاكَ الحَنبليَّ خَوفُهُ مِنَ النَّفيِ والتَّعطِيلِ حمَلَهُ على المُبالَغةِ والإصرارِ ، ومُخامَرَةٍ خَفِيَّةٍ مِنَ الِاستِقرارِ .

فَليُصالِحْ أحَدُكما الآخَرَ ؛ يُزِيحُ الحَنبليُّ عنْ باطنِهِ المُخامَرةَ الخَفِيَّةَ في الِاستقرارِ ؛ فالِاستواءُ لا يَفُوتُهُ ، ويُزِيحُ الأَشعريُّ عنْ باطنِهِ خَوفَ التَّشبِيهِ ، ولا يَخلُدُ إلى التَّأوِيلِ ؛ فالِاعتِرافُ بمُجرَّدِ الِاستِواءِ لا يَضُرُّهُ .

وليقُولَا جميعاً ؛ إثباتاً مِن غيرِ تَشْبِيهٍ ، ونَفياً مِن غيرِ تَعطِيلٍ : آمَنَّا بما قالَ اللهُ علىٰ ما أرادَ اللهُ ويَليقُ باللهِ ، وآمَنَّا بما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ علىٰ ما أرادَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ .

فَعِلمُ تلكَ الأَسرارِ مَوكُولٌ إلى اللهِ ورسُولِهِ .

وما أَحسَنَ قَولَ القائلِ : (الِاستِواءُ مَعلُومٌ ، والكَيْفِيَّةُ مَجْهُولَةٌ ، والإيمانُ بهِ واجِبٌ ، والسُّؤالُ عنه بِدعَةٌ) ![1] .

---

(١) انظر « الاعتقاد » للبيهقي (ص ١١٩) .

ثمَّ أَزيدُ إيضَاحاً وتَوطِئةً لِلصُّلحِ ، واللهُ يَعلَمُ أنَّ القصدَ فيه صالِحٌ ، ومِن أَتَمِّ العباداتِ إجراءُ إصلاحِ ذاتِ البَيْنِ ، ويَدعُو إلىٰ هـٰذا الفنِّ مِنَ الإيضاحِ ما نُقِلَ عن طائفةٍ مِنَ السَّلفِ التَّصريحُ بالِاستِقرارِ في تفسيرِ الِاستِواءِ [1] :

اعلَم : أنَّ البَواطِنَ في زَمنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وفي غيرِ زَمانِه لم تكُن علىٰ صِفَةٍ واحدةٍ مِن حيثُ غَرائِزُها وجِبِلَّاتُها ؛ بلْ بعضُها كانَتْ أَقوَىٰ مِن بَعضٍ ، وأَتمُّ فَهماً وعِلماً ، وأَكمَلُ استِعداداً ، ولِاختِلافِ الِاستِعداداتِ تَنوَّعت مَراتِبُ الدَّعوةِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [2] ؛ فلِسانُ الحِكمَةِ جُعِلَ رُتبةً في الدَّعوةِ لبَواطِنَ قابِلَةٍ لذٰلكَ صالِحَةٍ لهُ ، ولِسانُ المَوعِظَةِ لِبَواطِنَ أُخَرَ صالِحَةٍ لذٰلكَ ، والمُجادَلَةُ لآخَرِينَ ؛ فكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُكلِّمُ النَّاسَ علىٰ قَدْرِ عُقُولِهم [3] ؛ وبِنُورِ باطنِه الصَّافِي يُشْرِفُ على البَواطِنِ ويُودِعُ في كُلِّ وِعاءٍ ما يَصْلُحُ لهُ .

---

(1) من ذٰلك : ما أخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات » (٨٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، يَقُولُ : اسْتَقَرَّ عَلَى الْعَرْشِ ، وَيُقَالُ : امْتَلأَ بِهِ ، وَيُقَالُ : قَائِمٌ عَلَى الْعَرْشِ ، وَهُوَ : السَّرِيرُ .

وقال ابنُ جماعة في « إيضَاحِ الدَّليل في قَطع حجج أهلِ التعطيل » : (ص ٤٣) : (وما نُسِب إلى ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قالَ في قولِه تعالى : ﴿ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ : استقر على العَرشِ وقد امتَلأ به ، أو صَعد إليه ، أو استَوت عنده الخَلائق ، وما إلىٰ ذٰلك . . فذٰلك من روايةِ أبي صالح ومحمد بن مَروان الكَلبي . قال البيهقي : كُلهم متروكٌ عند أهل العلمِ بالحديثِ ، لا يحتجُّون بشيءٍ من رواياتِهم ؛ لكثرةِ المناكِير فيها ، وظهورِ الكَذبِ منهم في رواياتِهم) . وانظر « الأَسماء والصِّفات » للبيهقي (٣١١/٢) .

(2) سورة النحل : (١٢٥) .

(3) أخرج خيثمة بن سليمان في « حديثه » (ص ٧٥) ، من مَراسيل سعيدِ بن المُسيِّب ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّا معاشرَ الأنبياءِ كذٰلك أُمرنا أن نكلِّمَ النَّاسَ بقَدْرِ عُقولِهم » .

وأخرج البخاري (١٢٧) عن عليٍّ رضي الله عنه قال : (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ؛ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟!) .

وأخرج مسلم في « مقدمة الصحيح » (١١/١) ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْماً حَدِيثاً لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ . . إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً » .

فلا تَظُنَّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حيثُ أطلقَ القولَ في النُّزولِ [١] ، ونَزلَتْ عليهِ آيةُ الاستِواءِ . . كان عندَ الكُلِّ مِنَ المُستَمِعِينَ [٢] فَهْمُ ذٰلكَ على السَّواءِ ؛ بلْ تَفاوتُوا في الفَهمِ علىٰ حَسَبِ تَفَاوُتِهِم في كُلِّ زمانٍ .

والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اطَّلَعَ علىٰ تَنوُّعِ فُهُومِ البَواطِنِ ، وقَرَّرَ [٣] كلَّ ذِي عَقْلٍ علىٰ عَقلِهِ ، وكلَّ ذِي فهمٍ علىٰ فهمِهِ ، وحيثُ أشارَتِ الخَرْسَاءُ [٤] إلى السَّماءِ . . اكتَفىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منها بذٰلكَ إيماناً وتَوحيداً .

---

(١) يُشيرُ إلىٰ أحاديثِ النُّزول ، ومنها ما أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ » .
وقد جَمَعَ الحافظ الدارقطني كتاباً في أحاديث النزول .

(٢) يعني : من سمعوا منه مشافهة بلا واسطة ، ومن سمعوا منه بوساطة أو وسائط ؛ بدلالة قوله : (تَفَاوُتِهِم في كُلِّ زمانٍ) .

(٣) قَرَّرَ الأمرَ : رضِيَه وأمضاه ، ويُقال : قرَّرَ المسألةَ أو الرَّأي ؛ وضَّحه وحقَّقه . ينظر « المعجم الوسيط » مادة (ق ر ر) .
قلتُ : وعلى المعنَى الأول يَنسحِبُ كلامُ المصنِّفِ رحمه الله .

(٤) يشير إلىٰ حديث سيدنا معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه ، وفيه قول النَّبي صلى الله عليه وسلم للجاريةِ : « أَيْنَ ٱللهُ ؟ » قَالَتْ : فِي السَّمَاءِ ، قَالَ : « مَنْ أَنَا ؟ » قَالَتْ : أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، قَالَ : « أَعْتِقْهَا ؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ » ، أخرجه مسلم (٥٣٧) .
وقال الحافظ ابن حجر في « التلخيص الحبير » (٢٤٩٦/٥) : (ليس في شيءٍ مِن طُرقِه أنَّها خرساء) .
وقال النووي في « شرح صحيح مُسلم » (٢٤/٥) : (هَـٰذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ ، وَفِيهَا مَذْهَبَانِ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمَا مَرَّاتٍ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ ؛ أَحَدُهُمَا : الْإِيمَانُ بِهِ مِنْ غَيْرِ خَوْضٍ فِي مَعْنَاهُ ، مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَتَنْزِيهِهِ عَنْ سِمَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ . وَالثَّانِي : تَأْوِيلُهُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ ؛ فَمَنْ قَالَ بِهَـٰذَا . . قَالَ : كَانَ الْمُرَادُ امْتِحَانَهَا : هَلْ هِيَ مُوَحِّدَةٌ تُقِرُّ بِأَنَّ الْخَالِقَ الْمُدَبِّرَ الْفَعَّالَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ ؟ وَهُوَ الَّذِي إِذَا دَعَاهُ الدَّاعِي اسْتَقْبَلَ السَّمَاءَ ؟ كَمَا إِذَا صَلَّى الْمُصَلِّي . . اسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ ، وَلَيْسَ ذَٰلِكَ لِأَنَّهُ مُنْحَصِرٌ فِي السَّمَاءِ ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مُنْحَصِراً فِي جِهَةِ الْكَعْبَةِ ، بَلْ ذَٰلِكَ لِأَنَّ السَّمَاءَ قِبْلَةُ الدَّاعِينَ ، كَمَا أَنَّ الْكَعْبَةَ قِبْلَةُ الْمُصَلِّينَ ، أَوْ هِيَ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ الْعَابِدِينَ لِلْأَوْثَانِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، فَلَمَّا قَالَتْ : فِي السَّمَاءِ . . عَلِمَ أَنَّهَا مُوَحِّدَةٌ ، وَلَيْسَتْ عَابِدَةً لِلْأَوْثَانِ . . .) .

غيرَ أنَّ البَواطِنَ جَمِيعَها كانَتْ في ظِلِّ فِناءِ العِصْمَةِ ، غَشِيَها وَقَارُ النُّبُوَّةِ وأُبَّهةُ الرِّسالَةِ ، فلَم يَظهَرْ بينَهم نِزَاعٌ ، ولا اشْتَهرَ خِلافٌ ؛ فبَقِيَتِ النُّفوسُ راكِدَةً راقِدَةً عنِ استِعْجالِها وطَيْشِها وسُرْعَةِ نُفُورِها ، وكلَّما تمادَى الوقتُ ، وتَوارَتْ أشِعَّةُ شَمسِ العِصْمَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وبَعُدَ عَهْدُ الرِّسالَةِ . . دَبَّ الخِلافُ والِاختِلافُ[1] في الأُمَّةِ إلىٰ أن تَفاحَشَ وكَثُفَ ، وأَفضَى الأمرُ إلى التَّكفيرِ والسَّبِّ ، وَوَثَبَتِ النُّفوسُ وُثُوبَ الثُّعبانِ ، وظَفِرَ بتَكدُّرِ صَفْوِ العقائدِ الشَّيطانُ .

فإذا عَلِمتَ هـٰذا السِّرَّ . . **فاعلَم** : أنَّ الغَرائِزَ على اختِلافِها وتَنوُّعِها لا تَتَّفِقُ البَواطِنُ علىٰ صَفاءِ الفَهمِ ، ولا تَهتَدِي بأَسرِها إلى الحقِّ الصِّرْفِ ، ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[2] ، ولٰكِنِ انظُرْ إلى المقاصِدِ ؛ إذْ كُلٌّ مِنهم يَتحرَّىٰ ويَجتهِدُ في إصابَةِ الصَّوابِ ، فمَنْ رَأيتَهُ تحتَ عِصْمَةِ الإسلامِ ، مُلتَزِماً بالأَحكامِ ، مُعتَرِفاً بالحلالِ والحرامِ ، مُتوجِّهاً إلى الكعبَةِ البيتِ الحَرامِ . . اعتَقِدْ أنَّهُ أَخوكَ المسلمُ .

ثمَّ اعلم : أنَّ كثيراً مِن أَهلِ العلمِ قدْ يَظهَرُ لهم صِحَّةُ قَولِ الخصْمِ ، ولٰكنْ لما يَرىٰ أنَّ الأَتباعَ مِنَ العَوامِّ مُلتَزِمونَ بِعَقِيدَتِهِ يَكرَهُ أن يُظْهِرَ ما يُضمِرُهُ ؛ كي لا يَكْسَدَ سُوقُهُ عندَهُم ، فانظُر إلىٰ هـٰذه الفِتنَةِ ! إذْ يَصِيرُ العالِمُ تَبَعاً للعامِيِّ ، وكانَ الأَجْدَرُ أنْ يكونَ الأَمرُ بعكسِ ذٰلكَ ، واللهُ المُستعانُ علىٰ ما نَزَغَ بهِ الشَّيطانُ .

❁ ❁ ❁

---

(١) قال الكفوي في « الكُلِّيَّات » (٦١/١) : (الاختلافُ مِن آثارِ الرَّحمةِ ، والخلافُ مِن آثارِ البِدعةِ ، ولو حَكَمَ القاضي بالخلافِ ورُفِعَ لغيرِه . . يجوز فسخُه ، بخلافِ الاختلافِ ؛ فإنَّ الخِلافَ هو ما وَقَعَ في محلٍّ لا يجوز فيه الاجتهادُ ؛ وهو ما كان مخالفاً للكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ) .

(٢) سورة هود : (١١٨ ـ ١١٩) .

الفصل السّابع

في رؤية الله تعالىٰ وتقدّس

صَحَّ في الخبرِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إِنَّ لِلَّهِ سَبْعَةً وَسَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ ، لَوْ كُشِفَ وَاحِدٌ مِنْهَا . . أَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَنْ أَدْرَكَتْهُ »[1] .

رُؤيةُ العِيانِ مُتعذِّرَةٌ في هٰذه الدَّارِ ؛ لأنَّها دارُ الفَناءِ ، وإنَّ الآخِرَةَ هي دارُ القَرارِ[2] ، فهٰذا الحديثُ مُشترِكُ الدَّلَالةِ ؛ دليلٌ لمَن أنكرَ الرُّؤيةَ مِن حيثُ أخبرَ أنَّه لو كَشَفَ . . أَحرَقَ ، ودليلٌ لمن أَثبَتَ الرُّؤيةَ مِنْ حيثُ جعلَ رُؤيةَ الكَشْفِ مَعذوقاً بالإحراقِ والإفناءِ والإهلَاكِ ؛ وإنَّما يكونُ ذٰلك إذا ورَدَتِ الرُّؤيةُ علىٰ مَحلٍّ قابلٍ للفَناءِ والهلاكِ ؛ فالعبدُ إذا تَبوَّأَ دارَ القَرارِ ، وأُلبِسَ خِلَعَ البقاءِ والِاستقرارِ ، وصار يَعُومُ في بحرِ الأَنوارِ ، وقَعَدَ في مَقْعَدِ الصِّدقِ ومَخْدَعِ الوِصالِ . . ينطلقُ مِن وَثاقِ الفَناءِ والزَّوالِ ، فتُكشَفُ حينَئِذٍ الحُجُبُ ، وتَتَجَلَّى السُّبُحاتُ ، فتُصادِفُ مَحلّاً أَمِنَ مِنَ الِاحتراقِ والآفاتِ ، وصارَتِ الصِّفاتُ علىٰ غيرِ طبيعَةِ هٰذه الصِّفاتِ ، وكلَّما أُترِعَتْ له كُؤوسُ التَّجلِّي . . استَغاثَ بـ (هَلُمَّ) و(هاتِ) .

---

(١) أورده الغَزالي في « إحياء علوم الدين » (١٠١/١) ، بنحوه ، وأخرج أبو الشيخ في « العظمة » (٦٦٩/٢) من حديث سيدنا أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قال رسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريلَ : « هَلْ تَرَىٰ رَبَّكَ ؟ قَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نَارٍ أَوْ نُورٍ ، لَوْ رَأَيْتُ أَدْنَاهَا . . لَاحْتَرَقْتُ » .
وأخرجه أيضاً (٦٦٧/٢) من حديث زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بنحو حديث أنسٍ رضي الله عنه .
وفي « صحيح مسلم » (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ الله عنه قال : قام فِينا رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخمسِ كلماتٍ ، فَقالَ : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ : النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ . . لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » .
(٢) في (ج) : (والآخرة دارُ البقاء) .

فَسُبحانَهُ وتعالىٰ تَراهُ القلوبُ بِنَظَرِ الإيمانِ في الدُّنيا ، وتَراهُ الأبصارُ بِنَظَرِ العِيَانِ في الأُخْرَىٰ ؛ صَحَّ الخبَرُ : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَمَا تَرَوْنَ ٱلْقَمَرَ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ ، لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ »[1] .

شَبَّهَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ النَّظرَ بالنَّظَرِ ، لا المَنظُورَ بالمَنْظُورِ .

فَلِقَومٍ مِنَ العُلَماءِ نصيبٌ مِن علمِ اليقينِ في الدُّنيا ، ولآخَرِينَ أَعلَىٰ منهم رُتبةً نَصِيبٌ مِن عَينِ اليقينِ ؛ كما قالَ قائِلُهم[2] : رأَىٰ قَلبِي ربِّي ، وكما قال حارِثَةُ : (أَصبَحتُ مؤمِناً حقّاً)[3] ، حيثُ كُشِفَ لهُ رُتبةٌ في الإيمانِ غيرَ الرُّتبَةِ الَّتي علِمَها .

ولهٰذهِ المُطالَعَةِ كانَ مُعاذٌ يقولُ : (تعالَوا حتَّىٰ نُؤمِنَ سَاعةً)[4] .

وهٰذا يدلُّكَ علىٰ تَفاوُتِ الإيمانِ وزِيادَتِهِ ونُقْصَانِهِ ، وهو مَذْهَبُ بعضِ العُلماءِ ، ومذهبُ البعضِ : أنَّه لا يَزيدُ ولا يَنْقُصُ ، وكُلُّ قائلٍ فلِقَولِهِ وجْهٌ ومَخرَجٌ .

فقدْ يَصِيرُ لجَمعٍ مِنَ العُلماءِ المتَّقِينَ الزَّاهدِينَ عينُ اليقينِ ؛ بِحَيثُ يُناهِزُ إيمانُهُم المحْسُوسَ ، كما قالَ قائلُهم[5] : (لو كُشِفَ الغِطاءُ . . ما ازدَدْتُ يَقِيناً) ، يصيرُ الغيبُ عندَهُم كالعَينِ ، ويَزدادُونَ في القِيامَةِ رُتبةً في الرُّؤيَةِ غيرَ ما وصَلوا إليها في الدُّنيا .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) من حديث سيدنا جريرٍ رضي الله عنه بنحوه .

(٢) نسبه الغزالي في « إحياء علوم الدين » (١٥/٣) لسيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البزار في « المسند » (٦٩٤٨) ، والبيهقي في « شُعَب الإيمان » (١٠١٠٦) من حديث سيدنا أنسٍ رضي الله عنه ، وأخرجه السُّلَمي في « الأربعين في التَّصوُّف » (٥) ، والبيهقي في « شُعب الإيمان » (١٠١٠٧) من حديث سيدنا الحارث بن مالك رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلَّام في « الإيمان » (٢٠) ، وابن أبي شيبة في « الإيمان » (١٠٥) بنحوه .

(٥) نسبه القشيري في « الرسالة » (ص ٤٣٤) إلىٰ عامر بن عبد القيس ، وقال ابنُ قيم الجوزية في « مدارج السالكين » (٤٠٠/٢) : (ليس هٰذا مِن كلامِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولا مِن قولِ عليٍّ ، كما يظنُّه مَن لا عِلمَ له بالمنقولات) .

فيا أيُّها الأخُ المُنكِرُ للرُّؤيةِ ؛ ليسَ الأَمرُ علىٰ ما بلَغَهُ فَهمُكَ ؛ لأنَّكَ ما فَهِمتَ الرُّؤيةَ إلَّا بواسِطَةِ الأَشِعَّةِ المُنبَعِثَةِ مِنَ الحَدَقةِ ، وَشَرطِ اعتِدَالِ المسافَةِ والهواءِ الشَّفَّافِ .

وهٰذا الفَنُّ الَّذي فَهِمْتَه عالَمُ الملكِ والشَّهادَةِ ، والعينُ والحَدَقةُ يومَ القِيامةِ لا تَبقَىٰ علىٰ هٰذه الطَّبيعَةِ المفهُومَةِ في الدُّنيا ، وتَنخرِقُ القُدرةُ إلى الحِكمَةِ ، والحِكمَةُ إلى القُدرةِ ، والقلبُ إلى العَينِ ، والعَينُ إلى القلبِ ، ويكونُ الهواءُ غيرَ ما عَلِمْتَهُ ، والشُّعاعُ غيرَ ما فهِمتَهُ ، والألـوانُ والأكـوانُ علىٰ غيرِ مألُوفِكَ ومَعهُودِكَ ، و﴿ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[١] .

فأيُّها المَحصُورُ في عالَمِ المُلكِ والشَّهادَةِ ؛ ابرُزْ إلىٰ عالَمِ المَلَكُوتِ والغَيبِ ، واصعَدْ مِن مُقَعَّرِ الجهاتِ والآلاتِ والأدَواتِ ، وقُل : آمنتُ بأنَّ اللهَ يراهُ المؤمِنُونَ ، والكفَّارُ عنهُ مَحجُوبونَ ؛ كما أَخبرَ بهِ التَّنزيلُ ، وقامَ علىٰ صِحَّتِهِ واضِحُ البُرهانِ والدَّليلِ .

وهٰذا الفنُّ علمٌ مستَقِلٌّ بنفسِهِ ، ولهُ علماءُ مَوجُودونَ في الدُّنيا ، فاطلُبْهُم واصحَبْهُم ؛ حتَّىٰ تَشمَلَكَ بَرَكَتُهم ، وتَنفَتِحَ بَصِيرتُكَ ، فتَعلَمَ أنَّ القُدرةَ كيفَ تَنخَرِقُ[٢] إلى الحكمَةِ ، وكُلُّ هٰذا الَّذي تَسمَعُه تَراهُ وتُشاهِدُهُ ، ولا تَجنَحْ إلىٰ قولِهِ سُبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[٣] ؛ فليسَ ذٰلكَ دَليلاً يَنفِي الرُّؤيةَ .

واعلمْ : أنَّ العَينَ في الآخرةِ بمنزلةِ القَلبِ في الدُّنيا ، والقَلبُ يعلمُ ويَرىٰ ، ولٰكنْ لا يُدرِكُ ؛ إذِ الإدراكُ غَيْرٌ ، والرُّؤيَةُ غَيْرٌ ؛ فهو سُبحانَهُ وتعالىٰ مَرئِيٌّ للقلبِ ، مَعلُومُهُ غيرُ مُدرَكٍ له ، وهٰكذا في القِيامةِ مَرئِيٌّ للعَينِ غيرُ مُدرَكٍ لها ؛

---

(١) سورة إبراهيم : (٤٨) .

(٢) في (ب) : (فتعلم كيف تَنخَرِقُ القدرةُ إلى الحكمةِ) .

(٣) سورة الأنعام : (١٠٣) .

إذْ جَلَّ أمرُه عنِ الإدراكِ ، إذِ الإدراكُ يُؤذِنُ بالِاشتراكِ ، وهو سُبحانَهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، ولا شَبيهَ لهُ ، ولا نَظِيرَ لهُ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ الرُّؤيةَ لو كانَتْ كما فَهِمتَ بواسِطَةِ الأشِعَّةِ والحَدَقةِ . . لاتَّحَدَتْ وما تَفاوَتَتْ ولا اختَلَفَتْ ، وليسَ الأمرُ كذٰلكَ ، بلِ الخلقُ مُتفاوِتُونَ في الرُّؤيةِ علىٰ قَدْرِ تَفاوُتِهم في رُتَبِ العُبودِيَّةِ ومَنازِلِ القُرْبِ ؛ فَلِلأنبياءِ علَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ في الرُّؤيَةِ رُتبةٌ ، ولِلأولياءِ رُتبةٌ ، ولِعامَّةِ المؤمنينَ رُتبةٌ .

ولولا تَجنُّبُ الواقعِ والقِياسِ في هٰذا الفنِّ ـ والتَّوقِّي مِنَ التَّوفيقِ ـ . . أمْكنَ أنْ يُقالَ : يَراهُ المؤمنونَ يومَ القِيامةِ كما يَراهُ الأولياءُ في الدُّنيا ، ولٰكنْ تكونُ الرُّؤيةُ باشتِراكِ البَصَرِ والبَصِيرَةِ ، ويَصِيرانِ بِطَبْعٍ واحدٍ وصِفَةٍ واحدةٍ ، ويَراهُ الأولياءُ كما يَراهُ الأنبياءُ في الدُّنيا ، ويَتفاوَتُونَ علىٰ هٰذا المنهجِ في رُتبَتِهم في النُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ ، ويراهُ خَواصُّ الأنبياءِ كما رآهُ نَبِيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليلةَ المعراجِ (١) ، ويَزدادُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رُتْبةً في الرُّؤيةِ ، ويُوشِكُ أنْ تكونَ تلكَ الرُّتبةُ هي المَقامَ المحمودَ الَّذي وُعِدَهُ (٢) ، لا يُشارِكُهُ فيهِ غيرُهُ .

فلا تَنْحَصِرْ في مَضِيقِ عِلمِكَ وفَهمِكَ ؛ جلَّ الملِكُ القُدُّوسُ عمَّا تُكيِّفُه النُّفوسُ .

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرج البخاري في (٣٨٨٨) من طريق سيدنا ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قَولِهِ تَعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء : ٦٠] قَالَ : (هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ ، أُرِيَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ) .

(٢) الثابتُ في الأخبارِ : أنَّ المقامَ المحمود هو الشفاعة ؛ كما أخرج البخاري (٤٧١٨) من حديث ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما ، يَقُولُ : (إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثاً ، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا ، يَقُولُونَ : يَا فُلَانُ ؛ اشْفَعْ ، يَا فُلَانُ ؛ اشْفَعْ ، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ) .

وأخرج أيضاً (٧٤٤٠) من حديث سيدنا أنسٍ في حديثِ الشفاعةِ الطويل ، وفيه : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال : « هَٰذَا ٱلْمَقَامُ ٱلْمَحْمُودُ ٱلَّذِي وُعِدَهُ نَبِيُّكُمْ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » .

الفصل الثامن

في شهادة أنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وسلم

ونشهدُ أنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، أُرْسِلَ ﴿ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[(١)] .

أيَّدَهُ بالمُعجزاتِ الظَّاهرَةِ ، والبراهينِ الباهِرَةِ[(٢)] ؛ انشقَّ له القَمَرُ ، وسلَّمَ عليهِ الحَجَرُ[(٣)] ، وتابَعَهُ أُمَمٌ مِنَ الجِنِّ المتَمرِّدِينَ ، وانقَهَرَ لرسالَتِهِ عُتاةُ الشَّياطينِ ، وكلَّمَهُ الذِّراعُ المسمُومُ[(٤)] ، وانهَمَلَتْ بدعوَتِهِ عَزالى الغُيومِ ، وكلَّمَهُ البَعِيرُ[(٥)] ، وطابَ بِريقِه البِئرُ[(٦)] ، ونَبَعَ الماءُ مِن بينِ أصابعِه

---

(١) سورة التوبة : (٣٣) .

(٢) اعتنى العلماء بجَمْع معجزاته صلى الله عليه وسلم في كتب السيرة والدلائل وغيرها ، وقد أورد المؤلِّف نُخبةً منها ، سأكتفي بتوثيق الوارد منها في السُّنَّة النبوية ، دون ما ورد في القرآن الكريم ؛ كانشقاق القمر ، ومتابعة الجن له ، ونزول الملائكة لنصرته .

(٣) أخرج مسلم (٢٢٧٧) من حديث سيدنا جَابرِ بن سَمُرَةَ رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ » .

(٤) أخرج أبو داوود (٤٥١٤) من حديث سيدنا أبي هُريرة رضي الله عنه ، وفيه : فَأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا ، فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْهَا ، وَأَكَلَ الْقَوْمُ ، فَقَالَ صلَّى الله عليه وسلَّم : « ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ ؛ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ » .

(٥) أخرج أبو داوود (٢٥٤٩) من حديث سيدنا عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قَالَ : أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثاً لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَداً مِنَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفاً ، أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ ، قَالَ : فَدَخَلَ حَائِطاً لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَإِذَا جَمَلٌ ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ ، فَسَكَتَ ، فَقَالَ : « مَنْ رَبُّ هَـٰذَا الْجَمَلِ ؟ لِمَنْ هَـٰذَا الْجَمَلُ ؟ » ، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : لِي يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ : « أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَـٰذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا ؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ » .

(٦) أخرج مسلم (١٨٠٧) من حديث سيدنا سلمة بنِ الأكوع رضي الله عنه قال : قَدِمْنَا الحُدَيْبِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِئَةً ، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لَا تُرْوِيهَا ، قَالَ : فَقَعَدَ ←

انفجاراً [1] ، ونَزَلَتْ لِنُصرَتِهِ الملائكةُ جِهاراً . . . إلىٰ غيرِ ذٰلك مِنَ المعجزاتِ والآياتِ الَّتي لا تَنحَصِرُ .

ومِن أكبرِ المُعجزاتِ : سُوَرُ القُرآنِ ، ولٰكنْ لا يَنكَشِفُ وجهُ الإعجازِ فيه إلَّا لِرَيَّانَ مِنَ الإيمانِ والعِرْفانِ .

جُعِلَ قلبُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مَورِدَ الإلهامِ ، ولسانُهُ مَصدَرَ الأحكامِ ، لا يَنطِقُ عنِ الهوىٰ ، ولا يَأمُرُ إلَّا بالتَّقوىٰ ، نُسِخَ بدينِهِ سائِرُ المِلَلِ والأديانِ ، وأزالَ الكتابُ المُنْزَلُ عليهِ حُكمَ سائرِ الكُتُبِ المُنْزَلَةِ في سالفِ الأزمانِ .

ونُؤمِنُ بجميعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ والملائكةِ ، ونعتقدُ أنَّ السَّماواتِ بِهِم مَشحُونَةٌ ، وأنَّ مِنْهم مَنْ يَنزِلُ الأرضَ ، ومِنْهم الكروبيُّون والرَّوحانيُّونَ ، ومِنْهم حمَلَةُ العرشِ ، والكرامُ الكاتِبونَ الموَكَّلونَ ببني آدمَ ، ومِنْهم جبريلُ ، وميكائيلُ ، وإسرافيلُ ، وعِزرائيلُ [2] قابِضُ الأرواحِ ، ومنْهم خَزَنةُ الجِنانِ ، وزَبانِيَةُ النِّيرانِ ، ومالكٌ ورِضْوانُ [3] ، كُلُّ ذٰلكَ نُؤمِنُ بهِ ونُقِرُّ بحقيقَتِهِ .

← رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ جَبَا الرَّكِيَّةِ ، فَإِمَّا دَعَا ، وَإِمَّا بَصَقَ فِيهَا ، قَالَ : فَجَاشَتْ ، فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا .

وأخرج الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٦٣/١٩) (٥٨٥) من حديث أَبِي أُسَيْدٍ السَّاعِدِيِّ الْخَزْرَجِيِّ رضي الله عنه وكان لَهُ بِئْرٌ بِالْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهَا : بِئْرُ بُضَاعَةَ قَدْ بَصَقَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهُوَ يُبْشِرُ بِهَا وَيَتَيَمَّنُ بِهَا . . . . وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » : (١٣/٤) : (رجاله ثقات) .

(١) أخرج البخاري (٣٥٧٢) ومسلم (٢٢٧٩) من حديث سيدنا أنس قَالَ : أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِنَاءٍ ، وَهُوَ بِالزَّوْرَاءِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ ، فَتَوَضَّأَ الْقَوْمُ ، قَالَ قَتَادَةُ : قُلْتُ لِأَنَسٍ : كَمْ كُنْتُمْ ؟ قَالَ : ثَلاثَ مِئَةٍ ، أَوْ : زُهَاءَ ثَلاثِ مِئَةٍ .

(٢) وردت تسميته بعزرائيل في بعض الآثار ؛ منها : ما أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٣٩٤) عن وهب بن مُنبِّه ، وأخرجه الثعلبي في « الكشف والبيان » (٣٢٨/٧) عن مقاتل والكلبي .

وقال ابن كثير في « التفسير » (٣٦١/٦) : (سُمِّي في بعضِ الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد) .

(٣) تسمية مالك وردت في الكتاب العزيز ، في قوله تعالىٰ ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] ، وتسمية رضوان وردت في بعض الأخبار ؛ منها : ما أخرجه الدارقطني ←

وبعدَ هٰذا الإيمانِ :

نعتقدُ أنَّ نَبِيَّنا محمَّداً صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاتِمُ الأنبياءِ ، وأنَّ النُّبُوَّةَ بعدَهُ أُغلِقَ بابُها ، وأُسبِلَ حِجابُها ، فلا نُبُوَّةَ بعدَ نُبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، ووجَبَ على الخَلْقِ كُلِّهِم مِن سائرِ المِلَلِ والأديانِ طاعتُهُ ، والانقيادُ لهُ فيما أتَىٰ بهِ ، وتَركُ ما كانوا عليهِ مِن قبلُ ، وكلُّ الطُّرُقِ غيرُ طَريقِ مُتابَعَتِهِ مَسدودةٌ ، وكلُّ الدَّعَواتِ غيرُ دَعوةِ رِسالَتِه مَردودةٌ .

ونَعتَقِدُ أنَّ للأولياءِ مِن أُمَّتِهِ كَراماتٍ وإجاباتٍ ، وهٰكذا كانَ في زَمنِ كُلِّ رسولٍ لهُ أتباعٌ ، ظَهَرَتْ لهم كَراماتٌ ومُخْرِقاتٌ للعَاداتِ ، وَكراماتُ الأولياءِ مِنْ تَتِمَّةِ مُعجزاتِ الأنبياءِ .

ومَنْ ظَهَرَتْ لهُ أو علىٰ يدَيهِ أشياءُ مِنَ المُخْرِقاتِ وهو علىٰ غيرِ الالتزامِ بأحكامِ الشَّريعَةِ . . نعتقدُ بأنَّهُ زِنديقٌ ، وأنَّ الَّذي ظَهَرَ لهُ مَكْرٌ واستدراجٌ .

وقدْ يكونُ للأولياءِ أنواعٌ مِنَ الكَراماتِ ؛ كسَماعِ الهواتفِ مِنَ الهواءِ ، والنِّداءِ مِن بَواطِنِهم ، وتُطوَىٰ لهمُ الأرضُ ، وقد تَنقلِبُ لهمُ الأعيانُ ، وقدْ يَنكشِفُ لهُم ما في الضَّميرِ ، ويَعلَمونَ بعضَ الحوادثِ قبلَ تكَوُّنِها ؛ كلُّ ذٰلكَ بِبَرَكَةِ مُتابَعَتِهِم لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فأَوفَرُ النَّاسِ حظّاً مِنَ الصُّحبَةِ والقُرْبِ والعُبودِيَّةِ . . أوفَرُهُم حَظّاً مِنْ مُتابَعَتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [1] ، ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [2] ، وليسَ ما يَنكَشِفُ مِنَ الكَراماتِ آيةُ الصِّحَّةِ ، وإذا لمْ يكُنْ

← في « الرؤية » (٦٤) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، وجاء فيه : « فَيُنَادِي رَبُّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ رِضْوَانَ ؛ وَهُوَ خَازِنُ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُ : يَا رِضْوَانُ ؛ ارْفَعِ الْحُجُبَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِبَادِي وَزُوَّارِي . . . » . وأخرج الواحدي في « أسباب النزول » (ص ٣٣٢) من حديث ابن عبَّاس ، وجاء فيه قول جبريل : « أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ ؛ هَـٰذَا رِضْوَانُ خَازِنُ الْجَنَّةِ قَدْ أَتَاكَ بِالرِّضَا مِنْ رَبِّكَ . . . » .

(١) سورة آل عمران : (٣١) .

(٢) سورة الحشر : (٧) .

شيءٌ مِنْ ذٰلكَ . . تُعدَمُ الصِّحَّةُ ، بلْ قدْ يكونُ مَن لمْ يُكشَفْ لهُ أفضلُ مِمَّن كُشِفَ لهُ ، وهٰذه غريبةٌ !

وسِرُّ ذٰلكَ : أنَّ الَّذي يُكاشَفُ بشيءٍ مِنَ القُدرةِ وخَرقِ العادةِ إنَّما يُكاشَفُ بهِ لموضِعِ ضَعفِ يَقينِهِ حتَّىٰ يَقوَىٰ إيمانُهُ ؛ رحمةً مِنَ اللهِ تعالىٰ للعبادِ ، وثواباً مُعَجَّلاً لهم ، وفوقَ هٰؤلاءِ أقوامٌ ارتفَعَتِ الحُجُبُ عنْ قُلوبِهم ، وباشَرَ بواطنَهم رَوْحُ اليقينِ وصِرْفُ المعرفَةِ ؛ فلا حاجَةَ لهم إلىٰ مَددٍ مِنَ الخوارقِ ورُؤيةِ القُدرةِ والآياتِ .

ولهٰذا المعنىٰ ما نُقلَ عن أَصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كثيرٌ مِن ذٰلك إلَّا القليلُ ، ونُقلَ عنِ المتأخِّرينَ مِنَ المشايخِ والصَّادقينَ أكثرُ مِن ذٰلكَ ؛ لأنَّ أَصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بِبَركَةِ صُحبَتِه ، ومُجاوَرَةِ نُزولِ الوحي ، وتَرَدُّدِ الملائكةِ وهُبوطِها . . تنوَّرَتْ بواطِنُهم ، وعايَنُوا الآخرةَ ، وزهِدُوا في الدُّنيا ، وتَزَكَّتْ نُفوسُهُم ، وانخَلَعَتْ عادَاتُهُم ، وانصَقَلَتْ مَرائِي قُلوبِهِم ؛ فاستَغْنَوا بما أُعطُوا عنْ رُؤيةِ الكَراماتِ ، واستِلماعِ [1] آثارِ القُدرةِ .

ومَنْ بَلغَ مِن قُوَّةِ اليقينِ هٰذا المبلَغَ . . يَرىٰ في إجراءِ عالَمِ الحِكمةِ ما يَرى الغيرُ مِنَ القُدرةِ ، ولا يرىٰ [2] القُدرةَ مُنكَمِنَةً ؛ بل مُتجلِّيةً مِن سُجُفِ الحكمةِ ، فلو تَجرَّدَتْ لهُ القُدرةُ وانكَشَفَت . . ما استَغرَبَ ذٰلكَ ، والمُستغرِبُ للقُدرةِ يَقوَىٰ يَقِينُهُ بها ؛ لأنَّهُ محجوبٌ بالحِكمةِ عنِ القُدرةِ .

واعتَقِدْ أنَّ الرُّؤيا الصَّالحَةَ جُزءٌ مِن سِتَّةٍ وأربعينَ جُزءاً مِنَ النُّبوَّةِ [3] ، والأَولياءُ وصالِحو المؤمنينَ تَنكشِفُ لهُم في مَناماتِهم لَوائحُ ولَوامعُ مِنَ الملَكوتِ .

ولوِ اعتَبَرتَ أمرَ المنامِ . . لرأيتَ عَجَباً ؛ فهو مِن آياتِ اللهِ الظَّاهرَةِ ، وقُدرَتِهِ

---

(١) في (أ ، ب ، د ، هـ) : (واستماع) .

(٢) في (أ ، ب ، ج ، هـ) : (ويرىٰ) .

(٣) الحديث أخرجه البخاري (٦٩٨٨) ومسلم (٢٢٦٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

الباهِرَةِ ، فقد يَنكشِفُ في المنامِ ما يَتكوَّنُ بعدَ سَنةٍ أو شَهرٍ ؛ فالشَّيءُ المعدومُ الَّذي بعدُ ما وُجِدَ أَطلَعَكَ الحقُّ سُبحانَهُ عليهِ قبلَ إيجادِهِ ؛ لِيدُلَّكَ ذٰلكَ علىٰ أنَّ لكَ خالقاً وإلـٰهاً هو علَّامُ الغُيوبِ .

وقدْ عَلِمتَ قِصَّةَ سيِّدِنا إبراهيمَ الخليلِ صلَواتُ اللهِ عليه في رُؤياهُ ، وقولَ اللهِ سُبحانَه لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[1] .

فعَليكَ ـ أيُّها الأخُ ـ بحُسنِ الاقتداءِ ، وقدْ ظَفِرْتَ بِكَمالِ الاهتداءِ ، واللهُ يَهدِي مَن يشاءُ إلىٰ صِراطٍ مُستَقيمٍ .

* * *

---

(١) سورة الأنفال : (٤٣) .

الفصل التّاسع

في ذكر أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأهل بيته الطّاهرين

اعلمْ : أنَّ مِيراثَ النُّبُوَّةِ العِلمُ ، وقد تَوارَثَهُ أصحابُهُ وأهلُ بَيتِهِ ، وقدْ وجَبَ عليك مَحَبَّةُ الجميعِ ؛ فلا تكُنْ مائِلاً إلىٰ إحدَى الجِهتَينِ دُونَ الأُخرَىٰ ؛ فإنَّ ذٰلك هوىً ، ولا يُنتزعُ منكَ هٰذا الميلُ حتَّىٰ يُنازِلَ باطِنَك شيءٌ مِن مَحبَّةِ اللهِ تعالى الخاصَّةِ ، فحينَئِذٍ تَتبرَّأُ مِنَ الهوَىٰ ، ويكونُ عندَكَ شغلٌ شاغِلٌ بما أُعطِيتَ ، فتَنظُرُ بصَفاءِ بَصيرَتِكَ ، وتَنكَشِفُ لكَ مَحاسِنُهم ، ويَتَغَطَّىٰ ما تُنكِرُهُ مِنْ أحدٍ منهم ؛ فإنَّ الِاشتِغالَ بالعَصَبِيَّةِ والخوضَ في أمرِهِم شُغْلُ البَطَّالِينَ .

وقدِ استَروَحَ قومٌ إلى البَطالَةِ ، وتَجَرَّؤوا على المُخالفاتِ وارتكابِ المَناهِي ، واتَّخذُوا ما زَعَمُوهُ مَحبَّةً لهُم جُنَّةً لهُم ، وحدَّثَتْهُم نُفوسُهُم أنَّ ذٰلكَ يَنفَعُهُم ! كلَّا ؛ حتَّىٰ يَستَقِيمُوا على الجادَّةِ المستَقِيمَةِ ، فلا تَنفَعُ مَحبَّتُهُم بغيرِ التَّقوىٰ ؛ فالصَّلواتُ إذا فاتَتْ ، والأوقاتُ إذا ضاعَتْ ، والذُّنوبُ إذا ارتُكِبَتْ ، والمحارِمُ إذا استُبِيحَتْ . . أنَّىٰ تَجبُرُها دَعوىٰ مَحَبَّتِهِم ؟!

فيجبُ أن تُحِبَّ فاطمةَ بنتَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ورَضِيَ عنها ، وهل يَسَعُ قلبُ مُؤمنٍ إلَّا ذاكَ ، وقدْ سَمِعَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي » ؟![1] .

ثـمَّ ما بلَغَك مِنْ زُهدِها في الدُّنيا وعلمِها ، وتَجرُّعِها مَرارةَ الفقرِ والفاقَةِ والقِلَّةِ ، وحُسنِ صَبرِها واحتِسَابِها . . يُوجِبُ مَحبَّةَ القلبِ لها ، ولو لَمْ يكنْ إلَّا نِسبَةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ . . فَنِسبَةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧١٤) ومسلم (٢٤٤٩) من حديث سيدنا المِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه .

تُوجِبُ تلكَ المَحبَّةَ ولو لَمْ تكُنْ تلكَ الصِّفاتُ الظَّاهِرَةُ[1] ، فكيفَ إذا اجتَمَعَ ذٰلكَ كلُّه ؟!

والحسنُ والحُسينُ أولادُها رضوانُ اللهِ عليهم ، وأولادُهما أولادُها ، فالكُلُّ أَولادُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فمَنْ كانَ في قلبِهِ حُبُّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ . . لا بُدَّ لهُ مِن حُبِّ أولادِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ .

وأمَّا أصحابُه : فأبو بكرٍ رِضوانُ اللهِ عليهِ فضائِلُه لا تَنحَصِرُ ، وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ رِضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ ، وكونُكَ تَنسِبُ علياً رَضِيَ اللهُ عنه إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ . . فالصُّحبَةُ أكمَلُ في وَصفِهِ مِن نِسبَةِ القَرابَةِ ، والكُلُّ عالٍ ؛ لأنَّ نِسبَةَ القَرابَةِ نِسبَةُ صورةٍ ، ونِسبَةَ الصُّحبَةِ نِسبَةُ معنىً ، فكيفَ يسعُ قلبُ المُؤمنِ أن يَقْدَحَ في أَصحابِ رسولِ اللهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وهُم مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كجَسَدٍ واحدٍ ؟! بَذَلوا الأَموالَ والأَرواحَ ، وهَجَروا الأَوطانَ ، وقاطَعُوا الأَترابَ والأَقرانَ في صُحبَتِه ومَحبَّتِه .

وممَّا ظَفِرَ بهِ الشَّيطانُ مِنْ هٰذه الأمَّةِ ، وخامَرَ العقائِدَ منهُ دَنَسٌ ، وصارَ في الضَّمائرِ خَبَثٌ : ما ظَهَرَ مِنَ المُشاجَرَةِ بينهَم ، فأورثَ ذٰلكَ أَحقاداً وضَغائِنَ في البَواطنِ ، ثمَّ استَحكَمَتْ تلكَ الضَّغائِنُ ، وتَوارَثَها النَّاسُ ؛ فكَثُفَتْ وتَجسَّدَتْ ، وانجَذَبَتْ إلىٰ أَهواءٍ استَحكَمَتْ أُصُولُها ، وتَشعَّبَتْ فُروعُها .

فأيُّها المبَرَّأُ مِنَ الهوَىٰ والعَصَبيَّةِ ؛ اعلمْ : أنَّ أَصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ نَزاهَةِ بَواطِنِهم ، وطهارةِ قُلوبِهِم . . كانُوا بَشَراً ، وكانَتْ لهُم نُفوسٌ ، وللنُّفوسِ صِفاتٌ تَظهرُ بصِفَتِها ؛ فقدْ كانَتْ نُفوسُهم تظهرُ بِصفَةٍ وقلوُبُهم مُنكِرَةٌ لذٰلكَ ، فَيَرجِعُونَ إلىٰ حُكمِ قُلوبِهِم ، ويُنكِرونَ ما كانَ مِن نُفوسِهِم ، فانتقلَ اليَسِيرُ مِن آثارِ نُفوسِهِم إلىٰ أَربابِ نُفوسٍ عَدِمُوا القلوبَ ، فما أدرَكُوا قَضَايا قلوبِهِم ، وصارَتْ صِفَاتُ نُفوسِهِم مُدرَكَةً عندَهُم كجِنسيَّةِ النَّفسِيَّةِ ، فبَنوا بتَصرُّفِ النُّفوسِ

---

(1) وتقرأ بطاءٍ مُهمَلَةٍ : (الطَّاهرة) .

على الظَّاهرِ المفهومِ عندَهُم ، ووَقَعُوا في بِدَعٍ وشُبَهٍ أورَدَتْهُم كلَّ مَوردٍ رَدِيٍّ ، وجَرَّعَتْهُم كُلَّ شُرْبٍ وَبيٍّ ، وانعَجَمَ عليهِم صَفَاءُ قلوبِهِم ، ورُجوعُ كلِّ واحدٍ منهُم إلى الإنصافِ ، وإذعانُهُ لما يَجِبُ مِنَ الاعترافِ ، وكانَ عندَهُمُ اليَسِيرُ مِن صفاتِ نُفوسِهِم ؛ لأنَّ نُفوسَهُم كانَتْ مَحفُوفةً بأنوارِ قلوبِهِم ، فلمَّا تَوارَتْ ذٰلكَ أربابُ النُّفوسِ المُتَسلِّطةِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ، القَاهرَةِ للقلوبِ ، المَحرُومَةِ أَنوارَها . . أَحدَثَ عِندَهُمُ العَداوةَ والبَغضاءَ .

فإن قَبِلتَ النُّصْحَ . . فَأمسِكْ عنِ الخَوضِ في أَمرِهِم ، واجعَلْ مَحبَّتَكَ لِلكُلِّ على السَّواءِ ، مِنْ غيرِ أن تُرَجِّحَ مَحبَّةَ أَحَدِهِم على الآخَرِ ، وأَمسِكْ عَنِ التَّفضيلِ والغُلُوِّ ؛ فأمرُهُم أكبرُ مِن أنْ تَخُوضَ فيهِ ، وإنْ خامَرَ باطِنَكَ فَضلُ أَحَدِهِم على الآخَرِ . . فاجعَل ذٰلكَ مِن جُملَةِ أَسرارِكَ ؛ فما يَلزَمُكَ إظهارُهُ ، ولا يَلزَمُكَ أنْ تُحِبَّ أحدَهُم أكثرَ مِنَ الآخَرِ ، أو تَعتَقِدَ فضلَهُ أَكثرَ مِنَ الآخَرِ ، بلْ يَلزمُكَ مَحبَّةُ الجميعِ ، والِاعترافُ بفضلِ الجميعِ ؛ فكثيرٌ مِنَ النَّاسِ نَكَبُوا عن صِراطِ الِاعتدالِ والِاستقامةِ ، فوَقَعوا في مَهْوَاةِ التَّفرِيطِ والإفراطِ ، وتَأَجَّجَتْ نِيرَانُ العَصَبِيَّةِ في القلوبِ مِنَ الطَّائفتَينِ .

فالحَذِرُ المتَورِّعُ لا يَأمَنُ التَّفرِيطَ والإفراطَ ، ويَثبُتُ علىٰ سَواءِ الصِّراطِ ، وإذا أَحسَّ مِن نَفسِهِ بِتنَاقُضٍ ما في حَقِّ أَحَدِهِم . . يَفِرُّ إلى اللهِ تعالىٰ بِقَلبِهِ ، ويَعمَلُ في إخمادِ نارِ العَصَبِيَّةِ الَّتي مَنشَؤُها قَضايا الطَّبْعِ ، ويُقلِّدُ في تَفضيلِ البَعضِ على البَعضِ ما صحَّ مِنَ المنقولِ عن أكثرِ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ .

ويَكفِيك في العقيدةِ السَّلِيمَةِ : أن تَعتَقِدَ صِحَّةَ خِلَافةِ أبي بكرٍ ، وخِلَافةِ عمرَ وعثمانَ وعليٍّ رِضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ .

ثمَّ تَعْلَمَ أنَّ علياً رِضوانُ اللهِ عليهِ ومُعاويةَ كانَا على القِتَالِ والخِصَامِ ، وكانَ الطَّائِفَتانِ يَسُبُّ بعضُهُم بَعضاً ، وما حَكمَ أَحدٌ منهُم بِكُفرِ الآخَرِ ، وإنَّما كانَتْ ذُنوباً لهم ، فلا تُكفِّرْ أَحداً بما تَرىٰ منهُ مِنَ الجهلِ والسَّبِّ .

واعتَقِد أنَّ أميرَ المُؤمِنينَ عَلِيّاً رضوانُ اللهِ عليه اجتَهَدَ في الخِلَافةِ ، وأصابَ في الِاجتهادِ ، وكانَ أَحقَّ النَّاسِ بالخِلَافةِ إذْ ذاكَ ، وأنَّ مُعاوِيةَ رضيَ اللهُ عنهُ اجتَهَدَ في ذٰلكَ ، وأخطأَ في الِاجتهادِ ، ولم يكُن مُستَحِقّاً للخِلَافةِ مَع عليٍّ .

فاللهُ ينفَعُنا بِمَحَبَّتِهِم ، ويَحشُرُنا في زُمْرَتِهم ، ونسألُهُ العِصمَةَ مِنَ الخَوضِ فيما شَجَرَ بينَهُم ، واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ .

الفصل العاشر

في ذكر الموت وما بعده من الأمور الأخروية والجنة والنار

نعتَقِدُ أنَّ الميّتَ بعدَ الموتِ يَسمَعُ ما يُقالُ عندَهُ ، وما يُقالُ لهُ ، كما كانَ في حالِ حَياتِهِ ، ويَتأثَّرُ بالعُنْفِ واللُّطْفِ مِنَ الغاسلِ ومِمَّن يُباشِرُ جِسْمَهُ ، وكأنَّ الحَواسَّ الَّتي انعَدَمَت انْكمَنَتْ فيهِ .

ولا نَشُكُّ في أَمْرِ سَماعِ الميّتِ ورُؤيَتِهِ ، وقدْ دَلَّتِ الأَخبارُ علىٰ ذٰلكَ ، إذا فَتَّشْتَ . . وجَدْتَ [١] .

وقدْ وجَدَ ذٰلكَ أهلُ اللهِ وخاصَّتُه ذَوقاً ، وعَلِمُوه يَقِيناً ، بما أَظْهَرَ اللهُ لهُم ، وأطلَعَهُم عليهِ .

وأنَّ المَلَكَينِ مُنْكَرٌ ونَكِيرٌ يَسأَلانِهِ ، وما وَرَدَ : أنَّ المُساءَلَةَ تكونُ للمَقبُورِ ، وظاهِرُ الأمرِ أنَّ المُساءَلَةَ تكونُ للحَريقِ والغَريقِ أيضاً ، ولِمَنْ أَكَلَتْهُ السِّباعُ ، وكيفَ ماتَ على اختلافِ الأَحوالِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ابتلاءٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ لعبادِهِ ، وهو مِنْ جُملَةِ مَنازِلِ الآخرَةِ ومَواقِفِها .

ونعتقدُ ضَغْطَةَ القبرِ ، وأنَّ القبرَ يكونُ رَوضةً مِن رِياضِ الجَنَّةِ ، أو حُفرةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ .

وأنَّ الأَرواحَ والأجسادَ تَشْتَرِكُ في النَّعيمِ المُقِيمِ والعَذابِ الأليمِ ، وأنَّ القَالَبَ

---

(١) من ذٰلك : ما أخرجه أبو العبَّاس الأصم في « جزء من حديثه » (١١) وابن حبان في « المجروحين » (١/٤٨٠) ، وتمَّام في « الفوائد » (١٣٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ رَجُلٍ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ . . إلا عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ » .
وله شاهدٌ من حديث سيدنا ابن عبَّاس رضي الله عنهما ؛ أخرجه ابن عبد البر في « الاستذكار » (٢/١٦٦) ، وقال عبد الحق الإشبيلي في « الأحكام الصغرىٰ » (١/٣٤٥) : (إسناده صحيح) .

بعدَ أن يَصيرَ تُراباً ، ويُتَّخَذَ منهُ الخَزَفُ ، ويُضْرَبَ منهُ اللَّبِنُ . . يَشتَرِكُ مع الرُّوحِ في النَّعيمِ والعذابِ ، وأنَّ اللهَ سُبحانَه يَجمعُ بينَ كُلِّ قالَبٍ ورُوحِه لِيَومِ العَرْضِ والنُّشُورِ ، وفي أَخْذِ سَيِّدِنا إبراهيمَ أَربعةً مِنَ الطَّيرِ ، وقِصَّتُهُ كانَتْ إظهاراً لهٰذا السِّرِّ ، فكَونُ عَقلِكَ لا يُكيِّفُ ذٰلكَ . . لِمَا سَبَقَ مِنَ القَولِ ، وأنَّكَ مَحصُورٌ في مَعقُولِكَ ، مُقَيَّدٌ بعِقَالِ عَقْلِكَ .

وما مِثَالُك ـ أيُّها المحبُوسُ في قَفَصِ عالَمِ الحكمَةِ ـ إلَّا مِثَالُ الجَنِينِ في بَطنِ أُمِّهِ ، لو قالَ لهُ قائلٌ : إنَّ اللهَ خَلقَ السَّمَاواتِ والأَرضَ ، والعَرشَ والكُرسِيَّ ، والشَّمسَ والقَمرَ والنُّجُومَ . . ما تَكوَّنَ لهُ ذٰلكَ ، ولا اهتَدَىٰ إليهِ .

فأنتَ ـ أيُّها المُعتَقَلُ بعَقلِك ـ ذٰلكَ الجَنِينُ ، وما انشَقَّت عَنكَ مَشَايِمُ[1] عالَمِ الشَّهادَةِ ، ولا تفَقَّصَتْ بَيضَةُ وُجودِكَ وبَعْدُ ما وُلِدتَ ، فإذا مُتَّ . . يُقالُ لكَ : تَفطَّنْ ، ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[2] ، فتَستَيقِظُ حِينَئذٍ مِنْ رَقدَتِكَ بمَوتِكَ ، وتَرىٰ عالَماً ما رَأَيتَهُ ، وتَرى الجَنَّةَ والنَّارَ .

واعتَقِد أنَّهما مَوجُودَتانِ مَخلُوقَتانِ ، وكلُّ ما وَرَدَ مِن عَظِيمِ أمرِ الجَنَّةِ حقٌّ ؛ مِنَ الحُورِ والقُصورِ ، والوِلدَانِ والغِلْمانِ ، والأنهارِ والأشجارِ .

وقِسْ جَميعَ أمرِ الجَنَّةِ علىٰ ما وردَ بأنَّ القائلَ إذا قالَ : (لا إلٰهَ إلَّا اللهُ) . . يُعطَىٰ بقَولِه شَجَرةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مئةَ عامٍ[3] .

---

(١) في (أ) : (مَشامُ) ، وكلاهما جمع مَشِيمَةٍ : وهي : الطَّبقةُ البرَّانيَّةُ للغِشاءِ الَّذي يكونُ فيه الجَنينُ في البطنِ ويَخرجُ معه عند الوِلَادَةِ . ينظر « تهذيب اللغة » (ش م) ، و« المعجم الوسيط » (١/٥٠٤) .

(٢) سورة قٓ : (٢٢) .

(٣) لم أقف عليه بهٰذا السياق ، ولعل مقصود المؤلِّف ما وَرَدَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « من قال : سبحان الله العظيم وبحمده . . غُرِسَتْ له نخلة في الجنة » . أخرجه الترمذي (٣٤٦٤) عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

وما وَرَدَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ في الجَنَّة لشجرة يسير الراكب الجواد المُضمر السَّريع مئة عامٍ ما يقطعها » ، أخرجه البخاري (٦٥٥٣) ومسلم (٢٨٢٨) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

فاعلمْ : أنَّ ذٰلكَ حقٌّ ، وهُنالِكَ أَعظمُ مِن ذٰلك : « مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ »[1] .

وإنَّما أُخبرتَ بيسيرٍ مِنْ كثيرٍ علىٰ قَدرِ وهْمِكَ وخَيالِكَ وضِيقِ وِعَائِكَ ؛ لأنَّكَ ما دُمتَ في هٰذا العالَمِ فَوِعاءُ فَهْمِكَ علىٰ قَدرِ ضِيقِ هٰذا العالَمِ ، والمقيَّدُونَ بعُقولِهِم ما يَقبَلونَ الشَّيءَ إلَّا إذا دلَّ عليهِ البُرهانُ ، وما عَداهُ فهو عِندَهُم سُخْفٌ وهَذَيانٌ ؛ فهُمُ الملاحِدَةُ والزَّنادِقةُ ، أجهلُ خلقِ اللهِ باللهِ ، ما لهُم في الآخرَةِ مِنْ نَصيبٍ .

ويدُلُّك علىٰ وَهَنِ نِيَّاتِهِم وفَسادِ أمرِهِم : اختِلافُهُم في الآراءِ .

ويدُلُّك علىٰ صِحَّةِ أمرِ الأنبياءِ صَلَواتُ اللهِ عليهم : اتِّفاقُهُم علىٰ أُصُولٍ ما اختَلَفَتْ ، واتَّفَقَ عليها أَتبَاعُهُم وأَشياعُهُم إلىٰ يَومِ القِيامةِ .

واعتقِدْ أنَّ اللهَ يَبعَثُ الخلائِقَ ليومِ الحِسابِ ، ويَجمَعُ الخلقَ في صَعِيدٍ واحدٍ ، ويُحاسِبُ على النَّقِيرِ والقِطْمِيرِ[2] ؛ فَفَرِيقٌ في الجَنَّةِ أَبَدَ الآبَادِ ، وفريقٌ في السَّعيرِ .

وضَـرْبٌ دُونَـهُـم ستَائرُ الإبعادِ ، مُخلَّدُونَ في النَّارِ ، وأخطأَ مَنْ قالَ : لا يُخلَّدونَ .

فَقَومٌ منهُم يَذُوقُونَ النَّارَ ، وقومٌ يَمكُثُونَ قليلاً ، وآخَرُونَ كثيراً ؛ علىٰ قَدْرِ ذُنُوبِهِم .

---

(١) أخرج البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤) من حديث سيدنا أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قال : قال رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَالَ اللهُ : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] » .

(٢) جاء في كتاب « المنتخب من غريب كلام العرب » للهُنائي (ص ٣٥٤) : (القِطْمِيرُ : القشرة التي بين نواة التمرة وبين لحمها ، والنَّقِيرُ : النُّقْرَةُ التي في وسط النواة ، والفَتِيلُ : الذي في شَقِّهَا) .

وأَهلُ البِدَعِ سَبِيلُهُم سَبِيلُ أَهلِ الكبائرِ ؛ لا يُخلَّدُونَ في النَّارِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ : « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي . . . »[1] ، وأَثبَتَ أَنَّهُم مِنَ الأُمَّةِ .

وقَولُه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ : « النَّاجِيَةُ واحدَةٌ »[2] ، الفِرْقَةُ النَّاجِيةُ لا يَذُوقُونَ النَّارَ ، ولا يَدخُلونَها إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ ، والباقُونَ يدخُلونَ النَّارَ ثمَّ يَخرُجونَ .

فلَا تَعتَقِدْ أنَّ مَن صَامَ وصلَّىٰ إلى الكَعبةِ ، وحجَّ ، وزكَّىٰ . . يُخلدُ في النَّارِ علىٰ ما يكونُ منهُ مِنَ الكَبيرةِ والبِدعَةِ .

ونعتقِدُ أنَّ للأنبياءِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ شفاعةً يومَ القِيامَةِ ، يَخرُجُ بشَفاعَتِهِم خَلقٌ مِنَ النَّارِ ، وللأَولياءِ والمؤمِنينَ شفاعةٌ وجَاهٌ عندَ اللهِ علىٰ قَدْرِ رُتَبِهِم .

ونَعتَقِدُ أنَّ الصِّراطَ حَقٌّ ؛ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ ، وأَحَدُّ مِنَ السَّيفِ[3] .

وأنَّ المِيزانَ حقٌّ ؛ وله كِفَّتانِ ولِسانٌ[4] .

وكُلُّ ما يُخامِرُ سِرَّكَ فقدْ نبَّهتُكَ على الطَّرِيقِ الَّذي أُتِيتَ منهُ ، وأيُّ شيءٍ تُنكِرُ مِن قُدرَةِ اللهِ تعالىٰ أنْ تُوزَنَ الأعمالُ ؟!

فيا أيُّها الرَّجُلُ ، صاحبَ العقلِ الصَّغيرِ والعلمِ اليَسيرِ ؛ عقلُكَ لا يَعلَمُ

---

(١) أخرجه أبو داوود (٤٥٩٦) والترمذي (٢٦٤٠) وصحَّحه ، وابن ماجه (٣٩٩١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : « افترقَتِ اليهودُ علىٰ إحدىٰ ـ أو : اثنتين ـ وسبعين فرقةً ، وتفرَّقت النَّصارىٰ علىٰ إحدىٰ ـ أو : اثنتين ـ وسبعين فرقةً ، وتَفترِقُ أمَّتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقةً » .

قال الخطَّابي في « معالم السنن » (٤/٢٩٥) : (فيه دَلالةٌ علىٰ أنَّ هـٰذه الفِرق كلها غير خارجة من الدِّين ؛ إذ قد جعلهم النبي صلَّى الله عليه وسلَّم كلهم من أمَّته ، وفيه : أنَّ المتأوِّل لا يخرج من الملَّةِ وإن أخطأ في تأويله) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣) ، وأحمد في « المسند » (١٢٢٠٨) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، بلفظ : « كُلُّهَا فِي النَّارِ ، إِلَّا وَاحِدَةً ؛ وَهِيَ : الْجَمَاعَةُ » .

(٣) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث سيدنا أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه .

(٤) قال ابن أبي زمنين في « أصول السُّنَّة » (ص ١٦٦) : (رأيت في تَفسيرِ الكلبيِّ عن أبي صالحٍ ، عن ابن عَبَّاسٍ أنه قَال : هُو مِيزَانٌ لَه لِسانٌ وكِفَّتَانِ) .

إلَّا الجواهرَ والأَعراضَ ، فتقولُ : الأَعراضُ كيفَ تُوزَنُ وهي لا تَقومُ بذَواتِها ؟!
وَتَضحَكُ مِنَ القائلِ لكَ ذٰلكَ ، فمَنْ أطلَعَه اللهُ على الأسرارِ وعَجائِبِ الأقدارِ . .
يَضحَكُ مِنْ قُصورِ عَقلِكَ ، ويُزْرِي علىٰ رَكاكَةِ فَهمِك ، ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾[1] .

فَمَنْ عَلِمَ ذٰلكَ العِلمَ ، واتَّخذَهُ اللهُ أَمِيناً ، وأَطلَعَهُ على الأُمورِ الأُخرَوِيَّةِ ، وكُشِفَ لهُ عالَمُ القُدرَةِ . . يَرىٰ أنَّ المُقيَّدَ بعَقلِهِ كالصَّبيِّ الَّذي يَتحَرَّكُ بِحَرَكاتٍ ، ويَعتَقِدُ اعتقاداتٍ ، ويَظُنُّ ظُنوناً ، يَضحَكُ العاقلُ البالِغُ مِنِ اعتِقادِهِ .

وصاحبُ العقلِ المُنكِرِ للأمورِ الأُخرَوِيَّةِ ـ عند صاحبِ هٰذا الفنِّ مِنَ العلمِ والكَشْفِ ـ أقلُّ عقلاً مِنَ الصَّبِيِّ ، مع ما يُعتَقدُ فيهِ أنَّهُ شبرَ[2] الأرضَ بأَسرِها وَوَزَنَها ، وعَلِمَ حَركاتِ الأَفلاكِ وتأثيراتِ الكَواكبِ ، ووَقفَ مِن علمِ الهيئَةِ علىٰ أَتمِّ غايةٍ وأَكمَلِ نِهايةٍ ، واعتَقَدَ في نَفسِهِ ومَنْ سَلك مَسْلَكَهُ أنْ ليسَ علىٰ وجهِ الأرضِ أَعلَمُ منهُ ، ومعَ ذٰلكَ كلِّهِ هو أَجهَلُ خَلقِ اللهِ تعالىٰ ؛ حيثُ جَهِلَ الأمورَ الأُخرَوِيَّةَ ؛ لأنَّ تلكَ العلومَ كلَّما أكثَرَ منها . . ازدادَ جهلاً باللهِ تعالىٰ وبأمرِهِ ، لٰكنْ مَنْ سَبَقَ لهُ مِنَ اللهِ الحُسنَىٰ . . فهو يُنقِذُهُ مِنَ الضَّلالِ ؛ فقدْ أَنقَذَ خلقاً خاضُوا تلكَ الغَمَراتِ ، وعايَنوا تلكَ الهلَكَاتِ ، فقدْ رَأينا منهُم وسَمِعنا بهم ، وما ذٰلكَ على اللهِ بعزيزٍ .

ونعتقدُ أيضاً : أنَّ الحَوضَ المورُودَ المخصُوصَ بهِ نَبيِّنَا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقٌّ .

ولا نعتقدُ أنَّ أهلَ الكبائرِ لا بُدَّ لهُم مِنْ وُرودِ النَّارِ ، ولا نَقطعُ لهُم بذٰلكَ ، بلْ يَجُوزُ أنَّ اللهَ تعالىٰ يَتجاوَزُ عنهُم إذا اطلَعَ لهُم علىٰ ما يُكفِّرُ سَيِّئاتِهِم .

ولا نَقطَعُ لأَحدٍ بالجنَّةِ لِمَا نَرىٰ منهُ مِنَ الأعمالِ الصَّالحَةِ والطَّرائقِ الحميدَةِ ،

---

(١) سورة المطففين : (٣٤) .

(٢) في (ب) : (سَبَرَ) بسينٍ مُهملةٍ . وكلَاهما وجيهٌ ، له حظٌّ مِنَ التَّوجيهِ .

بلْ نَرجُو لهُ الجَنَّةَ ، ونُجَوِّزُ أنَّ اللهَ تعالىٰ سَيُورِدُهُ النَّارَ ، إلَّا مَنْ نصَّ عليهِ القرآنُ بالرِّضوانِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[١] .

ونَعتَقِدُ أنَّ عيسىٰ عليه السَّلامُ ينزلُ ، والدَّجالَ يخرجُ ، والشَّمسَ تطلُعُ مِن مَغربِها ، كُلُّ ذٰلك حقٌّ لا شكَّ فيهِ .

ونَعتَقِدُ أنَّ الخِلَافةَ في قُريشٍ إلىٰ يومِ القِيامةِ ، لا يُجاذِبُهُم عليها غيرُهُم .

ونَعتَقِدُ وجوبَ الِانقيادِ لإمامِ الوقتِ مِن بَنِي العبَّاسِ ، ولسائرِ وُلاةِ الأَمرِ مِن قِبَلِهِ ، ونَرىٰ قتالَ مَنْ يخرجُ على الإمامِ .

ونَعْتَقِدُ وجوبَ الجمُعةِ والجماعةِ ، ووُجوبَ قضاءِ حقوقِ المُسلمينَ ، والِاتِّفاقِ معَهُم علىٰ ما اتَّفقُوا عليهِ وانعقدَ إجماعُهم فيهِ ، ولا نَستَبِدُّ بآرائِنا دونَ إجماعِ المُسلمينَ ، كلُّ ذٰلكَ بتوفيقِ اللهِ العليِّ العظيمِ[٢] ومَنِّهِ الجَسيمِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ .

---

(١) سورة الفتح : (١٨) .

(٢) هنا تنتهي نُسخُ الكتاب ، وما يلي مثبت من النسخة (ب) وفي (أ) : ختمَها النَّاسخُ بقولِه : (تمَّتِ العقيدةُ المسماةُ بـ « أعلامُ الهدىٰ وعقيدةُ أربابِ التُّقىٰ » ، بحمدِ اللهِ ومنِّه ، للشَّيخِ شيخِ الإسلامِ في العالمينَ ، شهابِ الدِّينِ عمرَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ سعيدِ بنِ الحُسينِ بنِ القاسمِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المعزِّ بنِ القاسمِ السُّهرَوَرْدِيِّ ، رحمةُ اللهِ عليه ، في أوائلِ ذي الحِجَّةِ ، تسعٍ وسبعينَ وسبعِ مئةٍ) .

وفي (ج) : ختمَها النَّاسخُ بقوله : (الرَّؤوفُ الرَّحيمُ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ النَّبيِّ الأمِّيِّ وآلِه الطَّاهرينَ وأصحابِه الأكرمينَ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ) .

وفي (د) : ختمها النَّاسخ بقوله : (وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّد النَّبيِّ الأُمِّيِّ ، وعلىٰ آلِه الطَّاهرينَ وأصحابِه الأكرمينَ ، وسلَّم تسليماً كثيراً ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، تَذكِرةُ الفقيرِ خالدِ الكراطي لأخيه في الله تعالى المُناصرِ المجاهدِ دانيال سلطان النَّسبِ الألمعيِّ سنة « ١٣٤٨ » ، للهِ الحمدُ والمنَّةُ) .

وفي (هـ) : ختمها النَّاسخ بقوله : (والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِه أجمعينَ وسلَّم تسليماً ، ورَحمَ اللهُ مَن دعَا لكَاتبِ هٰذه الأسطرِ وجميعِ المؤمنينَ والمؤمناتِ والمسلمينَ والمسلماتِ ؛ برحمتكَ يا أرحمَ الرَّاحمينَ) .

والصَّلاةُ والسَّلامُ الأَكمَلانِ الأَطيَبانِ الأَزكَيانِ ، الأَفْيَحانِ الأَعْطَرانِ ، النَّامِيانِ المُتَعاقِبانِ ، علىٰ مَرِّ الدُّهورِ والأَزمانِ ، مِن نَاطقٍ وصَامتٍ مِنْ جَمادٍ وحيوانٍ ، علىٰ أَشرفِ خلقِ اللهِ وأَفضَلِهم مِنَ الملائكةِ والإنسِ والجانِّ ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آلِهِ وصِحَابِهِ وعِتْرَتِهِ وأَهلِ بيتِهِ الطَّاهرينَ ومَنْ تابعَهُم بإحسانٍ ، وسلَّمَ كثيراً .

تمَّتْ هـٰذه العقيدةُ المباركةُ ، بحَمدِ اللهِ تعالىٰ وعَونِه وحُسنِ تَوفيقِهِ ، ولِلهِ الحمدُ أَوَّلاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً ، وسِرّاً وعَلانيةً ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلِهِ وصحبِه وسلَّمَ تسليماً كثيراً إلىٰ يومِ الدِّينِ .

لَا تَعْجَلَنَّ(1) فَلَيْسَ ٱلرِّزْقُ بِٱلْعَجَلِ ... ٱلرِّزْقُ فِي(2) ٱللَّوْحِ مَكْتُوبٌ مَعَ ٱلْأَجَلِ

فَلَوْ صَبَرْنَا لَكَانَ ٱلرِّزْقُ يَطْلُبُنَا ... لَٰكِنَّهُ(3) خُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلِ(4)

كانَ الفراغُ نهارَ الثُّلاثاءِ ، ثانِيَ عشرَ رجبَ الحرامَ ، سنةَ (٩٩٠ هـ)(5) ، علىٰ يدِ الفقيرِ إلى اللهِ : محمَّدٍ الصَّفَدِيِّ ، غفرَ اللهُ لهُ ولوالِدَيهِ وللمُسلمينَ أجمعينَ ، آمين .

* * *

---

(1) في (ب) : (تعجل) ، والصوابُ ما أثبتُّ .

(2) في (ب) : (إنما الرزق) ، والصوابُ ما أثبتُّ .

(3) في (ب) : (ولكن) ، والصوابُ ما أثبتُّ .

(4) هـٰذه خاتمة (ب) ، والأبيات في : « مجموعة القصائد الزهديات » لعبد العزيز السلمان (١/٥٣٤) ، ولم أهتدِ لقائلها ، والبيتان من البسيط .

(5) في أصل (ب) : (كأنها كُتبت : ١٩٩٠) ، وهو وهم محضٌ ، يُؤكده قوله : (رجب الحرام) ، فكيف يكون رجب (١٩٩٠) ؟! وكتبَ أحدُ قرَّاءِ المخطوطِ تحت هـٰذه السَّنةِ : أظنُّها سنةَ : (١١١٠) ، ولعلَّ ما أثبتُّ الأقربَ إلى الصَّوابِ ، سيما وأنَّ رقم (١) غير واضح في الكتابة ، وقد ذُكِر ذلك في توصيفِ نُسخةِ دار الكتبِ المصريَّةِ .

من تراث

الإمامِ أبي حفصٍ عُمرَ السُّهْرَوَرْدِيّ

الكتاب الثاني

إرشادُ المُريدين

وإنْجادُ الطّالِبين
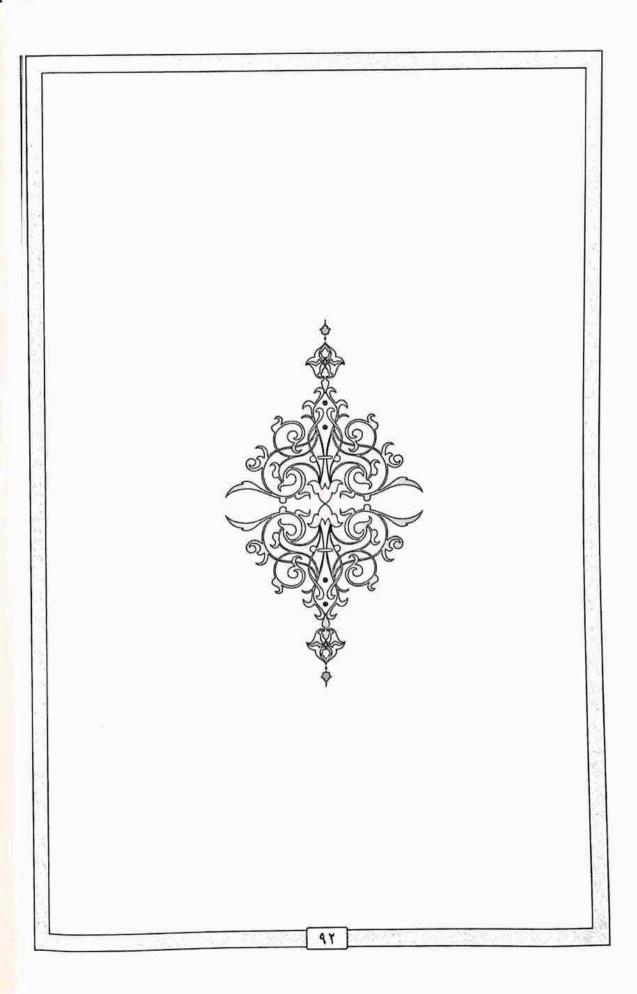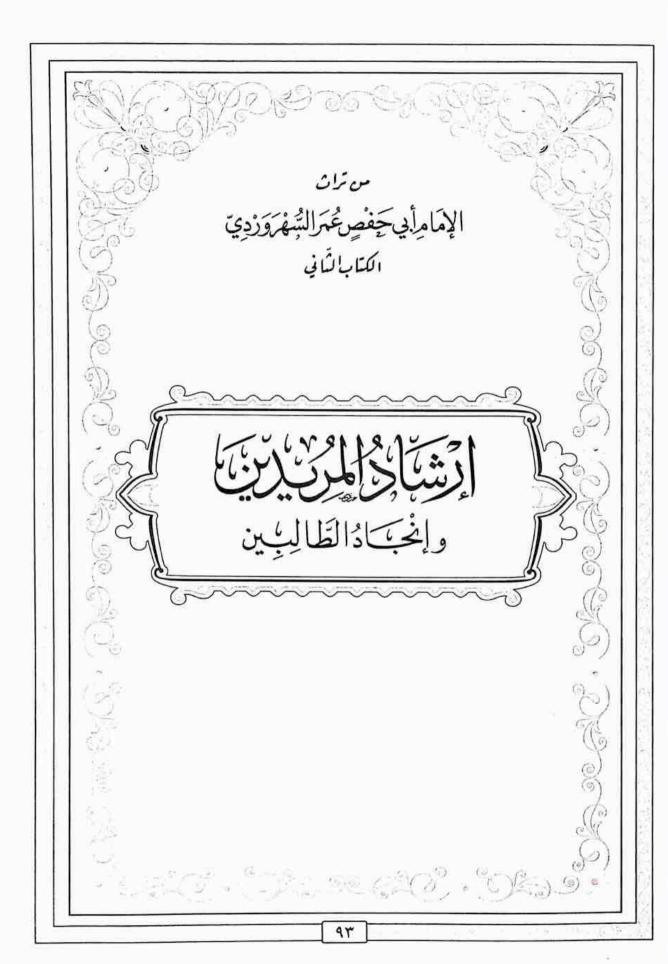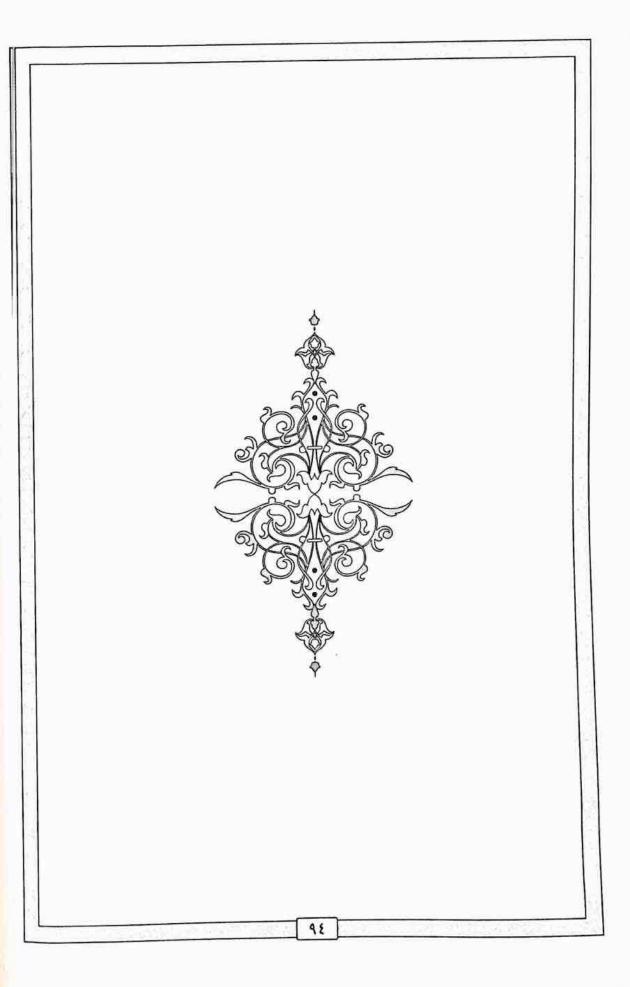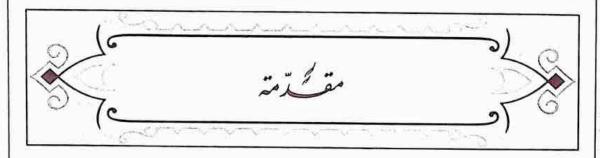
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَفصَحَ الشيخُ السُّهرورديُّ في مقدمةِ كتابِهِ هٰذا عن الباعثِ علىٰ تأليفِهِ ؛ وهو أنَّ جماعةً مِن أصدقائِهِ كانوا قدِ التَمَسُوا منهُ أن يُدوِّنَ مُختصَراً في بيانِ مذهبِ أربابِ السُّلوكِ وآدابِهِم ؛ فأجابَ التماسَهُم بتعليقِ هٰذا الكتابِ .

أدارَ السُّهرورديُّ مسائلَ كتابِهِ علىٰ أبوابٍ متفاوتةٍ في الطُّولِ ، وبدأَ بذكرِ الطُّرُقِ ، وبيَّنَ انقسامَها إلىٰ شريعةٍ وطريقةٍ وحقيقةٍ ، وشَرَحَ مَعنىٰ كلٍّ منها .

ثمَّ عَقَدَ باباً نافعاً في اصطلاحاتِ أهلِ التصوفِ ، وذكرَ منها (٢٦) مُصطَلحاً ، وشَرَحَها شرحاً مفيداً ، وهو في نَظَري مِن أَحسَنِ الذينَ تَعرَّضُوا لمصطلحاتِ التصوفِ .

ثمَّ تَكلَّمَ على الكثيرِ مِنَ المنازلِ التي يَنزِلُ بها السائرونَ ؛ كالتوبةِ والمجاهدةِ والتقوىٰ ونحوِ ذٰلكَ ، وَأَخذَتْ هٰذه المنازلُ شطراً كبيراً مِنَ الكتابِ ، كما أنَّهُ تكلَّمَ على الفُتوَّةِ في أحدِ الأبوابِ ، وهي مسألةٌ تكلَّمَ هو عليها في رسالةٍ مستقلةٍ ؛ وهي « الفُتُوَّةُ » ، وقدْ أوردناها في هٰذا المجموعِ .

ثمَّ عَقَدَ أبواباً في التصوفِ وأورَدَ فيها وصيةً جامعةً ، ثمَّ تكلَّمَ عن أخلاقِ أهلِ التصوفِ وآدابِهِم في الحضرِ والسَّفَرِ ، واستطرَدَ في ذِكرِ دقائقَ مِنْ هٰذهِ الآدابِ ، وهي مسألةٌ أفرَدَها السُّهرورديُّ برسالةٍ مُستقلَّةٍ ؛ وهي :

« زادُ المسافرِ وأدبُ الحاضرِ » ، وقد أَورَدناها في هـٰذا المجموعِ [1] .

وعلىٰ أيّةِ حالٍ ؛ فإنَّ موضوعاتِ الكتابِ تَتشابَهُ في كثيرٍ منها معَ موضوعاتِ كتابِه الشهيرِ : « عوارفُ المعارفِ » ، مع تَقارُبٍ في العبارةِ ، وتَشابُهٍ في الأسلوبِ .

ويمتازُ الكتابُ بسهولةِ العبارةِ إذا قُورِنَ بغيرِهِ من كُتُبِ السُّهرورديِّ ، حتَّىٰ إنَّ القارئَ لَيُطالِعُ الكتابَ فلا يَتعثَّرُ في فَهمِ شيءٍ مِنْ عباراتِهِ ، عِلاوةً علىٰ نَقلِهِ عن كِبارِ مشايخِ التصوُّفِ ؛ كالجُنَيدِ ، والأستاذِ القُشَيريِّ ، وأبي عليٍّ الدَّقَّاقِ ، وذي النُّونِ ، وأبي تُرابٍ النَّخْشَبيِّ ، وغيرِهم ، رَحِمَهمُ اللهُ تعالىٰ .

---

(١) وقد عقدت في كتابي « أبو حفص عمر السهروردي ؛ حياتُه وتصوُّفه » (ص ٢٢٥ ـ ٢٤١) مبحثاً عن أخلاقِ الصوفيةِ وآدابِهم عند السُّهرورديّ ، فليُنظَر لمزيدِ الفائدةِ .
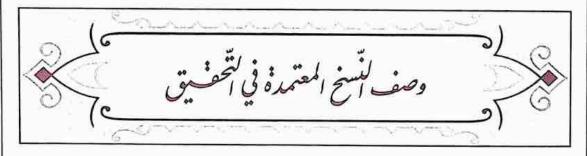
ـ نُسخة من مكتبة جار الله بتركيا ، رقم المخطوطة (١٠٨٤) ، ورمزتُ لها (أ) .

ـ نُسخة من مكتبة الشهيد علي بتركيا ، برقم (١٣٩٧) ، ورُمز لها بالرمز (ب) .

وتوجد منها (١٠) نسخ زيادة علىٰ ما ذكرنا ، وتُذكر على الترتيب الآتي :

المملكة العربية السُّعودية :

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية برقم (٠١٢٦٨ ـ ١ ، ب ٤٦٠٨٠) .

العراق :

ـ مكتبة الأوقاف العامة في بغداد : برقم (٤٤/٧٠٧١) (١٢ ورقة) .

ـ المكتبة القادرية : برقم (١/١٤٧٨) (١٥ ورقة) كتبت في (١٠٠٠ هـ) .

اليمن :

مكتبة علي بن إبراهيم الخاصة بصنعاء برقم (٣/٢٤٣) (١٧ ورقة) مكتوبة في (١١٦٧ هـ) .

تركيا :

أماسية Amasya : برقم (٤/١٠٧٤) ، الأوراق (١٠٤ ـ ١٢٨) .

الهند :

- مكتبة خُدابخش : برقم (٨٦٤) .

- مكتبة رضا برامبور : برقم (١/٥١) .

أوزبكستان :

مكتبة معهد البيروني للدراسات الشرقية في طشقند برقم (٢٩٨١) .

نماذج من صور المخطوطات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا
أن هدانا الله فنخلص له عبادته ولا نعصي أمره ولا نتعداه
ولا نشرك به شيئا ولا نتخذ أحدا سواه والصلاة التامة
على نبيه الذي اصطفاه واجتباه محمد مقصد قواعد الدين
الذي يجدد نرضاه وعلى آله وأصحابه ومن تمسك بهديه
وارتضاه

نسخة مكتبة جار الله تركيا (أ)

ويبتدأ بالرجل اليمنى في لبس الخف ليكون آويًا في الشروع في الطاعة

ومثلها الدخول في المسجد فإنه طاعة فلذلك تقدم الرجل اليمنى

في الدخول واليسرى في الخروج وأما استصحابهم السجادة قيل معناه

أنه يحل النمير فمن كان متجردًا عن الأوصاف والأقوال المذمومة

ومتحرزًا عن التلوث بالحرام والشبهات بحيث يصير مرضيًا

عند هذه الطائفة فقد استحق الجلوس على السجادة وقيل

السجادة مركب معناه ثلث طرف الشريعة والطريقة والحقيقة

فمن أسلك هذه الثلثة استحق السجادة وطابع هذا المختصر

أكثر من هذا تم المختصر المسمى إرشاد المريدين وإنجاد الطالبين

من مصنفات مولانا شيخ الإسلام ملجأ السالكين [illegible]

[illegible]

[illegible]

فيه نظر إذ الجادة [illegible]

[illegible]

نسخة مكتبة جار الله تركيا (أ)

رسالة ارشاد المريدين للسهروردي

وهو الشيخ الامام العلامة العارف بالله

شهاب الدين ابي حفص عمر بن محمد

بن عبد الله بن محمد بن عبد الله

وهو عمويه بن سعد

بن الحسين

بن القسم

بن معاذ بن علقمة بن النضر بن فقيه المدينة وابن فقيهها

عبد الرحمن بن القسم بن محمد بن ابي بكر

الصديق القرشي التيمي

البكري رحمه الله

عنه توفي سنة ٦٣٢

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

من الحكم العطائية

ارادتك التجريد مع اقامة الله اياك في الاسباب من الشهوة الخفية وارادتك الاسباب

مع اقامة الله اياك في التجريد انحطاط عن الذروة العلية سوابق الهمم لا تخرق

اسوار الاقدار

نسخة مكتبة الشهيد علي تركيا (ب)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله فنخلص عبادته ولا نعصي أمره ولا نتعدى إلا ولا نشرك به شيئاً ولا نعبد أحداً سواه والصلاة التامة على نبيه الذي اصطفاه واجتباه محمد مهد قواعد الدين الذي يحبه ويرضاه وعلى آله وأصحابه ومن تمسك به وارتضاه أما بعد فقد التمس مني جماعة أصدقائي وزمرة أخلائي أن أجمع لهم مختصراً في بيان مذهب أصحاب السلوك فإنهم في الآخرة هم الملوك فأجبتهم في ذلك وأوردت جميع الأبواب التي تتعلق بهذا الفن نفعنا الله العظيم بها الطرق وهي ثلاثة شريعة وطريقة وحقيقة فالشريعة كالسفينة والطريقة كالبحر والحقيقة كالدر فمن أراد الدر ركب السفينة ثم شرع في البحر ثم وصل إلى الدر فمن ترك هذا الترتيب لم يصل إلى الدر فأول شيء يجب على الطالب هو الشريعة والمراد بالشريعة ما أمر الله ورسوله من الوضوء والصلاة والصوم وأداء الزكاة والحج وطلب الحلال وترك الحرام وغير ذلك من الأوامر والنواهي فلو رأيت أحداً يطير في الهوى أو يمشي على الماء أو يأكل النار أو غير ذلك مما يشبه الكرامات وهو يترك فرضاً من فرائض الله تعالى أو سنة من السنن عمداً فاعلم أنه كذاب في دعواه وليس فعله كرامة بل هو مكر مستوجب للأدب والتعزير معرض عن دين الحق مبعض عند الله مسخوط عند النبي صلى الله عليه وسلم لا يعتمد على فعله ولا على قوله روي أن أبا يزيد رحمه الله تعالى قصد رجلاً مشهوراً بالزهد والصلاح فلما قصد مسجده داره بصق تجاه القبلة فرجع أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه فليزن الرجل طاعاته

بلاز

نسخة مكتبة الشهيد علي تركيا (ب)

ولتايل عنه باللطف والادب وليقل يا سيدي خفي علي سر هذا الحسن القول والفعل ابدني
ويبهني لكشف سره لا تستفيد منك وليكن جميع افعاله واقواله مع اخوانه وخلتايه
باللطف والصفا وليبعد عن الخشونة في القول وليصفح عن الاخوان وليتحمل اذاهم
فان التصوف هو الخلق الحسن فاذا اراد الخروج من ذلك الموضع فليستاذن الشيخ
وان لم ياذن له الشيخ بالخروج اقام مدة من اجل خاطر الشيخ وليتحمل من القول فان
كان له غبار مع احد فلا يخرج حتى يرفع ذلك الغبار وليزر اهل ذلك الموضع من الاحيا
والاموات وليلف كمه اليمنى اولا عند الخروج ثم اليسرى ثم يشد وسطه وليضع
احدى النعلين على الاخرى تحت احدهما بالاخرى ويضعهما في الخريطة
بحيث يكون راس المداس نحو راس الخريطة ويشد راس الخريطة خلف
ظهره داخل الخرقة ويلبس الخف اولا رجله اليمنى في الخف ثم اليسرى بحيث لا يقع
من ثيابه شي على الارض ثم يغسل يديه بعد الفراغ من لبس الخف ويحمل الركوة
تحت ابطه اليسرى والعصا يمسكها ايضا بيده اليسرى فان حمل احد زاويته
معه فاذا خرج من الرباط ليشد الزاوية على ظهره ويودع من يتبعه للوداع
ويقبل على القوم في كل لحظة ما دام القوم واقفين ينظرون اليه وليشير
اليهم براسه للخدمة والتواضع ثلث مرات متفرقات ولكل واحد من آدابهم
ان رفيقا يحل زاويته عن ظهره قبل ان يدخل الرباط لان دخول الرباط ايكن
ويكون الرباط موضع التجريد واما حمل الزاوية تحت ابطه اليسرى فلان
الزاوية من الدنيا فلا تشتغل بيده اليمنى لان كل فعل حقير يعمل باليد اليسرى
واما ترك السلام عند الدخول فلان الصوفي يقدم خدمة الله على كل شي
اذا توضى وصلى تحية الموضع فحينئذ يسلم على القوم واما ابتداهم باخراج الرجل
اليسرى من المداس والخف عند دخول الرباط وجعل الرجل اليمنى في الخف
والمداس اولا عند الخروج لان السفر اتعاب النفس وهو طاعة فليجعل
الرجل اليمنى متاخرا في اخراج الخف من الرجل ليبقى في الطاعة لحظة اخرى

نسخة مكتبة الشهيد علي تركيا (ب)

إرشاد المريدين
وإنجاد الطالبين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١)

الحمدُ للهِ الَّذي هدانا لهٰذا ، وما كنَّا لنَهتديَ لولَا أنْ هدانا اللهُ ، فنُخلِصُ عبادتَهُ ولا نَعصي أمرَهُ ولا نتعدَّاهُ ، ولا نُشركُ به شيئاً ولا نَعبُدُ أحداً سِواهُ ، والصَّلاةُ التَّامَّةُ علىٰ نَبيِّه الَّذي اصطفاهُ واجتَباهُ ، محمَّدٍ مُمهِّدِ قواعدِ الدِّينِ الَّذي نُحِبُّهُ ونَرضاهُ ، وعلىٰ آلِه وأصحابِه ومَنْ تمسَّكَ بدينِهِ وارتضاهُ .

أمَّا بعد :

فقدِ التَمسَ مِنّي جماعةُ أصدقائي وزُمرَةُ أخِلَّائي أنْ أضَعَ لهم مختصَراً في بيانِ مَذهبِ أربابِ (٢) السُّلوكِ ؛ فإنَّهُم في الآخرةِ همُ الملوكُ ، فأجبتُهُم في ذٰلكَ ، وأورَدتُ فيهِ جميعَ الأبوابِ الَّتي تَتعَلَّقُ بهٰذا الفنِّ ، مُستَعِيناً باللهِ العظيمِ .

---

(١) كتب في (أ) علىٰ جَانبَيِ البَسملةِ : (يا خفيَّ الألطافِ ؛ نجِّنا ممَّا نخاف) .
(٢) في (ب) : (أصحابِ) .

بابُ بيانِ الطُّرقِ

وهي ثلاثةٌ : شريعةٌ ، وطريقةٌ ، وحقيقةٌ .

يُقالُ : الشَّريعةُ كالسَّفينةِ ، والطَّريقةُ كالبحرِ ، والحقيقةُ كالدُّرِّ ؛ فمَنْ أرادَ الدُّرَّ . . ركِبَ السَّفِينةَ ، ثمَّ شَرَعَ في البحرِ ، ثمَّ وصلَ إلى الدُّرِّ ؛ فمَن تركَ هٰذا التَّرتيبَ . . لمْ يَصِلِ إلى الدُّرِّ ، فأوَّلُ شيءٍ يجبُ على الطَّالبِ هو الشَّريعةُ .

والمرادُ بالشَّريعةِ : ما أمرَهُ اللهُ تعالىٰ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ؛ مِنَ الوضوءِ والصَّلاةِ والصَّومِ وأداءِ الزَّكاةِ والحجِّ ، وطلبِ الحلالِ وتركِ الحرامِ ، وغيرِ ذٰلك مِنَ الأوامرِ والنَّواهي .

ولو رأيتَ أحداً يطيرُ في الهواءِ ، أو يَمشي على الماء ، أو يأكلُ النَّارَ ، وغيرَ ذٰلكَ ممَّا يُشبِهُ الكَراماتِ ، وهو يَترُكُ فرضاً مِنْ فرائضِ اللهِ تعالىٰ ، أو سُنَّةً مِنَ السُّنَنِ عامداً . . فاعلمْ أنَّهُ شيطانٌ مِنَ الجنِّ أو الإنسِ ، وليسَ فِعلُهُ كرامةً ؛ بلْ هو سِحرٌ مُستوجِبٌ للتَّأديبِ والتَّعزيرِ ، مُعرِضٌ عن دِينِ الحقِّ ، مُبغَضٌ عندَ اللهِ ، مُسخَطٌ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، لا يُعتمَدُ علىٰ فعلِهِ ولا علىٰ قَولِهِ .

رُويَ أنَّ أبا يزيدَ قصَدَ رجلاً مشهوراً بالزُّهدِ والصَّلاحِ ، فلمَّا دخلَ المسجدَ . . رآهُ يَبصُقُ تُجاهَ القِبلَةِ ؛ فرَجَعَ أبو يزيدَ ولم يُسلِّم عليهِ ، وقالَ : هٰذا غيرُ مأمونٍ علىٰ أدبٍ مِن آدابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1] ، فكيف يكونُ مأموناً علىٰ ما يَدَّعِيهِ ؟![2] .

---

(١) يشير إلىٰ أحاديث النهي عن البصق في القِبْلةِ ، وهي كثيرة ؛ منها ما أخرجه البخاري (٤١٦) ومسلم (٥٥٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ١٢٨) .

فَلْيُزيِّنِ الرَّجُلُ ظاهِرَهُ بلباسِ الشَّريعةِ حتَّىٰ يَقَعَ نورُ الشَّريعةِ في قلبِهِ ؛ فيُضيءَ قلبَهُ ، ويُزيلَ عن قلبِهِ الظُّلمَةَ الإنسانيَّةَ ، فيُمكِنَ للطَّريقةِ النُّزولُ في قلبِهِ .

والطَّريقةُ : الأخذُ بالتَّقوىٰ وما يقرِّبُكَ إلى المولىٰ ؛ مِن قَطعِ المَنازلِ والمَقاماتِ ، فكلُّ مَقامٍ طريقةٌ ، وطُرُقُ المشايخِ مختلِفةٌ ؛ لأنَّ مَقاماتِهم وأحوالَهم مُختلِفةٌ ، وكلُّ شيخٍ وضَعَ طريقةً علىٰ ما هو عليهِ مِنَ الحالِ والمَقامِ ؛ فبَعضُهُم طريقُه الجلوسُ مع النَّاسِ وتربيتُهُم ، وبعضُهُم طريقُهُ اختيارُ الوَحدَةِ والنَّفرةِ مِنَ النَّاسِ ، وبعضُهُم طريقُهُ كثرةُ الأورادِ مِنَ الصَّومِ والصَّلاةِ وغيرِهما مِنَ الطَّاعاتِ ، وبعضُهُم طريقُهُ خِدمةُ النَّاسِ بحَملِ الحَطَبِ والحشيشِ علىٰ ظَهرِهِ ، ويَبيعُ في السُّوقِ ، ويَتصَدَّقُ بثَمنِهِ ، وعلىٰ هٰذا لكلِّ واحدٍ منهُم اختيارٌ مِنَ الطُّرُقِ .

وأمَّا الحقيقةُ : فهي الوصولُ إلى المقصدِ ، ومشاهدةُ نورِ التَّجلِّي ، كما قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لحارثةَ : « لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةٌ ، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ يَا حَارِثَةُ ؟ » ، فأجابَ وقالَ : عَزَفَتْ نفسي عنِ الدُّنيا ؛ فاستوىٰ عندي حَجَرُها ومَدَرُها ، وذَهَبُها وفِضَّتُها ، وأظمأتُ نهاري وأسهرتُ لَيلي . . . الحديثَ [1] .

فتمسُّكُهُ بدينِ اللهِ وقيامُهُ بأمرِهِ . . شريعةٌ ، وأخذُهُ بالأحوطِ والعزيمةِ ؛ بسَهَرِهِ وظَمَئِهِ وعزوفِ نفسِهِ عنِ المشتهَياتِ . . طريقةٌ ، وانكشافُه عنِ الآخرةِ وَوِجدانُهُ ذٰلك . . حقيقةٌ .

وقيلَ : الشَّريعةُ : اسمٌ جامعٌ لسُبُلٍ إلٰهيَّةٍ مشتَمِلةٍ علىٰ أصولِها وفُروعِها ، رُخَصِها وعزائمِها ، حَسَنِها وأَحسَنِها .

والطَّريقةُ علىٰ لسانِ المشايخِ الصُّوفيةِ : هي الأخذُ بأَحسَنِها وأَقوَمِها وعزائمِها ، وكلُّ مَسلَكٍ يَسلُكُ الإنسانُ أَحسَنَهُ وأَقوَمَهُ فيُسمَّىٰ : طريقةً ؛ قولاً كان أو فعلاً أو حالاً .

---

(١) أخرجه البزار في « المسند » (٦٩٤٨) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

وأمَّا الحقيقةُ : فهي إثباتُ وجودِ الشَّيءِ ، وكشفُهُ عِلماً وبُرهاناً ، أو حالاً وَوِجداناً ، كما قيلَ في الصَّلاةِ : إنَّ الصَّلاةَ خِدمةٌ وقُربةٌ وصِلةٌ ؛ فالخدمةُ هي الشَّريعةُ ، والقُربةُ هي الطَّريقةُ ، والوُصلةُ هي الحقيقةُ ، والصَّلاةُ جامعةٌ لخِصالِها الثَّلاثةِ ؛ كما قيلَ : الشَّريعةُ أن تَعبُدَهُ ، والطَّريقةُ أنْ تَحضُرَهُ ، والحقيقةُ أنْ تَشهَدَهُ .

باب اصطلاحاتهم

منها الوقتُ :

يُريدونَ بالوقتِ ما هم عليهِ مِنَ الحالِ في الزَّمانِ الحاضرِ ؛ إنْ كانَ الرَّجُلُ في السُّرورِ . . فوقتُهُ السُّرورُ ، وإنْ كانَ في الحُزنِ . . فوقتُهُ الحُزنُ .

ويُقالُ : (الصُّوفيُّ ابنُ وَقتِه)[1] يعني : يَشتغِلُ بما تَوجَّهَ إليهِ مِن حُكمِ اللهِ ، لا يُعلِّقُ قلبَهُ بالماضي ولا بالمستقبلِ ؛ فإنَّهُ لو اشتغَلَ بالماضي أو المُستَقبلِ . . لَفاتَ الوقتُ ، ومراعاةُ الوقتِ أَولىٰ ؛ لأنَّهُ مُكلَّفٌ بالوقتِ دونَ زمانٍ آخَرَ .

ويُقال : (الصُّوفيُّ بحكمِ وقتِهِ)[2] يعني : مستسلمٌ لِما يَجري عليه مِن قضاءِ اللهِ وقَدَرِه في وقتِه .

وقيلَ : الوقتُ سيفٌ قاطعٌ ؛ يعني : كما أنَّ السيفَ قاطعٌ ؛ فما يجري مِن قضاءِ اللهِ وقَدَرِه في الوقتِ قاطعٌ ، لا يُمكِنُ خِلافُهُ .

ومنها المَقامُ :

والمَقامُ ما قامَ بهِ الرَّجُلُ مِنَ المَنازِلِ .

والمَنازلُ مختلفةٌ ؛ أوَّلُها : الإتيانُ بالأوامرِ ، وتركُ النَّواهي ، ومعرفةُ عيوبِ النَّفسِ .

والآخرُ : تَنقِيةُ النَّفسِ عنِ العُيوبِ المذمومةِ عندَ اللهِ .

والعيوبُ كثيرةٌ ، أَعظَمُها : إعجابُ المرءِ بما فَعَلَ مِنَ الطَّاعاتِ ، والمنازلُ كثيرةٌ يطولُ إحصاؤُها ها هُنا ، وشرطُ السَّالكِ : ألَّا يَصعَدَ مِن مَقامٍ إلىٰ مَقامٍ

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٣٢) .

(٢) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٣٤) .

آخَرَ حتَّىٰ يَستوفيَ حقَّ المقامِ الأوَّل ، وإلَّا . . كانَ كالمريضِ يَشرَبُ المُسهِلَ قبلَ نُضجِ خَلطِهِ ، فإنَّهُ لا يُفيدُه المُسهِلُ ، بلْ يَزيدُ عِلَّتَهُ .

ومنها الحالُ :

والحالُ ـ بتشديدِ اللّام[1] ـ ما نزلَ على القلبِ مِن طَرَبٍ أو قَبضٍ أو بَسطٍ أو شَوقٍ أو ذَوقٍ أو غيرِها ، ويقالُ : الحالُ كالبرقِ ؛ يعني : لا يَبقى الحالُ ، بلْ يزولُ عن قريبٍ ؛ فإنْ بَقِيَ مع الرَّجُلِ . . فهو حديثُ النَّفسِ ، وليسَ بحالٍ .

وقيلَ : المعنىٰ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي ، حَتَّىٰ أَسْتَغْفِرُ ٱللهَ فِي ٱلْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً »[2] : أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يَرتقي مِن حالٍ إلىٰ حالٍ هو أعلىٰ مِنَ الأوَّلِ ، فيَستَغفِرُ عن كونِهِ في الحالِ الأوَّلِ ؛ فإنَّهُ لا يَرضىٰ بالنَّاقصِ ، بلْ يَطلُبُ الحالَ الكاملَ .

وقالَ قومٌ : بلْ يدومُ الحالُ .

وقالَ أبو عُثمانَ الحِيريُّ : (منذُ أربعينَ سنةً ما أقامني اللهُ في حالٍ فكرهتُهُ)[3] ؛ يعني : أنَا منذ أربَعين سنةً في حالِ الرِّضا ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ دوامِ الحالِ .

ومنها القَبضُ والبَسطُ :

وهما يُشبهانِ الخوفَ والرَّجاءَ ، إلَّا أنَّ الخوفَ والرَّجاءَ للعوامِّ ، والقَبضُ والبَسْطُ للخَواصِّ خاصَّةً مِن أصحابِ المقاماتِ ، فالخوفُ : أن يخافَ الرَّجُلُ في الزَّمانِ المستَقبَلِ فَوتَ ما يحبُّه ، أو وُصولَ ما يَكرَهُه إليه ، وأمَّا الرَّجاءُ : فأملُ محبوبٍ أو زوالِ مكروهٍ كانَ عليهِ .

---

(١) انظر « كشَّاف اصطلاحات العلوم » (١/٦١٢) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديثِ سيدنا الأغرِّ المزنيِّ رضي الله عنه بلفظ : « مئة مرَّةٍ » .

(٣) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٣٨) .

وأمَّا القبضُ والبَسطُ . . فيكونانِ في الزَّمانِ الحاضرِ .

وحقيقةُ القَبضِ : وُرودُ شيءٍ في قلبِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إشارةً إلىٰ تقصيرٍ فيهِ ، واستحقاقِ تأديبٍ على التَّقصيرِ .

والبَسْطِ : ورودُ إشارةٍ في قلبِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ إلىٰ لُطفٍ وترحيبٍ وتكريمٍ .

وقدْ يكونُ القَبضُ والبَسطُ لا يَدري صاحبُهما سبَبَهُما ، وطريقُ صاحبِ القَبضِ الذي لا يَدري سَبَبَه : التَّسلِيمُ حتَّىٰ يَمضِيَ ذٰلكَ الوقتُ .

ومنها : الهَيبةُ والأُنسُ :

فالهيبةُ تُشبِهُ القَبضَ ، إلَّا أنَّها أشدُّ مِنَ القَبضِ ؛ لكونِ الواردِ مِنَ اللهِ تعالىٰ على القلبِ أشدَّ تهديداً وعِتاباً ، والأُنسُ يُشبِهُ البَسطَ ، إلَّا أنَّهُ أتمُّ مِنَ البَسطِ ؛ لكونِ الورادِ مِنَ اللهِ تعالىٰ أكثرَ ترحيباً وتَلَطُّفاً .

ومنها : التَّواجدُ والوَجدُ والوُجودُ :

فالتَّواجدُ : إظهارُ الوَجدِ عن نفسِهِ ، وطلبُ حصولِ الوَجدِ في نفسِهِ .

وأَنكَرَ قومٌ التَّواجُدَ ؛ لأنَّهُ إظهارُ شيءٍ ليسَ فيهِ ، فلا يَنبغي للمتحقِّقِ ذٰلكَ ، والصَّحيحُ جوازُهُ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱبْكُوا ؛ فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا . . فَتَبَاكَوا »[1] .

والوَجدُ : ما يَرِدُ علىٰ قلبِك بغيرِ تكلُّفٍ مِن طَرَبٍ .

والوَجدُ مِن ثَمَرةِ الأورادِ ؛ فمَنْ كانَتْ أورادُهُ في الطَّاعاتِ أكثرَ . . يكونُ وَجْدُهُ أكثرَ .

والوجودُ : عبارةٌ عن ثُبوتِ سُلطانِ الحقيقةِ في قلبِ الرَّجُلِ ، وهٰذا لا

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٦) من حديث سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

يكونُ إلَّا بعدَ زوالِ صفاتِ البشريَّةِ عن قلبِهِ ؛ لأنَّ صفاتِ البَشريَّةِ ـ مِنَ الغَفلةِ ، والشَّهوةِ ، وحبِّ شيءٍ سوى اللهِ تعالىٰ ـ تُناقِضُ الحقيقةَ .

وقالَ أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ رحمهُ اللهُ[1] : التَّواجُدُ يُوجِبُ استيعابَ العبدِ ، والوَجدُ يُوجِبُ استغراقَ العبدِ ، والوجودُ يُوجِبُ استهلاكَ العبدِ ، فهو كمَن شَهِدَ البحرَ ، ثمَّ رَكِبَ ، ثمَّ غَرِقَ في البحرِ .

وترتيبُ هٰذا الأمرِ قُصودٌ ، ثمَّ ورودٌ ، ثمَّ شُهودٌ ، ثمَّ وُجودٌ ، ثمَّ خمودٌ ، وبمقدارِ الوجودِ يحصلُ الخمودُ ، وصاحبُ الوجودِ لهُ صَحوٌ ومَحوٌ ؛ فحالُ صَحوِهِ بقاؤهُ بالحقِّ ، وحالُ مَحوِهِ فَناؤهُ بالحقِّ ، فهاتانِ الحالتانِ أبداً مُتعاقبتانِ عليهِ ، فإذا غلبَ عليهِ الصَّحوُ . . فبالحقِّ يَصولُ ، وبهِ يقولُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما أخبرَ عنِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ : « فَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يُبْصِرُ »[2] .

ومنها : **الجمعُ والفَرقُ وجمعُ الجمعِ والفَرقُ الثَّاني** :

أمَّا الجمعُ : فهو ما يكونُ مِن قِبَلِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ مِن إظهارِ فَهمٍ ومعنىً في القلبِ ، وابتداءِ لُطفٍ وتوفيقٍ .

والفرقُ : ما يكونُ مِن قِبَلِ العبدِ ؛ مِنْ أداءِ العبوديَّةِ والسُّؤالِ .

ولا بدَّ للعبدِ مِنَ الجمعِ والفَرقِ ؛ فإنَّ مَنْ لا فرقَ لهُ . . لا عبوديَّةَ لهُ ، ومَن لا جمعَ لهُ . . لا مَعرِفةَ لهُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إشارةٌ إلى الفَرقِ ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[3] إشارةٌ إلى الجمعِ ، وإذا خاطبَ العبدُ الحقَّ بلسانِ نَجواهُ ـ إمَّا

---

(1) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٤٧) .

(2) انظر « فتح الباري » (٣٤٤/١١) والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٥٠٢) مِن حديثِ سيدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه ، بلفظ : « كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا » .

(3) سورة الفاتحة : (٥) .

سائلاً أو داعياً أو مُثنياً أو شاكراً أو متضرّعاً ـ . . قامَ في مَحَلِّ التَّفرِقةِ ، وإذا أصغَىٰ بسرِّه إلىٰ ما بهِ يُناجيه ربُّهُ ويُجِيبُهُ فيما دعاهُ ويُخاطِبُهُ بأمرٍ أو نهيٍ . . فهو في مَقامِ الجَمعِ .

وأمَّا جمعُ الجَمعِ : فهو ألَّا يرىٰ سوى اللهِ تعالىٰ .

فالتَّفرِقةُ : شُهودُ الأغيارِ للهِ تعالىٰ ؛ يَعني : يرىٰ عبادةَ العبادِ للهِ تعالىٰ .

والجمعُ : شُهودُ الأغيارِ باللهِ تعالىٰ ؛ يعني : يرى العبادةَ بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ .

وجمعُ الجمعِ : الِاستهلاكُ بالكلِّيَّةِ ؛ يعني يَغيبُ عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ .

وأمَّا الفرقُ الثَّاني : فهو أن يُرَدَّ الرَّجُلُ مِن حالِ المحوِ إلىٰ حالِ الصَّحوِ في وقتِ أداءِ الفرائضِ ؛ لِيُؤدِّيَ الفرائضَ ، وهـٰذا لُطفٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ومنها : الفَناءُ والبَقاءُ :

الفَناءُ : أنْ تَفنى الخِصالُ المذمومةُ عنِ الرَّجُلِ .

والبقاءُ : أنْ تَبقىٰ وتَثبُتَ الخِصالُ المحمودةُ في الرَّجُلِ .

والسَّالكونَ يَتفاوتونَ في الفَناءِ والبقاءِ ؛ فبعضُهُم فَنِيَ عنْ شَهوتِهِ ؛ يعني : ما تَشتَهِيهِ مِنَ الدُّنيا ؛ فإذا فَنِيَتْ شهوتُهُ . . بَقِيَت فيه نِيَّتُهُ وإخلاصُهُ في عُبوديَّتِهِ ، ومَنْ فَنِيَ عن أَخلاقِهِ المذمومةِ ـ كالحسدِ والكِبرِ والبُغضِ ، وغيرِ ذٰلكَ ـ بَقِيَ بالفُتوَّةِ والصِّدقِ .

فالخِصالُ المذمومةُ والمحمودةُ ضِدَّانِ ؛ إذا فَنِيَ الرَّجُلُ عن أحدِهِما . . بَقِيَ بضِدِّه .

ومنها : الغَيبةُ والحضورُ :

فالغَيبةُ : أن يَغِيبَ الرجلُ السَّالكُ عن أحوالِ الدُّنيا .

والحضورُ : أن يَحضُرَ بأحوالِ الآخرةِ ؛ كما رُوِيَ عن عليِّ بنِ الحُسين

رضيَ اللهُ عنهما أنَّهُ وَقَعَ حريقٌ في دارِهِ وهو في سُجودِهِ ، فلم يَرفَعْ رأسَهُ ، فلما طُفِئَتِ النَّارُ . . رفعَ رأسَهُ ، فقيلَ لهُ : لِمَ بَقِيتَ على السُّجودِ في هٰذه الحالةِ ؟! فقالَ : أَلهَتني النَّارُ الكُبرىٰ عن هٰذه النَّارِ [1] .

ورُبَّما يَحضُرُ الرَّجُلُ بمُكاشَفةٍ ومُناجاةٍ مع اللهِ ، فيَغِيبُ عنِ الإحساسِ ، حتَّىٰ لو أدخَلَ يدَه في النَّارِ لم يُحِسَّ ألَماً .

ومنها : السُّكْرُ والصَّحْوُ :

والسُّكْرُ : يُشبِهُ الغَيبةَ ، **والصَّحْوُ** : الرُّجوعُ عنِ السُّكْرِ إلى الإحساسِ .

فالغَيبةُ تكونُ للمُبتَدِئينَ في السُّلوكِ ، وللمُنتهينَ السُّكرُ ، والسُّكرُ لا يكونُ إلَّا لأصحابِ المواجيدِ ؛ وهو أنْ يَرِدَ مِنَ اللهِ تعالىٰ واردٌ في قلبِهِ فيَسكَرُ ، فإذا كُوشِفَ الرَّجُلُ بِنَعتِ الجمالِ . . حصلَ السُّكْرُ وطَرِبَ الرُّوحُ وهامَ القلبُ .

ومنها الذَّوقُ والشُّربُ :

ويُعبِّرونَ بذٰلكَ عمَّا يَجِدُونهُ مِن ثَمَراتِ التَّجلِّي ونتائجِ [الكشوفاتِ] [2] ، وأوَّلُ ذٰلكَ الذَّوقُ ، ثمَّ الشُّربُ ، ثمَّ الرِّيُّ .

فصَفاءُ مُعامَلاتِهِم يُوجِبُ لهم ذَوقَ المعاني ، ووَفاءُ مُنازَلاتِهِم يُوجِبُ لهمُ الشُّربَ ، ودوامُ مُواصَلاتِهِم يُوجِبُ لهم الرِّيَّ ، فصاحبُ الذَّوقِ مُتساكِرٌ ؛ يعني : في أوَّلِ السُّكرِ ، وصاحبُ الشُّربِ سَكرانُ ، وصاحبُ الرِّيِّ صاحٍ . فمِثالُهُ : العَطشانُ ، فمَنْ بهِ قليلٌ مِنَ العَطَشِ . . فهو صاحبُ الذَّوقِ ، ومَنْ بهِ عَطَشٌ كثيرٌ . . فهو صاحبُ الشُّربِ ، يَشْرَبُ ، فإذا رَوِيَ وأخَذَ حظَّهُ . . صحا [3] مِنَ الشُّربِ ، وزالَ حِرصُهُ وقَلَقُهُ الَّذي بهِ مِنَ العَطَشِ ، فهو صاحبُ رِيٍّ ، وهو صاحبُ صَحْوٍ .

---

(١) رواه ابن الجوزي في « المنتظم » (٤/٤٥٨) .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٢٦٣) ، وفي (أ) : (المكشوفات) ، وفي (ب) : (التشوفات) .

(٣) في الأصل : (صاح) .

ومنها المحوُ والإثباتُ :

فالمحوُ : رفعُ العاداتِ .

والإثباتُ : إقامةُ أحكامِ العباداتِ .

وينقسمُ المحوُ إلىٰ : محوِ الزَّلةِ عن الظَّواهرِ ، ومحوِ الغَفلةِ عن الضَّمائرِ ، ومحوِ العلَّةِ عن السَّرائرِ ؛ ففي محوِ الزَّلةِ إثباتُ المعاملاتِ ، وفي محوِ الغَفلةِ إثباتُ المُنازَلاتِ ، وفي محوِ العلَّةِ إثباتُ المواصلاتِ .

والمَحقُ يشبهُ المحوَ ، ولٰكنَّ المحقَ فوقَ المحوِ ؛ لأنَّ المحوَ يُبقِي أثراً ، والمحقُ لا يُبقي أثراً .

ومنها : السَّترُ والتجلِّي :

فالتجلِّي : نورٌ ومكاشَفةٌ مِن اللهِ تعالىٰ يظهرُ في قلبِ العارفِ ، يَدهَشُهُ ويُحرِقُهُ .

والسَّترُ : أنْ يزولَ عنهُ ذٰلكَ التجلِّي ؛ كي لا يحترقَ ويضمحلَّ في نورِ التجلِّي .

فالسَّترُ رحمةٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ للعارفِ ، كما أنَّ التجلِّي منهُ فضلٌ وقُربةٌ .

ومنها : المُحاضرةُ والمُكاشفةُ والمشاهَدةُ :

والمحاضرةُ ابتداءٌ ، والمكاشفةُ بعدَهُ ، ثم المُشاهدةُ .

والمحاضرةُ : حضورُ القلبِ ، وقدْ يكونُ بتواترِ البرهانِ ، وهو بعدُ وراءَ السِّترِ ؛ بأنْ كانَ حاضراً باستيلاءِ سُلطانِ الذِّكرِ ، ثم بعدَهُ المُكاشفةُ ؛ وهو : حضورُهُ بنعتِ البيانِ غيرَ مُفتقرٍ في هٰذه الحالةِ لتأمُّلِ الدَّليلِ وتطلُّبِ السَّبيلِ ، ثم المشاهدةُ ؛ وهي : وجودُ الحقِّ من غيرِ بقاءِ تُهمةٍ ، وإذا صَحا سماءُ السرِّ عن غُيومِ السَّترِ . . فشمسُ الشهودِ مُشرِقةٌ عن بُرجِ الشَّرفِ .

ومنها اللَّوائحُ واللَّوامعُ والطَّوالعُ :

فالأوَّلُ : اللَّوائحُ ، ثمَّ اللَّوامعُ ، ثمَّ الطَّوالعُ ؛ **فاللَّوائحُ** : كالبرقِ يظهرُ ويزولُ سريعاً ، **واللوامعُ** : أظهرُ من اللوائحِ ، وليسَ زوالُها بتلكَ السُّرعةِ ، وقدْ تبقىٰ وقتَينِ وثلاثةً ، **والطَّوالعُ** : أبقَىٰ وقتاً ، وأقوىٰ سُلطاناً ، وأدومُ مُكثاً ، وأذهبُ للظُّلمةِ .

ومنها البَوادِهُ والهُجومُ :

البَوادِهُ : ما يَفجَأُ قلبَكَ مِن الغيبِ علىٰ سبيلِ الوَهلةِ ؛ إمَّا مِنْ مُوجِبِ فرحٍ ، أو موجِبِ تَرَحٍ .

والهجومُ : ما يَرِدُ على القلبِ بقوَّةِ الوقتِ منْ غيرِ تَصنُّعٍ منكَ ، ويختلفُ في الأنواعِ علىٰ حَسَبِ قوَّةِ الواردِ وضَعفِهِ .

ومنها التَّلوينُ والتَّمكينُ :

التَّلوينُ : صفةُ أربابِ الأحوالِ ، **والتَّمكينُ** : صفةُ أهلِ الحقائقِ .

وما دامَ العبدُ في الطَّريقِ فهو صاحبُ تلوينٍ ؛ لأنَّه يرتقِي مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ .

والتمكينُ : أن يصلَ السَّالكُ إلى المَقصِدِ ، فإذا وصلَ إلى المَقصِدِ . . تمكَّنَ واستقرَّ في حالِهِ ؛ لأنَّهُ لا حالَ بعدَ تلكَ الحالِ ، وتلكَ الحالُ هي زوالُ البَشريَّةِ بالكُلِّيَّةِ ، وبقاءُ الحقيقةِ .

ومنها القُربُ والبُعدُ :

القُربُ : قُربُ العبدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ بالطَّاعةِ ، والترقِّي مِنْ مَنزلٍ إلىٰ مَنزلٍ .

والبُعدُ : بُعدُ العبدِ عن طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، والتدنُّسُ بمُخالفةٍ ، فأولُ البُعدِ بُعدُ العبدِ عن الطَّاعاتِ ، ثمَّ البُعدُ عن التحقيقِ .

ومنها : النَّفَس ـ بتحريكِ الفاءِ ـ :

وهو ترويحُ القلوبِ بلطائفِ الغيوبِ .

وصاحبُ الأنفاسِ أَرقُّ وأصفىٰ مِنْ صَاحبِ الأَحوالِ ، فكانَ صاحبُ الوقتِ مُبتدئاً ، وصاحبُ الأنفاسِ مُنتهياً ، وصاحبُ الأَحوالِ بينَهما ، فالأَوقاتُ بدايةُ السُّلوكِ ، والأَحوالُ وسَائطُ ، والأَنفاسُ نهايةُ التَّرقِّي .

فالأوقاتُ لصَاحبِ القلوبِ ، والأحوالُ لأَربابِ الأرواحِ ، والأنفاسُ لأهلِ السَّرائرِ .

وقالوا : أفضلُ العباداتِ عدُّ الأنفاسِ معَ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ أبو عليٍّ الدقَّاقُ رحمة الله عليه : (العارفُ لا يسلمُ إليهِ النَّفَسُ ؛ لأنَّهُ لا مسامحةَ تجري معَهُ ، والمحبُّ لا بدَّ لهُ من نَفَسٍ ؛ إذْ لولا أنْ يكونَ لهُ نَفَسٌ . . لَتَلاشىٰ ؛ لعَدمِ طَاقتِه)[1] .

ومنها الخواطرُ :

فالخواطرُ : خطابٌ يَرِدُ على الضَّمائرِ ؛ فقدْ يكونُ بإلقاءِ مَلَكٍ ، وقدْ يكونُ بإلقاءِ شيطانٍ ، وقدْ يكونُ أحاديثَ النَّفْسِ ، وقدْ يكونُ مِنْ قِبَلِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ .

فإذا كانَ من قِبَلِ المَلَكِ . . فهو إلهامٌ ، وإذا كانَ من قِبَلِ الشَّيطانِ . . فهو وسواسٌ ، وإذا كانَ من قِبَلِ النَّفْسِ . . فهو هواجسُ ، وإذا كانَ من قِبَلِ اللهِ تعالىٰ وإلقائِهِ في القَلبِ . . فهو خاطرُ حقٍّ .

ومنها علمُ اليقينِ وعَينُ اليقينِ وحقُّ اليقينِ :

فعلمُ اليقينِ علىٰ مُوجَبِ اصطِلاحِهم : ما كانَ بشرطِ البُرهانِ ، وعينُ اليقينِ :

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٢٨٣) ، وفيها : (يسلم له) بدل (يسلم إليه) .

ما كانَ بحُكمِ البيانِ ، وحقُّ اليقينِ : ما كانَ بنعتِ العِيانِ ؛ فعلمُ اليقينِ لأربابِ العقولِ ، وعينُ اليقينِ لأصحابِ العلومِ ، وحقُّ اليقينِ لأصحابِ المعارفِ .

ومنها الواردُ :

والواردُ : ما يَرِدُ على القلوبِ من الخَواطرِ المحمودةِ ممَّا لا يكونُ بتعمُّدِ العبدِ ، وكذٰلكَ ما لا يكونُ من قِبَلِ الخواطرِ فهو أيضاً واردٌ .

ثمَّ يكونُ واردٌ مِنَ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ووارِدٌ مِنَ العلمِ ، فالوارداتُ أعمُّ مِنَ الخواطرِ ؛ لأنَّ الخواطرَ تختصُّ بنوعِ الخطابِ أو ما يتضمَّنُ معناهُ ، والوارداتُ لا تختصُّ بهِ ، ثمَّ الوارِدُ قدْ يكونُ واردَ سُرورٍ وواردَ حُزنٍ ، ووارِدَ قَبضٍ وواردَ بَسطٍ ، وغيرَ ذٰلك مِنَ المعاني .

ومنها لفظ الشَّاهدِ :

ويُريدون بلفظِ الشَّاهدِ : ما يكونُ حاضرَ قَلبِ الإنسانِ ، وهو ما كانَ الغالبَ عليه ، إنْ كانَ الغالبُ عليهِ ذِكراً . . فهو شاهدُهُ ، وإنْ كانَ الغالبُ عليهِ العِلمَ . . فهو بشاهِدِ العِلمِ ، وإنْ كانَ الغالبُ عليهِ الوَجدَ . . يُقالُ : إنه بشاهِدِ الوَجدِ .

ومعنى الشَّاهدِ : الحاضرُ ، وكلُّ ما هو حاضرٌ قَلبَكَ فهو شاهدُكَ .

ومنها : النَّفْسُ ـ بتسكين الفاءِ ـ :

ويُريدون بالنَّفْسِ : ما في العبدِ مِنَ الأخلاقِ والخِصالِ المذمومةِ ، وأَقبَحُها : إعجابُها ، وتَوَهُّمُها أنَّ لها قَدْراً عندَ اللهِ أو عندَ النَّاسِ .

ويُحتمَلُ أن يُقالَ : النَّفسُ ليسَ عَينَ الأخلاقِ والخصالِ المذمومةِ ، بلْ هي لطيفةٌ مُودَعةٌ في هٰذا القالبِ ، وهي محَلُّ الأَخلاقِ المذمومةِ ، كما أنَّ الرُّوحَ لطيفةٌ مُودَعةٌ في هٰذا القالبِ ، وهي محَلُّ الأَخلاقِ المحمودةِ .

ومنها الرُّوحُ :

والأرواحُ مُختلَفٌ فيها عندَ أهلِ الحقيقةِ من أهلِ السُّنَّةِ ؛ فمنهم مَن يقولُ : إنَّها الحياةُ فقطْ .

ومنهم مَن يقولُ : إنَّها أعيانٌ لطيفةٌ مُودَعةٌ في هـٰذه القوالبِ ، أجرى اللهُ تعالى العادةَ بخَلقِ الحياةِ في هـٰذه القوالبِ ما دامتِ الأرواحُ في الأبدانِ .

والإنسانُ حيٌّ بالحياةِ ، ولـٰكنَّ الأرواحَ مُودَعةٌ في القوالبِ ، ولها ترَقٍّ في حالِ النَّومِ ، ومُفارقةٌ للبَدَنِ ثمَّ رجوعٌ إليها .

وإنَّ الإنسانَ هو الرُّوحُ والجسدُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ سخَّرَ هـٰذه الجملةَ بعضَها لبعضٍ ، والحشرُ يكونُ للجُملةِ ، والمُثابُ والمُعاقَبُ الجملةُ .

والأرواحُ مخلوقةٌ ، ومَن قالَ بقِدَمِها . . فهو مخطئٌ خطأً عظيماً .

وقيلَ : الرُّوحُ مَعدِنُ الخيرِ ، والنَّفسُ مَعدِنُ الشرِّ ، والعقلُ جيشُ الرُّوحِ ، والهوىٰ جيشُ النَّفْسِ ، والتَّوفيقُ مِنَ اللهِ تعالىٰ مَدَدُ الرُّوحِ ، والخِذلانُ مَددُ النَّفسِ ، والقلبُ في أغلبِ الجيشَينِ .

ومنها السِّرُّ وسرُّ السِّرِّ :

يحتملُ أنَّ السِّرَّ لطيفةٌ مُودَعةٌ في القالبِ كالأرواحِ ؛ وهو محَلُّ المشاهدةِ ، كما أنَّ الأرواحَ محَلُّ المحبَّةِ ، والقلوبَ محَلُّ المعارفِ .

وقالوا : إنَّ السرَّ ما لكَ عليهِ إشرافٌ ، وسرُّ السِّرِّ : ما لا اطِّلاعَ عليهِ لغيرِ الحقِّ ، والسرُّ ألطفُ من الرُّوحِ ، والرُّوحُ أشرفُ من القَلبِ .

ويقالُ : صدورُ الأحرارِ قُبورُ الأسرارِ ، واللهُ أعلمُ .

❊ ❊ ❊

بابُ التّوبة

التَّوبةُ : أوَّلُ مَنزِلٍ مِن مَنازلِ السَّالكين ، وأوَّلُ مَقامٍ مِن مَقاماتِ الطَّالِبينَ .

وحقيقةُ التَّوبةِ في اللغةِ : الرجوعُ .

والمرادُ بها في الشَّرعِ : الرُّجوعُ عمَّا لا يرضاهُ اللهُ .

وللتوبةِ ثلاثُ شرائطَ : الندامةُ علىٰ ما عَمِلَ من المعاصي ، وتركُ الزَّلَّةِ في الحالِ ، والعزمُ علىٰ أَلَّا يعودَ إليها أبداً .

فمَن تابَ ثمَّ اتَّفقَ نقضُ توبتِهِ ، ثم تابَ . . قُبِلَتْ توبتُه ثانياً وثالثاً . . . إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، ما دامَتْ لتَوبتِهِ الشُّروطُ الثلاثةُ المذكورةُ .

ورُوِيَ أنَّ بعضَ المُريدين تابَ ، ثمَّ وقعَتْ لهُ فَترةٌ ، وكانَ يتفكَّرُ وقتاً لو عادَ إلى التَّوبةِ . . كيفَ حُكمُهُ ؟ فهتفَ بهِ هاتفٌ : يا أبا فُلان ؛ أَطَعتنا فشكرناكَ ، ثمَّ تَرَكتَنا فأمهَلناكَ ، فإن عُدتَ إلينا . . قَبِلناك[١] .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً سألَ أميرَ المؤمنينَ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ عنِ الرَّجُلِ يُذنبُ ثمَّ يستغفرُ ، ثمَّ يُذنبُ ثمَّ يستغفرُ ، فقالَ أميرُ المؤمنينَ : يستغفرُ أبداً ، حتىٰ يكونَ الشَّيطانُ هو الخاسِرَ ، فيقولَ : لا طَاقةَ لي معَهُ[٢] .

* * *

---

(١) أخرجها القشيري في « الرسالة » (ص ٢٩٩) .

(٢) أورده الرازي في « مفاتيح الغيب » (٤٦٨/٣) .

بابُ المجاهَدة

المجاهدةُ : فَطمُ النَّفسِ عن المألوفاتِ ، وحملُها علىٰ خلافِ هَواهَا في عمومِ الأوقاتِ .

قيلَ : بُنِيَ هـٰذا الأمرُ علىٰ ثلاثةِ أشياءَ : ألَّا يأكلَ إلَّا عندَ الفاقةِ ؛ يَعني : عندَ شدَّةِ الجوعِ ، ولا يَتكلَّمَ إلَّا عندَ الضَّرورةِ ، ولا ينامَ إلَّا عندَ غَلَبةِ النَّومِ [1] .

قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمه الله تعالىٰ : (لنْ ينالَ الرَّجُلُ درَجةَ الصَّالحينَ حتىٰ يُجاوِزَ ويقطعَ سِتَّ عَقَباتٍ : **أولُها** : يُغلِقُ بابَ النِّعمةِ ويفتحُ بابَ الشِّدَّةِ ، **والثَّاني** : يُغلِقُ بابَ العزِّ ويفتحُ بابَ الذُّلِّ ، **والثالثُ** : يُغلِقُ بابَ الرَّاحةِ ويفتحُ بابَ الجُهدِ ، **والرَّابعُ** : يُغلِقُ بابَ النَّومِ ويفتحُ بابَ اليقظةِ ، **والخامسُ** : يُغلقُ بابَ الغِنىٰ ويفتحُ بابَ الفقرِ ، **والسَّادسُ** : يُغلِقُ بابَ الأملِ ويفتحُ بابَ الاستعدادِ) [2] .

❊ ❊ ❊

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٣٠٧) عن الحسن القزاز .

(٢) أخرجه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٩٧) .

بابُ العزلةِ والخلوة

ولا بُد للمُريدِ في ابتداءِ حالِهِ مِنَ العُزلةِ عن أَبناءِ جِنسِهِ ، ثمَّ في نهايتِهِ مِنَ الخَلوةِ لتحقُّقه بأُنسِهِ ، ومِنْ حقِّ المُريدِ إذا آثَرَ العُزلةَ أنْ يعتقدَ باعتزالِهِ عن الخَلقِ سَلامةَ النَّاسِ مِنْ شرِّهِ ، ولا يَقصِدَ سلامتَهُ مِنْ شرِّ الخَلقِ ؛ فإنَّ الأولَ من القِسمَينِ استصغارُ نفسِهِ ، والثَّاني شهودُ مَزيَّتِهِ على الخَلقِ ، ومَن استصغرَ نفسَهُ . . فهو متواضِعٌ ، ومَن رأىٰ لنفسِهِ مَزيَّةً علىٰ أحدٍ . . فهو مُتكبِّرٌ .

رُوِيَ أنَّه قيلَ لرُهبانٍ : إنَّكَ راهبٌ ؟ فقالَ : لا ، أنا حارسُ كلبٍ ، إنَّ نفسي كَلبٌ عقورٌ يَعقِرُ الخَلقَ ، أخرجتُها مِن بينِهم لِيَسلَموا منها[1] .

ومِنْ آدابِ العُزلةِ : أنْ يُحصِّلَ مِنَ العلومِ ما يصحُّ بهِ اعتقادُهُ ؛ لكيلا يُوقِعَهُ الشيطانُ بوسواسِهِ في البدعةِ ، ثمَّ يُحصِّلَ مِنْ علومِ الشَّرعِ ما يؤدِّي بهِ فَرضَهُ ؛ ليكونَ بناءُ أمرِهِ علىٰ أساسٍ مُحكَمٍ .

والعزلةُ في الحقيقةِ : اعتزالٌ عن الخصالِ المذمومةِ .

قالَ أبو عثمان المغربيّ : (مَنِ اختارَ الخَلوةَ على الصُّحبةِ . . ينبغي أن يكونَ خالياً عن جميعِ الأذكارِ إلَّا ذِكرَ ربِّه ، وخالياً عن جميعِ الإراداتِ إلَّا رِضاءَ اللهِ ، وخالياً عن مُطالبةِ النَّفسِ مِنْ جميعِ الأسبابِ ؛ فإنْ لمْ يكُنِ الرَّجُلُ بهٰذه الصِّفةِ . . فإنَّ خَلوتَهُ تُوقِعُهُ في فتنةٍ أو بليةٍ)[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) كذا في « رسالة القشيري » (ص ٣١٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الزهد الكبير » (١٨٦) .

بابُ التّقوىٰ

وحقيقةُ الاتِّقاءِ : التَّحرُّزُ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ عن عقوبتِهِ .

وأصلُ التَّقوى : اتِّقاءُ الشِّركِ ، ثم بعدُه اتقاءُ المعاصي ، ثم بعدُه اتقاءُ الشُّبُهاتِ ، ثم يَدَعَ بعدَه الفَضَلاتِ .

وقالَ أبو عبدِ اللهِ الرُّوذباريُّ : (التقوىٰ : مجانبةُ ما يُبعِدُك عن اللهِ تعالىٰ)[1] .

قيلَ : إنَّ أبا يزيد غَسَلَ ثوبَهُ في الصَّحراءِ معَ صاحبٍ لهُ ، فقالَ صاحبُهُ : نُعلِّقُ الثيابَ مِنْ جدارِ القَومِ ؟ فقالَ : لا تَغرِزِ الوَتِدَ في جِدارِ النَّاسِ ، فقالَ : نُعلِّقُهُ مِنَ الشَّجرِ ؟ فقالَ : لا ؛ إنَّهُ يكسرُ الأغصانَ ، فقالَ : نَبسُطُه على الأرضِ بحشيشٍ ؟ فقالَ : لا ؛ إنَّهُ علفُ الدَّوابِّ ؛ لا نَستُرُهُ عنها ، فولَّىٰ ظهرَهُ إلى الشَّمسِ ، وألقَى القَميصَ علىٰ ظهرِهِ حتَّىٰ جَفَّ جانبٌ ، ثمَّ قَلَبَهُ حتَّىٰ جفَّ الجانبُ الآخَرُ[2] .

والوَرَعُ والزُّهدُ نوعانِ مِنَ التَّقوىٰ .

فالوَرَعُ : تركُ الشُّبُهاتِ .

وقالَ يحيى بنُ مُعاذٍ الرَّازيُّ رضيَ الله عنهُ : (الورَعُ : الوقوفُ علىٰ حَدِّ العلمِ مِنْ غيرِ تأويلٍ)[3] ؛ يعني : تركَ الرُّخَصِ ، والعملَ بما هو أقربُ إلىٰ رِضا اللهِ تعالىٰ .

---

(١) أخرجه السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣٤٧) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٢٢) .

(٣) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٨٤٨) .

مِثالُهُ : جاءَ في الحديثِ تحريمُ لحمِ الضَّبُعِ [1] ، وجاءَ في حديثٍ آخَرَ تحليلُهُ [2] ؛ فخُذْ بتحريمِهِ .

وجاءَ في حديثٍ يَنتَقِضُ الوضوءُ بلمسِ المرأةِ ، وجاء حديثٌ آخَرُ بأنَّهُ لا يَنتقِضُ الوضوءُ بلَمسِها ؛ فخُذْ بانتقاضِ الوضوءِ بلَمسِها احتياطاً ؛ لأنَّ الصُّوفيَّ لا مذهبَ لهُ ، بلْ مذهبُهُ ما هو الأَحوَطُ .

والزُّهدُ : قيل : تركُ مالِ الحرامِ ، وقيلَ : بلْ تركُ مالِ الحلالِ ؛ لأنَّ تركَ الحرامِ فرضٌ ، والزُّهدُ الرَّغبةُ عن الدُّنيا ، والرَّغبةُ عن الدُّنيا إنَّما تكونُ بتركِ الحلالاتِ والمُباحاتِ ، إلَّا قدرَ الضَّرورةِ .

(١) أخرج ابن المبارك في « المسند » (١٨٨) عن عبد الله بن يزيد السعدي ، قال : سألت سعيد بن المسيب عن الضبع ؟ فقال : إن أكلها لا يصلح ، وهل يأكلها أحد ؟ قلت : إن ناساً من قومي ليتحملونها فيأكلونها ، فقال : إن أكلها لا يصلح ، فقال شيخ عنده : إن شئت . . حدثتك ما سمعت أبا الدرداء يقول ؛ سمعته يقول : نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل نُهبة ، وعن كل خطفة ، وعن كل مجثمة ، وعن كل ذي ناب من السباع ، فقال سعيد بن المسيب : صدقت .

(٢) أخرج الشافعي في « المسند » (١٥٠٨ ـ ترتيب سنجر) عن ابن أبي عمار ، قال : سألت جابر بن عبد الله عن الضبع أصيد هي ؟ قال : نعم . فقلت : أتؤكل ؟ قال : نعم . فقلت : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم .

باب الصّمت

والصَّمتُ علىٰ نوعين : صمتٌ عن كلامِ اللسانِ ، وصمتٌ عن كلامِ القلبِ .

فالأولُ ضَربان : واجبٌ ومستحبٌّ ؛ فالواجبُ : الصَّمتُ عن كلامٍ مَنهيٍّ ، والمستحبُّ : الصمتُ عن كلامٍ مباحٍ ، وقالَ النبيُّ عليهِ السَّلامُ : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ »[1] ؛ يعني : ما لا ضَرورةَ لهُ فيهِ .

والصَّمتُ عن كلامٍ فيهِ خيرٌ . . معصيةٌ ؛ مِثلُ الصَّمتِ عن الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ ، وتعليمِ النَّاسِ أحكامَ الدِّينِ ، وغيرِ ذٰلك .

وأمَّا الصَّمتُ عن كلامِ القلبِ . . فنوعانِ أيضاً : واجبٌ ومُستحبٌّ ؛ فالواجبُ : هو تركُ ظنِّ السَّوءِ في حقِّ المسلمِ ، وتركُ اعتقادِ البدعةِ ، والمُستحبُّ : هو أن يُصَمِّتَ نفسَهُ عن طَلبِ الدُّنيا وطَلبِ الجاهِ وطَلبِ الرِّزقِ في حقِّ المتوكِّلِ ، وعنِ الاعتراضِ على اللهِ تعالىٰ بما يَجري عليه مِنَ القضاءِ والقَدَرِ في حقِّ العارفِ .

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧) ، وابن ماجه (٣٩٧٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

بابُ الخوفِ والرّجاء

والخوفُ : تركُ معصيةِ اللهِ ؛ مخافةَ عقابِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ الله عنهُ : (إنَّ المؤمنَ لا يَطمئِنُّ قلبُه ولا تَسكُنُ رَوعتُه حتىٰ يُخلِّفَ جسرَ جهنَّمَ)[1] .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ : (مِسكينٌ ابنُ آدمَ ؛ لو خافَ مِنَ النَّارَ كما يخافُ مِنَ الفقرِ . . لَدَخَلَ الجنَّةَ)[2] .

والرجاءُ : حُسنُ الطَّاعةِ ؛ طمعاً في نَيلِ الثَّوابِ .

قيلَ : الرَّجاءُ ثلاثةٌ : أن يعمَلَ الرَّجُلُ حسنةً فيَرجُوَ قَبُولَها ، وأن يَعمَلَ الرَّجُلُ سيِّئةً ثم تابَ فيرجوَ المغفرةَ ، والثالثُ الرَّجاءُ الكاذبُ ؛ وهو أن يَتمادَىٰ في الذُّنوبِ ويقولَ : أَرجُو المغفرةَ .

ومَن عَرَفَ نفسَهُ بالإساءةِ . . ينبغي أن يكونَ خوفُهُ غالباً علىٰ رجائِهِ ، والخوفُ والرَّجاءُ مِنْ شروطِ الإيمانِ ، ومَن زالَ عنهُ الخوفُ والرَّجاءُ . . كافرٌ ، نعوذُ باللهِ مِن ذٰلكَ .

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٥١) من قول سيدنا معاذٍ رضي الله عنه ، وأخرجه ابن أبي حاتم في « التفسير » (١٩٢٧٠) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٣٥٤٠) من وصية النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذٍ رضي الله عنه .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٥١) .

بابُ الحزن

قالَ الشَّيخُ أبو عبدِ اللهِ بنُ خفيفٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : (الحُزنُ : حَصرُ النَّفسِ عنِ النُّهوضِ في الطَّرَبِ)[1] .

وقال : سَمِعَتْ رابعةُ رَجُلاً يقولُ : واحُزناهْ ، فقالَتْ : قلْ : وَاقِلَّةَ حُزناهْ ، ولو كنتَ محزوناً . . لم يتهيَّأْ لكَ أنْ تتنفَّسَ[2] .

وقالَ سفيانُ الثَّوريُّ رحمةُ اللهِ عليه : (لو أنَّ محزوناً بكَىٰ في أمَّةٍ . . لَرَحِمَ اللهُ تلكَ الأمَّةَ ببكائِهِ)[3] .

والحُزنُ المحمودُ : هو حُزنُ الآخِرةِ ، والنَّدامةُ على الذُّنوبِ .

فأمَّا حُزنُ الدُّنيا : فغيرُ محمودٍ عندَ المشايخِ ، إلَّا أبا عثمانَ الحِيريَّ ؛ فإنَّهُ قالَ : (الحُزنُ بكلِّ وجهٍ فضيلةٌ وزيادةٌ للمؤمنِ ، ما لمْ يكُن بسببِ معصيةٍ ؛ لأنَّهُ وإنْ لمْ يُوجِبْ تخصيصاً فإنَّهُ يُوجِبُ تمحيصاً ـ يعني : تطهيراً ـ مِنَ الذُّنوبِ)[4] .

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٦٩) .
(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٦٩) .
(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٦٩) .
(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٧٠) .

باب الجوع وترك الشّهوة

والجوعُ : أحدُ أركانِ المُجاهَداتِ ، وفيهِ تصفيةُ القلبِ ، وكسرُ النَّفسِ عن الشَّهوةِ ، وهو شِعارُ الأنبياءِ والأَولياءِ .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ الرَّازيُّ : (لو كانَ الجوعُ يُباعُ في السُّوقِ . . لَما كانَ ينبغي لطُلابِ الآخرةِ إذا دخلوا السُّوقَ أن يَشتَرُوا غيرَهُ) [١] .

قالَ سهلُ بنُ عبد الله : (لمَّا خلقَ اللهُ تعالى الدُّنيا . . جعلَ في الشِّبَعِ المعصيةَ والجهلَ ، وجَعَلَ في الجُوعِ العِلمَ والحِكمةَ) [٢] .

وقال يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ : (الجوعُ للمُريدين رِياضةٌ ، وللتَّائبين تَجرِبةٌ ، وللزُّهَّادِ سِياسةٌ ، وللعارِفين مَكرُمةٌ) [٣] .

قيلَ : أدبُ الجوعِ أَلَّا يَنقُصَ مِن عادَتهِ إلَّا مِثلُ أُذُنِ السِّنَّورِ [٤] .

كذٰلكَ يَنقُصُ كلَّ يومٍ أو يومينِ مِثلُ ذٰلكَ حتىٰ لا تقلَّ قوَّتُهُ ، فإن نَقَصَ عن قُوتِهِ المُعتادِ قَدراً كثيراً دَفعةً واحدةً . . يضرُّهُ الجوعُ ولا ينفعُهُ .

وقيل لسهلِ بنِ عبدِ اللهِ : الرَّجُلُ يأكلُ في اليومِ أَكلةً واحدةً ؟ فقالَ : أكلُ الصدِّيقينَ ، قالَ : فأكلتَينِ ؟ قالَ : أكلُ المؤمنينَ ، قالَ : فثلاثةٌ ؟ قالَ : قُلْ لأَهلِكَ يَبنوا لكَ مَعْلَفاً [٥] .

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٧٣) .
(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٧٣) .
(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٧٣) .
(٤) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٣٧٣) من قول أحمد بن محمد بن سالم .
(٥) أخرجه القُشيري في « الرسالة » (ص ٣٧٤) .

وقالَ أبو عليٍّ الرُّوذباريُّ : (إذا قالَ الصُّوفيُّ بعدَ خمسةِ أيامٍ : إنِّي جائعٌ . . فألزِمُوهُ السُّوقَ ، ومُروهُ بالكَسبِ)[1] .

* * *

(١) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٣٧٦) .

باب الخشوع

الخشوعُ : الانقيادُ للحقّ .

والتَّواضُعُ : هو الاستسلامُ للحقّ ، وتركُ الاعتراضِ على الحُكمِ .

وقالَ بعضُهم : الخشوعُ قيامُ القلبِ بين يَدَيِ الحقِّ بِهَمٍّ مجموعٍ .

وقالَ : خشوعُ القلبِ قَيدٌ للعيونِ عن النَّظرِ .

وقيلَ : مِنْ علاماتِ الخشوعِ للعبدِ أنَّه إذا غَضِبَ أو خُولِفَ أو رُدَّ عليهِ . . أنْ يستقبلَ ذٰلكَ بالقَبولِ .

ورأىٰ بعضُهم واحداً مُنقبِضَ الظَّاهرِ مُنكسِرَ الشَّاهدِ ، وقد زَوَىٰ مَنكِبَيهِ ، فقالَ له : يا فُلانُ ؛ الخشوعُ ها هنا ـ وأشارَ إلىٰ صَدرِهِ ـ لا ها هنا ، وأشارَ إلىٰ مَنكِبَيهِ[1] .

وقالَ بعضُهم : ليسَ الخشوعُ في الرِّقابِ ؛ إنَّما الخشوعُ في القلوبِ .

واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ .

---

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٣٨٠) .

بابُ مخالفةِ النَّفسِ وذكرِ عيوبِها

مخالفةُ النَّفسِ أقوىٰ أَركانِ الوصولِ إلى اللهِ تعالىٰ .

والنَّفسُ ثلاثةٌ : مطمئنَّةٌ ولوَّامةٌ وأمَّارةٌ :

فالمطمئنَّةُ : هي الَّتي اطمأنَّت بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، ولا تَطلُبُ مخالفةَ أمرِهِ .

واللوَّامةُ : هي التي تَلُومُ الرَّجُلَ على الذُّنوبِ وتَحمِلُهُ على التَّوبةِ والإنابةِ .

والأمَّارةُ : هي التي تأمُرُهُ بالسُّوءِ ، وهي مُهلِكةٌ لصاحبِها ؛ فهي أعظمُ حُجُبٍ بينَ العبدِ وربِّهِ تعالىٰ .

سُئِلَ الجُنَيدُ رحمهُ اللهُ عن مُداواةِ النَّفسِ ؛ فقالَ : مُداواتُها مُخالفتُها[١] .

وسُئِلَ ابنُ عطاءٍ عن أَقربِ شيءٍ إلىٰ مَقتِ اللهِ تعالىٰ ؟ فقالَ : رؤيةُ النَّفسِ وأحوالِها ، وأشدُّ من ذٰلكَ : مطالعةُ أَغراضٍ علىٰ أفعالِها[٢] .

أرادَ برؤيةِ النفسِ : أنْ يرى الرجلُ لنفسِهِ قَدراً أو عِزَّةً ، بل ينبغي أن يَحقِرَ نفسَهُ ، ولا يقبلَ منها شيئاً إلَّا ما يُوافِقُ رِضَا اللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٩٠) ، بنحوه .

(٢) أخرجه السلمي في « الفتوة » (ص ١٨) ، وفيه : (مطالبة الأعواض علىٰ أفعالها) ، وفي (ب) : (الأعراض علىٰ أفعاله) .

باب الحسد والغيبة

الحَسدُ : أنْ يطلبَ الرجُلُ زوالَ نعمةٍ كانَتْ عندَ أَحدٍ من المُسلمينَ .

والحسدُ أشدُّ شيءٍ يُبعِدُ صاحبَهُ عن اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّهُ لا يَرضىٰ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ .

وقيل : الحسودُ لا يَسُودُ[1] .

وقيل : مِن علاماتِ الحاسدِ : أن يتملَّقَ إذا شَهِدَ ، ويغتابَ إذا غَابَ ، ويَشمَتَ بالمُصيبةِ إذا نزَلَتْ .

والغِبطةُ جائزةٌ ؛ وهي أنْ يرى الرجُلُ أَحداً في صَلاحٍ أو خَيرٍ أو مالٍ ؛ فيَتمنَّىٰ أنْ يكونَ مِثلَهُ من غيرِ أن يَتمنَّىٰ زَوالَ تلك النِّعمةِ عن ذٰلكَ الرَّجُلِ .

والغِيبةُ : أن يَذكُرَ رَجلاً في غَيبتِهِ بشيءٍ موجودٍ فيهِ ، لو سَمِعَ ذٰلكَ الرجُلُ . . لَكَرِهَه ، وإنْ ذَكَرَهُ بشيءٍ لم يكنْ فيهِ . . فهو بُهتانٌ ، والبُهتانُ أشدُّ مِنَ الغِيبةِ ، وكلاهما لا يرتفعانِ بالتَّوبةِ ، بل التَّوبةُ منهما أنْ يَستحِلَّ منهُ .

وقالَ عَوفٌ رحمهُ اللهُ : دَخلتُ على ابنِ سِيرينَ رحمهُ اللهُ ، فتناولتُ الحجَّاجَ ؛ يعني : اغتبتُه ، فقالَ ابنُ سِيرينَ : إنَّ اللهَ حَكَمٌ عَدلٌ ؛ فكما يأخُذُ مِنَ الحجَّاجِ . . يأخُذُ للحجَّاجِ منكَ ، وإنَّكَ إذا لَقِيتَ اللهَ غداً . . كانَ أَصغرُ ذَنبٍ أَصَبتَه أشدَّ عليكَ مِن أَعظمِ ذنبٍ أصابَهُ الحجَّاجُ[2] .

أرادَ بقولِهِ : (كما يأخُذُ مِنَ الحجَّاجِ . . يأخُذُ للحجَّاجِ منكَ) : أنَّك كما اغتبتَهُ اليومَ . . يأخذُ للحجَّاجِ مِنْ حَسناتِكَ يومَ القيامةِ ، واللهُ أعلمُ .

❊ ❊ ❊

---

(١) كُتب علىٰ حاشية (ب) : (أي : لا يصير سيداً) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٩٩) .

بابُ القناعة

القَناعةُ : الاكتفاءُ بالموجودِ ، وزوالُ الطَّمعِ عن المفقودِ .

وقيلَ : القَناعةُ : السُّكونُ عندَ عَدمِ المألوفاتِ .

وقيلَ : مَن كانَتْ قناعتُهُ سَمينةٌ . . طَابَتْ لهُ كلُّ مَرَقةٍ .

وقيلَ : مرَّ أبو حازمٍ بقصَّابٍ معَهُ لحمٌ سَمينٌ ، فقالَ : خُذهُ يا أبا حازمٍ ؛ فإنَّهُ سَمينٌ ، فقالَ : ليسَ معي درهمٌ ، فقالَ : أنا أُنظِرُكَ ، فقالَ : لَنَفسي أَحسَنُ نَظِرةً لي منكَ .

وقالَ ذو النُّونِ المِصريُّ : (مَن قَنَعَ . . استراحَ مِن أَهلِ زمانِهِ ، واستطالَ على أَقرانِهِ) [١] .

وقيلَ : مَن قَنَعَ . . استراحَ من الشُّغُلِ ، واستطالَ على الكُلِّ .

* * *

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٠٥) .

بابُ التّوكّل

التوكُّلُ : أن يَكِلَ الرَّجُلُ أمرَهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويرضَىٰ بما يجري عليهِ من قضاءِ اللهِ وقدرِهِ .

والتَّوكُّلُ محَلُّه القلبُ ، والحركةُ بالظاهرِ لا تُنافي توكُّلَ القلبِ بعدما تحقَّقَ العبدُ أنَّ التقديرَ من قِبَلِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وإنْ تعسَّرَ شيءٌ . . فبتقديرِهِ ، وإنِ اتَّفقَ شيءٌ . . فبتيسيرِه .

وشرطُ التوكُّلِ : ما قالَهُ أبو ترابٍ النَّخشبيُّ رحمهُ اللهُ ؛ وهو طرحُ البدنِ في العبوديَّةِ ، وتعلُّقُ القلبِ بالربوبيَّةِ ، والطمأنينةُ بالكفايةِ ؛ فإنْ أُعطِيَ . . شكرَ ، وإنْ مُنِعَ . . صبرَ[1] .

وكانَ إبراهيمُ الخواصُ رحمَهُ اللهُ مجرداً في التوكلِ ، وكانَ لا تُفارِقُه إبَرُهُ وخيوطُهُ ورَكوةٌ ومِقراضٌ ، فقيلَ لهُ : يا أبا إسحاقَ ؛ لِمَ تحملُ هٰذا وأنتَ ممتنعٌ مِنْ كلِّ شيءٍ ؟ فقالَ : مِثلُ هٰذا لا يَنقُضُ التَّوكُّلَ ؛ لأنَّ للهِ تعالىٰ علينا فرائضَ ، والفقيرُ لا يكونُ عليهِ إلا ثوبٌ واحدٌ ، فربما يتخرَّقُ ، فإذا لمْ يكنْ معَهُ إبرةٌ وخيوطٌ . . تبدو عورتُه ، وتَفسُدُ عليهِ صلاتُهُ ، فإذا لمْ يكنْ معَهُ رَكوةٌ . . تَفسُدُ عليهِ طهارتُهُ ، وإذا رأيتَ فقيراً بلا رَكوةٍ ولا إبرةٍ ولا خيوطٍ . . فاتَّهِمهُ في صلاتِهِ[2] .

والمتوكِّلُ لو أُلقِيَ عندَ الأسدِ . . ينبغي ألَّا يخافَ منهُ ، ولوِ انقطعَ المطرُ سنينَ . . ينبغي ألا يَهتمَّ لأجلِ رزقِهِ ، ولٰكنْ يسألُ الرَّحمةَ مِنَ اللهِ تعالىٰ للنَّاسِ ؛ فإنَّ انقطاعَ المطرِ عذابٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ على النَّاسِ .

* * *

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤١١) .

(٢) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٤١٤) .

باب الشّكر

حقيقةُ الشُّكرِ عند أهلِ التحقيقِ : الاعترافُ بنعمةِ المُنعِمِ علىٰ وجهِ الخضوعِ والخشوعِ ، وعلىٰ هـٰذا القولِ يُوصَفُ اللهُ سبحانَهُ بأنَّه شكورٌ توسُّعاً ؛ يعني : لا حقيقةً ، بلْ مجازاً ، ومعناهُ : أنَّهُ يُجازي العبادَ على الشكرِ ، فسُمِّيَ جزاءُ الشُّكرِ شكراً[1] .

وقيلَ : شكرُهُ إعطاءُ الكثيرِ مِنَ الثَّوابِ على العملِ اليسيرِ .

ويُحتَمَلُ أن يُقالَ : حقيقةُ الشكرِ : الثناءُ على المُحسِنِ بذكرِ إحسانِهِ .

والشُّكرُ ينقسمُ إلىٰ ثلاثةٍ :

شكرٌ باللِّسانِ : وهو اعترافُهُ بالنِّعمةِ بنعمةِ الاستكانةِ[2] .

وشكرٌ بالبدنِ والأركانِ : وهو اتِّصافُهُ بالخدمةِ .

وشكرٌ بالقلبِ : وهو اعتكافُهُ علىٰ بِساطِ الشُّهودِ بإدامةِ حفظِ الحُرمةِ .

---

(١) وفي (ب) : (وعلىٰ هـٰذا القول فوصْفُ الله سبحانه بأنه شكور . . توسُّعٌ ، ومعناه : أنه . . .) .

(٢) في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٢٥) : (وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة) .

بابُ اليقين

قالَ بعضُهُم : أوَّلُ المقاماتِ المعرفةُ ، ثمَّ اليقينُ ، ثمَّ التصديقُ ، ثمَّ الإخلاصُ ، ثمَّ الشهادةُ ، ثمَّ الطاعةُ ، والإيمانُ اسمٌ لجميعِ هٰذا كلِّهِ .

أشارَ هٰذا القائلُ إلىٰ أنَّ أوَّلَ الواجباتِ المعرفةُ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، والمعرفةُ لا تَحصُلُ إلا بتقديمِ شرائطِها ؛ وهو النظرُ الصائبُ ، ثمَّ إذا توالَتِ الأدلةُ وحصَلَ البيانُ . . صارَ بتوالي الأنوارِ وحصولِ الاستبصارِ كالمُستغني عن تأمُّلِ البرهانِ ، وهو حالُ اليقينِ .

ثمَّ تصديقُ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ فيما أخبرَ : إصغاؤُهُ إلىٰ إجابةِ الدَّاعي فيما يُخبِرُ عنهُ مِنْ أفعالِهِ سبحانَهُ في المُستأنَفِ [1] ؛ لأنَّ التَّصديقَ إنَّما يكونُ في الأخبارِ .

ثمَّ الإخلاصُ فيما يعتقدُ مِنْ أداءِ الأوامرِ ، ثمَّ بعدَ ذٰلك إظهارُ الإجابةِ بتحصيلِ الشَّهادةِ ، ثمَّ أداءُ الطاعاتِ بالتوجُّهِ فيما أُمِرَ بهِ والتحرُّزِ عمَّا زُجِرَ عنهُ .

❁ ❁ ❁

(١) إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، وقوله : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

بابُ الصّبر

قالَ ذو النُّونِ المِصريُّ رحمَهُ اللهُ : (الصبرُ التباعدُ من المخالفاتِ ، والسكونُ عندَ تجرُّعِ غُصَصِ البَليَّةِ ، وإظهارُ الغنىٰ معَ حُلولِ الفقرِ بساحاتِ المعيشةِ)(١) .

وقالَ الجُنيدُ رحمهُ اللهُ : (الصبرُ تجرُّعُ المرارةِ مِنْ غيرِ تعبيسٍ)(٢) .

وقالَ أبو عليّ الدقاقُ رحمهُ اللهُ : (الصبرُ علىٰ أقسامٍ : صبرٌ علىٰ ما هو كسبُ العبدِ ، وصبرٌ علىٰ ما هو ليسَ بكسبٍ .

فالصبرُ المكتسَبُ علىٰ قِسمَين : صبرٌ علىٰ ما أَمَرَ اللهُ بهِ ، وصبرٌ عمَّا نهى اللهُ عنهُ .

وأما الصبرُ الذي ليسَ بمكتسبٍ للعبدِ : فصبرُهُ علىٰ مقاساةِ ما يَتَّصِلُ بهِ مِنْ حكمِ اللهِ تعالىٰ فيما لهُ فيهِ مشقَّةٌ)(٣) .

وقيلَ : الصبرُ : أَلَّا يُفرِّقَ بينَ حالِ النِّعمةِ والمِحنةِ معَ سكونِ الخاطرِ فيهما ، والتَّصبُّرُ : هو السُّكونُ معَ البلاءِ معَ وجدانِ أثقالِ المحنةِ .

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٣٩) .
(٢) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٤٣٩) .
(٣) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٣٨) .

باب المراقبة

المراقبةُ : علمُ العبدِ باطِّلاعِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ عليهِ ، واستدامتُهُ لهٰذا العلمِ مراقبتَهُ لربِّهِ ، ومَنْ لهُ هٰذا العلمُ . . فليحفظْ أفعالَهُ وأقوالَهُ وما يَجري في خاطرِهِ عمَّا لا يرضاهُ اللهُ تعالىٰ ، وَلْيَنظُرْ على الدوامِ جَرَيانَ خطابِ اللهِ تعالىٰ معَهُ مِنَ الأمرِ والنَّهيِ .

قال أبو حفصٍ الحدَّادُ رحمهُ اللهُ : (إذا جلستَ في النَّاسِ . . فكُن واعظاً لقلبِكَ ولنفسِكَ ، ولا يغُرَّنَّكَ اجتماعُهُم عليكَ ؛ فإنَّهم يُراقبونَ ظاهرَكَ ، واللهُ رقيبُ باطنِكَ)[1] .

قالَ بعضُ الفقراءِ : كانَ أميرٌ لهُ غلامٌ يُقبِلُ عليهِ أكثرَ مِنْ إقبالِهِ علىٰ غيرِهِ مِنْ غِلمانِهِ ، ولمْ يكنْ أكثرَهُم قيمةً ، ولا أحسَنَهُم صورةً ، فقالوا لهُ في ذٰلكَ .

فأرادَ الأميرُ أن يُبيِّنَ لهم فضلَ الغُلامِ في الخدمةِ علىٰ غيرِهِ ، فيَوماً من الأيامِ كانَ راكباً ومعَهُ الحشَمُ ، وبالبُعدِ منهم جبلٌ عليهِ ثلجٌ ، فنظرَ الأميرُ إلىٰ ذٰلكَ الثَّلجِ وأَطرَقَ ، فركضَ الغلامُ فَرَسَهُ ، فلمْ يَعلَمِ القومُ لماذا رَكَضَ ، فلمْ يَلبَثْ إلَّا يسيراً حتىٰ جاءَ ومعَهُ شيءٌ مِنَ الثَّلجِ ، فقالَ الأميرُ : ما أدراكَ أنِّي أردتُ الثلجَ ؟ فقالَ الغلامُ : لأنَّكَ نظرتَ إليهِ ، ونظرُ الأميرِ إلىٰ شيءٍ لا يكونُ عن غيرِ قصدٍ ، فقالَ الأميرُ : إنَّما أَخُصُّه بإكرامي وإقبالي عليهِ لأنَّ لكلِّ واحدٍ شُغُلاً ، وشُغُله مُراعاةُ لَحَظاتي ، ومُراقبةُ أحوالي[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٥٠) .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٤٤٨) .

بابُ الرِّضا

اختلفَ المشايخُ رحمَهُم اللهُ في الرضا ؛ فقالَ بعضُهم : هو كسبيٌّ كالمَقاماتِ ، وقالَ الآخَرونَ : ليس بكسبيٍّ ، بلْ شيءٌ يَحُلُّ القلبَ كالأحوالِ .

والرِّضا : تركُ الاعتراضِ علىٰ تقديرِ اللهِ تعالىٰ .

قالَ موسىٰ عليهِ السلامُ : إلـٰهي ؛ دُلَّني علىٰ عملٍ إذا عَمِلتُه . . رضيتَ عني ؟ فقال : إنَّكَ لا تُطيقُ ذٰلكَ ، فخرَّ موسىٰ ساجداً متضرِّعاً ، فأَوحى اللهُ إليهِ : يا بنَ عِمرانَ ؛ إنَّ رضائي رضاكَ بقضائي[1] .

وقالَ تلميذٌ لأستاذِهِ : هلْ يَعرِفُ العبدُ أنَّ اللهَ تعالىٰ راضٍ عنهُ ؟ فقالَ : لا ؛ كيفَ يَعلمُ ذٰلكَ ورضاهُ غيبٌ ، فقالَ التِّلميذُ : أعرفُ ذٰلكَ ، فقالَ : كيفَ ؟ فقالَ : إذا وجدتُ قلبي راضياً مِن اللهِ تعالىٰ . . علمتُ أنَّهُ راضٍ منِّي ، فقالَ الأستاذُ : أحسنتَ يا غلامُ[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٥٤) .

(٢) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٤٥٤) .

باب العبوديّة

قال أبو عليّ الدقاقُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (العبوديةُ أتـمُّ مِنَ العبادةِ ؛ فالأوَّلُ العبادةُ ، ثمَّ العبوديةُ ، ثمَّ العبودةُ ؛ فالعبادةُ للعوامِّ مِنَ المؤمنينَ ، والعبوديةُ للخواصِّ ، والعبودةُ لخاصِّ الخاصِّ)[١] .

والعبادةُ لمَنْ لهُ عِلمُ اليقينِ ، والعبوديةُ لمَنْ لهُ عينُ اليقينِ ، والعبودةُ لمَنْ لهُ حقُّ اليقينِ ؛ فالعبادةُ لأصحابِ المُجاهَدَاتِ ، والعبوديةُ لأربابِ المُكابَداتِ ، والعبودةُ صفاتُ أهلِ المُشاهَداتِ .

فمَن لمْ يَدَّخِرْ عنِ اللهِ تعالىٰ نفسَهُ . . فهو صاحبُ عبادةٍ ، ومَن لمْ يَضِنَّ عليهِ بقلبِهِ . . فهوَ صاحبُ عبوديةٍ ، ومَن لم يَبخَلْ عليهِ برُوحِهِ . . فهو صاحبُ عبودةٍ .

وقيلَ : العبوديةُ في أربعةِ أشياءَ : الوفاءُ بالعهودِ ، والحفظُ للحدودِ ، والرِّضا بالموجودِ ، والصَّبرُ على المفقودِ .

(١) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٤٥٩) .

بابُ الإرادة

قيلَ : الإرادةُ تركُ ما عليهِ العادةُ ؛ مِنِ اتباعِ الشَّهَواتِ ، وجمعِ المالِ ، وحبِّ الدُّنيا وغيرِ ذٰلك .

وحقيقةُ الإرادةِ : نُهوضُ القلبِ في طلبِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ ولهٰذا قالوا : إنَّها لَوعةُ حُرقةٍ تُوجَدُ في القلبِ مِن وَجدٍ أو حُزنٍ تَفُوقُ كلَّ رَوعةٍ .

[قالَ القشيريُّ] : سمعتُ الأستاذَ أبا عليٍّ الدقاقَ رحمهُ اللهُ يقولُ حاكياً عنْ ممشاذَ الدِّينَوَريِّ قالَ : منذُ علمتُ أنَّ أحوالَ الفقراءِ جِدٌّ كلُّها . . لمْ أُمازِحْ فقيراً ؛ وذٰلكَ أنَّ فقيراً قَدِمَ عليَّ فقالَ : أيُّها الشَّيخُ ؛ نريدُ أنْ تَتَّخِذَ لي عصيدةً ، فجرىٰ علىٰ لساني : إرادةٌ وعصيدةٌ ؟!! فتأخَّرَ الفقيرُ ولمْ أَشعُرْ ، فأمرتُ باتخاذِ العصيدةِ ، وطلبتُ الفقيرَ فلمْ أَجِدْهُ ، فتعرفتُ خَبرَهُ ، فقيلَ : إنَّهُ انصرَفَ مِنْ فَورِهِ وكانَ يقولُ في نفسِهِ : إرادةٌ وعصيدةٌ ؟!! وهامَ علىٰ وجهِهِ حتىٰ دخلَ الباديةَ ، ولمْ يزلْ يقولُ هٰذه الكلمةَ حتىٰ ماتَ [١] .

وعنْ بعضِ المشايخِ قالَ : كنتُ في الباديةِ وَحدي ، فضاقَ صدري ، فقلتُ : يا إنْسُ ؛ كلِّموني ، يا جنُّ ؛ كلِّموني فهتفَ بي هاتفٌ : أَيشٍ تُريدُ ؟ فقلتُ : أريدُ اللهَ ، فقالَ الهاتفُ : متىٰ تريدُ اللهَ ؟! يعني : أنَّ مَن قالَ للجنِّ والإنسِ : كلِّموني متىٰ يكونُ مُريداً للهِ تعالىٰ ؟! [٢] .

❊ ❊ ❊

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ٤٦٦) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٦٦) .

بابُ الاستقامة

الاستقامةُ : الثباتُ علىٰ شيءٍ مِنْ غيرِ تزلزلٍ .

فمِنْ أماراتِ استقامة أهل البدايةِ : ألَّا يشوبَ معاملتَهم فترةٌ .

ومِنْ أماراتِ استقامةِ أهلِ الوسائطِ : ألَّا يصحبَ منازلتَهم وقفةٌ .

ومِنْ أماراتِ استقامةِ أهلِ النهايةِ : ألَّا يتداخلَ مواصلتَهم حَجْبةٌ .

وقالَ أبو عليّ الجوزجانيُّ رحمَهُ اللهُ : (كنْ صاحبَ الاستقامةِ ، لا طالبَ الكرامةِ ؛ فإنَّ نفسَكَ متحرّكةٌ في طلبِ الكرامةِ ، وربُّك يُطالِبُ بالاستقامةِ) [١] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٧٣) .

بابُ الإخلاص والصّدق

الإخلاصُ : إفرادُ الحقِّ سبحانَهُ في الطاعةِ بالقصدِ ؛ وهو أنْ يريدَ بطاعتِهِ التقرُّبَ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ دونَ شيءٍ آخَرَ ؛ مِنْ تصنُّعٍ لمخلوقٍ أو اكتسابِ مَحمَدةٍ عندَ الناسِ ، أو محبَّةِ مدحٍ مِنَ الخَلقِ .

وقالَ أبو بكرٍ الدقَّاقُ : (نُقصانُ كلِّ مُخلِصٍ في إخلاصِهِ رؤيةُ إخلاصِهِ ، فإذا أرادَ اللهُ أن يُخلِصَ إخلاصَهُ . . أَسقطَ عنْ إخلاصِهِ رؤيتَهُ لإخلاصِهِ ؛ فيكونُ مُخلَصاً لا مُخلِصاً)[1] .

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (لا يَعرِفُ الرِّياءَ إلا مُخلِصٌ)[2] .

وقال الفُضَيلُ رحمهُ اللهُ : (تركُ العملِ من أجلِ الناسِ رياءٌ ، والعملُ مِنْ أجلِ الناسِ شركٌ ، والإخلاصُ أنْ يُعافِيَك اللهُ منهما)[3] .

وقيلَ : الصدقُ : القولُ بالحقِّ في مواطنِ الهَلَكةِ .

وقالَ عبدُ الواحد بنُ زيدٍ رحمهُ اللهُ : (الصِّدقُ : الوفاءُ للهِ بالعملِ)[4] .

وقالَ ذو النونِ المِصريُّ رحمهُ اللهُ : (الصِّدقُ : سيفُ اللهِ تعالىٰ ؛ ما وُضِعَ علىٰ شيءٍ إلا قَطَعَهُ)[5] .

وسُئِلَ الفتحُ المَوصِليُّ عن الصِّدقِ ؛ فأدخلَ يدَهُ في كِيرِ الحدَّادِ ، وأخرجَ الحديدةَ المُحماةَ ، ووَضَعَها علىٰ كَفِّهِ ، وقالَ : هٰذا هو الصِّدقُ[6] .

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٧٨) ، وفيها : (الزقاق) بدل (الدقاق) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٨٠) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٦٩) .

(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٨٣) .

(٥) رواه السلمي في « طبقاته » (ص ٢٢) .

(٦) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٨٦) .

باب الحياء

الحياءُ علىٰ وجوهٍ :

حياءُ الجِنايةِ : كحياءِ آدمَ عليه السلامُ حينما أكلَ مِنَ الشَّجَرةِ ، فذهَبَ يميناً وشمالاً ، فقالَ الربُّ سبحانَهُ وتعالىٰ : أَفِراراً منَّا ؟ فقالَ : لا ، بلْ حياءً منكَ (١) .

وحياءُ التقصيرِ : كالملائكةِ يقولونَ : ما عبدناكَ حقَّ عبادتِكَ (٢) .

وحياءُ الإجلالِ : كإسرافيلَ عليهِ السلامُ تَسربَلَ بجناحَيه حياءً مِن اللهِ تعالىٰ (٣) .

وحياءُ الكرمِ : كالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كان يَستحيي مِن أمَّتِهِ أنْ يقولَ : اخرجوا ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ (٤) .

وحياءُ الحِشمةِ : كعليٍّ رضيَ اللهُ عنه حينَ سألَ المِقدادَ حتىٰ يسألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن حُكمِ المذيِ ؛ لمكانِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها منهُ (٥) .

وحياءُ الاستحقارِ : كموسىٰ عليهِ السلامُ قالَ : إنَّهُ لَتَعرِضُ ليَ الحاجةُ مِنَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في « التفسير » (٣٨٩) من حديث سيدنا أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٥٧) من قول سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وله حُكم الرفع .

(٣) أخرجه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٩٢٨٣) من قول كعب الأحبار ، وفيه : (وجناح قد تسربل به) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٩٣) ومسلم (١٤٢٨) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه في قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وعند البخاري : (وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء) ، والآية من سورة الأحزاب : (٥٣) .

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٩) ومسلم (٣٠٣) من حديث سيدنا علي رضي الله عنه .

الدُّنيا فأَستحيي أنْ أسأَلَكَ يا ربِّي ، فقالَ اللهُ تعالىٰ لهُ : سَلني حتَّىٰ مِلحَ عَجِينِكَ وعَلَفَ شاتِكَ [1] .

وحياءٌ هو حياءُ الربِّ تعالىٰ : يُدفَعُ إلى العبدِ كتابٌ مختومٌ بعدَما عَبَرَ الصِّراطَ ، فإذا فيهِ : فعلتَ ما فعلتَ ولٰكنِ استحيَيتُ أنْ أُظهِرَ عليكَ ، فاذهَبْ ؛ فإنِّي قدْ غَفَرتُ لكَ [2] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : عِظ نفسَكَ ؛ فإنِ اتَّعظت . . فعِظِ الناسَ ، وإلا . . فَلتَستَحْيِ منِّي أنْ تَعِظَ الناسَ [3] .

(١) أورده ابن الجوزي في « المنثور » (ص ٦٧) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٩٢) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) .

باب الحرّيّة

الحريةُ في اللغةِ : الخُلوصُ ، ويقالُ : طينٌ حرٌّ ؛ أيْ : خالصٌ ، وفلانٌ حرُّ الذاتِ ؛ أيْ : خالصُ الذاتِ مِنَ الأشياءِ المذمومةِ .

وعندَ أهلِ الحقيقةِ : عبارةٌ عن صفاءِ الذاتِ عن خَبَثِ الدنيا وحبِّ الجاهِ والشُّهرةِ ، وتعلُّقِ الخاطرِ بما سوى اللهِ عزَّ وجلَّ .

وسُئِلَ الجُنَيدُ رحمَهُ اللهُ عمَّنْ لمْ يبقَ عليهِ مِن الدنيا إلا مقدارُ مصِّ نَواةٍ ؟[١] فقالَ : المكاتبُ عبدٌ ما بَقِيَ عليهِ درهمٌ[٢] ؛ يعني : الرَّجُلُ غيرُ حرٍّ ما بَقِيَ عليهِ شيءٌ مِنَ الدنيا مِن الأشياءِ المذمومةِ وإنْ قلَّ .

واعلمْ : أنَّ معظمَ الحرِّيَّةِ في خدمةِ الفقراءِ ، أَوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : إذا رأيتَ لي طالباً . . فكُنْ لهُ خادماً[٣] .

قالَ يحيى بنُ معاذٍ رحمهُ اللهُ : (أبناءُ الدنيا يَخدُمُهم الإماءُ والعبيدُ ، وأبناءُ الآخرةِ يَخدُمُهُم الأحرارُ والأبرارُ)[٤] .

* * *

---

(١) في (أ) : (مضّ فراق) ، والمثبت من (ب) ، و« الرسالة القشيرية » : (ص ٤٩٦) .

(٢) رواه البيهقي في « الزهد » (٤٢٩) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٤٨٢) .

(٤) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٤٩٧) .

بابُ الذِّكر

الذِّكرُ علىٰ ضَربَينِ : ذكرٌ باللِّسانِ ، وذكرٌ بالقلبِ .

فذكرُ اللِّسانِ : أن تَذكُرَهُ بأسمائِه الحسنىٰ وصفاتِهِ العُليا ، وتتحدَّثَ بنعمتِهِ .

وذكرُ القلبِ : أن تَحفَظَهُ ولا تَنساهُ .

وقالَ الواسطيُّ : (الذِّكرُ : الخروجُ عن مَيدانِ الغفلةِ إلىٰ فضاءِ المشاهدةِ علىٰ غلبةِ الخوفِ وشدةِ الحبِّ)[1] .

وقالَ الكَتَّانيُّ : لولا أنَّ ذِكرَهُ فرضٌ عليَّ . . لَما ذكرتُهُ ؛ إجلالاً لهُ ، فمِثلي كيفَ يَذكُرُهُ ولمْ يَغسِلْ فمَهُ بألفِ توبةٍ مُتقبَّلةٍ ؟ عزَّ ذِكرُهُ[2] .

وقالَ النوريُّ : (لكلِّ شيءٍ عقوبةٌ ، وعقوبةُ العارفِ انقطاعُهُ عن الذِّكرِ)[3] .

وقيلَ لراهبٍ : أنتَ صائمٌ ؟ فقالَ : صائمٌ بذكرِهِ ، فإذا ذكرتُ غيرَهُ . . أفطَرتُ .

قيلَ : كانَ رجلٌ يُكثِرُ أنْ يقولَ : اللهُ اللهُ ، فوقعَ يوماً علىٰ رأسِهِ جِذعٌ ، فانشجَّ رأسُهُ ، وسَقَطَ الدمُ ، فكتبَتْ على الأرضِ : الله الله[4] .

وقالَ [أبو] عبدُ الرَّحمـٰنِ السُّلَميُّ رحمهُ اللهُ : (الذِّكرُ عندي أتمُّ مِنَ الفكرِ ؛ لأنَّهُ تعالىٰ يُوصَفُ بالذكرِ ولا يُوصَفُ بالفكرِ ، وما هو وصفُ اللهِ تعالىٰ أتمُّ ممَّا لا يكونُ وصفاً للهِ) .

❁ ❁ ❁

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٩٩) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠١) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٤) .

(٤) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٥) .

باب الفتوة

أصلُ الفُتُوَّةِ : أنْ يكونَ العبدُ أبداً في أمرِ غيرِهِ .

وقيلَ : الفتوةُ : الصفحُ عن عَثَراتِ الإخوانِ .

وقيلَ : الفتوةُ : ألَّا ترىٰ لنفسِك فضلاً علىٰ غيرِك .

وقيلَ : الفتىٰ : مَن لا يكونُ خَصماً لأحدٍ .

وقالَ النَّصراباذيُّ : (المروءةُ شُعبةٌ من الفتوةِ ؛ وهو الإعراضُ عن الكونينِ والأَنَفةُ منهما)[١] .

وقيلَ : الفتوةُ ألا ندَّخِرَ ، ولا نعتذرَ .

وقيلَ : إظهارُ النِّعمةِ ، وإسرارُ المِحنةِ .

وقيلَ : تزوَّجَ رجلٌ بامرأةٍ ، فقَبلَ الدُّخولِ . . ظهَرَ بالمرأةِ الجُدَريُّ ، فقالَ الرجلُ : اشتكَتْ عَينِي ، ثمَّ قالَ : عَمِيتُ ، فزُفَّتْ إليهِ المرأةُ ، ثمَّ ماتَتْ بعدَ عشرينَ سنةً ، ففتحَ الرجُلُ عَينَهُ ، فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : لمْ أَعمَ ، ولٰكنْ تعامَيتُ ؛ حِذارَ أن تَحزَنَ ، فقيل : سَبقتَ الفِتيانَ[٢] ، واللهُ أعلمُ .

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٩) .

باب الفراسة

قالَ الواسطيُّ رحمهُ اللهُ : (إنَّ الفِراسةَ سواطعُ أنوارٍ لمَعَتْ في القلوبِ ، ومكينُ معرفةٍ حَمَلَتِ السَّرائرَ في الغيوبِ مِن غيبٍ إلىٰ غيبٍ ، حتَّىٰ يَشهَدَ الأشياءَ مِنْ حيثُ أَشهَدَهُ الحقُّ إيَّاها ، فيَتكلَّمُ عن ضميرِ الخَلقِ)[1] .

وقيلَ : كانَ أبو القاسمِ المنادي مريضاً ، وكانَ كبيرَ الشأنِ ، فعادَه أبو الحسنِ البوشنجيُّ وأبو الحسنِ الحدَّادُ ، واشتريا بنصفِ درهمٍ تفاحاً في الطريقِ بنسيئةٍ ، وحملاهُ إليهِ ، فلما قَعَدا . . قال أبو القاسمِ : ما هٰذه الظُّلمةُ ؟ فخرجا وقالا : أَيشٍ فعلنا ؟ وتفكَّرا ، فقالا : لعلَّنا لم نؤدِّ ثمنَ التفاحِ ، وأَعطَيا الثمنَ ، وعادا إليهِ ، فلمَّا وقعَ بصرُهُ عليهما فقالَ : أَيُمكِنُ للإنسانِ أن يَخرُجَ من هٰذه الظُّلمةِ بهٰذه السرعةِ ؟![2] .

قالَ شاهٌ الكرمانيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : (مَنْ غضَّ بَصَرَهُ عن المحارمِ ، وأَمسَكَ نفسَهُ عن الشَّهَواتِ ، وعمرَ باطنَهُ بدوامِ المراقبةِ ، وظاهرَه باتباعِ السُّنَّةِ ، وتعوَّدَ أكلَ الحلالِ . . لم تُخطئ فِراستُهُ قطُّ)[3] .

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١٤) .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٥١٦) .

(٣) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٥١٨) .

باب الخُلُق

الخُلُقُ الحسَنُ : أن تُحسِنَ إلىٰ مَنْ يُؤذيكَ ، وتَرحَمَ كلَّ الخلقِ حتىٰ عدوَّكَ ، وحتى الكلبَ .

قالَ الواسطيُّ رحمَهُ اللهُ : (الخُلُقُ العظيمُ : ألَّا تُخاصِمَ ولا تُخاصَمَ مِن شدَّةِ معرفتِكَ باللهِ تعالىٰ)[1] ، ومعناهُ : ألَّا يُؤثِّرَ فيكَ جفاءُ الخَلْقِ بعدَ مطالعتِكَ الحقَّ .

قيلَ للأحنفِ بنِ قيسٍ : ممَّنْ تعلَّمتَ الخُلُقَ ؟ فقالَ : مِن قَيسِ بنِ عاصمٍ ، قيلَ : وما بَلَغَكَ مِنْ خُلُقِهِ ؟ فقالَ : بينا هو جالسٌ في دارِهِ . . إذْ جاءَ خادمٌ بسَفُّودٍ[2] عليهِ شِواءٌ ، فسَقَطَ مِن يَدِهِ ، فوقعَ على ابنٍ لهُ وماتَ ، فدُهِشَ الخادمُ ، فقالَ : لا رَوعةَ عليكَ ، أنتَ حرٌّ لوجهِ اللهِ تعالىٰ[3] .

ورُوِيَ أن أميرَ المؤمنين عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ دعا غلاماً لهُ ، فلمْ يُجِبْهُ ، فدعاهُ ثانياً وثالثاً ، فلمْ يُجبهُ ، فقامَ إليهِ ، فرآهُ مُضطَجِعاً ، فقالَ : أما تَسمَعُ يا غلامُ ؟! فقالَ : نعمْ ، فقالَ : ما حَمَلَكَ علىٰ تَركِ جوابي ؟ فقالَ : أَمِنتُ عُقُوبتَك فتَكاسَلْتُ ، فقالَ : امضِ ، أنتَ حرٌّ لوجهِ اللهِ تعالىٰ[4] .

قالَ الجريريُّ : قَدِمْتُ مِنْ مكةَ ، فبدأْتُ بالجُنَيدِ لكيلا يسعىٰ[5] إليَّ ، فسلَّمتُ عليهِ ، ثمَّ مَضَيتُ إلى المنزلِ ، فلمَّا صلَّيتُ الصُّبحَ في المسجدِ . . إذا

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٢٨) .

(٢) السفود : الحديد الذي يشوىٰ عليه اللحم .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٣٠) .

(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٣١) .

(٥) في « ب » : « يتعنَّىٰ » .

أنا بِهِ هو خَلفي في الصَّفِ ، فقلتُ : إنَّما جئتُكَ أمسِ لئلَّا تَتعنَّىٰ ! قالَ : ذاكَ فضلُكَ ، وهٰذا حقُّكَ [1] .

قالَ الكَتَّانيُّ : (التصوُّفُ خُلُقٌ ؛ فمَنْ زادَ عليكَ في الخُلُقِ . . فقدْ زادَ عليكَ في التَّصوُّفِ ، ومَن زادَ عليكَ في التَّصوُّفِ . . فقدْ زادَ عليكَ في الخُلُقِ) [2] .

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ أدهَمَ : هل فَرِحتَ في الدُّنيا قطُّ ؟ قالَ : [نعمْ] [3] ، مرَّتَين ؛ إحداهما : كنتُ قاعداً فجاءَ إنسانٌ فبالَ عليَّ ، والثانيةُ : كنتُ قاعداً فجاءَ إنسانٌ وصَفَعَني للفقرِ [4] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٣٢) .

(٢) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٢٩) .

(٣) في النسخ : (بلىٰ) ، والمثبت من « الرسالة القشيرية » (ص ٥٣١) .

(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٣١) .

بابُ الجود والسّخاء والبذل

ولا فرقَ علىٰ لسانِ أهلِ العلمِ بينَ الجُودِ والسَّخاءِ ، ولا يُوصَفُ الحقُّ سُبحانَهُ بالسَّخاءِ ؛ لعدمِ التَّوقيفِ ولعدمِ النصِّ .

وحقيقةُ الجُودِ : ألَّا يَصعُبَ عليهِ البَذلُ .

وعندَ القومِ : السَّخاءُ هو الرُّتبةُ الأُولىٰ ، ثـمَّ الجُودُ بعدَهُ ، ثـمَّ الإيثارُ ؛ فمَنْ أعطى البعضَ وأبقَى البعضَ . . فهو صاحبُ سَخاءٍ ، ومَن بذلَ الأكثرَ وأبقَىٰ لنفسِهِ شيئاً . . فهو صاحبُ الجُودِ ، ومَن جادَ بالكلِّ وأبقَىٰ لنفسِهِ الفقرَ والفَاقةَ . . فهو صَاحبُ الإيثارِ .

وقيلَ : مَرِضَ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عُبادةَ ، فاستبطأَ إخوانَهُ في العِيادةِ ، فسألَ عنهم ، فقالوا : إنَّهم يَستَحيُونَ ممَّا لكَ عليهم مِن الدَّينِ ، فقالَ : أَخزَى اللهُ مالاً يَمنَعُ الإخوانَ مِن الزِّيارةِ ، ثم أمَرَ مَن يُنادي : مَن كان لقيسٍ عليهِ مالٌ . . فهو منهُ في حلٍّ ، فكُسِرَت عَتَبَتُهُ بالعَشيِّ لكَثرةِ مَنْ عادَهُ[1] .

وسألَتِ امرأةٌ اللَّيثَ بنَ سعدٍ سُكُرُّجةَ عَسَلٍ ، فأمَرَ لها بزِقِّ عسلٍ ، فقيلَ لَه في ذٰلكَ ، فقالَ : إنَّها سألَت علىٰ قَدرِ حاجَتِها ، ونحن نُعطي علىٰ قَدرِ نِعمتِنا[2] .

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٤٠) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٤٣) .

بابُ الغَيْرةِ

قالَ أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ رحمةُ اللهِ عليهِ : (الغَيرةُ : كَراهيةُ مُشاركةِ الغيرِ)[١] .

وإذا وُصِفَ الحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ بالغَيرةِ . . فمعناهُ : ألَّا يرضَىٰ بمُشاركةِ الغَيرِ معَهُ فيما هو حقٌّ لهُ مِن طاعاتِ عَبدِهِ .

والواجبُ أن يُقالَ : الغَيرةُ غَيرتانِ : غَيرةُ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ على العبدِ ؛ وهو ألَّا يَجعَلَه للخَلقِ فيَضِنَّ بهِ عليهِم ، وغَيرةُ العبدِ للحقِّ ؛ وهو ألَّا يَجعَلَ شيئاً مِن أحوالِهِ وأنفاسِهِ لغيرِ الحقِّ سُبحانَهُ وتعالىٰ .

ومِنْ سُنَّةِ الحقِّ جلَّ جلالُه معَ أوليائِهِ أنَّهم إذا [سَاكَنُوا][٢] غَيراً ولاحظوا شيئاً أو صاحبوا بقلوبِهم شيئاً شوَّشَ عليهِم ذٰلكَ . . فيَغارُ علىٰ قلوبِهم بأنْ يُعيدَها خالصةً لنفسِهِ .

وقيلَ : أَوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : أنَّ لفلانٍ إليَّ حاجةً ، ولي أيضاً إليهِ حاجةٌ ، فإنْ قضىٰ حاجَتي . . قَضيتُ حاجتَهُ ، فقالَ ذٰلكَ النَّبيُّ في مُناجاتِه : إلٰهي ؛ كيفَ يكونُ لكَ حاجةٌ ؟! فقالَ تعالىٰ : إنَّهُ ساكَنَ بقلبِهِ غيري ، فليُفرِّغْ قلبَهُ عنهُ . . أَقضِ حاجتَهُ[٣] ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٥٤٦) .

(٢) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٥٠) ، وفي النسخ : (سكنوا) .

(٣) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٥٠) .

بابُ الولاية

قال الشَّيخُ أبو القاسم القُشيريُّ رحمه الله : (الوَليُّ لهُ معنيانِ :

أحدُهما : فعيلٌ بمعنىٰ مفعولٍ ؛ وهو مَنْ يتولَّى اللهُ تعالىٰ أَمرَهُ ، ولا يَكِلُهُ إلىٰ نفسِهِ لحظةً ، بلْ يَتولَّى الحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ رِعايتَهُ .

والثَّاني : فَعيلٌ ، مُبالغةٌ مِنَ الفَاعلِ ؛ وهو الذي يَتولَّىٰ عبادةَ اللهِ ، فعبادتُهُ تَجري على التَّوالي مِنْ غيرِ أنْ يتخللها عِصيانٌ .

وكِلا الوَصفَينِ واجبٌ حتَّىٰ يكونَ الوَليُّ وليّاً)[1] .

واختلفوا في أنَّ الوليَّ : هل يجوزُ أن يَعلَمَ أنَّه وليٌّ أمْ لا ؟

فمنهم مَنْ قالَ : لا يجوزُ ذٰلكَ ؛ لأنَّ الوَليَّ يُلاحِظُ نَفسَهُ بعَينِ الاستصغارِ ، وإنْ ظَهَرَ عليهِ شيءٌ مِنَ الكَراماتِ . . خافَ أن يكونَ مَكْراً ، وهو يَستشعِرُ دائماً خَوفَ سُقوطِهِ عمَّا هو فيهِ ، وأنْ تكونَ عاقِبتُهُ بخِلافِ حالِهِ ، وهٰؤلاءِ يجعلونَ مِن شرطِ الولايةِ : وفاءُ المآلِ .

ومنهم مَنْ قالَ : يجوزُ أن يَعلَمَ الوليُّ أنَّهُ وَليٌّ ، وليسَ مِنْ شرطِ تحقيقِ الوِلايةِ في الحالِ الوفاءُ في المآلِ .

وقيلَ : عَلامةُ الوَليِّ ثلاثةٌ : شُغلُهُ باللهِ تعالىٰ ، وفِرارُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، وهمُّهُ اللهُ تعالىٰ ، واللهُ أعلم .

* * *

(١) الرسالة القشيرية (ص ٥٥٣) .

بابُ الدّعاء

الدُّعاءُ مِفتاحُ الحاجاتِ ، وهو مُستَروَحُ أَصحابِ الفاقَاتِ ، ومَلجَأُ المُضطَرينَ .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : (أَقربُ الدُّعاءِ إلى الإجابةِ دُعاءُ الحالِ)[١] ، ودعاءُ الحالِ أنْ يكونَ صاحبُهُ مُضطراً ، لا بدَّ لهُ ممَّا يدعو لأَجلِهِ .

واختلفوا في أنَّ الأفضلَ الدُّعاءُ ، أمِ السكوتُ والرضاءُ ؟ فمِنهم مَن قالَ : الدُّعاءُ في نفسِهِ عبادةٌ ، قالَ النبيُّ عليهِ السلامُ : « ٱلدُّعَاءُ مُخُّ ٱلْعِبَادَةِ »[٢] ، والإتيانُ بما هو عبادةٌ أَولىٰ مِنْ تَركِها .

ثمَّ هو حقُّ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فإنْ لمْ يُستجَبْ للعَبدِ ولم يَصِلِ العبدُ إلىٰ حَظِّ نفسِه . . فلقدْ قامَ بحقِّ ربِّهِ ؛ لأنَّ الدُّعاءَ إظهارُ فاقةِ العبوديَّةِ .

قالَ أبو حازمٍ : (لَأَنْ أُحرَمَ الدُّعاءَ أشَدُّ عليَّ مِن أنْ أُحرَمَ الإجابةَ)[٣] .

وطائفةٌ قالوا : السُّكوتُ والخُمودُ تحتَ جَرَيانِ الحُكمِ أتمُّ ، والرِّضا بما سَبَقَ مِنِ اختيارِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ أَولىٰ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خبراً عنِ اللهِ تعالىٰ : « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسأَلَتِي . . أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي ٱلسَّائِلِينَ »[٤] .

* * *

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٥٩) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديثِ سيدنا أنس رضي اللهُ عنه ، وأخرجه أيضاً (٢٩٦٩) من حديث سيدنا النعمان بن بَشير رضي اللهُ عنهما ، بلفظ : « الدُّعاءُ هو العِبادةُ » .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٦٠) .

(٤) أخرَجه البخاري في « خلق أفعال العباد » (٥٧٩) من حديثِ سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي اللهِ عنه .

باب الفقر

الفقرُ شِعارُ الأولياءِ ، وحِليةُ الأصفياءِ ، واختيارُ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ لخواصِّهِ مِنَ الأنبياءِ والأتقياءِ .

والفقراءُ صَفوةُ اللهِ مِنْ عبادِهِ ، ومواضِعُ أَسرارِهِ بينَ خَلقِهِ ، بهم يَصُونُ الخَلقَ ، وببركاتِهِم يَبسُطُ عليهمُ الرِّزقَ .

والفقراءُ الصُّبَّرُ جُلساءُ اللهِ تعالىٰ يومَ القيامةِ ، وبذٰلك قالَ النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ : « لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ ؛ وَمِفْتَاحُ ٱلْجَنَّةِ حُبُّ ٱلْمَسَاكِينِ ، وَٱلْفُقَرَاءُ ٱلصُّبَّرُ هُمْ جُلَسَاءُ ٱللهِ تَعَالَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[1] .

قيلَ : قامَ رجلٌ فقيرٌ في مجلسٍ يَطلُبُ شيئاً ، وقالَ : إنِّي جائعٌ مُذْ ثلاثٍ ، وكانَ هناكَ بعضُ المشايخِ ، فصاحَ عليهِ وقالَ : كَذَبتَ ؛ إنَّ الفقرَ سرُّ اللهِ ، وهو لا يَضَعُ سرَّهُ عندَ مَنْ يَحمِلُهُ إلىٰ مَن يُريدُ[2] .

وقيلَ : نعتُ الفقيرِ ثلاثةُ أشياءَ : حِفظُهُ سرَّهُ ، وأداءُ فَرضِهِ ، وصِيانةُ فقرِهِ .

قيلَ : أَوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : أَتُحِبُّ أنْ يكونَ لكَ يومَ القيامةِ مِثلُ حَسناتِ الخَلقِ أجمعَ ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ : عُدِ المريضَ ، وكُن لثيابِ الفقراءِ فالياً[3] ، قالَ : فحَمَلَ موسىٰ عليهِ السلامُ علىٰ نفسِهِ في كلِّ شهرٍ سبعةَ أيامٍ يطوفُ على الفقراءِ يَفلي ثيابَهُم ، ويعودُ المريضَ[4] .

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٧١) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، والسلفي في « معجم السفر » (١٤١٥) من حديث سيدنا سلمان رضي الله عنه .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٧٢) .

(٣) فالياً : من الفلي ؛ وهو استقصاء ما في الثياب من حشرات وأوساخ وتنظيفها منها .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٢) .

وقالَ أبو عليٍّ الدقَّاقُ رحمَهُ اللهُ : (تكلَّمَ الناسُ في الفَقرِ والغِنىٰ ؛ أيُّهما أفضلُ ؟ وعندي : أنَّ الأفضلَ أن يُعطَى الرَّجُلُ كِفايتَهُ ، ثمَّ يُصانَ فيهِ)[1] .

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٧٥) .

بابُ التّصوّف

التصوُّفُ : لُبسُ الصُّوفِ .

والصُّوفيُّ منسوبٌ إلى الصُّوفِ ؛ يعني : لابسَ الصُّوفِ ، والجماعةُ : صوفيَّةٌ ، والمتصوِّفُ مِثلُ الصُّوفيِّ ، والجماعةُ : مُتصوِّفةٌ ، وهٰذا هو اللُّغةُ .

والمرادُ بهِ الآنَ : الجماعةُ المعروفةُ بالتعبُّدِ ، المشتغلةُ بتصفيةِ القلوبِ ، سُمُّوا بهٰذا الاسمِ لأنَّ بعضَ هٰذه الطائفةِ كانوا يَلبَسُون الصُّوفَ لكَسْرِ أنفُسِهِم ؛ فإنَّهُ أبعدُ مِنَ التنعُّمِ ، وأقربُ إلى التواضعِ .

ثم نُسِبَ الذين لمْ يلبَسوا الصُّوفَ إلى الطائفةِ التي لَبِسُوا لمُشارَكتِهِم في الأَفعالِ والأقوالِ .

ثمَّ اختَلَفَتْ أقوالُهم في حَدِّ التصوفِ ، فقالَ الجُنَيدُ رحمَهُ اللهُ : (التَّصوفُ : هو أن يُميتَكَ الحقُّ عنكَ ويُحيِيَكَ به)[1] .

وقالَ أبو محمدٍ الجريريُّ رحمهُ اللهُ : (التصوفُ : الدخولُ في كلِّ خُلُقٍ سَنِيٍّ ، والخروجُ من كلِّ خُلُقٍ دنِيٍّ)[2] .

وقيلَ : الصوفيُّ وَحدانيُّ الذَّاتِ ، لا يَقبَلُه أحدٌ ، ولا يَقبَلُ أحداً[3] .

وقالَ رُوَيمُ بن أحمدَ البغداديُّ : (التصوفُ مبنيٌّ علىٰ ثلاث خِصالٍ : التمسُّكُ بالفقرِ ، والتحقُّقُ بالبذلِ ، وتركُ الاعتراضِ لما يجرِي عليهِ)[4] .

وقالَ حمدونٌ القصَّارُ : (اصحَبِ الصوفيَّةَ ؛ فإنَّ للقَبيحِ عندَهم وجوهاً

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٨٥) .

(٢) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٨٥) .

(٣) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٥٨٦) .

(٤) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٨٥) .

مِنَ المعاذيرِ ، وليسَ للحَسَنِ [عِندَهُم] كَبيرُ مَوْقِعٍ يعظِّمونَكَ بهِ)[1] .

وقيلَ : الصوفيُّ كالأرضِ ؛ يُطرَحُ عليها كلُّ قَبيحٍ ، ولا يَخرُجُ منها إلَّا كلُّ مَليحٍ[2] .

۞ ۞ ۞

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٨٧) ، وما بين معكوفين زيادة منها .
(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٨٧) ، عن الجنيد رحمه الله تعالىٰ .

بابُ الأدبِ

وحقيقةُ الأدبِ : اجتماعُ خِصالِ الخيرِ .

والأديبُ : الذي اجتمَعَ فيهِ خِصالُ الخيرِ .

قالَ أبو عليٍّ الدقَّاقُ رحمهُ اللهُ : (إنَّ العبدَ يَصِلُ بطاعتِه إلى الجنَّةِ ، وبأدبِهِ في طاعتِه إلى اللهِ)[١] .

وقالَ الجريريُّ رحِمَهُ اللهُ : (منذُ عشرينَ سنةً ما مَدَدتُ رِجلي وقتَ جلوسي في الخَلوةِ ؛ فإنَّ حُسنَ الأَدبِ معَ اللهِ تعالىٰ أَولىٰ)[٢] .

وقالَ أبو عليٍّ الدقَّاقُ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (مَنْ صاحَبَ الملوكَ بغيرِ أدبٍ . . أَسلَمَهُ الجهلُ إلى القَتلِ)[٣] .

وقالَ أبو نصرٍ السَّرَّاجُ : (الناسُ في الأدبِ علىٰ ثلاثِ طَبَقاتٍ : أهلُ الدُّنيا ، وأهلُ الدِّين ، وأَهلُ الخُصوصيةِ .

فأمَّا أهلُ الدُّنيا : فأكثرُ آدابِهِم في الفصاحةِ والبلاغةِ ؛ بحفظِ العلومِ ، وأسماءِ الملوكِ ، وأشعارِ العَربِ .

وأمَّا أهلُ الدِّينِ : فأكثرُ آدابِهِم في رياضةِ النُّفوسِ ، وتأديبِ الجوَارحِ ، وحِفظِ الحدودِ ، وتركِ الشَّهَواتِ .

وأمَّا أهلُ الخصوصيةِ : فأكثرُ آدابِهم في طَهارةِ القلوبِ ، ومُراعاةِ الأَسرارِ ، والوفاءِ بالعهودِ ، وحفظِ الوَقتِ ، وقلَّةِ الالتفاتِ إلى الخَواطرِ ، وحُسنِ الأدبِ في مواقفِ الطَّلبِ ، وأوقاتِ الحضورِ في مقَاماتِ القُربِ)[٤] .

---

(١) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٩٤) .

(٢) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٩٥) .

(٣) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٥٩٥) .

(٤) اللمع (ص ١٩٥) ، ولفظه هنا عند القشيري في « الرسالة » (ص ٥٩٧) .

بابُ أحكامهم في السّفر

وهٰذه الطَّائفةُ مُختلِفون ؛ فمِنهم مَنْ آثَرَ الإقامةَ على السَّفرِ ، ولا يُسافِرُ إلَّا للفَرضِ ؛ كحَجَّةِ الإسلامِ ، والغالبُ عليهِمُ الإقامةُ ، ومنهم مَن آثَرَ السَّفرَ ، وكانوا علىٰ ذٰلكَ إلىٰ أنْ خَرجوا من الدُّنيا ، وكثيرٌ منهم سافروا في ابتداءِ أمورِهم وحالِ شبابِهِم أسفاراً كثيرةً ، ثمَّ قعدوا عن السَّفرِ في آخِرِ أحوَالِهِم .

والسَّفرُ علىٰ قِسمينِ :

سَفرٌ بالبدنِ : وهو الانتقالُ من بُقعةٍ إلىٰ بُقعةٍ .

وسفرٌ بالقلبِ : وهو الارتقاءُ من صِفةٍ إلىٰ صفةٍ ، فترىٰ ألْفاً يُسافرُ بنفسِهِ ، وقليلٌ مَنْ يُسافرُ بقَلبِهِ .

قيلَ لبعضِهم : هل سافرتَ ؟ قالَ : سفرَ الأرضِ أم سَفرَ السَّماءِ ؟ أمَّا سفرُ الأرضِ . . فلا ، وأمَّا سَفرُ السماءِ . . بلىٰ[1] .

وقالَ أبو عليٍّ الدقاقُ رحمَهُ اللهُ : جاءني رَجلٌ فقالَ : قطعتُ شُقَّةً بعيدةً ، والمقصودُ لقاؤُكَ ، فقلتُ : كانَ يَكفِيكَ خُطوةٌ واحدةٌ لو سافرْتَ عن نفسِكَ[2] ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الإقامةَ أفضلُ .

وقيلَ : أَوحَى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : اتَّخِذْ نعلَينِ مِنْ حَديدٍ ، وعصاً مِنْ حديدٍ ، ثمَّ سحْ في الأَرضِ ؛ فاطلُبِ الآثارَ والعِبَرَ حتىٰ يتخرَّقَ النَّعلانِ ، وتَنكسِرَ العَصا[3] ، وهٰذا دَليلُ مَنِ اختارَ السَّفرَ .

* * *

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٠٢) .

(٢) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٦٠٢) .

(٣) أخرجه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣١٣) من طريق معاوية بن بُجَير ، فذكره .

بابُ الصُّحبة

الصُّحبةُ علىٰ ثلاثةِ أقسامٍ : صُحبةٌ مع مَن هو فوقَكَ ، وهي في الحقيقةِ خِدمةٌ ، وصُحبةٌ مع مَن هو دُونَكَ ، فهي تَقضي على المتبوعِ بالشَّفقةِ والرَّحمةِ ، وعلى التابعِ بالوَفاءِ والحُرمةِ ، وصُحبةُ الأَكْفاءِ ، وهي مبنيةٌ على الإيثارِ والشفقةِ والفُتوةِ .

ومَنْ صَحِبَ شيخاً فوقَهُ في الرُّتبةِ . . فأدبُهُ تركُ الاعتراضِ ، وحَملُ ما يَبدُرُ منهُ علىٰ وجهٍ جميلٍ ، فأمَّا إذا صَحِبتَ مَنْ هو دُونَكَ : فالخِيانةُ منكَ في حقِّ صُحبتِهِ ألَّا تُنبِّهَهُ علىٰ ما فيهِ مِنْ نُقصانٍ في حالتِهِ .

وقيلَ : صَحِبَ رجلٌ إبراهيمَ بنَ أدهمَ ، فلمَّا أرادَ أن يُفارِقَهُ . . قالَ لهُ الرَّجُلُ : إنْ رَأيتَ فيَّ عَيباً . . فنبِّهني ، فقالَ : إنِّي لم أرَ لكَ عَيباً ؛ لأنِّي لاحظتُكَ بعينِ الوِدادِ ، فاستحسنتُ منكَ ما رأيتُ ، فاسألْ غَيري عن عَيبِكَ [١] .

قالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (صُحبةُ الأَشرارِ تُورثُ سُوءَ الظنِّ بالأخيارِ) [٢] .

وقالَ ذو النونِ المصريُّ : (لا تَصحَبْ معَ اللهِ إلَّا بالموافقةِ ، ولا معَ الخَلقِ إلَّا بالمُناصحةِ ، ولا تَصحَب معَ النَّفسِ إلَّا بالمخالفةِ ، ولا تَصحَبْ معَ الشَّيطانِ إلَّا بالعداوةِ) [٣] .

* * *

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١١) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١٤) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦١٤) .

باب التّوحيد

التَّوحيدُ : الحُكمُ بأنَّ الشيءَ واحدٌ .

والعلمُ بأنَّ الشيءَ واحدٌ أيضاً توحيدٌ ، يُقال : وحَّدتُهُ ؛ إذا وَصفتَهُ بالوَحدانيةِ .

وقالَ بعضُ أهلِ التَّحقيقِ : معنىٰ أنَّـهُ واحـدٌ : نفيُ القَسيمِ لذاتِهِ ؛ أيْ : لا مَثيلَ لهُ في ذاتِهِ ، ونفيُ الشَّبيهِ عن ذاتِهِ وصِفاتِهِ ، ونفيُ الشَّريكِ معَهُ في أفعالِهِ ومَصنوعاتِهِ .

وقالَ الجُنَيدُ : أَشرفُ كَلمةٍ في التوحيدِ ما قالَ أبو بكرٍ الصِّديقُ رضيَ الله عنه : (سُبحانَ مَنْ لمْ يَجعَلْ لخَلقِهِ سَبيلاً إلىٰ معرفتِهِ إلَّا بالعَجزِ عنْ مَعرفتِهِ)[١] ؛ وأرادَ الصِّدِّيقُ ما قالَتِ الملائكةُ عليهِمُ السلامُ : ما عَرَفناكَ حقَّ معرفتِكَ[٢] .

قالَ الجُنَيدُ رحمه الله تعالى : (التوحيدُ الذي انفردَ بهِ الصُّوفيةُ هو إفرادُ القِدَمِ لهُ ، ونفيُ الحَدَثِ عنهُ ، والخروجُ عن الأَوطانِ ، وقطعُ المحابِّ ، وتركُ ما عُلِمَ وجُهِلَ ، وأنْ يكونَ الحقُّ مكانَ الكلِّ)[٣] .

وقيلَ : التَّوحيدُ إسقاطُ الأَسبابِ ؛ لا يقولُ : لي وبي ومنِّي ، وشَرحُ هـٰذا ما قال رُويمٌ : (التوحيدُ : محوُ آثارِ البشريَّةِ ، وتجرُّدُ الإلـٰهيَّةِ)[٤] .

* * *

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٢١) .

(٢) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٥٧) وأسد بن موسىٰ في « الزهد » (٤٣) من رواية سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه ، بلفظ : (مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ) .

(٣) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٦٢١) .

(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٢٣) .

باب أحوالهم عند الموت

وأحوالُهُم عندَ النَّزعِ مُختلِفةٌ ؛ فبعضُهُم الغَالبُ عليهِ الهَيبةُ ، وبعضُهمُ الغالبُ عليهِ الخوفُ ، وبعضُهمُ الغالبُ عليهِ الرَّجاءُ ، ومنهُم مَنْ كُشِفَ لهُ في تلكَ الحالةِ بما أَوجَبَ لهُ السُّكونَ وجميلَ الثِّقةِ .

وقيلَ : لمَّا حَضَرَ الحسنَ بنَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنهما الوفاةُ . . بكَىٰ ، فقيلَ : ما يُبكيكَ ؟ فقالَ : أَقدَمُ علىٰ سَيِّدٍ لم أَرَهُ [1] .

ولمَّا حضَرَ بلالاً الوفاةُ . . قالَتِ امرأتُهُ : واحُزناهْ ! فقالَ : بلْ واطَرَباهْ ! غداً نَلقَى الأَحبَّة ، محمَّداً وحِزبَهُ [2] .

وقيلَ : فتَحَ عبدُ اللهِ بنُ المُبارَكِ عَينَهُ عندَ الموتِ والوفاةِ وضَحِكَ ، وقالَ : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [3] .

واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ .

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٢٦) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٩٤) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٢٧) ، والآية من سورة الصافات : (٦١) .

بابُ المعرفة

المعرفةُ عندَ هٰذه الطائفةِ : صِفةُ مَنْ عَرَفَ الحقَّ سبحانَهُ بأسمائِهِ وصفاتِهِ ، ثمَّ صَدَقَ اللهَ في مُعاملاتِهِ ، ثمَّ يُنقَّىٰ مِنْ أخلاقِه الرَّديَّةِ وآفاتِهِ ، ثمَّ طالَ بالبابِ وقوفُهُ ، ودامَ بالقَلبِ عكوفُهُ ، فحَظِيَ مِنَ اللهِ سبحانَهُ بجَميلِ إقبالِهِ ، وصَدَقَ اللهَ في جميعِ أَحوالِهِ ، وانقطَعَ عن هواجسِ نفسِهِ ، ولمْ يَصغَ بقَلبِهِ إلىٰ خَاطرٍ يدعوهُ إلىٰ غيرِه .

وإذا صارَ مِنَ الخَلقِ أجنبيّاً ، ومِنْ آفاتِ نفسِهِ بَريّاً ، ومِن السَّاكناتِ والملاحظاتِ نقيّاً ، ودامَ في السِّرِّ معَ اللهِ مُناجاتُه ، وحقَّ في كلِّ لحظةٍ إليهِ رُجوعُهُ ، وصارَ مُحدَّثاً مِن قِبَلِ الحقِّ بتعريفِ أَسرارِهِ فيما يُجريهِ مِنْ تصاريفِ أقدَارِه . . يُسمَّىٰ عندَ ذٰلكَ : عارفاً ، وتُسمَّىٰ حالتُه : معرفةً .

وفي الجملةِ : فبمقدارِ أَجنبيَّتِهِ مِنْ نفسِهِ تَحصُلُ معرفتُهُ بربِّهِ .

قالَ رَجُلٌ للجُنَيدِ رحمةُ اللهِ عليهِ : إنَّ قوماً يقولونَ بتركِ الحرَكاتِ من بابِ البرِّ والتقوىٰ ، فقالَ الجُنَيدُ رحمةُ اللهِ عليهِ : إنَّ هٰذا قولُ قَومٍ تكلَّموا بإسقاطِ الأَعمالِ ، وهو عندي عظيمٌ ـ أيْ : هٰذا القولُ مُنكَرٌ ـ والذي يَسرِقُ ويَزني أحسنُ حالاً مِن الذي يقولُ هٰذا ؛ فإنَّ العارفينَ باللهِ أَخَذُوا الأعمالَ عن اللهِ تعالىٰ ، وإلى اللهِ تعالىٰ رَجَعُوا ، ولو بَقِيتُ ألفَ عامٍ . . لم أَنقص مِن أَعمالِ البرِّ ذرَّةً[1] .

وقالَ ذو النُّونِ المصريُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : (علامةُ العارفِ ثلاثةٌ :

لا يُطفئُ نورُ معرفتِه نورَ وَرَعِهِ .

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٦٤٢) .

ولا يَعتقِدُ باطناً مِنَ العِلمِ يَنقُضُ عليهِ ظاهراً مِنَ الحُكمِ ـ يعني : لا يَعتقِدُ شيئاً يُخالفُ الشَّريعةَ ـ .

ولا تَحمِلُهُ كثرةُ نِعَمِ اللهِ تعالىٰ عليهِ علىٰ هَتكِ أستارِ مَحارمِ اللهِ تعالىٰ) [1] .

* * *

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٤٦) .

بابُ المحبّة

المحبَّةُ قدْ تكونُ مِنَ اللهِ تعالىٰ للعَبدِ ، وقدْ تكونُ مِنَ العبدِ للهِ تعالىٰ .

فأَمَّا محبةُ اللهِ تعالىٰ للعبدِ : فهي إرادتُهُ لإنعامٍ مخصوصٍ ، كما أنَّ رَحمتَهُ إرادةُ الإنعامِ ؛ فالرَّحمةُ أخصُّ مِنَ الإرادةِ ، والمحبةُ أَخصُّ مِنَ الرَّحمةِ .

فإرادةُ اللهِ تعالىٰ : أنْ يُوصِلَ إلى العبدِ الثوابَ ، والإنعامُ يُسمَّىٰ : رحمةً ، وإرادتُهُ بأنْ يَخُصَّهُ بالقُربةِ والأَحوالِ العَليَّةِ تُسمَّىٰ : محبَّةً .

وإرادتُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ صفةٌ واحدةٌ ، فبِحَسَبِ تفاوتِ متعلَّقاتِها تختلفُ أسماؤُها ؛ فإذا تعلَّقَتْ بالعقوبةِ . . تُسمَّىٰ : غضباً ، وإذا تعلَّقَت بعمومِ النعمِ . . تُسمَّىٰ : رحمةً ، وإذا تعلَّقَت بخصوصِها . . تُسمَّىٰ : محبَّةً .

وأمَّا محبةُ العبدِ للهِ : فحالةٌ يَجِدُها مِنْ قلبِهِ تلطُفُ عن العِبارةِ ، وقدْ تَحمِلُهُ تلكَ الحالةُ على التعظيمِ لهُ ، وإيثارِ رِضاهُ ، وقلةِ الصبرِ عنهُ ، والاهتياجِ إليهِ ، وعدمِ الفِرارِ مِنْ دونِهِ ، ووجودِ الاستئناس بدَوامِ ذِكرِهِ لهُ بقَلبِهِ .

والشَّوقُ نوعٌ مِنَ المحبَّةِ ، إلَّا أنَّه أَزيَدُ منها ، والاشتياقُ أَزيَدُ مِنَ الشَّوقِ ؛ لأنَّ الشَّوقَ اهتياجُ القلوبِ إلىٰ لَقاءِ المحبوبِ ، وهو يَسكنُ باللِّقاءِ والرُّؤيةِ ، والاشتياقُ لا يَزُولُ باللِّقاءِ .

ولا يجوزُ أن يُقالَ : عَشِقَ فلانٌ باللهِ ؛ لأنَّ العِشقَ مجاوزةُ الحدِّ في المحبةِ ، والحقُّ سبحانَهُ وتعالىٰ لا يُوصَفُ بأنَّ أحداً جاوَزَ الحدَّ في محبَّتِهِ ، ولو جُمِعَ محابُّ الخَلقِ كلِّهم لشَخصٍ واحدٍ . . لم يَبلُغْ ذٰلكَ استِحقاقَ قَدرِ الحقِّ ، ولا يُوصَفُ الحقُّ بأنَّهُ يَعشَقُ ، ولا العَبدُ ـ في صِفتِهِ سبحانَهُ ـ بأنَّهُ يَعشَقُ .

❊ ❊ ❊

باب حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم

لَزِمَ على المُريدِ حفظُ قلبِ شَيخِهِ ، وتركُ الاعتراضِ عليهِ ، وحملُ أفعالِهِ وأقوالِهِ علىٰ وجهٍ جميلٍ إن أَمكَنَ ؛ فمَن صَحِبَ شيخاً مِنَ الشُّيوخِ ثمَّ اعترضَ عليهِ بقلبِهِ . . فقدْ نَقَضَ عَقدَ الصُّحبةِ ، ووَجبَ عليه التَّوبةُ ، علىٰ أنَّ الشُّيوخَ قالوا : عُقوقُ الأُستاذينَ لا تَوبةَ عنها[1] .

وقال أبو سَهلٍ الصُّعلوكيُّ : (مَن قالَ لأستاذِهِ : لِمَ ؟ . . لا يُفلِحُ)[2] .

وقالَ أحمدُ بنُ يحيى الأَبِيوَرديُّ : (مَن رَضِيَ عنهُ شيخُهُ . . لا يُكافَأُ في حالِ حياتِهِ ؛ لئلَّا يزولَ عن قلبِهِ تعظيمُ ذٰلكَ الشَّيخِ ، فإذا ماتَ ذٰلكَ الشَّيخُ . . أَظهرَ اللهُ عليهِ ما هو جَزاءُ رِضاهُ ، ومَنْ تَغيَّرَ عليهِ قلبُ شَيخِهِ . . لا يُكافَأُ في حالِ حياةِ ذٰلكَ الشَّيخِ ؛ لئلَّا يَرِقَّ لهُ ، فإنَّهم مجبولونَ على الكَرَمِ ، فإذا ماتَ ذٰلكَ الشَّيخُ . . فحينئذٍ يجدُ المكافأةَ بعدَهُ)[3] .

❊ ❊ ❊

(١) كذا في « الرسالة القشيرية » (ص ٦٧١) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٧٢) .

(٣) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٦٧٤) .

بابُ السَّماع

اعلمْ : أنَّ سماعَ الأَشعارِ بالأَلحانِ الطيِّبةِ والنَّغَمِ المُستلَذَّةِ ـ إذا لمْ يعتقِدِ المُستمِعُ محظوراً ، ولم يَسمَعْ علىٰ مذمومٍ في الشَّرعِ ، ولم يَنجَرَّ في زِمامِ هواهُ . . مباحٌ في الجُملةِ .

ولا خلافَ أنَّ الأشعارَ أُنشِدَتْ بين يَدَي رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ، وأنَّه سَمِعَها ولم يُنكِرْها عليهِم في إنشادِها ، فإذا جَازَ سماعُها بغيرِ الألحانِ الطَّيبةِ . . فلا يَتغيَّرُ الحُكمُ بأن تُسمَعَ بالأَلحانِ ، هٰذا ظَاهِرٌ مِنَ الأَمرِ .

ثمَّ ما يُوجِبُ للمُستمِعِ تَوَفُّرَ الرَّغبةِ على الطَّاعاتِ ، وتذكُّرَ ما أعدَّ اللهُ لعبادِهِ المتَّقِينَ مِنَ الدَّرَجاتِ ، ويحملُهُ على التحرُّزِ مِنَ الزَّلَّاتِ ، ويؤدِّي إلىٰ قلبِهِ في الحالِ صفاءَ الوارداتِ . . مُستحَبٌّ في الدِّينِ ، ومختارٌ في الشَّرعِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ : « حَسِّنُوا ٱلْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ؛ فَإِنَّ ٱلصَّوْتَ ٱلْحَسَنَ يَزِيدُ ٱلْقُرْآنَ حُسْناً »[1] .

وهٰذا الخبرُ يَدُلُّ علىٰ فضيلةِ الصَّوتِ الحَسَنِ .

وقالَ أبو عليٍّ الدقَّاقُ رحمَهُ اللهُ : (السَّماعُ حَرامٌ على العَوامِّ ؛ لبَقاءِ نفوسِهِم ، مُباحٌ للزُّهَّادِ ؛ لحصولِ مُجاهداتِهِم ، مُستحَبٌّ لأصحابِنا ؛ لحياةِ قلوبِهِم)[2] .

قالَ ذو النونِ المِصريُّ رحمَهُ اللهُ تعالى : (السَّماعُ واردُ حقٍّ يُزعِجُ القلوبَ إلى الحقِّ ؛ فمَنْ أصغىٰ إليهِ بحقٍّ . . تحقَّقَ ، ومَنْ أصغَىٰ إليهِ بنفسٍ . . تَزندَقَ)[3] .

وسُئِلَ الشِّبليُّ رحمةُ اللهِ عليهِ عنِ السَّماعِ ؟ فقالَ : ظاهِرُه فِتنةٌ ، وباطنُه عِبرةٌ ؛

---

(١) أخرجه الدارمي في « المسند » (٣٥٤٤) من حديث سيدنا البراء رضي الله عنه .

(٢) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٦٨٢) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٨٣) .

فمَنْ عَرَفَ الإشارةَ . . حلَّ لهُ استماعُ العِبرةَ ، وإلَّا . . فقدِ استدعَىٰ لنفسِهِ الفتنةَ ، وتعرَّضَ للبليَّةِ[1] .

وقيلَ : لا يَصلُحُ السَّماعُ إلَّا لمَنْ كانَتْ لهُ نفسٌ ميتةٌ ، وقلبٌ حَيٌّ ؛ فنفسُهُ ذُبِحَتْ بسيوفِ المُجاهدةِ ، وقلبُهُ حيٌّ بنورِ الموافَقةِ .

وسُئِلَ أبو عليٍّ الروذباريُّ رحمةُ اللهِ عليهِ عنِ السَّماعِ يوماً ؟ فقالَ : ليتنا تخَلَّصنا منهُ رَأساً برأسٍ[2] .

قيل : قصَّ موسى بنُ عمران عليهِ السلامُ علىٰ قومِهِ ، فزَعَقَ واحدٌ منهم ، فانتهَرَهُ موسىٰ ، فأوحَى اللهُ تعالىٰ إليهِ : « يا موسىٰ ؛ بطَلَبي ناحُوا ، وبحُبِّي باحُوا ، وبوَجدِي صاحُوا ، فَلِمَ تُنكِرُ علىٰ عِبادي ؟! »[3] .

واعلمْ : أنَّهم إذا سَمِعوا شيئاً . . فَهِمُوا منه شيئاً يَليقُ بحالِهِم ؛ كما رُوِيَ أنَّ أبا عبدِ الرَّحمـٰنِ السُّلَميَّ رحمةُ اللهِ عليهِ قالَ : دَخلتُ علىٰ أبي عثمانَ المغربيِّ وواحدٌ يَستسقِي مِنَ البئرِ الماءَ علىٰ بَكرةٍ فقالَ : يا أبا عبدِ الرَّحمـٰنِ ؛ تَدري أَيشٍ تقولُ البَكَرةُ ؟ فقلتُ : لا ، فقالَ : تقولُ : اللهُ اللهُ[4] .

ورُوِيَ عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّه سَمِعَ صَوتَ ناقُوسٍ ، فقالَ لأَصحابِهِ : أتدرون ما يقولُ ؟ قالوا : لا ، قالَ : إنَّه يقولُ : سبحانَ اللهِ حقّاً حقّاً ، إنَّ المَولىٰ صَمداً يَبقَىٰ[5] .

وقيل : سَمِعَ الشِّبليُّ رحمةُ اللهِ عليهِ قائلاً يقولُ : الخيارُ عَشَرةٌ بدَانقٍ ، فصاحَ وقالَ : إذا كانَ الخيارُ عَشَرةً بدانقٍ . . فكيفَ الشِّرارُ ؟![6] .

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٨٣) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٨٤) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٩٤) ، بلفظ : (بطيبي فاحوا . . .) .

(٤) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٦٩٤) .

(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٩٤) ، وفيها : (صمدٌ) بالرفع .

(٦) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٦٩٥) .

فإذا فَهِمُوا مِن كلِّ شيءٍ ما هو الحقُّ . . فالقياسُ ألَّا يكونَ بأسٌ بسَماعِ أَصواتِ جميعِ الآلاتِ المُطرِبةِ ، ولٰكنْ لا يجوزُ في الشَّرعِ سماعُ صَوتِ آلةٍ تكونُ لشعارِ الخمرِ ؛ كالناقورِ والصغاءِ (١) والرَّبابِ والطُّنبورِ والمزمارِ وطَبلِ المُخنَّثين ، ويجوزُ ضربُ الدُّفِّ معَ الصَّنجِ وغيرِ الصَّنجِ واليَراعِ ، وضَربُ إحدى الكفَّين بالأخرىٰ ، وغيرُ ذٰلكَ ممَّا ليسَ فيهِ تشبيهٌ بشِعارِ الخمرِ .

(١) في (ب) : (كالنافر والصناعة) .

باب إثبات كرامات الأولياء

ظهورُ الكَراماتِ على الأولياءِ جائزٌ ، والدَّليلُ علىٰ جوازِهِ : أَنَّهُ أمرٌ مباحٌ موهومٌ حدوثُهُ في العقلِ ، لا يؤدِّي حصولُهُ إلىٰ رَفعِ أَصلٍ مِنَ الأُصولِ ، فواجبٌ وصفُهُ سبحانَهُ بالقُدرةِ علىٰ إيجادِهِ ؛ فإذا وَجَبَ كونُهُ مقدوراً للهِ تعالىٰ . . فلا شيءَ يَمنَعُ جوازَ حصولِهِ .

وظهورُ الكَراماتِ علامةُ صِدقِ مَن ظَهَرَتْ عليهِ في أَحوالِهِ .

ولا بُدَّ مِنْ أنْ تكونَ الكَرامةُ فِعلاً ناقضاً للعَادةِ في أَيامِ التَّكليفِ ، ظَاهراً علىٰ موصوفٍ بالوِلايةِ ، ولا يجبُ أنْ تكونَ الكَرامةُ لجَميعِ الأَولياءِ ، بلْ لو كانَ أحدٌ موجوداً فيهِ أوصافُ الوِلايةِ ولم تَظهَرْ منهُ كَرامةٌ أصلاً . . لمْ يَقدَحْ عدمُ ظهورِ الكَرامةِ في وِلايتِهِ .

والأَولياءُ مختلفونَ في إِظهارِ الكَرامةِ ؛ فأكثرُهم يُخفُونَها ، ويَحترِزُونَ عن إظهارِها ؛ تواضعاً ، وكَراهةً لاطِّلاعِ النَّاسِ علىٰ أحوالِهِم .

وبعضُهُم يُظهِرُونَها ؛ لِيَظهرَ للنَّاسِ صِدقُهُم وصَوابُ طَريقِهِم ؛ لِيَقتدوا بهِم ، ويتوبوا عنِ المعاصي ببَركتِهِم .

قالَ إبراهيمُ الخوَّاصُ رحمهُ اللهُ : دخلتُ البَادِيةَ مرَّةً ، فرأيتُ نصرانيّاً علىٰ وَسَطِهِ زُنَّارٌ ، فسأَلَني الصُّحبةَ ، فمشَينا سبعةَ أيامٍ ، فقالَ لي : يا راهبَ الحنيفيَّةِ ـ يعني : يا راهبَ الدِّينِ الحنيفيِّ ـ هاتِ ما عندَكَ مِنَ الانبساطِ ، فقدْ جُعنا ، فقلتُ : يا ربِّ ؛ لا تَفضَحني في هٰذا الكَافرِ ، فرأيتُ طَبقاً عليهِ خُبزُ شعيرٍ وشِواءٌ ورُطَبٌ وكُوزُ ماءٍ ، فَأَكلنا وشَرِبنا ، ومَشَينا سبعةَ أيامٍ ، ثمَّ بادرتُ فقلتُ : يا راهبَ النَّصرانيَّةِ ؛ هاتِ ما عندَكَ ، انتهتِ النَّوبةُ إليكَ ، فاتَّكأَ علىٰ عَصاهُ ودَعا ؛ فإذا بطَبقَينِ عليهما أضعافُ ما كانَ علىٰ طَبقِي ، قالَ : فتغيَّرتُ وأَبَيتُ أنْ

آكُلَ ، فألحَّ عليَّ ، فلمْ أُجِبهُ ، فقالَ : كُلْ ؛ فإنِّي مُبشِّرُكَ ببِشارَتَينِ ؛ إحداهما : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ اللهِ ، وحَلَّ الزُّنَّارَ ، والأخرىٰ : أنِّي قلتُ : اللهمَّ ؛ إنْ كانَ لهـٰذا العَبدِ خَطَرٌ عندَكَ . . فافتحْ عليَّ بهـٰذا ، فَفَتَحَ ، قالَ : فأكلناهُ ، ومشَينا ، وحَجَجنا ، وأَقَمنا بمكَّةَ سنةً ، ثمَّ إنَّه ماتَ ، فَدُفِنَ في البَطحاءِ[1] .

وحكاياتُ الكَراماتِ كثيرةٌ ، اختصَرنا بهـٰذا ، واللهُ أعلَمُ بالصَّوابِ .

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٧٢٣) .

باب وصيّة المريدين

ينبغي للمُريدِ تحصيلُ شيءٍ مِنَ العلومِ يَصِحُّ بها اعتقادُهُ وعبادتُهُ ، وَليُقلِّدْ أحداً في الفقهِ ؛ كالشَّافعيّ رضيَ اللهُ عنهُ أو غيرِهِ مِنَ الأئمَّةِ ، وَليَأخُذْ مِنْ أقاويلِ الأئمَّةِ ما هو أقربُ للتَّقوىٰ ، وَليَترُكِ الرُّخَصَ .

وَليُقلِّدْ شيخاً في سُلوكِ طَريقِ الحقّ ؛ فإنَّ مَنْ لا شيخَ لهُ . . فشيخُهُ الشَّيطانُ ، وَليَعرِضْ علىٰ شَيخِهِ ما يَجري في خاطرِهِ ، وما يرىٰ في نومِهِ ؛ ليميزَ الشَّيخُ الرَّحمانيَّ مِنَ الشَّيطانيّ .

وَليَتُبْ أوَّلاً مِنْ كلّ زلَّةٍ ؛ صَغيرِها وكبيرِها ، وسرِّها وجَهرِها ، ويجتهدْ في إرضاءِ الخُصومِ واستحلالِهم مِنَ الغِيبةِ والبُهتانِ ، والشَّتمِ ورَدِّ المظالم ، وَليَترُكِ العَلائقَ مِنَ الجاهِ والمالِ وحبّ الدُّنيا ؛ فإنَّ العلائقَ أشدُّ حجابٍ بينَ العَبدِ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، وَليَنظُرْ إلىٰ نفسِهِ بنظرِ الحقَارةِ ؛ فلا يَنبغي أن يَرىٰ شيئاً أحقَرَ مِن نفسِهِ ، وَليَكُن مُجِدّاً في الطَّاعةِ مِنْ غيرِ كَسَلٍ ووقفةٍ وفَترةٍ .

والفرقُ بين الفَترةِ والوَقفةِ : أنَّ الفَترةَ : رُجوعٌ عنِ الإرادةِ وخروجٌ منها ، والوَقفةَ : سُكونٌ عنِ السَّيرِ باستيلاءِ حَالاتِ الكَسلِ .

وكلُّ مُريدٍ وَقَفَ في ابتداءِ إرادتِهِ . . لا يَجيءُ منهُ شيءٌ ، فإذا جرَّبَهُ شيخُه . . فيجبُ أن يُلقِّنَه ذِكراً من الأذكارِ علىٰ ما يراهُ شيخُهُ ، فيَأمُرَهُ أنْ يَذكُرَ ذٰلكَ الاسمَ بلسانِهِ ، ثم يَأمُرَهُ أن يُسوّيَ قلبَهُ معَ لسانِهِ ، ويقولُ : اثبُتْ على استِدامةِ هٰذا الذِّكرِ كأنَّكَ معَ ربّك أبداً بقَلبِكَ ، ولا يَجري علىٰ لسانِكَ غيرُ هٰذا الاسمِ ما أمكَنَكَ ، ثم يَأمُرَهُ بأنْ يكونَ أبداً على الطَّهارةِ ، وألَّا يكونَ نومُهُ إلَّا غَلَبةً ، وأنْ يُقلِّلَ مِنْ غَدائِهِ بالتَّدريجِ شيئاً بعدَ شَيءٍ ؛ حتَّىٰ يَقوَىٰ علىٰ ذٰلكَ ، ثمَّ يأمُرَهُ بأن يُنقِّيَ خَواطرَهُ الدَّنيَّةَ والهواجِسَ الشَّاغلةَ عن القَلبِ ، وَليُلازِمِ المكَانَ الذي أَمَرَهُ

الشَّيخُ بمُلازمتِهِ ، ولا يُسافِرْ قبلَ حُصولِ مُرادِهِ ، ووصولِ القَلبِ إلى الرَّبِّ ؛ فإنَّ السَّفرَ للمُريدِ في غيرِ وقتِهِ سُمٌّ قاتلٌ .

وليسَ مِنْ أَدبِ المُريدين كَثرةُ الأَورادِ في الظَّاهرِ ؛ فإنَّ القومَ في مُكابدةِ خواطِرِهم ، ومُعالجةِ أخلاقِهم ، ونَفيِ الغَفلةِ عن قُلوبِهم ، لا في تكثيرِ أعمالِ البِرِّ .

والذي لا بُدَّ لهم منهُ بتَّةً : إقامةُ الفرائضِ والسُّنَنِ الرَّاتبةِ ، فأمَّا الزِّيادةُ مِنَ الصَّلَواتِ النَّافلةِ . . فاستدامةُ الذِّكرِ بالقَلبِ أتمُّ لهم .

ورأسُ مالِ المُريدِ : احتمالُهُ مِنْ كلِّ أَحدٍ بطِيبةِ النَّفسِ ، وتَلقِّي ما يَستقبِلُهُ بالرِّضا والصَّبرِ على الضُّرِّ والفقرِ ، وتركُ السُّؤالِ والمُعارَضةِ في القليلِ والكَثيرِ فيما هو حَظٌّ لنفسِهِ .

وتقديمُ مَعرفةِ رَبِّ البيتِ علىٰ زيارةِ البيتِ . . واجبٌ ؛ فكلُّ مريدٍ لمْ يكُنِ الحجُّ فرضاً عليه . . فلا يَنبغي لهُ أن يَحُجَّ حتَّىٰ يَأمُرَهُ الشَّيخُ ؛ فإنَّ الحجَّ بغيرِ أمرِ الشَّيخِ نشاطُ النَّفسِ ، وما هو فِعلُ النَّفسِ مذمومٌ ، فليُصَفِّ أوَّلاً ظاهرَهُ وباطنَهُ ، وَليُحصِّلْ معرفةَ ربِّ البيتِ ، ثمَّ يَقصِدْ زيارةَ بيتِهِ .

ومِنْ شَرطِ المريدِ : أنْ يكونَ لشيخِهِ وقعٌ عظيمٌ في خاطرِهِ ، وَليُوجِبْ علىٰ نفسِهِ خدمتَهُ ورعايةَ حُرمتِهِ ؛ فإنْ أَمَرَهُ بخدمةٍ وإنْ كانَ شيئاً خسيساً . . فَليَقبَلْ أمرَهُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ إنعامٌ منهُ عليهِ ، ولا ينبغي للمُريدِ أنْ يعتقدَ في المشايخِ العِصمةَ ، بلِ الواجبُ أنْ يَذَرَهُم وأحوالَهُم ؛ فيُحسِنُ بهمُ الظَّنَّ .

ولا يكُنْ في قلبِهِ لشيءٍ مِن عَرَضِ الدُّنيا قَدرٌ ، وَليُنفِقْ ما يُنفِقُ مِن مالِهِ علىٰ كلِّ أحدٍ ، ولا يُميِّز بينَ النَّاسِ في الإنفاقِ ، بلْ يُسوِّي بينَ الكلبِ وغيرِهِ .

وقالَ فتحٌ المَوصليُّ : (صَحِبتُ ثلاثين شيخاً كانوا يُعَدُّونَ مِن الأَبدالِ ، كلُّهم أَوصَوْني عندَ فِراقي إيَّاهم وقالوا : اتَّقِ مُعاشَرةَ الأحداثِ ؛ يَعني : حرامٌ على المريدِ مُجالَسةُ أهلِ الغفلةِ)[١] .

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٧٨٢) .

ومِنْ آدابِ المريدِ في السَّماعِ : أَلَّا يُسلِّمَ لهُ الحركةَ بالاختيارِ ألبتَّةَ ؛ فإنْ وَرَدَ عليهِ واردٌ حرَّكَه ؛ فإن قَدَرَ على السُّكونِ . . فالأَولى السُّكونُ ، وإنْ لمْ يَقدِرْ على السُّكونِ . . فلا بأسَ بحركتِهِ حينئذٍ ، فإذا أزالَ ذٰلكَ الواردَ . . فالحركةُ عليهِ حرامٌ بَعدَهُ .

ولا ينبغي للمُريدِ أن يتَّخِذَ مُريداً ، فيتمنَّىٰ أنْ يكونَ شيخاً ؛ لأنَّ الرجُلَ قَبلَ خُمودِ بشريَّتِه وسقوطِ آفتِهِ فهو محجوبٌ عن الحقيقةِ ، لا يَنفَعُ أحداً إشارتُهُ وتأديبُهُ .

ومِنْ شأنِ المُريدِ إذا كانَ طريقتُهُ خدمةَ الفقراءِ : الصَّبرُ علىٰ جَفاءِ القومِ معَهُ ، وأنْ يعتقدَ أنَّهُ يَبذُلُ رُوحَهُ في خِدمتِهِم ثمَّ لا يَجِدُون لهُ أثراً ، فيَعتذِرُ مِن تقصيرِهِ ، ويُقِرُّ بالجنايةِ علىٰ نفسِهِ ؛ تطييباً لقلوبِهِم ، وإن عَلِمَ أنَّهُ بريءُ السَّاحةِ .

وبناءُ هٰذا الأمرِ ومِلاكُهُ علىٰ حِفظِ آدابِ الشَّريعةِ ، وصَونِ اليدِ عن المدِّ إلى الحرامِ والشُّبهةِ ، وألَّا يستحلَّ مِثلَ سمسمةٍ فيها شُبهةٌ في أوانِ الضَّروراتِ .

ومِنْ شأنِ المريدِ : أَلَّا يُعاهِدَ اللهَ علىٰ شيءٍ باختيارِهِ ، بلْ يجتهدَ في الطاعةِ مِنْ غيرِ نذرٍ ولا عهدٍ .

ومِن شأنِ المريدِ : أَلَّا يكونَ لهُ معلومٌ وإنْ قلَّ ، لا سيَّما إذا كانَ بينَ الفُقراءِ ؛ فإنَّ ظُلمةَ المعلومِ تُطفِئُ نورَ الوقتِ .

ومِن شأنِ المريدِ ـ بلْ مِن طريقِ سالكِ هٰذا المذهبِ ـ : تركُ قَبولِ رفقِ النِّسوانِ غيرِ زوجةٍ ، فكيفَ التعرُّضُ لاستجلابِ ذٰلكَ ؟

❊ ❊ ❊

بابُ اللّباس

اعلَمْ : أنَّ اجتهادَهُم في اللِّباسِ مُختلِفٌ ؛ فمنهم مَنْ يَلبَسُ ما يَجِدُ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ ، ويأمرُ المريدينَ أيضاً بِلُبسِ ما يَجِدُون ، ومنهم مَنْ يَكرهُ أكثرَ مِن ثوبٍ واحدٍ ، ومنهم مَنْ يُجوِّزُ ثوبينِ للاحتياطِ في الطَّهارةِ ؛ يعني : إذا نُجِّسَ ثوبٌ . . يَلبَسُ الآخَرَ ، ومنهم مَنْ يتَّخِذُ اللِّباسَ علىٰ صفاتٍ مخصوصةٍ مِنَ المَثنيِّ والمرقَّعِ وغيرِ ذٰلكَ ؛ لِيَكونَ أكثرَ وقعاً في قلوبِ المريدينَ وغيرِهِم ، وَلِيَتميَّزُوا في الظَّاهِرِ عن غيرِهِم ؛ لِيَقصِدَهمُ الناسُ ويتبرَّكوا بهم ، ويَقتَدُوا بهم .

ثمَّ المشايخُ أَلبَسُوا المريدينَ الخِرقةَ علىٰ طريقتَينِ :

إحداهما : بعدَ تمامِ التربيةِ ، وظهورِ التقوىٰ والورعِ عليهِم ، وطمأنينةِ قلوبهِم بهٰذه الطريقةِ .

والثاني : أنْ يُلبِسُوهم في أوَّلِ القَدَمِ ؛ ليكونَ لهم قَيداً ، وناهيَهم عن المعاصي ؛ فإنَّهم إذا همُّوا بمعصيةٍ : فإذا نظروا إلىٰ لباسِ الرجالِ . . استحيَوا ، وخافوا اللهَ أن يَصنَعُوا في لباسِ الصَّالحينَ فعلاً مِنْ أفعالِ الطَّالحين .

فأمَّا الذينَ أَلبسُوا الخرقةَ على المُريدين بعدَ تمامِ التَّربيةِ . . قالوا : الإيمانُ كالرُّوحِ ، والتَّقوىٰ كالجَسَدِ ، فإذا تمَّ الجسدُ . . نُفِخَ فيهِ الرُّوحُ ، فبعدَ ذٰلكَ يحتاجُ إلى اللِّباسِ الذي هو شعارُ المتَّقين .

وأمَّا الذين أَلبَسُوا لهمُ الخِرقةَ في أوَّلِ الإرادةِ . . خافوا عدمَ ثباتِهم ، فأحبُّوا تقييدَهُم بهٰذا اللِّباسِ ؛ رجاءَ أن يَرزُقَهمُ اللهُ الثباتَ ببركةِ لباسِ أهلِ الصلاحِ ، هٰذا هو أصلُ لُبسِ الخرقةِ .

وأوَّلُ لباسِ المريدِ المَثنيُّ : وهو الذي لهُ ظِهارةٌ وبِطانةٌ فقطْ ، وليس بينَهما

شيءٌ ، وإنَّما يلبسُ في أولِ القَدَمِ المَثنيُّ ؛ لأنَّ المريدَ في أوَّلِ القَدَمِ مُشتغِلٌ بشيئين : بأداءِ الأوامرِ واجتنابِ المناهي ؛ فإذا كانَ في الباطنِ صفةُ شيئينِ وهما أداءُ الأوامرِ واجتنابُ المناهي . . فَلْيَكُن في الظَّاهرِ لباسُهُ مَثنياً .

فإذا ثبتَ قَدَمُهُ في الأمرِ والنَّهيِ . . فقدْ حانَ وقتُ لُباسِ المُرقَّعِ ؛ وهو الذي لهُ ظِهارةٌ وبِطانةٌ وبينَهما شيءٌ مِنَ اللِّبْدِ الضَّريبِ ، وإنَّما يلبسُ هٰذا لأنَّ المريدَ في هٰذا الوقتِ لهُ ثلاثُ صفاتٍ : نفسُ الكلمةِ ، وعينُ الكلمةِ ، ومحضُ الكلمةِ ؛ فنفسُ الكلمةِ : إثباتٌ في أداءِ الأوامرِ واجتنابِ المَناهي ، وعينُ الكلمةِ : أُنسُهُ وطمأنينتُه بذكرِ اللهِ ، ومحضُ الكلمةِ : بالتَّرقِّي وقطعِ المقاماتِ ، والمرادُ بالكلمةِ : خطابُ اللهِ جلَّ جلالُه معَهُ ظاهراً وباطناً .

فإذا وَصَلَ إلى المقامِ . . فقد حانَ وقتُ لُبسِ المُلمَّعِ ؛ وهو لباسٌ فيهِ ألوانٌ مُختلِفةٌ ، وهٰذا اللِّباسُ إشارةٌ إلىٰ أنَّ العبدَ عَرَفَ اختلافَ الصنائعِ والبدائعِ في العالَمِ ، وفَهِمَ مِنْ كلِّ شيءٍ حقيقتَهُ ، واطمأنَّ قلبُهُ بأنواعِ البلايا والشَّدائدِ .

فبعدَ ذٰلكَ يَلبَسُ الخَشِنَ ؛ وهو خِرقةٌ لهُ ضَرَباتٌ كثيرةٌ ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ تحمُّلِ الجراحاتِ والمصائبِ ؛ يعني : بكلِّ إبرةٍ يَغرِزُها في الخَشِنِ يُوصِلُ جراحَهُ إلىٰ قلبِهِ ، ويَطمئِنُّ قلبُهُ بها .

فبعدَ ذٰلكَ يَلبَسُ الطَّلقَ ؛ وهو الخَشِنُ ، إلا أنَّهُ يُكثِرُ تَرقيعَهُ بخِرَقٍ مختلفةٍ مِنَ الجديدِ والخَلَقِ ، وهٰذا إشارةٌ إلىٰ تركِ التكلُّفِ ، وإخمادِ البشريةِ ، وتركِ المبالاة بلَومِ النَّاسِ لهُ ، وهٰذا إشارةٌ أيضاً إلىٰ تجدُّدِ فُتوحِهم يوماً بعدَ يومٍ ؛ يَعني : كلَّما حَصَلَ لهم فتوحٌ في الباطنِ . . رَقَّعُوا رُقعةً علىٰ لباسِهم ؛ لأنَّ لباسَ الظاهرِ علامةُ أحوالِ الباطنِ .

وكلُّ لباسٍ غيرِ هٰذهِ فهو تَبَعٌ وفرعٌ لهٰذه ، وأمَّا ألوانُ لباسِهم : لا يجوزُ الأحمرُ والأصفرُ ، وما عداهما فجائزٌ ، والأزرقُ للمبتدئ ، والأسودُ لمَن فوقَهُ .

ولا يجوزُ لُبسُ الفَرَجيِّ لغيرِ المشايخِ ؛ لأنَّ الفَرَجيَّ هو الذي يُشَقُّ قُدَّامُهُ ،

والشقُّ إشارةٌ إلى استواءِ الظاهرِ والباطنِ ؛ يعني : كما أنَّ ظاهرَهُ مُزيَّنٌ باتِّباعِ السُّنَّةِ فباطنُهُ كذٰلكَ ، وهـٰذا كمالٌ لا يَليقُ إلا بالمشايخِ .

وأمَّا جَيبُهم الذي كطوقٍ : إشارةٌ إلىٰ طوقِ العبوديةِ في رقابِهم .

وأمَّا ما يُخاطُ مِثلَ كِيسةٍ علىٰ جَيبِهِم : فإشارةٌ إلىٰ أنَّا هيَّأنا موضعاً نجعلُ فيهِ ما يجيءُ مِنَ الناسِ مِنَ الإيذاءِ والشَّتمِ والجفاء ، وهيَّأنا في الصدورِ أيضاً موضعاً لهـٰذه الأشياءِ بالطَّوعِ والرغبةِ .

وأمَّا ما يجعلون تحت جَيبِهِم مِثلَ سِنانٍ : إنَّما جعلوهُ ليكونَ زاجراً لهم عنِ الانحرافِ ؛ يعني : إذا قَصَدُوا الانحرافَ ونظروا إلىٰ ذٰلكَ السِّنانِ فيهِ . . عَلِمُوا أنهم لوِ انحرفوا طُعِنُوا بسِنانِ العقابِ واللَّومِ .

وأمَّا جَعلُ رأسِ السِّنانِ نحوَ الصَّدرِ : إشارةٌ إلىٰ خوفِ الطَّعنِ إلى الصَّدرِ والقلبِ ، وأيضاً إشارةٌ إلىٰ أنَّ التَّقوىٰ في القلبِ ؛ كما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلتَّقْوَىٰ هَا هُنَا » وأشار إلى الصَّدرِ [1] .

وأمَّا اللِّباسُ الَّذي لا جَيبَ لهُ : فإشارةٌ إلىٰ أنَّ صاحبَهُ تحرَّزَ عن رِقِّ الأشياءِ ؛ لا يستقرُّ في قلبِهِ مدحٌ ولا ذمٌّ ولا غيرُها مِنَ المعلوماتِ ، فإذا كانَ كذٰلكَ . . فلا يحتاجُ إلىٰ ظرفٍ يجعلُ فيهِ الشَّتمَ والجفاءَ .

وأمَّا خرقُ اللِّباسِ عندَ السماعِ : فكلُّ موضعٍ خَرقَهُ إشارةٌ إلىٰ معنىً ؛ فإنْ خَرَقَ جَيبَهُ الذي هو مِثلُ كِيسةٍ . . إشارةٌ إلى التحرُّزِ ، ورفعِ المعلومِ ، واستواءِ المدحِ والذمِّ عندَهُ ، وإنْ خَرَقَ كُمَّه . . فمعناهُ : قطعُ يدِ التَّصرُّفِ ، والتسليمُ بالقضاءِ ، وإن خَرَقَ ذَيلَهُ . . فمعناهُ : قطعُ الرِّجْلِ عن التردُّدِ بالاختيارِ ، وقطعُ العلائقِ ، وإنْ خَرَقَ قُدَّامَ جَيبِهِ . . فمعناهُ : رفعُ الحجابِ عن صَدرِهِ ، وظهورُ نورِ التجلِّي فيهِ .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

ولا يجوزُ خَرقُ الخِرقةِ إلا للشَّيخِ ؛ لأنَّ الشيخَ مأمورٌ بالشَّفقةِ على المريدينَ ، وشرحِ ما يُمكِنُ شرحُهُ بالعبارةِ عنِ الطَّريقةِ ، ففي غيرِ السَّماعِ يُمكِنُه أن يُنعِمَ عليهم بما يَظهَرُ لهُ مِنَ الفتوحِ الباطنيِّ بالعبارةِ ، وأمَّا في السماعِ . . فلا يُمكِنُهُ أن يَشرَحَ لهم ما ظَهَرَ مِنَ الحالِ ، فيَخرِقُ الخِرقةَ لِيُنعِمَ عليهِم بالخرقةِ ؛ لئلَّا يُحرَمُوا مِنْ بَرَكتِهِ في السماعِ ، كما لم يُحرَمُوا في غيرِ السماعِ ، فخرقةُ الشيخِ إذا خَرَقَها . . لا يجوزُ إلَّا للتفرقةِ بين القومِ .

وأمَّا غيرُ الشيخِ من المبتدئينَ إذا خَرَقَ خِرقتَهُ من الدَّهشةِ والحَيرةِ . . لا يجوزُ تفرقتُها ، بلْ إنْ رَجَعَ عليها بعدَ سُكونِ حالِهِ . . فهو أَولىٰ بها ؛ يَخيطُها ويَلبَسُها ، وإن لم يَرجِع عليها ؛ فإن دَفَعَ إلى القوَّالِ . . جازَ ، وإنْ سامحَ القوَّالَ بأن يَدفَعَ إلىٰ محتاجٍ مِنَ الجمعِ . . فَعَلَ ، وإنْ لم يُسامِحْ . . فهو للقوَّالِ .

واللهُ أعلمُ .

بابُ آدابِهم في السَّفَرِ وغيرِه

ينبغي للمسافرِ أنْ يَحفَظَ لسانَهُ عن التكلُّمِ إلَّا عندَ الضَّرورةِ ، وأن يَبسُطَ يَدَهُ في بَذلِ ما فُتِحَ لهُ ، وخِدمةِ الرَّفيقِ وغيرِهِ .

ولا بدَّ لهُ مِنَ السَّجَّادةِ والإبريقِ والعصا ، وليكُنْ للعصا سِنانٌ لِيَحفِرَ الأرضَ الصُّلبَ لأجلِ البَولِ ؛ كي لا يُصيبَهُ الرَّشاشُ ، وَليَغرِزَ العَصا ، ويُلقي عليها ثوبَهُ عندَ الوُضوءِ ، وَلْيَكُنْ في الإبريقِ ماءٌ أبداً ، وإذا ما انكَسَرَ إبريقُ الصُّوفيِّ في الطريقِ . . فَلْيَحمِلْ جَرَّةَ الإبريقِ أو غيرَها منهُ ؛ ليكونَ معَهُ في الدخولِ إلى الرباطِ وغيرِه لِيعلَمَ أهلُ ذٰلكَ الموضعِ أنَّهُ قدْ كانَ معَهُ الإبريقُ في الطريقِ وقدِ انكسَرَ .

وليكُن معَهُ مِلحَفةٌ أو قدرٌ كبيرٌ مِنَ الكِرباسِ ليكونَ كَفَنَهُ لو ماتَ ؛ حَذَرَ أن يَشتغِلَ قلبٌ بتجهيزِهِ ، وليكونَ معَهُ خريطةٌ مَثنِيَّةٌ لِيَضَعَ فيها مَداسَهُ[1] ، ولْيَشُدَّ الصوفيُّ شيئاً في وَسَطِه ، ويَضَعْ خريطةَ المَداسِ خَلفَ ظهرِهِ داخلَ الخِرقةِ .

ولْيَكن معَهُ مُشطٌ وسواكٌ وإزارٌ صغيرٌ يَشُدُّ به المُشطَ والسِّواكَ ، ويُنشِّفَ بِهِ أعضاءَهُ عندَ الوضوءِ .

وَلْيَكُن مُشمِّراً في المشيِ ، وإذا قَرُبَ مِنْ بابِ الرِّباطِ . . فَليَحُطَّ ما علىٰ ظهرِهِ مِنَ السَّجَّادةِ والمِلحَفةِ وغيرِهما ، وَليَأخُذِ الراويةَ تحت إبطِه اليسرىٰ ، وَليَأخُذِ الإبريقَ والعصا بيدِهِ اليسرىٰ ، ويَجعَلْ يَدَهُ اليمنىٰ خاليةً ، وإذا دَخَلَ الرباطَ بهٰذا الترتيبِ . . لا يُسلِّمْ علىٰ أهلِ الرباطِ .

فإنِ استَقبَلَه أحدٌ مِنْ أهلِ الرباطِ لِيَأخُذَ منهُ راويتَهُ . . لم يَمنَعهُ ، ويَحُلَّ وَسَطَهُ ، ويُخرِجُ خريطةَ المداسِ بيدِهِ اليُمنىٰ ، ويَحُلَّ رأسَ الخريطةِ بيدِهِ اليُمنىٰ ،

---

(١) في (أ) : (ملابسه) ، وكذا لنهاية النسخة وقع (الملابس) بدل (المداس) .

ويُخرِجِ المداسَ بيدِه اليسرىٰ بحيثُ لا يُصيبُهُ غُبارُ الخريطةِ ، وَليَشُدَّ رأسَ الخريطةِ كَي لا يَتناثَرَ منهُ غُبارٌ ، وَليَضَعْ ما يَشُدُّ بِهِ وَسَطَهُ في وَسَطِ الخريطةِ ، ويَلُفَّ بِهِ الخريطةَ ، ويَضَعْهُ على الزَّاويةِ ، وَليَحُلَّ لِفافةَ رِجلِهِ اليسرىٰ ، ويُخرِجْ خُفَّها ، فإنْ أرادَ أحدٌ أن يَحُلَّ لِفافتَهُ ويُخرِجَ خُفَّه . . لمْ يَمنَعْهُ ، فإذا اشتغلَ ذٰلكَ الرَّجُلُ بإحدىٰ رِجلَيهِ . . فَليَشتغِلْ هو برجلِهِ الأخرىٰ ، وَليَحفَظِ اللِّفافةَ وما لَفَّ بِهِ اللِّفافةَ عن أنْ يقعَ في الأرضِ ، وَليَلُفَّ اللِّفافةَ ، ويَضَعْهُ في الخفِّ أو في خريطةِ المداسِ الذي كانَ معَهُ في الطَّريقِ ، فإنْ كانَ علىٰ رِجلِهِ غبارٌ يَأخُذُ المداسَ بيدِه اليسرىٰ ، ويَقصِدُ الماءَ ، ويُجدِّدُ الوضوءَ ، ثمَّ يَجيءُ فيَنظُرُ أينَ بَسَطَ سَجَّادتَهُ ، ويأتي السَّجَّادةَ ، ويُصلِّي الرَّكعتَينِ ، فإنْ كانَ لهُ رُفقاءُ . . يَنتظِرُهُم في السِّقايةِ حتىٰ يَفرُغُوا مِنَ الوضوءِ ، ويَجيئون معاً ، فإذا صلَّىٰ . . نَظَرَ مَنْ هو مُقدَّمُ القومِ يأتيهِ ويُسلِّمُ عليهِ ، ويتواضعُ لهُ ، ثمَّ يَرجِعُ إلى السَّجَّادةِ ، ولا يَتكلَّمُ إلَّا أنْ يُسأَلَ شيئاً فيُجيبَ ، ويَنظُرُ إلىٰ أفعالِ أهلِ الرِّباطِ والشَّيخِ وأقوالِهم ، ويَطلُبُ مِنْ نفسِهِ سرَّ ما يَصدُرُ منهم ، فإنْ رأىٰ شيئاً قبيحاً . . لا يَتكلَّمُ فيه ما دامَ في القومِ أكبرُ منهُ ، ويرضىٰ بما قالَ الشَّيخُ ، فإنْ أرادَ أنْ يَعلَمَ سرَّ فِعلٍ صَدَرَ مِن أحدٍ . . فَليَسأَلْ عنه باللُّطفِ والأدبِ ، وَليَقُلْ : يا سيِّدي ؛ خَفِيَ عليَّ سرُّ هٰذا القولِ أوِ الفعلِ ، أَفِدني ونبِّهني بكشفِ سرِّهِ لأستفيدَ منكَ .

وَلتَكُنْ جميعُ أفعالِهِ وأقوالِهِ مع إخوانِهِ وجلسائِهِ باللُّطفِ والصَّفاءِ ، وَليَبتعِدْ عن الخشونةِ في القولِ ، وَليَصفَحْ عن الإخوانِ ، وَليَتحمَّلْ أذاهُم ؛ فإنَّ التَّصوُّفَ هو الخُلُقُ الحسَنُ ، فإذا أرادَ الخروجَ مِنْ ذٰلكَ الموضعِ . . فَليَستأذِنِ الشَّيخَ ، وإنْ لمْ يَأذَنْ له الشيخُ بالخروجِ . . أقامَ مدَّةً مِنْ أجلِ خاطرِ الشيخِ ؛ فَليَستَحِلِ مِنَ القومِ ، فإنْ كانَ لهُ غُبارٌ معَ أحدٍ . . فلا يَخرُجْ حتىٰ يَرفَعَ ذٰلكَ الغُبارَ .

وَليَزُر أهلَ ذٰلكَ الموضعِ مِنَ الأحياءِ والأمواتِ ، وَليَلُفَّ كُمَّهُ اليمنىٰ أوّلاً عندَ الخروجِ ، ثمَّ اليسرىٰ ، ثمَّ يَشُدَّ وَسَطَهُ ، وَليَمسَحْ تحتَ إحدى النَّعلينِ

علىٰ الأخرىٰ ، ويَضَعْ تحتَ إحداهما بالأخرىٰ ، ويَضَعْهُما في الخريطةِ بحيثُ يكونُ رأسُ المداسِ نحوَ رأسِ الخريطةِ ، ويشدَّ رأسَ الخريطةِ ، ويَضَعِ الخريطةَ خلفَ ظهرِهِ داخلَ الخرقةِ ويجلسْ ، ويَجعَلْ أولاً رِجلَهُ اليمنىٰ في الخفِّ ، ثمَّ اليسرىٰ ، بحيثُ لا يَقَعُ مِنْ ثيابِهِ شيءٌ على الأرضِ ، ثمَّ يَغسِلْ يَدَيهِ بعدَ الفراغِ مِنْ لُبسِ الخفِّ ، وَليَحمِلِ الزَّاويةَ تحتَ إبطِه اليسرىٰ ، والعصا والإبريقَ أيضاً بيدِهِ اليسرىٰ ، فإنْ حَمَلَ أحدٌ راويتَهُ . . لمْ يَمنَعْهُ ، فإذا خَرَجَ مِنَ الرباطِ . . جَعَلَ الراويةَ علىٰ ظهرِهِ ، ويُودِّعُ مَن يَتبَعُهُ للوداعِ ، ويُدبِرُ ثمَّ يُقبِلُ على القومِ في كلِّ لحظةٍ ما دامَ القومُ واقفين ينظرونَ إليهِ ، ويُشيرُ إليهم برأسِهِ للخدمةِ والتواضعِ ثلاثَ مراتٍ متفرقاتٍ .

ولكلِّ واحدٍ مِنْ آدابِهم سرٌّ ؛ أما سرُّ حملِ راويتِه عن ظهرِهِ قبلَ أنْ يَدخُلَ الرباطَ : فلا يكونُ دخولُ الرباطِ بغيرِ حِملٍ ؛ لأنَّ الرباطَ موضعُ التجريدِ ، وأمَّا حَملُ الرَّاويةِ تحتَ إبطِه اليسرىٰ : فلأنَّ الراويةَ مِنَ الدُّنيا ، فلا تَشتَغِل بهِ يدُهُ اليمنىٰ ؛ لأنَّ كلَّ فعلٍ حقيرٍ يُعمَلُ باليدِ اليسرىٰ ، وأمَّا تَركُ السلامِ عندَ الدخولِ : فلأنَّ الصوفيَّ يُقدِّمُ خدمةَ اللهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ شيءٍ ، فإذا توضَّأَ وصلَّىٰ تحيَّةَ الموضعِ . . فحينئذٍ يُسلِّمُ على القومِ .

وأمَّا ابتداؤُهم بإخراجِ الرِّجلِ اليُمنىٰ مِنَ المَداسِ والخفِّ عندَ الدخولِ في الرباطِ وجعلُ رِجلِهِ اليمنىٰ في الخفِّ والمداسِ أوَّلاً عندَ الخروجِ : لأنَّ السفرَ إتعابُ النفسِ ، وهو طاعةٌ ، فَليَجعَلِ الرِّجلَ اليمنىٰ مُتأخِّراً في إخراجِ الخفِّ مِنَ الرِّجلِ لِيَبقىٰ في الطاعةِ لحظةً أخرىٰ ، ويَبتَدِئ بالرِّجلِ اليمنىٰ في لُبسِ الخفِّ لِيَكونَ أوَّلاً في الشروعِ في الطاعةِ ، ومِثلُهُ الدخولُ في المسجدِ ؛ فإنَّهُ طاعةٌ ، فلذٰلكَ تُقدَّمُ الرِّجلُ اليمنىٰ في الدخولِ ، واليسرىٰ في الخروجِ .

وأمَّا استصحابُهُمُ السَّجَّادةَ : قيلَ : معناهُ : أنَّه مَحَلُّ التمييزِ ؛ فمَنْ كانَ مُتجرِّداً عن الأفعالِ والأقوالِ المذمومةِ ، ومُتحرِّزاً عن التلوُّثِ بالحرامِ والشُّبُهاتِ ؛ بحيثُ

يصيرُ مَرضِياً عندَ هٰذه الطائفةِ . . فقدِ استحقَّ الجلوسَ على السجَّادةِ ، وقيلَ : السَّجَّادةُ مُعرَّبٌ ، معناهُ : ثلاثُ طُرُقٍ : الشريعةُ والطريقةُ والحقيقةُ ؛ فمَن سَلَكَ هٰذه الثلاثةَ . . استحقَّ السَّجَّادةَ ، ولا يَسَعُ هٰذا المختصرُ أكثرَ مِن هٰذا .

* * *

تمَّ المختصرُ المسمَّىٰ : « إرشادُ المريدينَ وإنجادُ الطَّالبينَ » مِن مصنَّفاتِ مولانا شيخِ الإسلامِ ، مَلجأُ السَّالكينَ ، وسيِّدِ العارفينَ ، قُطبِ الأقطابِ ، وسنَدِ الأبدالِ ، الشَّيخِ شهابِ الملَّةِ والدِّينِ السُّهرَوَرديِّ قدَّسَ اللهُ رُوحَهُ ونوَّرَ ضريحَهُ ، في العشرين ، ربيع الآخَر ، لسنةِ ثمانٍ وسبعِ مئةٍ [1] .

* * *

---

(١) في الأصل : (ثمانٍ وسبعين مئةٍ) ، ولعلَّ المثبت أقرب إلى الصواب .

من تراث

الإمَامِ أبي حَفْصٍ عُمرَ السُّهْرَوَرْدِيّ

الكتاب الثّالث

إِدَالَةُ العِيَانِ

عَلَى البُرْهَانِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
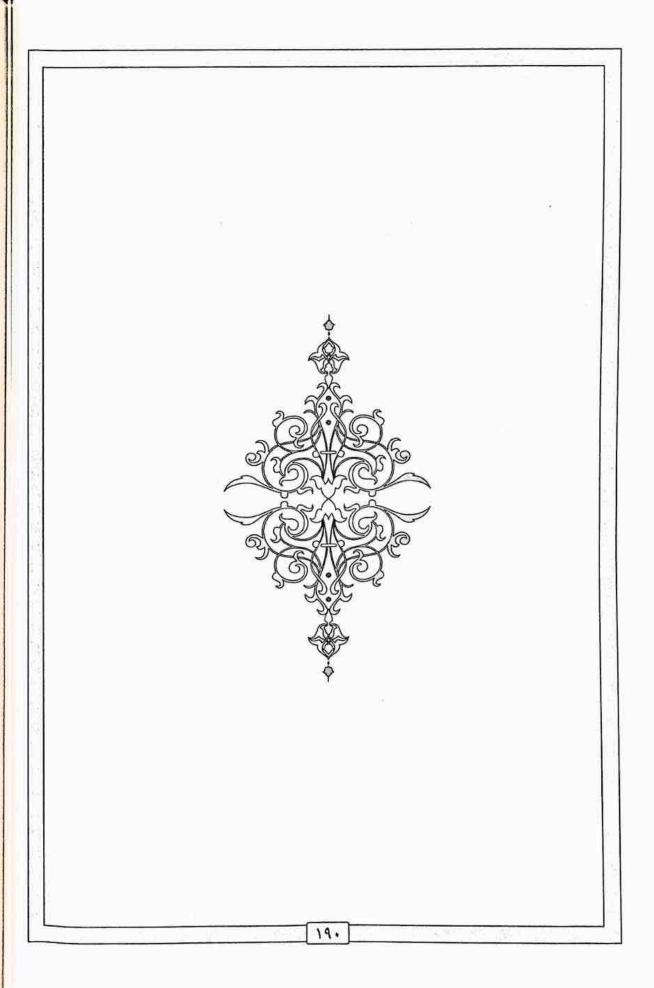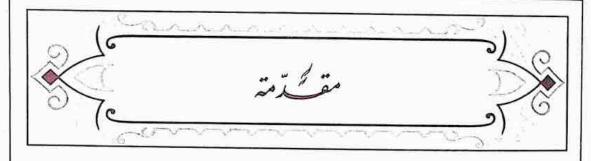
أخبرَ السُّهرورديُّ في صَدرِ هٰذا الكتابِ أنَّهُ أَدرَكَ في زمانِه أقواماً استَخَفُّوا بأمرِ النُّبوَّاتِ ، واستهانوا بشأنِ الغيبيَّاتِ من السَّمْعياتِ ؛ وقدْ عَلِقَتْ بأذهانِهِم تُرَّهاتٌ تَلقَّفُوها مِنْ بعضِ كُتُبِ الكلامِ ، وأخذوها مِنْ ضِعافِ العلمِ .

فعَظُمَ على السُّهرورديِّ أنْ يرىٰ هٰؤلاءِ يَعبَثونَ بالأصولِ والثوابتِ المُقرَّرةِ ، فراحَ يُدوِّنُ هٰذه البصائرَ النَّيِّرةَ ، ويُوردُ الحُجَجَ الدامغةَ ، ويَدفَعُ الشُّبَهَ الفاترةَ ، في هٰذا السِّفرِ الجليلِ ، مازجاً ما يَكتُبُه بمَعانٍ صُوفيَّةٍ يَذكُرُها أثناءَ الردودِ ، ومسائلَ في التصوفِ يَستطرِدُ إليها عَرَضاً ؛ كفضلِ التصوفِ وأهلِهِ ، والخِرقةِ وأصلِ لُبسِها ، وسَنَدِهِ في لُبسِها ، ونحوِ ذٰلكَ .

مِنْ أهمِّ الأفكارِ التي أكَّدَ عليها السُّهرورديُّ ـ وهي الأساسُ الذي يقومُ عليهِ الكتابُ ـ : أنَّ مَسلَكَ الأنبياءِ هو اليقينُ والإيمانُ ، وهٰذا ينتهي بهم إلى الكشفِ والعِيانِ ، وأمَّا البراهينُ المُستنِدةُ إلى الرياضياتِ والطبيعياتِ والتي يَزعُمُها الفلاسفةُ . . فإنَّها لا تُغني عنهم شيئاً ؛ إذ (البُرهانُ قليلُ الجدوىٰ ، والعِيانُ بعيدُ المَدىٰ) ، كما يقول السُّهرورديُّ ، وهٰذا ما دعاهُ إلىٰ أن يُوازِنَ بين علومِ أهلِ العِيانِ ، وعلومِ أهلِ البرهانِ ، وليسَ أدلُّ على اهتمامِهِ بعَقدِ هٰذه الموازنةِ مِنْ فصلٍ تَرجَمَهُ بقولِهِ : (في بيانِ فضيلةِ العِلمِ المُقتبَسِ مِن مِشكاةِ النُّبوَّةِ مُستودَعِ الأسرارِ ، وفَضلِهِ على العِلمِ المقتضَبِ بدَنَسِ الأفكارِ) .

وقد وبَّخَ السُّهرورديُّ في فصولِ الكتابِ الفلاسفةَ ومَنْ حذا حَذوَهُم ، وشدَّدَ

عليهِم في العبارةِ تشديداً لا يَخفىٰ على الناظرِ ، وكثيراً ما كانَ يَبدأُ رُدودَهُ عليهِم باستعمالِ الاستفهامِ الإنكاريِّ والاستفهامِ التعجُّبيِّ ، كما أنَّهُ أَكثَرَ مِنَ ندائِهم قبلَ التبكيتِ بقولِه : (أيُّها الفلسفيُّ) ، و(أيُّها الحكيمُ) .

ومِن ميزاتِ الكتابِ : إيرادُهُ لكثيرٍ من المَرويَّاتِ بإسنادِهِ عن مشايخِهِ ، وهو ما يُفيدُنا إفادةً كبيرةً في التعرُّفِ علىٰ شيوخِهِ في الروايةِ ، عِلاوةً على الذينَ ذَكَرْناهم في المَدخَلِ الذي في أوَّلِ المجموعِ .

وصف النسخة المعتمدة في التحقيق
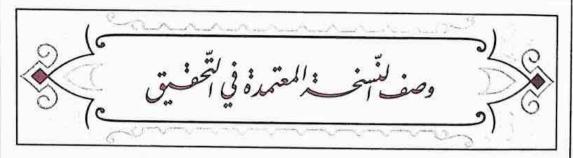
اعتَمدتُ في تحقيقِ هٰذه الرِّسالةِ على النُّسخةِ المحفوظةِ بالمكتبةِ السُّليمانيَّةِ إستانبول ، رقم المجموعة : (حميديَّة ١٢٠ ـ ١٤٤٧٠) ، الأوراق من (١٣٤ - ١٥٣) ، تحت عنوان : رسالةُ : « إدالةِ العِيانِ على البُرهانِ » ، مِن مُصنَّفاتِ الشَّيخِ العارفِ شيخِ شُيوخِ الإسلامِ شِهابِ الدِّينِ أبي جعفرٍ عمرَ السُّهرَوَرْدِيّ .

وهٰذا الكتابُ يَتَناسَبُ تماماً في موضوعِه وطَرحِهِ مع كتابِهِ « كشفُ الفضائحِ اليونانيَّة ، ورَشْفُ النَّصائحِ الإيمانيَّةِ » ، وممَّا يؤكِّدُ ذٰلك : أنَّ الشَّيخَ السُّهرَوَرْدِيَّ قدْ أشار في أَحدِ فصولِ هٰذا الكتابِ[١] إلىٰ كتابِهِ : « رَشْفُ النَّصائح الإيمانيَّة » بقولِهِ : (وشرحُ أَجرامِ الكواكبِ ذكَرناه في كتابِ : « رشفُ النَّصائحِ » ، مُستخرَجاً مِنْ بعضِ المداخلِ النُّجوميَّةِ ، فمَن أراد ذٰلك . . فليُطالِعه . . .)[٢] ، وهٰذا نصٌّ مِنَ المُصنِّفِ يَجعلُنا نَقطَعُ بصِحَّةِ نسبةِ الكتابِ إليهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر فصل : (أَلَم يَتفكَّرِ الفيلَسوفُ في عِلمِه الَّذي انقطَعَ مَدَدُه . . .) من هٰذا الكتاب .

(٢) ولمن شاء مطالعتَه . . فليَنظُره بتحقيقي في طبعتِه الأُولىٰ (١٩٩٩ م) ، دار السَّلام بالقاهرة ، وقد طُبِعَ الكتابُ تحت ظُروفٍ استثنائيَّةٍ قَعَدَت به عن صورتِه اللَّائقةِ ، واللهَ أسألُ أن يُهيِّئَ الأسبابَ ويَرفَعَ الموانِعَ لإعادةِ النَّظرِ فيه وبَعثِه مِن جديدٍ علىٰ نحوٍ يليقُ به في استكمالٍ منِّي إلىٰ ما صبوتُ إليه مِنَ العكوفِ علىٰ إخراجِ تُراثِ أبي حفصٍ السُّهرَوَرديِّ رحمه الله .

نماذج من صور المخطوط

هذه رسالة إزالة العيان على البرهان من منشآت الشيخ الإمام
شيخ شيوخ الإسلام شهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي رحمه الله
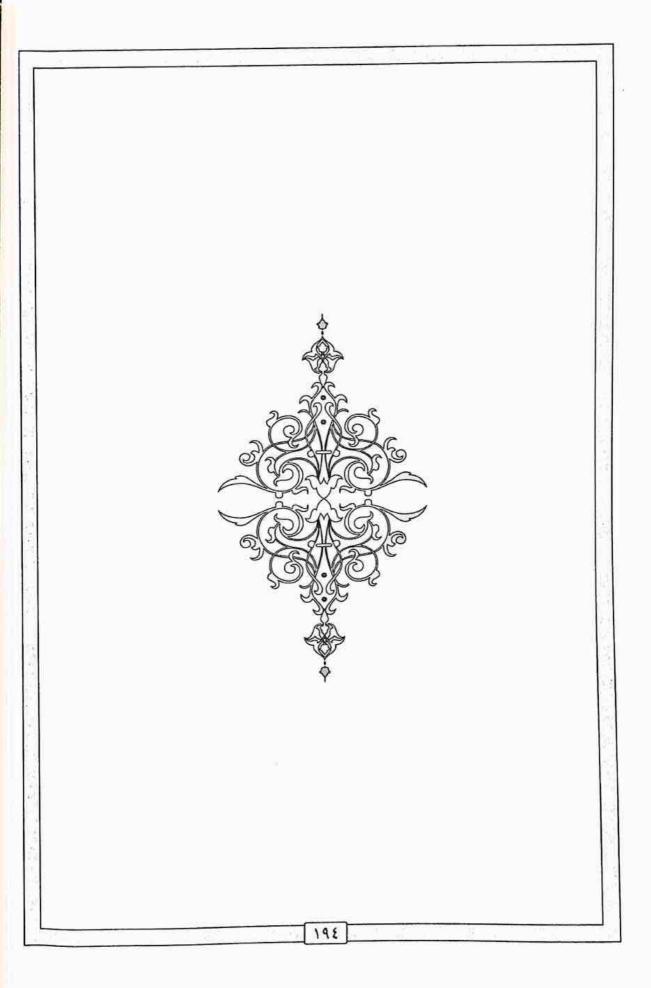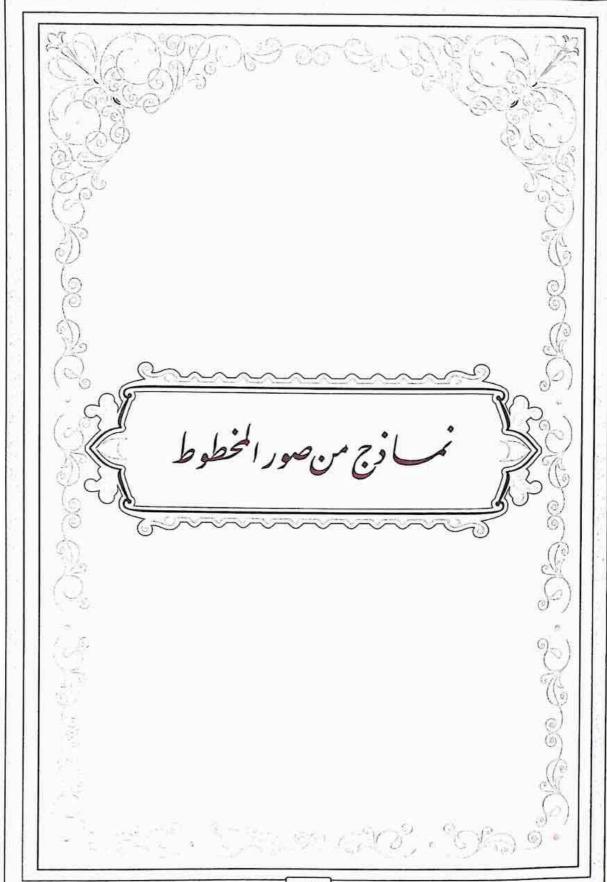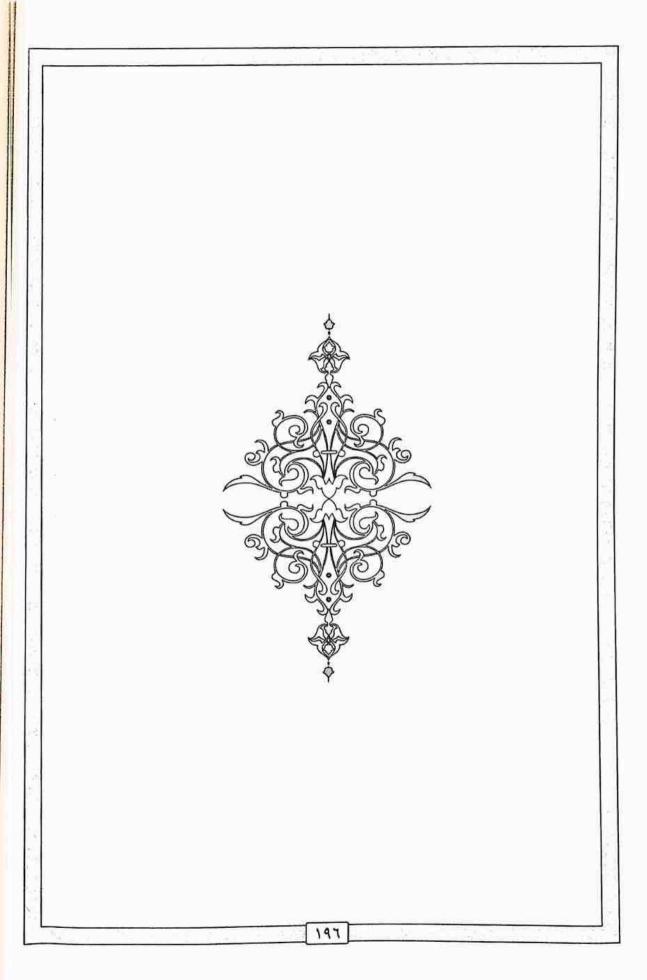
نسخة المكتبة السليمانية تركيا
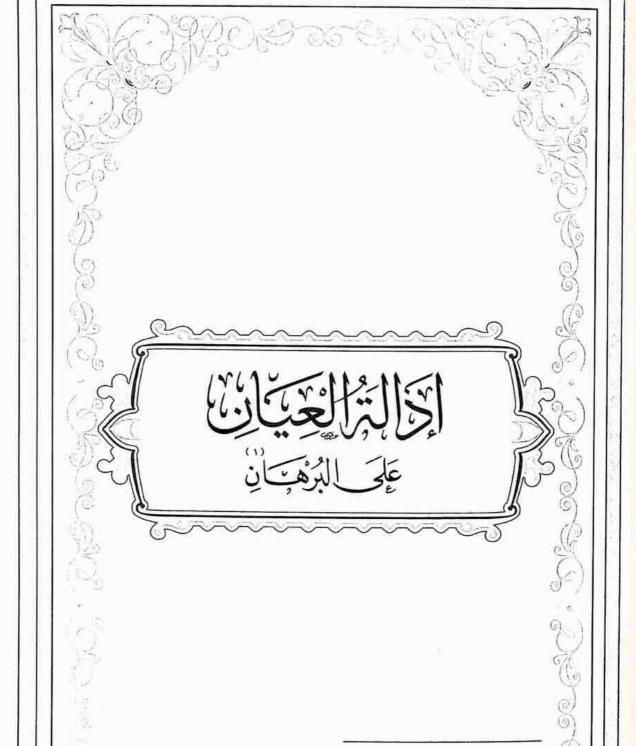
(١) الإدالةُ : الغَلَبَةُ . يُنظر : « الصِّحاح » ، مادَّة (د و ل) ، وهو هنا يعني : غَلبةَ العِيانِ والبصيرةِ على البُرهانِ والدَّليلِ .

مقدّمة
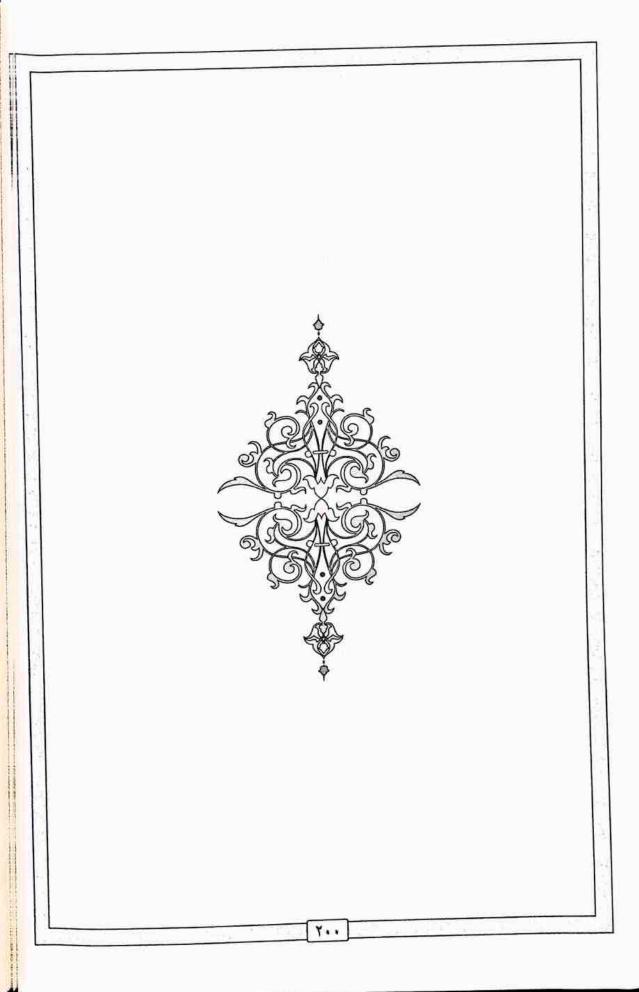
الحمدُ للهِ الَّذي بعَثَ رسولَهُ محمَّداً صلَّى اللهُ عليه لإعلاءِ كلِمتِهِ ، وأنارَ قلوبَ أَهلِ الملَّةِ بآثارِ أنوارِ دَعوتِهِ ، وأَقامَ عِوجَ النُّفوسِ بهَدْيِهِ الرَّشيدِ وشَريعتِهِ ، وتمَّمَ مَكارِمَ الأَخلاقِ في أُمَّتِهِ ، مُقتَبِسينَ مِن خُلُقِهِ الكريمِ وسَجِيَّتِهِ ، وكمَّلَ فرائضَهُ بسَنِيَّةٍ وسُنِّيَّةٍ عَليَّةٍ مِنْ سُنَّتِهِ ، باهَىٰ يومَ العَرضِ بالأَتقياءِ النُّجَباءِ مِن أَهلِ مِلَّتِهِ ، واستَنبَطَ جَواهِرَ غرائبِ العلومِ والأَسرارِ مِنْ مَعادنِ العلومِ الأَزليَّةِ بخُضوعِهِ وضَراعتِهِ ، واستَفرَشَ بِساطَ السَّبْعِ الطِّباقِ ليلةَ عُروجِهِ بعُلوِّ هِمَّتِهِ ، وأَطفأَ شُوَاظَ الجَحيمِ ببَرْدِ النَّسيمِ مِنْ شَفاعتِهِ ، ونالَ قَصَبَ السَّبْقِ في مَيدانِ العَرضِ والنُّشورِ معَ المُرسَلِينَ مِن إخوتِهِ ، وزهِدَ في مَفاتيحِ كُنوزِ الأَرضِ استغناءً بربِّهِ وتنزُّهاً مِنْ أنْ تكونَ مِنْ عُدَّتِهِ ، مُتعوِّضاً مِنها عنِ اللهِ بِمَزايا عَطِيَّتِهِ .

سُيِّرَتْ سِدرةُ المُنتَهىٰ وقابَ قَوسَينِ مَواطِنَ سَناً مِنْ سَريرتِهِ ، فأَوحىٰ إلىٰ عبدِهِ ما أَوحَىٰ مِن كُنوزِ الأَسرارِ ، وسلَّمَ إليهِ أَعلامَ البشائرِ والإِنذارِ ، وأَباحَهُ سُدَّةَ الاقتدارِ ، وحَكَّمَهُ في الدِّماءِ والأَبشارِ ، وارتَوىٰ بهِ مِنَ العلمِ رِيّاً رشَحَ مِنهُ الخَلائقُ ، واتَّضَحَ بهِ الطَّرائقُ ، وتَثقَّفَ بِهِ الخلائقُ ، وجَمَعَ لهُ المُبصراتِ فيما عُلِمَ ، وقالَ : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ ٱلْكَلِمِ »[1] ، فرَكَضَ في فَسيحِ مَيدانِ العِلمِ حتَّى انتهَىٰ إلىٰ غَاياتِهِ ، واستَفرَشَ بِساطَ عالَمِ الغَيبِ حتَّى اطَّلَعَ علىٰ آياتِهِ ، وأَراهُ اللهُ تعالىٰ عَرْصةَ المُلكِ والملَكوتِ ، وأَدناهُ مِنْ أَعتابِ سُرادِقاتِ الجبروتِ ، واطَّلعَ على الجنَّةِ والنَّارِ ، فَأدرَكَهما كَشْفاً وعِياناً ، وأَخبرَهُ بالبَعثِ والنُّشورِ ، وحَشرِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠١٣) ومسلم (٥٢٣) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، ووقع في الأصل : (بجوامع) بدل (جوامع) .

الأَجسادِ مِنَ القُبورِ ، فأَخبَرَ بذٰلكَ إيقاناً ، فاقتَرنَ إيمانُهُ ببُرهانِهِ ، وبُرهانُهُ بإيمانِهِ ، لا كَمَنِ احتَجَبَ إيمانُهُ ببُرهانِهِ ، وصارَ بُرهانُهُ سَبَبَ خُسرانِهِ ، فحُجِبَ بالبُرهانِ عنِ الإيمانِ بالغَيبِ ، وغاصَ في بِحارِ الشَّكِّ والرَّيبِ .

وحيثُ أَدرَكنا زَماناً ضلَّ فيهِ خَلقٌ كثيرٌ ، ودنَوا مِنَ الضَّلالِ بعُقولِ ذاتِ[1] اختلالٍ ، مُفترِينَ بأَباطيلَ ومحَالٍ ، مِن مُجلَّداتٍ مَحشُوَّةٍ بكَثرةِ الكَلامِ وقِلَّةِ العلمِ ، يَضِلُّ في مَهامِهِهِ خِرِّيتُ الفَهمِ[2] ، يحسبُهُ الظمآنُ ماءً ، حتَّىٰ إذا جاءَهُ لمْ يجدْهُ شيئاً ووجدَ اللهَ عندَهُ في يومِ العَرضِ والنُّشورِ ، وعاقبَهُ علىٰ تَروِيجِ الزُّورِ ، وجَلبِ الغُرورِ ، بما سَكَنَ إليهِ مِنَ ادِّعاءِ البُرهانِ ، وزَعمَهُ أَنَّهُ كافِلٌ بالبيانِ والتِّبيانِ .

وما لا يَدخُلُ في البُرهانِ عندَهم فُشارٌ[3] وهَذَيانٌ ، وهٰذا غايةٌ في الضَّلالِ ، ونهايةٌ في الوَبالِ ، وربَّما إذا سَمِعوا أَنباءَ الغيبِ ؛ مِن ذِكْرِ الجنَّةِ والنَّارِ ، والصِّراطِ والميزانِ ، والحوضِ والشَّفاعةِ . . استَهجَنوا ذٰلكَ واستَهانوا بهِ .

فعَظُمَ عندي تَعظِيماً كدَّرَ عليَّ ما كنتُ آنَسُ إليهِ مِنَ العبادةِ ، وجمعِ الهمِّ عندَ التِّلاوةِ ، ورأَيتُ أنَّ أَهَمَّ المُهمِّ الذَّبُّ عنِ الإسلامِ وحَريمِ النُّبُوَّاتِ ، الَّتي شَهِدَ لها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وسلَّمَ ، الجامعُ لمتفرِّقاتِ ما أُتُوا وشَهِدُوا لهُ ، فصارَ المرسَلونَ جميعاً والأَنبياءُ والصِّدِّيقونَ وسائرُ المؤمنينَ كجَسَدٍ واحدٍ ، مُبرِّزِينَ إلىٰ هٰؤلاءِ الضَّالِّينَ الكَفرةِ ، الجانحِينَ إلى البُرهانِ ، المحجوبِينَ عنِ الإيمانِ بالغَيبِ ، والإدراكِ عنِ العِيانِ .

وسأُوضِّحُ ـ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ ـ وَهْنَ أَساسِهِم في فُصولِ هٰذا الكتابِ المُترجَمِ بـ : « إدالةُ العِيانِ على البُرهانِ » ، واللهُ المُوفِّقُ والمُعينُ .

* * *

---

(١) بعده في الأصل : (ذوي) .

(٢) الخرِّيت : الدَّليلُ الحاذقُ والماهرُ ، والجمعُ : خراريت . « تاج العروس » (خ ر ت) .

(٣) الفُشَارُ كغُرابٍ : الَّذي تَستَعمِله العامَّةُ بمعنَى الهَذَيانِ . « تاج العروس » (ف ش ر) .

فَصْلٌ

[في بيانِ شرطِ الاستفادة من هٰذهِ الفصولِ]

اعلمْ ـ أيَّدَكَ الله ـ : أنَّكَ لا تَستَبِينُ فوائدَ ما تَضمَّنَتْهُ هٰذه الفُصولُ إلَّا بعدَ دَاعيةِ إيمانٍ ناهَزَ الإيقانَ ؛ وهيَ السَّكِينةُ الَّتي تَبطَّنَتْ سُويداءَ القلبِ وأعماقَ الجَوانحِ ، وتزيَّنت بأنوارِها الأَعضاءُ والجوارِحُ ؛ بما استنارَتْ بمُتابعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : أَقوالاً وأَفعالاً وأَحوالاً ، فيُوضَحُ بُطلانُ أَنحاءِ الفلاسفةِ كالشَّمسِ الضَّاحِيةِ ، ولا يُزعزِعُك حينئذٍ ممَّا يَطرُقُ سَمعَكَ مِن زَخاريفِهِم وأَباطيلِهِم المُستمَدَّةِ مِن بِحارِ قهرِ الأَزليِّ ، المؤدِّيةِ إلى العَذابِ المُقيمِ الإلٰهيِّ .

وأيضاً لا تُدرِكُ عُورَ[1] المُودَعِ في هٰذا الكتابِ إلَّا بعدَ أن يَنغسِلَ لَوحُ ذهنِكَ مِن مَقالاتِ الفَلاسفةِ والدَّهريِّينَ بمَحبَّةٍ تَتعطَّرُ بها عوالمُ الأَرواحِ ، ويَبقَىٰ ذِهنُكَ مُنوَّراً بأَمدادِ أَنوارٍ مُتلاحِقةٍ عن مِشكَاةِ النُّبوَّةِ المُستمَدَّةِ بحُسنِ المُتابعةِ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾[2] .

فإذا سلكتَ جادَّةَ المُتابعةِ الَّتي تُسلِكُكَ بالتَّأديبِ الإلٰهيِّ والتَّعليمِ الرَّبَّانيِّ المُستَفادِ مِنَ التَّقوىٰ . . تَتوشَّحُ رُوحُكَ بلِباسِ محبَّةِ اللهِ تعالىٰ ، فتَأخُذُ يَدُ العِنايةِ الأَزليَّةِ بأزِمَّةِ مَجامعِ قَلبِكَ ، وتُرَقِّي رُوحَكَ مِنْ مَهواةِ البشريَّةِ ، وتَغسِلُ دَرَنَ خِلعتِكَ عن مُحيًّا فِطرتِكَ ، وتَنزِلُ بكَ في سُطوحِ عالَمِ الشَّهادةِ[3] الَّتي هيَ عالَمُ الغَيبِ ، ويكونُ السماعُ في تلكَ الأَرضِ مِنْ عرشِ الرَّحمٰنِ بروحٍ جُرِّدَ من كسوةِ الخَلِقةِ ، وقُمِّصَ بلباسٍ نُورانيٍّ مِنَ الفِطرةِ ، فترىٰ عالَماً محشوّاً بالملائكةِ ،

---

(١) المقصودُ بالعورِ هنا : الدِّقةُ والغموضُ المُحتاجانِ إلى الغَوصِ ، قال في « تاج العروس » : (وفي حديثِ عُمر ـ وذكر امرأ القَيس ـ فقال : افتقرَ عن مَعانٍ عُور : أراد به المعاني الغامضة الدَّقيقة) . انظر « تاج العروس » (ع و ر) .

(٢) سورة آل عمران : (٣١) .

(٣) في الأصلِ : (شهادة) .

مُشتمِلاً على الجَنَّةِ والنَّارِ ؛ جنَّةٍ عَرضُها السَّماواتُ والأرضُ ، وجَحيمٍ مَسكنُهُ الطَّبقةُ السَّابعةُ مِنَ الأَرضِ ، ويَبقَىٰ بينَكَ وبينَ الأَرضِ الكُرَيَّةِ الَّتي أَحاطَت بها الأَفلاكُ مسافةٌ أَبعَدُ ممَّا بينَ السَّماءِ والأَرضِ المُدرَكةِ بالعَقلِ الخَلْقيِّ ، في يومِ ﴿ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [١] ، ويَحصُلُ الحكيمُ الفَلسفِيُّ في مَهلَكةِ الجَهالةِ في عالمِ ما سَلَكَهُ وما عَرَفَه ، مُتحيِّراً في بعضِ طبقاتِ الأَرضِ ، مُحتبِساً ، لا بُرورَ [٢] منها ، مكوَّناً في عالمِ قهرِ ما سَلكَهُ ولا فهِمَهُ ، في غايةِ جَهالةِ البُرهانِ : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ [٣] ؛ وذٰلك في البَرزخِ للحَكيمِ الفَلسَفيِّ ، وبعدَ البَرزخِ : ﴿ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [٤] ، فيَستَبينُ لهُ إدالةُ العِيانِ على البرهانِ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ البُرهانَ بُرهانانِ :

بُرهانٌ مِنَ العَقلِ الغَريزيِّ : الَّذي قضَىٰ بهِ الرُّوحُ الأعظَمُ الدَّالُّ علىٰ إثباتِ العلومِ الأُخرَويَّةِ ؛ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، والصِّراطِ والميزانِ ، الَّتي شَهِدَ بها الكُتُبُ المُنزَلةُ والمُرسَلونَ بأَسرِهم ، وقلوبُ الشُّهداءِ والصِّدِّيقينَ ، وسائرُ المُؤمنين .

وبُرهانٌ يَقتَضِيهِ العَقلُ الخَلْقِيُّ : القَاضِي بصِحَّةِ عالَمِ الأَجرامِ الفَلَكِيَّةِ [٥] وأَعلامِ الهيئةِ والأَركَانِ والأُستُقُصَّاتِ والعَناصرِ [٦] ، ولا يزالُ يَسلُكُ بسائرِ البَسائطِ

---

(١) سورة إبراهيم : (٤٨) .

(٢) البُرور : مِن جُموعِ البَرّ ، يُستَعمَلُ علىٰ قِلَّةٍ ، وهو اليابِسةُ ، والمعنىٰ : لا يَرسو قاربُه علىٰ شاطئ النَّجاةِ وبَرّ الأمانِ ، أو لعلها : (لا بروز منها) بمعنىٰ : لا مفر .

(٣) سورة التكاثر : (٥ ـ ٦) .

(٤) سورة التكاثر : (٧) .

(٥) في الأصل : (الفلكيَّةِ أجرام) ، ولمعرفةِ هٰذه الأجرام يُنظر : « سُرورُ النَّفس » للتِّيفاشي (ص ١٦٧) ، و« نَثرُ الأزهار » لابنِ منْظور : (ص ١٤٣) وما بعدها .

(٦) هِي العناصر الأَربَع : التُّراب ، والماء ، والهواء ، والنَّار . انظر « الإشارات في علم العبارات » لابن شاهين الظاهري (ص ٨٦١) .

مُستَفرِشاً عالَمَ الأَجرامِ إلىٰ أن ينتَهيَ إلىٰ أوَّلها ويقضيَ بأنَّه العِلَّةُ الأُولىٰ .

وهٰذا البُرهانُ أعمَىٰ عن وُجودِ واجبِ الوُجودِ المُوجِدِ لكلِّ مَوجُودٍ ، وليسَ كما زعَمَ الفَلسَفِيُّ ؛ لأنَّهُ لا يُوجَدُ مِنَ الواحدِ إلَّا واحدٌ[١] ؛ بلِ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ هو مُوجِدٌ لموجوداتٍ غيرِ مُتناهيةٍ ، أَوجَدَها[٢] بمَشِيئاتٍ مُتعدِّدةٍ ، مُستَنِدَةٍ إلى الإرادةِ المتَّحِدَةِ .

والبُرهانُ الَّذي هو قَضِيَّةُ العقلِ الغَرِيزيِّ : به يستَنطَقُ علماءُ الأصولِ المُستَنِدةِ إلى الكتبِ المُنزَلةِ على الفلاسفةِ بالإدالةِ على البُرهانِ الخَلقيِّ ، لا على البُرهانِ الغَريزيِّ الَّذي هو للأَنبياءِ ، وهو العِيانُ المُدرَكُ بعلمِ اليقينِ وعينِ اليقينِ اللَّذينِ شَهِدَ لهما القرآنُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾[٣] .

وقولُ القائلينَ بالإيجابِ والإمكانِ نُقِضَ بعضُ القولِ بالبَعضِ ؛ لأنَّ الإيجابَ استَقرَّ بالإمكانِ ، فكأَنَّهم سلبُوا استِحقاقَ الإيجابيَّةِ بتَوقُّفِهِ على الإمكانِ ، فكلامُهُم هائلٌ ، ليسَ تحتَهُ طائلٌ ، ولا وجودَ لحقيقةِ[٤] الإيجابيَّةِ والإمكانيَّةِ ؛ إذْ كُلُّ مُوجِبٍ مُوجِدٌ ، وكُلُّ مُمكِنٍ باللهِ مُمكِنٌ ، فإذاً مَعدومٌ كُلِّ مُوجَبٌ ومُمكِنٌ في ذاتِه إلَّا بما أَوجبَهُ الحقُّ ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[٥] .

(١) في الأصلِ : (واحداً) .
(٢) في الأصلِ : (وجَدَها) .
(٣) سورة التكاثر : (٥ ـ ٧) .
(٤) في الأصلِ : (حقيقة) .
(٥) سورة القصص : (٨٨) .

فَصْلٌ

[في بيانِ طريقِ علمِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم]

اعلمْ : أنَّ الأَنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهِم امتَاحوا[1] مِنْ بحرِ الجُودِ الأَزليِّ مَواهِبَ انصبَّتْ عليهِم مِنْ غيرِ كَسْبٍ واجتِهادٍ وإعمالِ فكرٍ واشتغالِ جُهدٍ ؛ لِما وَهَبَ لهم واهِبُ الوُجودِ باستِعداداتٍ صَلُحَتْ أَوعِيةً لتلكَ المَواهبِ ، ففَتَحوا علىٰ قلوبِهِم أَبوابَ الغَيبِ ، فأَدرَكوا ببصائرِهِم مَنازِلَ الآخرةِ ؛ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، والبَعثِ والنُّشورِ ، ودارَيِ النَّعيمِ والعَذابِ المُقيمِ ، فانْزَوَتْ عُروقُ نُفوسِهِمُ المُتأَصِّلةُ في العالَمِ السُّفليِّ ، وجَذَبتهُمُ العِنايةُ الأَزليَّةُ إلى العالَمِ العُلويِّ ، وفتحَ عليهِم أَبوابَ التَّمَتُّعِ بلَذائذِ الأَكسابِ القَلبيَّةِ والقَالَبيَّةِ ، وأَنالَهمُ الأَرباحَ القَلبيَّةَ والرُّوحيَّةَ ، فأَحياهُم حياةً طيِّبةً ، يُغذِّيهِم بلَذائذِ المُسامَرةِ والمُناجاةِ ، ويُرَقِّيهِم بنُمُوِّ العلمِ فيهم أَعاليَ الدَّرَجاتِ ، الوُفودُ[2] الغَيبيَّةُ وارِدَةٌ عليهِم ، والعهودُ الأَوَّليَّةُ وافِيةٌ لهم ، وخَوارِقُ العاداتِ مِن كَشفِ القَدَرِ قارِعةٌ أَبوابَ قلوبِهِم .

رَوىٰ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ ، قالَ : سَمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهو يُحدِّثُ عن فَترةِ الوَحيِ ، فقالَ في حَديثِهِ : « فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي . . إِذْ سَمِعْتُ صَوتاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا ٱلْمَلَكُ ٱلَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْباً[3] ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي ، فَأَنْزَلَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ »[4] .

---

(١) أي : استَقوا . انظر « لسان العرب » (٢/٦٠٩) .

(٢) في الأصل : (الوقود) .

(٣) فجئثت : رعبت وخفت منه .

(٤) أخرجه البخاري (٤) ، ومسلم (١٦١) ، والآيات من سورة المدثر : (١ ـ ٥) .

ورُوي أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ ذهَبَ مِراراً كي يُردِّي نَفْسَهُ مِن شَواهقِ الجبلِ ؛ وذٰلكَ عندَ اصطِكاكِ أجرامِ عالمِ الغَيبِ والشَّهادةِ بفُتورِ مُولِّدٍ منها ؛ فكلَّما وافَىٰ ذُروةَ جَبلٍ كي يُلقِيَ نفسَهُ مِنهُ . . يَتبَدَّىٰ لهُ جبريلُ قائلاً : يا محمَّدُ ؛ إنَّكَ رَسولُ اللهِ حقّاً ، فيَسكُنُ لذٰلكَ جَأْشُهُ ، فإذا طالَتْ عليهِ فَترَةُ الوَحيِ . . عادَ لمثلِ ذٰلكَ ، فيَتبدَّىٰ جبريلُ قائلاً لهُ مثلَ ذٰلكَ[1] .

فما زالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُتردِّداً بينَ عالمَيِ الحِكمةِ والقُدرةِ ، والغَيبِ والشَّهادةِ ، حتَّىٰ توفَّرَتْ أَقسامُهُ مِنْ عالَمِ الغيبِ ، وتَضاءَلَت أَقسامُهُ مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ ، وصارَتْ بتسعةِ أعشارِهِ عندَ اللهِ ، وبعُشْرٍ مِنهُ[2] يُقيمُ رسومَ الدَّعوةِ ، حتَّى استقرَّ الدِّينُ قَرارَهُ ، واستَتَمَّ النَّقدُ عِيارَهُ ، فأَوحَى اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[3] ؛ لِما رُوِّينا عن عبدِ اللهِ الأنصاريِّ ، قالَ : أخبرَنا محمَّدُ بنُ أحمدَ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ اللهِ ، قالَ : أخبرَنا إبراهيمُ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ بنُ حُمَيدٍ ، قالَ : أخبرَنا سُويدُ بنُ هارونَ ، قالَ : أخبرَنا حمَّادُ بنُ سَلَمةَ ، عن عمَّارِ بنِ أبي عمَّارٍ ، قالَ : قرأَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . ﴾ الآيةَ[4] ، وعندَهُ يهوديٌّ ، فقالَ : لو نزلَتْ هٰذه الآيةُ علينا . . لاتَّخذنا يومَها عيداً ، فقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : فإنَّها نزلَتْ في يومِ عيدَيْنِ : يومِ جُمُعةٍ ، ويومِ عَرَفةَ[5] .

هٰكذا كانَتْ مِنْ مَواهبِ اللهِ في حقِّ رُسُلِهِ .

---

(١) هٰذا الموضعُ الَّذي ذكره المؤلِّف أخرجه البخاريُّ عقِبَ حديثِ (٦٩٨٢) مِن بلاغاتِ الزُّهْري .

(٢) هنا تنتهي الورقة (١٣٤) ، وتبدأ الورقة (١٣٨) .

(٣) سورة المائدة : (٣) .

(٤) سورة المائدة : (٣) .

(٥) أخرجه الترمِذي (٣٠٤٤) عن عبدِ بن حُميد بالسند المذكور .
وأخرَجه البخاريُّ (٤٥) ومسلم (٣٠١٧) مِن حديثِ سيدنا عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه .

لمْ تكنِ النُّبُوَّاتُ سَهلةَ الطَّرائقِ فتَقتَنِيَها الأَكسابُ ، وتَعتَنِيَها ذَوُو الأَحسابِ والأَنسابِ ، وتَستلِينَ أَوعارَها خُطَا الِاجتهادِ ، ويُلَبِّيَ دَعوتَها نِداءُ الِاستِنجادِ ؛ بلْ تَهجُمُ علىٰ قلوبِ الرُّسُلِ هُجومَ الطَّالِبِ الحَثيثِ ، وتُميِّزُ مِن دَاعي العَقلِ والهَوَى الطيِّبَ مِنَ الخبيثِ .

في السِّفْرِ الخامسِ مِنَ التَّوراةِ[١] كلِماتٌ فُسِّرت بالعربيَّةِ[٢] : (جاءَ اللهُ مِنْ سَيْناءَ ، وأَشرَقتْ بساعِيرَ ، واستَعلَنَ مِنْ جبالِ فَارَانَ) .

لمَّا كانَتِ الكتُبُ المُنزَلةُ تَراجِمَ غَيبتِهِ ، لا تحُلُّها إلَّا أَيدِي الفُهومِ النَّبويَّةِ . . جعَلَ نزولَها مجيءَ اللهِ ؛ يُريدُ : نزولَ التَّوراةِ علىٰ موسىٰ ، ونزولَ الإنجيلِ علىٰ عيسىٰ بسَاعِيرَ ؛ وهي بأَرضِ الخليلِ إبراهيمَ[٣] ، ونزولَ القرآنِ علىٰ محمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وجبالُ فاران : جبالُ مكَّةَ ، وهي الَّتي مُدَّتْ في غِراسِها أَطنابُ خِيامِ الوَحيِ المُنزَلِ ، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٤] .

رَبَتْ عَرْصةُ قَلبِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم علىٰ عَرْصةِ جبالِ فارَانَ ، وضَاقَتْ مِن أَن يَسَعَها جُيوشُ الوَحيِ المُنزَلِ ، ولٰكنَّ عَرْصةَ قلبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ اتَّسعَتْ حتَّىٰ أُدرِجَتْ فيهِ سبعةُ أَطباقِ السَّماواتِ ؛ فكلُّ سَماءٍ إلىٰ سَماءٍ كحَلْقةٍ بأَرضٍ فَلاةٍ ، والسَّماواتُ السَّبعُ في عَرْصةِ فِطرةِ محمَّدٍ

---

(١) ينظر « سفر التثنية » الإصحاح (٣٣) (٣) .

(٢) انظر في ذٰلك : « الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل » ، لابن حزم (١٠٩/١) ، و« الملل والنِّحَل » للشَّهرستاني (١٨/٢) ، و« معجم البلدان » لياقوت الحموي (٢٢٥/٤) ، و« رُوح المعاني » للآلوسي (١٢٣/١) و(٦٩/٤) .

(٣) في الأصلِ : (بسارعير) ، وساعير : هي بلدةٌ في الجهةِ المُحتلَّةِ مِن فِلسطينَ ، تقعُ في جنوبِ الضِّفةِ الغَربيَّةِ إلى الشَّمالِ مِن مدينةِ الخَليل ، وهي تابعةٌ لمُحافظةِ الخليلِ ، وتبعُدُ عنها (٨) كم ، وذكرها ياقوت في مادة (صيعير) من « معجم البلدان » (٤٣٨/٣) ، وانظر « بلادُنا فلسطين » لمصطفى الدَّبَّاغ ، بيروت (١٩٧٢ م) .

(٤) سورة الشعراء : (١٩٣ ـ ١٩٥) .

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كحَلْقَةٍ بأَرضٍ فَلاةٍ ؛ وهي العَرْصةُ الَّتي وقَف دونَها جِبريلُ ، وقالَ : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (١) .

والإشارةُ إلىٰ سَعةِ عَرْصةِ قَلبِ محمَّدٍ صلواتُ اللهِ عليهِ ليسَ هو مِنْ أنباءِ عالَمِ الغَيبِ والشَّهادةِ فيَتقيَّدَ بالأَقطارِ والجِهَاتِ ؛ إنَّما هو مِن أَنباءِ عالَمِ الغَيبِ ، فبَرَزَتْ عَرائسُ آثارِ الجَلالِ تَميسُ (٢) في حُلَلِ الكَمالِ ، فخَيَّمت في رَحائبِ قلوبِ المُرسَلين .

وقدْ وَرَدَ في بعضِ الكتُبِ المُنزَلةِ : « كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيّاً لا أُعْرَفُ ، فَخَلَقْتُ ٱلْخَلْقَ لِأَنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ » (٣) ، فتَعرَّفَ إلى الأَرواحِ القُدُسيَّةِ بوَصفِ جمالِهِ ولُطفِهِ ، وتَعرَّفَ إلىٰ إبليسَ (٤) بوَصفِ جَلالِهِ وقَهرِهِ ، وأبانَ للنَّفسِ (٥) الكُلَّ : مِنَ الرُّوحِ الأَعظمِ (٦) أَلهَمَ تَقواها ، وبالطَّرَفِ الَّذي يَلي إبليسَ أَلهَمَ فُجورَها .

وها هنا مُلتبَسُ نظَرِ الفلاسفَةِ حيثُ أَخطأَ النَّظرَ ، وقالوا : لها طَرَفٌ إلى الإمكانِ وطَرَفٌ إلى الإيجابِ ، وجَهِلوا سَبَبَ الفُرقانِ ، فما زالتِ النَّفسُ رَاكِبةً إلىٰ إبليسَ بطَرَفِها الَّذي يليهِ ، مُستمِدَّةً منهُ الفُجورَ ، سالكةً فِجاجَ القَهرِ إلىٰ منازِلِهِ ، وبِطَرَفِها الَّذي يلي الرُّوحَ الأعظَمَ تسلُكُ مَهْيَعَ (٧) اللُّطفِ إلىٰ أن تَصِلَ إلىٰ منازِلِهِ ، فبِالطَّرَفِ الَّذي يُستمَدُّ منهُ الفُجورُ اقتَبَسَتْ علوماً بُرهانيَّةً ، وآلَتُها : الرِّياضِيَّاتُ والطَّبيعيَّاتُ ، وبالطَّرَفِ الَّذي يلي الرُّوحَ الأعظَمَ اقتَبَسَت

(١) أورده الخَركوشي في : « شَرَفِ المُصطفىٰ » (٤/١٥٨) بنحوه ، والآية من سورة الصافات : (١٦٤) .
(٢) الميس : هو : ضربٌ من المشي في تَبختُرٍ وتَهادٍ . انظر « العين » (٧/٣٢٣) .
(٣) قال الزركشي في « اللآلئ المنثورة في الأحاديثِ المشهورة » (ص ١٣٦) (قال بعض الحُفَّاظ : ليس هـٰذا من كلام النبي ، ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف) .
(٤) في الأصلِ : (الإبليس) .
(٥) في الأصلِ : (النَّفس) .
(٦) هو الرُّوح الإنسانيُّ مُظهِرُ الذَّاتِ الإلـٰهيَّةِ مِن حيثُ ربوبيَّتُها . انظر « التَّعريفات » للشَّريف الجرجاني (ص ١١٢) .
(٧) المهيع : الطريقُ الواضحُ البيِّن . « الألفاظ » لابن السِّكِّيت (ص ٣٤٢) .

علوماً عِيانيَّةً مِنَ الأَنباءِ الغَيبيَّةِ ؛ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، والبعثِ والنُّشورِ ، والصِّراطِ والمِيزانِ .

ويدُ القُدرةِ الإلـٰهيَّةِ والإرادةِ الرَّبَّانيَّةِ فتَحَتْ أَوعيةَ ودَائعِ التَّعريفِ ، واختارَتْ لخَزنِ العِلمِ وعاءَ قَلبِ آدمَ ، فعُلِّمَ آدَمُ الأَسماءَ كُلَّها ، وأُلبِسَ خِلْعةَ الخِلافةِ ، فخِلعةُ الخِلافةِ واجتماعُ العلومِ في آدمَ توءمانِ يَجرِيانِ في أَطوارِ الكَونِ كفَرسَيْ رِهانٍ .

وتوَقَّلَ[1] الفَلاسفةُ ذُرَى الإِباءِ والِاستِعصاءِ عنِ الِانعِقادِ[2] ، واستَعلى الأَنبياءُ مَعاصِمَ الشَّرَفِ مِن تَوطُّنِ فَسِيحِ العِيانِ ، وخَزَنوا الكَلِمةَ العُليا مِنَ العِيانِ بِواضحِ البَيانِ ، والفلاسفةُ في يَهْمُوتِ[3] الكَلمةِ السُّفلىٰ مُذبذَبونَ في أَوديةِ البُرهانِ ، فاتَّضحَ إِدالةُ العِيانِ على البُرهانِ .

(١) التوقل : شدة القرب والمُداناة . انظر « الدلائل في غريب الحديث » للسرقسطي (١/١٤٤) .

(٢) في الأصل : (الانعقاد المرسلين) .

(٣) اليَهْمُوت : اسمٌ للحُوت الذي عليه الأرضُ . انظر « الكُلِّيَّات » (٩١٥) ، و« تاج العروس » (٥/١٥١) .

فَصْلٌ
مشتمل على سرّ خلافة الله آدم وشرفها

مِنْ قُدرةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وبدائعِهِ ما هو في كَوامِنِ الغَيبِ لَمْ يُبرَزْ إلىٰ أَحدٍ مِن خَلقِهِ ، حتَّى الأَنبياءِ ، ومنها ما أبرَزَهُ إليهم .

فمِمَّا أبرَزَهُ مِن أستارِ الغيبِ إلىٰ فَسيحِ صحراءِ الظُّهورِ : ما دلَّ علىٰ أنَّ مِنْ أَشرَفِ خَلقِهِ جِنسَ البَشَرِ ، وآيةُ ذٰلكَ : أنَّ اللهَ تعالى اختارَهُم لخِلافتِه عزَّ وجلَّ ، فإنْ خالَجَ سِرَّ أَحدٍ مِن أَهلِ العلمِ شَرَفُ المَلائكةِ علىٰ جِنسِ البَشَرِ . . تزيلُ عن وَهْمِهِ ذٰلكَ بتَخصِيصِ اللهِ إيَّاهُم للخِلافةِ دُونَهُم .

وقدْ وَرَدَ[1] أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ جَوهرةً[2] فنَظَرَ إليها فصَارَتْ ماءً ، وصَعِدَ مِنَ الماءِ بُخارٌ ، فكُوِّنَ مِن ذٰلكَ البُخارِ السَّماءُ ، وظَهَرَ علىٰ وجهِ الماءِ زُبدةٌ بيضاءُ ثمَّ جَمُدَتْ وتَصَلَّبَتْ ، ودُحِيَتِ الأَرضُ مِن تَحتِها ، فبُسِطَتِ الأرضُ على الماءِ مُستودَعةً شَرَفَ مَواقعِ نَظرِ اللهِ تعالىٰ ، وكانَ مَوضِعُ الكَعبةِ أوَّلَ المبدوءِ بهِ عندَ تكوينِ الأَرضِ ، فصارَتِ الأَرضُ جُملَتُها مُستَودَعَ سرِّ شَرَفِ مَواقعِ نَظَرِ اللهِ تعالىٰ[3] .

فلمَّا أرادَ اللهُ تعالىٰ خلقَ آدمَ أَبي البَشرِ . . بعَثَ جبريلَ ، وقالَ : خذْ قَبضَةً مِنْ أَسْوَدِها وأَبيضِها وأَحمرِها ، فاستعاذَتِ الأَرضُ ، وهٰكذا ميكائيلُ ، فبعَثَ اللهُ

---

(١) أورده الثَّعلبي في « الكَشفِ والبيان » (١٣٣/٤) قال : (قالَ وَهب : أوَّلُ ما خلقَ اللهُ مكاناً مُظلماً ، ثمَّ خلقَ جوهرةً فصارت ذٰلك المكان ، ثمَّ نظرَ إلى الجوهرةِ نظرَ الهيبة فصارَت ماءً ، فارتفعَ بُخارُها وزبَدُها ، فخلقَ مِنَ البُخارِ : السَّماواتِ ، ومِنَ الزّبدِ : الأَرضينَ) .

(٢) في الأصل : (جَوهراً) .

(٣) انظر « عرائسُ المجالس » للثَّعلبي (ص ٥) .

عِزرائيلَ ، فاستعاذَتِ الأَرضُ باللهِ ، فقالَ : وأَنا أَعوذُ باللهِ أن أَعصِيَ لهُ أمراً ، فقَبَضَ القَبضَةَ واستَردَّ مِنَ الأرضِ شَرَفَ مَواقعِ نَظرِ اللهِ تعالىٰ مُشتَمِلاً عليها القَبضَةَ المأخوذةَ ، فكُوِّنَ مِنْ تلكَ القَبضَةِ قالَبُ آدمَ ، وخُمِّرَ أربعينَ صَباحاً ، فتَخمَّرَ سِرُّ الخِلافةِ في الطِّينةِ ، فصارَتْ جُثَّةُ آدمَ مُلقاةً ببطنِ نَعمانَ ، فمسَحَ اللهُ ظَهرَ آدمَ بيدِهِ ، فسارَتِ الذَّرَّاتُ مِنْ جَسَدِ آدمَ كما يَسيلُ العَرَقُ بعَددِ كلِّ آدميٍّ ذَرَّةٌ ، فخَاطبَها الحقُّ بقولِهِ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[1] ، وكُتِبَ هٰذا العهدُ والميثاقُ في رَقٍّ أَبيضَ ، وأُلقِمَ الحَجرَ الأَسودَ ، ورُدَّتِ الذَّرَّاتُ إلىٰ جَسَدِ آدمَ حتَّىٰ برَزَتْ في تَعاقُبِ الدُّهورِ والأَعصارِ بالتَّناسُلِ والتَّوالدِ ، إلىٰ نَفخِ الصُّورِ[2] .

فبِالسِّرِّ المُودَعِ فيهِ جُعِلَ مَسجُودَ المَلائكةِ ، وعُلِّمَ آدمُ الأَسماءَ الَّتي انقسَمَتْ على الأَنبياءِ والمُرسَلِينَ وأَتباعِهِم .

واللهُ تعالىٰ خلقَ آدمَ علىٰ صُورتِهِ[3] ، والِاختلافُ في معنى الحديثِ كثيرٌ ، وعَرْصةُ التَّأويلِ [فسيحةٌ][4] ، وفصلُ الخطابِ بعدَ القولِ بأنَّ الِاستواءَ معلومٌ ، والكيفيَّةُ مجهولةٌ ، والإيمانُ بهِ واجبٌ ، والسُّؤالُ عنه بِدعةٌ[5] . . أنْ يُقالَ : أمَّا الذَّاتُ القديمُ الأزليُّ مَحمِيٌّ كَعبةُ جلالِهِ أنْ يطوفَ بهِ طائفُ تأويلٍ أَبداً[6] .

وأمَّا الصِّفاتُ السَّبعةُ الذَّاتيَّةُ رُكِّبَتْ في آدمَ ، فصارَ آدمُ مخلوقاً مِنْ تلكَ الصِّفاتِ ؛ فخَلقَ اللهُ آدمَ علىٰ صُورةِ صِفَتِهِ ، فبتلكَ[7] الصِّفاتِ الَّتي رُكِّبَتْ فيهِ استَحقَّ الخِلافةَ ؛ لأنَّها هي المُوجِبةُ للتَّسخيرِ والتَّمليكِ ، فانتَقَلَا إلى البشرِ مِنْ

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٢) انظر « عرائسُ المجالس » للثَّعلبي (٣٧) ، وما بعده .

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٤١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) في الأصل : (فسيح) .

(٥) أخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات » (٨٦٧ ، ٨٦٨) عن مالك بن أنسٍ ، وربيعة الرأي ، بنحوه .

(٦) أورد الإمام ابنُ فُورَك في « تأويل مُشكلِ الحديث » (ص ٢٢ ـ ٢٦) العديدَ من التَّفسيراتِ الوجيهةِ ، يَحسنُ بالقارئ الرُّجوعُ إليها والاستفادة منها .

(٧) في الأصل : (فتلك) .

آدمَ مَوروثاً ذٰلكَ ، ومَوهوباً مِنْ خَزائنِ الجُودِ الأَزليِّ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [١] .

فهٰذه بتكوينِ أَثَرِ سِرْبالَيِ الكَمالِ الأَزليِّ في الإنسانِ ؛ وهُما : الغَضَبُ والرِّضا مِن آثارِ الجمالِ والجَلالِ الأَزليِّ ، فالرِّضا مِن لُطفِ اللهِ ، ومنهُ دارُ السَّعادةِ ، وسُكَّانُها مِنَ المُرسَلِينَ وأَتباعِهِم ، وصِفةُ الغَضَبِ مِن آثارِ الجلالِ ، ومنهُ دارُ الأَشقياءِ ، والأَشقياءُ مِن سُكَّانِها ، وهمُ الَّذينَ لمْ يُجيبوا دعوةَ المُرسلِينَ ، قالَ اللهُ : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [٢] .

فانتقلَ سِرُّها بينَ الصِّفَتينِ إلى الخَليفةِ ، ورُكِّبَ [٣] فيهِ القوَّةُ الشَّهوانيَّةُ والغضَبيَّةُ ؛ الشَّهوانيةُ : لجَلبِ المنَافعِ ، والغَضَبيَّةُ : لدَفعِ المَضارِّ ، فلذٰلكَ أَصبحَ [٤] خَليفةَ اللهِ في الأَرضِ ؛ إذْ بهما [٥] انتَظَمَتْ أمورُ عالَمِ الشَّهادةِ .

والملائكةُ بمَعزِلٍ عن هٰذا الشَّرَفِ ؛ لأنَّ هٰذا الشَّرَفَ حصَلَ باجتماعِ المُتضادَّينِ مِنَ القُوَّتَينِ في الآدَميِّ مُحاكِيَتَينِ لصِفَتَيِ الكَمالِ الأزليِّ ، فالملائكةُ إمَّا بصفةِ اللُّطفِ بِلَا قَهرٍ ، وإمَّا بصِفةِ القَهرِ بِلَا لُطفٍ ، وذٰلكَ النُّقصانُ يَحكُمُ بِتَخلُّفِهم عن شَأوِ الإنسانِ .

ثمَّ إنَّ الخلافةَ سِرُّها توزَّعَ [٦] علىٰ جَوهرِ النُّبوَّةِ ، وانقسَمَ على المُرسَلِينَ ، حتَّى اجتَمعَتْ [٧] كُلِّيَّةُ سِرِّ الخِلافةِ في نبيِّ آخرِ الزَّمانِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

---

(١) سورة الإسراء : (٧٠) .
(٢) سورة قٓ : (١٤) .
(٣) في الأصلِ : (وركبه) .
(٤) كلمة (أصبح) زيادةٌ يقتضيها السِّياقُ .
(٥) في الأصلِ : (إذ هما) .
(٦) في الأصل : (توزَّعت) .
(٧) في الأصل : (اجتمَع) .

ثـمَّ وَرِثَ الخِلافةَ إمامٌ بعدَ إمامٍ ، فانتهَى الزَّمانُ إلىٰ ظُهورِ طَلائعِ الدَّولةِ العبَّاسيَّةِ ، فورِثَ الخِلافةَ كابرٌ عن كابرٍ ، وإمامٌ عن إمامٍ ؛ حتَّى انتهى الأمرُ إلى الإمامِ النَّاصرِ لدِينِ اللهِ[1] .

وممَّا وُجِدَ في زَمانِه لقَمعِ الفلاسفةِ وقَهرِها وإعلاءِ كَلمةِ الدِّينِ وقَمعِ كَلمَتِهمِ السُّفلَىٰ : أنَّه أَمرَ بنَارٍ أُجِّجَت في الرَّحْبةِ الشَّريفةِ ، وتقدَّمَ إلىٰ شخصٍ يُسمَّى : ابنَ المارِسْتانيَّة[2] ، فجلَسَ علىٰ كرسيٍّ ، فجَمَعَ كتُباً كثيرةً مِن زَخارفِ الفلاسفةِ وأَباطِيلِهم ، وصارَ يَفتحُ المُجلَّدةَ ويعلَمُ أنَّها مِنْ كَلامِ الفَلاسفةِ فيُلقِيهِ في النَّارِ ، وكانَ هٰذا قَريباً مِنْ أَوائلِ زَمانِهِ .

وفي آخرِ زمانِه بَرَزَ الإذنُ الشَّريفُ والتَّقدُّمُ إلىٰ هٰذا الفَقيرِ بغَسْلِ كِتابِ « الشِّفا » لابنِ سِينا ، عشْرِ مجلَّداتٍ ، فغَسلتُها بتوفيقِ اللهِ وإذنِ الإمامِ المُفترَضِ الطَّاعةِ علىٰ سائرِ الأَنامِ .

ثمَّ انتَهى الأَمرُ إلى الإمامِ الظَّاهرِ[3] ، فلَمَعَ بَرْقُ دَولتِهِ مِن مَطالِعِ الشَّرَفِ الأَعلَىٰ ، وكانَ بالخِلافةِ[4] أَحقَّ وأَولَىٰ ، أَخْلَدَ إلىٰ بَذْلِ الأَموالِ ، وسَلَكَ مسالكَ

---

(١) هو أحمد بن المُستضيء الحسن بن المُستنجد يوسف بن المُستظهر محمد ، أبو العبَّاس ، النَّاصر لدين الله العبَّاسيُّ الهاشميُّ (ت ٦٢٢ هـ) ، خليفة عبَّاسيٌّ ، بُويع بالخلافة بعد موتِ أبيه ، وطالت أيَّامه حتىٰ قال فيه ابن تَغْري بَرْدِي : (ليس لذكره محلٌّ في تاريخنا هٰذا ؛ لأنَّ وفاته قبل الخمسين وست مئة ، وما ذكرناه هنا إلَّا لغريبة ؛ وهو أنه أقام في الخلافة مدَّةً طويلةً نَحْواً من سبع وأربعين سنةً ، ولم نعلم أحداً مِن خُلفاء بني العباس أقام هٰذه المدَّة الطَّويلة غيرَه) . « المنهلُ الصَّافي والمستوفي بعد الوافي » (٢٧٩/١) انظر « التكملة لوفيات النقلة » (١٦٠/٣ ـ ١٦١) مع حواشي الترجمة في المصدرين .

(٢) هو عبيد الله بن علي بن نصر بن حُمْرة ـ بضم الحاء وسكون الميم المخففة ـ أبو بكرٍ ، فخر الدِّينِ ، المعروفُ بابنِ المارستانية (ت ٥٩٩ هـ) ، الفقيهُ الحنبليُّ الطَّبيبُ الأديبُ المُحدِّثُ المُؤرِّخُ ، مِن أهلِ بغدادَ ، تولَّى النَّظرَ بالبيمارستان العَضُدي ، وقرأ كثيراً مِن علمِ الطِّبِّ والمنطقِ والفلسفةِ والنُّجومِ ، ترجمه ابنُ النَّجَّار في « ذيل تاريخ بغداد » (٥٩٥/٢ ـ ٥٩٩) ، والذَّهبيُّ في « تاريخ الإسلام » (١١٧٢/١٢) .

(٣) في الأصل : (الطَّاهر) ، وهو تصحيفٌ ؛ فهو ابنُ الخليفةِ النَّاصرِ المذكور آنفاً ، واسمُه محمَّد ، تُوفي سنة (٦٢٣ هـ) انظر « التكملة لوفيات النقلة » (١٨٢/٣ ـ ١٨٣) مع حواشي الترجمة .

(٤) في الأصل : (الخلافة) .

سَنيِّ الأَحوالِ ، وأَدنَى الفُقراءَ وأَهلَ التَّقوىٰ وأَهلَ العلمِ مِنْ سُدَّتِهِ ، ولمْ يجملْ مِنْ عدَّتِه ، واعتمَدَ مِن سُهولةِ الأَخلاقِ والشِّيَمِ ما لمْ يُؤرَّخْ في سَالفِ الأُمَمِ [1] ، وأَودَعَ القلوبَ أَوجاعاً بسُرعةِ انتهاءِ زمانِهِ ، وتَصرُّمِ رَبيعِ أَوانِهِ ، وتَقلُّصِ البَهجةِ والسُّرورِ ، وتراكَمَتْ [2] حَنادِسُ الدَّيجورِ [3] .

حتَّىٰ جَبرَ اللهُ مُصابَ الخَلائقِ ، فاستقرَّ صُبحُ سَعادةِ الدَّولةِ المُستنصِريَّةِ خَليفةِ اللهِ في أَرضِهِ ، مولانا الإِمامِ أَبي جَعفرِ المنصورِ أَميرِ المؤمنينَ [4] ، ونشَر طاووسُ دَولتِه جناحَيِ العَدلِ والفَضلِ ، وحَصَّنَ بحُسنِ سياستِهِ الجَبلَ والسَّهلَ ، وأَروَىٰ بِصَيِّبِ إِنعامِهِ الأَغْوارَ والنُّجودَ ، وعطَّرَ بعَرْفِ نَائلِهِ وَجُودِهِ الوجودَ ، رَفَعَ المُكوسَ ، وخَلَع ونَضا عنِ الرَّعايا لباسَ البُوسِ ، وقرَّرَ الحقوقَ مَقَارَّها ، ومنَح القلوبَ مَبارَّها ومَسَارَّها [5] ، ورَدَّ الوقوفَ إلىٰ شَرطِ واقفِها ، ورَدَّ الأَملاكَ إلىٰ أَصحابِها ، يُسَنَّىٰ ما فيها ، فالأَموالُ عندَهُ مُحتقَرةٌ ، والمِنَحُ عندَهُ مُختصَرةٌ ، حتَّى انطلَقَتْ مِن غنائمِ الأَيسارِ عَزاليها ، ومِنْ خَزائنِ الأَموالِ لآلِيها ، وتبدَّلَتْ بأَضواءِ النَّهارِ مِنَ الدُّهورِ والأَعصارِ لَيالِيها ، فأَقبلَتِ الدَّولةُ المُستَنصرِيَّةُ بخَشخَشَتِها وكَلكلَتِها تَختالُ في حُلَلِ الفَخارِ ، فهي طِرازٌ لِقَشيبِ الدُّهورِ والأَعصارِ ، فمَجِيئُها مَجِيءُ رحمةِ اللهِ ، وظُهورُها ظُهورُ آياتِ اللهِ ، فكُلُّ رَحمةٍ إلـٰهيَّةٍ إذا برزَتْ مِن حِجالِ جَلالِ الأَزلِ . . فهي مَجِيءُ اللهِ إلىٰ خَلقِهِ بوَصفٍ مِن أَوصافِ الجمالِ .

فلَا زالت مَواهِبُ اللهِ الجِسامُ ، ومِنَنُهُ العِظامُ ، بتَجلُّلِ [6] الدُّهورِ والأَعصارِ ،

---

(١) هنا تنتهي الورقة (١٣٨) ، وتبدأ الورقة (١٣٧) .

(٢) في الأصل : (وتركمت) .

(٣) الدَّيجور : الظُّلمة الشَّديدةُ والمُتراكمةُ . والحنادسُ : جمع الحِندِس بالكَسر ؛ وهو اللَّيلُ البَهيمُ المُظلِم ، وقد جاء في « الصِّحَاح » : (اللَّيلُ الشَّديدُ الظُّلمة ، ومنه الحَدِيث : « فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ حِنْدِسٍ » أي : شديدةِ الظُّلمة) . « تاج العروس » (١٥/٥٦١ ـ ٥٦٢) .

(٤) توفي سنة (٦٤٠ هـ) . انظر « التكملة لوفيات النقلة » (٣/٦٠٧) مع الحواشي .

(٥) في الأصل : (مبارَّها مسارَّها) .

(٦) كذا في الأصلِ ولعلَّها : (بتجدُّدِ) .

تَسري بها رَكائبُ الأَسرارِ ، حتَّىٰ أَناخَتْ بفِناءِ هٰذه الدَّولةِ المُستَنصِريَّةِ ، الَّتي ظَهَرَتْ[1] إجابةَ دُعاءِ إبراهيمَ الخَليلِ عليهِ السَّلامُ ، حيثُ سألَ لوَلدِهِ إسماعيلَ لمَّا فَرَغَ مِن بناءِ البيتِ ؛ فقالَ : ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ ، سألَ ذٰلكَ لوَلدِ إسماعيلَ بدليلِ قولِهِ : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[2] .

فانتِسابُ العَربِ إلىٰ إسماعيلَ ، وانتِسابُ بني إسرائيلَ إلىٰ إسحاقَ ، وهو عِبرانيُّ اللِّسانِ ، ففي بني إسرائيلَ الجِدُّ والاِجتهادُ ، وفي ولَدِ إسماعيلَ الأَخلاقُ الزَّكيَّةُ ، فبَنو إسحاقَ شاكَلوا المُتعبِّدِينَ باجتهادِهِم ، وبنو إسماعيلَ شاكَلوا العارِفينَ والصُّوفيَّةَ بأَحوالِهِم ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَىٰ أَعْمَالِكُمْ ، وَلَـٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ »[3] .

فنظرُ اللهِ تعالىٰ إلى النَّفوسِ الزَّكيَّةِ والقلوبِ الطَّاهِرةِ مَعدِنِ الأَحوالِ ، لا إلىٰ ظَواهرِ الأَعمالِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ لعَليِّ بنِ أبي طالبٍ : « إِذَا تَقَرَّبَ ٱلْمُتَقَرِّبُونَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَىٰ بِٱلْعَمَلِ . . تَقَرَّبْ إِلَى ٱللهِ بِٱلْعَقْلِ تَسْبِقْهُمْ »[4] ؛ وذٰلكَ أنَّ العَقلَ يَغلِبُ الهَوىٰ ، ومِنَ الهَوى : الأَخلاقُ الرَّدِيَّةُ .

والهَوى المُتَّبعُ دُخَانُ نارِ النَّفْسِ ، وفضائلُ الرِّجالِ تَظهَرُ في عُلُوِّ الأَحوالِ ، لا في صُورةِ الأَعمالِ ، ولذٰلكَ سِرُّ الفُتوَّةِ ظَهَرَ في أَميرِ المؤمنينَ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وَجهَهُ ، وهي مُشتملةٌ على الأَخلاقِ الزَّكيَّةِ والشِّيَمِ الطَّاهِرةِ والأَوصافِ المحمودةِ ؛ فالأَعمالُ قدْ تكونُ مِن طَريقِ العادةِ ، ولا تكونُ الأَخلاقُ إلَّا غَريزةً .

فبنو إسرائيلَ جَدُّوا واجتَهدوا ، والجِدُّ والاِجتهادُ مِنْ خزائنِ الحِكمةِ مَشُوبٌ

---

(١) في الأصل : (ظهر) .

(٢) سورة البقرة : (١٢٨ ـ ١٢٩) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث سيدنا أبي هُريرة رضي الله عنه ، بلفظ : « إِنَّ اللهَ لَا يَنظُرُ إِلىٰ صُوَرِكُم وَأَموَالِكُم ، وَلَـٰكِن يَنظُرُ إِلىٰ قُلُوبِكُم وَأَعمَالِكُم » .

(٤) أخرجه ابنُ شاهين في « التَّرغيب في فضائل الأعمال » (٢٥٦) وأبو نُعيم في « حلية الأولياء » (١/١٨) .

بكَسْبِ العَبدِ ، وبنو إسماعيلَ [١] خُصُّوا بالأَخلاقِ ، والأَخلاقُ مِن خزائنِ الفَضلِ والمِنَّةِ ، والحِكمةُ مِنَ العَدلِ ؛ وهي إقامةُ وظيفةِ الجلالِ الأزليّ ، ومنها تكوَّنتِ النَّارُ ، والمِنَّةُ والفضلُ مِنْ وظيفةِ الجَمالِ الأَزَليّ ، ومنها تكوَّنَتِ الجنَّةُ وأَزهَرَتْ أَشجارُها وتَزخرَفَت قُصورُها .

ولمَّا خُصَّ بنو إسرائيلَ بما هو مِنْ خزائنِ الحِكمةِ ووظيفةِ الجَلالِ . . اختصَّتْ بلادُهُم بالصَّخرةِ مِنْ بيتِ المَقدسِ ، وهي أَرضُ المَحشَرِ ، وفيها تَظهَرُ آياتُ السَّطوةِ الإلـٰهيَّةِ .

ولمَّا خُصَّ بنو إسماعيلَ [١] بما هو مِن خزائنِ الفَضلِ والمِنَّةِ . . جُعِلَ في بلادِهِم الحجرُ الأسودُ الَّذي هو يَمِينُ اللهِ [٢] ، وهو مُستَودَعُ الميثاقِ ، وفيهِ آثارُ الرَّحمةِ [٣] الإلـٰهيَّةِ ، وانجِذابُ البواطنِ إليهِ وإلى استِلامِه ، عاماً بعدَ عامٍ .

فالمُتعبِّدونَ شاكَلوا بني إسرائيلَ ، والصُّوفيَّةُ شاكَلوا ولدَ إسماعيلَ ؛ فالمتعبِّدونَ جَدُّوا واجتَهدوا فِراراً مِنَ النَّارِ ، والزَّاهِدونَ رَفَضُوا الفانيَ رَغبةً في دارِ القَرارِ ، والصُّوفيَّةُ زَهِدوا في الجميعِ إيثاراً لقُربِ المَلِكِ الجبَّارِ .

فبَانَ أنَّ الأَخلاقَ أَفضلُ مِنَ الأَعمالِ .

مكتوبٌ في السِّفرِ الأوَّلِ مِنَ التَّوراةِ كَلماتٌ فُسِّرَتْ بالعَربيَّةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ بَشَّرَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّهُ سيُكثِّرُ إسماعيلَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِما ؛ يقولُ لإبراهيمَ : قدْ سَمعْتُ دُعاءَكَ في إسماعيلَ ، وإنِّي سأُبارِكُهُ وأُكثِّرُهُ بمُحمَّدٍ عليهِ

---

(١) في الأصل : (إسرائيل) ، وهو سبق قلم .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٨٩١٩) والأزرقي في « أخبار مكة » (٣٢٣/١) ، من قول ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن عدي في « الكامل » (١٨٦/٢) ، وأبو الشيخ في « طبقات المحدثين بأصبهان » (٣٦٥/٢) ، والخطيب البغدادي في « التاريخ » (٣٣٨/٧) من حديث سيدنا جابرٍ رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) في الأصلِ : (رحمة) .

الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وسأَجعَلُهُ بحِزبٍ عَظيمٍ ، وهُو الحِزبُ الَّذي نَطَقَ بهِ القرآنُ وقالَ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًۢا ﴾[1] ، فسَرَتْ بِشارةُ اللهِ لإبراهيمَ .

وفي السِّفرِ الأوَّلِ : لمَّا هَرَبَتْ هاجَرُ مِنْ سَارةَ . . أَتاها مَلَكٌ مِنَ اللهِ وقالَ : يا هاجَرُ أَمَةَ سَارةَ ؛ ارجِعي إلىٰ سيِّدتِكِ فاخضَعِي لها ؛ فإنِّي سأُكثِّرُ ذُرِّيَّتَكِ وزَرْعَكِ حتَّىٰ لا تُحصَىٰ كَثرَةً ، وتَلِدِينَ ابناً وتُسمِّينَهُ : إسماعيلَ ؛ لأنَّ اللهَ قدْ سَمِعَ خُضوعَكِ ، وتكونُ يدُهُ فوقَ الجميعِ ، ويَدُ الجميعِ مبسوطةٌ إليهِ بالخُضوعِ .

فخاضَ العلماءُ في بحرِ التَّدبُّرِ في هٰذا المنزَلِ في التَّوراةِ ، فتَبيَّنَ أنَّهُ أرادَ بهِ رسولَ اللهِ محمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ الَّذي امتدَّتْ إليهِ الأَيدِي بالخُضوعِ ؛ لأنَّ المُلكَ قبلَ بِعثتِهِ كانَ في بَني إسحاقَ ، فلمَّا بُعِثَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . انقلبَ المُلكُ والنُّبوَّةُ إليهِ ، فصارَتْ[2] يدُهُ فوقَ الأَيدِي ، والأَيدِي ممتَدَّةً إليهِ بالخُضوعِ ، فدَانَتْ لهُ المُلوكُ[3] ، وخضَعَتْ لهُ الأُمَمُ ، وصارَ ذٰلكَ مِيراثاً لخُلفائِهِ الرَّاشدينَ ، ممتدَّ الأَيدِي بالخُضوعِ إلىٰ سُدَّةِ الخِلافةِ .

أخبرَنا الشَّيخُ أبو زكريَّا يحيى بنُ عبدِ الوهَّابِ ، قالَ : أخبرَنا أبو عليٍّ الحَسنُ المُقرئُ ، قالَ : أخبرَنا أبو الحَسنِ أحمدُ بنُ إبراهيمَ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ جعفرُ بنُ إدريسَ القَزوينيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو اللَّيثِ[4] عبدُ اللهِ بنُ عُمرَ بن الحَكَمِ[5] البَغداديُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو القاسمِ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ عامرٍ[6]

---

(١) سورة الفتح : (٢٨ ـ ٢٩) .
(٢) في الأصلِ : (فصار) .
(٣) في الأصل : (الملك) .
(٤) في « تاريخ الخطيب » (١٠/٢٨) : (أبو الطيب) .
(٥) في الأصل : (الحكيم) ، وهو خطأٌ ، والتصحيح من « تاريخ الخطيبِ » (١٠/٢٨) .
(٦) في الأصلِ : (عاصم) ، وهو خطأ ، والتصحيح من « تاريخ الخطيب » (١٠/٢٨) .

الطَّائيُّ ، قالَ : حدَّثني أبي أحمدُ بنُ عامرٍ ، بِسُرَّ مَنْ رأىٰ[1] ، في اليومِ الَّذي ماتَ فيهِ [الحسنُ بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ موسى الرضا ، قالَ : حدَّثنا][2] أبو الحَسنِ عليُّ بنُ موسى الرِّضا ، قالَ : حدَّثني أبي موسىٰ ، عن أبيهِ جعفرٍ ، عن أبيهِ محمَّدٍ ، عن أبيهِ عليٍّ ، عن أبيهِ الحُسينِ ، عن أبيهِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهم ، قالَ : قالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هَبَطَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ أَسْوَدُ وَعِمَامَةٌ سَوْدَاءُ ، قُلْتُ : مَا هَـٰذِهِ ٱلصُّورَةُ ٱلَّتِي لَمْ أَرَكَ هَبَطْتَ عَلَيَّ فِيهَا قَطُّ ؟ قَالَ : هَـٰذِهِ صُورَةُ ٱلْمُلُوكِ مِنْ وَلَدِ عَبَّاسٍ عَمِّكَ ، قُلْتُ : وَهُمْ عَلَى ٱلْحَقِّ ؟ قَالَ جِبْرِيلُ : نَعَمْ » ، قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِلْعَبَّاسِ[3] وَوَلَدِهِ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا » ، ثمَّ قالَ جبريلُ : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِكَ زَمَانٌ يُعِزُّ ٱللهُ تَعَالَى ٱلْإِسْلَامَ بِهَـٰذَا ٱلسَّوادِ ، قُلْتُ : رِئَاسَتُهُمْ مِمَّنْ ؟ قَالَ : مِنْ وَلَدِ ٱلْعَبَّاسِ ، قَالَ : قُلْتُ : وَأَتْبَاعُهُمْ ؟ قَالَ : مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ ، قُلْتُ : وَأَيَّ شَيْءٍ يَمْلِكُونَ وَلَدُ ٱلْعَبَّاسِ ؟ قَالَ : يَمْلِكُونَ ٱلْأَصْفَرَ وَٱلْأَخْضَرَ ، وَٱلْحجرَ وَٱلْمدَرَ ، وَٱلسَّرِيرَ وَٱلْمِنْبَرَ ، وَٱلدُّنْيَا إِلَى ٱلْمَحْشَرِ »[4] .

وقدْ ظهَر بحَمدِ اللهِ تعالىٰ آثارُ ذٰلكَ في هٰذه الأيَّامِ الزَّاهِرةِ ، لا زالَ ظاهِراً بُرهانُها ، غَالباً سُلطانُها ، بمُحمَّدٍ النَّبيِّ وآلِهِ الطَّاهِرينَ .

* * *

---

(١) يعني : سامُرَّاء ، بلدةٌ بالعراقِ معروفةٌ ، وفي أصلِ تسميتِها قصَّةٌ . انظر « معجم البلدان » (٣/١٧٤) .

(٢) ما بين معقوفين زيادة من « تاريخ دمشق » (٢٦/٣٥٢) .

(٣) في الأصل : (العبَّاس) .

(٤) أخرجه الخطيبُ في « تاريخ مدينة السَّلام » (١١/٢٠٥) ، ومن طريقه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/٣٥٢ ـ ٣٥٣) ، من طريقِ أبي الحسَن أحمد بن إبراهيم . . . به .
وانظر « اللآلىء المَصنوعة في الأحاديثِ الموضوعَة » (١/٣٩٤) .

فَصْلٌ

[في تآلُفِ الأهواءِ والأرواحِ بين الصوفيةِ والروحِ المقدَّسِ النبويِّ ، وفي سندِ الصوفيةِ]

وحيثُ أَنعَمَ اللهُ تعالىٰ علىٰ طائفةِ الصُّوفيَّةِ ، ووفَّرَ حظَّهُم مِنَ العلمِ ، وجَمَع لهُم بينَ عِلمِ الدِّرايةِ والوراثةِ ، وهُما عِلْمَا [١] الشَّريعةِ والحقيقةِ . . فلذٰلكَ وفرَ حَظُّهُم مِنْ وَلاءِ الإمامِ ، المُفترَضِ الطَّاعةَ علىٰ كافَّةِ الأَنامِ ؛ لمُناسبةٍ وقَعَتْ في أَصلِ الطِّينةِ الَّتي أثمَرتِ الصَّفاءَ الَّذي لهُ مَزِيدُ اختِصَاصٍ بالخِلافةِ ؛ لقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ٱلْأَصْفِيَاءَ » [٢] .

وللصُّوفيَّةِ حظٌّ وافرٌ مِنَ الصَّفاءِ ، فظَهَرَ لذٰلكَ تآلُفُ الأَهواءِ والأَرواحِ [٣] ؛ بينَ أَرواحِ الصُّوفيَّةِ والرُّوحِ المُقدَّسِ النَّبويِّ الإماميِّ ، فسِيرةُ الصُّوفيَّةِ بحُسنِها تَقرُبُ بالمُناسَبةِ بسِيرةِ الإمامِ الَّتي بها يَسُوسُ البِلادَ والعِبادَ .

وصُورتُهم اللُّبسَةُ الظَّاهِرةُ ، وهي تَستَنِدُ إلى البُرْدةِ الشَّريفةِ ، الَّتي هي مِيراثُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ الإمامِ المُفترَضِ الطَّاعةِ على الأَنامِ ، وقالَ الشَّاعرُ : [من الطويل]

كَأَنَّ رَسُولَ ٱللهِ أَلْقَىٰ رِدَاءَهُ ... مِنَ ٱلْقَائِمِ ٱلْهَادِي عَلَىٰ جَبَلٍ رَاسِ [٤]

فلِمَولانا أَميرِ المؤمنينَ وِلايةُ إلباسِ الخِرقةِ المُنتسِبةِ إلى البُردَةِ الشَّريفةِ ، وَوِلَايةُ إِلباسِ اللِّباسِ المُنتَسِبِ إلىٰ أَميرِ المؤمِنينَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ مِن أَتباعِهِ

---

(١) في الأصل : (علماء) .

(٢) أخرجه الرَّافعي في « التَّدوين في أخبارِ قزوين » (٥/٢) من حديثِ سيدنا ابن عبَّاس رضي الله عنهما ، بلفظ : « إنَّ مِن ذُرِّيَّتِكَ الأَصْفِيَاءَ » .

(٣) في الأصلِ : (الأرواح) .

(٤) في الأصل : (علىٰ جبل هادي) وصححت في الحاشية إلىٰ : (راس) .

الصُّوفيَّةِ ، والفِئتانِ بالخِلافةِ المُعظَّمةِ دَفترٌ جامعٌ للأَحوالِ والأَعمالِ والأَخلاقِ ، والتَّصوُّفُ جُزءٌ في ذٰلكَ الدَّفْترِ .

والتَّصوُّفُ دَفترٌ ، والفُتوَّةُ جزءٌ في ذٰلكَ الدَّفترِ .

وأَصلُ اللُّبستَيْنِ : الصُّحبةُ ؛ فأميرُ المؤمنينَ صَحِبَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ، والحسنُ البصريُّ صَحِبَ أَميرَ المؤمنينَ عليّاً[1] ، وحبيبٌ العجَميُّ صَحِبَ الحسَنَ البَصريَّ ، ودَاوودُ الطَّائيُّ صَحِبَ حبيباً[2] العَجَميَّ ، ومعروفٌ الكَرْخيُّ صحِبَ داوودَ الطَّائيَّ ، والمعروفُ الكَرْخيُّ أيضاً صَحِبَ عَليّاً الرِّضا ، وهو صَحِبَ أَباه مُوسى الكَاظِمَ ، وهو صَحِبَ أباهُ جعفراً[3] الصَّادِقَ ، وهو صَحِبَ أباهُ محمَّداً البَاقرَ ، وهو صَحِبَ أباهُ زينَ العابدينَ عَليّاً ، وهو صَحِبَ أباهُ الحُسينَ الشَّهيدَ رضيَ اللهُ عنهم ، وهو صَحِبَ جَدَّهُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

وسَرِيٌّ السَّقَطيُّ صَحِبَ معروفاً الكَرْخيَّ ، وأبو القاسمِ الجُنَيدُ صَحِبَ[4] سَرِيّاً[5] السَّقَطيَّ ، وأبو محمَّدٍ رُويْمٌ صَحِبَ أبا القاسِمِ الجُنيدَ ، وأبو عبدِ اللهِ بنُ خَفيفٍ صَحِبَ أبا محمَّدٍ رُويْماً[6] ، وأبو العبَّاسِ النَّهاوَنْديُّ[7] صَحِبَ أبا عبدِ اللهِ بنَ خفيفٍ ، وأخِي فَرجٌ الزَّنْجانيُّ صَحِبَ أبا العبَّاسِ النَّهاوَنْديَّ ، وعمرُ بنُ محمَّدٍ السُّهرَوَرديُّ[8] صَحِبَ أَخِي فَرَجاً[9] الزَّنْجانيَّ ، وعبدُ القاهرِ

---

(١) في سماع الحسن البصري من علي بن أبي طالب خلافٌ كبير ؛ ينظر له « المناهل السلسلة » للكنوي (ص ٣٦١ ـ ٣٦٣) .

(٢) في الأصل : (حبيب) .

(٣) في الأصل : (جعفر) .

(٤) كلمة (صحب) : زيادةٌ يقتضيها السِّياقُ .

(٥) في الأصل : (سري) .

(٦) في الأصل : (رويم) .

(٧) هنا تنتهي الورقة (١٣٧) ، وتبدأ الورقة (١٣٥) .

(٨) هو عم والد المؤلف (ت ٥٣٢ هـ) . انظر ترجمته في « الأنساب » (٣٠٦/٧ ـ ٣٠٧) ، و« تاريخ الإسلام » (٥٧٦/١١) .

(٩) في الأصل : (فرج) .

السُّهرَوَرديُّ صَحِبَ عمَّه عُمرَ بنَ محمَّدٍ السُّهرَوَرديَّ ، والعبدُ عمرُ بنُ محمَّدٍ [1] صَحِبَ عمَّه عبدَ القاهرِ .

واللهُ تعالىٰ يُعِيدُ برَكةَ الصِّدِّيقِينَ والصَّادِقينَ مِنَ المشايخِ والمُريدِينَ ، على السُّدَّةِ الشَّريفةِ النَّبَويَّةِ المُستَنصِريَّةِ عَمَّمَ اللهُ إحسانَها ، وأَنارَ بُرهانَها ؛ بمُحمَّدٍ وآلِه وأصحابِه .

* * *

(١) يعني المصنِّفُ نفسَهُ .

فَصْل
في وجه المناسبة بين الخلافة الشريفة والتصوّف

الخِلافةُ المُعظَّمةُ نِيابةُ اللهِ في الأرضِ ، ولمْ تَكُنِ النِّيابةُ لحاجةِ اللهِ تعالىٰ إلى النَّائبِ لموضعِ ضَعفِ المُستَخلَفِ عليهِ ؛ لأنَّ الخلقَ حيثُ عجَزوا عنِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالىٰ والقولِ معَهُ والسَّماعِ منهُ في أمورِهِم وحوائجِهِم . . أقامَ الحقُّ لهم واسِطةً بشَراً مِن جِنسِهِم ، يَنوبُ الحقَّ فيهِم ، وهٰذا كما أنَّ اللهَ تعالىٰ بِخَفِيِّ قُدرتِهِ ولَطيفِ حِكمتِهِ جَعلَ الطَّعامَ غِذاءَ الجَسَدِ يَتربَّىٰ ويَتقوَّىٰ ، ولا مُناسبةَ بينَ الدَّمِ المُكوَّنِ مِنَ الطَّعامِ معَ لَطافتِهِ والعَظْمِ وكَثافتِهِ ، وجَعلَ الحقُّ سبحانه بحِكمتِهِ الغَضاريفَ واسِطةً بينَ الدَّمِ والعَظمِ لمُناسبَتِها إلى العَظْمِ بنَوعِ كثافةٍ ، وإلى اللَّحمِ والدَّمِ بنَوعِ رِقَّةٍ ولَطافةٍ لِيَصِلَ إلى العَظْمِ نَصِيبُهُ مِنَ الغِذاءِ ، وهٰكذا جَعَلَ الإمامَ واسِطةً بينَهُ وبينَ الخلقِ .

والصُّوفيُّ إذا انتهىٰ في سَيْرِهِ وسُلوكِه إلىٰ رُتبةِ المَشيخةِ . . يصيرُ أيضاً واسطةً بينَ الله تعالىٰ وبينَ المُريدِ الصَّادقِ .

والإمامُ واسطةٌ على الإطلاقِ ، والصُّوفيُّ واسطةٌ بالنِّسبةِ إلى المُريدِ الصَّادقِ ، فحَصَلتِ المناسَبةُ مِن هٰذا الوَجهِ .

ودليلُ أنَّ أمرَ الإمامِ مِن أمرِ الإلٰهِ ، وحُكمَهُ مِن حُكمِ اللهِ : ما أخبرني عمِّي شيخُ الإسلامِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهرِ السُّهرَورديُّ إجازةً ، قالَ : أخبرَنا فَخرُ الأئمَّةِ عبدُ الجبَّارِ بنُ محمَّدٍ البَيهقيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو الحَسنِ عليُّ بنُ أحمدَ الواحِديُّ [1] ، قالَ : أخبرَنا أبو إسحاقَ أحمدُ بنُ محمَّدٍ ، قالَ : أخبرَنا أبو عَمرو

---

(١) هو المفسِّرُ المشهورُ صاحب « الوجيز » و« الوسيط » و« البسيط » في تفسير القرآن الكريم ، وقد أخرجه في « الوسيط » : (٨٥/٢) ، بإسنادٍ غير المذكور هنا ، من طريقِ إبراهيم بن عبد الله العبسي . . . به .

الفُرَاتيِّ[1] ، قالَ : أخبرَنا الهيثمُ بنُ كُلَيْب ، قالَ : أخبرَنا إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ العَبسيُّ ، قالَ : أخبرَنا وَكيعُ بنُ الجرَّاحِ[2] ، عنِ الأَعمشِ ، عن أبي صَالحٍ ، عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أطَاعَني . . فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي . . فَقَدْ عَصَى ٱللَّهَ ، وَمَنْ يُطِعِ ٱلْأَمِيرَ . . فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ يَعْصِ[3] ٱلْأَمِيرَ . . فقدْ عَصَاني »[4] ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[5] ؛ أيْ : في صورةِ رَجلٍ ؛ لأنَّ تصاريفَ القُدرةِ في عالَمِ الشَّهادةِ تَندَرِجُ علىٰ مَدارجِ الحِكمةِ .

فالعالَمُ بالخَليفةِ يَستَقِرُّ ، والمصالحُ بالإمامِ قائمةٌ ، وما اختارَ اللهُ تعالىٰ للخِلافةِ نائباً عنهُ في الخَلقِ إلَّا وقدْ كُمِّلَ ، والتَّكمُّلُ بالتَّخلُّقِ بأَخلاقِ اللهِ نهايةُ حالِ الصُّوفيِّ ، وهو الكمالُ ، وأقصىٰ ما تَفِي بهِ القُوى الإنسانيَّةُ بعدَ النُّبوَّةِ ، فالإنسانُ وِعاءُ معاني العالَمِ ، ومَجمَعُ حقائقِهِ ومقاييسِهِ[6] ، ولهُ بكلِّ معنىً مِنْ معاني العالَمِ ظهورٌ وبُروزٌ ، فبَعضُ المعاني يَعُمُّ جنسَ الإنسانِ ؛ كالجماديَّةِ والحيَوانيَّةِ والنَّاميَةِ والبَهيميَّةِ والسَّبُعيَّةِ ، وتختصُّ النُّفوسُ الشَّريفَةُ بمَعانٍ شَريفةٍ ؛ كالمَلَكيَّةِ[7] والتَّخلُّقِ[8] بأَخلاقِ اللهِ .

والنُّفوسُ الشَّريفةُ بما أُودِعَ فيها مِنَ العلمِ والمعرفةِ . . تُشاكِلُ اللَّوحَ

---

(1) في الأصل : (عمر القرابي) ، والتصحيح من مصادرِ التَّرجمة ، ومنها « تاريخ الإسلام » (٧٩٢/٨) .

(2) في الأصل : (الوكيع) .

(3) في الأصل : (يعصي) .

(4) أخرجه ابنُ أبي شَيبةَ (٣٣١٩٦) ، وأحمدُ (١٠٠٨٩) ، وابن ماجه (٢٨٥٩) من طريقِ وكيع . . . به ، وأخرجه البخاريُّ (٢٩٥٧) ومسلمٌ (١٨٣٥) من طريقِ أبي الزِّنادِ ، عنِ الأعرجِ ، عن سيدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه .

(5) سورة الأنعام : (٩) .

(6) في الأصل : (ومقايسه) .

(7) نِسبة إلى الملائكة .

(8) في الأصل : (التخلق) بحذف واو العطفِ .

المحفوظَ ؛ لأنَّ النَّفْسَ إذا استَكمَلَتِ التَّزكيةَ . . انعَكَسَ عليها نورُ الرُّوحِ ، ونورُ الرُّوحِ عَطاءٌ مِنَ اللهِ الكَريمِ ، فيَنقَلِبُ عندَ ذٰلكَ حديثُها علوماً إلهاميَّةً ، والعلومُ الإلهاميَّةُ : انقلابُ أَعيانِ جَواهرِ حَديثِ النَّفْسِ بالإكسيرِ [1] الَّذي وُضِعَ عليها ؛ وهو انعِكاسُ نُورِ الرُّوحِ الموهوبِ مِنْ فَضلِ اللهِ تعالىٰ .

ووَجهُ المُناسَبةِ أيضاً : أنَّ مشايخَ الصُّوفيَّةِ قاطِبةً متَّفِقونَ علىٰ أنَّ التَّصوُّفَ خُلُقٌ ؛ فمَنْ زَادَ في الخُلُق . . زَادَ في التَّصوُّفِ .

وأهلُ التَّصَوُّف أَهلُ الصَّفاءِ ، قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّستَريُّ : (الصُّوفيُّ : مَن صَفَا مِنَ الكَدَرِ ، وامتلأَ مِنَ الفِكَرِ ، وانقطعَ إلى اللهِ تعالىٰ مِنَ البَشرِ) [2] .

والخِلافةُ المُعظَّمةُ مَعدِنُ الصَّفاءِ ؛ فوقَعتِ المناسَبةُ .

ودليلُ أنَّ الخلافةَ المُعظَّمةَ مَعدِنُ الصَّفاءِ : قولُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيما أخبرنا الشَّيخُ الصَّالحُ مَكِيُّ بنُ أبي القاسمِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ المعالي ، قالَ : أخبرَنا أبو محمَّدٍ سليمانُ بنُ مسعودٍ الشَّحَّامُ ، قالَ : أخبرَنا أبو زكريا يحيى بنُ عبدِ الوهَّابِ بنِ محمَّدِ بنِ مَنْدَهْ ، قالَ : رَوَى ابنُ أبي الدُّنيا في كتابِهِ ، يقولُ : حدَّثنا محمَّدُ بنُ صالحِ العَدَويُّ ، قالَ : حدَّثنا الأزهرُ بنُ جعفرٍ ، عن عوفٍ الأعرابيِّ ، عن أبي المغيرةِ ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم للعبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ رضيَ اللهُ عنهُ : « يَا عَمِّ ؛ إِنَّ لَكَ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ ، إِنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ ٱلْأَوْصِيَاءَ ، وَمِنْ عِتْرَتِكَ ٱلْأَصْفِيَاءَ ، وَمِنْكَ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ مَنْ يُنْشَرُ بِهِ ٱلْهُدَىٰ ، وَتُطْفَأُ بِهِ نِيرَانُ ٱلضَّلَالَةِ » [3] .

---

(١) يَرىٰ دُوزِي أنَّ أصلَ الكلمةِ يونانيٌّ من (إكسيروس) ، وهو أصلاً عقارٌ يابسٌ يُسحَق ، ويُسمَّىٰ : حَجَرَ الفلاسفةِ ، ويعمل علىٰ تحويلِ بعضِ المعادِنِ إلىٰ بعضٍ ، ولا سيما الذَّهب ، أو استنباطِ دواءٍ لجميع الأمراض . انظر « تكملة المعاجم العربية » (كسر) (٨٥/٣) ، و(كيمياء) (١٨١/٩) .

(٢) أورده الكلاباذي في « التَّعرُّفِ لمذهبِ أهلِ التَّصوُّفِ » (ص ٢٥) .

(٣) تقدَّم تخريجه (ص ٢٢٠) من طريقٍ آخر عند الرَّافعي في « التَّدوين في أخبار قزوين » ، ولم أقِف عليه منَ الطَّريقِ المذكورِ .

فوقعَتِ المُناسبةُ بينَ الخِلافةِ المُعظَّمةِ والتَّصوُّفِ بوجودِ الصَّفاءِ ، فالخلافةُ المُعظَّمة دَفترٌ ، والتَّصوُّفُ جُزءٌ فيهِ ، والتَّصَوُّفُ دفترٌ ، والفُتوَّةُ جُزءٌ فيهِ .

والفُتوَّةُ : اختصاصٌ بالأَخلاقِ الزَّكيَّةِ ، والتَّصوُّفُ : جمعٌ بينَ الأعمالِ الصَّالحةِ والأَورادِ العَزيزةِ ، والخِلافةُ الشَّريفةُ تَجمَعُ الأَحوالَ الشَّريفةَ والأَعمالَ الصَّالحةَ والأَخلاقَ الزَّكيَّةَ .

ونذكرُ نُبذةً مِنْ حِكاياتِ الفِتيانِ وشَرحِ الفُتوَّةِ الَّتي استَعلىٰ شَرَرُ شِهابِها ، وسَحَّ صَيِّبُ سِجالِها ، واستَجَدَّتْ لباسَ الشَّرَفِ ، مِن أَكرمِ خَلَفٍ ؛ مِنِ ارتباطٍ بينَ الإمامينِ : أميرِ المؤمنينَ عليٍّ والإمامِ المُستَنصِرِ باللهِ ، وهو ارتباطٌ مُنضَّدٌ في سِلكٍ هاشِميٍّ ، ثمَّ قُرَشيٍّ ثمَّ مُضَريٍّ .

ثمَّ يَصطادُ مِغْناطِيسُ شَرَفِهِ استِعداداتِ فِتيانٍ يَنضُدُها في سِلكِ الشَّريفِ العَريقِ ، ويسلُكُ بها في مَناهجِ التَّحقيقِ .

فمنها ما قيل : الفَتىٰ مَنْ يُنصِفُ ولا يَستَنصِفُ ، وقيلَ : الفَتىٰ مَنْ لا خَصْمَ لهُ ولا هُو خَصْمُ أَحدٍ ، وقيلَ : أَصلُ الفُتوَّةِ : أنْ يكونَ العَبدُ في أمرِ غيرِهِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَا يَزَالُ ٱللهُ فِي حَاجَةِ ٱلْعَبْدِ مَا دَامَ ٱلْعَبْدُ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ ٱلْمُسْلِمِ »[1] .

وقالَ محمَّدُ بنُ عليٍّ التِّرمذيُّ : (الفُتوَّةُ : أن تكُونَ مُقيماً لربِّك علىٰ نَفسِكَ)[2] .

وقالَ عمرُ بنُ عثمانَ المَكيُّ : (الفُتوَّةُ : حُسْنُ الخُلُق)[3] .

---

(١) أخرجه بهذا اللَّفظ النَّسائي في « السنن الكُبرىٰ » (٧٢٤٧) ، والطَّبراني في « المعجَم الكبيرِ » (٥/١١٨) (٤٨٠٢) من حديثِ سيدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديثه أيضاً ، بلفظ : « واللهُ في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه » .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

وسُئل الجُنيدُ عنِ الفُتوَّةِ ؛ فقالَ : ألَّا تُنافِرَ فقيراً ، ولا تُعارِضَ غَنياً[1] .

وقيلَ : (الفُتُوَّةُ : ألَّا تَرىٰ لنَفسِكَ فَضلاً علىٰ غَيرِك)[2] .

وقالَ النَّصرَاباذي : (المروءةُ شُعبةٌ [مِنَ الفتوةِ] ؛ وهي الإعراضُ عنِ الكَونَيْن والأَنَفةُ منهما)[3] .

وقيل : استَضافَ مجوسيٌّ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلامُ ، فشَرطَ[4] أن يُسلِمَ ، فمرَّ المجوسيُّ ، فأوحى اللهُ إليهِ : منذَ خمسينَ سنةً نُطعِمُهُ علىٰ كُفرِهِ ، فلو ناولتَهُ لُقْمَةً مِنْ غيرِ أن تُطالِبَهُ بتَغييرِ[5] دينِه ، فمَضىٰ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ علىٰ إثْرِهِ واعتَذرَ إليهِ ، فسألَهُ عنِ السَّبَبِ ، فذَكَرَ لهُ ، فأسلَمَ المجوسِيُّ[6] .

وقالَ الجُنيدُ : (الفُتوَّةُ : كَفُّ الأذىٰ ، وبَذلُ النَّدَىٰ)[7] .

وقيلَ : (الفُتوَّةُ : تَركُ التَّمييزِ)[8] .

قالَ أحمدُ بنُ خَضْرَويْه لِامرأتِه : إنِّي أُريدُ أن أتَّخِذَ دعوةً ؛ أَدعو فلاناً ـ وكانَ في بَلَدِهِم رأسَ الفِتيانِ ـ فقالَتِ امرأتُهُ : إنَّكَ لا تُهدَىٰ إلىٰ دَعوةِ الفِتيانِ ، فقالَ : لا بُدَّ ، فقالَتْ : إنْ فَعلتَ . . فاذبَحِ الأَغنامَ والبُقورَ ، والحُمُرَ أَلقِها مِن بابِ دَارِ الرَّجُلِ إلىٰ بابِ دَارِك ، فقالَ : أمَّا البُقورُ والأغنامُ[9] ، فما بالُ الحُمُرِ ؟ فقالَتْ : تَدعُو فتىً إلىٰ دارِكَ ، فلا أقلَّ أنْ يكونَ لكِلابِ المحَلَّةِ خيرةٌ[10] .

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٧) .

(٤) في الأصل : (بشرط) .

(٥) في الأصل : (بتغير) .

(٦) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٨) .

(٧) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٨) .

(٨) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٩) .

(٩) أي : فقد علِمتُ أمرَها ، فما أمرُ ذَبحِ الحمير ؟!

(١٠) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٩) .

وقيلَ : إنَّ رجلاً نامَ بالمَدينةِ ، فتَوهَّمَ أنَّ هِمْيانَهُ[1] سُرِقَ ، فخرجَ فرأىٰ جعفراً[2] الصَّادقَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فتعلَّقَ بهِ وقالَ : أخذتَ هِمْياني ، فقالَ : أَيْشٍ كانَ فيهِ ؟ فقالَ : ألفُ دينارٍ ، فأَدخَلَهُ دارَهُ ووَزَنَ لهُ أَلفَ دينارٍ ، فرجَع الرَّجُلُ إلىٰ منزلِهِ ودخلَ بيتَهُ ، فرأىٰ هِمْيانَهُ في بيتِهِ ، وكانَ قدْ توهَّمَ أنَّهُ قدْ سُرِقَ ، فخرجَ إلىٰ جعفرٍ مُعتَذِراً[3] ، وردَّ إليهِ الدَّنانِيرَ ، فأبىٰ أنْ يَقبَلَ ، وقالَ : شيءٌ أَخرجْتُهُ مِن يَدي[4] لا أَستَرِدُّهُ[5] .

وقيلَ : خَرجَ إنسانٌ يدَّعي الفُتوَّةَ مِنْ نَيْسابورَ إلىٰ نَسا ، فاستَضافَهُ رجلٌ ومعَهُ جماعةٌ مِنَ الفِتيانِ ، فلمَّا فَرَغوا مِنَ الطَّعامِ . . خَرجَتْ جاريةٌ تصُبُّ الماءَ علىٰ أَيديهم ، فانقبضَ النَّيْسابوريُّ عن غَسلِ اليدِ ، وقالَ : ليسَ مِنَ الفُتوَّةِ أَن تَصُبَّ الماءَ علىٰ أَيدي الرِّجالِ ، فقالَ واحدٌ منهم : أنا منذُ سنتينِ أَدخلُ هٰذه الدَّارَ لمْ أَعلمْ أنَّ امرأةً تصُبُّ الماءَ علىٰ يَديَّ أَو رَجُلاً[6] .

وقالَ منصورٌ المغربيُّ رحمَهُ اللهُ : أرادَ واحدٌ أنْ يَمتَحِنَ نُوحاً العيَّارَ النَّيسابوريَّ ، فباعَ منهُ جاريةً في زِيِّ غُلَامٍ ، وكانَتْ وَضِيئةَ الوجهِ ، فاشتراها نوحٌ علىٰ أنَّهُ غُلَامٌ ، ولَبِثَتْ عندَهُ شُهوراً ، فقيلَ للجَاريةِ : هل عَلِمَ أنَّكِ جاريةٌ ؟ فقالَتْ : ما مَسَّني[7] ، ويَتوهَّمُ أنِّي غُلامٌ[8] .

وقيلَ : سأل شَقِيقٌ البَلْخِيُّ جعفرَ بنَ محمَّدٍ الصَّادقَ عنِ الفُتوَّةِ ، فقالَ : ما

---

(١) الهِميان : كِيسٌ للنَّفقةِ يُشدُّ في الوَسَط . « القاموس المحيط » (ص ١٢٤٠) .

(٢) في الأصل : (جعفر) .

(٣) في الأصل : (متعذّراً) .

(٤) في الأصل : (يده) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١١) .

(٦) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١٠) .

(٧) في الأصل : (لا مسني) .

(٨) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١٠) .

تقولُ أنتَ ؟ فقالَ شقيقٌ : إنْ أُعطِينا . . شَكَرْنا ، وإنْ مُنِعنا . . صَبرْنا ، فقالَ جعفرٌ : الكِلابُ بالمدينةِ عِندنا كذٰلكَ تفعلُ ، فقالَ شقيقٌ : يا بنَ رَسولِ اللهِ ؛ ما الفُتوَّةُ عندَكُم ؟ فقالَ : إنْ أُعطينَا . . آثَرْنا ، وإنْ مُنِعنا . . شكَرْنا[1] .

◌ ◌ ◌

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١٢) .

فَصْلٌ

[واجبُ الولاةِ حسمُ مادَّةِ الضَّلالِ]

إنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ نَشَرَ أَلوِيةَ النُّصرَةِ الإماميَّةِ المُستَنصِريَّةِ لحِراسةِ العِبادِ والبِلادِ ، وجعلَ ملوكَ الأَطرافِ خاضِعةً طائعةً للسَّطواتِ الشَّريفةِ الإماميَّةِ ؛ فالحراسةُ مِن حيثُ الظَّاهرُ : العساكرُ المنصورةُ والمماليكُ ، والحِراسةُ العُظمَىٰ للإمامةِ عمَّا يُفسِدُ دِينَهم وعقائدَهم بأنفاسِ أَقوامٍ تَظاهروا بالإسلامِ ، وتَشرَّبَتْ قلوبُهم علومَ الفَلاسفةِ ، فَفَسادُهم يَسري إلىٰ قلوبِهم ، يُزعزِعُهم [1] عنِ العقائدِ السَّلِيمةِ ، ويُحدِثُ عندَهُم عَواقِبَ وَخِيمةً [2] .

أنبأنا خليفةُ اللهِ في أرضِه الإمامُ النَّاصرُ لدينِ اللهِ أميرُ المؤمنينَ أبو العبَّاسِ أحمدُ ، عن أبي الحَسنِ عليِّ بنِ عساكرَ ، عن أبي الوقتِ عبدِ الأَوَّلِ ، قالَ : أخبرَنا أبو إسماعيلَ الأنصاريُّ [3] ، قالَ : أخبرَنا أبو يعقوبَ ، قالَ : أخبرَنا العبَّاسُ بنُ أبي الفَضلِ ، قالَ : حدَّثنا يحيى بنُ أَحمدَ بن زِيادٍ ، قالَ : حدَّثنا أحمدُ بنُ أبي كريمةَ ، عن لَيثٍ ، عن مجاهدٍ ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : إذا كانَتْ خمسٌ وثلاثونَ ومئةُ سنةٍ . . خَرج شياطينُ مِنَ البحرِ كانَ سُليمانُ حبَسَها في أَشعارِ النَّاسِ وأَبشارِهم ، يُحدِّثونَ النَّاسَ ليَفتِنُوهم ؛ فاحذَروهُم .

وبالإِسنادِ الشَّريفِ إلىٰ أبي يعقوبَ ، قالَ : أخبرَنا العبَّاسُ ، قالَ : أخبرَنا يحيىٰ ، قالَ : حدَّثنا أحمدُ بنُ سَعدٍ ، قالَ : حدَّثنا أحمدُ بنُ سَلمانَ ، عن أحمدَ بنِ كثيرٍ ، عن لَيثٍ ، عن طاووسٍ : إنَّ مَردةَ الشَّياطينِ مَغلولونَ في خزائنِ البحورِ ، فإذا كانَتْ ثلاثٌ وثلاثونَ ومئةُ سنةٍ . . أُطلِقوا في صُوَرِ الإنسِ وأَشعارِهم وأَبشارِهم ، فجادَلوا النَّاسَ بالقرآنِ [4] .

---

(١) في الأصل : (يُزعزهم) .

(٢) في الأصل : (عواقب من وخيمة) .

(٣) أخرجه أبو إسماعيل الأنصاري في « ذم الكلام وأهله » (٧١٥) .

(٤) أخرجه الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٧٢٧) .

وبالإسنادِ إلىٰ طاووسَ قالَ : إذا مَضَتْ ثلاثةٌ وثلاثونَ ومئةٌ . . ظَهَرَت شياطِينُ مِن جَزائرِ البحورِ ، فتهيَّؤوا بهَيئةِ العُلماءِ ، فلا تأخذُوا العلمَ إلَّا ممَّن تَعرِفونَ (١) .

وعن منصورِ بنِ المُعتمرِ ، قالَ : ما هَلَكَ دِينٌ قطُّ حتَّىٰ يَخلُفَ العُلماءَ فيهم المَنَانِيَّةُ (٢) ، قلتُ للحَجَّاجِ : ما المَنَانِيَّةُ ؟ قالَ : الزَّنادقةُ (٣) .

وعن زيدِ بنِ رُفَيعٍ ، قالَ : بَعَثَ اللهُ نوحاً وشَرَعَ لهُ الدِّينَ ، فكانَ النَّاسُ في شريعتِهِ ، فما أطفأَها إلَّا الزَّندقةُ ، ثُمَّ بَعثَ اللهُ موسىٰ وشَرعَ لهُ الدِّينَ ، فكانَ النَّاسُ (٤) في شريعتِهِ ، فما أطفأها إلَّا الزَّندقةُ ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ عيسىٰ وشَرَعَ لهُ الدِّينَ ، فكانَ النَّاسُ في شريعتِهِ ، فما أطفأَها إلَّا الزَّندقةُ ، فإذاً ؛ زيدُ بن رُفَيعٍ لا يخافُ علىٰ هٰذا الدِّين إلَّا الزَّندَقةَ (٥) .

وحَسْمُ مادَّةِ هٰذا الفسادِ المُتوقَّعِ يَحصُلُ بإبداءِ تَقَدُّمٍ نبَويّ إلى المدارسِ بمَدينةِ السَّلامِ برَدْعِ مَنْ يُعلَمُ منهُ اشتِغالُهُ بشيءٍ مِنْ علومِ الفلاسفةِ ، وزَجرِهِ وتَثريبِهِ ، وبذٰلكَ إرساءُ قواعدِ الإسلامِ ، وبانتهاءِ هٰذا التَّقدُّمِ إلىٰ سائرِ دِيارِ الإسلامِ وتَطهيرِ دِيارِ الإسلامِ عن رِجْسِ الزَّنادقةِ ، وفي ذٰلكَ مِنَ التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ ما يزيدُ علىٰ سَائرِها ، واللهُ تعالىٰ يزيدُ خَليفةَ اللهِ الإمامَ المُستَنصِرَ باللهِ تأييداً وتسديداً .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٧٢٨) .

(٢) المنانية : هي إحدىٰ فرق الزَّنادقةِ الإحدىٰ عشرة ، وإنَّما سُمُّوا بذٰلك برجلٍ كان في زمنِ الأكاسرة ، وكان يُقال له : ماني . انظر : « الإبانة » لابن بطة (١/٣٧٩) .

(٣) أخرجه الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٦٢) .

(٤) كلمة (النَّاس) زيادة مِن كتابِ « ذم الكلام » .

(٥) أخرجه الهروي في « ذم الكلام وأهله » (٦١) .

فَصْلٌ

[في طوري الخِلقةِ والفطرةِ للإنسانِ]

اعلمْ : أنَّ الإنسانَ لهُ طَوْرُ الخِلْقةِ ، وطَورُ الفِطْرةِ .

والفِطرةُ ما أشارَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « كُلُّ إِنْسَانٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ » (١) .

والفِطرةُ الَّتي أجابَتْ (٢) في عهدِ الميثاقِ عندَ قولِهِ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ (٣) ، كانَتْ طهَارتُها وبراءَتُها مِنْ لَوْثِ الخِلقةِ ، فلمَّا هَبَطَتْ أرضَ الخِلقةِ . . تبدَّلَتْ نُعُوتُها وصِفاتُها ، وأَعادَتْها الخِلقةُ كآبةً في مَنظرِ تَصاريفِها ، فمنها انبَعثَتْ قُوى الحَواسِّ ، ثمَّ اكتَسَبَتْ قُوى الحَواسِّ القُوَّةَ الفِطريَّةَ حتَّىٰ أَدركَتِ العلمَ ، ولهٰذا المعنىٰ سَرىٰ نورُ الفِطرةِ إلىٰ حَواسِّ إبراهيمَ الخَليلِ عليهِ السَّلامُ ، حتَّىٰ أَدرَكَ إحياءَ الموتىٰ ، فأَخَذَ أَربعةً مِنَ الطَّيرِ كما أَخبَرَ القرآنُ ، حتَّى اقترنَ المعقولُ بالمحسوسِ (٤) ، فالضَّروريَّاتُ والبَدِيهيَّاتُ هي كَسْبُ الإِحساسِ مُستَغنِيةً عنِ البُرهانِ .

فلمَّا طرأَ علىٰ نُورِ الفِطرةِ ـ الَّذي هو مُستودَعُ الضَّروريَّاتِ والبديهيَّاتِ ـ غُبارُ الخِلقةِ . . غابَتِ العلومُ في غاباتِ التَّواري ، فتَسوَّرَ الأذكياءُ إلىٰ تحصيلِ العلمِ بطريقِ البُرهانِ .

والأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم تقشَّعَ عن بصائرِهِم غُبارُ الخِلقةِ قبلَ الموتِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨) مِن حديثِ سيدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه ، بلفظ : « كلُّ مولودٍ . . . » الحديثَ .

(٢) في الأصل : (أجاب) .

(٣) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٤) في الأصل : (بالمحوس) .

الطَّبيعيّ ، فكما أدركوا الضَّروريَّاتِ بغيرِ البُرهانِ . . انكشَفَ لهُمُ العِلمُ بالعِيانِ ، بعَوْدِ الباطنِ إلىٰ نُورِ الفِطرةِ ، واستغنَوْا عنِ البُرهانِ ، ولم يَعلَمِ الجُهَّالُ .

كما أنَّ الضَّروريَّاتِ والبديهيَّات لا حاجةَ في ضَبطِها إلى البُرهانِ ، وأنَّ هناكَ علوماً غيبيَّةً يَضِيقُ عنها مِيزانُ البُرهانِ ، فالحِكمةُ والمُلكُ والشَّهادةُ قِشرٌ وراءَهُ لُبابُ المَلَكوتِ والغيبِ والقُدرةِ .

والرُّسلُ وأتباعُهم ذوو الألبابِ .

ومُدَّعُو الحكمةِ [1] أصحابُ القُشورِ والمُغيَّبونَ في طِباقِ التُّرابِ .

والرُّسلُ صلواتُ اللهِ عليهِم يَسري نورُ الفِطرةِ إلىٰ حواسِّهِم ، ويَهبِطُ نورُ العقلِ إلىٰ نُورِ فطرتِهِم هُبوطَ الرُّوحِ الرُّوحانيّ إلى الرُّوحِ الحيَوانيّ [2] ، حيثُ تَميَّزَ الرُّوحُ الحيَوانيُّ بذٰلكَ عنِ الأَرواحِ الحيَواناتِ .

فهٰكذا هبوطُ نُورِ العقلِ إلى الحواسِّ المُكتَحِلةِ بنُورِ الفِطرةِ ، فيجتمعانِ في الإدراكِ ، فقدْ يكونُ ذٰلكَ الاِجتماعُ تارَةً في المنامِ ، وتارةً في اليقَظةِ ، ويَنخَرِقُ المنامُ إلى اليقَظةِ واليقَظةُ إلى المنامِ ، والدُّنيا إلى الآخرةِ والآخرةُ إلى الدُّنيا ، وما بعدَ الموتِ إلىٰ ما قبلَ الموتِ ، وما قبلَ الموتِ إلىٰ ما بعدَ الموتِ ، ويَحدُثُ للإنسانِ الصَّافي الفِطرةِ عِلمٌ لا يُدرِكُ شأوَهُ عَلَمٌ فلسَفيٌّ أبداً .

أخبرَنا الشَّيخُ الثِّقةُ أبو الفَتْح محمَّدُ بنُ عبدِ الباقي ، قالَ أبو الفضلِ حَمْدُ بنُ أحمدَ ، قالَ : أخبرَنا الحافظُ أبو نُعَيمٍ الأصفهانيُّ [3] ، قالَ : أخبرَنا

---

(١) في الأصل : (للحكمة) .

(٢) الرُّوحُ الحيوانيُّ : جسمٌ لطيفٌ مَنبَعُه تجويفُ القلبِ الجسمانيّ ، وينتشرُ بواسطةِ العروقِ الضَّوارِبِ إلىٰ سائرِ أجزاءِ البدنِ . انظر « التعريفات » للشريف الجرجاني (ص ١١٢) .

(٣) في « حِلية الأولياء » (٣/٣٠٣) ، وأخرجه أحمد في « المسند » (٦٥٦٣) والتِّرمذي (٢١٤١) والنَّسائي في « السنن الكبرىٰ » (١١٤٠٩) مِن حديثِ سيدنا عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما .

أبو جعفرٍ محمَّدُ بنُ أحمدَ[1] ، قالَ : حدَّثنا عمرُ بنُ محمَّدٍ البزَّارُ[2] ، قالَ : حدَّثنا محمَّدُ بنُ المُثنَّىٰ[3] ، قالَ : حدَّثنا عبدُ الوهابِ بنُ عبدِ المجيدِ ، قالَ : حدَّثنا عبدُ الوهابِ بنُ مجاهدٍ[4] ، قالَ : سمعتُ مجاهداً يُحدِّثُ عنِ ابنِ عُمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، قالَ : خرجَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ كأنَّهُ قابضٌ علىٰ شيءٍ قدْ ضُمَّ ، حتَّى انتهىٰ إلىٰ أصحابِهِ ، ففتحَ يَمِينَهُ ، فقالَ : « بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، هَـٰذَا كِتَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ ، وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ ، مُجمِلٌ عَلَىٰ آخِرِهِمْ ، لَا يُزادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ » .

وهـٰذه[5] قصَّةُ عُزَيْرٍ عليهِ السَّلامُ ، وقولُ اللهِ تعالىٰ لهُ : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾[6] .

هـٰذا كَشْفُ اللهِ تعالى القُدرةَ في عالمِ الحكمةِ ، وتَنحِيةُ حِجابِ الحِكمةِ عن وَجهِ القُدرةِ ، وتَعجِيلُ الآخرةِ في الدُّنيا ، وطَيُّ أَطوارِ الحِكمةِ لهم في أقلَّ مِنْ لَمحةٍ ، ثمَّ إسبالُ سُجُفِ الحِكمةِ علىٰ وَجهِ القُدرةِ ؛ ليَعودَ الإنسانُ إلىٰ هيئتِهِ مُلتبِساً بأَسبابِ الحِكمةِ ، غائِصاً في بِحارِ الأفْكارِ المُظلِمَةِ المُستَضيئةِ بنُورِ البُرهانِ الَّذي يَنطَفِئُ لهُبوبِ عَواصِفِ المَوتِ الطَّبيعيِّ ، ولكَ شَأنٌ ولهم شَأنٌ ، لكَ بُرهانٌ ولهم عِيانٌ .

هَـوَاكَ نَـجْـدٌ وَهَـوَايَ ٱلشَّـامُ وَذَا وَهَـٰذَا قَـطُّ لَا يَـلْـتَـامُ[7]

---

(١) في « حلية الأولياء » : (أبو جعفر أحمد بن جعفر بن معبد) .

(٢) في « حلية الأولياء » : (أحمد بن عمرو البزَّار) .

(٣) في « حلية الأولياء » : (محمَّد بن أبي المسور) .

(٤) في الأصل : (محمَّد) ، والمثبتُ مِنَ « حلية الأولياء » .

(٥) في الأصل : (وهـٰذا) .

(٦) سورة البقرة : (٢٥٩) .

(٧) من الرجز ، وانظر « المدهش » (٤٣٧/١) .

وَرَد في الخبرِ عن رسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إِذَا سَجَدَ ٱلْعَبْدُ . . طَهَّرَ سُجُودُهُ مَا تَحْتَ جَبْهَتِهِ إِلَىٰ سَبعِ أَرَضِينَ »[1] .

تفكَّرْ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ في هـٰذا الحديثِ ، كيفَ يُطهِّرُ السُّجودُ ما تحتَ جَبهتِهِ إلىٰ سَبعِ أرَضِينَ ، وأنتَ لو كانَ تحتَ سَجَّادتِه نجَاسةٌ . . لمْ تحكُمْ بطَهارتِها ؟! فأَسرارُ هـٰذه الأَخبارِ وعُقَدُ هـٰذه الأَشكالِ لا يَنحَلُّ إلَّا بنُورِ مُتابعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والإقتداءِ بهِ ؛ ليَطلُعَ مِنْ مَطالعِ مِشكاةِ النُّبوَّةِ شَمسٌ تَطوِي بسَائطَ ظُلمةِ الجَهَالةِ بالأَسرارِ .

وأنا أُومِئُ إلىٰ نُبذةٍ مِنْ هـٰذا السِّرِّ ، ولا يَنفَهِمُ لكَ ذٰلكَ إلَّا بعدَ أنْ تعلمَ أنَّ الإنسانَ في تَركيبِهِ بعدَ تَقلُّبِهِ في الأَطوارِ ينتهِي إلىٰ عَهدِ تخَمُّرِ طِينِهِ ، مَبدؤُهُ ببَداءِ القُدرةِ ، فيُعلمَ أنَّ في التَّخميرِ استِخراجَ ما[2] تحت السَّماواتِ والأَرَضِينَ الَّتي انعَجَنَتْ عندَ التَّسويةِ فيهِ مِن طَريقِ التَّخمِيرِ ، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[3] ، ثمَّ نَفَخَ فيهِ الرُّوحَ ، فسَرَى النُّورُ في الدِّماءِ والأَبشارِ ، وأَعطى القُوَّةَ الإنسانيَّةَ مِنَ النَّفسِ النَّاطقةِ رُتبةَ العُروجِ والهُبوطِ .

وأنَّ إبليسَ يَهبِطُ إلىٰ مَهْواةِ البُعدِ ؛ غُيِّبَ في سَبعِ طَبقاتِ الأَرَضينَ ، ويُعرَفُ سِرُّ ذٰلكَ في رَمْيِ سَبعِ حَصَياتٍ عندَ تجديدِ العَقدِ والعَهدِ[4] الأَوَّلِ[5] في أَمرِ الشَّرعِ بالحَجِّ ، وإنْ كانَ حَصَاهُ في دَفعِ وَثْبةٍ مِنْ وَثَباتِ الشَّيطانِ ، ويَرتبطُ بهـٰذا

---

(١) أخرجَه العُقَيلي في « الضُّعفاء » (١/٤٤٢) ، والطَّبرانيُّ في « الأوسط » (٤٩٥١) مِن حديثِ سيدتنا عائشةَ رضي الله عنها .

(٢) كلمة (ما) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٣) سورة الحجر : (٢٩) .

(٤) في الأصل : (العهد) بحذفِ واو العطفِ .

(٥) يُقصد بالعَقدِ والعَهد : الميثاقَ المأخوذَ علىٰ بَني آدمَ ألَّا يُشركوا ، في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

الاِطِّلاعُ علىٰ سَبعِ تكبيراتٍ في أوَّلِ صَلاةِ العِيدِ وخمسٍ في الثَّانيةِ ، ويُدرِكُ أَهلُ اللهِ تعالىٰ والرَّاسِخونَ في العلمِ ذٰلكَ بإيمانٍ راحَ بإِيماءِ الأَرواحِ ، والشَّرحُ يطولُ .

وعلىٰ ذٰلكَ تَبيَّنَ أنَّ الذُّنوبَ كَبائرَها وصَغائرَها مُقسَّمةٌ علىٰ طَبقاتِ الأَرضِ ، وأنَّ الطَّاعاتِ مُقسَّمةٌ علىٰ طَبقاتِ السَّماواتِ ، فمَنْ كانَتْ ذُنوبُهُ مِنَ الكَثافةِ في الطَّبقةِ السَّابعةِ مِنَ الأَرضِ . . ترَقَّىٰ طَاعاتُه إلى السَّماءِ الأُولىٰ ، فإذا لَطُفتِ الذُّنوبُ وصارَتْ في الطَّبقةِ السَّادسةِ . . تَرتَقِي طاعاتُهُ إلى السَّماءِ الثَّانيةِ ، فعلىٰ قدْرِ لَطافةِ الذُّنوبِ يكونُ العُروجُ بنُورِ الطَّاعاتِ : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[1] .

فإذا عَلِمْتَ هٰذا السِّرَّ وتدبَّرتَهُ . . عَلِمتَ أنَّ العَبدَ طهَّرَ سُجودُهُ ما تحتَ جَبهتِهِ إلىٰ سَبعِ أَرَضِينَ ؛ لأنَّهُ بِضَراعتِهِ في السُّجودِ يُؤهَّلُ لرُتبةِ القُربِ مِنْ سِرِّ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[2] ، فالاِطِّلاعُ علىٰ هٰذا السِّرِّ وأَمثالِهِ مِن بَرَكةِ مُتابعةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . اطِّلَاعٌ علىٰ شيءٍ مِن أَمرِ الغَيبِ الَّذي لِعامَّةِ المؤمِنينَ الإيمانُ به ، وللأَبرارِ والمُقرَّبينَ عِلمٌ بذٰلكَ ، وللصِّدِّيقِينَ ورؤساءِ المُقرَّبينَ شيءٌ مِنَ الكَشفِ والعِيانِ ، فمَواهِبُ اللهِ تعالىٰ للصِّدِّيقِينَ مِن تمامِ مُعجزةِ النَّبِيِّ ، ونُبوَّةُ الرُّسُلِ سَببٌ بإخبارِهِم عنِ الغَيبِ ، فيكونوا بذٰلكَ أَهلَ الكَشفِ والعِيانِ ، وليسوا كمَن أَظلَمَ عليهِمُ الكونُ ، فاسترشَدوا بضَوءِ البُرهانِ ، وعندَ ذٰلكَ يقالُ : أَدالَ العِيانُ على البُرهانِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة فاطر : (١٠) .

(٢) سورة العلق : (١٩) .

فَصْلٌ

استُكشف من قوله تعالى : « ألا له الخلق والأمر »[1]

فتكوينٌ إلـٰهيٌّ في عالمِ الأمرِ بواسِطةِ الرُّوحِ الأعظمِ ونفْسِ الكُليّ ، والتَّكوينُ في عالَمِ الغَيبِ . . الخَلقُ بواسِطةِ الأَركانِ والأُمَّهاتِ ؛ وهي النَّارُ والهواءُ والماءُ والتُّرابُ ، فانْكمَنَ سِرُّ النَّارِ والهواءِ في آدمَ ، وسِرُّ الماءِ والتُّرابِ في حوَّاءَ ، ثمَّ انقَسَمَ فانْكمَنَ الرُّكنانِ :

النَّارُ والهواءُ في الرُّوحِ ، والماءُ والتُّرابُ في النَّفْسِ .

فالرُّكنانِ الأوَّلانِ مِن تحتِ السَّماءِ ، والرُّكنانِ الآخَرانِ مِن تحتِ الأَرضِ .

ثمَّ الرُّكنانِ الأوَّلانِ في الرُّوحِ بطريقِ الأصالةِ[2] ، وفي النَّفْسِ بطريقِ التَّبَعِيَّةِ .

ثمَّ أَودَعَ تلكَ الأَسرارَ في آدَمَ وحَوَّاءَ بطَريقِ الرُّوحِ والنَّفسِ وواسطتِهما ، ثمَّ تقسَّمَ ، وتخيَّرَ الأنوثةَ في حَوَّاءَ ، والذُّكورةَ في آدمَ ، ثمَّ صارا أَصليْنِ في تكوينِ الكَائناتِ في عالَمِ الخَلقِ والأَفلاكِ والنُّجومِ والعَناصرِ والمُركَّباتِ والبسَائطِ ، ووَلائدِ هَـٰذيْنِ ؛ أَعني : الرُّوحَ والنَّفْسَ .

وكلُّ هـٰذا شَرحُ تكوينِ عالَمِ الخَلقِ ، وهو مَيدانُ جَوَلانِ طَرْفِ نَظَرِ الفَلاسفةِ ، فلمْ يحظوا إلَّا بما حَصَلَ في مِيزانِ البُرهانِ ، وانقطَعَ سَيْرُهُم عندَ العِلَّةِ الأُولى الَّتي هي مُكوَّنةٌ بمَشيئةٍ واحِدةٍ مِنَ المشيئاتِ الأَزليَّةِ الَّتي انقسَمَتْ بالنِّسبةِ إلى الكَائناتِ ، وتوَحَّدتْ بالنِّسبةِ إلى الإرادةِ الأَزليَّةِ .

وقِفْ ها هنا وانحصِرْ في مَضِيقِ الصِّفاتِ السَّبعةِ ، ثمَّ ارتقِ إلى التِّسعةِ

---

(١) سورة الأعراف : (٥٤) .

(٢) هنا تنتهي الورقة (١٣٦) ، وتبدأ الورقة (١٤١) .

وتسعينَ اسماً ، واجعَلْ كُلَّ اسمِ صِفةً مِنَ الصِّفاتِ تعَدَّدَتْ بتَعدادِها ، ولكُلٍّ منها مُتعلَّقٌ بتكويناتِ العَوالمِ تِسعةٌ وتِسعونَ ، كما أنَّ الأسماءَ تِسعةٌ وتِسعونَ .

وهٰذا العِلمُ اختَصَّ بهِ نبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهو أقصَىٰ ما احتَوَتْ عليهِ علومُ الأنبياءِ ، ومِنْ وَراءِ تلكَ عَوالمُ في طَيِّ الغيوبِ استَأثَرَ اللهُ تعالىٰ بها ، ولمْ يوسِّعْ لها إدرَاكاتِ الأنبياءِ ؛ لتَستَقِلَّ أنتَ أيُّها الفَلسفيُّ عِلمَكَ وإدرَاكَكَ بالنِّسبةِ إلى العلومِ ، فلا تَغتَرَّ بإدراكِكَ وإحاطتِكَ بعلمِ الهيئةِ وأبعادِ الأفلاكِ مِن كُرةِ الأرضِ الكُريَّةِ[1] ، معَ غَيْبتِكَ وجَهلِكَ بالأراضي السَّبعةِ .

ثمَّ اعلمْ أنَّ إدراكَكَ لعلومٍ بواسِطةِ الرِّياضيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ جُزءٌ مِن أجزاءِ السِّحرِ تعليماً بواسِطةِ القَهرِ الأزليِّ ـ كتعليمِ السِّحرِ لهاروتَ ومارُوتَ ـ مُوجِبٌ ذٰلكَ الطَّردَ والبُعدَ ، وقدْ وَرَد في الخبرِ : أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ تَعَلَّقَ بِشُعْبَةٍ مِنَ ٱلنُّجُومِ . . فَقَدْ تَعَلَّقَ بِشُعْبَةٍ مِنَ ٱلسِّحْرِ »[2] .

فيا صاحِبَ البُرهانِ ؛ مَن سَارَ إلىٰ مَقالَتِكَ المُفْضِيَةِ إلىٰ إنكارِ الجنَّةِ والنَّارِ والبَعثِ والنُّشورِ لخَارجةٍ ممَّا أتىٰ بهِ الأنبياءُ[3] . . فقدْ كَفَرَ ، ولٰكنْ أنت تُظاهِرُ بالكُفرِ ، ومَنْ لا يُنكرُ كُفرَكَ واستغشىٰ ثيابَ الكُفرِ . . فهو[4] مِن مَخانيثِ الكَفَرةِ .

* * *

---

(١) في الأصل : (الكُري) .

(٢) أخرجه أبـو داوود (٣٩٠٥) ، وابن ماجه (٣٧٢٦) من حديثِ سيدنا ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما ، بنحوه .

(٣) لعل العبارة : (الخارجةِ عما أتىٰ به الأنبياء) وصف للمقالة .

(٤) في الأصل : (وهو) .

فَصْلٌ

[في الردِّ على الفلاسفةِ في زعمِهم أنَّ البرهانَ احتوىٰ علىٰ سائرِ العلومِ]

يا معشرَ الجَهَلةِ الفلاسفةِ ؛ تزعمونَ أنَّ البُرهانَ احتَوىٰ علىٰ سائرِ العلومِ ، وكلُّ ما أَخبَرَ به القرآنُ ليسَ بمُبَرْهَنٍ ؛ فلا حاصِلٌ للقُرآنِ مِنَ العِلمِ شيءٌ ، فكلُّ الأَنباءِ تَمويهاتٌ ؛ ممَّا ذُكِرَ في النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ ، وهٰذا عَينُ الزَّندقةِ والإِلحادِ ، والطَّردِ والإبعادِ ، ورأيَ العَينِ أَدركتُم احتِواءَ الضَّروريَّاتِ والبَديهيَّاتِ الَّتي هي أَقوَى الرُّتَبِ في الإدراكِ ، ولذٰلكَ طَلبَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ الإدراكَ بالحسِّ .

إنَّما ثَبَت بحِسٍّ أنَّ[١] للنَّفسِ بعدَ دُثورِ القَالَبِ إدراكاتٍ محسوسةً ؛ لأنَّ الحِجابَ كانَ وَصفَ الخِلقةِ مُدَّةَ البقاءِ في الدُّنيا ؛ لبقاءِ حِجابِ الخِلقةِ ، وبانقشاعِ غَمامِ الخِلقةِ عن وَجهِ شمسِ خِلْقةِ الفِطرةِ ؛ فظَهَرَ المحسوسُ ، وصارَ المُدرَكُ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ محسوساً ؛ إمَّا نعيماً ، وإمَّا عذاباً أَليماً ، إنشاءً بوَصفِ اللُّطفِ والقهرِ الأزليِّ .

وكيفَ السَّبيلُ إلىٰ تَعطيلِ النَّفسِ عنِ الإدراكِ بعدَ بقائِها بعدَ الدُّثورِ إدراكاتٍ مُتَّصِلةً مِنْ عَهدِ البَرْزخِ إلى القِيامةِ ؟ والجَاهلُ يَحسَبُ البقاءَ الدُّنياويَّ سَرْمَدِيّاً[٢] ، ولا يعلمُ أنَّهُ مَزرعةُ الآخرةِ ، والجهلُ بالأمورِ الأُخْرَويَّةِ مَركوزٌ في جِبِلَّةِ الفلاسفةِ ، لا زوالَ لهُ ؛ لأنَّ بقاءَهُ وفاءٌ لوصفِ القَهرِ الأزليِّ ، والَّذي استَخرجُوهُ بالبُرهانِ وثَبَت بِتَدبُّرِهم زائلٌ بالموتِ الطَّبيعيِّ ، لا يعودُ إليهِ البُرهانُ أَبَدَ الآبادِ ، ويَبقَى المحسوسُ مُسَرمداً ، فالمحسوساتُ الأُخْرَويَّةُ مُسَرْمَداتٌ ؛ لأنَّ المحسوساتِ الأُولىٰ[٣] أنشَأَتْها للفِطَرِ الصَّالحةِ ، والبَاري سُبحانَهُ وتعالىٰ

---

(١) كلمة (أن) تكررت في الأصل .

(٢) في الأصل : (سرمدي) .

(٣) في الأصل : (الأوَّلة) .

جَعلَ لها محسوساتٍ ، فعَادَ المبدوءُ بهِ للأبَديَّةِ[1] ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ وَهَب للإنسانِ وجوداً جَعَل لهُ إدراكاً بالبديهةِ والضَّرورةِ ، ولمْ يجعَلْ لهُ مُنقَطعاً ومُنتَهىً .

وهٰذا العِلمُ المُستَمِيحُ مِن بَحرِ مِشكَاةِ العِلمِ ، أَتَىٰ على العِلَّةِ الأُولىٰ[2] فأَبطلَها وأَبطلَ كَمالَها ، فكَونُهُ جَعلَها النَّفسَ الكَاملةَ ومُنتَهى الكَائناتِ الشَّهاديَّةِ إليها ، وعندَها وقَفَ ، فلمْ يَثبُتْ لشيءٍ آخرَ وجودٌ ؛ لأنَّها مُنتهىٰ إدراكِهم ، فجَعلَ النَّفسَ الكُلَّ مَعلولاً علىٰ أنَّ تكُونَ الرُّوحُ عِلَّةً ، وبَطَلَ أنْ تكُونَ الرُّوحُ عِلَّةً ، فبَطَلَ أنْ تكونَ النَّفسُ معلولةً ، والمعلولُ بزَعْمِهم لهُ طَرَفٌ إلى الإيجابِ وطرَفٌ إلى الإمكانِ ، وهٰذهِ رُتبةُ[3] النَّفسِ الكُلِّي ، ولمْ يعرِفوا غيرَها ، والرُّوحُ الأَعظمُ هو الرُّوحُ الَّذي كَوَّنَهُ الحقُّ فأَدركَهُ الأنبياءُ ، فالتَّكثُّرُ وَصفُ النَّفْسِ بطَريقِ إمكانِهِ ، والتفطُّرُ بالرُّوح عبَّرَ عنهُ الجُهَّال بوَصفِ إيجابِهِ ، وأَهملوا إدرَاكَ واجبِ الوُجودِ والأَوصافِ المُتعدِّدةِ ، فلم يُثبِتوا لهُ الأَوصافَ الَّتي تَدُلُّ علىٰ تكوينِ الرُّوحِ والنَّفْسِ النَّاطقةِ ، الَّتي أُبينَتْ مِنَ الرُّوحِ كإبانةِ حوَّاءَ مِنْ آدمَ .

فقُلْ للفلاسفةِ حتَّىٰ يَغرَقوا في تَيَّارِ هٰذا البيانِ ، ويأنَسوا إلى الِاستعدادِ للعَذابِ الأليمِ ؛ فهٰذا القُطرُ مَعمورٌ بهم ، كما القُطرُ الآخَرُ مَعمورٌ بالرُّسلِ والأنبياءِ ؛ لأنَّ الكَمالَ الأزليَّ يَقضِي بالِاعتدالِ في الوَصفَيْنِ تكويناً وتسَرمُداً .

❊ ❊ ❊

---

(١) في الأصل : (الأبديَّة) .

(٢) في الأصل : (الأوَّلة) .

(٣) في الأصل : (رتبةُ الرُّتبةِ) .

فَصْلٌ

[في بيانِ جهلِ الفلاسفةِ بحقائقِ الكائناتِ]

اعلمْ : أنَّ حُكماءَ الفلاسفةِ نَهَضوا للبَحثِ والتَّفتيشِ عن كُنْهِ الكَائناتِ قبلَ قِسمتِهِمُ الأَجسادَ والأَعراضَ والجَواهِرَ ، فرَأَوْا التَّكثُّرَ عنِ المُمكناتِ ، والموجودُ الَّذي عنهُ التَّكثُّرُ لا بدَّ لهُ مِن مُوجِبٍ ، فاتَّخذوا شيئاً وسَمَّوْهُ : عِلَّةَ العِلَلِ ، وقالوا : هٰذا المُمكِنُ الواحِدُ أوجَبَتْهُ[1] هٰذه العِلَّةُ ، فلما ظَفِروا بإدراكِ مُوجِبٍ لِيَنسُبوا إليهِ المُوجَبَ . . قالوا : هٰذا المُوجِبُ لهٰذا الموجَبِ هو عِلَّةُ العِلَلِ .

وانتهىٰ سَيرُهم ، واكتفَوْا بذٰلكَ ، فعادوا قَهْقَرىٰ ، ورَجَعوا إلىٰ وَرا ، ووَجدوا للنَّفسِ الكُلِّ وصفاً آخرَ ؛ وهُو الإمكانيَّةُ ، فوَقعوا بعدَ ذٰلكَ في تَفتِيشِ ما يُحكِمُ أَساسَهُم وأَمرَهُم[2] ، فبَذلوا التَّلاميذَ على البَحثِ في الرِّياضيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ حتَّىٰ أَحْكَموها ، فبعدَ ذٰلكَ قَبِلوا منهُم ما أَشاروا إليهم في الإلٰهيَّاتِ ؛ كمَن يَسلُك بمَنْ يتَّبِعُه في أَرضٍ ذاتِ أَعلامٍ ، ويَهتَدِي إلى الطَّريقِ بالأَعلامِ ، فلمَّا وصَلَ إلىٰ بيدَاءَ عَمياءَ لا عَلَمَ بها . . خَرجَ إرشادُهُ خَطأً ودَلالتُهُ باطِلاً .

هٰكذا هَلَكَ التَّلامِذةُ بإرشادِ الأُستاذِينَ ، وانسَحَبَ عليهِم هٰذا الهَلاكُ في الأَعصارِ والدُّهورِ بعلومٍ أحاط بهم سرادقها .

وحَكَمَتْ علومُهُم بالجَهلِ بحَالِ الأَنبياءِ ، وبما أخبَروا بهِ في الكتُبِ السَّالفةِ والقرآنِ المجيدِ ، واستَجْهلوا أَهلَ الإيمانِ ، وجَهِلوا طريقَ اقتباسِهِم مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّاتِ ، فلذٰلكَ جَهِلوا أنَّ مَنبَعَ علومِهِم الضالةِ[3] مِن أين ؟ ومنابعَ علومِ الأنبياءِ

---

(١) في الأصل : (أوجبه) .

(٢) الواو زيادة يقتضيها السِّياق .

(٣) في الأصل : (الضلالة) ، ولعل الصواب ما أثبت .

مِن أينَ ؟ وجاءَ خَلَفُهُم ونَسَجُوا على مِنْوالِ سَلَفِهِم مِنَ اليونانيِّينَ والهندِ ، ولم يَتَبَيَّنْ لهم وَجهُ ضَلالِهِم .

وجاءَ قومٌ مُستَتِرونَ بالإسلامِ ، وَزَنُوا قِسطاً[1] مِنَ الذَّكاءِ والفِطنةِ ، فطالَعوا علومَهم ، فعَلِقَ بهِم دَاؤُهم[2] ، وعَدا إليهم ضَلالُهُم ، وصنَّفوا مُصنَّفاتٍ رَوَّجوها[3] بامتِزاجِها بشيءٍ مِنْ أُصولِ الدِّينِ ، ولا امتزاجَ على الحقيقةِ كما لا يَمتزِجُ المَاءُ بالدُّهنِ ؛ إذْ أصولُ الدِّينِ في حِصنِ الكتابِ والسُّنَّةِ ، ولٰكنْ قَصَدوا بالِامتزاجِ إيداعَ[4] العِلَّةِ في القلوبِ عَسِرَةِ العِلاجِ ، فإذا اعتَبرَهمُ المُعتبِرُ . . يراهُم[5] مُقلِّدِينَ لأوائِلِهِم .

فتَولَّدَت مِن أفكارِ الخَلَفِ علومٌ أَيَّدَتْ ما قالَ سَلَفُهُم ، فكَثُرَتِ المُصنَّفاتُ ، وتشعَّبَتِ الضَّلالةُ ، وتركَّمَتِ الجَهالاتُ كسراب بقيعة يحسبها الظمآن ماء .

وربَّما جَعَلوا لعُلومِهم في المُصنَّفاتِ قُمُطاً ومُلِفَّاتٍ مِن حُسنِ العِبارةِ ؛ فاغترَّ بذٰلكَ قَومٌ مِنَ الجُهَّالِ ، فكَفروا بمُجرَّدِ تخيُّلٍ فاسدٍ ووَهْمٍ باطلٍ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في الأصل : (قطساً) .

(٢) في الأصل : (دواءهم) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٣) في الأصل : (زوَّجها) .

(٤) في الأصل : (إبداع) .

(٥) في الأصل : (يراه) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

فَصْلٌ

[في عدمِ إنكارِ العلومِ المبرهنةِ]

مِنْ أَعظمِ الفِتَنِ المُولِّدةِ للضَّلالاتِ ما دَقَّق الفلاسفةُ النَّظَرَ فيهِ مِنَ الرِّياضيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ المُبرهَنةِ ببراهينَ واضحةٍ لا سبيلَ إلىٰ إنكارِها ، ورُبَّما قومٌ مِنْ أهلِ الإيمانِ ـ لسلامةِ قلوبِهم ـ يُنكِرونَها ؛ فيَستَجْهِلُهُم أَتباعُ الفلاسفةِ .

والحُذَّاقُ مِن أَهلِ الإيمانِ لا يُنكِرونَ العلومَ المُبرهَنةِ ، ولٰكنْ يَعلمونَ أنَّ ذٰلكَ حَدُّ مَطارحِ نَظرِهِم ومَسارِحِ عِبَرِهِم ، ولٰكنْ قَنَعوا مِنَ العلمِ بالحظِّ اليسيرِ ، والنَّزْرِ الحقيرِ ، فأينْ هُم مِنْ علومِ الأَنبياءِ الَّتي انعكسَتْ في مَرائي قلوبِهِم جُمَلُ علومِهم ، وأصلُها الَّذي علومُ الفلاسفةِ فَرْعُهُ وشُعَبُه وأَوشالُه ؟! فلمَّا رأىٰ مَنْ أرادَ اللهُ تعالىٰ بهِ الضَّلالَ تلكَ المُبَرهَناتِ . . قلَّدهم في الإلٰهيَّاتِ ، فكانَتْ هٰذه مِن أَعظمِ الفِتَنِ .

فَصْلٌ

[في ضيقِ علومِ الفلاسفةِ]

طارَ طائرُ أفكارِ الفلاسفةِ حتَّى انتهَوا إلىٰ قَفْرٍ مُتناهي الأَطرافِ ، انتهَتْ أطرافُهُ إلىٰ أَفكارِهِم ؛ فسَمَّوهُ : عِلَّةَ العِلَلِ ، وغَرِقُوا في بحارِ أفكارِهِم ، وفَنِيَتْ أعمارُهُم ، وانقَطَعَ سَيرُهُم دونَهُ ، وجَهِلوا كُنهَ الأَزَلِ والأَبدِ ، وقضَتْ علومُهُم بمَعلوماتٍ مُنقطعةِ المَدَدِ ، وهل يُتصوَّرُ في علومِهِم أَلَّا يكونَ للهِ تعالىٰ إلَّا مَشيئةٌ واحدةٌ ؟! وهلْ يَعلَمونَ غيرَ ذٰلكَ ؟!

ولمْ يعلمْ هٰؤلاءِ الجَهلةُ سِرَّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[1] .

فلو فهِموا معنىٰ ذٰلكَ ، وأدركوا طَورَهُ . . أحاطوا عِلماً بما لمْ يَمُرَّ[2] بخَواطِرِهِم أَبداً ؛ فمَعنىٰ ذٰلكَ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ الإنسانَ وأودَعَ فيهِ ما صارَ بهِ مُحاكِياً لكَمالِ اللهِ تعالىٰ ؛ وذٰلكَ أنَّهُ كَوَّنَهُ مُشتَمِلاً على القُوَّةِ النُّزُوعيّةِ المُشتَمِلةِ[3] المُقتسمةِ على الغَضَبيَّةِ والشَّهَويَّةِ ، بخلافِ الملائكةِ ؛ إذْ هم غيرُ مُشتَمِلينَ على الصِّفتَينِ ؛ بلْ هُم إمَّا ملائكةُ الرَّحمةِ فحَسبُ ، أو ملائكةُ العَذابِ فحسبُ .

فالإِنسانُ ـ باشتمالِهِ علىٰ هاتَينِ الصِّفتينِ ـ مُحاكٍ اللهَ تعالىٰ ؛ للقهرِ الَّذي هو فوقَ قهرِ الإنسانِ ، واللُّطفِ الَّذي هو فوقَ لُطفِ الإنسانِ ، حتَّىٰ لا يُشبِهُهُ شيءٌ[4] ، فعندَ هٰذا ثَبِّتْ ـ ولا تُشَبِّهْ[5] شيئاً ـ قَدَمَكَ[6] ، واخرُجْ مِنْ دَائرةِ حَدِّ

(١) أخرجه البخاري (٦٢٢٧) ، ومسلم (٢٦١٢) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٢) في الأصل : (تمر) .
(٣) في الأصل : (المشملة) .
(٤) في الأصل : (شيئاً) .
(٥) في الأصل : (يشبه) .
(٦) تحتملُ العِبارةُ قراءةً أخرىٰ : (ولا تشبه شيئاً قد مات) .

عِلمِكَ ، وقِسْ علىٰ هٰذه المُحاكاةِ مُحاكاةَ الإنسانِ بمَشيئاتِهِ المُتعدِّدةِ في إحداثِ أَفعالِهِ المُتكرِّرةِ مَشيئاتٍ إلـٰهيَّةً[1] غيرَ مُتناهيةٍ في تكوينِ كائناتٍ في عَوالمَ غيبيَّةٍ غيرِ مُتناهيةٍ ، وتطرَّقْ إلىٰ ذٰلكَ بما وَرَدَ[2] : أنَّ جبريلَ عليهِ السَّلامُ يَغوصُ في عَيْنٍ تحتَ العَرشِ ، ثمَّ يَصعَدُ فينتَفِضُ انتفاضةً يُخلقُ مِن كلِّ قَطرةٍ منها مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ يطيرُ إلىٰ يومِ القيامةِ ؛ حتَّىٰ تَفهمَ مِن ذٰلكَ مَشِيئاتٍ مُتعدِّدةً إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وعَوالمَ مُكوَّنةً إلىٰ غيرِ نهايةٍ ؛ بينَ أَزلٍ لا نهايةَ لهُ ، وأَبدٍ لا نهايةَ لهُ[3] .

فإنْ مرَّ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ شيءٌ مِنْ هٰذا بمَشَامِّ فِطنتِكَ . . فاعلمْ أنَّ الَّذي سمَّيتَه : عِلَّةَ العِللِ . . نتيجةُ مشيئةٍ واحدةٍ مِنَ المَشيئاتِ الأَزليَّةِ ، انبسطَتْ وأنتجتِ المعلولَ الأوَّلَ والثَّانيَ والثَّالثَ والرَّابعَ مِنَ العقلِ والنَّفْسِ[4] ، حتَّىٰ انتَهَىٰ إلىٰ غايةِ مَفهومِكَ ، ثمَّ انقطَعْتَ ، وعندَ هٰذا القولِ يَستَحْيِي أرسطاليسُ وأفلاطونُ مِن علومِهِم والجمعُ الَّذينَ حَصَرَهم أربابُ التَّصانيفِ في تَصانيفِهم ، واعتَدُّوا بعُلومِهِم ، واعتَقدُوا أنَّهُم ظَفِرُوا بالصَّحيحِ ، وما رَدَّهُم عنِ الاعتقادِ فيهِم اضطِرابُ أَنحائِهِم وتَشَعُّبُ آرائِهِم ، وما عِلموا بذٰلكَ وَهْنَ أساسِهِم ، وبُنيانُهُم علىٰ شفا جُرفٍ هارٍ فانهارَ بهِ في نارِ جهنَّمَ .

* * *

---

(١) في الأصل : (الإلـٰهيَّة) .

(٢) أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ في « التَّفسير » كما في « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٤٢٨/٧) ، قال : (حدَّثنا أبي ، حدَّثنا هشام بن عمَّار ، حدَّثنا الوليدُ بنُ مسلم ، حدَّثنا روح بن جناح ، عن الزُّهري ، عن سعيد بن المسيّب ، عن أبي هريرةَ ، عنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال : « في السَّماء السَّابعة بيت يُقال له : المعمور ؛ بحِيالِ الكعبةِ ، وفي السَّماء الرابعةِ نهرٌ يقال له : الحيوانُ يدخلُه جبريلُ كلَّ يومٍ ، فيَنغَمِسُ فيه انغماسةً ، ثمَّ يخرجُ فيَنتَفِضُ انتفاضةً يَخِرُّ عنه سبعونَ ألفَ قطرةٍ ، يخلُقُ اللهُ مِن كلِّ قَطرةٍ مَلَكاً يُؤمرونَ أن يأتوا البيتَ المعمورَ ، فيصلوا فيه فيفعلونَ ، ثمَّ يخرجونَ فلا يعودونَ إليه أبداً ، ويولِّي عليهم أحدَهم ؛ يؤمَرُ أن يَقِفَ بهم مِنَ السَّماءِ موقِفاً يُسبِّحونَ اللهَ فيه إلىٰ أن تقومَ السَّاعةُ ») .
وانظر : « الحبائك في أخبار الملائك » للسُّيوطي (ص ١٣ ـ ١٦) .

(٣) كلمة (له) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٤) في الأصل : (العقل والنَّفس والعقل) .

فَصْلٌ

[حوارُهم في النشأةِ الأولىٰ]

نورٌ لَمُوعٌ مُقتبَسٌ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ المحمَّديَّةِ يَفُضُّ خِتامَ الحُجَّةِ الواضِحةِ المُقحمةِ لمعاشرِ الفلاسفةِ اليُونانيَّةِ والهندِ ، ويَغسِلُ دَرَنَ[1] مُصنَّفاتٍ مُشتَمِلةٍ علىٰ علومٍ مُقتبَسةٍ مِن أَدخِنةِ نارِ أنفَاسِهم الكَدِرةِ ، أخطؤوا الطَّريقَ فيها وفي إثباتِها ، حتَّىٰ جمْعٌ مِنَ المُنتَمينَ المُترسِّمِينَ بالإسلامِ اعتَدُّوا بها ؛ فمِنهُم تائبٌ رَاجِعٌ عمَّا قالَ ، ومنهُم مُتظاهِرٌ بالإسلامِ مُدنِّسٌ سَرِيرَتَهُ بعُلومِ الفَلاسفةِ ومُعتَقِدٌ لها ، مُعتَدٌّ بالبُرهانِ ، مُكتَفٍ بهِ ، مُنكِرٌ لكُلِّ ما لا يدخُل تحتَ مِيزانِ البُرهانِ .

فأقولُ : يا إخوانَ الجِنسيَّةِ بطريقِ الإنسيَّةِ ، لا بطريقِ الدِّينيَّةِ والعَقليَّةِ ؛ إنَّ حُجَّةَ اللهِ تعالىٰ عَظُمَتْ عليكُم ، يا معاشرَ الفلاسفةِ ، والثِّقةُ[2] محمودةٌ ؛ وذٰلكَ بأنْ تَعلَموا أنَّ اللهَ تعالىٰ أَبرَزَ الموجوداتِ مِنَ العَدمِ ، وقَسَمَها شُهَّداً وغُيَّباً ؛ ليُستدَلَّ بالشَّاهدِ على الغَائبِ ؛ فعالَمُ المُلكِ ودارُ الدُّنيا عالمُ الشَّهادةِ ، والآخِرةُ هي دارُ القَرارِ عالَمُ الغَيبِ ، وجعلَ أيَّامَ الدُّنيا ذاتَ قِصَرٍ ، قليلةَ المَدَىٰ ، سَريعةَ الزَّوَالِ ، وَشِيكةَ الِانتقالِ ، والآخرةَ مَدِيدةَ المَدَىٰ ، دائِمةَ البقاءِ .

جَعلَ المُكوِّناتِ في هٰذه الدَّارِ ـ يعني : الدُّنيا ـ علىٰ قَدْر زَمانِها ، وهٰكذا كلُّ ما أَخرَج إلىٰ هٰذه الدَّارِ الدُّنيا وما فيها من النَّعيمِ وأَسبابِ المعاشِ علىٰ قَدرِ قِصَرِها كما عَلِمتَ مِن قِصَرِ الأيَّامِ والشُّهورِ والسِّنينَ ، وفي الآخرةِ يومٌ كألفِ سنةٍ مما تعُدُّونَ ، ويومٌ خمسونَ ألفَ سنةٍ ، وجعلَ المُكوِّناتِ في الغيبِ والآخرةِ علىٰ قَدرِ زَمانِها ؛ ليُستدلَّ باليسيرِ على الكَثيرِ[3] ، فيكونُ ذٰلكَ طَريقاً

(١) في الأصل : (دون) ، ولعل الصوابَ ما أثبتُّ .

(٢) تقرأ في الأصل : (والشُّقَّة) .

(٣) في الأصل : (باليسير بالكثير) ، ولعل الصوابَ ما أثبتُّ .

مَهْيَعاً يسلكُهُ أهلُ البصائرِ والاستبصارِ ، الظَّافِرونَ[1] بكَنزِ الأَسرارِ .

فأيُّها الأخُ الجِنسيُّ ؛ أذكرُ لكَ شاهداً ومشهوداً لهُ على غائبٍ مَستورٍ عنكَ ، مَنكورٍ عندَكَ ؛ أَخبِرْني عن تَقدُّمِ العِلَّةِ على المعلولِ : أهو تقدُّمٌ زَمانيٌّ أم تَقدُّمٌ وُجودِيٌّ ؟ ولا شكَّ أنَّكَ لا تُخالِفُ أنَّهُ وُجوديٌّ لا زَمانيٌّ ، فالمعلولُ لا يُخالفُ أنَّهُ يكونُ جائزَ الوجودِ مُمكِناً ، والعِلَّةُ واجبةُ[2] الوجودِ بزَعمِكَ ، فهلَ يتوقَّفُ إيجادُ الجَائزِ على العِلَّةِ أم لا ؟

ولا شكَّ أنَّكَ تقولُ : نعمْ ، فهل يتوقفُ وجودُ العلّةِ الواجبةِ الوجودِ على وجودِ المعلولِ الجائزِ الوجودِ ؟ فتقولُ : لا .

وأنا أُبرِزُ[3] لكَ شاهداً دَليلاً مِن هـٰذا العالَمِ والزَّمانِ المُختصَرِ على ذٰلكَ العالَمِ الطَّويلِ المَديدِ الَّذي يُحكَمُ فيهِ ببقاءِ النَّفْسِ[4] الإنسانيَّةِ النَّاطقةِ الباقيةِ بعدَ دُثورِ القَالَبِ ، وهـٰذا الشَّاهدُ المشهودُ لهُ : آدم ! فتقدُّمُ[5] وجودِ آدمَ على حوَّاءَ زَمانيٌّ أم وُجوديٌّ ؟

فلا شكَّ أنَّ عقلَك يشهدُ بأنَّهُ كانَ وُجوديّاً لا زَمانيّاً ، كما تزعمُ أنتَ في العلَّةِ والمعلولِ ، فهل كانَ التَّكثُّر ـ أعني : الذُّرِّيَّةَ ـ مُشتركاً بينَ آدمَ وحوَّاءَ أم لمْ يكُن ؟ ولا نشكُّ[6] أنَّهُ كانَ مُشتركاً بينَهُما ، وحيثُ كانَ مُشتركاً بينَهُما فاجعلِ الاشتراكَ بينَ العِلَّةِ والمعلولِ سَواءً ، واسلُكْ طَريقاً مَهْيَعاً يَحمِلُكَ إلى المُوجِدِ لهـٰذيْنِ الشَّريكيْنِ في عالَم الأمرِ ، كما أنَّ آدمَ وحوَّاءَ شَريكانِ في عالَم الخَلقِ .

واجعلْ هـٰذيْنِ ـ الرُّوحَ الأعظمَ ، والنَّفْسَ الكُليَّ ـ شريكيْنِ مُوجِبيْنِ للأفلاكِ

---

(١) في الأصل : (الظافرين) .
(٢) في الأصل : (واجب) .
(٣) في الأصل : (أبرر) .
(٤) في الأصل : (نفس) .
(٥) كلمة (فتقدم) تكررت في الأصل .
(٦) في الأصل : (نشك له) .

وما تَحويها مِنَ الشَّمسِ والقمرِ وسائرِ الكَواكِبِ ، ثمَّ انزلْ إلى العناصرِ والأركانِ والأُستُقُصّاتِ والطَّبيعةِ ، كلُّها مُضافةٌ إلىٰ هٰذيْنِ الاثنينِ ـ العلَّةِ والمعلولِ ـ كما كوَّنَهُما شَريكانِ[1] : المُوجِدُ القديمُ ذو الأسماءِ والصِّفاتِ السَّبعةِ اللَّازمةِ لها ، والأسماءُ الَّتي لا تُحصَى ، المُكوِّنُ بتلكَ الأسماءِ عَوالمَ مِنها ما اطَّلعَ المُرسلونَ عليها مِن تسعٍ وتسعينَ ، إلىٰ غيرِها ممَّا لمْ يدخُلْ تحتَ أفهامِ المُرسلينَ ، بلِ استأثرَ اللهُ تعالىٰ به[2] وتَحسَبُها لهُ عوالمَ ما أدركَها المُرسَلونَ عليهِم السَّلامُ .

وهٰذا كلامٌ تَطوفُ جميعَ بِلادِ يونانَ والهندِ لا تجدُ مَنْ يسمعُ سماعَهُ ، فمَنْ سَمِعَهُ منهم وفهِم . . أذْعَنَ لا محالةَ ، ويتركُ ما تخيَّلَهُ ألَّا يُوجَدَ مِنَ الواحدِ إلَّا واحدٌ .

فاجعَلِ الواحدَ الصَّمدَ الَّذي صَمَديَّتُهُ استَحقَّهَا لمَّا كانَ لهُ أَزليَّةٌ متَّصِلةٌ بأَبَديَّةٍ ، وأَبَديَّةٌ متَّصلةٌ بأَزليَّةٍ ، لا يَحُلُّ نِظامَها شيءٌ ، ويتكفَّلُ بِهِ : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ ، والأَحدِيَّةُ هٰكذا ، متَّصِلةٌ أزليَّتُها بأَبَديَّتِها ، وأَبدِيَّتُها بأزليَّتِها ، وهي وافيةٌ بوَصفِ مَنْ ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾[3] .

واجعلْ هٰذا المُوجِبَ مُوحَّداً بهٰذا الواحدِ الصَّمدِ ، وقدْ تخلَّصْتَ وصِرتَ ذا طَوْقِ الانقيادِ والإذعانِ ، تفيءُ إلىٰ أَمرِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ وإلىٰ طاعةِ المُرسَلِينَ ، مُؤمناً بما أُوتوا بهِ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ وسائرِ أَنباءِ الغَيبِ .

وقدْ أَبرَزْتُ لكَ شاهداً علىٰ غائبٍ لِتَثبُتَ[4] حُجَّتي عليكَ ، فأبرزْ أنتَ لي حُجَّةً بُرهانيَّةً تدلُّ[5] علىٰ وجودِ عِلَّةِ العِللِ ؛ حتَّىٰ أَعلمَ أنَّ ثَمَّ علَّةَ العِلَلِ بالبُرهانِ ، وأَتيقَّنَ أنَّكَ غيرُ قادرٍ على الإتيانِ بالبُرهانِ ، وأَتاكَ الخطأُ مِن حيثُ

(١) في الأصل : (كونها شريكين) .
(٢) كلمة (به) زيادة يقتضيها السِّياق .
(٣) سورة الإخلاص : (٣) .
(٤) في الأصل : (ليثبت) .
(٥) في الأصل : (يدل) .

إنَّكَ تطلَّعتَ بنُورِ فِطرتِكَ علىٰ وُجودِ واجبِ الوجودِ ذي الأَسماءِ والصِّفاتِ ، ثمَّ ضَبابُ الخِلْقةِ غَشِيَتْ نُورَ فِطرتِك وحَملَتْكَ إلى البُرهانِ ؛ لتَستَدِلَّ بهِ علىٰ ما أدركتْهُ الفِطرةُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1] .

فجهِلتَ اللهَ ولمْ تهتدِ إليهِ ؛ لمُزاحمةِ حِجابِ الخِلْقةِ ، فعَدلْتَ إلىٰ إثباتِ عِلَّةِ العِللِ الَّتي أَدركَها العقلُ الخَلْقيُّ ، فأثبَتَ العقلُ الخَلْقيُّ موجوداً بلا أسماءٍ وصفاتٍ ، فسمَّاهُ : عِلَّةَ العللِ ، ثمَّ جَهِلَ أنَّ علَّةَ العِللِ هو الرُّوحُ الأَعظمُ الَّذي خَلقَهُ اللهُ ولا شيءَ أكبرُ منهُ إلَّا العَرشَ ، ثمَّ أَصدَرَ مِن هٰذا الخَلْقِ الكَثيرِ النَّفْسَ الكَبيرَ ، كما أخرَجَ حوَّاءَ مِنْ آدمَ ؛ الرُّوحُ بمَثابةِ الذَّكَرِ ، والنَّفسُ بمَثابةِ الأُنثىٰ ، فالتبَسَ عليكَ الأَمرُ ، ولِانغماسِك في بَحرِ الجَهالةِ جَعلتَ الِاثنيْنِ واحِداً .

وكما التبَسَ عليك الأَمرُ في العِلَّةِ والمعلولِ هٰذا . التَبَسَ عليكَ الأَمرُ في لسانَيهِما ، ولَمْ يَتمَيَّزْ أَحَدُ اللِّسانيْنِ عنِ الآخَرِ ؛ فلِسانُ الرُّوحِ عقلٌ فِطريٌّ ، ولِسانُ النَّفْسِ عقلٌ خَلْقيٌّ ، فالعَقلُ الفِطريُّ : مجالُ المَلَكوتِ وعالَمِ الغيبِ ، ومَجالُ العَقلِ الخَلقيِّ : عالَمُ المُلكِ والشَّهادةِ ، فمَسَحَ العقلُ الخَلقيُّ عالَمَ الخَلقِ مِنْ فَلَكِ البُروجِ إلىٰ فَلَكِ القمرِ ، وأتىٰ على الإحاطةِ بالكَواكبِ وأَجرامِها وطِباعِها وتأثيراتِها ، وعلى الأَفلاكِ ومَراتبِها ، وعلى الطِّباعِ ومَصادرِها مِنَ الأَركانِ والمراكزِ والأُستُقُصَّاتِ ، فلم يزلْ حثيثَ السَّيْرِ حتَّى انتهىٰ إلىٰ جميعِ المُدرَكِ بالعِلَّةِ والمعلولِ والصَّادرِ مِنهُما ، وعندَ ذٰلكَ وَقَفَ ، وأَخَذ بيدِ الفلسَفيِّ وحَبَسَهُ[2] في تُخومِ عالَمِ الغيبِ ، فأَدرَكَ الجنَّةَ والنَّارَ ، والصِّراطَ والميزانَ ، والبَعثَ والنُّشورَ ، وما في الجنَّةِ مِنْ نعيمٍ ، وما في النَّارِ مِنَ العَذابِ الأليمِ ، فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ .

---

(١) سورة لقمان : (٢٥) .

(٢) في الأصل : (وحسبه) ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

وهٰذا عِلمٌ مُقتبَسٌ مِن مِشكاةِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ العَربيِّ ، الَّذي كرَّ على المُرسَلِينَ في الأطوارِ بالإتمامِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1] ؛ لأنَّهُ أكمَلَ دِينَهُ بإتمامِ أَحوالِ المُرسَلِينَ فيهِ ، وقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « نَحْنُ ٱلْآخِرُونَ ٱلسَّابِقُونَ »[2] حِليةٌ[3] اكتَسبَها مِن صَمَديَّةِ اللهِ وأَحدِيَّتِه ، في اتِّصالِ أَوَّلِهِ بآخرِهِ ، وآخرِهِ بأَوَّلِه ، واللهُ الهادي إلى الرَّشادِ ، ومنهُ العونُ والتَّأْييدُ .

* * *

(١) سورة المائدة : (٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٨) ومسلم (٨٥٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) هنا تنتهي الورقة (١٤٢) ، وتبدأ الورقة (١٤٠) .

فَصْل

[في تفصيلِ الكلامِ في قياسِ الشاهدِ على الغائبِ والغائبِ على الشاهدِ]

اعلمْ ـ أيَّدَكَ اللهُ ونوَّرَ قلبَكَ لإدراكِ الحقِّ وإدراكِ الباطلِ ـ : أنَّ القِياسَ للشَّاهدِ على الغائبِ والغائبِ على الشَّاهدِ يحصُلُ باشتراكِ الشَّاهدِ والغائبِ إمَّا في وَصْفٍ خاصٍّ ، أو في وَصْفٍ عامٍّ .

وبيانُ ذٰلكَ : أنَّ اللهَ تعالىٰ لهُ الكمالُ الأزليُّ ، فاقتَضىٰ هٰذا الكمالُ أنْ يكونَ مَوصوفاً باللُّطفِ والقَهرِ : لُطفٌ لا يَلحَقُه لُطفٌ ، وقهرٌ لا يَلحَقُهُ قهرٌ ، وما لا[1] يتراءَىٰ للإنسانِ مَنْ لُطفِهِ وقهرِهِ . . هو علىٰ مُقتضَىٰ قُصورِ الإنسانِ ، فلُطفُ اللهِ تعالىٰ مِنْ خزائنِ الجُودِ الأزليِّ ، أخبرَ وقالَ : « كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيّاً لَا أُعْرَفُ ، فَخَلَقْتُ ٱلْخَلْقَ لِأَنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ »[2] .

فطَلَعَتْ شمسُ المعرفةِ مِنْ مَطالعِ الجُودِ الأزليِّ ، فأشرقَتْ جُدرانُ جَنانِ المُرسَلِينَ والأنبياءِ وأتباعِهِم عليهِمُ السَّلامُ موقوفاً هٰذا التَّعريفُ عليهِمْ دونَ غيرِهِم ممَّنْ نَكَبَ عن صِراطِ مُتابَعتِهِم .

وما أتَىٰ بِهِ الرُّسلُ عليهِمُ السَّلامُ مُجتمِعو الآراءِ والعُقولِ فيهِ لمْ يكنْ في أصولِ المعرفةِ والعلمِ باللهِ اختِلافٌ واضطِرابٌ ؛ بلْ كلُّهُم ظَهروا بكلمةِ التَّوحيدِ ، وانتَشرتْ عُلومُهم في أتباعِهم على اختلافِ طَبقاتِهِم ؛ فمِنهمُ المُقرَّبونَ ، ومِنهمُ الأبرارُ ، ومِنهم عامَّةُ المؤمِنينَ ، فمُلِئَتِ الكُتُبُ وسُطِّرَتِ التَّصانيفُ في كلِّ مِلَّةٍ علىٰ تَنوُّعِ علومِهِم ، وفي مِلَّة الإسلامِ رُفِعَ عَلَمُ العلمِ مِنْ أيدي العلماءِ الرَّاسِخِينَ في العلمِ ، وانتَشرَت علومُ الدِّينِ مِنَ المَذهَبيَّة والخِلافيَّةِ والجَدَليَّةِ ، وما تُلقَّحُ[3]

---

(١) في الأصل : (ولا) .

(٢) انظر الحاشية رقم (٣) في (ص ٢٠٩) .

(٣) في الأصل : (يلقح) .

بهِ الفُهومُ مِن علمِ الأصولِ ، وغيرُ ذٰلكَ ممَّا استُنبِطَ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وما يُستعانُ بهِ علىٰ فَهمِها مِنْ علمِ العربيَّةِ والإعرابِ ، فتَكمَّلَتِ الشَّريعةُ وتأيَّدَتْ بذٰلكَ[١] ، مُستَمَدّاً مِنْ بَحرِ الجُودِ الأَزَليِّ واللُّطفِ الإلٰهيِّ الَّذي اتَّصَفَ بهِ الباري سبحانَهُ وتعالىٰ ، فتشبَّثَ بهِ رِضاهُ[٢] .

ثمَّ اقتضى الكمالُ الأزليُّ قهراً لا يُشبهُهُ قهرٌ ، فظهرَ بمُوجبِ ذٰلكَ غَسَقٌ مِنَ الجهالةِ باللهِ تعالىٰ وبأسمائِهِ وصِفاتِهِ وقَدَرِهِ وآياتِهِ ، وسَبَبُ هٰذهِ الجهالةِ علومٌ فِكريَّةٌ أنتَجَتْها أفكارُ أهلِ الضَّلالِ ، فثَبتَتْ لهُم علومٌ هي نتائجُ أفكارِهِم ، مُستَمَدَّةٌ تلكَ العلومُ مِنْ خزائنِ قَهرٍ هو وَصفُ القَهَّارِ الأزليِّ ، فاختصَّتْ تلكَ العلومُ بعالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، وانحبَسَتْ في عالَمِ المُلكِ ، وأحاطَ بهِ سُورُ البُرهانِ ؛ مِن فَلَكِ البُروجِ إلىٰ فَلَكِ القَمرِ الَّذي حَشْوُهُ العناصرُ والأركانُ والأُستُقُصَّاتُ .

واختَصَّ بهٰذا العِلمِ ـ الَّذي هو عِلمُ عالَمِ المُلكِ ـ أقوامٌ بخَواطرَ ذكيَّةٍ ، وإدراكٍ هو استِدراجٌ بمُوجبِ القَهرِ ، وجميعُ مُتفرِّقاتِ فُهومِهِم وعُلومِهِم انتَقَشَ في استِعدادِ قلوبِ المُرسَلِينَ ، وعَزَّتْ أوقاتُهُم أن يُفصِّلُوها أو يُعِيروا أطرافَهُم إيَّاها ، فبإقبالِهم[٣] على العالَمِ الأزليِّ ، وأُنسِهِم بهِ اتَّسعَتْ[٤] أوعيةُ قلوبِهِم بالعلمِ باللهِ وقَدَرِهِ وآياتِهِ ، وصارَتِ العلومُ الفِكريَّةُ مَوقوفةً علىٰ وَصفِ القَهرِ الأزليِّ ؛ ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[٥] ، وجَعلَ العقلَ الَّذي هو مَناطُ التَّكاليفِ ، والَّذي هو قُوَّةٌ غَريزيَّةٌ مُهيَّأَةٌ لدَرَكِ العلومِ . . مُشترَكةً بينَ الفَريقَيْنِ مِن أهلِ العلمِ والجهلِ ، والرَّشادِ والضَّلالِ .

---

(١) في الأصل : (ذٰلك) .
(٢) كذا في الأصلِ ، وتقرأ : (قضاه) .
(٣) في الأصل : (فإقبالهم) .
(٤) في الأصل : (اتسع) .
(٥) سورة الأنفال : (٤٢) .

ولم يَزلِ المُرسَلونَ يَستمِدُّونَ مِنْ بحرِ الجُودِ الأزليِّ واللُّطفِ الإلٰهيِّ ، والطَّائفةُ الأُخرىٰ يَستَميحونَ مِنْ بَحرِ القهرِ[1] الأزليِّ بعُلومٍ صارَتْ حِجاباً بينَهُم وبينَ اللهِ تعالىٰ ؛ ليَتحقَّقَ الفِئتانِ بأداءِ حقِّ اللُّطفِ والقَهرِ ، ولكلٍّ مِنهُم مُستقَرٌّ ؛ فلأهلِ العلمِ باللهِ عِلِّيُّونَ ، وللجاهِلينَ والمحجُوبِينَ عنهُ سِجِّينٌ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ وُرودَ أتباعِ الأنبياءِ في النَّارِ بمُوجَبِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾[2] للتَّهذيبِ والتَّطهيرِ ، لا للخلودِ ، وإنَّما الخلودُ مَقصورٌ علىٰ أهلِ الضَّلالِ الَّذين خالَفوا الأنبياءَ وراغَموهُم ، ولم يُلَبُّوا دَعوتَهُم ، وتَلبيَةُ دعوتِهِم واجبةٌ ؛ لأنَّها مِنَ اللهِ ، ومَنْ لمْ يُجِبْ دَعوتَهم . . تكونُ النَّارُ سِجنَهُ الأبَدِيَّ ومَنزِلَهُ السَّرمَدِيَّ ، وذٰلكَ أثَرُ القهرِ الَّذي لا يُشبِهُهُ قهرٌ ، ومُنادِي الكبرياءِ مِنْ مِئذَنةِ الاستِغناءِ يُنادي : « هَـٰؤُلَاءِ فِي ٱلجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي ، وَهَـٰؤُلَاءِ فِي ٱلنَّارِ وَلَا أُبَالِي »[3] .

عَمِيَتْ أبصارُ أهلِ الضَّلالِ والفلاسفةِ والدَّهرِيِّينَ الأوَّلِينَ وعَبَدةِ الأصنامِ ، ومَنْ لمْ يُلبِّ دعوةَ المرسَلِينَ ؛ ممَّنْ قالَ باليَزْدانِ وأَهْرِمَنَ[4] ، وكلِّ مَنْ أخطأَ طريقَ المرسَلِينَ .

واتَّضَحَ بهٰذا البيانِ أنَّ عِلمَ الرَّشادِ مِنْ خزائنِ الجُودِ واللُّطفِ ، وعِلمَ أهلِ الضَّلالِ مِنْ خزائنِ القَهرِ والسُّخطِ ، وكما لا بدَّ مِنَ الوَصفَيْنِ . . لا بدَّ مِنَ الفريقَيْنِ ، حُكماً مِنَ اللهِ تعالىٰ وأَمراً منهُ ، ولا اضطِرابَ فيهِ ولا تَغييرَ ولا تبديلَ ، ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟![5] .

---

(١) في الأصل : (قهر) .

(٢) سورة مريم : (٧١) .

(٣) أخرجه أحمد في « المسند » (١٧٦٦٠) ، وابن حبان في « الصحيح » (٣٣٨) من حديث سيدنا عبد الرحمٰن بن قتادة السلمي رضي الله عنه .

(٤) قال تاج القُراء الكرماني في : « غرائب التفسير وعجائب التأويل » (١/٣٥٠) : (يزدان : خالق النور ؛ يعنون : الله ، وأهرمن : خالق الظلمة ؛ يعنون : إبليس) .

(٥) سورة الأنعام : (٨١) .

فإذا وقفتَ علىٰ هـٰذا المعنىٰ . . عَلِمْتَ أنَّ الأنبياءَ اقتَبسوا العِلمَ بالأرواحِ القُدُسيَّةِ ، وأنَّ الفلاسِفةَ اقتَبسوا العلومَ بالنُّفوسِ الإنسيَّةِ ، وعَلِمْتَ أنَّ امتدادَ نَظَرِ الأنبياءِ إلى العقلِ الفِطريِّ الَّذي هُو لسانُ الرُّوحِ الأعظمِ ، ووجودُ الرُّوحِ في آدمَ عَكَسَ الرُّوحَ الأعظمَ ، ووجودُ الإنسيَّةِ عَكَسَ وجودَ النَّفْسِ الكُليِّ في مِرآةِ حوَّاءَ ، فالأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم اقتَبسوا العلومَ بالعقلِ الخَلقيِّ الَّذي هو لسانُ النَّفْسِ الكُليِّ المُودَعِ عكسُها في حوَّاءَ ، فصارَ مَطارِحُ نَظرِهِم أَجزاءَ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، فمَسَحوا أَدِيمَ عالَمِ الأجرامِ حتَّى انتهَوْا إلىٰ عِلَّةِ العِلَلِ وانقَطَعَ سَيْرُهُم ، وهـٰذا مُنتهىٰ نَظَرِ الفلاسفةِ ، وهي العتَبَةُ الَّتي وقفَ الفلاسِفةُ دُونَها ، مُستَنِدَةٌ تلكَ الواقِعةُ إلىٰ ضَعفِ أُنوثةِ النَّفْسِ المُنعكسةِ في وجودِ حوَّاءَ .

فحظُّ الأنبياءِ بواسطةِ العقلِ الفِطريِّ بالعِيانِ الَّذي هو حَشوهُ . . تماثيلُ عالَمِ الغيبِ ، فأدرَكوا الجنَّةَ والنَّارَ والصِّراطَ والميزانَ والبعثَ والنُّشورَ ، والفلاسِفةُ وَقَفوا وراءَ عتَبةِ علَّةِ العللِ ، فدَخلوا مَرابِعَ عالَمِ الغيبِ ، فمَنْ فهِمَ الإشارةَ[1] وأدركَ المعنىٰ . . عَلِمَ إدالةَ العِيان على البُرهانِ .

(١) تُقرأ في الأصل : (الاستارة) .

فَصْلٌ

[في طرفٍ من الحديثِ عن المتشابهِ وتأويلهِ]

سَبَقَ شرحُ الشَّاهدِ على الغائبِ (١) ، تعالى اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أنْ يُوصَفَ بالغائبِ ، ولٰكنَّ الغَيْبةَ مِنْ حيثُ الخَلقُ ، وَوَجهُ القِياسِ فيما أسلفْنا ممَّا قدْ وَرَد في أخبارِ المتشابهاتِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَق آدمَ علىٰ صُورتِه ، فمِنْ علماءِ الأُمَّةِ مَنْ لمْ يركَنْ إلى التَّأويلِ ؛ وهم خَلقٌ مِنَ السَّلفِ لم يُلِمُّوا بالتَّأويلِ ، وقالوا : ذَرُوها كما جاءَتْ منهم (٢) ، ومَنْ (٣) قالَ : الِاستواءُ معلومٌ ، والكيفيّةُ مجهولةٌ (٤) ، والإيمانُ بهِ واجبٌ ، والسُّؤالُ عنهُ بِدعةٌ (٥) .

وقولي في ذٰلكَ : إنَّ مِنْ أسماءِ اللهِ : الظَّاهرَ ، والباطنَ ، فمِنْ قَضِيَّتِهِ الظَّاهريَّةِ (٦) : أنَّهُ تجلَّىٰ لعبادِهِ ودَنا منهُم ، ثمَّ بَطَن بما عقَّمَ فُهومَ الخَلْقِ عن كيفيَّةِ تلكَ الصِّفاتِ ، فلا يُستَرُ منهُ ما ظَهَر ، ولا يُستكشَفُ منهُ ما بَطَنَ ، وقلْ :

---

(١) تقدم (ص ٢٥١) .

(٢) يشيرُ إلىٰ ما أخرجه الآجُرِيُّ في « الشريعة » (٧٢٠) ، وابنُ بطَّةَ في « الإبانة » (١٨٣) من طريقِ الوليدِ بنِ مسلمٍ قال : سألتُ الأوزاعيَّ ، والثَّوريَّ ، ومالكَ بنَ أنسٍ ، واللَّيثَ بنَ سعدٍ : عنِ الأحاديثِ الَّتي فيها الصِّفاتُ ؟ فكلُّهم قال : أَمرُّوها كما جاءت بلا تفسيرٍ .

(٣) في الأصل : (من) .

(٤) في الأصل : (مجهول) ، والتَّصويبُ مِن مصادرِ الأثرِ .

(٥) أخرجه اللَّالكائي في « شرحِ أصولِ اعتقادِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ » (٦٦٤) وغيره ، من طريقِ جعفرِ بنِ عبدِ الله ، قال : جاء رَجُلٌ إلىٰ مَالِكِ بنِ أَنَسٍ ، فقال : يا أبا عَبدِ اللهِ ؛ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] كَيفَ اسْتَوَىٰ ؟ قال : فما رَأَيتُ مَالِكاً وَجَدَ مِن شَيْءٍ كَمَوْجِدَتِهِ مِن مَقَالَتِهِ ، وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ ـ يَعْنِي : العَرَقَ ـ قال : وَأَطْرَقَ القَومُ ، وَجَعَلُوا يَنتَظِرُونَ مَا يَأتِي مِنهُ فِيهِ ، قالَ : فَسُرِّيَ عَن مَالِكٍ ، فَقَالَ : الكَيفُ غَيرُ مَعقُولٍ ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنهُ غَيرُ مَجهُولٍ ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنهُ بِدْعَةٌ ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ ضَالّاً ، وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ .

(٦) في الأصل : (الطاهرية) .

آمنَّا بما قالَ اللهُ وقالَ رسولُ الله كما يَلِيقُ بجلالِ اللهِ وعَظَمَتِهِ ، واجمَعْ في ذٰلكَ بينَ الذَّاتِ والصِّفاتِ .

أمَّا الذَّاتُ : فـ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [1] ، وجودُهُ مُنزَّهٌ عنِ الشِّبْهِ والمِثلِ ، والكَيفُ مُنزَّهٌ كعبةَ الجلالِ والذَّاتَ القَديمَ الأزليَّ أنْ يطوفَ بهِ طائفُ التَّأويلِ والتَّخييلِ والتَّمثيلِ .

وأمَّا الصِّفاتُ : فتَمتَدُّ يدُ التَّأويلِ إليها بالباعِ الطَّويلِ ؛ فحيثُ أخبَرَ الحقُّ بأنَّهُ ﴿ جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [2] أودَعَ الإنسانَ سِرَّ الخلافةِ ، فكانَ ذا قُوَّتيْنِ كما وصَفْنا ، مُثبِتُ ذٰلكَ حسَبَ الوَصفَيْنِ مِنْ جلالِ اللهِ تعالى : القهرُ واللُّطفُ ، ومِنْ أَشمَخِ الوَصفيْنِ : التَّمليكُ والتَّسخِيرُ .

ثمَّ أودَعَ ذٰلكَ حكايةَ الصُّورةِ مِنْ حيثُ المعنىٰ ، فيأتي الآنَ شاهدُ الغائبِ على الحاضرِ ، أَليسَ مَنْ وصَفَ الإنسانَ مَشِيئاتٌ مُتعدِّدةٌ مُتعذِّرةُ الحصْرِ بمُقتضَىٰ طوارقِهِ وعَوارضِهِ في أمرِ مَعاشِهِ ومَعادِهِ ؟!

ومَشِيئاتُهُ تَصدُرُ [3] مِنْ إرادتِه ، مَوهوبةً لهُ ، مُؤيَّدةً بِقُوَّةٍ مَوهوبةٍ لهُ ، فأثبتْ للهِ تعالىٰ بقَضِيَّةِ قولِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [4] مَشِيئاتٍ متعدِّدةً مُستَنِدةً إلىٰ إرادةٍ قديمةٍ مُتوحِّدةٍ ، ثمَّ احكُمْ بالحدوثِ في المُراداتِ ، لا في المُريدِ .

فإذا عَلِمتَ ذٰلكَ . . اجعلْ تكوينَ العِلَّةِ والمعلولِ مُنشَأً مِنْ مشيئةٍ واحدةٍ مِنْ مشيئاتِهِ تعالىٰ بأسرعَ مِنْ طَرْفةِ عَينٍ : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن

---

(١) سورة القصص : (٨٨) .

(٢) سورة البقرة : (٣٠) .

(٣) في الأصل : (يصدر) .

(٤) سورة الرحمٰن : (٢٩) .

فَيَكُونُ ﴾[1] ، ثمَّ اجعلِ المُولَّدَ مِنَ العِلَّةِ والمعلولِ الَّذي هو فَسِيحُ مَجالِ طَرْفِ الفَلسَفِيِّ عالَماً مِنَ العالَمِ ، ثمَّ اجعلْ للمَشيئاتِ الأَزَليَّةِ عوالمَ ، غيرَ مُصطادِ بشَبكةِ فَهْمِ الفلسفيِّ ، وإنَّما هي فَسَحَاتُ مجَالاتٍ لمَراكبِ فُهومِ المُرسَلِينَ وأتباعِهِمُ المُقرَّبينَ والشُّهداءِ والصِّدِّيقين .

فقُلْ للفَيلسوفِ : اغسلْ يدَكَ بماءِ الإفلاسِ عنْ أمتعةِ إدراكِ الحقائقِ ، ثمَّ امتَطِ طَرْفَ مُتابعةِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ العربيِّ ، وطُفْ في سائرِ بلادِ يونانَ والهندِ مُعتقلاً رُدَيْنيَّ[2] الاحتجاجِ ، وقلْ : هل مِنْ مُبارزٍ ؟ فإنَّكَ لا تجدُ مُبارزاً .

* * *

(١) سورة النحل : (٤٠) .

(٢) هي رماحٌ تُنسَب إلى امرأة من رُدَيْنَةُ . انظر : « فقه اللغة » للثعالبي (ص ١٧٤) .

فَصْلٌ

[في الفرقِ بينَ علومِ الإلهامِ وعلومِ الأفكارِ]

علومُ الإلهامِ عُصارةُ الأرواحِ القُدُسيَّةِ ، وعلومُ الأفكارِ عُصارةُ النَّفْسِ الإنسيَّةِ ، وليسَتْ هـٰذه الأَنفُسُ ما أشارَ إليهِ الفلاسفةُ ؛ فإنَّهم سَمَّوُا الرُّوحَ : نفساً ، وإنَّما هـٰذه الأنفُسُ الَّتي شَرحناها أوَّلاً بأنَّها الأرواحُ المُشارِكةُ لأرواحِ الحيَواناتِ ، وإنَّما امتازَتْ عنها لكونِها[1] محَلَّ الأرواحِ القُدُسيَّةِ ، فَلِوُرودِ الأرواحِ القُدُسيَّةِ عليها امتازَتْ عن أرواحِ الحيَواناتِ وأُلبِسَتْ خِلعةَ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[2] .

* * *

(١) هنا تنتهي الورقة (١٤٠) ، وتبدأ الورقة (١٣٩) .

(٢) سورة الشمس : (٨) .

فَصْلٌ

[في اختلافِ الناسِ في الأفهامِ على اختلافِ مراتبِهم]

قدْ تقرَّرَ في أَوعيةِ أَفهامِكَ علومٌ ؛ منها وَهْمِيَّةٌ ومنها ظنّيَّةٌ ، ومنها رَبَّانيَّةٌ ومنها لَدُنِّيَّةٌ ، ومنها مجهولةٌ ومنها معلومةٌ ، فما لا غَناءَ بكَ عنها : علومُ الشَّريعةِ ، وما أتىٰ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ونَطَق بهِ القُرآنُ ، هي الدِّينُ ، هي الدُّنيا ، هي الوجودُ بأَسرِهِ ، وغيرُ ذٰلكَ ممَّا شَهِدَ لهُ القرآنُ .

وقدْ يختلفُ أهلُ الدِّينِ والشَّريعةِ في الفَهمِ ، فتَتراءىٰ[1] عرائسُ أسرارِ القرآنِ للمُقرَّبينَ علىٰ هيئةٍ ، وللأبرارِ علىٰ هيئةٍ ، ولعَوامِّ المؤمنينَ علىٰ هيئةٍ .

وما دارَ عليهِ سُورُ الشَّرعِ كلُّه مقبولٌ .

وفي إيماءِ القرآنِ إشاراتٌ بعيدةُ الغَوْرِ ، لا تكادُ تُستنبَطُ إلَّا بفُهومٍ تَقفُوها[2] التَّقوىٰ ، ثـمَّ الزُّهدُ في الدُّنيا ، ثـمَّ دوامُ الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ إدبارٍ ، فيلوحُ في مَطاوي أَغـوارِ بعضِ الآيـاتِ إشـاراتٌ لقولِهِ تعـالىٰ : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[3] .

يأتي الفَلسفيُّ النَّافي للصِّفاتِ ، ويُغيِّرُ هٰذا السِّرَّ ؛ فلا يُدرِكُ منه شيئاً ، ويأتي المُتكلِّمُ ويُدرِكُ منهُ حقيقةً ، ويأتي المُحدِّثُ حَاملُ الفِقهِ إلىٰ مَنْ هو أفقَهُ منهُ فيتكَلَّمُ فيهِ ، ويأتي الأَفقَهُ منهُ إلىٰ مَنِ ارتَقىٰ في مَعارجِ التَّزكيةِ والتَّحليةِ ويُسقَىٰ مِن مِسكِ سَلسَبيلِ العِنايةِ ويقولُ في : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ : أَمَشِيئاتٌ تَعَدَّدَتْ أم مُرادَاتٌ تـعَدَّدَتْ ؟ فيُكشَفُ[4] لبَصيرتِهِ عَوالمُ في طَيِّ الغُيوبِ غيرُ

---

(١) في الأصل : (فيتراءىٰ) .
(٢) في الأصلِ (تقفها) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ : مِنَ القفو .
(٣) سورة الرحمـٰن : (٢٩) .
(٤) في الأصل : (فكشف) .

مَحصورةٍ لعَدمِ حَصرِ القُدرةِ ، فيَتراءَىٰ لهُ مِنْ كَثرةِ العَوالمِ الَّتي أَبرَزَتْها المشِيئةُ مِنْ مَكانِ الغَيبِ هٰذا الكَونُ المُصوَّرُ لهُ المُحِيطُ بهِ عِلمُهُ الَّذي هو بينَ فَلَكِ البُروجِ وفَلَكِ القَمرِ ، اللَّذيْنِ مَصدَرُهما الرُّوحُ الأَعظَمُ والنَّفسُ الكُلُّ ، وهو أثَرُ مَشِيئةٍ مِنْ مَشِيئاتِ اللهِ تعالىٰ غيرِ مَحصورةٍ .

وقدْ وَرَد أنَّ موسىٰ عليهِ السَّلامُ قالَ : يا ربِّ ؛ لو أنَّ السَّماواتِ والأَرضَ [حين][1] خُوطِبَا بـ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾[2] أبَيا . . ماذا كنتَ صَانعاً بهما ؟ قالَ : كنتُ آمُرُ دابَّةً مِن دَوابِّي تَبتَلِعُهما ، قالَ : يا ربِّ ؛ وأينَ تلكَ الدَّابَّةُ ؟ قالَ : في مَرْجٍ مِنْ مُروجي ، قالَ : يا ربِّ ، وأينَ ذٰلكَ المَرْجُ ؟ قالَ : في غامِضِ عِلمِي[3] .

٭ ٭ ٭

(١) ما بين معقوفين زيادة من « تفسير القرطبي » (١٥/٣٤٤) .

(٢) سورة فصلت : (١١) .

(٣) أورده القُرطبيُّ في « الجامعِ لأحكامِ القرآنِ » (١٥/٣٤٤) ، وعزاه للثَّعلبي ، وهو في « الكشفِ والبيانِ » (٨/٢٨٧) بلفظ : (وبلغنا أنَّ بعضَ الأنبياءِ . . .) فذكره .

فَصْلٌ

[في بيانِ تدرُّجِ أصحابِ النبيِّ ﷺ وعلماءِ الأُمَّةِ في المنازِلِ إلىٰ بلوغِ المعرفةِ]

لمَّا قُضيَ التَّناسُبُ بينَ قَلبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبينَ قلبِ أصحابِه وغيرِ أصحابِهِ مِنْ عُلماءِ الأُمَّةِ . . نالوا بذٰلكَ حَظّاً مِنْ نُورِ الفِطرةِ ، فدَعاهم ذٰلكَ إلىٰ صرفِ الإيمانِ بالأُمورِ الأُخْرَويَّةِ ، وكانَ هٰذا أوَّلَ حَظٍّ رُزِقوا ، ثمَّ قَوِيَ ذٰلكَ بخَالصِ التَّقوىٰ والتَّوبةِ النَّصوحِ حتَّىٰ تَنزَّهَتْ جَوارِحُهُم وأعضاؤُهُم عن لَوْثِ المعصيةِ ومَناهي الشَّرعِ ، وتمكَّنوا مِنْ تَطهيرِ الجوارحِ مِنَ الآثارِ بِصِدقِ الإنابةِ والاِلتجاءِ إلى اللهِ تعالىٰ ، للمُحاسبةِ في كلِّ قولٍ وفعلٍ ، كما وردَ : (حاسِبوا أنفسَكُم قبلَ أنْ تُحاسَبوا)[1] ، وجَمَع همَّهُم صَولَةُ قولِهِ[2] تعالىٰ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[3] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[4] ، فجَمعَ أبيانَ الخواطرِ المُتفرِّقةِ والهمومِ المُتشعِّثةِ حتَّى اجتمعَتْ[5] وحضَرَتْ بينَ يدَيِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ في أوائلِ مَقامِ المُشاهدةِ .

ثمَّ لمَّا استقرَّ بهِم هٰذانِ ـ يعني : خالصَ الإيمانِ ، وخَالصَ التَّقوىٰ ـ انجلَتْ[6] مِرآةُ قلوبِهِم مِنْ خُدوشِ الهَوىٰ ، فانتعشَ فيها كُنهُ الآخرةِ والدُّنيا ، فاختَاروا البَاقيَ على الفَاني ، واستَحقَروا الحظوظَ الفانيةَ ، وعلِموا قُصُورَ الهمَّةِ

---

(١) أخرجه ابنُ المبارَكِ في « الزُّهدِ والرَّقائق » (٣٠٦) ، وابنُ أبي شَيبةَ في « المصنَّف » (٣٥٦٠٠) ، وأحمدُ في « الزُّهد » (٦٣٣) وغيرُهم ، من طُرقٍ عن سيدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه موقوفاً .

(٢) كلمة (قوله) تكرَّرت في الأصل .

(٣) سورة قٓ : (١٨) .

(٤) سورة الزخرف : (٣٦) .

(٥) في الأصل : (اجتمع) ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٦) في الأصل : (انجلىٰ) .

المرتهَنةِ بمَحبَّةِ المالِ والجَاهِ ، وارتقَوْا ذُروةَ الزَّهادةِ في الدُّنيا ، كما وَرَد : (إذا أقبلْتُ علىٰ عَبدي بوجهي كُلِّه . . زَوَيْتُ عنهُ الدُّنيا كُلَّها)[1] .

فلمَّا[2] حصَلَ لهم هٰذا الثَّالثُ وتحقَّقوا به . . دعَاهمُ اجتماعُ هٰذه الثَّلاثةِ إلى الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ والتَّبتُّلِ إليهِ ، والعُكوفِ علىٰ أَعتابِ الجَلالِ الأَزليِّ ، فصارَتْ هٰذه الأَربعةُ باجتِماعِها مُوجِبةً للوِلادَةِ المعنويَّةِ ، كما أنَّ الطِّباعَ الأَربعَ مَحتِدُ الوِلَادةِ الطَّبيعيَّةِ[3] ، مُستنبطةً ذٰلكَ عمَّا ورد : (لَن يَلِجَ مَلَكوتَ السَّماءِ مَنْ لمْ يُولَدْ مرَّتيْنِ)[4] .

فهٰذه[5] الولادةُ المعنويَّةُ فَتحَتْ لهُم أبوابَ المَلَكوتِ ، فصاروا مِن ذوي المَلَكوتِ ، كما صاروا بالوِلادَةِ الطَّبيعيَّةِ مِن ذوي المُلكِ ، فَوَرِثوا ببرَكةِ مُتابعةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في هٰذه الأَربعةِ حَظّاً مِنْ نُورِ الفِطرةِ ، فصَحَّ ارتباطُهم برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واستحَقُّوا بذٰلكَ مَقامَ الدُّعاءِ إلى اللهِ تعالىٰ .

ومَن بَقِيَ عليهِ مِن هٰذه الأَربعةِ بَقِيَّةٌ . . ما كَمُلتْ وِلادتُهُ ، وما[6] أُطلِقَ بالكُلِّيَّةِ مِنْ مَشِيئةِ الجَهالةِ بخُروجِهِ منها ، ولمْ يُعتَقْ مِنْ رِقِّ الهَوىٰ ، فإذا أُعتِقَ مِن رِقِّ الهَوىٰ . . انصَبَّ إليهِ قِسطُهُ مِنَ العِلمِ ، وخَلَّصَ شَمسَ فِطرتِهِ مِنْ كُسوفِ الفِطرةِ الخَلِقَةِ ، فصارَ هَادياً مَهدياً ، مَوهوباً لهُ تكميلُ النَّفسِ ، ويكونُ في حِصنِ

---

(١) أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا في « الزُّهد » (٣٩٨) من طريقِ يحيى بنِ يَمانٍ ، قال : مَرَّ مُوسىٰ عَلَيهِ السَّلَامُ برجُلٍ قَد مَاتَ تَحتَ رَأسِهِ لَبِنَةٌ ، وَرَأسُهُ وَلِحيَتُهُ فِي التُّرَابِ ، فقال : رَبِّ ؛ هَـٰذَا عَبدُكَ ضَاعَ . فقال : « يا مُوسَىٰ ؛ إِنِّي إِذَا أَقْبَلْتُ عَلَىٰ عَبْدِي بِوَجْهِي زَوَيْتُ عَنْهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » .

(٢) في الأصل : (فلم) .

(٣) في الأصل : (الطبيعة) .

(٤) لم أقف عليه في دواوين السنة المعتمدة ، وأوردَه الشيخ نِظام الدِّينِ النَّيسابوري في : « غرائبِ القرآنِ ورغائبِ الفُرقانِ » (٣٧٥/٥) عن سيدنا عيسىٰ عليه السَّلام .

(٥) في الأصل : (فهٰذا) .

(٦) في الأصل : (ما) .

مِنَ العِلمِ لا تبدو عَورتُهُ بمُتابعةِ الهَوىٰ ، ولا يَطيرُ عنهُ لباسُ التَّقوىٰ ، في مَقامِ الصِّدِّيقينَ ، ومَقامُ الصِّدِّيقيَّة تِلوَ النُّبوةِ .

فيا صَاحبَ الحِكمةِ والفَلسَفةِ ؛ أينَ [١] أنتَ مِنْ تَدرُّجِ هٰذه المَنازلِ والدَّرَجاتِ وقدْ نَكَبْتَ عنِ الدَّرجةِ الأُولىٰ ؛ وهي الإيمانُ بالغَيبِ ؟! فضيَّعتَ التَّوبةَ والزَّهادةَ والإقبالَ على اللهِ ؟ ومِنْ أينَ لكَ الإقبالُ على اللهِ ؟ ومِنْ أينَ أنتَ ؟ واللهِ ؛ أنتَ قدْ وَقعْتَ في حَبائلِ العِلَّةِ الأُولىٰ ورَبَطتْكَ ، ما لكَ منها بُروزٌ ، ولا لكَ منها تَخلُّصٌ ، وصَارَ العَقلُ الخَلقيُّ يُطابِقُ قَهرَ الأَزليِّ [٢] علىٰ قَدرِ [٣] فَهمِكَ ، وحُرِمتَ الاِطِّلاعَ على المَلَكوتِ ، فلمْ تُؤمِنْ بالغَيبِ ، وغَشَّىٰ بَصِيرتَكَ عِلمُ الكائناتِ ، فغَرِقْتَ فيها وفي تيَّارِها .

فانهَضْ واعمَلْ في عُلومِ النُّجومِ والطِّبِّ وعلمِ الهيئةِ وتَوابعِ ذٰلكَ ، وارقُدْ رقدةً لا يُرقِدُكَ [٤] إلَّا الموتُ الطَّبيعيُّ ، وإذا استَيقظتَ . . قيلَ لنَفسِك الباقيةِ بعدَ دُثورِ القالَبِ : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [٥] .

وأربابُ الإيمانِ بالغَيبِ انطَلَقتْ أَقدامُهُم مِن وَثاقِ العَقلِ الخَلقيِّ ، ورَفَعَ عن أقدَامِهِم هِمَّهُم قَيْدَ لَوْثِ الخِلْقةِ ، فجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ الغَيبَ والمَلَكوتَ بأنوارِ العَقلِ الفِطريِّ ، فعَايَنوا الجنَّةَ والنَّارَ والصِّراطَ والميزانَ بعَينِ بَصَائرِهِم [٦] ، وأنت بَقِيتَ في أَوطانِ البُرهانِ ، وهو مِيزانٌ كلُّ رُجحانِه نُقصانٌ ، فأَدالَ العِيانُ على البُرهانِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في الأصل : (فأين) .
(٢) في الأصل : (أزلي) .
(٣) في الأصل : (فهم) .
(٤) في الأصل : (يوقدك) .
(٥) سورة قٓ : (٢٢) .
(٦) في الأصل : (بصرائهم) .

فَصْلٌ

قوله تعالىٰ للملائكة : « فإذا سوّيته »[1]

أتدري ما التَّسويةُ ؟ تركيبُ الِاعتدالِ ؛ وهو الِاعتدالُ في القَهرِ واللُّطف ، اعتدالاً لكَفَّتَي المِيزانِ ، اعتِدالاً في نَفسِها بالسَّواءِ مِنْ غيرِ أن يَرجِحَ العَدلُ بالفَضلِ أوِ الفَضلُ بالعَدلِ ، ثمَّ اعتدالاً في الِارتقاءِ والهبوطِ ، فارتقاءُ[2] كَفَّةِ الفَضلِ إلىٰ طبقاتِ السَّماواتِ ، وهُبوطُ كَفَّةِ العَدلِ إلىٰ سَبعِ طَبقاتِ الأَرضِ ، وفي كَفَّةِ العَدلِ الجَحِيمُ في بعضِ طَبقاتٍ ، وفي كَفَّةِ الفَضلِ الجِنانُ والفَرادِيسُ العُلا .

والنَّفسُ بتَسويتِها تَنجَذِبُ إلى الهُبوطِ والِارتقاءِ ، فإذا هبَطَتْ بطَبعِ الرُّسُوبِ المُستَعارِ مِنَ التُّرابِ . . تَلقَىٰ في طَرِيقِ الهُبوطِ إبليسَ ؛ فتكونُ بوَضعِها مُلهَمةً للفُجورِ مِنَ الصَّغائرِ ، وهي مِنْ قِسمِ العَدلِ وشَارَةِ كَفَّتِهِ ، ومِن إلهامِها التَّقوىٰ عندَ ارتِقائِها إلى السَّماواتِ ، فإذا انطَلَقَت مِن وَثاقِ الطَّبقةِ السَّابعةِ . . يَصِلُ نُورُ اكتِسَابِها إلى السَّماءِ الدُّنيا ، وتأنَسُ إلىٰ إلمامِ المَلَكِ ، وتأخذُ الحظَّ مِنَ القَبولِ .

والسَّماواتُ مَرابِعُ الأَملاكِ ومَراتِعُ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ الَّتي رُفِعَ بها كَفَّةُ الفَضلِ ، وهي في دَرَجاتِها مُنطوِيةٌ في دَرَجاتِ الجِنَانِ ، والأَرواحُ عندَ الِارتقاءِ في طَبقاتِها مُؤانِساتٌ إلىٰ أَرواحِ الأَنبياءِ والصِّدِّيقِينَ ، وفي مَراتبِ الِارتقاءِ تَرتقي أَرواحُ المُقرَّبِينَ إلىٰ أَعتابِ القُرْبِ ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[3] ،

---

(١) سورة الحجر : (٢٩) .

(٢) في الأصل : (فارتقىٰ) .

(٣) سورة فاطر : (١٠) .

ويَنكَشِفُ سِرُّ التَّسويةِ باعتِدالِ اللُّطفِ والقَهرِ ، ذٰلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ ، وأَربابُ مَنازلِ هٰذا الاِرتِقاءِ لا تُقطَعُ ولا تُفتحُ لمَنْ حُرِمَ مُتابعةَ الأَنبياءِ ، ويبقَىٰ مُؤبَّدَ السَّجنِ[1] في خُطَّةِ الاِنحِطاطِ في كَفَّةِ العَدلِ .

* * *

(١) قد تُقرأ في الأصل : (مُؤبداً لسجنٍ) .

فصل

[في بيانِ جهلِ الفلسفيِّ بمجاري الأقدارِ في بدءِ تكوينِ آدمَ]

أوَتَعلمُ ـ أيُّها الفَلسفيُّ ـ مجاريَ الأقدارِ في بَدْءِ تكوينِ آدمَ ؟ أَحَضَرْتَها أمْ لمْ تحضُرْها ؟ وهلْ عَلِمْتَ أنَّ مِنَ الأزمانِ المَاضيةِ زَمانَ إسكانِ الجنَّةِ بعدَ تكوينِ الأرضِ ، ونَظرِ اللهِ إلى الجَوهرةِ وذَوَبانِها بالماءِ ، وارتفاعِ الدُّخّانِ الثَّائرِ منهُ جِرمُ السَّماءِ ، فهلْ حَضَرْتَ بحَقِيقتِكَ أو أَدرَكْتَ بعِلمِكَ وعَقلِكَ ؟ وهلِ ارتمَىٰ إدرَاكُكَ إلىٰ قَبلِ إنشاءِ المَشيئةِ الأَزليَّةِ تلكَ الجَوهرةَ ؟!

والعَهدُ الَّذي سَبَقَ ذٰلكَ العهدَ مِن عُهودٍ ما مرَّتْ بمَسامعِكَ ، ولا قيَّدتْها أَوهامُكَ ، وإلىٰ قَبلِ ذٰلكَ ، قَبلَ قَبلِ القَبلِ ، وقَبلَ قَبلِ ذٰلكَ القَبلِ ، وقَبلَ ذٰلكَ القَبلِ إلىٰ قَبلٍ ينتهي إدراكُ القَبلِ ، وإلىٰ مَكنوناتٍ وعَوالمَ مُستَمِرَّةِ الإيجادِ ؛ بحيثُ يَفنَى الحَكيمُ الفَلسفيُّ ولا تَنتَهِي تلكَ القَبْلاتُ .

فيا غَريقَ بَحرِ إدراكِ الأَزليَّةِ والأَبديَّةِ ؛ اخسَأْ وصِرْ جَليسَ مَكمَنِ الجَهالةِ ، واعرِفْ قَدْرَكَ .

وقدْ وَرَد[1] : أنَّ[2] مُوسىٰ عليهِ السَّلامُ في بعضِ سُلوكِ سِياحَاتِهِ في عَوالمِ مُناجَاتِهِ . . غَلَتْ مِرجَلُ طَلبِهِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ منذُ كمْ أنتَ في الإلٰهيَّةِ ؟ قالَ : يا مُوسىٰ ؛ أَدرِكْ نفسَك ، والزَمْ حَدَّك ، فلولَا رَحمَتي سَبَقت غَضَبي . . لأَرسلتُ عليكَ ناراً احترَقتْك ، ولو أنتَ خَليلي إبراهيم ، ليسَتْ مَدارِعُ أَزليَّتي مُقَدَّرةً علىٰ قدورِ أَفهامِكَ وأَوهَامِكَ ، ولٰكنْ سَلنِي عن مَقدوراتي ومُكَوَّناتي ، واعلمْ بأنِّي خَلقْتُ مَدينةً مثلَ دُنياكم هٰذه تِسعينَ مرَّةً ، ثمَّ مَلأتُها[3] خَرْدلاً ،

---

(١) لم يرد في شيءٍ من دواوينِ السُّنَّة المُعتبرة ، وفي لفظه نَكارةٌ ظاهرةٌ .

(٢) هنا تنتهي الورقة (١٣٩) ، وتبدأ الورقة (١٤٣) ، وقد تكرَّرت كلمة (أن) .

(٣) في الأصل : (أملأتها) .

وخَلقتُ طَائراً أَعرجَ أعورَ ، وجَعلتُ رِزقَهُ كلَّ خَرْدلَةٍ ، فعَمَّرتُهُ حتَّى استَوفىٰ تلكَ المَدائنَ ، ثمَّ قضَيْتُ عليهِ بالمَوتِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ جَعلْتَ عُمُري قَصيراً ، ورزقِي يَسيراً .

أيُّها الحَكيمُ الفلسفيُّ ؛ اطوِ بِساطَ التَّقديرِ والتَّدبيرِ ، وعُدَّ عِلمَكَ ودِرايتَكَ وما تلفَّتَّ إليهِ مِنَ الرِّياضيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ أَحقرَ مِنْ كُلِّ حقيرٍ .

أَوحَى اللهُ تعالىٰ إلىٰ مُوسىٰ فقالَ : يا مُوسى ؛ اتَّخِذْ نَعلَيْنِ مِنَ الحديدِ ، وسِحْ في الأَرضِ واطلُبْني [١] ، هـٰذا معَ مُكالمتِهِ لهُ كِفَاحاً .

فاحتقِرْ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ ما وجدتَهُ بالنسبةِ إلىٰ [٢] ما لمْ يجدْهُ الحكيمُ الفيلسوفُ ، جَمَعَ الكَائناتِ ، وقَطَعَ دابرَ المعلوماتِ والموجوداتِ ، واترُكْها في كِيسِ عِلَّةِ العِللِ الذي خيَّطَهُ بمِخيَطِ الأَفكارِ وخَيْطِها ، وتأَبَّطَ رئيسَهُ أَرسطاطاليسَ وأَقرانَهُ [٣] مختَالاً في مَيدانِ الِاغترارِ ، مُغترّاً بِتَباعةِ المشَّائينَ مِنْ فَلسِ سُوقِ الرِّواقِ .

* * *

---

(١) أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا في « التَّفكُّر » كما في « تفسيرِ القرآنِ العظيم » لابنِ كثير (٥/٤٣٨) ، من طريقِ مالكِ بنِ دينارٍ قال : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السَّلام : أن يا مُوسى ؛ اتَّخذ نَعلَينِ مِن حديدٍ وعصاً ، ثمَّ سح في الأرضِ ، واطلُبِ الآثارَ والعِبَرَ ، حتَّىٰ تَتخرَّقَ النَّعلانِ وتُكسَرَ العصا .

(٢) كلمة (إلىٰ) : زيادة يقتضيها السِّياق .

(٣) في الأصل : (وأحرانه) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ ، وانظر : « التَّفسيرَ الكبير » للرَّازي (٢/٣٣٧) .

فَصْلٌ

[في عزَّةِ علومِ الأنبياءِ]

لو فَهِمتَ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ مِنَ ٱلْعِلْمِ كَهَيْئَةِ ٱلْمَكْنُونِ ، لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا ٱلْعُلَمَاءُ بِٱللهِ »[1] . . علِمتَ بأنَّ وَراءَ مَعلومِكَ ومَفهومِكَ علوماً[2] غابَتْ عنكَ ، وهي مِنَ العلمِ المكنونِ ، لا يُدرَجُ في صَحائفِ البُرهانِ ، ولا يُصطادُ إلَّا بشَبائِكِ الوِجدانِ .

فمِنْ ذٰلكَ : ما قدْ وَرَد[3] أنَّ إبلِيسَ مَسَحَ الأرضَ حينَ أُهبِط إليها ودارَ فيها ، فمِنها ما صارَ بينَ قَدَمَيْهِ ، ومنها ما صارَ تحتَ قَدَمِهِ ، وكانَتْ[4] نُفوسُ الأنبياءِ والرُّسلِ والصِّدِّيقِينَ والمؤمِنينَ ممَّا لمْ تصلْ[5] إليهِ قَدَمُ إبلِيسَ .

ومِنْ ذٰلكَ : ما ذَكرْنا أنَّ اللهَ تعالىٰ مَسَحَ ظهرَ آدمَ وهو ببَطنِ نَعمانَ بعدَ التَّكوينِ بالتَّخميرِ ، فسَالَتِ الذَّرَّاتُ مِنْ ظهرِ آدمَ ؛ بعَدَدِ كلِّ إنسانٍ ذَرَّةٌ ، ثمَّ خُوطِبَتِ الذَّرَّاتُ بخِطابِ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾[6] ، وكانَ الجَوابُ مِنَ الذَّرَّاتِ الَّتي ما قُمِطَتْ بقِماطِ الأَشباحِ[7] ، ولا برَزَتْ مِنَ الفِطرةِ إلى الخِلْقةِ ، فلمَّا برَزَتْ إلى الأشباحِ . . تميَّزَ[8] المُجِيبونَ اختياراً مِنَ المُجِيبينَ اضطِراراً مَقهورِينَ للسَّطوةِ الأَزليَّةِ ، فالمُختارونَ أهلُ السَّعاداتِ ، والمُضطرُّونَ أهلُ الشَّقاوةِ .

---

(١) أخرجه السُّلَمِيُّ في « الأربعينَ في التَّصوُّفِ » (ص ١٣) ، مِن حديثِ سيدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه .

(٢) في الأصل : (علوم) .

(٣) لم أقف علىٰ هٰذا فيما بين يدي من المصادر .

(٤) في الأصل : (وكان) .

(٥) في الأصل : (يصل) .

(٦) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٧) القِماط : الحبل والخرقة ، والمراد : أنها ما زالت في عالم الذرّ .

(٨) في الأصل : (تميزت) .

والله سبحانَهُ وتعالىٰ أَودَعَ السَّماواتِ والأَرَضينَ سِرّاً مِن سِرِّهِ بخِطابِهِ : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [1] ، وكانَ هٰذا الجوابُ مِنْ خُلاصةِ جَوهَرِيَّةِ السَّماواتِ والأَرَضِينَ ، فرَكَّبَ منها قالبَ آدمَ عليهِ السَّلامُ بعدَ أنِ استَنْزَعَ ذٰلكَ السِّرَّ مِن جَوهريَّةِ الأَرضِ والسَّماءِ ، وذٰلكَ مَفهومٌ مِن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [2] .

وكانَ استِنزاعُ ذٰلك السِّرِّ بالقَبضةِ المأخُوذةِ مِنَ الأَرضِ ، وهٰذا عِلمٌ لا يسَعُ مِيزانَ البُرهانِ ، ولا يُدرَكُ إلَّا ببَصيرةِ العِيانِ ، فأدَالَ العِيانُ على البُرهانِ .

(١) سورة فصلت : (١١) .

(٢) سورة الأحزاب : (٧٢) .

فَصْلٌ

[في بيانِ قِلَّةِ موزوناتِ ميزانِ البرهانِ بالنسبةِ إلى المدركاتِ بالعيانِ]

صَغُرَ مِيزانُ البُرهانِ ، ما وُسْعُهُ إلَّا العِيانُ الحِسِّيَّةُ .

ما أشبَهَ العِيانَ الأُخرَويَّ والبُرهانَ الدُّنياويَّ بالوجودِ العَينيِّ معَ الوجودِ الذِّهنيِّ ، فمُدرَكاتُ الوُجودِ العَينيِّ مَحدودةٌ ، ومُدرَكاتُ الوجودِ الذِّهنيِّ غيرُ مَحدودةٍ ، فالمُتخيَّلُ مِنْ توابعِ الوجودِ الذِّهنيِّ ، وعَرْصةُ المُتخيَّلاتِ متَّسِعةٌ ، وليسَ كذٰلكَ الوجودُ العَينيُّ ، فهٰكذا مَوزوناتُ مِيزانِ البُرهانِ بالنِّسبةِ إلى المُدرَكاتِ بالعِيانِ .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ، الَّذي هو يَنبوعُ الحِكمةِ والمطَّلِعُ على عالَمِ الغيبِ والشَّهادةِ ؛ ليُهدِيَ إلى الأفهامِ نِسبةَ العِيانِ إلى البُرهانِ ؛ بقوله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَثَلُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ يَدَهُ فِي ٱلْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ ؟! »[1] .

فالدَّهرِيَّةُ حَكَموا بأنَّ الميِّتَ[2] لا يُحشَرُ ولا يُبعَثُ ، وأنَّ الأَجسامَ بعدَ الدُّثورِ لا إعادةَ لها ، فهُم بمَثابةِ الدِّيدانِ والذُّبابةِ على وجهِ الأَرضِ بأَجسامٍ لا أَرواحَ فيها ، وقَوالبَ لا عقلَ لها ، وهٰكذا مَنْ أخَذَ العَظمَ وفتَّتَهُ بيدِهِ وقالَ : أَيزعُمُ محمَّدٌ أنَّ هٰذا يُعادُ ويُحيا ؟[3] .

هٰكذا كُلُّ غَبيٍّ وصَبيٍّ ، وامرأةٍ ناقصةٍ ، وقَرَوِيٍّ وسَوادِيٍّ ، وكُرْدِيٍّ وتُركيٍّ لا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) من حديث سيدنا المستورِد بن شدَّادٍ رضي الله عنه ، بنحوه .

(٢) كلمة (الميّت) زيادةٌ يقتضيها السِّياقُ .

(٣) أخرجه الطَّبريُّ في « جامعِ البيان » (١٩/٤٨٧) ، وابن أبي الدُّنيا في « الأهوالِ » (٨٨) من طريقِ سعيد بن جُبيرٍ قال : جاء العاصُ بنُ وائلٍ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعَظمٍ حائلٍ فَفَتَّه ، وقال : يا محمَّدُ ؛ يبعثُ اللهُ هٰذا ؟! قال : « نعم ، يُمِيتُك ، ثمَّ يُحيِيك ، ثمَّ يُدخِلُك نارَ جهنَّم » .

عقلَ لهُ ، لو اعتبَر مفهومَهم . . لقَبِلوا ما قالَ ذٰلكَ في العَظمِ الرَّميمِ ، وهو أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ[1] .

ولٰكنْ كُنتُم ـ يا معشرَ الفلاسفةِ ـ أَثبَتُّم بقاءَ النُّفوسِ الإنسِيَّةِ النَّاطقةِ ـ يعني : الرُّوحَ الرُّوحانيَّ ـ بعدَ دُثورِ الأَجسامِ ، فكأَنَّكُم سَلَكتُم بالنِّسبةِ إلى الجُهَّالِ في أَضواءِ شيءٍ مِنْ فُهومِ الأَنبياءِ ، وكأَنَّ علومَكم ظِلالُ قَوالبِ علومِ الأَنبياءِ ، غيرَ أَنَّكُم حُرِمتُم مُتابعتَهُم ؛ فبَقِيتُم في ظُلمةِ آراءِ أوائلِكم ؛ مِنَ اليونانِيِّينَ والهندِ ، وقنَعتُم مِنَ العلومِ بإِدراكِ عالمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، وأتيتُم باليدِ البيضَاءِ في إِقامةِ البُرهانِ ، ولٰكنْ كَفَرتُمُ النِّعمةَ ، وغضَضْتُم طَرْفَ فُهومِكُم[2] عن إِدراكِ ما أخبَرَ بهِ الأنبياءُ مِنَ العَوالمِ الغَيبيَّةِ ، فكلُّ ما مَسَحتُم بأَقدامِ أَفكارِكُم مِنْ أَبعادِ الأَفلاكِ وأَجرامِ الكَواكبِ ؛ كقولِكم[3] : إنَّ الشَّمسَ نيِّفٌ وسِتُّونَ مثلَ الأَرضِ ، وغيرِ ذٰلكَ . . كلُّه صَحيحٌ ومُسَلَّمٌ لكم مِنْ جميعِ المُدرَكاتِ بالبُرهانِ ، ولٰكن : أين أنتم ممَّا تواترَتْ بهِ الأَخبارُ النَّبويَّةُ والأَنباءُ[4] الرُّسُليَّةُ في أَجرامِ الملائكةِ وعَظيمِ خَلقِهِم ، وأنَّ بينَ كَعبِ أَحدِهم ورُكبتَيْهِ مَسيرةَ كذا سَنةٍ ؟! فيَصغُرُ ما أَدركتُموهُ بالنِّسبةِ إلىٰ ما أَخبرَ عنهُ الأَنبياءُ عليهمُ السَّلام .

وناهِيكُم ما قدْ سَبَق في بعضِ فُصولِ هٰذا الكتابِ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ : إنَّ السَّماواتِ والأَرَضِينَ لو عَصَيَا ولم يُطيعا . . أَمرتُ دابَّةً مِنْ دوابِّي تَبتَلِعُهُما ، قالَ موسىٰ : وأينَ تلكَ الدَّابَّةُ ؟ قالَ : في مَرْجٍ مِنْ مُروجي ، وقالَ : يا ربِّ ، وأينَ ذٰلكَ المَرجُ ؟ قال : في غامِضِ عِلمِي[5] .

---

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان » (٤٨٦/١٩) عن مجاهد رحمه الله تعالىٰ .

(٢) في الأصل : (فهومك) .

(٣) في الأصل : (لقولكم) .

(٤) في الأصل : (والأنبياء) .

(٥) تقدم قريباً (ص ٢٦٠) .

فالمُدرَكُ بالبُرهانِ أَمَدُهُ قَصِيرٌ وأيَّامُهُ قليلةٌ[1] ، ومَشِيدٌ مُهدَّمٌ بالموتِ الطَّبيعيِّ ، فعن قريبٍ لا عَينٌ ولا أَثرٌ ، وأيَّامُهُ ضَيِّقةُ العَرْصَةِ ، فاللَّيلُ والنَّهارُ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، فما هي نِسبتُهُ إلىٰ يومٍ مقدارُهُ خمسونَ[2] ألفَ سنةٍ ؟!

فقِسْ علىٰ هٰذا مُدرَكَاتِكَ بالبُرهانِ الدُّنياويِّ علىٰ قَدرِ مُدرَكاتِ[3] الأنبياءِ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، والصِّراطِ والمِيزانِ ؛ حتَّىٰ تَعلَمَ إدالةَ العِيانِ على البُرهانِ .

(١) في الأصل : (قليل) .

(٢) في الأصل : (خمسين) .

(٣) في الأصل : (مدركاتك) .

فَصْلٌ

[أثرُ العبادةِ في العلمِ]

قَصُرَت خُطَىٰ أَكثرِ الفلاسفةِ وأَتباعِهِم ؛ أَنَّهم إذا خُوطِبوا . . عَلِموا ، وإذا نُودُوا . . لَبَّوْا ، وما غَشِيَتْهُم مِنْ ضَبابِ الجَهالاتِ سَدَّتْ مسَامِعَ قُلوبِهِم .

وألفاظُ النُّبوَّاتِ هي الَّتي [1] تَفتَحُ خُروقَ المسامِعِ ؛ فمَنْ أحسَنَ الِاقتداءَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . ينالُهُ حَظٌّ مِنَ القَبُولِ والفِعالِ ، وجعَلَهُ اللهُ دَاعِياً إليهِ ، وكلَّما تكرَّرَ رُكوعُهُ وسُجودُهُ . . يزدَادُ قولُهُ نَفاذاً وسِرَايةً ، ويَدِبُّ في الدِّماءِ والأَبشَارِ كما يَدِبُّ أثرُ الدَّواءِ في الجسَدِ ، وكُلَّما تلَا القُرآنَ حقَّ تلاوتِهِ . . يَمتَزِجُ [2] نورُ القُرآنِ والعِلمِ بدِمائِهِ وأَبشَارِه ، وتَتصوَّبُ سِهامُ ألفاظِهِ إلىٰ أَهدَافِ الِاستِعداداتِ [3] ، فيَرشُدُ بالقَولِ ، ويدعو بالهُدَى المُستقيمِ ، ويكونُ دَاعياً إلى اللهِ بقَولِهِ وفِعلِهِ ، فإنْ ظَفِرَ بمِثلِ هٰذا ذو استِعدادٍ . . يُنقذُهُ مِنْ بَحرِ الضَّلالِ ، فيَحظَىٰ بحُسنِ الحالِ وسلامةِ المآلِ .

---

(١) في الأصل : (التي هي) .

(٢) في الأصل : (ويمتزج) .

(٣) في الأصل : (استعدادات) .

فَصْلٌ

[في جهلِ الفلاسفةِ بعوالمِ اللهِ المودعةِ في طيِّ الغيوبِ]

جهِلَ الفلاسِفةُ عوالمَ اللهِ المُودَعةَ في طَيِّ الغُيوبِ ، وقنَعوا بعلمٍ واحدٍ ؛ وهو ما يحتوي عليهِ الفَلَكُ : البُروجُ وما دُونَها مِنَ الأفلاكِ ، وفَلَكُ القَمرِ الَّذي حَشْوُهُ العناصِرُ ، فهلْ للفلاسفةِ أن يَنظروا في العناصرِ والكواكبِ ؛ أَحَكَمَتِ العناصرُ على الكواكبِ ، أمِ الكواكبُ على العناصرِ ؟

وهٰذا مِن عَويصِ ما يَرمِيهم في بَحرِ الحَيْرةِ ؛ فهم جَهِلوا أنَّ ما تَحصَّنوا بهِ وتَحصَّنَتْ بهِ علومُهُم واحدٌ مِنْ عَوالمِ اللهِ تعالىٰ ، وأنَّهُم بمَثابةِ طَيرٍ في قَفَصٍ لا يَرىٰ إلَّا جِهاتِ القَفَصِ ، أو[1] بمَثابةِ جَنينٍ في بَطنِ الأُمِّ لا عِلمَ لهُ بالأَرضِ والسَّماءِ وما يَحتوِيانِ عليهِ ، فالفلاسفةُ ذٰلكَ الجَنِينُ مُقيَّدُ اليدَيْنِ في حَبْسِ أجَلٍ مُقَدَّرٍ بأيَّامٍ دُنياويَّةٍ يَسيرةٍ ، وبالموتِ الطَّبِيعيِّ تَبرُزُ أرواحُهُم ونُفوسُهُم مِنْ ذٰلكَ القَفَصِ ، ويُكوَّنونَ تَكوِيناً في عالَمٍ ما رأَوْهُ ولا حَديثٍ بهِ أَفكارُهم .

أيُّها الحكيمُ ما ذكَرْنا ؛ آمَنْتَ بما وَرَدَ مِنْ خَلْقِ الملائكةِ أولي أجنحَةٍ مثنىٰ وثُلاثَ ورُباعَ ، وأنَّ منهم مَلَكاً رِجلاهُ في تُخومِ الأَرضِ السُّفلىٰ ورأسُهُ تحتَ العَرشِ ، ومَلَكاً ما بينَ كَعبيْهِ إلىٰ رُكبتَيْهِ مَسِيرةُ ثلاثِ مئةِ عامٍ ، وعَوالمَ ما احتَوىٰ عليها فَهمُك ، وما عَلِمْتَ منها شيئاً ، وسلَّمتَ الغَيبَ بما فيهِ ، وعلِمتَ أنَّ الأرضَ الكُرِيَّةَ[2] الَّتي أنت تَدِبُّ عليها ومَنْ يُشاكِلُك بمَثابةِ دِيدانٍ وذُباباتٍ . . سَبعُ أرَضِينَ في إحداها[3] الجَحيمُ ، وعَلِمْتَ أنَّ ما أَخبَرَ التَّنزيلُ بهِ مِنَ النَّعيمِ

---

(١) في الأصل : (أم) .

(٢) في الأصل : (الكريّ) .

(٣) في الأصل : (إحديهما) .

المُقيمِ والحُورِ والوِلدانِ والقُصورِ وأَنهارٍ مِن ماءٍ غيرِ آسِنٍ وأَنهارٍ مِن عسَلٍ مُصَفّىً ، وقضَيْتَ علىٰ نفسِك بالجَهلِ ، وعلِمْتَ أنَّكَ ما فهمتَ شيئاً ، وأنَّكَ جاهلٌ لا عِلمَ لكَ ولا مَعرِفةَ ؟!

❊ ❊ ❊

فَصْلٌ

[عجزُ الفلسفيِّ عن إدراكِ عالمِ الملكوتِ]

فعندَ ذٰلكَ أَقولُ لكَ : إنَّ الَّذي سَمَّيتَه : عِلَّةَ العِلَلِ ، ونَشَرْتَ لهُ مَناشِيرَ ، وسَطَّرتَ لهُ طَوامِيرَ ، وحلَلْتَه مَحَلَّ الأَثرِ والمُؤَثِّرِ . . هو غيرُ ما سمَّيتَهُ ، وغيرُ ما فَهِمتَهُ ، وغفَلتَ بأنَّ مُوجباتِهِ بمَثابةِ مُوجِباتِ الشَّمسِ ، وما صارَ مُوجِباً أوَّلاً للمُوجباتِ ؛ بلْ هو خَلقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، كوَّنَهُ الحقُّ بمَشِيئةٍ مِنْ مَشيئاتِهِ ، وهو الرُّوحُ الأَعظَمُ الَّذي خَلَقَهُ اللهُ تعالىٰ ، وما في خَلقِهِ أَعظَمُ منهُ إلَّا العرشُ ، ولو أمَرَهُ أنْ يَبتَلِعَ السَّماواتِ والأرضَ دَفعةً واحدةً . . لابتَلَعَهُ .

فالمعلولُ الأوَّلُ : لسانُهُ ؛ وهو العقلُ الفِطريُّ ، والمعلولُ الآخَرُ : النَّفْسُ الكُلِّيُّ ؛ وهو بالنِّسبةِ إليهِ كَنِسبةِ حوَّاءَ إلىٰ آدمَ ؛ خَلَقَها منهُ ، فهٰكذا النَّفسُ كوَّنَها مِنَ الرُّوحِ الأعظمِ .

هٰذا ازدِواجٌ في عالَمِ الأمرِ ، وهٰذا ازدِواجٌ في عالَم الخَلقِ ، والأَفلاكُ والكَواكبُ مُولَّداتُ هَٰذيْنِ .

فاللهُ تعالىٰ جَعَلَ الرُّوحَ مُفتَتَحَ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، وهو العالَمُ المحسوسُ ، ولُبابُهُ المَلَكوتُ ، وهو عالَمُ الأَملاكِ المُوكَّلةُ بالأَفلاكِ المدبِّرةِ (١) لها ، فليسَ دَوَرانُها اختِياراً ولا طَبيعيّاً (٢) ، وإنَّما هي مُسَخَّرةٌ .

وهٰذه الكواكبُ لها أَملاكٌ مُدبِّراتٌ غيرُ مُدرَكةٍ لكَ ، فعالَمُ الحِسِّ والشَّهادةِ مُدرَكٌ لكَ ، وهو عالَمُ الحكمِ والأَسبابِ والوسائطِ ، والمَلَكوتُ : عالَمُ الغَيبِ والقُدرةِ ، وغيرُ مُدرَكٍ لكَ ؛ لأنَّ عقلَكَ هو العقلُ الخَلْقيُّ ، وهو لِسانُ النَّفسِ ،

---

(١) في الأصل : (المدبر) .

(٢) في الأصل : (طبيعاً) .

ولمكانِ نِسبَتِهِ إلى النَّفسِ لها رُتبةُ الأُنوثةِ ، وضَعُفَ سَيْرُهُ للبُروزِ مِنْ عالَمِ المُلكِ[1] .

والعقلُ الفِطريُّ نِسبَتُهُ إلى النَّفسِ الذُّكورةُ ، فلهُ بروزٌ إلىٰ عالَم الغيبِ والمَلَكوتِ ، وإحاطةٌ بعالَم الأملاكِ وأَجرامِها وكيفيَّتِها ، وهو مُدرَكٌ للأنبياءِ ، اطَّلعوا علىٰ ذٰلكَ بالعقلِ الفِطريِّ .

وليسَ جِرمُ الأملاكِ كما تقيسُ أنتَ على الأَجرامِ ؛ فعينُكَ مكفوفةٌ عن إدراكِ ذٰلكَ العالَمِ ، فكأنِّي بكَ تَضحَكُ عندَ هٰذا القولِ ، فتَظُنُّه فُشاراً وهَذَياناً ، وحَقُّ عقلِكَ أنْ يُرىٰ كذٰلكَ ، فكما يَضحَكُ القَرَويُّ مِن عقلِكَ ويَحكُم بسَفاهتِكَ إذا خُضتَ عندَهُ في شَرحِ عِلمِ الهيئةِ ، وذكرتَ لهُ أنَّ جِرمَ الشَّمسِ بمِقدارِ الأَرضِ مِئةٌ ونيِّفٌ وسِتُّونَ مرَّةً ، فأنت بالنِّسبةِ إليهم كهٰذا القَرَوِيِّ ، ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) كُتب بعدها في الأصل : (الخلقي) ، ثمَّ ضربَ عليها النَّاسخُ بكتابة : (من . . . إلىٰ) فوقها .
(٢) سورة المطففين : (٣٤) .

فَصْلٌ

[في أنَّ النفسَ باقيةٌ مثلَ بقاءِ الجنَّةِ والنارِ]

ألستَ ـ أيُّها الحكيمُ الفلسفيُّ ـ قَضَيتَ بأنَّ النَّفسَ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ باقيةٌ ؟ أَمَا تقولُ : إنَّ الحِكمةَ في بقائها لماذا ؟ أَهي مُعطَّلةٌ في بقائِها أم لها عِلمٌ ولها إدراكٌ ؟ وأنَّ القبرَ رَوضَةٌ مِنْ رِياضِ الجنَّةِ أو حُفرةٌ مِن حُفَرِ النِّيرانِ ، وأنَّ لها إدراكاتٍ تَنتهي بها إلىٰ يومِ البَعثِ والنُّشورِ ؟

وحيثُ فَطِنتَ لها ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ وانقَطَعْتَ بهٰذا العلمِ عنِ الدَّهريِّ ، فلِمَ لا تُواصِلُ الأَنبياءَ وتوافِقُ فيما قضَوا به مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ والصِّراطِ وجميعِ أَحوالِ الآخِرةِ ، وتَعلمُ أنَّ لكَ مُكوِّناتٍ بعدَ هٰذا التَّكوينِ الدُّنْياويِّ الَّذي يَقطَعُه الموتُ الطَّبيعيُّ ، مُكوَّناتٍ في البَرْزَخِ والقِيامةِ ، والجنَّةِ والنَّارِ ؟!

فَصْلٌ

[في أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالىٰ خلقَ الروحَ علىٰ صفتِهِ]

اعلمْ : بأنَّ اللهَ تعالىٰ كما خَلَقَ آدمَ علىٰ صُورتِهِ بالشَّرحِ الَّذي ذكرناهُ . . خَلَقَ الرُّوحَ علىٰ صِفتِهِ في التَّكوينِ ، وقولُكَ : لا يُوجدُ مِنَ الواحدِ إلَّا الواحِدُ ، فالواحِدُ هو الأوَّلُ ، والواحِدُ الآخَرُ هو الرُّوحُ ، ولٰكنْ في وِجهةِ إدراكِ عقلِكَ للهِ تعالىٰ أحداثٌ[1] غيرُ مُتَناهِيةٍ بمَشِيئاتٍ غيرِ مُتناهيةٍ دائمةٌ بدَوامِهِ باقيةٌ ببقائِهِ ، لها حَدٌّ في خَلقيَّتِهِ ، وللهِ استقلالٌ لخالقيَّتِهِ .

وعندَ ذٰلكَ ذابَتْ عُلومُكَ ، فعادَ عِلمُكَ جَهلاً ، ودِرايتُكَ حَيْرةً ، وعُدتَ إلىٰ مُتابعةِ الأَنبياءِ صِفرَ اليَدَيْنِ عن مَعلوماتِكَ ومَفهوماتِكَ ، وأذعَنتَ للشَّريعةِ ، وآمنتَ بما أخبَرَ بهِ الأنبياءُ والقُرآنُ ، وأثبتَّ الأشياءَ علىٰ هيئتِها ، وآمنتَ بحَشرِ الأجسَادِ بعدَ الدُّثورِ ، وحشرِها مِنَ القُبورِ ، وحَظِّها مِنَ النَّعيمِ والقُصورِ ، وقِسطِها في الجَحيمِ مِنَ الوَيلِ والثُّبورِ .

* * *

---

(١) في الأصل : (وأحداث) .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ الروحَ الحيوانيَّ غيرُ الروحِ الروحانيِّ]

أيُّها الحَكيمُ الفلسفيُّ ؛ أَثبَتَّ وجودَ النَّفْسِ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ ، فاعلمْ أنَّ الرُّوحَ الحيَوانيَّ ـ الَّذي هو مُشارِكٌ لسائرِ الحيَواناتِ ـ غيرُ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ الَّذي سَمَّيتَهُ : النَّفْسَ النَّاطِقةَ ، وما عدا ما تُصوِّرُهُ أنتَ مِنْ بقاءِ القُوَّةِ : الخياليَّةِ والوهميَّةِ ، واستِصحَابِ النَّفسِ ذٰلكَ ، كلُّ ذٰلكَ [1] تَوهُّماتٌ وخَيالاتٌ لا حاصِلَ لها .

والعجَبُ أنَّهُ ما لاحَ لكَ مِنْ حالِ النَّومِ لَوائِحُ بذٰلكَ علىٰ شيءٍ مِنْ أَحوالِ نفسِكَ بعدَ الموتِ ، أَمَا يَتَبيَّنُ لكَ أنَّ بعضَ المَناماتِ غيرُ أَضغاثِ أَحلامٍ ، بلْ هو فُرْجةٌ مَفتوحةٌ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ الَّذي يَصِلُ إليهِ بعدَ الموتِ ، وتلكَ الفُرجةُ تتَّسِعُ بالموتِ الطَّبيعيِّ ؟! وشيءٌ ممَّا مرَّ بكَ في مَنامِك يَتجسَّدُ بالموتِ ، ويُكسَىٰ كِسوةً وُجُودِيَّةً مِنْ جِنسِ ما اكتَسَبتَ في أيَّامِ الدُّنيا ، حتَّىٰ تُؤمِنَ بحَقائقِ ما أَخبَرَ الأنبياءُ بِهِ مِنْ أَحكامِ الآخرةِ والأُمورِ الأُخْرويَّةِ .

---

(١) في الأصل : (ذٰلك كل) .

فَصْلٌ

[في انقطاعِ علومِ البرهانِ بالموتِ الطبيعيِّ]

يا مَنْ سَعةُ عُلومِهِ في مَضيقِ البُرهانِ والحدِّ ؛ ألسْتَ بسَلْبِ الموتِ الطَّبيعيِّ تُسلَبُ[١] بُرهانَكَ ومُبَرْهَناتِكَ ، وتَصِلُ إلىٰ عُلومٍ وِجدانيَّةٍ غيرِ البُرهانيَّةِ ؟ فالبُرهانيَّةُ مَمزوجةٌ بمُكتَسباتٍ مِنَ الحواسِّ الخَمسِ الَّتي هي فرائضُ المحسوساتِ ، وبينَها وبينَ العُلومِ الَّتي سَمَحَ بها العَقلُ الخَلقيُّ مناسبةٌ ؛ فوَجَبَ امتِزاجُها ، وكذٰلكَ حَصَلَ لها ضَعفٌ لا تَستَصحِبُها النَّفسُ بعدَ الموتِ ، فلماذا[٢] البِناءُ عليها ؟ ولماذا[٣] الاِعتدادُ بها وهي طَوالِعُ سَريعةُ الأُفولِ ، يَسلبُها[٤] الموتُ الطَّبيعيُّ ؟

فما أَغفلَكَ[٥] أيُّها الحكيمُ الفلسفيُّ ! وما أقلَّ حظَّكَ مِنَ العلمِ وبَحرِهِ إلَّا وَشلٌ يَسيرٌ ! فلهٰذا المعنىٰ ما لَمْ يَسَعْ مِيزانُ[٦] بُرهانِكَ للأَحكامِ الأُخرويَّةِ ؛ فأَنكرتَها وجَهِلتَها .

والعجَبُ مِنكَ أنَّكَ أثبتَّ ضَروريَّاتٍ وبَديهيَّاتٍ ما دَخلَتْ[٧] في مِيزانِ البُرهانِ ، وتُنكِرُ عُلوماً لا يَسَعُها مِيزانُ البُرهانِ !

(١) كلمة (تسلب) زيادةٌ يقتضيها السِّياق .
(٢) في الأصل : (فماذا) .
(٣) في الأصل : (وماذا) .
(٤) في الأصل : (بسلبها) .
(٥) في الأصل : (أعقلك) .
(٦) في الأصل : (الميزان) ، وضربَ النَّاسخُ على الألف واللام .
(٧) في الأصل : (دخل) .

فَصْلٌ

[في سؤالِ الفلاسفةِ عن برهانِ انتهاءِ الكائناتِ]

أيُّ البُرهانِ لكَ على انتهاءِ الكائناتِ وانقِطاعِها ؟ وأيُّ البُرهانِ لكَ علىٰ وُجودِ عالَمٍ آخَرَ غيرِ الكائناتِ الَّتي انتهَتْ بانتهاءِ أُستُقُصَّاتِ ؟ وكُلُّ ذٰلكَ مِنِ ارتماءِ الوَهْمِ ، وإلَّا . . لا وُجودَ بعدَ ذٰلكَ ؛ فإنَّ العالَمَ غيرُ مُتحيِّزٍ [1] ، إذْ يَلزَمُ مِنْ ذٰلكَ التَّسلسلُ ، ممَّا تَبيَّنَ لكَ بهٰذا الشَّأنِ قُصورُ عَقلِكَ وعِلمِكَ .

فما هٰذا العَمىٰ ؟! وما هٰذا الجهلُ ؟! وكيفَ رَضِيتَ بأنَّكَ عِشتَ وما أيقَنْتَ في عُلومِكَ ؟ وهٰذا الخِطابُ لأئمَّتِك ؛ كابنِ سِينا والفارابيِّ ، وأئمَّتِهِم ؛ كأرسْطاطاليسَ وأفلاطونَ ، فكم يدنُونَ في أَضواءِ عُلومِهِم مُقلِّدِينَ كافِرينَ باللهِ وآياتِه وبرُسُلِه .

---

(١) في الأصل : (متحيّز في) ، وما أثبتُه مِن « تفسيرِ الرَّازي » (٢١/٣٩٩) .

فَصْلٌ

[فيمن وجدَ البحرَ . . استقلَّ السواقيَ]

يَنابيعُ العُلومِ الدَّفَّاقةُ[1] بماءِ الحياةِ تَصوَّبَتْ إلىٰ مُنقَعِراتِ استِعداداتِ الرُّسُلِ كسَيْلٍ أخذَتْهم حتَّىٰ أَلقَتْهُم في بَحرِ العلمِ الأَزَليِّ ، فشَخَصَتْ بصائرُهُم مُطالِعةً الجمالَ الأزليَّ ، وتصاعَدَتْ أنفاسُ حُنُوِّهم مُدارِكةً المَددَ ؛ ممَّا أعادَتْ بصائِرَهُم لمُطالعةِ[2] الكَائناتِ في تَفاصِيلها ، واستَغنَوْا بانعكاسِ حَمَلتِها في مِرآةِ استِعدادِهِم ، ولَمْ يرضَوْا مِنْ نُفوسِهِم إضاعةَ الزَّمانِ والوقتِ في تَصَفُّحِ تَفاصيلِ الكَائناتِ ، ومُطالعةِ العُلومِ البُرهانيةِ وعُلومِ الهيئةِ وغَيرِها ؛ كالطَّبيعيَّاتِ والرِّياضيَّاتِ ، واستَقذَرَتْها[3] عِزَّةُ أوقاتِهِم ، وقالوا بلِسانِ الحالِ : [الطويل]

. . . . ومَن وَجَدَ البَحرَ استقلَّ السَّواقِيا[4]

❊ ❊ ❊

---

(١) في الأصل : (الدَّقاقة) .

(٢) في الأصل : (مطالعة) .

(٣) في الأصل : (واستقدرتها) .

(٤) هٰذا عَجُزُ بيتٍ شهيرٍ لأبي الطَّيِّبِ المتنبِّي ، وصدره :

قواصِدَ كافورٍ تَوارِكَ غيرِهِ . . . .

وهو مِن عيونِ الأمثالِ السَّائرة في شِعرِه . ينظر « الأمثال السَّائرة من شعرِ المتنبِّي » للصَّاحب ابنِ عبَّاد (ص ٥٨) ، وفي « الديوان » : (ومَن قَصَدَ) .

فَصْلٌ

[في سعةِ علمِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ومَنِ اقتبسَ منهم]

أَصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومَنِ اقْتَبسَ منهُم حَظُوا بقِسطٍ مِنَ العلمِ ، ورَكِبوا بذٰلكَ غَوارِبَ اجتهادٍ بالرَّوْبِ [١] في العُبوديَّةِ ، فلهُم بكُلِّ سَجدةٍ اِقتِباسٌ مِنْ نُورِ العلمِ ، وبكُلِّ آيةٍ مِنْ كلامِ اللهِ تعالى اقتِباسٌ ، وبكُلِّ رُكوعٍ اقتِباسٌ ، ولهُم في الدَّرَجاتِ الإلٰهيَّاتِ في الصِّراطِ مَعارِجُ وارتِقاءٌ مِنْ مَهواةِ [٢] الوُجودِ الإمكانيِّ إلىٰ قُربِ الوُجودِ الوُجوديِّ ، ولهم في سَاعاتِ زَمانِهِم مُرورٌ بالوَادِ المُقدَّسِ وسَماعٌ مِنْ شاطئِ الأَيمنِ بقُربِ أَسماعِهِم ، ويَنظرونَ مِنْ ذُرَا مَعالي مَقاماتِهِم إلىٰ عَرْصةِ الجَهَالةِ مُتَّسعةِ الأَطرافِ يَدِبُّ فيها حُكَماءُ الفلاسفةِ ، يَمشُونَ زَحْفاً مُعرِضِينَ الكَلالَ ، رَاكِبينَ غَوارِبَ سُوءِ المآلِ ، يُنادُونَهم : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ [٣] ، ارجِعوا إلىٰ أوطانِ الفِطرةِ ، وامْحُوا كُلَّ ما انتَقَشَ في أَلواحِ أَذهانِكُم [٤] ؛ عسَاكُم تُنشَؤُوا نَشاءً مُستَأنَفاً ، وتجدوا وجوداً أُنُفاً .

❊ ❊ ❊

---

(١) رَابَ يَرُوبُ رَوْباً ؛ أيْ : أَدْرَك . انظر « تاج العروس » (٢/٥٤٢) .

(٢) في الأصلِ : (مَهمواة) .

(٣) سورة الحديد : (١٣) .

(٤) في الأصل : (أذهانك) .

فَصْلٌ

[في غفلةِ الفلاسفةِ عنِ انتهاءِ ما أثبتوا أزليتَهُ مِنَ الأجسامِ]

أيُّها الحَكيمُ[1] الذَّكيُّ الَّذي يُراجِعُ فِكرَهُ في إثباتِ أَوَّليَّةِ الأَجسامِ ، ويَردُ دِرايةَ ورأيَ مَنْ يَحذو حَذوَهُ فيهِ في الِاستنباطِ بالأَفكارِ ؛ اختَلفتُم في الماءِ والنَّارِ والهواءِ ، وقَطعتُم جُزءاً يَسيراً مِنْ أَذيالِ الأزليَّةِ ، ثمَّ أثبتُّم مِنْ أَوَّليَّةِ الأَجسامِ ، فلِمَ غَفَلتُم عنِ انتِهائِها ؟! فما لهُ مَولِدٌ مِنْ قُدرةِ الأَزَلِ يكونُ لهُ مدفَنٌ في عَرْصةِ الأَبدِ .

فلماذا التَّحيُّرُ والغَيبةُ عن حقيقةِ العلمِ ؟!

ثمَّ كمْ سَبَقَتْ أَوائلُ مُختَلِفةٌ عنِ الأَزليَّةِ ، وكم أَواخِرُ مَحجوبةٌ في أَستارِ الأَبديَّةِ ، فقدْ صَنَعتَ مِيزانَ بُرهانِكَ ، وكَسَرْتَ مِعيارَ حَدِّكَ ، وغَفَلتَ بأنَّ مِيزانَ بُرهانِكَ ومِعيارَ حَدِّكَ مُعلَّقٌ بعَلَاقةِ الحياةِ الطَّبيعيَّةِ ، وبالموتِ الطَّبيعيِّ تَنقَطِعُ العَلَاقةُ ، فلا يَبقَىٰ حَدٌّ ولا بُرهانٌ ، ولو أنَّ البُرهانَ والحدَّ صَلُحا وِعاءً للعلمِ . . لارتَسَما في النَّفسِ النَّاطقةِ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ كارتِسامِ الأمورِ الأُخرويَّةِ فيها كالعِلمِ باللهِ تعالىٰ ؛ لِتَعلمَ أنَّ السَّماءَ انفطرَتْ ، والكَواكبَ انتثرَتْ ، وبَدَّلَ الأرضَ غيرَ الأَرضِ ، وطوَى السَّماءَ كطَيِّ السِّجِلِّ .

هٰذا تجدُه في البَرزخِ قبلَ أنْ يُطوَىٰ بالكُلِّيَّة عندَ النَّفخِ في الصُّورِ ، و« مَنْ مَاتَ . . فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ »[2] ، و« ٱلْقَبْرُ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ ٱلْآخِرَةِ »[3] .

---

(١) في الأصل : (الحليم) .

(٢) هو حديثٌ أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » (١٧٣) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٣) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٣٠٨) من حديث سيدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وحسّنه .

فيا أَرِسْطاطاليسُ ومُشاكِلوهُ ، وأَتباعُهُم المُقلِّدونَ لهم ، المُقتبِسونَ مِن نارِهِمُ الخامِدةِ سَريعاً ؛ قدْ[1] خرِبَتْ أَعشاشُ طُيورِ أَفكارِكُم ، وبَقِيتُم رَهائنَ حَنادِسِ أَوزَارِكُم ، يا ضالُّونَ يا مُضِلُّونَ .

* * *

---

(١) في الأصل : (وقد) .

فَصْلٌ

[في عالَمي الملكِ والشهادةِ والغيبِ والملكوتِ وعلمائِهما]

هٰذه الأرضُ الكُريَّةُ ـ كما زعَمْتَ وأثبتَّ ـ مَزرَعةٌ للنُّفوسِ الإنسيَّةِ ، أُخرِجَتْ بُذُورُها[1] مِنَ الغَيبِ بعدَ أنْ تَهيَّأتِ المزرعةُ بنَظرةٍ مِنْ نَظَراتِ المشيئةِ الأَزليَّةِ ، وأُودِعَ في أَجزاءِ تُرابِها خاصِّيَّةُ الحياةِ الأَبديَّةِ ، ثمَّ استُنزِعَتْ تلكَ الخاصِّيَّةُ لتَركيبِ قالَبِ الإنسانِ ، فانقَسَمَتْ عالَمَيْنِ : عالَمُ المُلكِ والشَّهادةِ ، وعالَمُ الغَيبِ والمَلَكوتِ .

ولكلِّ عالَمٍ مِنَ العَالَمَيْنِ عُلماءُ يَشتَغِلونَ بهِ ، وهم عُلماءُ الدُّنيا والآخرةِ ؛ فلِعالَمِ الدُّنيا عُلومٌ اشتَملَتْ علىٰ فَلَكِ البُروجِ إلى الفَلَكِ الَّذي حَشْوُهُ العناصِرُ وعلىٰ أَجزائِها وتَفاصِيلِها ، ويَجولُ في مَيدانِهِ نُورُ الفِطرةِ المُنتقَشُ في صَحِيفتِهِ العلومُ الأُخرويَّةُ ، ويَقَعُ الفُرقانُ بينَ العَالَمَيْنِ بالموتِ الطَّبيعيِّ .

وكانَ سَهمَ الجامِدينَ على العَقلِ[2] الخَلْقيِّ عُلومٌ تَحيَّرَتْ في الحدِّ والبُرهانِ ، وحَظُّ أَربابِ العقلِ الفِطريِّ العلومُ الأُخرويَّةُ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ، فتَفاصِيلُ الجنَّةِ : حُورُها[3] وقُصُورُها وأَشجارُها وأَنهارُها ، وتَفاصِيلُ النَّارِ : الأَنكالُ والأَغلالُ وغيرُ ذٰلك ، فالنُّفوسُ المُفارِقةُ الأَبدانَ مُكاشَفونَ بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ بمَجالِهِم في الجنَّةِ والنَّارِ ، ويُحيطونَ بذٰلكَ عِلماً ، لا يُحَدُّ ذٰلكَ العِلمُ إلَّا بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ ، وتُستَبدَلُ النُّفوسُ عن هٰذه العلومِ ـ عُلومِ عالَمِ الشَّهادةِ ـ عُلوماً هي في خَزائنِ علمِ الغَيبِ ، فلا يَبقَىٰ حَدٌّ ولا بُرهانٌ ولا مَحسوسٌ .

فخُذْ أنتَ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ ما وقَعَتِ الإشارةُ إليهِ ، فعن قَريبٍ تُخلِّفُ وراءَكَ

---

(١) قد تُقرأ في الأصل : (بسورها) .

(٢) في الأصل : (العقول) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٣) في الأصل : (وحُورها) .

عُلومَك ومَعلوماتِكَ ، وتَقدُمُ علىٰ عُلومٍ ومَعلوماتٍ هي في خَزائنِ الغَيبِ لا يُفتحُ بابُها إلَّا عندَ الموتِ الطَّبيعيِّ ، وعندَ ذٰلكَ يَتبَيَّنُ لكَ أنَّ الرُّوحَ الأَعظمَ ـ الرُّتبةَ الأُولىٰ ـ هو المبدأُ الَّذي فتَحَ الإلـٰهُ القدِيمُ والصِّفاتُ والأَسماءُ بهِ بابَ عالَمِ الشَّهادةِ ، وجَعْلُ الرُّوحِ الأَعظمِ الرُّتبةَ الأُولىٰ هي أنْ عَمَّكَ طَرَفُ الإيجابِ ، ثمَّ تَلَاهُ الإمكانُ وأَجزاؤُهُ وأَبعاضُهُ ، وأنَّ مِنْ أَجزائِهِ النَّفْسَ الكُلِّيَّ الَّتي كُوِّنَتْ مِنَ الرُّوحِ كتكوينِ حوَّاءَ مِنْ آدمَ .

وكلُّ ما تَحيَّر في فُهومِكَ وأَحاطَ بهِ عِلمُكَ الدُّنياويُّ المربوطُ بعَلَّاقةِ الموتِ الطَّبيعيِّ مِنَ الأَفلاكِ والكَواكبِ . . ولائذُ الرُّوحِ الأَعظمِ والنَّفسِ الكُلِّيِّ ، فتَبقَىٰ ـ أيُّها الحكيمُ الفَلسفيُّ ـ مَحروماً عن لَذَّةِ الحياةِ الأَبديَّةِ ، فكَمْ تَصولُ بعلمِكَ الَّذي تَبقَىٰ منهُ صِفرَ اليديْنِ ، وتقولُ عندَ ذٰلكَ : يا حسرتَا علىٰ ما فرَّطتُ في جنبِ اللهِ ، ويا حسرَتا علىٰ[1] ما فاتَني مِنَ العلمِ ، ويَحظَى العَالِمونَ بالعلمِ الأُخرويِّ بنَعِيمِهِمُ المُقيمِ ، ويَظهَرُ فيهم أَثرُ الفَضلِ الأَزليِّ ، ويَظهَرُ في الآخَرينَ أَثرُ العَدلِ الأَزليِّ ، ويقولُ[2] خَطِيبُ الكِبرياءِ الأَزليِّ : « هَـٰؤُلَاءِ فِي ٱلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي ، وَهَـٰؤُلَاءِ فِي ٱلنَّارِ وَلَا أُبَالِي »[3] ، يا معشرَ الأَنبياءِ ؛ خُذوا ذاتَ اليَمينِ أَنتم وأتباعُكُم ، ويا مَن حُرِموا متابعةَ الأَنبياءِ ؛ خُذوا ذاتَ الشِّمالِ .

ويُؤتَىٰ بالموتِ علىٰ صُورةِ كَبشٍ أَملحَ يُذبَحُ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ ، ويُنادي مُنادي الِاستغناءِ : خلودٌ بلا موتٍ يا أَهلَ الجنَّةِ ، وخُلودٌ بلا مَوتٍ يا أَهلَ النَّارِ[4] .

* * *

(١) كلمة (علىٰ) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٢) في الأصل : (ويكون) .

(٣) تقدَّم تخريجه (ص ٢٥٣) .

(٤) أخرجه البُخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩) من حديثِ سيدنا أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه .

فَصْلٌ

[في سعةِ ميدانِ العلمِ]

اعلمْ : أنَّ الأَنبياءَ والرُّسُلَ صلواتُ اللهِ عليهِم مَسلَكُهُم نُورُ اليقينِ والإيمانِ ، يَنتَهي بهِم ذٰلكَ إلى الكَشفِ والعِيانِ ؛ لقولِ قائلِهِم[1] : لو كُشِفَ الغِطاءُ . . ما ازددتُ يقيناً ، ولقولِهِ : لا أَعبدُ ربّاً لمْ أرَهُ[2] ، ويقولُ : ما زِلتُ أُردِّدُ الآيةَ علىٰ قَلبي[3] حتَّىٰ سَمِعتُها مِنَ المُتكلِّمِ بها ، يُنقَلُ ذٰلكَ عن جعفرٍ الصَّادقِ[4] رضيَ اللهُ عنهُ ، ويقولُ قائِلُهُم : لقدْ تجلَّىٰ في كَلامِهِ ولٰكنْ لا تبصرونَ .

ومَسلَكُ الأُخرىٰ مِنَ الفلاسفةِ : بُرهانٌ يُتَدرَّجُ إليهِ بالمبادئِ مِنْ عُلومِ الرِّياضِيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ حتَّىٰ يُوصِلَانِهِم إلى البُرهانِ ، فيكونُ لهمُ البُرهانُ ؛ يوقِفُهُم على المركَّباتِ والحدِّ .

والعِلمُ مَيدانٌ فَسِيحٌ متَّصِلُ الطَّرفيْنِ بالأَبدِ والأَزَلِ ؛ لأنَّهُ مُستمَدٌّ مِنْ كَلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتي يَنفَدُ البحرُ دونَ نَفادِها ، وتَنفَدُ أَعدادُ الرِّمالِ دونَ أَعدادِها .

والبُرهانُ سِكَّةٌ مِنْ هٰذا الميدانِ ، والحَدُّ زَوايةٌ مِنْ تلكَ[5] السِّكَّةِ ، فقضَى العِيانُ إدالةً على البُرهانِ ؛ لأنَّ البُرهانَ قليلُ الجَدوَىٰ ، والعِيانَ بعِيدُ المدَىٰ .

---

(١) نسَبه القُشيريُّ في « الرِّسالة » (٣١٩/١) إلىٰ عامرِ بنِ عبدِ القيس .

(٢) أخرجه الكُلَينيُّ الشِّيعِيُّ في « الكافي » ٩٨/١ : قال : عِدَّةٌ مِن أصحابنا ، عن أحمد بن محمَّد بن خالدٍ ، عن أحمد بن محمَّد بن أبي نَصرٍ ، عن أبي الحسنِ الموصلي ، عن أبي عبد اللهِ عليه السَّلام قال : جاء حَبرٌ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ صلوات اللهِ عليه فقال : يا أميرَ المؤمِنينَ ؛ هل رأيت ربَّك حين عَبدتَّه ؟ قال : فقال : ويلَك ! ما كنتُ أعبدُ ربّاً لم أره ، قال : وكيف رأيتَه ؟ قال : ويلَك ! لا تُدرِكُه العُيونُ في مُشاهَدَةِ الأبصارِ ، ولٰكن رأته القلوبُ بحقائقِ الايمانِ .

(٣) قوله : (علىٰ قلبي) : زيادةٌ لازمةٌ أضافها الإمامُ الغزاليُّ في « الإحياء » (٢٨٧/١) .

(٤) أورده المكي في « قُوتُ القلوبِ في مُعاملةِ المحبوب وصفُ طريقِ المريدِ إلىٰ مَقامِ التَّوحيد » (٨٨/١) ، والغزالي في « الإحياء » (٢٨٧/١) .

(٥) قوله : (من تلك) تكرَّر في الأصل .

يَطِيرُ البُرهانُ والمُبرهَنُ بالموتِ الطَّبيعيِّ كأَنْ لمْ تغنَ بالأمسِ ، يُطوَىٰ بالمَوتِ الطَّبيعيِّ جَرِيدةُ عالَمِ المُلكِ والشَّهَادةِ ، وتَخفُقُ رَاياتُ البقاءِ الأَبديِّ ، ويُنادَىٰ : لمنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ للهِ الواحدِ القهَّارِ ، ونُفخَ فِي الصُّورِ فصعقَ مَنْ في السماواتِ ومَنْ في الأرضِ ، فكلُّ إنسانٍ قامَتْ قِيامتُهُ بمَوتِهِ بلا بُرهانٍ ، وأَربابُ العِيانِ عندَ ذٰلكَ لدَى القَهرِ وظُهورِهِ يَسلُكونَ في المَاءِ بما أُتِيحَ لهمُ الحُظوةُ بالعِيانِ ، فالعِيانُ ثابِتٌ ثُبوتَ الجبالِ ، والبُرهانُ يَزولُ بزَوالِ الآلِ .

فأهلُ البُرهانِ سَنَدُهُم أفكارُ الطَّبيعةِ[1] ، أَخذَتْهُم في مَيادينِ البحثِ والتَّفتِيشِ حتَّىٰ أَدرَكوا ما بينَ فَلَكِ البُروجِ وفَلَكِ القَمرِ ، وانتهَوْا إلىٰ مَركزِ النَّارِ ، ثمَّ احترَقَتْ عُلومُهُم وبُرهانُهُم ، ولم يَعلَموا أنَّ ما أدرَكوهُ وُجُودٌ مُتناهٍ ، ولا أُطلِقوا مِنْ عِقالِ عالَمِ الغَيبِ والشَّهادةِ ، ولا بَرَزوا إلىٰ فَسِيحٍ فيهِ أملاكٌ ؛ أَحدُهُم قَدمُهُ إلىٰ تُخومِ الأرضِ ، ورأسُهُ تحتَ العَرشِ .

وقدْ وَرَد أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إِنَّ لِلَّهِ أَرْضاً بَيْضَاءَ ، مَسِيرَةُ ٱلشَّمْسِ فِيهَا ثَلَاثُونَ يَوْماً مِنْ أَيَّامِكُمْ ، مَحْشُوَّةٌ خَلْقاً ، لَو سَمِعَ زَجَلَهُمْ أَهْلُ ٱلْأَرْضِ . . لَمَاتُوا مِنْ ذَٰلِكَ ، فِيهَا خَلْقٌ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللهَ خَلَقَ آدَمَ ، وَلَا إِبْلِيسَ »[2] .

أَينَ أَنتَ أَيُّها الحكيمُ الَّذي غابَ عن مَعرِفةِ نفسِهِ ، ومَعرِفةِ رَبِّهِ ، ومَعرفةِ

---

(١) في الأصل : (الطَّبيعيَّة) .

(٢) أخرجه أبو الشَّيخ الأصبهاني في « العَظَمةِ » (١٤٤٠/٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنهُ ، عن رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ، قال : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ أَرْضاً مِنْ وَرَاءِ أَرْضِكُمْ هَـٰذِهِ ، بَيْضَاءَ نُورُهَا ، وَبَيَاضُهَا مَسِيرَةُ شَمْسِكُمْ هَـٰذِهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً » . قَالوا : كَان رَسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعنِي مِثلَ الدُّنيا أربَعينَ مَرَّةَ ، « فِيهَا عِبَادٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ ، لَمْ يَعْصُوهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ » . قَالوا : يَا رسُولَ اللهِ ؛ أَمِنَ المَلَائِكةِ هُم ؟ قَال : « مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ » . قَالُوا : يا رَسولَ اللهِ ؛ أَفَمِن وَلَدِ آدَمَ هُمْ ؟ قَالَ : « مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ » . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَفَمِنْ وَلَدِ إِبْلِيسَ هُمْ ؟ قَالَ : « مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ إِبْلِيسَ » . قَالُوا : يَا رَسولَ اللهِ ؛ فَمَن هُم ؟ قَال : « هُمْ قَوْمٌ يُقَالُ لَهُمُ : الرَّوْحَانِيُّونَ ، خَلَقَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ضَوْءِ نُورِهِ » .

مَلائكتِهِ ومَلكُوتِهِ ؟ استَجلِسْ مُستَقِرَّ الطَّردِ ومُنقَعرَ الحَملِ ، وأَدِرْ بهمَّتِكَ القاصِرةِ بأَيدِي أَفكارِكَ سَريسَ[1] الفُلكِ كالنِّسوانِ .

فأينَ أنتَ مِنْ مَبادِئ المَلَكوتِ يَتطارَدُ فيها شُجعانُ العِيانِ ، يُدبِّرونَ كُرَةَ الأَطوارِ الدَّهرِيَّةِ بصَولجانِ الكَشفِ والعِيانِ ، ويَحتَسُونَ شَرابَ العلمِ اللَّدُنِّيِّ بِكَبِدٍ عَطشانَ ، يُنادُونَ بلِسانِ الافتِقارِ والطَّلبِ : هل مِنْ مَزيدٍ ؟ ولا يُزادُ وَقودُ الرَّبَّانيَّةِ عليهِم مِنْ بِحارِ المَزيدِ حتَّىٰ ماجَتْ أَبحُرُ العلمِ ، فتَتَجاوزُ أَوعِيةُ النُّفوسِ الإنسيَّةِ الحدَّ .

ففي ذٰلكَ الحِكمَةُ البالِغةُ لتَقِفَ النُّفوسُ الإنسيَّةُ عندَ حَدِّها ؛ إذْ لو لَمْ تكُنْ كذٰلكَ . . لَشَطَحَتْ ، حتَّىٰ لاقَىٰ ساحِلَ الجَبروتِ وتَصَوَّرَ في مِرآةِ إدراكِ وُجودِ جَائزِ[2] الوُجودِ عكسَ آثارِ جَلالِ واجبِ الوجودِ ، ومِنْ ذٰلكَ كبا في ذَيلِ التَّعدِّي مَنْ قالَ : أَنَا الحقُّ ، وسُبحاني[3] .

والعِلمُ الكُلِّيُّ مِنْ سَعتِهِ مُنقَسِمٌ علىٰ طَبقاتِ السَّماواتِ وأَهلِها ، وبالعُروجِ الرُّوحانيِّ نَيْلُ الحُظوةِ في كلِّ سَماءٍ ، ونبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أخَذَ الحبلَ بطَرَفَيْهِ بعُروجِ ظَاهرِهِ وباطنِهِ ، فاحتَوىٰ على الحظِّ الوافرِ المُودَعِ في طَبقاتِ السَّماواتِ ، فأُوتيَ جَوامِعَ الكَلِمِ ، وأُرويَ مِنْ عُلومٍ ما مرَّ منها نَسمَةٌ بمَشامِ فَلسَفِيٍّ أَبداً ، فصارَ مِحقَنَ عُلومٍ عِيانيَّةٍ بذٰلكَ .

والفَلسفيُّ استَكثَرَ ما اطَّلَعَ عليهِ مِنْ عالَمِ المُلكِ ، واستَعظَمَ عِلمَهُ بأنَّ الشَّمسَ نَيِّفٌ وسِتُّونَ مَرَّةً مِثلَ الأَرضِ ، فما أَثبتَهُ مِنْ علمِهِ يَسيرٌ مِنْ كَثيرٍ ، فأَينَ البُرهانُ مِنَ العِيانِ ؟

---

(١) السَّريس : هو الضعيف هنا . انظر : « لسان العرب » (س ر س) .

(٢) في الأصل : (حائز) .

(٣) وكأنَّه يعني الحلَّاجَ ومَن لفَّ لفَّه ، ودارَ في فَلَكِه مِن زُمرتِه ، ومِن أقوالهم الشَّنيعة : أنا الحقُّ ، سُبحاني ما أعظمَ شاني ، وما في الجبَّةِ إلَّا الله ، فظاهرُ كلامِهم أنَّهم لا يُثبِتونَ الوَحدانيَّةَ للهِ تعالىٰ ، وهم بذلك مُتعدُّونَ علىٰ حُرمَةِ اللهِ تعالىٰ .

فكما أدالَتِ الآخِرةُ على الدُّنيا . . أدالَ العِيانُ على البُرهانِ ، وقدْ وَرَد في الخبرِ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَثَلُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ كَمَنْ غَمَسَ إِصْبَعَهُ فِي ٱلْيَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ »[١] .

* * *

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٧٠) .

فَصْلٌ

[في منتهىٰ إدراكِ العقلِ الخَلْقي والعقلِ الفِطريِّ]

الهِمَمُ تَسابَقَتْ في نُهوضِها ؛ فمِنْ هِمَمٍ نَهضَتْ مِنْ أَغساسِ[1] المَلَكوتِ ، لها قَوادِمُ وخَوافي مِنَ الأَرواحِ القُدُسِيَّةِ ، وهِمَمٌ نَهضَتْ مِن أَفكارِ المُلكِ ، لها قَوادِمُ وخَوافي مِنَ الأَرواحِ الحيَوانيَّةِ المُحتَبِسةِ المُمتارَة[2] مِنْ أَرواحِ الحيَواناتِ ؛ لكَونِهِ مَحَلاًّ للرُّوحِ الحيَوانيِّ مُتَحلِّي[3] بحِليةِ الإلهامِ الموصوفِ بالنُّطقِ ، لمْ يَعدِمْ ثِقالاتٍ مانِعةً مِنَ الطَّيرانِ ؛ لتَخلُّفِهِ مِنَ الفِطرةِ ، واحتِجابِهِ[4] بحِجابِ الخِلْقةِ ، واستِمدادِهِ مِنَ العقلِ الخَلْقيِّ .

والهِمَمُ النَّاهِضةُ مِنْ أَفكارِ المَلَكوتِ قَطَعَتْ عَرْصةَ عالَمِ المُلكِ في أَسرعِ وَقتٍ ، ثُمَّ أَخَذَتْ في السَّيْرِ في عالَمِ المَلَكوتِ حتَّىٰ جَمَعَتْ بينَ الإدراكِ[5] الدُّنياويِّ والإدراكِ الأُخرَوِيِّ ، فبقيَتْ مُخلدةً[6] ، فعالَمُ الدُّنيا مُدرَكٌ بالعَقلِ الخَلْقيِّ ، وبهِ يُنتهىٰ إلىٰ عالَمِ العِلَلِ ، وهـٰذا غايةُ إدراكِ العَقْلِ الخَلقيِّ ومُنتهَاهُ ، فإدراكُ العلَّةِ الأُولىٰ ومَعلولِها الأَوَّلِ ، والفَرقُ بينَ العِلَّةِ والمعلولِ : بالسَّبقِ الذَّاتيِّ ، لا بالسَّبقِ الزَّمانيِّ .

ثمَّ يَنزِلُ إلى المعلولِ الثَّاني ؛ وهو النَّفسُ الكُلِّيُّ ، وإلىٰ مَعلولِهِ ، والمعلولُ الثَّاني غابَ عنِ الفَلاسفةِ ، فعبَّروا عنهُ بأنَّهُ : المُوجبُ ذا طَرَفَيْنِ إلى الإيجابِ

---

(١) أغساس : جمع غسّ ، والمقصود بها هنا : الضُّعفاء في آرائهم وعُقولهم . انظر « لسان العرب » (١٥٤/٦) (غ س س) .

(٢) في الأصل : (الحيوانيّ المحتبس الممتاز) ، والِامتِيار : بمعنى الِاستِلالُ ، حكاه في « تاج العروس » (م و ر) .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) في الأصل : (واحتجاجه) .

(٥) في الأصل : (إدراك) .

(٦) في الأصل : (يبقىٰ مخلداً) .

والإمكانِ ، وفرَّقوا بينَهُ وبينَ ما زعَموا أنَّهُ العِلَّةُ الأُولَى الَّتي لا يُوجَدُ منها[1] إلَّا واحدٌ وسَلِمَ منهُ التَّكَثُّرُ ، ولم يَعلَموا أنَّهُ العقلُ الفِطريُّ ، وهُو لِسانُ الرُّوحِ ، والمعلولُ بعدَهُ النَّفسُ الكُلِّيُّ ، والمعلولُ بعدَهُ العقلُ الخَلْقيُّ ، ولا يُعرَفُ العقلُ الخَلْقيُّ في اصطلاحِهِم ، وهو لِسانُ النَّفسِ الكُلِّيِّ ، فالنَّفسُ لها رُتبةُ الأُنوثةِ ، والرُّوحُ الأَعظَمُ لا يُدرِكُ وُجودَهُ الفلاسِفةُ ؛ لأنَّهُ لا يُدرَكُ إلَّا بالعقلِ الفِطريِّ ، وما لهم إلَّا العقلُ الخَلْقيُّ .

والعقلُ الخَلْقيُّ مُوكَّلٌ بعالَمِ المُلكِ ، ومَبدؤُه : العِلَّةُ الأُولىٰ ، وهُو مُفتَتَحُ عالَمِ المُلكِ ، فلَا يَزالُ يَطوِي بِساطَ البسَائطِ والمُركَّباتِ بينَ فَلَكِ[2] البُروجِ وفَلَكِ القَمرِ .

والعقلُ الفِطريُّ يُدرَكُ بهِ المَلَكوتُ ، ومُنتهاهُ إلى العِلمِ باللهِ ذي الأَسماءِ والصِّفاتِ ؛ القَادرِ الَّذي مِنْ أَثَرِ قُدرتِهِ تَكوينُ الرُّوحِ الأَعظمِ الَّذي هُو مُنتهىٰ عالَمِ المُلكِ ، فلا يُسلَكُ بَوادِي عالَمِ الغَيبِ إلَّا بالعقلِ الفِطريِّ ، وهو الَّذي مَسَحَهُ قَدَمُ الرُّسلِ وأَتباعِهِم ، وليسَ للفَلاسفةِ سَيرٌ[3] فيه رأساً ؛ لأَنَّ العقلَ الخَلْقيَّ حصَرَهُم في حِصنِهِ ، ولا بُروزَ لهم منهُ ، فالعقلُ الخَلْقيُّ ضَئيلُ السَّيرِ لنِسبَتِه إلىٰ أُنوثةِ النَّفسِ ، والعقلُ الفِطريُّ عَظيمُ السَّيرِ جاسَ خِلالَ دِيارِ الغَيبِ لِنسبَتِهِ إلىٰ ذُكورةِ الرُّوحِ .

والرُّوحُ الأَعظمُ والنَّفسُ الكُلِّيُّ هما زَوجانِ في عالَمِ الأَمرِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[4] ، ومنهما كوَّنَ اللهُ تعالى الكائناتِ مِنَ الأَفلاكِ والكَواكبِ ، وكلُّ ذٰلكَ ولائِدُ هٰذينِ الزَّوجَينِ ، ثمَّ سَرى التَّكوينُ مِنْ عالَمِ الأمرِ إلىٰ عالَمِ الخَلقِ ، وتَجسَّدَ في آدمَ المُستَحِقِّ لخِلافةِ اللهِ تعالىٰ واستئهالِهِ مَسجُودَ

---

(١) في الأصل : (منه) .

(٢) في الأصل : (الفلك) .

(٣) في الأصل : (سيراً) .

(٤) سورة الذاريات : (٤٩) .

الملائكةِ ، وخَلَقَ منهُ حوَّاءَ ، فصارا زَوجيْنِ في عالَمِ الخَلقِ ، ومنهما الذُّرِّيَّةُ ، وخَلَقَ الأَرواحَ قبلَ الأَجسَادِ ، فتعلمُ أنَّ السَّنةَ عندَ اللهِ اثنا عشَرَ شهراً ، والشَّهرَ ثلاثونَ يوماً ، واليومَ كألفِ سَنةٍ ، وتعلمُ عندَ خَلْقِ الرُّوحِ وسَبْقِهِ على العِلَّةِ الأُولى الَّتي هي مَحصورةٌ بالعَقلِ الخَلْقيِّ ؛ لتَعلَمَ سَبْقَ القُدرةِ القَديمةِ على العِلَّةِ الأُولىٰ ، فتَبيَّنَ بذٰلكَ أنَّ القُدرةَ القدِيمةَ لها علاماتٌ أَوَّليَّاتٌ لعَوالمَ غيرِ مُتناهيةٍ .

وهٰذا العالمُ قَضِيَّةُ مَشِيئةٍ واحدةٍ مِنْ مَشيئاتِ اللهِ المُستنِدةِ إلى الإرَادةِ القَديمةِ ، فيَعلمُ الفلاسِفةُ أَنَّ مُدرَكَهُم ومَعلومَهُم عالَمٌ هو ما[1] قَضَتْهُ مشيئةٌ واحدةٌ ، فأينَ هُم مِنْ عَوالمَ ما أَدرَكُوها ولا لهم عنها خَبَرٌ ولا أَثَرٌ ؟ فيَبقَى الحُكماءُ والفلاسِفةُ مُتوطِّنِينَ في عالَمٍ يُحِيطُ بهِ سُرادِقُ العَقلِ الخَلْقيِّ ، والأنبياءُ وأَتباعُهم بَرَزوا مِن هٰذا الحِصنِ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ الَّذي يُحِيطُ بهِ العقلُ الفِطريُّ ، وفيهِ الأَملاكُ ذوو أَجنحةٍ مَثنَىٰ وثُلاثَ ورُبَاعَ ، وفيها عَينٌ تحتَ العَرشِ ، ويَنزلُ فيها جَبْرَئيلُ ثمَّ يَصعَدُ فينتَفِضُ انتفاضَةً يُخلَقُ مِنْ كلِّ قَطرةٍ مِنِ انتِفاضَتِه مَلَكٌ يَطِيرُ إلىٰ يومِ القيامةِ .

ولهٰذا يُنادَىٰ في مَنازِلِ الجنَّةِ : وسقاهُمْ ربُّهُم شراباً طهوراً ، مِنَ الحيِّ الَّذي لا يموتُ ، إلى الحَيِّ الَّذي لا يموتُ ؛ هٰذا لأَربابِ العِيانِ .

وأَربابُ البُرهانِ راجِعونَ قَهْقَرىٰ بعدَ الموتِ الطَّبِيعيِّ ، ناكِسو رُؤوسِهم في الهُبوطِ إلىٰ سِجِّينٍ ؛ وَفاءً لحقِّ صِفةِ القَهرِ ، والأَوَّلونَ يَتوَقَّلونَ ذُرَا الاستِعلاءِ إلىٰ عِلِيِّينَ ؛ وَفاءً لحقِّ صِفةِ اللُّطفِ الإلٰهيِّ الأَزَليِّ .

فالعقلُ الخَلْقيُّ نِسبَتُهُ منها قاصِرٌ خَطوُهُ ، ضَعِيفٌ سَيرُهُ ؛ لنِسبَتِهِ إلىٰ أُنوثةِ النَّفسِ ، لا يزالُ يتَعثَّرُ في أَذيالِ الكَائناتِ الَّتي هي أَمَّتْ مَيدانَهُ ، فأنَّىٰ لهُ الوُصولُ إلىٰ إدراكِ كُنْهِ المُكوِّنِ ؟!

---

(١) كلمة (ما) : زيادة لِاستقامةِ السِّياقِ .

والعقلُ الفِطريُّ صَيقلٌ حُسامُهُ ، يَكادُ يَخِفُّ بصَوَّانِهِ إلىٰ مَعدِنِهِ ، كما خَفَّ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليلةَ المِعراجِ ؛ لنِسبتِهِ إلىٰ ذُكورةِ الرُّوحِ ، ففي شعرٍ[1] : [من الكامل]

ثَقُلَتْ زُجَاجَاتٌ أَتَتْنَا فُرَّغاً ... حَتَّىٰ إِذَا مُلِئَتْ بِصِرْفِ ٱلرَّاحِ

خَفَّتْ فَكَادَتْ تَسْتَطِيرُ بِمَا حَوَتْ ... وَكَذَا ٱلْجُسُومُ تَخِفُّ بِٱلْأَرْوَاحِ

فأخَذَ العقلُ الفِطريُّ في تَصحِيفِ صَحائفِ الغَيبِ ، فاكتَحلَ بالحُورِ والقُصورِ ، والوِلدانِ والغِلمانِ ، لا يزالُ بذٰلكَ قَريرَ العَينِ ، والعَقلُ الخَلْقيُّ مُتوَطِّنٌ أَوطانَ نِيرانِ البُرهانِ ، أَحرَقَتْهم سَمائمُ القَهرِ الأَزَليِّ ، وأَدرَكَتْهُم شَقاوةُ[2] السَّابقِ الأَوَّليِّ ، يَودُّونَ أَنَّهم ما عُلِّموا وما نَطَقوا ولم يُملُوا صَحائفَ الكُتُبِ ، كما قالَ قائلٌ : شعرٌ[3] : [من الكامل]

وَلَقَدْ سُرِرْتُ بِمَا جَهِلْتُ وَسَاءَنِي ... عِلْمِي كَمَا قَدْ[4] سَرَّنِي مَا أَعْلَمُ

مَنْ لِي بِعَيْشِ ٱلْأَغْبِيَاءِ فَإِنَّهُ ... لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ مَنْ لَا يَفْهَمُ

فَٱلصَّعْوُ[5] يَرْتَعُ فِي ٱلرِّيَاضِ وَإِنَّمَا ... حُبِسَ ٱلْهَزَارُ[6] لِأَنَّهُ يَتَرَنَّمُ

* * *

---

(١) انظر « معجم الأدباء » (٢٢/٤) .

(٢) في الأصل : (الشّقاوة) .

(٣) للأرجاني ، انظر « ديوانه » (١٣٤١/٣) .

(٤) كلمة (قد) ليست في الأصل .

(٥) الصعو : طائر أصغر من العصفور ، أحمر الرأس . انظر « لسان العرب » (ص ع ا) .

(٦) الهزار : طيرٌ جميلُ الشَّكلِ والصَّوتِ . انظر « لسان العرب » (هـ ز ر) .

فَصْلٌ

[في انشغالِ الأنبياءِ بمطالعةِ الملكوتِ عن مطالعةِ المُلكِ]

أُبِينَتِ النَّفسُ النَّاطقةُ مِنَ الرُّوحِ القُدُسِيَّةِ إبانةَ حوَّاءَ مِن آدمَ ، فصارَتِ النَّفسُ النَّاطِقةُ بمَثابةِ الأُنثَىٰ ، والرُّوحُ بمَثابةِ الذَّكَرِ ، فالرُّوحُ مُشتَمِلٌ على العُلْوِيَّاتِ المُكوَّناتِ ، والنَّفسُ مُشتَمِلةٌ على الأَركانِ والعناصِرِ والأُستُقُصَّاتِ .

والبُرهانُ لِسانُ النَّفسِ النَّاطقةِ ، فاحتِواءُ النَّفسِ النَّاطقةِ على الكائناتِ الخَلقيَّاتِ صارَتْ دَلِيلاً إلى العلومِ ؛ فمُنتَهى البُرهانِ ـ الموتُ الطَّبيعيُّ ، وتَنفَرِدُ الفِطرةُ بالعلومِ بعدَ الموتِ ، وتُدرَكُ العُلومُ إدراكَ الضَّروريَّاتِ والبديهيَّاتِ .

وبعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ تَنقَسِمُ الإدراكاتُ الفِطريَّةُ مُرتَّبةً على الوَصفَيْنِ : صِفةِ اللُّطفِ ، وَصفةِ القَهرِ ، فيَأنَسُ الأَنبياءُ وأَتباعُهم إلىٰ قَضايا وَصفِ اللُّطفِ مِنَ النَّعيمِ المُقيمِ ، ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ (١) ، وأَمثالِ ذٰلكَ ، والفلاسفةُ والضَّالُّونَ أَجمَعُهم يَستَقِرُّونَ في العذابِ الأليمِ ، ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ (٢) ؛ وَفاءً لوَصفِ القَهرِ الأَزليِّ ، فزَمانُ الحياةِ الدُّنيا زَمانٌ قليلٌ ، وأَمَدٌ يَسِيرٌ ، سَرِيعُ النَّفادِ ، حَقِيرُ الاعتدادِ .

والأَنبياءُ وأَتباعُهُمُ الصِّدِّيقونَ أَحاطوا عِلماً بالزَّمانِ اليَسيرِ ، ولَمْ يَكتَرِثوا بمَقالاتِ الفلاسفةِ وأَنحائِهم ، ويُحاجُّونَ بإبطالِ حُجَجِهِم ؛ لأنَّ عُلومَهُم بأَسرِها انتَقَشَت علىٰ أَلواحِ قُلوبِهِم ، فلمْ يكُ للرِّياضيَّاتِ والطَّبيعيَّاتِ عندَهُم قدرٌ يتسوَّرونَ (٣) بهِ إلىٰ مَعرفةِ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، فَطِباعُ الكَواكِبِ وخاصِّيَّةُ الأفلاكِ وتَميُّزُ بعضِ الأفلاكِ عنِ البعضِ ؛ فكلُّ ذٰلكَ طَرحوه اطِّراحَ الشَّيءِ الَّذي لا قَدْرَ لهُ ولا وَزنَ ، وشَغَلَهُم مطالعةُ الملَكُوتِ عن مُطالعةِ المُلكِ ، فأَنِسوا إلى

---

(١) سورة الواقعة : (١٩) .

(٢) سورة النساء : (٥٦) .

(٣) في الأصل : (يتَسوروا) .

العلومِ المَلَكوتيَّةِ ، وسَكَنوا إلىٰ مُطالعةِ أَعيانِها مِنَ الجنَّة والنَّارِ والأَملاكِ ؛ فصارَ للفلاسفةِ : الخَلْقيَّاتِ ، وللأَنبياءِ وأَتباعِهم : الفِطريَّاتِ ، وهم يَعِيشونَ بالعلومِ الفِطريَّةِ الَّتي تَنبُعُ مِنَ الأَرواحِ القُدُسيَّةِ .

والفلاسفةُ أَنِسوا إلى العلومِ الخَلْقيَّة المُوكَّلِ بها العَقلُ الخَلْقِيُّ ، فمُسِحَ عالَمُ المُلكِ ؛ فانتَهىٰ إلىٰ مُنتَهىً ؛ وهُو النَّفسُ النَّاطقةِ ، فسَمَّوْها : العِلَّةَ الأُولىٰ وعِلَّةَ العِلَلِ ، وجَعلوا لها مَعلولاً لهُ طَرَفٌ إلى الإيجابِ وطَرَفٌ إلى الإمكانِ ، وتخَبَّطوا خَبْطَ عَشوَاءَ ، ولم يَدرِ الجاهلُ المِسكِينُ أَنَّها النَّفسُ النَّاطِقةُ الَّتي تُفارِقُ البَدَنَ بالمَوتِ الطَّبيعيِّ ، وَوَراءَ النَّفسِ النَّاطقةِ الرُّوحُ الأَعظَمُ ، بمَثابةِ آدمَ ، يَدرُجُ في عَوالمِ الغُيوبِ بالاِطِّلاعِ الإلـٰهيِّ .

فبَقِيَ الفلاسِفةُ والضَّالُّونَ في بَيدَاءِ الجَهَالةِ مُنقَطِعٌ أَثَرُهُم ، مَطمُوسَةٌ[1] مَعرِفَتُهُم ، وَزَنوا الكَائناتِ الفَانِيةَ بالبَراهينِ ، فلمَّا وَصَلوا إلىٰ غيرِها . . لمْ يَجِدوا بُرهاناً ، فذَابَ البُرهانُ بالمَوتِ ذَوَبانَ الملحِ بالمَاءِ ، وانقِطاعَ الحياةِ الموقوفةِ على الرُّوحِ الحيَوانيِّ المُتصرِّفِ فيهِ بعلمِ الطِّبِّ ، المُكوِّنِ باعتدالِ مِزاجِ دَمِ القَلبِ ، وهُو محَلُّ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ الَّذي نزَلَ بهِ ، فالموتُ الطَّبيعيُّ يُفقِدُ الرُّوحَ الحَيوانيَّ ، ويَبقَى الرُّوحُ الرُّوحانيُّ أَبدَ الآبادِ : إمَّا مُعَذَّباً ، وإمَّا مُنعَّماً عليهِ ، مُخرَّجاً على الصِّفتَيْنِ مِن لُطفٍ وقَهرٍ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[2] ، فالتَّسوِيةُ : تَكوِينُ النَّفسِ النَّاطقةِ ، وبعدَ تكوينِ النَّفسِ النَّاطقةِ نفْخُ الرُّوحِ ، فالنَّفسُ انصَبَغَتْ بنُورِ الرُّوحِ القُدُسيِّ ، واتَّخذَتْ خاصِيَّةَ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[3] ، فمِنْ فُجورِها ظَهَرَتْ مَذَابُ الضَّالِّينَ ، وعن تقوَاها ظَهَرَتْ مَذَابُ الهَادِينَ .

❊ ❊ ❊

(١) في الأصل : (مطموس) .
(٢) سورة الحجر : (٢٩) .
(٣) سورة الشمس : (٨) .

فَصْلٌ

[في إدراكِ الأنبياءِ قبلَ الموتِ ما يُدرَكُ بالموتِ الطبيعيِّ]

للإنسانِ وَصفُ فِطرةٍ تَحتوي على المعلوماتِ وتُحيطُ بها بعلمٍ مُتأصِّلٍ فيهِ ، يَسلُكُ بأَضوائِها الأَنبياءُ عندَ انسِلاخِهِم عن وَصفِ الخِلْقةِ ، حتَّىٰ يَطَّلِعوا على الأَملاكِ والجنَّةِ والنَّارِ ، ويتَّسِعَ وِعاءُ عقلِهِم ، فيَرتَقونَ إلىٰ أَنوارِ العِنايةِ الأَزليَّةِ ، ويكونُ إيمانُهُم ضَروريّاً .

ويُدرِكونَ قبلَ الموتِ ما يُدرَكُ بالموتِ الطَّبيعيِّ اطِّلاعاً عليهِ ، كما اطَّلع إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ علىٰ إحياءِ الموتَىٰ ، وما رآهُ إبراهيمُ عليه السَّلامُ عِياناً كانَ مُخمَّراً إلىٰ قَلبِ محمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ جَمَعَ فيهِ سَائرَ المِنَحِ الغَريزيَّةِ ، فكانَ إحياءُ المَوتَىٰ أَشدَّ تَمكِيناً في قَلبِهِ مِنْ قَلبِ إبراهيمَ ، وعِلمُهُ باللهِ تعالىٰ أَكثرَ مِنْ علمِ مُوسىٰ ، وأَقوَىٰ مِنْ علمِ إبراهيمَ .

فالإحاطةُ بالعُلومِ العِيانيَّةِ نَتِيجةُ العَقلِ الفِطريِّ ، والمُستخرَجُ مِنَ العُلومِ بالأَفكارِ نَتِيجةُ العقلِ الخَلْقِيِّ ، فكانَتْ تلكَ العُلومُ فائدةَ البُرهانِ ، والاطِّلاعُ على المعلومِ مِنْ غيرِ بُرهانٍ فائدةُ العِيانِ .

فالبُرهانُ سَريعُ الأَمَدِ ، قليلُ الجَدوَىٰ ، والعِيانُ كَثِيرُ الجَدوَىٰ ، وقدْ وَرَدَ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ »[1] ، فنُورُ الفِطرةِ شَارعٌ إلىٰ إثباتِ العِلمِ بالعِيانِ ، ثمَّ طَرَأَ علىٰ نُورِ الفِطرةِ ظُلمةُ الخِلقةِ ، فغَابَ العِلمُ في غَياباتِ الجَهالةِ ، حتَّىٰ تَسوَّرَ المُتسوِّرُونَ إلى استِكشافِهِ بالبُرهانِ ، فلمَّا استَرشَدوا بهِ . . وَضَعوا المُركَّباتِ في مِيزانِ البُرهانِ ، والمُفردَاتِ في قَوالبِ الحَدِّ ، فكانَ مِيزانُ العِلمِ عَرْصَةً فَسِيحةً مُمتَدَّةَ الأَطرافِ بينَ الأَزلِ والأَبدِ ، والبُرهانُ سِكَّةٌ في هٰذا المَيدانِ ، والحَدُّ زاويةٌ في تلكَ السِّكَّةِ .

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٣٢) .

هٰذا مَحصُولُ الفَلاسفةِ .

والأنبياءُ صلواتُ الله عليهم ـ بالقُوَى النَّبوِيَّةِ والأَمـدادِ الإلـٰهيَّةِ ـ سَحَبوا ذُيولَ كمالِ الِاستعدادِ في فَسيحِ مَيدانِ العِلمِ ؛ فانصَبَّتْ إليهِمُ العُلومُ انصِباباً ، وانقَشَعَتْ عنهم حُجُبُ الجهالةِ حِجاباً ، وبرَزَ جَنِينُ فِطرَتِهم مِنْ مَشيمةِ خِلْقَتِهم ، فصارَ إدراكُهُم بنُورِ الفِطرةِ عِياناً ، فعايَنوا الجنَّةَ والنَّارَ والأُمورَ الأُخْروِيَّة ، وعَمِيَتْ أَبصارُ أَربابِ البُرهانِ ؛ فأَدَالَ العِيانُ على البُرهانِ .

فَصْلٌ

في بيان فضيلة العلم المقتبس من مشكاة النبوة مستودع الأسرار، وفضله على العلم المقتضب[1] بدنس الأفكار

حدَّثنا شيخُنا شيخُ الإسلامِ ضِياءُ الدِّينِ أبو النَّجيبِ عبدُ القاهِرِ السُّهْرَوَرْديُّ رحمةُ اللهِ عليهِ[2] ، قالَ : أَخبرَنا الشَّريفُ أبو طالبٍ الزَّينبيُّ ، قالَ : أخبرَتْنا كَريمةُ المَرْوَزيَّةُ ، قالَتْ : أخبرَنا أبو الهيثم الكُشْمِيهَنِيُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبد اللهِ الفِرَبريُّ ، قالَ : أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ إسماعيلَ البخاريُّ[3] ، قالَ : حدَّثنا عَبْدانُ ، قالَ : أخبرَنا عبدُ اللهِ ، قالَ : أخبرَنا يونُسُ ، عنِ الزُّهْريِّ ، قالَ : أخبرَنا أبو سَلَمةَ بنُ[4] عبدِ الرَّحمـٰنِ ، أنَّ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ؛ كَمَا تُنْتَجُ ٱلْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ » ، ثمَّ يقول : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[5] .

اعلمْ : أنَّ للإنسان نُورَ الفِطرةِ ، وحُكمَ الخِلقةِ ، ولكلِّ واحدٍ منهما قضايا وتوابعُ ، والنَّاسُ مُتفاوِتونَ في الحَظِّ مِنْ كُلِّ واحدٍ منهما ؛ فأَوفرُ النَّاسِ حَظّاً مِنْ نُورِ الفِطرةِ : المُرسَلونَ صلواتُ اللهِ عليهِم ، ولنبيِّنا محمَّدٍ صلواتُ اللهِ عليهِ مِنْ

---

(١) كذا قرأتها ، وهي في الأصل غير منقوطة إلا إعجام الضاد ، ومن معاني الاقتضاب : الارتجال ، يقال : اقتضب الكلام : إذا ارتجله .

(٢) هو عمُّ المصنِّفِ رحمهما اللهُ تعالىٰ .

(٣) في « صحيحه » (٤٧٧٥) بالإسناد المذكور .

(٤) في الأصل : (عن) .

(٥) سورة الروم : (٣٠) .

ذٰلكَ الحظُّ الوَافرُ ، فكانَ وافرَ الحظِّ مِنَ العِلمِ ، ووافرَ الحظِّ مِنَ الخَشيةِ ، ووافرَ الحظِّ مِنْ مَقامِ القُرْبِ .

نورُ الفِطرةِ معَ الخطابِ يَقرَعُ بابَ قلبِهِ ، فيَستَنزِلُ العِلمَ مِنْ بحارِ العِلمِ الأزليِّ ، فيَرتَوِي منهُ ، ثمَّ يُودِعُ لِسانَ دَعوتِهِ مِنْ ذٰلكَ قِسطاً مُبرَّأً مِنَ الهَوىٰ ، ويُفرِغُهُ في أَوعيةِ قلبِهِ ، مُستَعِدَّةً لفَهمِهِ ، فتُفضِي الكلِمةُ منهُ إلىٰ قُلوبٍ واعيةٍ ، فتَتأَصَّلُ فيها ، وتَسرِي بَرَكتُها إلىٰ بَواطنِ الأَصحابِ وظَواهرِهِم ، فتَتَزيَّنُ[(١)] ظَواهِرُهم بالأَعمالِ الصَّالحةِ ، وتَنجَلي بَواطِنُهُم بالصِّفاتِ المحمُودَةِ والأَخلاقِ المَرْضِيَّةِ ، فتَصِيرُ القُلوبُ برابطةِ العِلمِ كقَلبٍ واحدٍ مُتعاضِدةً[(٢)] مُتعَاوِنةً ، كما وَصَفَهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[(٣)] ، ويَسرِي مِنْ بَركةِ الوَحيِ المُنزَّلِ علىٰ قَلبِهِ بَرَكةٌ إلى القُلوبِ ، فتَستَنِيرُ القلوبُ ، وتَتوَجَّهُ إلى اللهِ تعالىٰ بالرَّغبةِ المُودَعةِ فيها ، الدَّاعيةِ إلىٰ صَالحِ الأَعمالِ وسَنِيِّ الأَحوَالِ ، فتَتَزكَّى النُّفوسُ ، وتُحَلَّىٰ بالفَضائلِ ، وتَتَكامَلُ بالعِلمِ ، فيدعو إلى اللهِ علىٰ بَصيرَةٍ ، كما دَعاهُم هُو صلواتُ اللهِ عليهِ ؛ فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أَصْحَابِي كَٱلنُّجُومِ ؛ بِأَيِّهِمُ ٱقْتَدَيْتُمُ [ٱهْتَدَيْتُمْ][(٤)] »[(٥)] .

فنورُ الفِطرةِ هُو المُوجِبُ لتَكميلِ النُّفوسِ ، وسائرٌ مِنَ الرُّوحِ الأَعظمِ إلى النَّفسِ النَّاطِقةِ .

وقدْ أَخطَأَ الفَلاسِفةُ في مَعرفةِ النَّفسِ ، وجَهِلوا حقِيقتَها ، والرُّوحَ وحَقِيقَتَهُ ،

---

(١) في الأصل : « فيتزين » .
(٢) في الأصل : « معاضدة » .
(٣) سورة الصف : (٤) .
(٤) ما بين الحاصرتينِ ليس في الأصلِ .
(٥) أخرجه الآجُريُّ في « الشَّريعةِ » (١١٦٧) من حديثِ سيدنا ابنِ عمرَ رضي الله عنهما ، وابنُ بطَّةَ في « الإبانة » (٧٠٢) من حديثِ سيدنا ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ، وابنُ مَنده في « الفوائد » (١١) مِن حديثِ سيدنا جابرٍ رضي الله عنه .

فبالعلمِ المُقتبَسِ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ أُدرِكَ أنَّ النَّفسَ الرُّوحُ الحيَوانيُّ المُستَعِدُّ لوصولِ نُورِ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ إليهِ ؛ فالرُّوحُ الحيَوانيُّ هُو الَّذي يُتصرَّفُ فيهِ بعلمِ الطِّبِّ وبِاعتدالِ مِزاجِ دَمِ القَلبِ المُنتَشرِ في الأَعصابِ تَفِيضُ منهُ قُوَى الحوَاسِّ ، وهٰذا الرُّوحُ للحيَواناتِ كلِّها ، وامتازَ رُوحُ الإنسانِ عن أَروَاحِ الحيَواناتِ بوُرودِ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ عليهِ ، واكتَسَبَ بذٰلكَ وَصْفَ النُّطقِ المُلهِمِ للتَّقوَىٰ والفُجورِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[1] .

فتسويةُ النَّفسِ بوُرودِ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ عليهِ ، فللرُّوحِ الحيَوانيِّ طَرَفٌ إلى الرُّوحِ الرُّوحانيِّ ، وبذٰلكَ يُلهَمُ التَّقوىٰ ، وطَرَفٌ إلى العالَمِ السُّفليِّ ، مُستنِدٌ ذٰلكَ إلىٰ أَصلِ خِلْقتِهِ مِنَ الطِّينةِ الَّتي خُمِّرَتْ أَربعِينَ صباحاً ؛ فأُلهِمَتِ النَّفسُ الَّتي هي الرُّوحُ الحيَوانيُّ بذٰلكَ فُجورَها ، ويُفهَمُ ذٰلكَ مِن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[2] .

وكما أنَّ نُورَ الفِطرةِ مِنَ الرُّوحِ الرُّوحانيِّ ، وصَفاءَ[3] الخِلْقةِ مِنَ الرُّوحِ الحيَوانيِّ ؛ فمِنْ نُورِ الفِطرةِ : العقلُ الفِطريُّ ، ومِنَ الرُّوحِ الحيَوانيِّ الَّذي هو النَّفسُ : العقلُ الخَلْقِي .

فالعقلُ الفِطريُّ مُختَصٌّ بالمُرسَلِينَ وأَتباعِهِم ، والعقلُ الخَلْقيُّ مختصٌّ بالفلاسفةِ .

فالعقلُ الخَلْقيُّ يُنسَبُ إلى النَّفسِ ، والنَّفسُ لها رُتبةُ الأُنوثةِ ، والعقلُ الخَلْقيُّ لِسانُها ، فصارَ سَيرُهُ ضَئيلاً ، وما مَسَحَ غيرَ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ كما بيَّنا قبلُ .

والعَقلُ الفِطريُّ مُنتَسِبٌ إلى الرُّوحِ الأَعظمِ الَّذي لهُ رُتبةُ الذُّكورَةِ ، فسارَ في عالَمِ الغَيبِ ، واطَّلَعَ على الجنَّةِ والنَّارِ والصِّراطِ والميزانِ ، وأَثبتَ جمِيعَ ما نَطَق

---

(١) سورة الشمس : (٧ ـ ٨) .

(٢) سورة الأعراف : (١٧٦) .

(٣) في الأصل : (الفطرة الرُّوح وصف) .

بهِ القرآنُ والكُتُبُ المُنْزَلةُ ؛ مِن مُنكَرٍ ونَكيرٍ وضَغْطةِ القبرِ وغيرِها مِنَ الأُمورِ الأُخرويَّةِ ، والعَقلُ الخَلْقيُّ لمْ يَطَّلِعْ علىٰ ذٰلكَ ؛ لأنَّه لمْ يَتَجاوزْ عالَمَ المُلكِ ، ولم يَطَّلِعْ على الملَكوتِ ، فأَدالَ العِيانُ على البُرهانِ ، وأدالَ العِلمُ المُقتبَسُ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ الَّتي هي مُستودَعُ الأسرارِ على العلمِ المُقتضَبِ بدَنَسِ الأَفكارِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ كلَّ صفةٍ تكونُ مِنَ اللطفِ وتأثيراتِهِ والقهرِ وتأثيراتِهِ]

الكَمالُ الأَزَليُّ سِرْبالُ الجَلالِ والجَمالِ ؛ جَلالٌ لا يُشبِهُ جَلالاً ، وجمالٌ لا يُشبِهُ جمالاً ، جمالٌ يَتضاءَلُ دُونَهُ كُلُّ جَمالٍ ، وجَلالٌ يَتضاءلُ دونَهُ كُلُّ جَلالٍ ، لُطفٌ لا يُشبِهُ لُطفاً ، وقهرٌ لا يُشبِهُ قهراً ، جُمِعَ الضِّدانِ في جَبَروتِهِ ، فمِنْ رَشْحِ اللُّطفِ مِنْ خزائنِ الجُودِ الإلـهيِّ : ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [1] و : ﴿ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [2] ، ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [3] ، ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [4] .

ومِنْ رشْحِ الجَلالِ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [5] .

وقدْ وَرَدَ [6] أنَّ جَبْرَئيلَ عليهِ السَّلامُ أَتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ لهُ : « يا جِبْرَئيلُ ؛ صِفْ لِيَ ٱلنَّارَ » ، فقالَ : إنَّ اللهَ تعالىٰ أَمَرَ بها ، فأُوقِدَ عليها أَلفَ عامٍ حتَّى احمَرَّتْ ، ثمَّ أُوقِدَ عليها بألفِ عامٍ حتَّى اصفَرَّتْ ، ثمَّ أُوقِدَ عليها أَلفَ عامٍ حتَّى اسوَدَّتْ ، فهي سَوداءُ مُظلِمةٌ لا يُضِيءُ شَرَرُها ، ولا يُطفَأُ [7] لَهيبُها

---

(١) سورة الواقعة : (١٨) .
(٢) سورة محمد : (١٥) .
(٣) سورة الزخرف : (٧١) ، وكُتب في الأصل : (تشتهي . . . وهم) .
(٤) سورة صٓ : (٤٩ ـ ٥٤) .
(٥) سورة النساء : (٥٦) .
(٦) أخرجه مطوَّلاً من حديثِ سيدنا عمرَ رضي الله عنه : ابنُ أبي الدُّنيا في « صفةِ النَّار » (١٥٧) ، والطَّبراني في « المعجمِ الأوسطِ » (٢٥٨٣) .
(٧) قوله : (شَرَرُها ، ولا يُطفَأُ) : زيادةٌ مِن مَصادرِ التَّخريجِ .

وحُمرتُها ، والَّذي بَعَثَكَ بالحقِّ نبيّاً ؛ لو أنَّ ثوباً مِن ثيابِ أهلِ النَّارِ عُلِّقَ بينَ السَّماءِ والأرضِ . . لَماتَ مَنْ في الأَرضِ جَميعاً مِن حَرِّهِ ، والَّذي بَعَثَكَ بالحقِّ ؛ لو أنَّ خَازناً مِنْ خَزَنةِ جهنَّمَ [1] أُظهِر لأَهلِ الأرضِ فنَظَروا إليهِ . . لَماتَ مَنْ في الأرضِ كلُّهُم مِنْ قُبْحِ وَجهِهِ ومِن [2] نَتْنِ رِيحِهِ ، فبكَى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وبكَىٰ جَبْرَئيلُ ، فقالَ : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟! وَلِمَ بَكَيتَ يَا جَبْرَئِيلُ وَأَنْتَ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ، أَمِينُ ٱللهِ عَلَىٰ وَحْيِهِ ؟! » ، فقالَ : أَخافُ أن أُبتلَىٰ بمِثلِ ما ابتُلِيَ [3] بهِ هاروتُ وماروتُ ، وهٰذا الَّذي مَنَعَني عنِ اتِّكالي علىٰ مَنزِلَتِي عندَ رَبّي ، فأكونُ قدْ أَمِنتُ مَكرَهُ ، فلَم يَزالَا يَبكِيانِ حتَّىٰ نُودِيا مِنَ السَّماءِ : أنْ يا جَبْرَئيلُ ويا محمَّدُ ؛ إنَّ اللهَ قدْ أَمَّنَكُما أنْ تَعصِياهُ فيُعذِّبَكُمَا .

فالضَّالُّونَ انسَحَبَ عليهِم ذَيلُ القَهرِ الأَزَليِّ ، فبَقُوا مُعذَّبينَ أَبدَ الآبادِ ، وما أَخسَرَ صَفْقةَ مَنْ لا يموتُ فيها ولا يحيا ؛ فكيفَ [4] يكونُ حالُهُ ؟!

فقدْ تقرَّر بذٰلكَ أنَّ كلَّ صِفَةٍ تكوينٍ : مِنَ اللُّطفِ وتَأثيراتِه ، والقَهرِ وتَأثيراتِه لا مَحالةَ ؛ فالأنبياءُ وأتباعُهُم عَواقِبُ مَصيرِهِمُ الجنَّةُ ونَعِيمُها ، وَقْفٌ ذٰلكَ عليهِم حَسَبَ الأَكسَابِ الدُّنياويَّةِ ، وبحَسَبِها تُقسَّمُ الدَّرَجاتُ .

ولِصفَةِ القَهرِ مُكوِّناتٌ في مَنزلِ البَرْزَخِ ويومَ الحشرِ والقيامةِ ، مُقسَّماتٌ عليهِم حسَبَ الأَكسَابِ الدُّنياويَّةِ ، وَقْفٌ عليهِم لا مَحالةَ ، لا يُنقَلُ الأَنبياءُ وأتباعُهم إلىٰ مَنازلِهم ، ولا هم يُنقلونَ إلىٰ مَواضعِ الأَنبياءِ .

ثـمَّ ذٰلكَ مُؤبَّدٌ في الحِزبيْنِ آبادَ الصِّفتَيْنِ بأَبديَّةِ الإلٰهِ الأَزَليِّ ، فما أَعظمَ هٰذا ! وما أَدوَمَ هٰذا النَّعِيمَ ! وما أَدوَمَ هٰذا العَذابَ الأَليمَ !

---

(١) من قوله : (عُلِّقَ بينَ السَّماءِ . . . جهنَّمَ) زيادةٌ مِن مصادرِ التَّخريجِ .
(٢) من قوله : (فنَظَروا إليه . . . مِن قُبْحِ وَجهِه و) زيادةٌ مِن مَصادرِ التَّخريجِ .
(٣) قوله : (بمثلِ ما ابتُلِيَ) : زيادةٌ مِن مَصادرِ التَّخريجِ .
(٤) كلمة (فكيف) زيادة ليست في الأصل .

لو مَرَّ بعالَمِ عَقلِكَ نَسْمَةٌ مِن هٰذا الحديثِ وهٰذا القَهرِ المُستدامِ . . لَذابَ رُوحُكَ خَوفاً ، حتَّىٰ لا يُرَىٰ لكَ أثَرٌ ، وهٰذا كالشَّمسِ الضَّاحِيةِ لا رَيبَ فيهِ ، عايَنَهُ رُسلُ اللهِ واستَبصَروا ، وأَخبَروا بهِ وحَذَّروا وأَنذَروا ؛ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1] .

* * *

---

(١) سورة النساء : (١٦٥) ، وسقطت كلمةِ (للنَّاس) من الأصل .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ إدالةَ العِيانِ على البرهانِ . . كإدالةَ الأذهانِ على العِيانِ]

وممَّا لاحَ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ إبليسَ مِنْ شَرارةِ نَارِ قَهرِهِ ، فأَودَعَ في تَكوينِهِ سَراباً[1] مِنَ القَهرِ ، وأَسكنَهُ الجِنانَ كما أَسكنَ آدمَ لتكونَ الجنَّةُ مَوطِنَهُ ؛ كما صارَتْ لآدمَ مَوطِناً ؛ ليَتربَّىٰ فيهِ سِرُّ القَهرِ ، فأَودَعَ آدمَ مِنْ سِرِّ اللُّطفِ ، فظَهَرَ أَثَرُهُ في الأَكرَمِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ .

ثمَّ أُودِعَ سِرُّ القهرِ في أَديمِ الأَرضِ لمَّا هَبَطَ إبلِيسُ إلى الأَرضِ ومَسَحَ أَدِيمَها بقَدَمَيْهِ ؛ فكُلُّ مَوضعٍ صارَ تحتَ قَدَمِهِ هو مُستَودَعٌ سِرّاً مِن أسرارِ القَهرِ ، فطِينةُ أَهلِ الضَّلالِ ممَّا كانَ تحتَ قدَميْهِ ، وما بينَ قَدميْهِ لمْ يُصِبْهُ حَظُّ القَهرِ ، ومنهُ طِينةُ أَهلِ الرَّشادِ ، فصارَ التَّخمِيرُ مُستَودَعَ سِرِّ القَهرِ .

واللُّطفُ سِرٌّ سَماوِيٌّ يُفتَحُ بهِ بابُ العِيانِ ، وسِرٌّ أَرضِيٌّ[2] يُفتَحُ بهِ بابُ البُرهانِ ، فصارَ العِيانُ حَظَّ الأَنبياءِ وأَتباعِهِم ، وصارَ البُرهانُ حَظَّ الجاهِلِينَ باللهِ تعالىٰ والمُنكِرينَ لأَحكامِ الدَّارِ الآخِرةِ ، فما هو حَظُّ الأَنبياءِ مِنَ العبادِ مُمتَدُّ الأَمَدِ ، وما هُو حَظُّ أهلِ الضَّلالِ مُنقطِعُ المدَدِ .

فما أَشبهَ العِيانَ والبُرهانَ بالوجودِ العَيْنيِّ والوُجودِ الذِّهنيِّ ؛ فالوجودُ العَينِيُّ مُنقَطِعُ المددِ بالموتِ الطَّبيعيِّ ؛ لأنَّهُ الحشوُ الحِسِّيُّ إلى العلَّةِ الأُولىٰ ويَنقَطِعُ ، والوجودُ الحِسِّيُّ يَتحيَّزُ في الحِسِّ ، ولا يَجوزُ البُرهانُ ، فقصَّرَ عن إدراكِ علَّةِ العِلَلِ ، ولا تَحوِيهِ كما حَوَتِ الوجودَ العَيْنيَّ .

فتَبيَّنَ بهٰذا الشَّرحِ إدالةُ العِيانِ على البُرهانِ ، كإدالةِ الأَذهانِ على العِيانِ ،

---

(١) في الأصل : (صراباً) .

(٢) كذا في الأصل ، ولعل حقيقة العبارة : (والقهر سرٌّ أرضي) .

أُغمِدَتْ في غِمدِ عِلَّةِ العللِ ، والأَذهانُ امتدَّتْ كامتِدادِ عالَمِ الغَيبِ المُكَنَّنِ في أَكنانِ عِلمِ اللهِ تعالى الغامِضِ .

فيَرُوغُ الفلسفيُّ إلى [1] البُرهانِ في ادِّعاءِ العلمِ المُولِّدِ منهُ المنافسةُ والمبادَأةُ ، يرُوغُ إلىٰ مَحتِدِهِ مِنْ مَركزِ النَّارِ ، ثمَّ يَرسُبُ بهِ إلىٰ مَركزِ التَّرائِي .

وخُذِ الإشارةَ مِنْ إيماءِ القرآنِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [2] ؛ فالأَنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم توَطَّنوا فَسِيحَ مَيدانِ العِيانِ ، واستَقرُّوا في مَقارِّ التِّبيانِ ، واستَحمَلوا أَربابَ البُرهانِ المُنحَطِّينَ إلىٰ مَهْواةِ الخُسرانِ .

ثمَّ اعلمْ ـ أيُّها المُدرِكُ لِعالَمِ الشَّهادةِ ـ : أنَّ كلَّ ما أدرَكتَهُ مُسَلَّمٌ لكَ بالبُرهانِ المتَّفَقِ عليهِ ، وغيرُ مُسلَّمٍ لكَ ما اختَلفتُم فيهِ ؛ كتقديمِ الأَركانِ بعضِها علىٰ بعضٍ ، ولٰكنْ وِعاءُ إِدراكِكَ كعَقيرةٍ ارتفعَتْ بالحياةِ المُستَعارةِ ، ثمَّ انطَبقَتْ بالموتِ الطَّبيعيِّ كانطباقِ القَمرِ على العَقيرةِ ، ثمَّ جميعُ المُبَرْهَنِ مُنطَبِقٌ اِنطِباقَ فَلَكِ البُروجِ علىٰ فَلَكِ القَمرِ ، والكائناتُ بأَسرِها مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ مُنطَمِسةُ الآثارِ في فَلَكِ البُروجِ ؛ العَالَمِ الأَبَديِّ والأَجرَامِ الغَيبيَّةِ الَّتي هي [3] هيئةُ الأَملاكِ وهيئةُ دارِ النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ .

فما أَخوَفَني عليكَ ـ أيُّها الحكيمُ ـ أنَّكَ تَحصُلُ في مَخالبِ قَهرٍ أَبَديٍّ تُوجِبُهُ صِفةُ القَهرِ الإلٰهيِّ ، لا يموتُ فيها ولا يحيا أَبدَ الآبادِ ، كما صِفةُ اللُّطفِ الأَزليِّ لا تَزولُ أَبدَ الآبادِ .

مِنَ العلمِ المكنونِ المجهولِ [4] عن قاصِري العلمِ : ما وَرَدَ أَنَّ إبلِيسَ سأَلَ السَّبيلَ إلى القَلبِ ، فقيلَ لهُ : تَحرَّمَ عليكَ ذٰلكَ ، ولٰكنْ مُكِّنْتَ في الدُّخولِ إلى

---

(١) كلمة (إلىٰ) : زيادة لِاستقامةِ السِّياقِ .

(٢) الأعراف : (١٧٦) .

(٣) زاد في الأصل بعدها : (الغيبية هي) .

(٤) في الأصل : (المجهلو) .

العُروقِ المتَّصلةِ بالقلبِ ، فإذا حَصَلْتَ في [١] العُروقِ . . عَرِقْتَ [٢] فيها لضِيقِ مَجارِيها ، فيَصِلُ عَرَقُكَ إلى القلبِ ، فبذٰلكَ يَصِلُ سُلطانُكَ إلى القلوبِ ، ومَنْ جَعلتُه نَبيّاً أو وَليّاً ومِن خَواصِّ المؤمِنينَ . . نَزَعتُ تلكَ العُروقَ مِنْ قُلوبِهِم ؛ فلا يَصِلُ عَرَقُكَ إلىٰ تلكَ القلوبِ ، ولا يَصِلُ إليها سُلطانُكَ .

فهٰذا ـ وأشباهُ ذٰلكَ ـ ممَّا لا يُدرِكُهُ المحبوسونَ في ظُلَمِ البُرهانِ الَّذي أَشرَقَ [٣] ضَوءُهُ في عالَمِ المُلكِ ، وسَرىٰ في أضواءِ المُبرهِنونَ حتَّىٰ وقَعوا في مَهْواةِ سِجّينٍ ، ويَسلُكُ أربابُ البصائرِ بنُورِ الاِقتداءِ بعِنايةٍ سابقةٍ أطلَقتْهُم [٤] مِن حَنادِسِ البُرهانِ ، فأَدالَ العِيانُ على البُرهانِ .

❊ ❊ ❊

(١) زيادة لاستقامة السِّياقِ .

(٢) في الأصل : (غرقت) .

(٣) في الأصل : (أشرقت) .

(٤) في الأصل : (أطلقتم) .

فَصْلٌ

[في أنَّ لا إيمانَ بغيرِ الإيمانِ بنبوةِ سيدِنا محمدٍ ﷺ]

قدْ سَبَقَ ذِكرُ الصِّفتيْنِ للهِ تعالى : اللُّطفِ ، والقَهرِ [١] ؛ فمَنْ غَمَرَهُ طافي بَحرِ القَهرِ . . لا بُروزَ لهُ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ .

فأمَّا في الدُّنيا : مَنْ أَحاطَ بهِ سُورُ البُرهانِ . . لا بُروزَ لهُ ، ولذلكَ لا يُثبِتُ الأَحكامَ الأُخْرويَّةَ .

ومَن غَمَرَهُ طافي بحرِ اللُّطفِ . . سُلِكَ لهُ في فَسِيحِ مَيدانِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ يَرتَوِيَ مِنْ تَيَّارِ عِلمِهِ وحِكمتِهِ ، حسَبَ تفاوُتِ رُتبةِ الأُمَّةِ ؛ حتَّىٰ إنَّ أَربابَ البِدَعِ والضَّلالاتِ ما هَلَكوا في مَعطَشةِ الضَّلالِ ، بل شَرِبوا مِن مَعِينِ الإيمانِ بأَحكامِ [٢] الشَّريعةِ ، وتقيَّدوا بأحكامِ الإسلامِ ، ولَفْحُ نارِ القهرِ لَحِقَهُم حتَّىٰ نالوا مِنَ الجَحيمِ ما نالَ أَربابُ الكَبائرِ ، ولمْ يَخلُدوا في النَّارِ ، واختَطَفَهُم سَواطِعُ نُورِ العِيانِ .

ومَنْ حُرِم متابعةَ رسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ الإيمانِ بمَنْ تَقدَّمَهُ مِنَ الأنبياءِ . . يَنالُهم حَظُّ القَهرِ ، وأدركَهُم حَنادِسُهُ .

والقاسِمُ لتَفاوُتِ لَفْحِ النَّارِ والقَهرِ : هَوانُ مَنْ حُرِمَ بَرَكةَ الإيمانِ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وبينَ مَنْ حُرِمَ الإيمانَ بجَميعِ الأنبياءِ ، وأَهلَكَهُ خِناقُ القَهرِ الأَبَديِّ .

فيا مَنْ نالَ حَظّاً مِنْ بَرَكَةِ إيمانِ آبائِه ؛ استَيقِظْ مِن رَقْدةِ القَهرِ ، ودَعْ عنكَ مُتابعةَ ضَلالِ اليُونانِ والهندِ ، وتَقليدَ الفارابيِّ وابنِ سِينا ، ولا يَغُرَّنَّكَ دَقيقُ نَظَرِهِم وَقُوَّةُ ذَكائِهِم في الرِّياضيَّاتِ ، واطِّلاعُهُم على الأفلاكِ وأَبعادِهم [٣]

---

(١) انظر (ص ٣٠٥) .

(٢) في الأصل : (بالأحكام) . (٣) أي : أبعاد الأفلاك .

وعظيمِ أَمرِ الكَواكبِ والشَّمسِ والقَمرِ ؛ فإنَّها حَذاقةٌ عُرِفَتْ عن مُنتَكِبِ القَهرِ الأزَليّ ، فيأخُذَ بكَ إلى الجَحيمِ المُقيمِ ، فالحذرَ الحذرَ مِنْ لَفْحِ النَّارِ والخُلودِ فيها ، ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1] .

(١) سورة غافر : (٤٤) .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ العِيانَ روحُ البرهانِ ، وأنَّ البرهانَ لُبابُ العِيانِ]

أَلَمْ يَتفكَّرِ الفيلَسوفُ في عِلمِهِ الَّذي انقَطَعَ مَدَدُهُ عندَ مُنتَهىٰ فَلَكِ البُروجِ ، وحَصَلَ في ظَلْماءَ : لا إدراكَ[1] لهُ ولا فَهمَ ولا عِلمَ ، فيعترفَ بعَجزِهِ عنِ العلمِ ؟ فلو كانَ عِلمُهُ مُستَفاداً مِنَ العقلِ الفِطريِّ . . لوصلَ إلىٰ إدرَاكِ عالَمٍ لا نهايةَ لهُ ، مَملوءٍ مِنَ الخَلائقِ النَّاريَّةِ[2] ، ويَعلَمُ أنَّ العالَمَ المُدرَكَ بالعقلِ الخَلْقيِّ بأفلاكِهِ ونُجومِهِ وعَناصرِهِ ، كُلُّ ذٰلكَ حَشوُ السَّماءِ الأُولى[3] الَّتي نِسبتُها إلى السَّماءِ الثَّانيةِ كحَلْقةٍ بأَرضٍ فَلاةٍ ؟

وشَرحُ أجرامِ الكواكبِ ذكرناهُ في كتابِ : « رَشْفِ النَّصائحِ »[4] ، مُستخرَجاً مِنْ بعضِ المداخلِ النُّجوميَّةِ ، فمَنْ أرادَ ذٰلكَ . . فلْيُطالعْهُ .

وليدري[5] عَرْصةَ المُلكِ الَّذي هو ظاهرُ الكونِ ، ثمَّ يَعلَمُ نِسبةَ ظاهرِ الكَونِ إلىٰ باطنِ الكَونِ الَّذي هو عَالَمُ الملكوتِ ؛ فيَستغنِي حينئذٍ ببابِ الخَجَلِ مِنِ ادِّعائِهِ العِلمَ .

البُرهانُ مجالٌ في هٰذا الميدانِ ، أمْ لهُ تَسوُّرٌ إلىٰ عالَمِ العِيانِ ؟ العِيانُ رُوحُ البُرهانِ ، والبُرهانُ لُبابُ العِيانِ ، فالعلمُ مَيدانٌ فَسِيحٌ غيرُ مَنتهي الأَطرافِ ، والبُرهانُ خَطُّهُ في ذٰلكَ الميدانِ ، والحدُّ نُقطةٌ علىٰ خطِّ البُرهانِ ، فلولا أنَّ مَيدانَ العلمِ مُحجَّرٌ بالقَوانينِ الشَّرعيَّةِ . . لَشَطَحَ[6] حتَّىٰ لمْ يُدرَكْ لهُ ساحِلٌ ، ولَشَطَحَ

---

(١) في الأصل : (دراك) .

(٢) في الأصل : (الناري) .

(٣) في الأصل : (الأوّلة) .

(٤) انظر « كشف الفضائح اليونانية ، ورشف النصائح الإيمانية » (ص ١٦٧ ـ ١٦٨) .

(٥) كذا في الأصل .

(٦) في الأصل : (لسطح) ، ولعل الصواب ما أثبتُّ ، والشطح : هو التباعد .

حتَّىٰ لاقَىٰ ساحِلَ الجَبَروتِ ، ولذٰلكَ تَعثَّرَ في أذيالِ التَّعدِّي مَنْ قالَ : أنَا الحقُّ ، وسُبحاني .

أيُّها المحبوسُ في قَفَصِ الجهَالاتِ والأَقطارِ ؛ اكسِرْ قَفَصَ البُرهانِ ، وابرُزْ بسُلطانِ العِيانِ إلىٰ عالَمٍ غيرِ مُحتوٍ على الجِهاتِ ؛ حتَّىٰ يَنبَجِسَ مِن صَمَّاءِ قلبِكَ مَعِينُ العِيانِ ، وافهمْ هٰذهِ الإشارةَ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [1] .

(١) سورة الرحمٰن : (٣٣) .

فَصْلٌ

[في بيانِ سعةِ العلمِ ، وأنَّ الفلاسفةَ قَنِعوا بأوشالٍ منقطعةِ المردِّ منهُ]

اعلمْ ـ أيَّدكَ اللهُ بنُورٍ تَستَبِينُ به الحقَّ مِنَ الباطلِ ـ : أنَّ ذلكَ[1] أمرٌ يَتعذَّرُ الوصولُ إلىٰ كُنهِهِ حَسَبَ ما يسَعُ وِعاءُ قُوَّةِ النَّفسِ الإنسانيَّةِ إلَّا بخَلاصِ التَّقوىٰ ، ثمَّ بصِدقِ الزَّهادةِ في الدُّنيا ، ثمَّ بدَوامِ الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ ، مُقتدياً فيهِ ومتَّبعاً لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الَّذي صَدَّقَ بما جاءَ بهِ إخوانُهُ المُرسَلونَ ، فصارَ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلَّمَ معَ إخوانِهِ متَّفِقاً فيما أتَوْا بهِ ، فقاموا بأَجمَعِهم إلى الدُّعاءِ إلى اللهِ كشَخصٍ واحدٍ بكلمةٍ متَّحِدةٍ ؛ لأنَّهُم بُعِثوا مِنْ عِندِ اللهِ بنُورٍ مُبِينٍ ساطعٍ بالحقِّ ، ومُنِحوا الإيمانَ بالغَيبِ بعدَ أنْ أدرَكوا مِنَ الغَيبِ ما أطلَعَهُمُ[2] اللهُ عليهِ ؛ اصطِفاءً واجتِباءً لهُم .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3] .

وقدْ وَرَدَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ عَيْنانِ فِي رَأْسِهِ ، وَعَيْنَانِ فِي قَلْبِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِعَبدٍ خَيْراً . . فتَحَ عَيْنَيْ قَلْبِهِ حَتَّىٰ أَبْصَرَ ٱلْغَيْبَ بِٱلْغَيْبِ »[4] .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾[5] .

ففتحَ للمُرسَلِينَ البصائرَ المُحِيطةَ بالأُمورِ[6] الأُخرويَّةِ ؛ مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ ،

---

(١) في الأصل : (وذلك) .

(٢) في الأصل : (أطلقهم) .

(٣) سورة الحج : (٧٥) لفظ الجلالة (الله) غيرُ واردٍ في الأصل .

(٤) أخرجه أبو داوود في « الزُّهد » (٤٩٦) ، والخرائطيُّ في « اعتلالِ القلوبِ » (٤٣) وابنُ الأعرابي في « المعجم » (١٩٦٤) من قولِ خالدِ بنِ معدان رحمه الله تعالىٰ .

(٥) سورة الجن : (٢٦ ـ ٢٨) .

(٦) في الأصل : (بأمور) .

والبَعثِ والنُّشورِ ، وغيرِ ذٰلكَ ، عُجِّل لهم في دُنياهم قبلَ الموتِ الطَّبيعيِّ كَشْفُ ذٰلكَ ؛ فأدرَكوا ما أَدركوهُ ممَّا أراهُمُ اللهُ ، وتَرسَّخَ في قُلوبِهِم عِلمُ ذٰلكَ ؛ فحَذَّروا وأنذَروا ، وأَبشَروا بالجنَّةِ وحذَّروا مِنَ النَّارِ ، وأخبَروا بالبعثِ والنُّشورِ ، فكانَتْ تلكَ العُلومُ مَوهِبةً مِنَ اللهِ تعالىٰ لهُم ، لا تَدخُلُ في مِيزانِ البُرهانِ الَّذي بيدِ الفلاسفةِ ويَزِنُونَ بهِ عالَمَ الأَجسامِ والبسائطَ والمُركَّباتِ ، ويَتَسوَّرونَ إلىٰ ذٰلكَ بالعلومِ الرِّياضِيَّةِ والطَّبيعيَّةِ الَّتي أفنَوْا في جُزئيَّاتِها وكُلِّيَّاتِها أَعمارَهم ، فتَبرهَنَ عِندَهم ، وامتلأَتْ منها أَوعِيةُ أَفكارِهِم ، فاطَّلعوا بها على الأفلاكِ وهَيئاتِها ، ودَرَجاتِها وأَبعادِها ، والكَواكبِ وأَجرامِها ، وقُوَاها وطَبائعِها وتأثيراتِها ، وأَحاطُوا عِلماً بالأَمزِجةِ والطَّبائِع وتَشريحِ الأَبدانِ ، وغيرِ ذٰلكَ مِن علمِ الهيئةِ والطِّبِّ والنُّجومِ ، ومَجموعُ ذٰلكَ يَشتمِلُ عليهِ فَلَكُ البُروجِ إلىٰ فَلَكِ القمرِ الَّذي حَشْوُهُ العناصِرُ .

وغابَ عن عقلِ هٰؤلاءِ الرَّاكِنينَ إلىٰ عُلومِهِم ، المُغترِّينَ بنتائجِ أفكارِهم . . أنَّ كلَّ ما أَحاطَ بهِ وأَدرَكَهُ[1] أَوائلُهُم وأنتجوا أَواخِرَهم بأَفكارٍ ذكيَّةٍ ؛ كلُّ ذٰلكَ عالَمٌ مِنْ عَوالمِ اللهِ تعالىٰ ، وللهِ عوالمُ لا يَسمَعُ بها[2] مِيزانُ البُرهانِ ، فرقَدوا عنِ الأَسرارِ والحقائقِ ، وغابوا في رُقادِ جهَالاتِهِم حتَّىٰ أدرَكوا الموتَ الطَّبيعيَّ ، وحِيلَ بينَهُم وبينَ مِيزانِ البُرهانِ .

والأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم أَدرَكوا بعَينِ البصائرِ ما أَدرَكوهُ ، وامتدَّتْ أشِعَّةُ بصائرِهِم كُنْهَ قُوَّتِهِم حتَّىٰ عادَتْ كَلِيلةً عن كُنهِ غاياتِ القُدَرِ الإلـٰهيَّةِ ، مُعترِفِينَ بالعَجزِ مُلابِسَ الإِفلاسِ عن كَمالِ العِلمِ ، فأَدرَكَ الأنبياءُ ببَصائرِهِم مِنَ العَوالمِ ما عَلِموا أنَّ ما أَحاطَتْ بهِ الأَفكارُ عالَمٌ واحدٌ ، وهم في إدرَاكِهِم هـٰذا العِلمَ الواحدَ كطَيرٍ مَحبوسٍ في قَفَصٍ ، لا يُدرِكُ إلَّا جِهاتِ القَفَصِ ، ولا عِلمَ لهُ بما وَراءَ ذٰلكَ .

---

(١) في الأصل : (وأدركوه) .
(٢) كلمة (بها) : زيادةٌ لاستقامةِ السِّياقِ .

ولهٰذا المعنى انقطَعَ سَيرُ الأفكارِ دونَ فَلَكِ البُروجِ .

وما تَخيَّلوهُ بأَنَّهُ الأوَّلُ ، وسمَّوْهُ : (عِلّةَ العِلَلِ) . . جَهِلوا أنَّهُ خَلْقٌ مِن خَلقِ اللهِ ، مُوجِبٌ للمُوجَباتِ ، تَولَّدَتْ منهُ الكَائناتُ بواسِطةِ المعلولِ الأوَّلِ الَّذي هو[1] التَّكثُّرُ بزَعْمِهِم ، ولم يَعلَموا أنَّ عِلَّةَ العِلَلِ أوَّلُ صَيدٍ ثارَ مِنْ بَيداءِ المشيئاتِ .

وما هٰذا كلامٌ يُدرِكُهُ مَن قَصُرَ عَقلُهُ ، ويَحكُمُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ مَشِيئَتُهُ واحِدةٌ ، ولا يقضِي بجَوازِ مَشيئاتِ اللهِ تعالىٰ ، وعَوالمُ اللهِ لا نِهايةَ لها[2] كما لا نهايةَ لأزَلِيَّةِ اللهِ ؛ فللهِ تعالىٰ مَشيئاتٌ ، لهُ بكُلِّ مَشيئةٍ عالَمٌ مُشتَمِلٌ علىٰ مُكوَّناتٍ غيرِ مُتناهيةٍ .

فإذاً ؛ ما أَدرَكَهُ البُرهانُ أَثرُ مَشيئةٍ واحدَةٍ ؛ فللفلاسفةِ : هو العقلُ الخَلْقيُّ ، الَّذي هو لسانُ النَّفسِ ، وهو ضَئيلُ السَّيرِ بالشَّرحِ الَّذي سَبَقَ ، ولمْ يَتجاوزْ عالَمَ المُلكِ ، ولم يَلِجِ الملكوتَ .

فإذاً ؛ مَعاشرُ الفَلاسفةِ ما وُلِدوا وِلادةً مَعنوِيةً ؛ ليَلِجُوا مَلَكوتَ السَّماواتِ ، علىٰ ما وَرَدَ : « لَنْ يَلِجَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ مَنْ لَمْ يُولَدْ مَرَّتَيْنِ »[3] ، فالفلاسِفةُ لم يَبرَحوا[4] مَحبوسِينَ في مَشائِمِ الجَهلِ ، مُتردِّدينَ في عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، مَحرومِينَ وُلوجَ عالَمِ الغَيبِ والمَلكوتِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[5] .

---

(١) كلمة (هو) : زيادة لاستقامةِ السِّياقِ .

(٢) كلمة (لها) : زيادةٌ مِنَ المحقِّقةِ .

(٣) لم أقف عليه في دواوين السنة المعتمدة ، وأوردَه الشيخ نِظام الدِّينِ النَّيسابوري في : « غرائبِ القرآنِ ورغائبِ الفُرقانِ » (٥/٣٧٥) عن سيدنا عيسىٰ عليه السَّلام .

(٤) في الأصل : (يرجوا) .

(٥) سورة الأنعام : (٧٥) .

فالمُلكُ : ظاهِرُ الكَونِ ، والمَلكوتُ : باطنُ الكَونِ ، وهو عالَمُ الغَيبِ ، وفيه أَملاكٌ ذو أَجنِحةٍ مَثنىٰ وثُلاثَ ورُبَاعَ .

والفَلاسفةُ حَرَّفوا الكَلِمَ عن مَواضعِهِ ، وسَمَّوْا كلَّ شيءٍ باصطلاحٍ لهم ، كما عبَّروا عنِ اللَّوحِ المحفوظِ بـ (العُنصُرِ) .

والأَنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم أَدرَكوا جُمَلَ ما اشتَغلَ الفلاسِفةُ بِتَفاصِيلِهِ ، باستِعدادِ النُّفوسِ القُدُسيَّةِ النَّبويَّةِ ؛ فعُلومُ الفلاسفةِ ظِلالُ قَوالبِ الأَنبياءِ ، وهي [1] مَوهِبةٌ مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، ولٰكنْ قابَلوها بالكُفرانِ ؛ لِانقطاعِهِم بالنِّعمةِ عنِ المُنعِمِ .

والعِلمُ كُلِّيٌّ ، وجُزئيٌّ ، فعلومُهُم جُزءُ الكُلِّ .

والكُلِّيُّ : ما وَرَدَ في بعضِ الكتُبِ المُنزَّلةِ : (لا تقولوا : إنَّ العِلمَ في السَّماءِ مَنْ يَنزِلُ بهِ ، ولا في تُخومِ الأَرَضِين مَنْ يَصعَدُ به [2] ، ولا مِنْ وَراءِ البِحارِ مَنْ يَعبُرُ فيأتي بهِ ، العِلمُ مَجعولٌ في قُلوبِكُم ، تأدَّبوا بينَ يدَيَّ بآدَابِ الرُّوحانِيِّينَ ، وتخَلَّقوا بأَخلاقِ الصِّدِّيقِين . . أُظهِرِ العِلمَ مِنْ قلوبِكُم حتَّىٰ يَغمُرَكُم ويُعطِيَكُم) [3] .

الأَنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم الَّذين تأدَّبوا بينَ يدَيِ اللهِ بآدابِ الرُّوحانِيِّينَ ، وتخَلَّقوا بأَخلاقِ الصِّدِّيقين ، فغَمَرَهُمُ العِلمُ وأعطَاهُم .

والفَلاسِفةُ قَنِعوا بأَوشالٍ مُنقطعةِ المرَدِّ .

فإذاً ؛ العِلمُ مَدِينةٌ فَسِيحةُ الأطرافِ ، والبُرهانُ زُقاقٌ في تلكَ المدينةِ ، فأَدالَ العِيانُ على البُرهانِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في الأصل : (وهو) .

(٢) كلمة (به) ليس في الأصل .

(٣) أورده أبو طالبِ المكِّي في « قُوتِ القلوبِ » (١/٢٣٨) .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ النفوسَ الإنسيةَ لها قوىً تهوي وترتقي بحسبِها]

ثـمَّ إنَّ مَعاشِرَ الفلاسفةِ أَثبَتوا وُجودَ النَّفسِ الإنسانيِّ بعدَ الموتِ ، وبقاءَهُ بعدَ دُثورِ القالَبِ ، وبايَنوا بذٰلكَ الأَوَّليَّةَ والدَّهريِّينَ ؛ فليُعلمْ أنَّ النَّفسَ الباقيةَ لها إدراكاتٌ وقضايا معَ اختلافِ جَماعتِهِم في كَيفيَّةِ تلكَ الإدراكاتِ ، معَ ما تَخبَّطوا فيهِ مِنَ القُوَّةِ الوَهميَّةِ والخياليَّةِ ، وكُلُّ ذٰلكَ الخَبْطِ [١] يَشهَدُ علىٰ جَهلِهِم .

والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أَخبَرَ أنَّ المُؤمِنَ يُفتَحُ لهُ في قَبرِهِ مُنتهَىٰ بصَرِه [٢] .

والقُوَّةُ في النُّفوسِ الإنسانيَّةِ في إدراكِ العَذابِ والنَّعيمِ . . قُوَّةٌ مُسَرْمَدَةٌ ، تَشتَمِلُ علىٰ تَكويناتٍ مُتعدِّدةٍ ؛ كالتَّكوينِ في البَرْزَخِ ، والتَّكوينِ في القيامةِ ، والتَّكوينِ في دارِ النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ .

وأنتَ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ بهٰذه المدَّةِ اليَسيرةِ والعلمِ الحَقيرِ المُستَنِدِ إلى الآلةِ اليَسيرةِ الَّتي هي البُرهانُ . . قَضَيْتَ بجَهالتِكَ علىٰ مُغيَّبِ عَينِكَ ، وتَحكُمُ فيهِ بوَهْمِكَ البَاطِلِ الَّذي لا يَستَنِدُ إلىٰ أَمرٍ مُحقَّقٍ ، وإنَّما ذٰلكَ لكَلالِ استِعدادِكَ المُغرِقِ في أَودِيةِ الأَفكَارِ الَّتي سَلَبَتْ عنكَ تَكميلَ الِاستِعدادِ القَابلِ لقَبضِ العِلمِ .

والأَنبياءُ لهُم معَ اللَّحَظَاتِ ارتقاءٌ في مَعارِجِ العِلمِ بحُسنِ إقبالِهِم على اللهِ تعالىٰ ، فتَعجَّلَتْ آخِرتُهُم ، وأَنتَ تُنادِي مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ ، فانفَتَحَ لهُم بابُ الغَيبِ والحياةِ الأَبديَّةِ ، وتَدارَكَهُم بالمَعونةِ ؛ لكَمالِ استعدَادِهِمُ الَّذي لمْ تَنقَضِ قُوَّتُهُ بالإِعراضِ عن وَاهبِ العِلمِ .

وأنت في ظُلمتِكَ وظُلمةِ حِيلَتِكَ ، وما خَرجْتَ مِنْ مَشِيمةِ خِلْقَتِكَ إلىٰ فَضاءِ

---

(١) في الأصل : (الخبطة) .

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤) وغيره من حديث سيدنا البراء رضي الله عنه ، وفيه : « مَدَّ بَصَرِهِ » .

فِطرتِكَ ، ثمَّ إنَّكَ تُثبتُ عُلوماً بالبديهةِ والضَّرورةِ ، ولا تَحتاجُ[1] إلى استِعمالِ البُرهانِ .

ثمَّ اعلَمْ أنَّ النُّفوسَ الإنسيَّةَ لها قُوىً ، ولها بِحَسَبِها هُوِيٌّ وهُبوطٌ ، وارتقاءٌ وعُروجٌ ، وليسَ ارتقَاؤُها وعُروجُها من مَدارِكِ العُقولِ الخَلْقيَّةِ ؛ بل هو مِنْ مَدارِكِ العُقولِ الفِطريَّةِ المُستَنبَطِ مِنْ عالمِ الملَكوتِ ، فلها عُروجٌ بِقُواها إلىٰ خَالقِها وبارئِها بِمَكاسبِها مِنَ الأَعمالِ : البَدَنِيَّةِ والقلبِيَّةِ ، ولها هُوِيٌّ وهُبوطٌ بِحَسَبِ مَكاسبِها مِنَ الأَعمالِ القلبِيَّةِ والقالَبِيَّةِ .

فمِنْ مَكاسِبِها المُوجِبةِ للهُبوطِ : أَفكارُها الَّتي هي مِنْ نتائجِ قُواهَا ، فيَنحَلُّ بكُلِّ فِكْرٍ جُزءٌ مِنْ قُواها ، فلا تَزالُ بها الأَفكارُ الرَّدِيَّةُ حتَّىٰ تتَّخِذَ مَنازِلَ في الهُبوطِ إلىٰ أَنْ تَنتهيَ إلىٰ سِجِّينٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2] .

هٰذا إِخبارُ اللهُ تعالىٰ عن المُكذِّبينَ والقَائلِينَ في القُرآنِ ما قالوا ، وهٰذا هو نَقدُ حالِ الفَلاسفَةِ .

وللنُّفوسِ عُروجٌ بِحَسَبِ قُواها ؛ فلا تَزالُ تأخُذُ في الِارتقاءِ مَنازِلَ بأكسَابِها البدنِيَّةِ والقلبيَّةِ حتَّىٰ تَصِلَ إلىٰ عِلِّيِّينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ . . . ﴾[3] إلىٰ آخرِهِ[4] مِنْ حالِ المُقرَّبينَ والأبرارِ ، وهمُ الَّذينَ تَربَّتْ[5] نُفوسُهُم الشَّريفةُ بالتَّغذيةِ[6]

---

(١) في الأصل : (تحتج) .
(٢) سورة المطففين : (٧ ـ ١٣) .
(٣) سورة المطففين : (١٨ ـ ٢١) .
(٤) في الأصل : (آخر) .
(٥) في الأصل : (ترتب) .
(٦) في الأصل : (الشّريف بالتّغذي) .

الرُّوحانيَّةِ ، فما برِحَتْ تَتربَّىٰ قُواها حتَّىٰ تَفوزَ بكَمالِ الفَضائلِ ، وتَستَقِرَّ في مَنازلِ عِلّيّينَ .

وهٰذا الاِطِّلاعُ مُقتَبسٌ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ ، المُحيطِ عِلمُها بعالَمِ المُلكِ والمَلكوتِ .

وهٰذا الهبوطُ المذكورُ أَساسٌ أَسَّسَهُ الأَوائلُ ، واستَنبَطوهُ بأَفكارِهِمُ الَّتي تَهوي بهِم إلىٰ سِجِّينٍ ، والمُتأَخِّرونَ منهم نَسَجُوا علىٰ مِنوالِهم ، وامتَاحوا مِنْ مالِحِ بَحرِهِم لأَفكارِهِم مُستَمِدَّةً ؛ لتكونَ لهم مِنْ دَولتِهِم علومٌ ؛ بلْ قلَّدُوهُم ، وما نَطَقوا بهِ مُتولِّدٌ مِنْ عالَمِ الأوائِلِ ، فانطَبخوا في خَلِّهِم ، ولا زالَتْ قُواهُم تَركُضُ في فَلَواتِ الأَفكارِ ، مُتحيِّرِينَ ومُغَوِّرِينَ ، ولا يزدادونَ إلَّا حَيرةً وضَلالةً وبُعداً .

والأَنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ وأَتباعُهُم ببَصائرِهِمُ النَّافذةِ . . تُناهِزُ إِدراكاتُهُم بالبصائرِ إدراكاتِهِم بالبَصَرِ ، بل أَقوَىٰ مِنْ إِدراكِهِم بالبَصَرِ ؛ لأَنَّ مُدرَكاتِ البصَرِ متناهيةٌ تستندُ إلىٰ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، وهي بانبعاثِ الأَشعَّةِ والحَدَقةِ وانتِعاشِ المرئيَّاتِ بواسِطةِ الهَواءِ الشَّفَّافِ واعتدالِ القُربِ والبُعدِ ، وإدراكاتُ البصائرِ تَستَنِدُ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ والمَلكوتِ .

وإدراكاتُ الفلاسفةِ مُستَنِدةٌ إلىٰ بَراهِينَ[1] تَسوَّروا بها إلى العُلومِ الرِّياضيَّةِ والطَّبيعيَّةِ .

فتبيَّنَ لكَ ممَّا سَبَق : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أَحاطَ ببَصيرتِهِ النَّافذةِ بحالِ الفِئتينِ ومَباداتِهم ونِهاياتِهم ، وأَخبَر عمَّا في سِجِّينٍ ، وعمَّا في عِلِّيِّينَ .

وممَّا غَلِطَتِ الفَلاسِفةُ فيهِ إلىٰ آخرِ قولهم : إنَّ النَّفسَ هي القَابِلةُ للتَّكميلِ ،

---

(1) في الأصل : (برهانين) .

وقدْ قالَ قائِلُهُم[١] : شعرٌ : [من البسيط]

يَا عَامِرَ ٱلْجِسْمِ كَمْ تَسْعَىٰ لِخِدْمَتِهِ ۝ وَتَطْلُبُ ٱلرِّبْحَ فِيمَا فِيهِ خُسْرَانُ

أَقْبِلْ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَٱسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ۝ فَأَنْتَ بِٱلنَّفْسِ لَا بِٱلْجِسْمِ إِنْسَانُ

فإذا أَردتَ البيانَ الواضِحَ . . فاعلمْ أنَّ الإنسانَ بالرُّوحِ إنسانٌ ، والنَّفسُ وَلِيدةُ الرُّوحِ ، وهي الَّتي يُثبِتُ الفلاسِفةُ وُجودَها .

فأَحضِرْ فَهمَكَ ؛ حتَّىٰ أوضِّحَ لكَ أنَّ النَّفسَ هي الرُّوحُ الحيَوانيُّ الَّذي شارَكَ فيهِ الإنسانُ جميعَ الحيَواناتِ ، وهي مُستَخرَجةٌ مِنْ أَخصِّ الجَواهِرِ الجِسمانيَّاتِ ، وهي الَّتي خمَّرَها القَادرُ الأزليُّ أَربعِينَ صباحاً حتَّىٰ مَيَّزَها واقتَطَعَها مِنْ جِنسِ أرواحِ الحيَواناتِ ، ثمَّ سَوَّاهَا بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[٢] ، فَبِنفْخِ الرُّوحِ صارَ الرُّوحُ المُشارِكُ للحيَواناتِ نَفساً مُمتازَةً عن جِنسِ أَرواحِ الحيَواناتِ ، فبكونِها مُستنبَطةً مِنْ أَخصِّ جواهرِ الجِسْمانيَّاتِ لها وَجهان : وجهٌ إلى الجِبلَّةِ التُّرابيَّةِ الَّتي لها رُسوبٌ إلى العالمِ السُّفليِّ ، ووجهٌ إلى الرُّوحِ الرُّوحَاني ، وقدْ سَبَقَ شَرحُ ذٰلكَ[٣] .

فإذا عَرفتَ . . فلا تُحرِّفِ الكَلِمَ عن مَواضعِهِ ، ولا تُسَمِّ النَّفسَ بغيرِ اسمِها ، والرُّوحَ بغيرِ اسمِهِ ؛ فالرُّوحُ أبو المُولَّداتِ ، والنَّفسُ أمُّ المُولَّداتِ ، مِنْ فَلَكِ البُروجِ إلىٰ ما دونَهُ .

وقدْ ذكرتُ لكَ أنَّ العقلَ الفِطريَّ لسانُ الرُّوحِ ، والعقلَ الخَلْقيَّ لسانُ النَّفسِ .

وما قالَ الفلاسِفةُ في عِلَّةِ العِلَلِ ، ودرَجوا إلى المعلولِ الَّذي منهُ التَّكَثُّرُ مِن عِلَّةِ العِلَلِ ، وقالوا : لا يُوجَدُ مِنَ الواحِدِ إلَّا الواحدُ . . فذٰلك الواحِدُ ما فَهِموهُ ؛ وهوَ اللهُ تعالى الَّذي لا إلـٰهَ إلَّا هوَ ، الَّذي هو خَلَقَ الرُّوحَ وجَعَلَهُ واحِداً ، ثمَّ بَسَطَ التَّكَثُّرَ مِنْ ذٰلكَ الواحِدِ .

---

(١) الأبياتُ لأبي الفتحِ البُستي في نُونيَّتِه « عُنوان الحِكَم » (ص ٣٦) .

(٢) سورة الحجر : (٢٩) . (٣) انظر (ص ٣٠٣) .

ثمَّ قلِ : الَّذي سمَّيتَهُ : عِلّةَ العِلَلِ ؛ أهو عالمٌ قادِرٌ مُختارٌ فَعَّالٌ ؟ أمْ ليسَ بمُختارٍ ولا قادرٍ ولا عالمٍ ؟

فإنْ قلتَ : إنَّهُ قادرٌ عالمٌ مُختارٌ . . فهُو اللهُ تعالىٰ ، فلا تُسمِّهِ إلَّا بما سَمَّىٰ بهِ نفسَهُ ، ولا تَصِفْهُ إلَّا بما وصَفَ بهِ قُدُسَهُ .

وإنْ أنتَ تُحِلُّهُ مَحلَّ الأَثرِ والمؤثِّرِ ، وتَنفِي عنهُ السَبْقَ[1] الزَّمانيَّ ، وتُثبِتُ لهُ السَّبقَ الذَّاتيَّ ، وقدْ شبَّهتَ اللهَ بالشَّمسِ . . فلا حاجةَ أنْ تُسمِّيَهُ عِلَّةَ العِلَلِ .

فقدْ بانَ جَهلُ الفلاسفةِ قاطِبةً بالبيانِ النَّبويِّ المُكتَسَبِ مِنْ فَيْضِ الإلـٰهيِّ .

* * *

---

(١) في الأصل : (سبق) .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ لكلِّ إنسانٍ حكمَ خِلقةٍ وحكمَ فِطرةٍ]

وإذا سلَّمتَ وجودَ النَّفسِ . . فاعلمْ أنَّ لكَ حُكمَ خِلْقةٍ ، وحُكمَ فِطرةٍ ، وهٰذا علمٌ أُخْرَويٌّ نَبَويٌّ ، لا عِلمٌ حُكمِيٌّ بُرهانيٌّ ؛ فالفِطرةُ : أن تَعلَمَ شيئاً ، فافهَمْ مِنْ قولِهِ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾[1] ، وذٰلكَ إجابةُ الفِطرةِ ، ثُمَّ قَمِّطْ جَنِينَ فِطرتِكَ في قِماطِ قالَبِكَ ؛ فبالموتِ الطَّبيعيِّ تَتَخلَّصُ الفِطرةُ مِنَ الخِلْقةِ ، ويكونُ لكَ مُطالعاتُ إدراكاتٍ اختَلفَ آراءُ الجاهِلينَ مِنَ الفلاسفةِ في كيفيَّةِ تلكَ الإدراكاتِ ؛ لأنَّهُم يَتكلَّمونَ مِنْ وراءِ حِجابٍ لا عِلمَ لهُم ، إنْ هُم إلَّا يظنُّونَ .

والرُّسلُ صلواتُ اللهِ عليهِم يَصِيرُ لهُم فُرقانٌ بينَ الفِطرةِ والخِلقَةِ ، في اليقَظةِ والمنامِ ، فيُكاشَفُونَ بالقُدَرِ الغَيبيَّةِ والآياتِ الإلٰهيَّةِ[2] ، وأنتَ بالموتِ الطَّبيعيِّ ، كما وَرَد : « مَنْ مَاتَ . . فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ »[3] ، ويقالُ لك : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[4] .

فإدراكاتُكَ[5] المُستنِدةُ إلى البراهينِ مُسلَّمةٌ لا اعتراضَ بها ، ولٰكنَّ مِثالَكَ في علمِكَ المُتناهي كطِفلٍ رُبِّيَ في سِردابٍ مُظلمٍ ، لو قيلَ لهُ : إنَّ هناكَ شَمساً وقمراً وأَرضاً . . هل ينفَهِمُ لهُ ذٰلكَ أم لا ؟ فأنتَ ذاكَ الطِّفلُ ، ومِثالُ عِلمِكَ معَ عِلمِ الأَنبياءِ : كمِثلِ عِلْمِ القَرَويِّ بالنِّسبةِ لو قُلتَ للقَرَويِّ : إنَّ الشَّمسَ مِثلُ الأَرضِ نيِّفاً وستِّينَ مرَّةً . . يضحكُ القَرَوِيُّ مِنْ عَقلِك .

فهٰكذا مَن عِندَه العِلمُ المُقتبَسُ مِنْ مِشكاةِ النُّبوَّةِ إذا قالَ لكَ : إنَّ للهِ مَشِيئاتٍ

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٢) في الأصل : (الإلٰهي) .

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٨٥) .

(٤) سورة قٓ : (٢٢) .

(٥) في الأصل : (فإدراكك) .

غيرُ مُتناهيةٍ ، وأنت حصَرَكَ ـ أيُّها الفَلسفيُّ ـ مَضِيقُ البُرهانِ ، لا بُروزَ لكَ[1] منهُ ، ولا تتكيَّفُ لكَ مَشيئاتٌ مُتعدِّدةٌ غيرُ مُتناهيةٍ حسَبَ المشيئاتِ ، والأنبياءُ أدرَكوا ذٰلكَ ، وأحاطوا بهِ ، بالفِطرةِ المُخالفةِ للخِلْقةِ ، في النَّومِ واليَقْظةِ ، وأدركوا الأملاكَ وهيئاتِها .

وإنَّ جَبرَئيلَ لـمَّا سألهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أن يُريَه نَفسَهُ كما خَلَقَهُ اللهُ . . برَزَ إلىٰ أرضِ عَرَفاتٍ ، ونشَرَ جَناحَهُ ، فغُشيَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أتاهُ جَبرئيلُ ، هٰذا لمَّا كانَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في مَشِيمَةِ خِلْقتِهِ ، أمَّا[2] بلَيلةِ المعراجِ ، لمَّا صَفَّىٰ فِطرتَهُ عنْ خِلْقتِهِ بُراقُ سبعِ سماواتٍ ، ونادَاهُ الحقُّ : إليَّ يا محمَّدُ . . فارقَهُ جَبرَئيلُ ، فقالَ : يا جَبرئيلُ ؛ هٰذا مَقامٌ يُفارِقُ الخليلُ الخليلَ ؟! فقالَ جَبرَئيلُ : وما منَّا إلَّا لهُ مقامٌ معلومٌ[3] ، فتأخَّرَ عنهُ جِبرَئيلُ ، وصارَ في فضاءِ قُرْبِ قابِ قوسينِ أو أدنىٰ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ العِلمَ كُلِّيٌّ وجُزئيٌّ .

فالجُزئيُّ : صَيدُ حبائلِ الأفكار ، يُتسَوَّرُ إليهِ بمُقدِّمةِ العلومِ الرِّياضِيَّةِ والطَّبيعيَّةِ ، ويُستَكشَفُ بها أسرارُ المُلكِ ، ما بينَ فَلَكِ البُروجِ إلىٰ فَلَكِ القَمرِ الَّذي حَشْوُهُ العناصِرُ ، وليسَ وراءَهُ مَوجودٌ عندَ خاتَمِ العَقلِ الخَلْقيِّ .

والعِلمُ الكُلِّيُّ : مُمتَدٌّ إلى البحرِ المتَّصلِ بكَلماتِ اللهِ ، الَّتي تَنفَدُ البِحارُ دونَ نفادِها .

أَسهمَ الرُّسلُ منهم سَهماً استَعَرَ مِن[4] شِوائِهِ الجنَّةُ والنَّارُ ، والبعثُ والنُّشورُ ،

---

(١) في الأصل : (له لك) .

(٢) زيادة لاستقامة السِّياقِ .

(٣) في الأصل : (ما منا إلا مقام معلوم) .

(٤) كلمة (من) زيادة لاستقامة السِّياقِ .

ويزدَادونَ يومَ القيامةِ عِلماً ؛ مُطالِبينَ بالتَّحقُّقِ بالمواعدِ لهُم بعِلمٍ مُستَقِرٍّ ، حتَّىٰ يصيرَ المُعايِنُ والمُعايَنُ في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ .

وأَصحابُ العِلمِ الجُزئيِّ أَدرَكوا الأَفلاكَ وهيئاتِها ، وأَبعادَها ونِسبةَ بعضِها إلىٰ بعضٍ ، ولمَّا نالوا جَهداً فيما أَبعدَهُم مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وأَخْلَدَهم نِيراناً ، وأفقَدَهُم عِياناً ، أولـٰئكَ ينادونَ مِنْ مكانٍ بعيدٍ ، والرُّسلُ أَقرَبُ إلى اللهِ مِنْ حَبلِ الوَرِيدِ ، فأدَالَ العِيانُ على البُرهانِ .

فَصْلٌ

[في بيانِ أنَّ الفلاسفةَ أوعيةُ العلمِ وليسوا بعلماءَ]

امتلأتْ أَوهامُ الفلاسفةِ وأَوعِيةُ أَفكارِهم ممَّا أدركوهُ ، ولمْ يَبقَ عندَهُم متَّسَعٌ[1] لأمرٍ وراءَ ذٰلكَ ، ونُقِلَ عنْ أفلاطونَ أنَّهُ مرَّت نَسْمةٌ مِنْ وراءِ هٰذا الكَونِ بمَشامِ فَهمِهِ ، فأبرَزَ ذٰلكَ إلىٰ أرِسطاطاليسَ ، فطالبَهُ بالدَّليلِ ، فقالَ : إنِّي وَجدتُ الشَّيءَ وِجداناً ، فما قَبِل منهُ ادِّعاءَ الوِجْدانِ .

ولولا أنَّ ادِّراكَ الشَّقاوةِ أدرَكَهُ . . لَتابعَ الأَنبياءَ ، فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وإخوانُهُ[2] مِنَ الرُّسلِ ناداهمُ الحقُّ وتَعرَّفَ إليهِم ، فعَرَفوهُ مِن غيرِ إعمالِ الأفكارِ ؛ مَوهِبةً محْضةً .

فالفلاسِفةُ فاتتْهُم هٰذه الموهِبةُ ، واللهُ تعالى اختباراً منهُم أوْفَقَهم بالَّذي أوفَقَهم[3] ، وأَشغَلَهم بالعِلمِ الَّذي أَشغَلَهم .

وكُلُّ ما هو مِنْ هٰذه العلومِ الجُزئيَّةِ ـ حتَّى السِّحرُ ، وغيرُ ذٰلكَ ـ تَعليمٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ إقامةً لرَسمِ القَهرِ الَّذي هُو إحدىٰ صِفتَيِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، وضِدُّهُ : اللُّطفُ ، وإنْ شئتَ . . قلتَ : الرِّضا والسَّخَطُ ، أو قلتَ : الجلالُ والجمالُ .

فالمُقتضي لِاجتماعِ ضِدَّيْنِ هو الكَمالُ الأَزليُّ ، ولهٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[4] ؛ أرادَ : صُورةَ معناهُ ، لا الصُّورةَ الظَّاهِرةَ ، فلكُلِّ صُورةٍ معنىً .

فاجتماعُ الضِّدَّيْنِ في آدمَ دليلُ كَرامتِهِ ، واصطفاءِ اللهِ إيَّاهُ ، جَمَع فيهِ الضِّدَّيْنِ مِنَ الرِّضا والسَّخَط ؛ ليكونَ معناهُ مُنتسَخاً مِن وَصْفِ القَهرِ والرِّضا الإلٰهيِّ .

---

(١) في الأصل : (مشاع) ، ولا معنىً لها .

(٢) في الأصل : (وإخواته) .

(٣) أوفقهم : رماهم هنا .

(٤) تقدم تخريجه (ص ٢٤٤) .

فوَقَع الفلاسفةُ وطوائفُ الضَّلالِ في طريقِ القَهرِ والسَّخَطِ ، والأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم في طَرَفِ الرِّضا واللُّطفِ والجمالِ .

فحَظُّ الأنبياءِ : العِلمُ الكُلِّيُّ ؛ وهو العِلمُ باللهِ تعالىٰ ، ولمَّا ماتَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ بعضُ الصَّحابةِ : ماتَ تِسعةُ أعشارِ العِلمِ [1] ، هٰذا معَ كونِهِ وَقَفَ في معنى الأَبِّ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [2] ، فقالَ : ما معنى الأَبِّ ؟ [3] ليُعلمَ أنَّ العِلمَ : كُلِّيٌّ وجُزئيٌّ .

وقدْ كانَ السَّلفُ رحمةُ اللهِ عليهِم يقولونَ : فلانٌ عالمٌ ، وفلانٌ وِعاءُ العِلمِ ، وكذا مَنْ كانَ مُتقِناً في علومِ الكِفاياتِ والعُلومِ الَّتي يُستعانُ بها علىٰ فَهمِ الكتابِ والسُّنَّةِ يُسمُّونَه : وِعاءَ العِلمِ ، ومَنْ كانَ عندَهُ التَّقوىٰ والخَشيةُ يُسمُّونَه : عالماً .

فعلىٰ هٰذا : الفلاسِفةُ أَوعِيةُ عُلومِ الهندسةِ والهيئةِ ومَعرفةِ الأَفلاكِ وأَبعادِها مِنَ الأرضِ ، ولا يَعرِفونَ الأَرضَ الَّتي هي في طَبَقاتِ جَهنَّمَ ، ويَعرِفونَ الأَفلاكَ ، ولا يَعلَمونَ أنَّ الأَفلاكَ سائرَها ، والبحارَ ، و[4] الأَرضَ الكُرِيَّة ، كلُّ ذٰلكَ حشْوُ السَّماءِ الأُولىٰ [5] ، ونسبةُ السَّماءِ الأَوَّلةِ إلى الثَّانيةِ كحَلقةٍ بأرضِ فَلاةٍ ، وهٰكذا على التَّرتيبِ ، كُلُّ سماءٍ بالنِّسبةِ إلى الأُخرىٰ حتَّىٰ تَصِيرَ السَّماواتُ والكُرسيُّ بالنِّسبةِ إلى القُدُسِ كحَلقةٍ بأَرضٍ فَلَاةٍ .

---

(١) أخرج الطَّبراني في « المعجمِ الكبير » (١٦٣/٩) (٨٨١٠) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه قال : إنِّي لأحسَبُ عمرَ قد رُفِعَ معه يومَ مات تِسعةُ أعشارِ العِلمِ ، وإنِّي لأحسَبُ عِلمَ عمرَ لو وُضِعَ في كِفَّةِ الميزانِ ، وعِلمُ مَن بعدَهُ . . لرَجَحَ عليه عِلمُ عمرَ رضي الله عنه .

(٢) سورة عبس : (٣١) .

(٣) أخرجه القاسمُ بنُ سلَّام في « فضائلِ القرآن » (ص ٣٧٥) ، وسعيدُ بن مَنصورٍ في « السُّننِ » (٤٣) والطَّبري في « جامعِ البيانِ » (٢٢٩/٢٤) ، عن أنسٍ رضي الله عنه قال : قَرأ عمرُ على الْمِنْبَرِ ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس : ٣١] فقَال : هٰذه الفَاكِهةُ قَد عرَفناهَا ، فما الأَبُّ ؟ ثمَّ رجعَ إلىٰ نَفسِه فقالَ : إنَّ هٰذَا لَهو التَّكلُّفُ يا عُمرُ .

(٤) الواو زيادةٌ لاستقامةِ السِّياقِ ، وفي الأصل : (الكري) .

(٥) في الأصل : (الأوَّلة) .

والرُّوحُ الأعظمُ ليسَ في السَّماواتِ والأَرَضِينَ ما يُماثلُهُ ، وليسَ أعظمَ منهُ إلَّا العرشُ ، وهو مُنتهَىٰ سَيْرِ العقلِ الخَلْقِيِّ ، وهُو الَّذي انتَهىٰ سَيرُ أَفكارِ الفَلاسفةِ إليه ورؤسائِهم وقادتِهم ، وسَمَّوْه : عِلَّةَ العِلَلِ ، وهو مُنتهىٰ سَيْرِ العقلِ الخَلْقِيِّ ، ثمَّ انتهىٰ بانتهاءِ سَيْرِ العَقلِ الخَلْقيِّ الوجودُ ، فطَلَعَ طلائعُ وُجودٍ لا يُدرِكُهُ إلَّا العقُل الفِطريُّ ، وهُو عَقلُ الأنبياءِ ، فعَرفوا مَوجوداً هُو اللهُ الَّذي لا إلـٰهَ إلَّا هُو الحيُّ القَيُّومُ ، والأسماءَ والصِّفاتِ ، فكانَ ما أدركَ الفلاسِفةُ داخِلاً تحتَ مِيزانِ البُرهانِ ، وما أَدرَكَهُ الأنبياءُ عليهِمُ السَّلامُ مِنَ الأمورِ الأُخْرَوِيَّةِ والعِلمِ باللهِ تعالىٰ وصِفاتِهِ وأسمائِهِ لا يَحويهِ مِيزانُ البُرهانِ .

فالمُدرَكاتُ قِسمانِ[1] : قِسمٌ مُدرَكٌ بالعَقلِ الخَلْقِيِّ ، وقِسمٌ مُدرَكٌ بالعَقلِ الفِطريِّ .

وأنت لا تَفهمُ العَقلَ الفِطريَّ ، ولا العقلَ الخَلْقيَّ ، ولا تَعلَمُ ما هُما حتَّىٰ تَعلَمَ مَصدَرَهُما .

فاعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ الرُّوحَ علىٰ ما وَرَدَ أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ الأرواحَ قبلَ الأَجسادِ بأَلفَيْ ألفِ عامٍ ، ثمَّ اعلمْ نِسبةَ كيفيَّةِ الأعوامِ عندَ اللهِ وقِسْمْها على الأعوامِ الَّتي عندَكَ ؛ فالعامُ عندك ثلاثُ مئةٍ وستةٌ وسِتُّونَ يوماً ، واليومُ عندَ الله خمسونَ أَلفَ سنةٍ ، فقِسْ كلَّ عامٍ عندَ اللهِ الَّذي خَلَقَ الأَرواحَ قبلَ الأَجسامِ بأَلفيْ أَلفِ عامٍ على الأعوامِ الَّتي عندَكَ ؛ حتَّىٰ تَعلَمَ تاريخَ خَلْقِ الرُّوحِ ؛ فيَغرَقَ فَهمُكَ في غَوْرِ الأَزَلِيَّةِ .

فاستحيِ مِنْ تَحكُّمِكَ ـ أيُّها الفلسفيُّ ـ وادِّعائِكَ مَعرِفةَ العِلَلِ ؛ فعِلَّةُ العِلَلِ ما عَرفتَهُ ، والرُّوحُ الأَعظمُ ما عرفتَهُ ، وبَنَيتَ الأَمرَ علىٰ وَهْمٍ لا حاصِلَ لهُ ، فالفلاسِفةُ سَمَّوا الرُّوحَ : نفساً ، والنَّفسُ النَّاطقةُ غابَتْ عنهُم ؛ لتَلبُّسِها بحُكمِ الخِلْقةِ حتَّىٰ شابَهَتْ أَرواحَ الحيَواناتِ .

---

(١) في الأصل : (قسمين) .

والنَّفسُ الَّتي ذكرناها لمْ يُثبِتُوها ، وهي [١] عندَهُم قابلةٌ للدُّثورِ ، وهي غيرُ النَّفسِ الَّتي اعترفوا ببقَائِها بعدَ دُثورِ القَالَبِ .

وهٰذا خطأٌ فاحشٌ ، وإنَّما قالوا ذٰلكَ لأنَّ قائدَهُم إلى العِلمِ : العقلُ الخَلْقِيُّ ، فانتهَىٰ بهم إلى العِلَّةِ الأُولى الَّتي سَمَّوْها : عِلَّةَ العِلَلِ ، وأثبَتوا لها وُجوداً مُستَقِلّاً ، وجَعلوها مُوجِباً للمُوجَباتِ ، وأقاموها مُقامَ الأَثرِ والمُؤثِّرِ ، وسَلَبوا عنها وَصفَ المَخلوقيَّةِ ، وجَعلوا لها سَبْقاً على المعلولِ الأَوَّلِ ، سَبْقاً ذاتيّاً لا زَمانيّاً .

والَّذي أثبَتوا أنَّهُ مَعلولٌ أخطؤوا فيه ، فالَّذي سَمَّوْه : المعلولَ الأوَّلَ هُو العقلُ الفِطريُّ ، وهو كالجُزءِ مِنَ الرُّوحِ ، وليسَ هو مَعلولاً ، وإنَّما المعلولُ : النَّفسُ الكُلِّيُّ ، وهو مُوجِبُ الرُّوحِ في عالَمِ الأمرِ ، كما أنَّ حوَّاءَ مُكوَّنةٌ مِنْ آدَمَ في عالَمِ الخَلقِ ، وقدْ سَبَقَ شَرحُ ذٰلكَ [٢] ، وهٰذا غابَ مِنَ الفلاسِفةِ .

وهم جَعلوا التَّكثُّرَ للمَعلولِ ، وجَعلوا لهُ طَرَفاً إلى الإيجابِ ، وطَرَفاً إلى الإمكانِ ، وجَهِلوا أنَّهُ مُوجِبٌ مُوجَبٌ بخالقٍ عليمٍ قادرٍ سميعٍ بصيرٍ ، وجهِلوا بارئَهُ وبارئَهُم وخالِقَهُ وخالِقَهُم .

وقدْ أحاطَ عِلماً بذٰلكَ فُرسانُ مَيدانِ العلمِ الَّذينَ ركَضوا في فَسيحِ عَرْصةِ مُتابعةِ الأنبياءِ ، الَّذينَ منهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، القائلُ بأنِّي : « أُوتيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ » [٣] ، فمَا تفرَّقَ في الأنبياءِ اجتمَعَ فيهِ ، واقتَبسَ أتباعُهُ [٤] منهُ ذٰلكَ ووَرِثوهُ ، وقدْ قالَ : « نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِّثُ دِيناراً وَلَا دِرْهَماً » [٥] ، فرَكِبوا بعِلمِهم رِقابَ الفَلاسفةِ ، وجَعلوهُم تحتَ أَقدامِهِم ، وأَدحَضُوا حُجَّتَهُم ، وأَسفَلوا كَلِمتَهُم ، ونشَروا عَلَمَ العِلمِ في أَقاليمِ قُلوبِ الصِّدِّيقِينَ بعِيانٍ يَستَصغِرُ البُرهانَ .

---

(١) في الأصل : (وهم) . (٢) انظر (ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥) .

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٠١) .

(٤) في الأصل : (أتباعهم) .

(٥) أخرجه أبو داوود (٣٦٤١) والتِّرمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حِبَّان في « الصَّحيح » (٨٨) من حديثِ سيدنا أبي الدَّرداء رضي الله عنه .

فيا صاحبَ الميزانِ البُرهانيّ ، الفاقدَ البصَرِ العِيَانيّ ؛ ليسَ هٰذا[1] ممَّا يُدرِكُهُ عقلُكَ الخَلْقِيُّ ؛ لأنَّهُ غمْرٌ مَحبوسٌ في عَالَمٍ لا بُروزَ منهُ ؛ لقِصَرِ خُطاهُ ، وإذا ضاقَ نِطاقُ فَهمِكَ . . تُصَرِّحُ بالإنكارِ ، وتَجفو بالاستِكبارِ ، وتقولُ : ما سمعنَا بهٰذا في آبائِنا الأوَّلِينَ ؛ إذْ هٰذا مِنْ شأنِ مَن وُلِدَ الوِلَادةَ الحقِيقيَّةَ المعنويَّةَ المشروحةَ مِنْ قَبْلِ الوِلَادةِ الطَّبيعيَّةِ البشَريَّةِ ، فمَنْ هو مُقِيمٌ في أوطانِ الوِلَادةِ البَشريَّةِ . . لا يَزِنُ إلَّا بمِيزانِ البُرهانِ ، فقدِ استَحلْتَ علىٰ نفسِكَ بالجهلِ ، حيثُ جعلْتَ رأسَ مالِكَ البُرهانَ ، ومِيزانُ هٰذا البُرهانِ تَنقَطِعُ عَلاقتُهُ بالموتِ الطَّبيعيّ ، فلا يَبقَىٰ بُرهانٌ ولا مُبرهِنٌ ، ويَبقى العِيانُ معَ المُعايِنِ والمُعايَنُ أبدَ الآبادِ .

فأيُّها الحكيمُ الفلسفيُّ ؛ أين عِلمُكَ مِن هٰذا العلمِ المُستَنبَطِ مِن مِشكاةِ النُّبوَّةِ ، المفهومِ مِن قولِه تعالىٰ : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] ، فعندَ غَوْرِ هٰذا الكلامِ وبُعدِ مَداهُ وغامِضِ سِرِّهِ . . يَلُوحُ لكَ أنَّ للهِ تعالىٰ مِنَ الصِّفاتِ والأسماءِ في طَيِّ الغُيوبِ ما لمْ يُبرِزْهُ إلىٰ أفهامِ الخَلائقِ .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دُعائِهِ : « اللَّهُمَّ ، وَمَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي ، وَلَمْ يَبْلُغْهُ عِلْمِي . . . »[3] ، وهو مَعدِنُ العِلمِ ؛ ليُعلمَ أنَّ في طَيِّ الغُيوبِ للهِ تعالىٰ مِنَ القُدَرِ والآياتِ ما لا عَينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمِعتْ ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بشَرٍ .

فاستحيِ أيُّها الحكيمُ مِنْ عِلمِكَ ، وتَبرقَعْ بالخَجلِ ، واطوِ بِساطَ الغُرورِ ، فما أَحقرَكَ وأَحقرَ عِلمَك !

* * *

---

(١) كلمة (هٰذا) زيادة لِاستقامةِ السِّياقِ .

(٢) في الأصل بدون (لا) والآية من سورة النحل : (٨) .

(٣) أخرجه الحاكمُ الكبيرُ في « شِعارِ أصحابِ الحديثِ » (٨٠) من حديثِ سيدنا ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما ، بنحوه .

فَصْلٌ

[في بيانِ قصورِ البرهانِ]

الفلاسفةُ استَسْمَنوا مِنَ البُرهانِ ذا وَرَمٍ ، ومِنْ عِلَّةِ العِلَلِ ذا عَدَمٍ ، وأنا مُبَيِّنُ ذٰلكَ في هـٰذا الفصلِ .

وذٰلكَ بأنَّهم اتَّخذوا مِنْ أعوانٍ ظنُّوا أنَّهُم يَصِلونَ بهِ إلىٰ إدراكِ العلومِ ؛ وهو البُرهانُ ، فلو تَحقَّقَ ظَنُّهُم . . أدركَ المُلكَ والمَلكوتَ ، وكانَ ناظراً بالعَينينِ ، وما أَدركَ الأَشياءَ مِنَ المُلكِ ؛ وذٰلكَ أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ كوَّنَ آدَمَ وخَصَّهُ بالتَّسويةِ ، وشرَّفَه بنَفخِ الرُّوحِ ، وأَسجَدَ لهُ الملائكَةَ حينَئذٍ ؛ فصارَ آدمُ خليفةً في الأَرضِ ، وصارَ عالِماً بالأَسماءِ ؛ إشارةً في ذٰلكَ إلىٰ إدراكِ ما أدركَ مِنَ الملكوتِ ، وأودَعَ فيه الذِّكرَ والفِكرَ ، والفِكرُ استَقرَّ فيهِ بالتَّسويةِ ، والذِّكرُ استَقرَّ فيهِ بنَفخِ الرُّوحِ ، ثمَّ وَكَّلَ الفِكرَ بعالَمِ الملكِ ، ووَكَّلَ الذِّكرَ بعالَمِ الملَكوتِ ، فصارَ البُرهانُ مُولَّداً مِنَ الفِكرِ .

ولكَونِهِ مُولَّداً مِنَ الفِكرِ . . صارَ طَرَفُهُ إلى الخِلْقةِ ، فلمَّا صارَ طَرَفُهُ إلى الخِلقةِ . . تَعاطَى الفلاسفةُ الِاستِدلالَ بهِ علىٰ إدراكِ المُلكِ ؛ إذْ هُو منابٌ لهُ ومُوكَّلٌ بهِ ، فطَلَعَ نُورُ الفِطرةِ الَّذي هُو شُعاعُ الرُّوحِ وإدراكُ العِيانِ ، فزَاحمَهُ البُرهانُ ، فصارَ قِسماً مِنْ أَقسامِ الخِلْقةِ ، وانسَبَلَ علىٰ نُورِ حَدَقةِ الفِطرةِ كانسِبالِ الجَفنِ على الحَدَقةِ ، فصارَ قاصِرَ الخُطا في كَمالِ نَظرِ انسِبالِ[1] جَفْنِ الحلَقةِ على الحَدَقةِ المُستمَدَّةِ مِنَ الفِطرةِ ، فأدرَكَ مِنَ المُلكِ ما أَدرَكَ ، وقَصُرَ عن إدراكِ الملَكوتِ ، فصَحَّ أنَّهُ أعوَرُ ، والنَّاظِرونَ بهِ عُورٌ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[2] .

---

(١) في الأصل : (الإنسبال) .

(٢) سورة النساء : (١) .

فشَمِلَتْ حِكمةُ التَّسويةِ الزَّوجَيْنِ ، وشَمِلَهُما التَّخصِيصُ بالتَّسويةِ ، وشَمِلَهُما[1] الشَّرَفُ بنَفخِ الرُّوحِ ، ووَرِثا ما بَثَّ منهُما ، ثمَّ وَرِثَ ما بَثَّ أثرُ التَّخصيصِ والتَّشريفِ ، ثمَّ يحكُمُ بالتَّخصيصِ والتَّشريفِ الوَصفانِ مِنْ صِفاتِ اللهِ : اللُّطفُ والقهرُ ، ويَحكُمُ الصِّفَتيْنِ[2] مع ذٰلكَ التَّخصِيصُ والتَّشريفُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾[3] ، فيُفرَدُ الإلٰهُ الواحِدُ بالأحَدِيَّةِ والصَّمديَّةِ تَفرُّداً لا شَريكَ فيهِ أبداً ، فالصَّمديَّةُ صارَتْ ضامِنةً لِمَا ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾[4] استِدلالاً دائماً سَرمداً ، والأَحَديَّةُ ضامِنةٌ بـ ﴿ لَمْ يُولَدْ ﴾[5] .

ثمَّ نابَ الصِّفتانِ في الوَصفيْنِ : الظَّاهرِ والباطِنِ ؛ فهُو الأَوَّلُ والآخِرُ ، والظَّاهرُ والباطنُ ، ثمَّ حكمَتْ هٰذهِ الأوصافُ بإرادتِهِ الأبَدِيَّةِ وقُدرتِهِ الأبَديَّةِ إدراجَ الخَلقِ مِنْ وراءِ أستارِ العَدَمِ ؛ ليَصِيروا[6] أَجرَاماً لأَشعَّةِ أنوارِ الجلالِ الأزَليِّ ، وقابلةً لأنوارِ الجلالِ الإلٰهيِّ ، قالَ : « كُنْتُ كَنْزاً لَا أُعْرَفُ ، فَخَلَقْتُ ٱلْخَلْقَ لِأَنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ »[7] .

فأَينَ البُرهانُ مِنَ الِانتهاءِ إلىٰ هٰذه الأَسرارِ حتَّىٰ يَفِيَ بالوَفاءِ لإدراكِها ؟ فليَكتَنِنِ البُرهانُ في أَكنانِ العَجزِ والقُصورِ ؛ ليَبرُزَ الدَّرَّاكُ الغوَّاصُ في تَيَّارِ بِحارِ الأَسرارِ ، ويُبرِزَ منها دُرراً غَيبِيَّةً تَتلأَلأُ بها أَقاليمُ الأَرواحِ ثمَّ القلوبِ ثمَّ النُّفوسِ ، ويَستَقِرُّ بهٰذا العِيانِ نُورُ التَّوحيدِ وثَلجُ اليقينِ وأَضواءُ المُكاشَفةِ والمُعاينةِ ، ويَظهَرُ مِنْ ذٰلكَ زِينةُ الإِذعانِ والعُبوديَّةِ ، ويُتعجَّلُ للمُؤمِنينَ المُستنصِرينَ القَهرُ ،

---

(١) في الأصل : (وشملها) .

(٢) في الأصل : (الصِّفتان) .

(٣) في الأصل : (الزوجين) ، والآية من سورة الذاريات : (٤٩) .

(٤) سورة الإخلاص : (٣) .

(٥) سورة الإخلاص : (٣) .

(٦) في الأصل : (ليصير) .

(٧) انظر حاشية رقم (٣) من (ص ٢٠٩) .

ويُتعجَّلُ لهم الجنَّةُ بما يُباحُ لهم مِنَ اللَّذائذِ لهٰذه المُطالَعاتِ الَّتي هي جِنانيَّةٌ إلىٰ أرواحٍ قُدُسيَّةٍ وتَنزُّهاتٍ خُلْديَّةٍ تَتعجَّلُ للقلوبِ الصَّافيةِ ، وتَحظَىٰ بفَواضِلِ هٰذا[1] النَّعيمِ النُّفوسُ ؛ فتَعتَدِلُ صِفاتُها ، وتَنزِلُ مِنْ مُستَوعَرِ الأمَّاريَّةِ إلىٰ وِهادِ اللَّوَّاميَّةِ ، وتَنزِلُ في مَنازِلِ الطُّمأْنينةِ مُتَّصِفةً بصِفةِ القلوبِ[2] ، والقلوبُ مُتدانيةٌ مِنْ صِفةِ الأرواحِ ، ويكونُ الإحسانُ الأَزليُّ شامِلاً لأَجزاءِ العَبدِ المؤمنِ ؛ ظَاهرِه وباطنِه ، فطُوبَىٰ لهم ، ثمَّ طُوبَىٰ لهم .

---

(١) في الأصل : (هٰذه) .

(٢) إشارةٌ إلى الآياتِ الكريماتِ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف/٥٣] ، و﴿ ٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة/ ٢] ، و﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر/٢٧ ـ ٢٨] .

فَصْلٌ

[في أنَّ الذِّكرَ نتيجةُ الفِطرةِ ، والفكرَ نتيجةُ الخِلقةِ]

الذِّكرُ نَتِيجةُ الفِطرةِ ، والفِكرُ نَتِيجةُ الخِلْقةِ ؛ فدَوامُ الذِّكرِ والسَّيْرِ بمُلازَمةٍ نُقرِّبُ جائزَ الوجودِ مِنْ واجبِ الوُجودِ ، والخَفِيرُ في ذٰلكَ السَّيرِ : العقلُ الفِطريُّ ، فيَصِيرُ الذِّكرُ ذِكرَ الذَّاتِ ، وذٰلكَ مِعراجُ الأرواحِ وقابُ قوسَيْنِهِم ، ومِعراجُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومِعراجُ أتباعِهِ ، فيُعلِنُ عندَ ذٰلكَ الذَّاكِرُ بألَّا أعبُدَ رَبّاً لمْ أَرَهُ .

والفِكرُ نَتِيجةُ الخِلْقةِ ، فيؤلِّفُ ويُجمَعُ مِنَ المُكوَّناتِ والخَلقِ مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ والمُلكِ ، والخَفيرُ في ذٰلكَ : العقلُ الخَلْقيّ ، فتَنصَرِفُ في المكوَّناتِ حتَّىٰ تَقِفَ علىٰ كُنهِ المكوَّناتِ الَّذي مِيزانُهُ البُرهانُ ، فيَقضي بكُنهِ الأَفلاكِ والكَواكبِ وأجرامِ الأَفلاكِ .

فالسَّيرُ بنُورِ الفِطرةِ مُوصِلٌ إلى المكوِّنِ ، والسَّيرُ بالفِكرِ مُوصِلٌ إلى الكائناتِ باعتبارِها[1] مظهرَ نتيجةِ الفِطرةِ الَّتي تُقرِّبُ إلى المُكوِّنِ ، فتَظهرُ نَتِيجةُ الخِلْقةِ بالإحاطةِ بالمُكوَّناتِ .

فالأولُ حَظُّ الأنبياءِ وأَتباعِهِم حَسَبَ التَّفاوتِ بينَ الأَبرارِ والمُقرَّبِينَ ، ونَتِيجةُ الخِلقةِ هو حَظُّ الفلاسفةِ وحُكمائِهِم .

فمَراتبُ الخِلْقةِ وظُلمَتِها مُقسَّمةٌ إلىٰ طَبقاتِ الأَرَضِينَ ، ودَرَجاتُ الفِطرةِ مُقسَّمةٌ علىٰ طَبقاتِ السَّماواتِ .

فكلَّما نَضَوْتَ[2] بأكسَابِك القَلبيَّةِ والقالَبيَّةِ غِشاوةً خَلقِيَّةً : أطلقتَ مِنْ طَبقةِ

(١) في الأصل : (يعتبرها) .
(٢) أي : جردتَ وأزلتَ .

مِنْ طَبقاتِ خِلْقتِكَ المُتناسبةِ لطَبقةٍ مِنْ طَبقاتِ الأَرضِ ، وبحسَبِ ذٰلكَ لو بَقِيَتْ دَرجةٌ مِنْ درجاتِ الفِطرةِ المناسِبةِ لعُروجِ طَبَقةٍ مِنْ طَبقاتِ السَّماواتِ ، فتَستَحِقُّ أنْ يُنادِيَك لِسانُ اللُّطفِ الأزليِّ : إليَّ إليَّ يا عبدُ ؛ فالآثارُ الشَّرعيَّةُ مُصَفِّياتٌ عن لَوْثِ الخِلْقةِ ، ومُطهِّراتٌ عن دَرَنِ الجهالةِ ، ومُرَقِّياتٌ في دَرجاتِ الإيمانِ .

فإياكَ ثمَّ إياكَ أن تَغفُلَ عنِ اقتناءِ هٰذه المواهبِ الَّتي تَجمعُ لكَ مُتفرِّقاتِ السَّعاداتِ ، فشَمسُ الفِطرةِ طَلعَتْ مِنْ مَطلَعِ التَّعريفِ الإلٰهيِّ ، حيثُ قالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، فاستَنارتْ جُدرانُ بُنيانِ الخِلْقةِ ؛ فـ ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [1] ، نداءٌ أزليٌّ رَجَعَ صَدَاهُ مِنْ مُنقَعَرِ الخِلقةِ ؛ فصارَ بينَ الخِلْقةِ والفِطرةِ إسراجٌ مَستورٌ بأستارِ الغَيبِ ، حتَّىٰ تكوَّنَ آدمُ وحوَّاءُ ؛ ففُرِّقَ بينَ الفِطرةِ والخِلْقةِ ، فظَهَرَ لكلٍّ منها حِكمةٌ ، فصارَتِ الفِطرةُ كجِرمٍ نُورانيٍّ بمَثابةِ الشَّمسِ ، والخِلقةُ كجِرمٍ ظُلمانيٍّ بمَثابةِ القَمرِ ، فصارَ حُكمُ الخَلقِ في اختلافِ أحوالِهم كبقاءِ جِرْمِ القمرِ علىٰ هيئتِهِ واستِنارةِ بعضِ جِرمِهِ بنُورِ الشَّمسِ ؛ فعلىٰ هٰذا انقسَمَتِ الحُظوظُ مِنَ الفِطرةِ بينَ الخَلقِ ، وذٰلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ .

(١) سورة الأعراف : (١٧٢) .

فَصْلٌ

[في بيانِ تفاوتِ أفهامِ الخلقِ بحسبِ الاستعدادِ والحظِّ من اللهِ تعالىٰ]

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [1] إشارةً إلىٰ أنَّ أفهامَ خَلقِهِ أوعِيةٌ لشيءٍ مِنَ العِلمِ يُقسَمُ علىٰ قَدْرِ الِاستِعدادِ والحَظِّ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

ويُفهَمُ مِن ذٰلكَ : أنَّ لكلِّ سَماءٍ وسُكَّانِها عِلماً [2] ، وأنَّ للأَنبياءِ وأتباعِهِم عُروجاً رُوحَانياً [3] ، ولهم بحسَبِهِ فُهومٌ وحَظٌّ مِنَ عِلمِ كُلِّ سَماءٍ ، وأنَّ للهِ خَلقاً مِنْ عِبادِهِ أَسكنَهُم حَظائرَ الإِيمانِ مِنْ غيرِ عُروجٍ لبواطِنِهِم ورُوحانيَّتِهِم ؛ فمنهُم مُتحصِّنونَ بحِصنِ الإسلامِ ، لهم عُلومٌ أَبرَزَها [4] الحقُّ إليهِم ، وأثبتَها في عقلِهِمُ الَّذي هو غَريزةٌ يَتهيَّأُ بها دَرَكُ العلومِ ؛ وهو العقلُ الخَلْقِيُّ الَّذي يُشارِكُ فيهِ الفَلاسفةُ .

ولمَن مُنتهجٌ سَبيلَ الهُدَى اصطِلاحٌ ، وذٰلكَ الِاصطلاحُ مَقصورٌ علىٰ غيرِهِ ، بواطنُ لها عُروجٌ وقلوبٌ سَماويَّةٌ .

فالأَنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهم وأتباعُهُمُ الصِّدِّيقونَ لهمُ العُقولُ الفِطريَّةُ ، وإدراكٌ مِنْ عَظيمِ أَمرِ الحقِّ ، لهم قلوبٌ سماويَّةٌ ذاتُ مَعارِجَ رُوحانيَّة ، فربَّما قَضَتْ فُهومُ ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [5] ، كما أنَّ للإنسانِ مَشيئاتٍ مُتعدِّدةً يكونُ للهِ تعالىٰ مَشيئاتٌ غيرُ مُتَناهيةٍ مُستَنِدةٌ إلىٰ مَشيئةٍ واحدةٍ هي مِن لوازمِ الذَّاتِ ، ومِثالُ ذٰلكَ : كالإنسانِ لا يكونُ أباً في نَفسِهِ ، فإذا جاءَهُ وَلدٌ . . يُسمَّىٰ : أباً ، فإذا جاءَهُ ولَدُ الولدِ . . يُسمَّىٰ : جَدّاً .

---

(١) سورة الإسراء : (٨٥) .
(٢) في الأصل : (وسكانه علم) .
(٣) في الأصل : (عروج روحاني) .
(٤) في الأصل : (أبرزه) .
(٥) سورة الرحمٰن : (٢٩) .

فعندَ ذٰلكَ يُقالُ : ما سَمَّيتُموه العلَّةَ الأُولىٰ . . هي قضِيةُ مَشيئةٍ واحدةٍ ، فيَبقى الفلاسِفةُ صِفرَ اليَديْنِ مِنْ عَوالمَ في طَيِّ الغُيوبِ ، ما مرَّ بمَشامِّهِم منها نَسْمَةٌ ، انتَهىٰ عِلمُ الخلائقِ كُلِّهِم ـ حتَّى المُتكلِّمينَ والفلاسِفةِ ، وكلِّ ذي فَهمٍ ـ إلىٰ إثباتِ مَوجودٍ ذاتاً وصِفاتٍ ، حَصَرَها المتكلِّمونَ في عَددٍ ، ونَفَوها الفَلاسِفةُ ، وانغَلقَ بابُ الفَهمِ ، وضَاقَ وِعاءُ النَّفسِ النَّاطقةِ الإنسيَّةِ عمَّا وراءَ ذٰلكَ ، وهٰكذا سُكَّانُ السَّماواتِ السَّبعِ ، بعُلومٍ مُتفاوتةٍ بتفاوتِ دَرجاتِ السَّماواتِ .

واستَقلَّ البارئُ بأُمورٍ ما تَسَعُ الكَائناتِ مِنْ خَلقِهِ ، فهلْ ثَمَّ إلَّا العَجزُ والِانقطاعُ واليأسُ مِنْ إدراكِ كُنهِ الأَزَلِ والأَزليِّ سُبحانَهُ وتعالىٰ ؟

ليلُ الأزليَّةِ [1] والأَبَدِ ما تنفَّسَ صُبحَهُ الذي فكَّرَ ونظرَ .

فليَعمَدِ العاقلُ المُوفَّقُ إلىٰ مُتابعةِ الأَنبياءِ المُستَقلِّينَ بعِلمٍ رَبَّانيٍّ مَلَكوتيٍّ عِنانُهُ ، وصرفُهُ علىٰ قَدْرِ فُهومِ الخَلقِ ، عن بَصيرةٍ مَوهوبةٍ لهم مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فأَقاموا رسُومَ الآخرةِ بما يُصيِّرُ الخَلقَ ، فهم خُزَّانُ عِلمِ اللهِ تعالى المقسِّمونَ عليهِم في كلِّ عَصرٍ وزمانٍ بما تَقتَضِيه الحِكمةُ البالغةُ ، نتائجَ مِنَ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [2] .

وهٰذا اطِّلاعٌ إلٰهيٌّ علىٰ أَفواهِ الفُهومِ ، قاضٍ عليهِم بالعَجزِ عنِ الإدراكِ ، والعَجزُ عن دَرَكِ الإِدراكِ إدراكٌ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في الأصل : (الأزلي) .

(٢) سورة الملك : (٣ ـ ٤) .

فَصْلٌ

[في صورِ الوحي]

اعلمْ : أنَّ نبيَّنا صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ تعدَّدَتْ لهُ أبوابُ الغَيبِ ؛ فتارةً يتبدَّىٰ لهُ جَبرَئيلُ أَمينُ الوَحيِ في صورةِ بَشَرٍ مُتلبساً بلباسِ عالَمِ الحِكمةِ ، قالَ اللهُ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[(١)] .

وتارةً وَحياً كِفاحاً بغيرِ واسِطةٍ ؛ ويكونُ ذٰلكَ عندَ التَّجرُّدِ عن ملابسِ الخِلْقةِ ، والانغِماسِ في بحارِ نُورِ الفِطرةِ ، فيَرِدُ عليهِم وارِدٌ مِنْ آثارِ الجَلالِ الأَزليِّ ؛ فيكونُ قابَ قوسينِ أو أدنىٰ ، فإياكَ أن تحومَ حَولَ حِمَى الحلولِ ؛ فتكونَ لاهوتيّاً كالنَّصارَىٰ ، ولٰكن يكونُ لآثارِ واجبِ الوجودِ عكسٌ في مِرآةِ جائزِ الوجودِ ، وجلَّت آثارُ الجلالِ أن تحُلَّ في جَسدٍ ، كما لا تحُلُّ الصُّورةُ المُنعكِسةُ في المِرآةِ .

وتارةً يكونُ بالنَّفثِ في الرُّوعِ ؛ وهو وارِدٌ إلٰهيٌّ يجري أثرُهُ في الدِّماءِ والأَبشَارِ فينتقشُ منهُ أَثرُهُ في لَوحِ الرُّوحِ ، فيبرُزُ منهُ فَهمٌ إلى القَلبِ ، ويبرزُ منهُ إلى الكَونِ عِلمٌ مُنتفَعٌ بهِ لصَلاحِ وإتمامِ السِّياسةِ النَّبويَّةِ التي تتربَّىٰ بها[(٢)] الأُمَّةُ لصَلاحٍ عَائدٍ لهُم .

وتارةً يُعرِّفُهُ الحقَّ بطَريقةِ مَنْ صَحِبَهُ ؛ لأنَّ بَواطِنَهُم تنوَّرَتْ بنُورِ الوَحيِ ، وسَرَىٰ إليهِم مِنْ برَكةِ النُّطقِ النَّبويِّ ، فلمَّا تنوَّرَتْ بواطِنُ أَصحابِهِ ، وتشرَّبَتْ نضَارةُ الوحيِ المُنعكِسِ في قلوبِهِم مِنْ نَفَسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . صارَتْ مُستَودَعَ العلمِ المُستمَدِّ مِنْ كلماتِ اللهِ التي تُستنزَلُ[(٣)] بالتقوَىٰ ، والزُّهدِ في الدُّنيا ، ودوامِ الإقبالِ على اللهِ تعالىٰ .

---

(١) سورة الأنعام : (٩) .

(٢) في الأصل : (به) .

(٣) في الأصل : (يستنزل) .

وكانَ يردُ عليهِم أمورٌ غَيبيَّةٌ في مَنامِهِم [1] ، ويقولُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَىٰ رُؤْيَا ؟ » [2] ، فيستطلِعُ أمورَ الحقِّ وتعريفاتِهِ بما يَرَوْنَ في مَنامِهِم .

وإذا شاوَرَهم في الأَمرِ حسَبَ ما أمَرَهُ اللهُ تعالىٰ . . يَستطلِعُ الصَّوابَ مِنْ نُطقِهِم ومَشُورتِهِم ، فيصيرُ لهُ باباً مِنَ المُكالمةِ والمُحدَّثيَّةِ .

فكما تعدَّدَتْ أَبوابُ تعريفاتِهِ . . تعَدَّدت مَراتبُ دَعوتِهِ ، قالَ : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [3] ؛ ببصيرتِهِ النَّافذةِ التي أَشرَقْتَ بها علىٰ كُنهِ الاستعدَاداتِ ، مِنْ باطنٍ مُستَعدٍّ للإيمانِ ، ومُستعدٍّ للإتقانِ ، وباطنٍ مُستعدٍّ للإحسانِ ، بلِ البواطنُ متفاوتةُ الحظِّ مِنْ علمِ اليقينِ وعينِ اليقينِ ، ولذٰلكَ انقَسَمَتْ تلكَ الاستِعداداتُ إلى : المُقرَّبين ، والأَبرارِ ، وعامَّةِ المُؤمنين ، وإلىٰ أربابِ الصِّيانةِ من أَهلِ الإسلامِ المُسلمين ، فكانَتْ [4] دَعوتُهُ علىٰ قَدْرِ العقولِ والفُهومِ .

ويدعو بلسَانِ الحِكمةِ أَربابَ فَهْمِهِ الذين يتشرَّبُونَ [5] أَثرَ الدَّعوةِ بالرُّوحِ والقَلبِ والنَّفسِ .

وبالمُجادلةِ ليَستخرجَ عفونةَ جَهلِ النَّفسِ ، كما يُستخرَجُ أَثرُ العفوناتِ مِنَ الجلودِ بأَدويةِ الدِّباغِ .

هٰذا شغُلُ الأَنبياءِ في أَمرِ الحقِّ .

والخَلقُ يمتاحُونَ مِنْ بَحرِ العِلمِ دُررَ الاستعدادَاتِ ، وكلَّما غَشِيَتْ آثارُ

(١) في الأصل : (ملامهم) .
(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٦) ومسلم (٢٢٧٥) من حديث سيدنا سمرة بن جندب رضي الله عنه .
(٣) سورة النحل : (١٢٥) .
(٤) في الأصل : (فكان) .
(٥) في الأصل : (الذي يتشرب) .

البشريَّةِ بما يُعيرُهُم فتورٌ . . يُنارُ لهُم مِنْ آثارِ الهَيبةِ ، فيذوبونَ بصِدقِ الضَّراعةِ ذَوَباناً يضمَحلُّ بهِ وجودُهُم وتتضاءَلُ نفوسُهُم ، ويُفنيهِم فناءً محتاجاً إلىٰ إنشاءٍ جَديدٍ ، فيُنشئُهُم كما أفناهُم ، ويُعيدُهُم كما كانوا[1] ، ويزيدُهُم فَهماً ، ويُفيدُهم مَزيداً ، ولهـٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُّ يَوْمٍ لَمْ أَزْدْ فِيهِ عِلْماً . . فَلَا بُورِكَ لِي فِي صَبِيحَةِ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ »[2] ، ذكَرَ اليومَ علىٰ فهومِ المُستَمِعينَ ، وإلَّا . . فالعِلْم ينمو فيه مُقترناً بالأنفاسِ كنموّ الغَرسِ لصَلاحيَّةِ المَنبِتِ .

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ أَودَعَ قلوبَ علماءِ الأُمَّةِ معَ تقلُّبِ أَطوارِ الأعصارِ ، ببركَةِ ما كانَ نَزَلَ قلبَهُ المُطهَّرَ مِنَ القرآنِ المَجيدِ ، ولا يزالُ يَسري نُورُها اللائِحُ آثارُهُ علىٰ جُدرانِ جَنانِ أَهلِ الإيمانِ مِنَ الأُمَّةِ كبقيَّةِ نُورِ الشَّفَقِ على الجُدرانِ مِنْ آثارِ نُورِ الشَّمسِ ، ويبقَىٰ ذٰلكَ إلىٰ آخِرِ عَهدِ الدُّنيا ، فإذا غابَ الشَّفقُ . . قامَتِ القيامةُ ، ثمَّ تتكَاشَفُ حالٌ مِنَ المنزِليْنِ وغياهِبِ الكَونيْنِ ، إلىٰ أنْ يطلُعَ صَباحُ الفطرةِ ، ويُميِّزَ نُورُ الإرادةِ الأَزليَّةِ بينَ وجوهٍ مُظلمةٍ ووجوهٍ عليها غبرةٌ ، ترهقُها قترةٌ ؛ فيُسكِنُهُم منازلَ القَهرِ ، وبينَ وجوهٍ مُسْفِرَةٍ ، ضاحكةٍ مستبشرةٍ ؛ فيُسكنُهُم منازلَ النَّعيمِ المُقيمِ .

والفلاسفةُ أَربابُ القَهرِ المُنغمسونَ في بحورِ الضَّلالاتِ ، وأَوردَ الحقُّ عليهِم عِلماً مِنْ خِزانةِ القَهرِ الأَزليِّ ، وشَحَذَ أَلسنتَهُم بالنَّشرِ والتَّصديقِ ، وأَطلقَ يَدَهُم للتَّثبُّتِ في الطروسِ ، وجَدَّدَ قومٌ بعدَ قومٍ بفهومٍ مُستمَدَّةٍ ، حتى انتهَتْ علومُهُم إلىٰ غاياتِها مِنْ علمِ الهندسةِ وإقليدِسَ المُستعانِ بهِ علىٰ علمِ الهيئةِ ومعرفةِ أَبعادِ الأفلاكِ مِنَ الأَرضِ الكُريَّةِ الخِلْقةِ بزَعمِهِم وسَيرِ الكَواكبِ وتأثيراتِها ، وتوابعِ ذٰلكَ مِنْ علومِ النّجومِ والطِّبِ ، وتشعُّب علمِ الطِّبِّ إلىٰ : علمِ التشريحِ ، وطِباعِ الأدوِيةِ ، وإلىٰ غيرِ ذٰلكَ ، فهم في شُغُلٍ شاغِلٍ وأَمرٍ هائلٍ ليسَ تحتَهُ طائلٌ ، لا

---

(١) كلمة (كانوا) : زيادة يستدعيها السياق .

(٢) أخرجه ابن راهويه في « المسند » (١١٢٨) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، بنحوه .

يَفرُغونَ للهِ تعالىٰ ، ولا لمعرفةِ نفوسِهِم ، فهُم جُهَّالٌ باللهِ تعالىٰ وبأنفُسِهِم ، عالمونَ بعالَم المُلكِ والأَجرامِ ، فرفعوا بذٰلك عَلَماً مِنَ الجَهلِ وسَمَّوهُ : عِلماً وحِكمةً ، وأَحبُّوا أنْ يتسوَّروا إلىٰ منَازلِ المُرسَلينَ تموِيهاً وزوراً ، فكانَتْ[1] كلمةُ المُبطِلينَ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثَّتْ مِنْ فوقِ الأَرْضِ ما لها مِنْ قرارٍ .

* * *

(١) في الأصل : (فكان) .

فَصْلٌ

[في بيانِ مذهبِ المؤلفِ رحمَهُ اللهُ من منعِ التأويلِ في الذاتِ وجوازِهِ في الصفاتِ]

أَعتَذرُ إلىٰ إخواني مِنَ الحنَابلةِ مِنْ أَهلِ الكِتابِ والسُّنةِ بتبيينِ ما سَبَق في بعضِ فصولِ هٰذا الكتاب « أَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ »[1] ، وقولي : للصُّورةِ معنىً ، وللمَعنىٰ صُورةٌ ، معَ موافقَتي أَهلَ الكتابِ والسُّنةِ في تَركِ التأويلِ[2] .

اعلمْ : أنِّي أَقولُ : إنْ كانَتِ[3] الإشارةُ في ذٰلكَ إلى الذَّاتِ . . فيُجرى الأمرُ كما وَرَدَ ؛ إذْ حَريمُ الأزليِّ مَصُونٌ مُنزَّهٌ أنْ يطوفَ بِهِ طَائفُ التأويلِ ، إذْ هي كما جاءَتْ .

وإنْ نزَلْنا إلىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ آدمَ علىٰ صُورتِهِ ، وأَوَّلناهُ بالصِّفاتِ السَّبعةِ . . هو تأويلٌ صحيحٌ ، لا يقدَحُ في إجراءِ الخبرِ علىٰ ما جاءَ ، ولا ينزلُ حيِّزَ التأويلِ ؛ لأنَّهُ مُنزَّهٌ مِنْ كلِّ حيِّزٍ .

وأمَّا الصِّفاتُ : فيمتدُّ إليها باعُ التأويلِ ؛ وفاءً بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[4] ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ آدمَ ، وأودَعَ فيهِ صفةَ العِلمِ ، لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[5] ، وأودَعَ فيهِ الإرادةَ والقُدرةَ والسَّمعَ والبَصَرَ والكَلامَ ، ولولا إيداعُ هٰذه الصِّفاتِ فيهِ . . ما جاءَ منهُ عِمارةُ الدُّنيا ، ولا كانَ خَليفةَ اللهِ ، وما خُصَّ بالتَّمليكِ والتَّسخيرِ اللذيْنِ هما صِفةُ الحقِّ ، فهٰذا تفرُّدٌ بالكَرامةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[6] ؛ لِما مَلَك التمليكَ والتَّسخيرَ باللهِ تعالىٰ على الإطلاقِ .

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٤٤) .

(٢) انظر (ص ٢٥٥ ـ ٣٢٧) .

(٣) في الأصل : (كان) .

(٤) سورة البقرة : (٣٠) .

(٥) سورة البقرة : (٣١) .

(٦) سورة الإسراء : (٧٠) .

وأمَّا الملائكةُ : فيُوجَد فيهِم شيءٌ مِنْ هٰذهِ الصِّفاتِ عندَ ورودِ الأَمرِ عليهِمْ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [١] ، علَّق الأَمرَ على الفَهمِ في صحونِ التسخيرِ الأَزليِّ مَثْنىٰ وثُلاثَ ورُباعَ .

٭ ٭ ٭

---

(١) سورة النحل : (٥٠) .

فَصْلٌ

[في ذكرِ شيءٍ من غرائبِ الأسرارِ]

خفِيُّ أَسرارِ اللهِ تعالى المُودَعةِ في قلوبِ خَواصِّ عبادِهِ . . بحُكمِ أمورٍ غابَتْ عن الخَلقِ ، والحقُّ أَطلَعَ عليها مَنْ شاءَ مِنْ عبادِهِ ، لا تحويها آراءُ الفلاسفةِ ، وهم عندَ الأنبياءِ جَهَلةٌ ما لهمُ اطِّلاعٌ ، ولا سَمعٌ يَسمَعُ ، ولا بَصَرٌ يُبصِرُ .

فمِنْ غَرائبِ الأَسـرارِ : هو أنْ يُعلَمَ أنَّ الإنسانيّةَ مبنيَّةٌ على الحيَوانيَّةِ ، والحيَوانيَّةُ وعاءُ الإنسانيَّةِ ، والإنسانيّةُ لمَّا نَزَلَتْ منازِلَ الحيَوانيَّةِ . . فُرِّقَ بينَ الإنسانيَّةِ والحيوانيَّةِ بامتدادِ القالَبِ الإنسانيِّ [١] إلى العلوِّ ، والحيَوانُ منهُم مَنْ يمشي علىٰ بَطنِهِ ، ومنهم مَنْ يمشي علىٰ رِجْلَيْنِ ، ومنهم مَنْ يمشي علىٰ أربَعٍ ، فكانَ امتدادُ القالَبِ الإنسانيِّ إلى الأَعلىٰ حُنُوّاً وتشَوُّقاً إلى اللهِ تعالىٰ ، فكانَ هٰذا مِنْ خاصيَّةِ نُورِ الفِطرةِ .

وقضىٰ ذٰلكَ الامتدادُ للحُنُوِّ والتشوُّقِ إلى الحقِّ ، فأَدركَ بنورِ الفِطرةِ علوماً لا يُدرِكُها البرهانُ ، وبذٰلكَ العَيشَ بعدَ الموتِ ؛ لأَنَّ بعدَ الموتِ حُكمَ الإنسانِ حُكمُ الفِطرةِ ، وتصيرُ الوِلايةُ الإنسانيةُ حينئذٍ لنورِ الفِطرةِ ، ونورُ الفِطرةِ يَحكُمُ بعدَ الموتِ ؛ فأَهلُ الجنَّةِ يتنعَّمونَ بالنعيمِ الرُّوحاني غيرِ المعنَوي ، بلْ مُجسَّدٌ بأَنْهَارٍ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُه ، وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، كلُّ ذٰلكَ مُجسَّدٌ تجسُّداً [٢] رُوحَانيّاً كتجسُّدِ الكَائناتِ في مُدَّةِ عَيشِ الدُّنيا ، ولأَهلِ [٣] النَّارِ عذابٌ مجسَّدٌ مِنْ الأَنكالِ والأَغلالِ ونُضجِ الجلودِ ، كلُّ ذٰلكَ مُجسَّدٌ .

---

(١) في الأصل : (الإنسانية) .

(٢) في الأصل : (تجسد) .

(٣) الواو يقتضيها السياق ، وليست في الأصل .

والنَّفسُ لا تَبقىٰ مُعطَّلةً مسلُوبةَ الإدراكَاتِ ؛ بلْ لها إدرَاكاتٌ حسَبَ تكوُّنِها ، فيكونُ في البرزَخِ إدراكٌ ، وتكوينٌ عندَ نفْخِ الصُّورِ ، وتكوينٌ في يومِ العَرضِ والنُّشورِ ، وتكوينٌ إمَّا في النَّعيمِ المُقيمِ أو في العَذابِ والجَحيمِ .

وسؤالُ مُنكَرٍ ونَكيرٍ وضَغطةُ القَبرِ لا تختصُّ بالشِّقِّ واللَّحدِ ؛ فالقبورُ مواردُ يرِدُها الخَلائقُ ، وقدْ يكونُ منها بطونُ الحِيتانِ والسِّباعِ لأَجزاءٍ متفرِّقةٍ ولحومٍ ممزَّقةٍ .

والرُّوحُ الحيوانيُّ ـ الذي هو : النَّفسُ ـ لهُ تعلُّقٌ بأَجزاءِ القالَبِ ، ويجتمِعان بنفخِ الصُّورِ للبعثِ والنُّشورِ .

وكلُّ هٰذهِ عقوباتٌ أُخْرويَّةٌ وابتلاءَاتٌ إلٰهيَّةٌ ، لحِكمةٍ بالغةٍ لا تُدرِكُها العقولُ الخَلْقيَّةُ ، بلْ تُدرِكُها العقولُ الفِطريَّةُ ، كما تنَوَّرَتْ حاسَّةُ إبراهيمَ بنُورِ الفِطرةِ حتىٰ رأَى الأَجزاءَ والعِظامَ تأتلفُ عِياناً .

فمَنْ يُخيَّلْ لهُ أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ وما وُصفَ فيهما مِنَ النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ معنَويٌّ ، وتَأَوَّلَ بعقلِهِ علىٰ ما هو غيرُ مذكورٍ في القرآنِ . . فهو كافرٌ .

فالإنسانُ كما لهُ في هٰذه الدُّنيا تكوينٌ ، ولهُ بحسَبِهِ فَهْمٌ في البرزَخِ والقيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ ، ولهُ تكويناتٌ متعدِّدة ، وفي كلِّ تكوينٍ لهُ معلومٌ ومفهومٌ ، ولهٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلنَّاسُ نِيَامٌ ، فَإِذَا مَاتُوا . . ٱنْتَبَهُوا »[1] ، يدُلُّ علىٰ أنَّ للإنسانِ كَوناً بعدَ الموتِ .

وقدْ وَرَدَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُكالمةُ المَوتىٰ ببَدرٍ ، فقالَ عمرُ : تُخاطبُ أَجساماً لا رُوحَ لها ؟! فقالَ : « وَٱلَّذِي بَعَثَنِي بِٱلْحَقِّ نَبِيّاً ؛ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ لِكَلَامِي »[2] .

---

(١) هو أثرٌ يُعزَىٰ إلىٰ بشر بن الحارث كما في « حديث أبي الفضل الزهري » (٦٧٠) ، أو سفيان الثّوري كما في « حلية الأولياء » (٥٢/٧) ، أو يونس بن عبيد كما في « إحياء علوم الدين » (٢١٤/٣) ، أو علي بن أبي طالب كما في « الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة » للسيوطي (ص ١٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٧٦) من حديث سيدنا أبي طلحة رضي الله عنه ، ومسلم (٢٨٧٣) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

فيا عالِماً بطَوْرٍ مِنَ الأطوارِ ، وهُو طَورُ أيَّامِ الدُّنيا ؛ تيقَّنْ أنَّهُ ينغسِلُ آثارُ دِرايتِكَ بالمَوتِ الطَّبيعيِّ ، واللهُ سبحانَهُ يُنشِئُ لكَ أطواراً بعدَ الموتِ الطَّبيعيِّ .

وقدِ اعترفْتَ ببقاءِ النَّفسِ النَّاطقةِ بعدَ دُثورِ القالَبِ ؛ فما تنكرُ أنْ يكونَ لكَ في البرزَخِ طَوْرٌ ؟ ولٰكنْ بحسْبِهِ دِرايةٌ وفَهمٌ .

وقدْ نَبَّهَكَ الحقُّ بأُنْموذَجٍ مِنْ ذٰلكَ ؛ بما فتح لكَ باباً مِنْ طَريقِ النَّومِ ، وأَطلَعَكَ علىٰ غيرِ ما استصحبتَهُ في حالِ اليقَظةِ .

فالحقُّ تعالىٰ أَنشَأَ في كلِّ طَورٍ لكَ تكويناً جديداً ، ولكَ بحَسَبِهِ علمٌ ، ونفسُكَ متَّصلةُ الأَطنابِ إلى الآبادِ ، وتعرِّفُ عقلَكَ وفَهمَكَ فيما يَرتقِي فيهِ مِنْ أَنواعِ النَّعيمِ ، وتعرجُ فيهِ علىٰ مَراقِي اللُّطفِ الأَزَليِّ ، وكذٰلكَ تعرفُ ما يهبِطُ فيهِ في دَرَكاتِ القَهرِ الأَبَديِّ ، ولكَ تماثيلُ قَهريَّةٌ[1] تنبُعُ مِنْ ينابيعِ القَهرِ الأَزليِّ ، ولكَ بحَسَبِها فَهمٌ مِنْ أَنواعِ القَهرِ والعَذابِ ، ممثَّلٌ مِنَ النَّارِ والحيَّاتِ والعَقاربِ والأَنكالِ .

فسُبحانَ مَنْ أَعمَىٰ بصائرَ الفَلاسفةِ حتىٰ حصَلوا في الشَّقاءِ الدَّائِمِ ، والرُّسلُ وأتباعُهم بفضلِ اللهِ تعالىٰ في النَّعيمِ المُقيمِ !

فحالُ الفريقيْنِ ينتهي الأَمرُ فيها على الصِّفتينِ مِنْ صفاتِ الحقِّ ، وهما : صفةُ اللُّطفِ ، وصفةُ القَهرِ ؛ إذِ الكمالُ الأَزليُّ اقتضَىٰ ذٰلكَ ، فكانَ لكُلِّ وَصفٍ أثرٌ في الكَونِ .

فمِن أَثرِ الوَصفيْنِ ظهَرَ زُمْرَتا الحقِّ والبَاطِلِ .

ولكلٍّ مِنَ الأَمريْنِ طَريقٌ سَلكوهُ ، ومَصيرٌ صاروا إليهِ ، وأَسَاسٌ بنَوْا عليهِ ، فطَريقُ الأَنبياءِ وأَتباعِهم : السَّيرُ في عالَمِ الغَيبِ ، والإيمانُ بهِ ، والاطِّلاعُ عليهِ ،

---

(١) في الأصل : (قهري) .

فعالَمُ الغَيبِ فيهِ مِنَ القُدَرِ والعَجائبِ ما لا عَينٌ رأَتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، مِنَ النَّعيمِ المُقيمِ والعَذابِ الأَليمِ ، فالاطِّلاعُ علىٰ كُنهِ ذٰلكَ وغايتِهِ موقوفٌ على الموتِ الطَّبيعيِّ ، فللرُّسلِ وأَتباعِهِم حظٌّ وافرٌ مِنَ اليقينِ ، والعلمِ باللهِ وآياتِهِ وقُدَرِهِ .

ولكلٍّ مِنَ الفريقيْنِ حَظٌّ مِنَ العلمِ يوصلُهُم إلى النَّعيمِ المُقيمِ ، وللآخَرينَ حظٌّ مِنَ العلمِ ينتهي بهِم إلى العَذابِ الأَليمِ .

وللطَّائفتينِ أيضاً كُتُبٌ أَتتْهُم مِنْ ربِّهِم علىٰ لِسانِ الرُّسلِ ، تتضمَّنُ أَخباراً[1] غَيبيَّةً بلُغاتٍ غَيبيَّةٍ ، وللآخَرينَ كُتُبٌ أَنتجَتْها أفكارُهُم وشعَّبتْها لهُم .

والعِلمانِ جميعاً أَدرَكتْها النفوسُ النَّاطقةُ التي أَلهَمَها اللهُ فجورَها وتقوَاها ، والكلُّ مِنْ عندِ اللهِ ، يُضِلُّ بهِ مَنْ يشاءُ ويَهدي بهِ مَنْ يشاءُ ؛ وفاءً لصِفتَي اللُّطفِ والقَهرِ .

والعقلُ مَناطَ التكاليفِ مِنَ الأَمرِ والنَّهْيِ . . حُجَّةُ اللهِ البَاطنةُ ، كما أَنَّ الكتُبَ حُجَّةُ اللهِ الظَّاهِرةُ .

واللهُ تعالىٰ بقُدرتِهِ وسَابقِ مَشيئتِهِ كوَّنَ الإنسانَ مُشتملاً على الصِّفتَيْنِ المُتضادَّتيْنِ المُنقَسِمتيْنِ إلى : الشَّرَهيَّةِ والغَضَبيَّةِ ، وهما آيةُ كَرامةِ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ ، بخِلافِ الأَملاكِ ؛ لأنَّ منهُم أَملاكَ الرَّحمةِ ، ومنهم أَملاكَ الغَضبِ ، فرِضوانُ ومالكٌ رَشْحا اللُّطفِ والقَهرِ ، وخازِنا دارِ النَّعيمِ والعَذابِ الأَليمِ .

والإنسانُ لمكانِ أَهليَّتِهِ لخِلافةِ اللهِ في الأَرضِ نُسِخَ في تكوينِهِ هاتانِ الصِّفتانِ عندَ التسويةِ والتَّخميرِ ، ونُصِبَ فيهِ كُرسِيُّ التَّخلُّقِ بأَخلاقِ اللهِ ، وعُلِّمَ الأَسماءَ كُلَّها ، بإطلاعِهِ علىٰ سبيلِ الهُدىٰ والضَّلالِ ، وجُعلَ خازنَ مفاتيحِ دارِ

---

(١) في الأصل : (اختباراً) .

السَّعادةِ ودارِ الشَّقاوةِ ، وظَهَر فيهِ سرُّ « كُنْتُ كَنْزاً لَا أُعْرَفُ »[1] ، وسرُّ « لَا أَجْعَلُ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ كَمَنْ لَا أَخْلُقُهُ »[2] .

كذٰلك اقتضَى الكمالُ الأزليُّ أنْ يكونَ لكمالِ جَلالِهِ بواطنُ تَرُدُّ صَدىٰ نِدائِهِ ، وعُبَّادٌ يقيمونَ رسومَ كِبريائِهِ ؛ مِنَ التقلُّبِ علىٰ فُرُشِ التَّذلُّلِ وَفاءً لحقِّ عظَمتِهِ ، ببواطِنَ تكونُ مَحاقِنَ فَضَلاتِ أوشالِ بحرِ عِلمِهِ ؛ ليظهرَ آثارُ جمالِ كمالِهِ في مرآةِ قلبِ كلِّ حَسيبٍ ، بعلمٍ يُودِعُهُ في كلِّ أَريبٍ ؛ لتمتلئَ بحورُ الوجودِ وتهائمُ العَوالمِ مِنْ آثارِ قُدرَتِهِ وكِبريائِهِ ، وتكونَ ذرَّاتُ الكائنات سائرُها عرشَ التَّجلِّي لآثارِ جَلالِهِ مُبينةً عن كِبريائِهِ وكَمالِهِ .

وللهِ سبحانَهُ معَ الرُّسلِ أَسرارٌ ومُناجاةٌ ، ومُسامراتٌ ومُناغَاةٌ ، يومئُ إليهم بواسطةِ المَلَكِ تارةً وبغيرِ واسطةِ المَلَكِ تارةً ، ويُوسِّعُ أوعيةَ قلوبِهِم وعرصةَ مُناجاتِهِم ، فيُخبرُهُم بما يزدادونَ عِلماً ، ويُنبئُهُم بما هو لا علمَ بهِ منهُم ، فيزدادونَ تذلُّلاً وعبوديَّةً ، واضمِحلالاً مِنْ آثارِ الإلٰهيَّةِ ، فيُنشئُهُم نَشْئاً مُستَجِدّاً بما يُهدِي إليهِم مِنْ مَزيدِ العِلمِ .

دَعَانِي عَنِ ٱللَّوْمِ ٱلْمُضِرِّ وَسَاعِدَا ... عَلَىٰ وَامِقِ ٱلنَّجْوَى ٱلْحَبِيبُ دَعَانِي
بِرِيقِ عَنَانِي دُونَ صَحْبِي وَرُفْقَتِي ... شَرِبْتُ وَفِي كَفِّ ٱلْغَرَامِ عِنَانِي[3]

الحَكيمُ الذَّكيُّ ؛ هل للبُرهانِ ها هنا مجالٌ ؟ وهل للتصوُّرِ والتصديقِ ها هنا شُغُلٌ ؟

ارتقِ بوَهمِك إلىٰ سَطحِ[4] فَلَكِ البُروج ، وسِرْ بقَدمِ فكرِك في ذٰلك الفَسيحِ ، فانظرْ هل ترىٰ بعدَه وَطناً معموراً ومَنزلاً معهوداً ؟ لا ، بل انتهىٰ فَهمُك وعِلمُك ؛

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠٩) .

(٢) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٣/٦٥٨) (١٤٥٨٤) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، ولفظه : « لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيديَّ كمن قلت له : كن ؛ فكان » .

(٣) البيتان من الطويل .

(٤) في الأصل : (شطح) .

لا تدري أنَّ وراءَ تلك[1] البروجِ مَنازلَ ما عَرَفتَها ولا أَدرَكتَها ، فلو كنتَ ذا عقلٍ لقُلتَ : [من الكامل]

لَـكِ يَـا مَـنَـازِلُ فِـي ٱلْـفُـؤَادِ مَـنَـازِلُ أَقْـفَـرْتِ أَنْـتِ وَهُـنَّ مِـنْـكِ أَوَاهِـلُ[2]

فهٰذه آثارٌ انكشَفَتْ مِنْ عظيمِ أَمرِ النّبوّةِ ، وشاعَتْ بكَثرةِ الأَتْباعِ التي زيَّنَتِ المُلكَ والملَكوتَ ، والغَيبَ والشَّهادةَ ، ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[3] .

ولمَّا قالَ الكفَّارُ : إنَّ محمداً أَبترُ . . رَدَّ اللهُ عليهِم بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾[4] ، إشارةً إلىٰ أنَّ العُلماءَ ـ الذينَ هم معادِنُ العِلمِ للظَّاهرِ والباطنِ مِنْ علومِ الشَّريعةِ والحقيقةِ ـ علومُهُم بمثابة شجرةِ طُوبىٰ ، لها في كلِّ قلبٍ شُعاعٌ ، وفي كلِّ عقلٍ اتّساعٌ ، كلُّ ذٰلكَ مِنْ آثارِ عنانِ الأَنبياءِ ، فلهمُ انغماسٌ في بحرِ الإنابةِ ، وتغييبٌ في تُخومِ الضَّراعةِ ، واضمِحلالٌ تذوبُ منهُ البقايا الوجوديَّةُ ، فينشئُهمُ اللهُ واهِبُ الصُّورِ والوجودِ والعلومِ إنشاءً ، ويُلبِسُهُم ملابسَ علميَّةً محيطةً بشيءٍ مِنْ أَسرارِ المُلكِ والملَكوتِ ، ويكونُ ما يُلبِسُهُم مِنْ دَقيقِ حُلَّةِ جِنانِهِ يزهو بهِ اللابِسُ في رِياضِ الأُنسِ ، تزدادُ بها رُوحُهُ روحاً ، وينمو بها نُمُوّاً .

والفلاسفةُ ما لهم رَبٌّ فعَّالٌ[5] قادِرٌ سَميعٌ بصيرٌ عالمٌ مُريدٌ ، بلْ لهُم عَمياءُ مِنْ علَّةِ العِللِ ، محبوسةٌ في حِصنِ العَقلِ الخَلقيِّ ، برؤوسٍ مملوءةٍ[6] مَشحونةٍ بالغُرورِ ، ولا بعثَ ولا نشورَ ، ولا جنَّةَ ولا نارَ ، ولا صِراطَ ولا مِيزانَ ، إلَّا يدُ

---

(١) في الأصل : (ذٰلك) .
(٢) البيت للمتنبي ، وهو بيتٌ مشهورٌ سائر . انظر « ديوانه » (ص ١٣٧) .
(٣) سورة إبراهيم : (٢٤) .
(٤) سورة الكوثر : (٣) .
(٥) في الأصل : (فقال) .
(٦) في الأصل : (مملوءة من) .

فكرٍ مُعلَّقٌ فيها مِيزانُ البرهانِ ، فإذا هبَّتْ عواصِفُ الموتِ الطَّبيعيِّ . . تطيرُ اليدُ والمِيزانُ ، وتطلُعُ طَلائعُ الكَشفِ والعِيانِ ، وينهزمُ جنودُ البُرهانِ ، ويُمزَّقُ دستورُ الحسبانِ ، وبدا لهم مِنَ اللهِ ما لمْ يكونوا يحتسبونَ .

ويبقَى الحَكيمُ صِفرَ اليَديْن ، بلا أَثرٍ ولا عَيْنٍ ، وتُدحَضُ حُجَّتُهُ ، وتتعامَىٰ مَحجَّتُهُ ، ويَفنىٰ تصوُّرُهُ وتصديقُهُ ، ويبطلُ تحقيقُهُ وتدقيقُهُ ، فأولئكَ ضلَّ سعيُهُمْ في الحياةِ الدنيا وهُم يحسبونَ أنَّهُم يحسنونَ صُنعاً ، وعندَ ذٰلكَ يطلُعُ عَلَمُ العِيانِ منشُورَ الأَهدَابِ ، ويُنكَّسُ عَلَمُ البُرهانِ مُغيَّباً تحتَ أَطباقِ الترابِ .

تمَّ الكتابُ بعَونِ المَلِكِ الوَهَّابِ

علىٰ يدِ العَبدِ الدَّاعي لأَيَّامِ دَولةِ صاحبِهِ عَظَّم اللهُ جَلالَ قَدْرِهِ الأَعلىٰ

أبي الفَضْلِ الحَسَنِ بنِ مَحمودٍ المُحَدِّثِ ، عُرِف بـ : عَرَب ماشَادَه

أَحسَنَ اللهُ عاقبةَ أَمرِه
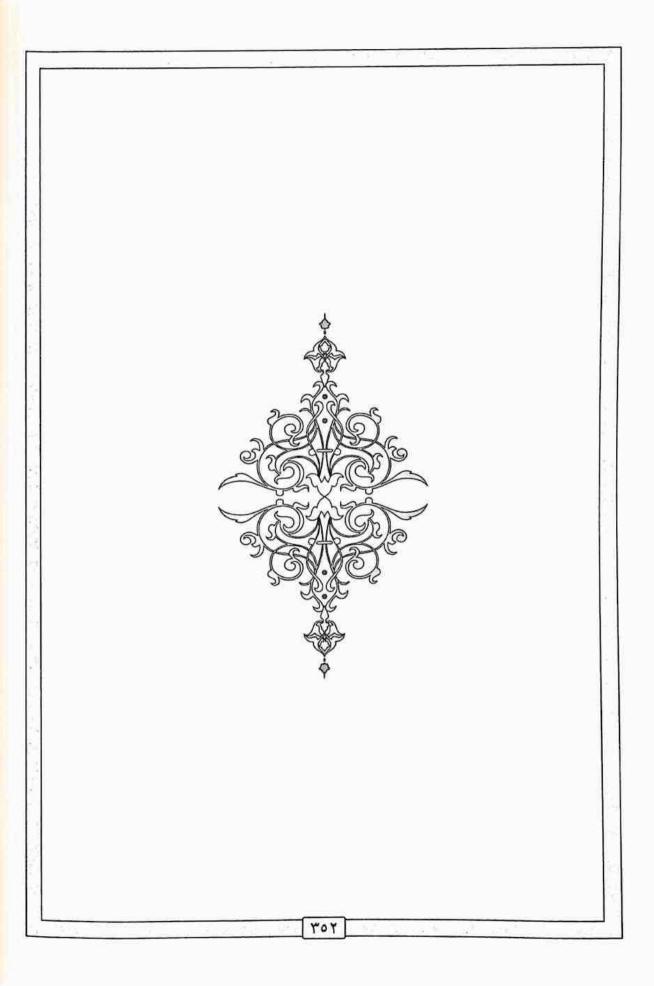
من تراث

الإمام أبي حفص عمر السهروردي

الكتاب الرابع

أسئلة سئل عنها السهروردي ﷺ

وأجوبته عليها

وجمل من كلامه ووصاياه

مقدّمة
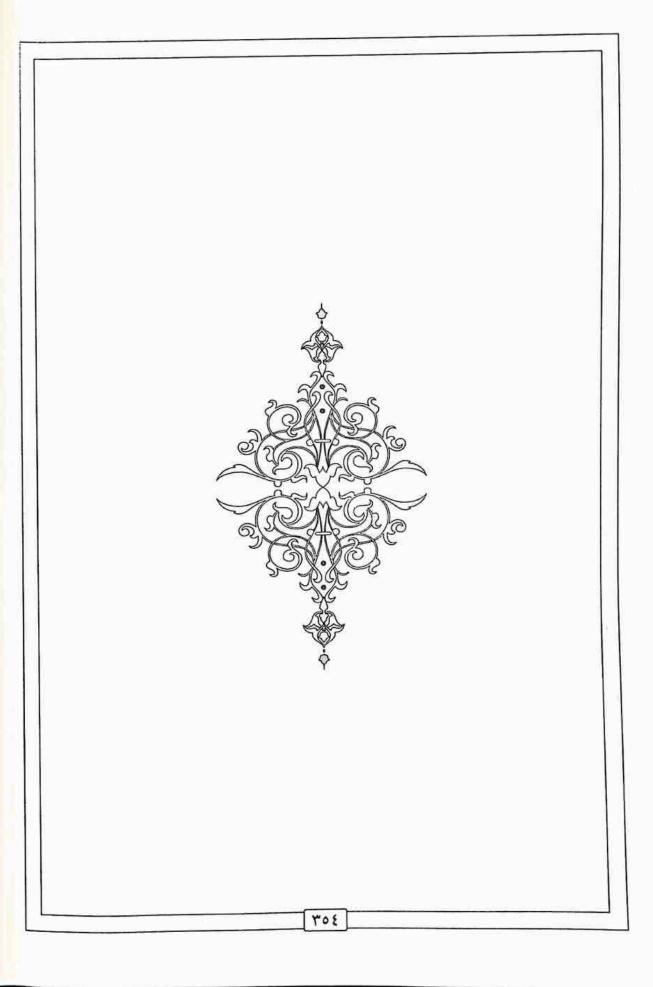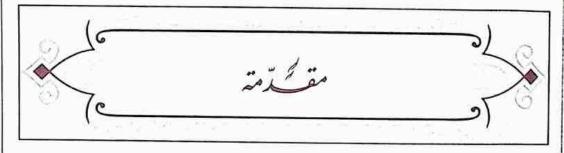
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

للشَّيخِ السُّهرَورديِّ مكانةٌ كبيرةٌ في التَّصوُّفِ ومعرفةِ علومِ القومِ ، وقدْ أهَّلَتْهُ هٰذه المنزلةُ لأنْ يكونَ كلامُهُ مادَّةً يَحتفي بها أهلُ التَّصوُّفِ في زمانِهِ وبعدَهُ ، حتَّىٰ إنَّ منهُم مَنْ كانَ يَتخيَّرُ الفوائدَ مِنْ كُتُبِهِ المُختلِفةِ ، ويُفرِدُها في رسائلَ مفردةٍ ، تتفاوتُ في حجمِها كِبَراً وصِغَراً ، ومِنْ هٰذه الفوائدِ ما أَمكَنَ الوقوفُ علىٰ مَصدرِها في كُتُبِهِ المطبوعةِ ، وبعضُها الآخَرُ يُظَنُّ أنَّهُ مِنْ كُتُبِهِ الَّتي سَقَطَتْ مِنْ يدِ الدَّهرِ .

وهٰذا الكتابُ الذي بينَ أَيدينا مِنْ بابةِ الفوائدِ المُنتقاةِ ؛ فهو أجوبةٌ عن سؤالاتٍ وُجِّهَتْ للسُّهرورديِّ ، ووصايا جامعةٌ أَوصىٰ بها بعضَ أصحابِه مِنَ الصُّوفيَّةِ ، ومجموعاتٌ مِنْ كلامِهِ .

وقدْ وَرَدَت هٰذه الفوائدُ مُقسَّمةً علىٰ قِسمَين :

فالقسمُ الأوَّلُ : جاءَ في صورةِ أسئلةٍ وُجِّهَتْ إلى السُّهرورديِّ مِنْ قِبَلِ بعضِ علماءِ خُراسانَ ، تدورُ حولَ دقائقِ التصوُّفِ وآدابِهِ ؛ كالخَلوةِ وآدابِها ، ولُبسِ الخِرقةِ وأصلِها مِنَ السُّنَّةِ ، وجملةٍ مِنْ آدابِ المريدِ ، وبلغَ عددُها ثمانيةَ عَشَرَ سؤالاً ، وقدْ جاءَتِ الإجاباتُ مختصرةً ، ولٰكنَّها مفيدةٌ شافيةٌ .

ويُفهَمُ مِنْ صريحِ كلامِ السُّهرورديِّ في صدرِ الجوابِ أنَّ الأسئلةَ تَزيدُ علىٰ ثمانيةَ عَشَرَ سؤالاً ، إلَّا أنَّهُ أجابَ عن بعضِها فحَسْبُ [١] .

---

(١) وينظر « أبو حفص عمر السهروردي ؛ حياته وتصوفه » (ص ٧٣) .

وأمَّا القسمُ الثاني فهو جُمَلٌ مُنتقاةٌ مِنْ كلامِهِ وفوائِدِهِ ، تدورُ حولَ التَّصوُّفِ وآدابِ الطريقِ وأحوالِ القلوبِ ، والزُّهدِ ومراتبِهِ وغيرِها ، وبعضُها في تفسيرِ بعضِ الآياتِ الكريمةِ ، وشرحِ بعضِ الأحاديثِ النبويةِ ، عِلاوةً علىٰ بعضِ وصايا أَوصىٰ بها أصحابَه الصوفيةَ ؛ كالوصيَّةِ بملازمةِ تقوى اللهِ تعالىٰ ، والحَذَرِ مِنَ العُجْبِ ورؤيةِ العملِ ، والحثِّ علىٰ ملازمةِ الزهدِ ، وتحقيقِ العبوديةِ .

وقدْ لُوحِظَ أنَّ الفوائدَ المذكورةَ منها ما هوَ مذكورٌ بنصِّهِ أو بمعناهُ في كُتُبِهِ الأخرىٰ ؛ فلا نَدري هلْ كانَتْ كلُّ فائدةٍ مُستقِلَّةً في رسالةٍ ، ثمَّ جَمَعَها النُّسَّاخُ في كتابٍ واحدٍ ؟ أو أنَّها كانَتْ مجموعةً في كتابٍ ثمَّ فرَّقَها المُعتَنُونَ بعلومِ السُّهرورديِّ في رسائلَ مفردةٍ ؟ والأمرُ على الاحتمالِ .
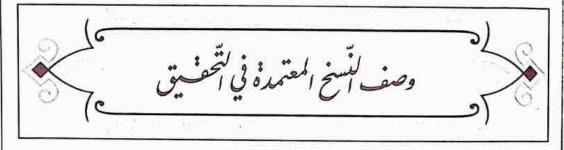
نسخةٌ كُتِبَتْ في القرنِ الثَّامنِ الهجريّ بقلمٍ نسخيٍّ نَفيسٍ بمعهدِ المخطوطاتِ العربيَّةِ بالقاهرةِ ، برقم (٢٩ تصوُّف) مصورة عن مخطوطة مكتبةِ أمانة بتركيا ، برقم (١٥/١٧٦٢) ، عدد أوراقها (٣٥) من (١٦٣ ب) إلىٰ (١٩٧ ب) ومقاس أوراقها (١٣.٥ × ١٨سم) .

وقدْ تضمَّنَتْ هٰذه الورقاتُ التي عنونَتْ في التصوير بـ : « أسئلةٌ سُئِلَ عنها السُّهرَوَرْدِيُّ شهابُ الدِّينِ وأجوبتُهُ عليها وجُملٌ مِنْ كلَامِهِ ووصاياهُ » بالإضافةِ إلىٰ هٰذه الأسئلة . . ثلاثَ رسائلَ للسُّهرَوَرْدِيِّ استخرجتُها وأضفتُها إلى الرَّسائلِ المفردةِ ؛ وهي : رسالةُ السَّيرِ والطَّيرِ ، الورقتان (١٦٧ ، ١٦٨) ، وأخرىٰ في الإرادةِ إلى الشَّيخِ نصرِ المزيَّنِ (١٧١ب ـ ١٧٨ ب) ، وثالثةٌ إلىٰ تلميذِه عليٍّ الموقانيِّ (١٧٨ب ـ ١٧٩ب) .

وتوجدُ منه خمسُ نُسخٍ أخرىٰ في مكتباتِ العالمِ عِلاوةً علىٰ مُصوَّرةِ مَعهدِ المخطوطاتِ ؛ وهي كما يلي :

سوريا :

المكتبةُ الظَّاهريَّةُ : برقم (٤٦٥٣) ، (الأوراق ٢٥ ـ ٣١) بدمشق .

إيران :

مكتبةُ مدرسة عالي سبهسالار ، برقم (١/٢٠٩) (٣) بطهران .

ألمانيا :

١ ـ مكتبةُ الدَّولةِ ببرلين : برقمي (٣٤٧٦) ، (٣٦٩١) .

٢ ـ مكتبةُ جامعةِ توبنغن : برقم (٧/٨٩) الأوراق (٧٦ب ـ ٧٩ب) .

وذكرته « خزانةُ التُّراثِ » بأسماء عِدَّة : « الأجوبةُ السُّهرورديَّةُ » ، و« من كلامِ السُّهرورديِّ » ، و« جوابُ أسئلةٍ لبعضِ أئمَّةِ خراسان » .

وذكره « المعجمُ » (٢٢٩٥/٣) باسم : « الأجوبةُ عن أسئلةِ علماءِ خُراسانَ ـ في التَّصوفِ » .

❊ ❊ ❊

نماذج من صور المخطوط

الحمد لله رب العالمين

قالت سألت يرحمك الله وإيانا عن الأسئلة وأنا إن شاء الله أجيب عنها
بما يفتح الله علي حسب الامكان [illegible] ما الفرق بين الفترة والوقفة [illegible]
فبالله التوفيق الفترة في الأعمال قال عليه الصلاة والسلام لكل عامل فترة والوقفة
في الأحوال وسبب الفترة الأعمال لأجل الوقت وتضييع حكمه والاعمال والتضييع
موجبها ظهور صفات النفس وسبب الوقفة الاعمال الحكم الحال والاخلال بشيء
من شروط الحال وموجب الاخلال في الاعمال نقصان علم الحال ونقصان علم الحال
لنقصان علم القيام وعلم القيام مطالعة قوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وهذا
النقصان هو الفتور عن المراقبة [illegible] قال [illegible] بلت مع الاعمال يداخله العجب ومع ترك
الأعمال عند البطالة [illegible] لا يترك الاعمال ويداوي العجب بأن يعلم أن ما هو من
النفس وكل ما بباطنه خاطر العجب يستغفر الله ويكره الخاطر فإنه بعد ذلك
كفارة خاطر العجب لا يمنع العمل [illegible] الخلوة تصلح لمن ليس له نصيب
البطالة وأوقاته معمورة بالمعاملة بالمراقبة والخدمة تصلح لمن له سعة للبطالة
فهم البطالة إلى الخدمة [illegible] للمعاملة والذكر الدائم
الخلوة محمودة والمريد إذا كان تحت حكم شيخ ذي بصيرة [illegible] خلوته وجلوته [illegible]
الشيخ فالشيخ يعلم قدر حاجته إلى الخلوة وقدر حاجته إلى الخلوة فالشيخ يعلم

قال بني أمري على أربع علمت أن علي فرضاً لا يؤديه غيري فأنا مشغول به وعلمت أن لي رزقاً
لا يجاوزني إلى غيري فوثقت به وعلمت أني لا أخلو من اطلاعه علي فأنا مستحي منه
وعلمت أن لي أجلاً يبادرني فأنا أبادره . وقال شقيق رضي الله تعالى عنه العلم في ثلاثة في خشية
الله وفي حسن الظن بالله وفي الخوف من الله ... آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله

فتوى مسائل سألها بعض أئمة خراسان للشيخ شهاب الدين
السهروردي فأجاب عنها رحمه الله وأعاد علي من بركته ونفعني
بمطالعة كلمه فإن في لطيف لها إشارات

من نظم الشيخ شهاب الدين السهروردي رحمة الله سبحانه عليه

إن قيدوا الأقدام عن نقل الخطا هل قيدوا الأقلام عن بث الجوى
أو حاولوا قطع التواصل في الهوى هل يحرمون الطيف في سنة الكرى
أو شردوا نومي بعيداً أحشى هل يسلبون القلب لذات المنى

---

(1) صدَّرها النَّاسخُ بقولِه : مسائلُ سألَها بعضُ أئمَّةِ خُراسانَ للشَّيخِ شِهابِ الدِّينِ السُّهرَوَرْدِيِّ ، فأجابَ عنها رحِمه اللهُ ، وأعادَ عليَّ مِن بَرَكتِه ، ونَفَعَني بمُطالَعةِ كلامِه ، إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاءُ .

من نَظمِ الشَّيخِ شهابِ الدِّينِ السُّهرَوَرْدِيِّ رحمةُ اللهِ سبحانَه عليه : [من الكامل]

إن قيَّدوا الأقدامَ عن نقلِ الخُطا ... هل قيَّدوا الأقلامَ عن بثِّ الجوىٰ

أو حاولوا قَطْعَ التَّواصُلِ في الهوَىٰ ... هل يَحرِمونَ الطَّيفَ في سِنَةِ الكَرَىٰ

أو شَرَّدوا نَومِي بِبُعدِ أحِبَّتي ... هل يَمنَعونَ القلبَ لَذَّاتِ المُنَىٰ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
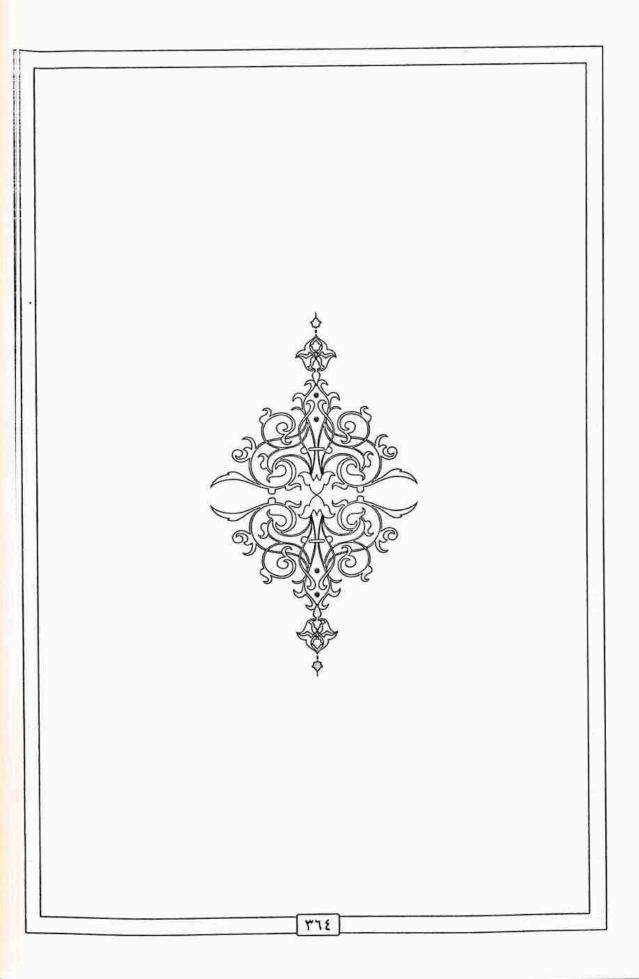
الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، قال : سألتَ رحِمَك اللهُ وإيَّانا هٰذه الأسئلةَ ، وأنا إن شاءَ اللهُ أُجِيبُ عن بَعضِها بما يَفتَحُ اللهُ عليَّ حَسَبَ الإمكانِ :

السُّؤالُ الأوَّلُ : ما الفَرقُ بين الفَترةِ والوَقفَةِ ؟

الجوابُ ـ وباللهِ التَّوفيقِ ـ : الفَترةُ في الأعمالِ ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « لِكُلِّ عَامِلٍ فَتْرَةٌ »[1] .

والوَقفةُ في الأحوالِ[2] .

وسببُ الفَترةِ : الإهمالُ لأدبِ الوقتِ وتَضييعُ حُكمِهِ ، والإهمالُ والتَّضييعُ مُوجِبُهُما ظهورُ صِفاتِ النَّفسِ .

وسببُ الوقفَةِ : الإهمالُ لحكمِ الحالِ ، والإخلالُ بشيءٍ مِنْ شُروطِ الحالِ ؛ ومُوجِبُ الإخلالِ والإهمالِ : نُقصانُ علمِ الحالِ ، ونُقصانُ علمِ الحالِ لنُقصانِ علمِ القِيامِ ، وعلمُ القِيامِ مطالعةُ سِرّ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[3] ، وهٰذا النُّقصانُ هو الفُتورُ عنِ المراقَبةِ .

السُّؤالُ الثَّاني : قلتَ : مع الأعمالِ يَتَداخَلُهُ العُجْبُ ، ومع تركِ الأعمالِ يَخلُدُ إلى البَطالَةِ ؟

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٦٩٥٨) ، والطحاوي في « بيان مشكل أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم » (١٢٣٦) ، وابن حبان في « الصحيح » (١١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٤٣٩/١٣) (١٤٢٩١) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، ولفظ الطبراني : « لِكُلِّ عَامِلٍ فَتْرَةٌ ، ولِكُلِّ فَتْرَةٍ شِرَّةٌ ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَىٰ سُنَّتِي . . فَقَدْ أَفْلَحَ » ، وألفاظهم متقاربة .

(٢) قال الإمامُ القُشيريُّ في « الرِّسالةَ » (ص ٧٧٥) : (والفرقُ بين الفَترةِ والوَقفةِ : أنَّ الفترةَ رجوعٌ عنِ الإرادةِ وخروجٌ منها ، والوقفةُ : سكونٌ عنِ السَّيرِ باستحلاءِ حالاتِ الكسلِ) ، فصاحبُ الفترةِ يُرجىٰ له الرُّجوعُ إلىٰ ما كان عليه ، بخلافِ صاحبِ الوَقفةِ . انظر « إحكامَ الدِّلالةِ » لزكريا الأنصاري (٢١١/٤) .

(٣) سورة الرعد : (٣٣) .

الجوابُ : لا يَترُكُ الأعمالَ ، ويُداوي العُجْبَ بأنْ يَعلَمَ أنَّ ظهورَهُ مِنَ النَّفسِ .

وكلَّما ألمَّ بباطنِهِ خاطرُ العُجْبِ . . يَستَغفِرُ اللهَ ويكرهُ الخاطرَ ؛ فإنَّهُ يصيرُ ذٰلكَ كفَّارةَ خاطرِ العُجْبِ ، ولا يَدَعُ العَمَلَ رأساً .

السُّؤالُ الثَّالثُ[1] :

الخَلْوةُ : تَصلُحُ لمَنْ ليسَ لهُ نَصِيبٌ مِنَ البَطالَةِ ، وأوقاتُهُ مَعْمورةٌ بالمعامَلَةِ والمراقَبةِ .

والخِدمةُ : تَصلُحُ لمَنْ لهُ سَعةٌ للبَطالَةِ ؛ فَيَصرِفُ سَهمَ البَطالَةِ إلى الخِدمةِ ، وتَبقَىٰ سِهامُهُ الأُخَرُ للمُعامَلةِ والذِّكرِ والمراقَبةِ .

السُّؤالُ الرَّابعُ :

الخَلْوَةُ مَحمُودةٌ ، والمريدُ إذا كانَ تحتَ حُكمِ شيخٍ ذِي بَصِيرةٍ . . تكونُ جَلْوتُهُ وخَلْوَتُهُ بحكمِ الشَّيخِ ؛ فالشَّيخُ يَعلَمُ قَدْرَ حاجَتِهِ إلى الخَلْوَةِ وقَدْرَ حاجَتِهِ إلى الجَلْوَةِ ؛ فالشَّيخُ يَعلَمُ الِاستِعداداتِ ، فمِنَ المريدينَ مَنْ يُؤمِنُ بالخَلْوَةِ الدَّائمَةِ ، ومنهم مَنْ لا يَصلُحُ إلَّا للخِدمةِ ، ومنها تكونُ زِيادَتُهُ ، والأوضاعُ مُختَلِفَةٌ ، ومَعرِفَةُ تَفاوُتِها للشُّيوخِ الرَّاسِخينَ في العِلمِ ؛ الَّذينَ يَتصَرَّفونَ بالحقِّ ، لا بِهوَىٰ نُفوسِهِم ، ويُريدونَ الخلقَ للهِ ؛ لا لمحبَّةِ الِاستِتباعِ ، ويكونونَ أُمَناءَ اللهِ في أرضِهِ .

السُّؤالُ الخامسُ :

أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استَغنَوا بمُلَازَمةِ رسولِ اللهِ

---

(١) من السُّؤالِ الثَّالثِ إلىٰ نهايةِ السُّؤالِ الثَّامنَ عشرَ يَشرعُ في الجوابِ دون ذكرِ صيغةِ السُّؤالِ ؛ إمَّا تَصرُّفاً مِنَ النَّاسخِ أو مِنَ المصنِّفِ رَوماً للاختصارِ ، وعلى الرَّغم من أنَّها إجابات دون أسئلةٍ إلَّا أنَّ الأمانةَ العِلميَّةَ تحتِّمُ علينا سردَها وذِكرَها كما وردت .

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنِ الخَلْوَةِ ، وكانَ مُلازَمتُهُم لحضرتِه والجهادِ بينَ يدَيهِ أولَىٰ مِنْ كلِّ خَلْوَةٍ .

والخَلْوةُ مُعِينَةٌ علىٰ دَفْعِ آفاتِ النُّفوسِ ، ومَعرِفَةِ الزِّيادَةِ والنُّقصانِ ، وقد يَترَبَّى المريدُ بنَفَسِ الشَّيخِ وصُحبَتِه مِنْ غيرِ أن يَدخُلَ الخَلْوَةَ أو يَنْحَبِسَ في بَيتٍ مُظلِمٍ ؛ بلْ يَسرِي إليهِ مِنْ باطنِ الشَّيخِ ما يَستَغنِي بهِ عَنِ الخَلْوَةِ ، ولٰكنِ الخَلْوةُ تَصلُحُ لبَعضِ المريدينَ .

غيرَ أنِّي لا أحِبُّ للمُريدِ أن يَترُكَ الصَّلَاةَ جماعةً ؛ بلْ يَحضُرُ الفَرضَ ويَرجِعُ إلىٰ خَلْوَتِهِ ؛ حتَّىٰ لا تكونَ خَلْوتُهُ رَهبانِيَّةً .

وأمَّا مَن تَرَكَ الجُمُعةَ ، وزعَمَ أنَّهُ في الخَلْوَةِ ، وأنَّهُ إنْ خَرَجَ تَتشَوَّشُ جَمعِيَّتُه . . فهو ضالٌّ مُخطِئٌ ، نَعوذُ باللهِ منهُ وممَّنْ يُحَسِّنُ لهُ ذٰلكَ ؛ فهو عَينُ الضَّلَالِ .

السُّؤالُ السَّادسُ :

لُبْسُ الخِرْقَةِ لهُ أصلٌ مِنَ السُّنَّةِ ؛ وذٰلكَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ألبَسَ أمَّ خالدٍ خمَيصةً سَوداءَ ذاتَ عَلَمٍ [١] ، وليسَ ذٰلكَ مِنْ لوازمِ الطَّريقِ ؛ بلْ هو استِحسانُ الشُّيوخِ ، ولهُ أصلٌ مِنَ السُّنَّةِ ؛ وإنَّما الاعتِبارُ بالصُّحبَةِ واقتِباسِ العُلومِ والأحوالِ .

والمريدُ إذا لَبِسَ الخِرْقةَ مِن شَيخٍ . . فكأنَّه حَكَّمَه في نَفْسِهِ ، فَشَرطُه : أنْ يَخرُجَ مِنِ اختيارِهِ وإرادتِهِ في الأشياءِ ، ويكونَ تحتَ اختيارِ الشَّيخِ ، وهٰذا يكونُ مُريداً حَقِيقِيّاً ، ومَن لا يَبلُغُ هٰذه الرُّتبَةَ . . فخِرقَتُهُ مُجرَّدُ التَّشَبُّهِ بالقَومِ ، و« مَنْ تَشَبَّهَ بِقَومٍ . . فَهُوَ مِنْهُمْ » [٢] ، ويكونُ مُريداً رَسمِيّاً لا حَقِيقِيّاً .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٧٤) من حديث سيدتنا أم خالدٍ رضي الله عنها .

(٢) أخرجه أبو داوود (٤٠٣١) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

السُّؤالُ السَّابعُ :

المريدُ إذا عَلِمَ مِنَ الأحكامِ ما لا بُدَّ لهُ مِنهُ . . فالأولَىٰ بهِ : الِانقطاعُ إلى اللهِ ، ودوامُ التَّبتُّلِ ؛ إلَّا أنْ يكونَ غيرَ صابرٍ على الحقِّ الصِّرْفِ ، ونفسُهُ لا تُجيبُ إلى الدَّأْبِ في العَمَلِ والذِّكرِ ، وتُطالِبُهُ بالبَطالَةِ ، فعندَ ذٰلكَ يَصرِفُ نَهَمَ البَطالَةِ إلى الِاشتِغالِ بشيءٍ مِنَ العِلمِ مِنْ قَبِيلِ فُروضِ الكِفاياتِ ؛ ليكونَ تَبتُّلُهُ عَزِيمَةَ حالِهِ ، واشتِغالُهُ رُخصَةَ حالِهِ .

السُّؤالُ الثَّامنُ :

في هٰذا الزَّمانِ الأَولَىٰ للمُريدِ تَركُ التَّزوُّجِ إذا لَمْ يَخَفِ العَنَتَ ، ويَجتَهِدُ في نَفيِ خَواطِرِ التَّزوُّجِ ، وكلَّما ألَمَّ بِهِ خاطرُ النِّساءِ . . يَفِرُّ إلىٰ ربِّهِ مِنَ الخاطرِ ويَستَعِينُ بهِ ، فإذا فَعلَ ذٰلكَ ودامَ عليهِ . . سوفَ يَسوقُ الحقُّ إليهِ زوجةً صالحةً بمُؤنَتِها وكُلفَتِها ، ويكونُ مَحمُولاً فيها ومُعاناً مِنْ قِبَلِ اللهِ تعالىٰ ، فلَا يَقطَعُهُ إذْ ذاكَ عنِ اللهِ .

السُّؤالُ التَّاسعُ :

الفَقِيرُ إذا تَزوَّجَ يَكتَسِبُ لِعِيالِهِ ، إلَّا أنْ يَفتَحَ الحقُّ عليهِ بابَ الفَضلِ والمزيدِ على الصِّحَّةِ ، وهٰذا إنَّما يكونُ لمريدٍ تَضِيقُ أوقاتُهُ عنِ الكَسْبِ ؛ لكمالِ شُغْلِهِ بربِّهِ .

السُّؤال العاشرُ :

لا يَنبغِي للمُريدِ أنْ يَدَعَ الأعمالَ للخَلقِ ، ولا يَأتِي بها للخَلقِ ، وإذا أتَىٰ بالأعمالِ واسْتَرَقَتِ النَّفسُ الغَرَضَ بالِالتفاتِ إلى الخلقِ ، واستَحْلَتْ نظرَهُم إليهِ . . فيَستَغفِرُ اللهَ مِنْ ذٰلكَ الِاستِحلَاءِ ، ولا يَدَعُ العملَ رأساً لأجلِ ذٰلكَ ، فبِتَركِهِ العملَ يزولُ الرِّياءُ .

السُّؤالُ الحاديَ عشَرَ :

لا يَنبَغِي للمُرِيدِ أنْ يَتواضَعَ للأغنياءِ لموضعِ غِناهُم ، ولا يَرفَعُ حاجَتَهُ إليهِم ؛ إلَّا إنْ دَعَتِ الضَّرورَةُ .

وإذا عَلِمَ أنَّ المالَ حرامٌ . . لا يجوزُ لهُ التَّلبُّسُ بهِ ألبَتَّةَ ، ولا يَحمِلُهُ الغُرورُ والِاعتمادُ على الحالِ أنْ يأكُلَ المالَ الحرامَ ؛ فإنَّ المريدَ الصَّحِيحَ لا يُطفِئُ نُورُ حالِهِ نورَ ورَعِهِ ، سواءٌ كانَ مُجرَّداً أو مُتأهِّلاً .

السُّؤالُ الثَّانيَ عشَرَ :

يجوزُ للمُرِيدِ أنْ يَسكُنَ الرُّبُطَ المبْنِيَّةَ مِنْ أموالِ الوُلاةِ ، ولٰكنْ شَرطُ المريدِ ألَّا يَأكلَ مِنَ الوَقفِ إلَّا إذا كَمُلَ شُغلُهُ باللهِ ، ولَمْ يَبْقَ للبَطالَةِ عليهِ سبيلٌ ، وإلَّا . . فالكَسبُ أَولىٰ بهِ ، ورُبَّما كانَ سُكنَى الرِّباطِ أبعدَ لهُ مِنَ الآفَةِ والشَّهوَةِ ؛ لأنَّ أربابَ الزَّوايا يَشتَهِرونَ أعجلَ مِنَ أربابِ الرُّبُطِ ، ولٰكنْ بشَرطِ ألَّا يَستَرسِلَ في الِاختِلَاطِ ؛ فإنَّهُ الدَّاءُ المهلِكُ .

السُّؤالُ الثَّالثَ عشَرَ :

إذا وَجَدَ مالاً أَقَلَّ شُبهَةً . . لا يَنبغِي أنْ يأكلَ ممَّا كانَ أكثرَ شُبهةً .

السُّؤالُ الرَّابعَ عشَرَ :

إذا لم يُبالِ بما أكلَ ولا يَتورَّعُ . . لا يُبالي اللهُ أنْ يُهلِكَهُ .

السُّؤالُ الخامسَ عشَرَ :

إذا قَدَرَ علىٰ إزالَةِ مُنكَرٍ . . يَنبَغِي أنْ يُزِيلَ وإنْ كانَ في نَفسِهِ مُخَلِّطاً ؛ فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ مأمورٌ بِهِ ، ولٰكنْ يَنبَغِي أنْ يكونَ أمرُهُ بالمعروفِ مَعروفاً ، ولا يَسطُو على العُصاةِ بصلَاحِهِ ، ولٰكنْ يُزيلُ المنكَرَ نِيابَةً عنِ الشَّرعِ ، ويُخلِصُ النِّيَّةَ ، ويَنفِي الرِّياءَ والسُّمعَةَ .

السُّؤالُ السَّادسَ عشَرَ :

يَحتَسِبُ ويَستَغفِرُ مِنْ رُؤيَةِ نَفسِهِ .

السُّؤالُ السَّابعَ عشَرَ :

تَلقِينُ الذِّكرِ تَلقِيحُ باطنِ المريدِ الصَّادِقِ بِنفَسِ الشَّيخِ الصِّدِّيقِ ، وإنَّما يَصِحُّ هٰذا التَّلقِيحُ مِنْ شَيخٍ كامِلٍ ذِي قلبٍ تامِّ النُّورِ ؛ لأنَّ نُورَ الكَلِمَةِ يكونُ علىٰ قَدْرِ نُورانِيَّةِ القلبِ ، ونُورانِيَّةُ القلبِ علىٰ قَدْرِ زَوالِ هَوى النَّفْسِ ؛ فإذا زالَ الهوىٰ . . تَنوَّرَ القلبُ كلَّ التَّنوُّرِ ، وزَوالُ الهوَىٰ لا يكونُ بمعنى انعدامِهِ ، ولٰكنْ يكونُ بمعنىٰ تَرْكِ مُتابَعَتِهِ ، فلَا يكونُ لهُ هوىً مُتَّبَعٌ ؛ لأنَّ الهوَىٰ رُوحُ النَّفْسِ ، فلَا يَزولُ ، ولٰكنْ تَزولُ مُتابَعةُ الهوَىٰ ؛ فإذا لَمْ يكُنْ هناكَ هوىً مُتَّبَعٌ . . يَستَكمِلُ القَلبُ النُّورَ ، ويَفِيضُ منهُ إلىٰ قُلوبِ المريدِينَ الصَّادِقينَ بواسِطةِ تَلقِينِ الكَلِمَةِ .

ومِثلُ هٰذا يكونُ شَيخاً ، ولا يَحتاجُ أنْ يَطلُبَ الخَلقَ ؛ فإنَّ قلوبَ أهلِ الصِّدقِ تَجِدُ نَفَسَ الرَّحمٰنِ عِندَهُ ، فتَأوِي إليهِ وتَطلُبُهُ ، فإذا أقامَ الحقُّ خَلقَهُ في طَلَبِهِ ، وأوقَعَ مَحبَّتَهُ في قلوبِ خَلقِهِ . . فحينَئذٍ يجوزُ لهُ أنْ يُطلِقَ لسانَ الدَّعوةِ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويكونُ تِسعَةُ أعشارِهِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، وعُشْرٌ عندَ الخَلقِ ، يُريدُ الخلقَ للهِ لا لنَفْسِهِ ، ويكونُ أمِينَ اللهِ في أرضِهِ ، فكمَا أنَّ جِبريلَ أمِينُ الوَحيِ لرسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . يكونُ الشَّيخُ أمِينَ العِلمِ والإلهامِ للمُريدِينَ الصَّادِقينَ .

وهٰذا جوابٌ عنِ السُّؤالِ الثَّامنَ عشَرَ ، وهو آخِرُ الأسئلَةِ :

يَنبَغِي أنْ نَعلَمَ : أنَّ الحَريصَ على الدُّنيا وجَمعِها وإقامَةِ الجاهِ . . لا يَصلُحُ أنْ يكونَ شيخاً ، ومَنْ يُؤهَّلُ للمَشيَخَةِ ذكرنَا أنَّهُ لا يكونُ لهُ هوىً مُتَّبَعٌ ؛ فإذا رأى المريدُ مِنْ شَيخِهِ ذٰلكَ . . يُراجِعُ اللهَ تعالىٰ ، ويُكثِرُ اللَّجْأَ إليهِ أنْ يَكشِفَ لهُ

حالَ الشَّيخِ : هلْ هو شَيخٌ حَقِيقَةً ، أمِ ادَّعى المشيخَةَ مِنْ غيرِ حقيقةٍ ، ولا يَعمَلُ المريدُ بمُجَرَّدِ ظَنِّهِ ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ صادِقاً . . سوفَ يَكشِفُ الحقُّ سبحانَهُ لهُ عن شأنِ الشَّيخِ وحَقيقَةِ أمرِهِ .

تمّت الأجوبة ، والحمد لله وحده

ومن جُملَةِ كلَامِه رحمةُ اللهِ عليه ، قالَ :

الرُّوحُ الحيَوانِيُّ المجَنَّسُ المسمَّىٰ نفساً ، حيثُ تَجنَّسَ بورودِ الرُّوحِ العُلوِيِّ عليهِ . . لهُ هُوِيٌّ وهُبوطٌ إلى العالَمِ السُّفليِّ بِوضَعِ جِبلَّتِهِ ؛ لأنَّ مَحتِدَهُ[1] أجزاءُ الأرضِ والتُّرابِ ؛ فهو لموضِعِ هُبوطِهِ وهُوِيِّهِ علىٰ ضَرْبٍ مِنَ الانحرافِ ؛ بمَثابَةِ القَمَرِ في انحرافِهِ عن مُحاذاةِ الشَّمسِ ، وبِقَدْرِ انحرافِه عَدِمَ استِنارتَهُ بنُورِ الرُّوحِ ؛ وذٰلكَ لبقاءِ وَصفِها بأنَّها الأمَّارةُ ، فإذا انتَزحَتْ مِنْ هٰذهِ الصِّفَةِ وصارَتْ لوَّامَةً . . استَنارَت بنُورِ الرُّوحِ ؛ كالقَمَرِ تَقدِيراً في اللَّيلَةِ السَّابعَةِ مِنَ الشَّهرِ ، فإذا اطمأنَّتْ كَمالَ الطُّمأنِينَةِ ، وفَاءَتْ إلىٰ أمرِ اللهِ . . فهيَ بمَثابةِ القَمَرِ إذا أبدَرَ في اللَّيلَةِ الرَّابعَةَ عشْرَ .

وهٰذه الطُّمأنِينَةُ يُرزَقُها الرِّجالُ البالِغونَ ، فعندَ ذٰلكَ تكونُ بوجهِها الَّذي يَلي مُحاذاةَ الرُّوحِ مُشتاقةً إلىٰ بارئِها ، مُجِيبَةً إلىٰ مَحابِّهِ تعالىٰ ، وبوجهِها الَّذي لها بِمثابةِ الظَّهْرِ مَيَّالةً إلىٰ حُظوظٍ فانيةٍ مِنْ أقسامِ الدُّنيا مِنَ الجاهِ والرَّفاهَةِ بتَيسيرِ مَآربِها العاجِلَةِ ، فاللهُ تعالىٰ يُسارِعُ إلىٰ مَحابِّها ؛ لِاستِقامَتِها واعتِدالِها وصِحَّةِ مُحاذاتِها للرُّوحِ ، ويَستَخرِجُ لها أزواجَ الحظوظِ العاجِلَةِ وصَفوَها مِنَ الجاهِ والمآرِبِ ، ويَمُنُّ عليها بها مِنْ غيرِ كَدٍّ لها وتَعَبٍ وطَلَبٍ ، ويُقِيمُ الدُّنيا خادِمةً لها ، وكلَّما وفَّرَ عليها حُظوظَها . . ازدادَتْ تَشرِقَةً وضِياءً واستمداداً مِنَ الرُّوحِ العُلْوِيِّ ، وازدادَ الرُّوحُ العُلوِيُّ عليها حُنُوّاً وإمداداً لها واستِمداداً مِنَ الخالِقِ الكريمِ لها .

وللحُظوظِ أرواحٌ لطيفةٌ ، تَستَخرِجُ الرُّوحُ تلكَ الأرواحَ بِنِسبَةِ اللَّطافَةِ بَينَهُما بقوَّةٍ مِنَ اللهِ ، فكَشْفُ الحُظوظِ لطُلَّابِها والرَّاغِبينَ فيها بِشَرَهٍ وطَيشٍ جِبِلِّيٍّ

---

(١) المَحْتِدُ : هو الأصلُ والطَّبعُ . انظر « لسانَ العربِ » (ح ت د) (٣/١٣٩) .

حَيوانِيّ ، ولطيفُ الحظوظِ لهٰؤلاءِ الأعيانِ السَّادةِ ؛ فلَا يُقاسُ عليهِم غيرُهُم مِنْ أهلِ الجِدِّ والاِجتهادِ ، وأهلِ الزُّهدِ والعُبَّادِ .

والله المنعم المنّان

وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وآله وصحبه (١)

---

(١) استبعدتُ لَوحتَينِ مِنَ المخطوطِ في هٰذا الموضِعِ ؛ لوجودِهما بِنَصِّيهِما ضِمنَ رسالةِ « السَّيرِ والطَّيرِ » للمصنِّفِ .

ومِنْ كلَامِه رحمةُ اللهِ عليه :

الطَّريقُ عِندنا : أن يكونَ العبدُ مُقيماً على التَّوبَةِ ؛ بِمُلَازمَةِ التُّقَىٰ ظاهِراً وباطناً ، ويَزهَدَ في فُضولِ الدُّنيا ، فلَا يَهتَمُّ إلَّا بِقُوتِ يَومِهِ ؛ إنْ كُفِيَ الهمَّ .. يَكتَفِي ، وأن يَجتَنِبَ البَطالَةَ ؛ فيكونَ دائِمَ التَّقرُّبِ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ إمَّا بِباطنِه وظاهِرِه ، وإلَّا .. فبِباطنِه ، ومتَىٰ بَطَلَ .. ينامُ .

والسّلام

ومن كلَامِه : ما شَرحَ به كلِماتٍ لأبي مُحمَّدٍ الجُريرِيِّ [1] ، ذكرَها في آدابِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ :

قالَ الجُريرِيُّ : (التَّسرُّعُ إلى استِدراكِ علمِ الِانقطاعِ . . وسِيلةٌ) .

قالَ الشَّيخُ : معناهُ : أنَّ السَّالكَ لطريقِ الحقِّ تعالىٰ ، يكونُ ابنَ وقتِه ، فيَشتَغِلُ بوقتِهِ الحاضِرِ عن وَقتِهِ الفَائِتِ .

فقدْ يَتذَكَّرُ ما جَرىٰ عليهِ مِنْ مُخالَفَةِ الوَقتِ فِيما مَضىٰ ، ويَستَكشِفُ ما كانَ سببَ ذٰلكَ الدَّاخلِ عليهِ ؛ الَّذي بدُخولِهِ خالفَ حُكمَ الوَقتِ ، وكما قيلَ : مُخالفَةُ الوقتِ مَقْتٌ .

فبِفكرِهِ في ذٰلك يَنكَشِفُ لهُ الموجِبُ لمخالَفةِ الوقتِ ، ويكونُ تَطلُّعُهُ إلىٰ ذٰلكَ واهتمامُهُ بهِ وَسِيلةً مِنَ الوسائلِ الحسَنَةِ ؛ لأنَّهُ يُحدِثُ عندَهُ تأسُّفاً وتَحسُّراً ، ويَتَّقِي بذٰلكَ العِلمِ تلكَ الموجِباتِ لمخالفَةِ الأوقاتِ فِيما بَعدُ .

وإنَّما سُمِّيَ ذٰلكَ تَبرُّعاً ؛ لأنَّهُ أمرٌ فائتٌ ليسَ مِنْ حُكمِ الوقتِ ، فإذا صَرَفَ همَّهُ إلىٰ ذٰلكَ . . فكأنَّه تَبرَّعَ بشيءٍ ليسَ عليهِ في تركِ ذٰلك دَرَكٌ .

وقولُهُ : (الوقوفُ علىٰ حدِّ الِانحسارِ . . نَجاةٌ) .

معناهُ : أنَّ مَنْ دَخلَتْ عليهِ الفِتنَةُ بالِابتلَاءِ . . تَجلُبُ فِتنَةُ الِابتلَاءِ فِتنَةً أخرىٰ ؛ فتكونُ الأُخرىٰ عُقوبةَ الأُولىٰ ؛ فالسَّالكُ المتَيقِّظُ يَسُدُّ بابَ العُقوبَةِ بالفِتنَةِ الثَّانيَةِ ؛ لما يَنالُ قلبَهُ مِنْ لَدْغِ الأوَّلةِ ؛ فباللَّدغِ الَّذي يَجِدُهُ مِنَ الفِتنَةِ . . يَنكوِي مَحَلُّ وُثوبِ النَّفسِ الدَّاعِي إلى الفِتنَةِ الأُخرَىٰ ، فيكونُ وقوفُهُ علىٰ حَدِّ الِانحسارِ نَجاةٌ ؛ لأنَّهُ يَنجُو مِنَ الثَّانيةِ .

وقولُهُ : (اللِّياذُ بالهرَبِ مِن عِلمِ الدُّنُوِّ . . وُصلَةٌ) .

(١) أخرج المؤلّف هـٰذه الكلمات في « عوارف المعارف » (١٠٣/٢) بإسناده إلى الجريري .

معناهُ : أنَّهُ إذا هَجَمَ بِشغَفِ قلبِهِ على حَريمِ القُرْبِ[1] . . يَمتَلِئُ القلبُ فَرَحاً ، والنَّفسُ تَستَرِقُ السَّمعَ إذْ ذاكَ ؛ فتَستَفِيدُ مِنِ استراقِ السَّمعِ حظّاً يُحدِثُ عندَ النَّفسِ نَشاطاً ، وفي ذٰلكَ النَّشاطِ هَتكُ حُرُماتِ سُبُحاتِ الجَلالِ .

والأدبُ في إبقاءِ حقِّ الهَيبةِ : أن يَلوذَ بالهربِ مِنْ عِلمِ الدُّنوِّ ، وكلَّما هَرَبَ . . قَرُبَ ؛ فإنَّهُ يَهرُبُ ببقاءِ وُجودِهِ ، وفي ذٰلكَ الهربِ رَدُّ نشاطِ النَّفسِ ، وحَصرُها في مَقارِّ مَركزِها ، والحقُّ إذْ ذاكَ يَطلُبُ قلبَهُ ، وقلبُهُ يطلبُ الحقَّ ؛ فتُحَقَّقُ الوُصلَةُ حينئذٍ .

وقولُهُ : (استقباحُ فَقْدِ تركِ الجوابِ . . ذَخِيرةٌ)[2] .

معناهُ : أنَّ السَّالكَ لهُ صِدقُ اللَّجَأِ فِيما يَضطَرُّ فيهِ مِنْ ظُهورِ النَّفسِ أو تَسلُّطِ العَدُوِّ والشَّيطانِ ، والرَّبُّ يُجِيبُه إذا دعاه بلسانِ الِاضطرارِ ؛ فَفي بعضِ الأحايينِ قدْ لا يُجيبُهُ الحقُّ سبحانَهُ عقوبةً لهُ على ذَنبٍ مُتقَدِّمٍ مِنْ ذُنوبِ حالِهِ ، فيَتفكَّرُ العبدُ في حِرمَانِهِ بِتَرَكِ الجوابِ .

أيْ : أنَّ الحقَّ ما أجابَه ؛ فيَنكَمِدُ لذٰلكَ ، ويَحصُلُ بانكمادِهِ في وَرْطَةِ الفُتورِ والوَقفَةِ والحَجْبَةِ .

والفُتورُ في العملِ ، والوَقفَةُ في سدِّ بابِ المزيدِ ، والحَجبَةُ في تكدُّرِ مَوارِدِ المَشاهدِ .

فبِكَونِهِ يَعزُبُ ذِكرُ تَركِ الجوابِ ، ويَفقِدُ انصِرافَ الهمِّ إلى التَّفكُّرِ في تَركِ الجوابِ . . لا يَنكَمِدُ باطنُهُ ، ولا يَقَعُ في وَرْطَةِ الفُتورِ والوَقفَةِ والحَجْبَةِ ، فاستِفتاحُهُ هٰذا الفَقدَ ذَخِيرةٌ ؛ لأنَّ بِهِ تَخلَّصَ عن ظَفَرِ العَدُوِّ بهِ بِما يَعِدُ مِنَ الفَقرِ الَّذي هو دَأْبُهُ ؛ لقولِه تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[3] .

---

(١) أي : بساحةِ وفناءِ القُربِ .

(٢) في « عوارف المعارف » (١٠٣/٢) : (استقباح ترك الجواب ذخيرة) .

(٣) سورة البقرة : (٢٦٨) .

وقولُهُ : (الِاعتصامُ مِنْ قَبولِ دَواعِي استماعِ [١] الخِطابِ . . تَكلُّفٌ) .

معناهُ : أنَّ العبدَ المُكلَّمَ المُحدَّثَ مِنْ مُكلِّمَتَيهِ ومحدِّثتَيهِ ؛ أنَّهُ إذا تَلَا كلَامَ اللهِ تعالىٰ . . كأنَّ الحقَّ يُخاطِبُهُ ، فيأخُذُ مِنْ أسرارِ القُرآنِ بحُسْنِ الإصغاءِ وكمالِ الوَعيِ ما يكونُ مَزيدَ حالِهِ وسَعةَ عِلمِهِ ، فقدْ يتَقاضَاهُ القلبُ بالغُفولِ عن حُسْنِ الإصغاءِ ؛ بزعمِهِ أنَّ الإقبالَ على المتَكلِّمِ وتَصفِيةَ مَوردِ المشاهَدةِ . . أتمُّ لهُ وأكمَلُ ، فيَعتَصِمُ بالتَّطلُّعِ إلىٰ صَفوِ المشاهَدةِ عن قَبولِ دَواعِي استِماعِ الخِطابِ ، في ذٰلكَ تَكلُّفٌ .

واللهُ تعالىٰ أمرَ بالجَمعِ بينَ المشاهَدةِ والسَّمعِ [٢] ، فقالَ : ﴿ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [٣] ، فكونُهُ يَتِيهُ علىٰ قَبولِ دَواعِي استِماعِ الخطابِ فيهِ تَكلُّفٌ .

وقولُهُ : (خوفُ فَوتِ عِلمٍ [٤] ما انطَوىٰ مِنْ فَصاحَةِ الفَهمِ في حَيِّزِ الإقبالِ . . مَساءةٌ) .

معناهُ : أنَّ المُشاهِدَ إذا تلَا آياتِ اللهِ . . يَنبَغِي لهُ أنْ يَكتَفِيَ بما أُنِيلَ في مَقامِ المشاهَدةِ ، ويَقنَعَ بصَفوِ ما انصَبَّ إلىٰ قَلبِهِ مِنْ أسرارِ القُرآنِ مِنْ غيرِ تَعمُّلٍ وتَكلُّفٍ ، وقدْ يَعلَمُ السَّالكُ أنَّ ما رُزِقَ مِنْ صفاءِ الفَهمِ يَسِيرٌ مِنْ كَثيرٍ ، وأسرارُ القرآنِ لا نِهايةَ لها ؛ فكونُهُ لا يَكتَفِي بمُشاهَدتِهِ ، ولا يَقنَعُ بما انكشَفَ لهُ مِنَ الأسرارِ ، ويَخافُ أنْ يَنطَوِيَ عنهُ كثيرٌ منهُ ، أو يَضِيقَ عنها وِعاءُ فَهمِهِ ، هٰذا الخوفُ مَساءةٌ ؛ لأنَّهُ عَدمَ القَناعةَ بما مُنِحَ وأُعطِيَ ، واللهُ تعالىٰ قالَ لنَبِيِّه موسىٰ عليهِ السَّلامُ : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [٥] .

وقولُهُ : (الإصغاءُ إلىٰ تَلقِّي ما يَنفَصِلُ مِنْ مَعدِنِهِ . . بُعدٌ) .

---

(١) كلمة (استماع) زيادة من « عوارف المعارف » (١٠٣/٢) .

(٢) في الأصل : (والجمع) ، بدل (والسَّمع) ، ولعلَّه سبقُ قَلَمٍ مِنَ النَّاسخ .

(٣) سورة قٓ : (٣٧) .

(٤) كلمة (علم) زيادة من « عوارف المعارف » (١٠٣/٢) .

(٥) سورة الأعراف : (١٤٤) .

معناهُ : يَنبَغِي للسَّالكِ ألَّا يَنحَجِبَ بِفَهمِ أسرارِ القرآنِ عن مُطالَعةِ عَظَمةِ المتَكلِّمِ ؛ بلْ لا يَدَعُ الكلِمةَ مِنَ القرآنِ تَنفَصِلُ مِنْ مَعدِنِها ؛ بلْ يَرىٰ طرَفَها المتَّصِلَ بالمتَكلِّمِ سبحانَهُ وتعالىٰ ؛ فإنْ تلقَّاها مُنفَصِلةً مِنْ مَعدِنِها غيرَ مُتَّصلَةٍ بالمتكلِّمِ . . فإصغاؤُهُ إلىٰ تلقِّيها يكونُ بُعداً .

وقولُهُ : (الِاستِسلَامُ عندَ التَّلاقِي . . جُرْأَةٌ) .

معناهُ : أنَّ المُشاهِدَ يَنبَغِي ألَّا يَستَرسِلَ في مُشاهَدتِهِ ، ولا يُحدِّقَ نورَ البَصيرةِ في سُطوعِ نورِ الجلالِ ؛ بلْ تَرُدُّهُ سَطَواتُ الهَيبَةِ كما يَرُدُّ شُعاعُ الشَّمسِ الشُّعاعَ المنبَعِثَ مِنَ الحدَقةِ ؛ ففي تَحدُّقِ البَصيرَةِ إلىٰ سُطوعِ نُورِ الجَلالِ جُرأةٌ وتَهجُّمٌ ، وفي ذٰلكَ سوءُ الأدبِ في مَظانِّ القُربِ ، ولهـٰذا في الشَّاهِدِ نَظيرٌ .

وقولُهُ : (الِانبِساطُ في مَحَلِّ الأُنسِ . . غِرَّةٌ) .

معناهُ : إذا فُتِحَ على القلبِ بابُ الأُنسِ . . تَنفَتِحُ مَشامُّ الوُجودِ ، وبانفِتاحِ مَشامِّ الوُجودِ تَمتَزِجُ النَّفسُ بالقلبِ والقلبُ بالرُّوحِ ، وفي تلكَ المواطنِ يُفتَحُ للسَّالكِ انبِساطاتٌ ، وفي ذٰلكَ فَرْطُ الاغترارِ .

فالمتفَطِّنُ في مَحلِّ الأُنسِ لا يَنبَسِطُ ؛ بلْ يَندَرِجُ بعضٌ في البَعضِ ، فكما ارتقَتِ النَّفسُ إلىٰ مَحَلِّ القلبِ والقلبُ إلىٰ مَحلِّ الرُّوحِ في البَسطِ . . يَرِدُ الرُّوحُ مَحَلَّ القلبِ والقلبَ إلىٰ مَحَلِّ النَّفسِ ، ويَقَعُ بينَ يَدَيِ الحقِّ مُستَكِيناً فقيراً ؛ ففي ذٰلكَ كمالُ الأدبِ ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « سَجَدَ لَكَ سَوادِي وَخَيَالِي . . . » الحديثَ[1] .

وهـٰذا تمام الشرح

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه البزار في « المسند » (٢٠٣٤) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٥٠٣) والحاكم في « المستدرك » (٥٣٣/١) من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

وأخرجه أبو يعلىٰ في « المسند » (٤٦٦١) ، والطبراني في « الدعاء » (٦٠٦) ، وأبو الشيخ الأصبهاني في « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم » (٥٦٩) من حديث سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

ومِن جُملَةِ وصاياهُ ـ قـدَّسَ اللهُ سِرَّهُ ـ : ما وصَّىٰ بها بعضَ الفُقراءِ ، قالَ رحمَه اللهُ :

عليكَ بمُلازمَةِ التَّقوىٰ ؛ فهي وَصِيَّةُ اللهِ تعالىٰ لعبادِهِ ، قالَ عَزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[1] ، ومِنَ المتَّقِينَ مَنْ هو واقِفٌ علىٰ رُخصَةِ التَّقوىٰ ، عامِلٌ بقولِ اللهِ سبحانَهُ : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[2] ، ومنهُم واقفٌ علىٰ عَزيمَةِ التَّقوىٰ عامِلٌ بقولِ اللهِ تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[3] .

فالأوَّلُ : مُطالِبٌ نفسَهُ بتَسوِيَةِ الظَّاهرِ علىٰ نَهجِ الشَّرعِ ، مُلازِمٌ للتَّوبَةِ بضَبطِ الجوارحِ عنِ المَناهِي .

والثَّاني : مُطالِبٌ نفسَهُ بتَسويَةِ الباطنِ ؛ إمَّا بِدَوامِ الكَشفِ والمشاهَدةِ ، وإمَّا بقِيامِ حقيقةِ المراقَبةِ ، ولا يَرتَقِي إلىٰ هٰذه العَزيمَةِ إلَّا بعدَ إحكامِ تلكَ الرُّخصَةِ ؛ وهي تَسوِيةُ الظَّاهرِ بلُزومِ التَّوبةِ ، والقِيامِ برُخصَةِ التَّقوىٰ .

وما يتَخلَّفُ المتَخلِّفُ عنِ الزُّهدِ إلَّا لإخلالِهِ بهٰذه الرُّخصَةِ ، ومَنْ رُزِقَ القِيامَ برخصَةِ التَّقوىٰ على الوَجهِ . . يُثمِرُ لهُ الزُّهدَ في الدُّنيا ، ويعقبُ الزُّهدَ في الدُّنيا عَزيمَةُ التَّقوىٰ ، ومَن رُزِقَ عزيمةَ التَّقوىٰ . . يُؤدِّي حقَّ باطنِ العلمِ وظاهرِهِ بالعمَلِ بهِ .

والعامِلُ بالعلمِ الباطنِ والظَّاهرِ يكونُ قوَّاماً بالقِسطِ علىٰ نفسِهِ ، والقَوَّامُ بالقِسطِ لا يَنطِقُ إلَّا بالعلمِ ، ولا يَسكُتُ إلَّا بالعلمِ ، ولا يقومُ إلَّا بعلمٍ ،

---

(١) سورة النساء : (١٣١) .

(٢) سورة التغابن : (١٦) .

(٣) سورة آل عمران : (١٠٢) .

ونورُ العلمِ يَسرِي في جَميعِ أجزاءِ زَمانِهِ ؛ مُستَوعِباً لجميعِ تَصارِيفِهِ وتَقلُّباتِهِ .

وأساسُ هٰذا الأمرِ ومَبدؤُه : قِلَّةُ الكلَامِ ، وقِلَّةُ المنامِ ، وقِلَّةُ الطَّعامِ ، والِاعتزالُ عنِ النَّاسِ .

والمشايِخُ السَّلَفُ الصَّالِحُ ـ قدَّسَ اللهُ أرواحَهم ـ منهُم مَنْ أُقِيمَ مُقامَ رُخصَةِ التَّقوىٰ ، ومنهُم مَنْ رُقِّيَ إلىٰ رُتبَةِ العَزيمَةِ ، والرُّؤساءُ منهُم جُعِلوا أئمَّةَ المتَّقِينَ وأعلامَ الدِّينِ ؛ ففاضَتْ أوعِيةُ قلوبِهِم للِاتِّباعِ ، واستنارَتْ بواطِنُ الصَّادِقينَ بأنفاسِ الصِّدِّيقِينَ مِنَ المشايخِ الماضِينَ .

وما زالَ مِيراثُ النُّبوَّةِ يَتوارَثُهُ خَلَفٌ عن سَلَفٍ ، انتَقلَ ذٰلكَ إلى الصَّحابةِ رِضوانُ اللهِ عليهِم بواسِطَةِ الِاقتداءِ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ومُلازَمَتِهِم لصُحبَتِهِ حَضَراً وسَفَراً ، وانتقلَ مِنَ الصَّحابةِ إلى التَّابِعينَ ، وهٰكذا سُنَّةُ اللهِ تعالىٰ جارِيةٌ بالِانتفاعِ بطريقِ الِاتِّباعِ والصُّحبَةِ ؛ فصارَتِ الصُّحبَةُ للهِ مِنَ الصَّادِقينَ مع الصِّدِّيقِينَ مُثمِرةً مُكسِبَةً سَنِيَّ الأحوالِ ، ولَمْ يكُنْ للمُتقدِّمِينَ مِنَ المشايخِ إلَّا الصُّحبَةُ .

والمريدُ يَنتَمِي إلى الشَّيخِ بطريقِ الصُّحبَةِ .

ثمَّ صارَ للمتأخِّرِينَ اختِيارٌ في لُبسِ الخِرْقَةِ ؛ ليكونَ تَصَرُّفُهُم في ظاهِرِ المريدِ دَلَالةَ تَصرُّفِهم في باطنِهِ ، وكلُّ مُريدٍ أحسنَ المتابعةَ . . اقتَبسَ مِنْ حالِ الشَّيخِ نَصِيباً .

والوَصِيَّةُ : أن يَحذَرَ العُجْبَ ورُؤيَةَ المنزِلَةِ والمزِيَّةِ لنفسِهِ علىٰ غَيرِهِ ؛ بل يَرىٰ يدَهُ في ذٰلكَ نائبةً ، ويَتبَرَّكُ بالطَّالبِ الرَّاغبِ ، ويَجتَهِدُ في إعانَتِهِ على البِرِّ والتَّقوىٰ وسُلوكِ طريقِ الحقِّ مِنَ الهُدىٰ ، مُجتَنِباً زَهوَ النَّفسِ في ذٰلكَ ، مُطالِباً لنفسِهِ بالقِيامِ بشُكرِ نِعَمِ اللهِ تعالىٰ .

ومهما تَمسَّكَ بالوَحدَةِ والعُزلَةِ . . تَدارَكَهُ بالخَلْوَةِ للهِ تعالىٰ مَعونةٌ إلـٰهيَّةٌ بقَدْرِ أنْ يكونَ في جَلْوَتِهِ مُعاناً مَحفوظاً .

والله يتولّى الصّالحين[1]

(١) بعده في الأصل وصية أخرىٰ عند لُبسِ الخِرقَةِ للشيخ نصر المزين رحمه الله تعالىٰ . بمقدار (٧) ورقات ، وقد تم إدراجها ضمن « رسالة الإرادة » من هـٰذا المجموع .

ومن كلَامِه رحمةُ الله عليه :

العبدُ المرادُ بالحظِّ الأوفرِ مِنْ فَضلِ اللهِ تعالىٰ ونَفائسِ مَواهبِهِ وسَنِيِّ مِنَحِهِ .. يُوفَّقُ للعملِ الموافِقِ للكتابِ العزيزِ الَّذي : ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1] ، ويَتَّبِعُ آثارَ السُّنَنِ المرضِيَّةِ ؛ الَّتي بها يَصِحُّ الِاقتِداءُ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فإذا أَحكَمَ هٰذا الأصلَ .. وقَفَ على الطَّريقِ القَويمِ والصِّراطِ المستَقِيمِ ، وتَحقَّقَ بالتَّقوىٰ ، وانحَرسَتْ جوارِحُهُ عنِ المناهِي ، وأمسَكَ الأوامِرَ ؛ يُوشِكُ أنْ يَتراءىٰ حقائقَ الزُّهدِ في الدُّنيا ، فبِذٰلكَ يَتِمُّ لهُ الِاقتِداءُ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ .

وحقائقُ الزُّهدِ : تتَحقَّقُ بالزُّهدِ في الهوىٰ ، وما تَدعو النَّفسُ إليهِ بخَفِيِّ شَهَواتِها وجليِّها[2] .

فمِنْ ذٰلكَ : الزُّهدُ في طَلبِ المنزِلَةِ عندَ الخَلقِ والجاهِ عندَهم بسببٍ دُنيويٍّ أو أُخروِيٍّ ، ويدخُلُ في ضَرورةِ ذٰلكَ الِانخِلَاعُ عن عَوائدِهِم ورُسومِهم ، ويدخلُ في الزُّهدِ تركُ الحِرصِ وتَعلُّقِ الهمّ بأمرِ غَدٍ ؛ فإنَّ الزَّاهِدَ الصَّادِقَ إذا ارتَهنَ بِهَمّ غَدٍ .. لا يُؤدِّي حقَّ العُبوديَّةِ في يَومِهِ ، فإذا أَحكمَ هٰذا الأصلَ الثَّاني ـ وهو الزُّهدُ في الدُّنيا ـ استَقامَ ظاهِرُهُ .

ويَستَقِيمُ باطنُه أيضاً بعدَمِ الوَساوِسِ وحديثِ النَّفسِ ، والِاستِرسالِ في الفِكرِ في الفُضولِ ، ويَنبَعِثُ عندَ ذٰلكَ مِنْ باطنِهِ دوامُ التَّلزُّمِ[3] بخالصِ الذِّكرِ ، ويَتَّضِعُ قلبُهُ بأنوارِ أشِعَّةِ العَظَمَةِ الإلٰهيَّةِ ، ويكونُ مُشاهِداً ببصيرةِ القلبِ ، ويَغارُ حينئذٍ علىٰ صَفاءِ شُهودِهِ أنْ يَتكدَّرَ بِشَوبِ وُجودِهِ ؛ فيُديمُ العملَ للهِ تعالىٰ بقالَبِهِ أيضاً ؛

(١) سورة فصلت : (٤٢) .

(٢) أي : جليّ شهواتها .

(٣) التَّلزُّمُ بمعنى اللزوم .

مِنَ الصَّلَاةِ والتِّلاوَةِ وأذكارِ اللِّسانِ مع مُواطأَةِ القلبِ ؛ ليَستَعِينَ بالظَّاهرِ على الباطنِ ، وبالباطنِ على الظَّاهرِ .

وقدْ غَلِطَ قومٌ فأهمَلوا عمَلَ الظَّاهرِ سِوى الفرائضِ ، وذٰلكَ نُقصانُ حظٍّ مِنَ العِلمِ ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

فإذا اتَّسَقَت أحوالُه علىٰ هٰذا الوَجهِ . . يُلهَمُ فائدةَ تَركِ التَّدبيرِ والِاختيارِ ، ويَتبَرَّأُ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ ، ولا يُريدُ الأشياءَ إلَّا للهِ ، ويكونُ كما قال اللهُ تعالىٰ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

فإذا بَرِئَتْ ساحتُهُ ، وذَهبَتْ أعراضُ نفسِهِ ، ولا يَنعَطِفُ علىٰ مُتابَعَةِ هوىً كامِنٍ في النَّفسِ ، وانكشَفَ كوامِنُ الهوَىٰ وخَباياهُ بما انعَكسَ علىٰ نفسِهِ مِنْ نورِ قلبِهِ ، فلمْ يبقَ فيهِ خَبيئةٌ مَخفيَّةٌ مِنَ الهوَىٰ . . يُفتَحُ عليهِ عندَ ذٰلكَ بابُ الأدبِ ؛ حتَّىٰ إذا (٣) انبَعثَ مِنْ باطنِهِ مَيلٌ أو إرادةٌ لشَيءٍ مِنْ أمرِ مَعاشِهِ ومَصالِحِ عاجلَتِهِ ، أو نزلَ بهِ أمرٌ يَشتَبِهُ عليهِ الدُّخولُ فيهِ أو التَّبرِّي منهُ . . يُنزِلُهُ بمَولاهُ مُتبرِّياً مِنْ تَدبيرِهِ واختيارِهِ وحَولِهِ وقُوَّتِهِ وعِلمِهِ ، فيَكشِفُ لهُ الحقُّ سبحانَهُ عن وجهِ الصَّوابِ فيهِ كيفَ شاءَ وأحَبَّ ؛ إمَّا في نومِهِ أو يَقظتِهِ .

ووجوهُ الكَشفِ مُتعدِّدةٌ ، والأخبارُ عنها والإشارةُ إلىٰ تفاصيلِها لا فائدةَ فيهِ ؛ لأنَّهُ رُبَّما يدَّعي ذٰلكَ مُدَّعٍ أو يَغلِطُ بهِ غالطٌ ، والمرادُ بذٰلكَ يَعلَمُ كيفيَّتَهُ ويَطَّلِعُ عليهِ بتأييدِ اللهِ تعالىٰ ، وهو العبدُ الَّذي وُفِّقَ للمُقدِّماتِ الَّتي ذكرناها .

---

(١) سورة يوسف : (٧٦) .

(٢) سورة الأنعام : (١٦٢) .

(٣) كلمة (إذا) زيادة يقتضيها السياق .

فإذا أُهِّلَ لعلمِ الإذنِ وتَحقَّقَ بهِ . . يَحضُرُهُ صُحبةٌ في الإذنِ ، ويأتِيهِ الفَهمُ مِنَ اللهِ ، ويكونُ في الأشياءِ باللهِ لا بِنَفسِهِ ؛ فيكونُ باللهِ يَنطِقُ ، وباللهِ يُبصِرُ ، وباللهِ يَسمَعُ ، ثمَّ يَنكَشِفُ لهُ بعدَ ذٰلكَ أمورٌ فوقَ ذٰلكَ بفضلِ اللهِ وكَرَمِهِ .

واللهُ الموفّق والمعين (1)

(1) بعده في الأصل : (ومن كلامه عند توجُّه صفي الدين علي الموقاني ورجوعه إلىٰ وطنه . . .) ، بمقدار ورقتين ، وقد تم إفراد هٰذه الرسالة ضمن هٰذا المجموع .

وصِيَّةٌ أخرىٰ لبعضِ أصحابِه :

قالَ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1] ، فمَنْ تَعرَّفَ إليهِ مَولاهُ ، وكشَفَ عن بَصِيرتِهِ ، ومَلأَ قلبَهُ يَقِيناً . . فقدِ اجتَباهُ ، ومَنِ اجتباهُ . . فقدْ خصَّهُ بنِعمَتِهِ العُظمَىٰ ، والنِّعمَةُ العُظمَىٰ تُوجِبُ الشُّكرَ العَظِيمَ ، وأنَّىٰ للعبدِ الضَّعيفِ القِيامُ بذٰلكَ ؟! ولٰكنْ يَبذُلُ المجهودَ في ذٰلكَ ؛ فما عَسىٰ أنْ يَقدِرَ العبدُ عليهِ مِنْ شُكرِ هٰذه النِّعمَةِ العَظِيمَةِ أنْ يَستَعمِلَ ظاهرَهُ أوّلاً بأوامرِ الشَّرعِ ، ويُنزِّهَهُ عنِ المناهِي ، ثمَّ يُنزِّهُهُ بعدَ ذٰلكَ عمَّا لا يَعنِي مِنَ القَولِ والفعلِ والنَّظرِ والحركةِ ؛ فتكونُ جوارِحُهُ مُقيَّدةً بالعلمِ ، لا يُطلِقُها إلَّا في مَصلَحةٍ دِينيَّةٍ أو دُنيويَّةٍ ، ففُضولُ القَولِ والعَملِ ـ وإنْ كانَ مُباحاً شرعاً ـ يُعِيرُ القلبَ ظُلمَةً وقَسوَةً ؛ فيَجتَنِبُ العبدُ ذٰلكَ ، وهو بعضُ شُكرِ الاجتباءِ .

ومِنَ الشُّكرِ : قطعُ الهمِّ عن فُضولِ الدُّنيا وشَهواتِها ، وإخراجُ فضولِ الدُّنيا مِنَ اليدِ ، والقناعةُ بالقُوتِ إنْ لمْ يَقدِرْ على الوُقوفِ على الضَّرورةِ مِنَ البُلغَةِ ، فلو وقفَ علىٰ قَدْرِ الضَّرورَةِ . . كانَ أتمَّ شُكراً ، والحدُّ المعتَدِلُ في ذٰلكَ مِنْ غيرِ إفراطٍ وتَفريطٍ : رِطلٌ بالبَغدادِيِّ[2] مِنَ الخبزِ مِنْ غيرِ إدامٍ .

ومِن كُفرانِ نعمةِ الاجتباءِ : طلبُ المنزلةِ عندَ الخلقِ ، والتَّصنُّعُ والتَّزيُّنُ لهُم بيَسيرٍ مِنَ الكلامِ والحرَكةِ ؛ فليَحذَرْ مِنْ ذٰلكَ العبدُ ، فهو الدَّاءُ العُضالُ .

ومِن شُكرِ الاجتباءِ : أنْ تكونَ الأوقاتُ كلُّها مَعمُورةً بفعلِ الرِّضا ؛ وهو لزومُ

---

(١) سورة الشورىٰ : (١٣) .

(٢) وهو يساوي (١٣٠) درهماً ، أو ما يعادل (٢٥ و٤٠٦) جراماً . انظر « المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري » (ص ٣٥) .

صُوَرِ العباداتِ والأذكارِ مِنْ غيرِ أنْ يَتخللها بَطالةٌ ألبَتَّةَ ، فيَنتَقِلُ العبدُ مِنَ الصَّلاةِ إلى التِّلاوةِ إلى الذِّكرِ إلى المراقَبةِ ، وهو أقلُّ الرُّتَبِ ؛ إذِ المصلِّي المتَيقِّظُ والتَّالي والذَّاكرُ لهُ حقيقةُ المراقَبةِ مع زِيادةِ صُوَرِ العِبادةِ ، والمراقِبُ أَفرَدَ عِلمَ القلبِ بنظرِ اللهِ إليهِ .

فأمَّا المشاهَدةُ . . فهي الهِدايةُ الخاصَّةُ ، وهي مِيراثُ الإنابةِ الخاصَّةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَهْدِيَ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [1] .

فالإنابةُ عبوديَّةٌ ، وهو مَوضِعُ كَسبِ العبدِ ، وهو إدامةُ الِالتجاءِ إلى اللهِ فيما يَعترِيهِ مِنَ الخواطرِ والعزائمِ والنِّيَّاتِ الَّتي هي مَبادِئُ الحركاتِ ، فمَنْ أدامَ التَّضرُّعَ إلىٰ مَولاهُ . . لم يَستَقِلَّ بحركةٍ وبلفظَةٍ وإنْ قَلَّتْ ؛ بل قدَّمَ عليها الِالتجاءَ إلى اللهِ والتَّضرُّعَ إليهِ ، فتَحَ اللهُ عليهِ بابَ المشاهَدةِ ؛ وهو تَنويرُ الباطنِ بأنوارِ الجَلالِ والعَظَمَةِ ؛ فحينئذٍ تَصحَبُهُ المشاهَدةُ في صَلاتِهِ وتِلاوَتِهِ وذِكرِهِ ، وهو خاصٌّ بخاصٍّ .

وصاحبُ هٰذه الهدايةِ خُصَّ بنِعمَةٍ ثانيةٍ بعدَ الِاجتباءِ ، وصارَ مُطالَباً بشُكرِ هٰذه النِّعمَةِ ، فشُكرُ هٰذه النِّعمَةِ بتَركِ النِّسيانِ والغَفلةِ ، وتَركِ ما يُولِّدُ النِّسيانَ والغَفلةَ والسَّهوَ الجارِي بِوَضعِ الجِبلَّةِ ، والَّذي يُولِّدُ النِّسيانَ والغَفلةَ : الذُّهولُ عنِ الِالتجاءِ عندَ لطيفِ الِابتلاءِ .

والِابتلاءُ يكونُ ظاهِراً في الظَّاهرِ ، وباطِناً في الباطنِ ، وعلىٰ قَدْرِ الِالتجاءِ مَعرِفةُ دقيقِ الِابتلاءِ ، وعلىٰ قَدْرِ ذٰلكَ يكونُ العِلمُ باللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، والحُظوَةُ مِنَ المشاهَدةِ والعُكوفُ على الحضرةِ الإلٰهيَّةِ ، ومطالعةُ هٰذا القدرِ مِنَ الكلامِ الَّذي أجراهُ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ وكتَبتُهُ بخَطِّي . . يُغْنِي عنِ الإكثارِ مِنَ الوَصِيَّةِ .

وهٰذا الكلامُ باستِدعاءِ الفَقيرِ إلىٰ رحمةِ اللهِ تعالى الوَلَدِ العالمِ الزَّاهدِ

---

(١) سورة الشورىٰ : (١٣) .

عِمادِ الدِّينِ حامدِ بنِ عُقبةَ بنِ هِبَةِ اللهِ[1] ؛ إذْ طَلَبَ مِنِّي الوَصِيَّةَ ، وفَّقَهُ اللهُ لمرضَاتِهِ ، وبَلَّغَهُ مِنْ مَواهبِهِ ونِعَمِهِ ما يَبتَغِيهِ ، وما لا يَبلُغُ فهمُهُ حتَّىٰ يَبتَغِيهِ ، وقدْ صَحِبَنِي مُدَّةً أرادَها اللهُ تعالىٰ ، ورَغِبَ في الصُّحبَةِ للهِ ، وقدْ ألبَستُهُ خِرقَةَ المشايخِ ، والخِرقَةُ هي مُقدِّمةُ الصُّحبَةِ ، والصُّحبَةُ هي الأصلُ ، وهي المطلوبةُ .

فليُطالِعْ لأوَّلِ الكلامِ ويَتدبَّرْهُ ، واللهُ يُلهِمُهُ الرُّشدَ والصَّوابَ ، ويَرزُقُهُ الفَهمَ عنهُ والإصغاءَ إليهِ .

وتفصيلُ بعضِ ما تقدَّمَ :

أنَّهُ يَجتَنِبُ مُخالَطةَ الخلقِ ، ويَكتَفِي مِنَ الخلقِ ومُخالَطتِهم بحضورِهِ معَهُم في الجُمُعةِ والجماعةِ ، ويَتمسَّكُ بقيامِ اللَّيلِ والتِّلاوةِ ، ولا يَقدِرُ علىٰ أداءِ حقِّ اللَّيلِ إلَّا بأداءِ حقِّ النَّهارِ ، وعلىٰ قدرِ ما يَضِيعُ النَّهارُ يَضِيعُ اللَّيلُ ، فليفهَمْ ذٰلكَ .

ويَجتَنِبُ خَفايا الرِّياءِ الَّذي هو الشِّركُ الخَفِيُّ ، ولا يُضيِّعُ الوقتَ في تَدبيرِ القُوتِ ؛ فالكسبُ لمَنْ ما ظَفِرَ بحقيقةِ عِزَّةِ الوقتِ ، أو لممَكَّنٍ مَلَكَ ناصِيَةَ الوقتِ ؛ ومتَىٰ جاءَ شيءٌ مِن غيرِ مسألةٍ وتَسبُّبٍ . . يَقبَلُ ؛ فإنْ أرادَ . . تَلبَّسَ بهِ ، وإلَّا . . أخرجَهُ باطناً كما أخذَهُ ظاهراً ، فلهُ في ذٰلكَ فوائدُ جمَّةٌ .

ويَجتَنِبُ الأسبابَ والاِسترسالَ فيها مهما أمكنَ ؛ فإنَّها مُتَّكأُ النُّفوسِ ، ويَتعوَّضُ عن طلبِ الفضائلِ مِنَ الزِّياراتِ والسِّياحاتِ بالصَّبرِ على اللهِ وعلىٰ عِبادتِهِ ، فللنَّفسِ في صُوَرِ الفضائلِ تَروِيحاتٌ خَفِيَّةٌ ربَّما زادَتْ علىٰ حدِّ التَّروِيحِ ، فغيَّرَتِ القلبَ وكدَّرَتِ الوقتَ .

---

(١) هناك ترجمة غير مكتملة لشخص يُدعىٰ (عماد الدين سعد الله بن حامد بن عقبة الحنفي) في « مجمع الآداب » (٧٣/٢) قال فيها ابن الفوطي البغدادي : (إنه كتب للمذكور إجازةً ولأولاده وأحفاده في « ٦٩٧ هـ » ولم تتح النسخ الخطية للكتاب معرفة مضمون الإجازة) ، وفي « ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد » (٢١٩/١) ترجمة لمحمد بن سعد الله المذكور قال فيها التقي الفاسي : (أنه سمع علىٰ أحمد بن عبد الدائم المقدسي الحنبلي « ت ٦٦٨ هـ » وحدَّث ببعضه عنه) ، فلعلَّ للأب وابنه علاقة بتلميذ السهروردي ، وربما يكون الأب هو التلميذ ذاته .

والصَّبرُ على الوَحدةِ ومُعانقَةُ العِبادةِ ومُلازمَةُ مَوضِعٍ واحدٍ . . يجمعُ كلَّ خيرٍ ، ويَستَعِيذُ باللهِ مِنْ شَرّ كلِّ جَليسٍ ويُعِيذُهُ باللهِ مِنْ شَرّ نفسِهِ ؛ فكمْ مِنْ أخٍ صالحٍ أفسدَ أخاً وانفَسدَ بهِ ؛ لما يَتداخَلُ صُحبتَهما مِنْ دقائقِ التَّزيُّنِ ، ويَجذِبُ ذٰلكَ إلىٰ ما وراءَ ذٰلكَ ، فافهم .

واستَعِذ باللهِ مِنْ آفاتِ أوقاتِ الصَّفاءِ ؛ فإنَّ لها آفاتٍ مِنَ العُجْبِ والطُّغيانِ والإفراطِ في البَسطِ ، والنُّزوعِ إلى الشَّطْحِ ، وإلىٰ غيرِ ذٰلكَ ، وما استَوجَبَ القَبضَ الإفراطُ والبَسطُ ، ولَوِ اعتدلَ مِزاجُ القلبِ . . لدامَ الرَّوحُ والأُنسُ ، ولمْ يَنغَلِقْ بابُ المزيدِ ، فافهَم ذٰلك .

وتأدَّب بآدابِ الشَّرعِ ، قَليلِها وكثيرِها ؛ مِنَ المستَحَبّ والمندوبِ ؛ كغُسلِ الجُمُعةِ ، والبُكورِ إلى الجامعِ ، وقِسْ علىٰ ذٰلكَ غيرَهُ ، وكغَسلِ اليدِ قبل الطَّعامِ وبعدَهُ ، وغيرِ ذٰلكَ .

ومتَىٰ هَمَمتَ بمُطالَعةِ شيءٍ مِنَ العلمِ أو كلامِ المشايخِ . . فقدِّمْ علىٰ ذٰلكَ الِالتجاءَ ، ولا تَغتَرَّ بصُورِ الأشياءِ ؛ فإنَّ كلَّ شيءٍ لا يَتولَّاهُ اللهُ للعبدِ يصيرُ داءً مِنْ حيثُ هو دواءٌ ؛ حتَّىٰ يكونَ في الأشياءِ كلِّها باللهِ .

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين

وصيَّةٌ أخرىٰ :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1] ، للهِ تعالىٰ عبادٌ اجتباهُم مِنْ غيرِ سابقةِ كَسْبٍ ؛ وهمُ المجذُوبونَ ، رفعَ اللهُ الحِجابَ عن قلوبِهِم بنُورِ اليَقينِ ، فهُم ناظِرونَ بأعيُنِ قلوبِهِم إلىٰ جَلالِ اللهِ تعالىٰ بأرواحٍ عاكِفةٍ على الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ ، خُصُّوا بمَحبَّةٍ خاصَّةٍ بما وَصلَ إلىٰ أرواحِهِم مِنْ نُورِ الذَّاتِ ، فهم وإنْ كانُوا سُكوتاً لا يَزالونَ ذاكِرينَ ، وهـٰؤلاءِ عَزَفَتْ نُفوسُهُم عنِ الدُّنيا ، وانطلَقَتْ قلوبُهُم مِنْ أَسْرِ الهوَىٰ ، وانكمَشَتْ عُروقُ نُفوسِهِمُ الضَّاربةُ في العالَمِ السُّفليِّ ؛ الجاذِبةُ إلى الحُظوظِ الفانِيَةِ مِنْ طَلبِ فُضولِ الجاهِ والمالِ ، وطلبِ التَّرفُّعِ والمنافَسَةِ ، وبَصائِرُهُم ناظرةٌ إلى الآخِرةِ ، وأرواحُهُم مُتطلِّعةٌ إلى الرَّفيقِ الأعلَىٰ ، فهُم بجُزءٍ منهُم في الدُّنيا ، وبتِسعَةِ أجزائِهِم في الآخرةِ عندَ اللهِ ، والجُزءُ الَّذي لهم في الدُّنيا مَعمُورٌ بظاهِرِ العلمِ وباطنِهِ ، مَحفوفٌ بنُورِ العِنايَةِ ؛ تتَلقَّفُ قضَايا جِبلَّاتِهِمُ الأمدادُ الإلـٰهيَّةُ ، وتَرِدُ علىٰ قلوبِهِمُ التَّعريفاتُ الرَّبانيَّةُ في كُلِّيَّاتِ أمورِهِم وجُزئيَّاتِها ؛ مُكالمةُ اللهِ إيَّاهُم في نَومِهِم ويَقَظتِهِم .

فهُمُ العُلماءُ الرَّاسِخونَ ؛ يتلُونَ الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهم وسلامُه ، ويُصحِّحونَ مَقامَ الِاقتداءِ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، ومهما وُفِّقوا لحُسنِ الِاقتداءِ . . يَصِحُّ لهُم طُرُقُ الِاهتداءِ ؛ فكلُّ الطُّرُقِ مَسدودةٌ سِوىٰ طريقِ الِاهتداءِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً . . يُعرِّفُهُ تَصحِيحَ البِداياتِ ؛ ليَصِلَ بذٰلكَ إلى النِّهاياتِ .

وقَطَعَ الخلقَ عنِ اللهِ مَحبَّةُ هـٰذه الفانيَةِ ؛ الَّتي تَشبَّثَتْ بها النُّفوسُ الَّتي ما كمُلَ وضعُها واستِعدادُها ، وتفاوَتَ النَّاسُ بالرُّكونِ إلى الفانِي واستِدبارِ الباقي ؛

---

(1) سورة الشورىٰ : (١٣) .

لِاختلَافِ أوضاعِهِم واستِعدادِهِم ، ومَنْ كمُلَ استِعدادُهُ . . لا يَصلُحُ إلَّا للهِ ، ولا يَصلُحُ لخدمةِ الدُّنيا ، ويُوفَّقُ لحُسنِ المعامَلَةِ ويُحبَّبُ إليهِ الخَلْوةُ والوَحدَةُ ؛ حتَّىٰ يَتربَّىٰ قلبُهُ بينَ يَدَيِ الحقِّ ؛ لطولِ مُعاملَتِهِ ربَّهُ بالصِّدقِ والإخلاصِ ، فإذا استَحكَمَتْ أصولُهُ وكمُلَتْ تَربيةُ باطنِهِ . . يَفِيضُ وِعاؤُهُ ويُرَدُّ إلى الخلقِ ؛ ليُرشِدَهُم ويَهدِيَهُم .

وهٰذا المنصِبُ هو الَّذي لا يَنزِلُ علىٰ غيرِهِ العُلماءُ الرَّاسِخونَ ، وهو المُلكُ المتَّصِلُ بالمُلكِ الأبَدِيِّ ، والممَكَّنُونَ في الدُّنيا بالمُلكِ والمِلكِ مع اعوجاجٍ . . لا يَفُونَ بشَرطِ ظاهرِ العلمِ وباطنِهِ ؛ سُلِبوا المُلكَ الأبدِيَّ ، وشُغِلوا بظَاهرِ المِلكِ ، وجُعِلوا آلةً يَمشِي بطريقِهِم القَوانِينُ الحُكمِيَّةُ الموكُولَةُ بعالَمِ الشَّهادةِ ؛ فقَلَّ حَظُّهُم ونَصِيبُهُم ، وأُلبِسَتْ بواطِنُهُم مَلابِسَ الفَقرِ ، وزُخرِفَتْ ظَواهِرُهُم بمَلابِسِ صُوَرِ الغِنَىٰ ، أجسادٌ بِلا أرواحٍ ، وقلوبٌ مُشاكِلَةٌ للقَوالِبِ ، فَربَّما طَرقَ سَمْعَ بَعضِهِم هاتفُ العِنايَةِ ؛ فأيقَظَ باطِنَهُ مِنْ رَقدَةِ الغَفلَةِ ، وأزعجَهُ مِنْ مَقارِّ هواهُ ، وعَرَفَ ماهِيَّةَ الدُّنيا ؛ فهَجَمَ بِصدقِهِ علىٰ تَخريبِ العاداتِ ، وغمَّضَ عَينَ عَقلِهِ عنِ التَّقيُّدِ بالخَلْقِ ، وأخذَ مِنَ الخَلْقِ فِراراً ، واتَّخذَ عندَ اللهِ عهداً ، وهٰذا أعزُّ في الخَلقِ مِنَ الكِبريتِ الأحمرِ .

ومَن قصَّر مِنَ الموفَّقِينَ عن شَأوِ هٰذا . . أقبَلَ علىٰ حُسْنِ سِياسَةِ النَّفسِ ورِياضَةِ أخلَاقِها .

فأَوَّلُ ذٰلكَ : أن يُطالِبَ نفسَهُ بالعدلِ فِيما استَرعاهُ اللهُ تعالىٰ ، ثمَّ يُطالِبُ نفسَهُ بأنْ يَمكُثَ نهارَهُ أجمَعَ يُقَيِّدُ أقوالَهُ وأفعالَهُ ؛ حتَّىٰ لا يَكتُبَ عليهِ صاحِبُ الشِّمالِ شيئاً ، وهٰذا مُمكِنٌ أنْ يَفعَلَهُ يوماً واحداً ، وما أمكنَ فِعلُهُ يوماً . . أمكنَ شهراً ودَهراً ؛ وإنَّما قَلَّتِ الإراداتُ وفَترَتِ العَزائِمُ .

ثمَّ بعدَ هٰذا يُطالِبُ نفسَهُ بفِعلِ الرِّضا ، وطَريقُ ذٰلكَ : أن يَشغَلَ الوقتَ بالتَّنفُّلِ بالصَّلاةِ ، فإذا سَئِمَتِ النَّفسُ . . يُصانِعُها ؛ بأن يَحُطَّها مِنَ الصَّلاةِ إلى

التِّلاوةِ وإلى الذِّكرِ ، فإذا سَئِمَتِ الذِّكرَ . . يَترُكُ ذِكرَ اللِّسانِ ، ويُراقِبُ اللهَ بباطنِهِ مِنْ غيرِ حَركةِ اللِّسانِ ، فإذا تَملمَلَت وسَئِمَت . . ينامُ ، فإذا استراحَ بالنَّومِ . . يعودُ جديداً ؛ فيَنتَبِهُ مِنَ النَّومِ ويُسبِغُ الوُضوءَ ، ويعودُ إلى القانونِ المذكورِ ، ويَستَعِينُ علىٰ وَقتِه بقِيامِ شيءٍ مِنَ اللَّيلِ ؛ فإنَّهُ قلَّ مَنِ استَقامَ أمرُهُ مع اللهِ تعالىٰ مِنْ غيرِ حظٍّ مِنَ اللَّيلِ .

والحمد لله وحده

وصِيَّةٌ أُخرىٰ لرَشيدِ الدِّينِ عمرَ الفَرغانِيِّ [1] :

مَنْ أحظَاهُ اللهُ بصِدقِ اليَقِينِ ، واتَّخذَ مَقاماً مَكِيناً مِن مَقاماتِ المتَّقِينَ . . يُحِبُّ اللهُ تعالىٰ منهُ دَوامَ التَّبتُّلِ إليهِ ، ودوامَ الإقبالِ عليهِ ، ومتَىٰ أصغَىٰ إلى النَّفسِ الدَّاعيَةِ إلى البَطالَةِ ، الميَّالَةِ إلىٰ مُخالَطةِ الخَلقِ . . يُعاقَبُ بِهِم بتَسلُّطِ وتَشعُّثِ باطنٍ ، وتَردُّدِ رأيٍ جالِبٍ للتَّفرِقةِ ، فيَنبَغِي لهُ أنْ يَأخُذَ مِنَ الخَلقِ جانِباً مِنْ سَليمِهِم وسَقِيمِهِم ، إلَّا مَنْ يَستَفِيدُ منهُ ، ويَكتَسِبُ بصُحبَتِهِ زِيادةً في الزُّهدِ ، ويَتفَطَّنُ بطَريقِهِ كَوامِنَ آفاتِ النَّفسِ ، أو مَنْ سوفَ يَبعثُهُ اللهُ تعالىٰ إليهِ عندَ ارتِواءِ قلبِهِ مِنْ مِنَحِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ ، فتَشَمُّ أرواحُ الصَّادِقِينَ منهُ عَرْفَ القُرْبِ ؛ فيَتطفَّلونَ عليهِ ، ويَمِيلونَ إليهِ ؛ فيَبتَلِيهِم مِنْ صَفوِ صُحبَتِهِ ما يُسَكِّنُ لهَفَ إرادتِهِم ، ويُكسِبُهُم ما يَتلقَّحُ بهِ بواطنُهُم مِنْ غيرِ إسرافٍ وتَقتِيرٍ .

والإسرافُ في ذٰلك : الِاستِرسالُ في الصُّحبَةِ إلىٰ حَدٍّ يَنزِعُ إلىٰ مُؤانَساتِ النُّفوسِ .

والتَّقتِيرُ فيهِ : الِامتِناعُ مِنَ الصُّحبَةِ مع العِلمِ بنَفعِ الطَّالِبِ ؛ حِرصاً على الحظِّ الخاصِّ لنَفْسِهِ .

فالصِّدِّيقونَ لكثرةِ شَغَفِهِم وقِلَّةِ صَبرِهِم عن مَولاهُم . . يَستوحِشونَ مِن مُتَوَهِّماتِ مُوجَباتِ التَّفرِقَةِ .

والعملُ الدَّائمُ المشارُ إليهِ . . دوامُ إقبالِ القلبِ ، وإحكامُ علمِ الحالِ وعلمِ القِيامِ ، والتَّفطُّنُ للطَّوارِئِ والعَوارِضِ ، والحُكمُ فيها بالعدلِ ؛ بِما شَهِدَ بِصِحَّتِهِ

---

(١) لعله : عمر بن محمد بن عمر الفرغاني الحنفي (ت ٦٣٢ هـ) أحد تلاميذه . انظر في ترجمته « ذيل تاريخ بغداد » لابن النجار الورقة (١١٩/أ) من نسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم (٢١٣١) ، و« إنباه الرواة » (٣٣١/٢ ـ ٣٣٢) ، و« تاريخ الإسلام » (٨١/١٤) .

ظاهرُ العلمِ وباطنُهُ ، ومع هٰذا العملِ إذا تَزيَّنَ القلبُ بحِليَةِ الصَّلاةِ والتِّلاوةِ والذِّكرِ . . كانَ أتمَّ وأبلَغَ في المقصودِ .

ومِنَ المهمِّ رِعايةُ الاعتدالِ في النَّومِ والأكلِ ، والتَّقليلِ مِنَ الشَّهواتِ ، والتَّخلُّصِ مِنْ تَبِعاتِ الوجودِ الغيبيِّ بالمحاسَبةِ ، ثمَّ التَّخلُّصِ مِنْ تَبِعاتِ الوجودِ الذِّهنِيِّ بالمراقبَةِ ، ثمَّ مَحوُ وجودٍ ذِهنِيٍّ بالتَّغيُّبِ عنهُ في مَطاوِي الغَيبِ إلىٰ أنْ يعُمَّ عينُ الوجودِ أجزاءَ الغَيبِ ، ثمَّ يَعُمَّ أجزاءَ العينِ وتتَشَابَهَ القوالبُ ؛ الغيبُ والعينُ لرُوحِ الشُّهودِ .

ومَنْ تَرامىٰ سَبِيلَ التَّحقُّقِ بهٰذه المِنَحِ الخاصَّةِ . . فليَتَّخِذِ المنزِلَ قَبراً ، ويَغسِلْ يدَهُ مِنَ الدُّنيا وأهلِها ، ويُلَيِّنْ لسانَهُ لتلاوةِ كلامِ اللهِ العزيزِ ، ويُطهِّرْ قلبَهُ وسَمعَهُ وبَصرَهُ ، ويَتدَبَّرْ للجَمعِيَّةِ ، وعلىٰ هٰذا يَعقِدُ مع اللهِ تعالىٰ عَقدَ العَهدِ ، ولا يَحُلُّ عَقدَهُ حَرَكَةُ نفسِهِ ؛ بِطَيشِها وقِلَّةِ صَبرِها وتَملمُلِها ونُزوعِها إلىٰ مُخالَفةِ حُكمِ الوقتِ .

وحكمُ الوقتِ ما هو أَولَىٰ بِهِ وأسعَدُ عندَهُ واضِحٌ فيهِ ، يُشاهِدُ العِلمَ ونُورَ[1] البَصيرَةِ الَّذي يَخرِقُ شغافَ الشُّبهَةِ ، ويَدُلُّ علىٰ واضِحِ البُرهانِ ، ورُكوبُ الشُّبهَةِ لِعَوَرٍ في البَصِيرَةِ ، وفُتورٍ في العَزيمَةِ ، ويكونُ هوىً يَطمِسُ نورَ الإيمانِ .

والله تعالىٰ أعلم ، وله الحمد

---

(١) في حاشيةِ الأصل : (لعلَّه : بنورٍ ، فلينظر) ، وهو أنسبُ للسِّياقِ ، والله أعلم .

وصيَّةٌ أخرىٰ :

قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[1] ، جاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَستوصِيهِ ، فقالَ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَٱبْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ »[2] ؛ ففِي وصيَّةِ اللهِ تعالىٰ ووَصيَّةِ رسولِ اللهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كِفايةٌ لكلِّ عاقلٍ مُستَبصِرٍ .

ولا يَقدِرُ العبدُ على القِيامِ بهٰذه الوصايا إلَّا بِقِصَرِ الأملِ ، وإدامةِ ذكرِ الموتِ ؛ فذِكرُ الموتِ يَفتَحُ بابَ القلبِ إلى الآخرةِ ، ويَحُثُّ على التَّشمِيرِ للمَصالحِ الجامعةِ ؛ لمنافعِ العاجلِ والآجِلِ .

ومِن جُمَلةِ المهامِّ النَّافعةِ : مُجالَسَةُ أهلِ الصَّلاحِ ، ومُجانَبةُ أهلِ الفَسادِ ، ومُلازَمةُ الوَحدةِ إذا لمْ يَجِد قَريناً صالحاً ، ثمَّ في الخَلْوَةِ والوَحدةِ يَجتَنِبُ البَطالةَ ؛ فإنَّها تُمِيتُ القلبَ ؛ بلْ تكونُ أوقاتُهُ مَعمورَةً بما يَتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، ويَتيقَّنُ أنَّ كلَّ ساعةٍ تَخلُو عن ذِكرِ اللهِ والتَّقرُّبِ إليهِ بنوعٍ مِنَ العِبادةِ . . تكونُ حَسرَةً يومَ القيامةِ .

فمِنَ القُرَبِ السَّنِيَّةِ : الصَّلاةُ ، ثمَّ تِلاوةُ القرآنِ ، ثمَّ الذِّكرُ بالقلبِ واللِّسانِ ، ثمَّ الذِّكرُ بالقلبِ مِنْ غيرِ لسانٍ ، ثمَّ المراقَبةُ ؛ والمراقَبةُ : أنْ يُلزِمَ قلبَهُ العِلمَ بأنَّ اللهَ ناظرٌ إليهِ ، ومُطَّلِعٌ علىٰ ما يُجِنُّهُ ضَمِيرُهُ ، ومهما خلَا عن هٰذهِ الأقسامِ . . فلْيَنَمْ ؛ فَفِي النَّومِ السَّلَامةُ .

وينبَغِي أنْ يكونَ أبداً على الطَّهارةِ ، ومَهما أحدثَ . . يَتطَهَّرُ ، ويَجتَهِدَ أن

---

(١) سورة النساء : (١٣١) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦) من حديث سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

يَستَقبِلَ القِبلةَ في كلِّ مَجلِسٍ ، ويُصَوِّرَ في نفسِهِ أنَّهُ جالسٌ بينَ يَدَيِ اللهِ تعالىٰ وبينَ يدَيْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهِ عليهِ وسلَّمَ ؛ حتَّىٰ يُلازِمَ السَّكِينةَ والوَقارَ في القولِ والفعلِ ، ويَحتَمِلَ أذَى الخلقِ ، ولا يُقابِلَ المسيءَ علىٰ إساءتِهِ ، ويَستَغفِرَ لكلِّ مُسيءٍ ، ولا يُعجَبَ بنفسِهِ وبعِلمِهِ وعَمَلِهِ ، ويَنظُرَ إلىٰ نفسِهِ بعينِ الحَقارةِ ، وإلى المسلمينَ كافَّةً بعينِ الاحترامِ والتَّعظيمِ .

ويَنبَغِي أنْ يكونَ لهُ حظٌّ مِنْ قِيامِ اللَّيلِ ، وقِيامُ أوسَطِ اللَّيلِ أفضلُ ، ويُواصِلَ بينَ العِشاءَينِ إذا أمكنَهُ ، وبينَ الظُّهرِ والعصرِ إذا أمكنَ ذٰلكَ ، ويُحافِظَ علىٰ صلاةِ الضُّحىٰ ، وغُسلِ الجُمُعةِ ، والنَّومِ على الطَّهارةِ ، ويُلازِمَ البُكورَ إلى الجامعِ يومَ الجُمُعةِ ، ويَجعلَ هٰذا اليومَ للآخرةِ خاصَّةً ، لا يَشوبُهُ بشيءٍ مِنْ أمرِ الدُّنيا ، ويَتصَدَّقَ كلَّ يومٍ بصَدقةٍ مهما كانَ قلَّ أو كثُرَ ، ولا يُكثِرَ الضَّحِكَ ، ويَجتَهِدَ في خِفَّةِ المعِدةِ أبداً ، وليكُنْ لهُ حَظٌّ مِنْ صومِ النَّافلةِ ؛ فليصُمِ الاثنينَ والخميسَ ، وإنْ زادَ علىٰ ذٰلكَ . . فحسَنٌ ، وإلَّا . . فليصُم أيَّامَ البِيضِ مِنْ كلِّ شهرٍ ، وهٰذا أقلُّ الأقسامِ .

ويَضبِطُ الجوارحَ كلَّها عن مُخالفَةِ الشَّرعِ ، خاصَّةً العينَ واللِّسانَ ، العينَ واللِّسانَ ، العينَ واللِّسانَ [1] ، يَحفَظُهُما عنِ النَّظرِ إلىٰ ما لا يَجوزُ ، والغِيبةِ ؛ فهو أكثَرُ ما يُبتَلَىٰ بهِ الإنسانُ ، وفي التَّردُّدِ في الطُّرقِ يكونُ مُلازِماً بقلبِهِ للذِّكرِ ، مُقيماً على الذِّكرِ بالباطنِ ، لا يَخطُو ولا يَسعَىٰ غافِلاً .

ولا يَقدِرُ على الوَفاءِ بما ذكرتُ إلَّا الزَّاهدونَ في الدُّنيا ، فليَسألِ اللهَ تعالىٰ ذٰلكَ بدوامِ التَّضرُّعِ والاستكانَةِ ، ويَعلَمْ أنَّ للهِ تعالىٰ عِباداً رُزِقُوا ذٰلكَ ، فصارَ همُّهم همّاً واحداً ، وأماتُوا غدَهُم وأمسَهُم ؛ لشُغلِهِم بوَقتِهِم ، فليَترامَ إلىٰ ذٰلكَ ، ولا يَقنَعْ بالدُّونِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يُحِبُّ معاليَ الأمورِ .

---

(١) يكرِّرُ السُّهرورديُّ لفظي (العينَ واللِّسانَ) لخطورتِهما ، وللتَّأكيدِ عن أنَّهما يُوردانِ الموارِدَ ، وأنَّهما أصلُ كلِّ شرٍّ ؛ إذا أُطلِقا في المحرَّماتِ واستُعمِلا فيما لا يَنبغِي .

وليكُن في الصَّلاةِ حافِظاً للحالِ ؛ وحِفظُ الحالِ : أنْ يكونَ في كلِّ كَلِمةٍ يقُولُها بلسانِه قائماً وراكعاً وساجداً ، يعلَمُ معناها بقلبِهِ ؛ ليكونَ المعنىٰ شاغِلاً للباطنِ مكانَ الوَسوسَةِ ، وهٰذا أصلٌ كبيرٌ فليَحفَظْهُ ، وهٰكذا يَنبَغِي أنْ يَفعَلَ في التِّلاوةِ والأذكارِ .

والله الموفّق والمعين

وصيَّةٌ أخرىٰ :

تيقَّظ أيُّها العاقلُ لمصالحِ دِينِكَ ، واستَنكِفْ لنَفسِكَ أنْ تكونَ في زُمرةِ الجاهلينَ .

واعلمْ بأنَّ اللهَ سبحانَهُ مُطالِبٌ لكَ بالقِيامِ بحقيقةِ العُبوديَّةِ ، ولمْ يَخلُقْكَ إلَّا لذٰلكَ ، عَلِمَ مَنْ عَلِمَ ، وجَهِلَ مَنْ جَهِلَ .

وفي العُبوديَّةِ حقٌّ وحقيقةٌ ، ورُخصةٌ وعزيمةٌ ، فالحقُّ : ظاهرُ الرُّخصَةِ ، والحقيقةُ : باطنُ العزيمةِ ، فالرُّخصةُ : قيامٌ بظاهرِ الشَّريعةِ ، والعزيمةُ : قيامٌ بحقِّ الحقيقةِ ، فمَنْ زَكَتْ نفسُهُ وعَلَتْ هِمَّتُه . . يَمتَطِي غَوارِبَ الحقيقةِ ، ويُشَمِّرُ عن ساقِ الجِدِّ في تَحقيقِ العزيمةِ ، ومَن تَقاصَرَ عن إدراكِ شَأْوِ العزيمةِ . . فلَا أقلَّ مِنْ أنْ يَتحصَّنَ بالرُّخصةِ وإلَّا . . خاضَ غَمَراتِ الوبالِ .

فكنْ أيُّها العاقِلُ صاحبَ عزيمةٍ ؛ فإنَّكَ إنْ زلَلَتَ . . وقَعتَ في الرُّخصةِ ، ولا تكُنْ صاحبَ رُخصةٍ ؛ فإنَّكَ إنْ زلَلَتَ . . وقعتَ في الزَّلَّةِ .

فاسمَعِ الآنَ شرحَ الرُّخصةِ والعزيمةِ :

فأمَّا الرُّخصةُ : فهي قِيامٌ بأوامرِ الشَّرعِ ، والتَّضيُّقُ فيما ضيَّقَ ، والتَّوسُّعُ فيما وسَّعَ وأباحَ ، وفي هٰذا لو كانَ لكَ مِنْ حَلالِ الدُّنيا مهما كانَ . . فما عليكَ وبالٌ ، ولا يَضُرُّك التَّوسُّعُ في القولِ والفعلِ ؛ ما لم يَتَّسِمِ القولُ والفعلُ بسِمَةِ المعصيَةِ والمخالَفةِ في ظاهرِ الشَّرعِ ، ولا بدَّ لكَ في القَناعةِ بهٰذا الحظِّ مِنْ ضَبطِ الجوارحِ عنِ القولِ الحرامِ ، والنَّظرِ الحرامِ ، والطَّعامِ الحرامِ ، واللِّباسِ الحرامِ ، وغيرِ ذٰلكَ مِن ظاهرِ الأحكامِ ؛ فكلُّ ذٰلكَ مِنْ لوازمِ الإسلامِ وتَمامِهِ وكَمالِهِ ؛ فلَا تكُنْ ممَّن قلَّ حظُّه مِنْ هٰذا القَدْرِ .

وإنْ كنتَ ممَّنْ يَتطاوَلُ أمَلُهُ ، وتَعلُو هِمَّتُه إلى العزيمةِ ، وأنْ تكونَ مِنْ أربابِ الحقيقةِ . . فلا بُدَّ لكَ مِنْ أربعةِ أشياءَ هي الأساسُ مع أشياءَ كثيرةٍ .

فأمَّا الأربعةُ : فقِلَّةُ الطَّعامِ ، وقِلَّةُ المنامِ ، وقِلَّةُ الكلامِ والِاعتزالُ عنِ النَّاسِ .

وشرحُ قِلَّةِ الطَّعامِ : أنْ يكونَ لكَ شِبَعٌ مُعتَدِلٌ بعدَ الجُوعِ ، والِاعتدالُ في الشِّبَعِ : أنَّكَ تَترُكُ الطَّعامَ وأنتَ بعدُ تَشتهيهِ .

وشرحُ قِلَّةِ المنامِ : أنَّكَ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ تنامُ الثُّلُثَ ؛ وهو ثَمانُ ساعاتٍ ؛ فبَعضُ ذٰلكَ بالنَّهارِ قَيلولةٌ للِاستعانةِ علىٰ قِيامِ اللَّيلِ ، وبعضُ ذٰلك باللَّيلِ في طَرَفَيهِ ، وإحياءُ أوسَطِه أفضلُ ، وأمَّا إحياءُ أحدِ طَرَفَيهِ أو كليهما مُوزَّعاً على الطَّرفَينِ كيفَ أمكنَ . . فحسَنٌ .

وقِلَّةُ الكلامِ شرحُهُ : أنْ تُمسِكَ عنِ القولِ فيما لا يَعنِي ، وحَدُّ ذٰلكَ : أنَّكَ لا تَتكلَّمُ إلَّا إذا توقَّعتَ بكلامِكَ نَفعاً دُنيَوِياً أو أخروياً ، وأنَّكَ إنْ سَكَتَّ . . يَفوتُكَ نفعٌ عاجلٌ أو آجلٌ .

وشرحُ الِاعتزالِ عنِ النَّاسِ : أنَّك تَقنَعُ مِنْ بَركَةِ مُخالَطةِ المسلمينَ بالجُمُعةِ والجماعةِ ، وإلَّا . . فِيما يعودُ نفعُهُ إليكَ عاجِلاً لضَرورةِ مَكسَبٍ يضُرُّكَ فَواتُهُ ؛ مُقيِّداً ذٰلكَ بالقناعةِ وتركِ الِاستكثارِ مِنَ الدُّنيا .

واعلمْ بأنَّ طالبَ العزيمةِ لا بدَّ لهُ مِنَ الزُّهدِ في حلالِ الدُّنيا ؛ ليَصِيرَ همُّه همّاً واحِداً ، ويَتفرَّغَ باطنُهُ ليكونَ مُلازِماً لحفظِ الحالِ ظاهراً وباطناً .

وحِفظُ الحالِ : بضَبطِ الظَّاهرِ والباطنِ علىٰ قانونِ العلمِ الظَّاهرِ والباطنِ ؛ وذٰلكَ بأنْ يَشهَدَ لهُ العِلمُ بالوفاءِ بحقيقةِ العُبوديَّةِ ، وهٰذا المقامُ عَسِرُ المنَالِ ؛ لا يكادُ يَفِي بهِ إلَّا كلُّ مُتحقِّقٍ بالزُّهدِ والتَّقوىٰ ، وإدامَةِ فعلِ الرِّضا ظاهِراً وباطناً ، ومثلُ هٰذا العبدِ أعزُّ مِنَ الكِبريتِ الأحمرِ ، وإذا تَحقَّقَ العبدُ بهٰذا المقامِ . . يصيرُ إماماً للمُتَّقينَ ، وعَلَماً للسَّالِكينَ ، ويكونُ وِعاءُ قلبِهِ فيَّاضاً ؛ تُقتبَسُ منهُ الأحوالُ .

وبابُ كلِّ خيرٍ ومَدخلُهُ حُسْنُ الِاقتداءِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم .

والآنَ أوجِزُ لكَ الوَصِيَّةَ ؛ فطالِعْ ما كتبتُ ، وتفَكَّر فيهِ ، وسَلِ اللهَ تعالىٰ صَفاءَ الفَهمِ والتَّوفِيقَ .

واللهُ الموفّق والمعين

ومِنْ كلامِهِ رحِمَهُ اللهُ قالَ :

سألنِي بعضُ الإخوانِ عن قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « إِنَّ رُوحَ ٱلْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي : أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، فَٱتَّقُوا ٱللهَ ، وَأَجْمِلُوا فِي ٱلطَّلَبِ »[١] .

فقلتُ ، واللهُ تعالىٰ أعلَمُ ، ومنهُ سبحانَهُ أسألُ التَّوفيقَ والقولَ السَّديدَ :

إنَّ النَّفْثَ رُتبةٌ خاصَّةٌ غيرُ رُتبةِ الوَحيِ الَّذي يأتِي بهِ جِبريلُ ، وغيرُ رُتبةِ الإلهامِ الَّذي يكونُ مِنْ غيرِ واسطةِ جبريلَ ، ولكلِّ واحدةٍ مِنْ هٰذه الرُّتَبِ الثَّلاثِ مَحَلٌّ مَخصوصٌ مِنْ باطنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فمَحلُّ الوَحيِ الَّذي سيأتي بهِ جبريلُ ومَوردُهُ . . القلبُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[٢] ، ثمَّ قالَ تِبياناً لمَحَلِّ الإنزالِ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[٣] .

[الرتبة الأولىٰ] : فالوحيُ الَّذي يَنزِلُ بهِ جِبريلُ على القلبِ النَّبوِيِّ : يَرى النَّبيُّ جِبريلَ صلَّى اللهُ عليهما وسلَّم عندَ الإلقاءِ ، ويَسمَعُ منهُ بعِبارةٍ مَخصوصَةٍ مَفهومَةٍ ، وهٰذا النَّوعُ مُختَصٌّ بهِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِم وسلَامُهُ ، لا يُشارِكُهُم فيهِ غيرُهُم ، وإنَّما كانَ مَحَلَّهُ القلبُ ؛ لأنَّ القلبَ لهُ وجهٌ إلىٰ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ، ولهُ وجهٌ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ والملكوتِ ، فبِوجهِهِ إلىٰ عالَمِ الغَيبِ والملكوتِ مُجانِسُ الرُّوحِ ، وبوجهِهِ إلىٰ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ مُجانِسُ النَّفسِ ، ولمَّا كانَ الكلامُ القَديمُ الأزليُّ الَّذي نزلَ بهِ جِبريلُ . . متَعلِّقاً بمصالحِ

---

(١) أخرجه هنَّاد السَّري في « الزهد » (٤٩٤) والحاكم في « المستدرك » (٤/٢) ، من حديث سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .

وأخرجه البزار في « المسند » (٢٩١٤) من حديث سيدنا حذيفة رضي الله عنه .

(٢) سورة النحل : (١٠٢) .

(٣) سورة الشعراء : (١٩٣ ـ ١٩٥) .

عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ مِنْ بَيانِ الحلالِ والحرامِ ، والحدودِ والأحكامِ ، وسائرِ قواعدِ شرائعِ الإسلامِ ؛ سياسةً للخلقِ وتَأديباً لنُفوسِهِم ، وتَقييداً لِطباعِهِم ، وحِراسةً لأموالِهِم وأنفُسِهِم ، وكانَ حَبلُ اللهِ المتينُ كما وردَ في الخبرِ : « طرَفٌ بيَدِهِ وطَرَفٌ بِأَيْدِيكُمْ »(١) ، فكانَ ذا طرَفينِ ، فلَزِمَ أنْ يكونَ مَورِدُهُ ذا وجهينِ ؛ فيَلقاهُ قلبُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بوجهِهِ الَّذي يُجانِسُ الرُّوحَ ، ويُلقِيهِ إلى الخَلقِ ويُبلِّغُهُ بالوجهِ الَّذي يُجانِسُ النَّفسَ ، إلىٰ لسانِ تُرجُمانِ قلبِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾(٢) .

ولمَّا كانتِ النَّفسُ الطَّاهرةُ النَّبوِيَّةُ جانَستِ النُّفوسَ . . حصَلَتْ فائدةُ التَّبليغِ ؛ إذْ لوْ لمْ تكُنِ المجانَسةُ . . تَعذَّرَتِ الفائدةُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾(٣) ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾(٤) ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾(٥) ، نبَّهَ الحقُّ سبحانَهُ علىٰ أنَّ الجِنسيَّةَ كانَتْ مِنَ الحِكمَةِ الإلـٰهيَّةِ ، ولمَّا كانَتِ الجِنسيَّةُ مُفيدةً في البَلاغِ والرِّسالةِ . . كانَتْ مُفيدةً أيضاً في جِنسيَّةِ أحدِ وجهَيِ القلبِ مع النَّفسِ ؛ فالقلبُ مُبلِّغٌ إلى النَّفسِ النَّبويِّ بوجهِهِ الَّذي يلِيهِ ، ونفسُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُبلِّغةٌ إلى الأمَّةِ رحمةً مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، فاتَّضحَ بهـٰذا الكلامِ حقيقةُ الوحيِ الَّذي كان يأتِي به جِبريلُ ، ووجهُ اختِصاصِه بالقلبِ ، والحِكمَةُ في ذٰلك .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « المُصنَّف » (٣٠٦٢٨) ، وابن حبان في « الصحيح » (١٢٢) من حديث سيدنا أبي شُريحٍ الخُزاعيِّ رضي الله عنه .
(٢) سورة المائدة : (٦٧) .
(٣) سورة التوبة : (١٢٨) .
(٤) سورة الكهف : (١١٠) .
(٥) سورة الأنعام : (٩) .

وأمَّا الرُّتبةُ الثَّانيةُ ؛ وهو الإلهامُ : فهو وحيٌ أيضاً ، غيرَ أنَّهُ يُشارِكُ فيهِ الأنبياءَ غيرُهُم ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ [1] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [2] ، فهـٰذا الوحيُ مُجرَّدُ الإلهامِ ، ثمَّ إنَّ مِنَ الإلهامِ علوماً تَحدُثُ في النُّفوسِ الزَّكيَّةِ ، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لَمُحَدَّثِينَ وَمُكَلَّمِينَ ، وَإِنَّ عُمَرَ لَمِنْهُمْ » [3] ، وهي علومٌ لَدُنِيَّةٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [4] ، ويكونُ ذٰلك للأنبياءِ والأولياءِ والصَّالحينَ مِنَ المؤمِنينَ .

ومَحَلُّ هـٰذا الجِنسِ ومَورِدُهُ : النَّفسُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [5] ، فأخبرَ أنَّ النُّفوسَ مُلهَمةٌ ، فالنَّفسُ الملهَمةُ علوماً لدُنِيَّةً هي الَّتي تَبدَّلَتْ صِفتُها واطمأنَّتْ ، أمَّارةٌ بالسُّوءِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [6] ، ثمَّ وصفَها بالطُّمأنِينَةِ ؛ فقالَ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [7] ، فإذا اطمأنَّتْ . . صارَتْ مُلهَمةً ، وانتَقَشَ فيها علومٌ لَدُنِيَّةٌ إلهامِيَّةٌ .

ولمَّا كانَ في النَّفسِ مِنِ استِعدادِ التَّبدُّلِ والِانتزاعِ مِنْ صِفَتِها الأمَّارةِ . . قُلنا : إنَّ النَّفسَ إذا تَركَتْ هَواها . . قلَّتْ ظُلمتُها ؛ وذٰلكَ لأنَّ اللهَ تعالىٰ خَلقَ النَّفسَ أَرضِيَّةً سُفلِيَّةً جَسَدانِيَّةً ، والرُّوحَ عُلويَّةً رُوحانيَّةً سَماويَّةً ، فللرُّوحِ بوَضعِ جِبلَّتِها نورٌ يَسرِي ، وللنَّفسِ بِوضَعِ جِبلَّتِها ظُلمَةٌ تُعْدِي ، فإذا كانَتِ النَّفسُ أمَّارةً بالسُّوءِ . . تتَصاعَدُ منها ظُلمَةٌ تَلتَحِقُ بالرُّوحِ فتُقيِّدُهُ ؛ فلَا يَسرِي نُورُها ؛

---

(١) سورة القصص : (٧) .
(٢) سورة النحل : (٦٨) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٨٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، بمعناه .
(٤) سورة الكهف : (٦٥) .
(٥) سورة الشمس : (٧ ـ ٨) .
(٦) سورة يوسف (٥٣) .
(٧) سورة الفجر : (٢٧) .

لتقيُّدِها بظُلمَةِ النَّفسِ ، فإذا تزَكَّتِ النَّفسُ وأقبلَتْ على اللهِ بأداءِ حقِّ العُبوديَّةِ . . نَقِلُّ ظُلمَتُها ، فيَنطَلِقُ الرُّوحُ مِنْ وَثاقِها ؛ فيَسرِي حينئذٍ نورُهُ حتَّىٰ يَنعَكِسَ على القلبِ ، فيُجانِسُ القلبُ الرُّوحَ ، ويَخرِقُ النُّورُ القلبَ ، ويَلتَحِقُ بالنَّفسِ ، فتَصِيرُ النَّفسُ مُطمئِنَّةً ، وتَصِيرُ بطَبعِ القلبِ مُجانِسةً لهُ ؛ لوصولِ نُورِ الرُّوحِ إليها ، يَتبدَّلُ بعضُ ما فيها مِنَ الحديثِ علوماً إلهاميَّةً .

وللنَّفسِ حديثٌ لا يَنقَطِعُ ؛ إذْ هي ناطقةٌ كما خلقَها بارئُها ، فإذا انعَكسَ عليها أنوارُ الرُّوحِ . . تَبدَّلَ بعضُ حديثِها علىٰ حالِهِ بحُكمِ قَضيَّةِ جِبلَّتِها ، فتَبيَّنَ بهٰذا الكلامِ الرُّتبةُ الثَّانيةُ : وهو الإلهامُ ، وأنَّ مَحَلَّهُ النَّفسُ المطمئنَّةُ الملهَمةُ النَّاطِقةُ ، وهٰذا الجِنسُ لمْ تَتعلَّقْ بِهِ المصالِحُ العامَّةُ مِنْ عالَمِ المُلكِ والشَّهادةِ ؛ بلْ تَختَصُّ فائدتُهُ بصاحبِهِ دونَ غيرِهِ ؛ إذْ لمْ يكُنْ لهُ ثَمَرةُ السِّرايةِ إلى الغيرِ علىٰ طريقِ العُمومِ ، وإنْ كانَتْ لهُ فائدةٌ تتَعلَّقُ بالأغيارِ علىٰ وجهٍ خاصٍّ يطولُ شَرحُهُ .

وإنَّما لمْ تكُنْ لهُ ثَمَرةُ السِّرايةِ إلى الغَيرِ علىٰ طريقِ العموم مِنْ مَصالِحِ عالَمِ المُلكِ ؛ لكَونِ مَحَلِّهِ النَّفسَ ، وقُربِها إلى الأرضِ والعالَمِ السُّفليِّ ؛ بخِلافِ الرُّتبةِ الأُولىٰ : وهي الوحيُ الَّذي يأتي بهِ المَلَكُ المُلقِي ؛ لأنَّ مَحَلَّهُ القلبُ المجانِسُ للرُّوحِ الرُّوحانِيِّ العلويِّ ، وقدْ تقدَّمَ شرحُهُ(١) .

وأمَّا الرُّتبةُ الثَّالثةُ ـ وهو النَّفْثُ في الرُّوعِ ـ : وهٰذه لفظةٌ غَريبةٌ لمْ تَرِدْ في الألفاظِ النَّبوِيَّةِ إلَّا في هٰذا الخبرِ ، وما وردَتْ إلَّا ولها معنىً خاصٌّ غيرُ الرُّتبَتَينِ السَّابِقتَينِ .

فأقولُ : هٰذه رُتبةٌ عزيزةٌ ورحمةٌ خاصَّةٌ ومَوهِبةٌ رُوحيَّةٌ تَرِدُ مِنَ اللهِ تعالىٰ على الرُّوحِ ؛ فيَزدادُ الرُّوحُ بها اتِّساعاً في المعارفِ والعلومِ والمشاهَدةِ ، وتَفِيضُ على النَّفسِ والقلبِ مِنْ ذٰلكَ ، فعِندَ وُرودِ هٰذه الرَّحمةِ على الرُّوحِ يَزدادُ الرُّوحُ قُرباً ، ويزدادُ القلبُ عِلماً باللهِ ، وتَزدادُ النَّفسُ عِلماً بأجزاءِ الكائناتِ وإدراكِ المَغِيباتِ ،

---

(١) انظر (ص ٤٠٠) .

فهٰذه الرَّحمةُ الخاصَّةُ تَرِدُ مِنَ اللهِ غيرَ مُسمَّاةٍ بالنَّفْثِ ، ويكونُ لأرواحِ الأولياءِ والصِّدِّيقِينَ منها نَصِيبٌ ، يُفِيدُهُم قُرباً وعِلماً وإحاطةً بأجزاءِ بعضِ الكائناتِ ، وإدراكَ شيءٍ مِنَ المَغِيباتِ .

وإنَّما يكونُ نَفْثاً في حقِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ لأنَّها تتَّصِلُ بروحِ القُدُسِ وتَرِدُ عليهِ كمَوجَةٍ تَرِدُ علىٰ بحرٍ ، فيكشفُ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جِبريلُ عَقِبَ ورُودِها علىٰ جِبريلَ ، فتَصِيرُ الرَّحمةُ بواسطةِ جِبريلَ واصِلةً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنَفْثٍ منهُ ، فتُحدِثُ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قُرباً رُوحِيّاً وعِلماً قَلبياً ، وإحاطةً بأجزاءِ الكائناتِ ، وعِلماً بالمَغِيباتِ .

وسِرُّ وصولِ هٰذه الرَّحمةِ إلىٰ جِبريلَ ثمَّ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ووُصولِها إلىٰ غيرِ الأنبياءِ علىٰ أقدارِهِم ورُتَبِهِم لا بواسطةِ جِبريلَ ؛ بلْ إنَّ غيرَ الأنبياءِ تَرِدُ عليهِمُ الرَّحمَةُ قُدرةً مِنَ القادرِ ، والأنبياءُ تَرِدُ عليهِم بواسطَةِ رُؤيَةِ جِبريلَ ونَفْثِهِ قُدرَةً مع مَزْجِ حِكمَةٍ ؛ لزيادَةِ الاتِّساعِ وكمالِ المواهبِ ؛ لأنَّ آثارَ القُدرةِ إذا تَجلَّت في القَوالبِ الحَكيمةِ . . كانَتْ أتمَّ وأبلَغَ ، وهٰذا علمٌ ظاهرٌ عندَ أربابِهِ ، وشَرحُهُ يطولُ .

فانكشَفَ للنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بالنَّفْثِ في الرُّوعِ أنْ سيَبلُغُ مُلكُ أُمَّتِه ما زُوِيَ لهُ مِنَ الأرضِ[1] ، وأنَّهُ أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مُشفَّعٍ[2] ، وأنَّ لِواءَ الحمدِ بيدِه[3] . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ، وانكشَفَ لهُ أنَّهُ لنْ تموتَ نفسٌ حتَّىٰ تَستَوفيَ رِزقَها .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) من حديث سيدنا ثوبان رضي الله عنه ، وفيه : « إنَّ اللهَ زَوَىٰ لِي الأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ . . . » الحديث .

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، بلفظ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَا فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ ، وَلَا فَخْرَ ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا فَخْرَ » .

فتَقرَّرَ أنَّ مَحَلَّ الوحيِ بواسطةِ جِبريلَ القلبُ ، ومَحَلَّ الإلهامِ مِن غيرِ واسطةٍ النَّفسُ المُلهَمةُ ، ومَحَلَّ النَّفثِ الرُّوعُ ، فانكشَفَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بنَفثِ جِبريلَ عليهِ السَّلامُ أنَّ اللهَ تعالىٰ خَلَقَ عالَمَ الشَّهادةِ وكَوَّنَهُ ، وأحاطَ عِلماً بكُلِّيَّاتِ الكائناتِ فيهِ وجُزئِيَّاتِها ؛ لا يَعزُبُ عن عِلمِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ ، فأحصى الأرزاقَ والأقسامَ والمقسومَ لهم بعلمٍ واحدٍ أزليٍّ ، تتَعدَّدُ المعلوماتُ وهو مُتَّحِدٌ ، وجَعلَ كلَّ قِسمٍ بإزاءِ مَنْ قُسِمَ لهُ ، ولولَا المقسومُ لهُ . . لمْ يكُن قِسماً ، ولولَا القِسمُ . . ما كانَ المقسومُ لهُ ؛ فتَلازمَا وُجوداً وعَدَماً ضَرورةَ مِنْ وجودِ أحدِهما وجودُ الآخرِ ، ومِنْ عَدَمِه عَدَمُهُ ؛ إذْ وقَعَ ذٰلكَ قِسمَةً عادلةً ومُوازَنةً صَحِيحةً مِنْ حكيمٍ قادرٍ عالِمٍ عن إتقانٍ وإحكامٍ وعلمٍ تامٍّ ، فأعلَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الأُمَّةَ وعلَّمَهُم وأسمَعَهُم .

فمِنهم مَنْ سَكَنَ إلىٰ قَولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وصَدَّقَهُ إيماناً ، فسَكنَتْ جَوارِحُهُ عن كَدِّ الحِرصِ وشِدَّةِ الطَّمَعِ ، ومنهُم مَنِ انكشَفَ لهُ ذٰلكَ إيقاناً باهراً عِياناً ؛ ببرَكةِ مُتابَعتِهِ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فتَحصَّلَ علىٰ بَرْدِ اليَقينِ ، وثَلْجِ الصَّدرِ ، وصِدقِ التَّوكُّلِ ، وصَفاءِ المعرفَةِ ، وسُكونِ القلبِ ، ورُكودِ الجَوارحِ ، فارتاحَ قلبُهُ ، وأراحَ جوارحَهُ ؛ لعمَلِهِ للهِ وإحكامِهِ وإتقانِهِ ومَشِيئَتِهِ السَّابقَةِ ، فصارَ علىٰ يقينٍ كالجبالِ ، لا يَتزَعزَعُ عندَ وُرودِ الشُّبُهاتِ ، ولا يَضطَرِبُ عندَ هُجومِ الخَيالَاتِ ، لا يَستَعبِدُهُ حِرصٌ ، ولا يَكُدُّه شَرَهٌ ، ولا يَستَجذِبُهُ طَمَعٌ ، ولا يَعتَرِيهِ طَبعٌ ، فسَمِعَ قولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « فَاتَّقُوا ٱللهَ ، وَأَجْمِلُوا فِي ٱلطَّلَبِ »[1] ، فمِنهُم مَنْ لَم يَطلُبْ ، وفَهِمَ مِنْ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فَاتَّقُوا ٱللهَ » : أنَّهُ مأمورٌ بعَدَمِ الطَّلَبِ ؛ إذِ المتَّقِي حقَّ التَّقوىٰ : مَن دامَتْ شهادتُهُ استِحياءً مِنْ مَشهُودِهِ أنْ يراهُ ساعِياً في حَظِّهِ ؛ لعِلمِهِ بِسَعةِ مُلكِ مَشهودِهِ ، وكمالِ عِلمِهِ بحالِهِ ، ووُفُورِ رَحمَتِهِ أنَّهُ لا

(١) سبق تخريجه (ص ٤٠٠) .

يُحوِجُهُ إلىٰ سَعيِهِ وكَدِّهِ ، فلمَّا سَكَنَ عنِ الطَّلَبِ . . أتَتهُ الدُّنيا راغِمَةً ، وخَدمَتْهُ الأكوانُ ، ويَتناوَلُ حظَّه مِنَ الدُّنيا مأموناً مِنَ الخُسرانِ ، مِنْ غيرِ بَخْسٍ ونُقصانٍ ، كما يَتناولُ في الجِنانِ .

ومِنهُم مَنْ طَلَبَ وأجْمَلَ في الطَّلبِ ، فاتَّبَعَ الأمرَ ، واجتَنبَ النَّهيَ ، وصَفَّى الأعمالَ بالشَّرعِ .

فلِلأوَّلِ نَصِيبٌ مِنْ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلتَّوكُّلُ حَالَتِي » ، وللثَّاني نَصِيبٌ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلتَّكَسُّبُ سُنَّتِي »[1] .

والله الموفّق والمعين

---

(١) قوله : « التَّوكُّلُ حالَتِي ، والتَّكسُّبُ سُنَّتِي » لم أقف عليه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم . وقد أخرج السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٣١٢) ، ومن طريقه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٢٣٠) ، وابن الجوزي في « تلبيس إبليس » (ص ٢٥٠) من طريق عَبْدِ اللهِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى السَّرَّاجِ ، يَقُولُ : سُئِلَ ابْنُ سَالِمٍ بِالْبَصْرَةِ وَأَنَا أَسْمَعُ : أَنَحْنُ مُسْتَعْبَدُونَ بِالْكَسْبِ أَوْ بِالتَّوَكُّلِ ؟ قَالَ ابْنُ سَالِمٍ : (التَّوَكُّلُ حَالُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْكَسْبُ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . .) .

ومِنْ كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ في الأقسامِ الأربعةِ في الزُّهدِ :

الزُّهدُ علىٰ أربعِ مراتبَ : وفي كلِّ مرتبةٍ منها طبقةٌ مِنَ الصَّالحينَ ، وأنا أذكرُ بتوفيقِ اللهِ كلَّ مرتبةٍ منها وأشرحُها .

فأمَّا الرُّتبتانِ الأُوليانِ : فقدْ علِمتُهُما وسَمِعتُهُما مِنَ المشايخِ والعلماءِ ، وإليهما إشاراتٌ في الكُتُبِ والحِكاياتِ عنِ المشايخِ وسالكِي طريقِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ .

وأمَّا الرُّتبتانِ الأُخريانِ : ففتُوحُ الغَيبِ .

وأنا أسألُ اللهَ تعالىٰ نَيلَ التَّوفِيقِ ، وأستَعصِمُهُ وأعوذُ بِهِ مِنَ الخطَأ والزَّلَلِ ، وأنْ أقولَ في العلمِ بغيرِ عِلمٍ ، أو أعملَ في الدِّينِ بغيرِ يَقِينٍ .

فأمَّا الرُّتبةُ الأُولىٰ : في أوَّلِ الزُّهدِ وفيهِ أكثَرُ الزُّهَّادِ ، وهو المعروفُ المشهورُ عندَ الخلقِ ، وإيَّاهُ أرادَ أكثرُ العلماءِ .

وهو : عُزوفُ النَّفسِ عنِ الدُّنيا ، وقَطعُ الهمِّ عن فُضولِها ، والقَناعةُ بِقدْرِ البُلغَةِ مِنَ المأكولِ ، وقطعُ الهمِّ عنِ الَّذي سِواهُ ، والزُّهدُ في المسكنِ والملبوسِ إلَّا قَدْرَ ما لا بدَّ منهُ ، وإلىٰ غيرِ ذٰلك مِنَ الزُّهدِ في الجاهِ عندَ الخلقِ .

وأجمَعُ كلمةٍ تُقالُ فيهِ : الزُّهدُ في الهوَىٰ ؛ حتَّىٰ في الكلامِ ، وإظهارِ العلومِ والمَقاماتِ والأحوالِ ، وكلِّ ما تَدعو النَّفسُ إليهِ بهَواها ؛ فإنَّ للنَّفسِ هوىً خَفِيّاً وشَهوةً في كثيرٍ مِن أبوابِ البِرِّ ، فتكونُ صورتُهُ عبادةً وطاعةً ، وهو لموضِعِ الشَّهوةِ الخَفِيَّةِ وشِرْبِ[1] النَّفسِ غيرُ ذٰلكَ .

وكثيرٌ مِنْ أبوابِ البِرِّ يدخُلُ فيهِ بعضُ النَّاسِ بِنيَّةٍ خالِصَةٍ ؛ وهو عبادةُ ذٰلكَ

---

(١) الشِّربُ هنا بكسرِ الشِّينِ المعجمَة بمعنى : الحظِّ والنَّصِيبِ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ . . . ﴾ الآية [الشعراء : ١٥٥] .

الشَّخصِ مِنْ حيثُ حالُهُ ومُنتَهىٰ علمِهِ بتَصحِيحِ النِّيَّةِ ، وهو بعينِهِ بالإضافَةِ إلىٰ غيرِهِ ليسَ بعبادةٍ ؛ لِما يَعلَمُ مِنْ نَفسِهِ مِنَ الشَّهوةِ الخَفِيَّةِ فيهِ ، وهـٰذه الشَّهوةُ لا تَنكَشِفُ للرَّجلِ الأوَّلِ لقُصورِ حالِهِ ومَرتَبَتِهِ ، وتَنكَشِفُ للثَّاني .

فأمَّا الأوَّلُ : مأجورٌ ومشكورٌ .

والثَّاني : غيرُ مأجورٍ علىٰ ذٰلكَ ؛ لموضِعِ عِلمِهِ واطِّلاعِهِ ، ثمَّ تَخلُّفِهِ عنِ العملِ بمُقتَضىٰ عِلمِهِ : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[1] ، فإذا تَجرَّدَ العبدُ هـٰذا التَّجرُّدَ عن فُضولِ الدُّنيا للهِ تعالىٰ ، وسَلَا عنها ، وعانقَ الإقبالَ على اللهِ تعالىٰ وطاعتِهِ ليلَهُ ونهارَهُ ، وانقَطعَ همُّهُ عن غدٍ وما يَتكوَّنُ فيهِ مِن أمورِ الدُّنيا ، وشَغَلَهُ وقتُهُ الحاضِرُ عن وقتِهِ الآتي . . فهو الزَّاهدُ .

فإذا تَحقَّقَ بها حتَّىٰ يَعلَمَ مولاهُ أنَّ نفسَهُ لا تَنزِعُ إلىٰ فُضولِ الدُّنيا ، وحَصَلَ على الطَّهارةِ والتَّقوىٰ ، وانقطعَ عنِ الدُّنيا وانقَطعَتْ عنهُ . . فعندَ ذٰلكَ يكونُ بريءَ السَّاحةِ ، غيرَ مُتَّهمٍ بمَحبَّةِ الرُّتبةِ عندَ مولاهُ وخالقِهِ ، فيُرقِّيهِ اللهُ تعالىٰ عن هـٰذه الرُّتبةِ إلى الرُّتبةِ الثَّانيةِ في الزُّهدِ .

الرُّتبةُ الثَّانيةُ : هو أن يَكشِفَ الحقُّ سبحانَهُ لهُ حِجاباً ، ويَبذُلَ لهُ شيئاً مِنْ قُرْبِهِ ، ويَنكشِفَ لهُ شيءٌ مِنْ لمَعانِ سُبُحاتِ وَجهِهِ ، ويَصِيرَ لهُ بابٌ مَفتوحٌ إلىٰ جَنابِهِ الكريمِ ، ويَكشِفَ اللهُ تعالىٰ لهُ عن مُرادِهِ فيهِ ، فيُحكِمُ عِلمَهُ باللهِ تعالىٰ وبأمرِهِ عليهِ أنْ يَخرُجَ مِنْ إرادتِهِ في الأشياءِ ، فيَخرُجُ عندَ ذٰلكَ مِنْ إرادتِهِ لتَركِ الدُّنيا أيضاً ، ومِنْ إرادتِهِ للدُّنيا ، فيَستَوِي عندَهُ تركُها والتَّلبُّسُ بها ؛ لأنَّهُ تركَها حينَ تركَها لإرادةِ نفسِهِ مُتقرِّباً إلى اللهِ تعالىٰ ، فيَزهَدُ في الزُّهدِ الَّذي كانَ دُخولُهُ فيهِ بإرادتِهِ ؛ لأنَّه يَرىٰ أنَّ إرادتَهُ تَستَنِدُ إلىٰ عِلمِهِ القاصِرِ ، فيقُومُ بمُرادِ الحقِّ في الأشياءِ ؛ فقدْ يَنكشِفُ لهُ في شيءٍ مِنَ الدُّنيا أنَّ اللهَ تعالىٰ يُريدُ منهُ التَّلبُّسَ بهِ ، فيدخُلُ فيها باللهِ تعالىٰ تارِكاً بإرادتِهِ ، زاهداً في زُهدِهِ .

---

(١) سورة الزخرف : (٣٢) .

فقدْ كانَ قلبُهُ يُريدُ الزُّهدَ أوَّلاً ، ونفسُهُ تُريدُ الدُّنيا ، فحيثُ وصلَ إلىٰ هٰذا المَقامِ . . صارَتْ نفسُهُ بِطَبعِ القلبِ تُرِيدُ الزُّهدَ في الدُّنيا ، وقلبُهُ يُرِيدُ ربَّهُ ، فيَغلِبُ قلبُهُ نفسَهَ ، فيدخُلُ في الأشياءِ بالحقِّ ، فيَراهُ مَن لا يَعلَمُهُ أنَّهُ رَجَعَ إلىٰ شيءٍ مِنَ الدُّنيا ، ولا يَعلَمُ أنَّ رُجوعَهُ بالحقِّ ، لا بإرادةِ نفسِهِ ، فقلبُهُ أخَذَ طَبْعَ الرُّوحِ ، ونَفسُهُ صارَتْ تَنوبُ عنِ القلبِ في إرادةِ الزُّهدِ الأوَّلِ ، فبينَ هٰذا الزُّهدِ الثَّاني ـ وهو الزُّهدُ في الزُّهدِ ـ وبين زُهدِهِ الأوَّلِ مِنَ الدَّرجَةِ ما لا يُدرِكُهُ إلَّا مَن رُزِقَ ذٰلكَ ، وفي هٰذه الرُّتبَةِ أُقِيمَ جَمِيعُ الصَّالحينَ والزُّهَّادِ المتَحقِّقِينَ والعلماءِ الرَّاسِخينَ وأَئِمَّةِ المتَّقِينَ ، وقدْ يَرقَىٰ ببعضِ الزُّهَّادِ مِنْ هٰذه الرُّتبةِ بعدَ التَّحقُّقِ بها والتَّمكُّنِ فيها إلىٰ رتبةٍ ثالثةٍ في الزُّهدِ .

والرُّتبةُ الثَّالثةُ : أن يُكشَفَ لهُ أنَّ اللهَ تعالىٰ مُدبِّرٌ حَكِيمٌ ، رؤوفٌ رحيمٌ بالعبادِ ، لطيفٌ بأهلِهِ وخاصَّتِهِ ، فمِنْ حُسنِ تَدبيرِهِ أنْ جَعلَ نفسَ الآدمِيِّ بوضْعِ جِبِلَّتِها طالبةً للعِوَضِ في كلِّ ما تُخرِجُ ، فلَا تَترُكُ الشَّيءَ إلَّا إذا رأتْ خَيراً منهُ ، فلمَّا زَهِدَ العبدُ أوَّلاً ، وتَركَ الأشياءَ للهِ تعالىٰ ، ورَغِبَ فيما عندَ اللهِ تعالىٰ ، وآثَرَ الآخِرةَ على الدُّنيا . . فتركَ العبدُ الدُّنيا للآخرةِ ، فكانَ هٰذا عِوضاً مُؤجَّلاً عندَ النَّفسِ ، ولا بدَّ لها مِنْ عِوضٍ مُعجَّلٍ ، فكانَ إرادتُها لهٰذا الزُّهدِ وإرادتُها لتَركِ الدُّنيا عِوضاً مُؤجَّلاً ، فتَروَّحَتْ بإرادتِها وأخذَتْهُ عِوضاً عنِ الدُّنيا الَّتي تَركتْها ، فللنَّفسِ في استِبدادِها بإرادَتِها شِرْبٌ تامٌّ .

فلمَّا وقَفَها الحقُّ علىٰ هٰذا الزُّهدِ الثَّاني . . حَكَمَ الزُّهدُ الثَّاني عليها بالِانسلَاخِ مِنَ الإرادةِ ، فانسَلخَتْ مِنْ إرادتِها ، وتَشَرَّفَتْ إلىٰ عِوَضٍ مِنْ إرادتِها ، فردَّ الحقُّ سبحانَهُ عليها الحظوظَ والسَّعةَ في الدُّنيا عِوضاً عندَها عن إرادتِها ، وحيثُ تركَتْ إرادتَها لإرادةِ اللهِ تعالىٰ ، فأخذَتْ ما أخذَتْ مِنَ الدُّنيا بإرادةِ اللهِ تعالىٰ ، فسَكنَتْ إلىٰ ذٰلكَ ، ولمْ تَستَبْشِعْ ما أتاها مِنَ الدُّنيا وما أنكرَتِ التَّلبُّسَ بهِ ؛ لكَونِ العبدِ عَلِمَ أنَّ دخولَهُ باللهِ ، وأنَّهُ قائمٌ بإرادةِ اللهِ تعالىٰ ، فالزَّاهدُ الثَّاني

قَنَعَ بكونِهِ انسَلَخَ عن إرادتِهِ ، ويكونُ في الأشياءِ باللهِ تعالىٰ ، فرأىٰ أنَّهُ بَرِيءُ السَّاحةِ ، صحيحٌ مع اللهِ تعالىٰ ، غيرُ متَّهمٍ فيما أخذَ مِنَ الدُّنيا .

والزَّاهدُ الثَّالثُ انكشَفَ لهُ أنَّ هٰذه الدُّنيا سِيقَتْ إليهِ عِوضاً عن إرادتِهِ ، فَما أَحَبَّ أنْ تكونَ عبوديَّتُهُ بالأعواضِ ، فانكشَفَتْ لهُ العُبودِيَّةُ الصِّرفَةُ مِن غيرِ طلبِ عِوَضٍ ، وعَلِمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ بلَطِيفِ حِكمَتِهِ أدخَلَ عليهِ الحظوظَ رِفقاً بهِ ، فكشَفَ لهُ الحقُّ الزُّهدَ الثَّالثَ ، فتَركَ ذٰلكَ الرِّفقَ مِنَ اللهِ للهِ باللهِ ، وعَلِمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ ما أطلَعَهُ علىٰ هٰذه الرُّتبةِ إلَّا وهو يُرِيدُ منهُ ذٰلكَ ، فخَرجَ مِنْ قِيامِهِ بإرادةِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ إرادتِهِ ، وكانَ رُجوعُهُ رجوعَ تَرقٍّ ؛ فإنَّ إرادتَهُ هٰذه آنِفاً باللهِ تعالىٰ أيضاً ، فكأنَّ اللهَ تعالىٰ وهبَ لهُ وُجوداً جديداً ، وكوَّنَهُ تَكوِيناً ثانياً بعدَما كانَ أعدَمَ وجودَهُ بإعدامِ إرادتِهِ ، فتَركَ الحظوظَ بإرادةِ نَفْسِهِ ، فبزُهدِهِ الأوَّلِ قَطعَ حُجُباً أرضِيَّةً ، فوصَلَ إلىٰ إرادةِ اللهِ تعالىٰ ، وتَحقَّقَ بالزُّهدِ الثَّاني ، وبزُهدِهِ الثَّاني صارَ ذا قلبٍ ، وبالزُّهدِ الثَّالثِ انسلَخَ مِنَ القلبِ كما انسَلَخَ مِنَ النَّفْسِ ؛ لأنَّ النَّفْسَ وجودُهُ ظُلمانِيٌّ أرضِيٌّ ، والقلبَ وجودُه نُورانِيٌّ سماوِيٌّ ، فكانَ مُطالَعَتُهُ لسَواطعِ القُرْبِ ، وطريقُ الأفعالِ في الزُّهدِ الثَّاني حيثُ انكشَفَ لهُ شيءٌ مِنْ سُبُحاتِ وَجهِهِ الكريمِ ، كانَ ذٰلكَ الكَشْفُ والتَّجلِّي مِنْ طَريقِ الأفعالِ والصِّفاتِ .

وفي الزُّهدِ الثَّالثِ انكشَفَ لهُ لَمْحٌ يَسِيرٌ مِن تَجلِّي الذَّاتِ الَّذي يكونُ كمالُ ذٰلكَ في الآخرةِ ، فصارَ في مَقامِ الزُّهدِ الثَّالثِ مُحقَّقاً بهِ ، تارِكاً للزُّهدِ الثَّاني ، مُشاكِلاً للزُّهدِ الأوَّلِ ، وشَتَّانَ بينَ الأوَّلِ والثَّانِي مِنْ حيثُ المعنَىٰ ، وإن تَشاكلا مِنْ حيثُ الصُّورةُ ؛ ففِي الزُّهدِ الثَّاني هو فانٍ في الحقِّ لوقوفِهِ مع إرادةِ اللهِ تعالىٰ وانسِلَاخِهِ عن إرادةِ نفسِهِ ، وفي الثَّالثِ هو باقٍ بالحقِّ ، ووهَبَ اللهُ سبحانَهُ لهُ وجوداً ثانياً كما ذكرنا ، ذا وجودٍ موجودٍ باللهِ سبحانَهُ ، انقَطعَ عنِ الأشكالِ وجاوَزَ الأشباهَ ، وصارَ واحِداً للهِ في أرضِه ، فيُحدِثُ الحقُّ عندَهُ انبِعاثاً إلى الخَلقِ

يُريدُهُم للهِ تعالىٰ ، وفي طريقِ الاستقامَةِ لعبوديَّةِ اللهِ تعالىٰ ، وكلُّ مَنْ يَرىٰ عندَهُ شيئاً مِنَ اللهِ تعالىٰ وآثارِ فَضلِهِ . . يَنبَعِثُ إليهِ بالكُلِّيَّةِ ويَطلُبُهُ ، ويكونُ ناصِحاً للخَلقِ كافَّةً ، أمِيناً مِنْ عندِ اللهِ فِيهِم ، فيُلقَىٰ إليهِ أنَّهُ مُرادٌ بنُصحِهِم ودعوتِهِم إلى اللهِ تعالىٰ علىٰ بَصِيرَةٍ ؛ نيابةً عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وخِلَافةً مِنَ اللهِ تعالىٰ إيَّاهُ في البَواطنِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[1] ، فكما أنَّ في الظَّاهرِ خليفةً يَسوسُ أُمَمَ العبادِ والبلادِ . . يكونُ في الباطنِ خليفةٌ تَصدَّقَ اللهُ بهِ على الخَلقِ ، فإذا عَلِمَ أنَّهُ في هٰذا المَقامِ . . فزُهدُه يَقضِي بانقطاعِ رابِطَتِهِ عمَّا سِوى اللهِ تعالىٰ ، وباطِنُهُ يُطالِبُ بالِانفرادِ بالحقِّ ، لا يَسَعُهُ شيءٌ ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِي مَعَ ٱللهِ وَقْتٌ لَا يَسَعُنِي فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ »[2] .

وعِلمُهُ بالقيامِ الَّذي وصَلَ إليهِ يَقضِي بأنْ يكونَ لهُ مع الخَلقِ شُغُلٌ ؛ ليُعَلِّمَهُم ويُعَرِّفَهم ويَدعُوَهُم ، ويُرشِدَ إلى المَقاماتِ والأحوالِ ، ويُدرِّجَ الخلقَ إليها ؛ ففي هٰذا الحالِ يَحتاجُ إلىٰ زُهدٍ رابعٍ .

والزُّهدُ الرَّابعُ : هو أنْ يَرُدَّهُ الحقُّ إلىٰ تَناوُلِ حُظوظٍ وشَهَواتٍ ولَذَّاتٍ وتَلبُّسٍ بشيءٍ مِنْ مُباحاتِ الدُّنيا ، فيكونُ تناوُلُهُ الدُّنيا وتَلبُّسُهُ بشيءٍ منها مِنَ النَّوافلِ ؛ إنَّما التَّكدِيرُ مِنْ قِلَّةِ تَزكيَةِ النَّفسِ ، فهو مِنْ حقِّهِ أنْ يَعمَلَ في إكمالِ التَّزكيَةِ ، فهو يَعمَلُ في تَروِيحِ القلبِ بتَركِ النَّوافلِ .

ولعَمري ؛ إنَّهُ صحيحُ الحالِ ؛ لكونِهِ واجداً للتَّرويحِ ، مُقِيماً على الذِّكرِ ،

---

(١) سورة صٓ : (٢٦) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٦) بلفظ : « لي وقتٌ لا يَسَعُني فِيهِ غير ربِّي عَزَّ وَجَلَّ » . وقال السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص ٥٦٥) : (يذكره المتصوفة كثيراً . . . ، ويُشبه أن يكون معنىٰ ما للترمذي في « الشمائل » [(٣٣٧)] ولابن راهويه في « مسنده » عن عليّ في حديثٍ طويلٍ : كان صلَّى الله عليه وسلَّم إذا أتىٰ مَنزلَه . . جزَّأ دُخولَهُ ثلاثةَ أجزاءٍ : جزءٌ لله تعالىٰ ، وجزءٌ لأهله ، وجزءٌ لنفسه ، ثم جزَّأ جزأَهُ بينه وبين النَّاسِ) .

ولٰكنَّهُ تحتَ القُصورِ بالنِّسبةِ إلىٰ مَنْ كمُلَ حظُّه مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وتَوفَّرَ تَزكِيتُهُ للنَّفسِ .

وسببُ هٰذا الإلتباسِ علىٰ كثيرٍ مِنَ الصَّادِقينَ قِلَّةُ عِلمِهِم ومَعرِفَتِهِم بالنَّفسِ وصِفاتِها وأخلاقِها ووضعِها الجِبِلِّيِّ ، وخُلُقِها اللَّازِمِ الطَّبِيعِيِّ ، ولهٰذا شرحٌ يطولُ .

وذاكَ أنَّ النَّفسَ أمَّارةٌ بالسُّوءِ لكونِها أرضِيَّةً سُفلِيَّةً ، ولها بوَضعِها الجِبِلِّيِّ ظُلمَةٌ مُتصاعِدَةٌ تَسرِي إلى القلبِ فتُغيِّرُهُ وتُكدِّرُهُ ، وقدْ تُغيِّرُ الظُّلمَةُ القلبَ بعدَ حُكمِها فيهِ ، وتَسرِي إلى الرُّوحِ فتُقيِّدُهُ عن نُفوذِ نُورِهِ وسِرايتِهِ ؛ إذِ الرُّوحُ لها بوضعِها وجِبِلَّتِها نورٌ ؛ لأنَّها سماويَّةٌ عُلويَّةٌ ، فإذا التَحقَ ظُلمَةُ النَّفسِ بالرُّوحِ . . قَيَّدَتْهُ عن نُفوذِ السِّرايَةِ ، فإذا سَرىٰ منهُ نورٌ . . وصَلَ إلى القلبِ ؛ فيَطِيبُ قلبُهُ كحالِ مَنْ ذكرتُهُ مِنْ قَبلُ ، ولٰكنْ لا يَكمُلُ تَصرُّفُهُ حتَّىٰ يَسرِيَ إلى النَّفسِ فيُزكِّيَها ويُطهِّرَها عن كَدَرِها ، ويُكوِّنَها بطبعِ القلبِ .

فالعبدُ المرادُ المُلهَمُ ، المرادُ بالحظوظِ مِنَ اللهِ تعالىٰ . . يَعمَلُ في التَّزكِيَةِ والتَّطهيرِ للنَّفسِ حتَّىٰ يَصِيرَ لدَى التَّزكيَةِ الكامِلَةِ بِطبْعِ القلبِ ، فتَزولَ ظُلمَتُها ، إلَّا اليَسِيرَ اللَّازِمَ الَّذي هو مِن ضَرورَةِ وجودِها ، وتَطمَئِنَّ لأمرِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ تَطمَئِنَّ للهِ تعالىٰ ، وهُما مُرتَّبتَانِ ، فإذا صارَتْ هٰكذا . . قلَّ ظُلمَتُها إلَّا ذٰلكَ اليَسِيرُ ، فأقصَىٰ ما تَنتَهِي ظُلمَتُها إلى القلبِ ؛ فيَكتَسِبُ القلبُ فَيضاً في بعضِ الأحايينِ عندَ ثَوَرانِها للحكمَةِ البالغةِ الإلٰهيَّةِ ، ولا تَصِلُ إلى الرُّوحِ ؛ لضَعفِ الظُّلمَةِ ، فيُطلَقُ الرُّوحُ حينئذٍ مِنْ وَثاقِ ظُلمَةِ النَّفسِ ، ويَكمُلُ تَصرُّفُهُ ، ويَنفُذُ حُكمُهُ ، ويَسرِي نورُهُ ، فيَخرِقُ نورُهُ القلبَ ، ويَصِلُ إلى النَّفسِ ، فيُكسِبُها طُمأنِينَةً وسُكوناً ، فعندَ ذٰلكَ يَذهَبُ كَلُّ (١) العبادةِ ويألَفُها .

---

(١) الكَلُّ : الثِّقَلُ . انظر « غريب القرآن » لابن قتيبة (ص ٢٤٧) .

ولا تَزالُ العِبادةُ تُكسِبُ النَّفسَ سُكوناً ، والقلبَ سَكِينَةً ورَوحاً ، والرُّوحَ وصولاً إلى الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ وقُربَةً ، فتَصِلُ العبادةُ بعبادةِ الملائكةِ ، فيَعبُدُ ربّاً يراهُ على الكَشفِ والعِيانِ بقدْرِ نورِ الإيقانِ ، وهو النِّهايةُ والغايةُ .

وعلىٰ قدْرِ التَّخلُّفِ عن هـٰذا المقامِ قُصورٌ وفُتورٌ ، فصورةُ الصِّدِّيقِينَ الأقوياءِ في إدامَةِ الدَّأبِ في العبادةِ . . كصُورةِ المتَعبِّدينَ المكابِدينَ ، ونهايتُهُم رجوعٌ إلى البِدايةِ ، ولـٰكنْ شَتَّانَ بينَهُم وبينَ المتَعبِّدِينَ مِنْ وراءِ حِجابٍ ، يَتحمَّلونَ أعباءَ الكُلْفَةِ والمكابَدةِ ، وهم مَرحومونَ عندَ اللهِ تعالىٰ .

وهـٰؤلاءِ المقَرَّبونَ الصِّدِّيقونَ يَسبَحونَ في بِحارِ الرُّوحِ ؛ تَحقِيقاً لقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « قُرَّةُ عَينِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١٢٢٩٣) ، والنسائي (٣٩٣٩) ، والحاكم في « المستدرك » (١٦٠/٢) ، من حديث سيدنا أنسٍ رضي الله عنه .

ومِنْ كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ قالَ :

بِنيَةُ العبدِ ووجودُهُ يُحاكِي مدينةً جامعةً ، وأعضاؤُهُ وجوارحُهُ بمثابَةِ سُكَّانِ المدينةِ وقُطَّانِ البلدِ ، والعبدُ في وقتِ إقبالِهِ على الذِّكرِ كمُؤذِّنٍ صَعِدَ مَنارةً علىٰ بابِ المدينةِ يَقصِدُ إسماعَ أهلِ المدينةِ بالأذانِ ، فهٰكذا الذَّاكِرُ المتَحقِّقُ ، يَقصِدُ بالذِّكرِ إيقاظَ قلبِهِ وجميعَ أجزائِهِ وأبعاضِهِ ، يَذكُرُ بلسانِهِ ، ويَعِي الذِّكرَ بقلبِهِ ومُتفَرِّقاتِ جوارحِهِ ، فتكونُ مُناداةُ الذِّكرِ باللِّسانِ وضِياؤُهُ في قُبَّةِ القالَبِ ، يَستَحضِرُ بالذِّكرِ سُكَّانَ مَدينةِ النَّفسِ ، ويَستَجمِعُ بهِ شَوارِدَ عساكرِ الفَهمِ والحُسنِ ، يقولُ ببعضِهِ ، ويَسمَعُ بكُلِّهِ ، إلىٰ أنْ تَنتَقِلَ الكلِمةُ مِنَ اللِّسانِ إلى القلبِ ، فيتنوَّرُ بها ويَظفَرُ بجدوَى الأحوالِ ، ثمَّ يَنعَكِسُ نورُ القلبِ على القالَبِ ، فيَتزيَّنُ بمحاسنِ الأعمالِ ؛ فتكونُ الأحوالُ حينئذٍ حِليةَ باطنِهِ ، والأعمالُ مَلبَسَ ظاهرِهِ .

والسّلام

ومِنْ كلَامِهِ : قالَ رحمَهُ اللهُ :

إنَّ العبدَ إذا صفَا قلبُهُ مع اللهِ ؛ فإذا قالَ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ . . اتَّصلَتْ أجزاءُ الكائناتِ بقلبِهِ كاتِّصالِ العُروقِ بالأشجارِ ، والأوراقِ بالأعوادِ .

❊ ❊ ❊

ومِنْ كلَامِهِ في معنىٰ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ أَحَدِكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[1] .

قالَ : إنَّ العبدَ ما دامَ لهُ مَيلٌ إلى الدُّنيا ، ورُكونٌ إليها ، ونُزوعٌ إلىٰ جاهِها وأقسامِ حُظوظِها . . لا يُتصَوَّرُ أنْ يَستَوعِبَ أقسامَ كمالِ الإيمانِ ؛ لأنَّ إخلَادَهُ إلى الحُظوظِ العاجِلةِ يُغيِّرُ مِزاجَ إيمانِهِ عن صِحَّةِ الِاستقامَةِ والِاعتدالِ ، فيَعدِلُ عن قَضِيَّةِ العدلِ في حَقِيقَةِ إرادةِ الشَّيءِ لأخيهِ مِثلَ ما يُريدُهُ لنفسِهِ ؛ لمكانِ إيثارِهِ نفسَهُ علىٰ غيرِهِ ؛ وإنَّما يُتصَوَّرُ ذٰلكَ في حقِّهِ إذا انكمَشَتْ عُروقُ نفسِهِ الضَّاربَةِ بالهوَىٰ ، ولانَتْ بالعلمِ ، وتأدَّبَتْ بسياسةِ الرِّياضَةِ المُكسِبَةِ لها حقِيقةَ الزُّهدِ ، ولا يَزهَدُ كُلَّ الزُّهدِ في الدُّنيا إلَّا بنازِلِ صَفوِ المحبَّةِ الخاصَّةِ لأهلِ الخُصوصِ الغالبةِ حلَاوتُها حلاوةَ الهوىٰ ، فعندَ ذٰلكَ يَنقَطِعُ عنهُ المنازَعةُ إلى الحُظوظِ الفانيَةِ والأنصِبَةِ الزَّائلَةِ ، ويَرتَقِي مِنْ حَضِيضِ الرُّسوبِ في الأرضِ إلىٰ أعالي ذُروَةِ التَّسامِي إلى الرَّفيقِ الأعلَىٰ ، فتَستَوِي الأنفُسُ كلُّها بالنِّسبَةِ إليهِ علىٰ حدٍّ سواءٍ ، وتكونُ نفسُهُ مِن جُملَتِها ، فيُتصَوَّرُ حينئذٍ في حقِّهِ إرادةُ الشَّيءِ لأخيه كما يُريدُهُ لنَفسِهِ ؛ لِاستيفَائِهِ أقسامَ كمالِ الإيمانِ ؛ لرُسوخِ قَدمِهِ في مَقامِ الزُّهدِ المتَدارَكِ بِصِرْفِ المحبَّةِ ، وهٰذا غايةُ ما في هٰذا البابِ .

---

(١) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) من حديث سيدنا أنسٍ رضي الله عنه .

ومِنْ كلَامِهِ في قولِ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ الوَفاةِ : « وَا كَربَاهْ »[1] قالَ :

لمْ يكنْ ذٰلكَ أسَفاً علىٰ مُفارقَةِ الدُّنيا ؛ كلَّا ، وإنَّما ذٰلكَ لأنَّهُ كُوشِفَ بما أَعَدَّ اللهُ تعالىٰ لهُ مِنَ المِنَحِ والكراماتِ والمواهبِ ، فاستَبطَأَ الوصولَ إليها ، واستَطالَ انقطاعَ عَلاقةِ رُوحِهِ الطَّاهرَةِ عن قلبِهِ المطَهَّرِ ، فقالَ : « وَا كَربَاهْ » .

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » : ٥٨/٣ (٢٦٧٦) وابن الجوزي في « الموضوعات » : ٢٩٥/١ ، من حديث سيدنا جابر بن عبد الله ، وسيدنا عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهم ، في حديثٍ طويل ، اشتمل علىٰ معانٍ منكرة .

ومِنْ كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ قالَ :

إذا تلَا القارِئُ القرآنَ حقَّ تِلَاوتِهِ . . فكأنَّ جَمِيعَهُ أحسَنُ القَصَصِ ؛ وهو أنْ يَرى التَّالي كلَامَ اللهِ تعالى المتكلِّمِ بهِ في أثناءِ تِلَاوتِهِ ، وهٰذه رُتَبُ أقوامٍ انسَلَخُوا عنِ الدُّنيا وعَلائِقِها ، ونَبذُوها وراءَ ظُهورِهم ، وآثَروا بها أربابَها وتفرَّغوا لعبادةِ اللهِ تعالىٰ وتِلاوةِ كلَامِهِ ، فأفضَىٰ بِهِمُ الدَّأَبُ في العبادةِ بشرطِ الحُضورِ فيها إلىٰ أنِ اكتَحَلوا بأنوارِ القُرْبِ ، واستَغرقُوا في تَيَّارِ بحارِ التَّوحيدِ ، واستَسهَلُوا تَلاطُمَ أمواجِها ، واستَلَانُوا مُستوعَرَ أخطارِها ، فحينئذٍ تَدَّارَكُهُم كؤوسُ التَّجلِّياتِ الإلٰهيَّةِ في تَضاعِيفِ أداءِ حقِّ التِّلاوةِ لكلَامِ اللهِ تعالىٰ .

فقالَ بعضُ السُّؤَّالِ : إذا كانَ في الأولياءِ مَنْ هو مَحظُوظٌ بهٰذا الوَصفِ . . فالأنبياءُ عليهِمُ السَّلامُ أجلُّ رُتبَةً وأعظَمُ قدراً ، فما بالُهُم وقدْ قَدَرَ الشَّيطانُ أنْ يُلقِيَ في أُمنِيَّتِهِم علىٰ ما أخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُم فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ ؟[1] .

فقالَ الشَّيخُ مُجيباً : لا مُنافاةَ ؛ لأنَّ إلقاءَ الشَّيطانِ كانَ في القِراءةِ[2] ، لا في

---

(١) سورة الحج : (٥٢) .

(٢) هٰذه إشارة إلىٰ قصة الغرانيق الواهية المتهافتة ، وقد أخرَجها البَزَّارُ في « المُسنَد » (٥٠٩٦) ، والطَّبرانيُّ في « المُعجمِ الكبيرِ » (٥٣/١٢) (١٢٤٥٠) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما ، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّم كَانَ بِمَكَّةَ فَقَرَأَ سُورَةَ النَّجمِ حَتَّى انتهىٰ إلىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٩ ـ ٢٠] فَجَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ : (تِلْكَ الغَرَانِيقُ العُلا ، الشَّفَاعَةُ منها ترتجىٰ) ، قال : فسمع ذٰلك مشركو أَهْلِ مَكَّةَ ، فَسُرُّوا بِذَٰلِكَ ، فَاشْتَدَّ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيه وَسَلَّم ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [الحج : ٥٢] .

وقد جَزَمَ جماعة مِن الحُفَّاظِ ببُطلانِ هٰذه القِصَّةِ عَقلاً ، وعدمِ ثُبوتِها نَقلاً ؛ منهم : القاضي عِياضٌ في « الشِّفا » (٢٨٨/٢ ـ ٢٩٣) ، والطِّيبيُّ في « الكاشِفِ عن حقائِقِ السُّنَنِ » (١١١١/٤) ، والزَّيلَعِيُّ في « الإسعاف بأحاديثِ الكشَّاف » (٣٩٢/٢) ، والكرمانيُّ في « الكواكب الدَّراري في شَرحِ صحيحِ البخاري » (١٥٣/٦) ، وغيرهم .

القلبِ المحصَّنِ بأنوارِ الشُّهودِ ؛ المُصَانِ عن مُزاحمَةِ لَوثِ الوُجودِ ؛ فإنَّ مِثلَ هٰذا القلبِ لا سُلطانَ للشَّيطانِ عليهِ .

فعارَضَ السَّائِلُ وقالَ : فلِمَ قالَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ : « إِنَّهُ لَيُغانُ عَلَىٰ قَلْبِي ، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ فِي ٱلْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » ، وفي رِوايَةٍ : « مِئَةَ مرَّةٍ » ؟[1] .

فقالَ الشَّيخُ مُجيباً : لا يَنبَغِي أنْ يُعتَقدَ أنَّ الغَينَ نَقصٌ في حالِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ بلْ هو كمالٌ أو تَتِمَّةُ كمالٍ ، وهٰذا السِّرُّ دَقِيقٌ لا يَنكَشِفُ إلَّا بمِثالٍ مَحسوسٍ ؛ وهو أنَّ الجَفْنَ المُسبَلَ علىٰ حدَقَةِ البَصرِ وإنْ كانَتْ صورَتُهُ صورةَ نُقصانٍ مِنْ حيثُ هو إسبالٌ وتَغطِيةٌ علىٰ ما مِنْ شأنِهِ أنْ يكونَ بادِياً مَكشُوفاً ؛ فإنَّ المقصودَ مِنْ خلقِ العَينِ إدراكُ المدرَكاتِ الحِسِّيَّةِ ، وذٰلكَ لا يتَأتَّىٰ إلَّا بانبِعاثِ الأشِعَّةِ الحِسِّيَّةِ مِنْ داخلِ العَينِ واتِّصالِها بالمرئيَّاتِ علىٰ مَذهبِ قَومٍ ، وبانطباعِ صُوَرِ المدرَكاتِ في الكُرَةِ الجِلدِيَّةِ علىٰ مَذهبِ آخرينَ .

وكيفما قُدِّرَ . . فلَا يَتِمُّ المقصودُ إلَّا بانكشافِ العَينِ ، وعَزلِها عمَّا يَمنَعُ مِنِ انبعاثِ الأشِعَّةِ عنها ، ولٰكنْ كانَ الهواءُ المحيطُ بالأبدانِ الحيَوانِيَّةِ قلَّما

← وقال العلَّامةُ محمَّد صادِق عرجون عميدُ كُلِّيَّةِ أُصُولِ الدِّينِ الأسبَقُ في كتابه « محمَّد رَسُول الله صلى الله عليه وسلم : مَنهجٌ ورسالةٌ ، بحثٌ وتحقيقٌ » (٢/٣٢) : (هٰذه الأُكذوبةُ الخَبيثةُ البَلهاءُ كانت إحدى الفِرى الحاقِدةِ الَّتي طوَّفَتْ ببعضِ مؤلَّفاتِ الجمَّاعِينَ للغَثِّ والسَّمِينِ ، فرَواها في غَفلةٍ مِن عَقلِه وعِلمِه بعضُ المُفسِدِينَ ، وأُدخِلت علىٰ بعضِ المُحدِّثينَ مُغَلَّفةً بأغلفةِ الأسانيدِ ، مُحاطةً بهالاتِ بَرِيقِ الأسماءِ ، فردَّدها بأساليبَ مُختلفةٍ ، وفرَطَحها كثيرٌ ممن تلقَّفَها بالبَلَهِ والغَفلةِ ، ورَتَعَت في أسفارِ المؤرِّخِينَ ، فأعادُوا فيها وأبدَوا ، وزادُوا ونَقَصُوا ، وأثبتُوا وحَذَفُوا ، وشَوَّهُوا وزَيَّنُوا ، ومَسَخُوا وحرَّفُوا ، وتَلقَّاها القصَّاصُون فغنَّوا بها ، وكان إبليسُ هو عازِفَ مُوسِيقاها في أنديتِهم ومجالِسِهم ، وتَضمَضَت لسَماعِ أباطِيلِها شِفاهُ الجاهِلِين من غَوغاءِ العامَّةِ وعامَّةِ الغَوغاءِ الَّذين تَكبُر في صُدُورهم الغرائِبُ والأعاجيبُ من المُضحِكاتِ المُبكِياتِ ، فيَهشُّون لها ، ويَتزاحَمُونَ علىٰ محافِلِها . . .) .

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث سيدنا الأغرِّ المُزَني رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي ، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ » .

وأخرج البخاري (٦٣٠٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « وَاللهِ ؛ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » .

يَخلُو مِنَ الأغبرَةِ الثَّائرةِ بحركةِ الرِّياحِ ، فلو كانَتِ الحدَقَةُ دائمةَ الِانكشافِ . . لاستَضَرَّتْ بمُلاقاتِها وتَراكُمِها عليها ، فأُسبِلَتْ أَغطِيةُ الجُفونِ عليها وِقايةً لها مِنْ تلكَ الأغبرَةِ ومُصقِلةً لها ؛ لتَصْقُلَ الحدَقَةَ ؛ بإسبالِ الأهدابِ ورَفعِها بخِفَّةِ حَرَكةِ الجَفْنِ ، فيَدومُ جَلاؤُها ويَحتَدُّ نظرُها ، فالجَفْنُ وإن كان نُقصَاناً ظاهِراً . . فهو كمالٌ حقيقةً .

فهٰكذا لمْ تَزَلْ حَدَقةُ بَصِيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُتعرِّضَةً لأَنْ تَصدَأَ بالأغبِرَةِ الثَّائرةِ مِنْ أنفاسِ الأغيارِ ، فلَا جَرَمَ دَعتِ الحاجَةُ إلىٰ إسبالِ جَفْنٍ مِنَ العينِ علىٰ حَدقَةِ بَصِيرَتِهِ ؛ سَتراً لها ووِقايةً وصَقالةً عن تلكَ الغَبَراتِ المثارَةِ برُؤيَةِ الأغيارِ وأنفاسِها ، فصحَّ أنَّ العينَ وإنْ كانَتْ صورتُهُ نقصاً . . فمعناه كمالٌ وصَقَالٌ حقيقةً .

ثمَّ قالَ : وأيضاً : إنَّ رُوحَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ تَزَلْ في التَّرقِّي إلىٰ مَقاماتِ القُرْبِ مُستَتبِعةً للقلبِ في رُقيِّها إلىٰ مَركَزِها ، وهٰكذا القلبُ كانَ يَستَتبِعُ نفسَهُ الزَّكيَّةَ ، ولا خفاءَ أنَّ حَرَكةَ الرُّوحِ والقلبِ أسرعُ وأتَمُّ مِنْ نَهضَةِ النَّفسِ وحَرَكَتِها ، فكانَتْ خُطى النَّفْسِ تَقصُرُ عن مَدَى الرُّوحِ والقلبِ في العُروجِ والوُلوجِ حريمَ القُرْبِ ، ولُحوقِها بهِما ، فاقتَضَتِ العَواطِفُ الرَّبانِيَّةُ على الضُّعفاءِ مِنَ الأمَّةِ إبطاءَ حركةِ القلبِ بإلقاءِ الغَينِ عليهِ ؛ لئلَّا يُسرِعَ القلبُ ويَسرَحَ في مَعارِجِ الرُّوحِ ومَدارِجِها ، فتَنقَطِعَ عَلاقةُ النَّفسِ عنهُ لقُوَّةِ الِانجِذابِ ، فيَبقَى العِبادُ مُهمَلِينَ مَحرُومِينَ عنِ الِاستِنارةِ بأنوارِ النُّبوَّةِ والِاستِضاءةِ بمِشكاةِ مِصباحِ الشَّريعةِ .

فحيثُ كانَ يَرىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إبطاءَ القلبِ بالغَينِ المُلقَىٰ عليهِ ، وقُصورَ النَّفسِ عن شأوِ تَرقِّي الرُّوحِ إلى الرَّفيقِ الأعلَىٰ . . كانَ يَفزَعُ إلى الِاستِغفَارِ ؛ إذْ لمْ تَفِ قُواها في سُرعَةِ اللُّحوقِ بها ، وهٰذا مِنْ أحسنِ ما يُقالُ في هٰذا المعنَىٰ ، وأعزُّ مَشروحٍ فيهِ .

والله تعالىٰ أعلم

ومِنْ كلَامِهِ في معنَىٰ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ٱلدُّنْيَا سِجْنُ ٱلْمُؤْمِنِ »[1] قالَ : إنَّ السِّجنَ والخروجَ منهُ يَتعاقَبانِ علىٰ قلبِ العبدِ المؤمنِ علىٰ تَوالي السَّاعاتِ ومُرورِ الأوقاتِ ؛ لأنَّ النَّفسَ كلَّما ظهَرَتْ بصِفاتِها . . أَظلَمَ القلبُ حتَّىٰ ضاقَ وانكمَدَ ، وهلِ السِّجنُ إلَّا تَضْيِيقٌ وحَجْرٌ مِنَ الخروجِ والوُلوجِ ؟

فكلَّما همَّ القلبُ بالتَّبرُّزِ عن مَشائِمِ الأهواءِ الدُّنيويَّةِ ، والتَّخلُّصِ عن قُيودِ الشَّهَواتِ العاجلَةِ ؛ تسبُّباً إلى الآجِلةِ ، وتَنزُّهاً في فَضاءِ المَلكوتِ ، ومُشاهَدةً للجمالِ الأزَليِّ . . حَجَزَهُ الشَّيطانُ المردودُ عن هٰذا البابِ ، المطرودُ بالأحجابِ ؛ فتَدلَّىٰ بحَبلِ النَّفسِ الأمَّارةِ إليهِ ، فكدَّرَ صفوَ العَيشِ عليهِ ، وحالَ بينَهُ وبينَ مَحبوبِ طبعِهِ ، وهٰذا مِن أعظمِ السُّجونِ وأضيَقِها ؛ فإنَّ مَنْ حِيلَ بينَهُ وبينَ مَحبوبِهِ . . ضاقَتْ عليهِ الأرضُ بما رَحُبَتْ وضاقَتْ عليهِ نفسُهُ ، ولهٰذا المعنَىٰ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عن جماعةٍ مِنَ الصَّحابَةِ حيثُ تَخلَّفوا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بعضِ الغَزَواتِ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ . . . ﴾ الآيةَ[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سورة التوبة : (١١٨) .

ومِنْ كلامِهِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1] .

إنَّ السَّالكَ في سُلوكِهِ : أوَّلُ ما يَبدو لهُ مِنْ لوائحِ أنوارِ التَّوحيدِ يكونُ علىٰ مِقدارِ كوكبٍ ، فإذا تَوغَّلَ في السُّلوكِ ، وتَجرَّدَ عنِ العَلائقِ ؛ ازدادَتْ تلكَ اللَّوائحُ [2] لمعاناً علىٰ مِقدارِ نُورِ القَمَرِ ، فإذا ارتقَىٰ في سُلوكِهِ رُتبةً أخرىٰ . . تَلمَّعَ علىٰ مِقدارِ الشَّمسِ ، وإلىٰ هـٰذا الحدِّ يكونُ السَّالكُ بَعْدُ في مَقامِ التَّلوينِ [3] ، فإذا جاوزَ التَّلوينَ إلىٰ مَخدَعِ التَّمكينِ [4] ، ولاحَ لهُ ناصِيَةُ مَقامِ التَّوحيدِ ، وقَطعَ شِباكَ الأحوالِ بقُوَّةِ التَّفريدِ ، واستَغرقَ في تَيَّارِ بِحارِ القُرْبِ . . قالَ حينئذٍ مُجهِراً : وجَّهتُ وجهِيَ ؛ للآيةِ ، وأنشدَ مُستَشهِداً : [من الكامل]

مَنْ كَانَ فِي ظُلَمِ ٱللَّيَالِي سَارِياً ... رَصَدَ ٱلنُّجُومَ وَأَوْقَدَ ٱلْمِصْبَاحَا

حَتَّىٰ إِذَا مَا ٱلْبَدْرُ أَرْشَدَ ضَوْءُهُ ... تَرَكَ ٱلنُّجُومَ وَرَاقَبَ ٱلْإِصْبَاحَا

حَتَّىٰ إِذَا ٱنْجَابَ ٱلظَّلَامُ بِأَسْرِهِ ... وَرَأَى ٱلصَّبَاحَ بِأُفْقِهِ قَدْ لَاحَا

تَرَكَ ٱلْمَسَارِحَ وَٱلْكَوَاكِبَ كُلَّهَا ... وَٱلْبَدْرَ وَٱرْتَقَبَ ٱلسَّنَا ٱلْوَضَّاحَا

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الأنعام : (٧٥) .

(٢) قال القشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٢) : (هِيَ من صفاتِ أَصْحَابِ البِدايات في التَّرقّي بالقلب ، فلم يدم لَهُمْ بَعْد ضياء شموس المعارف) .

(٣) قال القشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٥) : (التلوين : صفة أرباب الأحوال) .

(٤) قال القشيري في « الرسالة » (ص ٢٧٥) : (التمكين صفة أهل الحقائق ؛ فما دام العبد في الطريق . . فهو صاحب تلوين ؛ لأنه يرتقي من حالٍ إلىٰ حال ، وينتقل من وصفٍ إلىٰ وصف ، ويخرج من مرحل ، ويحصل في مربع ، فإذا وصل . . تمكَّن) .

ومِن كلَامِه في قولِه تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[1] .

قالَ : ليسَ هٰذا علىٰ سبيلِ المجازِ مَعنِيّاً بهِ التَّعبيرُ بالحالِ عنِ المآلِ كما زعمَ أهلُ الأصولِ ، وهو ظاهرٌ في معناهُ ، جَلِيٌّ مِنْ حيثُ فحواهُ ؛ إذِ الموتُ عِبارةٌ عنِ الغَيْبُوبةِ عن عالَمِ الغَيبِ والشَّهادةِ ، ولقدْ كانَ حالُ النَّبيّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ هٰذا النَّعتِ ؛ إذْ كانَ في جَميعِ أوقاتِه بكُلِّيَّتِهِ مُنجَذِباً إلىٰ عالَمِ الملكوتِ ، وهٰذا هو المعنِيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ مَيِّتٍ يَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِ ٱلْأَرْضِ . . فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ »[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الزمر : (٣١) .

(٢) لم أقف عليه مُسنداً ، وقد أورده ابن ملك في « شرح مصابيح السُّنَّة » (٤٠١/٥) .
والمشهور في هٰذا الباب حديث : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ . . فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ » ، أخرجه أبو يعلىٰ في « المسند » (٤٨٩٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٥٤/١) (١٠) ، و« المعجم الأوسط » (٩٣٨٤) ، والحاكم في « المستدرك » (٦١/٣) ، من حديث سيدتنا أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

ومِنْ كلَامِهِ وقدْ سُئلَ : أليسَ قالَ اللهُ تعالَىٰ مُخاطِباً لآدمَ عليهِ السَّلامُ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾[1] ، وهـٰذا وعدٌ ، والخُلْفُ في وَعدِهِ مُحالٌ ؟

فقالَ : معناهُ أنَّكَ لنْ تجوعَ فيها ولا تَعرَىٰ ما دُمتَ فيها ، وحينَ بدَتْ سوءتُهُ . . لمْ يكُنْ في الجنَّةِ ؛ لأنَّ الجنَّةَ تَغيَّرَتْ عن طِباعِها بالإضافَةِ إلىٰ آدمَ ؛ كما أنَّ النَّارَ تَغيَّرَتْ عن طَبعِها بالنِّسبَةِ إلىٰ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ حينَ أُلقِيَ فيها .

* * *

(١) سورة طه : (١١٨) .

ومِن كلامِه قال في قولِه تعالىٰ : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾[1] :

إنَّما كانَتْ أبوابُ جهنَّمَ سبعةً ؛ لأنَّ للإنسانِ سبعةَ أعضاءٍ[2] ، فإذا ارتكبَ العبدُ بكلِّ عُضوٍ منها ما نُهيَ عنه . . فُتِحَ عليهِ بابٌ مِنْ هٰذه الأبوابِ السَّبعةِ .

وإنَّما جاءَتْ أبوابُ الجنَّةِ ثمانيةً ؛ لأنَّ المؤمنَ إذا نَوىٰ بقلبِهِ مُلابَسةَ نوعٍ مِنَ العبادةِ . . كُتِبَ لهُ ثوابُ نِيَّتِه ، فصارَ البابُ الثَّامنُ حظَّ القلبِ ، والسَّبعةُ البَواقي في مُقابَلَةِ الأعضاءِ السَّبعةِ المطِيعَةِ .

***

(١) سورة الحجر : (٤٤) .

(٢) لعله يشير بذٰلك إلى (اليد ، والرِّجل ، والفم ، والفرج ، والبطن ، والسمع ، والبصر) ، والله أعلم .

ومِنْ كلَامِهِ قالَ :

إنَّ النَّفسَ مَطِيَّةٌ للقلبِ في بعضِ الأحوالِ ، ومَطِيَّةٌ للرُّوحِ في بَعضِها .

وللنَّفسِ باعتبارِ كلِّ حالةٍ حظوظٌ تُلائِمُها ؛ فحينَ هي مَطِيَّةٌ للقلبِ كانَتْ حُظوظُها اللَّذَّاتِ الحيوانيَّةَ ؛ مِنَ المطاعمِ الشَّهيَّةِ ، والأغذِيَةِ السَّنِيَّةِ ، والمشارِبِ اللَّذيذَةِ ، وغيرِها مِنَ الملَابِسِ الفائقَةِ الرَّائقَةِ ، والأبنِيَةِ العاليَةِ الشَّاهِقَةِ وأمثالِها ، فإذا صارَتْ مَطِيَّةً للرُّوحِ . . لَطُفَت حينئذٍ حُظوظُها ، فصارَتْ تُحِبُّ الجاهَ والاِستِتباعَ ، والتَّقدُّمَ على الأقرانِ والنُّظَرَاءِ ، والتَّفوُّقَ على الأضرابِ مِنَ الكُبراءِ ، ولعلَّ هٰذا التَّفاوُتَ لِما بينَ الرُّوحِ والقلبِ مِنَ التَّفاوُتِ مِنْ حيثُ اللَّطافَةُ والكثَافَةُ .

والله تعالىٰ أعلم

وِمِنْ كلَامِهِ قالَ :

شرطُ الفَقِيرِ الزَّاهِدِ في الدُّنيا ، الخاليَةِ يدُهُ منها : أنْ يَخلُوَ قلبُهُ عمَّا خَلَتْ منهُ يدُهُ .

وشرطُ مَنْ يَزعُمُ استِغناءَ قلبِهِ عنِ الدُّنيا وخُلُوِّهِ منها : أن تَخلُوَ يدُهُ عمَّا خَلَا منهُ قلبُهُ ؛ لِيَشهدَ صِحَّةُ الظَّاهرِ علىٰ صِحَّةِ الباطنِ ، وصِحَّةُ الباطنِ بِظُهورِ حُكمِ الزُّهدِ على الظَّاهرِ ، ويَشهَدُ لصِحَّةِ هٰذه الإشارةِ : أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ أخلَى الخَلقِ قَلباً ، ومع هٰذا كانَ لا يَدَّخِرُ شيئاً لغَدٍ[1] ، ويخافُ إذا باتَ عِندَهُ شيءٌ ليلةً[2] .

* * *

---

(١) أخرج الترمذي (٢٣٦٢) من حَدِيثِ سيدنا أَنَسٍ رضي الله عنه ، قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَدَّخِرُ شَيْئاً لِغَدٍ .

ويعارضه ما أخرجه البخاري (٥٣٥٧) ومسلم (١٧٥٧) من حديثِ سيدنا عمر رضي الله عنه ، وفيه : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ .

والجمع بينهما أن يقال : إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم استعمل في كلِّ حالٍ ما يكون أوفق به وأرفق ، حرصاً علىٰ أُمَّتِه .

(٢) أخرج البخاري (١٤٣٠) من حديث سيدنا عُقبة بن الحارث رضي الله عنه ، قَالَ : صَلَّىٰ بِنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَصْرَ ، فَأَسْرَعَ ، ثُمَّ دَخَلَ البَيْتَ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ ، فَقُلْتُ أَوْ قِيلَ لَهُ ، فَقَالَ : « كُنْتُ خَلَّفْتُ فِي البَيْتِ تِبْراً مِنَ الصَّدَقَةِ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ ، فَقَسَمْتُهُ » .

ومِنْ كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ قالَ :

إنَّ المريدَ إذا مالَتْ نفسُهُ إلى الخَوضِ في شيءٍ مِنْ هٰذهِ غيرِ ما هو مُحتاجٌ إليهِ مِنها ، ولم يُطِقْ مَنعَها ممَّا مالَتْ إليهِ . . فعلَيهِ في ذٰلكَ وَظِيفتانِ مُرتَّبتانِ ؛ عِلمِيٌّ وعمَلِيٌّ .

أمَّا العِلمِيُّ : فهو أنْ يَعلمَ أنَّ ذٰلكَ هَزلُ حالِهِ وباطلُ وقتِهِ ، وأنَّهُ اشتِغالُ النَّفسِ بشيءٍ مِنَ الباطلِ بالنِّسبَةِ إلى المُهِمِّ المطلوبِ في الوقتِ ، وإنْ كان قَدْ يُستعانُ بمِثلِ هٰذا الباطلِ على الحقِّ وقتاً ثانياً .

ثمَّ النَّفسُ ـ لِما بينَها وبينَ الكائناتِ مِنَ المناسَبةِ والمجانَسةِ ـ مَيَّالةٌ إليها شَغِفَةٌ بها ؛ لمكانِ أنَّها جزءٌ مِنْ جُزئيَّاتِ الكونِ ، وذٰلكَ نزولٌ مِنَ الأعلىٰ إلى الأدنىٰ ، وانحِطاطٌ مِنَ الأرفَعِ إلى الأوضَعِ ، واستِبدالٌ بالأخسِّ عنِ الأنفَسِ .

ويَعلَمُ أنَّه جُزئيٌّ بنفسِهِ ، كُلِّيٌّ بقلبِهِ ورُوحِهِ ، فيَشغَلُ الجزئيَّ بالجزئيَّاتِ ، ويَتوجَّهُ بكلِّيَّتِهِ إلىٰ مُكوِّنِ الكُلِّ ، وهٰذا لا يَهتَدِي إليهِ ولا يَظفَرُ بهِ إلَّا أربابُ الذَّوقِ ، الَّذينَ انفَتَحت مَشامُّ بواطنِهِم ؛ فاستَنشَقُوا نَسَماتِ الأُنسِ باللهِ تعالىٰ ، وعَبَقَ بهِم أَرَجُ القُرْبِ ، واستَولَىٰ عليهم يَرَقَانُ الحبِّ ، ووجَدوا إلى الرَّفيقِ الأعلَىٰ مَنفَذاً ، فهٰؤلاءِ وإنِ اشتَغلَتْ نفوسُهُم بالكونِ فأرواحُهم لا تزالُ تَشتَاقُ إلى البُروزِ مِنْ ظُلُماتِ الأكوانِ ، وتَهُمُّ مُتصاعِدةً إلىٰ عَوالِمها ؛ لأنَّها عَرفَتِ الطَّريقَ إلى الرَّفيقِ ، فمتَىٰ عَلِمَ العبدُ وتَحقَّقَ بهٰذا العلمِ . . فرُبَّما يأخُذُ التَّوفِيقُ بيدِهِ ويُريحُهُ مِن تَشويشَاتِ النَّفسِ ومُطالَباتِها إلىٰ أدائِهم للأوقاتِ .

وأمَّا العمَليُّ فضَربانِ :

أحدُهُما : لا يَستَغرِقُ جميعَ الوقتِ بها ؛ بحيثُ ألَّا يكونَ لهُ حظٌّ مِنَ العبادةِ ونَصِيبٌ مِنَ الأورادِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ركونٌ إلى الهوَىٰ بالكُلِّيَّةِ ، ويُخشَىٰ عليهِ قَسوَةُ

القلبِ المؤدِّيةُ إلى الهلاكِ ، فيَصِيرُ كَدُودِ القَزِّ الَّذي لا يزالُ يَنسُجُ علىٰ نفسِهِ حتَّىٰ تَنسَدَّ عليهِ المنافِذُ ، فلمْ يبقَ لهُ طريقٌ إلى الخَلاصِ ولاتَ حينَ مَناصٍ ، فهٰكذا مَنِ استغرقَ الأوقاتَ في الخَوضِ في هٰذه المشطوراتِ ؛ فلا يزالُ يجولُ يَمنَةً ويَسرةً ، وفوقَ وتحتَ ، وأمامَ ووراءَ ؛ حتَّىٰ لا يَهُمَّ بالحركةِ إلىٰ جانبٍ مِنَ الجوانبِ إلَّا ويَرىٰ نفسَهُ مَحصورةً في مَضايقِ أجزاءِ الكونِ ، مُرتَبكةً في شِبَاكِها ؛ فتَنسَدُّ عليهِ أبوابُ الأُنسِ ومَنافِذُ الخُلوصِ إلىٰ مَقارِّ القُرْبِ ، فلم يَزَلْ هٰكذا إلىٰ أنْ يَهلِكَ ، بل يَنبَغِي أنْ يُخصِّصَ وقتاً مِنْ أوقاتِهِ للِاشتِغالِ بها ، ويَعُدُّ ذٰلكَ الوقتَ مُضَيَّعاً مِنْ عُمُرِهِ ، فيَتأسَّفُ ويَتلهَّفُ عليهِ .

الضَّربُ الثَّاني مِنَ العمَليِّ : أنْ يكونَ في ذٰلكَ دائمَ اللَّجْأ إلى اللهِ تعالىٰ ، مُتضَرِّعاً بينَ يدَيهِ مُستَكِيناً لهُ ، دائباً في السُّؤالِ لمولاهُ أنْ يُهوِّنَ عليهِ رفضَ أَهوِيَةِ النَّفسِ ، ويَهدِيَهُ إلى العملِ بالعلمِ الصَّريحِ ، ويقولَ في حركاتِهِ وسكناتِهِ : اللهمَّ ؛ استَخلِصنِي لكَ ، واقطَعنِي إليكَ عمَّا يَقطَعُنِي عنكَ ، ولا تَشغَلنِي بسواكَ ، فمتَىٰ قامَ بهاتَينِ الوَظِيفَتَينِ . . يُرجَىٰ لهُ الخيرُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

ومِنْ كلَامِهِ في معنَىٰ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى ٱللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . . لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ ٱلطَّيْرَ ؛ تَغْدُو خِمَاصاً ، وَتَرُوحُ بِطَاناً »[1] :

فحقُّ التَّوكُّلِ كمالُ اليقينِ ، ودوامُ رُؤيةِ الوكيلِ سبحانَهُ بعينِ البَصيرةِ ، والِاعتمادُ علىٰ علمِهِ تعالىٰ بالعبدِ ، وتَيقُّنُ كمالِ رحمتِهِ وعاطفتِهِ بألَّا يُهمِلَ عبدَهُ ولا يُضيِّعَهُ ؛ فإنْ جاعَ . . أطعمَهُ ، وإنْ عَطِشَ . . سقاهُ ، وإنْ عَرِيَ . . كساهُ ، وإنْ خافَ . . حَرَسَهُ وتولَّاهُ ؛ فبِقَدرِ قُوَّةِ اليَقِينِ يُمِدُّهُ اللهُ تعالىٰ بالصَّبرِ إلىٰ أنْ تَتَداركَهُ المعونَةُ مِنَ اللهِ تعالىٰ بقضاءِ حاجَتِهِ ، ودَفْعِ مُنازَعَةِ نفسِهِ المتَطَلِّعِ إلىٰ ضَرورتِها ، وإذا نَفَذَ جُهدُهُ في الصَّبرِ وأمسكَ عنِ الرُّجوعِ إلى الوسائطِ . . قُضِيَتْ حاجَتُهُ : إمَّا بقَدَرِهِ في طَيِّ الحِكمةِ ؛ بأنْ تَنقَضِيَ حاجتُهُ بواسطةِ إنسانٍ ، وإمَّا بمَحضِ القُدرةِ مِنْ غيرِ واسطةٍ ، ومهما ضَعُفَ وقلَّ حظُّه مِنَ اليقينِ . . يَضعُفُ صَبرُهُ ويَنزلُ مِنْ عزيمةِ حالِهِ إلى الرُّخصةِ ، وتَستَفِزُّهُ حَركةُ النَّفسِ ، ويَرجِعُ إلى الوسائطِ والِاكتسابِ .

وإدامةُ الِالتجاءِ والضَّراعةِ بينَ يَدَيِ اللهِ تعالىٰ يُكسِبُهُ قُوَّةً في اليقينِ ، وعزيمةً في الصَّبرِ ، وهٰذا يكونُ بعدَ إحكامِ المقدِّماتِ مِنْ كمالِ التَّقوىٰ والزُّهدِ في الدُّنيا ، والخُروجِ مِنَ الِارتهانِ بنَظَرِ الخلقِ ، وامتطاءِ صَهوَةِ الإخلَاصِ ، وكمالِ الشُّغلِ باللهِ تعالىٰ بتَناوُبِ أعمالِ القلبِ والقالَبِ ، وصِدقِ العزيمةِ في العُزلَةِ ، واغتنامِ الوَحدةِ ، والفِرارِ مِنْ مُساكنَةِ الأُنسِ بالجُلساءِ والإخوانِ .

واللهُ تعالى الموفِّق والمعين

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بنحوه .

ومِن كلَامِه قال :

الهوَى المتَّبعُ في العبدِ بمَثابةِ الجُرحِ علىٰ جِسمِهِ ، والكلمةُ الَّتي لا تَعنِي بمَثابةِ النَّزيزِ مِنَ الجُرحِ ، وما لَمْ يَندَمِلِ الجُرحُ . . لا يُعدَمُ النَّزيزُ ، واندِمالُ جُرحِ الهوَىٰ بمُخالَفتِه ؛ بتَحقِيقِ اتِّباعِ العلمِ ، ونَهيِ النَّفسِ عنهُ ، فبذٰلكَ يكونُ كَيُّ جُرحِهِ ، وحَسمُ مادَّةِ نَزيزِهِ .

ومِنْ كلَامِهِ قالَ :

الأحوالُ بمثابةِ اللُّبابِ ، لا تَنحَفِظُ إلَّا في قُشورِ الأعمالِ .

وقالَ : صِيانةُ الأحوالِ بالأعمالِ ، ورَزانةُ الأعمالِ بالأحوالِ .

وقال : حقيقةُ العبدِ مُركَّبةٌ مِن مَجمُوعِ أيَّامِهِ ؛ فكلَّما مرَّ يومٌ مِن أيَّامِ حياتِهِ . . نَقَصَ جُزءٌ مِنْ أجزاءِ نفسِهِ ؛ حتَّىٰ إذا فَنِيَت أيَّامُهُ وبَلَغَ الكِتابُ أجلَهُ . . قُبِضَتْ نفسُهُ ، وأُودِعَتْ رَمْسَهُ [1] .

(١) الرَّمسُ : القَبر . انظر « لسان العرب » ، مادة (ر م س) ، (٦/١٠١ ـ ١٠٢) .

ومِنْ كلامِهِ : فتوحٌ [1] ، قالَ : للنَّاسِ في التَّخلُّصِ عن كَدَرِ صِفاتِ النَّفسِ وأخلاقِها طريقانِ :

طريقٌ للأبرارِ ، وطريقٌ للمُقرَّبينَ .

فأمَّا الأبرارُ : إذا تَحرَكَتِ النَّفسُ بصِفَتِها ، وظَهَرَتْ بأخلَاقِها ؛ مِنَ الحِقدِ والغِلِّ والحسَدِ ، واستِشعارِ الفَقرِ والكَمَدِ علىٰ فَواتِ الحُظوظِ وإلىٰ غيرِ ذٰلكَ . . يَسوسُونَ حالَهُم بالعلمِ ، ويَسلُكونَ طريقَ الرِّضا بالقَضاءِ والتَّسليمِ لمَا يُقدِّرُ المولىٰ ؛ فيُكشَفُ عنهُم بعضُ ذٰلكَ ، ويَتنَسَّمونَ الرَّوحَ الَّذي يزولُ بظهورِ تلكَ الصِّفاتِ والأخلاقِ : أولـٰئكَ يُنادَونَ مِنْ مكانٍ بعيدٍ ، ولـٰكنْ أقامُوا حقَّ العُبوديَّةِ ، وأدَّوا وظِيفَةَ المقامِ الَّذي أُقِيمُوا فيهِ .

وأمَّا المقرَّبونَ : فإنَّهم يَرونَ أنَّ تشَبُّثاتِ النَّفسِ عندَ حَركتِها بظُهورِ أخلاقِها وصِفاتِها . . إنَّما هو ببقايا الوجودِ ، وقدْ عرَّفَهمُ الحقُّ سبحانَهُ طريقَ الفناءِ والاستغراقِ والتَّستُّرِ بأنوارِ فَضلِ الحقِّ الخاصِّ ؛ فيَتجرَّدونَ عن قَميصِ الوجودِ ، ويَكتَسُونَ مَلابِسَ نورِ القُرْبِ ، فلَا تَتَطرَّقُ إليهِم تَشبُّثاتُ النَّفسِ ، فرَوحُهم دائمٌ ، وهم في الأرضِ أعزُّ مِنَ الكبريتِ الأحمرِ .

وهـٰذا آخرُ ما تيسَّرَ مِن كلَامِهِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وأعادَ عليَّ مِنْ بَركتِهِ ، واللهُ تعالىٰ يَجعَلُ ما كتبتُهُ بخطِّي في هـٰذا المجموعِ شاهِداً لي لا عليَّ ، وأنْ يَستَخلِصَني لهُ ، وأنْ يَهَبَ ليَ العِلمَ النَّافِعَ والعَمَلَ بهِ ، ويَهدِيَني إلىٰ سَواءِ السَّبيلِ .

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين

وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدنا محمَّدٍ وآلهِ وصحبهِ وسلَّم

---

(١) هـٰذا الفُتوحُ مَذكورٌ بنصِّه في رسالةِ « الفتُوحاتِ » .

من تراث

الإمام أبي حفص عمر السُّهْرَوَرْدِيّ

الكتاب الخامس

زاد المسافر

وأدب الحاضر

مقدّمة
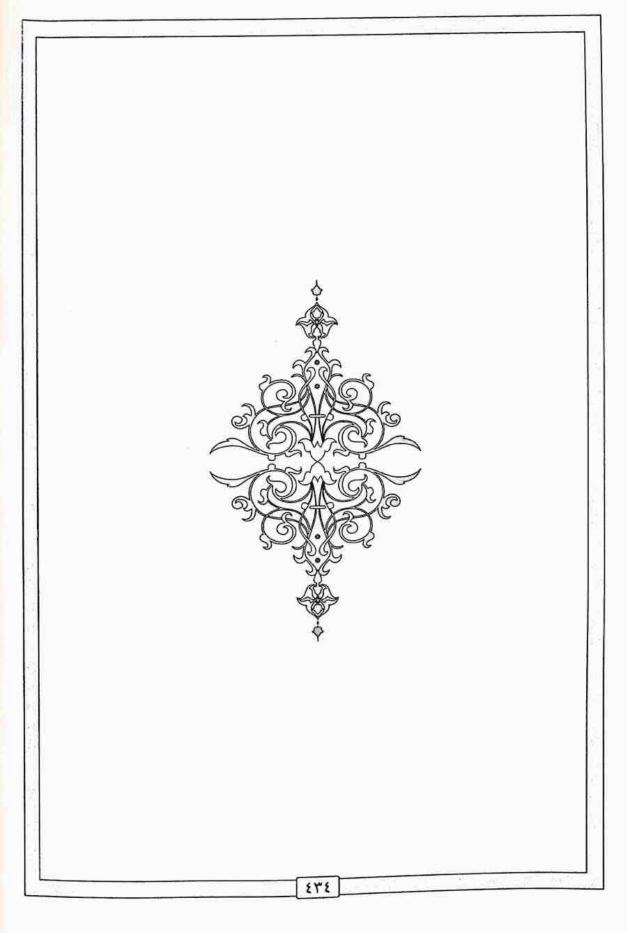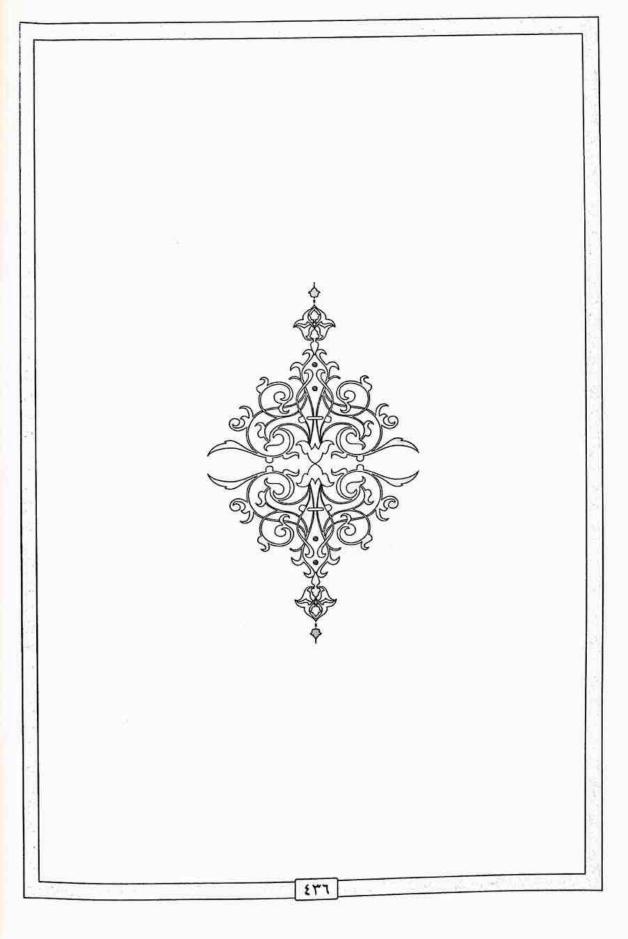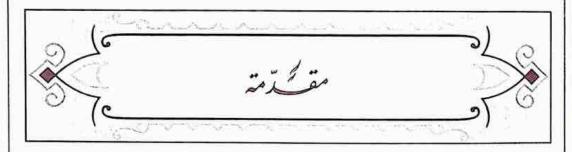
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قدَّمَ الشَّيخُ السُّهرورديُّ في هٰذا الكتابِ توجيهاتٍ وإرشاداتٍ لجماعةٍ مِنَ المُنتسبين إلى التَّصوُّفِ ، غيرَ أَنَّهُم لمْ يلتزموا برُسُومِهِ وآدابِهِ ، فراحُوا يأخذونَ مِنَ التَّصوُّفِ ظاهِرَهُ ، ويتركون لُبَّهُ وحقيقتَهُ ، ولمْ يكُنْ لهمْ همٌّ سوى الظُّهورِ بمَظهَرِ السَّالكينَ الفقراءِ مِنْ أجلِ تحصيلِ الأرزاقِ الَّتي تَجري على المُنقطِعينَ في الرُّبُطِ ، عِلاوةً علىٰ سُوءِ أَدَبِهِم معَ المشايخِ ، وتضييعِهم لحُرمتِهِم ، وإخلالِهم بآدابِ الطَّريقِ ، ولقدْ شدَّدَ في وَصفِهِم ؛ فقالَ عنهُم : (أَحداث) ، وقالَ : (وقدْ صارَ عندَهُم المعروفُ منكراً ، والمنكرُ معروفاً) ، وهٰذا يدلُّ علىٰ مبلغِ ما انتهىٰ إليهِ حالُهُم .

فاستخارَ الشَّيخُ السُّهرورديُّ ربَّهُ في كتابةِ نصيحةٍ مختصرةٍ يُذكِّرُهُم فيها بآدابِ التَّصوُّفِ وأخلاقِ أهلِهِ لمَنْ كانَ منهم حاضراً ومَنْ كانَ مسافراً ، ومِنْ هنا جاءَتْ تسميتُها بـ « زادِ المسافرِ وأدبِ الحاضرِ » ، وقدْ قصَدَ بها أيضاً إحياءَ رُسومِ المشايخِ الَّتي أضاعَها الصُّوفيَّةُ في زمانِهِ ؛ رجاءَ أنْ تعودَ عليهِ بركةُ ذِكرِ آدابِهِم ، وهي صورةٌ مصغَّرةٌ لكثيرٍ ممَّا سجَّلَهُ في كتابِهِ الكبيرِ « عوارفِ المعارفِ » ؛ ففيهِ توسُّعٌ عمَّا جاءَ في هٰذه النَّصيحةِ المختصرةِ ، وتشتركُ مع كتابِهِ « إرشادِ المُريدينَ وإنجادِ الطَّالبينَ » في كثيرٍ مِنْ مباحثِهِ .

ومهما يكُنْ مِنْ أمرٍ . . فقدْ أدارَ السُّهرورديُّ النَّصيحةَ على اثني عَشَرَ فصلاً

تُعالِجُ السَّلبيَّاتِ الَّتي رآها بنفسِهِ ؛ تتناولُ آدابَ السَّفرِ وأنواعَهُ ، وآدابَ دخولِ البلدانِ والانضمامِ إلى الرُّبُطِ ، وآدابَ الإقامةِ والمجاورةِ ، وآدابَ الأكلِ والشُّربِ والنَّومِ واليَقَظةِ واللِّباسِ ، وآدابَ حضورِ السَّماعِ ، وآدابَ الخِرقةِ وأصلَها ودليلَها ، وآدابَ الكلام والمُحاورةِ [1] .

❁ ❁ ❁

---

(١) يُراجَع المزيدُ من الكلامِ على الكتابِ في « أبو حفص عمر السُّهرورديُّ ؛ حياتُه وتصوُّفُه » (ص ٧٢) .

وصف النّسخة المعتمدة في التّحقيق
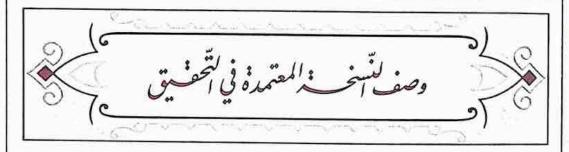
اعتمدتُ في تحقيقِ هٰذه الرِّسالةِ علىٰ نُسخةٍ خطِّيَّةٍ محفوظةٍ بمكتبةِ فاضل أحمد باشا كوبريلي ، بالمكتبةِ السُّليمانيَّةِ إستانبول ، وهي ضِمنَ مجموعٍ للشَّيخِ السُّهرَوَرْدِيِّ ، برقم (٠٠٢ ـ ١٦٠٣) ، الصَّفحاتِ (١١ ـ ٥٣) ، وقد كُتِبت سنةَ (٧٣٩ هـ) .

وقد ذُكرت في فهارسِ المخطوطاتِ علىٰ أنَّ مؤلِّفَها الشَّيخُ شِهابُ الدِّينِ السُّهرَوَرْدِيُّ (٦٣٢ هـ) ، ولٰكنْ أتَىٰ في صَدرِ هٰذه النُّسخةِ أنَّها تصنيفُ الشَّيخِ الإمامِ العالمِ العابدِ الوَرِعِ عمادِ الدِّينِ محمَّدِ ابنِ الشَّيخِ الإمامِ شِهابِ الدِّينِ عمرَ بنِ محمَّدٍ السُّهرَوَرْدِيِّ رضي اللهُ عنه .

ويمكنني ترجيحُ نِسبةِ ذٰلكَ المخطوطِ إلى الأبِ ؛ حيثُ إنَّ لغةَ شهابِ الدِّينِ السُّهرَوَرْدِيِّ الأبِ واضحةٌ في ثَنايا هٰذا الكتابِ ، وبقليلٍ منْ مطالعةِ موسوعتِهِ « عَوارفُ المعارفِ » يَسهُلُ على الباحثِ التَّأكُّدُ مِنْ نِسبةِ هٰذا المؤلَّفِ لشهابِ الدِّينِ السُّهرَوَرْدِيِّ ، وممَّا لا شكَّ فيهِ أنَّ موضوعَها وأسلوبَها يحمِلُ الكثيرَ مِنْ أنفاسِهِ ؛ لذٰلكَ وَجدتُ مِنَ المُناسِبِ أنْ أضُمَّ هٰذا الكتابَ إلىٰ تُراثِ شهابِ الدِّينِ ، واللهُ أعلمُ .

نماذج من صور المخطوط

١١

كتاب

زاد المسافر وادب الحاضر تصنيف

الشيخ الامام العالم العابد الورع عماد الدين

محمد بن الشيخ الامام شهاب الدين عمر بن محمد

السهروردي رضي الله عنه

نسخة مكتبة فاضل كوبريلي تركيا

بسم الله الرحمن الرحيم
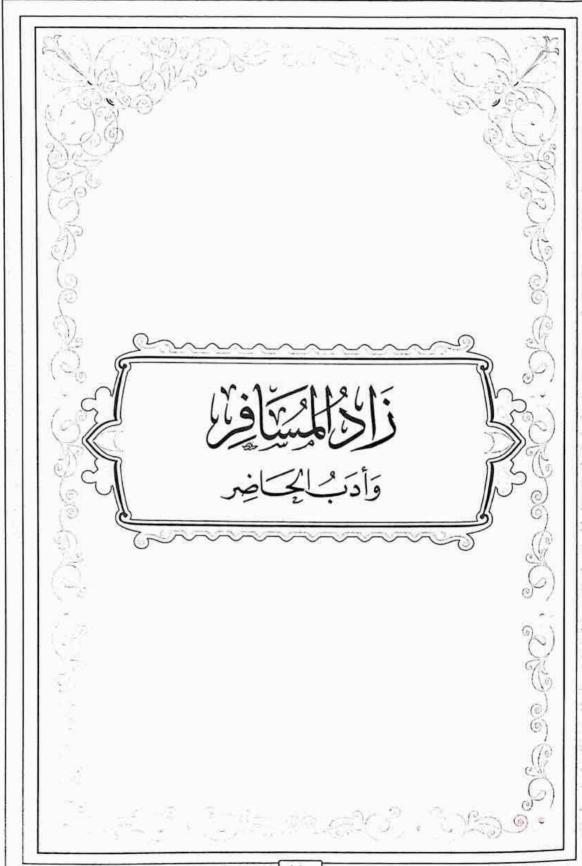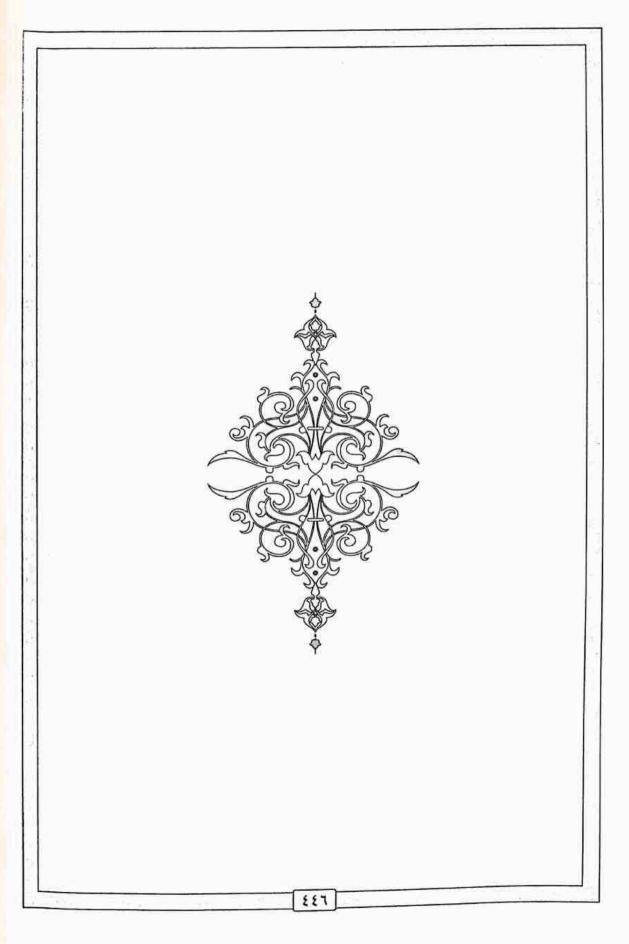
اسال من الله تعالى التوفيق بحمد يليق بجلاله

واصلي على رسوله محمد وصحبه واله اعلم

وفقك الله تعالى وايانا الصالح المحلى ان التصوف

حال عزيز وسر حرين وطريق جامع بين

الشريعة والحقيقة ولا يصل اليه الطالب

الصادق الا بعد احكام شروط مسالكه

وقواعده والوقوف على اسراره ودقايقه واس

ذلك متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم

والوقوف مع امره ونهيه فان كل طريقة

ليس عليها سور الشريعة فهي طريق من طريق

الشيطان وقهر من قهر الله تعالى وخذلان

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال

من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد وقيل حقيقة

ردتها الشريعة فهي زندقة وللتصوف

زاد المسافر
وأدب الحاضر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أسألُ مِنَ اللهِ تعالى التَّوفيقَ بحَمدٍ يليقُ بجلالِهِ ، وأُصلِّي علىٰ رسولِهِ محمَّدٍ وصحبِهِ وآلِهِ .

اعلَم ـ وفَّقك اللهُ تعالىٰ وإيَّانا لصالحِ العملِ ـ : أنَّ التَّصوُّفَ حالٌ عزيزٌ ، وسِرٌّ حَريزٌ[1] ، وطريقٌ جامِعٌ بينَ الشَّريعةِ والحقيقةِ ، ولا يصلُ إليهِ الطَّالبُ الصَّادقُ إلَّا بعدَ إحكامِ شُروطِ مَسالِكِهِ وقواعِدِهِ ، والوقوفِ علىٰ أسرارِهِ ودقائِقِهِ .

وأُسُّ ذٰلكَ : متابعةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، والوقوفُ مع أمرِه ونَهْيِه ؛ فإنَّ كلَّ[2] طريقةٍ ليسَ عليها سُورُ الشَّريعةِ فهي طريقٌ مِن طُرُقِ[3] الشَّيطانِ ، وقَهرٌ مِنْ قَهرِ اللهِ تعالىٰ وخِذلانٌ ، وقدْ وردَ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا . . فَهُوَ رَدٌّ »[4] ، وقيلَ : حقيقةٌ رَدَّتْها الشَّريعَةُ فهي زَندقةٌ .

وللتَّصَوُّفِ : باطنٌ ، وظاهرٌ .

فباطِنُ التَّصَوُّفِ : الوُقوفُ علىٰ أسرارِ الحَقائقِ ، وشغلُ القَلبِ بالأعمالِ الباطنةِ .

وظاهِرُ التَّصوُّفِ : الِاقتداءُ بالشَّريعةِ والوقوفُ معَ آدابِها ؛ فإنَّ الوصولَ إلىٰ أسرارِ الحقيقةِ يَتعذَّرُ مِنْ غيرِ إحكامِ أساسِ الشَّريعةِ .

والمشايِخُ ـ رحمةُ اللهِ عليهِم وقدَّسَ أرواحَهم ، وجزاهُم عنِ الإسلامِ خيراً ـ

---

(١) الحِرزُ : المَوضِعُ الحَصِينُ ، يُقال : هٰذا حِرزٌ حَريزٌ . يُنظر « الصِّحاح » (ح ر ز) .

(٢) في الأصل : (لكل) .

(٣) في الأصلِ : (طريق) ، ولعلَّ الأنسبَ ما أثبتُّ .

(٤) أخرجَهُ البُخاريُّ (٢٦٩٧) ومُسلِمٌ (١٧١٨) من حديثِ سيدتنا عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها ، وهٰذا لَفظُ مسلمٍ .

تكلَّمُوا في ظاهرِ التَّصوُّفِ وباطنِه ، ودَقَّقُوا في ذٰلك ، واستَوفَوا أقسامَ الكلامِ ، وتكلَّمَ كلٌّ منهم بقَدْرِ ما مَنَحَه اللهُ تعالىٰ مِن أنوارِ المعامَلاتِ وأضواءِ المجاهَداتِ فرحمةُ اللهِ عليهم .

فقدْ بَذَلَ كلٌّ منهُم الجَهدَ في النُّصحِ لعبادِ اللهِ تعالىٰ ، ونَبَّهَ على الطَّريقِ بِقَدْرِ معرفةِ ربِّهِ ، وقدْ كانَ في وَقتِهِم مَنْ سَلكَ طريقَهُم ، وحَذَا حَذْوَهُم[1] ، وتأدَّبَ بآدابِهِمُ الظَّاهرَةِ والباطنةِ ، وكُلَّما تأخَّرَ الوقتُ . . قَصُرَتِ الهِمَمُ ، وقَلَّ سُلَّاكُ هٰذا الطَّريقِ إلىٰ أنِ اندرَسَتْ علومُهُم ، وانطَمَسَتْ رُسومُهُم ؛ حتَّىٰ إنَّ ما وضَعَهُ المشايخُ مِنَ الاصطلاحاتِ والآدابِ الظَّاهرةِ أضاعُوها ، وقَصُرَتْ هِمَمُهُم في رِعايَتِها ، وقدْ قالَ بعضُهُم : (كانَ النَّاسُ ورَقاً بلا شَوكٍ ، وهُمُ الآنَ شَوْكٌ بلا وَرَقٍ)[2] .

وقدْ نَشَأَ في هٰذا الزَّمانِ جماعةٌ مِنَ الأحداثِ ، لا يَعرِفونَ مِنَ التَّصَوُّفِ إلَّا صَبْغَ القُمصانِ ، ولُبْسَ الزُّربانِقاتِ[3] ، والخصومةَ في كُلِّ مَوطنٍ يَصِلُونَهُ علىٰ لُقمَةٍ يأكُلونَها فحَسْبُ .

واستَعجَمَ عليهِم طريقُ المشايخِ ، وما وضَعُوهُ مِنَ الاصطلاحاتِ الَّتي مَنشَؤُها الكتابُ والسُّنَّةُ ، والنِّيَّاتُ الصَّالحةُ ، والأعمالُ الزَّكِيَّةُ ، وقدْ صارَ عندَهُم المعروفُ منكراً ، والمنكَرُ معروفاً ، ومَنْ يَنْتَمِي الآنَ إليهِم طَمِعٌ في مَعلومِ الرُّبُطِ[4] ، لا يَعلمُ كيفَ يَنتَمِي ، ويضعُ استعمالَ آدابِهِمُ الظَّاهرةِ ، وإذا نُبِّهَ علىٰ أدبٍ مِنْ آدابِهِم . . أنكرَه ؛ لِقِلَّةِ علمِهِ وقُوَّةِ جهلِهِ ، وتغافلَ عنهُ ، ودخلَ إلىٰ مساكنِ

---

(١) وتُقرأ : حدا حدوَهم ؛ مِن حُداءِ الإبلِ ، والمعنىٰ : غنَّىٰ بغنائهم ؛ أي : قال بقولهم .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٢٣/٢) ، من قول أبي مسلم الخولاني رحمه الله تعالىٰ .

(٣) ويقال : الزرمانقات ؛ وهي جُبَّةٌ من صوفٍ ، مُعَرَّبُ أُشْتُرْبانَهْ ؛ أي : متاعُ الجَمَّالِ . ينظر « تاج العروس » (زرنق) .

(٤) معلومُ الرُّبُطِ : ما يُقدَّمُ في هٰذه الأماكنِ مِن طعامٍ وشرابٍ ولباسٍ وغيره . والرُّبُط : من جُموعِ كلمةِ رباطٍ .

المشايخِ ومواطنِهم بسُوءِ الأدبِ وقِلَّةِ المُبالاةِ ، ولم يجِدُوا أيضاً مَنْ يُنكِرُ عليهِم أو يُحَاقِقُهُم علىٰ ذٰلكَ .

وحيثُ رأيتُ مِنْ هٰؤلاءِ الأحداثِ ما ذكرتُهُ . . غِرْتُ لهٰذه الطَّريقةِ ، واستَخَرتُ اللهَ تعالىٰ ، وذَكَرتُ في هٰذه المقدِّمةِ المختَصِرَةِ بعضَ آدابِهِمُ الظَّاهرةِ ، مع قِلَّةِ عِلمِي بذٰلكَ ، وقُصُورِي عن دَرَكِ شَأْوِهِم [1] ؛ فإنَّ رُسُومَهُم وآدابَهُم أكثرُ مِنْ أن يَصِلَ فَهمِي إلىٰ ذٰلكَ ، وكانَ الأَولىٰ أَلَّا أُنَبِّهَ علىٰ شيءٍ مِنْ آدابِهم إلَّا بعدَ إحكامِ قواعدِ طريقتِهِم ، غيرَ أنَّ وقتَ شُروعِي في هٰذه المقَدِّمةِ حَرَّضَتْنِي نِيَّةٌ صالحةٌ أرجُو أنْ تكونَ خالصةً لوجهِ اللهِ تعالىٰ .

وقَصدِي في ذٰلكَ إحياءُ رُسُومِ المشايخِ ؛ حيثُ أضَاعُوها صُوفيَّةُ هٰذا الوقتِ ، رجاءَ أنْ تعودَ عليَّ بركةُ ذِكرِ آدابِهم ، فذكرتُ في هٰذه المقدِّمةِ ما بلغَني مِنْ آدابِهِم في السَّفَرِ والمُقَامِ ، والسُّكوتِ والكلامِ ، والشَّرابِ والطَّعامِ ، واليَقَظَةِ والمنامِ ، ورَتَّبتُهُ اثني [2] عشرَ فصلاً ، واللهُ الموَفِّقُ والمُعِينُ .

الفصلُ الأوَّلُ : فيما يَلزَمُ المنتَمِي إلىٰ هٰذهِ الطَّريقةِ مِنَ النِّيَّةِ في السَّفَرِ .

الفصلُ الثَّاني : فيما يُستَحَبُّ للمُتَصوِّفِ أنْ يَعتَمِدَهُ عندَ السَّفَرِ .

الفصلُ الثَّالثُ : في ذِكرِ آدابِ المتَصَوِّفِ عندَ قُدومِهِ إلىٰ بلَدٍ ودُخولِهِ إلىٰ رِباطٍ .

الفصلُ الرَّابعُ : في ذِكرِ آدابِ المُجاوَرةِ والمُقَامِ ، ويَشتَمِلُ علىٰ أدبٍ .

الفصلُ الخامسُ : في ذِكرِ آدابِ المُحاوَرَةِ والقِيامِ والقُعودِ .

الفصلُ السَّادسُ : في ذِكرِ آدابِ الأكلِ وحُضُورِ السُّفْرَةِ .

الفصلُ السَّابعُ : في ذِكرِ آدابِ الشُّربِ والسِّقاءِ .

---

(١) الشَّأْوُ : الغايةُ والأمَدُ ، ويأتي بمعنى السَّبق . وانظر « تاج العروس » (شأو) .

(٢) في الأصل : (اثنا) .

الفصلُ الثَّامنُ : في ذِكرِ آدابِ النَّومِ واليَقظَةِ .

الفصلُ التَّاسعُ : في ذِكرِ آدابِ اللِّباسِ ، وما يليقُ بالمُبتَدِئِ أن يَتزَيَّا ويَلبَسَ .

الفصلُ العاشرُ : في ذِكرِ آدابِهِم عندَ حُضُورِ السَّماعِ .

الفصلُ الحاديَ عشَرَ : في حُكمِ الخِرْقَةِ إذا وقَعَتْ مِنَ الفقيرِ حالَ الوَجْدِ ، وذِكرِ أصلِ الخِرْقَةِ ومَنشَئِها .

الفصلُ الثَّانيَ عشَرَ : في ذكرِ كلامِهِم في المَاجَرَىٰ ، وما يجبُ أن يَعتَمِدَهُ الجانِي والمجنِيُّ عليهِ .

فهٰذه اثنا عشَرَ فصلاً ، أَقَلُّ ما يَلزَمُ المنتَمِي إلىٰ هٰذه الطَّريقِ : أن يَتقيَّدَ بها ويَعرِفَها ، وما مِنْ أدبٍ إلَّا وقدْ ورَدَ فيهِ خَبَرٌ أو وُجِدَ فيهِ أثرٌ ، لمْ أذكُرْهُ طلَباً للإيجازِ والاختصارِ ، ومِنَ اللهِ أسألُ التَّوفيقَ فيما أقولُهُ ، وهو المُلهِمُ للصَّوابِ .

الفصل الأوّل

فيما يلزم المنتمي إلىٰ هٰذه الطّريقة من النّيّة في السّفر

يَنبغِي للمُنتَمِي إذا عَزَمَ على السَّفَرِ أن يَنظُرَ سَفَرَهُ لماذا ؟ وفيماذا ؟ فإنَّ سَفَرَ الفقيرِ ينقسمُ علىٰ خمسةِ أقسامٍ ليسَ لها سادسٌ ، ومَن لمْ تَنحَصِرْ نِيَّتُه في هٰذه الأقسامِ ، ولا يكونُ سَفَرُهُ لهٰذه الأقسامِ الخمسَةِ . . يكونُ مُتابِعاً لنفسِهِ وهواهُ ، مَفتُوناً[1] في دُنياهُ وأُخراهُ ، قدْ رَكَنَ إلى البَطالَةِ ، وشَرَدَتْ نفسُهُ عن قانونِ الضَّبْطِ ، ويكونُ سَفَرُهُ غيرَ مُبارَكٍ ، ونِيَّتُه غيرَ صَحيحَةٍ ؛ لأنَّه انقادَ لِدَواعِي طَبْعِهِ وَوَساوِسِ نفسِهِ ، وهٰذا مُنافٍ للطَّريقةِ .

فالقِسمُ الأوَّلُ : أنْ يكونَ في طلبِ ما يُصلِحُ بهِ حالةَ دِينِهِ وأمرِ آخِرَتِهِ ؛ مِن تَعَلُّمِ ما يجبُ عليهِ تَعلُّمُهُ[2] مِنْ أسبابِ الفرائضِ والسُّنَنِ المولَّدةِ[3] ، وما يُستَحَبُّ لهُ تَعلُّمُهُ مِن مَسنُونٍ أو مَندوبٍ ، فهٰذا سَفَرٌ واجِبٌ ، وأُسُّ هٰذه الطَّريقةِ التَّفتيشُ[4] علىٰ أوامرِ الشَّرعِ ونَواهيهِ ، وهٰذا يكونُ مُعاناً في طريقِهِ ؛ لِمَا وَرَدَ : « أَنَّ ٱلْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ ٱلْعِلْمِ رِضاً فِيمَا يَطْلُبُ »[5] .

---

(١) في الأصل : (مفتون) .

(٢) في الأصل : (تعليمُه) ، ولعلَّ الأنسَبَ ما أثبتُّ .

(٣) يقصد : السُّنَنَ الرَّواتِبَ الَّتي تسبِقُ الفرائضَ وتَعقُبُها ، وكأنَّها تَنتُجُ منها وتَتَوَلَّدُ عنها ؛ لكونِها سَبباً في وُجودِها ، والله أعلم .

(٤) في الأصل : (التَّفتُّشُ) ، بحذفِ الياءِ ، والتَّفتِيشُ : طلبٌ في بحثٍ . ينظر « تاج العروس » (٢٩٦/١٧) .

(٥) أخرَجَهُ التِّرمذِيُّ (٣٥٣٥ ، ٣٥٣٦) ، وأحمدُ في « مُسنَدِه » (١٥٨٩٠) ، وأبُو دَاوودَ الطَّيالِسي في « مُسنَدِه » (١٢٦١) ، وَعبدُ الرَّزَّاق في « المُصَنَّف » (٧٩٥) ، والحُمَيدِيُّ في « مُسنَدِه » (٩٠٥) ، وابنُ خُزَيمةَ في « صَحيحِه » (١٧) ، وابنُ حِبَّان في « صَحيحِه » (١١٠٠) ، وَالضِّياءُ المَقْدِسِي في « الأحَادِيثِ المُختَارة » (٢١ ، و٢٤ ، و٢٦) جَميعُهُم مِن طَريقِ عَاصِمِ بنِ أَبِي النَّجُودِ ، عَن زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ ، عن صَفوَانَ بْنِ عَسَّالٍ الْمُرَادِيِّ رضي الله عنه . ←

القِسمُ الثَّانِي : أنْ تكونَ نِيَّتُهُ في السَّفَرِ مجاهدةَ النَّفسِ وتَزكِيَتَها وتَهذِيبَها ؛ ليَختَبِرَ أخلاقَهُ وطِباعَهُ ، ويُجَرِّبَ نفسَهُ في السَّفرِ ، فهٰذا أيضاً سَفَرٌ مُبارَكٌ ، ونِيَّةٌ صالحةٌ .

القِسمُ الثَّالثُ : أنْ يُسَافِرَ لِيَنظُرَ إلىٰ صُنعِ اللهِ تعالىٰ وآياتِهِ وقُدرَتِهِ الدَّالَّةِ علىٰ وَحدانِيَّتِهِ في البَرِّ والبحرِ ، ويَزدادَ بذٰلكَ علمَ التَّوحيدِ ، ويَتَبرَّكَ بمشايخِ الإسلامِ ، ويستفيدَ مِنْ كُلِّ واحدٍ منهُم ؛ لتَعُودَ عليهِ بَرَكتُهُ ، ويَتَبرَّكَ بالمشاهدِ والمواقفِ ؛ فهٰذا أيضاً قِسمٌ صالحٌ مِنَ السَّفَرِ .

القِسمُ الرَّابعُ : أنْ يُسَافِرَ لقضاءِ واجبٍ ؛ كالحجِّ إنِ استطاعَ ، والغَزْوِ إنْ تَعَيَّنَ عليهِ ، أو قضاءِ دَينٍ يجبُ عليهِ قضاؤُهُ ، أو أداءِ زكاةٍ إلىٰ بلدٍ آخَرَ إنْ كانَ لهُ نِصَابٌ ولا يجدُ في بلدِهِ مَنْ يَدفعُ إليهِ الزَّكاةَ ، فهٰذا يجبُ عليهِ السَّفَرُ .

القِسمُ الخامسُ : أنْ يُسَافِرَ في طلبِ ما يُصْلِحُ بهِ أمرَ مَعَاشِهِ ودُنياهُ بقَدْرِ الضَّرُورَةِ إنْ كانَ لهُ عِيَالٌ ولا يجدُ في مُقَامِهِ ما يقومُ بأَوَدِهِم ؛ فإنَّ المُنفَرِدَ يجدُ ما يقومُ بِأَوَدِهِ[1] .

فهٰذه أقسامٌ خمسةٌ : واجبةٌ ومستَحبَّةٌ ؛ فما عدا ذٰلكَ مِنَ السَّفَرِ في طلبِ الجاهِ والاستكثارِ مِن المالِ أو أسبابِ الدُّنيا ، والتَّعَرُّضِ لأشياءَ لا حاجةَ لهُ إليها عملاً . . فَسَفَرُهُ يكونُ وبالاً عليهِ ، وتَضييعاً للعُمُرِ ، فهٰذا مِمَّا لا يجوزُ .

* * *

← وَعَاصِمُ بنُ أبي النَّجُود ـ وَإن كَان إلى الضَّعفِ أَقْرَب ـ ، انظر : « تَهذِيب التَّهذِيب » : ٣٨/٥ ، إلَّا أَنَّ النُّقَّاد قَد احْتَملُوه فِي رِوَايةِ مِثْلِ هَـٰذِهِ الأَخبَارِ التي لَا تَتَعلَّق باعْتِقَادٍ أَو حُكْمٍ فِقْهِيّ ، وَقد صَحَّحَ لَهُ هٰذا الحديثَ كما تَقَدَّم : التِّرمِذِيُّ ، وابنُ خُزَيمةَ ، وابنُ حِبَّان ، وَالضِّيَاءُ المَقْدِسِي .

(١) يقالُ : أقَامَ أَوَدَه : قَوَّمَ اعوِجاجَه ، أو أمسَكَ رمَقَه . ينظر : « الصحاح » للجوهري : (٤٤٢/٢) .

الفصل الثّاني

فيما يُستحبّ للمتصوّف أن يعتمده عند السّفر

ينبغي للفقيرِ إذا أرادَ السَّفَرَ أنْ يستخيرَ اللهَ تعالىٰ في الأماكنِ المبارَكةِ ، ويستشيرَ الصَّالحينَ مِنْ أهلِ بلدِهِ ، ويذكُرَ لهُم قَصدَهُ ، ويسألَهُمُ الدُّعاءَ ، ويجبُ عليهِ أنْ يَتعلَّمَ فرائضَ التَّيَمُّمِ والمسحِ على الخُفَّينِ ، وفرائضَ الجمعِ والقصرِ ؛ فإنَّها واجباتُ السَّفَرِ ، وأنا أذكرُ ذٰلكَ بقَدْرِ الإمكانِ ؛ فإنَّ مِنَ المسَافرِينَ في هٰذا الزَّمانِ مِنْ قُصُورِ الهِمَّةِ مَنْ لا يسألونَ ، ويركَنونَ إلىٰ جهلِهِم ، ولا يُفَتِّشونَ علىٰ ذٰلكَ في الكُتُبِ الشَّرعيَّةِ .

ففرائضُ التَّيَمُّمِ : سبعةُ أشياءَ ، وسُنَنُه : سُنَّتَانِ[1] :

فالفرضُ الأوَّلُ : عدمُ الماءِ بعدَ الطَّلَبِ ، وصورةُ الطَّلبِ : أنْ يَطلُبَ الماءَ في رَحْلِهِ ، ثمَّ عندَ رُفَقائِهِ ، ثمَّ في ذٰلكَ الموضعِ الَّذي يكونُ فيهِ ؛ فإنْ كانَ مع رُفقَتِهِ ولا يخافونَ العطَشَ ، ويَفْضُلُ عن وُضوئِهم . . لزِمَهُم أن يُعطوهُ ليُؤدِّيَ فريضةَ الوقتِ ؛ فإنْ لمْ يُعطُوهُ وكانَ معَهُ ما يَفْضُلُ مِنْ نَفقَتِهِ . . وجبَ عليهِ أنْ يَبتَاعَ ويتوضَّأَ بهِ ما لمْ يَخَفِ العطَشَ .

الفرضُ الثَّانِي : ألَّا يَتيَمَّمَ قبلَ دخولِ وقتِ الفريضةِ ؛ فإنْ تيمَّمَ قبلَ دخولِ وقتِ الفريضةِ أو شكَّ في دخولِ الوقتِ . . لا يَصِحُّ تَيَمُّمه عندَ الشَّافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ .

الفرضُ الثَّالثُ : أنْ يكونَ التُّرابُ الَّذي يَتيَمَّمُ به طاهراً لهُ غبارٌ ؛ فإنْ تيمَّمَ برَملٍ ليسَ لهُ غُبارٌ ، أو جِصٍّ مَحروقٍ مَسحوقٍ ، أو بِطِينٍ نَدِيٍّ . . لا يُجزِيهِ ولا

---

(١) ينظر في فرائض التيمم وسننه عند الشافعية : « مغني المحتاج » للخطيب الشربيني (١/٢٤٥) .

يَصِحُّ تيَمُّمُهُ عندَ الشَّافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ ، ولا يَصِحُّ التَّيمُّمُ بترابٍ خُلِطَ فيهِ طِيبٌ أو نَجَسٌ .

الفرضُ الرَّابعُ : النِّيَّةُ عندَ مسحِ الوجهِ بالتُّرابِ ، ويَنوي الاستباحةَ ، لا رَفْعَ الحدَثِ .

الفرضُ الخامسُ : ضَرْبُ اليدَينِ على التُّرابِ حتَّىٰ يَعْلَقَ بهما الغُبارُ ومسحُ الوجهِ بهما .

الفرضُ السَّادسُ : ضَرْبُ اليدَينِ على التُّرابِ ومسحُ الذِّراعَينِ مع المِرفَقَينِ ، وصورةُ ذٰلكَ : أن يَمَسَّ يمينَهُ بكفِّهِ اليسارِ ، ويمسحَ يسارَهُ بكفِّهِ الأيمنِ ، ويمسحَ إحدَى الرَّاحتَينِ بالأُخرَىٰ ، فإنْ لمْ يَصِلِ الغُبارُ إلىٰ شيءٍ مِنَ الوجهِ والذِّراعَينِ .. لا يصحُّ عندَ الشَّافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ .

الفرضُ السَّابعُ : التَّرتيبُ كما في الوضوءِ ؛ فإنْ أخلَّ بذٰلكَ .. لا يُجزِيهِ .

والسُّنَّتانِ : التَّسمِيةُ ، وتقديمُ اليمينِ على اليسارِ .

وحُكمُ الجُنُبِ في التَّيمُّمِ كحُكمِ المُحْدِثِ .

أمَّا شروطُ صِحَّةِ المسحِ .. فأربعةٌ(١) :

الأوَّلُ : المسحُ علىٰ خُفٍّ صحيحٍ ؛ فإنْ لَبِسَ خُفّاً ليسَ لهُ ساقٌ ، أو خُفّاً في ساقِهِ خَرْقٌ .. جازَ المسحُ ، وإنْ كانَ الخَرْقُ في القَدَمِ حيثُ يَظهَرُ معَهُ شيءٌ .. لا يصحُّ المسحُ عندَ الشَّافعيِّ .

الثَّاني : أن يُمكِنَ متابَعةُ المشيِ عليهِ .

الثَّالثُ : النِّيَّةُ عندَ لُبْسِ الخُفِّ للمسحِ .

---

(١) يراجع في هٰذه الشروط عند الشافعي رضي الله عنه : « تحفة المحتاج » لابن حجر الهيتمي (١/٢٤٧) .

الرَّابعُ : أنْ يمسحَ على الأعلَىٰ والأسفلِ ؛ فإنْ مسَحَ على الأعلَىٰ . . أجزأَهُ ، وإنْ مسَحَ على الأسفلِ . . لم يُجْزِهِ .

وأمَّا شروطُ صحَّةِ صلاةِ القَصرِ والجمعِ . . فثلاثةٌ[1] :

الأوَّلُ : أنْ يكونَ السَّفَرُ ستَّةَ عشَرَ فَرْسَخاً ؛ فإنْ كانَ دونَ ذٰلكَ . . لم يصِحَّ القَصرُ والجمعُ .

الثَّانِي : أنْ يكونَ سَفَرَ طاعةٍ ؛ فإنْ كانَ سَفَرَ معصيةٍ . . فلا يَصِحُّ القصرُ .

الثَّالثُ : مسألةُ النِّيَّةِ عندَ التَّأخيرِ والتَّقديمِ ، ومتَىٰ لمْ يَستَصْحِبِ النِّيَّةَ . . لا يَصِحُّ قصرُهُ ولا جمعُهُ .

والقصرُ في الظُّهرِ والعصرِ والعشاءِ ، والجمعُ في الظُّهرِ والعصرِ ، والمغربِ والعشاءِ ، وإذا أرادَ تأخيرَ الظُّهرِ إلى العصرِ ، والمغربِ إلى العشاءِ . . يَنوِي أنَّهُ أخَّرَ الظُّهرَ إلى العصرِ ، أو المغربَ إلى العشاءِ ؛ بنِيَّةِ الجمعِ والقصرِ ، وإذا أرادَ تقديمَ العصرِ إلى الظُّهرِ ، أو العِشاءِ إلى المغربِ . . يَنوِي أنَّهُ قدَّمَ العصرَ إلى الظُّهرِ ، والعشاءَ إلى المغربِ ؛ بنِيَّةِ الجمعِ والقصرِ ، ولا يَصِحُّ ذٰلكَ بغيرِ نِيَّةٍ .

فهٰذا القَدْرُ الَّذي يَلزَمُ الفقيرَ أنْ يتعلَّمَهُ ، وهو مِنْ واجباتِ السَّفَرِ ؛ فمتَىٰ لمْ يُحْكِمْ هٰذه الأصولَ . . لا يَدري أحكامَ التَّيمُّمِ ولا المسحِ ، ولا القصرِ والجمعِ .

ويجِبُ عليهِ قضاءُ دينٍ إنْ كانَ عليهِ ؛ فإنْ لمْ يكُنْ لهُ شيءٌ . . وجَبَ أنْ يَكتُبَ لصاحبِ الدَّينِ سُفْتَجَةً[2] ، ولا يسافرُ إلَّا بإذنِهِ ويَرُدُّ ما يكونُ عندَهُ مِنْ وَدِيعةٍ ،

---

(١) تراجع هٰذه الشروط في « نهاية المحتاج » لشمس الدين الرملي (٢/٢٥٧) .

(٢) السُّفْتَجَةُ : أن يُعطِيَ مالاً لآخَرَ ، وللآخَرِ مالٌ في بَلَدِ المُعطِي ، فَيُوفِّيَهُ ثَمَّ ، فيَستَفِيدَ أَمْنَ الطَّريقِ ، وفِعلُهُ : السَّفْتَجَةُ بالفتحِ . ينظر « القاموس » (ص ١٩٣) .

وينظر في السفتجة : « الحاوي الكبير » للماوردي (٦/٤٦٧) ، و« الموسوعة الفقهية الكويتية » (٢٥/٢٣) .

ثُمَّ يطلبُ رفيقاً صالحاً ؛ فقد قيلَ : الرَّفيقُ ثُمَّ الطَّريقُ ، وهو عَوْنٌ علىٰ مَشَقَّةِ السَّفَرِ ؛ فإنْ لمْ يجِدْ . . فسَفَرُهُ مُنفَرِداً مع صَحْبٍ خيرٌ لهُ مِن رَفيقٍ يَتعَبُ بطريقِهِ .

ثُمَّ يُودِّعُ إخوانَهُ وأهلَهُ ، ويسألُهُمُ الدُّعاءَ ، ويُصَلِّي حالَ التَّوجُّهِ أربعَ رَكَعاتٍ ؛ فإنَّها تكونُ خليفةً لهُ في الأهلِ والمالِ والولدِ ، ويَستَصحِبُ معَهُ المُشْطَ والمُكْحُلَةَ والسِّواكَ والمِرآةَ والمِقراضَ والطِّيبَ ، والقَصْعَةَ والعَصا والإبريقَ والسَّجَّادةَ والإبرةَ وما يَخيطُ بهِ ؛ فإنَّ هٰذه مِنْ سِهامِ الفَقيرِ .

ومتَىٰ سافرَ بغيرِ هٰذه الأَدَواتِ . . يدلُّ علىٰ عَدَمِ ضَبطِهِ ، ومَنْ لمْ يَقْدِرْ علىٰ ضَبطِ ظاهرِهِ . . لم يَقدِرْ علىٰ مُراعاةِ باطنِهِ ، وجماعةٌ مِنَ الجهَلَةِ يَزعمُونَ أنَّ هٰذه قُيودٌ ليسَتْ بشيءٍ ؛ وذٰلك لِتَشَرُّدِ بَواطِنِهِم ، وجميعُ هٰذه قدْ وردَتْ بها السُّنَّةُ ، ولا تجريدَ في الباطنِ والظَّاهرِ أكثرُ مِنْ تَجريدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ومع هٰذا كانَ يَصحَبُه في سَفَرِهِ ما ذكرناهُ .

وينبَغِي أنْ يَبذُلَ في طريقِهِ لإخوانِه ومُصاحِبيهِ كلَّ خلَّةٍ جَميلَةٍ ، وخُلُقٍ حَسَنٍ ، ويُقَرِّرَ في نَفْسِهِ احتمالَ الأذىٰ وسَماعِ السَّيِّئِ مِنَ القَولِ ، واحتمالَ الكُلْفَةِ والمشَقَّةِ ، ومُداراةَ الإخوانِ والصَّالحينَ ؛ فإنَّه يَجِدُ بَرَكَةَ ذٰلكَ .

وينبَغي أنْ يُخفِّفَ عن دابَّتِهِ ؛ ليكونَ قدْ بَذَلَ الشَّفَقَةَ على الحيوانِ ، واستَمالَ قلبَ المُكارِي ، وإذا رأىٰ بعضَ إخوانِه ماشياً . . آثرَه بالرُّكوبِ ساعةً فساعةً منْ ليلِهِ ونهارِهِ بإذنِ المُكارِي ، ويختارَ السَّفَرَ في الأيَّامِ التَّاليَةِ : يومِ السَّبتِ ، أو الثُّلاثاءِ ، والخميسِ ؛ فإنَّهُ كذا وردَ[1] ، ويَتجَنَّبَ السَّفَرَ اليومَ الرَّابعَ مِن الشَّهرِ ، والحادِيَ عِشرينَ منهُ ، والخامسَ عشرينَ منهُ ؛ فإنِ اضْطُرَّ إلى الخروجِ في يومٍ من هٰذه الأيَّامِ . . فَيَلجَأُ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويَسألُهُ العافيةَ ، ويتصدَّقُ بشيءٍ .

---

(١) رواه الدارمي في « سننه » (٢٤٨٠) عن سيدنا كعب بن مالك رضي الله عنه بخصوص يوم الخميس .

ولا يُشْعِر إخوانَهُ بسَفَرِهِ إلَّا عندَ عَزْمِهِ التَّامِّ وحالَ توجُّهِه ؛ لئلَّا يَنتظِرَهُ إخوانُهُ ، فيتفرَّقَ جمعيةُ باطنِهِم بطريقِ سَفَرِهِ ، أو يقَعَ لهُ الرُّجوعُ عن عَزْمِهِ مع تعلُّقِ قلوبِ إخوانِهِ ، فعندَ ذٰلكَ يُكرَهُ ؛ فإنَّ الفقيرَ ينبغي أنْ يكونَ فِعلُهُ عَقِيبَ قولِه . . لئلَّا يكونَ فعلُهُ وقولُهُ عبثاً .

وليقُلْ عندَ التَّوجُّهِ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي أستَودِعُكَ دِيني ونفسِي وأهلي وذُرِّيَّتي ومالي وجميعَ أحوالي ، اللَّهمَّ ؛ احفَظِ الشَّاهِدَ مِنَّا والغائِبَ ، اللَّهمَّ ؛ احفَظنِي ، واحفَظْ عليَّ ، واجعلني في جِوارِكَ ، ولا تَسْلُبْنِي نِعمَتَكَ ، ولا تُغيِّرْ ما بيَ مِنْ نعمةٍ وعافيةٍ وفضلٍ[1] .

وليقلْ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ العليُّ العظيمُ ، لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ الحليمُ الكريمُ ، سبحانَ اللهِ ربِّ السَّماواتِ السَّبعِ ، وربِّ الأرَضِينَ ، وما فيهنَّ وما بينهُنَّ ، وربِّ العرشِ العظيمِ ، وسلامٌ على المرسلينَ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، اللَّهمَّ ؛ كُن لي جَبَّاراً مِنْ كُلِّ جَبَّارٍ عنيدٍ ، ومِنْ كُلِّ شيطانٍ مَرِيدٍ ، بِاسمِ اللهِ دخلْتُ ، وبِاسمِ اللهِ خَرَجْتُ ، اللَّهمَّ ؛ إنِّي أُقدِّمُ بينَ يدَي نِسياني وعَجَلَتِي : بِاسمِ اللهِ وما شاءَ اللهُ في سَفَرِي هـٰذا ، ذكرتُه أم نَسِيتُهُ ، اللَّهمَّ ؛ أنتَ المستعانُ على الأمورِ كُلِّها ، وأنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ ، والخليفةُ في الأهلِ ، اللَّهمَّ ؛ هوِّنْ علينا سَفَرَنا ، واطوِ لنا أرضَنا ، وسَيِّرنا فيها بطاعتِكَ وطاعةِ رسولِكَ ، اللَّهمَّ ؛ أصلِحْ لنا ظاهِرَنا ، وبارِكْ لنا فيما رزَقتَنا ، وقِنَا عذابَ النَّارِ ، اللَّهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنَ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وكآبَةِ المُنْقَلَبِ ، وسُوءِ المنظَرِ في المالِ والأهلِ والولَدِ[2] .

وإذا كانَ مع جماعةٍ . . وَافَقَ ضعيفَهم في مَشيِهِ ، وحَمَلَهُ علىٰ ضَعفِهِ ، وصَبَرَ معَهُ إذا مَرِضَ في سَفَرِهِ ؛ فقدْ وردَ : « سِيرُوا سَيْرَ أَضْعَفِكُمْ »[3] ، ويكونُ اختيارُهُ

---

(١) انظر « مصباحَ الزَّائر وجناح المسافر » للسَّيِّدِ ابن طاووس (ص ١٥١٤) .
(٢) أخرجَ مُسلِمٌ (١٣٤٢) بَعضَ هـٰذا الدعاء بنحوهِ مِن حَدِيثِ سيدنا ابنِ عُمرَ رَضِي اللهُ عَنهما .
(٣) لَم أقفْ عَلىٰ مَن أخرجَهُ مُسنَداً فِي شَيء مِن كُتبِ الحَديثِ وَغيرِهَا ، وَذَكَرَهُ السَّخَاويُّ فِي ←

للمَشيِ أكثرَ مِن اختيارِهِ للرُّكوبِ ؛ فإنَّ في المشيِ رياضةً بَدنيَّةً ، وكسرَ النَّفسِ ، وفيهِ تذَلُّلٌ وانكسارٌ .

ويُستحبُّ ألَّا يُسَافِرَ وَحدَهُ ؛ فإنِ اتَّفقَ سَفَرُهُ وَحدَهُ . . فليُكثِرْ مِن قولِ : لا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ ، وليقُل : اللَّهمَّ ؛ آنِسْ وَحْشَتِي ، وأَعِنِّي علىٰ وَحدَتِي [1] .

وَليَذكُرِ اللهَ تعالىٰ في كلِّ هُبوطٍ وصُعودٍ [2] .

ويُكرَهُ السَّيرُ أوَّلَ اللَّيلِ ، ويُستَحبُّ آخِرَهُ ، ويُكرَهُ وسَطَ النَّهارِ ، ويُستَحبُّ طرفَيهِ [3] ، وَليَكُنْ مُحافظاً علىٰ أوقاتِ صلاتِهِ ، ولا يَركَنْ إلى الرُّخصةِ بالكُلِّيَّةِ ؛ فإنَّ هـٰذه الأسفارَ إنَّما هي طلبٌ [4] للمزيدِ ، وينبغي أنْ يكونَ في سَفَرِهِ مأموراً ؛ يَتبَعُ إخوانَهُ ، ولا يَطلُبُ أنْ يكونَ متبوعاً ؛ فإنَّ بهـٰذه الطَّريقِ يَدخُلُ عليهِ زَلَلٌ كثيرٌ ، إلَّا إذا أرادَ اللهُ أنْ يَجعَلَهُ متبوعاً ؛ فيَستعمِلُ عندَ ذٰلكَ ما يجبُ على المتقدِّمينَ [5] .

← « المَقَاصِدِ الحَسَنَةِ » (٥٨٠) ، وقالَ : (لَا أعرفه بِهـٰذا اللَّفظ ، وَلـٰكِن مَعنَاهُ فِي قَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : اقدُر القَومَ بِأَضعَفِهِم ؛ فَإنَّ فِيهِم الكَبيرَ ، والسَّقِيمَ ، والبَعِيدَ ، وذَا الحَاجَةِ) .

وَقَد تَبِعَ السَّخَاوِيَّ عَلَىٰ هَـٰذا العَجْلُونيُّ فِي « كَشْفِ الخَفَاء وَمُزِيلِ الإلبَاسِ » (١/٤٦٤) ، ومُلَّا عَلي القاري في « الأَسرَارِ المَرفُوعةِ فِي الأَخبَارِ المَوضُوعة » (ص ٢٢١) .

(١) أَخرَجَهُ الحَسَنُ بنُ رُشَيقٍ العَسكَرِيُّ فِي « جُزئِهِ » (٨٢) ، وابنُ الفَاخِرِ الأَصبَهانِي في « مُوجِبَاتِ الجَنَّةِ » (٢٧٧) ، كلاهما مِن طَرِيقِ مُوسَى بنِ عُقبَةَ أَنَّ رَجُلاً مَرَّ بِالمَدِينَةِ ، فَذَكَرَهُ مُرسلاً عَن سيدنا أبي الدَّردَاءِ رضي الله عنه فِي سِيَاقٍ أتم .

(٢) أخرج الترمذي (٣٤٤٥) ، وابن ماجه (٢٧٧١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ ، فَأَوْصِنِي ، قَالَ : « عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَىٰ كُلِّ شَرَفٍ » ، فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ . . قَالَ : « اللَّهُمَّ ؛ اطْوِ لَهُ الأَرْضَ ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ » .

(٣) أخرج مسلم (٢٠١٣) ، وأبو داوود (٢٠٦٤) من حديث سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً : « لا تُرسِلُوا فَواشيَكم إذا غابتِ الشمسُ حتىٰ تذهبَ فحمةُ العِشاءِ ؛ فإن الشياطينَ تَنبعث إذا غابتِ الشمسُ حتىٰ تذهبَ فَحمةُ العِشاء » .

(٤) في الأصل : (طلباً) .

(٥) المتقدِّمون : مَن هم أعلىٰ منه في رئاستِهم واتِّباعِ النَّاسِ لهم ، فنُصحه هنا لمن أراد أن يكونَ مترئساً أن يتحلَّىٰ بخصائص وصفاتِ القادرينَ على الرِّئاسةِ ممَّن سَبقوه مِنَ المشايخِ .

والأصلَحُ للفقيرِ أنْ يكونَ تحتَ قَيّدِ مُتقدِّمٍ ؛ فقدْ يحدُثُ في الأسفارِ ما يحتاجُ إلى المشورةِ والاستعانةِ ، وقدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ نبيَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بذلكَ في قولِه تعالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [1] ، وفي المشورة برَكةٌ .

ويُستَحبُّ أن يُصلِّيَ ركعتينِ في كلِّ مَنزِلٍ يَنزِلُ [2] ، ويختارُ مِنَ المنازِلِ أحسَنَها مَنزِلاً ، وألْيَنَها تُربةً ، وأكثرَها عُشباً .

ويُستَحبُّ إذا نَزَلَ مَنزِلاً أنْ يقولَ : اللهمَّ ؛ أنزِلنِي مُنزَلاً مُبارَكاً وأنتَ خَيرُ المُنزِلِينَ ، ويستعيذَ باللهِ مِنْ شَرِّ المَنزِلِ ، ويسألَهُ خيرَهُ [3] ، وإذا أرادَ الرَّحيلَ منهُ . . صلَّىٰ ركعتينِ [4] ، ويُودِعَ أهلَ الموضعِ كلِمَتَي الشَّهادَةِ ؛ فإنَّ لكُلِّ مَوضعٍ أهلٌ مِنَ الملائكةِ ، وَلْيَقُلِ : السَّلامُ علىٰ ملائكةِ اللهِ الحافظينَ ، السَّلامُ علينا وعلىٰ عبادِهِ الصَّالحينَ ، ويسألِ اللهَ الحِفظَ والكَلاءَةَ [5] .

والله الموفق والمعين

---

(١) سورة آل عمران : (١٥٩) .

(٢) أخرجَهُ الدَّارِميُّ فِي « سُننِهِ » (٨٢) ، وأبُو يَعلَىٰ في « مُسندِه » (٤٣١٥ ، ٤٣١٦) ، والبَزَّارُ في « مُسندِه » (٦٥٣٢) عَن سيدنا أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه .

(٣) أخرج مسلم في « صحيحه » (٢٧٠٨) من حديث سيدتنا خولة بنت حكيم رضي الله عنها مرفوعاً : « مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . . لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَٰلِكَ » .

(٤) أخرج الحاكم في « المستدرك » (١١٨٨) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠٤١٨) ، و« المعجم الأوسط » (٣٤٤١) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَنْزِلُ مَنْزِلاً إِلَّا وَدَّعَهُ بِرَكْعَتَيْنِ) .

(٥) الكَلاءَة : الحِفظُ والصَّونُ والرِّعايةُ ، يقال : كلأَ اللهُ فلاناً ، كلأً وكَلاءَةً ؛ حَفِظَه ، ويقال : كلأَ فلانٌ القومَ ؛ رَعاهم ، وفي التَّنزيلِ : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ . ينظر « تاج العروس » (٤٠٣/١) .

الفصل الثّالث

في ذكر آداب المتصوّف عند قدومه إلى بلدٍ أو دخوله إلى رباط

ويَشتَمِلُ على اثنَينِ [١] وأربعينَ أَدَباً :

يَلزَمُ الفقيرَ أنْ يلتزمَ بهٰذه الآدابِ ، ولا يَتغافلَ عن شيءٍ مِنْ ذٰلكَ ؛ فهٰذه الآدابُ قدْ ورَدَتْ فيها الأخبارُ ، وهي آدابٌ شرعيَّةٌ ، وما لمْ تجدْ فيهِ نصّاً [٢] . . فقدْ فعلَهُ المشايخُ والمتَقدِّمونَ رحمةُ اللهِ عليهِم ، ومِنَ المعلومِ أنَّ عِلمَهُم كانَ أتمَّ مِن عِلمِكَ ، فكُنْ مُقلِّداً لهم في مَكارمِ الأخلاقِ بمَحاسنِ الشِّيَمِ ، ولا تَقوَّلْ بجهلِكَ .

كلُّ هٰذه صُوَرٌ وقُيودٌ ، والأصلُ الباطِنُ ؛ فكيفَ تَقْدِرُ علىٰ مُراقبةِ باطنِكَ وما قَيَّدتَ ظاهرَكَ بآدابِ الشَّرعِ ؟! ولا حَذَوْتَ حَذْوَ المشايخِ في أحوالِهم وأفعالِهم ؟! وهٰذا منكَ حِياكٌ [٣] فاسدٌ ؛ فإنَّ مراقبةَ الظَّاهرِ وسُلوكَ طريقِ آدابِ الظَّاهرِ . . دليلٌ علىٰ صِحَّةِ الباطنِ ، والأركانُ إذا تأدَّبَت بآدابِ الظَّاهرِ . . مُنِحَتْ ببركةِ ذٰلكَ مُراعاةَ الباطنِ ، فافهمْ ذٰلكَ .

الأدبُ الأوَّلُ

ألَّا يَصِلَ البلدَ الَّذي يَقصِدُه والرِّباطَ الَّذي يَدخُلُهُ ليلاً ؛ فإنَّهُ لا يقومُ بمُراعاةِ الدُّخولِ ؛ لضِيقِ الوقتِ ، وهو مَنهِيٌّ عنه [٤] .

---

(١) في الأصل : (اثني) .

(٢) في الأصل : (نصّ) وقف فيها علىٰ لغةِ ربيعةَ .

(٣) حِياك : لعلَّه نوعٌ من المشي ؛ يقال : حَاكَ يَحيكُ في مَشْيِهِ حَيَكَاناً ؛ إذا حَرَّكَ مَنْكِبَيْهِ وجَسَدَهُ . والمقصود بالحياك الفاسد : فساد العمل والطريقة والرأي . ينظر « مقاييس اللغة » (حيك) .

(٤) ومِن السننِ النبويةِ التي أُخِذ منها هٰذا الأدبُ نهيُه صلى الله عليه وسلم عن دخولِ الرجلِ علىٰ أهلِه ليلاً إذا عاد مِن سفرٍ ؛ فقد روى البخاري (١٨٠٠) ، ومسلم (١٩٢٨) من حديث سيدنا أنس بن ←

الأدبُ الثَّانِي

أنْ يُجدِّدَ الوضوءَ عندَ وُصولِهِ إلىٰ رَبْعِ[1] البلدِ ، ويُصَلِّيَ رَكعتينِ ، ويَستخيرَ اللهَ تعالىٰ في دُخولِهِ ، ويسألَهُ خيرَ ذٰلكَ البلدِ ، ويَستعِيذَ بهِ مِنْ شرِّهِ .

الأدبُ الثَّالثُ

أنْ يستَعِدَّ للقاءِ إخوانِهِ ، ويَلبَسَ أحسنَ ما معَهُ مِنَ الثِّيابِ ، ويَتَطَيَّبَ إنْ كانَ معَهُ ، ويتناوَلَ ما يكونُ معَهُ مِنَ الزَّادِ ؛ لئلَّا يَلقَىٰ إخوانَه بسَورةِ الجُوعِ[2] ، فيَشغَلَهُ عن إقامةِ وظائفِ حقِّ إخوانِهِ .

الأدبُ الرَّابعُ

يُشَمِّرُ كُمَّهُ ، ويَبتَدِئُ بالأيمنِ ، ويكونُ التَّشمِيرُ تحت المِرْفَقِ ؛ لئلَّا يَبِينَ مِن إبطِهِ شيءٌ .

الأدبُ الخامسُ

أن يَلبَسَ خُفَّهُ ، وما يكونُ معَهُ مِنْ باوزارَ ؛ يبدأُ باليمينِ ، ويجتهدُ أن يكونَ صحيحاً ، ويكونَ معه مَداسٌ مُعَدٌّ[3] برَسْمِ إقامَتِه .

الأدبُ السَّادسُ

يَشُدُّ وسَطَهُ بشيءٍ يصلُحُ لذٰلكَ ؛ فقدْ وردَ ذٰلكَ ، وفيهِ تواضعٌ ، ويرفعُ الثِّيابَ مِنَ الأرضِ ، وهو زِيُّ أربابِ الخِدْمَةِ .

مالك : (أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَا يَطْرُقُ أَهْلَهُ لَيْلاً ، وَكَانَ يَأْتِيهِمْ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً) . وما أخرجه البخاري (١٨٠١) عن سيدنا جابر رضي الله عنه : (نَهى النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم أن يَطرُقَ أهلَه ليلاً) .

(١) الرَّبْعُ : مَحلَّةُ القومِ ومنزلُهم . ينظر : « القاموس المحيط » : (٧١٨) .

(٢) السَّورَةُ : الوَثبَةُ ، ومِنَ البَردِ أوِ الشَّرابِ أوِ الغَضَبِ وغير ذٰلك : شِدَّتُه وحِدَّتُه وهِياجُه ، ومِنَ الرَّجُلِ أو السُّلطانِ وغيرِهما : سَطوَتُه . ينظر : « تاج العروس » : (١٢/٩٩) .

(٣) في الأصل : (مداساً معدّاً) .

الأدبُ السَّابعُ

أنْ يكونَ مَداسُهُ الَّذي أعدَّهُ للحَضَرِ في كِيسٍ أزرقَ ؛ فإنَّه أحْمَلُ للوسَخِ ، ويُدخِلُهُ بيدِهِ اليسارِ في كُمِّه الأيسرِ ، ويَجعَلُهُ خلْفَ ظَهرِه ؛ فقدْ رأى المتَقَدِّمُونَ ذٰلكَ ، ويجعلُ سَجَّادتَهُ علىٰ ظاهرِ الزَّاوِيةِ ؛ ليكونَ أسرعَ لمُناوَلتِها .

الأدبُ الثَّامنُ

أنْ يشُدَّ زاوِيَتَهُ على الكَتِفِ الأيسرِ ، ويكونَ الأيمنُ خالياً ، ويكونَ عقدُ الزَّاويةِ مِن جانبِهِ الأيمنِ .

الأدبُ التَّاسعُ

أن يجعلَ الزَّاويةَ عندَ دُخولِهِ إلىٰ مَشْهَدٍ أو موضعٍ شريفٍ ، أو عندَ لقاءِ بعضِ المشايخِ والمتَقدِّمينَ والإخوانِ ، ويَحمِلَها تحتَ الإبطِ الأيسرِ ، وهٰكذا العَصا والإبريقُ ، فإذا قَرُبَ منهم . . وضعَ الكُلَّ علىٰ مَوضِعٍ طاهرٍ مِنَ الأرضِ إلىٰ أنْ يَلقاهُم ويَتجاوَزَهُم ، ثُمَّ يعودُ يَحمِلُها علىٰ عادتِهِ ، ويُمسِكُ الإبريقَ باليسارِ ، والعصا باليمينِ .

الأدبُ العاشرُ

إذا وصلَ إلىٰ رَبْعِ البلدِ . . سَلَّمَ على الأحياءِ والأمواتِ ، وقرأَ ما تَيسَّرَ لهُ ، ويُهديهِ للأحياءِ والأمواتِ ، ثُمَّ يَحُلُّ الزَّاوِيةَ ، ويأخذُها تحتَ إبطِهِ الأيسرِ ، ويأخذُ أيضاً الإبريقَ والعَصا باليسارِ ؛ لتَكُونَ يَمِينُه خاليةً .

الأدبُ الحاديَ عشَرَ

إذا وَصَلَ إلىٰ بابِ الرِّباطِ . . جلسَ حتَّىٰ يُؤذَنَ لهُ ، ولا يدخلُ بغيرِ إذنٍ ؛ فإنْ لَمْ يُؤذَنْ لهُ في الدُّخولِ . . لا تَظْهَرُ عليهِ نفسُهُ ، وتَجنَّبَ جَهلَها ، ويتَيقَّنُ أنَّ المانِعَ والمعطِيَ هو اللهُ ، والرَّدَّ والقَبولَ مِنَ اللهِ ، ويتوجَّهُ إلىٰ جِهَةٍ أُخرىٰ أو إلىٰ

بعضِ المساجدِ ، ولا يقولُ : هٰذا بَيتِي ويُشنِّعُ على الخادمِ والشَّيخِ ؛ فإنَّهُ سُوءُ أدبٍ ، فالخادمُ والشَّيخُ إنْ كانا أمِينَينِ . . فمَنعُهُم لهُ عنِ الرِّباطِ يكونُ لمصلحةٍ ، وإنْ لمْ يكونَا أمِينَينِ . . فيعودُ وبالُ ذٰلكَ عليهما ، فليَكتَفِ الفقيرُ بعلمِ اللهِ فيهِم وفي ضَمائرِهِم .

الأدبُ الثَّانيَ عشَرَ

يدخُلُ الموضِعَ أوَّلَ النَّهارِ ؛ فإنَّهُ يُكرَهُ آخرَهُ علىٰ ما سبَقَ [1] ؛ إلَّا لضَرورةٍ مِنْ خَوفٍ وغيرِهِ .

الأدبُ الثَّالثَ عشَرَ

إذا أُذِنَ لهُ في الدُّخولِ . . دَخَلَ الرِّباطَ علىٰ قَدَمِ السَّكينَةِ والوقارِ ، مُبتَدِئاً بالرِّجلِ اليمينِ ، ويَتوقَّى السُّرْعةَ في خَطوِهِ وحركاتِهِ في دُخولِهِ ؛ مِنْ دَقِّ العَصا على الأرضِ ، وشِدَّةِ الوَطءِ برجلَيهِ ، ويُسلِّمُ بباطنِهِ علىٰ سُكَّانِ الرِّباطِ ، ويَتوقَّى السَّلامَ بظاهرِهِ قبلَ أنْ يأتيَ بدقائقَ [2] نحنُ نذكرُها الآنَ .

الأدبُ الرَّابعَ عشَرَ

أن يَجلِسَ في مَوضِعٍ جرَتِ العادةُ أنْ يَجلِسَ المسافرُ فيهِ لِنَزْعِ الخُفِّ ، ثمَّ يَنظُرَ إلىٰ جِهةِ القِبلةِ ، ويَحُطَّ العَصا والإبريقَ تُجاهَ القِبلةِ ، ويَحُطَّ زَاويتَهُ وسَجَّادتَهُ حيثُ جلسَ .

الأدبُ الخامسَ عشَرَ

ألَّا يَقعُدَ قبلَ حَلِّ وسَطِهِ ، وَليُخرِجْ خريطةَ [3] مَداسِه بيدِهِ اليسارِ مِنْ كُمِّهِ الأيسرِ ، ويَحُلَّ خَريطةَ المداسِ باليمينِ ، ويُخرِجَ المداسَ باليسارِ ، ويجعلَ

---

(١) انظر (ص ٤٦٠) .

(٢) دقائق : أي خفايا الأمور مهما صغرت ، والدَّقِيق : الأمر الغامض ، والدقيق : الشيء لا غِلَظَ له .

(٣) الخرِيطةُ : وِعاءٌ من جِلدٍ ونَحوِه يُشَدُّ علىٰ ما فيه . ينظر : « لسان العرب » (٧/٢٨٦) .

المداسَ بينَ يدَيهِ ، والخريطةَ علىٰ رأسِهِ ؛ ففيه دقيقةٌ[1] ، ويكونَ في هٰذه الأفعالِ قائماً .

الأدبُ السَّادسَ عشرَ

أَنْ يَحُلَّ الميانيدَ[2] بيدِهِ اليمينِ ، ويأخُذَهُ بيدِهِ اليسارِ ، ثُمَّ يلُفَّه ويَجعَلَهُ في الخريطةِ إلىٰ جَنْبِ زاويَتِهِ ، ولا يَقعُدَ إلَّا بعدَ فَراغِهِ مِنْ هٰذه الآدابِ[3] .

الأدبُ السَّابعَ عشَرَ

أن يَنزِعَ مَداسَهُ قاعداً ، ويبدأَ بالرِّجلِ اليُسرَىٰ ثُمَّ اليُمنىٰ ، فهٰكذا وَرَدَ[4] ، وإنْ تقرَّبَ إليهِ أحدٌ مِنْ سكَّانِ الرِّباطِ في نَزْعِ الخُفِّ وغيرِ ذٰلكَ . . لا يَمنَعْهُ ، ويَحُطَّ رِجلَيهِ على المَداسِ عندَ نزعِهِ الخُفَّ ، ولا يَلبَسَهُ إلَّا عندَ القِيامِ .

الأدبُ الثَّامنَ عشَرَ

أنْ يجعلَ الخُفَّ إلىٰ جَنْبِ العَصا والإبريقِ ، ولا يَرمِيَهُ أينَ اتَّفَقَ ، وإذا نَزَعَ اللَّفائفَ والرَّانَ[5] . . جعلَهُما في وسَطِ المَداسِ ، ولا يَرمِيهِما .

---

(١) نكتةٌ ومَلمَحٌ خفيٌّ يندُّ إلَّا عن عارفٍ .

(٢) هي الشيء الذي يَشُدُّه المريدُ علىٰ وسَطِه ، كما يُفهَم من « عوارف المعارف » (١/١٢٣) .

(٣) قال الشيخُ السهرورديُّ في « عوارف المعارف » (١/١٢٧) : (وهٰذه الرسومُ الظاهرةُ التي استحسنها بعضُ الصوفيةِ لا تُنكَرُ علىٰ مَن يتقيَّدُ بها ؛ لأنه مِن استحسانِ الشيوخِ ، ونيَّتُهم الظاهرةُ في ذٰلك : تقييدُ المريدِ في كلِّ شيءٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ ؛ ليكونَ أبداً متفقِّداً لحركاته ، غيرَ قادمٍ علىٰ حركةٍ بغيرِ قصدٍ وعزيمةٍ وأدبٍ ، ومَن أخَلَّ مِن الفقراءِ بشيءٍ من ذٰلك . . لا يُنكَرُ عليه ، ما لم يُخِلَّ بواجبٍ أو مندوبٍ) .

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٥٥) ، ومسلم (٢٠٩٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) اللَّفائفُ والتَّساخينُ والخِفافُ والجواربُ والجُرموقُ والموقُ والمرقَّعاتُ . . كلُّها بمعنىً في سَتْرِ الرِّجلِ وتَغطيَتِها ، والرَّانُ وإن استُعمِلَ علىٰ قِلَّةٍ إلَّا أنَّه صحيحٌ من حيثُ المعنىٰ ؛ وهو : الغِطاءُ ، وكلُّ ما غطىٰ شيئاً فقد رانَ عليه . ينظر « تاج العروس » (٣٥/١٣٢) .

الأدبُ التَّاسعَ عشَرَ

أنْ يَنهَضَ قائماً بعدَ نَزعِهِ الخُفَّ ، ويَلبَسَ المَداسَ ؛ يَبدأُ باليمينِ ، ثمَّ يَتوجَّهُ إلى السِّقايةِ ، ويبدأُ بإدخالِ رجلِهِ اليُسرَىٰ .

الأدبُ العشرونَ

أنْ يَنزِعَ لباسَهُ في مَوضِعٍ يكونُ مُعَدّاً لذٰلكَ ، ويتَعمَّدَ طَيَّهُ ويَستُرَهُ بمِئزَرٍ أو خِرْقَةٍ ؛ فإنْ لمْ يكنْ معَهُ شيءٌ . . أخذَهُ تحتَ إبطِهِ الأيسرِ مِنْ باطنِ القَميصِ .

الأدبُ الحادي والعشرونَ

ألَّا يُزاحِمَ على الإبريقِ في دخولِ الخلاءِ ، ولا علىٰ مَوضِعِ الوُضوءِ ، وإنْ كانَ هنالكَ شيخٌ ضعيفٌ . . أعانَه ، وحملَ مَعُه الإبريقَ ، وساعدَهُ على الوضوءِ .

الأدبُ الثَّاني والعشرونَ

إذا خرجَ من الخلاءِ . . لَبِسَ سِروالَهُ قاعداً ؛ يبدأُ باليمينِ ، ويتَوقَّىٰ أنْ يَظهَرَ شيءٌ مِنْ جسدِهِ ؛ فإنَّهُ فِعلُ العوامِّ ، ثُمَّ يقومُ إلىٰ موضعِ الوضوءِ فيتَوَضَّأ كما وردَ ، ولا يستعجلُ في وُضوئِهِ ، ولا يُسرِفُ في تَبديدِ الماءِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِن وَسوسةِ الشَّيطانِ ، ويتوقَّىٰ رشَّ الماءِ علىٰ مَنْ حولَهُ ، ولا يَحُشُّ [1] المضمضةَ والاستنشاقَ .

الأدبُ الثَّالثُ والعشرونَ

إذا قامَ مِنْ وُضوئِهِ . . استقبلَ ، وحطَّ تشميرَ كُمِّهِ ؛ يبدأُ باليمينِ ، ويُنشِّفُ رجلَيهِ ؛ لئلَّا يقفَ الماءُ في المَداسِ ؛ فإنَّ المداسَ لا يَخلُو مِنْ غُبارٍ .

---

(١) أي : لا يُسرِع فيهما ؛ يقال : حَشَّ الفرس يَحُشُّ حشّاً ؛ إذا أسرع . ينظر « تاج العروس » (١٧/١٤٤) .

الأدبُ الرَّابعُ والعِشرونَ

أَلَّا يَتكلَّمَ في موضعِ الوَضوءِ ، ولا يُطِيلَ الوقوفَ هناكَ ؛ فإنَّه فِعلُ العوامِّ ؛ يتكلَّمونَ ويَنبَسطونَ في موضعِ الوَضوءِ .

الأدبُ الخامسُ والعِشرونَ

إذا فَرَغَ المسافرُ مِنْ وُضوئِهِ . . قصدَ سَجَّادتَهُ بوَقارٍ وسُكونٍ ، من غيرِ تَلفُّتٍ إلىٰ جهةٍ ، بل عَينُهُ إلىٰ مَوضِعِ سَعيِهِ ، ذاكراً في طريقِهِ .

والسِّرُّ في دخولِ المسافرِ إلى السِّقايةِ وتَجديدِ الوُضوءِ ولِمَ كانَ ؛ فهو علىٰ ضَربَينِ :

أحدُهما : أن يَتبيَّنَ لهُ بطريقِ الدُّخولِ أهْليَّةَ سُكَّانِ الرِّباطِ مِنْ غيرِ سِقايَتِهِم وطهارةِ المكانِ .

الآخرُ : رُبَّما كانَ الشَّيخُ أوِ الخادمُ غِياباً ؛ فَبِقَدْرِ دُخولِهِ وخُروجِهِ ؛ يَحضُرُ أحدُهم ويَفرِشُ سَجَّادتَهُ ، وليسَ لأحدٍ غيرِ الشَّيخِ والخادمِ التَّصرُّفُ في فَرْشِ السَّجَّادةِ ، علىٰ قَدْرِ بَصيرةِ الخادمِ ؛ يَفرِشُ السَّجَّادةَ بالموضعِ الَّذي يَليقُ بالواردِ ، فأيُّ مَوضِعٍ فُرِشَتْ ليسَ لهُ أنْ يُخالِفَ .

وقدْ صارَ في هـٰذا الوقتِ إذا ورَدَ المتصوِّفُ إلىٰ رِباطٍ ولم تُفرَشْ لهُ في المكانِ الَّذي يريدُ . . نازَعَ وأنكرَ ؟! ويتوقَّعُ أن تُرفَعَ[1] سَجَّادةُ مَنْ يكونُ مُقيماً ، وتُفرَشُ سَجَّادتُهُ ، وهـٰذا غايةُ الحُمْقِ .

فإنْ آثرَهُ أحدٌ مِنَ السُّكَّانِ بمَوضعِه . . جازَ ، وإنْ لمْ يُؤثِرْهُ أحدٌ وهو يَستَحِقُّ أنْ يُرفَعَ منهُ . . فالرَّأيُ في ذٰلكَ إلى الشَّيخِ ؛ فإنَّهُ علىٰ قَدْرِ استعدادِهِ وبَصيرتِهِ يُنزِلُ كُلَّ واحدٍ في مَوضعِهِ ، وقدْ وردَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كَانَ

---

(١) في الأصل : « ترقع » ، والصَّوابُ ما أثبتُّ .

يُنْزِلُ النَّاسَ منازِلَهُم[1] ؛ فإنْ فعَلَ الشَّيخُ شيئاً مِنْ ذٰلكَ . . ليسَ للمُقيمِ الإنكارُ ؛ بلْ يُسلِّمُ إلى الشَّيخِ ؛ فإنَّهُ يَجِدُ بركةَ ذٰلكَ .

الأدبُ السَّادسُ والعشرونَ

إذا وصَلَ إلىٰ سَجَّادتِهِ . . كَسَرَ إحدَىٰ مُؤَخَّرِ السَّجَّادةِ بيدِهِ اليُمنَىٰ ، ويَضَعُ قَدمَيهِ علىٰ ما كُسِرَ منها ، ويجعلُ كَسْرَها من قِبَلِ اليَسارِ ؛ فإنْ لمْ يُمكِنْهُ لضِيقِ المكانِ . . فمِما يَلي اليُمنَىٰ ، ويمسحُ قدمَهُ ليزُولَ ما قدْ تعلَّقَ بهِ مِنْ غُبارِ الفَرْشِ .

الأدبُ السَّابعُ والعشرونَ

أن يُقدِّمَ رِجلَهُ اليُمنىٰ على السَّجَّادةِ ، ولا يَطَأَ مَوضِعَ السُّجودِ ، ويُصلِّيَ ركعتينِ خَفيفَتينِ ، ويسألَ مِنَ اللهِ الخِيَرَةَ في مُقامِهِ ، ويقولَ في دعائِهِ : اللَّهمَّ ؛ لكَ الحمدُ علىٰ حِفظِكَ إيَّايَ في سَفَرِي وحَضَرِي ، اللَّهمَّ ؛ اجعلْ أَوْبَتِي هٰذه مباركةً ميمونةً مقرونةً بتوبةٍ نَصُوحٍ ؛ تُوجِبُ لي بها السَّعادةَ في الدَّارَينِ .

الأدبُ الثَّامنُ والعشرونَ

أنْ يُخرجَ المُشطَ بسُكونِ حَركةٍ ، ويَبسُطَ ثوبَهُ لئلَّا يقعَ مِن شَعرِهِ على السَّجَّادةِ ، ويُسَرِّحَ وجهَهُ ، ويتناولَ المُشطَ باليمينِ ، ويُسمِّيَ اللهَ ، ويُسَرِّحَ وجهَهُ

---

(١) أخرَجَهُ أَبُو دَاوودَ (٤٨٤٢) ، وأَبُو يَعْلَىٰ في « مُسنَدِه » (٤٨٢٦) ، وَأَبُو الشَّيخِ الأَصبَهَانِيُّ في « الأَمثَالِ فِي الحَديثِ النَّبَوي » (٢٤١) ، وَأَبُو نُعَيمٍ الأَصبَهَانِيُّ فِي « المُسْنَدِ المُستَخرَجِ عَلىٰ صَحيحِ الإمَامِ مُسلمٍ » (٥٧) ، وفِي « حِلَيةِ الأولِيَاءِ » له (٣٧٩/٤) .
وَكَذٰلِكَ مَيمونُ بنُ أَبِي شَبِيبٍ ـ وَإن كَان صدوقاً ـ إلَّا أَنَّه كَثير الإرسَال ، كما في « تَقريبِ التَّهذِيبِ » : (٧٠٦٤) ، كما نَصَّ عَلىٰ ذٰلكَ أَبو دَاوود عَقب إخراجِ الحَديثِ ، بقَولِهِ : « مَيْمُونٌ لَمْ يُدْرِكْ عَائِشَةَ » .
وَعَلىٰ ما تقدَّم ذكرُهُ ، فَالحديثُ لَا يَصحُّ للغَرَابةِ والانقِطَاع .
وَقَدْ صَحَّحَهُ الحَاكِمُ فِي « مَعرفةِ عُلومِ الحَديثِ » : ٤٨ ، بقوله : صَحَّتِ الرِّوَايَةُ عَنْ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهَا ـ أَنَّهَا قَالَت : « أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نُنزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » .
وَحَسَّنَهُ السَّخَاويُّ فِي « المَقَاصِدِ الحَسَنةِ » (١٦٤) .

مِنْ أعلاهُ ، ويُمرِّرَ المُشطَ علىٰ صدرِهِ أيضاً ، ويقرأَ : (ألمْ نشرحْ لكَ صدركَ) ، و(إنَّا أنزلناهُ في ليلةِ القدرِ) ، ثمَّ يقولَ : اللَّهمَّ ؛ لا تَرُدَّنِي علىٰ عَقِبي ، واصْرِفْ عنِّي كيدَ الشَّيطانِ ، ولا تُمكِّنْهُ مِنْ قِيَادِي فَيرُدَّنِي علىٰ عَقِبي ، اللَّهمَّ ؛ سَرِّحْ عَنِّيَ الهمومَ والغُمومَ ، ووَسوسَةَ الصُّدورِ ووسوسَةَ الشَّيطانِ .

ويُسَرِّحَ أسفلَ اللِّحيَةِ ، ويَجمَعَ ما سقَطَ مِنَ الشَّعرِ ، ويَجعلَه في بيتِ المُشْطِ ، ويَرُدَّ المُشْطَ إلىٰ غِلافِهِ ، ويَضَعَهُ إلىٰ جانبِ السَّجَّادةِ .

الأدبُ التَّاسعُ والعشرونَ

أنْ يقومَ ويَقصِدَ حضْرَةَ الشَّيخِ إنْ كانَ حاضراً ، ويُسَلِّمَ عليهِ ، ويتواضعَ لهُ ، خصوصاً إذا كانَ الشَّيخُ حقيقاً ، فليُقبِّلْ يدَهُ ؛ فإنَّ في ذٰلكَ بَرَكةً ، ويجلسَ في حَضْرَتِهِ ، ولا يتكلَّمَ إلَّا إذا سُئِلَ مِنَ[1] الشَّيخِ ؛ فليُجِبْهُ ، وليكُنْ قُعودُهُ بينَ يَدَيِ الشَّيخِ بحضورِ قلبٍ وإلقاءِ سمعٍ ، ولا يُبَلِّغَ الشَّيخَ سلامَ أحدٍ ، ولا يذكرَ أحداً ؛ إلَّا إنْ كانَ نظيرَ الشَّيخِ في الحالِ والسِّنِّ ، فإذا حضرَ بينَ يَدَيِ الشَّيخِ . . لا يكونُ هَمُّهُ مشغولاً بغيرِ خِدمَةِ الشَّيخِ .

وجماعةٌ مِنَ الجهلةِ يشتغلونَ في حَضْرةِ المشايخِ بأشياءَ ، وهٰذا سوءُ أدبٍ منهم ، ثمَّ يَستأْذِنُ في القِيامِ ويَرجِعُ إلىٰ سَجَّادتِهِ ، ويُسلِّمُ علىٰ سُكَّانِ الموضعِ ، ولا عليهِ أنْ يسعَىٰ إلىٰ كُلِّ أحدٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يَلزَمُ سُكَّانَ الرِّباطِ ؛ إلَّا أنْ يكونَ في الثَّلاثةِ ؛ فإنَّهُ منَ السُّكَّانِ بها[2] .

الأدبُ الثَّلاثونَ

ألَّا يخوضَ مع سُكَّانِ الرِّباطِ في ما لا يَعنِيهِ ، وليسَ هو من ضَرورتِهِ ؛ فإنْ

---

(١) كلمة (من) ليست في الأصلِ زدتها للسِّياق .

(٢) يعني بالثَّلاثةِ : ثلاثةَ أيَّامٍ ؛ لقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « الضِّيافَةُ ثلاثةُ أيَّامٍ » ، فإن زادَ عن ثلاثٍ . . فهو ساكنٌ مقيمٌ ؛ كما هو معلومٌ مِن أخبارِ الضِّيافةِ والسَّفَرِ .

سُئلَ عن شيءٍ . . أجابَ من غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ ؛ فإنَّ الخوضَ فيما لا يَعنِي يَذهَبُ بالوَقارِ .

الأدبُ الحادي والثَّلاثونَ

إذا قُدِّمَ لهُ شيءٌ ، ولمْ يكنْ لهُ عَزمُ الصَّومِ . . يتناولُ ذلكَ ، سواءٌ قَلَّ أو جَلَّ ، ولا يَنظرُ إلى الطَّعامِ بعينِ القِلَّةِ ، وعلى الخادمِ أنْ يُبادرَ بإحضارِ الطَّعامِ مهما تَيسَّرَ مِن غيرِ تكلُّفٍ ؛ فمِنَ السُّنَّةِ ألَّا يَدَّخِرَ عنِ القادمِ شيئاً ، ولا يتكلَّفَ لهُ شيئاً .

الأدبُ الثَّاني والثَّلاثونَ

ألَّا يَخرُجَ مِنَ الموضعِ إلىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ ، ولا يَتحرَّكَ بحركةٍ زائدةٍ عن غَسْلِ الثَّوبِ وكثرةِ المخالطةِ ، وبعدَ الثَّلاثةِ أيَّامٍ يَشْرَعُ فيما يحتاجُ إليهِ مِنْ غَسلِ الثَّوبِ ودُخولِ الحمَّامِ .

الأدبُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ

ألَّا يَدخُلَ الحمَّامَ بغيرِ مِئْزَرٍ [1] ، ويقولَ عندَ نَزعِه الثِّيابَ : اللَّهمَّ ؛ انزِع عنِّي رِبْقَةَ [2] النِّفاقِ ، وثبِّتنِي على الإيمانِ ، ويقولَ عندَ دخولِهِ إلىٰ باطنِ الحمَّامِ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ نفسِي ، وأستعيذُكَ مِن أذاها ، اللَّهمَّ ؛ أذهِب عَنِّي الرِّجسَ ، وطَهِّر جسَدِي وقلبِي .

وإذا أرادَ صَبَّ الماءِ . . قالَ : أعوذُ باللهِ مِنَ النَّارِ ، وأسألُه الجنَّةَ ، ولا بأسَ بشُربِ جُرعةٍ مِنَ الماءِ الحارِّ .

---

(١) أخرج أبو داوود (٤٠٠٩) ، والترمذي (٢٨٠٢) ، وابن ماجه (٣٧٤٩) من حديث أبي عذرة رحمه الله تعالىٰ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (نَهَىٰ عَنْ دُخُولِ الْحَمَّامَاتِ ، ثُمَّ رَخَّصَ لِلرِّجَالِ أَنْ يَدْخُلُوهَا فِي الْمَيَازِرِ) ، زاد ابن ماجه : (وَلَمْ يُرَخِّصْ لِلنِّسَاءِ) .

(٢) الرِّبقُ وزنُ حِمْلٍ : حبلٌ فيه عِدَّةُ عُرىً تُشَدُّ به البَهْمُ ، الواحدةُ مِنَ العُرَىٰ : رِبْقَةٌ ، ويُجمَعُ على رِباقٍ . ينظر : « المصباح » (ر ب ق) .

ويُكرَهُ شُربُ الماءِ الباردِ ؛ فإنَّهُ يُورِثُ العِلَّةَ ، ولا يُكثِرُ صبَّ الماءِ الباردِ ؛ فإنَّهُ يُضْعِفُ البَدنَ ، ولا بأسَ بصَبِّهِ علىٰ قدَمَيهِ ؛ فقدْ قيلَ : إنَّهُ يَستخرِجُ الدَّاءَ مِنَ الجسدِ [1] .

ويُكرَهُ النَّومُ في الحمَّامِ ؛ فإنَّهُ مُضِرٌّ بالبدنِ ، وقدْ كُرِهَ غَسْلُ الرَّأسِ بالطِّينِ ، والتَّدلُّكُ بالخَزَفِ ، ومسحُ الوجهِ بالمِئْزَرِ ، وقيلَ : إنَّ هٰذه الكراهِيَةَ في طِينِ مِصرَ وخَزَفِ الشَّامِ .

ويُكرَهُ السِّواكُ في الحمَّامِ ؛ لما فيه منَ الضَّررِ ، ولا يدخلُ الحمَّامَ على الرِّيقِ ، ويُستَحبُّ غسلُ الرَّأسِ بالخَطمِيِّ ؛ فقدْ وردَ أنَّه يَنْفِي الفقرَ ، والغُسْلُ بهِ في يومِ الجمعةِ أمانٌ مِنَ البَرَصِ والجنونِ .

وإذا أرادَ حَلْقَ الرَّأسِ . . جَلَسَ مُستقبِلَ القِبلَةِ ، ويقولُ : باسمِ اللهِ ، وباللهِ ، وعلىٰ مِلَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، اللَّهمَّ ؛ أَعطِني بكُلِّ شَعرةٍ نوراً يومَ القيامةِ .

ويقولُ عند فَراغِه : اللَّهمَّ ؛ زَيِّنِّي بالتَّقوىٰ ، وجنِّبنِي الرَّدَىٰ .

وَليَبدأ بالنَّاصِيةِ عندَ المسحِ ، فإذا خرجَ ولَبِسَ ثيابَهُ . . يقولُ : اللَّهمَّ ؛ أَلبِسْنِي لباسَ التَّقوىٰ .

الأدبُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ

أنْ يَلبَسَ القميصَ قبلَ السِّروالِ ، ويَلبَسَ السِّروالَ قاعداً مُستقبِلَ القِبلَةِ ، ويُستَحَبُّ أنْ يقولَ : اللَّهمَّ ؛ استُرْ عورَتي ، وآمِن رَوعَتِي ، وأعِفَّ فَرْجِي ، ولا تجعَلْ للشَّيطانِ في ذٰلكَ نصيباً .

وإذا أرادَ لُبْسَ ثوبٍ جديدٍ . . يُستَحَبُّ أنْ يقولَ : الحمدُ للهِ الَّذي كسانِي

---

(١) أخرَجه أبو نُعيمٍ الأَصبهانيُّ في « الطِّبِ النَّبوِي » (٩٠٠) مِن طَريقِ إبرَاهيم بنِ أبي يَحيىٰ ، عَن صَالحٍ مَولى التَّوءمة ، عَن سيدنا أَبِي هُرَيرة رضي الله عنه .

الرِّياشَ [1] ما أتجمَّلُ به بين النَّاسِ ، وأُؤَدِّي بهِ فريضَتِي ، وأستُرُ بهِ عَورَتِي ، اللَّهمَّ ؛ اجعلْهَا ثيابَ بركةٍ أسعَىٰ فيها لمَرضاتِكَ ، وأَعْمُرُ فيها مساجِدَكَ [2] .

وقد وردَ : مَن أرادَ لُبْسَ ثوبٍ جديدٍ . . أخذَ ماءً طاهراً في إناءٍ وقرأَ عليه : (إنَّا أنزلناه في ليلةِ القدرِ) عشْرَ مرَّاتٍ ، و(قل يا أيُّها الكافرونَ) ، و(قل هو اللهُ أحدٍ) ؛ كُلّاً منهنَّ عشْرَ مرَّاتٍ ، ويَنضَحُهُ على الثَّوبِ ؛ فإنَّهُ لمْ يَزَلْ في رَغَدِ عيشٍ ما بَقِيَ منهُ سِلكٌ [3] .

ويُستَحبُّ أنْ يَتَعَمَّمَ قائماً ، ويقولَ عندَ التَّعمُّمِ : اللَّهُمَّ ؛ سَوِّمنِي بسِيماءِ الإيمانِ ، وتَوِّجنِي بتاجِ الكرامةِ ، وقلِّدنِي حَبلَ الإسلامِ ، ولا تخلَعْ رِبْقَةَ الإسلامِ مِنْ عُنُقِي .

ويُستَحَبُّ لهُ التَّخَتُّمُ بالعَقيقِ [4] والفَيروزج [5] والياقوتِ .

ويُستَحَبُّ لُبْسُ النَّعلِ الأبيضِ والأصفرِ ؛ فقدْ وردَ فيهِ فضيلةٌ [6] ، ويقولُ عندَ لُبسِهِ النَّعلَ والخُفَّ : بِاسمِ اللهِ ، اللَّهُمَّ ؛ صلِّ علىٰ مُحَمَّدٍ وآلِهِ ، وثَبِّتْ قَدَمِي في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وعلى الصِّراطِ يومَ تزولُ الأقدامُ ، ويقولُ عندَ خَلْعِ النَّعلِ :

---

(١) الرِّياشُ : اللِّباسُ الفاخرُ . ينظر « تاج العروس » (٢٢٩/١٧) .

(٢) أخرجَهُ بنحوهِ التِّرمذِيُّ (٣٥٦٠) وابنُ مَاجه في « سُننِه » (٣٥٥٧) ، وأحمدُ في « مُسنَدِه » (٣٠٥) ، وابنُ أبِي شَيْبةَ في « المُصَنَّف » (٢٥٠٨٩ ، ٢٩٧٥٣) ، وَعَبدُ بنُ حُمَيد في « المُنتَخبِ مِن المُسندِ » (١٨) ، وابنُ السُّني في « عَملِ اليَومِ والليلة » (٢٧٢) ، جَميعُهُم مِن طَريقِ أبِي العَلَاءِ الشَّامِيّ ، عَنْ سيدنا أبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه ، عن سيدنا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه .

(٣) بمعنىٰ : عِرْقٌ ، ولم نقف علىٰ هٰذا المعنىٰ فيما بين أيدينا من كتب الحديث .

(٤) أخرجَهُ المَحَامِلِيُّ في « الأَمَالي » ، رَوايةُ ابنِ يحيى البَيِّع (١١١) ، وَالبَيهَقِيُّ في « شُعبِ الإيمان » (٥٩٤١) مِن حَديثِ سيدتنا عَائِشَةَ رضي الله عنها مرفوعاً : « تَخَتَّمُوا بِالْعَقِيقِ ؛ فَإِنَّهُ مُبَارَكٌ » .

(٥) في الأصل : (الفروزج) .

(٦) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (٢٧٦/٢) : (من لبس نعلاً أصفر . . قلَّ همه) رواه العقيلي والطبراني والخطيب عن ابن عباس موقوفاً ، لٰكن بلفظ : « لم يزل في سروره ما دام لابسها » بدل « قل همه » .

اللَّهُمَّ ؛ ثَبِّتهُما علىٰ صِراطِكَ السَّوِيِّ ، يبتدئُ عندَ اللُّبْسِ باليمينِ ، وعندَ الخَلْعِ باليسارِ[1] .

الأدبُ الخامسُ والثَّلاثونَ

أَلَّا يُزاحِمَ في الحمَّامِ ، ويُؤْثِرَ مَنْ حَضَرَ بما يكونُ مِنْ آلةِ الحمَّامِ ، ولا يُضَيِّعَ الماءَ .

ويُستَحَبُّ إذا خرجَ مِنَ الحمَّامِ أنْ يَقُصَّ الشَّاربَ ، ويُحَسِّنَ اللِّحيَةَ ، ويَحذِفَ ما زادَ على القَبضَةِ ، ويُكرَهُ نتفُ الشَّيبِ .

ويُستَحبُّ أن يقولَ عند حذفِ الشَّاربِ : بِاسمِ اللهِ ، وباللهِ ، وعلىٰ سُنَّةِ رسولِ اللهِ ، وهٰكذا عندَ تقليمِ الأظافرِ ؛ يبدأُ في التَّقليمِ بالخِنْصَرِ من يَدِه اليُسرىٰ ، ويختمُ بالخِنصَرِ من يدِه اليُمنىٰ ، وهٰكذا في تقليمِ أظفارِ الرِّجلَينِ .

ويُستَحَبُّ أخذُ الشَّاربِ والتَّقليمُ يومَ الخميسِ والجمعةِ .

ويُستَحَبُّ أن يَنظُرَ في المِرآةِ ، وإذا أرادَ النَّظرَ فيها . . أَخَذَها باليدِ اليُسرىٰ ، ويَمسَحَ الوجهَ مِنْ مُقَدَّمِ الرَّأسِ باليدِ اليُمنىٰ ، ويَقبِضَ على اللِّحيةِ ، ويقولَ : بِاسمِ اللهِ ، الحمدُ للهِ الَّذي خلقَني بَشَراً سَوِيّاً ، وزانَنِي ولَمْ يَشِنِّي ، وفَضَّلَنِي علىٰ كثيرٍ مِنْ خَلقِه ، ومَنَّ عليَّ بالإسلامِ ، ورَضِيَه لي دِيناً ، ثُمَّ يضَعُ المرآةَ ، ويقولُ : اللَّهُمَّ ؛ لا تُغَيِّرْ ما بِنا مِنْ نِعمَتِكَ ، واجعلنا لِأَنعُمِكَ مِنَ الشَّاكرينَ .

الأدبُ السَّادسُ والثَّلاثونَ

أنْ يُقَدِّمَ لسُكَّانِ الرِّباطِ شيئاً ، وهو الَّذي يُسَمَّىٰ : حقَّ القُدومِ ، ولا يَتولَّىٰ

---

(١) لم أقف علىٰ من ذكر هٰذا الدُّعاءَ فِي شَيءٍ مِن كُتبِ الحَديثِ وغيرِهَا ، إلَّا أنَّ قَولَه : « وثَبِّتْ قدَمِي في الدُّنيا والآخرةِ وعلى الصِّراطِ يومَ تزولُ الأقدامُ » . . قَد وَردَ عِندَ غَسَلِ القَدَمَين ، انظر : « العِلَل المُتَناهِية في الأَحَادِيث الوَاهِيَة » لابنِ الجَوزِي (١/٣٣٩) .

ذٰلكَ بنفسِهِ ؛ بل يَحمِلُهُ إلى الخادمِ ليُشعِرَ الشَّيخَ بهِ ، ولا يَهجُمُ هو بنفسِهِ على الشَّيخِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ سُوءُ أدبٍ .

الأدبُ السَّابعُ والثَّلاثونَ

أنْ يَستأذِنَ الشَّيخَ أو الخادمَ في خُروجِهِ بعدَ الثَّلاثةِ أيامٍ ؛ إذا أرادَ زيارةَ بعضِ إخوانِه ومَعارفِهِ ، ويَذكُرَ لهم قَصدَهُ لئلَّا يُظَنَّ بهِ سُوءاً ؛ فإنَّ الغالبَ في هٰذا الوقتِ سُوءُ الظَّنِّ ، ويَخرُجَ مِنَ الرِّباطِ بعدَ أنْ يَستعِيذَ باللهِ مِنْ شَرِّ سَعيِهِ لقصدِهِ ، وعليهِ السَّكِينَةُ والوَقارُ ، ولا يُرسِلَ طَرْفَهُ في توجُّهِهِ ، ويَجعَلَ هَمَّهُ مُتَعلِّقاً لِما قدْ توجَّهَ إليهِ ، ويُراعِيَ ظاهِرَهُ في تَوجُّهِهِ ، ويُحاسِبَ نفسَهُ في حَرَكتِهِ ، ولا يكونَ غافلاً في مَشيِهِ ، وتكونَ حَركتُهُ مقرونةً بنِيَّةٍ صالحةٍ ؛ لئلَّا يَدخُلَ عليهِ داخِلٌ ، ولا يَقِفَ في المشارِعِ والأسواقِ لغيرِ حاجةٍ ، ولا يتكلَّمَ فيها ؛ فإنَّ ذٰلكَ يُكرَهُ للفقيرِ ، ويَذهَبُ بالوَقارِ .

الأدبُ الثَّامنُ والثَّلاثونَ

أنْ يَرضَىٰ بما يُقَرَّرُ لهُ مِنَ الخُبزِ والأُدْمِ ، ولا يستزيدَ الشَّيخَ والخادمَ ، ويقنعَ بما أجرَى اللهُ تعالىٰ لهُ علىٰ أيدِيهم ، ولا يتَعرَّضَ بالسُّؤالِ عن حاصلِ الرِّباطِ ونفَقَةِ الرِّباطِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ فُضولِ الحاجاتِ ، وتعَرُّضٍ للكدَرِ والمقاوَلاتِ .

الأدبُ التَّاسعُ والثَّلاثونَ

أنْ يتَجنَّبَ في مُدَّةِ مُقامِهِ دخولَ المَواطنِ الَّتي في الرِّباطِ مِنْ غيرِ حاجةٍ ؛ كالخِزانةِ والمطبَخِ والمُزَمَّلةِ (١) والحمَّامِ ؛ ففي ذٰلكَ زيادةُ فُضولٍ وقِلَّةُ وَقارٍ ، وليكُنْ عاكِفاً علىٰ سَجَّادتِهِ ، مُشتَغِلاً بنَفْسِهِ ، حافظاً أوقاتَهُ ؛ فقدْ رأيتُ

---

(١) المُزَمَّلةُ : جَرَّةٌ خَضْرَاءُ يُبرَّدُ فيها الماءُ . ينظر « المعجم الوسيط » (٤٠١/١) .

جماعةً مِنَ المتصوِّفَةِ قَلَّتْ منزِلَتُهُم ، وقَلَّ وَقعُهم ؛ بسببِ استكثارِهِم مِنْ هٰذه التَّطلُّعاتِ .

الأدبُ الأربعونَ

ألَّا يشتغلَ في الرِّباطِ بمَكْسَبَةٍ ؛ فإنَّ ذٰلكَ حرامٌ عليهِ ، ووُضِعَ الرِّباطُ للعبادةِ والِاشتغالِ بأمورِ الآخرةِ ؛ لا للكَسْبِ والعادَةِ ، ومَنْ فعلَ ذٰلكَ . . فقدْ تَعَرَّضَ لمقْتِ اللهِ وأكلِ الحرامِ .

الأدبُ الحادي والأربعونَ

أنْ يكونَ موافِقاً لسُكَّانِ الرِّباطِ في سائرِ أحوالِهِم ؛ فيما وافَقَ الشَّريعةَ ومَكارِمَ الأخلاقِ ؛ كمُلازَمةِ الجُمُعةِ والجماعةِ ، وحُضورِ الخَتمَةِ ، وعِيادَةِ الإخوانِ عندَ مَرَضِهِم ، والصَّلاةِ على الجنائزِ ، وإلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ أمورٍ يراها الشَّيخُ ولا يَتَخَلَّفُ عنها إلَّا عن عُذْرٍ ظاهرٍ ؛ فإنَّ تَرْكَ الموافَقةِ . . يَجلُبُ المَقْتَ والمخالَفةَ .

الأدبُ الثَّاني والأربعونَ

ألَّا يتكلَّمَ بكلامٍ زائدٍ لا يَعنِيهِ ، ولا يُكثِرَ المخالطةَ والمجالسَةَ ، ولا يتكلَّمَ بعدَ العشاءِ الآخِرِ ، وإذا لمْ يَغلِبْهُ النَّومُ . . صَرَفَ وقتَهُ إلى الِاشتغالِ بعبادةِ ربِّهِ إلىٰ حينِ يَغلِبُهُ النَّومُ ، ثمَّ ينامَ على الطَّهارةِ ، وسيأتي ذِكرُ أدبِ النَّومِ في موضعِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ [1] .

(١) انظر (ص ٤٩٢ ـ ٤٩٤) .

الفصل الرّابع

في ذكر آداب الحضر والمقام

ينبغي للفقيرِ أنْ تكونَ نِيَّتُهُ في الحَضَرِ والمُقَامِ طلَبَ المزيدِ في طريقِ الحقِّ ، والإتيانَ بالأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ .

فالأعمالُ الظَّاهرةُ : توزُّعُ الأوقاتِ في أنواعِ المُقرّباتِ ؛ مِنَ النَّوافلِ والتِّلاوةِ والتَّسبيحِ والذِّكرِ ونَفعِ الإخوانِ عندَ الفَترةِ في العَملِ ، مِنْ غيرِ أنْ يَتداخلَهُ في ذٰلكَ عُجْبٌ أو يرىٰ نفسَهُ فيما يعتَمِدُهُ .

والأعمالُ الباطِنةُ : تَزكِيةُ النَّفسِ وتَنقِيَةُ القلبِ ، وتَجريدُهُما[1] عمَّا سوى اللهِ تعالىٰ ، ودَوامُ المراقَبةِ والمحاسَبةِ والفِكرِ والاعتبارِ ، وتطهيرُ النَّفسِ مِنَ الغِلِّ والحِقدِ والحَسَدِ والغِيبَةِ والنَّميمةِ وصُحبةِ البطَّالينَ ومعاشَرةِ الغافلينَ ، وكَفُّ أسبابِ الأذىٰ عن كافَّةِ المسلمينَ ، واستِعْمالُ الأخلاقِ الحميدةِ ، واحتمالُ الأذىٰ ، ومُداراةُ الإخوانِ ، ولا يكونَ مقصودُهُ مِنَ المُقامِ المفاقرةَ[2] .

والسِّرُّ زينَةٌ ، وإظهارُ ما يُخفِيهِ ضَمِيرُهُ مِنَ الشَّرِّ عندَ القُدرةِ ؛ فقدْ قيلَ : الآدَمِيُّ سِرٌّ مكنونٌ لا يُظهِرُهُ إلَّا القُدرَةُ ، ومتَىٰ خالجَ سِرَّ المقيمِ في الرُّبُطِ مِثلُ هٰذا ، أو كانَ في نفسِهِ مِنْ هٰذا شيءٌ[3] . . يَحرُمُ عليهِ دخولُ الرُّبُطِ والمُقامِ في مواطنِ المشايخِ رَحمةُ اللهِ عليهم ، ويدخلُ عليهِ داخلٌ بشُؤمِ سوءِ ضميرِهِ ، ورُبَّما وقعَ في المعصيةِ بشُؤمِ هٰذا ؛ فإنَّ طريقَ القومِ إصلاحُ الباطنِ وتطهيرُهُ عن كُلِّ معصيةٍ[4] ، وتَزيينُ الجوارحِ بالأعمالِ .

---

(١) في الأصلِ : (وتَجريدُها) .

(٢) كذا في الأصل ، ولعلها : (المناقرة) يعني : خصومة الإخوان ومخالفتهم .

(٣) في الأصل : (شيئاً) .

(٤) في الأصل : (معصيته) .

وهـٰذه المواطنُ إنَّما أُسِّسَتْ لمَنْ يَتجَرَّدُ عمَّا سِوَى اللهِ تعالىٰ ، أمَّا لمَنْ هو مُقيمٌ بها وكُلِّيَّتُه في السُّوقِ . . فحرامٌ عليهِ الإقامةُ ؛ لأنَّها وُضِعَتْ لمَنْ يَشتَغِلُ بمُحاسَبةِ النَّفسِ وتَزكيَتِها ، والِاكتسابِ بالأخلاقِ الحميدةِ ، ورفضِ الأخلاقِ المذمومةِ ؛ كما أنَّ المدارسَ وُضِعَتْ لتَحصِيلِ عُلومِ الظَّاهرِ ، هـٰكذا الرُّبُطُ وُضِعَتْ لتَحصِيلِ الأخلاقِ الحميدةِ والمكارمِ النَّفِيسَةِ وتزكيةِ النُّفوسِ .

وفي زَمانِنا هـٰذا مَنْ يَسكُنُ الرُّبُطَ ؛ وهو قادرٌ علىٰ قُوتِ سَنَتِهِ وأكثرَ ، ويَبيعُ ويَشتَرِي ويَكتَسِبُ ، ولا يُبالِي بما يَتناولُ منها ، ولا يُحدِّثُ نفسَهُ أنَّه حرامٌ عليهِ ! ومنهم أيضاً مَنْ هو علىٰ مَذهَبٍ مِنَ المذاهبِ ، ويأكلُ مِنْ مَوضِعٍ هو وقْفٌ علىٰ مذهبٍ آخرَ ، ولمْ يُوفَّقوا لسُلوكِ طريقِ أَكلِ الحلالِ فضلاً عنِ التَّورُّعِ ، فهُم كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾[1] .

وقدْ وقفتُ علىٰ كثيرٍ مِنْ شروطِ الوُقوفِ فيها : أنَّها للعاكفينَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالى ، المشتغلينَ بالآخرةِ ، الزَّاهدينَ في الدُّنيا ، الفقراءِ المجرَّدِينَ عنِ الأسبابِ ، المُتَزَيِّنينَ بزِيِّ المتَصوِّفةِ ، ولمْ أرَ أنَّهُ لأربابِ العمائمِ الكِبارِ ، وأصحابِ الدُّورِ والحوانيتِ والأسبابِ والمكاسِبِ .

ومَنْ يَسكُنُ هـٰذه المواطنَ بحُكمِ السَّلطَنةِ والشَّفاعاتِ . . فسوفَ يرىٰ وَخِيمَ عاقبتِهِ .

ويُستحَبُّ للفقيرِ إذا سكنَ هـٰذه الأماكنَ : أن يَلتَزِمَ ببَعضِ خدَمِ الموضِعِ بإذنِ الشَّيخِ ، خاصَّةً إذا كانَ شابّاً ، ولا يَركَنَ إلى الكسلِ ؛ فإنَّ الغالِبَ في أحداثِ هـٰذا الزَّمَانِ تركُ الاشتغالِ في بعضِ الأوقاتِ ، وقَلَّ فيهم مَنْ يَصْرِفُ وقتَهُ كُلَّه إلى الاشتغالِ ، فإذا عَلِمَ الفَقِيرُ مِنْ نفسِهِ قِلَّةَ الاشتغالِ . . حصرَ نفسَهُ في نَفعِ الإخوانِ ، هـٰذا إذا كانَ صادقاً ؛ فإنَّ إيصالَ الرَّاحةِ مع عَدَمِ الاشتغالِ أيضاً محمودٌ ، بشرطِ

---

(١) سورة القيامة : (٢٠ ـ ٢١) .

أنْ يكونَ مُنشَرِحَ الصَّدرِ ، يُقَرِّرُ مع نفسِهِ المداراةَ والأخلاقَ الحسَنةَ ، واحتمالَ أذَى الإخوانِ ، والصَّبرَ على المشَقَّةِ في خِدمَتِهِم مِنْ غيرِ رُؤيةِ ما يَفعلُ .

ومتَىٰ عَلِمَ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ إذا خَدَمَ وُجِدَ منهُ إيذاءٌ وراءَ خِدمَتِه . . فَتركُ الخِدمَةِ أولىٰ مِنَ الإتيانِ بها ، وإنْ كانَ عندَهُ مِنَ الاستعدادِ ورَزانَةِ العقلِ أنْ يَشْغَلَ زمانَهُ لخِدمَةِ مولاهُ ، ويَستَوعِبَ وقتَهُ بأنواعِ القُرُباتِ . . فاشتغالُهُ أَولىٰ ، فقدْ قيلَ : كفَىٰ بالعبادةِ شُغْلاً .

وينبغي للفَقيرِ أنْ تَمضِيَ عليهِ الأَشهُرُ ولا يُوجَدُ منهُ ما يُكرَهُ باطناً أو ظاهراً ؛ قولاً وفعلاً ؛ فهـٰذا كانَ حالَ السَّلفِ رحمةُ اللهِ عليهم .

وينبغِي أنْ يُحِبَّ لإخوانِهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ ، ويَكرَهَ لإخوانِهِ ما يَكرَهُ لنَفْسِهِ .

واللهُ الموفِّقُ والمعين

الفصل الخامس

في آداب المجاورة والمحاورة

اعلمْ : أنَّ في زَمانِنا جماعةً مِنَ الأحداثِ الغالِبُ عليهمُ الجهلُ ، لا يَتأدَّبونَ في المجاورةِ والمحاورةِ ؛ لقِلَّةِ عِلمِهِم بطريقِ الصُّوفيَّةِ والمشايخِ .

فشرطُ الصُّحبةِ : أنْ يكونَ الفقيرُ يَصحَبُ الكبيرَ علىٰ قَدْرِهِ ، والصَّغيرَ علىٰ قدرِهِ ؛ يَخفِضُ صوتَهُ عندَ مخاطبةِ مَنْ هو أكبرُ منهُ ، ولا يَجلِسُ فوقَهُ ، ولا يَتقدَّمُ عليهِ بحالٍ مِنَ الأحوالِ ، إلَّا إذا قدَّمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وكانَ فيهِ مِنَ الاستعدادِ ما يَستَحِقُّ التَّقديمَ ، يَحتَمِلُ المُسِنَّ ويُحسِنُ مُداراتِهِ ، وإنْ كانَ مَنْ هو أكبرُ منهُ ولمْ يكنْ صَحِبَ الصُّوفيَّةَ . . بذلَ لهُ النُّصحَ علىٰ أحسنِ وجهٍ في الخَلْوَةِ مِنْ غيرِ تَقريعٍ [١] علىٰ رُؤوسِ الملأ ؛ بلْ يَتلَطَّفُ لهُ بالقولِ في النَّصيحةِ مِنْ غيرِ تَجَبُّرٍ واستِزْراءٍ [٢] ، وإذا جاورَ بعضَ الإخوانِ . . يَتجنَّبُ ما يُكرِهُ مُجاورَتَهُ .

ويُستَحبُّ أنْ يَتقرَّبَ إليهِ بما تَيسَّرَ في بعضِ الأوقاتِ مِنَ الطَّعامِ ولا يَتكلَّفُ ؛ بل مهما حضَرَ . . جازَ ؛ فإنَّ المقصودَ مِنْ ذٰلكَ المصافاةُ وتأكُّدُ المودَّةِ .

وإذا غابَ جارُهُ . . أحسنَ الخِلافَةَ في رَحلِهِ وزَاويتِهِ ، ويُوفِّي حقَّ جارِهِ في المجاورةِ ، وإنْ أَبْدَىٰ [٣] جارُهُ ما يكرَهُ . . اجتهدَ في الاِحتمالِ والمداراةِ ، وإنْ كَرِهَ جارُهُ منهُ شيئاً . . أزالَهُ .

---

(١) قرَّع فلَاناً : أوجعَه باللَّومِ والعِتابِ . ينظر « تاج العروس » (٢١/٥٤٩) .

(٢) زَرَىٰ عليه زَرْياً ، من باب رمَىٰ ، وزَرْيةً وزِرايةً بالكسر : عابَه واستهزأ به ، وقال أبو عمرو الشَّيبانيُّ : الزَّاري على الإنسانِ : هو الَّذي يُنكِرُ عليه ولا يَعُدُّه شيئاً . وازدَراه وتَزَرَّىٰ عليه كذٰلك ، وأزرَىٰ بالشَّيءِ إزراءً : تهاونَ به . ينظر « المصباح » (١/٢٥٣) .

(٣) في (الأصل) : (بدىٰ) ، ولعلَّ الصوابَ ما أثبتُّ .

ولا يَزرَعُ عندَ إخوانِهِ الغِلَّ والحِقدَ ، ويُقدِّمُ إرادةَ إخوانِهِ علىٰ إرادةِ نفسِهِ ؛ فإنَّهُ يَجِدُ بَرَكةَ ذٰلكَ بلزومِ الأدبِ وحُسْنِ الصُّحبةِ ، ولا يَستَمِعُ إلىٰ قولِ لاحٍ[1] ووَاشٍ وصاحبِ غرَضٍ ؛ فإنَّ في الأحداثِ والشُّيوخِ جماعةً جَهَلةً يُوقِعونَ بينَ النَّاسِ ، ويَسعَونَ في الفسادِ لموضعِ جَهلِهِم وبَطالَتِهِم ، ولقِلَّةِ[2] تَقواهُم ، وأحبُّ ما إليهِمُ الوقيعةُ بينَ الإخوانِ ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[3] .

* * *

---

(١) لاحٍ : منازع ، يقال : لاحاه مُلاحاةً ، ولِحاءً : نازعه . ينظر « القاموس المحيط » (ص ١٣٣٠) .

(٢) وتقرأ : (ولفَقدِ) ، ولعلَّ الأنسَبَ ما أثبتُّ .

(٣) سورة غافر : (٥٢) .

الفصل السّادس

في آداب الأكل وحضور السّفرة

يَنبغِي للفَقيرِ إذا طَعِمَ طعاماً أنْ يَتمسَّكَ بسبعٍ وثلاثينَ أدباً :

الأدبُ الأوَّلُ

ألَّا يَحضُرَ طعاماً لمْ يُدْعَ إليهِ ، ولا يُلِحَّ إلىٰ مَنْ يأكلُ بالنَّظرِ ؛ لئلَّا يَستَحِييَ منهُ ؛ فيَدعُوَهُ تكلُّفاً ، وذٰلكَ مكروهٌ ، وفيهِ تَثاقُلٌ .

الأدبُ الثَّاني

أنْ يُجدِّدَ الوضوءَ عندَ حضورِ الطَّعامِ إنْ لمْ يَكُنْ علىٰ وضوءٍ ؛ ففيهِ بركةٌ ، وهو مُستَحبٌّ ، وإذا نُودِيَ إلى الطَّعامِ . . أجابَ ؛ إلَّا أنْ يكونَ صائماً ، أو لهُ عُذرٌ ولا يحتاجُ أنْ ينتظرَ ؛ فقدْ يَقَعُ في الجمعِ مَنْ لا يَقدِرُ على الانتظارِ ويَستَثقِلُ ذٰلكَ .

الأدبُ الثَّالثُ

ألَّا يَقعُدَ فوقَ مَنْ هو أكبرُ منهُ في السِّنِّ والقَدْرِ ، ولا يُنافِسَ في ذٰلكَ ؛ فهو دليلٌ للخُرْقِ والحُمْقِ ، بلْ يَقعُدُ في أُخْرَياتِ النَّاسِ تَواضُعاً وانكساراً ؛ فإنْ أَجلَسَهُ الخادِمُ في موضعٍ . . لازمَهُ ، وإنْ زاحمَهُ أخوهُ على الموضعِ . . آثرَهُ بهِ ولا يُنازِعُ .

الأدبُ الرَّابعُ

ألَّا يَفرِشَ سَجَّادةً على السُّفْرَةِ ، إلَّا أنْ يكونَ أهلاً لذٰلكَ ، وتَشهدَ القلوبُ والألسُنُ بأهْلِيَّتِهِ ؛ لا أنْ يَفرِشَ لنفسِهِ حَماقةً وجَهلاً .

الأدبُ الخامسُ

أن يَنصِبَ رِجلَهُ اليُمنىٰ ويَفرِشَ اليُسرىٰ ، ولا يبدأَ بالأكلِ ، إلَّا إذا شَرَعَ الشَّيخُ والجماعةُ .

الأدبُ السَّادسُ

ألَّا يَحضُرَ طعاماً فيهِ شُبهةٌ ؛ فإنَّ ذٰلكَ ما يَكرَهُهُ الشَّرعُ ، ولا يتناولَ إلَّا ما يكونُ ظاهِرَ الحِلِّ ، مُتيَقَّنَ الطَّهارةِ .

الأدبُ السَّابعُ

أنْ يَغسِلَ يَدَيهِ قبلَ الشُّروعِ ؛ فإنَّه يَعِيشُ في سَعَةٍ ، ويُعافىٰ جَسَدُهُ ، ويُسَمِّيَ اللهَ تعالىٰ عندَ الشُّروعِ ، وَليَقُل عندَ التَّناوُلِ : الحمدُ للهِ الَّذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ ، ويُجِيرُ ولا يُجارُ عليهِ ، ويَستَغنِي ويُفتقَرُ إليهِ ، اللَّهُمَّ ؛ لكَ الحمدُ علىٰ ما رَزقتَنِي مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ في يُسْرٍ وعافيةٍ مِنْ غيرِ كَدٍّ مِنِّي ومَشَقَّةٍ ، بِاسمِ اللهِ خيرِ الأسماءِ ، رَبِّ الأرضِ والسَّماءِ ، بِاسمِ اللهِ الَّذي لا يَضُرُّ معَ اسمِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ وهو السَّميعُ العليمُ ، اللَّهُمَّ ؛ أَسْعِدْنِي في مَطْعَمِي هٰذا بخيرِهِ ، وأَعِذْنِي مِنْ شَرِّهِ ، وأَمْتِعْنِي بنَفْعِهِ ، وسَلِّمنِي مِنْ ضُرِّهِ [1] .

---

(١) لم أقفْ عَلىٰ من أَخرجَهُ بِهٰذا اللَّفظ ، وَقَد أخرجَ النَّسائِيُّ في « عَملِ اليَومِ واللَّيلةِ » (٣٠١) ، وابنُ أبي الدُّنيا في « الشُّكر » (١٥) ، وَمِن طَريقِهِ الحاكِم في « المُستَدرك » (٢٠٠٣) ، والطَّبَرانِيُّ في « الدُّعَاء » (٨٩٦) ، وأَبُو الشَّيخِ في « أخلاقِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وَآدابِهِ » (٦٨٧) ، والبَيهقيُّ في « الدَّعَواتِ الكَبيرِ » (٤٥٧) ، و« شُعبِ الإيمانِ » (٤٣٧٧) ، وَغيرهِم بإسنادٍ حَسَنٍ مِن طَريقِ سُهَيْلِ بنِ أَبِي صَالحٍ ، عَن أَبِيهِ ، عَن سيدنا أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه ، ولفظُهُ : قَالَ : دَعَا رَجُلٌ مِنَ الأَنصَارِ مِن أَهلِ قُبَاءٍ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، فَانطَلَقنَا مَعَهُ ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَهُ ، أَو يَدَيهِ عَلَينا . . قَالَ : « الحَمدُ لِلهِ الَّذِي يُطعِمُ وَلَا يُطعَمُ ، مَنَّ عَلَينَا فَهَدَانَا وَأَطعَمَنَا وَسَقَانَا ، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبلَانا ، الحَمدُ لِلهِ غَيرَ مُوَدَّعٍ ، وَلَا مُكَافَئٍ وَلَا مَكفُورٍ ، وَلَا مُستَغنىً عَنهُ ، الحَمدُ لِلهِ الَّذِي أَطعَمَ مِنَ الطَّعَامِ ، وَسَقَىٰ مِنَ الشَّرَابِ ، وَكَسَا مِنَ العُريِ ، وَهَدَىٰ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَبَصَّرَ مِنَ العَمَىٰ ، وَفَضَّلَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِن خَلقِهِ تَفضِيلاً ، الحَمدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ » .

الأدبُ الثَّامنُ

أن يَبتَدِئَ بالمِلْحِ ويَختِمَ بهِ ، فهٰكذا وَرَدَ[1] .

الأدبُ التَّاسعُ

ألَّا يَبُلَّ أُصبُعَه ويَحُطَّها في الملحِ ؛ فهٰذا مُستَقذَرٌ .

الأدبُ العاشرُ

ألَّا تَخُوضَ يدُهُ في صَفحَةِ[2] الطَّعامِ ؛ بل يأكُلُ مِنْ جانبِ القَصْعَةِ مِمَّا يليهِ ، وفي الفاكهةِ والحَلْوىٰ يُفسَحُ لهُ في ذٰلكَ .

الأدبُ الحاديَ عشَرَ

أن يُصَغِّرَ اللُّقْمَةَ ، ويُجَوِّدَ المضْغَ ، ولا يستعجلَ في الأكلِ ، ولا يُكَبِّرَ اللُّقْمَةَ ؛ ففِي كِبَرِ اللُّقْمَةِ ما تَنْبُو الطِّباعُ منهُ .

الأدبُ الثَّانيَ عشَرَ

ألَّا يأكُلَ إلَّا عندَ الحاجةِ وصِدْقِ الشَّهوةِ ؛ ففِي إدخالِ الطَّعامِ على الطَّعامِ مَفسَدةٌ للبدنِ ، وقدْ قيلَ : إنَّهُ مِن فِعلِ اللِّئامِ ، وفيهِ دَلالةٌ عن الشَّرَهِ ، وذٰلكَ مذمومٌ للفقيرِ ، وهو ممَّا يُورِثُ الأمراضَ والعِلَلَ .

الأدبُ الثَّالثَ عشَرَ

ألَّا يجمعَ بينَ الطَّعامَينِ ؛ فقدْ وَرَدَ ذٰلكَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنَّه لمْ يَجمَعْ بينَ طعامَينِ قَطُّ[3] .

---

(١) أخرجَ معناه أبو طاهر السِّلَفي في « الطُّيُوريَّات » (٣/١٢٢٥ ـ ١٢٢٨) ، فِي سِياق طَويل من طَريقِ مُوسى بنِ إبرَاهِيمَ ، عَن هِشَامِ بنِ عُروة ، عَن أبِيهِ ، عَن سيدتنا عَائِشَةَ رضي الله عنها ، ولفظُهُ : « مَنْ أكَلَ الْمِلْحَ قبلَ الطَّعامِ وبعدَ الطَّعامِ . . فَقَدْ أَمِنَ مِنْ ثلاث مئة وَسِتِّين نَوْعاً مِنَ الدَّاءِ ، أَهْوَنُهَا الْجُذَامُ والْبَرَصُ » .

(٢) لعلها : (صحفة) ، والمثبَتُ له وجهٌ .

(٣) يعني : إدامين في إدام ؛ نفياً للإسراف والشره ، انظر « فتح الباري » (١٠/٦٧) .

الأدبُ الرَّابعَ عشَرَ

ألَّا يَحتكِرَ عندَ الأكلِ ، وتكونَ نِيَّتُهُ في التَّناوُلِ للتَّقويَةِ على العبادةِ والتَّقوىٰ ؛ لا أنْ تكونَ نِيَّتُهُ النَّهَمَ[1] ، وتَقوِيةَ النَّفسِ على المخالَفَةِ .

الأدبُ الخامسَ عشَرَ

ألَّا يَنفَرِدَ عنِ[2] الجماعةِ في الأكلِ في موضعٍ واحدٍ ؛ مِثالُهُ : أنْ يأكُلَ الجماعةُ في موضعٍ وهو مُنفَرِدٌ إلىٰ جانبٍ آخَرَ ؛ فهو حاضرٌ معَهُم ، بائنٌ[3] عنهُم في الأكلِ ؛ فهـٰذا مَكروهٌ ، قالَ عليهِ السلامُ : « خَيْرُ ٱلطَّعَامِ مَا كَثُرَتْ عَلَيْهِ ٱلْأَيَادِي »[4] .

فإنْ تأخَّرَ عنِ الجماعةِ لورْدٍ يكونُ لهُ في ذٰلكَ الوقتِ . . يُفْسَحُ لهُ في التَّخَلُّفِ ، أمَّا إذا لمْ يكنْ لهُ وِرْدٌ . . لا يُسامَحُ ، ويَدُلُّ علىٰ خُرْقِهِ وجهلِهِ مع عَدمِ عُذرٍ واضحٍ .

الأدبُ السَّادسَ عشَرَ

ألَّا يستزيدَ الخادمَ في نصيبِهِ ؛ فهـٰذا مَنْجَسَةُ النَّفسِ ، بلْ يَقنَعُ بما يُعطَىٰ .

الأدبُ السَّابعَ عشَرَ

ألَّا يَتخيَّرَ مِنَ الأنصِبَةِ شيئاً ؛ بل يَقنَعُ بالقسَامِ ، والخادمُ لا يجوزُ أن يَتَخيَّرَ لواحدٍ دونَ واحدٍ لهواهُ ؛ فهو يدلُّ علىٰ خِيانَتِهِ ، إلَّا إذا كانَ شخصاً يتَميَّزُ على الجماعةِ بالاستعدادِ والأهْليَّةِ ؛ فإنَّهُ يجوزُ أنْ يُراعِيَهُ لذٰلكَ ، لا لهواهُ وطَبعِهِ .

---

(١) النَّهَمُ بفتحتَينِ : إفراطُ الشَّهوةِ في الطَّعامِ . ينظر « مختار الصحاح » (ص ٣٢٠) .

(٢) في الأصلِ (عند) ، ولعلَّ الأنسبَ ما أثبتُّ .

(٣) من البَينِ ؛ وهو البُعدُ .

(٤) أخرجَهُ أبُو يَعلَىٰ في « مُسنَدِه » (٢٠٤٥) ، والطَّبرَانِيُّ في « المُعجَمِ الأوسَطِ » عن سيدنا جابر رضي الله عنه .

الأدبُ الثَّامنَ عشَرَ

أَلَّا يَنْفُخَ في الطَّعامِ ؛ بل يَرتَقِبُ حتَّىٰ يَبرُدَ ؛ فإنَّهُ أعظمُ بركةً ، ولا يقطعُ اللَّحمَ بالسِّكينِ ، بل يَنْهَشُهُ نَهْشاً[1] .

الأدبُ التَّاسعَ عشَرَ

أَلَّا يَمسَحَ بيدِهِ في الخُبزِ ؛ فإنَّ في ذٰلكَ جبرٌ وتِيهٌ ، وهو مُستَقذَرٌ جدّاً ، وهو مَنهِيٌّ عنهُ ، وقدْ قِيل : مَنْ فعلَ ذٰلكَ . . فقدْ تعرَّضَ للفقرِ ، ولمْ يأمَنِ الجُذَامَ .

الأدبُ العشرونَ

أنْ يأكُلَ بيمينِهِ ، ولا يأكُلَ بشِمالِهِ إلَّا عندَ الضَّرورةِ ، ويَتجنَّبَ وضعَ القَصْعَةِ على الخبزِ ؛ فإنَّهُ فعلُ العوامِّ ومَن لا يَعرِفُ التَّمَيُّزَ .

الأدبُ الحادي والعشرونَ

أَلَّا يَحلِفَ على الطَّعامِ باللهِ وواللهِ ، ولا يُطيلَ الكلامَ ، ولا يَسكُتَ أيضاً .

الأدبُ الثَّاني والعشرونَ

أَلَّا يُمسِكَ عنِ الأكلِ قبلَ الشَّيخِ والجماعةِ ؛ بل يَتَعلَّلُ إلىٰ حينِ فَراغِ الجماعةِ ؛ حتَّىٰ لا يَنظُرَ في وجوهِ الآكِلينَ ؛ فإنَّهُ مكروهٌ .

الأدبُ الثَّالثُ والعشرونَ

أَلَّا يقومَ قبلَ الجماعةِ ؛ إلَّا أنْ يكونَ صاحبَ خِدْمَةٍ ؛ فإنَّهُ يُفسَحُ لهُ في القِيامِ ؛ ليشتغلَ بخدمتِهِ .

---

(١) وَرَدَ النهيُ عن قطعِ اللحمِ بالسكِّينِ ، وذٰلك في الحديثِ الذي أخرجه أبو داوود (٣٧٧٨) مِن حديثِ سيدتنا عائشةَ رضي الله عنها مرفوعاً : « لَا تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بِالسِّكِّينِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ صَنِيعِ الأَعَاجِمِ ، وانْهَسُوهُ ؛ فَإِنَّهُ أَهْنَأُ وَأَمْرَأُ » .

الأدبُ الرَّابعُ والعشرونَ

أَلَّا يَفعلَ فِعلاً تَنْبُو الطَّبائعُ عنهُ ؛ مِثلَ أَنْ يُلقِيَ بعضَ اللُّقْمَةِ في القَصْعَةِ .

ولا يَنْثُرَ باقيَ الطَّعامِ مِن يَدِهِ في القَصْعَةِ ، أو يَتْفِلَ أو يَعْطِسَ مِنْ غيرِ حائلٍ بينَهُ وبينَ الطَّعامِ .

الأدبُ الخامسُ والعشرونَ

أَلَّا يأكُلَ مِنْ ذُرْوَةِ الصَّحفةِ ، ويكونُ أكلُهُ بثَلاثِ أصابعَ ، ويمُصُّ أصابعَهُ ، ويَلعَقُ بها عندَ فَراغِهِ مِنَ الطَّعامِ[١] .

الأدبُ السَّادسُ والعشرونَ

أن يَجمَعَ ما يَسقُطُ من المأكولِ[٢] ؛ مِمَّا لا يُؤكَلُ في يدِه اليُسرىٰ أو بينَ يديهِ ؛ فإن كانَ ممَّا له نَوَىً . . فيَجمَعُ النَّوَىٰ علىٰ ظاهرِ الكَفِّ ، ولا يَرميهِ يَميناً وشِمالاً .

الأدبُ السَّابعُ والعشرونَ

أَلَّا يُلقِمَ أخاهُ ولا يَلُزَّهُ[٣] بالأكلِ ؛ بل يَكفِي الاستدعاءُ الأوَّلُ .

الأدبُ الثَّامنُ والعشرونَ

أَلَّا يَشرَبَ الماءَ قبلَ الطَّعامِ على السُّفْرَةِ ، ولا بعدَ التَّخليلِ[٤] على السُّفْرَةِ ؛ فأمَّا قبلَ السُّفْرَةِ و بعدَها . . فلا بأسَ بهِ .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣٢) من حديث سيدنا كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنهُ ؛ قال : (رَأَيتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يَلْعَقُ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ مِنَ الطَّعَام) .

(٢) أخرج معناه مسلم (٢٠٣٤) من حديث سيدنا أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنهُ .

(٣) يَلُزُّه ؛ أي : يُلزِمُه . ينظر « تاج العروس » (٣١٣/١٥) .

(٤) خلَّلَ الشَّخصُ أسنانَه تخليلاً ؛ إذا أخرجَ ما يبقَىٰ منَ المأكولِ بينها ، واسمُ ذٰلك الخارجِ : خُلالةٌ بالضَّمِّ . ينظر « المصباح المنير » (١٨٠/١) .

الأدبُ التَّاسعُ والعشرونَ

أَلَّا يَلزَمَ الكُوزَ بِرَقَبَتِهِ ؛ بل يَلزَمُ عُرْوَةَ الكُوزِ بالخِنْصَرِ ؛ لئلَّا يَتلَوَّثَ .

الأدبُ الثَّلاثونَ

أنْ يأكلَ ما وقَعَ مِنَ الطَّعامِ حولَ المائدةِ وتحتَها ؛ فقدْ وردَ أنَّهُ يَنْفِي الفَقرَ[1] ، ويَحشِيَ قلبَهُ عِلماً وحِكَماً وإيماناً ، وهو مَهْرُ الحُورِ العِينِ ؛ إلَّا أنْ يكونَ في الصَّحراءِ ، فلا بأسَ بتركِهِ .

الأدبُ الحادي والثَّلاثونَ

أنْ يتناولَ الخِلالَ بيدِهِ اليُمنَىٰ بينَ أُصْبُعِهِ الوُسطَىٰ والبِنصَرِ ، ويَتجنَّبَ عُودَ القَصَبِ والآسِ والرَّيحانِ .

الأدبُ الثَّاني والثَّلاثونَ

أَلَّا يَسبِقَ إلىٰ غَسلِ اليدِ ؛ خاصَّةً إذا كانَ في الجَمعِ مَنْ هو أَولَىٰ منهُ بذٰلكَ ، ويُؤْثِرُ مَنْ دُونَهُ تواضُعاً وخُلُقاً .

ويَلزَمُ خادِمَ الدَّستَشورِ[2] ؛ يبدأُ بِمَنْ هو عن يمينِ السُّفْرَةِ ؛ حتَّىٰ يَنتهِيَ إلىٰ آخرِهِ .

---

(١) أَخرَجَهُ أَبُو نُعيمٍ الأَصْبهانِي فِي « ذِكرِ أَخبارِ أَصبَهان » (٢/٣٥٥) ، وابنُ عَسَاكِر فِي « تَاريخِ دِمَشق » (٣٣/٣١٨) ، مِن حَديثِ سيدنا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنهُ .

(٢) الدَّستَشور : كلمةٌ فارسيةٌ مركَّبَةٌ من (الدَّسْتُ) ، و(شُور) ويقالُ في كلمةٍ مشابهةٍ قريبة نطقاً ورسماً : الدَّستشوي ومعناها : مَن يَصُبُّ أو يقدِّمُ الماءَ للضُّيوفِ لغسل أيديهم .
و(الدَّسْتُ) : معناها (اليَدُ) بالِاتفاقِ .
وأمَّا (شور) : فهي علىٰ معانٍ في لغةِ فارس :
أولاً : الحرَكةُ ، وفي استعمالها مقرونةً : يشيرُ أو يَلَوِّحُ بيدِه للبعيدِ .
ثانياً : الملحُ ، ولا تُستَعملُ مقرونةً كما سيأتي .
ثالثاً : عَلَم علىٰ شَخصٍ ، وتُستعمَلُ بمعنى : المساعدُ الأولُ ؛ كما يقال له عندنا : فلانٌ الذِّراعُ الأيمَنُ للملكِ أو الأميرِ .

الأدبُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ

أن يَجلِسَ علىٰ قَدَمَيهِ عندَ غَسلِ اليدِ ، ويَأخُذَ الصَّابُونَ باليُمنىٰ ، ويتجنَّبَ بَلَلَ ثَوبِهِ ، أو أنْ يَقَعَ منهُ شيءٌ على السَّجَّادَةِ والأرضِ جميعاً .

الأدبُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ

أنْ يَستُرَ فاهُ عندَ المضْمَضَةِ وعندَ قَذْفِ الماءِ مِنْ فيهِ ؛ لئلَّا يَنْبُوَ طَبعُ مَنْ يُشاهِدُهُ .

الأدبُ الخامسُ والثَّلاثونَ

أنْ يَغسِلَ الخِلالَ ، ويَحذَرَ مِنْ وُقوعِ الصَّابونِ في الماءِ .

الأدبُ السَّادسُ والثَّلاثونَ

أنْ يَتجنَّبَ الرَّشَاشَ عندَ غَسلِ الكَفِّ ؛ بل يَضُمَّهُ إلىٰ نفسِهِ مِنْ غَيرِ أنْ يَبُلَّ ما حولَهُ .

الأدبُ السَّابعُ والثَّلاثونَ

أنْ يَدعُوَ عندَ الفَراغِ ويقولَ : الحمدُ للهِ الَّذي أطعَمنِي فأشبَعنِي ، وسَقاني فأَروَانِي [١] .

الحمدُ للهِ الَّذي عَرَّفَنِي البَركةَ مِمَّا أصبتُهُ وتركتُهُ منهُ ، اللَّهُمَّ ؛ اجعَلْهُ هنِيئاً مَرِيئاً ولِيناً لا دَوِيّاً [٢] ، وأبقِني بعده سَوِيّاً ، قائِماً بِشُكرِكَ ، مُحافِظاً

← وبعد عَناءٍ وجدتُ عند بعضٍ منهم بأخَرةٍ لا تَزالُ الكلمةُ تُستَعملُ عندهم مُجتَمِعةً ؛ ومعناها : صانعُ الطَّعامِ المُمَلَّحِ ، غيرَ أنَّ واوها تكادُ تكونُ ألِفاً ، الشَّأنُ فيها كالشَّأنِ في خارزم ؛ الَّتي ينطق العربُ ألِفَها واواً .

(١) أخرَجَهُ إلىٰ هنا أَبو يَعلَىٰ في « مُسنَدِه » (٧٢٤٦) عَن مُحَمَّدِ بنِ إبرَاهِيمَ الشَّامِيِّ بإسنَاده إلىٰ سيدنا عَبْدِ اللهِ بنِ قَيسٍ رضي الله عنه ، وزاد في آخره : « خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

(٢) الدَّوِيُّ : الشديد .

علىٰ طاعَتِكَ ، وارزُقنِي رِزقاً دَارّاً ، وأَعِشنِي عَيشاً قَـارّاً ، واجعَلنِي بَارّاً ، واجعَل ما يَتَلَقَّانِي في المَعَادِ مَنهَجاً سَارّاً ؛ بِرَحمَتِكَ يا أرحمَ الرَّاحِمِينَ .

* * *

الفصل السّابع

في آداب الشّرب والسّقاء

الأدبُ الأوَّلُ

أنْ يَشرَبَ الإنسانُ في ثلاثةِ أنفَاسٍ ؛ لا يَشرَبَ في نَفَسٍ واحدٍ[1] .

الأدبُ الثَّاني

ألَّا يَعُبَّ الماءَ عَبّاً[2] ، ويَمُصَّه مَصّاً ، فهَـٰكذا وَرَدَ[3] .

الأدبُ الثَّالثُ

أنْ يَتَجَنَّبَ الشُّربَ مَوضِعَ العُرْوَةِ ، قيلَ : إنَّهُ مَقعَدُ الشَّيطانِ .

الأدبُ الرَّابعُ

أنْ يَتناوَلَ الكُوزَ بيَمِينِهِ ، ويُسَمِّيَ اللهَ ويقولَ : الحمدُ للهِ مُنْزِلِ الماءِ ، ومُصَرِّفِ الأَشْواءِ كيفَ شاءَ ، بِاسمِ اللهِ خيرِ الأسماءِ[4] .

الأدبُ الخامسُ

أنْ يُحَوِّلَ رأسَهُ إذا غلبَهُ الجُشاءُ عن رأسِ الكُوزِ ؛ فإنَّهُ مُستقذَرٌ ، وفي وجهِ الإخوانِ سُوءُ أدبٍ .

---

(١) أخرجَه البُخَاري (٥٦٣١) ، وَمُسلِمٌ (٢٠٢٨) من حديث سيدنا أنسٍ رَضِيَ الله عَنهُ .

(٢) العَبُّ : شُربُ الماءِ من غيرِ مَصٍّ ؛ كشُربِ الحَمامِ والدَّوابِّ ، يقال : عَبَّ الماءَ يَعُبُّه عبّاً . ينظر « المصباح المنير » (٣٨٩/٢) .

(٣) أخرَجَهُ ابنُ عَدِي فِي « الكَامل فِي ضُعَفاءِ الرِّجَالِ » (٤٤٧/٣) عَن سيدنا أنَسٍ رضي الله عنه .

(٤) في (الأصل) : (السَّماء) ، وقدِ استَشكلَها النَّاسخُ ، والصَّوابُ ما أثبتُّ ، والله أعلم .

الأدبُ السَّادسُ

أَلَّا يَشرَبَ قائِماً[1] ولا نائِماً ، ولا يُسْرِفَ في شُربِ الماءِ ؛ فإنَّ فيهِ فسادَ المِزاجِ ، وإن صَبَرَ عنِ الماءِ عَقِيبَ الطَّعامِ بساعةٍ . . كانَ أَولَىٰ مِنْ حيثُ صلاحُ المِزاجِ ، والسَّرَفُ في شُربِ الماءِ يُورِثُ عِلَلاً وأمراضاً ؛ مِثلَ الاِستسقاءِ وغيرِهِ مِنْ حيثُ الطِّبُّ ، وإنَّ الماءَ المُفرِطَ في الحرارةِ والبُرودَةِ مُضِرٌّ بالجسَدِ ؛ فليَكُنْ بينَ ذٰلكَ .

الأدبُ السَّابعُ

أَلَّا يُسابِقَ على الشُّربِ ، والأَولىٰ أنْ يُؤثِرَ إخوانَهُ .

الأدبُ الثَّامنُ

أنْ يَتَفَقَّدَ الكُوزَ الَّذي يُقدِّمُهُ لإخوانِه ؛ لئلَّا يكونَ فيهِ أو عليهِ ما يُستَقذَرُ ، ويَجتَهِدَ في نظافةِ الكُوزِ بجُهدِهِ ، ولا يَتهاونَ في خِدمَةِ الإخوانِ ؛ خاصَّةً إذا كانَ خِدمتَهُ السِّقَاءُ ؛ فإنَّهُ أَصْلَفُ الخدَمِ .

الأدبُ التَّاسعُ

أَنَّهُ إذا أرادَ أن يَسقِيَ إخوانَهُ . . يَضَعُ يدَهُ اليُمنىٰ تحت الكُوزِ بعدَ المُناولَةِ ؛ لئلَّا يقعَ منهُ على الأرضِ شيءٌ ، واليُسرىٰ خلفَ ظهرِهِ ، وإنْ شَرِبَهُ بنفسِهِ . . لَزِمَ الكُوزَ باليُمنىٰ ، ووضعَ اليَسارَ تحتَهُ ، ويكونُ آخرَهُم شُرباً .

الأدبُ العاشرُ

أنْ يَحمَدَ اللهَ تعالىٰ عندَ الفَراغِ مِنَ الشُّربِ ، وليَقُلِ : الحمدُ للهِ الَّذي سَقانِي

---

(١) أخرجَه مُسلِمٌ (٢٠٢٤) من حديث سيدنا أَنَسٍ رَضِيَ الله عَنهُ .
وَثَبتَ عَن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أنه شَرِبَ قَائِماً مِن زَمزَمَ ، أخرجَه البُخَارِي : (٥٦١٧) مِن حَديثِ سيدنا ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنهُما .

عَذْباً فُراتاً ولـمْ يجعلْهُ مِلحاً أُجاجاً ، اللَّهُمَّ ؛ اجعلنِي ممَّن تَسقِيهِ في المَعادِ مِنْ حَوضِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وتُسعِدُه بمُرافَقَتِهِ ، برحمتِكَ يا أرحمَ الرَّاحمينَ [1] .

* * *

(١) أخرَجَ شِقَّه الأوَّل : « الحمدُ للهِ الَّذي سَقانِي عَذْباً فُراتاً ولم يجعلْه مِلحاً أُجاجاً » . . ابنُ أَبِي حَاتِمٍ في « تَفسِيره » كما في « تَفسيرِ ابنِ كَثيرٍ » (٥٤١/٧) ، وابنُ أبي الدُّنيا في « الشُّكر » (٧٠) ، والبَيهقيُّ في « شُعبِ الإيمانِ » : (٤١٦٢) ، والطَّبرَانِيُّ في « الدُّعاءِ » (٨٩٩) ، وَأبُو نُعَيم في « حِليةِ الأولياءِ » (١٣٧/٨) ، جَميعُهم مِن طَريقِ فُضَيلِ بنِ عِيَاضٍ ، عَن جَابِرِ بن يَزِيد الْجُعْفِيِّ الْكُوفِيِّ ، عَن أَبِي جَعفَرٍ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ الحسَينِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ مُرْسَلاً .

الفصل الثامن

في آداب النوم واليقظة

ألَّا ينامَ إلَّا عن غَلَبةٍ ؛ فإنَّ النَّومَ المُفْرِطَ مُضِرٌّ بالجسدِ ؛ كما أنَّ السَّهرَ المُفْرِطَ مضرٌّ بالجسدِ .

وقيلَ : النَّومُ علىٰ أربعةِ أضرُبٍ : نومُ الأنبياءِ علىٰ ظهورِهِم ، ونومُ المؤمنينَ على الأيمانِ ، ونومُ الكفَّارِ على اليسارِ ، ونومُ الشَّياطينِ على الوجهِ (١) .

وقيلَ : ثلاثةٌ فيهنَّ المقتُ ؛ النَّومُ مِن غيرِ سَهرٍ ، والضَّحِكُ مِن غيرِ عَجَبٍ ، والأكلُ علىٰ شِبَعٍ (٢) .

ويُستَحَبُّ لمَنْ رأىٰ رُؤيا مكروهةً أنْ يتحوَّلَ عنِ الشِّقِّ الَّذي كانَ نائماً عليهِ (٣) ، وَليَقرأْ : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ . . . ﴾ (٤) الآيةَ ، وليقُلْ : أعوذُ باللهِ وبما عاذَتْ بهِ الملائكةُ المقرَّبونَ وأنبياؤُهُ المرسلونَ وعبادُهُ الصَّالحونَ مِنْ شَرِّ رُؤيايَ ، ومِنْ شرِّ الشَّيطانِ الرَّجيمِ ؛ أنْ يَقرَبَنِي في دِيني ودُنيايَ .

فإذا أرادَ النَّومَ . . التزمَ بهٰذه الآدابِ ؛ فإنَّها مُستَحسَنَةٌ ، وقدْ وردتْ فيها الآثارُ والأخبارُ .

---

(١) تنظر هٰذه الأقسام في : « إحياء علوم الدين » (٢/٢٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في « الزهد » (١٠٢٨) عن سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه . وينظر « قوت القلوب » لأبي طالب المكي (١/٣٤) و« إحياء علوم الدين » (١/٣٣٩) .

(٣) أخرج مسلم (٢٢٦٢) من حديث سيدنا جابرٍ رضي الله عنه ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يَكْرَهُهَا . . فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثاً ، وَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ثَلَاثاً ، وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ » .

(٤) سورة المجادلة : (١٠) .

فالأدبُ الأوَّلُ

أنْ يختارَ موضعاً خالياً ؛ فإذا عزَمَ على النَّومِ . . يُستَحبُ لهُ أنْ يَتوضَّأ ؛ فإنَّ الأولَىٰ ألَّا ينامَ إلَّا علىٰ وُضوءٍ[1] ، فقدْ قيلَ : مَنْ فَعَلَ ذٰلكَ . . كانَ فِراشُهُ كمسجدِهِ ؛ فإنْ لمْ يَتهيَّأ لهُ الوُضوءُ . . تَيمَّمَ ، ثمَّ يقولُ :

أعوذُ بعزَّةِ اللهِ وبقُدرةِ اللهِ وبجمالِ اللهِ وبسُلطانِ اللهِ ، وأعوذُ بجَبَرُوتِ اللهِ ، وأعوذُ بدفعِ اللهِ ، وأعوذُ بجمعِ اللهِ ، وأعوذُ بمُلكِ اللهِ وبرحمةِ اللهِ ، وأعوذُ برسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ مِنْ شَرِّ ما خلقَ وذَرَأَ وبرَأَ ؛ مِنَ الهامَّةِ واللَّامَّةِ ، ومِنْ شَرِّ فَسَقَةِ الجنِّ والإنسِ ، ومِنْ شَرِّ كلِّ دابَّةٍ في اللَّيلِ والنَّهارِ رَبِّي آخذٌ بناصِيَتِها ، إنَّ رَبِّي علىٰ صِراطٍ مُستقيمٍ .

الأدبُ الثَّاني

أنْ يتَجنَّبَ النَّومَ بينَ الجماعةِ ؛ فإنَّ في ذٰلكَ سُوءَ أدبٍ .

الأدبُ الثَّالثُ

ألَّا ينامَ بعدَ الغَداءِ ، وبعدَ صلاةِ العصرِ ، ويُستحَبُّ أنْ يَسْتَاكَ عندَ النَّومِ .

الأدبُ الرَّابعُ

ألَّا ينامَ إلَّا عن وَصِيَّةٍ وتَجديدِ تَوبةٍ ، ويأتي بكلمةِ الشَّهادةِ مُستقبِلاً القِبلةَ .

الأدبُ الخامسُ

ألَّا ينامَ إلَّا بعدَ تَطهيرِ باطنِهِ عن كلِّ غِشٍّ وغِلٍّ وحِقدٍ وحسدٍ لأحدٍ مِنَ المسلمينَ .

---

(١) لِمَا أخرجه البخاري (٢٤٧) ومسلم (٢٧١٠) من حديث سيدنا البراء بن عازب رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ . . فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَىٰ شِقِّكَ الأَيْمَنِ . . . » الحديث .

الأدبُ السَّادسُ

أنْ يَذكُرَ اللهَ تعالىٰ في تَقَلُّبِهِ مِنْ جَنْبٍ إلىٰ جَنْبٍ ، ويَذكُرَ اللَّحدَ والبِلىٰ ، ويُمَثِّلَ في نفسِهِ أنَّهُ قدْ أُلحِدَ وأُعِيدَ ، فهو يُسَهِّلُ عليهِ القِيامَ والتَّيَقُّظَ .

الأدبُ السَّابعُ

ألَّا يَقعُدَ بينَ جماعةٍ نِيَامٍ ، ولا يتحدَّثَ ؛ لئلَّا يُزعِجَ النِّيَامَ .

ويُستَحبُّ أنْ يكونَ نومُهُ وسَطَ النَّهارِ إنْ كانَ لهُ نَصيبٌ مِنَ اللَّيلِ[1] ، وإنْ لمْ يكنْ لهُ نصيبٌ مِنَ اللَّيلِ . . فيَكفِيه نومُ اللَّيلِ ، ولا ينامُ حتَّىٰ يُسْفِرَ الصُّبحُ ؛ فإنَّهُ فِعلُ العوامِّ .

ويُستَحبُّ أنْ يقولَ عندَ تَيقُّظِه : الحمدُ للهِ الَّذي أحيانا بعدَما أماتَنا وإليهِ النُّشورُ[2] ، ولا يَشتَغِلُ بغيرِ الوُضوءِ عندَ تيقُّظِهِ ، ويتَجنَّبُ الحديثَ ، خاصَّةً فيما لا يَعنيهِ .

(١) يعني : قيامَ اللَّيلِ .

(٢) أخرَجَهُ البُخَارِيُّ (٦٣١٢) ، ومُسلِمٌ (٢٧١١) من حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رَضِيَ الله عنهما .

الفصل التّاسع

في ذكر آدابهم في اللّباس[1]

قدْ أحدثَ في وقتِنا هـٰذا جماعةٌ مِنَ المُنتمِينَ إلى الصُّوفيَّةِ لُبْسَ العَمائمِ الكبائرِ ، وتفصيلَ القُمْصانِ الواسعةِ ، وتَرقِيقَ الثِّيابِ ، ولُبْسَ الجماجمِ المكَوكَبَةِ[2] ، والمداساتِ الجميلةَ ؛ حتَّىٰ إنَّ أحدَهم يَلبَسُ اللِّبْسةَ تُساوي عشَرةَ دنانيرَ وأكثرَ ؛ باختيارِهِ وهواهُ ، وهـٰذا يُنافي طريقَ المشايخِ ، وهو انتماءٌ إلىٰ طريقِ أهلِ الدُّنيا والمتَصوِّفينَ[3] والعوامِّ ؛ وذٰلكَ لقلَّةِ علمِهِم بطريقِ المشايخِ رحمةُ اللهِ عليهم .

كانَ طريقُ القومِ أنْ يَلبَسوا[4] مِنَ الثِّيابِ ما يجدونَ مِنْ غيرِ تصنُّعٍ ولا تزيُّدٍ[5] ، ولمْ يتكلَّفوا خِياطتَها وتَفصِيلَها ؛ بل كانوا يَلبَسونَ ما تيَسَّرَ ، ويسترونَ بِهِ العَورةَ ، ويدفعونَ بِهِ القَرَّ والحرَّ .

وكُلَّما خَشُنَ ثوبُ الفقيرِ . . كانَ أقربَ إلى الخُشوعِ ، ما لمْ يكنْ لهُ فيهِ هَوىً ؛ فإنَّهُ يُحتَمَلُ أنْ يَلبَسَ الخَشِنَ بِهواهُ .

ولُبْسُ الثِّيابِ الرَّقيقةِ لا تَصْلُحُ لرَفيعاتِ النِّساءِ فضلاً ممَّنْ يدَّعِي الرُّجوليَّةَ ، وقدْ نَهَى الشَّرعُ عن ذٰلكَ في قولِهِ عليه السلام : « ثَلَاثَةٌ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ بِغَيْرِ

---

(١) خص السهروردي في « عوارف المعارف » (٢/١٦٠) الباب الرابع والأربعين بذكر أدبهم في اللباس وثيابهم ومقاصدهم فيه ؛ فليراجع .

(٢) الجماجم المكوكبة : السادات والرؤساء العظماء .

(٣) يعني بهم : الأدعِياءَ والدُّخلاءَ المُتطفِّلينَ علىٰ موائدِ الأجِلَّاءِ العُظماءِ من أهلِ الطَّريقِ .

(٤) في الأصل : (أن يَلبَسونَ) .

(٥) في الأصل : (ولا بزي) ، ولعلها تحريف ، والصوابُ ما أثبتناه ، وهو الملائمُ للسياقِ .

حِسَابٍ : رَجُلٌ غَسَلَ ثَوْبَهُ فَلَمْ يَجِدْ خَلَفاً »[1] فعدَّ[2] عَدَمَ القُدرةِ سببَ دخولِهِ الجنَّةَ ، ولمْ يَرِدْ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم اتَّخذَ[3] مِنْ شيءٍ زَوجَينِ ليكونَ ما لهُ مِنَ الخُلْقَانِ نظيفةً طاهرةً لا يتغافلُ عن غَسلِها وتطهيرِها ؛ فقدْ كَرِهَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذٰلكَ ، قالَ : « إِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ يُبْغِضُ ٱلْوَسَخَ »[4] .

ولا ينبَغِي للفقيرِ أنْ يَلبَسَ مِنَ الثِّيابِ ما يَشْتَهِرُ بهِ ؛ مِثلُ المُلَمَّعاتِ المُزَيَّنَةِ ، والأشياءِ الَّتي[5] تُستَطْرَفُ ؛ فما يَعتَمِدُهُ[6] الصُّوفيَّةُ في هٰذا الزَّمانِ مِنَ التَّعالي[7] في أنواعِ الخِياطاتِ . . فقدْ كَرِهَ المشايخُ ذٰلكَ ، وليسَ هو لِباسَ أهلِ الحقيقةِ .

كانَ أبو حاتمٍ العطَّارُ إذا رَأىٰ أهلَ المُرَقَّعاتِ يقولُ : (ساداتي ؛ نَشرتُمْ أعلامَكُم ، وضَربتُم طُبولَكُم ؛ فليتَ شِعرِي في اللِّقاءِ أيُّ الرِّجالِ أنتُم ؟!) .

قالَ أبو حفصٍ الحدَّادُ : (إذا رأيتَ ضَوءَ الفقيرِ في ثوبِهِ . . فلا تَرجُو خيرَهُ)[8] .

وفي هٰذا الزَّمانِ صارَ جماعةٌ مِنَ الأحداثِ يَلبَسُونَ مِنَ الثِّيابِ ما يَليقُ لُبْسُهُ بالمشايخِ ؛ بجهلِهِم وسُوءِ أدبِهِم ؛ كالفَرْجِيَّاتِ[9] والصُّوفِ الأبيضِ ، والخَشِنِ

---

(١) أخرجَهُ ابنُ السُّنِّي في « القناعة » (٤٧) ، وابنُ الفَاخِرِ الأَصبَهانِي في « مُوجِبَاتِ الجَنَّة » (٢٩٧) ، كلاهما مِن طَريقِ ابنِ لَهِيعَةَ ، عَن دَرَّاجٍ ، عَنِ ابنِ حُجَيرَةَ ، عَن سيدنا أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه .

(٢) في الأصل : (فعند) .

(٣) كلمة (اتخذ) : إضافةٌ مِنَ المحقِّقَةِ اقتضاها السِّياقُ لسلَامَةِ المعنَىٰ .

(٤) أخرجَهُ البَيهقيُّ في « شُعبِ الإيمان » (٥٨١٥) ، عَنْ سيدتنا عَائِشَةَ رضي الله عنها .

(٥) في الأصل : (الَّذي) .

(٦) في الأصل : (فما يَعتَمِدُوه) .

(٧) وقد تقرأ بغَينٍ مُعجَمةٍ (التَّغالي) ، وكِلاهُما وجيهٌ ، له حظٌّ مِنَ التَّوجيهِ مِن حيثُ الرَّسمُ والمعنىٰ .

(٨) ينظر « عوارف المعارف » (٢/١٦٢) ، وفيه : (وضاءة) بدل (ضوء) .

(٩) الفَرْجِيَّاتُ : جمعُ فرجيةٍ ؛ وهي ثوبٌ واسعٌ طويلُ الأكمامِ يَتزَيَّا به علماءُ الدِّينِ مُحدَثةٌ . « الوسيط » (٢/٦٧٩) .

الأبيضِ ، والقَلانِسِ[1] ، وهٰذا لُبْسُ المشايخِ دونَ غيرِهِم ؛ فمَنْ لَبِسَ هٰذه الثِّيابَ . . فقدِ افترىٰ عليهِم .

وليسَ للمُريدِ أنْ يَلبَسَ غيرَ البَرانِسِ ؛ فإنَّ القَلانِسَ زِيُّ المشايخِ ، ويُسامَحُ في لُبسِ الفَرْجِيَّةِ للمُريدِ عندَ غَيبَةِ الشَّيخِ ؛ إذا كانَ لهُ قِدْمَةٌ في الخِرْقَةِ ، أمَّا في حَضرَةِ الشَّيخِ . . فلا .

وليسَ للمُريدِ لُبسُ الجوربِ والباحليةِ[2] والنَّعلِ ؛ إلَّا أنْ يَرىٰ لهُ أَهْلِيَّةَ ذٰلكَ ؛ فيَلبَسُهُ بإذنِ الشَّيخِ عندَ الحاجةِ إلى الوُضوءِ ، ومَنِ اعتمدَ شيئاً مِنْ ذٰلكَ . . فقدْ أساءَ الأدبَ ، ويجِبُ أنْ يُنهَىٰ عن ذٰلكَ ، ويُعَرَّفَ طريقَ الصَّوابِ ولا يُسَامَحَ ؛ فإنْ قَبِلَ وتَرَكَ ما يُنهَىٰ عنهُ . . دَلَّ على استِعدادِهِ ، وإنْ لَمْ يَقبلْ ذٰلكَ ولَمْ يَمتَنِعْ . . فهٰذا يدلُّ علىٰ أنَّهُ لا يَصلُحُ للصُّحبَةِ ؛ لأنَّهُ إذا لَمْ يَقبَلْ هٰذا القَدْرَ . . فما ظَنُّكَ في أشياءَ أعظَمَ مِنْ ذٰلكَ .

وهٰذه كُلُّها قُيودٌ للمُبتَدِي ، تَذكِرةٌ للمُنتَهِي ، ومتَىٰ تعدَّاها . . دلَّ علىٰ عَدَمِ أهْلِيَّتِهِ .

وقدْ أَحدَثَ في هٰذا الزَّمانِ جماعةٌ يَدوسونَ السَّجَّاداتِ بالمَداسِ والجوارِبِ ، ويَحضُرونَ بها السَّماعَ ، وليسَ هٰذا طريقَ المشايخِ ، وفي ذٰلكَ دقائقُ ، ولا يَسْلَمُ هٰذا إلَّا لشيخٍ تَفَرَّدَ في وَقتِهِ ، ونشرَ اللهُ لهُ عِلماً ، وصارَ مُقتَدىً بهِ ؛ فإنَّ حَرَكاتِهِ وسَكَناتِهِ تكونُ باللهِ ، والاعتراضُ عليهِ سُوءُ أدبٍ .

وقدْ ذكرَ بعضُ المشايخِ المتأخِّرينَ في هٰذه الملابسِ وُجوهاً علىٰ قدرِ ما قدْ كانَ مِنْ شأنِهِم فيهِ ؛ فمنها ما قالوا في الخَشِنِ : إنَّ المرادَ مِنَ الخَشِنِ أنَّ لابِسَهُ

---

(١) القَلانسُ : جمعُ قَلَنسُوَةٍ ؛ لباسٌ للرَّأسِ مُختَلِفُ الأنواعِ والأشكالِ ، والجمع : قلانسُ ، وقلانيسُ ، وقَلَاسٍ ، وقَلاسِيُّ . ينظر « المعجم الوسيط » (٧٥٤/٢) .

(٢) كذا في الأصل ، ولم يتبين لنا معناه .

قَنِعَ مُدَّةَ حياتِهِ بهٰذا القَدْرِ مِنَ الملبُوسِ الخَشِنِ ، وكونِهِ لا يحتاجُ تحتَهُ إلىٰ قَمِيصٍ ؛ فهو القميصُ ، وهو الجُبَّةُ .

وفي الهزاريجِ إشارةٌ أنَّ لابِسَهُ عندَهُ مِنِ احتمالِ الحوادثِ والمكارِهِ بقدْرِ ما في هٰذا مِنَ الطَّعنِ ، وإشارتُهُم في لُبسِ المُلَمَّعِ : أنَّ عندَ لابِسِهِ بُعدَ تَلَوُّنٍ وليسَ عندَهُ تمَكُّنٌ ، وهٰذا إنصافٌ لمَنْ يَلبَسُ المُلَمَّعَ ، ويريدُ به هٰذا .

وأمَّا لُبسُ الطَّاقِيَّاتِ ؛ لونٌ واحدٌ كالأبيضِ والأزرقِ إشارةٌ إلىٰ أنَّ حالَهُ حالٌ واحدٌ ، ليسَ له باطنٌ ؛ كما أنَّ ليسَ للطَّاقِيَّةِ بِطَانَةٌ[1] ، ومَنْ لَبِسَ الأزرقَ . . إشارةٌ إلىٰ أنَّ قلبَهُ سَماويٌّ ، ومَنْ جعلَ في روسِ التَّحاريشِ شيئاً مِن نوعٍ آخرَ . . إشارةٌ إلىٰ أنَّ عندَه بقيَّةٌ يحتاجُ إلىٰ أن يَصفُوَ[2] منها ، وقالوا في الفُوَطِ : إنَّ كلَّ عَينٍ منهُ رَقِيبٌ علىٰ لابِسِها ، والسَّجَّادةُ في التَّرتيبِ وُضِعَتْ للمشايخِ ، والمُلَمَّعَةُ للكُهولِ ممَّن لهُ أَهْليَّةٌ ، والأزرَقُ للمُبتدِئِ .

فهٰذه الأقوالُ الَّتي نُقِلَتْ عنِ المتأخرينَ ، والحقيقةُ غيرُ ذٰلكَ .

غيرَ أنَّهُ قدْ كانَ لهم في ذٰلكَ نيَّةٌ صالحةٌ ، والأَولَىٰ بصُوفيَّةِ هٰذا الزَّمانِ أنْ يَتمَسَّكوا بهٰذه القواعدِ ؛ حيثُ لمْ يكنْ لهُم مِنَ العلاماتِ ما يتَزيَّنونَ بها ، والأَولَىٰ لهُم مراعاةُ الظَّاهرِ حيثُ لمْ يَصِلوا إلىٰ حريمِ الحقيقةِ ؛ فحِفظُ الطَّريقةِ أَولَىٰ .

ولا يُستَحسَنُ للفقيرِ أنْ يَفْرِشَ في حَضرَةِ شيخٍ أو مَنْ هو أكبرُ منه سِنّاً أو أكثرُ منهُ قِدْمَةً . . السَّجَّادةَ ؛ إلَّا عندَ إقامةِ الصَّلاةِ ، ومتَىٰ فَرَشَ لغيرِ الصَّلاةِ في حضرةِ المشايخِ . . يكونُ سُوءَ أدبٍ .

* * *

---

(١) الطَّاقيَّةُ : تجمعُ علىٰ طاقياتٍ : غِطاءٌ للرَّأسِ مِنَ الصُّوفِ والقُطنِ ونحوِها ، مُولَّدةٌ . انظر « المعجم الوسيط » (٢/٥٧١) .
وبطانةُ الثَّوبِ : ضِدُّ ظِهارتِه . ينظر « مختار الصحاح » (ص ٣٦) .

(٢) في الأصل : (يَصفُوا) .

الفصل العاشر

في حضورهم السّماع وأدبهم[1]

ينبَغي للفقيرِ إذا حضرَ السَّماعَ أنْ يأتيَ بهٰذهِ الآدابِ :

أوَّلُها

أنْ يَحضُرَ السَّماعَ بنِيَّةٍ صالحةٍ .

الأدبُ الثَّاني

أنْ يُجدِّدَ الوضوءَ ؛ فقدْ قيلَ : الوضوءُ سِلاحُ المؤمنِ ، ويكونُ في حمايةٍ وصَونٍ مِنْ طارقِ الشَّيطانِ .

الأدبُ الثَّالثُ

ألَّا يَحضُرَ سَماعاً لا يُدعىٰ إليهِ .

الأدبُ الرَّابعُ

أنْ يَجلِسَ حيثُ يتَّفِقُ ، ولا يطلبَ التَّرفُّعَ على الحاضرينَ ؛ فإنَّهُ يدلُّ على الرَّقاعةِ[2] والحُمْقِ ؛ فإنْ رفعَهُ صاحبُ المنزلِ إلىٰ مكانٍ . . لا يَمْتَنِعُ ؛ فقدْ قيلَ : الكرامةُ لا تُرَدُّ .

الأدبُ الخامسُ

أنْ يَجلِسَ دونَ مَن هو أكبرُ منهُ ، ويكونَ في جُلوسِهِ محفوظاً مَجموعَ الهمِّ ،

---

(١) عقد السهروردي في « عوارف المعارف » في الجزء الثاني أبواباً في السماع وأحكامه وآدابه ؛ فلتراجع .

(٢) الرَّقاعةُ : الحَماقةُ ، وضَعفُ العقلِ . ينظر « الصحاح » (٣/١٢٢٢) .

لا يُحدِّثُ ، ولا يُكثِرُ الحديثَ ، ولا يَخوضُ فيما لا يَليقُ بذٰلكَ المَقامِ ؛ مِنْ ذِكرِ أمورٍ ليسَتْ مُهِمَّةً [1] في ذٰلكَ الوقتِ .

الأدبُ السَّادسُ

أنْ يتَجنَّبَ الضَّحِكَ ، ويكونَ مُستَمِعاً بقلبٍ حيٍّ ونَفْسٍ مَيِّتَةٍ ؛ فإنْ وَجَدَ في نفسِهِ ضِدَّ ذٰلكَ . . فحرامٌ عليهِ حضورُ السَّماعِ .

الأدبُ السَّابعُ

ألَّا يَنبَسِطَ في الرَّقصِ والتَّصفيقِ مع وجودِ المشايخِ أو مَن يقومُ مَقامَهُم ؛ فإنْ أمَرَهُ الشَّيخُ بذٰلكَ . . بادرَ مُراعِياً للأدبِ ؛ فإنَّ المُرادَ مِنَ الحضورِ في السَّماعِ عندَ أهلِ الصِّدقِ . . الزِّيادةُ واغتِنامُ بَرَكةِ الجَمْعِيَّةِ ، ومسافرةُ الرُّوحِ إلىٰ عالَمِها ؛ لِتَنالَ حظّاً مِنَ القُرْبِ .

سُئِلَ ذو النُّونِ المصريُّ عنِ السَّماعِ ، فقالَ : واردُ حقٍّ يُزعِجُ القُلوبَ إلى الحقِّ ؛ فمَنْ أصغَىٰ إليهِ بحقٍّ . . تحقَّقَ ، ومَنْ أصغَىٰ إليهِ بباطلٍ . . تَزَندقَ [2] .

وقيلَ : أهلُ السَّماعِ ثلاثةٌ : مستمعٌ بربِّهِ ، ومستمعٌ بقلبِهِ ، ومستمعٌ بنفسِهِ [3] .

وقيلَ : لا يَصِحُّ السَّماعُ إلَّا لمَنْ قَلَّتْ حُظوظُهُ ، وبَقِيَتْ حُقوقُهُ ، وخُمِدَتْ بَشَرِيَّتُهُ .

الأدبُ الثَّامنُ

ألَّا يَسمَعَ ما يُلهِي ويُقَوِّي شَوكةَ ودَواعِيَ الطَّبْعِ .

---

(١) في الأصلِ : (مهمّ) .

(٢) ينظر قول ذي النون في : « الرسالة القشيرية » (ص ٦٨٣) ، و« إحياء علوم الدين » (٢/٢٩٢) .

(٣) قريب منه قول أبي علي الدقاق في « الرسالة القشيرية » (ص ٦٩٦) .

الأدبُ التَّاسعُ

أَلَّا يَستَدعِيَ الحالَ والوَجْدَ ، ويَعتَمِدَهُ تكلُّفاً مِنْ غيرِ أنْ يكونَ عندَهُ أمرٌ يَغلِبُهُ ؛ إلَّا أنْ يفعلَ ذٰلكَ علىٰ سبيلِ الموافقةِ ؛ لمَنْ يحضُرُ مِنَ الإخوانِ الصَّادقينَ .

قالَ الجُنَيدُ رضي الله عنه : (كلُّ مُريدٍ يَميلُ إلى السَّماعِ . . فَفِيه بَقِيَّةُ بَطَالَةٍ)[١] .

الأدبُ العاشرُ

أَلَّا يحضُرَ السَّماعَ بقميصٍ طاقٍ ؛ فإنَّهُ سُوءُ أدبٍ وتهاونٌ بالحاضرينَ مِنَ الجمْعِ والجمعيَّةِ ؛ إلَّا ألَّا يَملِكَ غيرَهُ ، فلا بأسَ إذا حضرَ بهِ ، وهٰكذا لا يَحضُرُ بينَ الجمعِ في غيرِ السَّماعِ أيضاً ، وكذا لا يحضُرُ بالفَرْجِيَّةِ ، خاصَّةً إذا لمْ يكنْ مُزَرَّراً ؛ فَفِيهِ قِلَّةُ مُبالاةٍ ، وقيلَ : إنَّ ذٰلكَ صُورةُ التَّفْرِقَةِ ، والمزرَّرَةُ صُورةُ الجَمْعِيَّةِ .

الأدبُ الحاديَ عشَرَ

أَلَّا يدخلَ إلى الجمعِ والقَوَّالُ يُنشِدُ ؛ فإنَّهُ يُشَوِّشُ على الجماعةِ ؛ بل يَنتَظِرُ إلىٰ أنْ يقُومَ الجمعُ حالَ التَّحَرُّكِ ، أو يَفرَغَ القَوَّالُ ، فعندَ ذٰلكَ يدخلُ ، وإنْ دخلَ حالَ القِيامِ . . وافقَهم فيما هُم فيهِ ، فإذا فرَغَ القَوَّالُ . . قامَ وسلَّمَ على الجمعِ .

الأدبُ الثَّاني عشَرَ

أنْ يُفتَتَحَ السَّماعُ بآياتٍ مِنَ القُرآنِ ، ويُختَمَ بها ؛ لتَعُودَ بركةُ القُرآنِ على الجمعِ .

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٦٨٨) .

الفصل الحادي عشر

في أصل الخرقة وتفصيل قول المشايخ فيها إذا رأى الفقير الخرقة في السماع

مَنشَأُ الخِرْقَةِ : الكتابُ والسُّنَّةُ .

أمَّا الكتابُ : فقدْ ذهَبَ أهلُ التَّفسيرِ إلىٰ قولِهِ تعالَى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ [١] : هو إظهارُ شِعارِ هٰذه الطَّائفَةِ .

وأمَّا السُّنَّةُ : فيما أخبرَنا بهِ الشَّيخُ الصَّالحُ عبدُ الوهَّابِ بنُ عليِّ بنِ سُكَينَةَ ، عن إسحاقَ بنِ سعيدِ بنِ عُمَرَ بنِ سعيدِ بنِ العاصِ قالَ : حدَّثتِني أمُّ خالدٍ قالت : أُتِيَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بثيابٍ فيها خَميصةٌ سوداءُ ، فقالَ : « مَنْ تَرَونَ نَكسُو هَٰذِهِ ٱلْخَمِيصَةَ ؟ » ، فسكتَ القومُ ، فقالَ : « ٱئْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ » ؛ فأُتِيَ بها إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ فأَلبَسَها بيدِهِ وقالَ : « أَبْلِي وأخلِقِي » مرتينِ ؛ فجعلَ يَنظُرُ إلىٰ عَلَمِ الخَميصَةِ ويُشيرُ بيدِهِ إليَّ ويقولُ : « يَا أُمَّ خَالِدٍ ! هَٰذَا سَنَا ، يَا أُمَّ خَالِدٍ ! هَٰذَا سَنَا » [٢] .

فلبَّسَ المشايخُ للمُريدِ الخِرْقَةَ اقتداءً بما لبَّسَ عليه السلام لأمِّ خالدٍ ؛ فإنَّ هٰذا التَّغَيُّرَ [٣] الَّذي يَنقُلُ مِنْ أحوالٍ مذمُومَةٍ إلىٰ أحوالٍ محمُودةٍ ، وفيه التزامٌ وقَيْدٌ للمُريدِ .

---

(١) سورة البقرة : (١٦٠) .

(٢) أخرجَهُ البخاري (٣٨٧٤ ، ٥٨٤٥) مِن حَديثِ سيدتنا أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ رضي الله عنها ، والحديث من رواية إسحاق بن سعيد ، عن أبيه ، عنها ، ففي سياق المؤلِّف نظر ، كما أنه اختصر الإسناد بلا تنبيه ؛ فابن سكينة يروي بالإسناد إلىٰ إسحاق ، وعبارة المؤلِّف توهم أنه يروي عنه مباشرة .
وقوله : (هٰذا سنا) نقل البخاري تفسيره عن الحميدي : يعني : حَسَنٌ حَسَنٌ .

(٣) في الأصل : (فإن تغير) ، ولا يستقيمُ المعنىٰ إلَّا بما أضفتُه من اسمِ الإشارةِ و(أل) التَّعريفِ ، والله أعلم .

وأيضاً ما وردَ أنَّهُ : أُتِيَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بحُلَلٍ ، فبعثَ إلىٰ عمرَ بحُلَّةٍ ، وإلىٰ أسامةَ بحُلَّةٍ ، وإلىٰ عليِّ بنِ أبي طالبٍ عليهمُ السَّلامُ بحُلَّةٍ ، وقالَ : « شَقِّقْهَا خُمُراً بَيْنَ نِسَائِكَ »[1] .

وقدْ تكلَّمَ المشايخُ رحمةُ اللهِ عليهِم فيما إذا رَمَى الفقيرُ الخِرْقَةَ في السَّماعِ ووافقَهُ الحاضِرونَ .

حكمُ الخِرْقَةِ الَّتي تقعُ مِنَ الواحدِ في السَّماعِ علىٰ ثلاثةِ أقسامٍ :

القسمُ الأوَّلُ : ما يَرميهِ الفقيرُ بِنِيَّةٍ صالحةٍ .

القسمُ الثَّاني : ما هو بطريقِ التَّكلُّفِ والمُراءاةِ .

القسمُ الثَّالثُ : ما يَرميهِ مِنْ غَلَبَةِ الوَجْدِ .

وتَنجَرِحُ الخِرْقَةُ بطريقةِ ما يَرميهِ الفقيرُ بنِيَّةٍ صالحةٍ مِنْ غيرِ غَلَبَةِ الوَجْدِ يُنظَرُ : إنْ رمىٰ بها إلى القَوَّالِ . . فهيَ للقَوَّالِ ، وإنْ لَمْ يرمِ بها للقَوَّالِ بِعَينِهِ . . فهيَ للجماعةِ .

قالَ بعضُهُم : بل هيَ للقَوَّالِ ؛ فإنَّهُ المحرِّكُ .

وفصَّلَ بعضُهُم ذٰلكَ فقالَ : إنْ كانَ القَوَّالُ واحِداً[2] مِنَ الجماعةِ . . فالخِرْقَةُ بينَهُم ، وإنْ كانَ القَوَّالُ أجنَبِيّاً[3] أو مُستَأجَراً . . فليسَ لهُ ذٰلكَ ، بلِ الخِرْقَةُ للفقيرِ .

أو ما يَرميهِ الفقيرُ علىٰ سَبيلِ التَّكَلُّفِ والمُراءاةِ ؛ فقدْ نهَى المشايخُ عن ذٰلكَ وكَرِهوهُ ، وينبَغي أنْ يُمنَعَ الفقيرُ عن ذٰلكَ ويُؤمَرَ بتَجَنُّبِهِ ، ويُلْزَمَ بالغَرامَةِ ؛ فإنَّهُ قدْ شَوَّشَ الوقتَ بحركتِهِ مِنْ نِيَّةٍ صالحةٍ[4] .

---

(١) أخرجَهُ مُسلِمٌ (٢٠٦٨) مِن حَديثِ سيدنا ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما .

(٢) في الأصل : (واحد) .

(٣) في الأصل : (أجنبي) .

(٤) كذا في الأصل ، ولعل صواب العبارة : (من غير نية صالحة) .

وحُكمُ الخِرْقَةِ إذا خرجَتْ عندَ غَلَبَةِ الوَجْدِ : أن يُفرِّقَها الشَّيخُ على الحاضِرينَ ، وكذا حُكمُ الخِرقَةِ الصَّحِيحَةِ كحُكمِ المجروحةِ ، وإنْ رأى الشَّيخُ أنْ يَخُصَّ بالخِرقَةِ الصَّحِيحَةِ أحداً مِنَ الحاضِرينَ . . كانَ لهُ ذٰلكَ ؛ فإنَّهُ مُطلَقُ التَّصَرُّفِ ؛ يُعطِي مَنْ يَرىٰ ، ويَمنعُ مَنْ يَرىٰ ، ويُفَرِّقُ كما يَرَىٰ .

وإنْ رمَىٰ بالثَّوبِ مَنْ ليسَ هو مِنْ أهلِ الخِرْقَةِ ، بل يُحِبُّ هٰذه الطَّائفةَ . . فلا يُخَرِّقُ لهُ ثوباً ؛ بل يُعطي للقَوَّالِ ولا يُفَرِّقُ على الجمعِ ، وإنِ اقتدَىٰ أحدٌ ممَّنْ ليسَ عليهِ الخِرْقَةُ خَرَّقَهُ الفقيرُ بشيءٍ . . فالرَّأيُ في ذٰلكَ للشَّيخِ أو مَنْ يقومُ مَقَامَهُ .

والخِرْقَةُ خِرْقتانِ :

خِرْقَةُ إرادةٍ ، وخِرقةُ تبَرُّكٍ .

فَخِرْقَةُ التَّبَرُّكِ : لا بأسَ بِبَذلِها لمَنْ يَطلُبُها ، ولا يُطَالَبُ لابِسُها بما يُطَالَبُ بهِ لابسُ خِرْقَةِ الإرادةِ .

وأمَّا خِرْقَةُ الإرادةِ : فلا تُعطَىٰ طالِبَها إلَّا بعدَ أنْ يُعلَمَ منهُ تَصحِيحُ قواعدِ التَّوبَةِ والتَّأدُّبِ بآدابِ الصُّحبَةِ ، وأنْ يَظهَرَ الرُّشدُ في أفعالِهِ وأقوالِهِ وحركاتِهِ وسَكنَاتِهِ ، ويُمتَحَنَ بالخِدْمَةِ والمعاملةِ ، فإذا قامَ بهٰذه الشُّروطِ ، وبَقِيَ مُدَّةً علىٰ ذٰلكَ . . فيُمنَحُ الخِرْقَةَ كرامةً له ، وليسَ لأحدٍ أنْ يَمَسَّ الخِرْقَةَ سِوى الشَّيخِ .

ويُستَحَبُّ قِيامُ الشَّيخِ عندَ لُبسِهِ الفقيرَ إجلالاً لآثارِ المشايخِ .

ويُستَحَبُّ أنْ يُصَلِّيَ ركعتَينِ ، ويَلجَأَ إلى اللهِ تعالىٰ ، ويسألَ منهُ المزيدَ في طريقِهِ .

ويُستحَبُّ لِلَّابِسِ أنْ يُقَدِّمَ للجَمعِ شيئاً ، ويكونُ التَّصرُّفُ في ذٰلكَ إلى الشَّيخِ .

❊ ❊ ❊

الفصل الثّاني عشر

في كلامهم في المجارى وما يعتمده الفقراء عند المقاولة

طريقُ المشايخِ مَبْنِيَّةٌ على الصَّفاءِ والمُصَافاةِ والوِفَاقِ ؛ لا على المُداجاةِ[١] والنِّفاقِ .

وقيلَ : الصُّوفيَّةُ بخيرٍ ما تَناقَروا ؛ إشارةً إلىٰ أنْ تَتطهَّرَ بواطنُهُم مِنَ الغِشِّ والغِلِّ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يُنافِي طريقَهم ، وليسَ مِنْ مَذهبِهم ادِّخارُ الغِشِّ والغِلِّ والمصاحَبَةُ على الرِّياءِ ، قالَ عمرُ رضي الله عنه : (رحمَ اللهُ امرأً أهدىٰ إليَّ عيوبي)[٢] .

وتفاوَتَ حالُ الفُقراءِ في هٰذا ؛ فمنهُم مَن وَرَدَ عليه كُدُورَةٌ من بعضِ إخوانِه ، تجاوزَ عن ذٰلك بقُوَّةِ علمِه ومَعرفتِه منَ اللهِ تعالىٰ ، وكونُه يرَى الأشياءَ مِنَ اللهِ لا مِنَ الخَلقِ ؛ كما قالَ أبو بكرٍ عليه السلام : (ما رأيتُ شيئاً إلَّا ورأيتُ اللهَ فيهِ)[٣] ، ومَنْ هٰذا حالُهُ لا يتَكدَّرُ بوُرودِ المَكارهِ ، ويَرجِعُ بالجِنَايَةِ علىٰ نفسِهِ ، ويقولُ : بذنبٍ منِّي سُلِّطَ عليَّ هٰذا ، ويُقابِلُ الإساءَةَ بالإحسانِ ، ويتَلَقَّى الحَوادِثَ بسَعَةِ صَدرٍ ، ويَمْحُو عن قلبِهِ وقتَ الكُدُورَةِ ما سِوى اللهِ ؛ ليتَلاشَىٰ ما يَرِدُهُ الكُدُورَةُ في نُورِ التَّوحيدِ .

ومِنَ الفُقراءِ مَنْ لَمْ يَكمُلِ استِعدادُهُ ، ولا تَزَكَّتْ نفسُهُ ؛ إذا وَرَدَ عليهِ أمرٌ مِنْ بعضِ إخوانِهِ . . لا يَحتَمِلُ الأذىٰ ؛ فهٰذا لا يَنبَغِي أنْ يَصحبَ إخوانَهُ

---

(١) المداجاة : المداراة ، وداجَيْتُه ؛ أي : داريته ، وكأنك ساترته العَداوَةَ . انظر « تاج العروس » (٣٦/٣٨) .

(٢) أخرجه الدارمي في « السنن » (٦٧٥) .

(٣) أورده الكلاباذي في « التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف » (ص ٦٤) من قول محمد بن واسع رحمه الله تعالىٰ .

بالنِّفاقِ والشِّقاقِ وسُوءِ الأخلاقِ ، ولا يَحمِلُهُ جَهلُهُ أنْ يَنتَصِفَ مِنْ أخيهِ بيدِهِ ولسانِهِ ، ويَمُتَّ [1] بشرِّهِ وسُوءِ أدبِهِ وسَفَاهَتِهِ ؛ كما يَعتَمِدُهُ الآنَ سُكَّانُ الرُّبُطِ ؛ بل يَرفَعُ أمرَهُ إلىٰ مُتَقَدِّمِ المَوضِعِ الَّذي يكونُ فيهِ أو شَيخٍ يَصحَبُهُ ؛ بل يُرجِعُ أمرَهُ إلى الشَّيخِ بِخَفضِ الصَّوتِ وانكسارِ الجوارحِ ، ولا مُتحرِّكاً بيدِهِ ومُكَرِّراً بلسانِهِ .

وإذا فعلَ ذٰلكَ ، ورَأى الشَّيخُ أنْ يُصلِحَ الأمرَ بينَ الجانِي والمَجْنِيِّ عليهِ مِنْ غيرِ إحضارِ جماعةِ الفُقَراءِ . . فهو ما يرَى الشَّيخُ ، وإنْ رَأىٰ ما يُصلِحُ بينَهُم في الجَمعِ . . فيكونُ أبلغَ في زَجرِ كُلِّ واحدٍ وآكَدَ ، وعندَ ذٰلكَ يُحضرُ الجماعةَ .

وينبَغِي أن يَحضُروا بينَ يديهِ بحُسنِ الأدبِ في القِيامِ والقُعودِ والقَولِ والمُناقَرَةِ ، ولا يُكثِرونَ اللَّغَطَ ، ولا يُخرِجُهُم الجهلُ إلى السَّفَاهةِ بينَ يَدَيِ الشَّيخِ ، ولا يذكرونَ ما قدْ مضَىٰ ، ولا يُظهِرونَ التَّعَصُّبَ ؛ مثالُهُ : كلُّ جماعةٍ لواحدٍ يُريدونَ بذٰلكَ سُلوكَ طريقِ الهوىٰ وغَلَبَةَ البَعضِ للبعضِ والتَّعَصُّبَ الفاسدَ ؛ فإنَّ هٰذا كُلَّهُ سُوءُ أَدَبٍ ومُنافٍ للطَّريقةِ ؛ بل ينبَغِي أنْ يَحضُروا بِنِيَّةِ الاستفادةِ مِنَ الشَّيخِ واغتنامِ بَرَكةِ الجمعِ ؛ فإذا وقعَ الحضُورُ . . تكلَّمَ المَجنِيُّ عليهِ ، وينبَغِي أنْ يَشرَحَ حالَهُ في حَضرَةِ الشَّيخِ بانكسارٍ وتَذَلُّلٍ ، ويَذكُرَ ما جرَىٰ عليهِ على التَّمامِ ؛ مِنْ غيرِ أنْ يُخفِيَ عَنِ الشَّيخِ [2] شَيئاً ، ويكونُ في ذٰلك كُلِّه مَكفوفَ اليدِ لا يَبسُطُ بحركةِ اليدِ ، وإذا رُفِعَ حالُهُ إلى الشَّيخِ . . سكتَ مستفيداً ومُستمِعاً ، ثمَّ يتكلَّمُ الجانِي ويَصدُقُ في قولِهِ مِنْ غيرِ إخفاءٍ ولا زيادةٍ ولا نُقصانٍ ؛ فإذا شَرَحا حالَهما . . سَكتا يستمعانِ ما يَفتَحُ اللهُ على الشَّيخِ مِنْ بَذْلِ النُّصحِ .

---

(١) مَتَّه مَتّاً : مثلُ : مدَّه مدّاً ، وَزناً ومعنىً ، ومَتَّ بقرابَتِه إلىٰ فُلانٍ مَتّاً أيضاً : وصلَ وتوسَّلَ . ينظر « تاج العروس » (٥/٨٩) .

(٢) العبارةُ في الأصلِ : (أن يُخفِيَه للشَّيخِ شيئاً) .

وينبَغِي للجانِي أنْ يَعترِفَ بِجُرمِهِ ولا يُنكِرَ ؛ فإنَّ الإنكارَ أعظمُ مِنَ الذَّنبِ ؛ فإذا سَمِعَ كلامَ الشَّيخِ . . قامَ ووقفَ علىٰ قَدَمِ الاعتذارِ بينَ يدَيِ الشَّيخِ ؛ بِنِيَّةِ الإقلاعِ والإخلاصِ التَّامِّ في تركِ ما يكونُ منهُ الكَدَرُ ، وإذا كانَ صادقاً في اعتذارِهِ . . يَقَعُ عندَ المَجنِيِّ عليهِ التَّجاوزُ والرِّضا ؛ فيقومُ أيضاً ويُوافِقُهُ في الوقوفِ ؛ فإذا ظهرَ الصَّفاءُ وعادَ بركةُ الجَمعِ على الجانِي والمَجْنِيِّ عليهِ وارتفعَ الكَدَرُ . . قصَدا حَضرَةَ الشَّيخِ ؛ فيقبلانِ بينَ يدَيهِ ويَتَبَرَّكا بِهِ ، وطافَا على الحاضرينَ ؛ فهو قدومٌ مِن سَفْرَةِ الطَّبعِ والكَدَرِ إلىٰ عَوالِمِ الصَّفاءِ ومُتابَعةِ الحقِّ ؛ فإذا فعلَا ذٰلكَ وجَلَسا علىٰ بِسَاطِ الصَّفاءِ . . يجبُ على الجانِي أنْ يُقدِّمَ شيئاً ، ويستحبُّ للمَجنِيِّ عليهِ أنْ يُوافِقَ ؛ فإنْ لَمْ يوافِقْ . . فليسَ عليهِ حَرَجٌ ؛ فإذا قَدَّما شيئاً ، ورأى الشَّيخُ قَبولَ ما قدَّماهُ . . فالرَّأيُ في ذٰلكَ لهُ ، وإنْ رأىٰ أنْ يُخرِجَ مِنْ عِندِهِ لكَونِهِ عاقِلةَ القومِ ، وقدْ قِيل : الدِّيَةُ على العاقِلةِ .

وإنْ لَمْ يكُنْ للجانِي شيءٌ[1] ؛ وأَمَرَهُ أنْ يُدَرْوِزَ فَعَلَ ذٰلكَ مِنْ غيرِ توقُّفٍ ؛ خاصَّةً إذا كانَ ممَّن يَجِدُ في نفسِهِ إعجاباً ورُؤيَةً . . فهٰذا يُلزَمُ بالدَّرْوَزَةِ[2] ؛ لتَنكَسِرَ نفسُهُ ، ويَنْزَجِرَ ويتوبَ إلى اللهِ تعالىٰ .

واللهُ الموفِّقُ المُلهِمُ للصَّوابِ ، ونعوذُ باللهِ مِنْ شَرِّ أنفُسِنَا وسَيِّئاتِ أعمالِنا ، ونسألُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ما يُقَرِّبُنا وللسَّامِعِ إليهِ بِمَنِّهِ وجُودِهِ وبِكَرَمِهِ .

تمَّ الكتابُ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وصَلواتُهُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ النَّبيِّ وآلِهِ وصحبِهِ .

ووافقَ الفراغُ منهُ يومَ الأربعاءِ تاسعَ عشرَ رمضانَ المبارَكَ مِن تِسعٍ وثلاثينَ وسَبعِ

---

(١) في الأصل : (شيئاً) ، والله أعلم .

(٢) الدروزة : الشحاذة وسؤال الناس ، وأصلها فارسي : (دروازة) . ينظر « تكملة المعاجم العربية » (٣٤٣/٤) .

مئةٍ ؛ على يدِ العبدِ الفقيرِ إلى اللهِ تعالى المُقِرِّ بذنبِهِ يوسفَ بنِ عبدِ الصَّمدِ بنِ يوسفَ البَكريِّ البغداديِّ ، غفرَ اللهُ لكاتبِهِ ، ولقارئِهِ ، ولِمَنْ نظرَ فيهِ ودعا لهُ بالعَونِ والرَّحمَةِ ، ولجميعِ المسلمينَ .

من تراث

الإمام أبي حفص عمر السهروردي

الكتاب السادس

جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
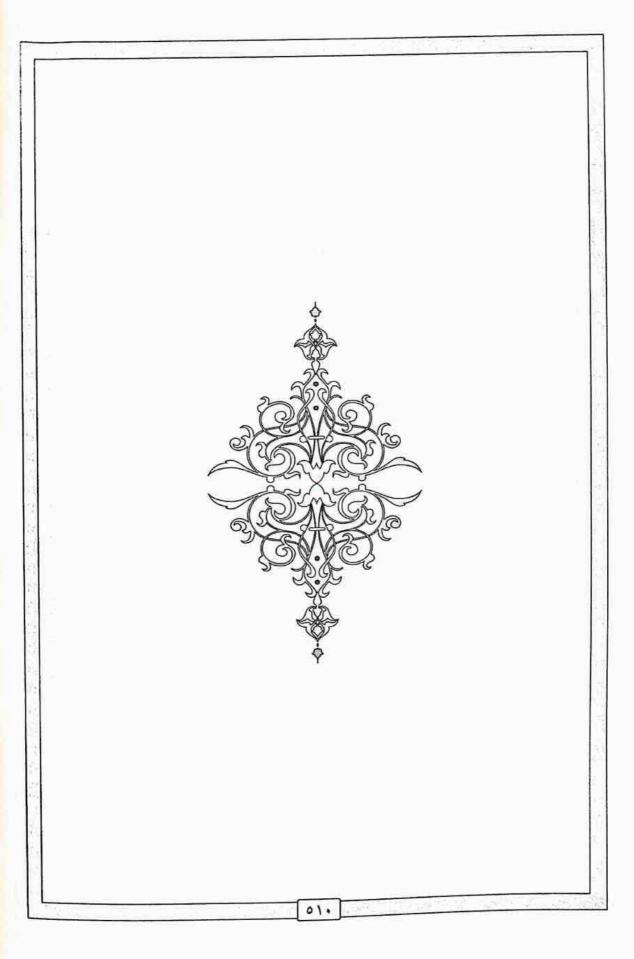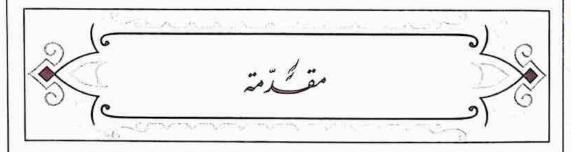
يدورُ هٰذا الكتابُ حولَ جُملةٍ مِنَ الأخلاقِ المَرضيَّةِ الَّتي يَهتدي بها السَّالكُ أثناءَ سَيرِهِ إلى اللهِ تعالىٰ فلا يَضِلُّ ، ويَنجُو بالتَّحلِّي بها مِنَ المَهالكِ والشُّرورِ فلا يَشقىٰ .

ذَكَرَ السُّهرورديُّ فيهِ مِنَ الأخلاقِ والفضائلِ أُمَّاتِها وأصولَها ، فأَوصَلَ ما اختارَهُ إلىٰ ثلاثينَ خَصلةً ، وجعَلَ كلَّ خَصلةٍ وخُلُقٍ منها في بابٍ مُستقلٍّ ؛ وهي علىٰ سبيلِ الحصرِ : العلمُ ، والإيمانُ ، والإسلامُ ، والإحسانُ ، والذِّكرُ ، والشُّكرُ ، والاستقامةُ ، والتَّقوىٰ ، والصِّدقُ ، واليقينُ ، والحِلمُ ، وحُسنُ الخُلُقِ ، والكذبُ ، والصَّمتُ ، وحفظُ اللِّسانِ ، والقلبُ ، والفِكرُ ، والفِراسةُ ، والمعرفةُ ، والموعظةُ ، والاعتبارُ ، والمحبَّةُ ، والشَّوقُ ، والعِشقُ ، والقُربُ ، والمواصلةُ ، والتَّوكُّلُ ، والفقرُ ، واللِّباسُ ، وخَتَمَ ببابٍ في فضلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومُعجزاتِهِ .

ومنهجُ السُّهرورديِّ في الكتابِ يَتلخَّصُ في أنَّهُ أدارَ مادَّتَهُ علىٰ ثلاثينَ باباً ، في كلِّ بابٍ خَصلةٌ واحدةٌ ، ويبدأُ بترجمةِ البابِ بذكرِ الخَصلةِ الَّتي سيتناولُها ، ثمَّ يذكرُ تحتَ البابِ تعريفَ الخَصلةِ غالباً بعباراتٍ مُحرَّرةٍ ، ثمَّ يذكرُ أدلتَّها مِنْ نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ مُبيِّناً وجهَ الدَّلالةِ مِنَ الدَّليلِ ، ثمَّ يَشرَحُ الأدلَّةَ ويَكشِفُ ما تَضمَّنَتْهُ مِنَ المعاني باختصارٍ ، مُبيِّناً فائدةَ الخَصلةِ المذكورةِ للسَّالكِ ، وأَثرَها في وصلِ القلوبِ باللهِ تعالىٰ .

ومِنْ مَيزاتِ الكتابِ الملحوظةِ بوضوحٍ : احتفاءُ السُّهرورديِّ بالأدلَّةِ على الخصالِ ، وشرحِها وبيانِ وَجهِ الدَّلالةِ منها .

ومنها : كثرةُ نقلِه عن العارفينَ وأهلِ التَّصوُّفِ ؛ فتارَةً يُصرِّحُ بِاسمِ مَن نَقَلَ عنهُ ؛ كالجُنيدِ ، وسهلِ التُّستَريِّ ، وإبراهيمَ بنِ أَدهَمَ ، وغيرِهِم ، وتارَةً لا يُصرِّحُ ، ولٰكن يقولُ : (وسُئِلَ بعضُ أهلِ المعرفةِ) ، وتارَةً يقولُ : (قال أهلُ التَّحقيقِ مِنَ العلماءِ) ، وتارَةً يقولُ : (قالَ العلماءُ المحقِّقون)[1] .

* * *

ويحتملُ أن تُنسبَ هٰذهِ الرسالةُ إلى ابنِهِ محمدٍ أبي جعفرٍ (ت ٦٥٥ هـ) نظراً لورودِ حكايةٍ عن أبي الحجاجِ الأقصريِّ (ت ٦٤٢ هـ) ، وقد ترحَّمَ صاحبُ الرسالةِ عليهِ عندَ ذكرِ اسمِهِ[2] ، ولأنَّ عمرَ صاحبَنا تُوفِّيَ سنةَ (٦٣٢ هـ) فإنَّ هٰذهِ الحكايةَ ـ ما لم تكنْ مقحمةً على الرسالةِ ـ قد تنفي نسبتَها إليهِ .

* * *

(١) ينظر « أبو حفص عمر السهروردي ؛ حياته وتصوفه » (ص ٧٥) .

(٢) انظر (ص ٥٤٧) ، والغالب في صيغ الترحُّم أنها من النسَّاخ ، وبهٰذا يسقط في نظري هٰذا الاحتمال .

وصف النّسخ المعتمدة في التّحقيق
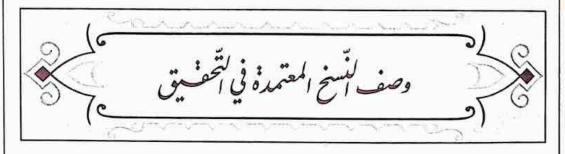
هـٰذا الكتابُ ضِمنَ مجموعةٍ برقم (٢١١٨٩) بمكتبةِ جامعةِ القاهرةِ ، وهو رقم (٦) فيها ، وطُبعَ بمطبعةِ البهاءِ ، دار الحكومةِ في حلبَ الشَّهباءِ سنةَ (١٣٢٨ هـ) .

ورمزتُ لها بـ : (أ) .

وأخرىٰ : مخطوطةٌ بدارِ الكتُبِ المصريَّةِ بالقاهرةِ بعنوانِ : « رسالةُ الشَّيخِ شهابِ الدِّينِ » برقم (١٠٦٤) تصوُّف طلعت .

رمزتُ لها بـ : (ب) .

وثالثةٌ : مخطوطةٌ بمكتبةِ السُّليمانيَّةِ بإستانبول ، حاجي محمود أفندي ، رقم (٣١٢٢) بعنوان : « رسالةُ جذبِ القلوبِ إلىٰ طريقِ المحبوبِ » .

رمزتُ لها بـ : (ج) .

وعِلاوةً علىٰ ما ذكرتُ يوجدُ منها نسختان ؛ وهما كما يلي :

الأُولى : مكتبة الأوقاف بحلب (ضِمنَ مكتبةِ الأسدِ) برقم (١٣٢٨) بسوريا .

الثَّانية : دارُ الكتبِ الوطنيَّةِ في أبو ظبي برقم (٦/آ ٥٩٣/٤٦٣ مج) بالإماراتِ العربيَّةِ المتَّحدةِ .

نماذج من صور المطبوع والمخطوط

كتاب

﴿ جذب القلوب الى مواصلة المحبوب ﴾

﴿ تأليف قطب العارفين السيد ﴾

﴿ الشيخ شهاب الدين ﴾

﴿ السهروردى نفعنا ﴾

﴿ الله بعلومه ﴾

﴿ آمين ﴾

﴿ * ﴾

*

*
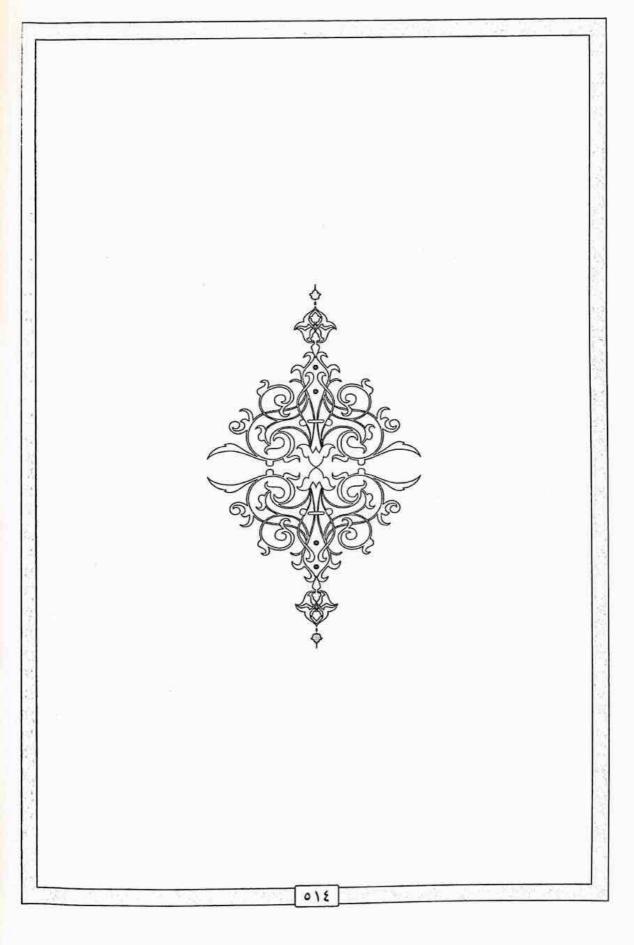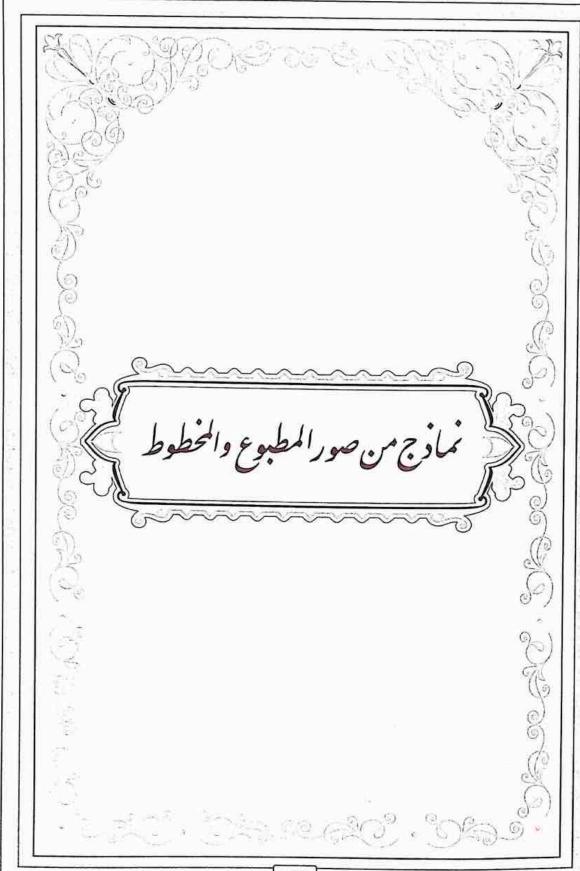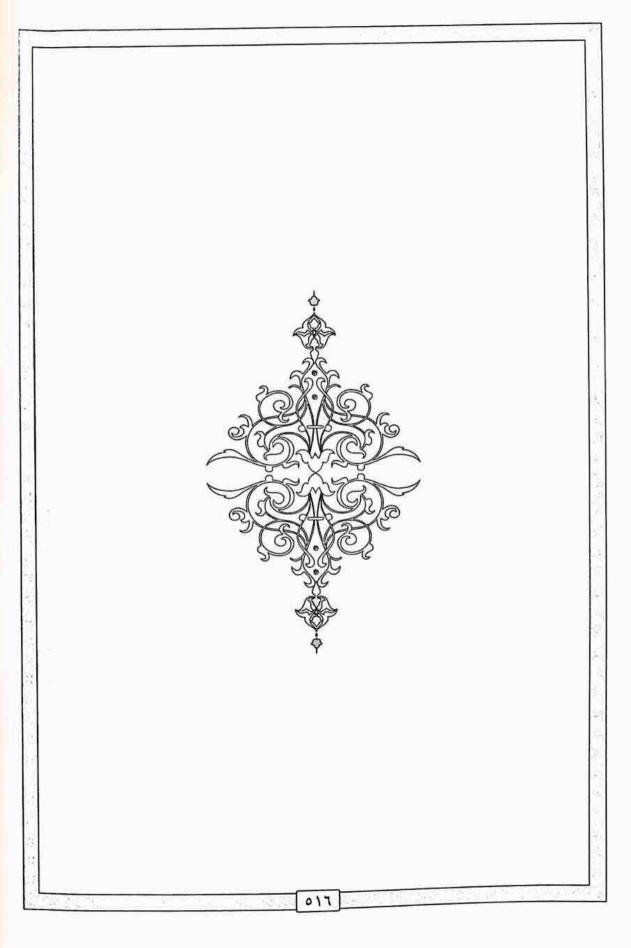
طبع

بمطبعة البهاء تجاه دار الحكومة * فى حلب الشهباء

سنة ١٣٢٨ هجرية

مطبعة البهاء حلب (أ)

عليه السلام وأمر امتك ان يؤمنوا بمحمد ايضاً فوعزتي وجلالي لولا محمد لما خلقت آدم وذريته ولولا محمد لما خلقت الجنة والنار والسماء والارض والعرش والكرسي وجميع مخلوقاتي فعند ذلك قال عيسى عليه السلام يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التورية ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه احمد

وأما معجزاته فمنها انه ولد مختونا وانه لم ير له بول ولا غايط وانه لم يقع له ظل علَى الارض وكان يرى ما وراءه كما يرى ما قدامه وكان يرى في الظلام كما يرى في النور وكان اذا مشي علَى الرمل اوعلى التراب لا يرى له اثر وكان اذا مشي علَى الصخور غاصت قدماه فيها وبقي لهما علامة وما نزل عليه ذباب ولا قمل ولا شيء من الحشرات وانه لم يحتلم في عمره قط وانه كان اذا عزم الى بيت اومكان يسبقه نوره الى ذلك البيت والى ذلك المكان قبل مجيئه وكانوا يعرفون مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجيء النور تم * الكتاب بعون ﴿ الله تعالى وتوفيقه ﴾

*

صحيفه	سطر	خطأ	صواب
١٣	٧	يهوى الى البر والبر يهوى	يهدي الى البر والبر يهدى

***

مطبعة البهاء حلب (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي صرفنا في نعمه وعرفنا من مجده الكامل وكرمه

وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث لبيان حرامه وحلاله

وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين

وبعد فهذا مختصر مشتمل على ثلاثين بابا بهتنبيه السالك

وبخوفه من المهالك وهو جذاب القلوب إلى طريق المحبوب

وموصل إلى المطلوب ونور قلوب العاشقين والمخلصين

نسخة دار الكتب المصرية (ب)

على الرمل او على التراب لا يرى له اثر ۞ والسابعة كان

اذا مشى على الصخور غاصت قدماه فيها وبقى لهما علامة ۞

والثامنة ما نزل عليه ذباب ولا قمل ولا شئ من الحشرات ۞

والتاسعة انه لم يحتلم في عمره قط ۞ والعاشرة

انه كان اذا عزم الى بيت او مكان كان ۞

يسوقه نور الى ذلك البيت والى ذلك ۞

المكان قبل مجيئه وكانوا يعرفون ۞

مجئ رسول الله صلى الله عليه ۞

وسلم من مجئ النور ۞

تمت بعون الله ۞

الملك المنان ۞

نسخة دار الكتب المصرية (ب)

تصوف
عروض
11

رسالة جذب القلوب الى طريق المحبوب

للشيخ شهاب الدين السهروردي

نسخة المكتبة السليمانية تركيا (ج)

هذا رسالة شيخ شهاب الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي صرّفنا في نعمه وعرّفنا
وبجد الكامل وكرمه وصلّى الله على سيّدنا
محمّد المبعوث لبيان حرامه وحلاله و
اصحابه الطيبين الطاهرين صلوات الله
عليهم اجمعين وبعد فهذا مختصر مشتمل
على ثلاثين بابا يهتدى به السالك وينجو به
من المهالك وهو جذاب القلوب الى
طريق المحبوب وموصل الى المطلوب ونور

قلوب

نسخة المكتبة السليمانية تركيا (ج)

جَذْبُ القُلُوبِ
إلَى مُوَاصَلَةِ المَحْبُوبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي صَرَّفَنا في نِعَمِهِ ، وعرَّفَنا مِنْ مَجدِهِ الكاملِ وكَرَمِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سَيِّدِنا محمَّدٍ المبعوثِ لبَيانِ حَرامِهِ وحَلالِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرِينَ ، صلواتُ اللهِ عليهِم أجمعينَ .

وبعد :

فهٰذا مختَصَرٌ مُشتَمِلٌ علىٰ ثَلاثِينَ باباً ، يَهتَدِي بهِ السَّالِكُ ، ويَنجُو بهِ مِنَ المهالِكِ ، وهو جَذَّابُ القلوبِ إلىٰ طريقِ المحبوبِ ، ومُوصِّلٌ إلى المطلوبِ ، ومُنَوِّرُ قُلوبِ العاشِقينَ والمخلِصِينَ .

* * *

الباب الأوّل

في فضل العلم

العِلمُ : إدراكُ حقائقِ الأشياءِ مَقُولاً ومَسمُوعاً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (١) ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ (٢) .

قيلَ في التَّفسيرِ : ما بينَ الدَّرَجَتَينِ مَسِيرةُ سَبعِينَ سَنةً (٣) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَيْرُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ مَعَ ٱلْعِلْمِ ، وَشَرُّ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ مَعَ ٱلْجَهْلِ » (٤) .

فالعِلمُ نورٌ يُفرِّقُ بينَ الإلهامِ والوَسوسَةِ ، ويُسمَّىٰ : حِكمَةً .

والعِلمُ فوقَ العَقلِ ؛ لأنَّ العَقلَ آلةُ العِلمِ وطَريقُهُ ، ولأنَّ العالِمَ لا يكونُ عالِماً إلَّا وهو عاقِلٌ ، والعاقِلُ قدْ يكونُ عاقِلاً بغَيرِ عِلمٍ .

والعقلُ : جَوهرٌ مُضِيءٌ ، خَلَقَهُ اللهُ تعالىٰ في الدِّماغِ ، وجعلَ نُورَهُ في القلبِ ؛ يُدرَكُ بهِ الغَائِباتُ بالوسائِطِ ، والمحسُوساتُ بالمشاهَدةِ (٥) .

---

(١) سورة الزمر : (٩) .

(٢) سورة المجادلة : (١١) .

(٣) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١/٦٥) ، فقال : (من حديث ابن عون ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بين العالم والعابد مئة درجة ، بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة) .

(٤) أخرجه الحرمي في « الفوائد العوالي المنتقاة » (٨) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مطوَّلاً .

(٥) أوجزنا الحديثَ عن مسألةِ محلِّ العقلِ في « الفُتوحاتِ » ، وخالفنا المُصنِّفَ فيما ذهبَ إليه ، فانظره ثَمَّ لتتمَّ المعرفةُ بمَذهبِ السُّهرَوردِيّ في المسألةِ وتكملَ الفائدةُ .

قالَ حَكِيمُ بنُ عبدِ اللهِ : (زِينَةُ الرَّجُلِ الإسلامُ ، وزِينَةُ الإسلامِ العَقلُ ، وزِينَةُ العَقلِ العِلمُ ، وزِينَةُ العِلمِ العَمَلُ ، وزِينَةُ العَملِ الإخلاصُ ، وزِينَةُ الإخلاصِ التَّقوَىٰ ، وزِينَةُ التَّقوَى الإيمانُ) .

فإذا تحقَّقَ الرَّجُلُ بالعِلمِ والعملِ . . فتَحَ اللهُ عليهِ بابَ التَّوحيدِ ، واستَغرَقَ في الأنوارِ ، فإذا ضَاءَتِ الأنوارُ علىٰ جَوارِحِهِ . . تكونُ كلُّ جارحَةٍ منهُ منوَّرةً بنُورٍ مِن أنوارِ العِلمِ والعملِ ، فحِينَئذٍ يَدُلُّ ذٰلكَ علىٰ صَفاءِ التَّوحيدِ ؛ فيَسكُنُ إليهِ التَّوحِيدُ ، ويَنسَىٰ ما دُونَه .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْعِلْمُ حَيَاةُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْعَمَىٰ ، وَنُورُ ٱلْأَبْصَارِ مِنَ ٱلظُّلَمِ ، وَقُوَّةُ ٱلْأَبْدَانِ مِنَ ٱلضَّعْفِ »[1] .

فالتَّفكُّرُ في العِلمِ يُعادَلُ بالصِّيامِ ، ومُدارَستُهُ تُعادَلُ بالقِيامِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَأَلْتُ أَخِي جَبْرَائِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَنِ ٱلْأَعْمَالِ ؛ فَقُلْتُ : أَيُّ ٱلْأَعْمَالِ أَفْضَلُ لِأُمَّتِي ؟ قَالَ : ٱلْعِلْمُ ، قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : ٱلنَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ ٱلْعَالِمِ ، قُلْتُ : ثُمَّ أيٌّ ؟ قَالَ : زِيَارَةُ ٱلْعَالِمِ »[2] .

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « مَنْ دَرَسَ ٱلْعِلْمَ لِلهِ ، وَأَرَادَ بِهِ صَلَاحَ نَفْسِهِ وَصَلَاحَ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يُرِدْ بِهِ غَرَضاً مِنَ ٱلدُّنْيَا . . فَأَنَا كَفِيلُهُ بِٱلْجَنَّةِ »[3] .

قالَ العلماءُ المحقِّقونَ : لا يَصِحُّ العلمُ النَّافعُ إلَّا بالتَّقوىٰ ، ولا تَصِحُّ الطَّاعةُ إلَّا بالإخلاصِ ، ولا يَصِحُّ الفقرُ إلَّا بالقناعةِ ، ولا يَصِحُّ الغِنىٰ إلَّا بالسَّخاءِ ،

---

(١) أخرجه أبو نُعيم في « حلية الأولياء » (١/٢٣٨) ، وابن بشران في « الأمالي » (٩٩٩) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠٢) من حديث سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٢) لم أقف عليه مُسنداً ، وأورده الرازي في « مفاتيح الغيب » (٢/٤٠٩) .

(٣) غريب بهٰذا اللفظ ، وفي معناه ما أخرجه الحاكم في « المستدرك » (١/٨٥) ، من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تعلَّم علماً مما يُبتغىٰ به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا . . لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة » .

ولا تَصِحُّ الإمارةُ إلَّا بالعدلِ ، ولا تَصِحُّ التَّوبةُ إلَّا بالنَّدامةِ ، ولا يَصِحُّ البكاءُ إلَّا بالنَّصيحَةِ .

وقالَ النَّبيُّ صلواتُ اللهِ عليه وسلَامُه : « ٱلْعِلْمُ بِلَا عَمَلٍ وَبَالٌ ، وَٱلْعَمَلُ بِلَا عِلْمٍ مُحَالٌ »[1] .

فالعِلمُ بِلا عملٍ كالغَيمِ بِلا مَطرٍ ، وكالشَّجرِ بِلا ثَمَرٍ .

والعلمُ النَّافعُ مَعرفةُ اللهِ تعالىٰ بِلا كيفٍ ، ثمَّ معرفةُ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ ممَّا لا بدَّ منهُ ؛ فالمعرفةُ الإلـٰهيَّةُ تُوجِبُ مُشاهدَةَ نورِ الجلالِ والجمالِ بِلا رَيبٍ .

ثمَّ العلمُ قدْ يكونُ كَشفِيّاً وكَسبِيّاً ؛ فمَنْ أرادَ العلمَ الكشفِيَّ . . فليَتقِ اللهَ تعالىٰ في السِّرِّ والعلانيةِ ؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2] .

(١) لم أقف عليه مُسنداً ، وأورده السمرقندي في « بستان العارفين » (ص ٣١٣) ، بنحوه ، غير معزوٍّ لقائل .
(٢) سورة البقرة : (٢٨٢) .

الباب الثّاني

في الإيمان

الإيمانُ : إقرارٌ باللِّسانِ ، وتصديقٌ بالجَنانِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾[1] ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ﴾[2] .

فالإيمانُ تصديقٌ باللهِ ، مع إثباتِ التَّوحيدِ لهُ تعالىٰ ، وتصديقٌ بالملائكةِ بالتَّعظيمِ لهُم ، وتصديقٌ بِرُسُلِ اللهِ تعالىٰ بحُسنِ المتابعَةِ لهُم ، وتصديقٌ بكُتُبِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ إنَّها نَزلَتْ مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ ، وتصديقُ ما حلَّلَ اللهُ تعالىٰ وحَرَّمَ فيها ، والدَّوامُ والثَّباتُ علىٰ هٰذا الاعتقادِ إلى المماتِ .

وقيلَ : الإيمانُ أربعةُ أقسامٍ :

فعند أبي حنيفةَ رحمةُ اللهِ عليهِ ، ورضيَ اللهُ عنهُ : إقرارٌ باللِّسانِ ، وتصديقٌ بالجَنانِ[3] .

وعندَ الشَّافعيِّ رحمةُ اللهِ عليهِ : إقرارٌ باللِّسانِ ، وتصديقٌ بالجَنانِ ، وعملٌ بالأركانِ[4] .

---

(١) سورة الحديد : (٧) .

(٢) سورة الصف : (١٠ ـ ١١) .

(٣) انظر « عقيدة الطحاوي » (ص ٢١) ، وهي علىٰ مذهب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه .

(٤) انظر « اعتقاد الشافعي » للهكاري (ص ١٥) ، وفيه : (وأشهد أن الإيمان قول وعمل ومعرفة بالقلب) .

وعندَ مالكٍ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ : إقرارٌ باللِّسانِ ، وتصديقٌ بالجَنانِ ، وعَمَلٌ بالأركانِ ، واتِّباعٌ بالإحسانِ [١] .

فمَنْ تَرَكَ الإقرارَ . . فهو كافرٌ ، ومَنْ تَرَكَ التَّصديقَ . . فهو منافقٌ ، ومَنْ تَرَكَ العملَ . . فهو فاسقٌ ، ومَنْ تَرَكَ الاتِّباعَ . . فهو مُبتدِعٌ [٢] .

ورُوِيَ عن حُذَيفةَ بنِ اليمانِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : ماتَ رجلٌ مِنْ قومِ موسىٰ عليهِ السَّلامُ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . يقولُ اللهُ تعالىٰ لملائكتِهِ : « يَا مَلَائِكَتِي ؛ اُنْظُرُوا : هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي هَـٰذَا حَسَنَةً يَفُوزُ بِهَا ٱلْيَوْمَ ؟ » ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ ما نَجِدُ لهُ ما يفوزُ بهِ اليومَ سِوىٰ أنَّ النقشَ تَنَقَّشَ بهِ ؛ كانَ خاتمُهُ شهادةَ أنْ لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : « أَدْخِلُوا عَبْدِي ٱلْجَنَّةَ ؛ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ بِتِلْكَ ٱلشَّهَادَةِ » [٣] .

(١) روي عنه من طرقٍ : أن الإيمان قول وعمل . انظر « حلية الأولياء » لأبي نعيم (٦/٣٢٧) ، و« الانتقاء » لابن عبد البر (ص ٣٣) .

(٢) قال سفيان : (كَانَ الْفُقَهَاءُ يَقُولُونَ : لَا يَسْتَقِيمُ قَوْلٌ إِلَّا بِعَمَلٍ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ إِلَّا بِنِيَّةٍ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ لِلسُّنَّةِ) . انظر « الإبانة » لابن بطة (١٠٩٨) .

(٣) لم أقف عليه مُسنداً في شيء من دواوين السنة المعتمدة ، وأورده من متأخري المفسرين إسماعيل حقي في « روح البيان » (٦/٣٠٩) ، ولم يعزه لمصدرٍ ، وفيه : (إنَّا لا نجد سِوىٰ أنَّ نَقْشَ خاتمه : لا إلـٰه إلا الله !) .

وحديث البطاقة الشهير يشهد لمعنىٰ ما أورده المصنف ؛ أخرجه الترمذي (٢٦٣٩) وغيره ، وحَسَّنه ، من حديث سيدنا عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلّاً ؛ كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَـٰذَا شَيْئاً ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَىٰ ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ؛ فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ ، فَتخرجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزْنَكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ؛ مَا هَـٰذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَـٰذِهِ السِّجِلَّاتِ ؟! فَقَالَ : إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ » .

الباب الثالث

في الإسلام

الإسلامُ : متابعةُ الشَّريعةِ ، والإعراضُ عنِ الطَّبيعةِ ، والدَّوامُ على ما أتىٰ بهِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ مِن جميعِ ما أمرَ اللهُ بهِ ونَهىٰ عنهُ .

وهو الدِّينُ الخالصُ الَّذي يَجبُ على النَّاسِ أخذُهُ والدِّيانةُ بهِ ، لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (١) ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٢) .

وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ كَانَ مُسْلِماً ، وَبَدَنُهُ فِي عَافِيَةٍ . . فَقَدِ ٱجْتَمَعَ فِيه سَيِّدُ نَعِيمِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ » (٣) .

وعن يحيى بنِ معاذٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « مَكْتُوبٌ عَلَىٰ بَابِ ٱلْجَنَّةِ : بُنِيَ ٱلْإِسْلَامُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ دَعَائِمَ : ٱلتَّوَاضُعُ عِنْدَ ٱلدَّوْلَةِ (٤) ، وَٱلْعَفْوُ عِنْدَ ٱلْقُدْرَةِ ، وَٱلنَّصِيحَةُ عِنْدَ ٱلْعَدَاوَةِ ، وَٱلْعَطِيَّةُ بِغَيْرِ ٱلْمَسْأَلَةِ » (٥) .

---

(١) سورة الحشر : (٧) .

(٢) سورة آل عمران : (٨٥) .

(٣) أورده السمرقندي في « تنبيه الغافلين » (ص ٤٤٥) من قول بكر بن عبد الله المزني .

(٤) الدولة هنا : انقلاب الزمان من حال البؤس والضرّ إلىٰ حال الغبطة والسرور . انظر « تاج العروس » (دول) .

(٥) لم أقف عليه من حديث يحيى بن معاذ مرفوعاً ، وإنما أخرجه ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » (١٢٦/١٨) ، بإسناده إلى الجُنيد قال : (يا بني ؛ إن التصوف علىٰ أربع : . . .) فذكره بلفظه ، مع تقديم وتأخير .

وأخرجه الضياء المقدسي في « المنتقىٰ من مسموعاته بمرو » (٤٤٦) وابن عساكر في « معجم الشيوخ » (٩٦٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بني الإسلام علىٰ خمسٍ : التواضع عند الدولة ، والعفو عند المقدرة ، والسخاوة مع القلة ، والغبطة بغير مِنَّة ، والنصيحة للعامة » .

الباب الرابع

في الإحسان

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (١) ؛ أيْ : هلْ جزاءُ العملِ الصَّالحِ بعدَ التَّوحيدِ ـ وهو قولُ : لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ـ إلَّا الجنَّةُ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلْإِحْسَانُ : أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ تَعَالَىٰ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّهُ يَرَاكَ » (٢) .

وهـٰذا إشارةٌ إلى الخَشيةِ والخُشوعِ في العبادةِ ؛ الَّتي هي سَببٌ للفلاحِ مِنَ العذابِ في الآخرةِ ، وسببُ الدُّخولِ إلى الجنَّةِ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ (٣) .

والخشوعُ : خوفُ القلبِ ، وسكونُ الجوارحِ في طاعةِ اللهِ تعالىٰ .

رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَّهُ رأىٰ رَجُلاً يَعبَثُ بِلِحيتِهِ في الصَّلاةِ فقالَ : « لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ . . لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ » (٤) ؛ فالمرادُ مِنَ الخُشوعِ : حُسنُ الأدبِ معَ اللهِ تعالىٰ في الأفعالِ والأقوالِ .

ورُوِيَ أنَّ عابداً عبدَ اللهَ تعالىٰ أربعينَ عاماً ، فما نامَ مُضطَجِعاً قطُّ في تلك المدَّةِ .

---

(١) سورة الرحمـٰن : (٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه مسلم أيضاً (٨) من حديث سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) سورة المؤمنون : (١ ـ ٢) .

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٨٢٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

فقيلَ لهُ في ذٰلكَ ، قالَ : إنِّي أستَحيي مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ أمُدَّ رِجلَيَّ وأنْ أضطَجِعَ .

وقيلَ : الإحسانُ : هو الإحسانُ إلىٰ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، والشَّفَقَةُ عليهم بِلا مِنَّةٍ .

الباب الخامس

في ذكر الله تعالى

الذِّكرُ : ثَباتُ الفؤادِ بصدقِ الاعتقادِ ؛ وهو ذِكرُ الحيِّ الَّذي لا يموتُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [1] .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَفْضَلُ ٱلذِّكْرِ : لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ » [2] .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَفضَلُ كَلِمَةٍ قَالَها ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ » [3] .

وقيلَ : أفضلُ الأعمالِ بعدَ أداءِ الفرائضِ : ذِكرُ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ كلَّ عَمَلٍ أَمَرَهُ اللهُ تعالىٰ لعبادِهِ مُقدَّراً مُؤقَّتاً إلَّا ذِكرَ اللهِ تعالىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ ، وقال اللهُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [4] ؛ أيْ : يذكرونَ اللهَ تعالىٰ دائماً في كلِّ وقتٍ وعلىٰ كلِّ حالٍ ، لا يَخلُونَ عن ذِكرِ اللهِ تعالىٰ ، فذِكرُ اللهِ تعالىٰ يدلُّ علىٰ مَحبَّةِ اللهِ تعالىٰ ؛ كما قيلَ : مَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثرَ مِنْ ذكرِهِ [5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَيْسَ لِقَوْلِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ جَزَاءٌ إِلَّا ٱلنَّظَرُ إِلَىٰ

---

(١) سورة الأحزاب : (٤١ ـ ٤٢) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) ، وابن ماجه (٣٨٠٠) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، بلفظ : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » .

(٤) سورة آل عمران : (١٩١) .

(٥) هو مَثَلٌ ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » (٣٢٧/٢) .

وَجْهِ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ »[1] ؛ لأنَّ الدُّخولَ إلى الجنَّةِ جزاءُ الأعمالِ الصَّالحةِ المحصورةِ ، وجزاءُ ذِكرِ اللهِ كثيراً هو رُؤيةُ اللهِ تعالىٰ .

وقيلَ : دخولُ الجنَّةِ بفضلِ اللهِ تعالىٰ[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَا مِنْ سَاعَةٍ تَأْتِي عَلَى ٱبْنِ آدَمَ لَا يَذْكُرُ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ فِيهَا . . إِلَّا كَانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَإِنْ دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ »[3] .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ : أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[4] .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ . . بَرِئَ مِنَ ٱلنِّفَاقِ »[5] .

---

(١) لم أقف عليه ، وقد أخرج الحارث بن أبي أسامة في « المسند » (٦٢٢) كما في « بغية الباحث » من حديث سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مطوَّلاً ، وفيه : « ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ الَّذِينَ قَالُوا : لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الله ، وَ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ : الْجَنَّةُ ، وَالزِّيَادَةُ : النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ الله عَزَّ وَجَلَّ » .

(٢) ولا خلاف بين القولين على التحقيق ؛ فقد قال الإمام الغزالي : (معنىٰ كون دخول الجنة بفضل الله : أن يوفقك الله لصالح العمل بفضله ؛ لتكون صالحاً ومتهيئاً لرحمته وفضله ، فيدخلك الجنة) . انظر « مجموعة رسائل الغزالي » (١٦٨/١) .

(٣) أورده أبو طالب المكي في « قوت القلوب » (١٨٧/١) ، ويشهد لمعناه ما أخرجه أبو داوود (٤٨٥٥) من حديث سيدنا أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومونَ مِنْ مجلسٍ لا يذكرون اللهَ فيهِ . . إلا قاموا عن مثل جيفةِ حِمَارٍ ، وكانَ لهم حسرةً » .

(٤) أخرجه أبو عُبيد القاسم بن سلّام في « الخطب والمواعظ » (٤١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢٣١) ، وأحمد في « الزهد » (٣٥٤) من طريق كعبٍ قال : (قال موسىٰ : أي رب ؛ أقريب أنت فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ قال : يا موسىٰ ؛ أنا جليس من ذكرني) ، فليس هو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٥) أخرجه الطبراني في « المعجم الأوسط » (٦٩٣١) ، وابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (١٦١) ، وأبو نُعيم الأصبهاني في « صفة النفاق ونعت المنافقين » (١٧٠) وغيرهم ، من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي ذرّ : « جُلُوسُكَ سَاعَةً عِنْدَ حَلْقَةٍ يَذْكُرُونَ ٱللهَ تَعَالَىٰ فِيهَا . . خَيْرٌ لَكَ مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ سَنَةٍ »[١] .

فالمؤمنُ إذا جَلَسَ عندَ قومٍ يَذكُرونَ اللهَ تعالىٰ . . فتحَ اللهُ عليهِ أبوابَ الرَّحمةِ ، ولا يقومُ حتَّىٰ يَغفِرَ اللهُ تعالىٰ لهُ ، ثمَّ يُنادِي مُنادٍ : لا تَتفرَّقُوا ، واستَأنِفُوا العملَ ؛ فقدْ غفرتُ لكمُ الذُّنوبَ .

قالَ العارفونَ : الذِّكرُ ذِكرانِ ؛ ذِكرُ الجَنانِ ، وذِكرُ اللِّسانِ ؛ فذِكرُ اللِّسانِ بِلا ذِكرِ الجَنانِ : غفلةٌ ونِسيانٌ ، وذِكرُ الجَنانِ بِلا ذِكرِ اللِّسانِ : تَوحِيدٌ وإيمانٌ ، وذِكرُ الجَنانِ مع ذِكرِ اللِّسانِ : تَعبُّدٌ وإحسانٌ .

وقيلَ : الذِّكرُ وسيلةُ الحياةِ الأبديَّةِ ، وزادُ الحبيبِ في طريقِ المحبوبِ .

وقيلَ : الذِّكرُ شِعارُ أهلِ المعرفةِ ، والشُّكرُ شِعارُ أهلِ العبادةِ .

وقيلَ : لكلِّ قومٍ عقوبةٌ ، وعقوبةُ العارفينَ انقطاعُهُم عنِ الذِّكرِ .

ورُوِيَ : أنَّ مَنِ ادَّعىٰ حلاوةَ الذِّكرِ مع حُبِّ الدُّنيا . . لا يُصدَّقُ .

ورُوِيَ : أنَّ ثلاثةَ أشياءَ تُحيِي القلبَ : العلمُ مع العملِ ، والعملُ مع الإخلاصِ ، والذِّكرُ مع الاعتقادِ .

وثلاثةُ أشياءَ تُمِيتُ القلبَ : الجهلُ ، والمعصِيةُ ، وتركُ الذِّكرِ .

وقيلَ : إذا انفَتحَ على القلبِ بابُ الذِّكرِ ومعرفةِ اللهِ تعالىٰ . . تخلَّصَ مِنْ نِيرانِ الآفاتِ والحَسراتِ[٢] ، واستَغرقَ بمُعاونَةِ أهلِ السَّماءِ والأرضِ .

قالَ العلماءُ المحقِّقونَ : أعقَلُ أهلِ الإيمانِ : مَنْ كانَ فيهِ أربعُ خصالٍ :

---

(١) لم أقف عليه في شيء من دواوين السنة المعتمدة ، وأورده من متأخري المفسرين إسماعيل حقي في « روح البيان » (١٨٦/٥) ، وعزاه لمجالس حضرة الهدائي .

(٢) في الأصولِ الثَّلاثةِ : (الحشراتِ) بشِينٍ مُعجمةٍ ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ . واللهُ تعالىٰ أعلم .

العملُ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، والرِّضاءُ بقَسْمِ اللهِ تعالىٰ ، ومصاحبةُ رجالِ اللهِ تعالىٰ ، والأُنسُ بذكرِ اللهِ تعالىٰ .

وقيلَ : يَنبغي للمُؤمنِ ثلاثُ خصالٍ : قِلَّةُ الأكلِ لِاختيارِ الصَّومِ ، وقِلَّةُ النَّومِ لِاختيارِ صلاةِ اللَّيلِ ، وقِلَّةُ الكلامِ لِاختيارِ الذِّكرِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يُهَوِّنَ ٱللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ ٱلْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ . . فَلْيَكُنْ لِلهِ تَعَالىٰ قَائِماً سَاجِداً فِي سَوَادِ ٱللَّيْلِ »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِٱللَّيْلِ . . حَسُنَ وَجْهُهُ بِٱلنَّهَارِ »[2] ؛ يعني : يُحِبُّهُ كلُّ مَنْ يراهُ مِنَ الخلقِ .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « ٱلذَّاكِرُ فِي ٱلْغَافِلِينَ كَٱلْمُبَارِزِينَ ٱلْغُزَاةِ وَٱلْمُقَاتِلِينَ »[3] .

وقالَ أهلُ التَّحقيقِ : يحتاجُ الذَّاكِرُ إلىٰ أربعِ خصالٍ : تصديقٌ ، وتعظيمٌ ، وحَلاوةٌ ، وحُرمةٌ ؛ فمَنْ لمْ يكُنْ لهُ تصديقٌ . . فهو منافقٌ ، ومَنْ لمْ يكُنْ لهُ

---

(١) ذكره ابن عطية في « المحرر الوجيز » (٥٢٣/٤) ، عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً .

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣) من حديث سيدنا جابرٍ رضي الله عنه .

وهٰذا الحديث اتفق المحدثون علىٰ أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال الخطيب البغدادي في « الفصل للوصل المدرج في النقل » (ص ٢٧) : (هٰذا قول شريك قاله في عقب حديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر : « يعقد الشيطان علىٰ قافية رأس أحدكم ثلاث عقد . . . » فأدرجه ثابت في الخبر ، وجعل قول شريك من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سرق هٰذا جماعة من الضعفاء من ثابت وحدثوا به عن شريك) .

(٣) أخرجه الحسن بن عرفة في « جزء من حديثه » (٤٥) وابن شاهين في « الترغيب في فضائل الأعمال » (١٦٨) وابن عساكر في « فضيلة ذكر الله » (٨) من حديث سيدنا عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاكر الله في الغافلين مثل الذي يقاتل عن الفارين . . . » الحديث .

وأخرجه البزار في « المسند » (١٧٥٩) والطبراني في « المعجم الكبير » (١٦/١٠) (٩٧٩٧) من حديث سيدنا ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل في الفارين » .

تعظيمٌ . . فهو مُبتدِعٌ ، ومَنْ لمْ يكُنْ لهُ حلاوةٌ . . فهو مُراءٍ ، ومَنْ لمْ يكُنْ لهُ حُرمةٌ . . فهو فاسقٌ .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ رحمةُ اللهِ عليهِ : ما أعرفُ مصيبةً أقبَحَ مِنْ نِسيانِ الذِّكرِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[1] .

* * *

(1) سورة الحشر : (١٩) .

الباب السادس

في الشكر

الشُّكرُ : الإعترافُ بالعَطيَّةِ ، والإنصرافُ بالخطيَّةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (١) ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٢) .

قالَ أبو عثمانَ رحمةُ اللهِ عليهِ : (الشُّكرُ معرفةُ العجزِ عنِ الشُّكرِ) (٣) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « مَنْ عَجَزَ عَنِ ٱلشُّكْرِ . . فَقَدْ أَدَّى ٱلشُّكْرَ » (٤) .

وقيلَ : حقيقةُ الشُّكرِ ألَّا ترىٰ نفسَكَ أهلاً للنِّعمَةِ ، وترى النِّعمةَ عليكَ مِن فضلِ اللهِ تعالىٰ ، لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (٥) .

ويُقالُ : الشَّاكرُ هو الَّذي يَشكُرُ على النَّعماءِ ، والشَّكورُ : هو الَّذي يَشكُرُ على البلاءِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أَحَقُّ ٱلنَّاسِ بِٱلنِّعْمَةِ أَشْكَرُهُمْ لَهَا ؛ فَنِعْمَةٌ لَا تُشْكَرُ خَطِيئَةٌ لَا تُغْفَرُ » (٦) .

---

(١) سورة إبراهيم : (٧) .

(٢) سورة النحل : (١١٤) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٢٦) .

(٤) لم أقف عليه في شيء من دواوين السُّنَّة المعتمدة ، وفي معناه ما أخرجه أحمد في « الزهد » (٣٤٩) من طريق أبي الجَلْدِ قَالَ : قَالَ مُوسَىٰ : إِلَـٰهِي ؛ كَيْفَ أَشْكُرُكَ وَأَصْغَرُ نِعْمَةٍ وَضَعْتَهَا عِنْدِي مِنْ نِعَمِكَ لَا يُجَازِي بِهَا عَمَلِي كُلُّهُ ؟ قَالَ : فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنْ : يَا مُوسَى ؛ الآنَ شَكَرْتَنِي .

(٥) سورة النحل : (٥٣) .

(٦) لم أقف عليه مُسنَداً في شيء من دواوين السُّنَّة المعتمدة ، وأورده أبو سعيد الخادمي (ت ١١٥٦ هـ) ←

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا أَنْعَمَ ٱللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً ، فَعَرَفَ أَنَّهَا مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ . . فَقَدْ أَدَّىٰ شُكْرَهَا قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَهُ »(١) .

وعن أميرِ المؤمنينَ عليٍّ رضي الله عنه ، أنَّهُ سألَ بعضَ أصحابِهِ قالَ لهُ : كيفَ أصبحْتَ ؟ قالَ : أَصبَحتُ وبي نِعَمٌ لا تُحصىٰ ولا تُعدُّ ، فلَا أَدري أيَّ نعمةٍ أشكرُ ؛ أَقَبِيحاً سَتَرَ ، أم جميلاً نَشَرَ ؟(٢) .

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَّهُ قالَ : « ٱلْمُطْعَمُ ٱلشَّاكِرُ عِنْدَ ٱللهِ تَعَالَىٰ بِمَنْزِلَةِ ٱلصَّائِمِ ٱلصَّابِرِ »(٣) .

وقالَ : « شُكْرُ ٱلْمُنعِمِ عَلَى ٱلْمُنعَمِ عَلَيْهِ وَاجِبٌ »(٤) .

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱلشُّكْرُ عَلَى ٱلنِّعْمَةِ أَمَانٌ مِنْ زَوَالِهَا »(٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ تَزْدَادَ نِعَمُ ٱللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ . . فَلْيَلْزَمِ ٱلشُّكْرَ »(٦) .

← في « بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية » (٨١/٣) عن الحسن مرفوعاً مُعلَّقاً ، وأورده أيضاً النوري (ت ١٣٢٠ هـ) من علماء الشيعة في « مستدرك الوسائل » (٣٦٩/١٢) ، فقال : (القطب الراوندي في « لب اللباب » : عن النبي صلى الله عليه وسلم . . . فذكره) .

(١) أخرجه يعقوب بن سفيان الفسوي في « المشيخة » (٢٠) ، وابن أبي الدنيا في « الشكر » (٤٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٥١٤/١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، بنحوه .

(٢) لم أقف عليه عن سيدنا عليّ رضي الله عنه ، وأخرجه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٨٥) من قول ذي النون بنحوه ، وأخرجه الخطيب في « تاريخ مدينة السلام » (٣٤٥/١١) من طريق عبد الله بن خُبيق يقول : كتب حكيم إلىٰ حكيم . . . ، فذكره بنحوه .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٨٦) ، وابن ماجه (١٧٦٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، بنحوه .

(٤) لم أقف علىٰ حديث في هٰذا المعنىٰ ، وقد اتفق أهل السنة علىٰ وجوب شكر المنعم شرعاً ، وقال المعتزلة : عقلاً . انظر « الإحكام في أصول الأحكام » للآمدي (٨٧/١) .

(٥) أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » كما في « فردوس الأخبار » (١٥٥/٢) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ؛ بلفظ : « الحمد على النعمة أمان لزوالها » .

(٦) لم أقف عليه مُسنَداً في شيء من دواوين السُّنَّة المعتمدة ، وهٰذا المعنىٰ ثابت في الكتاب العزيز .

وسُئلَ بعضُ أهلِ المعرفةِ عنِ الحمدِ ؛ فقالَ : الحمدُ مقسومٌ على سِتَّةِ أقسامٍ : على اللِّسانِ ، والنَّفسِ ، والرُّوحِ ، والقلبِ ، والعقلِ ، والمعرفةِ .

فحَمدُ اللِّسانِ : الذِّكرُ والثَّناءُ .

وحمدُ النَّفسِ : الجُهدُ والعَناءُ .

وحمدُ الرُّوحِ : الخوفُ والرَّجاءُ .

وحمدُ القلبِ : الصِّدقُ والوفاءُ .

وحمدُ العقلِ : التَّعظيمُ والحياءُ .

وحمدُ المعرفةِ : التَّسليمُ والرِّضاءُ .

وعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : (حقيقةُ الشُّكرِ للهِ تعالىٰ أنْ تُطِيعَهُ بجميعِ جوارِحِكَ في السِّرِّ والعلانيَةِ) [١] .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شُكْرُ ٱلْعَيْنِ : ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْمَحَارِمِ ، وَشُكْرُ ٱلسَّمْعِ : ٱلْإِعْرَاضُ عَنِ ٱسْتِمَاعِ ٱللَّهْوِ وَٱللَّغْوِ ، وَشُكْرُ ٱللِّسَانِ : ٱلذِّكْرُ وَٱلتَّسْبِيحُ ، وَشُكْرُ ٱلْيَدَيْنِ : ٱلصَّدَقَةُ وَٱلْمُعَاوَنَةُ ، وَشُكْرُ ٱلرِّجْلَيْنِ : ٱلْمَشْيُ إِلَى ٱلطَّاعَاتِ ، وَشُكْرُ ٱلْقَلْبِ : ٱلْإِيمَانُ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ ، وَٱلْمَحَبَّةُ لَهُمَا » [٢] .

* * *

---

(١) أورده الثعلبي في « الكشف والبيان » (١/١٩٥) ، بنحوه .

(٢) لم أقف عليه مُسنَداً في شيء من دواوين السُّنَّة المعتمدة .

الباب السابع

في الاستقامة

الاستقامَةُ : مُتابعةُ الصِّراطِ المستقيمِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ لرسولِهِ محمَّدٍ عليهِ السَّلامُ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[1] .

يعني : استَقِمْ على التَّوحيدِ ، والعملِ بالقرآنِ المجيدِ ، والتَّوكُّلِ على الرَّبِّ الحميدِ .

قالَ عالمُ بنُ عبدِ اللهِ رحمةُ اللهِ عليهِ : الاستقامةُ الخوفُ مِنَ العزيزِ الجبَّارِ ، والحبُّ للنَّبيِّ المُختارِ ، والحياءُ مِنَ الملائكةِ الحُضَّارِ[2] .

وقيلَ : الاستقامةُ علىٰ خمسةِ أوجُهٍ : استقامةُ اللِّسانِ على الذِّكرِ والثَّناءِ ، واستقامةُ النَّفسِ على الطَّاعةِ والحياءِ ، واستقامةُ القلبِ على الخوفِ والرَّجاءِ ، واستقامةُ الرُّوحِ على الصِّدقِ والصَّفاءِ ، واستقامةُ السِّرِّ على التَّعظيمِ والوفاءِ .

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لِسَانُهُ حَتَّىٰ يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ »[3] ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾[4] ؛ أي : استقامُوا فِعلاً كما استَقاموا قولاً .

ورُوِيَ أنَّ سُفيانَ بنَ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) سورة هود : (١١٢) .

(٢) لم أقف علىٰ هٰذا القول ولا علىٰ قائله .

(٣) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢٧/١٠) (١٠٥٥٣) بنحوه .

(٤) سورة فصلت : (٣٠) .

وسلَّمَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أَخبِرني بأمرٍ أعتَصِمُ بهِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قُلْ : رَبِّيَ ٱللَّهُ ، ثُمَّ ٱسْتَقِمْ »(١) ؛ أي : أخلِصِ العملَ في السِّرِّ والعلانيةِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٠) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) من حديث سيدنا سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه بلفظه ، والحديث أخرجه مسلم (٣٨) من حديثه أيضاً بلفظ : « قل : آمنت بالله ، فاستقم » .

الباب الثامن

في التّقوىٰ

التَّقوى : الِاحتماءُ عن مَساخِطِ المولىٰ ، والتَّحرُّزُ عنِ المخاوِفِ ، والتَّشمِيرُ للوظائفِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [1] ؛ أي : اخشونِي ، فالتَّقوىٰ : حِفظُ النَّفسِ عمَّا يُؤثِمُها .

ثمَّ اتَّفقَ العلماءُ علىٰ أنَّ التَّقوىٰ : هو الِاقتداءُ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قولاً وفعلاً ، ظاهراً وباطناً .

فالقولُ : التَّمسُّكُ بقولِهِ .

والفِعلُ : مُتابعتُه في أفعالِهِ .

والظَّاهرُ : محافظةُ الحدودِ .

والباطنُ : الخوفُ والإخلاصُ .

قيلَ : مَنْ لمْ يكُنْ لهُ تقوَىٰ . . لمْ يَتقبَّلِ اللهُ تعالىٰ عملَهُ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [2] .

فعلَامةُ المتَّقِي : أنَّهُ إذا قالَ . . قالَ للهِ ، وإذا عمِلَ . . عمِلَ للهِ ، ونَزَعَ مِن قلبِهِ حُبَّ الشَّهَواتِ ، ولمْ يَخلُ عن ذكرِ اللهِ تعالىٰ ؛ ليطمَئنَّ قلبُهُ في التَّوحيدِ والتَّقوىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [3] .

وقيلَ : مَنْ أرادَ أنْ يكونَ عندَ اللهِ عزيزاً مُكرَّماً . . فليتَّقِ اللهَ تعالىٰ في أقوالِهِ

---

(١) سورة البقرة : (٤١) .

(٢) سورة المائدة : (٢٧) .

(٣) سورة الرعد : (٢٨) .

وأفعالِهِ سِرّاً وعلانيةً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [1] ؛ أي : أَخوَفُكُم مِنَ اللهِ تعالىٰ .

قالَ أهلُ المعرفَةِ : إذا أردتَ أنْ تَعرِفَ مَقامَكَ عندَ اللهِ . . فانظُر فيما أقامَك ، فعندَ ذٰلكَ تَعرِفُ مقامَكَ [2] .

* * *

---

(١) سورة الحجرات : (١٣) .

(٢) حكمةٌ قِيلت ثمَّ اشتَهرت فيما بعدُ عنِ الإمام العارفِ باللهِ الحكيمِ ابنِ عَطاءِ اللهِ السَّكندري رحمه اللهُ تعالىٰ (ت ٧٠٩ هـ) في « حِكَمِه » حيثُ يقولُ : (إذا أردتَ أن تَعرِفَ عند اللهِ مَقامَك . . فانظر فِيما أقامَك) ، وهي من دُررِ القولِ ونفيسِه فدونَك لا يفُتك فَهمُها .
وفي حاشيةِ أصلٍ : (ج) قال النَّاسخُ : (اعلم : أنَّ شروطَ التَّوبةِ عند أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ ثلاثةٌ : الأوَّلُ : النَّدمُ علىٰ ما سَلَفَ مِنَ الذُّنوبِ ، والثَّاني : التَّركُ في الحالِ ، والثَّالثُ : ألَّا يعودَ لمِثلِ ذٰلك في المستقبلِ . « في مشكاةِ الأنوارِ ») .
ولستُ أرَىٰ لذِكرِ هٰذا الكلامِ مناسبةً قويَّةً هنا ، إلَّا ما كان مِن عادةِ النُّسَّاخِ وأهلِ العلمِ قديماً أنَّه كيفما جادتِ القريحةُ حينَها . . فيُعلِّقُونَ بما لا يخلو مِن فائدةٍ ، واللهُ تعالىٰ أعلم .

الباب التاسع

في الصّدق

الصِّدقُ : سلوكُ النَّهجِ ، وتركُ العِوَجِ .

وقيل : الصِّدقُ : تركُ الفُضولِ مِنَ القولِ والفعلِ والحالِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عَلَيْكُمْ بِٱلصِّدْقِ ؛ فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَى ٱلْبِرِّ ، وَٱلْبِرُّ يَهْدِي إِلَى ٱلْجَنَّةِ »[١] .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صَدَقَ . . نَجَا »[٢] .

رُوِيَ أنَّ قاتِلاً قتلَ رجُلاً ، ثمَّ دخلَ علىٰ أبي الحَجَّاجِ الأقصريِّ رحمةُ اللهِ عليهِ هارباً[٣] ، قالَ لهُ : أجِرني ، قالَ أبو الحجَّاجِ : انزلْ إلى الجُورَةِ[٤] بينَ فخِذَيَّ ، وكانَ أبو الحجَّاجِ حائكاً ، وكانَ لحانوتِهِ بابانِ فدخلَ عليهِ أناسٌ ، وقالوا : أينَ الرَّجُلُ الَّذي دخَلَ عليكَ ؟ قالَ : في الجُورةِ بينَ فخِذَيَّ ، قالوا : أتستَهزِئُ بنا ؟! ثمَّ ذهبوا ، فقالَ القاتلُ : أتيتُكَ لتُجِرني ، فدلَّيتَ عليَّ ! قالَ أبو الحجَّاجِ : لو كَذَبتُ . . لوجَدوكَ وقَتلوكَ ، فما نجَّاكَ اللهُ تعالىٰ إلَّا بصِدقِي .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، بنحوه .

(٢) أخرجه الطبراني في « الدعاء » (١٩٦) من حديث سيدنا ابن أبي أوفىٰ رضي الله عنه ، وفيه : « من صدق الله . . نجا » .

(٣) انظر ما تقدم (ص ٥١٢) .

(٤) الجُورة : الجوار ، الجُورة : الحفرة والنقرة . ينظر مادة (ج و ر) في « تكملة المعاجم العربية » (٣٣٣/٢) ، و« معجم متن اللغة » (٥٩٩/١) .

الباب العاشر

في اليقين

اليقينُ : نقِيضُ الشَّكِّ ، أو إزالةُ الشَّكِّ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (١) ؛ أي : يَعلَمونَ ويَعتقِدونَ الآخرةَ بِلا شَكٍّ ولا شُبهةٍ ؛ فلا يَمِيلونَ إلى الدُّنيا بالمحبَّةِ ، ولا يَغفُلونَ عن طَلَبِ الآخرةِ ، ولا يَعمَلونَ عملاً يُعاتَبونَ أو يُعاقَبونَ عليهِ يومَ القِيامةِ .

وقالَ أبو عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ : (اليقينُ : تركُ الِاهتمامِ لغدٍ ، وهو شُعبةٌ مِنَ الإيمانِ) (٢) .

وقيلَ : اليقينُ علىٰ ثلاثةِ أضرُبٍ :

علمُ اليقينِ : وهو علمُ كلِّ عاقلٍ بالموتِ ، فيَستَعِدُّ لهُ قبلَ نُزولِهِ .

وعينُ اليقينِ : وهو مُعايَنتُهُ الملائكةَ عندَ الموتِ .

وحقُّ اليقينِ : وهو ذَوقُ شَرابِ الموتِ .

وثمَرةُ اليقينِ : الِاستعدادُ للآخرةِ ، وعلامةُ اليقينِ : تركُ الدُّنيا قبلَ الِارتحالِ عنها ؛ أي : مِنَ الدُّنيا ، وحصولُ اليقينِ : طلبُ الآخرةِ قبلَ القُدومِ إليها ، والِاستعدادُ للموتِ قبلَ نُزولِهِ ، وإرضاءُ الرَّبِّ قبلَ لقائِهِ ، والإيقانُ : علمٌ بِلا شكٍّ .

---

(١) سورة البقرة : (٤) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٣٢) .

الباب الحادي عشر

في الحلم

قالَ بعضُ المتكلّمِينَ : الحِلمُ : زِينةُ الرَّجُلِ ، والعِلمُ : غُنيَتُهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[1] ؛ أيْ : غيرُ عَجولٍ على المُسيءِ ، أوّاهٌ : مُتأوِّهٌ إذا ذَكَرَ اللهَ تعالىٰ ، مُنِيبٌ ؛ أي : رجّاعٌ إلى اللهِ تعالىٰ بالتَّوبةِ والاستغفارِ ؛ ولهٰذا قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَغْنِنِي بِٱلْعِلْمِ ، وَزَيِّنِّي بِٱلْحِلْمِ »[2] .

وقالَ النَّبيُّ عليهِ السَّلامُ : « إِنَّ ٱلْمَرْءَ لَيُدْرِكُ بِٱلْحِلْمِ دَرَجَةَ ٱلصَّائِمِ ٱلْقَائِمِ »[3] .

ورُوِيَ أنَّهُ قيلَ للحسنِ البصريِّ : إنَّ فُلَاناً يَستَغِيبُك ، قالَ : دَعُوهُ بفِعلِهِ ، ثمَّ أرسلَ إليهِ أربعينَ دِرهماً وطَبَقاً حُلْواً ، وقالَ لهُ : سَمِعتُ أنَّكَ تقولُ كذا وكذا ؛ فإن تَرَكتَ . . فاترُك ، وإن زِدتَ . . فَزِد[4] .

وحُكِيَ أنَّ رجُلاً شتَمَ الأحنفَ بنَ قيسٍ وهو يَمشي في الطَّريقِ ، فلمَّا قَرُبَ إلى الحيِّ . . قالَ للشَّاتِمِ : إنْ كانَ بَقِيَ في قَلبِكَ شيءٌ . . فقُل ؛ كَي لَا يَسمَعَ بعضُ سُفهاءِ الحيِّ فيُؤذوكَ[5] .

---

(١) سورة هود : (٧٥) .

(٢) أخرجه الشجري في « الأمالي الخميسية » (٢٣٠) من حديث سيدنا عليّ رضي الله عنه ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٣٢٤/٢) من حديث سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وابن أبي الدنيا في « الحلم » (٢٠) من طريق ابن عيينة مرسلاً .

(٣) أخرجه المعافى بن عمران في « الزهد » (١٠٣) ، وابن أبي الدنيا في « الحلم » (٨) من حديث سيدنا عليّ رضي الله عنه .

(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٤٠١) قال : (قيل للحسن البصري : إن فلانا اغتابك ، فبعث إليه طبق حلواء ، وقال : بلغني أنك أهديت إلي حسناتك ، فكافأتك) .

(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥٣١) ، وفيه : (فيجيبوك) مكان (فيؤذوك) .

ويقالُ : الحِلمُ : تركُ الِانتقامِ مِنَ المُسيءِ [1] .

٭ ٭ ٭

(١) قال الجاحظ في « تهذيب الأخلاق » (ص ٢٣) : (الحلم : ترك الانتقام عند شدَّة الغضب مع القدرة على ذٰلك) .

وقال ابن مسكويه في « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » (ص ٣٠) : (أما الحلم : فهو فضيلة للنفس تُكسبها الطمأنينة ، فلا تكون شغبة ، ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة) .

الباب الثاني عشر

في حُسْنِ الخُلُق

الخلقُ : كَفُّ الأذيَّةِ ، وحَمْلُ البَلِيَّةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ لرسولِه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ، وهو تَحمُّلُ الأذَىٰ ، والعفوُ عنِ المسيئينَ .

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنهُ قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ المؤمنينَ أفضلُ إيماناً ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً »[2] .

وحُكِيَ أنَّهُ كانَ لرجُلٍ مِنَ الصَّالحينَ عبدٌ سيِّئُ الخُلُقِ ، فقيلَ لهُ : بِعْ هٰذا العبدَ واشترِ غيرَهُ ؛ فإنَّهُ يُؤذِيكَ ، فقالَ : إنِّي أتعلَّمُ منهُ حُسنَ الخُلُقِ ، وإذا فَرغتُ مِنَ التَّعلُّمِ . . أبيعُه ؛ لأنَّ مَنْ يَتحمَّلُ أذَىٰ عبدِهِ قدْ يَتحمَّلُ أذَىٰ غيرِهِ[3] .

وسُئلَ أبو جعفرٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : ما أفضلُ الأعمالِ بعدَ أداءِ الفرائضِ ؟ قالَ : الخُلُقُ الحسَنُ .

* * *

---

(١) سورة القلم : (٤) .

(٢) أخرجه البزار في « المسند » (٧٤٤٥) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٤١٦٦) بلفظ : « أَكْمَلُ النَّاسِ إيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً » .

(٣) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٥٣٣) .

الباب الثالث عشر

في الكذب

الكَذِبُ : قولٌ قبيحٌ عارٍ عن صِفَةِ المنفَعَةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[1] .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِيَّاكُمْ وَٱلْكَذِبَ ؛ فَإِنَّهُ يَهْدِي[2] إِلَى ٱلْفُجُورِ ، وَٱلْفُجُورُ يَهْدِي إِلَى ٱلنَّارِ »[3] .

وقيلَ : أربعةُ أفعالٍ تَنقُضُ الوضوءَ عندَ العارفينَ : الكَذِبُ ، والغِيبَةُ ، والنَّمِيمةُ ، وأذَى المسلمِ بغيرِ حقٍّ .

ورُوِيَ أنَّ رجلاً جاءَ إلى النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ ، قالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ بُلِيتُ بثلاثِ خِصالٍ مِنَ المعاصِي فَلَا أصبرُ عنهنَّ : الكذبُ ، والزِّنا ، وشُربُ الخمرِ ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أَمَّا ٱلْكَذِبُ . . فَدَعْهُ » ، فقامَ الرَّجُلُ وذهبَ إلىٰ سبيلِهِ ، فاستَقبَلَهُ الزِّنا ، فقالَ في نفسِهِ : إنِ ارتكبتُ الزِّنا ثمَّ سألنِي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : هل زَنَيتَ ؟ إنْ قلتُ : نعمْ . . ضَرَبَني الحدَّ ، وإنْ قلتُ : لا . . فقد نَقَضتُ العهدَ ؛ فتَرَكَ الزِّنا ، ثمَّ استَقبَلَهُ شُربُ الخمرِ ، فتأمَّلَ في نفسِهِ ، وقالَ مِثلَ ما قالَ في الأُولىٰ ، فعَلِمَ أنَّ الكذبَ أعظمُ المصائبِ[4] .

* * *

---

(١) سورة البقرة : (١٠) .

(٢) في الأصولِ الثَّلاثةِ : (يَهوي) ، والمثبتُ هو الصوابُ الموافق للفظ الحديث .

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (١٠٥/٢٦٠٧) من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٤) لم أقف عليه في شيء من دواوين السنة المعتمدة ، وأورده بنحوه جماعة من الأدباء كالجاحظ في « المحاسن والأضداد » (ص ٢٩) ، وابن المبرد في « الكامل » (١٥٦/٢) ، وإبراهيم البيهقي في « المحاسن والمساوئ » (ص ١٧٠) ، والزمخشري في « ربيع الأبرار » (٣٣٩/٤ ـ ٣٤٠) ، وابن حمدون في « التذكرة الحمدونية » (٤٩/٣) .

الباب الرّابع عشر

في الصّمت

الصَّمتُ : سُقوطُ النُّطقِ لظهورِ الحقِّ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (١) .

وكلُّ قولٍ وفعلٍ لا يَليقُ بالشَّرعِ فهو لَغوٌ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . . فَلْيُكْرِم ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . . فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . . فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ » (٢) .

وقالَ الأستاذُ أبو عليٍّ : (السَّاكتُ عنِ الحقِّ شيطانٌ أخرَسُ) (٣) .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « ٱلْعِبَادَةُ عَشْرَةُ أَقْسَامٍ : تِسْعَةٌ فِي ٱلصَّمْتِ ، وَوَاحِدٌ فِي ٱلْفِرَارِ مِنَ ٱلنَّاسِ » (٤) .

---

(١) سورة المؤمنون : (٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨) ومسلم (٤٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) يَنمِيه بعضُهم إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وليس كذلك ، بل هو مِنَ القولِ المشهورِ المكرورِ الدَّائرِ علىٰ ألسُنِ مَن يَنسِبونَ أنفسَهم إلى الحقلِ الثَّقافيِّ ، ويَصِفونَ أنفسَهم بالنُّخبةِ ، ويدَّعونَ التَّميزَ العِلميَّ ! وقد سَمِعناه في غيرِ مَحفلٍ مِن عُلماءَ وفُضلاءَ ! كلُّهم يرفَعُه إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بصيغةِ الجزمِ ! والأعجبُ مِن هٰذا كلِّه : أنَّ هٰذا القولَ ليس له ذِكرٌ في كُتُبِ الموضوعاتِ والمصنوعاتِ فضلاً عن أن يكونَ في الصِّحاحِ والمسانيدِ المرفوعاتِ ؛ ليَهِمَ فيه الأصيلُ والدَّخيلُ على السَّواءِ ! فما هو إذاً إلَّا توارُدٌ علىٰ خطأ ، وإن كان هٰذا القولُ نطقَ به غيرُ واحدٍ مِن سَلفِنا الصَّالحِ ؛ ممَّا يصعبُ توثيقُ نسبتِه لقائلِه علىٰ وجهِ التَّعيينِ ؛ إلَّا أنَّني أكادُ أجزمُ أن يكونَ للأستاذِ أبي عليٍّ الدَّقاقِ ؛ كما عزا ذلك إليه زَينُ الإسلامِ أبو القاسمِ القُشيريُّ رحمةُ اللهِ عليه ، حيثُ وقفتُ علىٰ نصٍّ له في « الرِّسالةِ » يقولُ فيه : (السُّكوتُ في وقتِه صِفةُ الرِّجالِ ؛ كما أنَّ النُّطقَ في مَوضِعِه مِن أشرفِ الخِصالِ ، سمعتُ الأستاذَ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمةُ اللهِ عليه يقول : مَن سكتَ عنِ الحقِّ . . فهو شيطانٌ أخرسُ) . والله تعالىٰ أعلم . « الرِّسالةُ القُشيريَّةُ » (ص ٣٤١) .

(٤) أخرجه أبو طاهر السِّلَفي في « الطيوريات » (٩٨٤) من حديث سيدنا ابنِ عبَّاسٍ قالَ : قالَ ←

قالَ بِشرُ بنُ الحارثِ : (إذا أعجبَكَ الصَّمتُ . . فتكلَّم ، وإذا أعجبَكَ الكلامُ . . فاصمُت)[1] .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (كلِّمِ النَّاسَ قليلاً ، وكلِّم ربَّكَ كثيراً ؛ لعلَّ قلبَكَ يَرى اللهَ عزَّ وجلَّ ، وهو التَّضرُّعُ إليه)[2] .

وقيلَ لأبي يَزيدَ البِسطاميِّ رحمةُ اللهِ عليهِ : ما عَلامةُ العارفِينَ ؟ قالَ : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَنطقونَ ؛ صمٌّ عنِ استماعِ الباطلِ ، بُكمٌ عنِ اللَّغوِ ، عُميٌ عنِ النَّظرِ إلى المحرَّماتِ[3] .

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « العَافِيَةُ عَشْرةُ أَجْزَاءٍ : تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ ، وَالعَاشِرةُ اعْتِزَالُكَ عَنِ النَّاسِ » .

وأخرجه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » (٣٥) عن الأوزاعي من قوله .

وأخرجه ابن أبي الدنيا في « العزلة والانفراد » أيضاً (٨٧) عن وهيب بن الورد من قوله .

(١) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣٤٧/٨) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٦٩٨) والقشيري في « الرسالة » (ص ٣٤٣) ، من طريق بشر بن الحارث الحافي من قوله .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٣٤٣) .

(٣) لم أقف عليه بهٰذا اللفظ ، وأخرج السلمي في « طبقات الصوفية » (ص ٧٢) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣٩/١٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧١٤) أنه سُئِلَ : ما عَلَامَةُ العَارِفِ ؟ قَالَ : أَلَّا يَفْتُرَ مِنْ ذِكْرِهِ ، وَلَا يَمَلَّ مِنْ حَقِّهِ ، وَلَا يَسْتَأْنِسَ بِغَيْرِهِ .

الباب الخامس عشر

في حفظ اللسان

حِفظُ اللِّسانِ : قيمةُ الإنسانِ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (١) ؛ أي : عنده حافظٌ حاضرٌ (٢) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَأً تَكَلَّمَ فَغَنِمَ ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ » (٣) .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « إِعْـرَاضُ ٱللهِ تَعَالَىٰ عَنِ ٱلْعَبْدِ ٱشْتِغَالُهُ فِي مَا لَا يَعْنِيهِ » (٤) .

---

(١) سورة قٓ : (١٨) .

(٢) يَظنُّ البعضُ أنَّ المَلَكينِ الموكَّلَينِ بكَتبِ عملِ ابنِ آدمَ من خيرٍ وشرٍّ . . اسمُ صاحبِ اليمينِ منهما : رقيبٌ ، واسمُ الآخرِ صاحبُ الشِّمالِ : عتيدٌ .
وهـٰذا غلطٌ محضٌ مخالفٌ لظاهرِ الآيةِ الكريمةِ ؛ بل هما وصفانِ للمَلَكينِ ؛ فكلٌّ مِنهما وصفُه : رقيبٌ عتيدٌ ، فلم يقل : رقيبٌ وعتيدٌ ؛ لنقولَ إنَّهما اسمانِ ، وأنَّ العطفَ يَقتضي المغايرةَ ، فهما وصفانِ للمَلَكينِ ، لا اسمانِ لهما ، فتَنبَّه .
قال الإمامُ القُرطبيُّ رحمةُ اللهِ عليه : (في الرَّقيبِ ثلاثةُ أوجهٍ : أحدها : أنَّه المتتبِّعُ للأمورِ ، والثَّاني : أنَّه الحافظُ ، قاله السُّديُّ ـ وهـٰذا الَّذي اختارَه السُّهرورديُّ ـ ، الثَّالثُ : أنَّه الشَّاهدُ ، وفي العَتيدِ وجهانِ : أحدُهما : أنَّه الحاضرُ الَّذي لايَغِيبُ ـ وهو الَّذي ذهبَ إليه السُّهرَوَردِيُّ ـ ، الثَّاني : أنَّه الحافِظُ المعَدُّ ؛ إمَّا للحفظِ ، وإمَّا للشَّهادةِ) . انظر « الجامع لأحكام القرآن » (١٧/١١) .

(٣) أخرجه هناد بن السَّري في « الزهد » (١١٠٦) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٤١) ، وابن المقرئ في « المعجم » (١٢٨٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٨٥) عن الحسن مرسلاً .
وأخرجه ابن أبي عاصم في « الزهد » (٩) عن خالد بن أبي عمران مرسلاً .
وأخرجه القُضاعي في « مسند الشهاب » (٥٨٢) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٥٨٩) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٤) لم أقف له على إسناد ، وأورده الغزالي في « أيها الولد » (ص ٢) .
وأورده ابن عبد البر في « التمهيد » (٢٠٠/٩) ، وابن البناء في « الرسالة المغنية في السكوت ولزوم ←

وقيلَ : بحفظِ اللِّسانِ يُحفَظُ الإنسانُ .

وقالَ أميرُ المؤمنينَ عليٌّ رضيَ الله عنهُ : (لسانُكَ أسَدُكَ ؛ إنْ حرَستَهُ .. حَرَسَك ، وإنْ أطلَقتَهُ[1] .. افترَسَكَ)[2] .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رَحِمَ ٱللَّهُ ٱمْرَأً عَرَفَ زَمَانَهُ ، وَحَفِظَ لِسَانَهُ »[3] .

وقيلَ : اللِّسانُ قِيمةُ الإنسانِ ؛ فمَنْ قوَّمَهُ .. زادَت قِيمَتُهُ ، وتقويمُهُ : النُّطقُ بالصِّدقِ .

فأعظَمُ المصائبِ : تَركُ الصِّدقِ مع عِرفانِ ثوابِهِ ، وأعظَمُ المصائبِ أيضاً : الدَّوامُ على الكَذِبِ مع عِرفانِ عِقابِهِ وعَذابِهِ .

← البيوت » (ص ٦٢) ، عن الحسن البصري قال : (مِنْ عَلَامَةِ إعْرَاضِ اللهِ عَنْ عَبْدِهِ أَنْ يَجْعَلَ شُغْلَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ) .

وأورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٤١٨/٢) ، من قول الجُنيد .

(١) في الأصل : (طلقته) .

(٢) أورده ابن الملقِّن في « المعين على تفهم الأربعين » (ص ٣٥٤) ولم ينسبه لقائل ، وإنما قال : (في الحكمة . . .) .

(٣) أخرجه الحاكم في « تاريخ نيسابور » كما في « جمع الجوامع » للسيوطي (١٢٨٧٣) من حديث سيدنا ابن عباس مرفوعاً ، بلفظ : « رحم الله من حفظ لسانه ، وعرف زمانه ، واستقامت طريقته » .

الباب السّادس عشر

في القلب

القلبُ : لَوحٌ مَنقوشٌ بقُدرةِ اللهِ تعالى المعبَّرةِ باليدِ[1] ، ونُقوشُهُ : العقلُ ، والعلمُ ، والإيمانُ ، واليقينُ .

فالعقلُ : هو الفارقُ بينَ الحقِ والباطلِ ، وهو مَناطُ التَّكليفِ مِنَ الأمرِ والنَّهيِ .

رُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهُ ، وعليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قالَ : « خَلَقَ ٱللهُ تَعَالَى ٱلْعَقْلَ مِنْ نُورٍ مَكْنُونٍ مَخْزُونٍ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ؛ بِهِ يأْمُرُ ، وَبِهِ يَنْهَىٰ »[2] .

والعلمُ : هو العلمُ باللهِ تعالىٰ بِلَا كيفٍ ، وبالأحكامِ والتَّمسُّكِ بها .

والإيمانُ : هو التَّصديقُ بوحدانيَّةِ اللهِ تعالىٰ ، وملائكتِهِ ، وكتُبِهِ ، ورُسُلِهِ ، وباليومِ الآخِرِ ، وبالقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

واليقينُ : اطمِئنانُ القلبِ بالموتِ والبَعثِ والحسابِ والجزاءِ ، قالَ النَّبيُّ

---

(١) هٰذا النَّصُّ وغيرُه ممَّا يؤكِّدُ أنَّ اعتقادَ الإمامِ أبي الحسنِ الأشعريِّ متأصِّلٌ في الإمامِ أبي حفصٍ السُّهرَوَرديِّ رحمة الله عليهم أجمعين ، وأنَّ السَّببَ مِن عدمِ ذكرِه لشيءٍ مِن هٰذه الخلافاتِ في كتابه « أعلامُ الهدىٰ » إنَّما هو توحيدٌ لكلمةِ المسلمينَ ، وجمعٌ للشَّملِ ، ورأبٌ للصَّدعِ ، وقد تقدَّمَ معنا قبل قليلٍ تعريفُه للإيمانِ يذهبُ فيه مَذهبَ الأشاعرةِ ، وأشارَ إلىٰ ذٰلك في مواطنَ مِن كتابِه الموسومِ آنفاً .

(٢) أورده الرازي في « مفاتيح الغيب » (١/٢٤٠) عن سيدنا عليٍّ موقوفاً .
وأخرجه المجلسي ، شيعي متأخِر (ت ١١١١ هـ) في « بحار الأنوار » (١/١٠٧) (٣) من حديث سيدنا عليٍّ مرفوعاً .

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ٱلْقَلْبُ أَمِيرُ ٱلْجَسَدِ ؛ إِذَا صَلَحَ . . صَلَحَ ٱلْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَ . . فَسَدَ ٱلْجَسَدُ كُلُّهُ »[1] ، وهو بيدِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ يُقلِّبُهُ كيفَ يشاءُ .

وقيلَ : تِسعةُ أشياءَ تُرقِّقُ القلبَ : قراءةُ القرآنِ ، وذكرُ اللهِ تعالىٰ ، وقيامُ اللَّيلِ ، ومَسُّ رأسِ اليَتيمِ ، وعِيادَةُ المريضِ ، واتِّباعُ الجنازةِ ، وزِيارةُ القبورِ ، وذِكرُ الموتِ ، وصُحبَةُ الصَّالحينَ .

وأربعةُ أشياءَ تُميتُ القلبَ : فُضولُ الكلامِ ، وأَكلُ الحرامِ ، وصُحبَةُ الجُهَّالِ ، وكَثرَةُ الضَّحِكِ .

ورُوِيَ أنَّ القلوبَ نوعانِ : قلبٌ سليمٌ ، وقلبٌ سقيمٌ .

فالسَّليمُ : قلبُ وليِّ اللهِ تعالىٰ ، والسَّقيمُ : قلبُ عدُوِّ اللهِ تعالىٰ .

وقيل : القلوبُ ثلاثةُ أنواعٍ : قلبٌ مُتعلِّقٌ بالدُّنيا ، وقلبٌ مُتعلِّقٌ بالعُقبىٰ ، وقلبٌ مُتعلِّقٌ بالمولىٰ ؛ وهو أفضلُ القلوبِ .

وقيلَ : القلوبُ ثلاثةُ أنواعٍ : قلوبُ الحكَّامِ ، وقلوبُ العوامِّ ، وقلوبُ الفُقراءِ .

فقلوبُ الحكَّامِ : كالقارورةِ ؛ إذا انكسَرَتْ . . لا تَصِيرُ صحيحةً إلَّا بزمانٍ طويلٍ ، ثمَّ لا تكونُ كما كانَتْ .

وقلوبُ العوامِّ : كالفَخَّارِ ؛ إذا انكسَرَ . . يَصِيُر صحيحاً بعد أيَّامٍ ، ويُمكِنُ أنْ يكونَ كما كانَ .

---

(١) قوله : (القلب أمير الجسد) لم يرد في الحديث . وقد أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، بلفظ : « أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ؛ إِذَا صَلَحَتْ . . صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ . . فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » .

وقلوبُ الفُقراءِ : كاللُّبَيْنَةِ [1] ؛ إذا انكسَرَتْ . . قدْ تكونُ صحيحةً يومَ كُسِرَتْ ، وتُجبَرُ بمُجرَّدِ اعتذارِ الكاسرِ ؛ لأنَّ الفُقراءَ أصحابُ التَّحمُّلِ .

* * *

(1) تصغير لَبِنَة ؛ واحدة ما يبنىٰ به .

الباب السابع عشر

في الفكر

الفِكرُ : إحضارُ ما في القلبِ مِنْ مَعرفةِ الأشياءِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1] .

ورُوِيَ أنَّ الفِكرَ سِراجُ القلبِ ؛ بهِ يَرىٰ خَيرَهُ وشرَّهَ[2] ، ونَفعَهُ وضُرَّهُ ؛ فكلُّ قلبٍ لا تَفَكُّرَ فيهِ . . فهو في ظُلُماتٍ مُحِيطةٍ بهِ .

وقيلَ : الفِكرُ علىٰ ضَربينِ :

تَفكُّرٌ في الخالقِ عزَّ وجلَّ : وهو مَنهيٌّ عنه ؛ لأنَّهُ لا يَبلُغُ العبدُ مَعرِفةَ ذاتِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالىٰ .

وفِكرٌ في الخلقِ : وهو مندوبٌ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3] ؛ أيْ : أصحابِ العقلِ والفِكرِ ؛ فإنَّهُم يَستَدِلُّونَ علىٰ توحيدِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وقُدرتِهِ .

قالَ عليهِ السَّلامُ : « تَفَكَّرُوا فِي ٱلْخَلْقِ ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ٱلْخَالِقِ »[4] .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ »[5] .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « عَوِّدُوا أَعْيُنَكُمُ ٱلْبُكَاءَ ، وَقُلُوبَكُمُ ٱلْفِكْرَ »[6] ؛ فإنَّ الفِكرَ

---

(١) سورة آل عمران : (١٩١) .
(٢) في (ج) بزيادةِ : (مِنَ اللهِ تعالىٰ) .
(٣) سورة آل عمران : (١٩٠) .
(٤) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في « العظمة » (٥) من حديث سيدنا ابن عبَّاس رضي الله عنهما .
(٥) أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في « العظمة » (٤٣) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (٣/١٤٤) ، من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، بلفظ : « فِكْرَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً » .
(٦) أخرجه أبو نُعيم في « حلية الأولياء » (٩/٢٧٤) من قول أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالىٰ .

في آياتِ اللهِ تعالىٰ ومَخلوقاتِهِ يَتولَّدُ منهُ معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، والفِكرُ في آلاءِ اللهِ تعالىٰ يَتولَّدُ منهُ المحبَّةُ للهِ ، والفِكرُ بوعدِ اللهِ تعالىٰ يَتولَّدُ منهُ الرَّغبةُ في اللهِ تعالىٰ ، والفِكرُ في وعِيدِ اللهِ تعالىٰ يَتولَّدُ منهُ الرَّهبةُ والخَشيَةُ ، والفِكرُ في جَفاءِ النَّفْسِ في مُقابَلةِ إحسانِ اللهِ تعالىٰ إليها يَتولَّدُ منهُ الحياءُ مِنَ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ القائلُ : تَفكُّرُكَ فيكَ يَكفِيكَ .

وقالَ عليهِ السَّلامُ « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . . فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ »[1] ، ومعرفةُ النَّفسِ لا تكونُ إلَّا بالعقلِ والفِكرِ .

(١) قال ابن حجر الهيتمي في « الفتاوي الحديثية » (ص ٦٧٧) : (لا أصل له ، وإنما يحكىٰ من كلام يحيى بن معاذ الرازي الصوفي ، ومعناه : مَن عَرَفَ نفسه بالعجز والافتقار ، والتقصير والذلة والانكسار . . عَرَفَ ربه بصفات الجلالة والجمالة علىٰ ما ينبغي لهما ، فأدام مراقبته ، حتىٰ يفتح له باب مشاهدته ؛ فيكون من أخصائه الذين أفرغ عليهم سجال معرفته ، وألبسهم صوافي خلافته) .
وللسيوطي كتاب بعنوان « القول الأشبه في حديث من عرف نفسه . . فقد عرف ربه » مطبوع ضمن « الحاوي للفتاوي » (٢/٢٨٨) .

الباب الثامن عشر

في الفراسة

الفِراسةُ : مُعايَنةُ المغيَّباتِ بالأنوارِ الرَّبانيَّةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (١) ، أي : للمُتفَرِّسينَ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱتَّقُوا فِرَاسَةَ ٱلْمُؤْمِنِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ ٱللهِ » (٢) .

وقيلَ : مَنْ غضَّ بصرَهُ عنِ المحارمِ ، وأمسكَ نفسَهُ عنِ الشَّهَواتِ ، وعمرَ باطنَهُ بِدَوامِ المراقَبةِ ، وظاهرَهُ باتِّباعِ سُنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وعوَّدَ نفسَهَ بأكلِ الحلالِ . . لمْ تُخطِ فِراستُهُ .

وحُكِيَ عن أحمدَ بنِ عاصمٍ أنَّهُ قالَ : (إذا جالَستُم أهلَ الصِّدقِ . . فجالِسُوهم بالصِّدقِ ؛ فإنَّهُم جواسِيسُ القلوبِ ، يَدخلُونَ في قلوبِكُم ويَخرُجونَ منها مِنْ حيثُ لا تَشعرونَ ، فعامِلوهُم بالصِّدقِ) (٣) .

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الحجر : (٧٥) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٧) والطبراني في « المعجم الأوسط » (٧٨٤٣) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وأخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١١٥٧) والطبراني في « المعجم الأوسط » (٣٢٥٤) من حديث سيدنا أبي أُمامة رضي الله عنه .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص ٥١٩) .

الباب التاسع عشر

في المعرفة

المعرفةُ : مَعرِفةُ اللهِ تعالىٰ بالوَحدانِيَّةِ ؛ وهي : أنْ تَعلَمَ أنَّهُ تعالىٰ قبلَ كلِّ شيءٍ ، وأوَّلُ كلِّ شيءٍ ، وإليهِ مَصِيرُ كلِّ شيءٍ ، وعليهِ رِزْقُ كلِّ حيٍّ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] ، أي : لِيَعرِفُونِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دِعَامَةُ ٱلْبَيْتِ أَسَاسُهُ ، وَدِعَامَةُ ٱلدِّينِ مَعْرِفَةُ ٱللهِ تَعَالَىٰ »[2] .

وقيلَ : علامةُ حُصولِ المعرفةِ التَّعجُّبُ مِن كلِّ شيءٍ يُرىٰ بعَينِ العِبرةِ .

وقد سُئِلَ الشِّبليُّ رحمةُ اللهِ عليه عن أعجبِ الأشياءِ ؟ قالَ : مَن عَرَفَ اللهَ تعالىٰ ثمَّ عصاهُ[3] .

وأعجَبُ مِنْ ذٰلكَ : مَنْ عَرَفَ اللهَ تعالىٰ ثمَّ التَفَتَ إلىٰ غيرِهِ !

وسُئِلَ الجُنَيدُ رحمةُ اللهِ عليهِ : ما حياةُ القلبِ ؟ قالَ : معرفةُ اللهِ تعالىٰ ، ونِسيانُ ما سِواهُ .

وقالَ : مَنْ عَرَفَ اللهَ . . أحبَّهُ وأطاعَهُ ، وأكثَرَ ذِكرَهُ ولَزِمَ بابَهُ .

وقيلَ : أَوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ دَاوُودَ : أنِّي أنا اللهُ لا إلٰهَ إلَّا أنا ؛ فمَنْ أحبَّنِي وخافَ عَدلِي . . فقدْ عَرَفَنِي حقَّ مَعرفَتِي .

وقالَ أبو القاسمِ الحكيمُ : علامةُ التَّائبينَ تَركُ الدُّنيا ، وعلَامةُ الزَّاهدينَ تركُ النَّفسِ ، وعلامةُ العارفينَ تركُ الذُّنوبِ .

---

(١) سورة الذاريات : (٥٦) .

(٢) أخرجه القشيري في « الرسالة » (ص ٦٣٨) ، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

(٣) أخرجه الخطيب في « تاريخ مدينة السلام » (١٦/٥٦٣) .

وقالَ عطاءٌ[1] رحمةُ اللهِ عليه : (للمعرفةِ ثلاثةُ أركانٍ : الهَيبةُ والحياءُ والأُنسُ) .

وقيلَ : العالِمُ قدْ يُقتَدىٰ بهِ ، والعارفُ قدْ يُهتَدىٰ بهِ ؛ لأنَّ العارِفَ فوقَ ما يقولُ ، والعالِمُ دونَ ما يقولُ .

وقيلَ : هِمَّةُ العابدِ نَفْسُهُ ، وهِمَّةُ العارفِ ربُّهُ .

وقالَ حسنُ بنُ منصورٍ : لا يكونُ العارفُ عارِفاً حتَّىٰ يكونَ فارِغاً مِنَ الدُّنيا والآخِرةِ ؛ لقولِهِ عليهِ السَّلامُ : « مَنْ طَلَبَ ٱلدُّنْيَا . . فَاتَهُ ٱلْعُقْبَىٰ ، وَمَنْ طَلَبَ ٱلْعُقْبَىٰ . . فَاتَهُ ٱلْمَوْلَىٰ ، وَمَنْ طَلَبَ ٱلْمَوْلَىٰ . . فَهُوَ ٱلْعَارِفُ ٱلْكَامِلُ »[2] .

---

(١) في « الرسالة القشيرية » (ص ٦٤٣) : (ابن عطاء) .

(٢) لم أقف عليه في شيء من دواوين السُّنَّة المعتمدة ، ولا في غيرها .

الباب العشرون

في الموعظة

الموعظةُ : تَصفِيَةُ الفُؤادِ ، وتَنقِيَةُ الِاعتقادِ .

وقيلَ : الموعِظةُ إرشادُ أهلِ الغَفَلاتِ إلىٰ طريقِ أبوابِ السَّعاداتِ .

وقيلَ : الموعِظةُ تَقوِيةُ القلوبِ للوُصولِ إلى المحبوبِ .

وقيلَ : الموعِظَةُ الأمرُ بالموافَقاتِ ، والتَّحرُّزُ عنِ المخالفاتِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً . . جَعَلَهُ وَاعِظاً لِنَفْسِهِ يَأْمُرُهَا بِٱلْخَيْرِ وَيَنْهَاهَا عَنِ ٱلشَّرِّ »[1] .

وحُكِيَ أنَّ رَجُلاً قالَ لواعظٍ : عِظنِي مَوعِظَةً جامِعةً لكلِّ المواعظِ ، قالَ الواعِظُ : يا أخي ؛ اعلمْ : أنَّ مَنْ ضَيَّعَ أيَّامَ حِراثَتِهِ . . نَدِمَ يومَ الحَصادِ .

ورُوِيَ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لعيسى ابنِ مريمَ عليهِ السَّلامُ : يا عيسىٰ ؛ عِظْ نفسَكَ ؛ فإنِ انتَفعْتَ . . فَعِظِ النَّاسَ ، وإلَّا . . فاستَحْيِ مِنّي[2] .

وقيلَ : النَّصيحةُ : تَنبِيهُ الغافلِ ، وتعريفُ العاقلِ بتذكيرِ الموتِ ، وهَولِ العاقبةِ ، وحسنِ ثوابِها .

وقيلَ : النَّصيحةُ : الدَّلالَةُ على الخيرِ والِاعتقادِ .

(١) أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » كما في « الغرائب الملتقطة » لابن حجر (٢٨٩) من حديث ابن سيرين عن سيدتنا أم سلمة مرفوعاً .

(٢) أخرجه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (٩٧) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣٨٢/٢) ، من طريق مالك بن دينار .

الباب الحادي والعشرون

في الاعتبار

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[1] ؛ أيْ : أصحابَ البَصيرةِ ؛ وهيَ العَقلُ والفِكرُ .

وقيلَ : المُعتَبِرُ : هو الَّذي يَرىٰ نفسَهُ أَحقَرَ النَّاسِ ، ولا يَنظُرُ إلىٰ مَنْ هو فَوقَهُ في الدُّنيا ؛ بل يَنظُرُ إلىٰ مَنْ هو فوقَهُ في الدِّينِ ؛ فيَقتَدِي بهِ .

وقيلَ : المُعتَبِرُ : هو الَّذي اعتَبَرَ بمَنْ مضَىٰ قبلَهُ مِنَ الآباءِ والإخوانِ وغيرِهم ؛ فإنَّهُ يَصيرُ مِثلَهُم .

وقالَ أهلُ التَّحقِيقِ مِنَ العلماءِ : الِاعتبارُ بنتائجِ الدَّهرِ يُنبِتُ في القلبِ المعرفةَ ، وعجائبَ المنطقِ الَّتي يَرضَىٰ بها الحُكماءُ ، ويَتعجَّبُ منها الفُقهاءُ ، ويُسرِعُ إليها الأُدباءُ ؛ وهو أنْ يَرى الإنسانُ أنَّ الدُّنيا خُلِقَت للفَناءِ ، والعالَمِينَ فيها للمَوتِ ، وعُمرانَها للخَرابِ .

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ سُكُوتُهُ تَفَكُّراً ، وَنُطْقُهُ تَذَكُّراً ، وَنَظَرُهُ تَعَبُّراً »[2] .

وحُكِيَ أنَّ شقيقاً البَلخِيَّ رحمةُ اللهِ عليه دخَلَ مَقبَرةً ؛ فجَعَلَ يَضرِبُ على القُبورِ ويقولُ : يا كذَّابونَ .

---

(١) سورة الحشر : (٢) .

(٢) لم أقف عليه مرفوعاً في شيء من دواوين السنة المعتمدة .
وأخرجه أبو الفرج الأصفهاني في « مقاتل الطالبيين » (ص ٢٩٠) ، من قول الحجاج بن بصير الفساطيطي ، بنحوه .
ونسبه أبو سعد الآبي في « نثر الدر » (٢٥٩/١) ، والعمري في « مسالك الأبصار » (٣٢/٢٤) لإبراهيم بن عبد الله بن حسن ، بمعناه .

فقيلَ لهُ : لِما تقولُ هٰكذا ؟ قالَ : فإنَّهم كانُوا يقولونَ في حالِ حياتِهم : أموالُنا ومَواشِينَا ؛ فذَهبُوا وخَلَّوهَا ، فاليومَ هي في يدِ غيرِهِم ، فما هم إلَّا كذَّابونَ .

الباب الثّاني والعشرون

في المحبّة

المحبَّةُ : شِدَّةُ مَيلِ القلبِ إلى الشَّيءِ .

وطريقُ حُصولِ المحبَّةِ : هو تَزكيةُ النَّفسِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (١) .

قيل : تَزكِيةُ النَّفسِ تُجلِّي مِرآةَ القلبِ ، ويَنعكِسُ فيها نورُ العَظَمَةِ الإلٰهيَّةِ ، ويَلوحُ فيها جمالُ التَّوحيدِ ، وتَنجَذِبُ أحداقُ البصيرةِ إلىٰ مُطالَعةِ أنوارِ الجَلالِ القَديمِ .

فحينئذٍ يُحِبُّ العبدُ ربَّهُ لا مَحالةَ .

قالَ أهلُ التَّحقيقِ : المحبَّةُ رُكنٌ مِنْ أركانِ التَّوحيدِ ، وشرطٌ مِن شرائطِ الإيمانِ ، ثمَّ بالمحبَّةِ تَصِحُّ المعرفةُ باللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ أصلَ الإيمانِ مَعرِفَةُ اللهِ تعالىٰ بصِفاتِهِ ، فإذا عرَفَهُ المرءُ بالإحسانِ إليهِ . . أحبَّهُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ جَبَلَ القُلوبَ علىٰ محبَّةِ مَنْ أحسنَ إليها (٢) .

---

(١) سورة الشمس : (٩ ـ ١٠) .

(٢) كذا عادةُ اللهِ في خَلقِه ، وهو أمرٌ غايةٌ في بابِه ، وقيل : الإحسانُ يقطعُ اللِّسانَ ، وهٰذا أمرٌ محسوسٌ ملموسٌ ، وإجماعٌ لم يُنصَّ عليه ؛ فإنَّه يقطعُ الشَّرَّ الدَّاهمَ علىٰ صاحبِه ، قال أبو الفتحِ البُستيّ في منظومتِه الرَّائقةِ « عنوان الحِكَم » : (من البسيط)

أحسِن إلى النَّاسِ تَستعبِد قلوبَهُم	لطالَما استَعبدَ الإنسانَ إحسانُ
وكن على الخيرِ مِعواناً لذي أملٍ	يرجو نَداك فإنَّ الحرَّ مِعوانُ
مَن كان للخيرِ منَّاعاً فليس له	على الحقيقةِ إخوانٌ وخِلَّانُ
مَن جادَ بالمالِ مالَ النَّاسُ قاطبةً	إليه والمالُ للإنسانِ فتَّانُ

وهو معنىٰ قولِ الله تعالىٰ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمٰن : ٦٠] .

وعلَامةُ المحبِّ : طاعةُ المحبوبِ وإرضاؤهُ ، ومَنْ أحبَّ شيئاً . . أكثَرَ مِنْ ذكرِهِ ولا يَنساهُ .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « جُبِلَتِ ٱلْقُلُوبُ عَلَىٰ مَحَبَّةِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، وَبُغْضِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا »[1] .

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن الأعرابي في « المعجم » (١٩١) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٢٤٣) ، وأبو الشيخ الأصبهاني في « الأمثال » (١٦٠) ، والقُضاعي في « مسند الشهاب » (٥٩٩) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٢/٥٢٠) ، من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، بنحوه .

الباب الثالث والعشرون

في الشوق

الشَّوقُ : هَيَجانُ القلبِ عند ذِكرِ المحبوبِ ، وهو يَتولَّدُ مِن حقيقةِ المحبَّةِ ؛ لأنَّ مَن أحبَّ اللهَ . . اشتاقَ إلىٰ لقائِه ألبتَّةَ ، قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ﴾[1] .

وقيلَ : قلوبُ المُشتاقِينَ مُنوَّرةٌ بنورِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإذا تحرَّكَ الِاشتياقُ . . أضاءَ النُّورُ ما بينَ الأرضِ والسَّماءِ ، فحينئذٍ يَعرِضُ اللهُ تعالى المشتاقِينَ على الملائكةِ ، فيقولُ : يا ملائكتِي ؛ هٰؤلاءِ المشتاقونَ إلىٰ لقائِي ، اشهَدوا أنِّي قدْ غَفَرتُ لهُم ، وأنِّي لَأشَدُّ شَوقاً إليهِم مِنْ شَوقِهِم إليَّ[2] .

قالَ الشِّبليُّ رحمةُ اللهِ عليه : (نارُ المحبَّةِ تُذِيبُ الأرواحَ ، ونارُ الهَيبَةِ تُذِيبُ القُلوبَ ، ونارُ الشَّوقِ تُذِيبُ النَّفسَ) .

وقيلَ : الشَّوقُ إلى اللهِ تعالىٰ يَقطَعُ صاحبَهُ عنِ الخلقِ ، ويُوصِلُهُ إلى الحقِّ ، وقَدْرُ الشَّوقِ علىٰ قَدْرِ المحبَّةِ .

قالَ أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ رحمةُ اللهِ عليه : (الشَّوقُ يَسكُنُ باللِّقاءِ والرُّؤيةِ ، والِاشتياقُ لا يزولُ باللِّقاءِ والرُّؤيةِ)[3] .

---

(١) سورة العنكبوت : (٥) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١٠/١٩٣) ، من طريق سهل التستري ، بنحوه .

(٣) أخرجه القشيري في « الرسالة » : (ص ٦٦٤) .

الباب الرّابع والعشرون

في العشق

العِشقُ : جُنونٌ إلـٰهيٌّ لا يَقبَلُ المدحَ والذَّمَّ ، وهو آخِرُ مَراتِبِ المحبَّةِ .

والمحبَّةُ : أوَّلُ دَرَجاتِ العِشقِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ في حقِّ العاشِقينَ : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [1] ؛ لعِشقِهِمُ اللهَ تعالىٰ .

وقيلَ : العِشقُ داءٌ ودواءٌ ؛ فإنْ أصابَ الرُّوحَ . . فهو داءٌ ؛ وإنْ أصابَ القلبَ . . فهو دواءٌ .

وحقيقةُ العِشقِ : أنْ يَصِلَ حُبُّ الحبيبِ إلىٰ سُوَيداءِ قَلبِ المُحِبِّ ، وهـٰذا كنايةٌ عنِ الحُبِّ الشَّديدِ ، ويُسمَّىٰ شغَفاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ في حقِّ زُليخا : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أيْ : دخلَ حُبُّ يوسُفَ في جِلدِ صَدرِها ؛ حتَّىٰ أصابَ قلبَها وأضلَّ عَقلَها ؛ ولذلكَ قالوا : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] ؛ أيْ : في عِشقٍ ظاهرٍ ، ضلَّ فيه عَقلُها بصَمتِها ، ولَمْ يبقَ لها قُدرةٌ على الكِتمانِ مِنْ غايةِ العِشقِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عَشِقَ ٱللهَ تَعَالَىٰ وَكَتَمَ فَمَاتَ . . مَاتَ شَهِيداً » [3] .

ورُوِيَ عنِ السَّرِيِّ رحمَهُ اللهُ أنَّهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) سورة النور : (٣٧) .

(٢) سورة يوسف : (٣٠) .

(٣) أخرجه الخطيب في « تاريخ مدينة السلام » (٥٥٤/٦) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٧٧١/٢) ، من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، بلفظ : « مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ ثُمَّ مَاتَ . . مَاتَ شَهِيداً » .

وسلَّم : « قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ : إِذَا كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَىٰ عَبْدِي ذِكْرِي . . عَشِقَنِي وَعَشِقْتُهُ »[1] .

☼ ☼ ☼

---

(١) أخرجه القشيري في « الرسالة » : (ص ٥٠٤) ، من طريق السري يقول : مكتوب في بعض الكتب الَّتي أنزل الله تعالىٰ : إذا كان الغالب علىٰ عبدي ذكري . . عشقني وعشقته .

وأخرج أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/١٦٥) من مراسيل الحسن البصري قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ : إِذَا كَانَ الْغَالِبُ عَلَىٰ عَبْدِي الِاشْتِغَالَ بِي . . جَعَلْتُ نَعِيمَهُ وَلَذَّتَهُ فِي ذِكْرِي ، فَإِذَا جَعَلْتُ نَعِيمَهُ وَلَذَّتَهُ فِي ذِكْرِي . . عَشِقَنِي وَعَشِقْتُهُ ، فَإِذَا عَشِقَنِي وَعَشِقْتُهُ . . رَفَعْتُ الْحِجَابَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ . . . » .

الباب الخامس والعشرون

في القرب

القُرْبُ : اتِّصالُ الهِمَّةِ إلى اللهِ تعالىٰ بِلَا كيفٍ ولا وَصفٍ في كلِّ حالٍ ، وذٰلكَ يَحصُلُ بالمواظَبةِ على النَّوافلِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ لنَبِيِّه محمَّدٍ عليهِ السَّلامُ : ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[1] .

وقيلَ : حُصولُ المحبَّةِ للهِ تعالىٰ تَحصُلُ باتِّباعِ سُنَّةِ رسولِ اللهِ ، وحُصولُ المعرفَةِ باللهِ تعالىٰ تَحصُلُ بأداءِ الفرائضِ .

وقيلَ : أقربُ الخلقِ إلى اللهِ تعالىٰ أسرَعُهُم إليهِ رُجوعاً .

وقيلَ : القُرْبُ : هو الِانقطاعُ عن كلِّ شيءٍ سِوى اللهِ تعالىٰ .

وعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنَّهُ قالَ : « أَوْحَى ٱللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ مُوسَىٰ : إِنَّكَ لَنْ تَتقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحبَّ إِلَيَّ مِنَ ٱلرِّضَاءِ بِقَضَائِي ، وَلَنْ تَعْمَلَ عَمَلاً أَحْبَطَ حَسَنَاتِكَ أَشَدَّ مِنَ ٱلْكِبْرِ »[2] .

وعن ذِي النُّونِ المِصريِّ رحمةُ اللهِ عليه أنَّهُ قالَ : رأيتُ أعرابيّاً يطوفُ بالكعبةِ ، قدْ نَحَلَ جِسمُهُ ، واصفَرَّ لونُهُ ، ودقَّ عَظمُهُ ، فقلتُ : أمُحِبٌّ أنتَ ؟ قالَ : نعمْ ، فقلتُ : أحبيبُكَ منكَ قريبٌ أمْ بعيدٌ ؟ قالَ : قريبٌ ، قلتُ : أمُوافِقٌ أو غيرُ مُوافِقٍ ؟ قالَ : مُوافِقٌ ، قلتُ : سبحانَ اللهِ ! حبيبُكَ قريبٌ ومُوافِقٌ وأنت بهٰذه الحالةِ ؟! قالَ : يا بَطَّالُ ؛ أمَا علِمتَ أنَّ عذابَ القُرْبِ والموافَقَةِ أشدُّ مِنْ عذابِ البُعدِ والمخالَفَةِ ؟!

---

(١) سورة العلق : (١٩) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » : (٥/٤٥) ، من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، مرفوعاً ، واستغربه .

الباب السادس والعشرون

في المواصلة

المواصَلةُ : ارتفاعُ الحُجُبِ عن وجهِ الرُّوحِ ؛ ليُشاهِدَ الرَّبَّ تعالىٰ بلا كيفٍ ، قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رَأَيْتُ رَبِّي بِقَلْبِي ، وَمَا رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي »(١) .

قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾(٢) ، وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾(٣) .

وقيلَ في التَّفسيرِ : قالَ اللهُ تعالىٰ لنَبيِّه محمَّدٍ عليهِ السَّلامُ : يا محمَّدُ ؛ كُنْ مِنَ النَّاسِ آيِساً ؛ فليسَ في أيدِيهِم شيءٌ مِنَ الأشياءِ ، واجعلْ صُحبتَكَ معي ؛ فإنَّ مَرجِعَك إليَّ ، ولا تَجعَل قلبَكَ مُعلَّقاً بالدُّنيا ؛ فإنِّي ما خلقتُكَ لها(٤) .

وقيل : الواصِلُ إلى اللهِ تعالىٰ مَن كانَ هِمَّتُه الوصولَ إلى اللهِ ، وشُغْلُه للهِ ، ورُجوعُهُ إلى اللهِ تعالىٰ ؛ فذٰلكَ تَبكِي عيناهُ ، ويَضحَكُ قلبُهُ .

وعلامةُ الواصلِ إلى اللهِ تعالىٰ : تركُ النَّفسِ وإرادتِها .

قالَ يحيَى بنُ مُعاذٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قلوبُ العارفينَ قنادِيلُ الحِكمةِ ، وفَتائِلُها الزُّهدُ ، وسُرُجُها اليقينُ ، ودُهنُها المحبَّةُ ، وشُعاعُها نورُ الملكوتِ .

---

(١) لم أقف عليه بهٰذا اللفظ ، وأخرج مسلم (١٧٦) من طريق سيدنا ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : (رآه بقلبه) .

(٢) سورة النجم : (١١) .

(٣) سورة النجم : (١٠) .

(٤) ذكره إسماعيل حقي في تفسيره « روح البيان » : (١٨١/٩) .

وقالَ الحكيمُ : المواصَلةُ : هي الملازَمةُ على العُبوديَّةِ ، مع انقطاعِ القلبِ عمَّا سِوى اللهِ تعالىٰ ؛ وهو التَّقرُّبُ إليهِ بالعبوديَّةِ .

والثَّاني : الِاتِّصالُ إلى العلماءِ والفُقراءِ الصَّالحينَ ، والِاتِّضاعُ والتَّذلُّلُ لديهِم ؛ لأنَّهُم سببُ الِاتِّصالِ إلى اللهِ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

الباب السّابع والعشرون

في التّوكّل

التَّوكُّلُ : الاكتفاءُ باللهِ ، والاعتمادُ على اللهِ في جميعِ الأمورِ ، قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ (١) ، وقال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

وقال سهلُ بنُ عبدِ اللهِ : التَّوكُّلُ هو ألَّا تسألَ ، ولا تَرُدَّ ، ولا تَحبِسَ .

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : « مَنْ أَسَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ ٱلنَّاسِ . . فَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ فِي ٱلسِّرِّ وَٱلْعَلَانِيَةِ ، وَمَنْ أَسَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى ٱلنَّاسِ . . فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ أَوْثَقَ مِمَّا في يدِهِ » (٣) .

ورُوِيَ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سَأَلْتُ جِبْرَائِيلَ عَنِ ٱلتَّوَكُّلِ ؟ قَالَ : ٱلْيَأْسُ عَنِ ٱلْخَلْقِ » (٤) .

وهو أن تَعلَمَ أنَّ المخلوقَ لا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ ، ولا يُعطِي ولا يمنعُ .

وحُكِيَ أنَّ عابداً رأىٰ عابداً في المَنامِ يَمشِي في رياضِ الجنَّةِ حَزيناً ؛ فسألَهُ عنِ حُزنِهِ فقالَ : رأيتُ دَرَجاتٍ في عِلِّيِّينَ ؛ فقَصَدتُ الصُّعودَ إليها ، فمُنِعتُ ؛

---

(١) سورة الفرقان : (٥٨) .

(٢) سورة المائدة : (٢٣) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٥) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) لم أقف عليه ، وفي كتاب « التوكل » لابن الفراء (ص ٨٣) عن أحمد ابن حنبل وسئل عن التوكل . فقال : هو قطع الاستشراف بالإياس من الخلق . فقلت : ما الحُجَّة ؟ فقال : الخليل إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق ، ثم طرح إلى النار ، فاعترض جبريل . فقال : إبراهيم ؛ لك حاجة ؟ فقال : أما إليك . . فلا ، قال : فقال له : سَلْ من لك إليه حاجة ؟ فقال : أحبُّ الأمرين إليه أحبُّهما إليَّ .

فسألتُ عن هٰذه الدَّرَجاتِ ؟ فقيلَ لي : هي للمُتوكِّلِينَ على اللهِ تعالىٰ ، وهيَ درجاتُ العُلا .

⁂ ⁂ ⁂

الباب الثامن والعشرون

في الفقر

الفقرُ : اختيارُ العَدَمِ على اغتناءِ النِّعمِ .

وقيلَ : الفقرُ : الرِّضاءُ بما قُضِيَ لهُ مع طِيبِ القلبِ .

وقيل : الفقرُ : الأُنسُ بالمعدومِ والوَحشةُ مِنَ المعلومِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [١] ، أيِ : الَّذي لا يَنقُصُ مِنَ غَنائِه شيءٌ بإنفاقٍ ، ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أيِ : المحمودُ في صُنعِهِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لِكُلِّ شَيْءٍ مِفتاحٌ ، وَمِفْتَاحُ ٱلْجَنَّةِ حُبُّ ٱلْمَسَاكِينِ » [٢] .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « ٱلْفُقَرَاءُ ٱلصَّابِرُونَ هُمْ جُلَسَاءُ ٱللهِ تَعَالَىٰ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ » [٣] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يَا مَعْشَرَ ٱلْفُقَرَاءِ ؛ إِنَّ فُقَرَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ قَبْلَ ٱلْأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَومٍ ؛ وَهُوَ خَمْسُ مِئَةِ عَامٍ » [٤] .

---

(١) سورة فاطر : (١٥) .

(٢) أخرجه ابن المقرئ في « المعجم » (٨٣٨) ، وأبو الحسن الأزدي في « حديث مالك بن أنس » (٦٩) ، وابن عدي في « الكامل » (٦٢٠/٩) ، والقشيري في « الرسالة » (ص ٥٧١) ، من حديث سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٣) هو جزء من الحديث السابق .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٥٣) ، وابن ماجه (٤١٢٢) من حديث سيدنا أبي هريرة ، وأخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٧٧) من حديث سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهم .

وقيلَ : سُئِلَ الجُنيدُ عنِ الفَقرِ ؟ فقالَ : الفقيرُ هو الَّذي لا يَحزَنُ للذَّمِ ، ولا يَفرَحُ للمَدحِ .

وسُئلَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ عنِ الفَقرِ ، فقالَ : الفقيرُ هو الَّذي إذا أُعطِيَ . . شَكَرَ ، وإذا مُنِعَ . . صبرَ .

وسُئِلَ سلطانُ بايزيدَ عنِ الفقرِ ، فقالَ : الفقيرُ هو الَّذي إذا مُنِعَ . . صَبَرَ ، وإذا أُعطِيَ . . آثَرَ .

وسُئلَ السَّيِّدُ أحمدُ الكبيرُ عنِ الفقرِ ، فقالَ : الفقيرُ هو الَّذي يَحمِلُ الأذىٰ ، ويتركُ الأذىٰ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَادَ ٱلْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً »[1] .

و« ٱلْفَقْرُ سَوَادُ ٱلْوَجْهِ فِي ٱلدَّارَينِ »[2] .

و« ٱلْفَقْرُ فَخْرِي ، وَبِهِ أَفْتَخِرُ عَلَىٰ سَائِرِ ٱلْأَنْبِيَاءِ »[3] .

أمَّا قولُه : « كَادَ ٱلْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً » . . فهو الِافتقارُ إلى الخلقِ دونَ الحقِّ .

وأمَّا قولُهُ : « ٱلْفَقْرُ سَوَادُ ٱلْوَجْهِ فِي ٱلدَّارَيْنِ » . . فهو الِافتقارُ إلى اللهِ وإلى الخلقِ .

وأمَّا قولُه : « ٱلْفَقْرُ فَخْرِي ، وَبِهِ أَفْتَخِرُ عَلَىٰ سَائِرِ ٱلْأَنْبِيَاءِ » . . فهو الافتقارُ إلى اللهِ تعالىٰ دون الخلقِ .

(١) أخرجه الطبراني في « الدعاء » (١٠٤٨) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه ، وأخرجه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٤٤٠) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/٥٣) من حديث سيدنا أنس .

(٢) أورده العجلوني في « كشف الخفاء » (٢/٨٧) ؛ وقال : (قال الصغاني : موضوع) .

(٣) أورده ابن المُلقِّن كما في « خلاصة البدر المنير » (٢/١٦١) .

الباب التّاسع والعشرون

في اللّبـاس

اللِّباسُ لباسانِ : لباسُ الظَّاهرِ ، ولباسُ الباطنِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾[1] .

أمَّا لباسُ الظَّاهرِ : فهو نوعانِ : ضَروريٌّ وغيرُ ضروريّ .

فالضَّروريُّ : هو ما يَستُرُ العورةَ ، ويَدفَعُ الحرَّ والبردَ .

وغيرُ الضَّروريِّ : هو للتَّجمُّلِ والتَّزيُّنِ بينَ النَّاسِ ؛ لإظهارِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ ، لا للتَّفاخُرِ والتَّكبُّرِ .

وأمَّا لباسُ الباطنِ : فهو أيضاً نوعانِ : ضروريٌّ وغيرُ ضروريّ .

أمَّا الضَّروريُّ : فهو الورَعُ وخَشيةُ اللهِ تعالىٰ ، والتَّضرُّعُ إليهِ ، والتَّمسُّكُ بأوامرِهِ ، والاجتنابُ عن نواهيهِ ؛ لأنَّهُ يَستُرُ عيوبَ الدُّنيا والآخرةِ .

وأمَّا غيرُ الضَّروريِّ : فهو مَكارِمُ الأخلاقِ ؛ مِثلُ النَّوافلِ في الطَّاعاتِ ، والإصلاحِ بينَ النَّاسِ ، والعفوِ عنهُم ، والدَّلالةِ على الخيرِ .

* * *

(١) سورة الأعراف : (٢٦) .

فَصْلٌ

[في تخصيصِ أنواعِ الثيابِ]

فأهلُ اللهِ أرادوا أنْ يجمَعوا بينَ اللِّباسَينِ : لباسِ الظَّاهرِ ، ولباسِ الباطنِ ؛ ليُثابوا مِنَ الطَّرَفَينِ .

وقدْ رُوِيَ [١] أنَّ لُبسَ الخَشِنِ مِنَ الثِّيابِ زِيُّ الفُقراءِ الصَّالحينَ مِنَ الأصحابِ والتَّابعينَ .

والأفضلُ عندَ المشايخِ الكبارِ : لُبسُ الأسودِ ؛ لأنَّهُ أنسَبُ لكسرِ النَّفسِ وتَهذِيبِ الأخلاقِ .

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لفَّ على رأسِهِ عمامةً سوداءَ يومَ فتحِ مكَّةَ [٢] .

ومِنَ السُّنَّةِ : لُبسُ المرقَّعِ والخَشِنِ مِنَ الثِّيابِ [٣] .

---

(١) يشهد له ما أخرجه الرَّامَهُرْمُزي في « الأمثال » (ص ٢٥٦) ، من حديث ابن الأدرع قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَمَعْدَدُوا ، وَاخْشَوْشِنُوا ، وَامْشُوا حُفَاةً » . قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ هو الرامهرمزي رَحِمَهُ اللهُ : (الْمَعْنَى : اقْتَدُوا بِمَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ ، وَالْبَسُوا الْخَشِنَ مِنَ الثِّيَابِ ، وَامْشُوا حُفَاةً ، وَهُوَ حَثٌّ عَلَى التَّوَاضُعِ ، وَنَهْيٌ عَنِ الإِفْرَاطِ فِي التَّرَفُّهِ وَالنِّعْمَةِ) .

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥٨) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

(٣) يشهد لهٰذا المعنىٰ حديث : « البذاذة من الإيمان » ؛ يعني : التَّقشُّف ، أخرجه أبو داوود (٤١٦١) ، وابن ماجه (٤١١٨) من حديث سيدنا أبي أمامة رضي الله عنه .

وهناك أحاديث تحث علىٰ إظهار نعمة الله على العبد ، بما يؤكد أن مثل هٰذه النصوص لا بد أن تفهم في ضوء بعضها البعض ، وإلا . . خرج الإنسان عن حدِّ التوسط والاعتدال ؛ أخرج أبو الشيخ الأصبهاني (٣٢٩) من طريق حَمَّاد بْنِ زَيْدٍ ، حدثنا جَلِيسٌ لِأَيُّوبَ ، قَالَ : دَخَلَ الصَّلْتُ بْنُ رَاشِدٍ عَلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ وَعَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ ، وَإِزَارُ صُوفٍ ، وَعِمَامَةُ صُوفٍ ، فَاشْمَأَزَّ مِنْهُ مُحَمَّدٌ ، وَقَالَ : أَظُنُّ أَنَّ أَقْوَاماً يَلْبَسُونَ الصُّوفَ يَقُولُونَ : قَدْ لَبِسَهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ لَبِسَ الْكَتَّانَ وَالْقُطْنَ وَالْيُمْنَةَ ، وَسُنَّةُ نَبِيِّنَا أَحَقُّ أَنْ تُتَّبَعَ .

وأوَّلُ مَنْ لَبِسَ المرقَّعَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ [١] .

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال : « مَن رَقَّ ثوبُهُ . . رَقَّ دِينُهُ » [٢] .

ولُبسُ الصُّوفِ والشَّعَرِ سُنَّةُ الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ ، وأوَّلُ مَنْ لَبِسَ الشَّعَرَ موسىٰ عليهِ السَّلام [٣] .

ولُبسُ العَبا مستَحبٌّ ، وأوَّلُ مَن لَبِسَها سليمانُ بنُ داوودَ عليهِ السَّلامُ ؛ تَشبُّهاً بالمساكينِ [٤] .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « نَوِّرُوا قُلُوبَكُمْ بِلُبْسِ ٱلصُّوفِ ؛ فَإِنَّه مَذَلَّةٌ فِي ٱلدُّنْيَا ، وعِزٌّ في الآخرةِ » [٥] .

والمرادُ مِنْ لُبسِ السَّوادِ والخَشِنِ مِنَ الثِّيابِ : التَّواضُعُ ، وكسرُ النَّفسِ ، وتَهذيبُ الأخلاقِ ؛ لا لجمعِ الدُّنيا ، وإلَّا . . لا فائدةَ في لُبسِها غيرُ دَفعِ الحرِّ والبردِ فقطْ .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٥٤٠٨) من طريق عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ ، قَالَ : كَانَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَلْبَسُ الشَّعْرَ . وأخرج أيضاً (٣٦٨٧١) من طريق خَيْثَمَةَ ، قَالَ : كَانَ عِيسَىٰ يَلْبَسُ الصُّوفَ ، وَكَانَ يَحْيَىٰ يَلْبَسُ الْوَبَرَ .
أما أوَّليَّة لبسه للمرقع . . فلم أقف عليه ، وقد استنبط ابن عجيبة في « البحر المديد » (٢/٢٠٦) من قوله تعالىٰ : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أن أول من لبس المرقع آدم عليه السلام .

(٢) أخرجه النسفي في « القند في ذكر أخبار سمرقند » (ص ١٩١) ، من حديث سيدنا أنس ، بلفظ : « اغد عالماً أو متعلماً ، ولا تكن ثالثاً فتهلك ، الناس رجلان : عالم ومتعلم ، ولا خير في الناس من سواهم ، من رقَّ وجهه . . رقَّ علمه ، ومن رقَّ ثوبه . . رقَّ دينه » .

(٣) لم أقف عليه .

(٤) لم أقف عليه إلا في بعض المصادر المتأخرة ؛ كـ « الدرر المباحة في الحظر والإباحة » (ص ٢٠) .

(٥) لم أقف عليه في شيء من دواوين السنة المعتمدة ، وأورده المؤلِّف في « عوارف المعارف » (١/٣٤١) .

الباب الثلاثون

في فضل النبيّ ومعجزاته عليه السّلام

أمَّا فضلُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : فإنَّ كلَّ نبيٍّ أرسلَهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ طائفةٍ مِنْ طوائفِ بني آدمَ ، ومحمَّدٌ عليهِ أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ أرسلَهُ اللهُ تعالىٰ إلىٰ كافَّةِ الإنسِ والجِنِّ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[1] ، وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾[2] .

وقيلَ : كلُّ نبيٍّ كانَ رحمةً لقومٍ ، ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أرسَلَهُ اللهُ تعالىٰ رحمةً للعالمينَ ؛ لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3] ، فإرسالُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ رَحمةً مِنْ عندِ اللهِ تعالىٰ لعبادِهِ ؛ ليُخرِجَهُم مِنْ ظُلَمِ الضَّلالَةِ إلىٰ نُورِ الهدايةِ .

وقالَ عليهِ السَّلامُ : « بُعِثْتُ لِلْأَحْمَرِ وَٱلْأَسْوَدِ »[4] .

و« آدَمُ ومَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا فَخَرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ ٱلْأَرْضُ عَنْهُ »[5] .

و« أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ ٱلْجِنَانِ »[6] .

---

(١) سورة سبأ : (٢٨) .

(٢) سورة الأحقاف : (٢٩) .

(٣) سورة الأنبياء : (١٠٧) .

(٤) أخرجه مسلم (٥٢١) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه ، بلفظ : « بُعِثْتُ إِلَىٰ كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ » .

(٥) أخرجه الترمذي (٣٦١٥) من حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٦) أخرجه أبو يعلىٰ في « المسند » (٦٦٥١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، بلفظ : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ » .

و« أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَتَجَلَّىٰ لَهُ ٱلرَّبُّ تَعَالَىٰ »[1] .

ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، أنَّهُ قالَ : أَوحَى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسى ابنِ مريمَ عليهِ السَّلامُ : أَنْ آمِن بمحمَّدٍ عليهِ السَّلامُ ، وأْمُرْ أمَّتك أنْ يُؤمِنوا بمحمَّدٍ أيضاً ، فوَعِزَّتي وجَلَالي ؛ لولَا محمَّدٌ . . لَما خَلقتُ آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ ، ولولَا محمَّدٌ . . لَما خَلقْتُ الجنَّةَ والنَّارَ ، والسَّماءَ والأرضَ ، والعرشَ والكُرسيَّ ، وجميعَ مَخلوقاتِي[2] .

فعندَ ذٰلكَ قالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾[3] .

وأمَّا معجزاتُه : فمِنْ بعضِ مُعجزاتِهِ أنَّهُ وُلِدَ ومَعَهُ عَشرُ مُعجزاتٍ :

الأوَّلُ : أنَّهُ وُلِدَ مَختوناً[4] .

والثَّانيةُ : أنَّهُ لمْ يُرَ لهُ بَولٌ ولا غائطٌ[5] .

والثَّالثةُ : أنَّهُ لمْ يقَعْ لهُ ظِلٌّ على الأرضِ[6] .

← وأخرج مسلم (١٩٧) من حديث سيدنا أنسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ : مُحَمَّدٌ ، فَيَقُولُ : بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ » .

(١) أخرجه ابن حِبَّان في « الصحيح » (٦٤٨٠) ضمن حديث سيدنا أنسٍ رضي الله عنه في الشفاعة ، وفيه : « فَيَتَجَلَّىٰ لَهُ الرَّبُّ ، وَلَا يَتَجَلَّىٰ لِنَبِيٍّ قَبْلَهُ » .

(٢) أخرجه الخَلَّال في « السُّنَّة » (٣١٦) ، والحاكم في « المستدرك » (٦١٤/٢) .

(٣) سورة الصف : (٦) .

(٤) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (١١٤/١) ، وقال الحاكم في « المستدرك » (٦٠١/٢) : (قد تواترت الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد مختوناً مسروراً) .

(٥) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » (٧٠/٦) ، من حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها ، وقال القاضي عياض في « الشفا » (١٥٤/١ ـ ١٥٥) : (وَقَدْ حَكَىٰ بَعْضُ الْمُعْتَنِينَ بِأَخْبَارِهِ وَشَمَائِلِهِ : أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَغَوَّطَ . . انْشَقَّتِ الأرض فابتلعت غائطه وبوله ، وفاحت لِذَٰلِكَ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ) .

(٦) قال ابن المُلقِّن في « غاية السول في خصائص الرسول » (ص ٢٩٧) : (كَانَ إذا مَشىٰ في الشَّمسِ ←

والرَّابعةُ : كانَ يَرىٰ ما وراءَهُ كما يَرىٰ ما قُدَّامَهُ (١) .

والخامسةُ : كانَ يَرىٰ في الظَّلامِ كما يَرىٰ في النُّورِ (٢) .

والسَّادسةُ : كانَ إذا مَشَىٰ على الرَّملِ أو على التُّرابِ . . لا يُرىٰ لهُ أثرٌ (٣) .

والسَّابعةُ : كانَ إذا مَشىٰ على الصُّخورِ . . غاصَت قَدَماهُ فيها ، وبَقِي لهما علامةٌ (٤) .

والثَّامنةُ : ما نَزَلَ عليهِ ذُبابٌ ، ولا قَمْلٌ ، ولا شيءٌ مِنَ الحشَراتِ (٥) .

والتَّاسعةُ : أنَّهُ لمْ يَحتَلِمْ في عُمُرِهِ قطُّ (٦) .

أو القَمَرِ . . لا يظهر لَهُ ظل ، وَيشْهد لَهُ أنه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام سَأَلَ الله تَعَالَىٰ أن يَجْعَل فِي جَمِيع أعقابه وجهاته نوراً ، وختم ذٰلِك بقوله : « واجعلني نوراً ») .

(١) أخرجه البخاري (٧٤١) ومسلم (٤٢٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » : (٧٥/٦) ، من حديث سيدنا ابن عبَّاس رضي الله عنهما .

(٣) قال الحلبي في « سيرته » (١٧٩/١) : (رأيت الإمام السبكي ذكر تأثير قدمه الشريف في الأحجار حيث قال في « تائيته » : [من الطويل]

وأثَّرَ في الأحجارِ مشيكَ ثمْ لمْ يؤثِّر برملٍ أوْ ببطحاءِ رَطْبةِ

قال شارحها : ولعل عدم تأثير قدمه الشريف في الرمل كان ليلة ذهابه صلى الله عليه وسلم إلى الغار) .

(٤) قال الصالحي في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٧٩/٢) : (ذكر كثير من المُدَّاح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا مشىٰ على الصخر . . غاصت قدماه فيه ، ولا وجود لذٰلك في كتب الحديث البتَّة . . .) .

وقال الحلبي في « سيرته » (١٧٩/١) : (ذكر بعضهم : أن نبينا صلى الله عليه وسلم أثَّر قدمه في الحجر أيضاً ؛ فقد أثَّر في صخرةِ بيت المَقْدِس ليلة الإسراء ، وإن ذٰلك الأثر موجودٌ إلى الآن) .

(٥) قال السيوطي في « الخصائص الكبرىٰ » (١١٧/١) : (ذَكَر القاضي عياض في « الشفا » ، والعزفي في « مولده » : أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه كان لا ينزل عليه الذباب ، وذكره ابن سبع في « الخصائص » بلفظ : أنه لم يقع علىٰ ثيابه ذباب قط ، وزاد : أن من خصائصه أن القمل لم يكن يؤذيه) .

(٦) أخرج الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٥٠٨) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢٥/١١) (١١٥٦٤) من طرق عن سيدنا ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : (مَا احْتَلَمَ نَبِيٌّ قَطُّ ، وَإِنَّمَا الاحْتِلَامُ مِنَ الشَّيْطَانِ) .

والعاشرةُ : أنَّهُ كانَ إذا عَزَمَ إلىٰ بيتٍ أو مكانٍ . . يَسبِقُهُ نورُهُ إلىٰ ذٰلكَ البيتِ وإلىٰ ذٰلكَ المكانِ قبلَ مَجِيئِهِ ، وكانوا يَعرِفونَ مَجِيءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِن مَجِيءِ النُّورِ .

تمّ الكتاب بعون الله تعالىٰ وتوفيقه (١)

وقال ابنُ الملقِّنِ في « غاية السُّولِ في خصائصِ الرَّسولِ » (ص ٧٤) : (والأشهرُ امتناعُ الاحتلامِ عليهم) .

وقال ابنُ كثيرٍ في « الفُصولُ في سيرة الرَّسولِ » (ص ٣٠٢) : (الأظهرُ في هٰذا التَّفصيلُ ؛ وهو أن يقالَ : إن أريدَ بالاحتلامِ فيضٌ من البدنِ . . فلا مانعَ من هٰذا ، وإن أريدَ به ما يحصلُ من تخبُّطِ الشَّيطانِ . . فهو معصومٌ مِن ذٰلك صلَّى الله عليه وسلَّمَ) .

(١) خاتمة النسخة (ب) : (تمَّتْ بعونِ الملكِ المنَّانِ) ، وخاتمة النسخة (ج) : (بعونِ اللهِ الملك المنَّانِ ، يا الله ، يا كريمُ ، يا رحيمُ ، تمَّت) .

من تراث

الإمَامِ أبي حَفْصٍ عُمَر السُّهْرَوَرْدِيّ

الكتاب السابع

الرَّحِيقُ المَخْتُوم

مقدّمة
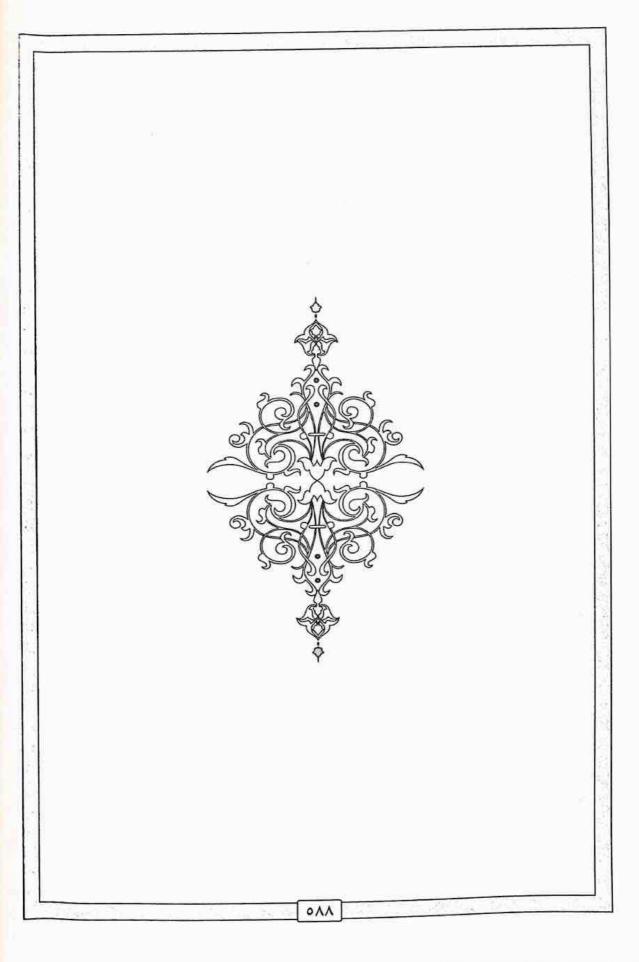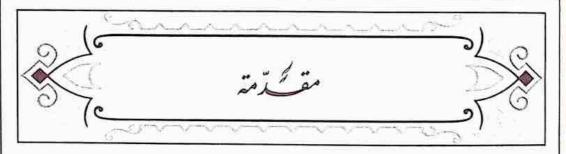
يُجيبُ السُّهرورديُّ في هٰذا الكتابِ عن طَلَبٍ توجَّهَ إليهِ مِنْ بعضِ قدماءِ أصحابِهِ أنْ يَذكُرَ له رموزاً مِنَ العلمِ المكنونِ والسِّرِّ المَصُونِ الَّذي هو نتيجةُ الخدمةِ وثمرةُ الحكمةِ ، لا يَظفَرُ بهِ إلَّا الغوَّاصونَ في بِحارِ المُجاهَداتِ ، ولا يَسعَدُ بهِ إلَّا المُصطَفَونَ بأنوارِ المُشاهَداتِ .

وقدْ أَورَدَ السُّهرورديُّ هٰذه الرُّموزَ في صورةِ موضوعاتٍ متعددةٍ ؛ كالعنايةِ ، والحجابِ والوصولِ ، والإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ ، ومجاهدةِ النُّفوسِ ، ومراتبِ هٰذه المجاهدةِ ومنازلِها ؛ كالإرادةِ ، والتَّوبةِ ، والوَرَعِ ، والزُّهدِ ، والفقرِ ، والصَّبرِ ، والتَّوكُّلِ ، والرِّضا ، وجعَلَ كلَّ موضوعٍ منها في فصلٍ مستقلٍّ ، وختَمَ بوصيَّةٍ جامعةٍ .

مِن ميزاتِ الكِتابِ : اهتمامُه بتعريفِ الرُّموزِ الَّتي يذكُرُها ، واعتناؤُه بذكرِ الأدلَّةِ عليها مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ .

ومنها : إيرادُ السُّهرورديِّ لبعضِ المَرويَّاتِ بإسنادِهِ عن شيوخِهِ ، وهٰذا مُفيدٌ في التَّعرُّفِ علىٰ بعضِ شيوخِهِ في الرِّوايةِ .

ومنها : إكثارُهُ مِنْ إيرادِ الأشعارِ الرَّقيقةِ المُناسِبةِ لكلِّ مَقامٍ يَتحدَّثُ عنهُ .

وصف النّسخ المعتمدة في التّحقيق
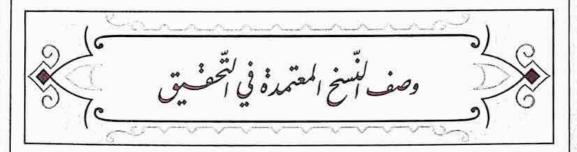
نُسخة مخطوطة بمكتبة بايزيد ولي الدِّين بإستانبول ، ضمن مجموعة برقم (٣٨/١٨٢١) ، الأوراق من (٢٦٤أ ـ ٢٧١ب) .

وصفَها النَّاسخُ بقولِه : (كتابٌ ؛ المسمَّىٰ بـ : « الرَّحيقِ المختومِ » ، تأليفُ الشَّيخِ العالم العلَّامةِ المحقِّقِ أستاذِ الطَّريقةِ ولسانِ أهلِ التَّحقيقِ ؛ شهابِ الدِّينِ عمرَ بنِ محمد السُّهرَوَردِيِّ ، قدَّسَ اللهُ سِرَّه ، ونفَعَ به ، آمينَ) .

ورمزتُ لها بـ : (أ) .

ومخطوطٌ آخرَ بالمكتبةِ السُّليمانيَّةِ إستانبول ، حاجي محمَّد أفندي (٠٢٦٨٢ ـ ٠٠١) ، الأوراق من (١ ـ ١٦) .

ورمزتُ لها بـ : (ب) .

نماذج من صور المخطوطات

كتاب المسمى بالرحيق المختوم تأليف الشيخ
العالم العلامة المحقق استاد الطريقة ولسان
اهل التحقيق شهاب الدين عمر ابن محمد السهروردي
قدس الله سره ونفع به آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تولانا ايجادا وجودا وعمنا كرما وجودا حمدا يرضيه
لنفسه ويقتضيه عزة قدسه وصلى الله على محمد خير الخلايق
واكرمهم فضيلة واقربهم الى الله وسيلة وعلى آله واصحابه نجم الهدى
وازواجه الطاهرات امهات المؤمنين صلوة دائمة لا ينقطع مددها
ولا ينقضي امدها اما بعد فان بعض من تفرست في محبته
وصحت في رغبته سألني ان املي عليه رموزا من العلم المكنون والسر
المصون الذي هو نتيجة الحذية وثمرة الحكمة لا يظفر بها الا الغواصون
في بحار المجاهدات ولا يستدليه الا المستطفون بانوار المشاهدات
اذ هو اسرار ممكنة في القلوب لا يظهر الا بالرياضة وانوار متلمعة في الغيب
لا تنكشف الا للقلوب المرتاضة فاهل العزة بالله لها منكرون وعنها
مدبرون على ما اخبرنا به الحافظ ابو جعفر اخبرنا ابو صالح احمد ابن عبد
الملك اخبرنا محمد ابن الحسين اخبرنا حامد ابن عبد الله الهروي
اخبرنا نضر ابن محمد ابن الحارث اخبرنا عبد السلام ابن صالح
حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن ابي هريرة رضي الله عنه
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان من العلم كهيئة المكنون
لا يعرفه الا العلماء بالله فاذا انطقوا به لا ينكره الا اهل العزة بالله تعالى
الحديث بتمامه فاجبت الملتمس اي ملتمسه مستوفقا من الله فاذا

الامر

نسخة مكتبة ولي الله تركيا (أ)

بتجلي السلطان هو تنبيه لعباده في كل شي له آية تدل انه واحد واذا امكنه
هذه الحالة واقتبست هذه الفضيلة انطبعت في فضلك نقوش
الملكوت وتجلى لمرآتك قدس اللاهوت والفت الانس الاعلى وذقت
اللذة القصوى واخذت لنفسك ما هو بك اولى واطلعت على
العالم الادنى وملت الى ما هو منه اسمى مراحم لاهله مستوثق بحبله
مستخف لثقله مستخفر العقله متصل لطرفه وتاملت نفسك وبجمالها
حجة وبهجتها بهجة فتعجبت منها ومنهم نعجبهم منه
وقد ودعها وكان معها كان ليس معها واعلم ان افضل حركاتك
واحمد اسكناتك الصلوة والصوم واعود البر والصدقة واحمد
الستر الاحتمال وابطل السعي المراياة وخير الاعمال ما صدر عن اخلاص
النية وخير النية ما انبعثت عن جناب علم وحكمة واعلم ان الحكمة
عين الفضايل ومعرفة الله تعالى اول الا وايل اليه يصعد الكلم الطيب
والعمل الصالح يرفعه واقول قولي هذا واستغفر
الله الغفار لي ولجميع المسلمين انه هو الجواد الكريم
والغفور الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم والحمد لله رب
العالمين وصلى الله على سيدنا
محمد واله وصحبه وسلم
اجمعين
تم

نسخة مكتبة ولي الله تركيا (أ)

رحيق النخبنق المختوم

للشيخ الاسلام عمر بن محمد الشهر وردى قدس الله سره العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى سبق الاشياء وجوداً وعمها كرماً وجوداً احمداً يرتضيه لنفسه وتقتضيه عزة قدسه وصلى الله على محمد خير الخلائق واكثرهم فضيلة واقربهم الى الله وسيلة وعلى اله واصحابه انجم زين وازواجه الطاهرات امهات المؤمنين صلاة دائمة لا ينقطع مددها لا ينقضى امدها اما بعد فان بعض من قدمت لى صحبته وصحت فى رغبته سالنى ان املى رموزاً من العلم المكنون والسر المصون الذى هو نتيجة الخدمت وغرة الحكمة لا يظفر به الا الغواصون فى بحار المجاهدات ولا يسعد به الا المصطفون بانوار المشاهدات اذ هو اسرار متمكنة فى القلوب لا تظهر الا بالرياضة وانوار ملتمعة فى الغيوب لا تنكشف الا للقلوب المرتاضة

نسخة المكتبة السليمانية تركيا (ب)

الفضيلة انطبع فی فصّك نقش الملكوت وتجلی فی مرآتك قدس الجبروت والفت الانس الاعلی وذقت اللذة القصوی واخذت عن نفسك الی ماهو بك اولی واطلعت علی العالم الادنی اطلاع راحم لاهله مستوهن لحبله مستخف لثقله مستنظل لطوفه وتذكرت نفسك وهو بها لهجة فيعجب منها ومنهم تعجبهم منها ومنك وقدر وعنها وكنت معها كان لست معها واعلم ان افضل حركاتك الصلوة وافضل شكناتك الصيام واعود البر الصّوفة واظهر السير الاحتمال وابطل السّعی المراءاة وخير العمل ماصدر عن اخلاص نية وخير النيّة ما انشرعت عن حباب واعلم ان الحكمة ام الفضايل ومعرفة الله اولی الاوايل اليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه) اقول قولی هذا واستغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل ولاحول ولا

قوة الا بالله العلى العظيم ⊛ تم كتاب رحيق المختوم

كتاب رسالة الانوار المعروف بالخلوات تأليف الشيخ
المحقق محمد بن على بن محمد الطاى الاندلسى قدس
الله سره ونفعنا به و بعلومه آمين والحمد لله
رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم اجمعين قال الشيخ الامام المحقق
محى الدين محمد بن على الحاتمى الطاى الاندلسى
نفع الله به سألتنى ارشدك الله عن كيفية
السلوك الى الله تعالى والوصول الى حضرته
والرجوع من عنده الى خلقه من غير مفارقته
فانه ما ثم فى الوجود الا الله تعالى وصفاته وافعاله

نسخة المكتبة السليمانية تركيا (ب)

الرحيق المختوم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
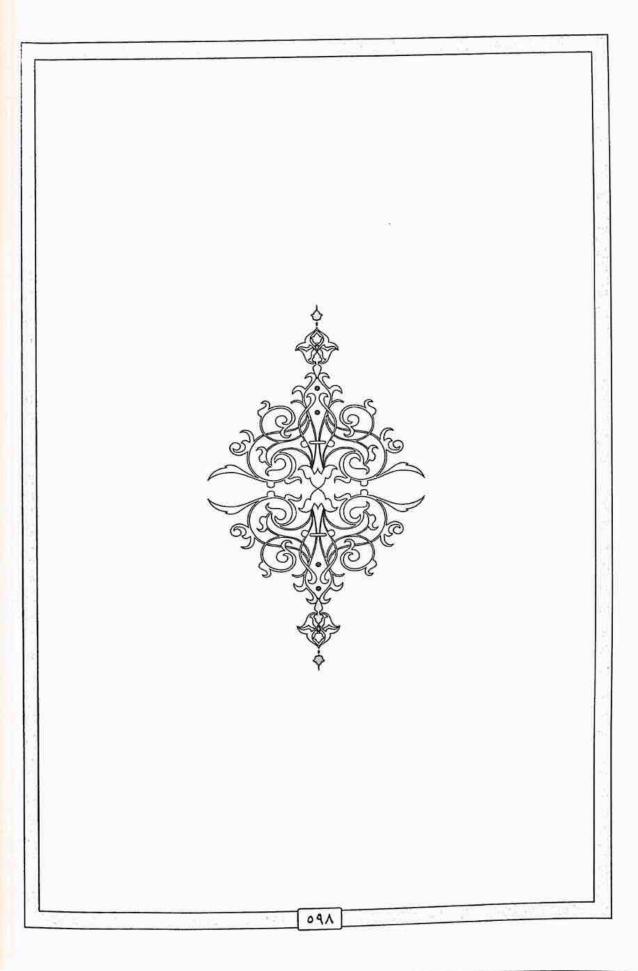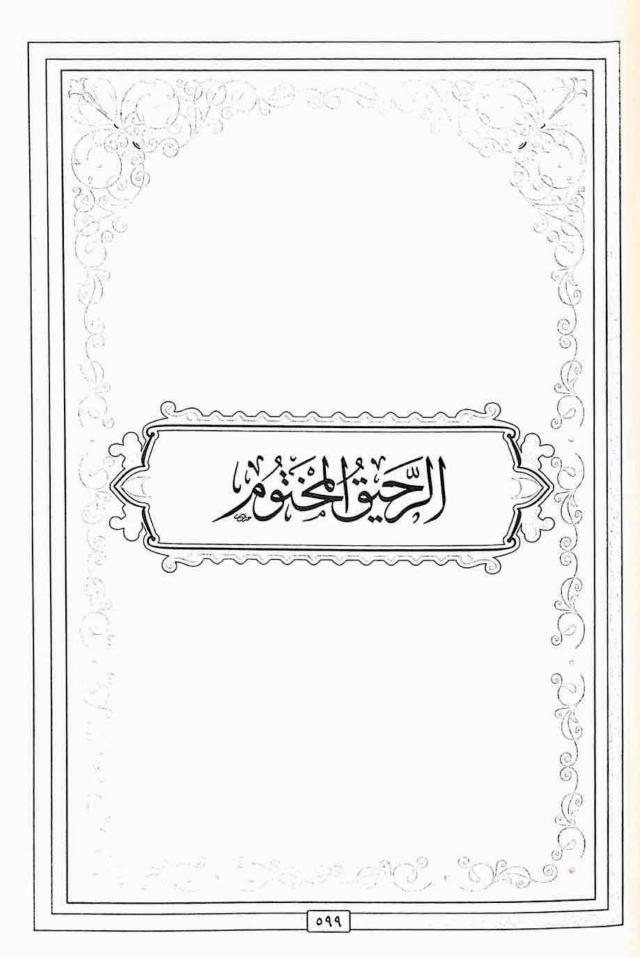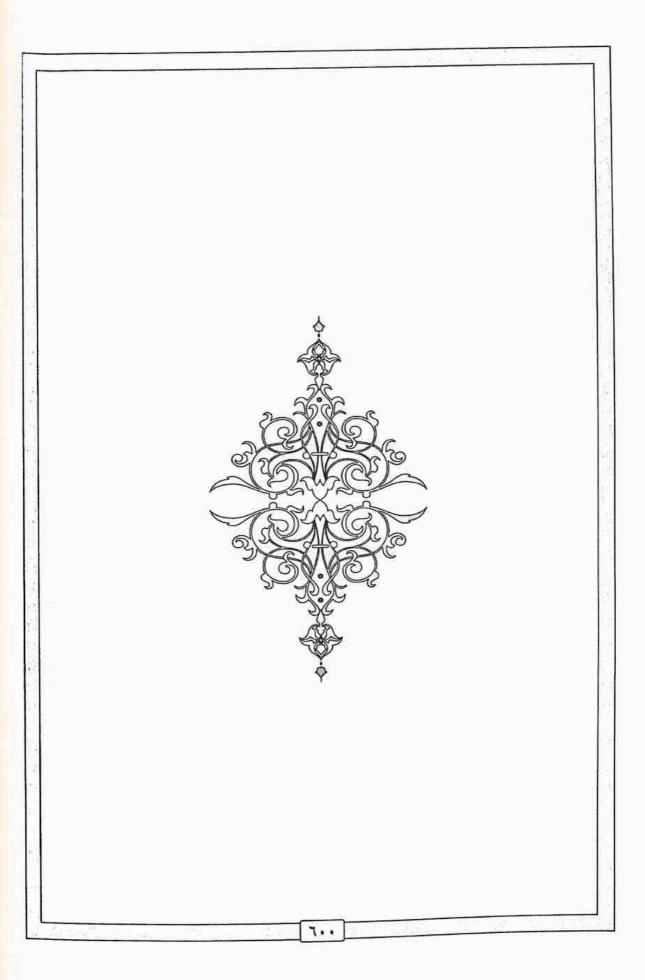
الحمدُ للهِ الَّذي سبقَ الأشياءَ وُجوداً ، وعمَّها كرَماً وَجُوداً ، حَمداً يَرتَضِيهِ لنفسِهِ ، وتَقتَضِيهِ عِزَّةُ قُدْسِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ محمَّدٍ خيرِ الخلائقِ وأكثرِهِم فضيلةً ، وأقربِهِم إلى اللهِ وسيلةً ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ أنجُمِ الدِّينِ ، وأزواجِهِ الطَّاهراتِ أمَّهاتِ المؤمنينَ ، صلاةً دائمةً لا ينقطعُ مَدَدُها ، ولا ينقضي أمَدُها .

أما بعد :

فإنَّ بعضَ مَنْ تقدَّمَتْ لي صُحبتُهُ ، وصحَّتْ فيَّ رغبتُهُ . . سألني أنْ أُملِيَ عليهِ رُموزاً مِنَ العلمِ المكنونِ والسِّرِّ المصُونِ ؛ الَّذي هو نَتيجةُ الخِدمَةِ وثَمَرةُ الحكمةِ ، لا يَظفَرُ بهِ إلَّا الغوَّاصونَ في بحارِ المجاهداتِ ، ولا يَسعَدُ بهِ إلَّا المصطَفَونَ بأنوارِ المشاهداتِ ؛ إذْ هو أسرارٌ مُتمَكِّنةٌ في القلوبِ لا تَظهَرُ إلَّا بالرِّياضَةِ ، وأنوارٌ مُلتمعةٌ في الغُيوبِ لا تَنكَشِفُ إلَّا للقُلوبِ المُرتاضَةِ .

فأهلُ الغِرَّةِ باللهِ لها مُنكِرونَ ، وعنها مُدبِرونَ ، علىٰ ما أخبرَنا بهِ الحافظُ أبو جعفرٍ ، أخبرَنا أبو صالحٍ أحمدُ بنُ عبدِ الملكِ ، أنَّهُ أخبرَهُ[1] محمَّد بن الحسينِ[2] ، أخبرَنا حامدُ بنُ عبدِ اللهِ الهروي ، أخبرَنا نَصرُ بنُ محمَّدِ بنِ الحارثِ ، أخبرَنا عبدُ السَّلامِ بنُ صالحٍ ، حدَّثنا سُفيان بنُ عُيينةَ ، عن ابنِ جُريجٍ ، عن عطاءٍ ، عن أبي هريرةَ رضي الله عنهُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قالَ : « إِنَّ مِنَ ٱلعِلْمِ كَهَيْئَةِ ٱلْمَكْنُونِ ، لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا ٱلْعُلَمَاءُ بِٱللهِ ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ . . لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا أَهْلُ ٱلْغِرَّةِ باللهِ . . . » الحديثَ بتمامِهِ[3] .

---

(١) زيادة يقتضيها السِّياق .

(٢) هو أبو عبد الرحمٰن السُّلميُّ ، والحديث في « الأربعين في التَّصوُّف » له (١٣) .

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٦٨) .

فأجبتُهُ إلىٰ مُلتَمَسِهِ ، مُستَوفِقاً[1] مِنَ اللهِ الأصوبَ والأرشدَ ، والأقوَمَ الأسَدَّ ، ومستعيناً به في الأمورِ كلِّها ، إنَّهُ خيرُ مُوفِّقٍ ومُعينٍ .

* * *

---

(١) أي : طالباً مِن الله التَّوفيقَ .

فَصْلٌ

[في أنَّ المُعوَّلَ على السابقةِ]

اعلمْ : أنَّ العنايةَ الأزليَّةَ هي الَّتي أوجَبَتِ الوِلايةَ ، ولولَاها لمَا قُرِّبَ آدمُ ولُعِنَ إبليسُ ، وقدِ استَويَا فيما أَتَيا .

والمحبَّةُ هي الَّتي أَورَثَتِ القُربةَ ، ولَولَاها لمَا رجعَ مُوسىٰ بالِاصطِفاءِ ، وقدْ خرَجَ للِاصطِلاءِ [١] .

شعرٌ [٢] : [من الهزج]

جُحُودِي لَكَ تَقْدِيسُ ... وَعَقْلِي فِيكَ تَهْوِيسُ

فَمَا آدَمُ لَوْلَاكَ [٣] ... وَمَا فِي ٱلْبَيْنِ إِبْلِيسُ

فليسَ بينَهُ وبينَ العبادِ نسَبٌ إلَّا الكَرمُ ، ولا سببٌ إلَّا الحكمُ ، رضيَ في الأزلِ عن قومٍ فاستعمَلَهُم بأعمالِ أهلِ الرِّضا ، ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [٤] ، وسَخِطَ علىٰ قومٍ فاستعمَلَهُم بأعمالِ أهلِ السُّخطِ ، ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [٥] .

شعرٌ [٦] : [من البسيط]

كَيْفَ ٱلسَّبِيلُ إِلَىٰ مَرْضَاةِ مَنْ غَضِبَا ... مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَلَا نَدْرِي لَهُ سَبَبَا

---

(١) إشارة إلىٰ قول الله تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النَّمل : ٧] .

(٢) هما للحلاج كما في « شرح ديوان الحلاج » (ص ١٦٢) .

(٣) في « ديوان الحلاج » : (وما آدم إلَّاك) .

(٤) سورة طٰه : (١٢٢) .

(٥) سورة التوبة : (٤٦) .

(٦) ذكره أبو نُعيمٍ الأصبهاني في « حليةُ الأولياءِ وطبقاتُ الأصفياءِ » (٢٤١/١٠) ، وفيه : (من غير جُرمٍ ولم نعرفْ له سببا) .

أخبرَنا الحسنُ بنُ أحمدَ بن الحسنِ المقرئ ، أخبرَنا أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ الحافظُ [1] ، أخبرَنا الحسنُ بنُ محمَّدِ بنِ كيسانَ ، أخبرَنا إسماعيلُ بنُ إسحاقَ القاضي ، أخبرَنا إسرائيلُ ، عن أبي إسحاقَ ، عنِ البراءِ بنِ عازبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ الخَندَقِ وهو يَنقُلُ معنا التُّرابَ ، وهو يقولُ : [من الرجز]

وَٱللهِ لَوْلَا ٱللهُ مَا ٱهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ ٱلْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا
فَٱلْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا [2]

سُلِبَ بلعامُ ثوبَ العِصمَةِ ، وأُوتيَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ رُشدَهُ مِنْ قبلُ ، هٰذا هو الأصلُ ، وما سِواهُ فصلٌ .

شعرٌ [3] : [من البسيط]

مَا حِيلَتِي تَفْعَلُ ٱلْأَقْدَارُ مَا أُمِرَتْ وَٱلنَّاسُ مَا بَيْنَ ذِي غَيٍّ وَذِي رَشَدِ

فَلْنَطْوِ هَٰذَا ٱلنَّمَطَ مِنَ الكَلامِ ؛ إذْ لو بَسطناهُ . . لانقَطعَ سِلكُ النِّظامِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) هو أبو نعيم الأصبهاني ، والحديث في « الأربعون على مذهب المحقِّقينَ مِنَ الصُّوفيَّة » له (١١٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٣٧) ، ومسلم (١٨٠٣) .

(٣) ذكره عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص ١٣٠) ، نقلاً عن أبي علي الدقّاق .

فَصْلٌ

[في الحثِّ علىٰ إزالةِ الحجبِ]

لا حِجابَ إلَّا وجودُكَ ، ولا غَيبةَ إلَّا شهودُكَ ، فغِبْ عن شهودِكَ . . تكُنْ حاضراً ، وافنَ عن وجودِكَ . . تكُن واصِلاً ، فلولا أنَّ مرايا القلوبِ صَدئَتْ . . لرأيتَ فيها العَجائبَ ، ولولا أنَّ بصائِرَها عَميَتْ . . لظَهرَتْ فيها العَواقِبُ .

أخبرنا عبدُ الرحمٰن بن حمد ، عنِ الرُّواة ، عن أبي هُريرة رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ٱلْبَسُوا ٱلصُّوفَ ، وَشَمِّرُوا ، وَكُلُوا فِي أَنْصَافِ ٱلْبُطُونِ . . تَدْخُلوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَاءِ »[1] .

ولٰكنْ رَانَ عليها الذّنوبُ ، فحُجبَتْ عن مُطالعةِ الغيوبِ ، وتكاثَفَتْ عليها ظُلم الشَّهواتِ فنكسَت ، وتَرادَفت عليها حُجُبُ الشُّبهَاتِ فطمسَتْ ، فلا ينفعُها ذِكرٌ ، ولا ينجَعُ فيها وعظٌ ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[2] ، ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[3] .

* * *

(١) أخرجه الديلمي في « الفردوس » (٣٣٨) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) سورة محمد : (٢٤) .

(٣) سورة الأعراف : (١٧٩) .

فَصْلٌ

[في المُحبِّ والمحبوبِ]

لا وصولَ إلَّا بحِفظِ الأُصول ؛ وهي تطهيرُ النَّفسِ مِنَ الأَخلاقِ المذمومةِ ، والطَّبائعِ الرَّديَّةِ المَلومَةِ ، وتبديلُ الصِّفاتِ البَهيميَّةِ والسَّبعيَّةِ والشَّيطانيةِ بالصِّفاتِ المَلَكيَّةِ المَرْضِيَّةِ ، فإنَّ التَّرقِّيَ في المَقامَاتِ تَكرِمةٌ أكَرَمَ اللهُ بها المُؤمنينَ ، وتفضيلٌ أَعطَاهُ اللهُ عِبادَهُ المُخلِصِينَ .

وهم صِنفَان : صِنفٌ محبوبونَ مُرادونَ : يُرِيهم كما يُحبُّ ، ويُزيِّنهُم بما يُحِبُّ ، مُنَعَّمون علىٰ بسَاطِ الأُنسِ ، مُقرَّبونَ في حَضْرةِ القُدسِ ، كما سُئل أبو يزيدَ عن معروفٍ الكَرْخيِّ فقالَ : أُعطِي الزُّبُدَ بالنِّرْسِيانِ[1] في حجرِ الرَّحمٰنِ .

شعرٌ : [من الوافر]

بَنُو حَقٍّ غُذُوا بِٱلْحَقِّ صِرْفاً فَنَعْتُ ٱلْحَقِّ فِيهِمْ مُسْتَعَارُ

وصِنفٌ مُريدون محبّون : فتارَةً يَتجلَّىٰ لهُم جَلالُهُ فينزَعِجونَ ، وتارَةً يتجلَّىٰ لهُم جمالُهُ فيبتهِجونَ ، فهم ينقَلبونَ مِنَ الخَوفِ إلى الرَّجاءِ ، مُتردِّدونَ بينَ الإقدَامِ والإِحجَامِ ، يدعونَ ربَّهُم خوفاً وطمعاً ، يؤدِّبُهم بالتَّعزُّز ، ويُهذِّبُهُم بالتَّلطُّفِ .

شعرٌ[2] : [من البسيط]

أَدَّبْتَنِي بِٱنْصِرَافِ ٱلطَّرْفِ يَا ثِقَتِي فَٱنْظُرْ إِلَيَّ فَقَدْ أَحْسَنْتَ تَأْدِيبِي

* * *

---

(١) النِّرسِيان : من أجود تمر الكوفة ، وفي المثَل عند أهل العراق : أطيبُ من الزُّبْدِ بِالنِّرْسِيَانِ ، يضربونه لما يُستطاب . انظر « المصباح المنير » (ن ر س) ، و« لسان العرب » (ن رس) .

(٢) ذكره القُشيري في تفسيره « لطائف الإشارات » (١٤٥/٣) ، وفيه : (أدَّبتني بانصراف قلبك عنّي) غير موزون .

فَصْلٌ

[في الاستسلامِ للهِ سبحانَه وتعالىٰ]

الإسلامُ إذاً هو مَشرَعُ الخاصِّ والعامِّ ، ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [١] .

حدَّثنا محمدُ بنُ إسماعيلَ ، أخبرَنا ابنُ فاذشاهَ ، أخبرَنا[٢] الطبرانيُّ[٣] ، أنا هارونُ كاملٍ ، أنا عبدُ اللهِ بنُ صالحٍ ، أخبرَنا الليثُ ، أنا يونسُ بنُ يزيدَ ، عن ابنِ شهابٍ ، عن عبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ : أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كَتبَ إلىٰ عظيمِ الرُّوم : « ٱلسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ ، أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ ٱلْإِسْلَامِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، يُؤْتِكَ ٱللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ »[٤] .

فالإسلامُ : هو الانقيادُ للأمرِ ظاهراً ، والتسليمُ للحُكمِ باطناً ، ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴾ [٥] .

وهو ثمرةُ ذَبحِ النَّفسِ بسَيفِ المُجاهَدةِ .

ونتيجتُه : الفَرحُ بالتَّلفِ في ظهورِ التحفِ .

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ ٱللهِ مَا لَقِيتِ[٦]

وأَصلُه : مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٧] ،

---

(١) سورة النحل : (١٦) .

(٢) كلمة (أخبرنا) : زيادة لا يستقيم الإسناد إلا بها .

(٣) في « المعجم الكبير » (١٦/٨) (٧٢٧٠) .

(٤) أخرجه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، بنحوه .

(٥) سورة الصَّافات : (١٠٣) .

(٦) أخرجه البخاري (٢٨٠٢) ومسلم (١٧٩٦) من حديث سيدنا جندب بن سفيان رضي الله عنه ، انظر « سيرة ابن هشام » (٤٧٦/١) .

(٧) سورة البقرة : (١٣١) .

وقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ كتَبَ إلىٰ هِرقلَ عَظيمِ الرُّومِ : « ٱلسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ ، أَدْعُوكَ بِدُعَاءِ ٱلْإِسْلَامِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، يُؤْتِكَ ٱللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ »[1] .

فَصْلٌ

[في معالمِ الإيمانِ]

ثُـمَّ يطلُعُ قَمَرُ الإيمـانِ ؛ إذْ هو محتملٌ للزِّيادةِ والنُّقصانِ ، ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ (1) .

[قالَ] أبو عدنانَ محمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ المطهرِ ، عنِ الرُّواةِ ، عن أبي ذَرٍّ قالَ : سألتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أيُّ الأعمالُ أفضَلُ ؟ فقالَ : « إِيمَانٌ بِٱللَّهِ ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ » ، فقلتُ : أيُّ الرِّقابِ أفضَلُ ؟ قالَ : « أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَأَعْلَاهَا ثَمَناً » ، قلتُ : فإن لم أفعَلْ ؟ قالَ : « تُعِينُ صَانِعاً ، أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ » ، قلتُ : فإنْ صنَعتُ ذٰلكَ ؟ قالَ : « تَدَعُ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلشَّرِّ ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَتَصَدَّقُ بِهَا عَنْ نَفْسِكَ » (2) .

فالإيمانُ : طُمأنينةُ القَلبِ إلىٰ ما في الغَيبِ بارتفَاعِ الرَّيبِ عنهُ ، وهو ثمرةُ حُسنِ الثِّقةِ بالمُخبرِ .

ونتيجتُهُ : الِالتِذاذُ بالِاسمِ علىٰ رؤيةِ المُسمَّى ، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (3) .

شعرٌ (4) : [من الطويل]

إذَا أُمُّ طِفْـلٍ مَضَّـهَا جُـوعُ طِفْـلِهَا غَذَتْهُ بِإِسْمِ ٱلْفَضْلِ فَٱسْتَعْصَمَ ٱلطِّفْلُ

* * *

(1) سورة يسٓ : (39) .

(2) أخرجه البخاري (2518) ، وفيه : (فإن لم أفعل) بدل (فإن صنعت ذٰلك) ، وهو أليق بالسياق .

(3) سورة الرعد : (28) .

(4) أورده الطبري في « تاريخه » (8/258) ، بنحوه .

فصل

[في مراقبةِ اللهِ تعالىٰ]

ثُمَّ تُشرقُ شمسُ الإحسانِ ؛ إذ هو مُنتهَىٰ زيادةِ الإيمانِ .

أخبرَنا الحسَن بنُ أحمدَ المُقرئُ ، عنِ الرُّواةِ ، عن أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا جَمَعَ ٱللهُ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ . . يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ بُطْنَانِ ٱلْعَرْشِ : أَيْنَ أَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ بِٱللهِ ؟ أَيْنَ ٱلْمُحْسِنُونَ ؟ قَالَ : فَيَقُومُ فَرِيقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ يَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَقُولُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَٰلِكَ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَحْنُ أَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ ، بَلِ ٱلَّذِينَ عَرَّفْتَنَا إِيَّاكَ وَجَعَلْتَنَا أَهْلاً لِذَٰلِكَ ، فَيَقُولُ : صَدَقْتُمْ ، ثُمَّ يَقُولُ لِلآخَرِينَ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَحْنُ ٱلْمُحْسِنُونَ ، قَالَ : صَدَقْتُمْ ، قَدْ قُلْتُ لِنَبِيِّي : ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [١] ، ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي » ، ثُمَّ تبسَّمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « نَجَّاهُمُ ٱللهُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ » [٢] .

فالإحسَانُ : مُراقبةُ قيامِ اللهِ علىٰ كلِّ نفْسٍ بما كسَبَتْ على الدَّوامِ .

وهو ثمرَةُ العِلمِ بقيُّوميَّةِ الحقِّ ، وافتِقارِ الأَشياءِ .

ونتيجتُهُ : استِشعَارُ الحَياءِ ، ومُلازَمةُ الوَفاءِ .

شعرٌ [٣] : [من الطويل]

كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكَ يَرْعَىٰ خَوَاطِرِي ۞ وَآخَرُ يَرْعَىٰ نَاظِرِي وَلِسَانِي

فَمَا رَمَقَتْ عَيْنَايَ بَعْدَكَ مَنْظَراً ۞ لِغَيْرِكَ إِلَّا قُلْتُ قَدْ رَمَقَانِي

---

(١) سورة التوبة : (٩١) .

(٢) أخرجه أبو نُعيم في « الأربعين في التصوف » (٥١) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٣) انظر « الرسالة القشيرية » (ص ٢٧٩) .

وَمَا بَـدَرَتْ مِـنْ فِـيّ بَـعْـدَكَ لَفْظَةٌ ... لِغَيْـرِك إِلَّا قُـلْـتُ قَـدْ سَمِعَانِي

وَلَا خَطَرَتْ فِي ٱلسِّرِّ مِنّيَ خَطْرَةٌ ... لِـغَـيْـرِكَ إِلَّا عَـرَّجَـا بِـعِـنَـانِـي

وَإِخْـوَانُ صِـدْقٍ قَـدْ سَمِعْتُ حَدِيثَهُمْ ... فَأَمْسَكْتُ عَنْهُمْ نَاظِرِي وَلِسَانِي

وَمَا ٱلزُّهْدُ أَسْلَىٰ عَنْهُمُ غَيْرَ أَنَّنِي ... وَجَـدْتُـكَ مَـشْـهُـوداً بِـكُـلِّ مَكَـانِ

فَخَاطَبْتُ مَـوْجُـوداً بِـغَيْـرِ تَـكَلُّمِ ... وَلَاحَـظْـتُ مَـعْـلُوماً بِغَيْـرِ عِـيَانِ

وَإِنِّـي لَأَسْتَحْيِيكَ وَٱلْبُعْدُ بَيْنَنَا ... كَـمَا كُنْتُ أَسْتَحْيِي وَأَنْـتَ تَـرَانِي

تَـمَكَّنَ فِي قَلْبِي هَـوَاكَ لِأَنَّـنِي ... أَرَاكَ عَـلَىٰ كُـلِّ ٱلْأُمُـورِ تَـرَانِـي

۞ ۞ ۞

فَصْلٌ

[في منازلِ النفسِ ومناهلِ القلبِ]

للنَّفسِ منازلُ ، وللقَلبِ مناهِلُ ، وكلَّما نزلَتِ النَّفسُ مِنَ المُجاهدةِ منزلاً . . وردَ القَلبُ مِنَ المشاهَدةِ مَنهلاً ، وكلَّما حلَّت النَّفسُ مِنَ الرِّياضةِ بقعةً . . كُسِيَ القَلبُ خِلعةً ، وكُلَّما زُيِّنَتِ النَّفسُ بتهذيبٍ . . شَرُفَ القلبُ بتقريبٍ .

والدَّليلُ : قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حاكياً عنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ : « مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً . . تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً . . تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي . . أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »[1] .

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
وقد ورد الحديث في (ب) بلفظ : « يقول الله تعالىٰ : قم فامشي إليَّ لنهرول إليك ، ابن آدم ؛ إن دنوت منّي شبراً . . دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت منّي ذراعاً . . دنوت منك باعاً ، ابنَ آدمَ ؛ إن حدَّثتك نفسُك بحسنةٍ ولم تعمَلها . . كتبتُها لك حسنةً ، وإن عمِلتَها . . كتبتُها لك عشراً » .

فَصْلٌ

[في صدقِ الإرادةِ]

أوّلُ منزلٍ تنزلُهُ النَّفسُ مِنَ المجاهدةِ : الإرادَةُ ؛ وهي انبعاثُ النَّفسِ لطلبِ الخَلاصِ مِن وَحشةِ الإدبار ، وظُلمةِ السُّكونِ إلى الأَغيارِ .

وهي ثمرةُ العِلم بخُسرانِ الصَّفقةِ في متابعةِ الفُرقةِ .

ونتيجتُها : بذلُ الوُسعِ ، واستفراغُ الطَّاقةِ ، مع تركِ الشَّكوَىٰ مِنَ الاختيارِ والتسليمِ لمجَارِي الأَقدَارِ .

وحقيقتُها : التَّولي عنِ الخَلقِ ، والتَّوجُّهِ إلى الحقِّ بآدابِ السَّيرِ ، واحتِمالِ الضَّير .

ومَلاكُها : الضِّنَّةُ بالأَنفَاسِ ، والاعتزالُ عنِ النَّاسِ .

شعرٌ[1] : [من الوافر]

إِذَا شَامَ ٱلْفَتَىٰ بَرْقَ ٱلْمَعَالِي ... فَأَهْوَنُ فَائِتٍ طِيبُ ٱلرُّقَادِ

* * *

(١) البيت يُنسب لأبي القاسم السَّعدي ابن عم ابن نُباتة ، ولأبي عبد الرحمن النَّيْلِيّ . وانظر « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » (٥/٢٩) ، و« الدر الفريد وبيت القصيد » (٢/٤٥٣) .

فَصْلٌ

[في اللَّحظِ]

فإذا نزلَتِ النَّفسُ هـٰذا المنزلَ . . وردَ القَلبُ مَنهَلَ اللَّحظِ ؛ وهو أن يُلاحِظَ القَلبُ لُطفَ الحَبيبِ في الأَزَلِ ، فيَدنُو إليهِ ويَستَحلِيهِ ، ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ (١) .

شعر (٢) : [من الكامل]

سَقْياً لِمَعْهَدِكَ ٱلَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ ... مَا كَانَ قَلْبِي لِلصَّبَابَةِ مَعْهَدَا

وهو ابتداءُ سَيرِ القَلبِ إلى الرَّبِّ .

وهو ثمرةُ جَذبِ الحقِّ إيَّاهُ بتلويحِ الجمالِ .

ونتيجتُهُ : التَّشمُّرُ في السَّيرِ إلى الرَّبِّ ، وتمكُّنُ الحُبِّ مِنَ القَلبِ إذا صادَفَهُ فارغاً ، ويكسُوهُ مِنَ الحُبِّ ثوباً سابِغاً .

شعرٌ (٣) : [من الطويل]

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ ٱلْهَوَىٰ ... فَصَادَفَ قَلْباً فَارِغاً فَتَمَكَّنَا

* * *

---

(١) سورة يوسف : (٣١) .

(٢) البيتُ لأبي تمام ، وفي الأصل : (لعهدك) ، والمعهد : المنزل . وانظر « ديوان أبي تمام » (ص ١٢٥) ، و« الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري » (٥١٨/١) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٨٢/٢٨) .

(٣) البيت منسوبٌ إلى مجنون بني عامر ، في : « البيان والتبيين » للجاحظ (٤١/٢ ـ ٤٢) ، وفيه : (قلبي فارغاً) ، وفي « الحيوان » له : (١٦٩/١) ، (١٦٧/٤) ، وفيه : (قلباً خالياً) . وانظر « عيون الأخبار » (٩/٣) ، و« الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري » (٦٩/١) ، و« محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء » (٢٩/٢) .

فَصْلٌ

[في التوبةِ]

ثُمَّ تنزِلُ النَّفسُ منزلَ التَّوبةِ .

أخبرَنا عبادُ بنُ محمدِ بنِ المحسنِ الجعفريُّ ، أخبرَنا عبدُ الرحمنِ بنُ أحمدَ ، حدَّثنا عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ حيَّانَ (1) ، أخبرَنا أحمدُ بنُ عليِّ الخزاعيُّ ، حدَّثنا مسلمُ بنُ إبراهيمَ ، حدَّثنا عليُّ بنُ سعدٍ ، حدَّثنا قتادةُ ، عن [أنسٍ ، عن] (2) النبيِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ ٱلْخَطَّائِينَ ٱلتَّوَّابُونَ » (3) .

فالتَّوبةُ : هي انخِلاعُ النَّفسِ عنِ المألُوفاتِ ، وانقِماعُها عن مُتابعةِ الشَّهواتِ .

وهي ثَمَرةُ انتباهِ القَلبِ مِن سِنَةِ الغفلةِ ، ونَدَمِ النَّفسِ علىٰ ما فاتَ مِنَ الوصلةِ .

ونتيجتُها : التَّشميرُ في حفظِ ما يستقبِلُهُ مِنَ السَّاعاتِ ، والتَّحسُّرُ علىٰ ما فاتَهُ مِنَ الأَوقاتِ .

شعرٌ (4) : [من الطويل]

وَأَذْكُـرُ أَيَّـامَ ٱلْـحِـمَـىٰ ثُـمَّ أَنْـثَـنِـي عَلَىٰ كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَقَطَّعَا

* * *

---

(1) هو أبو الشيخ الأصبهاني ، والحديث في « جزء من حديثه » (١٣٣) .

(2) زيادة لازمة من مصادر التخريج .

(3) وأخرجه أيضاً أحمد في « المسند » (١٣٠٤٩) ، والترمذي (٢٤٩٩) ، وابن ماجه (٤٢٥١) من حديث قتادة ، عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(4) البيت نُسب للصِّمَّة بن عبد الله القشيري في « شرح ديوان الحماسة لأبي تمام » للمرزوقي (ص ٨٥٣) ، وفيه : (أنْ تَصَدَّعَا) ، ونُسب ليزيد بن الطثريَّة في « مصارع العشاق » (٢/٢٠٣) ، وقد روي أيضاً لعبد الله بن الدمينة الخثعمي في « العقد الفريد » (٧/٣٦) ، و« وفيات الأعيان » لابن خلكان (٦/٣٧٠ ـ ٣٧١) .

فَصْلٌ

[في الذوقِ]

فإذا أُنزِلَتِ النَّفسُ هٰذا المنزلَ . . وردَ القَلبُ منهلَ الذَّوقِ ؛ وهو أنْ يجِدَ رَوحَ الحُبِّ وبَرْدَ القُربِ ، فيستلِذَّ المِحنَ علىٰ وَقعِ المِننِ ، ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [(١)] .

وهو ثَمَرةُ الوقوفِ على البابِ لرفعِ الحجابِ بتنسيمِ ريحِ النَّجاحِ ، وشيمِ بَرقِ الفَلَاحِ .

شعرٌ [(٢)] : [من الكامل]

وَلَقَدْ نَسَمْتُ ٱلرِّيَاحَ لِحَاجَةٍ فَإِذَا لَهَا مِنْ رَاحَتَيْكَ نَسِيمُ

ونتيجتُه : الحِرصُ على اقتناءِ الخيراتِ ، والنُّكوصُ عنِ الإقدامِ إلىٰ طَلبِ الشَّهواتِ ، والِانفصالُ عن غيرِ المحبوبِ وطَرحُ ما سِواه ، والحَومُ حولَ ما يحبُّهُ ويرضَاهُ .

شعرٌ [(٣)] : [من الطويل]

أَبَى ٱلْقَلْبُ إِلَّا أُمَّ عَمْرٍو فَأَصْبَحَتْ خَلِيلَتَهُ إِنْ زَارَهَا أَوْ تَجَنَّبَا
عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَتْ وَسِلْمٌ لِسِلْمِهَا وَمَنْ قَرَّبَتْ لَيْلَىٰ أَحَبَّ وَقَرَّبَا

* * *

---

(١) سورة الشعراء : (٥٠) .

(٢) البيتُ لأبي العتاهية ، وفي المصادر : (تنسمت . . . لحاجتي) ولعله الصواب ، وانظر « ديوان أبي العتاهية » (ص ٤٠٧) ، و« عيون الأخبار » لابن قتيبة (٣/١٣٤) .

(٣) البيتان للأحوص كما في « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني (٨/٢٢٤) ، (١٨/٣٧٣ ـ ٣٧٤) ، وانظر « الدر الفريد وبيت القصيد » (٢/٨١) ، وفيه : (فأصبحت صَفيَّته . . . ومَن قرَّنت) .

فَصْلٌ

[في الورعِ]

ثُمَّ تنزلُ النَّفسُ منزلَ الوَرَعِ .

أخبرَنا الحسنُ بنُ أحمدَ أبو علي[1] ، أخبرنا أحمد بن عبد الله أبو نعيمٍ[2] ، حدَّثَنا محمَّد بن إسحاق القاضي ، أخبرَنا أحمد بن عمرو البزار[3] ، أخبرَنا عبادُ بنُ يعقوبَ ، أخبرَنا عبدُ اللهِ بنُ عبدِ القدوسِ ، عن الأعمشِ ، عن مطرفِ بنِ عبدِ اللهِ ، عن حذيفةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فَضْلُ ٱلْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ ٱلْعِبَادَةِ ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ ٱلْوَرَعُ »[4] .

والوَرَعُ : هو تطهيرُ النَّفسِ عنِ التَّلوُّثِ بما يُورِثُ تَبِعةً للخَلقِ ، أو مُطالبةً للحقِّ ؛ وهو ثَمَرةُ الجَذبِ عنِ الانقِطاعِ ووقوعِ الحِجابِ[5] .

ونتيجتُهُ : التَّوقُّفُ والتَّأنِّي عنِ الانهماكِ في أَودِيةِ التَّمنِّي ، وتسليم العِنانِ إلىٰ إشارَةِ القَلبِ والجَنَانِ ، وتقييدِ الجَوارِح بامتثالِ الأَوامِر واجتنابِ النَّواهِي .

وقُصاراهُ : الاحتفاظُ عن تشتُّتِ الهمَّةِ ، والاِحترازُ مِنَ الفُتورِ في الخِدمَةِ .

شعرٌ : [من البسيط]

مُسْتَوْفِزُونَ عَلَىٰ رَحْلٍ كَأَنَّهُمُ ... رَكْبٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَمْضُوا وَيَرْتَحِلُوا[6]

* * *

---

(١) هو أبو علي الحدَّاد راوية أبي نُعيم الأصبهاني .

(٢) في « حلية الأولياء » (٢/٢١١) .

(٣) هو صاحب « المسند » ، والحديث فيه برقم (٢٩٦٩) .

(٤) أخرجه ـ سوىٰ من تقدَّم ـ الترمذي في « العلل الكبير » (ص ٢٤٣) ترتيبه ، والحاكم في « المستدرك » (١/٩٢) .

(٥) في (ب) : (وهو ثمرة الحذر عن الانقطاع ، ووقوف الحجاب) .

(٦) في الأصل : (مستوفزون علىٰ رحل وقد يريدون . . .) ، وانظر « لطائف الإشارات » (٣/٦٣٢) ، و« ترتيب المدارك » (٣/٤٧) ، والتصحيح ملفق بينهما .

فَصْلٌ

[في الشوقِ]

فإذا أُنزلَتِ النَّفسُ هـٰذا المنزِل . . وردَ القَلبُ مَنهَلَ الشَّوقِ ؛ وهو انزِعاجُ القَلبِ في السَّيرِ إلى المحبوبِ ، وارتِياحُ السِّرِّ بقُربِهِ .

وهو ثمرةُ تنسُّمِ رَوحِ الوِصَالِ .

ونتيجتُه : المُسارَعةُ في طَلبِ المَرضاةِ ، ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (١) .

فالاشتياقُ يقتَضِي الِاستِباقَ ، والمُشتاقُ عَجِلٌ ، لا يبرَحُ علىٰ حَظٍّ ، ولا يفرحُ بوَعظٍ .

شعرٌ : [من الطويل]

وَحَدَّثْتَنِي يا سَعْدُ عَنْهُمْ فَزِدْتَنِي ... جُنُوناً (٢) فَزِدْنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ (٣)

والمُشتاقون علىٰ مَراتِب :

مُشتاقٌ يسعىٰ بقَدَمِ المَلامةِ علىٰ مَركبِ المعذِرةِ في وادي التَّوبةِ ، مَقصِدُهُ القبُول ، و﴿ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ (٤) .

وآخَرُ : يسعَىٰ بقَدَمِ الِاجتِهادِ علىٰ مَركبِ الِافتقارِ في وادي الرَّغبةِ ، مَقصِدُهُ النَّوال ، ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة طه : (٨٤) .

(٢) في (ب) : (شجوناً) .

(٣) البيت لأبي الفضل العباس بن الأحنف ، في « ديوانه » (ص ٥٨) ، وورد في « زهر الآداب وثمر الألباب » للقيرواني (٢١٤/١) ، وفي « الدر الفريد وبيت القصيد » للمستعصمي (٢٢٠/١٠) ، وفيه : (شجوناً) .

(٤) سورة التوبة : (١٠٤) .

(٥) سورة التغابن : (١٧) .

وثالثٌ : يسعَىٰ بقَدَم التهيُّبِ علىٰ مركبِ الخشوعِ في وادي الإشفاقِ ، مقصدُهُ الأمانُ ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (١) .

ورابعٌ : يسعَىٰ بقَدَم الإخلاصِ علىٰ مركبِ النَّجاةِ في وادي الإنابةِ ، مقصدُهُ الإكرام ، ﴿ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴾ (٢) .

وخامسٌ : يسعىٰ بقَدَمِ المحبَّة علىٰ مركبِ الشَّوقِ في وادي الهيمانِ ، مَقصِدُهُ المحبوبُ ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴾ (٣) .

شعرٌ : [من مجزوء الكامل]

أَشْـتَـاقُـهُ فَـإِذَا بَـدَا أَطْـرَقْـتُ مِـنْ إِجْـلَالِـهِ
لَا خِـيـفَـةً بَـلْ هَـيْـبَـةً وَصِـيَـانَـةً لِـجَـمَـالِـهِ (٤)

⁂

(١) سورة الأنعام : (٨٢) .

(٢) سورة المعارج : (٣٥) .

(٣) سورة الفجر : (١٤) .

(٤) الأبيات لمعوج الرقي كما في « الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنىً » (ص ٤٥) ، وفي الأصل : (أشتاق) بدل (أشتاقه) .

فَصْلٌ

[في الزهدِ]

ثمَّ تنزلُ النَّفسُ منزلَ الزُّهدِ .

أنا عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ عمرَ ، أنا عبدُ الوهابِ بنُ محمدِ بنِ إسحاقَ ، أنا أبو ذرٍّ ، أنا محمدُ بنُ حفصِ بنِ عبدِ اللهِ النيسابوريُّ ، حدَّثنا إسحاقُ بنُ عبدِ اللهِ [١] ، أنا حفصُ بنُ عبدِ اللهِ ، عن يزيدَ بنِ عميرٍ ، عن الأعرجِ ، عن أبي هُريرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا رَأَيْتُمُ ٱلرَّجُلَ يُعْطَى ٱلزُّهْدَ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَيُقِلُّ مَنْطِقَهُ . . فَٱقْتَرِبُوا مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ ٱلْحِكْمَةَ » [٢] .

والزُّهدُ : ترفُّعُ النَّفسِ عن الِالتفاتِ إلى الدُّنيا ، وتركُ المُبالاةِ بها لقلَّةِ جدوَاها وكثرةِ بَلواها .

وهو ثمرةُ العلمِ بخَيريَّةِ الآجِلةِ ، وعزوفُ النَّفسِ عنِ العَاجِلةِ .

ونتِيجتُهُ : قلَّةُ الاكتراثِ بها ، واحتِقارُها والازورارُ عنها ، حتَّىٰ لا يُبالي حيثُ ترَكَها ؛ أَمُستحقٌّ أخذَها أمْ غيرُ مُستحقٍّ ؟

وقُصاراهُ : استِواءُ الذَّهبِ والحَجرِ عندَهُ ؛ إذْ محبَّةُ الدُّنيا محنَةٌ قديمةٌ ، وبَليَّةٌ عظيمةٌ .

وحقيقةُ الدُّنيا : ما شَبَطَ [٣] عن مُرافقةِ الرَّفيقِ إنْ تعلَّقَ الذَّيلُ بهِ في الطَّريقِ ، والِاستيسارُ في يدِ الشَّيطانِ .

---

(١) بعده في « ب » : (بن أرن در) ، ولا معنىٰ له .

(٢) أخرجه الخطيب في « تالي تلخيص المتشابه » (٢/٥٠١) من طريق يزيد بن عمير به .

(٣) شبط : تشبث وأمسك ، أو تعلق . انظر « تكملة المعاجم العربية » (ش ب ط) (٦/٢٣٧) .

والزُّهدُ : تجرُّدٌ عنِ الدُّنيا وعن ذِكرِها ؛ فلا يُعيرُها لَحْظاً ، ولا يذكرُها لَفظاً .

شعرٌ [1] : [من الطويل]

إِذَا ٱنْصَرَفَتْ نَفْسِي عَنِ ٱلشَّيْءِ لَمْ تَكَدْ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ آخِرَ ٱلدَّهْرِ تُقْبِلُ

❊ ❊ ❊

(١) البيت لمعن بن أوس المزني كما في « معجم الشعراء » للمرزباني (ص ٤٠٠) ، و« شرح ديوان الحماسة » للتّبريزي (٩/٢) .

فَصْلٌ

[في العطشِ]

فإذا أنزلَتِ النَّفسُ هـٰذا المنزلَ . . وردَ القَلبُ مَنهَلَ العَطَشِ .

والعَطشُ : هو تشَوُّقُ القَلبِ إلىٰ رَوحِ الوِصالِ ، والتَّخلُّصُ عن عِلَّةِ الاِنفِصالِ .

وهو ثَمَرةُ صِدقِ العَزمِ ، وغَلَبةِ الوَجدِ .

شعرٌ : [من البسيط]

إِنِّـي شَـرِبْـتُ بِـكَـأْسٍ مِـنْ مَـوَدَّتِـهِ فَبَالَغَ ٱلشُّرْبُ فِي مَكْنُونِ أَحْشَائِي

ونتيجتُهُ : الذُّهولُ عنِ الوجودِ ، والاِنقطاعُ إلى الموجودِ ، وشيمُ بَرقِ التَّجلِّي في السِّرِّ ، وتنسُّمُ نفحَاتِ الكَشفِ في أيَّامِ الدَّهرِ .

شعرٌ [١] : [من الطويل]

أَظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْماً غَمَامَةٌ أَضَاءَتْ لَنَا بَرْقاً وَأَبْطَا رَشَاشُهَا

فَلَا غَيْمُهَا يَجْلُو فَيَيْئَسَ طَامِعٌ وَلَا غَيْثُهَا يَأْتِي فَيَرْوَىٰ عِطَاشُهَا

والعَطشُ علىٰ مَراتبَ : عَطَشُ إرادةٍ : يتولَّدُ مِنَ العِلمِ ، وصاحبُهُ عازِمٌ ، وعَطَشُ طَلبٍ : يتولَّدُ مِنَ المعرفةِ ، وصاحبُهُ سائِرٌ ، وعَطَشُ شَوقٍ : يتولَّدُ مِنَ المحبَّةِ ، وصاحبُهُ واصِلٌ .

شعرٌ [٢] : [من الوافر]

وَأَبْـرَحُ مَـا يَـكُـونُ ٱلشَّوْقُ يَوْماً إِذَا دَنَـتِ ٱلْـخِـيَـامُ مِـنَ ٱلْـخِـيَـامِ

---

(١) الأبيات لبشار بن برد كما في « التمثيل والمحاضرة » للثعالبي (ص ٢٤٠) ، و« معاهد التنصيص علىٰ شواهد التلخيص » (٥٢/٢) ، وفيهما : (. . . يوماً سحابَةٌ) .

(٢) البيت بلا نسبة في : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » (ص ٣٢) ، و« تزيين الأسواق » لداوود الأنطاكي (٥٨/١) .

فَصْلٌ

[في الفقرِ]

ثمَّ تنزلُ النَّفسُ منزلَ الفَقرِ .

أخبرَنا أبو عليٍّ الحسنُ بنُ أحمدَ المقرئُ ، أخبرَنا أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ الحافظُ ، أنا سليمانُ بنُ أحمدَ ، أنا إسحاقُ بنُ إبراهيمَ ، ثنا عبدُ الرزَّاقِ[1] ، عن مَعمرٍ ، عن سليمانَ التيميِّ ، عن أبي عثمانَ أسامةَ بنِ زَيدٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَقَفْتُ عَلَىٰ بَابِ ٱلْجَنَّةِ ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا ٱلْفُقَرَاءُ ، وَوَقَفْتُ عَلَىٰ بَابِ ٱلنَّارِ ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا ٱلْأَغْنِيَاءُ ، وَإِذَا أَهْلُ ٱلْحَسَدِ[2] مَحْبُوسُونَ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلنَّارِ ، فَقَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى ٱلنَّارِ »[3] .

والفَقرُ : هو الِاكتِفاءُ بالمُكَوِّنِ عنِ الكَونِ ، وتركُ اختيارِ النَّفسِ في البَينِ .

وهو ثمرةُ المعرفةِ بحقيقةِ النَّفسِ ؛ إذِ الفَقرُ صِفةٌ ذاتيَّةٌ للنَّفسِ لا تزولُ عنها أبداً ، كما أنَّ الغِنَىٰ صِفةٌ ذاتيَّةٌ للرَّبِّ لا تزولُ عنهُ أبداً .

ونتيجتُهُ : ألَّا يَستلِذَّ بمَوجودٍ ما إذِ الحقُّ فاقتُه ، ولا يَستقِرَّ بفاقَةٍ إذِ الحقُّ موجودُه ، يلتجِئُ إلىٰ دارِهِ ولا يُبالي بما سِواهُ .

شعرٌ[4] : [من الطويل]

تَسَتَّرْتُ عَنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَىٰ دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَو تَسْأَلِ ٱلْأَيَّامَ مَا ٱسْمِيَ ؟ مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي ؟ مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

---

(١) في « المصنف » (٢٠٦١١) .

(٢) في مصادر التخريج : « الجد » .

(٣) أخرجه البخاري (٥١٩٦) ومسلم (٢٧٣٦) من طرقٍ عن سليمان التيمي . . . به ، بنحوه .

(٤) الأبيات لأبي نواس في « مختصر تاريخ دمشق » (٨٠/٧) ، وفيه : (تغطيت) ، وفي « الجليس الصالح الكافي » (ص ٢٣٤) ، وفي « النور السافر » (ص ١٥٣) ، وفيه : (عرفت) .

فَصْلٌ

[في الفرقِ]

فإذا أنزلَتِ النَّفسُ هـٰذا المنزلَ . . وردَ القَلبُ مَنهَلَ الفَرْقِ ؛ وهو انسِدادُ مَسالِكِ الِالتِفاتِ عنِ القَلبِ ، باستيلاءِ أنوَارِ الكَشفِ عليهِ ، ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [1] .

شعرٌ [2] : [من السريع]

لَا يَهْتَدِي قَلْبِي إِلَىٰ غَيْرِكُمْ ... لِأَنَّهُ سُدَّ عَلَيْهِ ٱلطَّرِيقْ

وهو ثَمَرةُ امتلاءِ زَوايا القَلبِ مِنَ المَحبوبِ ، واشتِغالِ السِّرِّ باشتِغالِ أنوَارِ الغيوبِ .

ونتيجتُهُ : نِسيانُ الأَحوَالِ والعلومِ ، واضمِحلالُ الآثَارِ والرُّسومِ .

شعرٌ [3] : [من الطويل]

فَلَمَّا ٱسْتَبَانَ ٱلصُّبْحُ أَدْرَجَ ضَوْءُهُ ... بِإِسْفَارِهِ أَنْوَارَ ضَوْءِ ٱلْكَوَاكِبِ

وأَهلُ الفَرقِ علىٰ مَراتِب :

فأهلُ اليقظَةِ غَرِقوا في بِحارِ عِزِّهِ .

وأهلُ التَّوبةِ غَرِقوا في بِحارِ عَفوِهِ .

وأهلُ الرَّجَا غَرِقوا في بِحارِ جُودِهِ .

---

(١) سورة يوسف : (٣٠) .

(٢) البيت لأبي الفضل العبَّاس بن الأحنف كما في « محاضراتُ الأدباء ومحاوراتُ الشُّعراء والبلغاء » (٣٨/٢) ، و« الدر الفريد وبيت القصيد » (٢٥٧/١١) ، وفيهما : (كأنما سُد) .

(٣) البيت يُنسب لأبي العباس القاسم السياري ، كما في « طبقات الأولياء » (ص ٣٦٧) ، وفيه : (استنار الصبح . . . بإسفار) ، وقد ورد في « لطائفُ الإشاراتِ » للقُشيريِّ (٢٧٦/٣) ، وفيه : (بأنواره أنوار تلك) .

وأهلُ المَعرفةِ غَرِقوا في بِحارِ أُنسِهِ .

وأهلُ الحُبِّ غَرِقوا في بِحارِ أنوَارِ مُشاهدَتِهِ ، واحتَرقوا بنارِ مُكاشَفتِهِ ، فهُم الَّذين انكَسرَتْ سَفينتُهُم وابتلعَتْهُم اللُّجَجُ ، فلمْ يبقَ لهم أثرٌ ، ولمْ يُؤثَر منهُم خَبرٌ ؛ لأنَّ مَنْ سِواهُم ألقَتْهُمُ الأمواجُ إلى السَّواحِلِ ، وهٰؤلاءِ التَقمَهُمُ الحوتُ فلمْ يبقَ منهُم حاصِلٌ .

شعرٌ[1] : [من الكامل]

رَاحَــتْ مُـشَـرِّقـةً وَرُحْــتُ مُـغَـرِّباً ... شَــتَّــانَ بَـيْـنَ مُــشَـرِّقٍ ومُــغَـرِّبِ

❊ ❊ ❊

(١) البيت بلا نسبة في : « زهر الأكم في الأمثالِ والحِكم » لليوسي (١/٢٢٢) ، وبنحوه في : « الدر الفريد وبيت القصيد » للمستعصمي (٥/١٠٦) ، وفيه : (ومتى التقاء مشرق ومغرب) .

فَصْلٌ

[في الصَّبرِ]

ثمَّ تنزلُ النَّفسُ منزلَ الصَّبرِ .

أنا الحافظُ أبو العَلاء أحمدُ بنُ نصرِ بنِ أحمدَ رحمَهُ اللهُ ، قالَ أخبرَنا الحسنُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الرحمٰنِ ، أنا أحمدُ بنُ الحسينِ أبو نصرٍ ، أخبرَنا أحمدُ بنُ إسحاقَ بنِ السُّنِّيِّ ، أنا أبو يعلى الموصليُّ [1] ، أنا عبيدُ بنُ جنادٍ الحلبيُّ ، ثنا يوسفُ بنُ محمدِ بنِ محمدِ المنكدرِ ، عن أبيهِ ، عن جابرٍ قالَ : سُئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن الإيمانِ ؛ فقالَ : « ٱلصَّبْرُ وَٱلسَّمَاحَةُ » [2] .

والصَّبرُ : هو حَبسُ النَّفسِ عن مجاري القَضاءِ ؛ بتَركِ الشَّكوَىٰ ، واستِلذَاذِ البَلوَىٰ .

وهو ثَمَرةُ الفَرَحِ بنفَاذِ حُكمِ المَحبوبِ عليهِ ، وكمالِ عِزَّتِهِ ، وإمضاءِ أمرِهِ ؛ إذْ صَولَةُ المحبوبِ محبوبَةٌ ، وسطوَتُهُ مأنوسَةٌ غيرُ مَرهُوبةٍ .

شعرٌ [3] : [من السريع]

جَــوْرُ ٱلْـهَـوَىٰ أَحْـسَـنُ مِـنْ عَـدْلِـهِ ⠀⠀ وَبُــخْــلُــهُ أَظْــرَفُ مِــنْ بَــذْلِــهِ

ونتيجتُهُ : الِالتِذاذُ بالمِحَنِ لرؤيةِ المُمتحِنِ : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [4] ، لا يُريدُ الِانتقالَ مِنْ حالِهِ ، ولا يخطُرُ ذٰلكَ ببَالِهِ .

---

(١) في « المسند » (١٨٥٤) .

(٢) أخرج الحديث أيضاً ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣١٠٣٢) ، وابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٦١) ، وابن نصر المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٦٤٧) وغيرهم .

(٣) البيت ورد في « لطائف الإشارات » للقشيري (١/٥٦٦) .

(٤) سورة الطور : (٤٨) .

شعرٌ : [من الكامل]

وَقَفَ ٱلْهَوَىٰ بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي ... مُـتَـأَخَّـرٌ عَـنْـهُ وَلَا مُـتَـقَـدَّمُ

وَأَهَـنْـتَـنِـي فَـأَهَـنْـتُ نَـفْـسِـي صَـاغِـراً ... مَـا مَـنْ يَـهُـونُ عَـلَـيْـكَ مِـمَّـنْ أُكْـرِمُ [1]

* * *

(١) البيتان لأبي الشيص محمَّد بن رزين الخزاعي كما في « شرح ديوان الحماسة » للتبريزي (٢/ ١٤٤) ، وفي « الشعر والشعراء » (٢/٨٣٢) ، وفيه : (نفسي جاهداً . . . ممن يُكرَمُ) ، وفي « المنتظم في تاريخ الأمم والملوك » (١٠/٣٤) ، وفيه : (يا مَن أهون) ، وفي « كنز الدرر وجامع الغرر » (٥/ ١٦٣) ، وفيه : (قاصداً . . . ممن يُكرَم) .

فَصْلٌ

[في السُّكرِ]

فإذا أُنزلَتِ النَّفسُ هٰذا المنزلَ . . وَردَ القَلبُ منهلَ السُّكْرِ .

والسُّكرُ : تبدُّلُ الصِّفاتِ ، وتغيُّرُ النُّعوتِ ، وهو ابتداءُ تنفُّسِ الصُّبحِ ، وبُرءِ الجُرْح ، ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾[١] .

وهو ثَمَرةُ الكَرْعِ في الوصلِ ، والاِنفِصالِ عن الفَصلِ .

ونتيجتُهُ : أنْ ينطَلقَ لِسانُهُ ، وينفَسِحَ جَنانُهُ ، وتنفتِحَ عَينُهُ ، ويَستَلِذَّ حينَهُ .

شعرٌ[٢] : [من الطويل]

وَمُقْعَدِ قَوْمٍ قَدْ مَشَىٰ مِنْ شَرَابِنَا ... وَأَعْمَىٰ سَقَيْنَاهُ ثَلَاثاً فَأَبْصَرَا

وَأَخْرَسَ لَمْ يَنْطِقْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً ... أَدَرْنَا عَلَيْهِ ٱلْكَاسَ يَوْماً فَأَخْبَرَا

وعلامتُهُ : ألَّا يبوحَ بالأَسرَارِ ، ولا يُميِّزَ بينَ الإعلانِ والإسرَارِ ، ينِمُّ لسانُهُ بسِرِّ القَلبِ ، ويخبرُ عمَّا وراءَ الغَيبِ ، ينطِقُ بما يُوحِي إليهِ الحالُ ، ويستَوِي عندَ المآلِ الأوَّل[٣] .

شعرٌ[٤] : [من الخفيف]

حَيْثُمَا دَارَتِ ٱلزُّجَاجَةُ دُرْنَا ... يَحْسَبُ ٱلْجَاهِلُونَ أَنَّا جُنِنَّا

---

(١) سورة يوسف : (٣٢) .

(٢) الأبيات للأقيشر الأسدي كما في « الأغاني » (١١/٢٦١) ، و« الحماسة البصرية » (٢/٣٩١) ، ونُسبت لأبي نواس في « المحب والمحبوب والمشموم والمشروب » للرفاء (٤/١٥٨) ، وفيه : (يوماً فهمَّرا) ، وبلا نسبة في « لطائف الإشارات » للقشيري (٢/٤٠) .

(٣) قوله : (ينطق بما . . . الأول) ساقطٌ من (أ) .

(٤) البيت لمالك بن أسماء بن خارجة ، في « كنز الدرر وجامع الغرر » (٤/٥٢١) .

تلاشَتْ ذاتُهُ ، واضمَحَلَّتْ صِفاتُهُ ، أسكَرَتْهُ قَهوةُ الجمالِ ، وغَمرَتْهُ سَطوَةُ الجَلالِ ، فبِي ينطِقُ ، وبي يَسمَعُ ، وبي يُبصِرُ ، وبي يَبطِشُ ، وبي يمشِي ، وبي يأتِي .

شعرٌ [١] : [من البسيط]

مُسْتَهْلَكِينَ بِقَهْرِ ٱلْحَقِّ قَدْ هَمَدُوا وَٱسْتُنْطِقُوا بَعْدَ إِفْنَاءٍ بِتَوْحِيدِ

* * *

(١) البيت بلا نسبة في : « لطائف الإشارات » للقشيري (١/ ٢٩٠) ، وفيه : (مستهلكون بقهر . . . بعد افتنائهم . . .) وفي الأصل : (فناء) بدل (إفناء) .

فَصْلٌ

[في التوكُّلِ]

ثمَّ تنزلُ النَّفسُ منزلَ التَّوكُّلِ .

حدَّثنا عبدُ الرحمٰنِ بنُ أحمدَ بنِ الحسينِ ، أنا أحمدُ بنُ الحسينِ الكسائيُّ ، أنا أحمدُ بنُ محمدِ بنِ إسحاقَ السبتيُّ ، أخبرَنا عمرُ بنُ حفصِ بنِ عمرويهِ ، حدَّثَنا أبو الربيعِ الحارثيُّ ، حدَّثَنا محمَّدُ بنُ إسماعيل بنِ فديكٍ ، أخبرَني محمدُ بنُ نوحٍ التيميُّ ، عن عيسى بنِ ميمونٍ ، عن محمدِ بنِ كعبٍ ، عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى ٱلنَّاسِ . . فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ »[1] .

والتَّوكُّلُ : إلقَاءُ المقاليدِ إلى اللهِ ، والالتِجاءُ إلىٰ عِلمِهِ ، والارتِضَاءُ باختِيارِهِ في حُكمِهِ .

وهو ثَمَرَةُ النَّظرِ إلىٰ لُطفِ اللهِ بهِ بَدءاً ، وكَونه في الأَزَلِ به حَفيّاً .

ونتيجتُهُ : نِسيانُ الأَوقاتِ ، ومُراقبةُ نظَرِهِ لهُ في جميعِ الحالاتِ ، ومُطالعَةُ عِلمِهِ التَّامّ وقُدرَتِهِ البَالِغةِ ، ورِضَاهُ بقِيامِهِ علىٰ كُلِّ شيءٍ .

وعلامتُه : استقامةُ خَواطِرِ الأَفكارِ تحتَ مجَاري الأَقدَارِ ، مع عِلمِهِ بأنَّ كُلَّ شيءٍ عندَهُ بمِقدَارٍ .

شعرٌ[2] : [من الطويل]

---

(١) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٧٣٠) ، وابن أبي الدنيا في « التوكل » (٩) ، وابن عدي في « الكامل » (٢١٩/٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٢٧٠/٤) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢١٨/٣) ، من طرقٍ عن محمد بن كعب به .

(٢) الأبيات لأبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، كما في « المذاكرة في ألقاب الشعراء » (ص ١٨٤) ، بنحوها .

إِذَا شِئْتِ أَنْ أَرْضَىٰ وَتَرْضَيْ وَتَمْلِكِي زِمَامِـيَ مَا عِشْنَا مَعاً وَمَعَانِيَا
أَلَا فَٱرْمُقِي ٱلدُّنْيا بِعَيْنَيَّ وَٱسْمَعِي بِـأُذْنِـيَ فِيهَا وَٱنْطِقِـي بِلِسَانِيَا

٭ ٭ ٭

فَصْلٌ

[في الصَّحوِ]

فإذا أُنزلَتِ النَّفسُ هٰذا المنزلَ . . وَردَ القَلبُ مَنهَلَ الصَّحوِ .

والصَّحوُ : الِاستِروَاحُ برَوحِ القُرْبِ ، والسُّكونُ إلىٰ بَردِ الوَصلِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ ، فَوَجَدْتُ بَرْدَ أَصَابِعِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ؛ فَعَلِمْتُ عِلْمَ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ »[1] .

وهو ثَمَرةُ مُلاطَفةِ الحَبيبِ ، والِاستِكنَانِ في كَنَفِهِ .

ونتيجتُه : التَّمكُّنُ ، وذَهابُ التَّلوُّنِ ، ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[2] ، والتَّمتُّعُ بكَمالِهِ ، والتَّكرُّعُ مِنْ جمالِهِ .

شعرٌ[3] : [من الطويل]

فَبِتْنَا عَلَىٰ رَغْمِ ٱلْحَسُودِ وَبَيْنَنَا ... حَدِيثٌ كَرِيحِ ٱلْمِسْكِ شِيبَ بِهِ ٱلْخَمْرُ

حَدِيثٌ لَوَ ٱنَّ ٱلْمَيْتَ يُؤْتَىٰ بِبَعْضِهِ ... لَأَصْبَحَ حَيّاً بَعْدَمَا ضَمَّهُ ٱلْقَبْرُ

فَوَسَّدْتُهُ كَفِّي وَبِتُّ ضَجِيعَهُ ... وَقُلْتُ لِلَيْلِي طُلْ فَقَدْ رَقَدَ ٱلْبَدْرُ

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٣٤٨٤) ، والترمذي (٣٢٣٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، بنحوه .

(٢) سورة النجم : (١٨) .

(٣) الأبيات لأحد الظرفاء كما في « الظرف والظرفاء » للوشاء (ص ٢٣٢) ، بنحوها ، وانظر : « الأمالي » لأبي علي القالي (٨٤/١) ، و« حماسة الظرفاء » للزوزني (ص ١٥) ونسبه لأبي الحسن القوال .

فَصْلٌ

[في الرضا]

ثُمَّ تنزِلُ النَّفسُ مَنزلَ الرِّضا .

حدَّثَنا أبو عليِّ الحسنُ بنُ أحمدَ المقرئُ ، أنا أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ الحافظُ [1] ، أنا سليمانُ بنُ أحمدَ بنِ أيوبَ [2] ، أنا الحسينُ بنُ إسحاقَ التستريُّ [3] ، حدَّثنا كثيرُ بنُ عبيدٍ ، ثنا بقيةُ [4] بنُ الوليدِ ، عن أبي توبةَ العنبريِّ [5] ، عن عبادِ بنِ كثيرٍ ، عن ابنِ طاووسٍ ، عن أبيهِ ، عن ابنِ عُمرَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِنَّ مِنْ كَرَامَةِ ٱلْمُؤْمِنِ عَلَى ٱللهِ نَقَاءُ ثَوْبِهِ ، وَرِضَاهُ بِٱلْيَسِيرِ » [6] .

والرِّضا : طُمأنينَةُ النَّفسِ تحتَ أَعباءِ سَطواتِ القَدَرِ ، حتَّىٰ لا يُسمَعَ لها نقصٌ ، ولا يُؤثِّرَ فيها رَفعٌ ولا خَفضٌ .

وهو ثَمَرةُ الاكتِفاءِ بلُطفِ الطَّبيبِ ، والإسلامِ لعِزَّةِ الحبيبِ [7] ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [8] .

خَلِيلَيَّ لَوْ دَارَتْ عَلَىٰ رَأْسِي رَحَىٰ ... ٱلدَّهْرِ لَمْ أَجْزَعْ وَلَمْ أَتَكَلَّمِ [9]

---

(١) هو أبو نعيم الأصبهاني ، والحديث في « حلية الأولياء » له (٧/٢) .

(٢) هو الطبراني ، والحديث في « المعجم الكبير » له : (٣٩٥/١٢) (١٣٤٥٨) .

(٣) في « الحلية » : (إسحاق بن الحسن التستري) .

(٤) في (ب) : (رويد) والتصويب من مصادر التخريج .

(٥) في (ب) : (أبي بويه التميري) ، وعند الطبراني وأبي نعيم : (النميري) والتصويب من ابن السني .

(٦) وأخرجه أيضاً ابن السُّنِّي في « القناعة » (٥٩) ، من طريق كثير بن عبيد به .

(٧) في (أ) وعبارتها : (وهو ثَمَرةُ الاستيلاءِ والانقيادِ للحبيبِ) .

(٨) سورة البقرة : (١٣١) .

(٩) البيتُ بلا نسبة في « لطائف الإشارات » للقشيري (٢٩٣/٢) ، وفيه : (رأسي الرحى من الذل لم) ، فيكون من البحر الطويل .

ونتيجتُهُ : أنْ يفرَحَ بالمِحنَةِ فَرحَ غَيرِهِ بالنِّعمةِ ، وأنْ يَشكُرَ عندَ البَلاءِ شُكرَ غيرِهِ في الرَّخَاءِ .

شعرٌ : [من الكامل]

إنَّ ٱلأُلَىٰ مَاتُوا عَلَىٰ دِينِ ٱلْهَوَىٰ وَجَدُوا ٱلْمَنِيَّةَ مَنْهَلاً مَعْسُولَا (1)

فإذا بلغَتِ النَّفسُ هٰذا المنزلَ . . اطمَأنَّت ، وصَارَت مُقيمَةً لا تَرتحِلُ ، وثابتَةً لا تنتقِلُ ، وينفَرِدُ القَلبُ عنها بمَناهِلَ .

* * *

(1) البيت لعمرو بن قنان في : « الظرف والظرفاء » للوشاء (ص ٧١) ، وبلا نسبة في « لطائف الإشارات » للقشيري (١/٧٢) ، وفيه : (دين الهدىٰ . . . معلولا) ، وورد بلفظ المصنف في موضعين آخرين : (١/٣٣٠ ، ٤٦٩) .

فَصْلٌ

[في الهيمانِ]

فيَرِدُ القَلبُ مَنهَلَ الهَيمانِ .

والهَيمانُ : وَلَهُ القَلبِ في بَراعةِ الجَمالِ ، وتعزُّزِ الجَلالِ ، ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾[1] .

وهو ثَمَرةُ البَسطِ ، وقوَّةُ الضَّبطِ .

ونتيجتُهُ : التَّعرّي مِنْ لِباسِ التَّغرّي ، والتَّخلّي عنِ التَّزيُّنِ ؛ اشتغالاً بما يُعايِنُهُ ويُعانِيهِ .

شعرٌ[2] : [من الوافر]

يُرَنِّحُنِي إِلَيْكَ ٱلشَّوْقُ حَتَّىٰ   أَمِيلُ مِنَ ٱلْيَمِينِ إِلَى ٱلشِّمَالِ

وَيَأْخُذُنِي لِذِكْرَاكَ ٱرْتِيَاحٌ   كَمَا نَشَطَ ٱلْبَعِيرُ مِنَ ٱلْعِقَالِ

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة الشعراء : (٢٢٥) .

(٢) الأبيات للشريف الرضي في « ديوانه » (١٧٥/٢) ، وفيه : (لذكركم . . . الأسير من) ، وبلا نسبة في : « شرح حديث : لبيك اللهم لبيك » لابن رجب (١٣١/١) ضمن « مجموع رسائله » ، وفيه : (لذكركمُ رياحٌ . . . الأسيرُ) ، وفي « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » (٤٥٨/٢) ، وفيه : (لذكراك اهتزاز . . . الأسير) .

فصل

[في التلفِ]

ثمَّ يرِدُ القَلبُ مَنهَلَ التَّلَفِ .

والتَّلَفُ : هو الانمِحاءُ تحتَ صَدَماتِ العِزَّةِ وخَطَفاتِ الغَيرةِ ولمَعانِ أنوَارِ الكِبرياءِ ، ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ [1] .

وهو ثَمَرةُ الاطِّلاعِ على الغَيبِ ، والحَومِ حولَ أسرَارِ الأَزَلِ .

شعرٌ [2] : [من الوافر]

وَيَظْهَرُ فِي ٱلْهَوَىٰ عِزُّ ٱلْمَوَالِي ... فَيَلْزَمُنِي لَهُ ذُلُّ ٱلْعَبِيدِ

ونتيجَتُهُ : فنَاهُ عن وجودِهِ ، وقيامُهُ لقيُّومِهِ الحَقّ ، مَنْ كَانَ في اللهِ تَلَفُهُ .. كانَ للهِ خَلَفُهُ [3] .

شعرٌ [4] : [من المجتث]

---

(١) سورة آل عمران : (١٥٧) .

(٢) البيت بلا نسبة في : « لطائف الإشارات » للقشيري (٢٣١/٣) .

(٣) في (ب) وعبارتها : (مَن كان اللهُ تلَفه .. كان اللهُ خلَفه) .

(٤) الأبياتُ للحلَّاج كما في « شرح ديوان الحلاج » لكامل مصطفى الشيبي (ص ٣٥٠ ، ٣٥١) ، وهي فيه كالآتي :

عجبتُ منك ومنّي ... يا مُنْيَةَ المُتَمَنِّي

أدنيتَني منك حتّى ... ظننتُ أنّك أنّي

وغبتُ في الوجد حتّى ... أفنيتني بك عنّي

ونُسبت أيضاً للشبلي كما في « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهاني (٤١٦/٢) ، والوارد فيه :

يا منية المتمنّي ... شغلتني بك عنّي

عجبت منك ومنّي

يَا مُنْيَةَ ٱلْمُتَمَنِّي عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنِّي

[وَغِبْتُ فِي ٱلْوَجْدِ حَتَّىٰ] أَفْنَيْتَنِي بِكَ عَنِّي

أَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي

۞ ۞ ۞

فَصْلٌ

[في المحبَّةِ]

ثمَّ يرِدُ القَلبُ مَنهَلَ المَحبَّةِ .

حدَّثنا الحسنُ بنُ أحمدَ المقرئُ[1] ، أخبرَنا أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ الناقدُ[2] ، حدَّثَنا محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عمرَ ، حدَّثَنا أبي ، حدَّثنا عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ عبيدٍ[3] ، أنا هارونُ الفَرْوِيُّ[4] ، قالَ : حدَّثني ابنُ علقمةَ ، عن زيدِ بنِ أسلمَ ، قالَ : هَلَكَ عثمانُ بنُ مظعونٍ ، فأَمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بجهازِهِ ، فلمَّا وضِعَ في قبرِهِ . . قالَتْ امرأتُهُ : هنيئاً لكَ أبا السَّائبِ الجنَّةُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وَمَا عِلْمُكِ بِذَٰلِكَ ؟ » قالَتْ : كانَ يا رسولَ اللهِ يصومُ النَّهارَ ، ويُصلِّي اللَّيلَ ، قالَ : « بِحَسْبِكِ لَوْ قُلْتِ : كَانَ يُحِبُّ ٱللَّهَ ورَسُولَهُ » .

والمحبَّةُ : أَوَّلُ وادٍ مِنْ أودِيةِ الفَناءِ ، وهي العَقَبَةُ الَّتي يَنحدِرُ منها إلىٰ مَشارِعِ الجَمعِ ؛ فما قبلَ المَحبَّةِ مِنَ المَناهِلِ يَتفرَّدُ به العَبدُ ، ولا يُضافُ إلى الرَّبِّ منه شيءٌ ؛ فإذا بلغَ مَنهَلَ المَحبَّةِ . . بدَا عينُ الجَمعِ : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[5] ، وهي البُقعَةُ المُبارَكةُ ، ﴿ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[6] .

فينبغي أنْ يُجدِّدَ فيها همَّتَهُ ، ويُقلِّبَ قَدَمَهُ ، ويَتعرَّىٰ عمَّا سِواها مِنَ المنازِلِ والمَناهِلِ ، ويُلبِّي تلبيةَ مُحبٍّ محبوباً وطَالِبٍ مَطلوباً .

---

(١) في (ب) : (المقدي) ، والصوابُ ما أثبتُّ ؛ وهو أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد المقرئ ، راوية الإمام أبي نعيم الأصبهاني .

(٢) هو أبو نعيم الأصبهاني ، والحديث في « الحلية » (١/١٠٦) .

(٣) هو ابن أبي الدنيا ، والحديث في كتاب « الأولياء » (٧٢) .

(٤) في (ب) : (القرديتي) ، والتصويب من مصادر التخريج .

(٥) سورة المائدة : (٥٤) .

(٦) سورة طه : (١٢) .

شعرٌ[1] : [من الخفيف]

لَسْتُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْمُحِبِّينَ إِنْ لَمْ أَجْعَلِ ٱلْقَلْبَ بَيْتَهُ وَٱلْمُقَامَا
وَطَوَافِي إِجَالَةُ ٱلسِّرِّ فِيهِ وَهْوَ رُكْنِي إِذَا أَرَدْتُ ٱسْتِلَامَا

والمَحبَّةُ حالةٌ تصطَلِمُ ، ولا تنضَرِمُ ، فتَأتي بَغتَةً ، وتَغِبُّ غِبَّةً .

* * *

(١) الأبيات نُسبت للشبلي في : « تاريخ دمشق » لابن عساكر (٧٢/٦٦) ، وفيه : (السر) ، وبلا نسبة في « لطائف الإشارات » للقشيري (٢٦١/١) ، وورد في موضع آخر (٥٣٩/٢) ، وفيه : (إجالة السر) .

فَصْلٌ

[في مقاماتِ المحبةِ]

شعرٌ[1] : [من الكامل]

إنَّ ٱلْـمَـحَـبَّـةَ أَمْـرُهَـا عَـجَـبُ ... تَـفِـي عَـلَـيْـكَ وَمَـا لَـهَـا سَبَبُ

وهي تجلِبُ الغَيرةَ ، وتُورِثُ الحَيرةَ .

وشَجرتُها : معرفةٌ مُورِقةٌ .

وثمرتُها : رائِقةٌ مُنمَّقَةٌ .

وفيها مَقَامَاتٌ :

أوَّلُها : التَّحريضُ ، والإمعانُ في البَحثِ ، ﴿ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ ﴾[2] .

والثَّانيةُ : تآلُفُ الأَفكارِ ، ومحبَّةُ الأَذكَارِ[3] ، ﴿ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾[4] .

والثَّالثةُ : الفِرارُ مِنْ غيرِهِ ، للِاستِحلاءِ بذِكْرِهِ ، ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾[5] .

والرَّابعةُ : تطَلُّعُ الوصَالِ ، وتوَقُّعُ الِاتِّصَالِ ، ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾[6] .

والخَامِسةُ : تَنسُّمُ روحِ القَلبِ ، ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾[7] .

---

(١) البيتُ بلا نسبة في « لطائف الإشارات » للقشيري (٢/٤٥٦) ، و« شرح ديوان المتنبي » للعكبري (٤/١٢١) ، وفيهما : (تُلقَىٰ عليك) .
(٢) سورة يوسف : (٨٧) .
(٣) في (ب) : (توكُّف الأخبار محبَّة للأذكار) .
(٤) سورة يوسف : (٨٥) .
(٥) سورة يوسف : (٨٤) .
(٦) سورة يوسف : (٨٣) .
(٧) سورة يوسف : (٩٦) .

والسَّادسَةُ : دَهشَةُ اللِّقاءِ ، لجَلالَةِ الكِبريَاءِ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [1] .

والسَّابعةُ : الإنطِماسُ تحتَ شُعاعِ الجَمالِ : ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [2] .

شعرٌ [3] : [من الطويل]

فَمَا ٱلْحُبُّ حَتَّىٰ تَغْرَقَ ٱلْعَيْنُ بِٱلْبُكَا ... وَتَخْرَسَ حَتَّىٰ لَا تُجِيبَ ٱلْمُنَادِيَا

* * *

(1) سورة يوسف : (٣١) .

(2) سورة يوسف : (١٠٠) .

(3) البيتُ لمجنون ليلىٰ في : « شرح ديوان المتنبي » للعكبري (١٩٥/٤) ، وفيه : (فما الحب حتىٰ يلصق الجلد بالحشا) ، و« كنز الدرر وجامع الغرر » (٥١٢/٤) ، وفيه : (فلا حبّ حتىٰ يلصق الجلد بالحشا) ، وبلا نسبة في « لطائف الإشارات » للقشيري (٢٣٥/١) ، (٢٨٩/٣) ، وفيه : (تنزف العين) .

فَصْلٌ

[في التوحيدِ]

ثـمَّ يـرِدُ القَلـبُ مَنهَلَ التَّـوحيـدِ ؛ وهـو الـشَّـرابُ الطَّـهـورُ الَّـذي يَنفِي خُبث الحدثِ [١] ، ويُفنِي نَعتَ النَّعتِ .

أخبرَنا أبو حفصٍ ثابتُ بنُ طاهرٍ ، أخبرَنا أبو جعفرٍ الهرويُّ ، أخبرَنا عليُّ بنُ أحمدَ المؤذِّنُ ، حدَّثَنا محمَّدُ بنُ الحسينِ بنِ موسىٰ ، حدَّثنا محمَّدُ بنُ عليٍّ الطَّالقانيُّ ، حدَّثنا أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ حاتمٍ ، حدَّثنا أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ ، حدَّثنا أبو حذيفةَ ، عن مُقاتلٍ ، عن عمرِو بنِ شعيبٍ [٢] عن أبيهِ ، عن جدِّهِ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ : مَكْتُوبٌ عَلَىٰ سَاقِ ٱلْعَرْشِ ، وَتَبَارَكَ ٱسْمُكَ : مَكْتُوبٌ عَلَىٰ حِجَابِ ٱلْعَرْشِ ، وَلَا إِلَـٰهَ غَيْرُكَ : تَوْحِيدُ ٱللهِ ؛ فَمَنْ وَحَّدَ ٱللهَ . . أَدْخَلَهُ ٱللهُ ٱلْجَنَّةَ » [٣] .

والتَّوحيدُ : إفرَادُ الحَقِّ مِنَ الخَلقِ ، ومَحوُ آثارِ البَشريَّةِ ، وتجريدُ الأُلوهيَّةِ .

وهو ثَمَرةُ الخروجِ مِن مَضيقِ الرُّسومِ الزَّمانيَّةِ ، إلىٰ سَعَةِ فَضاءِ السَّرمَديَّةِ .

ونتيجتُهُ : رؤيةُ الأغيارِ كما لمْ تكُن ، ورؤيةُ الجبَّارِ علىٰ ما لمْ يزَل ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [٤] .

وحقيقتُه : دَوَامُ المُشاهَدةِ على المُساعَدةِ ؛ فإنَّ الحقَّ ينظُرُ إلى القَلبِ دائماً ، فيكونُ القَلبُ يتأهَّبُ للقَبُولِ قائماً ، فلمَّا احتجَبَ القَلبُ عن هـٰذه الحالةِ طَرْفَةَ عَينٍ . . انقطَعَ مِنْ ألَمِ البَينِ ، ويصِلُ إلىٰ مَقعَدِ صِدْقٍ .

---

(١) في (أ) : (الخبث) بدل (الحدث) .

(٢) في (ب) : (عمر بن شعيب) ، والصوابُ ما أثبتُّ .

(٣) لم أقف عليه عند غير المُصنِّف ، وهو هنا مصدرٌ أصيلٌ في معرفة هـٰذا الخبر .

(٤) سورة الأنعام : (٩١) .

شعرٌ[1] : [من الطويل]

خَيَالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْـرُكَ فِي فَمِي وَحُـبُّـكَ فِـي قَـلْـبِـي فَـأَيْـنَ تَـغِـيـبُ

والتَّوحيدُ علىٰ مَراتِبَ :

توحيدُ إقرارٍ : وهو المَعنِيُّ بقَولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا : لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ »[2] .

وتوحيدُ عِلمٍ : وهو المقصودُ بقَولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[3] .

وتوحيدُ شُهودٍ : وهو المُشَارُ إليهِ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾[4] .

وتوحيدُ وُجودٍ : وهو المُرادُ بقَولِهِ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ[5] ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ ﴾[6] .

فالتَّوحيدُ الإقراريُّ : ثَمَرةُ[7] السَّمعِ ، ورؤيةِ المُعجِزاتِ ، ونتيجتُه : الإسلامُ .

والتَّوحيدُ العِلمِيُّ : ثَمَرةُ الِاستِدلَالِ ، والهِدايَةِ ، ونتيجتُه : الإيمانُ .

والتَّوحيدُ الشُّهودِيُّ : ثَمَرةُ الهِدَايَة ، ونتيجتُه : المَحبَّةُ .

والتَّوحيدُ الوجودِيّ : ثمرةُ العِنايةِ ، ونتيجتُه : الإحسَانُ .

فالمُوحِّدُ القَابِلُ[8] : مُتعرِّضٌ يستمِعُ ، فإنِ استَحلىٰ . . اتَّبعَ[9] .

---

(١) البيت لأبي الشمر عبد الواحد ، وهو أخو المعري كما في « الدر الفريد وبيت القصيد » للمستعصمي (١٩٣/٦ ، ٤٦٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) من حديث سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما ، وأخرجه البخاري (١٣٩٩) ومسلم (٢٠) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) سورة محمد : (١٩) .

(٤) سورة آل عمران : (١٨) .

(٥) قوله تعالىٰ : (قل الله) ليس في الأصولِ ، وقد أثبته للسياق .

(٦) سورة الأنعام : (٩١) .

(٧) كلمة (ثمرة) في هـٰذا الموضعِ وما سيأتي من مواضع في (أ) : (ثمرته) .

(٨) لعله يعني بالقَابِلِ : العامّيَّ ؛ بدلالةِ قولِهِ بعده : (والمُوحِّدُ العالِمُ) .

(٩) العبارة في (أ) : (فالموحِّد القائلُ يتعرض ويسمعُ ، فإنِ استحلىٰ . . اتبع) .

والمُوحِّدُ العَالِمُ : مُريدٌ محِبٌّ يقتَصُّ الأثَـرَ ، ويتحَسَّسُ الخبرَ ، يعرِفُ الأحباب ، ويقرَعُ البَابَ ، فإن لَجَّ . . وَلَجَ .

والمُوحِّدُ المُواجِدُ : داخِلٌ واجِدٌ واصِلٌ ؛ فإن حَفِظَ السِّرَّ . . اتَّصلَ .

والمُوحِّدُ المُشاهِدُ : انخَرطَ في سِلكِ النِّظَامِ ، وانغَمَسَ في بحرِ الِانضِمامِ ، فعليهِ التَّحيَّةُ والسَّلامُ ، رَامَ فهَامَ ، وكانَ فبَانَ ، غَارَ الحقُّ عليهِ فأمسَكَهُ لدَيهِ ، أوليائِي تحتَ قِبابِي ، لا يَعرِفُهم غَيرِي ، إنْ أخدَمَهُ نفوذُ القَدَرِ . . أعمَرَ بِهِ الغُرَّةَ بصفةِ البشرِ ، « مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي »[1] ، وإنْ نُوصِبَ معَهُ الحَربَ . . انتَابَ عنهُ الرَّبُّ[2] ، « مَنْ آذَىٰ لِي وَلِيّاً . . فَقَدْ بَارَزَنِي بِٱلْمُحَارَبَةِ »[3] ، فيُكسَىٰ ثَوبَ الخِلافةِ ، وخُلِعَ عليهِ بخِلعَةِ[4] الأبدَالِ ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[5] .

فهٰذا عبدٌ عَشِقَ فاحترَقَ ، وصفَا فصُوفيَ ، اضمحَلَّتْ في وَصفِهِ العلومُ ، واندرَسَتْ في أثَرِهِ الرُّسومُ .

شعرٌ[6] : [من الطويل]

طَوارِقُ أَنـوَارٍ تَلُوحُ إذَا بَدَتْ ... فَتُظْهِرُ كِتْمَاناً وَتُخْبِرُ عَنْ جَمْعِ

فَلَوْ سُئِلَ عن حَالِهِ . . أُسْكِتَ ، وظَنَّ الجاهِلونَ أنَّهُ قدْ بُهِتَ ، وإنَّما أسكَتَه التَّعظيمُ والِاحتِرام ، وسكَّتَه الحَقُّ بالِاصطِلام[7] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) في (أ) : (وإن ناصَب الحرب . . انتاب الرب) .

(٣) أخرجه بهٰذا اللفظ الكلاباذي في « مفتاح معاني الأخبار » (١٩٥/أ) ، من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه ، وأخرجه البخاري (٦٥٠٢) بنحوه ، من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) في (ب) : (تحلفة) ولا معنىٰ له ، ولعلَّ الصوابَ ما أثبتُّ .

(٥) سورة الأنفال : (١٧) .

(٦) البيتُ بلا نسبة في « لطائف الإشارات » للقشيري (٢٤٨/٢) ، و« الرسالة القشيرية » (ص ٢٣٩) .

(٧) الاصطلام : الاستئصال . « الصحاح » (١٩٦٧/٥) .

شعرٌ[1] : [من الكامل]

لَا تُنْكِري جَحْدِي هَــوَاكِ فَإِنَّـمَا ذَاكَ ٱلْجُحُودُ عَلَيْكِ سِتْرٌ مُسْبَلُ

۞ ۞ ۞

(١) البيتُ بلا نسبة في « لطائف الإشارات » للقشيري (٥٥٣/٢) ، (٦٢٧/٣) .

خاتمة
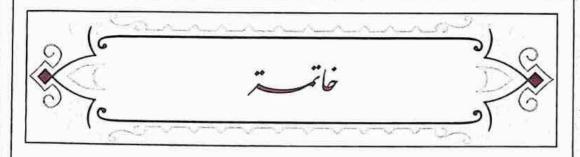
وأختِمُ الكتابَ بوَصيَّةٍ مرضيَّةٍ ، فاحفَظها :

فليكُنِ الحَقُّ تعالىٰ أوَّلَ فِكرِكَ وآخِرَهُ ، وباطنَ ذِكرِكَ وظَاهِرَهُ ، ولتكُنْ عينُ عَقلِكَ مَكحولَةً بالنَّظرِ إليهِ ، وهِمَّةُ قَلبِكَ مَوقوفَةً بالمُثولِ بينَ يَدَيهِ ، وكُن مُسافِراً في المَلَكوتِ الأعلىٰ وما فيهِ مِنَ الآياتِ الكُبرَىٰ .

فإذا انحَطَطتَ مِنَ الأُفقِ الأَعلىٰ إلىٰ أَسفلِ قَرارِهِ . . فانظُر إلى الحقِّ تعالىٰ في آثارِهِ [1] ؛ فإنَّهُ تعالىٰ باطِنٌ بعِزَّتِهِ ، ظاهِرٌ بحِكمَتِهِ ، تجلَّىٰ بسُلطانِ هَوِيَّتِهِ لعِبادِهِ [2] .

شعرٌ [3] : [من المتقارب]

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

فإذا ملَكتَ هٰذه الحالةَ ، وحُزتَ هٰذه الفَضِيلَةَ . . انطَبعَ في فَصِّكَ نقشُ المَلكوتِ ، وتجلَّىٰ في مِرآتِكَ قُدسُ الجبروتِ ، وألِفتَ الأُنسَ الأَعلىٰ ، وذُقتَ اللَّذةَ القُصوَىٰ ، وأَخذتَ لنفسِكَ إلىٰ ما هو بكَ أَولَىٰ ، واطَّلعتَ على العَالم الأَدنَىٰ ، ومِلتَ إلىٰ ما هو منهُ أَسْمَىٰ ، مزاحِمٌ [4] لأَهلِهِ ، مُستَوثِقٌ بحَبلِه ،

---

(١) في (ب) وعبارتها : (فانظر إلى الله وآثاره) .

(٢) في (ب) : (تجلىٰ لعباده بكلِّ شيءٍ) .

(٣) البيتُ منسوب للبيد بن ربيعة ، ولأبي نواس ، ولأبي العتاهية ، وقد ورد في « طبقات الشعراء » لابن المعتز (ص ٢٠٧) ، و« المحاسن والأضداد » للجاحظ (ص ١٦٨) ، و« الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني (٣٩/٤) .

(٤) في (أ) : (مراحم) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ ، وفي (ب) : (راحم) .

مُستخِفٌّ لثِقَلِهِ ، ومُستحقِرٌ لعقلِهِ ، مُتَّصِلٌ لطرْفِهِ ، وتأمَّلتَ نفسَكَ وهي لها حُجَّةٌ ، وبَهجتُها بَهجةٌ ، فتعجَّبتَ منها ومنهم تعجُّبَهُم منها ومنكَ ، وقدْ ودَّعَها وكانَ معها ، كأنْ ليسَ معَها ، واللهُ أعلمُ .

واعلَمْ : أنَّ أفضلَ حركاتِكَ الصَّلاةُ ، وأَحمدَ سكناتِكَ الصِّيامُ ، وأَعودَ البرِّ الصَّدقةُ ، وأَطهرَ السِّترِ [١] الِاحتمالُ ، وأَبطلَ السَّعيِ المُراءاةُ ، وخيرَ الأعمالِ ما صَدَر عن إِخلاصِ نيَّةٍ ، وخيرَ النِّيَّةِ ما أشرعَتْ عن جَنابِ عِلمٍ وحِكمةٍ ، واللهُ أعلمُ .

واعلَم : أنَّ الحِكمةَ عينُ [٢] الفَضائِل ، ومَعرفةَ اللهِ تعالىٰ أولَى الأَوائِلِ ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [٣] .

أَقول قَولي هٰذا ، وأَستغفِرُ اللهَ العظيمَ ، وحسبُنا اللهُ ونِعمَ الوَكيل ، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العَليِّ العَظيمِ .

تمّ كتاب الرّحيق المختوم [٤]

---

(١) في (ب) : (وأظهر السير) .

(٢) في (ب) : (أم) .

(٣) سورة فاطر : (١٠) .

(٤) ختمها النَّاسخُ في (أ) بقوله : (وأَقولُ قَولي هٰذا ، وأَستغفرُ اللهَ الغفَّار ، لي ولجَميعِ المُسلِمين ، إِنَّه الجَوادُ الكَريمُ ، والغَفورُ الرَّحيمُ ، ولا حَولَ ولا قُوةَ إلَّا باللهِ العَليِّ العَظيمِ ، والحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين ، وصلَّى الله علىٰ سيِّدنا محمَّد وآلِه وصَحبِه وسَلَّم ، أجمعين) .

الرسائل

من تراث
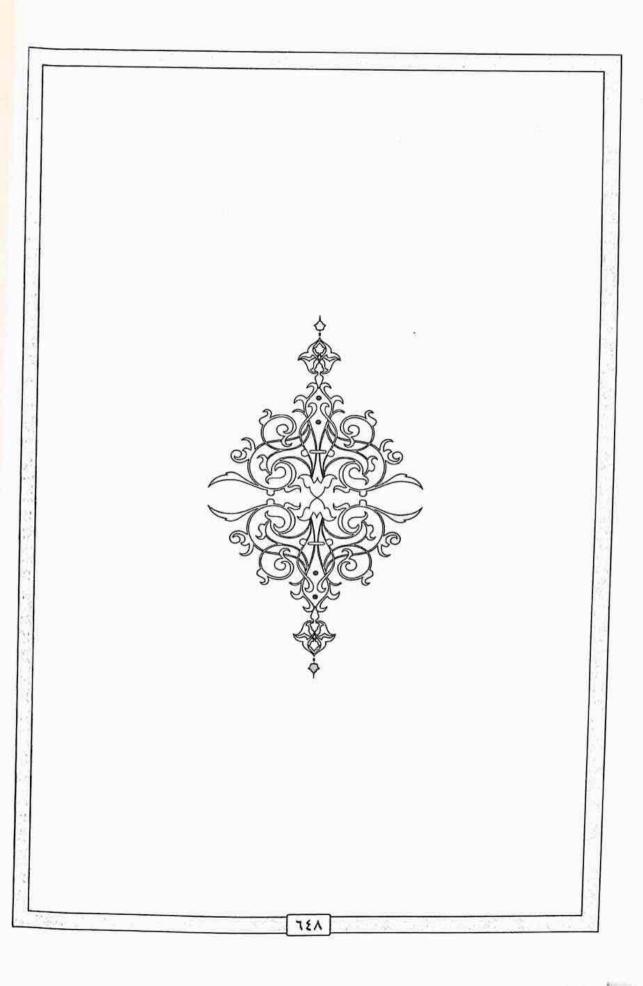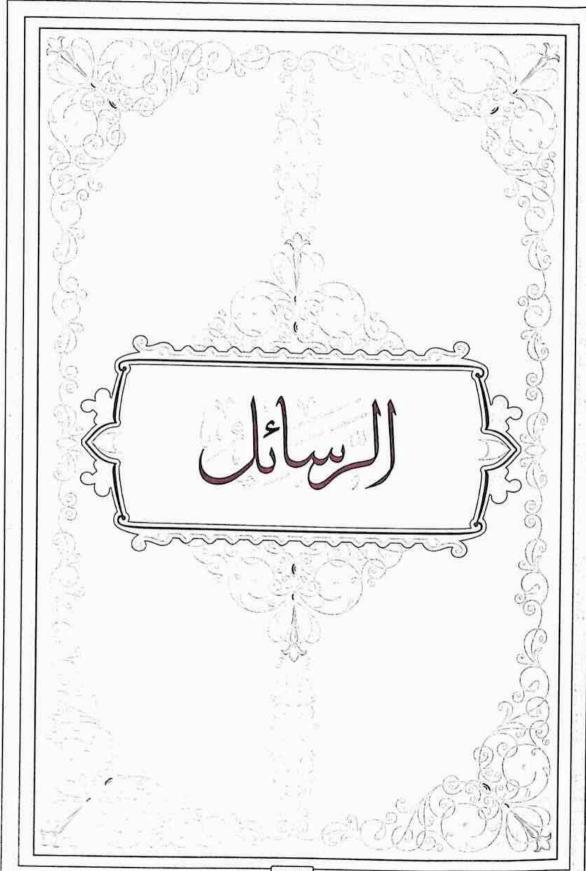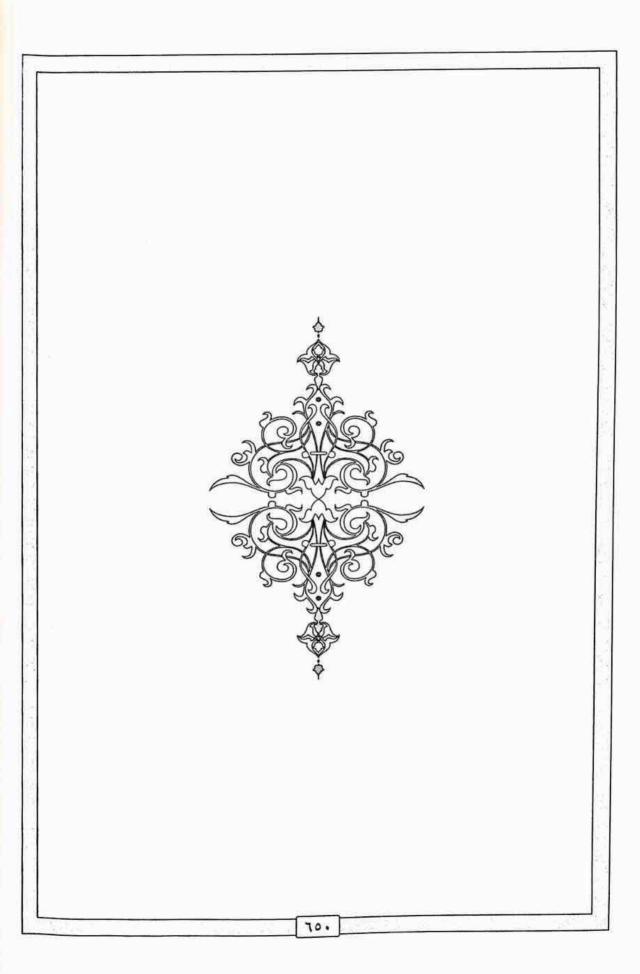
الإمَامِ أبي حَفْصٍ عُمَرَ السُّهْرَوَرْدِيّ

الرّسالة الأولى

رِسَالَةٌ فِي الإِرَادَةِ
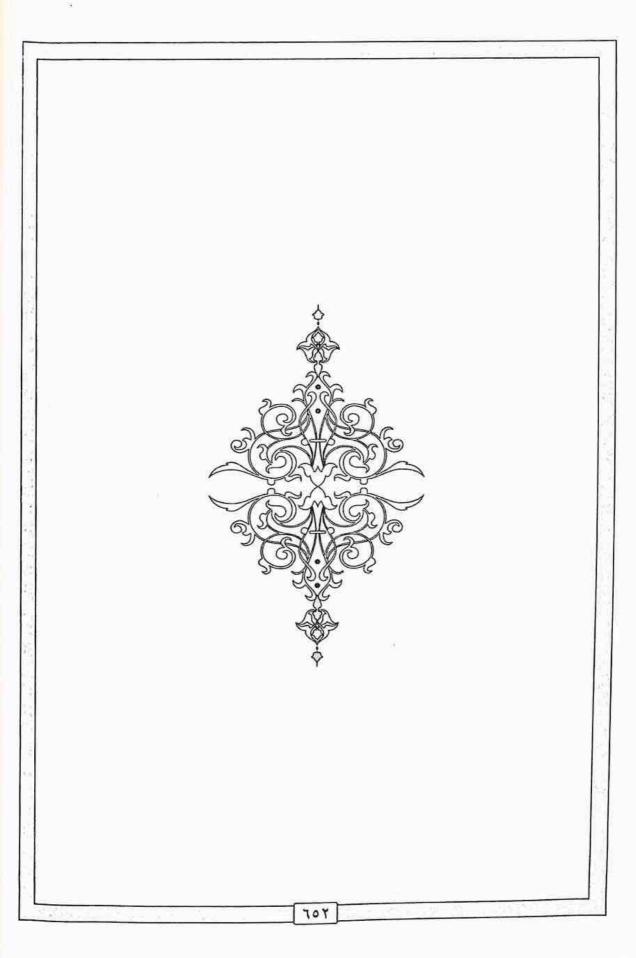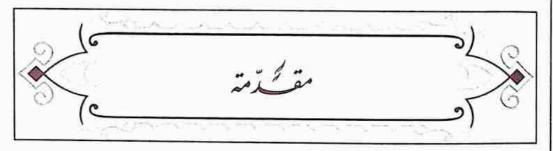
هٰذه الرِّسالةُ عبارةٌ عن إحدىٰ عَشْرةَ فائدةً مُنتقاةً مِن كلامِ الشَّيخِ السُّهرورديِّ رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ ، لعلَّها مِنْ تَقييداتِ بعضِ مَنْ تَلقَّىٰ عنهُ مباشرةً في حَلَقاتِهِ ، أو مِنْ جَمعِ بعضِ المتأخِّرينَ عنهُ ممَّنِ اطَّلَعَ علىٰ كُتُبِهِ ، فَرَغِبَ في استخراجِ فوائدَ مِنْ كلامِهِ فيها ، فهي ليسَتْ مِنْ جَمعِ السُّهرورديِّ ، بدليلِ استفتاحِ النُّسخةِ الَّتي بينَ أَيدينا بقولِ النَّاسخِ : (ومِن كلامِه . . .) أي : كلامِ السُّهرورديِّ .

وهي تدورُ ـ كما يُشيرُ عُنوانُها ، ويُعلَمُ مِنْ مُطالعةِ مضمونِها ـ حولَ مُصطلَحَي (الإرادةِ) و(المريدِ) ، وهما مصطلحانِ معروفانِ عندَ أهلِ التَّصوُّفِ ، دائرانِ في كلامِهِم[1] ، وقدْ تطرَّقَ إليهما السُّهرورديُّ نفسُهُ في مواضعَ مِنْ كتابِهِ : « عوارفُ المَعارفِ » .

استُهِلَّت الرسالةُ بتأصيلِ السُّهرورديِّ للمُصطلَحَينِ مِن خلالِ آيةِ سورةِ الأنعامِ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[2] ، والتوسُّعِ في بيانِ معنى المريدِ وآدابِهِ وأخلاقِهِ ، وحالِهِ معَ اللهِ تعالىٰ ، وضرورةِ وجودِ شيخٍ بصيرٍ يأخُذُ بيدِ المريدِ ويُعرِّفُهُ طرائقَ المواجيدِ وأسبابَ المزيدِ ، ويُبصِّرُهُ بصفاتِ النَّفسِ وأخلاقِها وشَهَواتِها الخفيَّةِ .

ثمَّ تتابعَتِ الفوائدُ العزيزةُ الَّتي عَنوَنَ لها جامعُها بـ (الفُتوح) ، وجاءَتْ في

---

(١) ينظر : « مُعجَم اصطلاحاتِ الصُّوفيَّة » للكاشانيِّ (ص ٢٧٠) ، و« مُعجَم مُصطَلَحاتِ التَّصوُّفِ الإسلاميِّ » لرفيق العجم (ص ٨٧٦) .
(٢) سورة الأنعام : (٥٢) .

موضوعاتٍ متعدِّدةٍ ؛ مِثلُ كيفيَّةِ التَّخلُّصِ مِنْ كُدوراتِ النَّفسِ ، وأنواعِ الخواطرِ الَّتي تَرِدُ على القلبِ ، ثمَّ الصِّدقِ وأَثَرِهِ في فتحِ بابِ العلومِ والإلهاماتِ ، وأخيراً يأتي الكلامُ عن دقائقِ الزُّهدِ ، ومنها : الزُّهدُ في الإلهاماتِ الحاصلةِ للصُّوفيِّ .

والفوائدُ المجموعةُ في الرِّسالةِ عاليةٌ للغايةِ ؛ سواءٌ أكانَ علوُّها في العباراتِ والأساليبِ المُستعمَلةِ فيها ، أم في مَضامينِها الصُّوفيَّةِ الدَّقيقةِ .

وصف النّسخ المعتمدة في التّحقيق
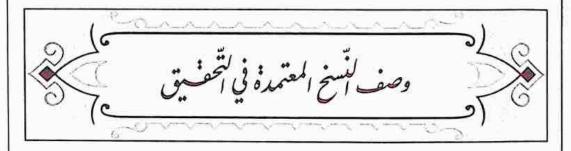
اعتمدتُ في تحقيقِ هٰذه الرِّسالةِ علىٰ نُسختيْنِ خطِّيَّتينِ :

أُولاهما : النُّسخةُ المحفوظةُ بمكتبةِ شهيد علي باشا ، ضِمنَ المكتبةِ السُّليمانيَّةِ إستانبول ، ضِمنَ مجموعةٍ برقم (٠١٣٩٣ ـ ٠٠٦) ، من الأوراقِ (٦٦٣أ) إلىٰ (٦٦٩أ) .

ورَمزتُ لها بـ : (أ) .

وثانيهما : النُّسخةُ المحفوظةُ بمعهدِ المخطوطاتِ العربيَّةِ ، برقم (٢٩ تصوُّف) ، وهي مصوَّرةٌ عن مكتبةِ أمانة بتركيا ، ضِمنَ مجموعٍ برقمِ (١٥/١٧٦٢) ، وفيه : (أسئلةٌ سُئِلَ عنها السُّهرورديُّ وأجوبتُهُ عليها) .

وفي أوَّلِها ذِكرُ اسمِ المُوصَىٰ له ، قال النَّاسخُ : (وَصيَّةٌ أخرىٰ عندَ لُبسِ الخِرقةِ ، للشَّيخِ نصرِ المزيَّنِ رحمَه اللهُ تعالىٰ) .

مِن آخِرِ وَرقةِ (١٧١ب) إلىٰ (١٧٨ب) .

ورمزتُ لها بـ : (ب) .

❊ ❊ ❊

نماذج من صور المخطوطات

ومن كلامه أيضاً رسالة في الارادة

قال الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه في هذه الآية خاطب الله تعالى نبيه محمداً عليه السلام في حق اهل الارادة من فقراء أصحابه وهذه الآية هي الاصل في اصطلاح مشايخ الصوفية على لفظة الارادة والمريد عند مشايخ الصوفية من نهضت همته لطلب المزيد من الله تعالى

ويتصدق في ذلك بيوم ولو بكسرة ويكون ابداً متطلعاً الى مزيد الفهم عن الله تعالى ومزيد العلم فيما ينفع ويضر ويكشف دقائق النفس وشهواتها الخفية حتى يفطنه الله تعالى بحركة النفس وان دق وخفي وعلى قدر صفاء القلب المستفاد من كمال الاستقامة يكون شعوره بخفي حركة النفس والله الموفق والمعين

نسخة مكتبة شهيد علي تركيا (أ)

رتبة العزيمة والرؤساء منهم جعلوا أئمة المتقين وأعلام الدين فضاقت أوعية قلوبهم
للاتباع واستنارت بواطن الصادقين بأنفاس الصديقين من المشايخ الماضين توارثوا
الميراث النبوة بوراثة خلفا عن سلف أشمل ذلك إلى الصحابة رضوان الله عليهم
بواسطة الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وملازمتهم لصحبته حضرا وسفرا
وانتقل من الصحابة إلى التابعين وهكذا سنة الله تعالى جارية بالانتفاع بطريق
الاتباع والصحبة فصارت الصحبة لله من الصادقين مع الصديقين مثمرة منكشفة
في الأحوال ولم يكن للمتقدمين من المشايخ إلا الصحبة والمريد ينتمي إلى الشيخ
بطريق الصحبة ثم صار المتأخرين اختاروا لبس الخرقة ليكون تصرفهم في ظاهر المريد
دلالة تصرفهم في باطنه وكل منها أحسن المتابعة اقتبس من حال الشيخ نصيبا
والوصية أن يحذر العجب ورؤية المنزلة والمزية لنفسه على غيره بل يرى ذلك
نائبة ويتبرك بالطالب الراغب ويجتهد في إعانته على البر والتقوى وسلوك الطريق
لكن من الهدى مجتنبا زهو النفس في ذلك مطالبا لنفسه بالقيام بشكر نعم الله
تعالى ومهما تشكك بالوحدة والعزلة تداركه بالخلوة لله تعالى بمعونة الهيبة بقدر
أن يكون في خلوته نصيبا محفوظا والله يتولى الصالحين

للشيخ نصر الدين رحمه الله تعالى قال الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي

نسخة معهد إحياء المخطوطات العربية

(ضمن « أسئلة سُئل عنها السهروردي ») (ب)

من الهوى يفتح عليه بعد ذلك باب. الا انه حتى انبعث من باطنه ميل او ارادة لشيء من
امر معاشه ومصالح حاجاته او نزل به امر يشتبه عليه الدخول فيه او التبري منه
ينزله بمولاه متبريا من تدبيره واختياره وحوله وقوته وعلمه فيكشف له الحق
سبحانه عن وجه الصواب فيه كيف شاء ولمن اما في نومه او يقظته ووجوه
الكشف متعددة والاخبار عنها والاشارة الى تفاصيلها لا فايدة فيه لانه ربما
يدعي ذلك مدع او يغلط به غالط والمراد بذلك سلم كيفيته ويطلع عليه بتاييد
الله تعالى وهو الامر الذي وفق للمقدمات التي ذكرناها فاذا اهمل اعلم الادب تحقق
به بحضور صحبه في الادب وياتيه الفهم من الله ويكون في الاشيا بالله لا بنفسه
فيكون بالله ينطق وبالله يبصر وبالله يسمع ثم ينكشف له بعد ذلك امور فوق ذلك
بفضل الله وكرمه والله الموفق والمعين [illegible]
ايها الولد الصالح صفي الدين علي بن الرشيد اسمعيل خرقة المشايخ الصوفية احسن الله عاقبته
وقد كانت رابطته وطالت صحبته ولم يتفاصه بالمفارقة الا اصلاح الوالدين
فاذنت له في الرجوع ليقضي حق والديه وارجو من الله الكريم ان يمتعني واياه بالعمل
الثابت ويحرسنا من السبب المزعج وتسويلات النفس الامارة بالسوء فينبغي له
اذا رجع الى وطنه ان يقبل على حفظ الاوقات وترك البطالة ويغتنم العزلة والو

نسخة معهد إحياء المخطوطات العربية

(ضمن « أسئلة سُئل عنها السهروردي ») (ب)

رسالة في الإرادة
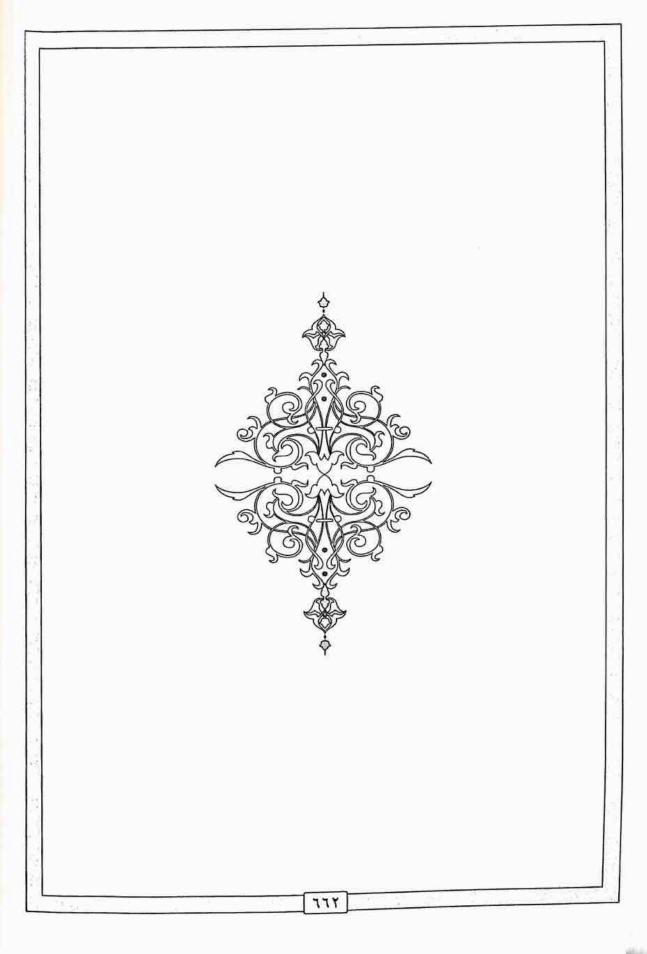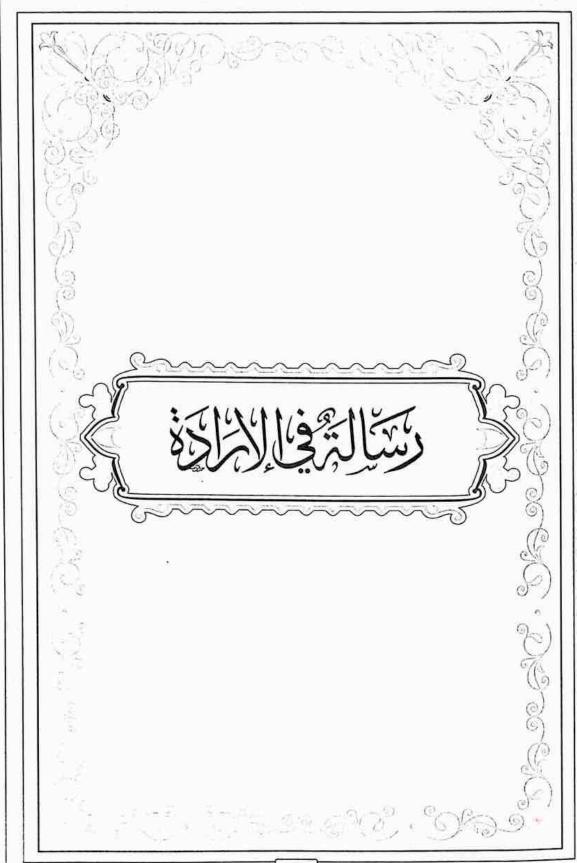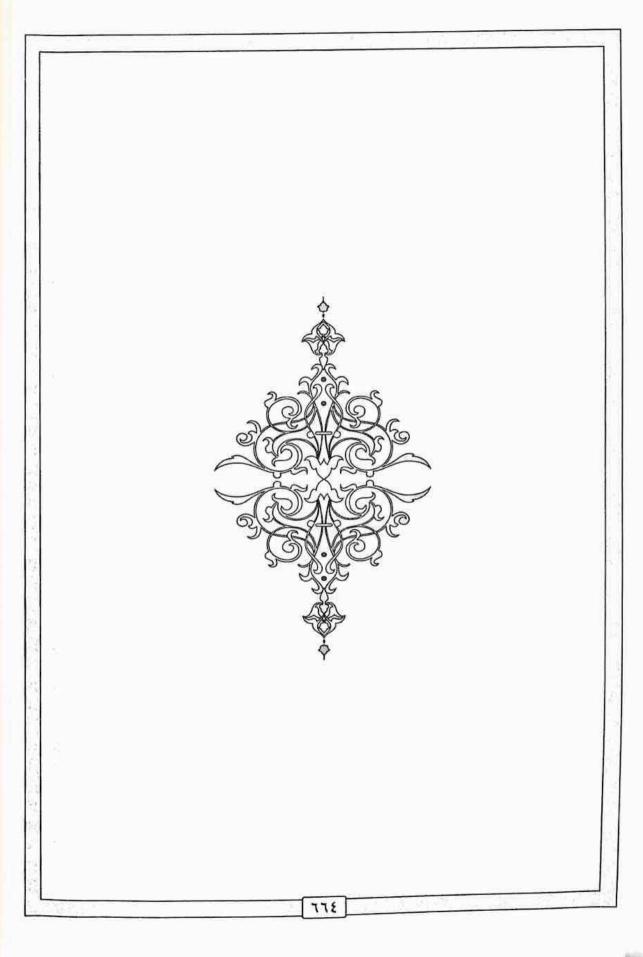
ومِنْ كلامِهِ[١] :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[٢] ، في هٰذه الآيةِ خاطبَ اللهُ تعالىٰ نَبيَّه محمَّداً عليه السلام في حقِّ أهلِ الإرادةِ مِنْ فُقراءِ أصحابِهِ ، وهٰذه الآيةُ هي الأصلُ في اصطِلاحِ مَشايخِ الصُّوفيَّةِ علىٰ لَفظَةِ الإرادةِ .

والمُريدُ عندَ مشايخِ الصُّوفيَّةِ : مَن نهَضَتْ هِمَّتُهُ لطلبِ المزيدِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وكلَّما نالَ خيراً ، وظَفِرَ بمُرادٍ مِنْ مَواهبِ اللهِ تعالىٰ . . تَطلَّعَ وتَشوَّفَ إلىٰ غيرِهِ ، وما دامَ هو ناهِضَ الهِمَّةِ دائمَ الطَّلَبِ للمَزيدِ . . هو مُريدٌ ، فإذا فَتَرَ عن طلَبِ المزيدِ ، وقَنَعَ بالموهوبِ لهُ . . حَصَلَ في التَّراجُعِ ، وزالَتْ عنهُ هِمَّةُ الإرادةِ .

وعندَ مشايخِ الصُّوفيَّةِ : موتُ هٰذا خيرٌ مِن حياتِه ؛ لأنَّ طريقَ الحقِّ سُبحانَهُ متىٰ لمْ يكُنِ المُريدُ فيهِ في الزِّيادَةِ . . فهو في النُّقصانِ ، والنُّقصانُ عَينُ الخُسرانِ ، وإذا استَمَرَّت خَسارةُ العبدِ . . فمَوتُه خيرٌ مِن حياتِهِ .

والمُريدُ في إرادتِهِ لا بُدَّ لهُ مِنْ شيخٍ ذي بَصيرةٍ ، يَسلُكُ بهِ ويُعَرِّفُهُ طرائِقَ المواجيدِ[٣] وأسبابَ المزيدِ ، ويُبَصِّرُهُ بصفاتِ النَّفسِ وأخلاقِها وشَهَواتِها الخَفيَّةِ ؛ لأنَّ مَعرفةَ النَّفسِ هو أساسُ طريقِ الصُّوفِيَّةِ ، حيثُ كانَ معرفةُ النَّفسِ مَقروناً بمعرفَةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ ما وَرَدَ : « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . . فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ »[٤] .

---

(١) في (ب) ـ والَّتي استَلَلتُها مِن : « أسئلةٌ سُئلَ عنها السُّهرورديُّ وأجوبتُه عليها » ـ صدَّرها النَّاسخُ بقولِه : (وصيَّةٌ أُخرىٰ عند لُبسِ الخِرقَةِ ؛ للشَّيخِ نَصرِ المزيَّنِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ) .

(٢) سورة الأنعام : (٥٢) .

(٣) قال القُشيريُّ في « الرِّسالة » (ص ٢٤٦) : (المواجيدُ ثمراتُ الأورادِ ؛ فكلُّ من ازدادت وظائفُه . . ازدادت مِنَ اللهِ لطائفُه) .

(٤) قال النَّووي في « الفتاوىٰ » (ص ٢٤٨) : (ليس هو بثابتٍ ؛ ولو ثَبَتَ كان معناه : مَن عَرَفَ نَفْسَه بالضَّعفِ والافتقارِ إلى الله تعالىٰ ، والعبوديَّةِ له . . عَرَفَ رَبَّه بالقُوَّةِ والقَهرِ والرُّبوبيَّةِ والكمالِ المُطلَقِ والصِّفاتِ العُليا ، ومَن عَرَفَ رَبَّه بذٰلك . . كَلَّ لسانُه عن بُلُوغِ حقيقةِ شُكرِه والثَّناءِ عليه) .

وفي المعارفِ رُتَبٌ ومنازلُ ، وبِحَسَبِ ذٰلك للعارِفينَ رُتَبٌ في معرفَةِ النَّفسِ .

وأهلُ المعرفَةِ يَنقَسِمونَ إلى : الأبرارِ ، والمقَرَّبينَ .

فلِلأَبرارِ : معرفةٌ بالنَّفسِ ببَعضِ حَرَكاتِها ، وَوُثوبِها وشَهَواتِها .

ولِلمُقرَّبينَ : معرفَةٌ بها فوقَ ذٰلكَ ، وكَمْ مِنْ عَمَلٍ هو عينُ الطَّاعَةِ في نَظَرِ الأبرارِ ومَبلَغِ عِلمِهم بالنَّفسِ ، وذٰلكَ العَمَلُ مَعصِيةٌ في حالِ المقرَّبينَ ؛ لِدِقَّةِ نظَرِهِم في حالِ النَّفسِ ، وكمالِ عِلمِهم بها ، ولهٰذا قيلَ : (حسناتُ الأبرارِ سَيِّئاتُ المقرَّبينَ)[1] .

ولا يَقدِرُ علىٰ تفاصيلِ فوائدِ المقاماتِ والأحوالِ ، ومعرفةِ الآفاتِ المُفْضِيَةِ إلىٰ فسادِ الأعمالِ . . إلَّا أربابُ البَصيرَةِ مِنْ مَشايخِ الصُّوفيَّةِ ؛ حتَّىٰ إنَّ العلماءَ بأحكامِ الشَّرعِ الَّذينَ لهم عِلمُ المسائلِ والفَتوىٰ ، مِنْ غيرِ زُهدٍ في الدُّنيا ، وتَحقُّقٍ بصِرْفِ التَّقوىٰ ، وَوُقوفٍ علىٰ علمِ القُلوبِ . . هُم بالقُصُورِ عن دَرَكِ شَأْوِ مشايخِ الصُّوفيَّةِ ، مُشاكِلونَ للعوامِّ ؛ فإنَّ العلومَ لهٰؤلاءِ القَومِ مِيراثُ التَّقوىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[2] ، جعلَ العِلمَ مَعْذُوقاً[3] بالتَّقوىٰ ، وقالَ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[4] ، نفى العِلمَ عن غيرِ التَّقِيِّ .

فإذاً ؛ مَن يَحوِي العُلومَ مِن غيرِ زُهدٍ وتَقوىٰ هو وِعاءٌ للعِلمِ ، ولا يكونُ عالماً إلَّا إذا عامَلَ اللهَ بالتَّقوىٰ .

فإذاً ؛ تَبيَّنَ للمُريدِ الصَّادِقِ الطَّالبِ لسُلوكِ طريقِ الحقِّ أنَّهُ مُفتَقِرٌ إلىٰ صُحبَةِ

---

(١) أخرجه ابنُ عساكرَ في « تاريخ دمشق » (١٣٧/٥) ، من قول أبي سعيد الخرَّازِ ، بلفظ : (ذُنُوبُ الْمُقَرَّبِينَ حَسَنَاتُ الأَبْرَارِ) .

(٢) سورة البقرة : (٢٨٢) .

(٣) أي : مربوطاً مُعلَّقاً .

(٤) سورة فاطر : (٢٨) .

شيخ ذي بَصيرةٍ ؛ يَهديهِ إلىٰ مَقاماتِ القُرْبِ ، وحقيقةِ العُبوديَّةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ لنَبيِّه عليه السلام : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1] ، فصارَ الشَّيخُ الموَفَّرُ حَظُّهُ مِنْ مُتابعَةِ الرَّسولِ داعياً إلى اللهِ تعالىٰ ، ولهٰذا وردَ في الكلامِ المأثورِ : « ٱلشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَٱلنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ »[2] ، وقالَ عليه السلام : « عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ »[3] ؛ لهُم إلهامٌ مِنَ اللهِ تعالىٰ في يَقظَتِهِم ، وبشائرُ في مَنامِهِم .

هٰكذا عُلَماءُ الأُمَّةِ ، الزَّاهِدونَ في الدُّنيا ، المتَمسِّكونَ بِعُرَى التَّقوىٰ . . لهُم بشائرُ وإشاراتٌ في اليَقظَةِ والمنامِ ، ولهُم رُتبَةٌ في المُكالمَةِ والمُحادَثةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[4] .

فالوحيُ بواسِطَةِ المَلَكِ يَختَصُّ بهِ الأنبياءُ والمرسَلونَ ، والكلامُ مِنْ وَراءِ حِجَابٍ يكونُ للأنبياءِ غيرِ المرسَلِينَ ، ولِعُلماءِ الأُمَّةِ والمشايخِ الَّذينَ لهُم رُتبةُ القُدوةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ تَعليماً لعبادِهِ ، وتَدريجاً لهُم إلىٰ سُؤالِ الرُّتَبِ العاليَةِ ، والمواهبِ السَّنِيَّةِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[5] .

وهٰذا يدُلُّ علىٰ أنَّ في هٰذه الأُمَّةِ طائِفةً هُم قُدوَةُ المتَّقِينَ ، ولا يزالُ في كلِّ حِينٍ وأَوَانٍ ، وعَصرٍ وزَمانٍ . . مِنهُم في البلادِ آحادٌ وأفرادٌ ، يَقِلُّ عدَدُهُم ؛ لأنَّهم أُقِيمُوا في أَعَزِّ المَقاماتِ وأسْنَاها ، يَقتَدِي بهِمُ المُرِيدُونَ الصَّادِقونَ السَّالِكونَ

---

(١) سورة يوسف : (١٠٨) .

(٢) أخرَجه ابنُ حبَّان في « المجروحين » (٢/٣٩) ، من حديثِ سيدنا ابنِ عمرَ رضي الله عنهما ، بنحوِه .

(٣) انظر « اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة » (ص ١٦٧) .

(٤) سورة الشورىٰ : (٥١) .

(٥) سورة الفرقان : (٧٤) .

لطريقِ الحقِّ ، ويَقْتَبِسُونَ مِنهُم عِلمَ الوِراثَةِ ؛ كما يُقتبَسُ مِنْ عُلَماءِ اللِّسانِ عِلمُ الدِّراسَةِ .

ورُتبَةُ المشيَخَةِ المُكْسِبَةِ عِلمَ الوِراثَةِ . . تَصِحُّ في أحَدِ الرَّجُلَينِ :

مُحِبٌّ : فاتَحَهُ الحقُّ بمَواهبِ المعاملاتِ ، ووَفَّقَهُ في بِدايَتِهِ للمُكابَداتِ والمجاهَداتِ ، أَسْهَرَ ليلَهُ وأَظْمَأَ نهارَهُ ، صادقاً مُخلِصاً ، يَبتَغِي بذٰلكَ وجهَ اللهِ تعالىٰ ، فَيُرَقِّيهِ اللهُ تعالىٰ بعدَ طُولِ المجاهَداتِ والمُكابَداتِ مِنْ وهَجِ [1] المجاهدَةِ إلىٰ رَوحِ الحالِ ؛ فيَهتَدِي قلبُهُ إلىٰ مَنازلِ القُرْبِ ، ويُنازِلُ باطِنَهُ الأُنسُ والرَّوحُ ؛ فتَزُولُ مجاهَدَتُه ، وتَتبَدَّلُ بأعمالِ القلبِ عن أعمالِ القالَبِ ، سِوى الفرائضِ الَّتي لا يَسَعُ المؤمِنَ الإخلالُ بها ؛ فيكونُ عمَلُهُ بالقلبِ هو دَوامَ المراقبَةِ للهِ تعالىٰ دائماً لا يَنقَطِعُ عملُهُ ، ويكونُ لهُ مِنَ اللهِ تعالىٰ تَجَلِّياتٌ وكُشُوفٌ بطريقِ الأفعالِ ؛ فَيَنْسَلِخُ مِنْ إرادَتِهِ واختيارِهِ ، ويكونُ قائماً في الأشياءِ لا بإرادَةِ نفسِهِ ، فلا يختارُ صُورَةً وهَيئَةً وفَضِيلةً بنفسِهِ ؛ بلْ بما يُطلِعُهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ مُرادِهِ منهُ ، فيكونُ قائماً في الأشياءِ بمُرادِ اللهِ تعالىٰ لا بمُرادِ نَفسِهِ ، ويكونُ مُكلَّماً مُحدَّثاً مُلْهَماً ، علىٰ بَصيرةٍ مِنْ أمرِهِ ، فيَتَّخِذُهُ اللهُ تعالىٰ أمِيناً ، ويَرُدُّ عليهِ أقساماً مِنَ الدُّنيا وحُظوظاً ؛ رِفقاً بِهِ ، ونِعمَةً في حَقِّهِ ؛ لأنَّهُ في مَقامِ الأُمَناءِ لا يَفتَتِنُ بها ؛ بل يَتقَوَّىٰ بها ، وتكونُ الدُّنيا خادِمَتَهُ لا مَخدُومَتَهُ ، والدُّنيا تَحسُنُ خادِمَةً ، وتَقبُحُ مَخدومةً ؛ فتَطلُبُهُ الأقسامُ ولا يَطلُبُها ، ويَطلُبُهُ الجاهُ ، ولا يَطلبُهُ ، ويجعلُ اللهُ تعالىٰ لهُ مَحبَّةً في قُلوبِ المؤمنينَ ؛ فيَصِيرُ وِعَاءُ قلبِهِ بما أُتيحَ لهُ فيَّاضاً ؛ فتَسرِي مِنْ باطنِهِ الأنوارُ إلىٰ بَواطنِ الأتباعِ والمريدينَ ، فيَحْيَا بهِ المريدُ الصَّادِقُ ، ويَهتَدِي بِواسِطَتِهِ إلىٰ مَقاماتِ القُرْبِ .

والرَّجُلُ الآخَرُ : أعلَىٰ مِن هٰذا ؛ وهو **مَحبُوبٌ مُرادٌ** : فاتَحَهُ الحقُّ أوّلاً بِصِرْفِ

---

(١) أي : حرُّ النَّار . « الصِّحاح » (و هـ ج) .

المعرِفَةِ ، ورَفَعَ عن قلبِهِ الحجابَ ؛ كما قالَ أميرُ المؤمنينَ عليٌّ رضي الله عنه : (لو كُشِفَ الغِطاءُ . . ما ازدَدْتُ يَقِيناً)[1] ، فيَلتَهِبُ قلبُ هٰذا بمَحبَّةِ اللهِ الخاصَّةِ ، وتُكاشَفُ رُوحُهُ بآثارِ العَظَمَةِ الإلٰهيَّةِ ؛ فيَزهَدُ فيما سِوى اللهِ تعالىٰ ، وأهوَنُ ما علىٰ هٰذا رفضُ الدُّنيا وتركُها مالِها وجاهِها ؛ لأنَّ المالَ والجاهَ يَستَحلِيهِ الهوَىٰ ، وقلبُ هٰذا ظَفِرَ بحلاوَةِ المحبَّةِ ؛ فما بَقِيَ لحلاوَةِ الهوىٰ عندَهُ قَدْرٌ .

ثمَّ يُدَرِّجُهُ اللهُ تعالىٰ بعدَ هٰذه المكاشَفَةِ والموهبَةِ في رُتَبِ الأعمالِ ؛ فيأتي بالأعمالِ مِنْ غيرِ مُكابَدَةٍ ومُجاهَدَةٍ ؛ بخلافِ الرَّجُلِ الأوَّلِ ، حيثُ كانَ فيها مُكابِداً ومُجاهِداً ، ولمَّا كانَتِ الأعمالُ لهٰذا ؛ لا بمُكابدَةٍ تَدومُ عليهِ إلى المَماتِ ، ولا يَنسَلِخُ مِنَ الأعمالِ ؛ لأنَّ الرَّجُلَ الأوَّلَ تَرَكَ الأعمالَ مُتَعوِّضاً عنها بطِيبَةِ قلبِهِ معَ اللهِ تعالىٰ ؛ فكأنَّه عُوِّضَ للأحوالِ عَنِ الأعمالِ ، والرَّجُلُ الثَّاني أُدرِجَتْ لهُ الأحوالُ في الأعمالِ ؛ فصارَتْ أعمالُهُ مَزِيداً لأحوالِهِ ، وأحوالُهُ مُكمِّلةً لأعمالِهِ ، وهٰذا الغايةُ القُصوىٰ ، والموهِبَةُ الأَسنَىٰ ؛ فكانَ باطنُ هٰذا الرَّجُلِ أكثرَ نُوراً ، ورُوحُهُ أكمَلَ قُرباً ، وقلبُهُ أكثرَ انشِراحاً وانفِساحاً ، ومواهبُ اللهِ تعالىٰ نحوَهُ أكثرَ توجُّهاً وانصِبَاباً ؛ فصارَ قلبُهُ أكثرَ فَيَضاناً ، وحالُهُ إلىٰ بَواطنِ المريدينَ أَسْرَعَ سِرايَةً ؛ فكانَ بالقُدوَةِ أحقَّ ، وبالمشيَخَةِ أَولَىٰ .

وغيرُ هٰذينِ الرَّجُلَينِ في طريقِ الحقِّ . . آخَرانِ لا يَصلُحانِ للِاقتداءِ ، ولا يُؤهَّلَانِ للمَشْيَخَةِ :

أحدُهما : مُتعبِّدٌ لَمْ يَستَعِدَّ باطنُهُ لكمالِ التَّقوىٰ وكمالِ الزُّهدِ ، فصِفاتُ نفسِهِ عليهِ باقيةٌ ، لا يَرتَقِي مِنْ وهَجِ المكابدَةِ إلىٰ رَوحِ الحالِ ؛ فهو عبدٌ مبارَكٌ

---

(١) نَسَبَه القُشيريُّ في « الرِّسالة » (ص ٤٣٤) إلىٰ عامرِ بن عبد القَيسِ ، وقال ابن قيِّم الجوزيَّة في « مدارج السَّالكين » (٢/٤٠٠) : (ليس هٰذا من كلامِ رسولِ اللهِ ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ ولا من قول علي كما يظنُّه مَن لا عِلمَ له بالمنقولاتِ) .

مَرحومٌ ، تُرجَىٰ بينَ الأُمَّةِ بَرَكتُه وبَرَكةُ دُعائِهِ ، وهو صالِحٌ لنَفسِهِ غيرُ صالحٍ لغيرِهِ ، فلو عادَ إلىٰ مُخالطَةِ الخلقِ . . افتُتِنَ ، وانقطعَ عليهِ طريقُهُ ، فلَا يَصلُح إلَّا للوَحدَةِ ، فهي ملاكُ أمرِهِ ، وصَلاحُ شأنِهِ .

والرَّجُلُ الآخَرُ : مَجذوبٌ أدركتْهُ جَذْبَةٌ مِنْ جَذَباتِ الحقِّ ؛ فوجدَ قلبُهُ لوائحَ الرَّوحِ والأُنْسِ ، فهو في طِيبَةِ قلبِهِ يُؤدِّي الفرائضَ فحَسْبُ ، ولا يَرىٰ كَثْرةَ الأعمالِ ، ويَسهُلُ عليهِ تركُ الدُّنيا ، وتَهُونُ عليهِ العُزلَةُ والوَحدَةُ ، ورُبَّما أَنِسَ بالقِفَارِ والكُهوفِ والصَّحارَىٰ ، وكانَ دائمَ الأُنْسِ بِرَبِّهِ ؛ فهو صحيحٌ في نفسِهِ مَلطوفٌ ، تُستَجابُ دعوتُهُ ، وتُرجَىٰ بَرَكتُهُ ، ولٰكن لا يَصلُحُ للقُدوةِ والمشْيخَةِ .

ومَن أُقِيمَ في مَقامِ المشْيخَةِ . . جُعِلَ أبا المريدينَ[1] ؛ فيولَدُ لهُ الأولادُ المعنَوِيَّةُ ، ويكونُ منهُ أمثَالُ هٰذا المجذُوبِ وذاك المتعبِّدِ أولاداً ، ويكونُ لهُ مِثلَ الرَّجُلَينِ الآخَرَينِ أولادٌ[2] ، علىٰ قَدْرِ ما جَعَلَ الحقُّ تعالىٰ حَظَّه ونَصِيبَه .

فإذاً ؛ المريدُ ولَدٌ ، والشَّيخُ والِدٌ ؛ لأنَّ الوِلادةَ وِلادتانِ : طَبِيعِيَّةٌ ، وحقيقِيَّةٌ . ولهٰذا وَرَدَ في بعضِ ما وَرَدَ : « لَنْ يَلِجَ مَلَكُوتَ ٱلسَّماءِ مَنْ لَمْ يُولَدْ مَرَّتَينِ »[3] .

فالوِلادةُ الطَّبِيعِيَّةُ : لإقامةِ رُسُومِ المُلكِ وعالَمِ الشَّهادةِ .

والوِلادةُ المعنَوِيَّةُ : لمطالَعةِ أجزاءِ الملَكُوتِ وعالَمِ الغَيبِ والقُدرَةِ .

فالنَّبِيُّ عليه السلام أبو الأُمَّةِ[4] ، والشَّيخُ أبو المرِيدينَ[5] ، نابَ فيهم مَنابَ النَّبِيِّ عليه السلام ؛ لحُسْنِ الِاقتداءِ والمتَابَعَةِ .

---

(١) في (ب) : (أباً للمُريدينَ) .

(٢) في (ب) : (أولاداً أو ولَدينِ أو ولداً) .

(٣) لم أقف عليه في دواوين السنة المعتمدة ، وأوردَه الشيخ نِظام الدِّينِ النَّيسابوري في : « غرائبِ القرآنِ ورغائبِ الفُرقانِ » (٥/٣٧٥) ، عن سيدنا عيسىٰ عليه السَّلام .

(٤) في (ب) : (أبٌ للأمَّةِ) .

(٥) في (ب) : (أبٌ للمريدينَ) .

وكما أنَّ في الوِلادةِ الطَّبيعيَّةِ رَضاعاً وفِطاماً . . هٰكذا في الوِلادةِ المعنويَّةِ ؛ يحتاجُ المريدُ إلىٰ مُلازمةِ الشَّيخِ ، ودوامِ الصُّحبَةِ ؛ حتَّىٰ يَستَفِيدَ منهُ ، ويَنفَعَهُ لَفظُهُ ولَحظُهُ[1] ، وقدْ قيلَ : (مَنْ لَا يَنْفَعُكَ لَحظُهُ . . لا يَنْفَعُكَ لَفْظُهُ)[2] ، ومعنَىٰ كَونِهِ ينفعُهُ لَحظُهُ لوجهَينِ :

أحدُهما : أنَّه إذا نظرَ إليهِ وإلىٰ أعمالِهِ ، وما يَعتَمِدُه معَ الحقِّ ومعَ الخَلقِ ، في خَلْوَتِه وجَلْوَتِهِ ، وأخلاقِه وآدابِه . . يتعلَّمُ منهُ ذٰلكَ ويَقتدِي بِهِ .

والوجهُ الآخَرُ : أنَّ المريدَ لموضعِ صِدْقِهِ ، وكمالِ مَحبَّتِهِ للشَّيخِ ؛ كلَّما نظرَ إلى الشَّيخِ نَظَرَ مَحبَّةٍ ، ونَظَرَ الشَّيخُ إليه نَظَرَ مَحبَّةٍ . . تَولَّدَ مِنْ نَظَرِ الشَّيخِ إليهِ في باطنِهِ نورٌ وبرَكةٌ ، يَنعَقِدُ منهُ في باطنِ المريدِ خيرٌ مُتجَوهِرٌ ؛ كما يَنعقِدُ الدُّرُّ في الصَّدَفِ .

وإذا كانَ مِنَ الخاصِّيَّةِ أنَّ في الحيَّاتِ ما إذا نظرَ في الشَّخصِ ونظرَ الشَّخصُ إليهِ هلكَ . . فماذا يُستَبعَدُ أنْ يكونَ في نظرِ بعضِ عبادِهِ خاصِيَّةُ الإحياءِ ؟!

وإذا صَحِبَ المريدُ الصَّادِقُ الشَّيخَ . . فأدَبُهُ أنْ يخرُجَ مِنْ إرادَتِهِ واختيارِهِ معَ شَيخِهِ ؛ لا يأكلُ إلَّا ما يُطعِمُهُ ، ولا يَلبَسُ إلَّا ما يُلبِسُهُ ، ولا يَسكنُ إلَّا حيثُ يُسكِنُهُ ، ولا يَدخُلُ في شيءٍ قَلَّ أو جَلَّ إلَّا بأمرِهِ واختيارِهِ ؛ كالطِّفلِ معَ الوالدِ ؛ لأنَّ الشَّيخَ معَ اللهِ تعالىٰ هٰكذا يَعمَلُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في دُعائِه : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱكْلَأْنِي كَلَاءَةَ ٱلْوَلِيدِ »[3] ، « لَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ

---

(١) قال السُّهرورديُّ : (إنَّ للمريدينَ مِنَ الشُّيوخِ أوانَ ارتضاعٍ وأوانَ فِطامٍ . . . فأوانُ الارتضاعِ أوانُ لزومِ الصُّحبةِ ، والشَّيخُ يعلمَ وقتَ ذٰلك ، فلا ينبغي للمُريدِ أن يُفارقَ شيخَهُ إلَّا بإذنِه . . . ولا يأذنُ الشَّيخُ للمُريدِ في المفارَقةِ إلَّا بعد علمِه بأن آنَ له أوانُ الفِطامِ ، وأنَّه يَقدِرُ أن يَستَقِلَّ بنَفسِه ، واستِقلالُه بنفسِه أن يُفتحَ له بابُ الفهمِ مِنَ اللهِ تعالىٰ) . « عَوارف المَعارف » (٩٥/١) .

(٢) أورده المؤلف في « عوارف المعارف » (١٠٤/١ ، ٢٦٣) .

(٣) نَسَبَه الكَلاباذيُّ في « بحر الفوائد » (٣٨٠) إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وهو مِن أدعيةِ الشَّيخ أبي طالبِ المكّيِّ في كتابه « قُوت القلوب » (٢٦/١) .

عَيْنٍ »[1] ، وهٰذا هو الِانسِلاخُ مِنَ الإرادةِ مع اللهِ تعالىٰ ، والتَّبرِّي مِنَ الحَولِ والقُوَّةِ ؛ وهو حقِيقةُ العُبودِيَّةِ .

وإذا صحَّ العبدُ في هٰذا المقامِ ، وتبرَّأ مِن حَولِهِ وقُوَّتِهِ ، وقامَ في الأشياءِ باللهِ لا بنفسِه . . كان مِنْ أوتادِ الأرضِ .

فالمريدُ لا طريقَ لهُ إلى الحقِّ ، فصارَ الشَّيخُ عندَهُ باباً مِنْ أبوابِ الحقِّ ؛ يرجعُ إليهِ ، ويتبرَّأُ مِنْ إرادتِهِ واختيارِهِ إليهِ ، كما أنَّ الشَّيخَ معَ اللهِ كذٰلكَ ، ويصلُ برعايةِ هٰذا الأدبِ والقيامِ بهٰذا الشَّرطِ معَ الشَّيخِ إلىٰ رُتبةٍ يصيرُ معَ اللهِ تعالىٰ هٰكذا ، ويُفتَحُ عليهِ بابُ المكالمةِ ؛ كما هو مفتوحٌ على الشَّيخِ ، فعندَ ذٰلكَ يكونُ أَوانُ فِطامِ المريدِ ، يجوزُ أن يأمرَهُ الشَّيخُ بالمفارَقةِ ؛ فيُفارِقَ الشَّيخَ ، ويصيرَ مُستقِلّاً بنفسِهِ ؛ يَعمَلُ بإذنِ اللهِ كما يعملُ بإذنِ الشَّيخِ .

ومتىٰ لمْ يَصِلْ إلىٰ هٰذه الرُّتبةِ . . فلِقُصورٍ في إرادتِهِ ، أو لنُقصانِ حظِّهِ مِن مواهبِ الحقِّ ، أو لا يكونُ مُراداً بأنْ يَبلُغَ مَبلَغَ الرِّجالِ ؛ فيَحظَىٰ ببعضِ البَركةِ مِنْ صُحبَةِ الشَّيخِ ، ويُفارِقُهُ على القُصورِ ، وذٰلكَ حظٌّ ضعيفٌ يُخشَىٰ عليهِ بالمفارَقةِ دخولُ الآفاتِ عليهِ ، المُفضِيَةِ إلى الأعلالِ والأمراضِ القلبيَّةِ المنحرِفةِ بمِزاجِ التَّوبةِ والِاستقامةِ عن حدِّ الِاعتدالِ ؛ لِانحرافِ مِزاجِ القلبِ ، وما أَسرَعَ ما يكونُ رُجوعُه إلى الدُّنيا بعدَ الزَّهادةِ ، وانخِلاعُهُ مِنْ مُلازمةِ العبادةِ ، والرُّكونُ إلى العادةِ !

وهٰذا المرضُ في هٰذهِ الوِلادةِ المتَولِّدُ مِنْ مُفارَقةِ الشَّيخِ في غيرِ أوانِه . . كالمرضِ الَّذي يَعتري الرَّضِيعَ إذا فُطِمَ لغيرِ أوانِهِ .

---

(١) أخرَجه أبو داوُود (٥٠٩٠) ، وابنُ حبَّان في « الصَّحيح » (٩٧٠) من حديث سيدنا أبي بَكرَةَ رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ : اللَّهُمَّ ؛ رَحْمَتَكَ أَرْجُو ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ ، لَا إِلَٰه إِلَّا أَنْتَ » .
وأخرَج ابنُ أبي عاصمٍ في « الآحاد والمثاني » (٢٩٢٥) من حديثِ رجلٍ من الصَّحابةِ لم يُسمِّه ، قال : أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ أُحُدٍ : « يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ؛ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ ، اكْفِنِي كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ » .

وكلُّ هٰذا التَّآلُفِ والتَّلازُمِ والصُّحبةِ . . للمُريدينَ الصَّادقينَ السَّالكينَ غيرِ المحبّينَ للشَّيخِ المتبرّكينَ بهِ القانِعينَ بأدنَىٰ حظٍّ منهُ مِنَ الإلمامِ بمَجلِسِهِ وسَماعِ كلامِهِ في بعضِ الأحايينِ ؛ فإنَّ هٰؤلاءِ قدْ يُسَمَّونَ مُريدينَ ، ويكونُ هٰذا الإسمُ عليهم اسماً رسمِيّاً لا حقِيقيّاً ، ولا يَعدِمُونَ بهٰذا القَدْرِ بركةً وخيراً .

فالمريدُ الحقيقيُّ يُلبِسُهُ الشَّيخُ خِرقةَ الإرادةِ بعدَ أنْ يُلبِسَ المريدُ باطنَه خِرقةَ الإنخلاعِ عن إرادةِ نفسِهِ واختيارِهِ .

والمريدُ الَّذي هو مِنَ المحبّينَ يُلبِسُهُ الشَّيخُ خِرقةَ التَّبرُّكِ ، ولا يُشتَرطُ في خِرقةِ التَّبرُّكِ دوامُ الصُّحبةِ والملازمةِ ؛ بلْ يتشبَّهُ المريدُ بلُبسةِ المريدينَ ، ويحفظُهُ مع الشَّيخِ رابِطةُ المحبَّةِ ، ويَنالُهُ بقَدْرِ مَحبَّتِهِ بركةٌ وخيرٌ .

فخِرقةُ التَّبرُّكِ مَبذولةٌ لكلِّ محبٍّ أَحسَنَ الظَّنَّ وطلبَها ، وخِرقةُ الإرادةِ ممنوعةٌ ؛ إلَّا لمَنْ شَمَّرَ عن ساقِ الجِدِّ ودخلَ الطَّريقَ ، مُهاجِرَ الهوىٰ ، مُمتَطِياً غارِبَ [١] التَّقوىٰ ، مُنسلِخاً عن إرادتِهِ ، مخرِّباً أوطانَ عادتِهِ ، مُتحقِّقاً برعايةِ أمرِ الحقِّ ، قاطعاً نظرَهُ عنِ الخلقِ ، يَرى الخلقَ في الدُّنيا كما يراهُم يومَ القيامةِ ، لا يَتقيَّدُ بهِم ولا باستِحسانِهِم واستِقباحِهِم ؛ فالقبيحُ عندَهُ ما قبَّحَهُ الشَّرعُ ، والحسَنُ عندَهُ ما حسَّنَه الشَّرعُ [٢] .

---

(١) الغارِبُ : أعلىٰ كلِّ شيءٍ . انظر « الوسيط » (غ ر ب) .

(٢) لقد شغلت قضيَّةُ الحُسنِ والقُبحِ في الأفعالِ حيّزاً كبيراً في فكرِ المعتزلةِ والأشاعرةِ علىٰ حدٍّ سواء ، وكلٌّ مِنَ المعتزلةِ والأشاعرةِ يسيرُ في ذٰلك وَفقَ نظرته لقُدرةِ اللهِ تعالىٰ وعَدلِه من جهةٍ ، وإلى استقلاليَّةِ قدرةِ الإنسانِ وعدمِ استِقلاليَّتِها مِن جهةٍ أُخرىٰ .

وقد يطول الكلام في الأمرِ ويَتفرَّعُ لو رُحنا نَتتبَّعُ مَراميَه ، وهو علىٰ وجه الإجمالِ عند المعتزلةِ : أنَّ اللهَ أعطَى الإنسانَ قدرةً جعلَها مُستقِلَّةً ؛ بها يتَصرَّفُ ، وعلىٰ أساسِها يُكلَّفُ ، ثمَّ يُجازَىٰ ؛ إن خيراً . . فخيرٌ ، وإنْ شرّاً . . فشرٌّ ، وهٰذا هو عدلُ اللهِ تعالىٰ ، ولهٰذا فالحُسنُ والقبحُ عندهم ذاتيان .

أمَّا السَّادةُ الأشاعرةُ : فهم يرونَ أنَّ الحُسْنَ والقُبْحَ لا يخرجانِ عن إطارِ أمرِ اللهِ تعالىٰ ونَهيِهِ ، وأنَّه لا قبيحَ إلَّا ما قبَّحه الشَّرعُ ، ولا حَسَنَ إلَّا ما حسَّنَه الشَّرعُ .

قال الإمامُ الجوينيُّ : (ليس الحُسْنُ صفةً زائدةً على الشَّرعِ مدركةً به ، بل الحسنُ عبارةٌ عن نفسِ ورودِ الشَّرعِ بالثَّناءِ علىٰ فاعلِه ، وكذٰلك القُبحُ) . انظر « الإرشادُ » (ص ٢٥٩) . ←

تبرَّأَ مِنْ كلِّ تَكلُّفٍ ، ولو رأىٰ صِحَّةَ حالِهِ أنْ يَدخُلَ الأسواقَ ويَكتَسِبَ . . يفعلُ ذٰلك ، وإنْ رأىٰ صِحَّةَ حالِهِ أنْ يَعمَلَ بالرُّوزغارِ [١] . . كانَ يفعلُ ذٰلكَ ، ولا يأنفُ أنْ يطوفَ على الأبوابِ ويطلُبَ اللُّقَمَ يَسُدُّ جَوعتَهُ إذا رأىٰ صِحَّتَه في ذٰلكَ ، وأدَّاه حُكمُ الوقتِ إليهِ .

وللمُريدينَ معَ المشايخِ في ذٰلكَ كلِّهِ أُسوةٌ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والَّذِين بايعوهُ ؛ حيثُ قالوا : بايَعْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على السَّمعِ والطَّاعةِ في السَّراءِ والضَّراءِ ، والمَنشَطِ والمَكرَهِ [٢] .

وقدْ نبَّهَ الحقُّ في كلامِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ علىٰ غايةِ الأدَبِ بأوفَىٰ ما يُعبَّرُ عنهُ ، فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [٣] ، وهٰذا فصلُ الخِطابِ ، وغايةُ أدبِ ذَوي الألبابِ ، الطَّالبينَ لحُسنِ الأدبِ معَ المشايخِ .

وأمرَ اللهُ تعالى الأمَّةَ بالتَّحكيمِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَنزِلُ بهِم مِنَ الحوادثِ ، وإنْ كانَ سببُ نزولِ الآيةِ ما شَجَرَ بينَ الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ وغيرِهِ

← والموضوعُ كلُّه يدورُ حول عدلِ الله تعالىٰ وتنزيهِهِ ، ومحاولةُ كلِّ فريقٍ إثباتَ مَذهبِه حَسَبَ ما تُمليه عليه مُحصِّلةُ نَظرِه ، ولكلٍّ وِجهةٌ هو مُوَلِّيها ؛ فلا الأشاعرةُ ينكرونَ العقلَ وقدرتَه على التَّحسينِ والتَّقبيحِ ، ولا المعتزلةُ ينكرونَ قدرةَ اللهِ تعالىٰ ، ولا علىٰ توجيه الشَّرعِ بحُسنِ أو قُبحِ الأفعالِ ، وقد أطالَ النَّفسَ في بيانِهِ كلٌّ مِنَ القاضي عبدِ الجبَّارِ في كتابِه : « شرحُ الأصولِ الخمسةِ » ، والإيجي في كتابِه « المواقف » .

وانظر تفصيلَ ذٰلك فيما كتبَه د . محمَّد عبد الفَضيلِ القوصيِّ في كتابه « هوامش على الاقتصادِ في الاعتقادِ لحجَّةِ الإسلامِ الغزاليِّ » الفصل الثَّاني ، ط ٢ ، (٢٠٠٦ م) مكتبةُ الإيمان ، القاهرة .

(١) في الأصلِ : (بالرُّوزكار) ، كلمةٌ فارسيَّةٌ تُنطَقُ كما أثبتُّها ، يختلفُ معناها باختلافِ سياقِها ؛ وهي هنا بمعنىٰ : أن يعملَ بالوقتِ والفترةِ أو الجزءِ مِنَ النَّهارِ ، أوبالسَّاعةِ بلُغةِ عصرِنا .

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٦) ومسلم (١٧٠٩) ، من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، بنحوه .

(٣) سورة النساء : (٦٥) .

في سَقيِ الأرضِ [١] . . ولكنِ الاعتبارُ بعُمومِ اللَّفظِ ، لا بخُصوصِ السَّببِ ، وقدْ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « قَوْلِي لِلْوَاحِدِ كَقَوْلِي لِلْجَمَاعَةِ » [٢] .

أَمَرَ اللهُ تعالىٰ بالتَّحكيمِ أوّلاً ، ثمَّ بزوالِ الحرَجِ ثانياً ؛ لأنَّ التَّحكيمَ وظيفةُ الظَّاهرِ وأدبُهُ ، وزوالَ الحرَجِ وظيفةُ الباطنِ وأدبُهُ ، وكمْ مِنْ مُقتَدِرٍ على التَّحكيمِ غيرُ مُقتَدرٍ علىٰ إزالةِ الحرَجِ ، ويُوشِكُ أنْ يكونَ المُريدُ الرَّسمِيُّ الَّذي لَبِسَ خِرقةَ التَّبرُّكِ صاحبَ التَّحكيمِ .

والمريدُ الحقيقيُّ الَّذي لبِسَ خِرقةَ الإرادةِ . . صاحبُ إزالةِ الحرَجِ .

وكلُّ ما ذكرنا مِنِ انسلاخِ المريدِ مِنْ إرادتِهِ معَ الشَّيخِ . . اندرَجَ في المفهومِ مِنْ هٰذه الآيةِ العزيزةِ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ .

وإذا أرادَ المريدُ أنْ يَسلُكَ طُرُقَ الأدَبِ معَ الشَّيخِ . . فليَتأدَّب بآدابِ القرآنِ ، ويَتنبَّهْ لِما نَدَبَ اللهُ الأمَّةَ إليهِ في صُحبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ لقولِهِ تعالىٰ في سورةِ (الحجراتِ) : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . . ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ [٣] ؛ فليَعتَبِرِ المريدُ ، ويَتعلَّمْ ما في كتابِ اللهِ تعالىٰ مِنَ الآدابِ .

ومِثلُه [٤] ما في سورةِ (النُّورِ) : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ

---

(١) أخرج الخبر البخاري (٢٧٨٠) ، ومسلم (٢٣٥٧) من حديث سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه .

(٢) لم أقف عليه بهٰذا اللَّفظ ، وقد أخرج التِّرمذيُّ (١٥٩٧) من حديث السيدة أُميمة بنت رُقيقة رضي الله عنها ، قالت : بايعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم في نِسوةٍ ، فقال لنا : « فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ » ، قلتُ : اللهُ ورسولُه أرحم بنا منا بأنفسنا ، قلت : يا رسول الله ؛ بايعنا ـ قال سفيانُ : تعني : صافِحنا ـ . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّما قولي لمئةِ امرأةٍ . . كقولي لامرأةٍ واحدةٍ » .

(٣) سورة الحجرات : (١ ـ ٥) .

(٤) في الأصل : (ومثل) ، ولعل المثبت هو الأنسب للسياق ، والله أعلم .

وَرَسُولِهِۦ ﴾[1] ، ففي هـٰذه ما ذكرنا في مُلازَمةِ رِعايةِ الصُّحبةِ ، والمفارقةِ للشَّيخِ علىٰ بصيرةٍ .

وفي القرآنِ مِنْ هـٰذا المعنَىٰ كثيرٌ يجدُهُ مَنْ يَطلُبُهُ ، وتفاصيلُ ما ينبغي أن يُؤمَرَ المريدونَ بهِ يطولُ .

ولـٰكنَّ الَّذي لا بُدَّ منهُ ؛ ينبغي أنْ يُؤمَرَ المريدُ أوَّلاً بتَجديدِ التَّوبةِ ؛ لأنَّ التَّوبةَ هي أساسُ الأمرِ ، وقالَ بعضُ المشايخِ : لا يكونُ المريدُ مُريداً حتَّىٰ لا يَكتُبَ عليهِ صاحبُ الشِّمالِ شيئاً عشرينَ سنةً .

ولا يَقدِرُ المريدُ علىٰ حِفظِ التَّوبةِ إلَّا بدوامِ المحاسبةِ ؛ كما وردَ : (حاسِبوا أنفسَكُم قبلَ أنْ تحاسَبوا)[2] ، وطريقُهُ في ذٰلكَ أنْ يُحاسِبَ نفسَهُ عَقِبَ كلِّ مَكتوبةٍ ، ويَعتبرَ ما اجتَرحَهُ بينَ الفَريضَتينِ ؛ فإنَّهُ إذا دامَ علىٰ هـٰذه المحاسَبةِ بالصِّدقِ . . لا تزالُ عَثَراتُهُ تَقِلُّ حتَّىٰ تَنعدِمَ .

وكما أنَّ الأنبياءَ معصومونَ فالأولياءُ محفوظونَ ، فلا يُنكَرُ أنَّ في كلِّ حينٍ وزمانٍ جمعاً مِنَ الأولياءِ محفوظينَ في كلِّ قُطرٍ مِن أقطارِ الأرضِ .

ثُمَّ إذا أدَّىٰ حقَّ المحاسَبةِ . . ربَّما تَرقَّىٰ إلىٰ أنْ يَكُفَّ عمَّا لا يَعنِيه قولاً وفِعلاً وإنْ كانَ مِنَ المباحِ في صِيغةِ الشَّرعِ ، وعندَ ذٰلكَ يَقِلُّ فُضولُهُ ، ويَتملَّكُ ظاهرَهُ سياسةَ العِلمِ ؛ فيُرجَىٰ أنْ يَترقَّىٰ بعدَ هـٰذا إلىٰ مَقامِ المراقبةِ ، فيصيرُ باطنُهُ أيضاً تحتَ سياسةِ العلمِ كظاهرِهِ ، والمراقبةُ في اصطلاحِ مشايخِ الصُّوفيَّةِ : هو أنْ يُلازِمَ قلبَهُ عِلمُهُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ ناظرٌ إليهِ ، فعندَ ذٰلكَ يَستَحْيِي مِنَ اللهِ الكريمِ حقَّ الحياءِ ، ويَحذَرُهُ في خَطَراتِ ضَميرِهِ كما يتَّقِيهِ في حَركاتِ جَوارحِهِ .

ثمَّ يُرقَّىٰ مِنْ هـٰذا المقامِ إذا تَحقَّقَ بهِ إلىٰ مَقامِ المُشاهَدةِ ، ويَصِحُّ لهُ حينئذٍ

---

(١) سورة النور : (٦٢) .

(٢) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٦) ، وأحمدُ في « الزهد » (٦٣٣) من قول سيدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه .

أنْ يقولَ : رأىٰ قلبي ربِّي ، وهو مَقامُ الإحسانِ المشارُ إليهِ في قولِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « ٱلْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ . . فَإِنَّه يَرَاكَ »(١) .

ثمَّ لأربابِ المشاهَدةِ مَواجِيدُ مختلفةٌ ؛ تَتَّفِقُ أصولُها وتَختَلِفُ فُروعُها .

وينقسمُ ذٰلك إلىٰ : تجلِّي الصِّفاتِ ، وتجلِّي الأفعالِ ، وتجلِّي الذَّاتِ ، وقدْ يُعبَّرُ عنهُ بعِلمِ اليقينِ ، وعَينِ اليقينِ ، وحقِّ اليقينِ ، وهٰذه الأحوالُ لأربابِها .

ومِنَ المقدِّماتِ المؤثِّرةِ المُجدِيةِ خيراً كثيراً للمُريدينَ أربعةُ أشياءَ ، اتَّفقَ المشايخُ الصُّوفيَّةُ عليها ، وعلىٰ حُسنِ تأثيرِها ؛ وهي : قِلَّةُ الكلامِ ، وقِلَّةُ الطَّعامِ ، وقِلَّةُ المنامِ ، والِاعتزالُ عنِ النَّاسِ ، وقدْ قيلَ : بهٰذه الأربعةِ صارَ الأبدالُ أبدالاً(٢) ، فليتَعاهَدِ المريدُ نفسَهُ بهٰذه الأربعةِ ؛ فإنَّهُ يجدُ ثَمرتَها وبَركتَها .

وكلُّ ما أشرنا إليهِ وذَكرناهُ هي أحوالُ المشايخِ وبِداياتُهم ونهاياتُهم ، وكلُّ ذٰلكَ مِيراثُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وصلَ إليهم بنسبةِ حُسنِ المتابَعةِ للرَّسولِ ، وصِدقِ الصُّحبةِ معَ الشُّيوخِ ، وإنَّما الخِرقةُ مُقدِّمةٌ صالحةٌ ، وتَصرُّفُ الشَّيخِ في ظاهرِ المريدِ مُقدِّمةُ التَّصرُّفِ في باطنِهِ ، وكلَّما طالَتْ صُحبتُهُ . . ازدادَ حُسنُ سِيرتِه(٣) .

ومن كلامِه أيضاً رَحمةُ اللهِ عليه :

الطَّالِبُ الَّذي هَمَّتْ هِمَّتُهُ إلىٰ أعالي الدَّرَجاتِ في سُلوكِ طريقِ الحقِّ . . يَنبَغِي لهُ أنْ يَحسِبَ نومَ كلِّ ليلةٍ موتاً ، وانتِباهَهُ حشراً ؛ فَيُجَدِّدُ كلَّ يومٍ عزيمةً

---

(١) أخرَجه البخاريُّ (٤٧٧٧) ومسلمٌ (٩) من حديثِ سيدنا أبي هُريرةَ رضي الله عنه ، وأخرَجه مسلمٌ (٨) من حديثِ سيدنا عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه .

(٢) أورَدَ الغزاليُّ في « إحياء علوم الدين » (٣/٧٦) عن سَهلِ بنِ عبدِ اللهِ التُّستَرِيِّ قال : (ما صار الأبدالُ أبدالاً إلا بأربعِ خِصالٍ : بإخماصِ البطونِ ، والسَّهَرِ ، والصَّمتِ ، والاعتزالِ عنِ النَّاسِ) .

(٣) من قولِه : (وإذا صحَّ العبدُ) إلىٰ قولِه : (ازداد حسنُ سيرتِه) ، استدراكٌ بمقدارِ الورقتينِ من (ب) ساقط من (أ) وبها تُختَمُ الرِّسالةُ .

في العُبوديَّةِ ، ويَتَحرَّىٰ الِاستقامَةَ ، ويصونُ جَوارِحَه عنِ المكارِهِ ، وقلبَهُ عنِ الغفلَةِ عنِ اللهِ .

يكونُ نهارُهُ بجميعِ أجزائِهِ وآنائِهِ مُزَيَّناً بفِعلِ الرِّضَا ، وما يَدخلُ عليهِ مِنْ أمرٍ ضَرُورِيٍّ فيما يَرجِعُ إلىٰ أمرِ مَعاشِهِ لنَفسِهِ ، أو لمَنْ يَلزَمُهُ شرعاً أمرُهُ . . يَصرِفُ إليهِ مِنْ زمانِهِ بِقَدْرِ الحاجَةِ فَحَسْبُ ، ولا يُقدِمُ على اليسيرِ مِنْ ذٰلكَ إلَّا بعدَ الِاستخارةِ وصِدقِ الِالتجاءِ ، ويكونُ فيهِ مُستَعاراً ؛ فيتعلَّقُ فيهِ بالمحَلِّ الأعلَىٰ ، ويُقلِّلُ الكلَامَ فيهِ إلىٰ أن يَخرُجَ منهُ ، ويَعُودَ إلىٰ مَواطنِ عباداتِهِ وأذكارِهِ بجوارحِهِ أيضاً .

وينبَغِي لهُ أنْ يَخرُجَ مِنْ رِعايةِ رُسُومِ العاداتِ ، فإنْ ضَعُفَ في بعضِ الأَحايينِ ، وأرادَ مُلابَسَةَ شيءٍ مِنْ رُسُومِ العاداتِ . . فيُكثِرُ البُكاءَ علىٰ ذٰلكَ ، ويَحذَرُ مُساكَنةَ النَّفسِ والِاستِرسالَ فيهِ .

فإنْ ضَعُفَ عن تَركِ السَّبَبِ . . فأَقصَىٰ ما يَنبَغِي لهُ أنْ يَهتَمَّ لقُوتِ عِيَالِهِ لسَنةٍ واحدةٍ وإنْ مَنَّ اللهُ تعالىٰ عليهِ بالقُوَّةِ ؛ حتَّىٰ لا يَهتَمَّ في عَشَائِهِ لغَدَائِهِ ، ويَرِدَ مَوارِدَ جمْعِيَّتِهِ غَضّاً طَرِيّاً غيرَ مُستَلِذٍّ بالِاهتمامِ ، فهو الغايَةُ ، لا يَنطمِسُ نورُ فِطرَتِهِ بِحُكمِ جِبِلَّتِهِ .

والنَّومُ باللَّيلِ يُراعِي الِاعتدالَ فيهِ ، ويأخُذُ حَظَّهُ مِنَ الخَلْوَةِ معَ اللهِ تعالىٰ ، وكلَّما وقفَ على الضَّرورةِ في قولِهِ وفعلِهِ في أمرِ مَعاشِهِ . . تَكمُلُ لهُ المواطَأةُ بينَ القلبِ واللِّسانِ ، والتِّلاوةِ والأذكارِ ، ويَقِلُّ طُرُوقُ حَديثٍ علىٰ قَلبِهِ ، ويُصانُ قلبُهُ عنْ تَخيُّلِ ما رأىٰ وسَمِعَ ، ومَهما أَمكَنَهُ أَلَّا يَرىٰ إنساناً . . كانَ أصلَحَ لهُ .

ويكونُ أبداً مفتُوحَ بابِ القلبِ إلى الآخرَةِ ؛ بذكرِ الموتِ والفِكرِ في عُسْرِ نَفَادِ أيَّامِ الدُّنيا ، ويكونُ في صَلاتِهِ خاشِعاً ، وإمَّا مُتَخَشِّعاً ، غيرُ هٰذا فلا ، إلَّا إذا طَرَقَ قلبَهُ نُسَيْمَةُ الأُنسِ ، واحتَوَتْ علىٰ قلبِهِ ، وجرَّدَتْهُ عن حديثِ النَّفسِ ، واسْتَلَبَتْهُ عن كلِّ مَرئِيٍّ ومَسمُوعٍ ، وسَبَحَتْ بهِ في بحارِ الغُيوبِ ، وغَيَّبَتْهُ عن كلِّ

هاجِسٍ . . فعندَ ذٰلكَ لا يَبقَىٰ خشوعٌ ؛ لأنَّ الخشوعَ يَعصِرُ بَقِيَّةَ الوُجودِ ، وهٰذا قدِ اكتَسَىٰ ملابِسَ الوُجودِ بالحقِّ ، وتَجرَّدَ عن وُجودٍ يعصِرُهُ الخشوعُ .

وفي الوُضوءِ وتَناوُلِ الطَّعامِ يكونُ مُقِيماً على الذِّكرِ ، ويَتعاهَدُ نَفْسَهُ بتَركِ الشَّهواتِ إنْ لـمْ يَقدِرْ علىٰ تَركِها بالكُلِّيَّةِ ، ويَتعاهَدُ نَفْسَهُ بالصَّومِ إنْ لـمْ يكُنْ دائمَ الصَّومِ .

ثـمَّ يَصُونُ قلبَهُ عنِ الِاعتدادِ بشَيءٍ مِنْ حالِهِ وعِلمِهِ ، ولا يَستَكثِرُ شيئاً للهِ تعالىٰ ، مَهْمَا وُفِّقَ في أنواعِ البِرِّ ، ويصونُ قلبَهُ عن مُباهاةِ المُكْثِرِينَ ، والإزراءِ على المُقِلِّينَ .

ويَتصدَّقُ كلَّ يومٍ ولو بِكِسْرَةٍ ، ويكونُ أبداً مُتَطَلِّعاً إلىٰ مَزيدِ الفَهمِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، ومَزيدِ العِلمِ فيما يَنفَعُ ويَضُرُّ ، ويَكشِفُ دفائِنَ النَّفسِ وشَهَواتِها الخَفِيَّةَ ؛ حتَّىٰ يُفَطِّنَهُ اللهُ تعالىٰ بحرَكةِ النَّفسِ وإنْ دَقَّ وخَفِيَ ، وعلىٰ قَدْرِ صَفاءِ القَلبِ المستَفادِ مِنْ كمالِ الِاستقامَةِ يكونُ شُعورُهُ بِخَفِيِّ حركةِ النَّفسِ .

والله الموفّق والمعين

والحمد لله رب العالمين

من تراث
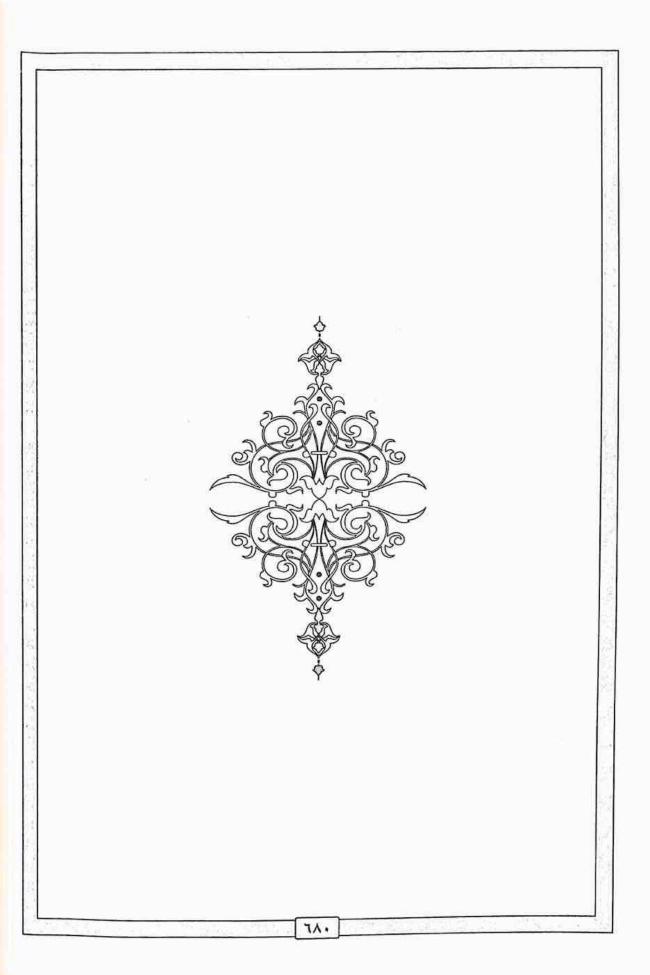
الإمامِ أبي حَفْصٍ عُمَر السُّهْرَوَرْدِيّ

الرّسالة الثّانية

حِلْيَةُ الفَقِيرِ الصَّادِق

مقدّمة
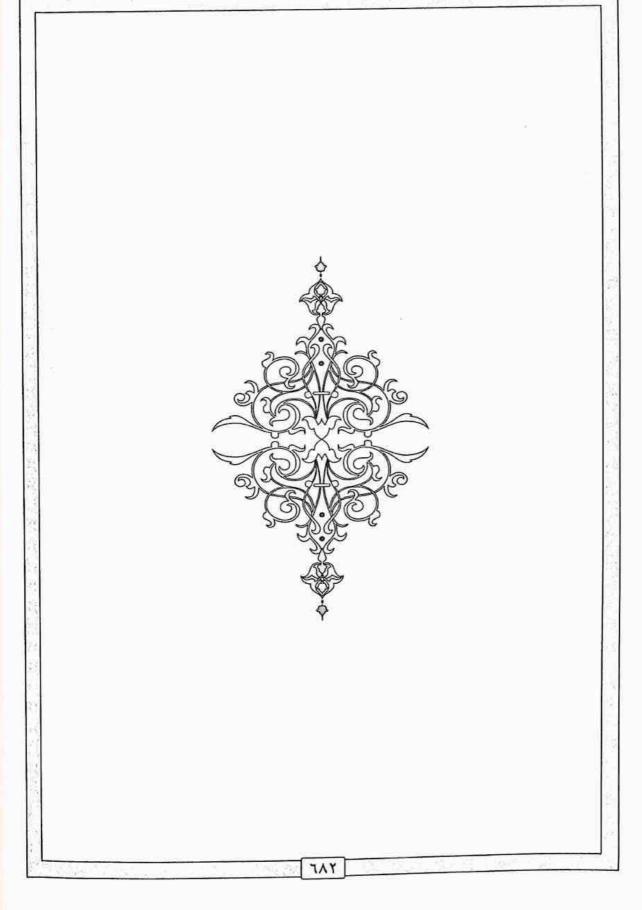
هٰذه الرِّسالةُ عبارةٌ عن جوابٍ لسؤالٍ وُجِّهَ إلى السُّهرورديِّ بخصوصِ الخِصالِ التي ينبغي أن يَتحلَّىٰ بها الفقيرُ السَّالكُ طريقَ التَّصوُّفِ ؛ ليكونَ متحقِّقاً بصفاتِ أهلِ التَّصوُّفِ ، مُقتَدِياً بهم ، سائراً علىٰ مِنهاجِهم ؛ فكتَبَ السُّهرورديُّ هٰذه الرِّسالةَ .

استهلَّ السُّهرورديُّ جوابَه بتلخيصِ هٰذه الخصالِ في صورةِ وصايا مُوجَزةٍ ، صاغَها في عباراتٍ قصيرةٍ ، وقدْ بدأَها بقولِه : (اجعَل يا أخي زادَكَ التَّقوىٰ ، وبِضاعتَك الإخلاصَ ، وسَفرَك الآخرةَ ، وأنفاسَك المَراحِلَ ، ومَنزِلَك القبرَ . . .) .

وبعدَ هٰذه الوصيَّةِ الملخَّصةِ ذَكَرَ فصولاً عِدَّةً تدورُ حولَ محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ لعبدِهِ ، ووصولِ العبدِ إلىٰ مولاهُ ، ودخولِ الفقيرِ السَّالكِ للخَلوةِ ، وشَرحِ آدابِها ، ومعرفةِ النَّفسِ وأحوالِها ، وبعضِ النَّصائحِ والإرشاداتِ للسَّالكِ طريقَ التَّصوُّفِ ، وتفضيلِ الفقرِ علىٰ ما سواهُ ، وبيانِ صفةِ الدُّنيا وحقيقتِها ، وصفةِ طريقِ اللهِ تعالىٰ ، وهي فصولٌ تُعَدُّ شرحاً وإيضاحاً لبعضِ ما جاءَ في الوصيَّةِ الَّتي استهلَّ لها .

وقدْ بوَّبَ السُّهرورديُّ في كتابِه « عوارفِ المعارفِ »[(١)] باباً حولَ أخلاقِ الصُّوفيَّةِ ، وفيه توسُّعٌ ومزيدُ بيانٍ عنِ الرِّسالةِ الَّتي بين أيدينا[(٢)] .

❊ ❊ ❊

---

(١) ينظر « عوارف المعارف » الباب التاسع والعشرون (٢/٥٦) ، والباب الثلاثون (٢/٦٥) .

(٢) يُراجَع المزيدُ من الكلامِ على الكتابِ في : « أبو حفص عمر السُّهرورديُّ ؛ حياتُه وتصوُّفه » : (ص ٦٩ ـ ٧٠) .
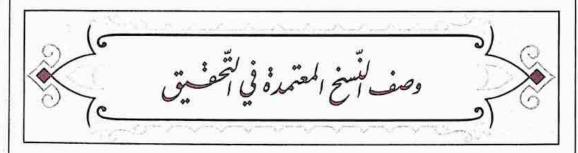
اعتمدتُ في تحقيقِ هـٰذه الرِّسالةِ علىٰ نُسخةِ دار الكتبِ المصريَّةِ ، المحفوظةِ برقم : (٦ ـ تصوُّف ، تَيمور ٧٤) ، وهي ضمن مجموعٍ فيه ثلاثُ رسائلَ لأبي عبدِ الرَّحمـٰنِ السُّلَمِي ؛ وهي : « عيوبُ النَّفسِ » ، و« سُلوكُ العارفينَ » ، و« الأمرُ المحكمُ المربوطُ » .

ويُوجدُ منه عِلاوةً علىٰ ما سَبَق عشرُ نُسَخٍ ، بيانُها كالآتي :

تركيا :

١ ـ أسعد أفندي : تُوجدُ بالمكتبةِ نُسخةٌ من هـٰذه الرِّسالةِ مع شَرحِها ، برقم (١٧٦١) .

٢ ـ راغب باشا : برقم (٥٢١) .

٣ ـ قونية : برقم (٢٧/١٩٨) ، الأوراق (١٨٥ ـ ١٨٧) .

سوريَّة :

ـ المكتبةُ الظَّاهريَّة : برقم (٣٨٨٠) ، الأوراق (٥٣ ـ ٦٤) مِن مجموعٍ مَكتوبٍ في سنة (١١٨٤ هـ) ، يتكوَّن من (١٤٧) ورقة ، بدمشق .

آذربيجان :

ـ معهدُ المخطوطاتِ العربيَّة في باكو ، برقم (٤٤١٠/٢٧٨٥ ـ b) .

الهند :

ـ خُدابخش : برقم (١٣/٩٥٧) (٣) .

ألمانيا :

١ ـ مكتبةُ الدَّولةِ ببرلين : برقم (٢/٣١٤١) .

٢ ـ مكتبة جامعة توبنغن : برقم (١٩/٨٩) ، الأوراق (١٢٤/أ ـ ١٢٥/ب) .

الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة :

ـ مكتبة جامعة برنستون ، مجموعة يَهودا ، برقم (٢٦٩٤) ، الأوراق : (٨٠ ـ ٨٢) ، ورقم (٢٦٩٥) ، الأوراق (١٧ ـ ٢١) .

ـ وقد وَرَدَ في « مُعجم تاريخِ التُّراثِ الإسلاميّ » : (٢٢٩٥/٣ ، ٢٢٩٦) منسوباً إلىٰ عمرَ السُّهْرَوَرْدِيّ بعُنوانينِ مختلِفَينِ : « رسالةٌ في شرحِ معنى الفقرِ ـ في التَّصوُّفِ » ، و« رسالةُ الفقرِ في مخالفةِ النَّفْسِ والقَهرِ » .

وفي « خِزانةِ التُّراثِ » جاءت منسوبةً إلىٰ عمرَ وحدَه بعنوان : « رسالةٌ في الفَقرِ » .

وجاءت في (٣٩٠٦/٥) منسوبةً إلى المقتولِ ، بنَفْسِ العنوانِ الأخيرِ .
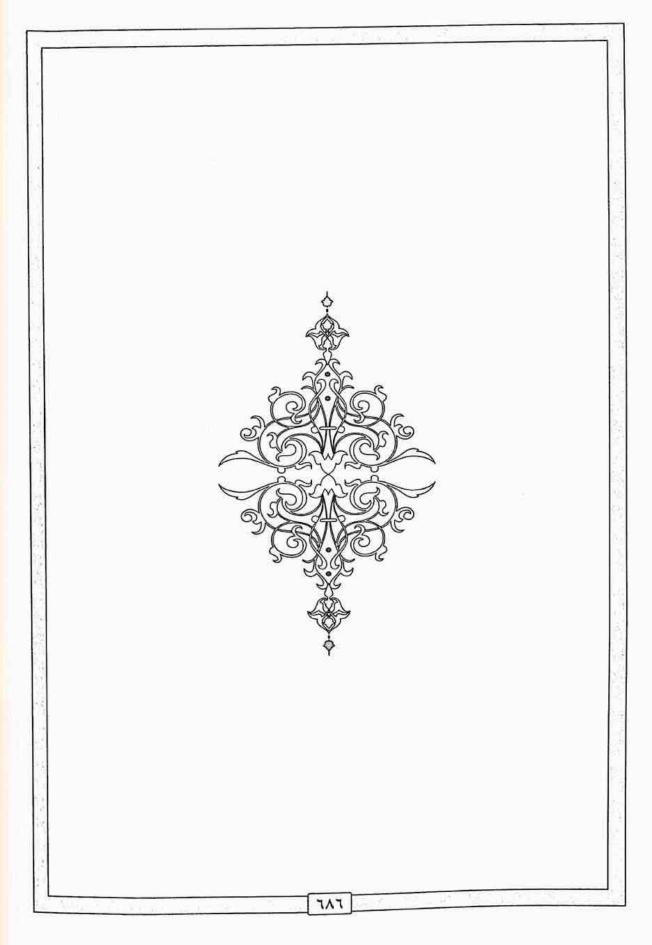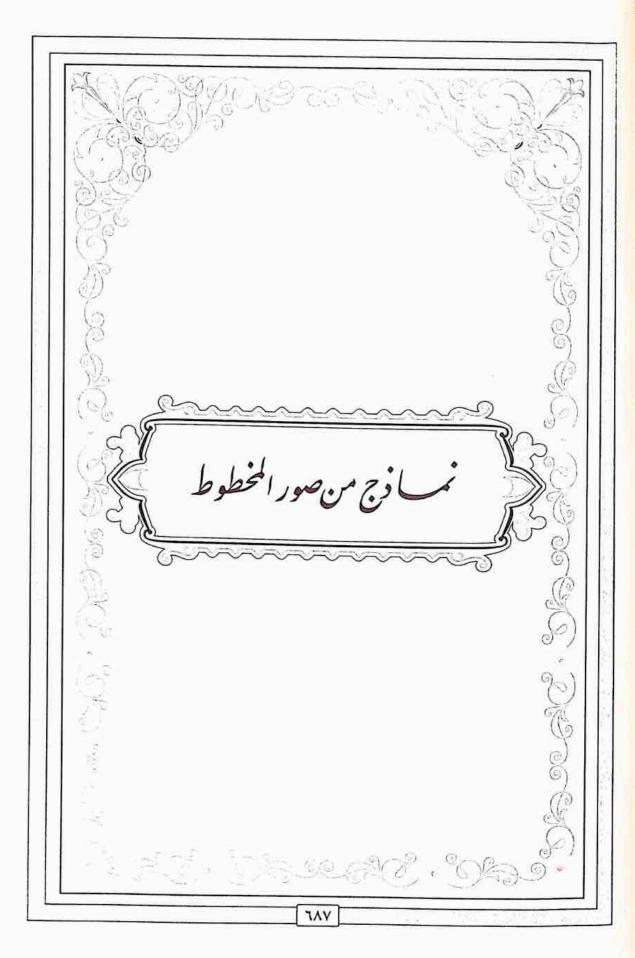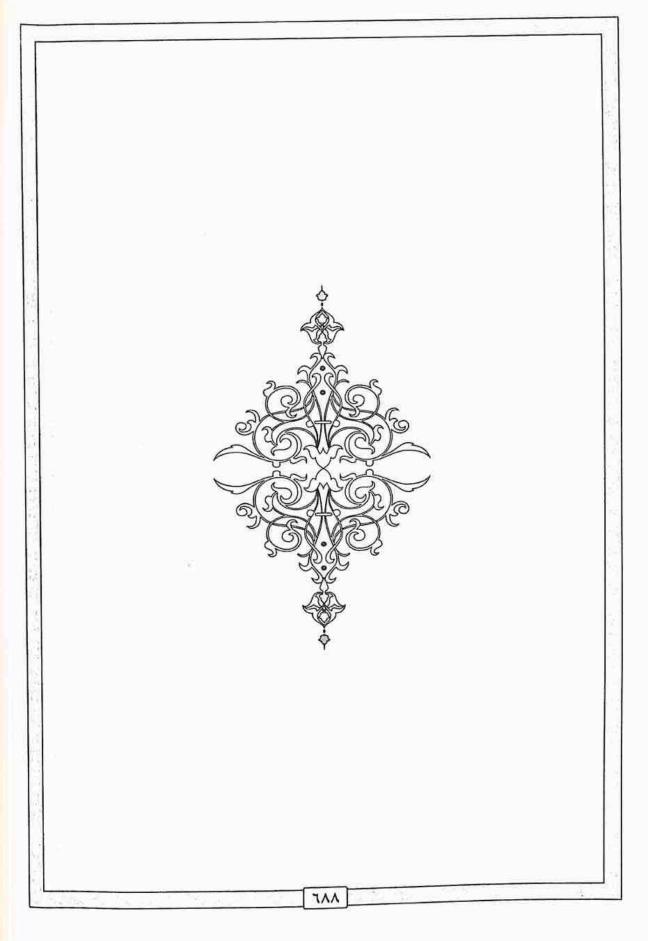
نماذج من صور المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وبه الاعانة

الحمد لله رب العالمين والصلوة والتسليم على خير خلقه
محمد وعلى اله وصحبه اجمعين قال الشيخ الامام القطب
الرباني امام المتقين وقدوة العارفين امام الطريقة
وبحر الحقيقة الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهر
وردي قدس الله روحه ونور الله ضريحه ورضي الله
عنه ولا يحرمنا بركات انفاسه النفيسه قال سالني
بعض الاخوان عن حلية الفقير الصادق في التصوف
سالتني يا اخي وفقك الله اجعل يا اخي زادك التقوى
وبضاعتك الخلوص وسفرك الاخرة وانفاسك المراحل
ومنزلك القبر وقرينك الصبر وصاحبك البقى وتدبيرك
العجز وحركاتك السكون وبيتك الخلوة وطعامك الجوع
وشرابك الدمع ولباسك الفقر والتضرع ونومك محاسبة
العمر ووسادتك ركبتيك ومجلسك المسجد ورسلك
الحكمة ونظرك العبرة ومراقبتك الحيا ورفيقك التقوى
وشيمتك حسن الخلق وعلمك القناعة وصلاتك الوداع
وصومك الصمت وهمك النار وفرحك الجنة وصحبك
الياس ومرضك الطمع ومذكرك المقابر وواعظك الايام
ومطربك الحزن وسماعك ذكر الموت ورفضك الدنيا
وارباابها وسلاحك الوضوء ومركبك الورع وخصمك الشيطان
وعدوك النفس وسجنك الدنيا وسجانك الهوى وليلك
التضرع ونهارك الاستغفار واذا سعد الموت وحاصلك

خلوص

وصل اسلك

والملكوت ... يتمسك بقول لا اله الا الله ويستحق ... يبعوث
الى الله ... جميع دعوته ومن ... يشهد بقلبه ... بسلمه
لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا معبود سواه ولا اله الا
هو الحي القيوم الباقي وما سواه ميت فانٍ ثم قال الشيخ
رضي الله عنه لنفسي ... في وصف حالي وربره معلهم
هذه الابيات شعر نصحتكم يا اخواني هلم لا سطري ...
تلبسي ولا تقولوا انه زاهد لا تسمعوا قولي وتدليسي
طيبي وكاسي ملاذا وزاري لا تقربوا ... ولا ...
اما سمعتم اني راهب تحت العبا والعقل ...
عروس جهل ورد ها زلة لا تقربوا وردي وتعريس
مدرستي قبلتي ودا معبدي تكرار ذنبي علم تقديسي
نفسي ابليس تجربتها تعوذوا من شر ابليسي تمت
وبالخير عمت والحمد لله رب العالمين والصلوة
والسلام على خير خلقه محمد واله وصحبه
اجمعين اللهم اغفر للمومنين والمومنات
والمسلمين والمسلمات الاحياء والاموات
من اهل السنة والجماعة والجماعة
امين برحمتك يا ارحم الراحمين

نسخة دار الكتب المصرية

حلية الفقير الصادق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصَّلاةُ والتَّسليمُ علىٰ خيرِ خَلْقِه محمَّدٍ وعلىٰ آلِهِ وصحبِه أجمعينَ .

قالَ الشَّيخُ الإمامُ القُطبُ الرَّبَّانيُّ إمامُ المتَّقينَ وقُدوةُ العارفينَ إمامُ الطَّريقةِ وبحرُ الحقيقةِ الشَّيخُ شِهابُ الدِّينِ أبو حفصٍ عمرُ السُّهرَوَرْدِيُّ ، قدَّسَ اللهُ رُوحَه ، ونوَّرَ اللهُ ضَريحَه ، ورضي الله عنه ، ولا يَحرِمُنا بركاتِ أنفاسِهِ النَّفِيسَةِ .

قالَ : سألنِي بعضُ الإخوانِ عن حِليَةِ الفقيرِ الصَّادقِ في التَّصوُّفِ .

سألتَنِي يا أخي وفَّقكَ اللهُ :

اجعَل يا أخي زادَكَ التَّقوىٰ ، وبِضاعتَكَ الإخلاصَ ، وسَفرَكَ الآخرةَ ، وأنفاسَكَ المَراحِلَ ، ومَنزِلَكَ القبرَ ، وقَرينَكَ الصَّبرَ ، وصاحِبَكَ اليقينَ ، وتَدبِيرَكَ العَجزَ ، وحَركاتِكَ السُّكونَ ، وبيتَكَ الخَلوَةَ ، وطَعامَكَ الجُوعَ ، وشَرابَكَ الدَّمعَ ، ولباسَكَ الفَقرَ والتَّضرُّعَ ، ونومَكَ مُحاسَبةَ العُمُرِ ، ووِسادَتَكَ رُكبتَيكَ ، ومَجلِسَكَ المسجدَ ، ووَرْسَكَ[1] الحِكمةَ ، ونَظَرَكَ العِبرةَ ، ومُراقبتَكَ الحياءَ ، ورَفيقَكَ التَّقوىٰ ، وشِيمَتَكَ حُسنَ الخُلُقِ ، وعِلمَكَ القَناعةَ ، وصَلاتَكَ الوَداعَ ، وصَومَكَ الصَّمتَ ، وهَمَّكَ النَّارَ ، وفرَحَكَ الجَنَّةَ ، وصَحبَكَ اليَأسَ ، ومرَضَكَ الطَّمَعَ ، ومَذْكَرَكَ المقابرَ ، ووَعْظَكَ الأيَّامَ ، ومَطْرَبَكَ الحُزنَ ، وسَماعَكَ ذِكرَ الموتِ ورفضَكَ الدُّنيا وأربابَها ، وسِلاحَكَ الوُضوءَ ، ومَركبَكَ الوَرَعَ ، وخَصمَكَ الشَّيطانَ ، وعدُوَّكَ النَّفسَ ، وسِجنَكَ الدُّنيا ، وسَجَّانَكَ الهوىٰ ، ولَيلَكَ التَّضرُّعَ ، ونهارَكَ الِاستغفارَ والِاستعدادَ للمَوتِ ، وحاصِلَكَ الوقتَ ، وحِصنَكَ الدِّينَ ، وشِعارَكَ الشَّرعَ ، وحديثَكَ كتابَ اللهِ ، ورأسَ مالِكَ حُسنَ الظَّنِّ باللهِ ، وحِرصَكَ

---

(١) **الوَرْسُ** : نبتٌ أصفرُ ، يُصبَغُ به ، والمعنىٰ : جمِّل نفْسَك بالحِكمةِ .

الصَّلاةَ علىٰ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وعادتَكَ الدُّعاءَ لجميعِ المُسلِمِينَ ، وصَمتَكَ [1] العَمَلَ الصَّالِحَ ، وخَوفَكَ رَدَّ العَمَلِ وسُوءَ الخاتِمةِ ، وغايةَ مُتناهِي هِمَّتِكَ اللهَ وقُصارَىٰ أُمنِيَتِكَ .

هو هٰذا نَعتُ الفقيرِ وصِفَتُهُ ، وما عدا ذٰلكَ أَمَانِيٌّ وغُرُورٌ .

فإذا وُفِّقْتَ لهٰذا وفَعَلتَهُ . . عِشتَ حُرّاً ، ومِتَّ فارغاً عارفاً ، فأُقِمتَ بحمدِ اللهِ مِنَ القبرِ آمِناً ، ودخلتَ الجَنَّةَ سعيداً إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

(١) وتُقرأُ : (وهِمَّتك) ، وكلاهُما وجيهٌ ؛ له حظٌّ مِنَ التَّوجِيهِ .

فَصْلٌ
في علامة محبّة الله تعالىٰ عبده ووصول العبد إلىٰ مولاه جلّ ذكره وصفاته[1]

وحَصرُ مَعرفتِهِ بصفاتِه تعالىٰ وتقدَّسَ : أن يَعلَم[2] المُتوجِّهُ إلى اللهِ ، السَّائرُ إلىٰ حَضرتِه : أنَّ المانِعَ والمُعطِيَ ، والضَّارَّ والنَّافعَ ، والهادِيَ والمُضِلَّ . . هو اللهُ تعالىٰ ، وليسَ في الوُجودِ إلَّا هو الباقِي ، وما سِواهُ فانٍ .

ويَستَوي لسانُهُ وقلبُهُ في الذِّكرِ ، وتَمتلئُ عُروقُهُ مِنْ مَحبَّةِ اللهِ وذِكرِهِ ، ولا يَرىٰ لِنَفْسِهِ قِيمةً ، ويُبغِضُ الدُّنيا وطُلَّابَها ، ويُحِبُّ المَوتَ ولِقاءَ اللهِ ، ويختارُ الخَلْوةَ والعُزْلةَ عَنِ النَّاسِ .

ويَستَوي عندَهُ المدحُ والذَّمُّ ، والخيرُ والشَّرُّ ، والمَنعُ والعَطاءُ ، والذَّهبُ والتُّرابُ ، ويَبكي باللَّيلِ والنَّهارِ علىٰ تقصِيرِهِ ، ويكونُ في الدُّنيا بالقالَبِ ، وفي الآخرةِ بالقَلبِ .

ويُصحِّحُ إيمانَهُ واعتقادَهُ معَ اللهِ تعالىٰ ، ولا يَجري علىٰ لِسانِهِ إلَّا ذِكرُ الحقِّ وذِكرُ الموتِ ، وشيءٌ مِن هَولِ المُطَّلَعِ ، أو صِفةٌ مِنْ صفاتِ الجَنَّةِ أوِ النَّارِ .

ويكونُ أقربَ الأشياءِ إليهِ الموتُ ، وأبعدَ الأشياءِ إليهِ الأَمَلُ ، ويَبكي علىٰ أنفاسِهِ بعدَ يَأسِهِ عن جَميعِ الخلائقِ .

هٰذه علامَةُ إقبالِ اللهِ تعالىٰ برحمتِهِ وفَضلِهِ علىٰ عبدِهِ الضَّعيفِ ، وَوُصولِ العبدِ إلىٰ بابِ سيِّدِهِ ومَولاهُ تباركَ وتعالىٰ .

* * *

---

(١) قولُه : (وصفاتُه) : مُلحَقٌ من حاشيةِ الأصل الخطِّيِّ .

(٢) في الأصلِ : (يعملَ) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبَتُّ ، والله أعلم .

فَصْلٌ
في حقيقة دخول الفقير في الخلوة وشرح آدابها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وحاصِلُهُ : أنْ يكونَ هٰذا العبدُ السَّالِكُ المريدُ فارِغاً مِنَ الدُّنيا والآخرةِ[١] ، طالباً[٢] رِضاءَ اللهِ تعالىٰ وصَلاحَ قَلبِهِ وحالِهِ ، طاهراً مِنْ نَجاساتِ الذُّنوبِ بالتَّوبةِ ، ومِنْ مَظالمِ الخَلقِ بالِاستِحلالِ[٣] أو بِرَدِّها ، هارِباً مِنَ الدُّنيا وأربابِها ، مُقبِلاً على الآخرةِ مشغُولاً بأسبابِها ، مُتوجِّهاً إلىٰ حَضرَةِ اللهِ تعالىٰ بجميعِ ما في قَلبِهِ وبَدَنِهِ ، مُجرَّداً خالياً عن جميعِ الإراداتِ ظاهراً وباطناً ، صامِتاً وساكِتاً ، مُتضرِّعاً خائفاً ، باكياً مُستَحِياً ، فقيراً خالِصاً ، مُستَمسِكاً بالشَّرعِ ، حافِظاً لحُدودِ اللهِ ، عالِماً بأحكامِهِ ، تابِعاً لسُنَّةِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

فإذا دَخَلَ الخَلوَةَ . . يَظُنُّ أنَّهُ مَيِّتٌ ، وبيتُ الخَلوَةِ قبرُهُ ، فلا يبقَىٰ لميِّتٍ اختيارٌ ولا إرادةٌ ، وإنْ كانَ لهُ حاجةٌ . . يَقضِي جميعَ حَوائجِهِ وأشغالِهِ قبلَ دُخولِهِ ؛ حتَّىٰ لا يتعلَّقَ قلبُهُ بشيءٍ سِوى اللهِ تعالىٰ ، ويَطلبُ مكاناً بعيداً مِنَ[٤] الخَلقِ ، قريباً مِنَ الجامعِ ، أو في مَوضِعٍ لا يجِبُ عليهِ حضورُ جُمُعةٍ[٥] .

---

(١) لعلَّه يعني بها : ألا يحمِلَه على العملِ ما وَعَدَ اللهُ به عِبادَه مِن نَوالٍ ، بل يَعمَلُ حبّاً لله وطاعةً له ، علىٰ غِرارِ قولِ رابعةَ العدويَّة المشهورِ في هٰذا المعنىٰ .

(٢) في الأصلِ : (طالب) ، وهو معطوفٌ علىٰ ما قبلَه .

(٣) أي : أن يكونَ في حِلٍّ مِن قِبَلِهِم ؛ بأن يسألَهم العَفوَ والمُسامَحةَ .

(٤) كذا في الأصلِ .

(٥) وقال في مَطلعِ أجوبتِه على السُّؤلاتِ ، وعند الجوابِ على السُّؤالِ الخامسِ : (غيرَ أنِّي لا أحِبُّ للمُريدِ أن يَترُكَ الصَّلاةَ جماعةً ، بل يَحضُرُ الفَرضَ ويَرجِعُ إلىٰ خَلوَتِه ؛ حتَّىٰ لا تكونَ خَلوَتُه رَهبانِيَّةً ، ←

وينبَغي أن يكونَ مكاناً ضيّقاً ، لا يَدخلُ فيه شُعاعُ الشَّمسِ ولا ضَوءُ القمرِ ، ولا يكونُ عندَهُ مَعلومٌ ولا مَطعومٌ ، ويشتَغِلُ بالذِّكرِ دائماً ، ليلاً ونهاراً ، سِرّاً وجَهراً ؛ بلا فُتُورٍ وتَعلُّلٍ ، يأخذُ قَلبُهُ مِنْ لِسانِهِ ، ولِسانُهُ مِنْ قَلبِهِ ، ويقومُ بأمرِهِ شيخٌ ناصحٌ ، أو أخٌ مُشفِقٌ ، أو رفيقٌ صالحٌ ، أو صديقٌ حمِيمٌ ؛ بطعامِهِ ومِزاجِهِ ، وصَلاحِهِ وفسادِهِ ، وعَقلِهِ ودِماغِهِ ، وتَسكينِ صبرِهِ وتَعجيلِهِ ، وسُلطانِ وَهْمِهِ وإحكامِ نفسِهِ ؛ مِثلُ الطَّبيبِ الحاذقِ ، العالمِ بعلَلِ أمراضِ المريضِ وفِعلِ الأدويةِ .

وهو يفعلُ بعدَ استخارةِ اللهِ مِراراً وتَضرُّعِهِ إليهِ ، ويُعفِرُ وجهَهُ بالتُّرابِ بينَ يدَيهِ ، وتَسليمِ قلبِهِ ورُوحِهِ ، وتَوجُّهِهِ إلىٰ حَضرَةِ اللهِ تعالىٰ .

ولا يرفعُ صوتَهُ بالذِّكرِ كثيراً ، إلَّا أنْ يكونَ مغلوباً[1] بغيرِ إرادتِهِ ، ولا ينامُ باختيارِهِ ، ولا يتَّكِئُ علىٰ شيءٍ ، ولا يَتعلَّلُ بشيءٍ .

ولا يُصلِّي إلَّا الفرائضَ والسُّننَ ، وركعتَيِ الضُّحىٰ ، وركعتينِ بعدَ تجديدِ الوُضوءِ ، ولا يَخطُرُ ببالِهِ مِنَ الكَراماتِ والمَواهبِ شيءٌ ، ولا يَرىٰ لنَفْسِهِ وخَلوَتِهِ وخِدمَتِهِ قِيمةً ، ولا يُبقِي عندَهُ دَعوىٰ ولا رُعُونةً ، ويرفعُ عن نَفْسِهِ الخَواطِرَ الرَّدِيَّةَ ، ويَنفِي عن قلبِهِ الإرادةَ الفاسدةَ الخَسِيسةَ ، ويَستعمِلُ دوامَ ذِكرِ اللهِ تعالىٰ ، وتَقليلَ الغِذاءِ بمِقدارِ صبرِهِ وقُوَّتِهِ وطاقتِهِ وضَعفِهِ وصِحَّتِهِ ، ويَستعمِلُ الطِّيبَ والبُخورَ دائماً ، ولا يأكلُ دَسَماً .

ويَشتَغِلُ بذِكرِ اللهِ تعالىٰ بالأدبِ ، ويكونُ دائماً مثلَ صاحبِ خِيانةٍ عَظيمةٍ بينَ يدَي سُلطانٍ جائرٍ .

← وأمَّا مَن تَرَكَ الجُمُعةَ ، وزعَمَ أنَّه في الخَلوَةِ ، وأنَّه إن خَرَجَ تَتشَوَّشُ جَمعِيَّتُه . . فهو ضالٌّ مُخطِئٌ ، نَعوذُ باللهِ منه ومِمَّن يُحَسِّنُ له ذلك ؛ فهو عَينُ الضَّلالِ) .

وفي الكتابِ نَفْسِه ، عند وصيَّتِه لعمادِ الدِّينِ حامدِ بنِ عقبةَ بنِ هِبةِ اللهِ ، قال : (أنَّه يَجتَنِبُ مُخالَطةَ الخلقِ ، ويَكتَفِي مِنَ الخلقِ ومُخالَطتِهم بحضورِه معهم في الجُمُعةِ والجماعةِ) .

(١) في الأصل : (مطلوباً) .

ولا يَفعلُ شيئاً يُخالِفُ الشَّرعَ والسُّنَّةَ ، ولا يَلتفِتُ إلىٰ إظهارِ الأشياءِ ، ويَدفعُ عن نَفْسِهِ بالذِّكرِ ، ويَستحيِي مِنَ اللهِ تعالىٰ ، ويَستغفِرُ مِنْ طاعتِهِ كما يستغفِرُ مِنْ مَعصيتِهِ ، ويخافُ علىٰ نَفْسِهِ وحالِهِ مِثلَ ما يخافُ على الكفَّارِ .

ولا يدخلُ الخَلوَةَ إلَّا سلِيمَ الِاعتقادِ ، صحيحَ العقيدةِ ، مؤمناً باللهِ تعالىٰ وملائكتِه وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، مُوقِناً بالبَعثِ ، والجَنَّةِ والنَّارِ ، والوَعدِ والوعيدِ ، مُحِبّاً لأصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

ولو كان بخلافِ هٰذا . . يدخلُ مُنافِقاً مُبتدِعاً ، ويخرُجُ زِنديقاً .

ويختارُ إراداتِ اللهِ تعالىٰ علىٰ إرادتِهِ ، ويُحِبُّ لجميعِ النَّاسِ ما يحبُّ لنَفْسِهِ .

وإذا خرجَ مِن الخَلْوَةِ . . لا يُظهِرُ إلَّا العَجزَ والكمالَ [1] ، ويَحفَظُ القَلبَ واللِّسانَ ، ويُداوِمُ في خَلوَتِه وغيرِ خَلوَتِه على الوُضوءِ والطَّهارةِ ، ولا يُبقِي لهُ مَحبَّةَ الدُّنيا وأربابِها ، ويَطلُبُ العِصمةَ مِنَ اللهِ ، والأمانَ مِنْ شُرورِ نَفْسِهِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ، والتَّوفيقَ على الطَّاعةِ وحُسنَ الخاتمةِ ؛ لأنَّ الأمورَ بخَواتِمِها [2] .

* * *

---

(١) كذا في الأصلِ ، ولعلَّ الأنسبَ : (لا الكمال) .

(٢) أخرَج البخاريُّ (٦٤٩٣) ومسلم (١١٢) عن سيدنا سَهلِ بن سَعدٍ رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ ـ فِيمَا يَرَى النَّاسُ ـ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَعْمَلُ ـ فِيمَا يَرَى النَّاسُ ـ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » ، زاد البخاريُّ : « وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا » .

فَصْلٌ

في معرفة النّفس وتتابعها[1] ولا يعرفها بالحقيقة أحدٌ أبدًا

اعلَمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خلَقَ النَّفْسَ شرَّ الأشياءِ ، وهي ما بينَ جنبَيكَ ، وهي مَطِيَّتُكَ[2] وأنتَ مُحتاجٌ إليها ، ومَثَلُها كمَثَلِ السَّارقِ الواقفِ علىٰ مَتاعِ البيتِ في بيتِكَ ، وهي قَرينةُ الشَّيطانِ ، ومَأوَىٰ كُلِّ سُوءٍ ، ولها صِفاتٌ مَذمومةٌ : تُحِبُّ الشَّرَّ وتُبغِضُ الخيرَ ، تُخالِفُ العَقلَ وتُوافِقُ الهَوىٰ ، تَدعُوها إلى الطَّاعةِ وهي تَجرُّكَ إلى المعصيةِ ، وهي في الشِّبَعِ مِثلُ السَّبُعِ ، وفي الجُوعِ مِثلُ الطِّفلِ الضَّعيفِ ، وفي الغَضَبِ مِثلُ المُلوكِ الجبابرةِ ، وفي الشَّهواتِ مِثلُ البهائمِ ، وفي الخَلَواتِ مِثلُ الهِرَّةِ ، وفي الأَمنِ مِثلُ النَّمِرِ والأَسَدِ .

ومِن سُوءِ عادتِها : تخافُ مِنَ الفَقرِ والقِلَّةِ ، ولا تخافُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ومِن أليمِ عِقابِهِ وعذابِهِ ، وهي مُسخَّرةٌ للشَّيطانِ .

ولها أعوانٌ وأنصارٌ ؛ مِثلُ الدُّنيا وزَهرَتِها[3] ، والهَوىٰ ، والشَّيطانِ ، وما يتعلَّقُ بها مِن كلِّ واحدٍ مِنْ أعوانِها جنودٌ وَوُفودٌ ، وخَيلٌ وحَشَمٌ مِنْ زِينةِ الدُّنيا[4] ، ثمَّ كَثرةُ الأكلِ ، وكَثرةُ النَّومِ ، وكَثرةُ الضَّحِكِ وحِكايةُ العُشَّاقِ ، وحُبُّ الدُّنيا ، واختيارُ الغِنىٰ والكِبْرِ ، والحسَدِ والنَّميمةِ ، والعَداوةِ الذَّميمةِ ، وارتِكابُ المعاصي ، والملاعبِ والملاهي ، والاِشتغالُ بكُلِّ ما لا يَعنِيهِ ، وجمعُ المالِ ، وطُولُ الأملِ

---

(١) في « الأصل » : « وتَتابُعِها » بالباءِ المُوحَّدةِ ، والمُثبَتُ أنسَبُ للسِّياقِ ؛ فالتَّتابُعُ هو : التَّهافُتُ في الشَّرِّ واللَّجاجُ ، ولا يكون التَّتايُعُ إلَّا في الشَّرِّ . يُنظر : « الصِّحاح » للجَوهريِّ (ت ي ع) .

(٢) بمعنىٰ : أنَّها الَّتي تُسيِّرك وتذهبُ بك إلىٰ هواها ومُبتغاها .

(٣) وتُقرأُ : (وزهوتها) .

(٤) حَشمُ الرَّجُلِ : خَدَمُهُ ، ومَن يَغضبُ له . « الصِّحاح » (ح ش م) .

والأمانِيِّ ، والأمرُ بالمنكرِ والمنعُ عن المعروفِ ، والتَّمنِّي والغُرورِ ، والهَوىٰ والسُّرورِ ، والعِماراتُ والتِّجاراتُ ، وتَحسينُ القبيحِ ، وهَتْكُ السِّترِ ، ومُجاوَزةُ الحُدودِ ، واستعانةُ الباطلِ ، وإنكارُ الحقِّ ، وتَعظيمُ أبناءِ الدُّنيا ، وتحقيرُ أبناءِ الآخرةِ ، كلُّ هٰذه مِنْ صفاتِ النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ، كلُّ عِرقٍ مِنْ عُروقِ بَني آدمَ بيَدِ واحدٍ مِنْ أعوانِها .

فمَنْ وفَّقهُ اللهُ تعالىٰ وبصَّرَهُ بعُيوبِها . . أعانَهُ علىٰ تَسخِيرِها ومَعرفةِ مَكايدِها ، وألجَمَها بلِجامِ الوَرَعِ والتَّقوىٰ ، وقيَّدَها بسَلاسِلِ الذُّلِّ والاِنكسارِ وتَكليفاتِ الشَّرعِ ، ويَقتلُها بسَيفِ المُجاهدةِ ، ويُسلِّطُ عليها الجُوعَ والعَطَشَ والسَّهَرَ ، ويُخالِفُها في كلِّ شيءٍ ؛ إلَّا في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، ويَخافُ مِنها في الطَّاعةِ أيضاً ، ويذمُّها علىٰ جميعِ أفعالِها ، ولا يَغفُلُ عن تأدِيبِها ورِياضَتِها إلى الموتِ .

ويجعلُ العَقلَ عِقالَها ، والشَّرعَ سِجنَها ، والعِباداتِ سَجَّانَها ، وذِكرَ الموتِ طعامَها وشرابَها .

وبعدَ احتياطِها التَّامِّ البالغِ في أمرِها ؛ يَتضرَّعُ هٰذا العَبدُ المسكِينُ إلىٰ خالِقِها ومُوجِدِها ومُنشِئِها ، ويستعيذُ إليهِ مِنْ كَيدِها وسُوءِ عادتِها وَغلَبَتِها علىٰ عَقلِهِ ، ويطلُبُ منهُ الأمانَ مِنْ شرِّها وأمانِيِّها .

وإنَّ مَثَلَ العَقْلِ والنَّفْسِ مَثَلُ شخصَينِ عَدُوَّينِ ، قاصِدَينِ قدِيمَ العداوةِ والخُصومةِ ، وبِيَدِ كلِّ واحدٍ منهما سَيفٌ [1] مُترَقِّبُ العَقلِ [2] مِنْ صاحبِهِ ، ولا يقطَعُ النَّظَرَ منهُ ؛ حتَّىٰ إذا غَفُلَ . . يقتُلُهُ ، وكلُّ مَنْ غَلَبَ . . سَلَبَ .

ومَنْ كانَ ظالماً لنَفْسِه ويقتلُها بظُلمٍ . . نَجا مِنْ شرِّها ، وأَمِنَ مِنْ مَكايدِها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ [3] .

---

(١) في الأصلِ : (سيفاً) بالنَّصب ، والمثبتُ الجادَّةُ .

(٢) كذا في الأصل ، ولعلها : (العقر) .

(٣) سورة فاطر : (٣٢) .

والظَّالمُ عليهِ[1] أنْ يَمنعَها مِنَ الشَّهواتِ الفاسِدةِ ، واللَّذاتِ الفانِيةِ ، والأمانيِّ الباطِلةِ ، والآمالِ الكاذِبةِ ، وغُرورِ الدُّنيا ، وحُبِّ المالِ والشَّرفِ ، ويجرَّها إلىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ طَوعاً وكَرهاً ، وعلىٰ مُتابعةِ الشَّرعِ والسُّنَّةِ انقِياداً أوِ اضطراراً ، ويُحرِّضَها علىٰ حُبِّ الآخرةِ وذِكرِ الموتِ ، ويخافَ مِنْ كَيدِها ومَكرِها ورُعونَتِها في العِبادةِ والزُّهدِ ؛ فإنَّ خِداعَها وفسادَها في الطَّاعةِ أكثرُ مِنَ المعصيةِ .

وإنَّ لها في الطَّاعاتِ شَراباً وعَيشاً أحَبُّ إليها مِنْ رُكوبِ المعاصي ، مِثلُ : تَزيينِ الطَّاعاتِ ، ورُؤيةِ العِبادةِ وقِيمةِ العَمَلِ ، والرِّياءِ والمِراءِ والنِّفاقِ ، وحُبِّ إقبالِ الخَلقِ ، وتَقبيلِ اليَدِ ، والتَّبرُّكِ والزِّيارةِ ، وحُسنِ الهيئةِ[2] ، وثَناءِ الخَلقِ ، ورَغبةِ المُلوكِ ، وتَردُّدِ أبناءِ الدُّنيا ، وحُضورِ السَّماعِ ، وتَخريقِ الخِرَقِ ، والتَّصنُّعِ ، وإظهارِ الصَّومِ والصَّلاةِ وقِلَّةِ الأكلِ لرُؤيةِ النَّاسِ ، والبكاءِ الكاذبِ ، وتحريكِ الشَّفَةِ ، والإشارةِ بالعَينِ ، والتَّخَشُّعِ بلا خُشوعِ القَلبِ ، ولُبسِ المُرَقَّعاتِ ، ورُؤيةِ المناماتِ والمؤاخاتِ[3] ، والحُلمِ على الماضي والمستقبلِ ، والمبالغةِ في الطَّاعاتِ والعبادةِ عند رُؤيةِ العاجِزينَ ، والتَّواني والتَّكاسُلِ في الخَلوَةِ ، وكَثرةِ الأصحابِ والإراداتِ ، وأَكلِ الأطعمةِ اللَّذيذةِ ، والتَّرفيعِ في الصَّدرِ في المجالسِ ، والرِّضا بحضورِ المُرْدَانِ في السَّماعِ ونَظَّارةِ النِّسوانِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ شرِّ الشَّيطانِ .

فإنَّ هٰذه الخِصالَ أشرُّ مِنْ شُربِ الخمرِ وارتكابِ المعاصي ، أعاذَنا اللهُ مِنْ[4] شُرورِ أنفُسِنا ورُؤيةِ أعمالِنا .

---

(١) في الأصلِ : (عليها) ، ولعل الصواب ما أثبتُّ .
(٢) وتُقرأُ : (الهَيبة) .
(٣) كذا رسمُها في الأصل .
(٤) مِن قولِه : (شرِّ الشَّيطانِ) إلىٰ (مِن) مُحالٌ عليه بشَولةٍ في الحاشيةِ .

قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْراً . . أَبْصَرَهُ بِعُيوبِ نَفْسِهِ »[1] .

اللَّهُمَّ ؛ بصِّرْنا بعُيوبِ أنفُسِنا ، وسيِّئاتِ أعمالِنا ، ولا تَكِلنا إلىٰ أنفُسِنا طَرفةَ عَينٍ ولا أقلَّ مِنْ ذٰلكَ ، وانصُرْنا علىٰ أعدائِنا ، واجعَلْنا مِنَ الَّذينَ خَرجوا مِنَ الدُّنيا آمِنينَ ، ولا تَفضَحْنا علىٰ رُؤوسِ الأشهادِ ، إنَّكَ لا تُخلِفُ المِيعادَ .

---

(١) أخرَجه البيهقيُّ في « شُعب الإيمانِ » (١٠٠٥٣) من مُرسلِ محمَّدِ بنِ كعبٍ القُرَظِيِّ رحمه الله تعالىٰ ، بلفظِ : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً . . جَعَلَ فِيهِ ثَلَاثَ خِلَالٍ : فَقَّهَهُ فِي الدِّينِ ، وَزَهَّدَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَبَصَّرَهُ عُيوبَهُ » .

فَصْلٌ
في نصيحة الفقير وإرشاده[1]

إذا أرادَ الفقيرُ أن يَقطَعَ طريقَ الآخرةِ آمِناً ، ويَعبُرَ بحارَ آفاتِ الدُّنيا سالِماً . . فيلزمُ هٰذا كُلَّه جِدّاً ؛ فإنَّهُ أصلُ العُبودِيَّةِ ، ومَدارُ الخِدمَةِ والطَّاعةِ .

ويُشترطُ معَ جميعِ ذٰلكَ[2] : أكلُ الحلالِ وتَركُ المِحالِ[3] ، وصِحَّةُ الِاعتقادِ وصِدقُ الِاجتهادِ ، واستعدادٌ للمَوتِ واستدراكُ الفَوتِ ، والنَّظَرُ في أمرِهِ قبلَ حُلولِ قَبرِهِ ، وحِفظُ اللِّسانِ عنِ الإنسانِ ، والِاشتغالُ بعُيوبِهِ عن عُيوبِ غيرِهِ ، وموعظةُ نَفْسِهِ قبلَ موعظَتِهِ إخوانَهُ ، وبُغضُ الدُّنيا ظاهراً وباطناً ؛ محبَّةً للهِ تعالىٰ في تَركِ ما فيها ، وكِتمانُ الحالِ وتَركُ المَقالِ ، وتَركُ ما لا يَعنِيهِ في جميعِ الأشياءِ ، والدُّعاءُ لعامَّةِ المسلمينَ ، وكِتمانُ مَصائبِهِ وإظهارُ مَعايبِهِ ، وتَسليمُ الأعضاءِ إلى النَّفْسِ في كلِّ يومٍ جديدٍ ، وإلزامُها بحِفظِ رِعايَتِها مِنْ عذابِ النَّارِ ، والنَّظَرُ إلى الخَلقِ بعَينِ الشَّفَقةِ والرَّحمةِ ، وإلىٰ أربابِ الدُّنيا بالعِبرةِ ، لا بالإنكارِ والحَسَدِ ، وبَذلُ النَّصيحةِ وتَركُ الفَضِيحةِ ، وكَظمُ الغَيظِ ، وتَسكِينُ الغضبِ عندَ القُدرةِ عَنِ الصَّديقِ والعَدُوِّ إلَّا في مَحارِمِ اللهِ تعالىٰ ، وقَطعُ النَّظَرِ عن عَمَلِهِ والتَّفويضِ إلىٰ مَنْ يعمَلُ لهُ ، والنَّدَمُ علىٰ إفلاسِه كأنَّهُ في آخِرِ أنفاسِه ، وتَهذِيبُ الأخلاقِ ، وتَبدِيلُ الأفعالِ ، ومُداراةُ النَّاسِ ، والصَّبرُ علىٰ تَركِ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ ، وتَركُ القَدْحِ في الأحياءِ والأمواتِ ، ومُخالَفةُ الشَّيطانِ والهَوىٰ والنَّفْسِ والقَلبِ عندَ الجُوعِ والعُرْيِ والحرِّ والبَردِ في السَّفَرِ والحَضَرِ ، وصِدقُ اللِّسانِ ؛ فإنَّهُ زُبدَةُ مَعانِي

---

(١) يعيدُ السُّهرورديُّ في هٰذا الفصلِ بعضَ فقراتِ النُّصحِ والإرشادِ للفقيرِ الَّتي ذكرها سابقاً .

(٢) قوله : (ويشترط مع جميع ذٰلك) وقعت في الأصل بعد قوله : (فيلزم هٰذا كله جدّاً) ، ولعلَّ الأنسبَ ما أثبتُّ .

(٣) المِحالُ ـ ككتابٍ ـ : الكيدُ ورَومُ الأمرِ بالحِيَلِ . ينظر : « تاج العروس » (٣٠/٣٩٤) .

الإنسانِ ، والاِجتنابُ عنِ الكذبِ ، وجَريُ اللِّسانِ بالصِّدقِ والصَّوابِ ، والتُّقَىٰ في الاِستقامةِ بتَكرارِ أَهوالِ يومِ القِيامةِ ، والنَّظَرُ البالِغُ في الغِنَىٰ والفَوتِ ، والنُّطقُ بكلامِ الخيرِ ، وإلَّا . . السُّكوتُ ، والقَناعةُ بما رزقَ اللهُ .

والقِيامُ بأمرِ اللهِ تعالىٰ ، وتَعوُّدُ النَّفْسِ القَلِيلَ مِنَ الأكلِ ، وتَعوُّدُ اللِّسانِ بالكثيرِ مِنَ الذِّكرِ ، ومُحاسَبةُ العُمُرِ والأيَّامِ في كلِّ يومٍ وساعةٍ ، واختيارُ الخُمُولِ وتَركُ الشُّهرةِ ، والاِنقطاعُ مِنَ العَلائقِ ، والاِنفرادُ عنِ الخَلائقِ ، وتَركُ التَّدبيرِ والرِّضَا بالتَّقديرِ ، وصَلاةُ الاِستخارةِ في كلِّ حركةٍ وسُكونٍ ، ولُزومُ البيتِ ، واختيارُ الصَّمتِ ، وذِكرُ الموتِ وهَمِّ الوقتِ ، والتَّعفُّفُ مِنَ السُّؤالِ إلَّا مِنْ ضَرُورةِ الحالِ ، وتركُ حُظوظِ النَّفسِ ، وانقِيادٌ لأحكامِ[1] الشَّرعِ ، والظَّنُّ بجميعِ الخلائقِ النَّجاةَ مِنَ النَّارِ ، وبنَفْسِهِ مِنَ الدَّاخِلينَ فيها ، وتركُ حِكاياتِ الدُّنيا وأبنائِها وسِيرةِ مُلوكِها وعاداتِها ومَملُوكِها .

وحِفظُ أوقاتِ الصَّلاةِ مِنْ أوَّلِها ، ومُداوَمةُ الوُضوءِ والطَّهارةِ في الثَّوبِ والبَدنِ ، واستماعُ كلامِ المشايخِ بالحُرمَةِ ، وكلامِ الجهَّالِ بالعِبرةِ ، وتَحقيرُ النَّفْسِ ، وتَعظِيمُ الشَّرعِ ، وتركُ الاِختِلاطِ بالمُتصوِّفةِ ، إلَّا قويّاً مِنْ أهلِ اللهِ .

ومُلازَمةُ الحديثِ النَّبويِّ ، وتركُ حديثِ الدُّنيا ، والإقبالُ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ بالنَّشاطِ ، والبكاءُ على الذُّنوبِ ، ومُلازَمةُ النَّفسِ مِنْ كَثرةِ العُيوبِ ، والاِستغفارُ عنِ الطَّاعةِ خوفَ الرَّدِّ للطَّاعةِ ، والرَّجاءُ معَ العَمَلِ ، والخوفُ مِنَ الأجَلِ ، والكِتمانُ ممَّنْ تُهدي إليهِ ، والسُّكوتُ عَمَّنْ تُجري عليهِ .

وتَركُ الدُّنيا والزُّهدُ في الخَلقِ ، والإقبالُ على الآخرةِ وحُسنُ الخُلُقِ ، وتركُ السَّبَبِ والشَّكوَىٰ بحُضورِ المولىٰ ، وحسمُ مادَّةِ الشِّركِ بإماطةِ الفُضولِ ، وهَجرُ الخَلقِ ، وصلاةُ اللَّيلِ ، وبكاءُ السِّرِّ ، وصومُ الدُّنيا وافتكارُ الآخرةِ .

---

(١) في الأصلِ : (أحكام) ، والصواب ما أثبتُّ .

دَع نفسَك ؛ فإنَّها مَحلُّ الأنجاسِ والأرجاسِ ، وكُن طَريحاً تحتَ أقدامِ النَّاسِ .

أيُّها المقصِّرُ ؛ أينَ العَمَلُ ؟! أيُّها المُتمنِّي ؛ إلىٰ متىٰ هـٰذا الأَمَلُ ؟! أينَ الرَّحيلُ ؟ أينَ الزَّادُ ؟! وأين أُهْبةُ السَّبيلِ ؟!

هـٰذا كلامٌ مفيدٌ مختَصَرْ : عليكَ بحِفظِ اللِّسانِ وغَضِّ البَصَرْ .

فصل
في تفضيل الفقير على ما سواه

اللهِ الَّذي لا إلٰهَ إلَّا هو المُبدِئ المعيدِ ؛ لو أَتىٰ آتٍ مِن ربّي تبارَكَ وتعالىٰ ، ويقولُ : أنتَ مُخيَّرٌ مِن ربّك ؛ تعيشُ إلىٰ يوم القِيامةِ ، وتَملِكُ الدُّنيا بِأَسرِها وأجمَعِها بِلا مُنازَعةِ أَحَدٍ ، وتدخلُ الجنَّةَ معَ الأغنياءِ ، أو تموتُ السَّاعةَ ، وتدخلُ النَّارَ ، وتُبعَثُ في زُمرةِ الفُقراءِ ؟

وعِزَّتِهِ وجَلالِهِ ؛ لا أرغَبُ في نَعيمِ الدُّنيا ولا دُخولِ الجنَّةِ ! واختيارُ الموتِ ودُخولِ النَّارِ خَيْرٌ ![1] ولَلفقرُ والنَّارُ خيرٌ مِنَ العارِ ![2] لِما وَجدتُ مِن لَذَّةِ العَيشِ وطِيبِ الوقتِ ، وصَفاءِ الحالِ وفراغِ القلبِ ، وراحةِ البَدَنِ وسلامةِ النَّفْسِ ، وكَثرةِ المُناجاةِ باللَّيلِ مع مَولايَ ، وعِزَّةِ نَفْسِي عندَ أَكلِ الكِسْرَاتِ اليابِساتِ ، وذُلِّي للهِ عندَ لُبسِ المُرقَّعاتِ ، وصَفوةِ عَيشِي في جميعِ الأحوالِ .

يا إخواني الفُقراءَ ؛ الموتُ موتُكُم ، والحياةُ حياتُكُم ، والدُّنيا دُنياكُم ، والآخرةُ آخِرتُكُم ، والعَيشُ عَيشُكم ، عانِقُوا الفَقرَ ، وتَوسَّدُوا الرُّكبةَ إذا نِمتُم ، واشكُروا للهِ إنْ كُنتُم إيَّاهُ تَعبُدونَ .

واصبِرُوا علىٰ ما أصابَكُم مِنْ هٰذه النِّعمَةِ الجَسِيمَةِ والمَوهِبةِ العَظِيمةِ ، واجعلُوا التَّكبيراتِ الأربعَ علىٰ جميعِهِم قائماً ، بينَ بَياضِ النَّهارِ وسَوادِ اللَّيلِ أُمورٌ عجائبُ ، وشُرورٌ نوائبُ[3] ؛ فكَم مِنْ فاسقٍ تائبٍ ، وكَم مِنْ

---

(١) أُلحقتْ من حاشيةِ (الأصلِ) .

(٢) هي شَطحةٌ صوفيَّةٌ وحالةٌ روحانيَّةٌ اعترَتِ الإمامَ رحمه الله ، أخرَجَته عن مَألوفِ عادتِه المَعهودةِ عنه في التِزامِه بحُدودِ الشَّريعةِ ، وإنَّما أرادَ رحمه الله المبالغةَ في ذَمِّ الدُّنيا والمتكالِبينَ عليها ، وإظهارَ الولاءِ للفُقراءِ مِن أهلِ اللهِ كما سيأتي ، وهٰذا كثيرٌ في كلامِهم ، مَعروفٌ في كُتُبِهم .

(٣) في الأصل : (أموراً عجائب وشروراً نوائب) .

زاهِدٍ خائبٍ ، وكَم مِنْ حاضِرٍ غائبٍ ، فاتَّقُوا اللهَ واسمَعُوا وأطِيعُوا ، واعتَبِرُوا يا أُولِي الأبصارِ .

واعلَمُوا أنَّ مالَكُم أمالَكُم ، واقطعوا آمالَكُم ، وانتَظِرُوا في آجالِكُم ، وانظُروا ما كسَبتُم لِغَدِكُم ؛ فإنَّ غداً للنَّاظِرِينَ قريبٌ .

فَصْلٌ
في صفة الدنيا

وحقيقةُ الدُّنيا : مَوضِعُ الفِكرِ[1] ومَنزلُ العِبرةِ ، ومَقامُ العَثرَةِ وبِناءُ أهلِ الجَسرَةِ .

وهي مَزرعةُ المؤمنينَ ، وسُوقُ الطَّالبينَ ، ومَتجَرُ المريدِينَ ، ومَطيَّةُ القاصِدِينَ ، وقَنطرةُ السَّالكِينَ ، ومَعشُوقةُ المَغرُورِينَ ، ومَمَرُّ الصِّدِّيقينَ ، ومَزبَلَةُ العارِفِينَ ، ومَملَكةُ الشَّياطينِ ، عجُوزةٌ بِكرٌ ، يا أهلَ الفِطنَةِ والفِكرِ ، مكَّارةٌ غدَّارةٌ ، فرَّارةٌ مرَّارةٌ ، في كلِّ لَحظةٍ لها صديقٌ وخليلٌ ، وفي كُلِّ ساعةٍ لها هالكٌ وقتيلٌ ، بَحرُها عميقٌ ، وراكبُها غريقٌ ، مُحِبُّها مخذولٌ ، وصديقُها مقتولٌ ، زاهدُها فارغٌ ، وراغِبُها مشغولٌ ، سُرورُها هَمٌّ ، وتِرْياقُها[2] سُمٌّ ، وساحِلُها يَمٌّ ، شِفاها داءٌ ، وصِحَّتُها بلاءٌ ، ومحبَّتُها عَناءٌ ؛ فإنَّها للنَّوائبِ والرَّزايا مخلوقةٌ ، عدوَّةٌ لجميعِ الخَلقِ ، شرابُها سَرابٌ ، ومعمورُها خَرابٌ ، وحاصِلُها تُرابٌ ، حلالُها حِسابٌ ، وحرامُها عذابٌ ؛ فاتَّقُوا اللهَ يا أُولي الألبابِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) كذا في (الأصلِ) ، والإفرادُ (الفِكرَةِ) أنسَبُ للسِّياقِ .

(٢) التِّرياقُ : دواءُ السُّمومِ ، فارسِيٌّ مُعرَّبٌ . ينظر « مختار الصِّحاح » (ت ر ق) .

فَصْلٌ
في صفة طريق الله تعالىٰ

اعلَم : أنَّها أنورُ مِنَ الشَّمسِ ، وأضوءُ مِنَ القمرِ ، وأبيَنُ مِنَ النَّهارِ ، ولها علاماتٌ وآياتٌ واضِحاتٌ ، مَنْ تركَها . . ضلَّ ، ومَن سلكَها . . اهتَدَىٰ ، ولٰكنَّها كثيرةُ الموانِعِ والمقاطِعِ والمهالِكِ ، وفيها جِبالٌ راسخاتٌ ، وبحارٌ زاخِراتٌ ، وقطاعٌ زاجِراتٌ ، تحتَ كلِّ حُجرتينِ كَمِينٌ ، وفوقَ كلِّ مَدَرٍ أُسدُ عَرينٍ ، هٰذا نَعتُها للنَّاظِرينَ مِنَ البعيدِ .

وأمَّا القريبُ . . فكسَرابٍ بِقِيعَةٍ يحسَبُه الظَّمْآنُ ماءً ، لا يقطَعُها إلَّا الصِّدِّيقونَ الخائفُونَ ، التَّارِكونَ التَّائبُونَ ، الرَّاغِبونَ السَّابِقونَ بقلوبٍ عامرةٍ سماوِيَّةٍ ، وأبدانٍ خَربةٍ أرضِيَّةٍ .

واعلَمْ أيُّها السَّائرُ في طريقِ اللهِ : أنَّ الخَلوَةَ لا تَصِحُّ إلَّا لعالِمٍ ربَّانِيٍّ ، ومُريدٍ صادقٍ مجرَّدٍ رُوحانيٍّ ، جافِ القَلبِ عن جميعِ الإراداتِ والمُراداتِ ، تاركٍ للدُّنيا والآخِرةِ [١] ، عاشقاً للموتِ عدوّاً للدُّنيا ، ونَفْسُهُ مُحِبَّةٌ للآخرةِ وأهلِها ، كريمٍ بمالِهِ ، عفيفٍ عمَّا ليسَ لهُ ، ذِي قلبٍ حيٍّ ونَفْسٍ مَيتةٍ [٢] ، وعقلٍ صحيحٍ ، وهَوىً سَقيمٍ ، قليلِ الأكلِ ، كثيرِ الذِّكرِ .

وبعدَ ذٰلكَ يتوجَّهُ إلىٰ مَلِكِ المُلكِ والملَكُوتِ ، ويتمسَّكُ بقولِ : لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، ويتَبرَّأُ مِنَ الكُلِّ ، ويتُوبُ إلى اللهِ مِنْ جميعِ دعواهُ ومَحابِّهِ ، ويَشهدُ بقَلبِه ويقولُ بلسانِه : لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، ولا مَعبُودَ سِواهُ ، ولا إلٰهَ إلَّا هو الحيُّ القيُّومُ الباقِي ، وما سِواهُ ميّتٌ فانِي .

---

(١) بمعنىٰ : أن يَجهَدَ في العَمَلِ ، ويَترُكَ مردودَ ذٰلك عليه ليومِ القيامةِ ، لا يَشغَلُ نَفْسَه بما هو غيبٌ ، والله أعلم .

(٢) نَفْسُه ذُبِحتْ بسُيوفِ المُجاهَدةِ ، وقَلبُه حيٌّ بنُورِ المُوافَقةِ . كما في « الرِّسالة » : (ص ٦٨٣) .

ثمَّ قالَ الشَّيخُ رضي الله عنه : لِنَفْسِي أنشدتُ في وَصفِ حالي وزُبدَةِ مَقامِي هٰذه الأبياتَ شِعراً : [من السريع]

نَصَحْتُكُمْ يا إخوتي كُلَّكُمْ ... لَا تَنْظُرُوا فِي زِيِّ تَلْبِيسِي

وَلَا تَقُولُوا إِنَّهُ زَاهِدٌ ... لَا تَسْمَعُوا قَولِي وَتَدْلِيسِي

كِيسِي وَكَأْسِي مِلْءُ[1] أَوْزَارِي ... لَا تَقْرَبُوا كَأْسِي وَلَا كِيسِي

أَمَا سَمِعْتُمْ أَنَّنِي رَاهِبٌ ... تَحْتَ ٱلْعَبَا وَٱلْعَقلُ تَبْلِيسِي

غُرُوسُ جَهْلٍ وَرْدُهَا زَلَّةٌ ... لَا تَقْرَبُوا وَرْدِي وَتَغْرِيسِي

مَدْرَسَتِي قِبْلَتِي[2] وَذَا مَعْبَدِي ... تَكْرَارُ ذَنْبِي عِلْمُ تَقْدِيسِي

نَفْسِيَ إِبْلِيسٌ يُجَرِّيهَا ... تَعَوَّذُوا مِنْ شَرِّ إِبْلِيسِي

* * *

تمَّت ، وبالخيرِ عمَّت ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ خيرِ خَلقِهِ محمَّدٍ وآلِهِ وصَحبِه أجمعينَ

اللَّهمَّ ؛ اغفِرْ للمُؤمِنينَ والمؤمناتِ ، والمسلِمينَ والمسلِماتِ ، الأحياءِ والأمواتِ ، مِنْ أهلِ السُّنَّةِ والمجموعةِ[3] والجماعاتِ ، آمينَ ؛ برحمتِكَ يا أرحمَ الرَّاحمينَ .

* * *

---

(١) في الأصل : (ملأئ) .

(٢) كذا بالأصل ، والشطر مكسور .

(٣) يعني بِهِمْ : الصُّوفيَّةَ . والله تعالىٰ أعلم .

من تراث

الإمام أبي حفص عمر السُّهْرَوَرْدِيّ

الرسالة الثالثة

رسالة الفُتُوَّة

مقدّمة
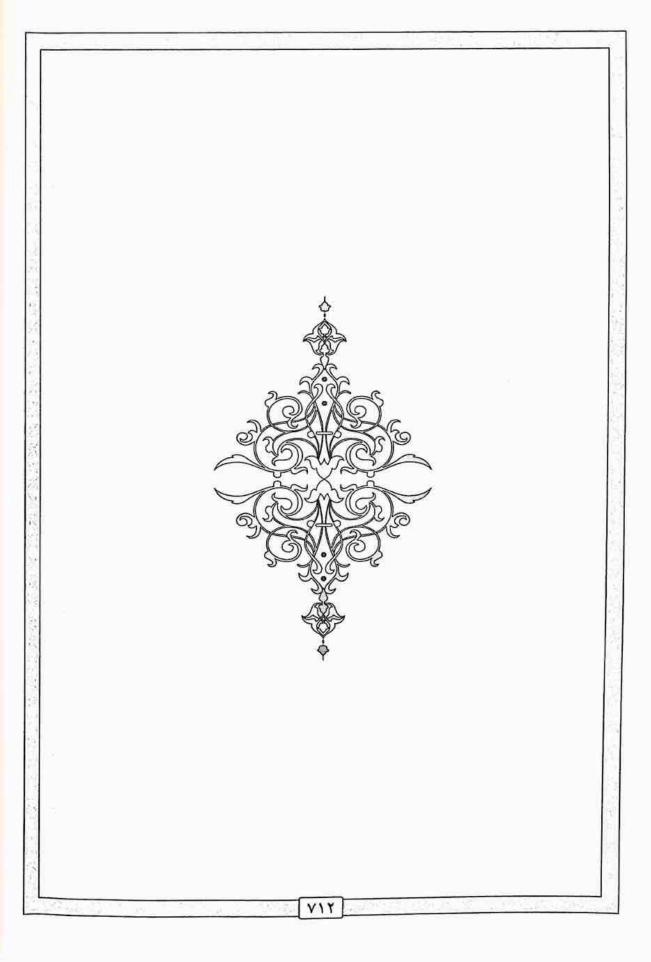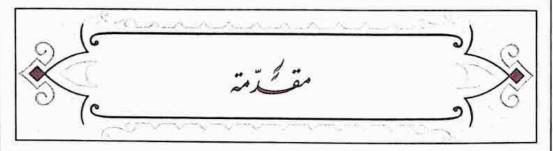
يُعَدُّ مصطلحُ (الفُتُوَّةِ) في الدِّراساتِ الصُّوفيةِ مِنَ المصطلحاتِ القديمةِ التي تَعارَفَ علىٰ تَداوُلِها كبارُ مشايخِ التصوُّفِ ؛ مِن أمثالِ أبي عبدِ الرحمـٰنِ السُّلَميِّ (ت ٤١٢ هـ) ، والقُشَيريِّ (ت ٤٦٥ هـ) وغيرِهما ؛ وذٰلكَ بمدلولٍ يَتَّحِدُ في مضمونِهِ ، ويختلفُ أحياناً في التَّعبيرِ عنهُ ، وأَقدَمُ مَنْ عُرِف جَريانُ هـٰذا المصطلحِ في كلامِهِ هو الإمامُ جعفرٌ الصَّادقُ (ت ١٤٨ هـ) [١] .

ولأهمِّيَّةِ مسألةِ الفُتُوَّةِ ؛ كَثُرَ الكلامُ عليها في كُتُبِ التَّصوُّفِ ، وتَوافَرَ نقلُ الأقاويلِ في بيانِ المرادِ منها ، وهلْ هي المروءةُ المعروفةُ أو تختلفُ عنها ؟ حتىٰ رأينا مَنْ أفرَدَها بتأليفٍ مستقلٍّ ؛ كأبي عبدِ الرَّحمـٰنِ السُّلَميِّ (ت ٤١٢ هـ) صاحبِ « طَبَقات الصُّوفيَّةِ » ، وذٰلكَ في كتابٍ يَحمِلُ عُنوانَ « الفُتُوَّة » [٢] ؛ أجابَ فيهِ عن سؤالٍ يدورُ حولَ معنى الفُتُوَّةِ ؛ فأَوضَحَ أقسامَها وصوَّرَها ، وساقَ بأسانيدِهِ أحاديثَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ تُوضِّحُ آدابَها ، وأوردَ بعضاً ممَّا رُوِيَ عن السَّلفِ فيما يَتعلَّقُ بأخلاقِ أهلِها .

كما أَفرَدَ لها الأستاذُ أبو القاسمِ القُشَيريُّ (ت ٤٦٥ هـ) في « الرِّسالةِ » باباً مفرداً وتَرجَمَهُ بـ (بابِ الفُتُوَّةِ) [٣] وأَورَدَ فيه قدراً حافلاً من الأخبارِ الواردةِ عن السَّلَفِ وأهلِ التَّصوُّفِ ؛ فنَقَلَ عن شيخِهِ أبي عبدِ الرَّحمـٰنِ السُّلَميِّ مِنْ كتابِهِ

---

(١) ينظر « مدارج السالكين » لابن قيم الجوزية (٣٢٥/٢) .

(٢) طبع الكتاب بأنقرة بتحقيق سليمان آتش ، بكلية الإلـٰهيات ، مطابع الجامعة ، سنة (١٩٧٧ م) ، وطبع بدار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع بعمان الأردن ، بتحقيق إحسان ذنون الثامري ، ومحمد عبد الله القدحات ، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م) .

(٣) ينظر « الرسالة القشيرية » (ص ٥٠٦) .

المذكورِ آنفاً ، ورَوَىٰ عِدَّةَ أخبارٍ مِنْ طريقِهِ ، ونقَلَ عن أبي عليٍّ الدَّقَّاقِ ، وأبي القاسمِ الجُنَيدِ ، وسهلٍ التُّسْتَريِّ ، وغيرِهِم .

ثمَّ جاءَ مِنْ بعدِهِ الإمامُ أبو إسماعيلَ الهَرَويُّ (ت ٤٨١ هـ) فبوَّبَ باباً بعنوانِ (الفُتُوَّةِ) ، وذٰلكَ في كتابِهِ : « مَنازِلِ السَّائرينَ »[١] ، وفيهِ بيَّنَ معناها باختصارٍ ، وقسَّمَها إلىٰ ثلاثِ دَرَجاتٍ .

وأمَّا الدِّراساتُ المُعاصِرةُ : فقدْ تناولَتْ مصطلحَ (الفُتُوَّةِ) مِنْ جِهاتٍ عِدَّةٍ ؛ فمنها ما يَتعلَّقُ بالمَنحى الصُّوفيِّ والفلسفيِّ ؛ كالدِّراسةِ الَّتي كَتَبَها الدكتور أبو العلا عفيفي ، وتَحمِلُ عُنوانَ : « الملامتيَّة ، والصُّوفيَّة ، وأهل الفُتُوَّة »[٢] ، حيث تناوَلَ فيهِ معنى المَلامةِ والفتوَّةِ والتَّصوُّفِ ، والصِّلةَ بينَها ، ونشأةَ المَلامتيَّةِ ، معَ تحليلٍ نقديٍّ لأصولِها .

ومنها ما يَتعلَّقُ بالمَنحى التَّاريخيِّ واللُّغويِّ ؛ كالدِّراسةِ الَّتي كتبَها الأستاذُ أحمدُ أمين في كتابِه : « الصَّعلكةُ والفُتُوَّةُ في الإسلامِ »[٣] ، وقدْ وثَّقَ هٰذينِ المُصطلَحَينِ توثيقاً لغويّاً وتاريخيّاً ، وكتابِ الأستاذِ عمرَ الدسوقيِّ : « الفُتُوَّةُ عندَ العربِ ، أو أحاديثُ الفروسيَّةِ والمُثُلِ العُليا »[٤] ، وتناوَلَ فيهِ صُوَرَها المختلفةَ عندَ العربِ ، والفرقَ بينها وبين الفروسيَّةِ في الغربِ ، وعَقَدَ فيهِ فَصلاً مُستقِلّاً عن الفُتُوَّةِ عندَ الصُّوفيَّةِ .

عِلاوةً على العديدِ مِنَ المقالاتِ المنشورةِ في بُطونِ الصُّحُفِ والمَجَلَّاتِ عن مفهومِ الفُتُوَّةِ في الدِّراساتِ الصُّوفيَّةِ والأدبيَّةِ .

---

(١) ينظر « منازل السائرين » بشرحه « مدارج السالكين » لابن قيم الجوزية (٣٢٣/٢) .

(٢) طبع بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، سنة (١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م) .

(٣) طبع بدار المعارف بمصر ، سنة (١٩٥٢ م) .

(٤) طبعت طبعته الأولىٰ بمصر سنة (١٩٥١ م) ، وبين أيدينا الطبعة الثالثة لمكتبة نهضة مصر بالفجالة القاهرة .

« رسالةُ الفُتُوَّةِ » لأبي حفصٍ شهابِ الدِّينِ السُّهرورديِّ :

كتبَ الشيخُ شهابُ الدِّينِ السُّهرورديُّ (ت ٦٣٢ هـ) الرسالةَ التي بينَ أيدينا ، المترجمة بـ « رسالةِ الفُتُوَّةِ » ، وقدْ رسَمَها بطريقِ الاختصارِ والإيجازِ ، وقُسِّمَتْ نِصفَينِ :

ففي **نصفِها الأوَّلِ** : نَقَلَ عن السَّلَفِ وأهلِ التَّصوُّفِ بعضَ الأقوالِ المُبيِّنةِ لحقيقةِ الفتوَّةِ ؛ كالحسنِ البصريِّ ، وسفيانَ الثَّوريِّ ، والفُضَيلِ بنِ عِياضٍ ، وأبي القاسمِ الجُنَيدِ ، والحارثِ المُحاسِبيِّ ، وأبي بكرٍ الشِّبليِّ ، وأبي عليٍّ الرُّوذباريِّ ، والحكيمِ التِّرمذيِّ .

وفي **نصفِها الثَّاني** : أَورَدَ بعضَ الحكاياتِ عن الصَّالحينَ في شأنِ الفتوَّةِ .

وقدْ لُوحِظَ أنَّ السُّهرورديَّ استفادَ الحكاياتِ الَّتي ذَكَرَها مِنَ « الرِّسالةِ » للقُشَيريِّ ، كما سيأتي في التَّعليقِ على الكتابِ .

۞ ۞ ۞

وصف النسخة المعتمدة في التحقيق
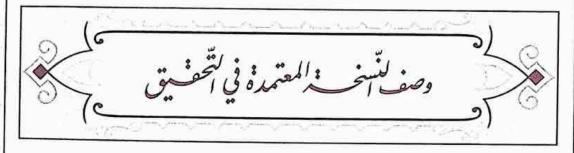
اعتمدتُ في تحقيقِ هٰذه الرِّسالةِ علىٰ نُسخةِ مكتبةِ آيا صُوفيا إستانبول ، رقم المجموعة : (٠١٠ ـ ٠٢٠٤٩) ، الأوراق (١٥٥ ـ ١٥٤) .

وفقرةٌ صغيرةٌ مِنْ هٰذه المخطوطةِ تُوجَدُ في مخطوطِ السُّهْرَوَرْدِيِّ « إرشادُ المريدينَ وإنجادُ الطَّالبينَ » تحتَ عنوان « بابُ الفُتُوَّةِ » ، مكتبةُ جارِ اللهِ بتركيا ، رقم المخطوطةِ (١٠٨٤) .

وتُوجَدُ من هٰذه الرِّسالةِ نُسختانِ غير النُّسخةِ المُعتَمَدةِ في التَّحقيقِ :

أُولاهما : في مكتبةِ آيا صُوفيا نَفْسِها ، برقم (٣١٣٥) ، الأوراق (١٨٥ - ١٩٠) .

والأُخرىٰ : في مكتبةِ قره حصار Karahisar ، بتركيا ، برقم (٢/١٧٧٤٨) ، الأوراق (٣٥ ـ ٤٥) .

وذُكرت هٰذه الرِّسالةُ في « مُعجم تاريخِ التُّراثِ الإسلاميِّ » (٢٢٩٦/٣) ، وفيه : أنَّ نُسخةَ آيا صوفيا هي في الأوراقِ (١٥٤ ـ ١٨١) .

نماذج من صور المخطوط

الى ما لا يكون وصف الله به باب الفتوة اصل الفتوة ان يكون
العبد ابدا في امر غيره وقيل الفتوة الصفح عن عثرات الاخوان وقيل
الفتوة ان لا ترى لنفسك فضلا على غيرك وقيل الفتى من لا يكون
خصما لاحد قال النصراباذي المروة شعبة من الفتوة وهو الاعراض
عن الكونين والانفة منهما وقيل الفتوة ان لا تدخر ولا تعتذر
وقيل اظهار النعمة واسرار المحنة وقيل تزوج رجل بامراة فقبل
الدخول ظهر بالمراة الجدري فقال الرجل اشتكت عيني ثم قال
عميت فزفت اليه المراة ثم ماتت بعد عشرين سنة ففتح الرجل
عينه فقيل له في ذلك فقال لم اعم ولكن تعاميت حذارا ان تحزن
فقيل سبقت الفتيان باب الفراسة قال الواسطي الفراسة سواطع
انوار لمعت في القلوب ومكين معرفة حملت السرائر في الغيوب

نسخة مكتبة جار الله تركيا ضمن كتاب « إرشاد المريدين »

رسالة الفتوة

بابٌ في بيان الفتوّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
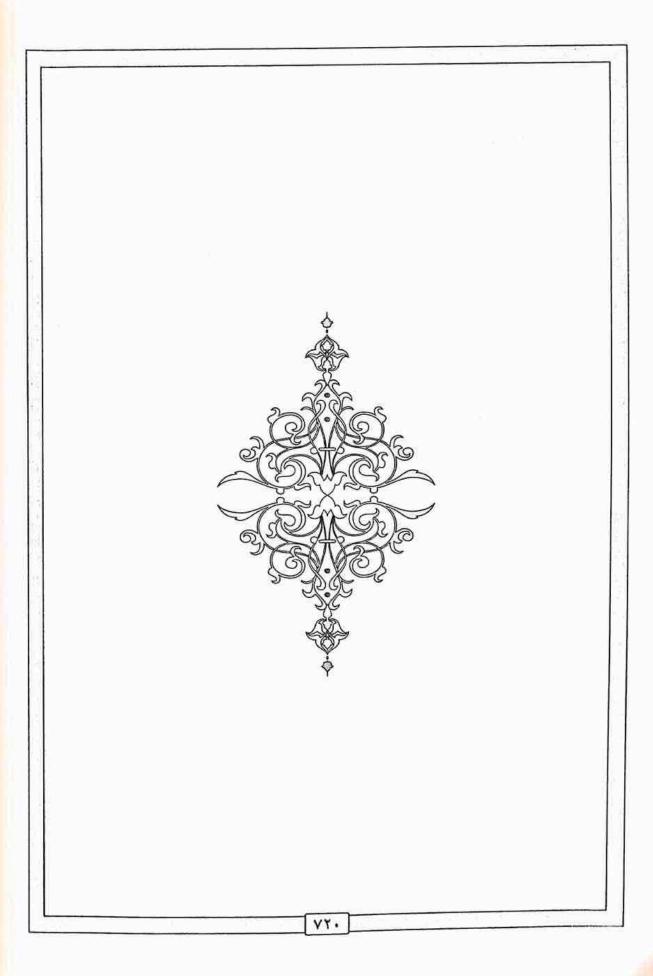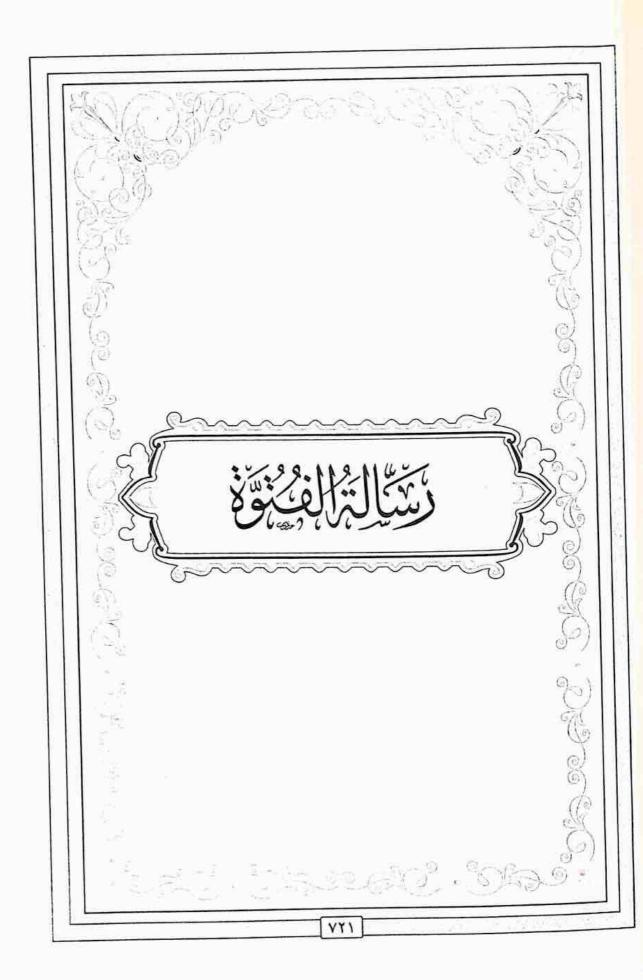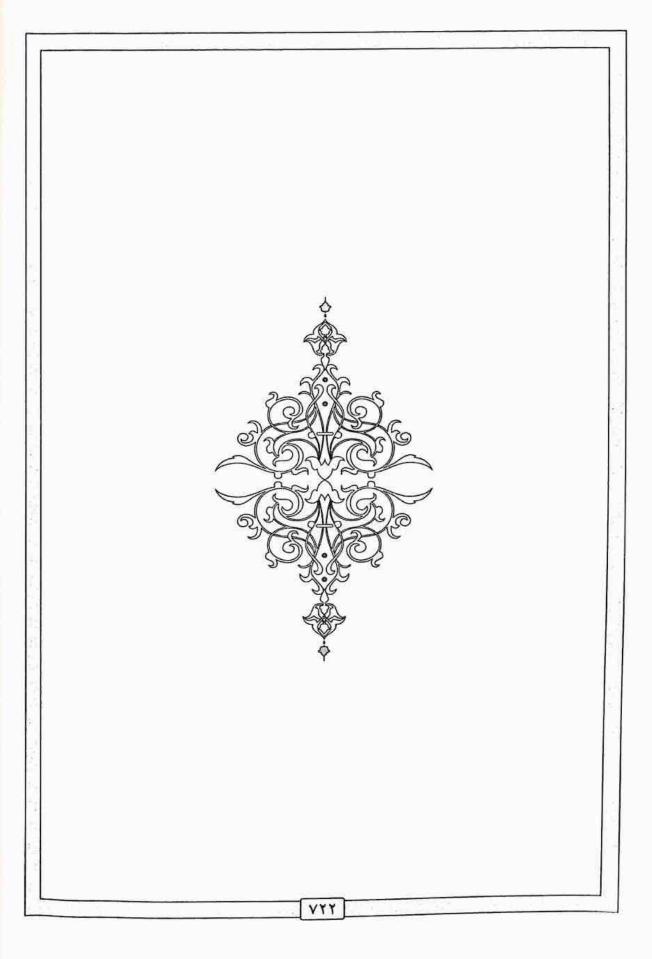
قالَ الحَسَنُ : (الفُتُوَّةُ في قَولِه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾)[١] .

وقالَ الثَّورِيُّ : (والفُتُوَّةُ : أَلَّا تَعمَلَ في السِّرِّ شَيئاً يُستحَىٰ منهُ في الظَّاهِرِ)[٢] .

وقالَ فُضَيلٌ رضي الله عنه : (رأسُ الفِتيانِ يُوسفُ الصِّدِّيقُ صَلَواتُ اللهِ عليهِ) .

ورأسُ الفُتُوَّةِ : أَلَّا تَمكُثَ في عَفوِ الجُرمِ وتقبلُ[٣] ؛ كما أخبرَ الرَّبُّ علىٰ يُوسُفَ النَّبيِّ عليه السلام : ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾[٤] ، ولا تَغليبَ على الجُرمِ ، وتَعتَذِرُ لأجلِ الجاني ؛ كما قال الرَّبُّ ـ جلَّ وعَلا ـ خَبَراً عن يُوسُفَ : ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾[٥] ، ويكونُ شَفيعَهُ ؛ كما قالَ الرَّبُّ تعالىٰ خَبراً عن يوسفَ : ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[٦] ؛ كلَّما جاءَ يوسفُ إلى البابِ واستغفرَ لإخوتِهِ . . نادى الرَّبُّ تعالى الملائكةَ : أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْخَصْمَ صَارَ شَفِيعاً ؟

مِثالُه : إذا قالَ العبدُ في الصَّلاةِ : اللَّهمَّ ؛ اغفِرْ للمُؤمنينَ والمؤمِناتِ ، ثمَّ عفا عن أخيهِ ، ودعا لهُ باليُسرِ . . فقالَ الرَّبُّ للملائِكةِ : أَلَا تَرَوْنَ ، صَارَ الشَّفِيعُ خَصْماً ؟![٧] .

---

(١) سورة النَّحل : (٩٠) ، والخبر لم أقف عليه . وراجِع للفائدةِ « الفُتُوَّة » لأبي عبدِ الرَّحمٰنِ السُّلميِّ (ص ٩٧) .

(٢) الأَثَرُ مذكورٌ بمعناهُ في « الفُتُوَّة » (ص ٧٦) ، منسوباً لذي النُّونِ المِصريِّ .

(٣) في (الأصل) : (ويقبل) ، ولعلَّ الصوابَ ما أثبتُّ .

(٤) سورة يوسف : (٩٢) .

(٥) سورة يوسف : (١٠٠) .

(٦) سورة يوسف : (٩٢) .

(٧) كذا في الأصل ، ولعل صوابها : (صار الخصم شفيعاً) .

وقالَ محمَّدُ بنُ عليِّ التِّرمِذيُّ رضي الله عنه[1] : (الفُتُوَّةُ : أن تكونَ خصماً للهِ تعالىٰ عن نفسِكَ ، وشَفِيعاً إلى الرَّبِّ لإخوانِكَ ، ومُعتَذِراً عنِ الجافِينَ في حقِّكَ)[2] .

وقالَ جُنَيدٌ : (الفُتُوَّةُ : كَفُّ الأذَىٰ ، وبذلُ النَّدىٰ ، وتَركُ الشَّكوىٰ)[3] .

وقال المُحاسِبيُّ : (الفُتُوَّةُ : أن يُنصِفَ ولا يَنتصِفَ ، ويَبذُلَ ولا يَأخذَ)[4] .

سُئلَ الشِّبليُّ عنِ الفُتُوَّةِ ؟ فقالَ : الصِّدقُ عندَ المحبَّةِ ، والرِّفقُ عندَ الحِقدِ ، والبَذلُ عندَ القِلَّةِ .

وقالَ أبو عليِّ الرُّوذْبارِيُّ رضي الله عنه : (الفُتُوَّةُ : الصِّدقُ معَ الحقِّ ، والطَّهارةُ معَ الخَلقِ ، وقِلَّةُ المبالَاةِ بالنَّفْسِ) .

وقيلَ : الفُتوَّةُ ثلاثةٌ : وفاءٌ بِلا عَهدٍ ، وحِفاظٌ بِلا خَوفٍ ، وعَطاءٌ بِلا انتظارِ مُكافأةٍ .

وحُكِيَ أنَّ فتىً تركَ هِمْياناً[5] فيهِ ألفُ دينارٍ معَ أصحابِهِ ، ثمَّ نامَ في مَوضعِهِ ، فانتبَهَ ، ثمَّ ظنَّ أنَّهُ تركَ هِمْيانَهُ في الموضعِ الَّذي نامَ فيهِ ؛ فوجدَ في ذٰلكَ الموضعِ جعفرَ بنَ محمَّدٍ الصَّادِقَ رضي الله عنه ؛ فتعلَّقَ بهِ يُطالِبُهُ بهِ ، فقالَ جعفرٌ : كمْ كانَ في هِمْيانِكَ مِنَ الدُّنيا ؟ فقالَ : ألفٌ ؛ فجاءَ بِهِمْيانٍ فيهِ ألفُ دينارٍ ، وأخذَهُ ، وجاءَ إلى الأصحابِ ، فقالَ : أمَا تَرَونَ أنَّهُ سُرِقَ هِمْيانِي معَ الدَّنانيرِ ، والهِمْيانُ ليسَ هِمْيانِي ؟ فقالوا : ما تقولُ وهِمْيانُكَ ها هُنا ؟! فجاءَ بالهِمْيانِ إلىٰ جعفرٍ الصَّادقِ رضي الله عنه ؛ فأبَىٰ

(١) المعروفُ بالحكيمِ التِّرمذيِّ المُؤذِّنِ ، صاحبُ « نوادرُ الأصولِ » .
(٢) يُنظر « الرِّسالة القُشيريَّة » (ص ٥٠٧) .
(٣) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٥٠٨) .
(٤) أورده القشيري في « رسالته » (ص ٥٠٧) .
(٥) الهِمْيانُ ـ بالكسرِ ـ : كِيسٌ للنَّفقةِ يُشَدُّ في الوَسَطِ . يُنظر « تاج العَروس » (٣١٢/٤٠) .

أنْ يَقبَلَهُ ، وقالَ : أخرجَناه مِن مِلكِنا ؛ فلا يَحسُنُ في الفُتُوَّةِ أنْ يَرجِعَ إلىٰ مِلكِنا[1] .

وحُكِيَ أنَّ فتىً أضافَ غَرِيباً ، وأضافَ أقرانَهُ ؛ لِوَجهِ الغَرِيبِ ، فلمَّا فرَغُوا مِنَ الطَّعامِ . . جاءَتْ جاريةٌ لِتَصُبَّ الماءَ لغَسلِ اليدِ ، فقالَ الغَرِيبُ : لا يَحسُنُ في المرُوءَةِ أنْ تَصُبَّ المرأةُ الماءَ للرَّجُلِ ؛ فقالَ أصحابُ البيتِ : إنَّا ندخُلُ هٰذا البيتَ عِشرينَ سَنةً ، ويَصُبُّ هٰذا الشَّخصُ لنا الماءَ ، ولا نَدرِي أرَجُلٌ هو أم امرأةٌ !![2] .

وحُكِيَ أنَّ فتىً تزوَّجَ امرأةً جميلةً ؛ فأصابَها الجُدَرِيُّ ومسحَ وجهَها ، فَظنَّ الفتَىٰ أنَّها تستَحِي منهُ ؛ فادَّعىٰ مِن نَفْسِهِ أنَّه أعمَىٰ ، ثمَّ أتَىٰ بالمرأةِ ومكثَ معها عِشرينَ سنةً ، ثمَّ ماتَتِ المرأةُ ؛ فأظهرَ أنَّهُ بصيرٌ ، وأنَّهُ إنَّما فعلَ ذٰلكَ لأَجلِها[3] .

وحُكيَ أنَّ فِتْياناً أتَوا فتىً أضيافاً ، فقالَ الفتَىٰ لِغُلامهِ : جِئْ بالسُّفْرةِ ، فتأنَّىٰ ، حتَّىٰ ناداهُ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فقالَ الأضيافُ في أنفسِهم : ليسَ هٰذا مِنَ الفُتُوَّةِ ! فلمَّا حضرَ الغُلامُ . . سألهُ ربُّ الغُلامِ ؛ فقالَ لهُ : تَأنَّيتَ ؟! قال : لأنَّ نَملةً صَعِدَتْ على السُّفْرَةِ ؛ فلمْ أُحِبَّ أنْ أُؤذِيَها ، فتَأنَّيتُ حتَّىٰ تَنزِلَ منها[4] .

والله أعلم

---

(١) أوردها القشيري في « الرِّسالةِ » (ص ٥١١) .

(٢) أوردها القشيري في « الرِّسالةِ » (ص ٥١٠) .

(٣) أوردها القشيري في « الرسالة » (ص ٥٠٩) .

(٤) أوردها القشيري في « الرِّسالة » (ص ٥١١) .
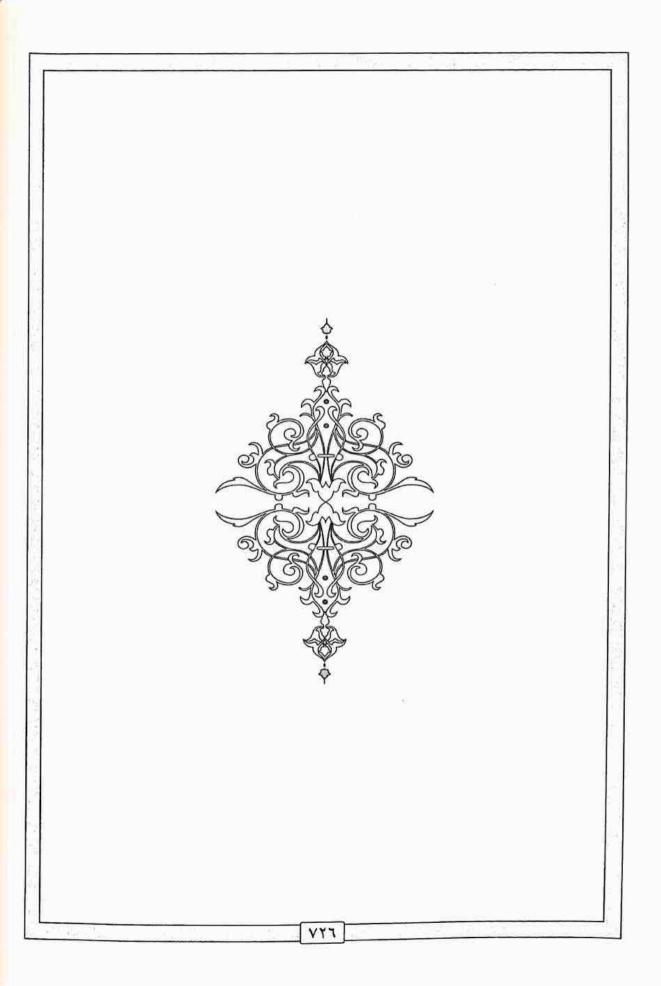
من تراث

الإمَامِ أبي حَفْصٍ عُمَر السُّهْرَوَرْدِيّ

الرّسالة الرّابعة

الفُتُوحَات

مقدّمة
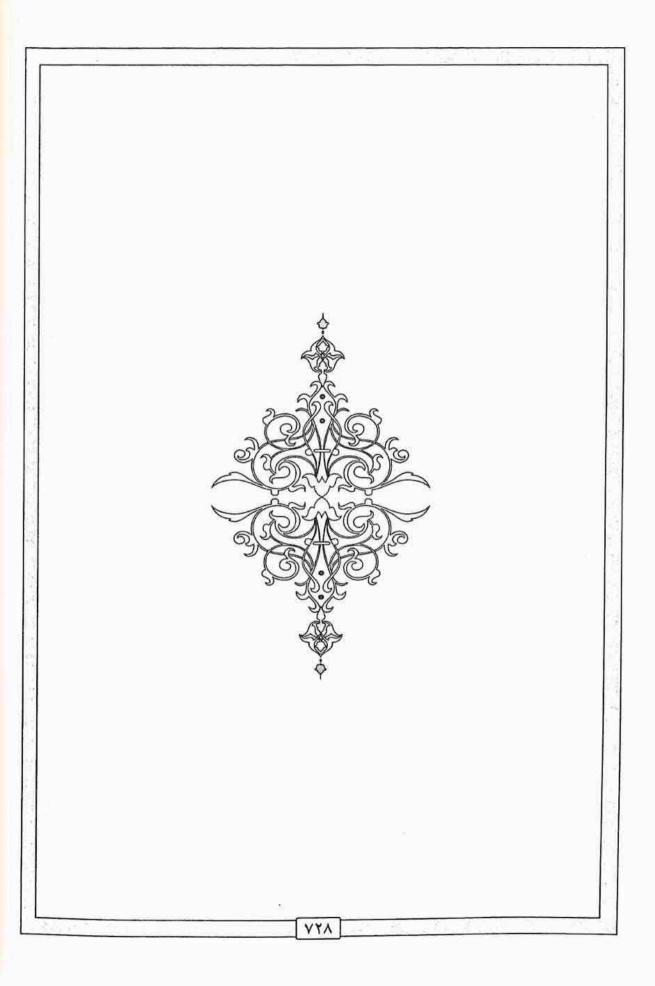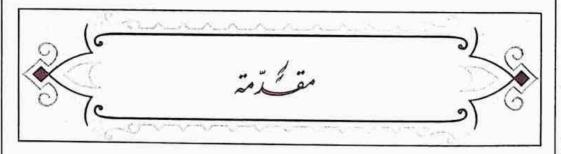
تدورُ الرِّسالةُ حولَ بعضِ المَعارفِ النَّفيسةِ المُتعلِّقةِ بأحوالِ القلوبِ وتزكيةِ النَّفسِ ، والَّتي سمَّاها ناسخُها : « فُتُوحاتٍ » ؛ فقالَ : (فهٰذه الفُتُوحاتُ مِن كلامِ الشَّيخِ العارفِ الواصلِ لسانِ الحقِّ والحقيقةِ ، بُرهانِ الشَّريعةِ والطَّريقةِ ، شِهابِ المِلَّةِ والدِّينِ ، عُمَرَ بنِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ السُّهرَوَرْدِيِّ ، قدَّسَ اللهُ نفْسَهُ ، ورَوَّحَ رَمْسَه ؛ ممَّا فَتَحَ اللهُ سبحانَهُ بهِ) .

تشتملُ الرِّسالةُ علىٰ أبوابٍ مُتعدِّدةٍ : فقدْ تَكلَّمَ فيها السُّهرورديُّ على الرُّوحِ والنَّفسِ ، وبحَثَ مسألةَ العَقلِ ، وهلْ هو في الدِّماغِ أو القلبِ ، كما تَضمَّنَت كلماتٍ عن كيفيَّةِ التَّخلُّصِ مِنْ كَدَرِ النَّفسِ ، وكيفيَّةِ تَدبُّرِ القرآنِ ، وأَثَرِهِ في القلوبِ ، وتَكلَّمَ عن أنوارِ المُشاهدةِ وأَثَرِها في حالِ الذَّاكرينَ ، وحالِ المُحبِّينَ مع ربِّهِم ، وأنواعِ الخواطرِ الَّتي تَرِدُ على القلوبِ ، وأَثَرِ الصِّدقِ في فتحِ بابِ العلومِ والإلهاماتِ ، وغيرِ ذٰلكَ مِنَ الفُتُوحاتِ الَّتي فُتِحَ بها على الشَّيخِ السُّهرورديِّ ، فصاغَها ببيانِهِ العَذبِ ، ممزوجةً بأنفاسِهِ الصُّوفيَّةِ العَطِرةِ .

والَّذي يَظهَرُ واللهُ أَعلَمُ : أنَّ هٰذه الفوائدَ ليسَتْ مِن جمعِ السُّهرورديِّ وإن كانَتْ مِن كلامِهِ ، بلْ جَمَعَها مِنْ كُتُبِهِ بعضُ مَنْ جاءَ بعدَهُ ، كما في الفتحِ الذي صُدِّرَتْ بهِ الرسالةُ ؛ فإنَّهُ مأخوذٌ باختصارٍ وتهذيبٍ مِن كتابِهِ « عوارفُ المَعارفِ » ، أو لعلَّها مِنْ جَمعِ أَحَدِ تلاميذِهِ ومُريدِيه .

ويَبدُو أنَّ ناسخَ الكتابِ هو الَّذي سَمَّىٰ هٰذه الفوائدَ بـ « الفُتُوحاتِ » ، ويَبدُو كذٰلكَ أنَّهُ تأثَّرَ في اختيارِ الاسمِ بطريقةِ الشَّيخِ مُحيي الدِّينِ بنِ عربيّ (ت ٦٣٨ هـ) في تسميةِ كتابِه بـ « الفُتوحات المكِّيَّة » .

وجديرٌ بالذِّكرِ أنَّ الشَّيخَ السُّهرورديَّ قدْ لَقِيَ الشَّيخَ مُحيِيَ الدِّينِ واجتمَعَ به[1] ، ويَغلِبُ على الظَّنِّ أنَّهُ طَالَعَ « الفُتوحاتِ » في نُسختِها الأُولىٰ[2] ، فقدْ يكونُ تأثَّر في بعضِ ما كَتَبَهُ وأفادَ منهُ ، ولا نستطيعُ أن نَجزِمَ بمَدَىٰ هٰذا التَّأثُّرِ .

(١) ينظر : « الإرشاد والتطريز » لليافعي (ص ١٥٦) ، وفيه حكايةُ اجتماعهما وما جرىٰ فيها .

(٢) وهي التي ابتدأها الشيخ ابن عربي بمكة في سنة (٥٩٩ هـ) ، وفرغ منها في سنة (٦٢٩ هـ) ، أي : قبل وفاة الشيخ شهاب الدين السهروردي بسنتين ؛ لأن السهروردي توفي ليلة غرة محرم سنة (٦٣٢ هـ) ، كما تقدم في ترجمته (ص ٢٢) ، وأما النسخة الثانية فقد ابتدأها في دمشق سنة (٦٣٢ هـ) ، وانتهىٰ منها سنة (٦٣٦ هـ) .

ينظر مقدمة عثمان يحيىٰ في تحقيقه على « الفتوحات » لابن عربي (١/٢٠) ، ط . الهيئة العامة للكتاب بمصر ، سنة : (١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م) .

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق
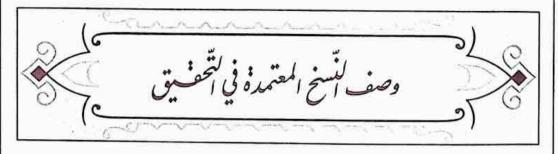
مخطوطٌ بمكتبةِ السُّليمانِيَّةِ بإستانبول ، مكتبة شهيد علي باشا ، رقم (١/١٣٨٢) ، الأوراق (٢ ـ ٨) .

ورمزتُ لها بـ : (أ) .

وهناك نسخةٌ أخرىٰ في المكتبة بنفس المجموع الذي فيهِ « رسالةُ الإرادةِ » برقم (٦/١٣٩٣) ، الأوراق (٦٩ ب ـ ٧٣ أ) .

ورمزتُ لها بـ : (ب) .

واستأنستُ بمخطوطةٍ صغيرةٍ تُسمَّى : « اللَّوامِعُ الغَيبِيَّةُ في الرُّوحِ » ، وهي الرِّسالةُ نفسُها بعنوانٍ آخرَ وناسِخ مختلِف مجهول لم يذكَر اسم المخطوطة علىٰ غلافها ، وهي في مكتبةِ السُّليمانِيَّةِ بإستانبول أيضاً ، بغداد تلي وهبي ، رقم المجموعة (٠٣٢ ـ ٠٢٠٢٣) ، الأوراق (١٨٨ ـ ١٨٩) صدَّرها النَّاسِخُ بقولِه : (ربِّ أنعمتَ فَزِد بلُطفِكَ ، قالَ خاتِمُ الأولياءِ إمامُ الهدىٰ مُقتَدى الوَرَىٰ شِهابُ الدِّينِ شيخُ الإسلامِ والمسلمينَ قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ ممَّا فتحَ اللهُ عليه ؛ وهي : اللَّوامِعُ الغَيبِيَّةُ في الرُّوحِ) .

نماذج من صور المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه والصلوة والسلام على خاتم انبيائه

اما بعد فهذه الفتوحات من كلام الشيخ العارف

الواصل لسان الحق والحقيقه برهان الشريعه والطريقه

شهاب الملة والدين عمر بن محمد بن عبدالله السهروردي

قدس الله نفسه وروح رمسه مما فتح الله سبحانه به

وهي قوله سبحانه يسألونك عن الروح قل الروح

من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا الروح العلوي

السماوي من عالم الامر والروح الحيواني البشري الآدمي

محل ذلك ومورده الروح العلوي فيكون النفس اذاً

من الروح العلوي وتكون النفس من الروح العلوي

في عالم الامر كتكون حواء من آدم في عالم الخلق وصار

من التاليف كما بين آدم وحواء قال الله سبحانه وجعل منها زوجها

نسخة مكتبة شهيد علي تركيا (أ)

وصارا في محل العبادة متذللين متخشعين والروح والقلب
عنهما بمعزل وربما لايحسان بعبادة الجسد والنفس
واستهلاكهما بتلاشيهما في أشعة العظمة وغابا عن وجودهما
لما غلب عليهما من وجود الحق وغابا عن الخلق
بالحق وصارت مع الجسد بين يدي
الحق عاملين بالحق عابدين للحق
ذلك تقدير العزيز
العليم والسلام
على من اتبع
الهدى

نسخة مكتبة شهيد علي تركيا (أ)

فتوح من كلامه

كلمات سمعت من أبي الفضل أخي أثبتها لانتفع بمطالعتها وينتفع بها من يطالعها إن شاء الله تعالى

للناس فيما التخليص عن أكدار صفات النفس وأخلاقها طريقان طريق الأبرار وطريق المقربين فأما طريق الأبرار إذا تحركت النفس بصفتها وظهرت بأخلاقها من الحقد والحسد والغل والاستشعار والكمد على فوات الحظوظ العاجلة وإلى غير ذلك يسوسون حالهم بالعلم ويسلكون طريق الرضى بالقضاء والتسليم لما يقتضيه المولى فينكشف عنهم بعد ذلك ويتنسمون للروح الذي يزول بظهوره تلك الصفات والأخلاق أولئك ينادون من مكان بعيد ولكن أقاموا حق العبودية وأدوا وظيفة المقام الذي أقيموا فيه.

نسخة مكتبة شهيد علي تركيا (ب) ضمن مجموع فيه « رسالة في الإرادة »

ويكون دايم التلجا الى الله تعالى وقد يفتح على العبد ضرب

من العلوم الدقيقة التي لا يوجد جنسها مسطورا غير أن انفعها

ما ذكرناه، ثم للصادق أن لا يغتر بما يفتح عليه وغيرها بل لا يزال

يغرق من الإلهام الى الملهم ومن العلوم الى المعلم ولا يلتفت الى

الإلهام ليتجوهر الإلهام فيه ويتجوهره فيه يصير قوله فعلا ودعاء

ومتى اصغى الى الإلهام استلبه الإلهام وسلمه الى الفكر وانحجب

عن طي الغيب ولحظ الى عالم الشهادة وتقيد باشارات العقول

ثم قال رحمة الله عليه وطريق التزهد في الإلهام أن تعلم

أن منشأ الإلهام ماذا أو هوان. الصادق قد يسترسل في المخالطة

والممازحة والخوض فيما لا يعني ومع ذلك لا يغيب عن الحق بباطنه

فيثور من تلك المخالطة والممازجة وجود النفس مشاكل للأبخرة

الثايرة من الأرض التي يتراكم منها غيم هكذا يصير للنفس

بالمخالطة وجود ثان. فاذا رجع الصادق الى خلوته وتذكر

جمعيته وقع نور الجمعية على ذلك الوجود الثاني فيثور

فيصير إلهاما فحقيقته حديث النفس منقلب الهاما بنور

الجمعية للواقع عليه وهذه غريبة عزيزة

نسخة مكتبة شهيد علي تركيا (ب) ضمن مجموع فيه « رسالة في الإرادة »

الفتوحات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ علىٰ آلائِهِ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ خاتَمِ أنبيائِهِ .

أما بعد :

فهٰذه الفُتُوحاتُ مِنْ كلامِ الشَّيخِ العارفِ الواصلِ ، لسانِ الحقّ والحَقِيقَةِ ، بُرهانِ الشَّريعَةِ والطَّريقَةِ ، شِهابِ المِلَّةِ والدِّينِ ، عمرَ بنِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ السُّهرَوَرْدِيِّ قدَّسَ اللهُ نفْسَهُ ، ورَوَّحَ رَمْسَهُ[1] ؛ ممَّا فَتَحَ اللهُ سبحانَهُ بهِ ؛ وهي :

قولُهُ سبحانَهُ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2] .

الرُّوحُ العُلْوِيُّ السَّماوِيُّ مِنْ عالَمِ الأمرِ ، والرُّوحُ الحَيوانِيُّ البَشرِيُّ الآدَمِيُّ مَحَلُّ ذٰلكَ ، ومَورِدُهُ الرُّوحُ العُلوِيُّ ؛ فتَكوُّنُ النَّفْسِ إذاً مِنَ الرُّوحِ العُلوِيِّ ، وتَكوُّنُ النَّفْسِ مِنَ الرُّوحِ العُلوِيِّ في عالَمِ الأمرِ ؛ كتَكوُّنِ حوَّاءَ مِنْ آدمَ في عالَمِ الخلقِ ، وصارَ بينَهُما مِنَ التَّأليفِ كما بينَ آدمَ وحوَّاءَ ، قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[3] فسَكنَ ، وسَكنَ الرُّوحُ العُلوِيُّ إلى النَّفسِ ، وسَوَّى اللهُ النَّفْسَ لذٰلكَ ، وجعلَها مَسكناً للرُّوحِ .

ويكونُ مِن سُكونِ الرُّوحِ إلى النَّفْسِ القلبُ ؛ كتَكَوُّنِ الذُّرِّيَّةِ مِن آدمَ وحَوَّاءَ ، ولولَا المُساكَنَةُ بينَهُما . . ما كانَ القلبُ .

فمِنَ القلوبِ مُتطَلِّعٌ إلى الأبِ الَّذي هو الرُّوحُ العُلوِيُّ مَيَّالٌ إليهِ ؛ وهو القلبُ المؤيَّدُ الَّذي ذكرَهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في تَقسِيمِه القلوبَ ، ومِنَ

---

(١) الرَّمْسُ : تراب القبر . « الصحاح » (٣/٩٣٦) ، والمعنىٰ : آنسَ رُوحَه وطيَّبَها في وَحشتها .

(٢) سورة الإسراء : (٨٥) ، وفي الأصل : (يسألونك) من دون حرف الواو .

(٣) سورة الأعراف : (١٨٩) .

القلوبِ مَنكُوسٌ مَيَّالٌ إلى الأَمِّ ، ومِنَ القلوبِ مُتَرَدِّدٌ في مَيلِهِ إليهما ، وبِحسَبِ غَلَبَةِ المَيلِ يكونُ حُكمُهُ[1] .

والعقلُ : جَوهَرُ الرُّوحِ العُلوِيِّ ، ولسانُهُ دالٌّ عليهِ ، وتَدبِيرُهُ للقلبِ المؤيَّدِ ، وللنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ المطمَئِنَّةِ . . تَدبِيرُ الوالِدِ للوَلَدِ البارِّ والزَّوجَةِ الصَّالحَةِ ، وتَدبِيرُهُ للقلبِ المنْكوسِ والنَّفسِ الأمَّارَةِ بالسُّوءِ . . تَدبِيرُ الوالِدِ للوَلَدِ العاقِّ والزَّوجَةِ السَّيِّئَةِ ، فمُنكِرٌ مِن وَجهٍ ، ومُنْجَذِبٌ إلىٰ تَدبِيرِهِما مِنْ وَجهٍ ؛ إذْ لا بُدَّ لهُ مِنهُما .

وقولُ القائِلِينَ واختِلَافُهم في مَحلِّ العقلِ : **فقائلٌ** : إنَّ مَحلَّه الدِّماغُ ، **وقائلٌ** : إنَّ مَحلَّهُ القلبُ . . كلامُ الغائبينَ عن دَرَكِ حقِيقَةِ ذٰلكَ[2] .

واختِلافُهم في ذٰلكَ لعدَمِ استِقرارِ العقلِ علىٰ نَسَقٍ واحِدٍ ، وانجِذابِهِ إلى البارِّ تارَةً ، وإلى العاقِّ أُخرىٰ ، وللقلبِ والدِّماغِ نِسبَةٌ إلى البارِّ والعاقِّ ، يَنكشِفُ ذٰلكَ للواقِفِ علىٰ سِرِّ خَلقِ الدِّماغِ ونِسبَةِ الرُّوحِ منهُ ، وسِرِّ القلبِ ونِسبَةِ الرُّوحِ منهُ ، وهو اللَّحمُ الصَّنَوبَرِيُّ مِنْ عالَمِ الخَلْقِ ، غيرُ القلبِ المكوَّنِ مِنَ الرُّوحِ والنَّفْسِ في عالَمِ الأمرِ .

فالرُّوحُ العُلوِيُّ : يَهُمُّ بالِارتِقاءِ إلىٰ مَولاهُ شَوقاً وحُنُوّاً وتَنَزُّهاً عَنِ المُكوَّنَينِ

---

(١) أخرج أحمدُ في « المسند » (١١١٢٩) من حديث سيدنا أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه : أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم قال : « الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَىٰ غِلَافِهِ ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ ؛ فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ : فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ ، سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ : فَقَلْبُ الْكَافِرِ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ : فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ : فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ ، فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَىٰ غَلَبَتْ عَلَيْهِ » .

(٢) قال الرازي في « مفاتيح الغيب » (٤١/٢٢) : (وجمهور المتكلمين علىٰ أنه القلب) .
وقد أكثر العلماءُ من الكلام في مسألة محل العقل : أفي القلب هو أم في الدماغ ؟ فلتراجع أقوالُهم وأدلةُ كلِّ قول في : « العُدَّة في أصول الفقه » (٨٩/١) ، و« الواضح في أصول الفقه » لابن عقيل (٢٧/١) ، و« البحر المحيط » للزركشي (١٢٣/١) ، وفي تفسير « مفاتيح الغيب » (٥٣١/٢٤) للإمام فخر الدين الرازي مبحث ماتع مطول حول المسألة ، فلينظر .

منهُ ؛ اللَّذَينِ هُما القلبُ والنَّفسُ ، وإذا ارتقَى الرُّوحُ . . يَحنُو القلبُ إليهِ حُنُوَّ الوَلَدِ الحانِّ البَارِّ إلى الوالِدِ ، وتَحنُو النَّفْسُ إلى القلبِ الَّذي هو الوَلَدُ حُنُوَّ الوالِدَةِ الخبيثةِ[1] إلىٰ ولَدِها ، وإذا حنَّتِ النَّفسُ . . ارتقَتْ مِنَ الأرضِ ، وانزَوَتْ عُروقُها الضَّارِبَةُ في العالَمِ السُّفلِيِّ ، وانكوَىٰ هَواها ، وانحَسَمَتْ مادَّتُها ، وزَهِدَتْ في الدُّنيا ، وتَجافَتْ عن دارِ الغُرورِ ، وأنابَتْ إلىٰ دارِ الخُلودِ .

وقدْ تَخلُدُ النَّفسُ الَّتي هيَ الأُمُّ بوضعِها الجِبِلِّيِّ لتَكوُّنِها مِنَ الرُّوحِ الحَيَوانِيِّ ، ولٰكنْ تَحبَّسَ فصارَ نفْساً ، وإخلَادُها إلى الأرضِ ؛ لأنَّها في تَكوُّنِها مُستَنِدَةٌ إلى الطَّبائعِ الَّتي هيَ أركانُ العالَمِ السُّفليِّ ، قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[2] ، فإذا أخلَدَتِ النَّفسُ الَّتي هيَ الأُمُّ إلى الأرضِ . . انجَذَبَ إليها القلبُ المنكوسُ انجذابَ الوَلَدِ الميَّالِ إلى الوالِدَةِ المُعوَجَّةِ النَّاقصَةِ ، دونَ الوالِدِ الكامِلِ المستَقِيمِ .

ويَنجَذِبُ الرُّوحُ إلى الوالِدِ الَّذي هو القلبُ ؛ لِمَا جُبِلَ عليهِ مِنَ الحُنُوِّ إلى الولَدِ ، فعندَ ذٰلكَ يَتَخلَّفُ عن مولاهُ ، وفي هٰذينِ الانجِذابَينِ يَظهَرُ حُكمُ السَّعادَةِ والشَّقاوَةِ ؛ فتبارَكَ اللهُ أحسَنُ الخالقينَ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في (أ) : (الحانَّة) .

(٢) سورة الأعراف : (١٧٦) .

فتوحٌ من كلامه

[في طريقِ التخلُّصِ من كدرِ النفسِ]

كَلِماتٌ سَنَحَتْ مِنْ أنوارِ فضلِ الحقِّ أُثبِتُها لأنتَفِعَ بمُطالعَتِها ويَنتَفِعَ بها مَنْ يُطالِعُها إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

للنَّاسِ في التَّخلُّصِ عن كَدَرِ صفاتِ النَّفسِ وأخلاقِها طريقانِ :

طريقٌ للأبرارِ .

وطريقٌ للمُقرَّبينَ .

فأمَّا طريقُ الأبرارِ : إذا تحرَّكتِ النَّفسُ بصِفَتِها ، وظَهرَتْ بأخلاقِها مِنَ الحِقْدِ والحسَدِ والغِلِّ ، واستشعارِ الفَقرِ والكَمَدِ علىٰ فَواتِ الحُظوظِ العاجلةِ وإلىٰ غيرِ ذٰلكَ . . يَسوسُونَ حالَهُم بالعلمِ ، ويَسلُكونَ طريقَ الرِّضاءِ بالقَضاءِ ، والتَّسليمِ لِمَا يُقدِّرُ المولَىٰ ، فيَنكشِفُ عنهُم بعضُ ذٰلكَ ، ويَتنسَّمونَ الرَّوْحَ الَّذي يَزولُ بِظُهورِ تلكَ الأخلاقِ والصِّفاتِ ، أولٰئكَ يُنادونَ مِنْ مكانٍ بعيدٍ ، ولٰكنْ أقامُوا حقَّ العُبودِيَّةِ ، وأدَّوا وظِيفَةَ المَقامِ الَّذي أُقِيمُوا فيهِ .

وأمَّا المقَرَّبونَ : فإنَّهم يَرونَ أنَّ تَشَبُّثَاتِ النَّفسِ عندَ حَرَكَتِها بظُهورِ أخلاقِها وصِفَاتِها إنَّما هو ببَقايا الوُجودِ ، وقدْ عرَّفَهُم الحقُّ سُبحانَهُ وتعالىٰ طريقَ الفَناءِ والاِستغراقِ والتَّسَتُّرِ بأنوارِ الفَضلِ الخاصِّ ، فيتَجَرَّدُونَ عن قَمِيصِ الوُجودِ ، ويَكْتَسُونَ ملابِسَ نُورِ القُرْبِ ، فلا يَتَطَرَّقُ إليهم تَشَبُّثَاتُ النَّفسِ ؛ فرَوحُهم دائمُ الإقبالِ في محلِّ القُرْبِ ، وهُم في الأرضِ أعزُّ مِنَ الكِبريتِ الأحمرِ .

❋ ❋ ❋

فُتوحٌ

[في تركِ الارتهانِ بالحقِّ والباطلِ]

مَنِ ارتَهَنَ بِحَقٍّ أو باطلٍ . . لا يصلُ إلىٰ صَفْوِ الرُّوحِ ؛ سواءٌ كانَ الِارتِهانُ مَوجُوداً في الحالَةِ الحاضِرَةِ ، أو غيرَ مَوجُودٍ في الحالةِ الحاضِرَةِ ، ولا يكونُ هٰذا إلَّا لعبدٍ ماتَتْ رَغبتُهُ في الدُّنيا والآخرةِ ، والمعنيُّ بالآخرةِ : أبوابُ البِرِّ ، وما يُتقَرَّبُ بهِ مِن صُوَرِ الخيرِ المتَعدِّي أو المُتَوهَّمِ تَعدِّيهِ ، سِوىٰ ما يَلزَمُ مِنَ العُبودِيَّةِ الصِّرْفَةِ ، إذاً الحقُّ يُعظِّمُه بالإقبالِ الدَّائمِ مِنْ غيرِ إدبارٍ .

فُتُوحٌ

[في الفَنَاءِ]

تُسَلُّ حقيقةُ العبدِ عن كِسْوَةِ وُجودِهِ كما يُسَلُّ السَّيفُ عن قِرابِهِ ، وتَهُزُّهُ يدُ الحالِ في فَضاءِ القُرْبِ ، وكلَّما تَحرَّكتِ النَّفسُ بِصفَتِها . . غاصَتْ[1] حقيقةُ العَبدِ في وُجودِهِ ، وكلَّما سَكنَتِ النَّفسُ . . تَجرَّدَ ، وعندَ تَجرُّدِهِ يَستَتبِعُ القالَبَ والحواسَّ ، ويَشمَلُ الظَّاهِرَ نورُ الباطنِ .

(١) في الأصلِ : (غاص) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

فتوحٌ

[في تدبُّرِ القرآنِ]

تَدَبُّرُ مَعانِي القُرآنِ قُوتُ القلبِ معَ صَلَابةِ النَّفسِ ، فإذا اطمأنَّتِ النَّفسُ . . صارَ تَدبُّرُهُ مَعانِيَ القرآنِ التَّأنِّي ، والوقُوفُ معَ معنَى القرآنِ قُوتُ النَّفسِ ، والقلبُ يَستَغرِقُهُ أنوارُ القُرْبِ ؛ فإنَّ النَّفسَ تَصِيرُ تُطِيعُ القلبَ ، والقلبَ يُطِيعُ الرُّوحَ .

فُتوحٌ

[في سببِ العَناءِ والمكابدةِ للعبادةِ وسببِ زوالِهِ]

العبدُ في ذِكرِهِ وعِبادَتِهِ تَمُدُّهُ أنوارُ المشاهَدَةِ ، ولٰكنْ تُنازِعُهُ وجودُهُ ؛ فهو آنِسٌ باللهِ ساكنٌ إليهِ ، ولٰكنَّ الوجودَ مُنازِعٌ لهُ ، وعلىٰ قَدْرِ مُنازَعَةِ الوُجودِ يكونُ كَلُّ[1] العبادةِ ، فإذا تَسلَّطَت على القلبِ أنوارُ المشاهَدَةِ . . كفَّ الوُجودُ عنِ المنازَعَةِ ، وتَسلَّطَ باللهِ علىٰ وُجودِهِ ، وخَفَّ ولَطُفَ ، ولا يَبقَىٰ عَناءٌ ولا تَعَبٌ مِنَ العبادةِ ، ويكونُ علىٰ معنَىٰ قولِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : « قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلَاةِ »[2] ، ويَستَكمِلُ الروحَ حتَّىٰ لا يُحِسَّ بالعَناءِ رأساً ألبَتَةَ ، ويَسبَحُ في بِحارِ الرُّوحِ ما دامَ كذٰلكَ .

❊ ❊ ❊

(١) الكَلُّ : الثِّقْلُ . « المصباح المنير » (ك ل ل) .

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٣٩) ، وأحمد في « المسند » (١٢٢٩٤) من حديث أنس رضي الله عنه .

فتوح

[في الفرقِ بينَ المحبِّينَ والمحبوبينَ]

قال قدَّسه اللهُ :

المحِبُّ يَرى الحقَّ في الخلقِ في نِهايَةِ أمرِهِ ؛ فإنَّه يَرى الأشياءَ بالحقِّ ، إذِ الحقُّ بعدَ طُولِ المجاهَدَةِ رَوَّحَهُ بالمعرِفَةِ وكاشَفَهُ ؛ فتَجَلَّىٰ لهُ في صُوَرِ الأعمالِ والأفعالِ ، وكُلُّ فِعلٍ منهُ يُرىٰ ، وكُلُّ قولٍ منهُ يُسمَعُ .

والمحبوبُ الَّذي بادأَهُ الحقُّ بالمعرِفَةِ ، وكاشَفَه بالمشاهَدَةِ . . يَرى الخلقَ بالحقِّ ؛ ويُثبِتُ لهم وُجوداً ، ويَرىٰ منهم أفعالاً .

فالمحِبُّ يَتَحبَّسُ في الحالِ بتَركِ اختيارِهِ ووُقوفِهِ مع اختيارِ الحقِّ ، والمحبوبُ يَبرُزُ مِنَ الحالِ ويُطلَقُ عن وَثاقِ الحالِ ؛ فكأنَّهُ يَتصرَّفُ في الحالِ ، لا الحالُ يَتصَرَّفُ فيهِ ، فلَا يَحجُبُهُ الحقُّ عنِ الخلقِ ؛ كما لا يَحجُبُ الخلقَ عنِ الحقِّ[1] ، ويكونُ مِن طريقِ الذَّاتِ تَجلِّيهِ .

ولهٰذا المعنَى المحِبُّونَ إذَا رُوِّحُوا بعدَ طُولِ المجاهَداتِ بالمعرفة . . يتركونَ النَّوافِلَ ، ويَرَونَ أنَّهم وَصَلوا إلى الحقِّ .

والمحبُوبونَ يُرَدُّونَ في نِهاياتِهم إلىٰ أفعالِ بِداياتِهم ؛ ويرونَ النَّوافِلَ .

فما للمَحبوبِينَ مِنَ الأفعالِ والنَّوافِلِ في النِّهايَةِ . . للمُحِبِّينَ في البِدايَةِ ، وما للمُحِبِّينَ مِن نَسَماتِ المعرفَةِ والمشاهَدَةِ في النِّهايةِ . . للمَحبوبِينَ في البِدايةِ ؛ فنِهايَةُ المحِبِّينَ بِدايةُ المحبوبِينَ مِنْ حيثُ المعنىٰ ، ونِهايةُ المحبوبينَ هو بِدايةُ المحبِّينَ مِنْ حيثُ الصُّورةُ ، ولٰكنَّ صورةَ عبادةِ المحبِّينَ معبودٌ بِلا عبادةٍ ، وصورةَ عباداتِ المحبوبينَ عبادةٌ ومعبودٌ[2] .

---

(١) في (ب) : (لا يحجُبه) .

(٢) في (ب) : (ولٰكنَّ صورةَ عباداتِ المحبِّينَ عبادةٌ بلا معبودٍ ، وعباداتُ المحبوبينَ عبادةٌ ومعبودٌ) .

فــتوحٌ

[في الإلهاماتِ]

العبدُ في تَفرُّدِهِ بربِّهِ استغرقَ فيهِ باطِنُهُ ، وأحرَقَتْ علومَ خَواطِرِهِ العلومُ[1] الصَّافِيةُ الإلهامِيَّةُ الَّتي مِنَ اللهِ ؛ فإنَّهُ تعَوَّضَ باللهِ عمَّا مِنَ اللهِ سبحانَهُ ، فإذا استَرْسَلَ بِحُكمِ وُجودِهِ البَشَريِّ في بعضِ أمورِهِ . . يَثُورُ[2] وُجودُهُ ، فإذا عادَ إلىٰ حالِهِ . . تَنعَكِسُ أنوارُ فَضلِ الحقِّ علىٰ وُجودِهِ الثَّائرِ ؛ فيَصيرُ ما ثارَ مِنَ الوُجودِ عُلوماً إلهامِيَّةً في أوَّلِ عَودِهِ إلى الحالِ ، فإذا تَوَسَّطَ الحالَ وغاصَ فيهِ . . ذابَتِ العلومُ وذَهبَتْ .

والعَجَبُ أنَّ هـٰذه العلومَ يَعدَمُها في استِغرَاقِهِ ، ولا يَعدَمُ الإحساسَ بِجُزئيَّاتِ الأمورِ الظَّاهِرَةِ الجاريَةِ في العاداتِ !

* * *

---

(١) كلمة (العلومُ) : ساقطةٌ من (أ) .

(٢) في (أ) : (تَنوَّرَ) .

فُتوحٌ

[في آثارِ تسلُّطِ أنوارِ الفضلِ على الباطنِ]

وقدْ تتَسَلَّطُ أنوارُ الفَضلِ على الباطنِ ، فيَمتَلِئُ القلبُ منها ، حتَّىٰ تَنْمَحِيَ آثارُ الوُجودِ وتَلْوِيثاتُ النَّفْسِ ، وقدْ يكونُ ذٰلكَ في جميعِ الأذكارِ والخلَواتِ ؛ وذٰلكَ لإكمالِ شُغْلِ القلبِ باللهِ وحدَهُ ، فإذا كانَ في الصَّلواتِ وفي غيرِها . . تكونُ التِّلاوةُ والقرآنُ الجارِي على اللِّسانِ بمَنزلَةِ الحَطَبِ في لَهِيبِ النَّارِ فتَختَطِفُهُ النَّارُ ، فكذٰلكَ يَختَطِفُ [1] القلبُ المملوءُ مِنَ النُّورِ التِّلاوةَ والقرآنَ .

وكما أنَّ الحَطَبَ يَذهَبُ حَجْمُهُ ، ولا يَبقَىٰ إلَّا الرَّمادُ اليَسِيرُ . . فكذٰلكَ يَذهَبُ حَجْمُ الحُروفِ والكلماتِ وكيفُ القِراءةِ ، ولا يَبقَىٰ عندَ ذٰلكَ وَسْوَسَةٌ ألبَتَّةَ ، وكُلُّ حَرفٍ مِنَ القرآنِ يَقعُ على الوُجودِ كالجبلِ ، ويُفنِيهِ ويُذهِبُ آثارَهُ ، ويَنضَافُ نورُهُ إلى النُّورِ الَّذي في القلبِ ، فيَزدادُ القلبُ نُوراً ، ويَزدادُ الوُجودُ تَلاشِياً ، وعندَ ذٰلكَ يَنْدَرِجُ الزَّمانُ في صِفاتِ الوقتِ ؛ حتَّىٰ لعلَّ القَارِئَ والمصَلِّيَ كذٰلكَ يَختِمُ الخَتْمَةَ في أَدْنَىٰ زَمانٍ ، لا يُتَصوَّرُ ذٰلكَ في حقِّ غيرِ مَنْ هو بهٰذا النَّعتِ .

(١) في الأصل : (تختطف) علىٰ أن الفاعل هو التلاوة والقرآن .

فتوحٌ

[في الخواطرِ]

الخَواطِرُ لأربابِ القلوبِ ، وصاحِبُ القلبِ إذا صحَّ وتَمكَّنَ في حالِهِ . . يُميِّزُ بينَ الخَواطرِ الأربعةِ :

المَلَكِيَّةِ ، والشَّيطانِيَّةِ ، والنَّفسانِيَّةِ ، والإلـٰهيَّةِ .

وصاحبُ القلبِ الَّذي هو حالُهُ : خَلَصَ مِنَ النَّفسِ الأمَّـارةِ ، ولـٰكنْ حُبِسَ بالقلبِ عنِ الحضرةِ الإلـٰهيَّةِ ؛ لأنَّ للنَّفسِ وُجوداً ظُلْمانِيّاً ، وصاحبُ القلبِ فَنِيَ عنِ الوُجودِ الظُّلْمانِيِّ ، وهـٰذا الفَناءُ فَناءُ الظَّاهِرِ ، ولـٰكنْ هو المعوّقُ عنِ الحَضْرَةِ الإلـٰهيَّةِ بالوُجودِ النُّورَانِيِّ ؛ وهو القلبُ ، فإذا خَلَصَ مِنَ القلبِ كما خَلَصَ مِنَ النَّفسِ . . خَلَصَ مِنَ الوُجودِ النُّورانِيِّ أيضاً ، ووَصلَ إلى اللهِ وصارَ مِنْ أربابِ الفَناءِ الباطنِ .

فصاحِبُ الفَناءِ الظَّاهِرِ تَجَلَّىٰ لهُ الحقُّ سبحانَهُ بطريقِ الأفعالِ ، وصاحِبُ الفَناءِ الباطنِ لهُ تجلِّي الذَّاتِ ، فَصاحِبُ النَّفْسِ أَرْضِيٌّ ، وصاحِبُ القلبِ سَمَاوِيٌّ ، ومَنْ تخَلَّصَ مِنهُما . . فهو إلـٰهِيٌّ ، وإذا صارَ مُخَلَّصاً مِنهُما إلـٰهيّاً . . صارَتْ خَواطِرُهُ خَاطِراً واحِداً ؛ وذٰلكَ الخاطرُ هو مُطالَبَةٌ وُجودِيَّةٌ تَجذِبُه مِنَ الوُجودِ إلى الفَناءِ ، ولـمْ[1] يَبْقَ لهُ تَنوُّعُ الخاطرِ ، فإذا عادَ إلى الوُجودِ . . تَنوَّعَتْ خَواطِرُهُ ، ولا يعودُ إلَّا إلى الوُجودِ النُّورانِيِّ .

وتَتَنوَّعُ خَواطِرُه بأنْ يكونَ لهُ خاطرٌ نَفْسانِيٌّ ، وخاطرٌ مَلَكِيٌّ ، ويَعدَمُ الخاطرَ الشَّيطانِيَّ والإلـٰهيَّ .

---

(١) الواو ليست في الأصل ، وأضفتُه لضرورةِ السِّياق .

أمَّا الشَّيطانِيُّ . . فَيَعدَمُهُ لأنَّهُ مُتَلبِّسٌ بِوُجودٍ نُورَانِيّ ، ولا طريقَ لإلقاءِ الشَّيطانِ إليه . وأمَّا الخاطرُ الإلـٰهيُّ يَعدَمُهُ لأنَّ الخاطِرَ رَسولٌ إلىٰ بَعيدٍ ، وهو قَريبٌ .

ويَبقَى الخاطرُ النَّفسانِيُّ ؛ لأنَّه مِن قَضايا وُجودِهِ ، والملَكِيُّ ؛ لأنَّهُ مِن قَضايا نُورانِيَّتِهِ .

والوجودُ رسمٌ ، والنُّورانِيَّةُ رسمٌ ، وللرَّسمِ اسمٌ ، ومعَ الفَناءِ وتَحقُّقِهِ فلا رسمٌ ولا اسمٌ .

فُتوحٌ

[في معنىٰ : « قُرَّةُ عيني في الصلاةِ »]

سِرٌّ لاحَ في وضْعِ إليهِنَّ[1] بِنُورِ الشَّمسِ والقَمرِ ؛ إذْ مَثابَةُ نُورِهِما مثابةُ نُورِ الشَّمسِ والقَمَرِ في الأرضِ السَّاطعِ مِنَ السَّماءِ ؛ الشَّمسُ بمثابةِ الرُّوحِ ، والقمرُ بمثابةِ القلبِ ، فإذا سَرَى النُّورُ ، واستَنارَ مَركزُ النَّفسِ الَّذي هو النِّصفُ الأسفَلُ . . فتَنقَطِعُ جَواذِبُ النَّفْسِ ، ولذٰلكَ يَذهَبُ كَلُّ العبادةِ ، وعلىٰ قَدْرِ بقاءِ ظُلمَةٍ يَسيرَةٍ في مَركزِ النَّفسِ يَبقَىٰ كَلُّ العِبادةِ ، فعندَ ذٰلكَ يُسَرِّحُ اليَدينِ ؛ إذْ لا حاجَةَ إلى المقاومَةِ ، ولا ضَرورةَ إلىٰ مَنعِ جَواذِبِ النَّفْسِ ، فلذٰلكَ قدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُصلِّي مُسْبِلاً[2] في بعضِ الأحايينِ عندَ استكمالِ النُّورِ ، فلَا يَبقَىٰ معَ التَّحقِيقِ ـ بمعنَىٰ سِرِّ الإسبالِ ـ وَسوسَةٌ ، ولا حديثٌ مِنَ النَّفْسِ ، ولا كَلُّ العِبادَةِ ، ولا إحساسٌ بالعَناءِ[3] ، وهي قُرَّةُ العَينِ المشارُ إليهِ في الصَّلاةِ[4] .

※ ※ ※

---

(١) يعني : القلبَ والرُّوحَ .

(٢) لعل الشيخ السهروردي يقصد إسبالَ اليدينِ وإرسالَهما في الصَّلاةِ ، وهو إطلاقُ المصلِّي يديه إلىٰ جانبَيهِ .

(٣) في الأصلِ (بالفَناء) ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٤) تقدَّم تخريجه (ص ٧٤٨) .

فــتوحٌ

[في بيانِ حلولِ النفسِ مَحَلَّ الروحِ]

أدامَ(١) اللهُ سبحانَهُ على العبدِ بحُسنِ الإقبالِ عليهِ ، وصِدقِ الإنابةِ إليهِ ؛ ممَّا يُنازِلُهُ في مَظانِّ القُرْبِ . . أن تَختَطِفَ رُوحَه وقلبَه أشِعَّةُ العَظَمَةِ ، وإنَّما اختَطفَتْها أشِعَّةُ العَظَمَةِ لكمالِ صِفاتِها ، وقُوَّةِ لَطافَتِها ، وما ألبسَها اللهُ سبحانَهُ ورَزَقَها اللهُ هـٰذه اللَّطافَةَ إلَّا وقدْ خَلَعَ على النَّفْسِ خِلَعَ الطُّمأنِينَةِ ؛ بلْ غَشِيَتْهُ أنوارُ السَّكِينَةِ ، وانْتُزِعَ الجهلُ منها والظُّلمَةُ الجِبِلِّيَّةُ .

فلمَّا صارَتِ النَّفْسُ بهـٰذه المثابَةِ . . لمْ تَتَصاعَدْ منها البُرودَةُ واليُبوسَةُ الَّتي تُجمِّدُ القلبَ في مَحلِّهِ ، وتَمنَعُهُ مِنَ الارتقاءِ إلىٰ مَحلِّ الرُّوحِ ، ولِتَسميةِ النَّفْسِ بإضافَةِ اليُبوسَةِ والبُرودَةِ . . سِرٌّ يطولُ شَرحُهُ .

فلمَّا انقطعَ مَدَدُ النَّفْسِ مِنَ الرُّوحِ ؛ لامتِلَائِها بما وهبَ لها المنَّانُ بعدَما كانَتْ فقيرةً طامِحَةَ العَينِ إلىٰ مَحلِّ القلبِ . . استَغنَتْ ، فلمْ تُزاحِمِ القلبَ ؛ فانحَلَّ القلبُ وذهبَ جُمودُهُ ، ولَطُفَ واختُطِفَ معَ الرُّوحِ ، فيَبقَى الجسدُ مَسكَناً للنَّفْسِ ، وصارَتِ النَّفْسُ رُوحَ الجسدِ ، وانتزعَ مِنَ الجسدِ الجُمودُ الَّذي كانَ فيهِ مِن بُرودَةِ النَّفسِ وحُمَّى الجسدِ ؛ لتَبَدُّلِ النَّفسِ في وَصفِها المكتسبِ للبُرودةِ ، ولانَتِ الجوارِحُ ، وصارَ الجسَدُ لَيِّناً منقاداً ؛ مطيعاً مع النفس الَّذي صارَ رُوحَهُ ، وصارا في مَحَلِّ العبادةِ متلذِّذَينِ مُتنَعِّمَينِ ، والرُّوحُ والقلبُ عنهما بمَعزِلٍ ، ورُبَّما لا يُحِسَّانِ بعبادةِ الجسدِ(٢) ؛ لِاستغراقِهِما واستِهلَاكِهِما وتَلَاشِيهِما في أشِعَّةِ العَظَمَةِ ، وغابا عن وُجودِهِما لِما

---

(١) في (ب) : (إذا منَّ) .

(٢) في (أ) بزيادةِ : (والنَّفسِ) .

غلبَ عليهِما مِن وُجودِ الحقِّ ، وغابا عنِ الحقِّ بالحقِّ ، وصارا معَ الجسدِ بين يَدَيِّ الحقِّ عالِمَينِ بالحقِّ عابِدَينِ للحقِّ ، ذٰلكَ تقديرُ العزيزِ العليمِ[1] .

* * *

(١) إلىٰ هنا ينتهي مخطوطُ : (أ) .

وَمِنْ كلامِهِ رحمَهُ اللهُ :

إذا عاملَ اللهَ العبدُ بالصِّدقِ . . فَتحَ عليهِ أبوابَ العلومِ والإلهاماتِ ، ومِنْ أنفَعِ العلومِ مفتوحةً عليهِ ـ العلمُ بِمَنشَأ دُخولِ الابتلاءِ عليهِ ؛ لأنَّهُ لا يزالُ يدخلُ مِن جِهَةِ النَّفسِ ؛ فبالعلمِ بدُخُولِهِ يأخذُ منهُ حِذْرَهُ ، ويكونُ دائِمَ اللَّجأ إلى اللهِ تعالىٰ ، وقدْ يُفتَحُ على العبدِ ضَربٌ مِنَ العلومِ الدَّقِيقَةِ الَّتي لا يُوجَدُ جِنسُها مَسطوراً ، غيرَ أنَّ أنفَعَها ما ذَكرناهُ .

ثـمَّ للصَّادقِ أَلَّا يَغْتَرَّ بما يُفتَحُ عليهِ وغيرُها ؛ بل لا يزالُ يَفِرُّ مِنَ الإلهامِ إلى المُلهِمِ ، ومِنَ العلومِ إلى المُعَلِّمِ ، ولا يَلتَفِتُ إلى الإلهامِ ؛ لِيَتجَوهرَ الإلهامُ فيهِ ، وبِتَجَوهُرِهِ فيهِ يصيرُ قولُهُ فعلاً دائماً ، ومتَىٰ أصغَىٰ إلى الإلهامِ . . استَلَبَه الإلهامُ ، وسَلَّمَهُ إلى الفِكْرِ ، وانْحَجَبَ عن طَيِّ الغيبِ ، وانحطَّ إلىٰ عالَمِ الشَّهادَةِ ، وتَقَيَّدَ بإشاراتِ العُقولِ .

ثمَّ قالَ رحمةُ اللهِ عليه :

وطريقُ الزُّهدِ في الإلهامِ : أن تَعلَمَ أنَّ مَنشأَ الإلهامِ ماذا ؟

وهو أنَّ الصَّادِقَ قدْ يَستَرسِلُ في المُخالَطَةِ والمُمازَجَةِ والخَوضِ فيما لا يَعنِي ، ومع ذٰلكَ لا يَغِيبُ عنِ الحقِّ بباطنِهِ ؛ فيثورُ مِنْ تلكَ المخالَطَةِ والمُمَازَجَةِ وجودُ النَّفسِ ، مُشَاكِلٌ للأَبخِرَةِ الثَّائرةِ مِنَ الأرضِ الَّتي يَتراكَمُ منها غَيْمٌ ، هٰكذا يصيرُ للنَّفسِ بالمخالطَةِ وجودٌ ثانٍ ، فإذا رجعَ الصَّادقُ إلىٰ خَلْوَتِه ، وتدبُّرِ جَمعِيَّتِهِ . . وقعَ نورُ الجمعيَّةِ علىٰ ذٰلكَ الوجودِ الثَّائرِ ؛ فيثورُ ، فيصيرُ إلهاماً ، فحقيقتُهُ حديثُ النَّفسِ مُنقَلِبٌ إلهاماً بنورِ الجمعيَّةِ للواقعِ عليهِ ، وهٰذه غريبةٌ عزيزةٌ .

والسّلام علىٰ من اتّبع الهدىٰ (١)

(١) خُتِمَ بها مخطوطُ (أ) أرجأتُها لمناسَبةِ الخَتمِ بها .

من تراث

الإمامِ أبي حَفْصٍ عُمَرَ السُّهْرَوَرْدِيِّ

الرِّسالة الخامسة

الأَسماءُ المُبارَكة

مقدّمة
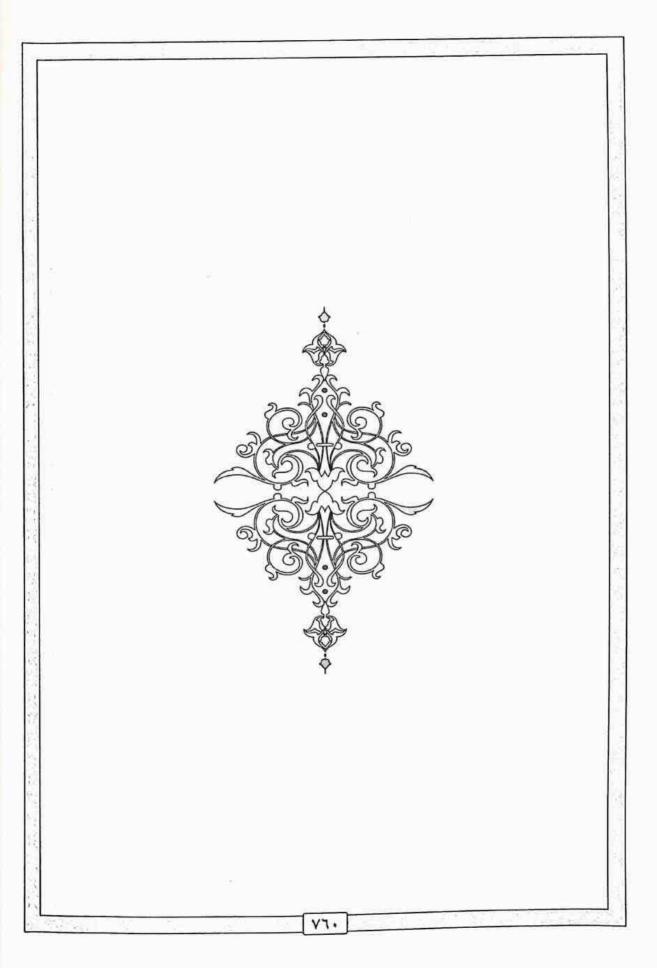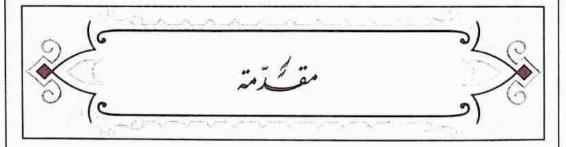
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ندَبَ القرآنُ الكريمُ المؤمنينَ إلىٰ تعظيمِ اللهِ تعالىٰ بالتعبُّدِ لهُ بحفظِ أسمائِهِ الكريمةِ الحُسنىٰ ، وذِكرِها والإقرارِ بها ، والتوجُّهِ إليهِ بندائِهِ بها عندَ الرغبةِ إليهِ في الدعاءِ والطلبِ ، ونهاهم عن أن يَميلوا فيها عن القصدِ ، كما كانَ يفعلُ المُشرِكون ؛ فقدْ عَدَلُوا بأسمائِهِ تعالىٰ عمَّا هي عليهِ ، فسَمَّوا بها أوثانَهم ، وزادوا فيها ونَقَصُوا ؛ فاشتقُّوا اللَّاتَ مِنَ الاسمِ الكريمِ (اللهِ) ، والعُزَّىٰ من (العزيزِ) ، ومَناةَ مِنَ (المنَّانِ) علىٰ ما قيلَ [١] ، قال جلَّ شأنُه : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [٢] .

ومِنْ أجلِ تحقيقِ هـٰذا المطلبِ القرآنيِّ الكريمِ . . توفَّرَت جهودُ العلماءِ علىٰ جمعِ أسماءِ اللهِ تعالى الواردةِ في الكتابِ والسُّنَّةِ ، والكلامِ على اشتقاقِها وشرحِ مَعانيها ، وبيانِ طريقةِ الدعاءِ بها ، وتحقيقِ القولِ في معنى الإحصاءِ المأمورِ بهِ في قولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ : « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ ٱسْماً ؛ مِئَةً إِلَّا وَاحِداً ، مَنْ أَحْصَاهَا . . دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ » [٣] .

وقدْ كَثُرَت تصانيفُهم فيها وتعدَّدَت أغراضُهم ، ومِن أبرزِ هـٰذه الجهودِ : « تفسيرُ أسماءِ اللهِ الحُسنىٰ » لأبي إسحاقَ الزَّجَّاجِ (ت ٣١١ هـ) [٤] ،

---

(١) ينظر « الوجيز » للواحدي (ص ٤٢٣) ، و« الأمد الأقصىٰ » لأبي بكر بن العربي : (١٧٨/١) .
(٢) سورة الأعراف : (١٨٠) .
(٣) أخرجه البخاري (٧٣٩٢) ، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) طبع بدار المأمون بدمشق ، الطبعة الثانية ، سنة (١٩٧٩ م) ، بتحقيق أحمد يوسف الدقاق .

و« المَقصِدُ الأَسنىٰ في شرحِ مَعاني أسماءِ اللهِ الحُسنىٰ » للإمامِ أبي حامدٍ الغزاليِّ (ت ٥٠٥ هـ)[١] ، و« الأمدُ الأقصىٰ في شرحِ أسماءِ اللهِ الحُسنىٰ وصفاتِه العُلا » لأبي بكرِ بنِ العربيِّ (ت ٥٤٣ هـ)[٢] ، و« لوامعُ البيِّناتِ شرح أسماءِ اللهِ تعالىٰ والصِّفاتِ » لفخرِ الدِّينِ الرازيِّ (ت ٦٠٦ هـ)[٣] ، و« كشفُ المَعنىٰ عن سرِّ أسماءِ اللهِ الحُسنىٰ » لمحيي الدينِ بنِ عربيٍّ (ت ٦٣٨ هـ)[٤] ، و« الأَسنىٰ في شرحِ أسماءِ اللهِ الحُسنىٰ » لأبي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ أحمدَ القرطبيِّ (ت ٦٧١ هـ)[٥] ، وغيرُها .

وقدْ كتبَ الشيخُ شهابُ الدِّينِ السُّهرورديُّ في بابِ الأسماءِ الإلٰهيَّةِ هٰذه الرسالةَ التي أُقدِّمُ لها ، ذكرَ فيها أربعين اسماً من أسماءِ اللهِ تعالىٰ ، ركَّزَ فيها علىٰ جانبِ الدعاءِ بالأسماءِ الكريمةِ ، ولمْ يكُن همُّهُ أن يَشرَحَ مَعانيَها ، فكانَ يذكُرُ الاسمَ بعدَ النداءِ باستعمالِ الأداةِ (يا) ثمَّ يذكُرُ الدعاءَ أو الطلبَ المناسبَ لمعنى الاسمِ ، فهو بهٰذا الصنيعِ وإنْ لمْ يَشرَحْ معنى الاسمِ كما فعلَ غيرُهُ ، إلَّا أنَّهُ جعَلَ الدعاءَ وما يشتملُ عليهِ مِنْ رغبةٍ وطلبٍ دالّاً علىٰ معنى الاسمِ ، فاستغنىٰ بهٰذه الإشارةِ عن الشَّرحِ .

وبعدَ أن فَرَغَ مِنْ ذِكرِ الأسماءِ ذَكَرَ بعضَ آدابِ الدعاءِ بالأسماءِ الحُسنىٰ ؛ كقراءةِ الفاتحةِ بين يَدَيِ الدعاءِ ، والصلاةِ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، ثمَّ أَورَدَ بعضَ الأدعيةِ التي تُذكَرُ بعدَ قراءةِ الأسماءِ الأربعينَ والدعاءِ بها .

* * *

---

(١) طبع بمطبعة السعادة ، سنة (١٣٢٤ هـ) ، ثم نشرته دار ابن حزم ببيروت ، بالاشتراك مع مكتبة الجفان والجابي بقبرص ، سنة (١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م) ، بتحقيق بسام عبد الوهاب الجابي .

(٢) طبع بدار الحديث الكتانية ، سنة (١٤٣٦ هـ ـ ٢٠١٥ م) ، تحقيق عبد الله التوراتي ، وأحمد عروبي .

(٣) طبع بالمطبعة الشرفية بمصر ، سنة (١٣٢٣ هـ) ، بتصحيح محمد بدر الدين النعساني .

(٤) طبع بمؤسسة العروة الوثقىٰ بلبنان ، سنة (٢٠٠٨ م) ، بتحقيق بابلو بينيتو .

(٥) طبع بدار الصحابة بطنطا ، سنة (١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م) ، ضبط نصّه وشَرَح مادتّه اللغويةَ الدكتور محمد حسن جبل ، وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه طارق أحمد محمد .

وصف النّسخ المعتمدة في التّحقيق
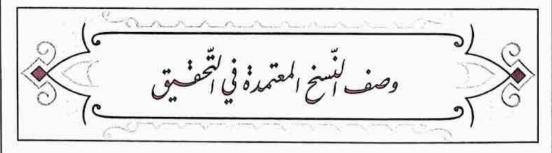
اعتمدتُ في تحقيقِ هٰذه الرِّسالةِ علىٰ ثلاثِ نُسخٍ خطِّيَّةٍ ، بيانُها كالآتي :

١ ـ نسخةُ دارِ الكتبِ القطريَّةِ ، وهي مكتوبةٌ بقلمِ نسخٍ ، (٧٥ ـ ٧٨ ق) ب ، الرَّقم العامُّ (٣٢) .

رمزتُ لها بـ (أ) .

٢ ـ نسخةٌ أخرىٰ بدارِ الكتبِ القطريَّةِ ، تحت عنوان : « أربعونَ اسماً من أسماءِ الله تعالى » ، الكتابُ الرَّابعَ عشرَ ، ضِمنَ مجموعةٍ منسوخةٍ بخطِّ حسنِ بنِ عمرَ ، فَرَغَ من كتابتِها سنةَ (١٢٨٧ هـ) ، (٨٠ ـ ٨١ ق) ، رقم (٣٤٢) .

ورمزتُ لها بـ (ب) .

٣ ـ نُسخةُ المكتبةِ السُّليمانيَّةِ إستانبول ، رقم (١٢٥٦) ، تحت مُسمَّىٰ : « خواصُّ الأسماءِ الأربعينَ الإدريسيَّة المشهورة بالسُّهرَوردِيِّ » .

وقد رمزتُ لها بـ (ج) .

ويُوجَدُ من هٰذه الرِّسالةِ ـ عِلاوةً علىٰ ما سَبَقَ ـ نُسَخٌ خطِّيَّةٌ كثيرةٌ ، أَذكُرُ أماكن وُجودِها على النَّحو الآتي :

مصر :

١ ـ دار الكُتُبِ المِصريَّةِ ، رقم (٢٦٥٣) ، ورقم (١٨٩) تيمور ـ تصوُّف .

٢ ـ جامعة القاهرة : برقم (٧٧١٣) .

المملكة العربيَّة السُّعوديَّة :

مركز الملك فَيصل للبحوثِ والدِّراساتِ الإسلاميَّةِ الرِّياض ، بأرقام : (٢/١٢٧٩٩) ، (١٣٩٩٩) ، (ب ٤٠٧٠٣) ، (ب ٤٠٧٢٩) .

اليمن :

مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ، برقم (٢٢٥٧) .

العراق :

١ ـ مكتبة الأوقاف العامَّة في بغداد : برقم (٢/٦٩٩٩) (٢١) ورقة .

٢ ـ المكتبة القادريَّة في بغداد : برقم (٦٧٩) ، الأوراق (٥ ـ ١٨) .

٣ ـ مكتبة الأوقاف بالموصل (٢٩٦/١) (٢٤) .

سوريا :

الظَّاهريَّة : برقم (٦٩١٩) ، الأوراق (٧٤ ـ ٨٠) ، ورقم (٩٦٧٨) ، (١٤ ورقة) ، كُتبت في (٧١١ هـ) .

المغرب :

الخزانة العامَّة الرِّباط : برقم (١٦٥١/د) ، الأوراق (١٧٣ ـ ١٧٧) .

تركيا :

١ ـ آيا صوفيا : برقمي (٣٧٧) ، (٣٣٥٨) .

٢ ـ أحمد الثالث : برقمي (٩٧٨) قغوشلر (ورقة ٢٠٤)[١] ، (٧٦٧) يكيلر .

٣ ـ أسعد أفندي : برقم (٣٤٣٠) .

---

(١) معلومةٌ غيرُ واضحةٍ في « المعجم » (٣٩٠٧/٥) ؛ فالرِّسالة إمَّا أنَّها في الورقةِ (٢٠٤) من المخطوطِ ، أو أنَّها في (٢٠٤) ورقة .

٤ ـ قيون أوغلي : برقم (٢/١٠٨٩٤) ، (٣) ورقات .

٥ ـ محمد عاصم : برقم (٣٠/٧٠٥) ، الأوراق (١١٤ ـ ١١٧) ، وقد كتبت في (١٠٦٦ هـ) .

٦ ـ ألمالي Elmali : برقم (١/١٣٠) ، (٧) ورقات ، ورقم (٣/٢٦٨٥) ، الأوراق (١٢٧ ـ ١٤١) .

إيران :

مكتبة إيران الوطنيَّة (ملّي كتبخانة) : (FB/١٤٨/١) (٥) ورقات فقط ، وأيضاً : (A/٥١٣٣/١) ، الأوراق (٢٣ ـ ٣٣) .

أوزبكستان :

مكتبة معهد البيرونيّ للدِّراسات الشَّرقيَّة في طشقند : برقم : (٢٢٤٦) .

ألمانيا :

مكتبة غوته : برقم (٧١٧) .

فرنسا :

مكتبة باريس الوطنيَّة : برقم (٢٦٤٤) .

المملكة المتَّحدة :

المتحفُ البريطانيُّ : برقم (٨/١٠٥) ، ورقم (٤/١٧٥) .

الفاتيكان :

(٩/٢٩٤/٥) ، (٤/٩٣٨) ، (٢/١١٢٦/٥) ، (٣/١١٦٧) ، (٨/١٢٥٤) ، (٢/١٣٥٩) ، (١٥٥١) ، (Barb ١٢٩/١ ، c) .

نماذج من صور المخطوطات

المحرم الحرام من شهور سنة سبع وتسعمائة والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين وحسبنا الله ونعم الوكيل

الأسماء المباركة للسهروردي نفع الله

وهي أربعون اسماً عظيمة النفع لمن داوم عليها
نفع الله ببركتها وبركة مؤلفها سبحانك لا إله إلا
أنت يا رب كل شيء ووارثه يا إله الآلهة الرفيع
جلاله الاسم الأول والثاني والثالث والرابع
والخامس يا الله المحمود في فعاله يا رحمن كل شيء وراحمه
يا حي حين لا حي في ديمومية ملكه وبقائه يا قيوم
فلا يفوته شيء من علمه ولا يؤوده يا واحد يا باقي
أنت أول كل شيء وآخره السادس السابع والثامن
والتاسع يا دائم فلا فناء ولا زوال لملكه يا صمد

إلى أهله سنة رزاور نفعنا الله ذكره لك يحبونهم

كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ربنا أفرغ علينا

صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين

فهزموهم بإذن الله

هذه أربعون إسما من أسماء الله تعالى شهاب الدين

السهروردي

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك لا إله إلا أنت يا رب كل شيء ووارثه

يا إله الآلهة الرفيع جلاله يا الله المحمود في

كل فعاله يا رحمان كل شيء وراحمه يا حي حين لا حي

في ديمومية ملكه وبقائه يا قيوم فلا يفوت

شيء من علمه ولا يؤده يا واحد الباقي أول

كل شيء وآخره يا دائم فلا فناء ولا زوال لملكه

يا بارئا فلا شيء كفوه ولا شيء بداية ولا

مكان يوصفه يا كبير أنت الذي لا تهتدي

العقول لوصف عظمته يا باري النفوس

نسخة دار الكتب القطرية (ب)

خواص الاسما الاربعين الادريسية المشهورة بالسهروردى

بسم الله الرحمن الرحيم روى عن على
بن ابى طالب كرم الله وجهه انه قال كنت فى حضرة
القدس مع النبى صلى الله عليه وسلم فى جماعة من اصحابه
رضى الله عنهم ثانى يوم من شهر رمضان سنة اثنين
من الهجرة نازلين بسفح جبل احد فقام رسول الله
صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس ثم قال ان
جبريل عليه السلام انزل على فيما انزل دعا يقال
له الاسما الاربعون من الملا الاعلى وقال لى
ان هذه الاسما لم تعط لاحد من الانبيا قبلك
الا لسبعة وهم ادم وادريس ونوح وايوب
ويونس وجرجيس وموسى عليهم الصلاة والسلام
وببركتها انجاهم الله مما وقعوا فيه وابتلوا به
وانه لن يدعوا احد من امتك بهذه الاسما الا نال

ببركة

أو غيره فليقرا الاسم ٢٠٠٠ مرة فان الله يخلصه
منه ومن واظب على ذكره فهو عدوه ومن نقشه على
فص وحمله كان له حرزا من كل شئ الاسم السادس عشر
ياحنان انت الذى وسعت كل شئ رحمة وعلما ياحنان
تصريفه من ضاق عليه الحال وكان حقيرا عند الناس
وكل امر يشرع فيه لم يتم له وابواب العمل قد
اغلقت عليه واراد ان يفتح باب العمل فليصم اربعة
ايام ويقرا الاسم دبر كل فريضة على شرط الخلوة
المذكورة بصدق نية فان الله يذهب عنه ذلك
ومن اراد ان يظهر على خدمته فليعتكف اربعين
يوما على شرط الخلوة الصوم والطهارة ثوبا ومكانا
وبدنا واكل الحلال وتجنب كل ذى روح وما خرج منه
ويذكره بقلب حاضر وصدق نية وجمع همة وتطهير
باطن ٦٠٠٠ كل يوم وله سبع علامات الاولى تنظر
جميع الاشيا خضرا حتى ما عليك من الثياب وذلك

نسخة المكتبة السليمانية تركيا (ج)
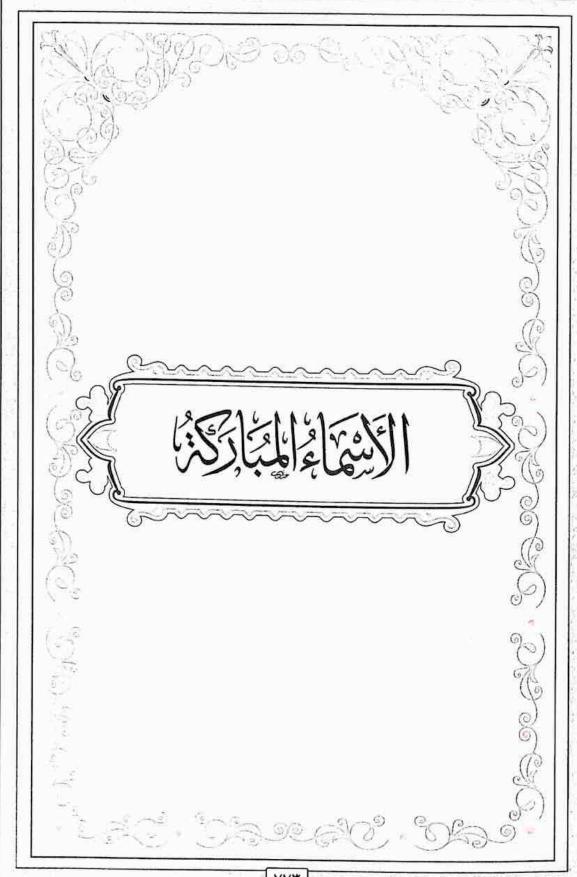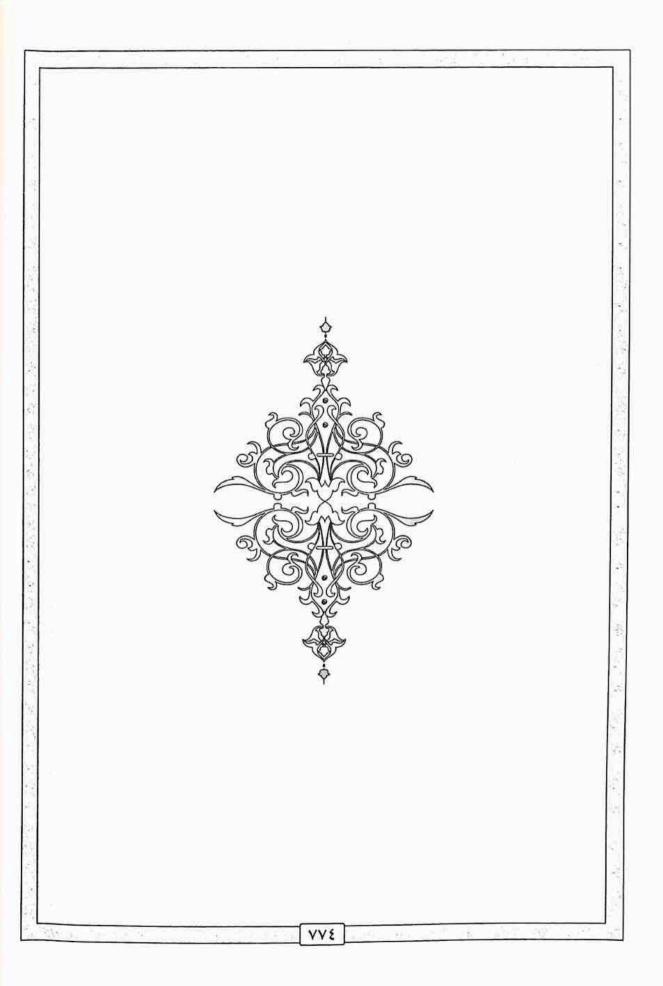
الأسماء المباركة

الأسماء المباركة[1]

سُبحانَكَ لا إلٰهَ إلَّا أنتَ ، يا رَبَّ كلِّ شيءٍ وَوارِثَهُ ، يا إلٰهَ الآلهةِ ، الرَّفيعَ جَلالُهُ .

الِاسمُ الأوَّلُ ، والثَّاني ، والثَّالثُ ، والرَّابعُ ، والخامسُ[2] :

يا أللّٰهُ المحمودَ في كلِّ فِعالِهِ ، يا رحمانَ كلِّ شيءٍ وراحِمَهُ[3] ، يا حَيُّ حينَ لا حَيَّ في دَيمومِيَّةِ مُلكِهِ وبَقائِهِ ، يا قَيُّومُ فلا يَفوتُهُ شيءٌ مِنْ عِلمِهِ ولا يَؤُودُهُ حِفظُهُ ، يا واحدُ ، يا باقي ، أنتَ أوَّلُ كلِّ شيءٍ وآخِرُهُ .

السَّادسُ ، والسَّابعُ ، والثَّامنُ ، والتَّاسعُ :

يا دائمُ فلا فَناءَ ولا زَوالَ لِمُلكِهِ ، يا صَمَدُ مِنْ غيرِ شَبيهٍ ولا شيءَ كمِثلِهِ ، يا بارئُ فلا شيءَ كُفؤُهُ يُدانيهِ ، ولا إمكانَ لوَصفِهِ[4] ، يا كبيرُ أنتَ الَّذي لا تَهتدِي العُقولُ لوَصفِ عَظَمتِهِ .

العاشرُ ، والحاديَ عشَرَ ، والثَّانِيَ عشَرَ :

يا بارئَ النُّفوسِ بلا مِثالٍ خَلا مِنْ غيرِهِ ، يا زَكِيُّ يا طاهِرُ مِنْ كلِّ آفةٍ بِقُدسِهِ ، يا كافِي ، يا مُوسِعُ لِما خَلَقَ مِن عَطايا فَضلِهِ .

---

(١) بعدَها في (الأصل) ما نصُّه : (وهي أربعونَ اسماً عظيمةُ النَّفعِ لِمَن داومَ عليها ، نفعَ اللّٰهُ بِبَرَكتِها وبرَكةِ مُؤلِّفِها) .

(٢) تَعدادُ الأسماءِ من أوَّلِها إلىٰ آخِرِها ليس في (ب ، ج) .

(٣) في (ج) : (ووارثَه) .

(٤) في (ب) : (ولا مكانَ يوصفه) .

الثَّالثَ عشرَ ، والرَّابعَ عشرَ ، والخامسَ عشرَ ، والسَّادسَ عشرَ ، والسَّابعَ عشرَ ، والثَّامنَ عشرَ[1] :

يا نَقِيُّ ، يا مَن كلُّ جَورٍ لمْ يَرضَهُ[2] ، ولمْ يُخالِطْ فِعالَهُ ، يا حنَّانُ أنتَ الَّذي وَسِعْتَ كلَّ شيءٍ رَحمةً وعِلماً ، يا منَّانُ ذا الإحسانِ الَّذي قدْ عَمَّ كلَّ الخلائقِ مَنُّهُ ، يا ديَّانَ العِبادِ ، كلٌّ يقومُ خاضِعاً لإلهيَّتِكَ[3] ، يا خالِقَ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأرضِ ، وكلٌّ إليهِ مَعادُهُ[4] ، يا رحيمَ كلِّ صَريخٍ ومَكروبٍ وغِياثَهُ ومَعاذَهُ ، يا قائمُ[5] فلا تَصِفُ الألسُنُ كلَّ كُنهِ جلالِ مُلكِهِ وعزِّهِ ، يا مبدعَ البدائعِ لمْ يَبلُغْ في إنشائِها أَحَدٌ مِنْ خَلقِهِ[6] .

التَّاسعَ عشَرَ ، والعشرونَ ، والحادي والثَّاني والثَّالثُ والرَّابعُ والخامسُ والعشرون :

يا علَّامَ الغُيوبِ فلا يَفوتُهُ شيءٌ مِنْ عِلمِهِ ، ولا يَؤودُهُ شيءٌ مِنْ حِفظِهِ ، يا حليمُ ذا الأَناةِ فلا يُعادِلُهُ شيءٌ مِنْ خَلقِهِ ، يا مُعيدَ ما أفناهُ إذا بَرَزَ الخلائقُ لدَعوتِهِ مِنْ مَخافتِهِ ، يا حميدَ الفِعالِ ، ذا المَنِّ علىٰ جميعِ خَلقِهِ بلُطفِهِ ، يا عزيزُ ، المَنيعَ ، الغالبَ علىٰ أَمرِه فلا شيءَ يُعادِلُهُ مِنْ خَلقِهِ ، يا قاهرُ ، ذا البَطشِ الشَّديدِ ، أنتَ الَّذي لا يُطاقُ انتقامُهُ .

السَّادسُ والسَّابعُ والثَّامنُ والتَّاسعُ والعشرون :

يا قريبُ ، المُتعاليَ فوقَ كلِّ شيءٍ عُلُوُّ ارتفاعِهِ ، يا مُذِلَّ كلِّ جبَّارٍ بقَهرِ عزيزِ

---

(١) في الأصل : (والثامن والتاسع) بدل (والثامن عشر) .
(٢) في (أ) : (يرضه نصيباً) .
(٣) في (ب ، ج) : (لرغبته ورهبته) .
(٤) في (ج) : (معاد) ، وتُقرأ بذالٍ مُعجَمةٍ .
(٥) في (ج) : (يا قادر) .
(٦) في (ج) : (لم يبغ في إنشائها عوناً من خَلقِه) .

سُلطانُهُ ، يا نُورَ كلِّ شيءٍ وهُداهُ ، أنتَ الَّذي فَلَقَ الظُّلماتِ نُورُهُ[1] ، يا عالي ، الشَّامخَ فوقَ كلِّ شيءٍ عُلُوُّهُ وارتفاعُهُ .

الثَّلاثون والحادي والثَّاني والثَّالثُ والرَّابعُ والخامسُ والثَّلاثون :

يا قدُّوسُ ، الطَّاهرَ مِنْ كلِّ سُوءٍ ، فلا شيءَ يُعادِلُهُ مِنْ خَلقِهِ ، يا مبدئَ البَرايا ومُعيدَها بعدَ فَنائِها بقُدرتِهِ ، يا جليلُ ، المتكبِّرَ عن كلِّ شيءٍ ، فالعدلُ أمرُهُ والصِّدقُ وَعدُهُ ، يا محمودُ فلا تَبلُغُ الأوهامُ كُنهَ ثناءِ مَجدِهِ[2] ، يا كريمَ العَفْوِ ، ذا العدلِ ، أنتَ الَّذي ملأَ كلَّ شيءٍ عَدلُهُ ، يا عظيمُ ، ذا الثَّنا الفاخرِ والعِزِّ والمَجدِ والكبرياءِ ، فلا يَذِلُّ عزُّهُ ، يا قريبُ ، المجيبَ المُتَدانيَ فوقَ كلِّ شيءٍ قُربُهُ .

السَّادسُ والسَّابعُ والثَّامنُ والتَّاسعُ والثَّلاثون :

يا عجيبَ الصَّنائعِ فلا تنطقُ الألسُنُ إلَّا بكلِّ آلائِهِ وثنائِهِ ، يا غِياثي عندَ كلِّ كُربةٍ ، ومُجيبي عندَ كلِّ دعوةٍ ، ومَعاذي عندَ كلِّ شدَّةٍ[3] ، يا ربُّ يا رحمانُ يا رحيمُ .

الأربعون : يا مالكَ المُلكِ ، مليكَ الدُّنيا والآخرةِ ؛ أسأَلُكَ بحقِّ هـٰذه الأسماءِ أنْ تُصلِّيَ علىٰ محمَّدٍ وآلِهِ وصَحبِهِ البَررةِ الكرامِ وتسلِّمَ[4] ، وأنْ تَرحَمَني وتَرحَمَ والديَّ برحمتِكَ ، وأنْ تحفظَني وذرِّيتي مِنْ كلِّ سُوءٍ ، يا ربَّ العالمينَ ، برحمتِك يا أرحمَ الرَّاحمين ، يا أرحمَ الرَّاحمين ، يا أرحمَ الرَّاحمين .

ومِن المهمَّاتِ : أن يقرأَ الفاتحةَ ويقولَ : اللَّهمَّ ؛ إنِّي أُقدِّمُ إليكَ بينَ يَدَي كلِّ

---

(١) في (ج) : (أنت الَّذي فَلَقتَ الظُّلمة بنُورك) .

(٢) في (ج) : (كُنه ثنائه ومَجدِه) .

(٣) إلىٰ هنا تنتهي نسختا (ب ، ج) .

(٤) في الأصل : (وسلم) .

نَفَسٍ ولَمحةٍ وطَرفةٍ يَطرِفُ بها أهلُ السَّماواتِ والأرضِ ، وكلِّ شيءٍ هو في المُلكِ كائنٌ أو قدْ كانَ ؛ أُقدِّمُ إليكَ بينَ يَدَي ذٰلك كلِّه :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ . . . ﴾ إلىٰ آخِرِه (١) .

و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . . ﴾ إلىٰ آخِرِه (٢) .

و﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . . ﴾ إلىٰ آخِرِه (٣) .

و﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ . . . ﴾ إلىٰ آخِرِه (٤) .

فإنَّه عجيبٌ غريبٌ .

ورَدَ في فَضلِ الصَّلاةِ علىٰ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

عنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ صَلَّىٰ هَٰذِهِ ٱلصَّلَاةَ فِي عُمُرِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً . . لَمْ يَسْأَلْهُ ٱللهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَنْ عَمَلِهِ قَلِيلاً كَانَ أَوْ كَثِيراً ؛ يَقُولُ : ٱللَّهُمَّ ؛ صَلِّ عَلَىٰ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ٱلسَّابقِ لِلْخَلْقِ نُورُهُ ، ٱلرَّحْمَةِ لِلْعَالَمِينَ ظُهُورُهُ ، عَدَدَ مَنْ مَضَىٰ مِنْ خَلْقِكَ ومَنْ بَقِيَ ، ومَنْ سَعِدَ مِنْهُمْ ومَنْ شَقِيَ ، صَلَاةً تَسْتَغْرِقُ ٱلعَدَدَ ، وَتُحيطُ بِٱلْحَدِّ ، صَلَاةً لَا غَايَةَ لَهَا وَلَا انتهَاءَ ، وَلَا أَمَدَ لَهَا وَلَا ٱنْقِضَاءَ ، صَلَاةً دَائِمَةً بِدَوَامِكَ ، صَلَاتَكَ ٱلَّتِي صَلَّيْتَهَا عَلَيْهِ (٥) وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ » (٦) .

---

(١) سورة البقرة : (٢٥٥) .

(٢) سورة آل عمران : (١٨) .

(٣) سورة آل عمران (٢٦) .

(٤) سورة الأعراف (٥٤) .

(٥) في (الأصل) : (بدوامك) .

(٦) لم أقف عليه في شيء من دواوين السُّنَّة المعتمدة ، غيرَ أنه صيغةٌ مشهورةٌ مِن صِيَغ الصلواتِ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وممن ذَكَرها : الشيخُ يوسف النبهاني في « أفضل الصلوات علىٰ سيِّد السادات » (ص ١٩) .

دعاءٌ مُبارَكٌ

اللَّهـمَّ ، يا عـمادَ مَنْ لا عـمادَ لهُ ، ويا ذُخرَ مَنْ لا ذُخرَ لهُ ، ويا كَنزَ مَنْ لا كَنزَ لهُ ، ويا عَضُدَ مَنْ لا عَضُدَ لهُ ، يا عَضُدَ الضُّعفاءِ ، ويا كَنزَ الفقراءِ ، يا مُنقِذَ الغَرقىٰ[1] ، ويا مُنجيَ الهَلكَىٰ ، يا محسنُ يا مُجمِّلُ ، يا مُنعمُ يا مُتفضِّلُ ، أنتَ الَّذي سَجَدَ لكَ سَوادُ اللَّيلِ وضَوءُ النَّهارِ ، وشُعاعُ الشَّمسِ وضِياءُ القَمَرِ ، وحَفِيفُ الشَّجرِ ودَوِيُّ الماءِ .

أنت اللهُ الَّذي لا إلـٰهَ إلَّا هو الواحِدُ الأَحَدُ ، الفَردُ الصَّمَدُ ، الَّذي لم يَلِد ولمْ يُولَد ولمْ يكُن لهُ كُفُواً أحدٌ ؛ أسألُك بحقِّ وَجهِكَ أنْ تنظرَ إلينا بعَينِ عِنايتِكَ ، وأنْ تُعامِلَنا بألطافِكَ ، وأنْ تُنوِّرَ قُلوبَنا بأنوارِ مَعرفتِكَ ، وأنْ تَرزُقَنا رِضاكَ في الدُّنيا والآخِرةِ ، برحمتِكَ يا أَرحمَ الرَّاحِمينَ .

دعاءٌ مُبارَكٌ عَقِبَ القراءةِ

صَدَقتَ ربَّنا ، وبلَّغَتْ رُسُلُكَ ، ونحنُ علىٰ ذٰلكَ مِنَ الشَّاهدينَ .

اللَّهمَّ ؛ اجعلنا مِن شُهداءِ الحقِّ القائمِينَ بالقِسطِ .

اللَّهـمَّ ؛ لا تَفتِنَّا ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[2] .

اللَّهـمَّ ؛ صـلِّ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وعلىٰ آلِ سيِّدِنا محمَّدٍ ، عَددَ إنعامِكَ وإفضالِكَ وسَلِّم ، ورضِيَ اللهُ عن أصحابِ رسولِ اللهِ أجمعينَ .

اللَّهمَّ ؛ صلِّ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ أفضلَ صَلَواتِكَ ، وعلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ وسلِّمْ ، عددَ معلوماتِكَ ومِدادَ كلماتِكَ ، كلَّما ذَكَرَكَ الذَّاكِرونَ ، وغَفَلَ عن ذِكرِكَ الغافِلونَ .

---

(١) رُسمتْ في (الأصل) هٰكذا : (الغرقاء) .

(٢) سورة الأحزاب : (٥٦) .

اللَّهمَّ ؛ صلِّ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ عَبدِكَ ورسولِكَ النَّبيِّ الأمِّيِّ وعلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ وسلِّمْ عَدَدَ ما في السَّماواتِ وما في الأَرضِ وما بينَهما ، وأَجِرِ بلُطفِكَ في أَمرِنا والمُسلمينَ .

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين أَكملَ الحمدِ وأتمَّهُ علىٰ كلِّ حالٍ .

اللَّهمَّ ؛ صلِّ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ عبدِكَ ورسولِكَ النَّبيِّ الأُمِّيِّ ، وعلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ عددَ كلِّ شيءٍ ، واْجْزِ سيِّدَنا محمَّداً ما هو أَهلُهُ كما تحبُّ وتَرضىٰ .

اللَّهمَّ ؛ إنَّكَ لستَ بربٍّ استَحدَثْناكَ ، ولا لكَ شَريكٌ في مُلكِكَ أَعانَكَ علىٰ خَلقِنا ، أنتَ كما تَقولُ ، وفوقَ ما يقولُ القائلُونَ ، نَسألُكَ يا ربَّنا أنْ تُصلِّيَ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آلِ محمَّدٍ ، وأَنْ تُبرِّئَنا ببَراءةٍ منكَ ممَّا نحنُ فيهِ ، إنَّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

يا مُيسِّرَ العَسيرِ ؛ يَسِّر علينا كلَّ عسيرٍ ، فإنَّ تَيسيرَ العَسيرِ عليكَ يسيرٌ .

اللَّهمَّ ، مالِكَ رِقابِ العَوالِمِ كلِّها أَجمعينَ ، لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ العظيمُ الحليمُ ، لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ربُّ العَرشِ العظيمُ ، لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ربُّ السَّماواتِ وربُّ الأرضِ ربُّ العرشِ الكريمُ ، لا إلـٰهَ إلا أنتَ سُبحانَكَ إنِّي كنتُ مِنَ الظَّالمينَ .

يا حيُّ يا قيُّومُ ؛ برحمتِكَ نستغيثُ ، ربِّ ؛ دَارِكْنا برحمتِكَ يا أَرحَمَ الرَّاحمين ، ونجِّنا مِنَ الغمِّ يا مُنجيَ المؤمِنينَ ، وفرِّجْ عنَّا ما نحنُ فيهِ يا مُفرِّجاً عنِ المَكرُوبِينَ .

يا بَرُّ يا رحيمُ ، يا غياثَ المُستغيثِينَ ؛ اكفِنا[1] ونجِّنا ممَّا نخافُ ونحذَرُ ، ومِن كلِّ كَربٍ عظيمٍ ، يا غياثَ المُستغيثِينَ ، يا حابِسَ يَدَيْ إبراهيمَ عن ذَبحِ

---

(١) في الأصل : (واكفنا) .

ابنِهِ ، يا مُقيِّضَ الرَّكبِ ليُوسُفَ في البلدِ القَفرِ وغَيابةِ الجُبِّ ، وجاعلَهُ بعدَ العبوديَّةِ مَلِكاً ، يا مَنْ سَمِعَ الهَمسَ مِن ذِي[1] النُّونِ في ظُلُماتٍ ثلاثٍ ؛ ظُلمةِ قَعرِ البحرِ ، وظُلمةِ اللَّيلِ ، وظُلمةِ بطنِ الحوتِ ، ويا رادَّ حُزنِ يعقوبَ ، يا راحمَ عَبرةِ داوودَ ، يا كاشفَ ضُرِّ أيُّوبَ ، يا مُجيبَ دَعوةِ المُضطرينَ ، يا كاشفَ غمِّ المهمومِينَ ؛ صلِّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آلِ محمَّدٍ ، ونسألُك التَّوفيقَ لِما تحبُّ مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ ، ونسألُكَ الصِّدقَ في حُسنِ التَّوكُّلِ عليكَ ، ونسألُكَ حُسنَ الظنِّ بكَ[2] .

يا مَن يَعلَمُ ما يكونُ قبلَ أنْ يكونَ ، يا مَن أَمرُهُ بينَ الكافِ والنُّونِ ، نسألُكَ بِاسمِكَ المخزونِ المكنونِ ؛ أنْ تَلطُفَ بنا في الحَرَكاتِ والسُّكونِ ، وأنْ تُفرِّجَ همَّنا ، يا مُفرِّجَ همِّ كلِّ محزونٍ ، يا ربَّ العالَمِينَ .

يَـا جَـمِـيـلَ ٱلْـعَـوَائِـدْ[3]	يَـا مَـقْـصُـودُ عِـنْـدَ ٱلـشَّـدَائِـدْ
يَـا مَـنْ فَـضْـلُـهُ وَجُـودُهُ	عَـلَـى ٱلْـعِـبَـادِ عَـائِـدْ
أَنْـتَ ٱلْـمُـقَـدِّرُ وَٱلْـمُـسَهِّـ	ـلُ وَٱلْـمُـيَـسِّـرُ وَٱلْـمُـسَاعِـدْ
يَـسِّـرْ لَـنَـا فَـرَجـاً قَـرِيـ	ـبـاً يَـا إِلَـٰهِي لَا تُـبَـاعِـدْ
كُـنْ رَاحِـمِـي[4] فَـلَـقَـدْ أَيِسْـ	ـتُ مِـنَ ٱلْأَقَـارِبِ وَٱلْأَبَـاعِـدْ[5]
أَنْـتَ ٱلْـمُـعِـزُّ لِـمَـنْ أَطَـا	عَـكَ وَٱلْـمُـذِلُّ لِـكُـلِّ جَاحِـدْ
أَنْـتَ ٱلـرَّقِـيـبُ عَـلَـى ٱلْـعِـبَـا	دِ وَأَنْـتَ فِـي ٱلْـمَـلَـكُـوتِ وَاحِـدْ
إِنِّـي دَعَـوْتُـكَ وَٱلْـهُـمُـو	مُ جُـيُـوشُـهَـا قَـلْـبِـي تُـطَـارِدْ

---

(١) في الأصل : (ذا) .

(٢) كلمة (بك) زيادة تحسن بالسياق .

(٣) العوائدُ : بمعنىٰ أنَّه سبحانه يَعُودُ على المُسلِمِ بجميلِ لُطفِهِ وكَرَمِهِ .

(٤) في الأصل : (والمساعد يا إله كن) ، وقد أقمتُ النَّصَّ مِن مصادرِ التَّخريج .

(٥) في الأصل بعدها : (والأجانب) .

أُفْـــــرُجْ بِـــحَـــوْلِـــكَ كُـــرْبَـــتِـــي　　　يَـــا مَـــنْ لَـــهُ حُـــسْـــنُ ٱلْـــعَـــوَائِـــدْ[1]

يا أرحمَ الرَّاحمين .

اللَّهمَّ ؛ إنَّا نسألُكَ يا أللهُ يا وَدُودُ ، يا ذا العَرشِ المجيدَ ، يا مُبدئُ يا مُعيدُ ، يا فعَّالاً[2] لِما يريدُ ، نسألُكَ بنُورِ وَجهِكَ الَّذي مَلأَ أَركانَ عَرشِكَ ، ونسألُكَ بقُدرَتِكَ الَّتي قَدَرتَ بها علىٰ خَلقِكَ ، وبرَحمتِكَ الَّتي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ ، لا إلٰهَ إلَّا أنتَ سُبحانَكَ إنِّي كنتُ مِنَ الظَّالمينَ .

لا إلٰهَ إلَّا اللهُ العَلِيُّ العظيمُ ، لا إلٰهَ إلَّا اللهُ الحليمُ الكريمُ ، سبحانَ ربِّ السَّماواتِ السَّبعِ وربِّ العرشِ العظيمِ ، سبحانَ الأوَّلِ المُبدي ، سبحانَ الباقي المُغني ، سبحانَ مَنْ تَسمَّىٰ قبلَ أنْ يُسمَّىٰ ، سبحانَ مَنْ علَّمَ آدمَ الأسماءَ ، سبحانَ مَنْ لا يَعلَمُ قَدْرَه غيرُهُ ، سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ ، سبحانَ اللهِ العظيمِ .

يا ربَّنا ، يا سيدَنا ، يا مولانا ، يا إلٰهَنا ؛ عبيدُكَ المقصِّرونَ واقِفونَ ببابِ كَرَمِكَ يَرجُون رحمتَكَ .

يا وَدُودُ ؛ أنتَ الرَّبُّ المَلِكُ المعبودُ ، الموصوفُ بالكَرَمِ والجُودِ ، وَجُودُكَ دلَّنا عليكَ ، وإحسانُك قادَنا إليكَ ، كم لكَ سِوانا وما لنا أحدٌ سِواكَ .

يا أللهُ يا حيُّ يا قيُّومُ ، يا بديعَ السَّماواتِ والأرضِ ، يا ذا الجلالِ والإكرامِ ؛ نسألُكَ حُسنَ الخاتمةِ في عافيةٍ بلا مِحنةٍ ، والمغفرةَ والرِّضا والنَّظرَ إلىٰ وجهِكَ الكريمِ ، لنا ولوالدِينا ولكلِّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ ، الأحياءِ منهم والأمواتِ ، إنَّكَ مجيبُ الدَّعَواتِ .

---

(١) وَرَدتِ الأبياتُ بنحوِها في « المستَطرَف في كلِّ فنٍّ مستظرَف » (ص ٤٨٧) ، ولم ينسُبها لأحدٍ ، وأورَدَها كلٌّ من صاحبِ « نفحة اليَمن » (ص ٦٥) ، وصاحبِ « مجاني الأدب في حدائقِ العرب » (٩/٣) ، ونَسَبَه الأخيرُ للشَّيخِ إسماعيلَ الزَّمزميِّ ، والأبيات من مجزوء الكامل ، عدا البيتين الأولين ، فإنهما مخالفان لوزن سائر الأبيات .

(٢) في الأصل : (فعال) .

اللَّهمَّ ؛ بقُدرتِكَ وعَظمتِكَ وحِلمِكَ وكرمِكَ ، أُلطُفْ بنا فيما قَدَّرتَهُ علينا ، وآمِنَّا في أوطانِنا ، وارحَم ضَعفَنا ، واجبُر كَسرَنا ، وأغنِ فقيرَنا ، واستُرْ عَيبَنا ، وآمِنْ خَوفَنا ، وأرخِصْ أسعارَنا ، وأصلِحْ أحوالَنا ، واكشِفْ عنَّا مِنَ البلايا ما لا يَكشِفُهُ غيرُكَ ، وارضَ عنَّا يا ربَّ العالَمِينَ .

اللَّهمَّ ؛ اكفِنا السُّوءَ ما شئتَ وكيفَ شئتَ ، إنَّكَ على ما تشاءُ قديرٌ يا ربَّ العَالمينَ .

اللَّهمَّ ؛ بفضلِكَ عُمَّنا ، وبلُطفِكَ حُفَّنا ، وبجُودِكَ اغفِرْ لنا ذُنوبَنا ، وتَقَبَّلْ أعمالَنا ، وطَهِّر قُلوبَنا ، واجعَلْنا عندَ الموتِ ناطِقِينَ بالشَّهادةِ ، عالِمِينَ بها ، ناظِرِينَ إليكَ يا ربَّ العالمينَ .

اللَّهمَّ ؛ انصُرْ دِينَ الإسلامِ ، واخذُلْ عُبَّادَ الأصنامِ ، يا مَلِكُ يا قدُّوسُ يا سَلَامُ ، يا ربَّ العالَمِينَ .

اللَّهمَّ ؛ أيِّدِ الإسلامَ ، وأعلِ كلمةَ الإيمانِ ، وأَهلِكْ أعداءَ المسلمينَ ، يا ربَّ العالمينَ .

اللَّهمَّ ؛ اغفِرْ للمسلمينَ ، اللَّهمَّ ؛ اغفِرْ بالقرآنِ العظيمِ لنا ولوالدِينا ، ولمَن علَّمَنا ولوالدَيهِ ، ولمشايخِنا ولإخوانِنا ولأصحابِنا ولأحبابِنا ولأمواتِنا ، وأَثِبنا الجنَّةَ وإيَّاهم والمسلمينَ برحمتِكَ ، واغفِرْ لنا ولهم أجمعينَ بفضلِ بسمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ .

اللَّهمَّ ؛ استجبْ دُعانا يا ربَّ العالَمِينَ ، وصَلَواتُ اللهِ البَرِّ الرَّحيمِ ، والملائكةِ المقرَّبِينَ ، والنَّبيين والصِّدِّيقين ، والشُّهداءِ والصَّالحين ما سبَّحَ لكَ شيءٌ يا ربَّ العَالمين ، على أَشرفِ الخَلقِ سيِّدِنا محمَّدٍ خاتَمِ النَّبيِّينَ ، وسيِّدِ المُرسَلين ، وإمامِ المُتَّقينَ ، ورَسولِ ربِّ العَالمينَ ، الشَّاهِدِ البَشِيرِ ، الدَّاعِي إليكَ بإذنِكَ ، السِّراجِ المُنيرِ ، الَّذي بلَّغَ الرِّسالةَ ، وأدَّى الأمانةَ ، ونصَحَ الأمَّةَ ، وكشَفَ الغُمَّةَ ،

وجاهَدَ في اللهِ حقَّ الجهادِ ، وعَبَدَ ربَّهُ حتَّىٰ أتَاهُ اليَقينُ ، الَّذي جاءَ بالحقِّ المُبينِ ، وأرسلتَهُ رحمةً للعالمينَ ، وعلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ الغُرِّ الميامينِ .

سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عمَّا يصفون ، وسلامٌ على المرسلينَ ، والحمدُ لله ربِّ العالمين .

* * *

من تراث

الإمام أبي حفص عمر السُّهْرَوَرْدِيّ

الرسالة السادسة

رسالة السُّهْرَوَرْدِيّ

إلى العارف بالله تعالى عليّ المُوقاني في الوعظ

مقدّمة
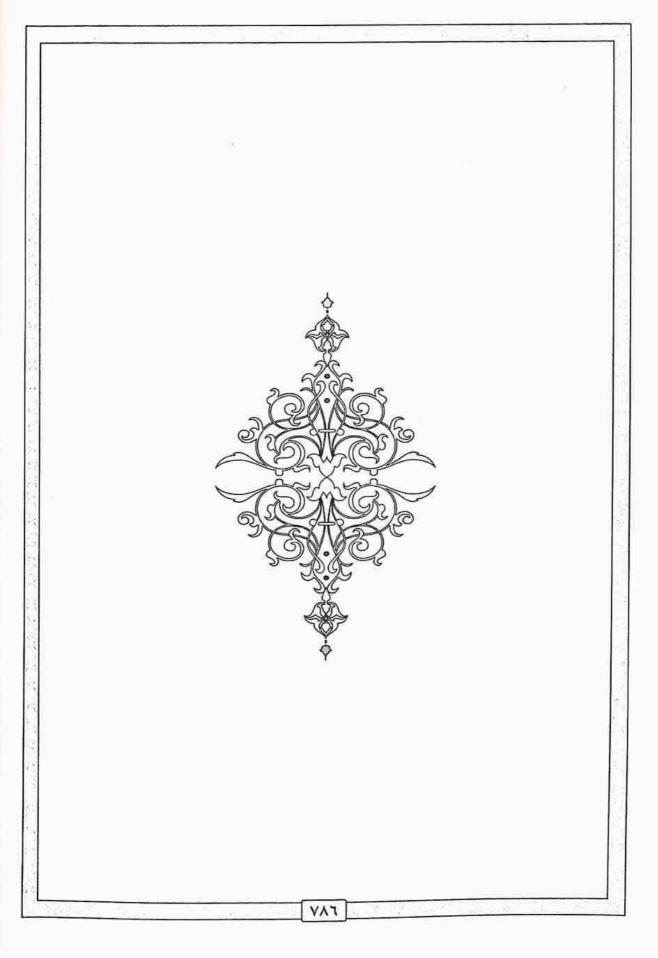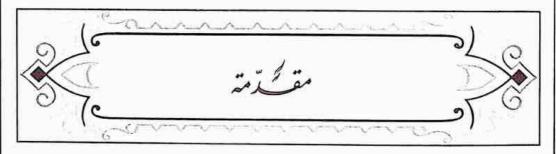
هٰذه الرِّسالةُ عبارةٌ عن وصيَّةٍ مُوجَزةٍ جامعةٍ ، توجَّهَ بها الشيخُ السُّهرورديُّ إلىٰ تلميذِه صفيِّ الدِّينِ عليِّ بنِ الرَّشيدِ إسماعيلَ الموقانيِّ[١] ، بعد أن لازَمَ السُّهرورديَّ مُدَّةً طويلةً وتَخرَّجَ علىٰ يَدَيهِ ، حتَّىٰ لَبِسَ منهُ خِرقةَ التَّصوُّفِ .

رَغِبَ التِّلميذُ في الانصرافِ إلىٰ وطنِه ، فاستأذَنَ في الرُّجوعِ إلىٰ أهلِهِ لِيَقضيَ حقَّ والديهِ ، فأَذِنَ لهُ الشَّيخُ السُّهرورديُّ ، ووجَّهَ إليهِ بهٰذه النَّصيحةِ الرَّقيقةِ الَّتي تَفيضُ بشفقةِ الأُبُوَّةِ الحانيةِ ، ورحمةِ المُعلِّمِ الوافرةِ .

تدورُ الوصيَّةُ حولَ ما يَنبغي أنْ يكونَ عليهِ بعدَ رجوعِهِ إلىٰ أهلِهِ ، وتَتلَخَّصُ في أنْ يَهتَمَّ بأمرِ آخرتِهِ ، ويَغتنِمَ أوقاتَ عُمُرِهِ بشَغلِها بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وألَّا يَركَنَ إلىٰ مُخالطةِ الخَلقِ ، وأن يُقبِلَ علىٰ شأنِهِ ، ولا يَنشَغِلَ بالنَّاسِ ، وأنْ يَدفَعَ عن نفسِهِ شَرَهَ الطَّعامِ والشَّرابِ ، وأنْ يَجتنِبَ كثرةَ اللَّعِبِ والضَّحِكِ ، وأنْ يَتأنَّىٰ في أُمورِهِ ويَصبِرَ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ .

وإذا قُدِّرَ لهُ أنْ يكونَ في صُحبةِ الخَلقِ . . فَليَسألِ اللهَ الحِفظَ مِنَ الفِتنةِ ، وَليُكثِرْ مِنَ الصَّلاةِ والصِّيامِ والخَلوةِ والعُزلةِ .

وأنَّهُ إذا رَأىٰ آثارَ هٰذه الآدابِ في نَفسِهِ . . فإنَّهُ يصيرُ مأذوناً لهُ في أخذِ شرائطِ التَّوبةِ على التَّائبينَ الصَّادقينَ ، فإذا بَلَغَ الأربعِينَ . . صارَ مأذوناً لهُ في أن يُلبِسَ الخِرقةَ لِمَن طَلَبَها وكانَ أهلاً لها[٢] .

---

(١) المُوقانيُّ : بضمِّ الميمِ ، وسُكونِ الواوِ ، في آخرها نونٌ ؛ نسبةٌ إلىٰ (موقان) مدينة بـ (دربند) . ينظر « معجم البلدان » (٥/٢٢٥) ، و« الجواهر المضية في طبقات الحنفية » (٢/٣٤٩) .

(٢) ينظر « أبو حفص عمر السُّهرورديُّ ؛ حياتُه وتصوُّفه » (ص ٧٢) .

وصف النّسخ المعتمدة في التّحقيق
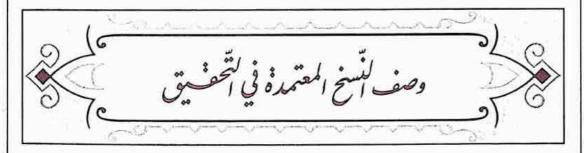
ـ نسخةٌ كُتبَت في القرنِ الثَّامنِ الهجريِّ ضِمنَ مجموعةٍ تحت عُنوانِ « أسئلةٌ سُئِلَ عنها السُّهرَوَرْدِيُّ شِهابُ الدِّينِ وأجوبتُه عليها وجُمَلٌ مِن كلامِه ووصاياه » ، (تصوُّف ٢٩) معهدُ إحياءِ المخطوطاتِ العربيَّةِ بالقاهرةِ مِن الورقةِ (١٧٨ ب) إلى الورقة (١٧٩ب) .

ورمزنا لها بـ : (أ) .

ـ ونسخةٌ مستقلَّةٌ بعنوانِ : « رسالةُ شهابِ السُّهرَوَرْدِيِّ الَّتي كتَبها إلى العارفِ باللهِ تعالىٰ عليِّ الموقانيِّ في الوعظِ » ، الأوراق (٢٤ ـ ٢٦) في المجموعةِ رقم (٢/١٠٢٣ تصوُّف طلعت) بدارِ الكتبِ المصريَّةِ .

ورمزنا لها بـ : (ب) .

وبالإضافةِ إلىٰ مُصوَّرةِ معهدِ المخطوطاتِ العربيَّةِ برقم (٢٩ تصوُّف) مِن مخطوطةِ مكتبةِ أمانة في تركيا المعتمَدةِ في التَّحقيقِ ، توجدُ نسخةٌ أخرىٰ للرِّسالةِ محفوظةٌ في مكتبةِ جامعةِ توبنغن برقم (١٤/٨٩) ، الورقة (١١٦) .

❊ ❊ ❊

نماذج من صور المخطوط

ان احسبتم فهو خير الصابرين

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

قال البت الولد الصالح على احسن الله عاقبته واحكم رابطته
وقد طالت صحبته ولم يتقاضه بالمفارقة الا اقتضاء حق الوالدين
فاذنت له في الرجوع الى وطنه ليقضي حق الوالديه وارجو من الله
الكريم ان يثبتني واياه بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وفي
الآخرة ويحرسنا من الشيطان وجنوده وتسويلات النفس
الامارة بالسوا [illegible] له ان يرجع الى وطنه ان يقبل على حفظ
الاوقات وترك البطالة ويغتنم العزلة والوحدة ويجتهد ان
لا يجعل لنفسه في الدنيا شغلا ولا يهتم تفوت غده ويحقق انه
الهم بالعلوم عقوبة فلذا الهم بالعبادة ورعاية آداب الوقت ولا
يركن الى مخالطة الخلق ظنا منه ان بدا من سعة الاخلاق والمدارات
ولا يتسبب الى استجلاب قلوب الناس اليه واذا
كان في ناحية تخص يشار اليه بالمشيخة او اطعام الطعام له

رسالة السهروردي ﷺ

إلى العارف بالله تعالى علي الموقاني في الوعظ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قالَ : ألبستُ الولدَ الصَّالِحَ صَفِيَّ الدِّينِ عليَّ ابنَ الرَّشيدِ إسماعيلَ خِرقةَ المشايخِ الصُّوفيَّةِ أحسنَ اللهُ عاقِبتَهُ وأحكمَ[1] رابطتَهُ ، وقدْ طالَتْ صُحبتُهُ ولمْ يتقاضَهُ بالمفارَقةِ إلَّا قضاءُ حقِّ الوالدَينِ ؛ فأذِنتُ لهُ في الرُّجوعِ إلىٰ وطَنِهِ ليَقضِيَ حقَّ والدَيهِ .

وأرجُو مِنَ اللهِ الكريمِ أنْ يُثبِّتنِي وإيَّاهُ بالقَولِ الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ، ويَحرُسَنا مِنَ الشَّيطانِ وجُنودِهِ ، وتَسوِيلاتِ النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ .

فأذنتُ لهُ أنْ يرجعَ إلىٰ وَطنِهِ ، وأنْ يُقبلَ علىٰ حفظِ الأوقاتِ ، وتركِ البَطالَةِ ، ويغتَنِمَ العُزلةَ والوَحدَةَ ، ويجتهدَ ألَّا يجعلَ لنفسِهِ في الدُّنيا شُغْلاً ، ولا يهتَمَّ بِقُوتِ غَدٍ .

ويتَحقَّقَ أنَّ الهمَّ بالعُلومِ عقوبةُ قِلَّةِ الهمِّ بالعبادةِ ، ورِعايةِ آدابِ الوقتِ .

ولا يَركنَ إلىٰ مُخالَطةِ الخَلقِ ظنّاً منهُ أنَّ هٰذا مِنْ سَعَةِ الأخلاقِ والمُداراةِ ، ولا يَتَسبَّبَ إلى استِجلابِ قُلوبِ النَّاسِ إليهِ .

وإذا كانَ في ناحيَتِهِ شخصٌ يُشارُ إليهِ بالمشيخةِ ، أو إطعامِ الطَّعامِ ، ولهُ عندَ الخَلقِ قَبولٌ . . لا تَتَقاضُه نفسُهُ أنْ يكونَ مِثلَهُ .

ويترُكَ الدُّنيا علىٰ أربابِها ، والجاهَ علىٰ أربابِه ، ويجتهدَ في دَفعِ آفةِ شَرَهِ الطَّعامِ والشَّهَواتِ عنِ النَّفسِ ؛ فكم مِنْ شَرِهٍ غلبَتْهُ نفسُهُ ومَوَّهَتْ عليهِ ، وأدخلَتْهُ في المداخلِ المكروهَةِ المذمُومَةِ ؛ حتَّىٰ تبلُغَ شَهَواتِها ، وجذَبَتهُ إلىٰ مُخالَطةِ أبناءِ الدُّنيا[2] ، فكانَ ذٰلكَ سَببَ هلاكِهِ بِمَيلِه إلى الدُّنيا .

---

(١) في (أ) : (وقد تأكَّدت) بدل (وأحكمَ) .

(٢) قولُه : « وجذَبته إلىٰ مُخالطَةِ أبناءِ الدُّنيا » ساقطٌ مِن « أ » .

ويَجتَنِبَ كثرةَ المُلاعَبةِ والضَّحِكِ والتَّقرُّبِ إلىٰ مَن لا يَتيَقَّنُ فيهِ التَّقوىٰ والزُّهدَ .

ويَجتَنِبَ الِاستِعجالَ في الأُمورِ ، والقَناعَةَ بمُجَرَّدِ نِيَّةٍ تَحضُرُهُ ؛ حتَّىٰ يخلصَ النِّيَّةَ مِنْ شَوائِبِ النَّفسِ في الأُمورِ بعد حُسنِ النِّيَّةِ ؛ حتَّىٰ يَنكشِفَ وجهُ الصَّوابِ أتَـمَّ وأفضلَ إنْ أَهَّلَهُ اللهُ تعالىٰ لذٰلكَ ؛ لأنَّ دخولَهُ في الأشياءِ باللهِ أَكمَلُ مِن دُخولِهِ فيها للهِ ؛ إذِ الأوَّلُ للمُريدِينَ ، والثَّاني للأبرارِ .

فإذا عاملَ اللهَ تعالىٰ بهـٰذِهِ المُعامَلةِ بالصَّبرِ وبَذلِ المَجهُودِ ؛ فإنْ كانَ مُراداً بالوَحدَةِ إلىٰ آخِرِ العُمُرِ . . فليغتَنِم أوقاتَهُ وساعاتِهِ ، ويَعلَمَ أنَّ اختِيَارَ اللهِ تعالىٰ خيرٌ مِنِ اختيارِهِ لنفسِهِ ، ومَنْ وَجَدَ الحقَّ . . ما ضَيَّعَ شيئاً ، ولا فاتَه شيءٌ ، ومَنْ فاتَهُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ . . فما وَجَدَ شيئاً ، فلا يَتَأَسَّفْ علىٰ ما فاتَه مِن حُظوظِ الدُّنيا وقَبُولِ الخَلقِ والجاهِ ، فليَشكُرِ اللهَ تعالَىٰ حيثُ وَفَّرَ عليهِ أوقاتَهُ ولمْ يَشغَلْهُ بغيرِهِ .

وإنْ كانَ مُراداً بِصُحبَتِهِ الخَلقُ . . فالحقُّ تعالىٰ يجعلُ لهُ في قلوبِ المؤمنينَ وُدّاً ؛ فيُطلَبُ ولا يَطلُبُ ، ويُقصَدُ ولا يَقصِدُ ، ويُزارُ ويُتبرَّكُ بهِ ، وهو يَرَىٰ ذٰلكَ مِنْ فضلِ اللهِ تعالىٰ .

ويسألَ اللهَ الحِفظَ مِنَ الفِتنَةِ ، وأنْ يَحمِلَهُ ذٰلكَ علىٰ خَفِيٍّ مِنَ التَّصَنُّعِ والتَّجَمُّلِ للخَلقِ ، وعندَ ذٰلكَ يُكثِرُ منَ الصَّلاةِ والصِّيامِ والخَلْوةِ والعُزلَةِ ؛ لِيَكتسِبَ مِنْ فضلِ اللهِ ما يُنفِقُ علىٰ مَنْ يَقصِدُهُ ويَطلبُهُ ويَزورُهُ .

وإيَّاهُ ثمَّ إيَّاهُ أنْ يُحَدِّثَ نفسَهُ بهـٰذا ؛ حتَّىٰ يُعطِيَهُ اللهُ تعالَىٰ مِن غَيرِ سابقةِ حديثِ النَّفسِ ، فإذا رأىٰ آثارَ ذٰلكَ ، وقصدَهُ مَنْ يَصحَبُهُ للهِ . . أذِنتُ له أن يُتَوِّبَ (١) ويأخُذَ شَرائِطَ التَّوبةِ على التَّائبِ الصَّادقِ .

---

(١) يمكن قراءتها : (يثوب) .

فإذا بلَغَ أربعينَ سنةً على الَّذي وصَفتُه مِنَ الصُّحبَةِ معَ اللهِ . . أَذِنتُ لهُ أنْ يُلبِسَ الخِرقةَ لِمَنْ طَلبَها ورآهُ أهلاً لذٰلكَ ، واللهُ المأمولُ في التَّوفيقِ لهُ ولنَا [1] .

❁ ❁ ❁

---

(١) إلىٰ هنا مُنتهىٰ وَصِيَّةِ المصنِّفِ رحمه اللهُ تعالىٰ لمريدِه عليٍّ الموقانيِّ في النُّسختَينِ (أ ، ب) . ثُمَّ يَشرَعُ في وصِيَّةٍ أخرَىٰ لا ندري مَن يَعنِي بها ، أو لعلَّها تكونُ مِن عُمومِ وصاياه رحمَه اللهُ تعالىٰ ؛ للسَّالكِ المريدِ طريقَ القَومِ ورُسومَهم ، ضَمَّنها النَّاسِخُ هٰذه الوَصِيَّةَ .

وقالَ في بعضِ وصاياهُ قدَّسَ اللهُ سِرَّهُ العَزيزَ :

أيُّها الطَّالِبُ السَّالِكُ إلىٰ طريقِ اللهِ تعالى ، المُجِدُّ في الطَّلَبِ ؛ أذكُرُ لكَ الحقَّ الواضِحَ الَّذي أتمنَّاه لنَفسِي وأتَشَوَّفُ إليه :

اجعَلْ وقتَكَ كُلَّه جِدّاً لا هَزلَ فيهِ ، وحقّاً لا باطلَ فيهِ ، واقنَعْ مِنَ الدُّنيا بِلُقَيماتٍ يُقِمنَ صُلبَكَ ، وذاكَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ ، فإنْ زِدتَ علىٰ قَدْرِ الضَّرُورَةِ أو تناولْتَ شهوةً . . فطالِبْ نفسَكَ بعَمَلٍ زائدٍ علىٰ وِردِكَ ، ثُمَّ تَناوَلْ ذٰلكَ ، وإنْ تركتَه . . فهو الأَحَبُّ الأَولَىٰ .

ودَعِ الخَلقَ جانباً ، لا تَعرِفْهُم إلَّا في جَلْوَةِ الجماعةِ والجُمُعةِ ، والزَمْ زاوِيتَكَ ، ومهما قَدرتَ ألَّا تَنظُرَ إلى الخَلقِ . . فافعَل ؛ فإنْ نظرتَ إليهم . . فلا تُكلِّمْهُم إلَّا في السَّلامِ والجوابِ ، وجوابُ متكلِّمٍ إنْ كلَّمك بقدْرِ الحاجةِ ، ولا تَزِد علىٰ قَدْرِ الحاجةِ لفظةً واحدةً .

وإذا طَرَقَتكَ السَّآمةُ في زاوِيتِكَ . . فاخرُجْ إلىٰ بعضِ الصَّحارَىٰ والمقابرِ ، أو تَردَّدْ بقُربِ زاوِيتِكَ ؛ ذاكراً للهِ تعالىٰ في تَردُّدِك ، أو تالِياً لكلامِ اللهِ تعالَىٰ ، ودَعِ التَّفكُّرَ في العُلومِ ، واستَبدِلْ بذِكرِ اللهِ وكلامِهِ عن كلِّ شيءٍ .

ومَهما طَرَقَتْكَ سآمةٌ مِنَ الصَّلاةِ والتِّلاوةِ . . عُد إلىٰ ذِكرِ اللهِ تعالىٰ ، واجتَهِدْ في خُلُوِّ قلبِكَ عن كلِّ شيءٍ سِوى اللهِ تعالىٰ ، واحرِقْ حديثَ النَّفسِ بدوامِ ذِكرِ القَلبِ .

ودَعْ عنكَ الفِكرَ فيما كانَ وما يكونُ ، وأَكثِرِ الضَّراعةَ إلى اللهِ تعالىٰ في أنْ يَرزُقَكَ عِلماً بِصِفَاتِ نفسِكَ وأخلاقِها .

واجتَهِدْ أنْ تكونَ مُعتدِلاً بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ .

ومَهما وجدتَ قَبضاً . . فَفتِّش ما سببُهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يُعرِّفُكَ سَبَبَ قَبضِكَ ، ويُعرِّفُك طريقَ الإزالةِ والعَودِ إلىٰ أوطانِ الأُنسِ والبَسطِ .

واجعَلْ تَناوُلَكَ الطَّعامَ مُقتَرِناً بالنَّظَرِ ، واغسِلْ يدكَ قبلَ الطَّعامِ وبعدَهُ .

ومَهما تحقَّقتَ بالزُّهدِ في الدُّنيا ، وقَصُرَ أمَلُكَ بكثرةِ ذِكرِ الموتِ . . قَلَّت وَسوَسَتُكَ وحديثُ النَّفسِ .

وكُنْ حاضراً في رُكوعِكَ وسُجودِكَ ، واطلُبِ الرَّوحَ والأُنسَ في الرُّكوعِ والسُّجودِ ، وكُنْ في قَيدِ تَكمِيلِ الصَّلاةِ بالحُضورِ والخُشوعِ ، لا في قَيدِ الإكثارِ مِنَ العَدَدِ .

فاسمَع وَصِيَّتِي ، واقبَلْ نصيحَتِي مِنِّي .

والحمد لله رب العالمين

تمّ

من تراث
الإمامِ أبي حفصٍ عُمر السُّهْرَوَرْدِيّ
الرسالة السابعة

رسالة السهروردي
إلى الإمامِ فخرِ الدينِ الرازيّ

مقدّمة
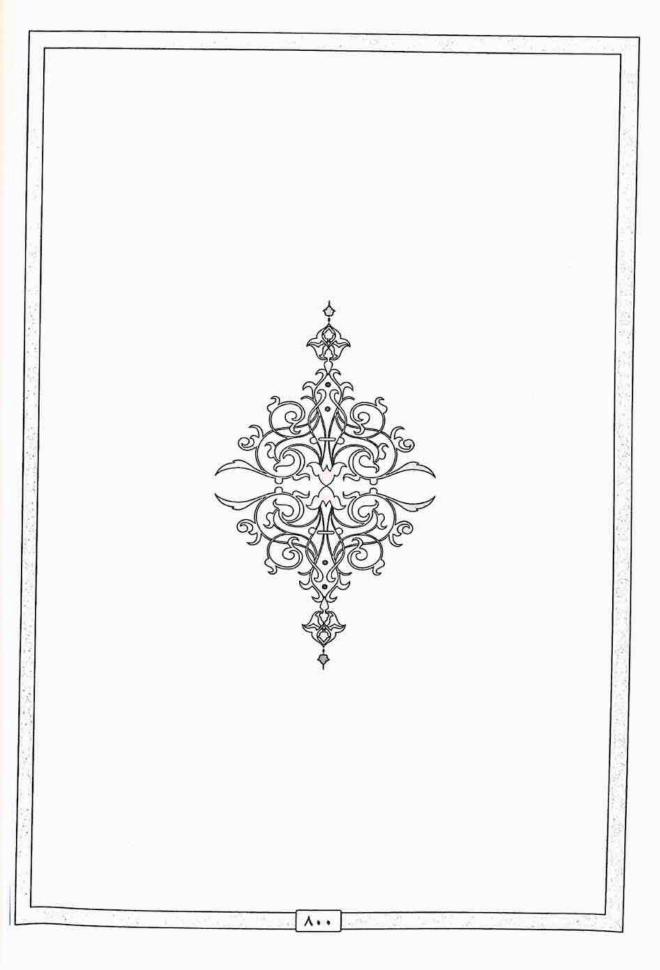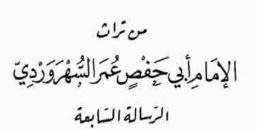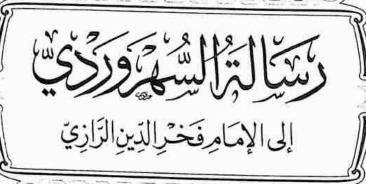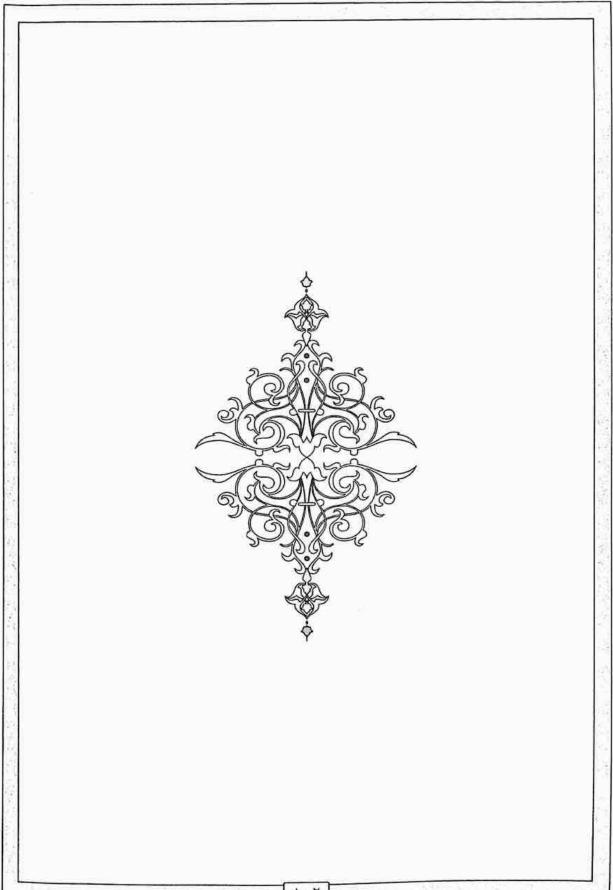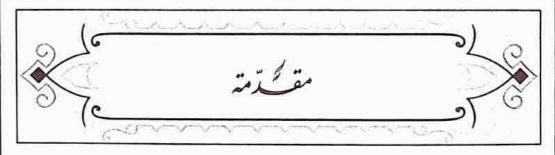
عَرَفَ الأدبُ العربيُّ فنّاً مِنْ فنونِ الكتابةِ الأدبيَّةِ يُعرَفُ بالرِّسائلِ الإخوانيَّةِ [1] ؛ وهي نوعٌ مِنَ الكتابةِ النَّثريَّةِ يدورُ حولَ التَّعبيرِ عن العواطفِ الإنسانيَّةِ المتبادلةِ بينَ الأصدقاءِ ، والَّتي تُصوِّرُ مَشاعِرَهُم في المواقفِ المُختلِفةِ ؛ كالتَّهنئةِ بالمُناسباتِ ، والشُّكرِ علىٰ إسداءِ معروفٍ ، أو التَّعزيةِ في فقدِ حبيبٍ ، أو الاعتذارِ مِن صدورِ هَفوةٍ ، ونحوِ ذٰلكَ مِن الأغراضِ .

ويدخُلُ في بابِ الرَّسائلِ الإخوانيَّةِ : الرَّسائلُ المتبادلةُ بينَ العلماءِ في المناسباتِ المختلفةِ ، ومَيزةُ ما يَكتُبُهُ العلماءُ بعضُهُم إلىٰ بعضٍ شَرَفُ ما تشتملُ عليهِ هٰذه الرَّسائلُ مِنْ موضوعاتٍ ؛ كبذلِ النُّصحِ ، وصدقِ المشورةِ ، والتَّبصيرِ بمواقعِ الرُّشدِ ، وشَحذِ العزائمِ على الأمرِ بالمعروفِ ، والتَّرغيبِ في فِعلِ الخيرِ ، والحثِّ علىٰ مُلازمةِ العِلمِ ، والتَّذكيرِ بتقوى اللهِ تعالىٰ ، عِلاوةً علىٰ رُقِيِّ أسلوبِها وفَخامةِ عباراتِها ، وما تَضُمُّهُ مِنْ مُتخيَّرِ الألفاظِ ومُنتَخَلِ الأساليبِ .

وهٰذه الرِّسالةُ الموجزةُ الَّتي نُقدِّمُ لها . . كَتَبَها الشَّيخُ العارفُ شهابُ الدِّينِ السُّهرورديُّ ، ووجَّهَها إلىٰ شيخِ المُتكلِّمينَ والأصوليِّين في زمانِه : الإمامِ فخرِ الدِّينِ الرَّازيِّ (ت ٦٠٦ هـ) ، تُلمَحُ مِنْ كلماتِها مَناسمُ الوُدِّ والشَّفقةِ ، وتُترجِمُ مَعانيها عن توقيرٍ وإجلالٍ مِن المُرسِلِ للمُرسَلِ إليهِ ، استَهلَّها السُّهرورديُّ بتذكيرِ الإمامِ الرَّازيِّ بنِعَمِ اللهِ العظيمةِ الَّتي مَنَحَها ، وفي هٰذا التَّذكيرِ تنبيهٌ بأنَّ النِّعَمَ ينبغي أن تُقابَلَ بالشُّكرِ .

---

(١) وتُعرَف أيضاً بالرسائل الأهليَّة ، ينظر : « جواهرُ الأدب في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب » لأحمد الهاشمي (٢/٤٥) .

ثـمَّ وجَّـهَ السُّـهروردِيُّ المُتعلِّمِينَ مِـنْ أربـابِ الدِّيانـاتِ إلىٰ أنْ يُمِدُّوا الشَّيخَ الرَّازيَّ بصالحِ الدَّعَواتِ ؛ ليُصفِّيَ اللهُ دِينَهُ وعِلمَهُ بحقائقِ التَّقوىٰ ومَصدرِها مِنْ شوائبِ الهَوَىٰ ، وفي هـٰذا التَّوجيهِ إشارةٌ إلىٰ ما يَنبغي أنْ يكونَ عليه المُرسَلُ إليهِ مِنْ تَصفيةِ العِلمِ مِنْ كُدُوراتِ الهَوَىٰ وحظوظِ النَّفسِ ؛ لِيَكونَ أهلاً لمَدَدِ اللهِ تعالىٰ بثباتِ العِلمِ وزيادتِهِ والانتفاعِ بهِ ، وعلىٰ هـٰذه الإشارةِ يدورُ مضمونُ الرِّسالةِ .

وصف النّسخة المعتمدة في التّحقيق
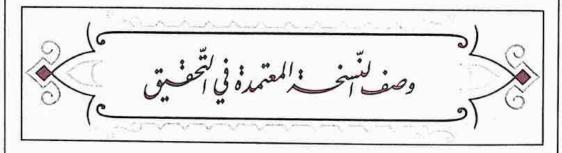
مخطوطٌ بمكتبةِ السُّليمانيَّةِ ، بإستانبول ، رقم المجموعة بغداتلي وهبي (٢٠٢٣٠ ـ ١٥) ، الأوراق (٩٦ ـ ٩٨) .

وعِلاوةً على النُّسخةِ المعتمَدةِ في تَحقِيقِنا . . توجدُ نسخةٌ أخرىٰ بمَكتبةِ جامعةِ توبنغن برقم (٨/٨٩) ، (١٠١أ ـ ١٠٢أ) .

نماذج من صور المخطوط

العقل والامر الاعتباري الموجود في النفس المعدوم في الاعيان كيف يكون كاسبا للحاسب موجودة في الاعيان ثم الاحراق الحاصل من الكثرة لا لحركة حرارة النار فان حرارة النار موجودة في الاعيان ثم الاحراق الحاصل من الحرارة ليس هو امرا وجوديا بل انما هو امر عدمي وستعرف تفصيل هذا الكلام من بعد هذا الفصل وايضا فان كان وجوب آ الذي نظن انه سبب لوجوب ب موجودا في الاعيان لكان ذات آ التي هي موضوعه مدخل في تتميم الوجوب لان الفاعل المفتقر في وجوده الى المادة لا يكون له فعل الا بمشاركة المادة ومادة وجوب آ هي ذات آ فيكون لذات آ شركة في تتميم الوجوب ويكون للامر منا الذي هو الامكان والعدم ايضا شركة وهذا محال فقد بان لك ترجيح الذوات والماهيات انما هي من ذات المبدا الاول الحق جل جلاله على ترتيب وفي سلسلة نظام وهي كلها خيرات لا شر فيها بوجه من الوجوه انما الشر الذي هو العدم او لازمه يحصل من ضرورة التضاد على ما قد عرفت تفصيله تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا

ولا حول ولا قوة الا بالله وحده

حسبنا ونعم المعين م

لذات م

رسالة الشيخ الكبير شهاب الدين

هو الموهوب

بسم الله الرحمن الرحيم

نسخة كتاب كتبه الشيخ العالم العامل الفاضل الكامل شيخ الوقت قطب العصر شهاب الحق والدين ابو عبد الله عمر بن محمد السهروردي قدس الله سره الى الامام الفاضل فخر الملة والدين الرازي رحمة الله عليه وهي من قلائد الكتب الآتية

ثم تعين في الزمان لنشر العلم فقد عظمت نعمة الله لديه وينبغي للمخلصين للمذاق من ارباب الديانات ان يمدوه بالدعاء الصالح ليصفي الله ذهنه ويوقظه لحقائق

دلايل البرهان بنور العيان فالبرهان للافكار والعيان للاسرار فلا برهان
دكالله عيانا بل عيانه بل الاتباع لسعيها آثر الملك فانه تعالى برعا الباطن الصافي
الصدوري الكبري الفخري امدادا قدسيه ونفخ به ووسع له باب التنصل
من الاستغفار حتى لا يزال يرتقي في معارج الاعتدا الى ان يتوغل بحبوحه
الاسرار وينفخ في قوالب علومه روح الاجابه ثم يغيب تحت استار حجب
الانابه عن الابصار فلا يدركه الا كل سالك لطريق الحق سبحانه سيار مدير مرة
من الزمان كلي القلب متطلعا الى مواصله المجلس العالي زاده الله تعالى علا فيا لكمال
السيد العالم شرف الدين المهاجر اليماني ادام الله جماله المرجوه اماله تجدد ذلك
التطلع فصليت ركعتي الاستخارة وتطلعت الى ما ياتي به القدر فتحررت هذه الكلمات
وادخر الله تعالى ان سارك في هذه
المواصله حسبنا الله نعم
الوكيل م

بسم الله الرحمن الرحيم

في سورة البقرة من الراغب قوله عز وجل الم اختلف الناس في حروف
التي هي في اوايل السور فقالوا فيها اقوالا منها مراد باللفظ وغير مناف
على السر لكن بعضها مفهوم بلا واسطة وبعضها مفهوم بواسطة فنقول وبالله
التوفيق لنا المفهوم من هذه الحروف الاظهر بالواسطة ما ذهب اليه المحققون
من اهل اللغه كالفرا وقطرب وهو قول ابن عباس وكثير من التابعين من بعد
دعوان هذه الحروف لما كانت عنصر الكلام ومادته التي يتركب منها بين تعالى
ان هذا الكتاب من هذه الحروف التي اصلها عندكم تنبيها بالم على اعجازه وانه
لو كان من عند البشر لما عجزتم مع تظاهركم عن معارضته واما اختصاص هذه

رسالة السهروردي

إلى الإمام فخر الدين الرازي

رسالة الشيخ الكبير شهاب الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نسخةُ كتابِ كتبَهُ الشَّيخُ العالمُ العاملُ الفاضلُ الكاملُ ، شيخُ الوقتِ قُطبُ العصرِ ضِياءُ الحقِّ والدِّينِ ، أبو عبدِ اللهِ عمرُ بنُ مُحَمَّدٍ السُّهرَوَرْدِيُّ قدَّسَ اللهُ سِرَّه . . إلى الإمامِ الفاضلِ فخرِ الملَّةِ والدِّينِ الرَّازِيِّ رحمةُ اللهِ عليهِ ، وهي مِنْ قلائدِ الكُتُبِ الإلـٰهيَّةِ .

مَنْ تعينَ في الزَّمانِ لنَشرِ العلمِ . . لقدْ عَظُمَتْ نِعمَةُ اللهِ تعالَىٰ لديهِ[1] ، وينبَغِي للمُتَعلِّمِينَ الحُذَّاقِ مِنْ أربابِ الدِّياناتِ أنْ يُمِدُّوهُ بالدُّعاءِ الصَّالحِ ؛ ليُصَفِّيَ اللهُ دِينَهُ وعِلمَهُ بحقائقِ التَّقوىٰ ، ومَصدرَهُ مِنْ شَوائبِ الهوىٰ ؛ إذْ قطرةٌ مِنَ الهوَىٰ تُكدِّرُ بحراً مِنَ العلمِ ، ونَوازِعُ الهوَى المركُوزَةُ في النُّفوسِ الإنسيَّةِ ؛ المستَصحِبةُ إيَّاها مِنْ مَحتِدِها مِنَ العالَمِ السُّفلِيِّ ، إذا شَابَتِ العلمَ . . حَطَّتْهُ مِنْ أَوْجِهِ ، وفَرَّقَتْهُ في مَهامِهِ[2] الأفكارِ ؛ الَّتي هي مِنْ نتائجِ النُّفوسِ الجُزئيَّةِ المتَسوِّرةِ إلىٰ ذُروَةِ العلمِ بما يُحاوِلُ ممَّنِ استفادَ قُوَّتَها فيهِ .

وإذا صَفَتْ مَصادِرُ العلمِ ومَوارِدُهُ مِنَ الهوَىٰ . . أمَدَّته كلِماتُ اللهِ تعالَى الَّتي تَنفَدُ البِحارُ دونَ نَفادِها ، ويَبقَى العِلمُ علىٰ كمالِ قُوَّتِهِ لا يُضعِفُهُ تـرَدُّدُهُ في تَجاوِيفِ الأفكارِ ؛ فتُجَزِّئُهُ الأفكارُ وتُشعِّبُهُ ، وبِقُوَّتِهِ تَتلَقَّحُ الفُهومُ المستقيمةُ المِزاجِ ؛ إذْ ما تَجزَّأَ مِنَ العُلومِ وتَشعَّبَ هو المطلوبُ الثَّاني ، لا المطلوبُ الأوَّلُ ، والعِنايَةُ بالبِناءِ دونَ إحكامِ المباني . . عُدولٌ عَنِ العَدلِ .

---

(١) يعني به : الفخرَ الرَّازِيَّ رحمه اللهُ .

(٢) المهامِهُ : جمع مَهمَهةٍ ؛ المفازَةُ البَعيدةُ ، والبلدُ المقفِرُ ، كنايةٌ عنِ البُعدِ . انظرِ « القاموس » (ص ١٢٣٥) .

وهٰذه رُتبَةُ الرَّاسِخِينَ في العلمِ ، لا المُرتَسِمِينَ بصُورَةِ العلمِ المتَشعِّبِ المتَجَزّئِ ، وهم وُرَّاثُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ ، كَرَّ عَمَلُهم على العِلمِ ، وكرَّ عِلمُهُم على العملِ ، وتَناوَبَ العِلمُ والعملُ فيهِم ؛ حتَّىٰ صَفَتْ أعمالُهُم ولَطُفَتْ ؛ فصارَتْ مُسامَراتٍ سِرِّيَّةً ، ومُحاوَراتٍ رُوحِيَّةً ، وتَشكَّلتِ العلومُ بالأعمالِ لقُوَّةِ فِعلِها وسِرايَتِها إلى الِاستِعداداتِ .

وفي اتِّباعِ الهوَىٰ إخلادٌ إلى الأرضِ ، قالَ اللهُ تعالَىٰ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[1] .

فتطهيرُ نُورِ الفِطرَةِ عن رَذائلِ التَّخيُّلاتِ ، والِارتِهانِ مِنَ المرسُوماتِ الَّتي اسْتَرَقَّتِ العُقولَ الصِّغارَ المداهِنَةَ للنُّفوسِ القاصِرةِ . . هو مِنْ شأنِ البالغينَ مِنَ الرِّجالِ ؛ فتَصحَبُ نفوسُهُمُ الطَّاهِرَةُ الملأَ الأَعلَىٰ ، فيسرَحُ في مَيادينِ[2] القُدْسِ .

فالنَّزاهَةَ النَّزاهَةَ مِنْ مَحبَّةِ حُطامِ الدُّنيا ، والفِرارَ الفِرارَ مِن استحلاءِ نظرِ الخَلقِ وعقائدِهِم ؛ فتلكَ مَصارِعُ الأَدوانِ مِنَ الرِّجالِ ، فطالِبُ الرَّفيقِ الأعلَىٰ مُكلَّمٌ مُحَدَّثٌ التَّعريفاتُ الإلٰهيَّةُ وارِدَةٌ عليهِ ؛ لمكانِ علمِهِ بِصُوَرِ الِابتلاءِ ، واستيصالِهِ مَشاقَّ الِابتلاءِ بصِدقِ الِالتجاءِ ، وكثرَةِ وُلُوجِهِ علىٰ حَريمِ القُربِ الإلٰهيِّ ، وانغماسِهِ معَ الأنفاسِ في بِحارِ عَينِ اليَقينِ ، وغَسلِهِ كَثِيفَ دلائلِ البُرهانِ بنُورِ العِيانِ .

فالبُرهانُ للأفكارِ ، والعِيانُ للأسرارِ ، فلا بُرهانَ دَلالَةٍ ، ولا بُرهانَ عِلَّةٍ ؛ بلِ اتِّباعٌ لسُفَهاءَ مِنَ الملَّةِ ؛ فإنَّهُ تعالَىٰ يَزيدُ الباطِنَ الصَّافيَ الصَّدرِيَّ الكبرِيَّ الفَخرِيَّ[3] أمداداً قُدُسيَّةً ، ونفخَ بهِ ووَسَّعَ لهُ بابَ التَّفضُّلِ مِنَ الِاستغفارِ ؛ حتَّىٰ لا يزالَ يَرتقِي في مَعارِجِ الِاعتِذارِ ، إلىٰ أنْ يَتوغَّلَ بُحبُوحةَ الأسرارِ ، وينفخَ في

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٦) .

(٢) في الأصلِ : (ميادن) بحذفِ الياءِ .

(٣) يعني بها : الفخرَ الرَّازيَّ . والصَّدري : نسبة للصَّدرِ وكناية عن كونِه صدرَ المجالسِ ، والكبري : مِنَ الكِبَرِ لكبيرِ قدرِه ، والفخري : مِنَ الفَخرِ والَّذي هو لقبُه ، ضمَّنه ألفاظَ المدحِ .

قَوالبِ عُلومِهِ رُوحُ الإجابةِ ، ثمَّ يَغيبُ تحتَ أستارِ حُجُبِ الإنابَةِ عنِ الأبصارِ ، فلا يُدرِكُهُ إلَّا كُلُّ سالكٍ لطريقِ الحقِّ سبحانَهُ ، سيَّارٌ مُدبَّرٌ سِرُّهُ مِنَ الزَّمانِ ، كُلِّيَّ القلبِ مُتطلِّعاً إلىٰ مُواصَلَةِ المجلِسِ العَالي زادَهُ اللهُ تعالَىٰ عُلاً .

فبالتماسِ السَّيِّدِ العالمِ شَرَفِ الدِّينِ المهاجِرِ إليهِ الشَّادِّ رِحالَهُ ، الموجَّهةِ آمالُهُ . . تَجدَّدَ ذٰلكَ التَّطلُّعُ ، فصلَّيتُ رَكعتَيِ الاستخارَةِ ، وتَطَلَّعتُ إلىٰ ما يأتي بهِ القَدَرُ ، فَتَحَرَّرَت هٰذه الكلِماتُ ، وأرجُو اللهَ تعالىٰ أن يُبارِكَ في هٰذه المواصَلَةِ .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

تمّ

من تراث

الإمَامِ أبي حَفْصٍ عُمَرَ السُّهْرَوَرْدِيِّ

الرّسالة الثّامنة

وَصِيَّةُ

الشّيخ شِهَابِ الدّينِ عُمَرَ بْنِ محمّدٍ السُّهْرَوَرْدِيِّ لِوَلَدِهِ عِمَادِ الدّين

مقدمة
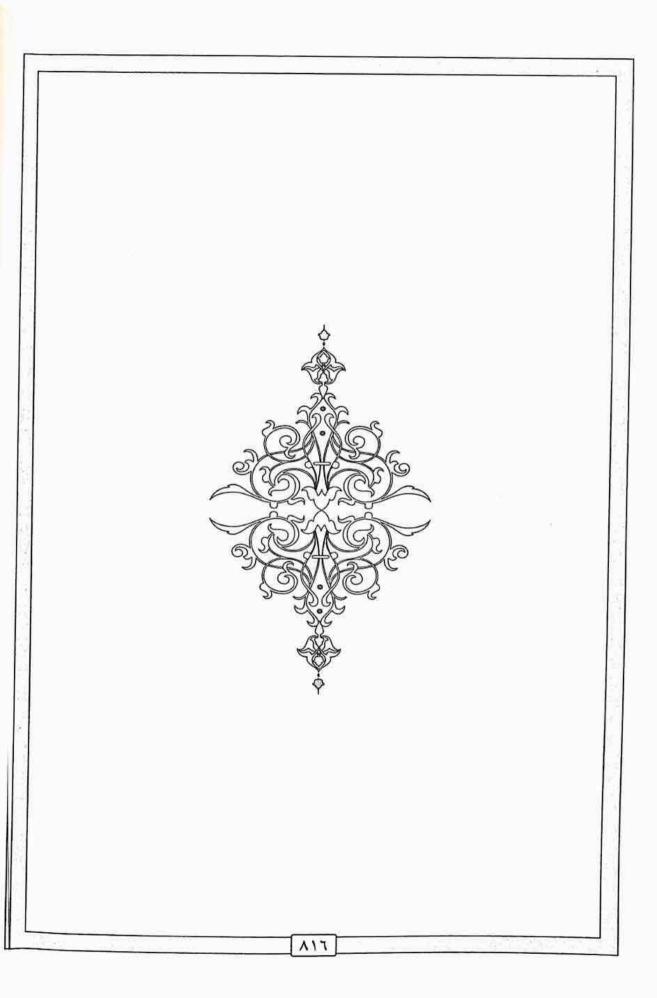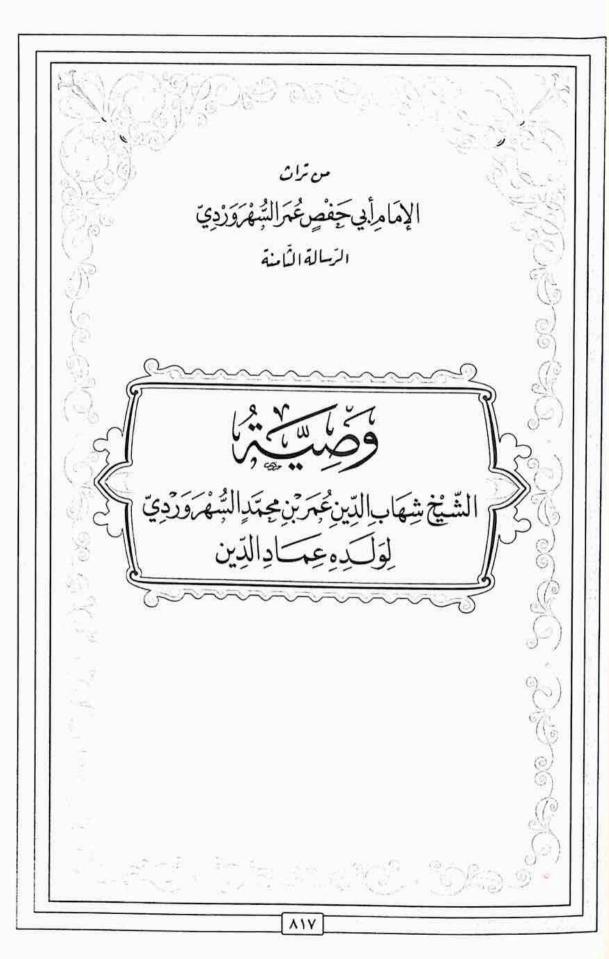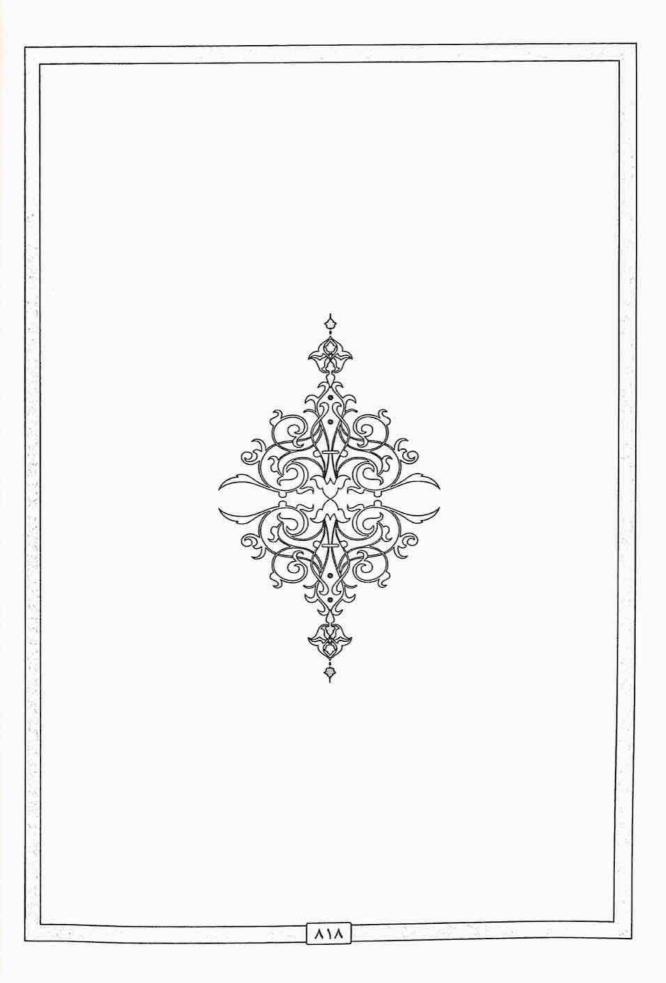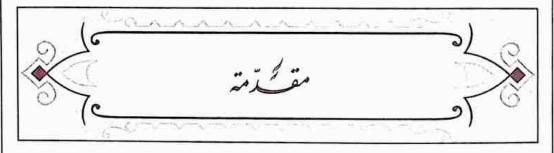
الوصيَّةُ الحكيمةُ نمطٌ باهرٌ مِنْ أنماطِ القولِ الجميلِ ؛ فهي تصدُرُ عن نَفْسٍ طيِّبةٍ مُحبَّةٍ للخيرِ ، وتتوجَّهُ إلىٰ نَفْسٍ أخرىٰ تحتاجُ إلىٰ إرشادٍ وتوجيهٍ ، مُعتمِدةً في الأساسِ علىٰ علاقةِ الوُدِّ والتراحُمِ بينَ الناصحِ والمنصوحِ لهُ ، والتي تتمثَّلُ غالباً في عَلاقةِ الأبوَّةِ والأمومةِ ، والصُّحبةِ والتلمَذةِ .

وقدْ حَفَلَ القرآنُ الكريمُ بالعديدِ مِنَ الوَصَايا الإلـٰهيَّةِ التي علَّمَ اللهُ فيها عبادَهُ ما ينفعُهُم ، وأرشَدَهُم مِن خِلالِها إلىٰ ما يُسعِدُهُم في دُنياهُم ويُنجّيهِم في أُخراهُم ، وكانَ مِن أبرَزِ ما وصَّى اللهُ تعالى الأوَّلينَ والآخِرينَ بهِ في كتابه : تَقوى اللهِ تعالىٰ ؛ حيثُ قالَ جَلَّ شأنُه : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ (١) .

وأوصَىٰ تَبارَكَ وتَعالَىٰ بالوالدَيْنِ فقالَ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ (٢) ، وقالَ عزَّ اسمُهُ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾ (٣) .

وكانَ لأنبياءِ اللهِ ورُسلِهِ نصيبُهُم مِنْ توجيهِ الوَصايا والإرشاداتِ لأُمَمِهِم وأهليهِم ؛ فأوصَىٰ إبراهيمُ الخليلُ عليهِ السلامُ بنيهِ كما حَكَى القرآنُ الكريمُ : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النساء : (١٣١) .

(٢) سورة العنكبوت : (٨) .

(٣) سورة الأحقاف : (١٥) .

(٤) سورة البقرة : (١٣٠ ـ ١٣٢) .

وزَخَرَتْ كتبُ السُّنَّةِ الشريفةِ بالكثيرِ مِن وَصَايا النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ في مَواطِنَ مُتعدِّدةٍ ؛ فكثيراً ما كانَ يأتي الصَّحابةُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يسألونَهُ أنْ يُوصِيَهُم ؛ التماساً لبَرَكةِ نصيحتِهِ ورأيِهِ ، وهو أنصَحُ الخلقِ وأرحَمُهم ؛ وذٰلكَ بقولِهِم : (أَوْصِنا) ، فكانَ يُوصيهِم بما ينفعُهُم في دِينِهِم ودُنياهُم ، فيقولُ : « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللهِ »[1] ، وتارةً يقولُ : « ٱتَّقِ ٱللهَ ، وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ شَيْئاً »[2] ، وتارةً يقولُ : « لَا تَغضَبْ »[3] ، وأوصَى ابنتَه فاطمةَ رَضِيَ اللهُ عنها ؛ فقالَ : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ؛ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ ٱلنَّارِ ، فَإِنِّي وَٱللهِ مَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً »[4] .

وكانتِ الوَصَايا والنصائحُ النبويَّةُ تختلفُ باختلافِ أحوالِ المنصوحِينَ .

ومِن أصدَقِ الوَصَايا النافعةِ التي سارَتْ علىٰ ذٰلكَ النَّهْجِ الحكيمِ : تلكَ الوَصَايا التي يَتوجَّهُ بها الآباءُ إلىٰ أبنائِهِم ؛ فإنَّهُ لا أنصَحَ للوَلَدِ مِن والدِهِ ؛ إذْ هي نصائحُ وتوجيهاتٌ خالصةٌ لا يبغي قائلُها مِنْ ورائِها إلَّا نفعَ المنصوحِ لهُ ؛ فكيفَ إذا كانَ هٰذا المنصوحُ فِلْذَةَ الكبدِ وثمرةَ الفؤادِ ؟!

وهي أيضاً وَصَايا لا تُلمَحُ فيها مظاهرُ التجمُّلِ ، وتجيءُ أبعدَ ما تكونُ عن الرِّياءِ والسُّمْعةِ ، وهي كذٰلكَ تَحمِلُ خُلاصَةً وافيةً لتجارِبَ كثيرةٍ مَرَّ بها الآباءُ في حياتِهِم ؛ عِلاوةً علىٰ ما تحملُه مِن مظاهرِ الشَّفَقةِ الفِطريَّةِ التي جَبَلَ اللهُ عليها الآباءَ نحوَ أبنائِهِم ، مِمَّا يَسمَحُ لها بأنْ تتنزَّلَ علىٰ قلوبِ المنصوحِينَ مِنَ الأبناءِ بَرْداً وسلاماً ، وعافيةً وطُمأنينةً .

---

(١) أخرجه : أبو داوود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث سيدنا العِرْباض بن سارية رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد في « مسنده » (٢٠٩٠٨) من حديث سيدنا جابر بن سليم الجهيمي رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث سيدنا أبي هريرة ، رضي الله عنه .

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٤) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

وقدْ أمدَّنا تراثُنا الإسلاميُّ بكثيرٍ مِنْ هٰذا النَّمَطِ الفريدِ مِن الوصايا المُخلِصةِ ، والتي كانَ لها عظيمُ الأَثَرِ في توجيهِ النَّشْءِ ، وإرشادِهم إلىٰ ما ينفعُهم في دِينِهم ودُنياهُم .

ومِمَّا حَفِظَه لنا التاريخُ مِن مَفاخِرِ وَصَايا الآباءِ لأبنائهم : ما أوصَىٰ بهِ الإمامُ الجليلُ أبو الوليدِ سُليمانُ بنُ خَلَفٍ الباجيُّ (ت ٤٧٤ هـ) ، فقدْ كَتَبَ وصيَّةً رقيقةً بعنوان : « النَّصيحةُ الوَلَديَّةُ » ، نَصَحَ فيها ولدَيْهِ أبا الحَسَنِ[١] ، وأبا القاسِمِ (ت ٤٩٣ هـ) ، وقد ناهَزَا الاحتلامَ ، وأوصىٰ فيها بالتمسُّكِ بالإيمانِ ، والعملِ بالقرآنِ ، وملازمةِ طاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وحبِّ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم ، وتوقيرِ الوالدَينِ ، والحِرصِ على العِلمِ ، ونحوِ ذٰلكَ مِن النَّصائحِ النَّافعةِ[٢] .

وكتبَ الإمامُ أبو الفرجِ عبدُ الرَّحمٰنِ ابنُ الجوزيِّ (ت ٥٩٧ هـ) وصيَّةً مُفعَمةً بالحبِّ والإشفاقِ لولدِه أبي القاسمِ بدرِ الدِّينِ عليٍّ (ت ٦٣٠ هـ) ، واسمُها : « لَفتَةُ الكَبِدِ إلىٰ نصيحةِ الوَلَدِ » ، أوصاهُ فيها بالحِرصِ على العِلمِ وتحصيلِهِ ، وذٰلكَ بعدَ أنْ رأىٰ فيه تَوانِياً عن الجِدِّ في طَلَبِهِ[٣] .

وكتبَ حُجَّةُ الإسلامِ الإمامُ أبو حامدٍ محمدُ بنُ محمدٍ الغزاليُّ (ت ٥٠٥ هـ) وصيَّتَه الرائقةَ : « أيُّها الولدُ » ، وهي وإنْ لمْ تكُن موجَّهةً لابنِهِ الَّذي مِنْ صُلبِهِ ، بلْ لأحدِ طَلَبَتِه الَّذين كانوا يُلازمونه ؛ ولٰكنَّهُ نَصَحَ فيها نصيحةَ الوالدِ لولدِهِ ؛ إشفاقاً وحبّاً ؛ فميَّزَ لهُ فيها العلومَ النافعةَ لِيَشتغِلَ بها ويَحرِصَ عليها ، وبدأَها

---

(١) مات صغيراً في حياة أبيه .

(٢) من طبعاتها : نشرة دار ابن حزم ببيروت ، الطبعة الأولىٰ (١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م) ، بتحقيق إبراهيم باجس عبد المجيد .

(٣) طبع عدة مرات ، منها طبعة مكتبة الإمام البخاري بالإسماعيلية ، بتحقيق أشرف عبد المقصود ، الطبعة الأولىٰ (١٤١٢ هـ) .

الغزاليُّ بقولِه : (اعلَم أيُّها الولدُ المحبُّ العزيزُ أطالَ اللهُ تعالىٰ بقاءَك بطاعتِه ، وسَلَكَ بكَ سبيلَ أحبَّائِه . . .) ، وكلُّ وصيَّةٍ مِنَ الوَصايا الَّتي فيها يَفتتحُها الغزاليُّ بقولِه : (أيُّها الولدُ) ، وما أَلطَفَهُ مِن نداءٍ ![1] .

ومَيزةُ وَصايا العلماءِ : جمعُها بينَ الوصيَّةِ بما يَنفَعُ في الدُّنيا ، وبما يُنجي عندَ اللهِ في الآخرةِ ؛ فليسَتْ وصيَّةُ العالِمِ كوصيَّةِ غيرِهِ مِنْ آحادِ النَّاسِ ؛ فإنَّ الوصيَّةَ والنَّصيحةَ جُزءٌ مِنَ الوظيفةِ الإيمانيَّةِ المُلقاةِ علىٰ كاهلِ حَمَلةِ العِلمِ وحُماةِ الدِّينِ ، وخيرُ مَن يُؤدِّي هٰذه الوصيَّةَ علىٰ وَجهِها إخلاصاً وشفقةً هم ورثةُ النُّبوَّةِ ، زادَهُم اللهُ شَرَفاً .

ومِنَ الوصايا القيِّمةِ الجامعةِ التي جادَتْ بها قَرائحُ العلماءِ في هٰذا البابِ : وصيَّةُ شيخِ الصُّوفيَّةِ في زمانِه ؛ الإمامِ شهابِ الدِّينِ عُمَرَ بنِ مُحمَّدٍ السُّهرورديِّ (ت ٦٣٢ هـ) لولدِه عمادِ الدِّينِ أبي جعفرٍ مُحمَدِ بنِ عُمَرَ (ت ٦٥٥ هـ) رَحِمَهما اللهُ تعالىٰ .

وقدِ اشتمَلَت هٰذه الوصيَّةُ البليغةُ على الأمرِ بتقوى اللهِ تعالىٰ ، ولزومِ طاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، وملازمةِ قراءةِ القرآنِ وتدبُّرِهِ ، والحرصِ علىٰ طلبِ العلمِ وتحصيلِهِ ، والمحافظةِ على اعتقادِ أهلِ الحقِّ ، واجتنابِ المُحدَثاتِ والبِدَعِ ، ومُجانبةِ صُحبةِ أهلِ البِطالةِ ، وتضمَّنَتِ الأمرَ بالحرصِ علىٰ أكلِ الحلالِ ، وملازمةِ خشيةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ ، وملازمةِ الصَّلَواتِ في جماعةٍ ، والدخولِ في الخَلَواتِ لتهذيبِ النَّفسِ ، وتحسينِ الخُلُقِ معَ النَّاسِ ، لاسيَّما العلماءُ منهم ، وفيها كذٰلكَ الوصيةُ برحمةِ الخَلقِ ، والزُهدِ في الدُّنيا ، وملازمةِ الآدابِ الشَّرعيَّةِ في الكلامِ والطَّعامِ والشَّرابِ واللِّباسِ ، وتقليلِ الضَّحِكِ ، والحرصِ علىٰ تطهيرِ القلبِ مِنَ الحسدِ والغِلِّ ، وسائرِ آفاتِ القلوبِ .

---

(١) طُبِع عدَّةَ طبعات ، منها طبعةُ دار البشائر الإسلامية ، بتحقيق علي محيي الدين القره داغي ، الطبعة الرابعة : (١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠ م) ، وطبعة دار المنهاج (١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م) .

والذي يلوحُ بعد تسريحِ النَّظَرِ في الوصيَّةِ وما اشتَمَلَت عليه . . ما يلي :

أوّلاً : أنَّ جامِعَها لمْ يتأثَّرْ فيها بأحدٍ مِنَ الَّذين سَبَقُوهُ في تسجيلِ الوصايا لأبنائِهِم ممَّن وَقفنا علىٰ وصاياهم ؛ فأدنىٰ موازنةٍ بينَهُ وبينَ وصيَّةِ الباجي ، ووصيَّةِ الغزاليِّ ، ووصيَّةِ ابنِ الجوزيِّ . . تُبيِّنُ أنَّ الوصيَّةَ الَّتي بين أيدينا خالصةٌ للسُّهروردِيِّ : أسلوباً ، وترتيباً ، ومضموناً .

ثانياً : كونُها جامعةً لأهمِّ ما يَحتاجُ إليهِ الأبناءُ مِنَ الآدابِ الشَّرعيَّةِ ، والأخلاقِ المَرْضيَّةِ .

ثالثاً : كونُها ملخَّصةً مهذَّبةً ، خاليةً من الحَشْوِ والاستطرادِ .

رابعاً : أنَّهُ لمْ يلتزمْ فيها ترتيباً بعَينِهِ ، بلْ مَزَجَ فيها بينَ الآدابِ والأخلاقِ الخاصَّةِ بالتَّعاملِ معَ النَّاسِ ، معَ الأخلاقِ المتعلِّقةِ بتهذيبِ النَّفسِ ، وما يَتعلَّقُ بالاستعدادِ للدَّارِ الآخرةِ .

خامساً : أنَّهُ في بعضِ الأحيانِ يذكُرُ الأدلَّةَ على الأدبِ الَّذي يُوصي بهِ ؛ فيَذكُرُ آيةً أو حديثاً مرفوعاً ، سواءٌ أكانَ بالتَّصريحِ أمِ الإشارةِ ، وقدْ يذكُرُ تعليلاً معقولاً .

وصف النّسخ المعتمدة في التّحقيق
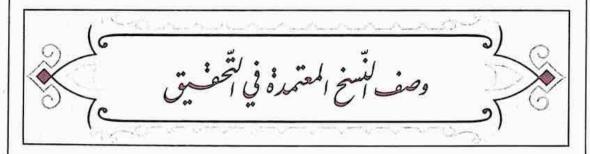
١ ـ مخطوطةٌ بدارِ الكُتبِ المصريَّةِ ، رقم (١) في المجموعةِ ، من (ص ١ ـ ١٠) ، رقم (٢٧٩٧ تصوُّف) .

ورَمَزنا لها بـ : (أ) .

٢ ـ وتُوجدُ نسخةٌ أخرىٰ ، بنَفسِ العُنوانِ ، بدارِ الكتبِ القطريَّةِ ، ضِمنَ مجموعةٍ ، بقلمٍ فارسيّ ، من (٥٠ ـ ٥٢ ق) ، (٢٢) سطراً ، (٢٠×٥ ,١٣ سم) ، رقم المخطوطة (١٠٦٦) ، بها تقديمُ بعضِ الكلماتِ وتأخيرُها .

ورَمَزنا لها بـ : (ب) .

وقدْ ختَمها النَّاسخُ بقولِه : (وَفَّقنا اللهُ تعالىٰ للعَملِ بما فيهِ مِن الوَصيَّةِ ، ويَعصِمُنا من خِلافِهِ ، تمَّتِ الرِّسالةُ بعنايةِ مُسمَّى الجلالةِ بقصبَةِ آغروس) .

٣ ـ وتُوجدُ نُسخةٌ أُخرىٰ تحتَ عنوانِ : (وصيَّةُ الشَّيخِ السُّهرَوَرْدِيّ لمُريدِه) ، بمكتبةِ السُّليمانيَّةِ بإستانبُول ، عِزَّت أفندي (٣٦٧٦/٠١٤) ، الأوراق (١٠٦ - ١٠٧) .

ورَمَزنا لها بـ : (ج) .

وقدْ صَدَّرها النَّاسِخُ بقولِه : (هـٰذه وصيَّةُ شيخِ الشُّيوخِ ، قُطبِ الوقتِ ، لِسانِ الحقّ ، مُرشِدِ الخلائِقِ ، بَقِيَّةِ السَّلَفِ ، أبي حَفصٍ شِهابِ الدِّينِ عُمرَ بنِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ السُّهرَوَرْدِيّ رضي الله عنه لمُريدِهِ ، قال . . .) . وختَمَها بقولِه : (واللهُ الموفِّقُ ، واللهُ أعلمُ بالصَّوابِ) .

وعِلاوةً علىٰ ما ذَكَرنا ، تُوجَدُ عِدَّةُ نُسَخٍ أُخرىٰ ، بيانُها كالآتي :

١ ـ مَركزُ الملكِ فَيصل للبُحوثِ والدِّراساتِ الإسلاميَّةِ بالرِّياضِ ، المَملكة العربيَّة السُّعوديَّة ، برقم (١٥١٥٠ ـ ١) .

٢ ـ مكتبةُ مركزِ الوَثائقِ التَّاريخيَّةِ بالمَنامةِ البحرين ، برقم (٥١٣) ، في (٩) ورقاتٍ .

٣ ـ مكتبةُ الأوقافِ العامَّة في بغداد ، برقم (٢٦/٤٨٨٥) ، ورقم (٣/١٣٧٢٣) ، وكلاهما في ورقتَين ، والأخيرة منهما كُتبت في سنة (١٣٢٧ هـ) .

٤ ـ مدرسةُ الحاجّ زكريَّا بالمَوصِلِ ، برقم (٢/٢٨/١٨) .

٥ ـ المكتبةُ الظَّاهريَّةُ ، برقم (٥٢٥٨) ، وتشغلُ الورقتينِ (١٤١ ـ ١٤٢) ، والورقتينِ (١٩٠ ـ ١٩١) ، وبرقم (١٠٥٤٧) ، وتشغلُ الورقاتِ (٤٤ ـ ٤٦) ، والَّتي كُتِبت في (٩٢٨ هـ) بسوريَّا .

والورقتانِ الأخيرتانِ ذكر صاحبا « معجمُ تاريخِ التُّراثِ الإسلاميّ » (٢٢٩٧/٣) أنَّ فيهما وصيَّةَ السُّهْرَوَرْدِيِّ لتلميذِه نَجمِ الدِّينِ محمَّدٍ التِّفلِيسِيِّ ، وفي مكتبةِ جامعةِ توبنغن نُسخةٌ من هٰذه الوصيَّةِ ، برقم (٨/٨٩) ، الأوراق (٨٣ أ ـ ٨٤ أ) .

٦ ـ أماسية : (Amasya) برقم (٦١/١٤) ، (الورقتان ١٥٥ ـ ١٥٦) ، وبرقم (٤/١٠٦٦) ، الورقتان (١١٣ ـ ١١٤) ، وقد كُتبتا في (١٠١٩ هـ) ، وبرقم (٥/١٥٢٥) ، (الأوراق ١٥٦ ـ ١٥٩) ، وبرقم (١٠/١٥٨٤) ، (الورقتان ١٢٢ ـ ١٢٣) ، وكُتبتا في (٧٧٠ هـ) ، وبرقم (٣٧/١٧٦١) ، (الورقتان ١٩٩ ـ ٢٠٠) .

٧ ـ بالق أسير (Balıkesir) : (٣٨٧/٥) ، الأوراق (٢٨٨ ـ ٢٩٠) ، وبرقم (٢/٥٠٣) ، الأوراق (٨٤ ـ ٨٦) .

٨ ـ ألمالي (Elmali) : برقم (٤/٢٦٠٧) ، ورقم (١/٢٩٧٥) ، الورقتان (٣ ـ ٤) .

٩ ـ قرامان (Karaman) : برقم (٦/١٢١٤) .

١٠ ـ كوبريلي (Köprülü) : برقم (٥/١٥٨٩) ، الأوراق (٢٣٣ ـ ٢٣٥) .

١١ ـ رمضان أوغلو (Ramazanoğlu) : برقم (٤/٥٥) ، الأوراق (١٤٩ ـ ١٥١) .

١٢ ـ معهد اللُّغة التُّركيَّة (TDK) : (A/٢٤٢/٣) ، الورقتان (٥٥ ـ ٥٦) .

١٣ ـ أحمد باشا : برقم (١٣/٣٢٩) ، الورقة (١٠٠) فقط .

١٤ ـ إزمير ملّي : برقم (٢/١٨٠٢) ، الأوراق (١١ ـ ١٣) .

١٥ ـ عاشر أفندي : برقم (٤/٤٤٣) ، ورقم (٤/٤٥٩) .

١٦ ـ عثمان أركين : برقم (٢/٨٩٥) .

١٧ ـ محمود الثَّاني : برقم (٣/٧٠٩) ، (٤) ورقات ، كُتبت في (١١٨٦ هـ) ، وبرقم (٣/٩٤٨) ، (١١) ورقة ، كُتبت في (١١٨٤ هـ) ، وبرقم (٣/١١٩٧) ، (٦) ورقات ، كُتبت في (١٠٩٣ هـ) .

١٨ ـ يكي باغشلار : (K/٤٥٩/٣) .

١٩ ـ أذربيجان : معهدُ المخطوطاتِ العربيَّةِ في باكو ، برقم : (b ـ ٢٧٨٥/٤٤١٠) .

٢٠ ـ أوزبكستان : مكتبةُ معهدِ البيرونيِّ للدِّراساتِ الشَّرقيَّةِ في طشقند ، برقم : (٢٩٥٦) .

٢١ ـ إيران : كتابخانة حقوق ، برقم : (٢٥١/ج) ، الأوراق (٨ ـ ١٢) ، وكُتبت في (١٢٥٩ هـ) .

٢٢ ـ إيران : مكتبة آية الله النَّجفيّ ، برقم (١/١٤٠٣) ، الأوراق (٢ ـ ٩) ، كُتبت في (٩١٢ هـ) .

٢٣ ـ الهند : مكتبة خُدابخش ، برقم : (١٧/٢٥٦٩) ، (ورقتان) ، كُتبتا في (١٢٠٠ هـ) . وبرقم : (٢/٢٦٢١) ، (٣) ورقات ، كُتبت في (١١٠٠ هـ) .

٢٤ ـ المملكة المتَّحدة : المتحفُ البريطانيُّ ، برقم (١٣٧) ، ورقم (٤/٢٣٧) ، (ملحق) ، ورقم : (٤/٦٤٤) .

٢٥ ـ المكتب الهنديّ : برقم (١٠٣٨ : ٦٥ fol) .

٢٦ ـ ألمانيا : ميونخ ، برقم (٨٩٥) .

٢٧ ـ ألمانيا : مكتبة جامعة توبنغن : برقم (١٠/٨٩) ، الأوراق (١٠٥ أ ـ ١٠٦ ب) .

٢٨ ـ إسبانيا : الإسكوريال : برقم (١٦/٧٠٧) ، (فهرس ثانٍ) .

٣٠ ـ هولندا : لايدن : برقم (١٢٦١) .

الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة :

٣١ ـ جامعة برنستون ، مجموعة گاريت ، برقم (٥/٢٠٢٨) .

٣٢ ـ جامعة برنستون ، مجموعة يهودا ، برقم (١/٢٩٦٥) ، الورقتان (١٨٥ ـ ١٨٦) ، ٢ (١٠٩ب ، ١١٠أ) .

٣٣ ـ مستدرك جامعة برنستون : برقم (١٠/٧٢٦) ، (١٤٤أ) .

نماذج من صور المخطوطات

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام
على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين
فهذه وصية عن شيخ الإسلام وإمام
الموحدين من الخواص والعوام وقدوتهم
في الشريعة والطريقة والحقيقة الشيخ
شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد
السهروردي البكري القرشي لولده
العز بن عماد الدين أبي محمد عبد الله
قدس الله تعالى أرواحهم ...

نسخة دار الكتب المصرية (أ)

عقل کلدرکه مرتبۀ نفسدر و برزخ صغرا نه دکه وآدم دن مراد نفسدر که مغلوب هوادر ومنح دن مراد روحدر که عقلک تربیتندن ظهوره کلمشدر و بیر بیک ولایتی عالم معنیدرکه عقلک اندن مرحلۀ نودر ... اهل الله دنیا بری بوکا اشارت ایتمشلردر

ودران موضع که نور حق دلیل است ○ چه جای کفت جرکوی جبرئیل است ○

وکنز دنک ولایتی عالم غیبدر که حضرت سمع اندن اولور عالم الوهیته مدار تجلیه دکل اندن اوتسبی منشاء کلیات ذره ومبادی امور دقیق دراده وآدم زینک مستقلا ولایتی یوقدر بلکه ایکیسنه بله قابلدر

انکه روم وشام و بلوی خراسان

ایله تعبیر اولنور

تمت

الاصطلاحات

العارفین

بعون المعین

وصیت شیخ ... و اندن الشهر ... قدس سره

یا بنی أوصیک بتقوی الله وخشیته فی السر والعلانیة ولزوم حق الله وحق رسوله وحق المشایخ اجمعین فان الله یرضی عنک ویحفظک فی السر والعلانیة ولا تدع قراءة القرآن ظاهرا وباطنا وسرا وعلانیة بالفهم والتدبر والتفکر والحزن والبکاء وارجع الی القرآن فی جمیع الاحکام فان القرآن حجة الله علی خلقه ولا تغفل عن العلم ... وتعلم الفقه ولا تکن من جهال الصوفیة وحوامهم ولا تجالس اهل السوق فانهم لصوص الدین وقطاع الطریق علی الطلب وعلیک بالسنة وکن علی اعتقاد اهل التوحید واجتنب المحدثات فان کل محدثة بدعة وکل بدعة ضلالة ولا تصحب الاحداث والنسوان والمبتدعة ...

نسخة دار الكتب القطرية (ب)

ولا تغترن فإنك تغتر من الظاهر من خراب الباطن وثق بما وعد الله من أمر الرزق
فإن الله تعالى قد تكفل بأمر رزق كل حيوان قال الله تعالى وما من دابة في الأرض إلا على الله
رزقها ولا تيأس من جميع الإخوان ولا تأنس بهم وقلل الخلق ولا تكن مع الخلق
فإن الخالق يطردك من بابه وعليك بطاعة نفسك قال النبي صلى الله عليه وسلم من حسن إسلام
المرء تركه ما لا يعنيه وكن ناصحا للخلق أجمعين نافعا لهم وأقلل من الطعام
والشرب والنوم والكلام ولا تأكل إلا عن فاقة ولا تتكلم إلا عن ضرورة ولا تنم
إلا عن غلبة والزم صلاة الليل وصوم النهار ولا تكثر الجلوس في السماع فإنه ينبت النفاق
ثم يميت القلب وينكره فإن له أربابا والسماع لا يصلح إلا لمن قلبه حي ونفسه ميتة
لمن كان على غير هذه الحالة فاشتغاله بالصوم والصلاة أولى في ذلك فليكن حزنك دائما ونزلك
حقيرا وعيشك كعيش الصالحين وعملك صالحا ودعاؤك جهدا وثيابك خلقا وإخوانك فقراء
وبيتك مسجدا ومالك فقيرا وزينتك زهدا ومونسك ربا كريما ولا تواخ أحدا
حتى يتبين لك منه خمس خصال يختار الفقر على الغنى ويختار العمل على العلم ويختار
الآخرة على الدنيا ويختار الذل على العز ويكون بصيرا بعلم السر والعلانية ويكون
مستعدا للموت يا أخي لا تغرنك الدنيا وزخرفها فإن الدنيا خضرة نضرة
من تعلق بها تعلقت به ومن رفضها رفضته لأنه ليس سبيل إلى ما بها وكن
مستعدا للارتحال إلى الآخرة يا أخي عليك بالخلوة وكن فريدا وحيدا منكسر
القلب من خوف الله تعالى وعش في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل
وعد نفسك من أصحاب القبور وأخرج منها كما دخلتها
فإنك لا تدري ما اسمك غدا يوم القيامة
وفقنا الله تعالى بما فيه للعمل بما فيه
من الوحشة وعصمنا عن خلافه
تمت الرسالة المسماة
الجلالة النقشبندية أعروسي

النوم صح

ولا صح

١٨

نسخة دار الكتب القطرية (ب)

هذه وصية

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

هذه وصية شيخ الشيوخ قطب الوقت لسان الحق مرشد الخلايق بقية
السلف ابي حفص شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي رضي الله
عنه لمريده قال يا بني اوصيك بتقوى الله وخشيته ولزوم حق الله وحق رسوله
وحق والديك وحق المشايخ اجمعين والله تعالى يرضى عنك واحفظ الله
في السر والعلانية ولا تدع قرائة القرآن ظاهراً وباطناً سراً وعلانيةً
بالفهم والتدبير والتفكر والحزن والبكاء وارجع الى القرآن في جميع
الاحكام فان القرآن حجة الله على خلقه واحفظ حقه ولا تعدل عن العلم
خطوةً وتعلم العلم ولا تكن من الجهال الصوفية وعوامهم وقراء الاسواق
فانهم لصوص الدين وقطاع الطريق على المسلمين وعليك بالسنة
واعتقاد اهل التوحيد واجتناب المحدثات فان كل محدثةٍ ضلالة
ولا تصحب الاحداث والنسوان والمبدعة والاغنياء والعوام فانهم
يذهبون دينك واقنع من الدنيا باليسير والزم الخلوة وابك على خطيئتك
وكل الحلال فانه مفاتيح الخيرات ولا تمس الحرام فتمسك النار يوم القيمة
والبس الحلال تجد حلاوة الايمان والعبادة وكن من الله تعالى على وجل ولا

على غير هذه الحالة فاشتغاله بالصوم والصلوة والاوراد اولى وليكن قلبك حزينًا وبدنك عليلًا وعينك دامعة وعملك خالصًا وثيابك خلقًا ورفقاءك الفقراء وبيتك مسجدًا ومالك فقهًا وزينتك زهدًا ومونسك ربًّا كريمًا ولا تواخ احدًا حتى يتبين لك منه خمس خصال يختار الفقر على الغناء والاخرة على الدنيا ويختار الذل على العز ويكون بصيرًا بعمل السر والعلانية ويكون مستعدًا للموت يا بني لا تغرنك الدنيا وزهراتها فان الدنيا خضرة نظيرة حلوة من تعلق بها تعلقت به ومن رفضها رفضته لانه لا سبيل لبقائه وكن في الليل والنهار مستعدًا للارتحال منها الى الاخرة يا بني عليك بالخلوة وكن فريدًا وحيدًا متفكرًا بالقلب من خوف الله تعالى تغرق في كرامات الله تعالى وعش في الدنيا كانك غريب واخرج منها كما دخلتها فانك لا تدري ما اسمك غدًا في القيامة والله الموفق والله اعلم بالصواب
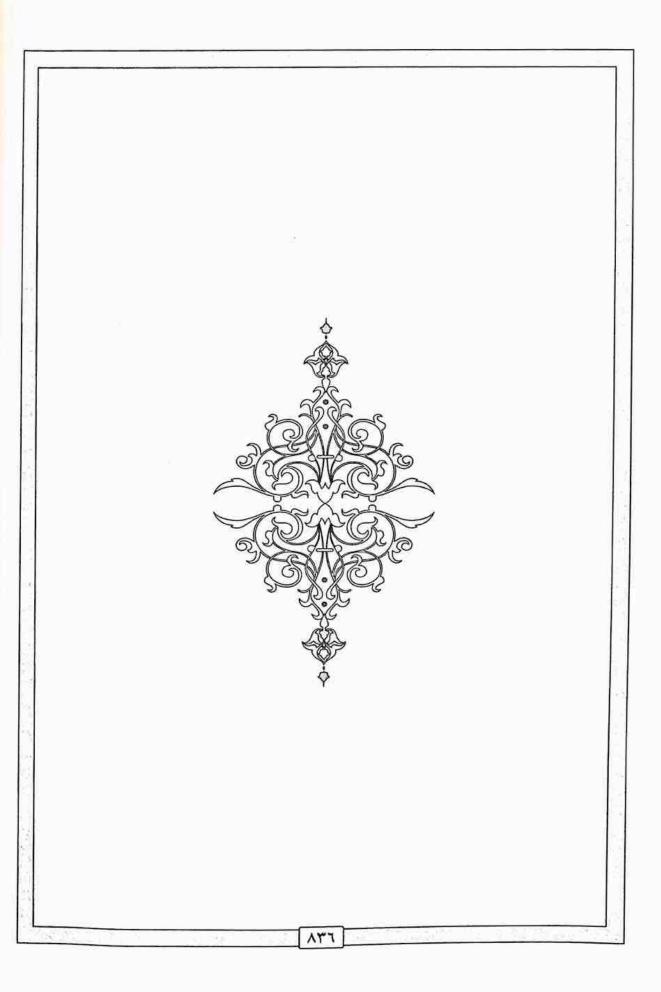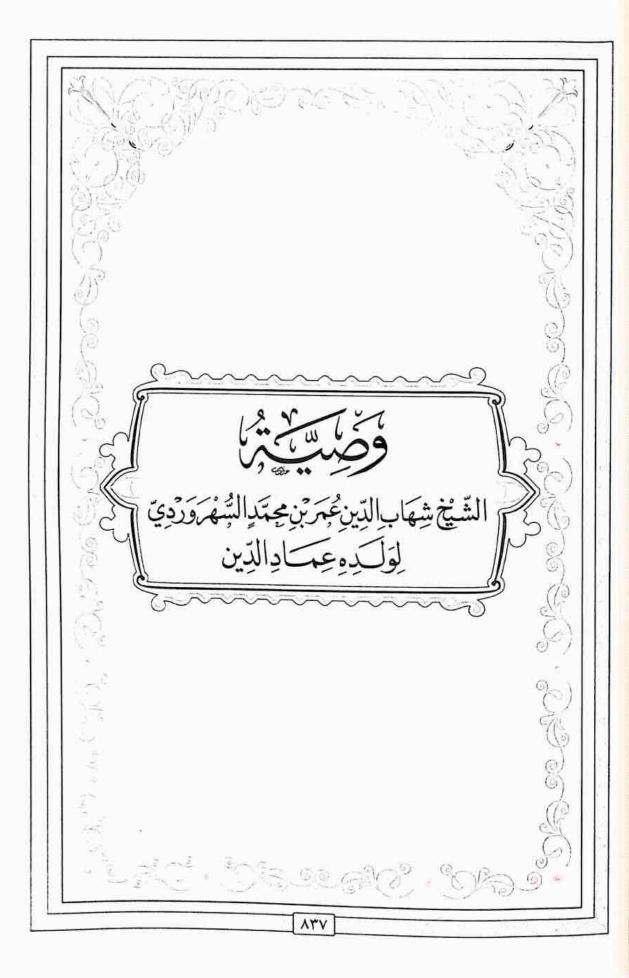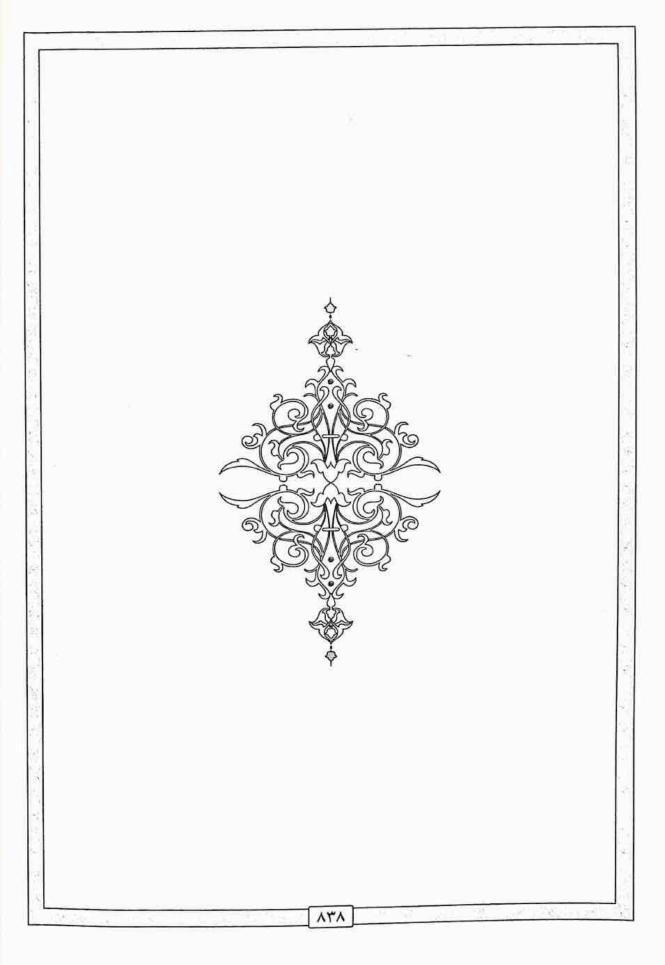
نسخة المكتبة السليمانية تركيا (ج)

وَصِيَّةُ

الشَّيْخ شِهَابِ الدِّينِ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ السُّهْرَوَرْدِيّ لِوَلَدِهِ عِمَادِ الدِّين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلِهِ وصَحبِهِ أجمعينَ .

فهٰذهِ وصِيَّةٌ عن شيخِ الإسلامِ ، وإمامِ المُوَحِّدِينَ مِنَ الخَواصِّ والعَوامِّ ، وقُدوتِهِم في الشَّريعةِ والطَّريقةِ والحقيقةِ ، الشَّيخِ شِهابِ الدِّينِ أبي حَفصٍ عُمرَ بنِ محمَّدٍ السُّهرَوَرْدِيِّ البَكريِّ القُرشيِّ ، لِولَدِهِ العَزيزِ عِمادِ الدِّينِ أبي محمَّدٍ عبدِ اللهِ ، قَدَّسَ اللهُ تعالىٰ أرواحَهمُ المطهَّرةَ :

يا بُنيَّ ؛ أُوصِيكَ بِتقوى اللهِ تعالىٰ وخَشيَتِهِ في السرِّ والعلانيةِ ، ولُزومِ حقِّ اللهِ تعالىٰ وحقِّ رَسُولِه عليه الصلاة والسلام ، وحقِّ والِدَيكَ ، وحقِّ المَشايخِ أجمعينَ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يَرضَىٰ عنكَ ويحفظك .

واحفَظْ حقَّ اللهِ تعالىٰ في السِّرِّ والعَلانِيةِ ، ولا تَدَعْ قِراءةَ القُرآنِ ظاهِراً وباطِناً ، سرّاً وعلانيةً ؛ بالفَهمِ والتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ ، والحُزنِ والبُكاءِ ، وارجِعْ إلى القُرآنِ في جَميعِ الأَحكامِ ؛ فإنَّ القُرآنَ حُجَّةُ اللهِ علىٰ خَلقِهِ ، واحفَظْ حَقَّهُ .

ولا تَعدِلْ عنِ العِلمِ لَحظةً ، وتَعلَّمِ الفِقهَ ، ولا تكُنْ مِنْ جُهَّالِ الصُّوفيَّةِ وعَوامِّهم وقُرَّاءِ الأَسواقِ (١) ؛ فإنَّهُم لُصُوصُ الدِّينِ ، وقُطَّاعُ الطَّريقِ على المُسلِمِينَ .

وعليكَ بالسُّنَّةِ ، واعتقادِ أهلِ التَّوحيدِ ، واجتِنابِ المُحدَثاتِ ؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ (٢) .

---

(١) في (ب) : (واهجُر أهلَ السُّوقِ) .

(٢) وَرَدَ هٰذا اللَّفظُ في عِدَّةِ أحاديثَ ؛ منها : ما أخرَجه أبو داوُود (٤٦٠٧) ، والتِّرمذيُّ (٢٦٧٦) ، وابنُ ماجَه (٤٢) وغيرُهم ؛ عن سيدنا العِرباضِ بن سارِيةَ رضي الله عنه ، قال : صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ ، وفيه : « . . . وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » .

ولا تَصحَبِ الأَحداثَ ، والنِّسوانَ ، والمُبتدِعةَ ، والأغنياءَ ، وأهلَ الأهواءِ[1] ؛ فإنَّهم يُذهِبونَ دِينَكَ .

واقنَعْ مِنَ الدُّنيا بِيَسيرٍ ، والزَمِ الخَلوةَ ، وابْكِ علىٰ خَطِيئاتِكَ .

وكُلِ الحلالَ ؛ فإنَّهُ مِفتاحُ الخيراتِ ، ولا تَمَسَّ الحرامَ ؛ فتمَسَّكَ النَّارُ يومَ القيامةِ .

والبَسِ الحَلالَ ؛ تَجِد حَلاوةَ الإيمانِ والعبادةِ .

وكُنْ مِنَ اللهِ تعالىٰ علىٰ وجلٍ ، ولا تنسَ مَوقِفَكَ بين يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأَكثِرْ مِنْ صَلاةِ اللَّيلِ وصَومِ النَّهارِ .

ولا تَتَخلَّفْ عنِ الجماعةِ مِنْ غيرِ أنْ تكونَ إماماً أو مؤذِّناً .

ولا تَطلُبِ الرِّئاسةَ ؛ فإنَّ مَنْ أحبَّ الرِّئاسةَ . . لنْ يُفلِحَ أبداً .

ولا تَكتُبْ[2] في القَبالَةِ[3] شهادةً[4] ، ولا تَحضُرْ مَجلِسَ القُضاةِ والسَّلاطينِ ، ولا تدخُل في الوَصَايا ، وفِرَّ مِنَ النَّاسِ كما تَفِرُّ مِنَ الأسدِ .

وعليكَ بالخَلَواتِ ؛ حتَّىٰ لا يَذهبَ دِينُك .

وعليكَ بالسَّفرِ ؛ لِتُذلِّلَ نَفْسَكَ ؛ فإنَّ النَّبِيَّ عليه الصلاة والسلام قالَ : « سَافِرُوا . . تَغْنَمُوا ، وَصُومُوا . . تَصِحُّوا »[5] .

---

(١) في (أ ، ج) : (العوام) بدل (أهل الأهواء) .

(٢) في (أ ، ج) : « تُوقِّع » .

(٣) القَبالَةُ بالفَتحِ : اسمُ المكتوبِ من ذٰلك لِما يَلتزِمُه الإنسانُ مِن عَمَلٍ ودَينٍ وغيرِ ذٰلك . راجِع « المِصباح المُنِير » (ق ب ل) .

(٤) في (ب) : (في القبالات شهادتك) .

(٥) أخرَجه بهٰذا اللَّفظِ ابنُ المُقرِئ في « حديثِه » (١) عن سيدنا أبي هُريرةَ رضي الله عنه ، مرفوعاً ، وأوَّله : « اغزُوا . . تَغْنَموا . . . » .
وأخرَجه أحمدُ في « المُسنَدِ » (٨٩٤٥) بلفظِ : « سَافِرُوا . . تَصِحُّوا ، وَاغزُوا . . تَسْتَغْنُوا » ، والطَّبرانيُّ في « المُعجَمِ الأوسطِ » (٨٣١٢) بلفظِ : « اغـزُوا . . تَغْنَمُوا ، وَصُومُوا . . تَصِحُّوا ، وَسَافِرُوا . . تَسْتَغْنُوا » ، كلاهما عن سيدنا أبي هُريرةَ رضي الله عنه ، مرفوعاً .

وعليكَ أنْ تحفَظَ قُلوبَ المشَايخِ ، ولا تَغترَّ بقَولِ مَنْ يَمدَحُكَ ، ولا تَغتَمَّ بقَولِ مَنْ يَذُمُّكَ ، ويكونَ المدحُ والذَّمُّ عندكَ سَواءً .

وأَحسِنْ خُلُقَك معَ الخَلقِ أجمعينَ .

والزَمِ التَّواضُعَ ؛ قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَوَاضَعَ لِلهِ . . رَفَعَهُ »[١] .

وعليكَ بالأدبِ في جميعِ الأحوالِ ، معَ كُلِّ بَرٍّ وفاجِرٍ .

وارحَمْ جميعَ الخَلائقِ ، صَغيرَهُم وكَبيرَهُم ، ولا تَنظُرْ إليهِم إلَّا بعَينِ الرَّحمةِ .

ولا تَضحَكْ ؛ فإنَّ الضَّحِكَ مِنَ الغَفلةِ ، وهو يُمِيتُ القَلبَ ، قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ . . لضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً »[٢] .

ولا تَأمَنْ مَكرَ اللهِ ، ولا تَقنَطْ مِنْ رَحمةِ اللهِ ، وعِشْ بينَ الخوفِ والرَّجاءِ .

يا بُنيَّ ؛ اترُكِ الدُّنيا ؛ فإنَّ في طَلَبِها ذَهابَ دِينِكَ ، وعليكَ بالصَّومِ والصَّلاةِ ، وكُنْ في الفَقرِ عفيفاً ، نظيفاً ، حَنِيفاً ، مُتأدِّباً ، مُتواضِعاً متورِّعاً ، عالِماً فقيهاً ، بائِناً عن جُهَّالِ الصُّوفيَّةِ وعَوامِّهِم ، خادِماً للمشَايخِ بالمالِ والبَدنِ والجاهِ ، واحفَظْ قُلوبَهُم وأَوقاتَهُم وسِيرَتَهُم ، ولا تُنكِرْ عَلَيهِم شيئاً إلَّا مَنْ خالفَ الجماعةَ ؛ لأنَّكَ إنْ أنكرْتَ علَيهِم بشيءٍ . . لنْ تُفلحَ أبداً .

ولا تسألِ النَّاسَ شيئاً ، ولا تُعارضْهُم ، ولا تدَّخِرْ لغَدٍ شيئاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يأتي برِزقٍ مَقسُومٍ ، وكُنْ سَخِيَّ النَّفْسِ والقَلبِ ، باذِلاً بما رَزقكَ اللهُ تعالىٰ .

وإيَّاكَ والبُخلَ والحَسَدَ ، والغِلَّ والغِشَّ ؛ فإنَّ البخيلَ والحسودَ لا يُفلِحانِ ،

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٨٨) عن سيدنا أبي هُريرةَ رضي الله عنه ، بلفظِ : « وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ ٱللهُ » .

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٦٢١) ومسلمٌ (٤٢٦) عن سيدنا أنَسِ بن مالِكٍ رضي الله عنه .

ولا تُظهِرْ حالَكَ للخَلقِ أبداً في جميعِ الأَحوالِ ، ولا تُزيِّنِ الظَّاهِرَ ؛ فإنَّ تَزيينَ الظَّاهِرِ مِنْ خَرابِ الباطِنِ .

وَثِقْ بِما وعَدَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ أمرِ الرِّزقِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ تكفَّلَ برزقِ كلِّ حَيوانٍ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [١] .

وايئسْ مِنْ جميعِ الخَلائقِ ، ولا تَأنَسْ بهِم ، وقُلِ الحقَّ ، ولا تَركَنْ إلىٰ أَحَدٍ مِنَ المخلوقينَ ؛ فإنَّ الخالقَ يَطردُكَ مِنْ بابِهِ .

وعليكَ بخاصَّةِ نَفْسِكَ كلَّ حالٍ ، واترُكْ ما لا يَعنِيكَ ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ ٱلْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » [٢] .

وكنْ ناصِحاً للخَلقِ أجمعينَ ، نافعاً لَهُم .

وأَقلِلْ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ ، والنَّومِ والكَلامِ ، ولا تأكُلْ إلَّا عندَ فاقَةٍ [٣] ، ولا تتكلَّم إلَّا عندَ ضَرورةٍ ، ولا تَنَمْ إلَّا عندَ غَلَبةِ النَّومِ .

ولا تُكثِرِ الجُلوسَ في السَّماعِ ؛ فإنَّهُ يُنبِتُ النِّفاقَ ، ثمَّ يُميتُ القَلبَ ، ولا تُنكِرْهُ ؛ فإنَّ لهُ أرباباً ، والسَّماعُ لا يَصلُحُ إلَّا لمَنْ قلبُهُ حَيٌّ ، ونَفْسُهُ مَيّتةٌ [٤] ، ومَنْ كانَ علىٰ غيرِ هٰذه الحالةِ . . فاشتِغَالُهُ بالصَّومِ والصَّلاةِ والأَورادِ أَولَىٰ .

وليكُنْ قلبُكَ حزيناً ، وبدنُكَ عَليلاً ، وعينُكَ دامِعةً ، وعمَلُكَ خالِصاً ، ودُعاؤُكَ صالحاً ، وثيابُكَ خَلَقاً ، ورُفقاؤُكَ فُقراءَ ، وبيتُكَ مَسجداً ، ومالُكَ فِقهاً ، وزِينتُكَ زُهداً ، ومُؤنِسُكَ ربّاً كَريماً .

---

(١) سورة هود : (٦) .

(٢) أخرَجه التِّرمِذِيُّ (٢٣١٨) من طريقِ زينِ العابِدِين عليِّ بنِ الحُسينِ ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مُرسَلاً .

(٣) في (ج) : (ولا تأخذ من الكلامِ والنَّومِ إلَّا قليلاً ، ولا تأكلْ من الطَّعامِ والشَّرابِ إلَّا عند فاقةٍ) .

(٤) قال القُشيريُّ في « الرِّسالة » (ص ٦٨٣) : (وقيل : لا يَصلُحُ السَّماعُ إلَّا لِمَن كانت له نَفْسٌ مَيِّتةٌ وقَلبٌ حَيٌّ ؛ فنَفْسُه ذُبحتْ بسُيُوفِ المُجاهَدَةِ ، وقَلبُهُ حَيٌّ بنُورِ المُوافَقةِ) .

ولا تُؤاخِ أَحداً حتَّىٰ يَثبُتَ لكَ منهُ خَمسُ خِصالٍ : يختارُ الفَقرَ على الغِنَىٰ ، ويختارُ الذُّلَّ على العِزِّ ، ويختارُ الآخِرةَ على الدُّنيا ، ويكونُ بَصيراً بعملِ السِّرِّ والعَلانِيةِ ، ويكونُ مُستعِدّاً للمَوتِ [١] .

يا بُنيَّ ؛ لا تغُرَّنَّك الدُّنيا وزَهرَتُها ؛ فإنَّ الدُّنيا خَضِرةٌ نَضِرةٌ حُلوةٌ [٢] ، مَن تَعَلَّقَ بها . . تَعَلَّقتْ بهِ ، ومَنْ رَفَضَها . . رَفَضَتْه [٣] ؛ لأنَّهُ لا سبيلَ لبقَائِها .

ولا تكُن في اللَّيلِ والنَّهارِ إلَّا مُستعِدّاً لِلارتحالِ إلى الآخِرةِ [٤] .

---

(١) في (ب) بزيادةِ : (ويختار العَمَلَ على العِلمِ) ، وبها يكونُ ستَّ خصالٍ ، وفي هٰذه الزِّيادةِ نَكارةٌ من حيثُ المعنىٰ ؛ إذ الأُمَّةُ المحمَّدِيَّةُ جاءت وَسَطاً بين الأُمَمِ ؛ فكان شعارُهم : إنَّ مع العِلمِ العَمَلَ ، وقد عَقَدَ لهٰذا الإمامُ البُخاريُّ باباً في « صحيحِه » (٢٤/١) وترجَمَ له بقولِه : (بابُ العلمِ قبلَ القولِ والعملِ) ، وللخطيبِ البغداديِّ رحمه الله تعالىٰ جزءٌ لطيفٌ في هٰذا المعنىٰ ، أسماه : « اقتضاء العِلمِ العَمَلَ » .

وعلىٰ هٰذا الشِّعارِ دلَّت نُصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ ، وتواترت نُقولَاتُ سَلَفِ الأُمَّةِ نَظماً ونَثراً بما لا يُحصَىٰ كثرةً .

بل ولأَجلِ هٰذا الرُّكنِ الرَّكينِ قامت مُساجَلاتٌ كلاميَّةٌ ومُماحَكاتٌ عِلميَّةٌ حادَّة اللهجةِ في كُتُبِ العقائِدِ في مبحثِ الإيمانِ منها ، بما يُعرفُ عندهم : هلِ العملُ شرطُ كمالٍ في مُسمَّى الإيمانِ أم شَرطُ صِحَّةٍ ؟ وتبايَنَت وجهاتُ نظرِهم في ذٰلك ، خَلَصَ كلٌّ منهم إلىٰ مذهبٍ مُستقِلٍّ عنِ الآخَرِ ، وهم وإنِ اختَلفوا فيما أَشَرنا إليه ، غير أنَّهم لم يختَلفوا في ضرورةِ استصحابِ العلمِ العملَ ، وأهمِّيَّةِ تلازُمِهما ، وحضِّ الشَّريعةِ وتَحريضِها علىٰ ذٰلك ، فكان هٰذا التَّلازُمُ والتَّرابُطُ من مُقوِّماتِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ وخصائِصِها دونَ سائرِ المللِ .

هتفَ العلمُ بالعملْ فإن أجابَه وإلَّا ارتحلْ

(٢) يُشِيرُ إلىٰ ما أخرَجَه مسلمٌ (٢٧٤٢) عن سيدنا أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . . . » .

(٣) ثُمَّ أَتَته وهي راغمةٌ ، كما وَرَدَ في حديثِ سيدنا زَيدِ بن ثابتٍ رضي الله عنه مرفوعاً : « مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ . . جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » ، أخرَجه أحمدُ (٢١٥٩٠) ، وابنُ ماجَه (٤١٠٥) .

(٤) في (ب) : (وكن مستعدّاً لِلارتحالِ إلى الآخرة) ، وفي (ج) : (وكن في اللَّيلِ والنَّهارِ مستعدّاً لِلارتحال منها إلى الآخِرة) .

يا بُنيَّ ؛ عليكَ بالخَلْوَةِ ، وكُن فَرِيداً وَحِيداً ، مُنكَسِرَ القَلبِ مِنْ خَوفِ اللهِ تعالىٰ ؛ حتَّىٰ تُختصَّ بِكَراماتِ اللهِ تعالىٰ .

وعِشْ في الدُّنيا كأنَّكَ غَريبٌ أو عابِرُ سبيلٍ (١) ، وعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَصحابِ القُبورِ ، واخرُجْ مِنَ الدُّنيا كما دخَلْتَها ، ولا تكُنْ غافِلاً ؛ فإنَّكَ لا تَدرِي ما اسمُكَ غداً يومَ القِيامةِ .

تمَّتِ الوَصايا ، بعَونِ ذِي العَطايا ، ونَستعينُ بهِ قبلَ المماتِ وبعدَ المَنايا ، ونُصلِّي علىٰ رسُولِنا سيِّدِ البَرايا ، وعلىٰ آلِه وأصحابِه ذَوِي المُرُوءاتِ والسَّجَايا .

---

(١) يُشِيرُ إلىٰ حديثِ سيدنا ابن عُمرَ رضي الله عنهما قال : أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِمَنْكِبِي فَقَالَ : « كُنْ فِي ٱلدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » ، أخرَجه البخاريُّ (٦٤١٦) .

من تراث

الإِمَامِ أبي حَفْصٍ عُمَرَ السُّهْرَوَرْدِيّ

الرسالة التاسعة

سبب الغم والهم

مقدّمة
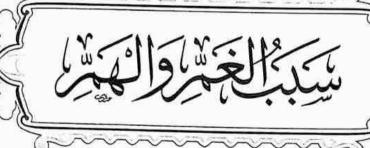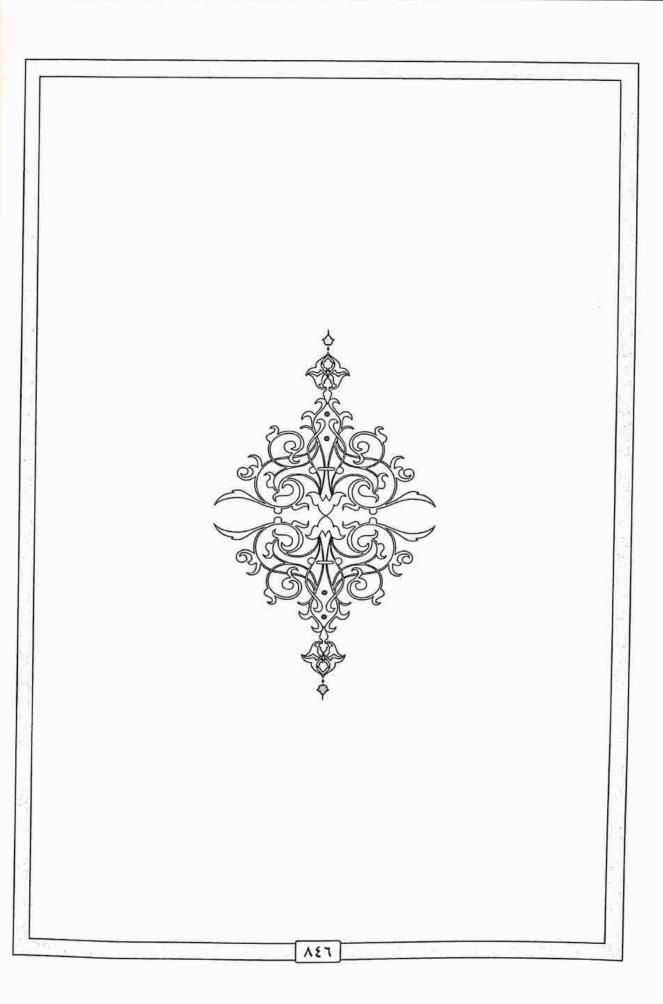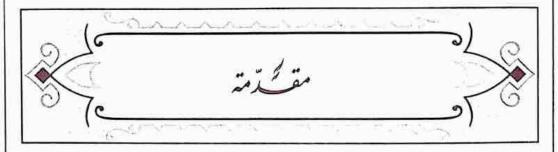
يُجيبُ الشيخُ شهابُ الدِّينِ السُّهرورديُّ في هٰذه الرِّسالةِ الوجيزةِ عن سؤالٍ وُجِّهَ إليهِ يتعلَّقُ بالغمِّ والهمِّ اللَّذين يَعرِضانِ للبشرِ : ما هما ؟ وما أسبابُ وقوعِهما ؟ وما السَّبيلُ إلى التَّخلُّصِ منهما ؟

والمُنطلَقُ الَّذي بدَأَ منهُ السُّهرَوَرْديُّ في الجوابِ اعتمَدَ علىٰ تبيينِ معنى الهمِّ والغمِّ ، وإيضاحِ ما بينَهُما مِن فَرقٍ ، وتوقيفِ السَّائلِ علىٰ أسبابِهما ؛ إذْ إنَّ معرفةَ السَّببِ أوَّلُ الخُطُواتِ في سبيلِ الشِّفاءِ منهما ، والتَّخلُّصِ مِنْ آثارِهما ؛ ولذٰلكَ قالَ في أوَّلِ الجوابِ : (ورَدَ كتابُكَ ـ أكرَمَكَ اللهُ بكرامةِ التَّوفيقِ ـ تسألُ ما أُبيِّنُ لكَ : ما الغمُّ والهمُّ العارِضانِ لكثيرٍ مِنَ العالَمِ[1] ، وقلَّةُ النَّاجِي والمُخلِّصِ منهما ، وكيفَ استِحواذُهُما عليهِم ، معَ ما فضَّلَهُم بهِ الرَّبُّ جلَّ اسمُهُ مِنَ العُقولِ والتَّمييزِ) .

ثمَّ قالَ : (ويجبُ أن تَعلمَ ـ وفَّقكَ اللهُ للخيرِ ، وجَعَلَكَ أَهلاً لهُ ـ أنَّ كُلَّ أَلَمٍ غيرِ معرُوفِ الأسبابِ غيرُ معروفِ الشِّفاءِ ، فيجبُ أن نُبيِّنَ ما الهمُّ والغمُّ ، وما سببُهما ؟ فيكونُ شفاؤُهما ظاهرَ الوجودِ إنْ شاءَ اللهُ سبحانَهُ » .

وقدْ بيَّنَ حقيقتَهُما أتمَّ بيانٍ ، وأوضَحَ الفَرقَ بينهُمَا ، وكشَفَ عن أعراضِ ابتلاءِ الإنسانِ بهما ، وما يَحصُلُ لهُ إذا أُصيبَ بأحدِهِما ، وجاءَ جوابُهُ دالاً علىٰ خِبرتِهِ الواسعةِ بأحوالِ القلوبِ وطبائعِ البَشَرِ .

ومِنْ جميلِ ما أَوصىٰ بهِ فيها : أن يَلزَمَ الإنسانُ جانبَ القَناعةِ والرِّضا ، وأنْ يُباعِدَ الطَّمَعَ عن نَفسِهِ وقَلبِهِ ؛ فإنَّ المحبوباتِ والمكروهاتِ ليسَتْ بأشياءَ لازمةٍ

---

(١) السهروردي هنا يخاطب أحد المريدين ، الذي يبدو أنه يجيب عن سؤاله عن الغم والهم وأسبابهما وكيفية الخلاص منهما .

في الطَّبعِ بحيثُ لا يكونُ الشَّيءُ المحبوبُ إلَّا محبوباً أبداً ، ولا تكونُ الأشياءُ الَّتي تَكرَهُها النُّفوسُ إلَّا مكروهةً أبداً ؛ بلِ الأمرُ مردُّهُ إلى العاداتِ ، وأنَّ تعويدَ الإنسانِ نفسَهُ على التَّسلِّي والصَّبرِ يُمكِّنُ الإنسانَ مِن دَفعِ الهمِّ والغمِّ اللَّذينِ يَحصُلانِ بسببِ حصولِ المكروهاتِ .

ومِنْ محاسنِ طريقتِهِ في الرِّسالةِ : سياقُهُ لبعضِ الحكاياتِ الَّتي يُؤخَذُ منها العِظاتُ والعِبَرُ في عدمِ الرُّكونِ إلى الدُّنيا ومتاعِها ، والتَّنافُسِ في تحصيلِ عَرَضِها الفاني ؛ إذْ إنَّ التَّعلُّقَ بها سببٌ عظيمٌ مِنْ أسبابِ حصولِ الهمومِ والغمومِ .

ولخَّصَ السُّهرورديُّ في آخِرِ الرِّسالةِ الجوابَ في كلماتٍ مختصرةٍ ، **حاصلُها** : أنَّ الهمَّ والغمَّ اللَّذينِ يَقَعانِ في العالَمِ ليسا بِلازِمي الوقوعِ ، وأنَّ رأسَ السِّياسةِ العقليَّةِ تركُ اتِّباعِ الشَّهَواتِ والهَوَىٰ ، وقَمعُ النَّفسِ عن باطلِ الأمانيِّ وكاذبِ المواعيدِ .

وختاماً نقولُ : إنَّ علماءَ المسلمين قبلَ السُّهرورديِّ وبَعدَهُ تَفطَّنُوا إلى الكتابةِ في مسألةِ الهمِّ والغمِّ ؛ فألَّفَ بعضُهُم فيها تأليفاً مستقلّاً ؛ منهمُ الحافظُ أبو بكرِ ابنُ أبي الدُّنيا (ت ٢٨١ هـ) ، فلهُ كتابُ « الهمُّ والحَزَنُ »[١] .

وبوَّبَ بعضُ العلماءِ في كُتُبِهم أبواباً حولَ الأذكارِ المُستعمَلةِ في دفعِ الهمِّ والحَزَنِ ؛ منهمُ المُنذِرِيُّ (ت ٦٥٦ هـ) في « التَّرغيبِ والتَّرهيبِ »[٢] ، والنَّوويُّ (ت ٦٧٦ هـ) في « الأذكارِ »[٣] ، وابنُ تيميَّةَ (ت ٧٢٨ هـ) في « الكَلِمِ

---

(١) طبع بدار السلام بالقاهرة ، سنة (١٩٩١ م) بتحقيق مجدي فتحي السيد ، وطبع ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا ، وصدر عن دار أطلس الخضراء بالرياض ، بتحقيق فاضل بن خلف الحمادة الرقي ، وتقع الرسالة في المجلد السادس .

(٢) ينظر « الترغيب والترهيب » (٣٨٠/٢) .

(٣) ينظر « الأذكار » (ص ١٢١) ، ط . دار الفكر بيروت .

الطَّيِّبِ »[1] ، وشمسُ الدِّينِ ابنُ الجَزَرِيِّ (ت ٨٣٣ هـ) في « عُـدَّةِ الحِصنِ الحَصينِ »[2] .

وَعَقَدَ ابنُ قيِّمِ الجَوْزِيَّةِ (ت ٧٥١ هـ) فصلاً في كتابِه « زادُ المَعادِ في هَدي خَيرِ العِبادِ » بعُنوانِ : (فَصلٌ في هَديِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في عِلاجِ الكَربِ والهمِّ والغمِّ والحَزَنِ)[3] . وغيرُ ذٰلكَ مِمَّا زَخَرَ بهِ تراثُ المُسلمِينَ .

۞ ۞ ۞

---

(١) ينظر « الكلم الطيب » (ص ٥٦) ، ط . دار الفكر اللبناني .

(٢) ينظر « تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين » (ص ٢٩٣) ، ط . دار القلم .

(٣) ينظر « زاد المعاد » (١٨٠/٤) .
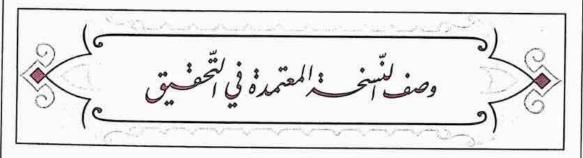
مخطوطٌ بمكتبةِ السُّليمانيَّةِ ، للإمام شهابِ الدِّينِ السُّهرَوَرْدِيِّ (٦٣٢ هـ) ، إستانبول ، الشَّهيدُ علي باشا ، رقم المجموعة (٤٠٠ ـ ١٣٨٢) الأوراق (٢٥ ـ ٣٢) . في نسخةٍ يتيمةٍ لم أجد لها زوجاً .

ولم أجد لهٰذا المخطوطِ عُنواناً مُستقِلّاً بعَينِه ، وإنَّما اقتبستُهُ مِن مقدِّمةِ السُّهرَوَرْدِيِّ نفسِهِ .

نماذج من صور المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وبالله التوفيق الملك الحق الاله
الصدق المسمى بلغات الافتراق المقصود بالاتفاق
القديم الذي لم يزل علة العلل ومنشئ مبادي الحركات
الاول خالق الاضداد في الاصلاح والافساد ظهر
بذلك قوته وابان قدرته تجاوز حد العقول والافهام
والخواطر والاوهام غير منعوت الذات ولا مدرك
للصفات سبحانه عنصر العناصر وقوى القوات ومحرك
الحركات تقدس اسمه وعلا قدره نور الانوار ومالك
الزمان والدهر الداهر سبحانه يتصل بدوامه الذي لا نفاذ له
ولا تصرم لمدته ابد الابدين ودهر الداهرين قدوس اياه
اسال واليه اضرع ان يجعلني واياك ممن خصهم بصفاء
العقل وبتسديد الفعل بما هو منه وله انه ولي الخير وذاته و...

لعله
وقوة

لعله
الازمان
جمع زمن

نسخة المكتبة السليمانية تركيا

وهو على كل شيء قدير ورد كتابك اكرمك الله بكرامة
التوفيق تسأل ما ابين لك ما الغم والهم العارضان لكثير
من العالم وقلة الناجي والمخلص منهما وكيف استحواذهما عليهم
مع ما فضّلهم به الرب جل اسمه من العقول والتمييز اذ كان الله جلّ
لم يخلق من مخلوقاته معوزا من مصلحته بل كان ما خلقه مكتفيا حتى لا
شيئا من مخلوقاته محتاجا الى غيره ثم فضّل الانسان بالنطق
والبيان ومعرفة الدلايل والبرهان ثم يوص له مع ما هو
عليه من شريف الخلق وسنى العقل الهم والغم فهل ذلك موجود
في الحصة ام عرض داخل وفكر فاسد بفساد ذاته وبعض
الآلة السفافة بالعقل المودية للفهم فرايت ان اجيبك
اكرمك الله بما اعلمه وما قسم لي من نوره اذ كان ما نتادى اليه
وان تناهينا فغير واجدين نهاية من العلم حتى نبلغ الى نهاية
فتبارك غاية الغايات ونهاية النهايات ويجب ان تعلم
وفقك الله للخير وجعلك اهلا له ان كل الم غير معروف الاسباب
غير معروف الشفاء فيجب ان نبين ما الهم والغم وما سببهما

نسخة المكتبة السليمانية تركيا

سبب الغم والهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِاللهِ التَّوفِيقُ
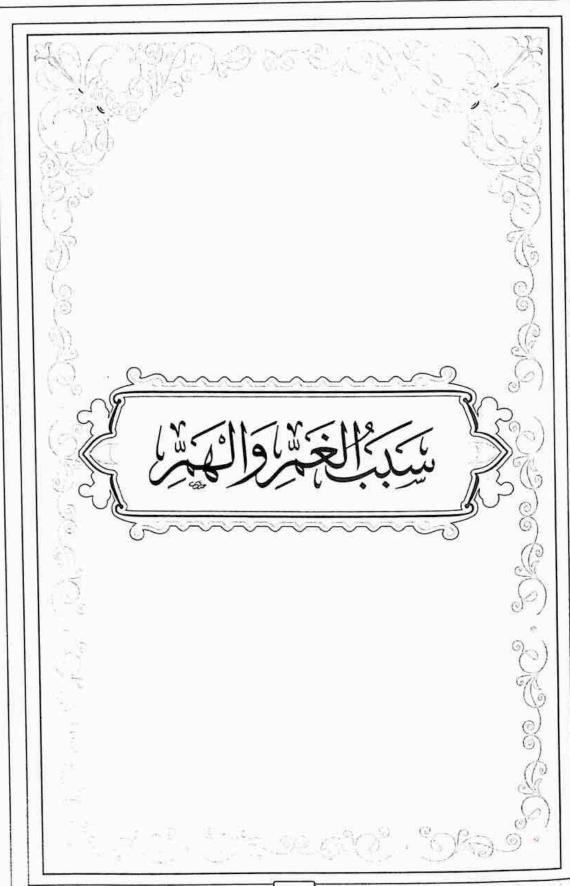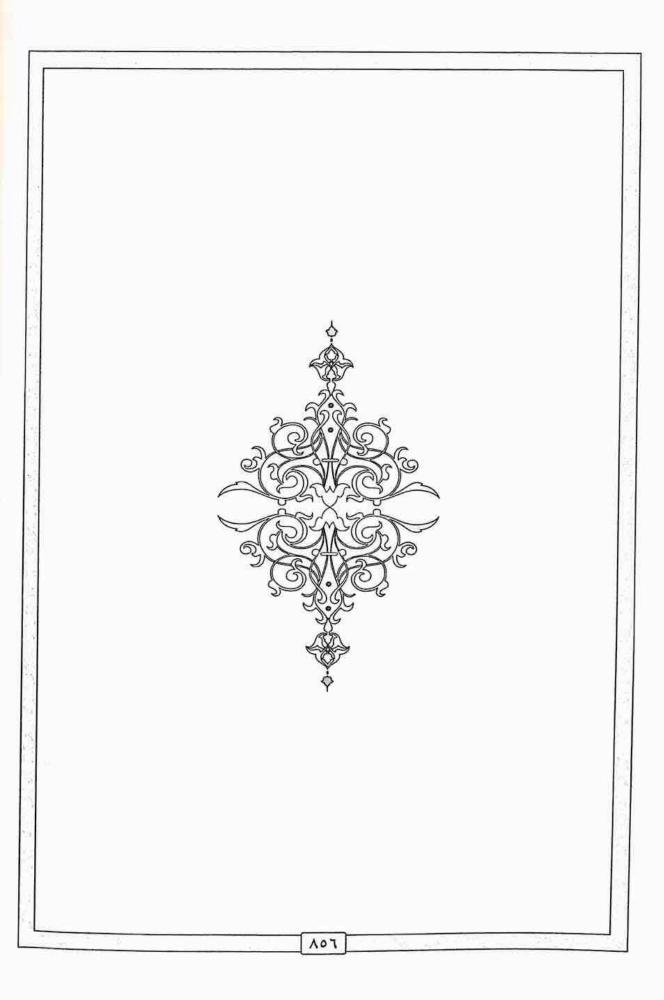
الملِكُ الحقُّ الإلٰـهُ الصِّدقُ ، المسمَّىٰ بلُغاتِ الِافتراقِ ، المقصودُ بالِاتِّفاقِ[1] ، القديمُ الَّذي لَمْ يزَل عِلَّةَ العِلَلِ ، و مُنشِئَ مَبادِئِ الحرَكاتِ الأُوَلِ ، خالِقُ الأضدادِ في الإصلاحِ والإفسادِ ، أظهرَ بذٰلكَ قُوَّتَهُ ، وأبانَ قُدرتَهُ ، تَجاوزَ حدَّ العُقولِ والأفهامِ ، والخَواطِرِ والأوهامِ ، غيرُ مَنعوتِ الذَّاتِ ، ولا مُدرَكُ الصِّفاتِ[2] سبحانَهُ .

عُنصُرُ العَناصِرِ ، وقُوَى[3] القُوَّاتِ ، ومُحرِّكُ الحركاتِ ، تقدَّسَ اسمُهُ ، وعَلا قَدرُهُ ، نُورُ الأنوارِ ، وزمانُ الزَّمانِ[4] ، والدَّهرُ الدَّاهِرُ سبحانَهُ ، يتَّصلُ بدَوامِهِ الَّذي لا نفادَ لهُ ، ولا تَصرُّمَ لمدَّتِه ، أبدَ الآبِدِينَ ودَهرَ الدَّاهِرينَ .

قُدُّوسٌ ، إيَّاهُ أسألُ ، وإليهِ أَضرَعُ ؛ أنْ يجعلَنِي وإيَّاكَ ممَّنْ خصَّهُم بصفاءِ العقلِ ، وبِسَديدِ الفِعلِ ، بما هو منهُ ولهُ ؛ إنَّهُ وليُّ الخيرِ وذاتُهُ ، وهو علىٰ كلِّ شيءٍ قدير .

ورَدَ كتابُكَ ـ أكرمَكَ اللهُ بكرامةِ التَّوفيقِ ـ تسألُ ما أُبيِّنُ لكَ ما الغمُّ والهمُّ العارِضانِ لكثيرٍ مِنَ العالَمِ ، وقِلَّةُ النَّاجِي والمخلِّصِ[5] منهما ، وكيفَ

---

(١) أي : أنَّه تعالىٰ هو المقصودُ قلباً ، المعنيُّ طلباً ، تتَّفقُ الأممُ (أممَ التَّوحيدِ) في القصدِ والتَّوجُّهِ إليه ، وتَفترِقُ في النُّطقِ والدَّلَالةِ عليه ، وتتَشقَّقُ عن هٰذا مسألةٌ تُذكرُ عند علمائِنا ؛ وهي : هلِ الأصلُ في الأسماءِ التَّوقيفُ أمِ الِاصطلاحُ ؟ وهل يجوزُ دعاءُ اللهِ ومناداتُه بغيرِ ما سمَّىٰ ووصفَ به نفسَه مِن أسمائِه وصفاتِه أم لا ؟

(٢) في الأصل : (للصفات) .

(٣) في الحاشيَةِ : (لعلَّ : وقوَّة) .

(٤) في الحاشية : (لعل : الأزمان ؛ جمع زمن) .

(٥) في حاشِيَةِ المخطوط : (المتَخلِّصُ) .

استِحواذُهُما علَيهِم معَ ما فضَّلَهُم بهِ الرَّبُّ جلَّ اسمُهُ مِنَ العُقولِ والتَّمييزِ ؛ إذْ كأنَّ اللهَ سبحانَهُ لمْ يَخلُق مِنْ مخلُوقاتِهِ مُعْوِزاً مِنْ مَصلَحتِهِ ؛ بل كانَ ما خلَقَهُ مَكفِيّاً ؛ حتَّىٰ لا يَرىٰ شيئاً مِنْ مخلُوقاتِهِ محتاجاً إلىٰ غيرِهِ .

ثمَّ فضَّلَ الإنسانَ بالنُّطقِ والبيانِ ، ومَعرفةِ الدَّلائلِ والبُرهانِ بِمَا يَعرِضُ لهُ ، مع ما هو عليهِ مِنْ شريفِ الخَلقِ وسَنِيِّ العَقلِ .

الهمُّ والغمُّ : فهل ذٰلك موجودٌ في الحقيقةِ ؟ أم عَرَضٌ داخلٌ وفِكرٌ فاسِدٌ بفسادِ ذاتِهِ ، وبعضِ آلاتِهِ السَّفَّافةِ[1] بالعقلِ المؤذِيةِ للفهمِ ؟

فرأيتُ أن أُجيبَكَ ـ أكرمَكَ اللهُ ـ بما أَعلَمُهُ ، وما قُسِمَ لي مِنْ نُورِهِ ؛ إذْ كانَ ما نتأدَّىٰ إليهِ وإنْ تَناهَينا ، فغيرُ واجِدِينَ نهايةً مِنَ العِلمِ حتَّىٰ نَبلُغَ إلىٰ نهايتِهِ ، فتَبارَكَ غايةُ الغاياتِ ونهايةُ النِّهاياتِ .

ويجبُ أنْ تَعلمَ ـ وفَّقكَ اللهُ للخيرِ ، وجعلَكَ أهلاً لهُ ـ : أنَّ كلَّ ألَمٍ غيرِ معرُوفِ الأسبابِ غيرُ معروفِ الشِّفاءِ ؛ فيجبُ أن نُبيِّنَ ما الهمُّ والغمُّ ؟ وما سببُهُما ؟ فيكونُ شفاؤُهُما ظاهرَ الوُجودِ إنْ شاءَ اللهُ سبحانَهُ .

نقولُ :

إنَّ الهمَّ : تَقَسُّمُ الأفكارِ ، وَحَيرةُ النَّفسِ وخُمولُها ، وهو سريعُ الزَّوالِ .

والغمُّ : خطرٌ كبيرٌ[2] ، وأمرٌ عظيمٌ ، يُذِيبُ القُوَّةَ ، ويُفتِّرُ الحرارةَ ، ويَهدِمُ الجِسمَ ، ويُكوِّرُ[3] الأوقاتَ ، ويُقصِّرُ مادَّةَ العُمرِ ، وهو ألَمٌ نَفسانيٌّ يَعرِضُ لفَقدِ مَحبوبٍ ، أو لفَوتِ مَطلوبٍ .

ولو فكَّرُوا في هٰذا العالَمِ الدَّنِيِّ التَّالِفِ : لِما هُم ؟ وفيما هُم ؟ . .

---

(١) في حاشية المخطوط : (شَفت معجمة ، سفَّ مهملة) .
(٢) في الأصلِ : (كثيرٌ) ، ولعلَّ الصوابَ ما أثبتُّ .
(٣) في حاشيةِ المخطوط : (يُكدِّرُ) ، وأشار إلىٰ أنها نسخة .

لَعلِمُوا أنَّهُم أعراضٌ زائلةٌ ، وأشباحٌ حائلةٌ ، تَتصرَّفُ بِهِمُ الأيَّامُ ، وتُقلِّبُهمُ الأوقاتُ .

فالواجبُ أن يَبـدَؤوا[١] بالغمِّ علىٰ نُفوسِهِم ؛ فهو أولَىٰ مِنَ الغمِّ علىٰ مَحبوباتِهِم ومَطلُوباتِهِم ؛ إذْ يَعلَمونَ أنَّهُم سَيَعدمونَ ما عَدِموهُ ، ويَفقِدونَ ما فقَدوهُ ، وتقدَّمَتْ مَعرِفتُهُم بذٰلكَ وتيَقَّنُوهُ ، وأنَّ نُفوسَهُم وأعراضَهُم غيرُ باقيةٍ ؛ لأنَّ كلَّ ما كانَ في عالَمِ الكَونِ والفسادِ . . فمُضمَحِلٌّ زائلٌ ، فكأَنَّ مُرادَهُم إنْ طَلَبوا الثَّباتَ والدَّوامَ موجودانِ في عالَمِ العقلِ ، فكأَنَّ مَنْ طَلَبَ مِنَ الزَّمانِ ما ليسَ فيه . . أرادَ منهُ ما ليسَ في طبعِهِ ، ومَنْ أرادَ مِنَ الطَّبعِ ما ليسَ في الطَّبعِ . . أرادَ ما ليسَ بموجودٍ ، ومَنْ أرادَ غيرَ موجودٍ . . عَدِمَ طِلْبَتَهُ ، والعادمُ طِلبَتَه مُعنًّى شَقِيٌّ .

فينبغي للعاقلِ : أنْ يطلُبَ ما يُسعِدُهُ دُونَ ما يُشقِيهِ ، ويَحترِزَ مِنْ سُلوكِ طُرُقِ الشَّقاءِ والجهلِ .

وأقولُ : إنَّ مَنْ يَعرِفُ الزَّمانَ ، ويحتَسِبُ[٢] أصولَ الأحوالِ : متىٰ زالَتْ عنهُ عادةُ جَرِدِ الدُّنيا . . فارقَها معَها الشَّهواتُ الحِسِّيةُ ؛ مِنْ لَذيذِ الطَّعامِ[٣] ، وطِيبِ الشَّرابِ ، ومَليحِ الملبُوسِ والمنكُوحِ ، وما شاكَلَ ذٰلكَ .

وقدْ تقرَّرَتْ معرفتُهُ أنَّهُ أعراضٌ لا يُملَكُ إلَّا مِنْ جهتَينِ :

إمَّا اكتِسابُ مُغالَبةٍ .

أو اكتِسابٌ بضَربٍ مِنَ الحِيلَةِ الَّتي يُسمِّيها النَّاسُ تِجارةً وصِناعةً ، وتَيقُّنُهُ أنَّهُ لا بُدَّ أن يَضمَحِلَّ في ذاتِهِ ، ويَضمَحِلَّ محبوباتُهُ ، ثمَّ يُدرِكُهُ ذٰلكَ .

---

(١) في حاشيةِ المخطوط (نَبذْ) ، لعلَّه يريدُ أن الكَلِمةَ : (نَبذوا) ، والله أعلم .

(٢) في حاشيةِ المخطوط : (ويختبرُ) ، وأشار إلىٰ أنها نسخة .

(٣) في المخطوط : (العطام) ، والصوابُ ما أثبتُّ .

فكأنَّهُ أرادَ ـ ما قدَّمنا ذِكرَهُ آنِفاً ـ مِنَ الفاسدِ ألَّا يكونَ فاسداً ، ومِنَ الزَّائلِ ألَّا يكونَ زائلاً ، وإذا أرَدنا ألَّا نُصابَ بمُصيبةٍ ألبَتَّةَ . . فإنَّا لا نكونُ ألبَتَّةَ ؛ لأنَّ المصائِبَ لا تكونُ إلَّا بفسادِ الفاسدِ ، فإنْ لمْ يكُنْ فاسِداً . . لم يَكُنْ كائناً[1] ، ولو قَصَدَ بمَحبوباتِها الثَّباتَ والبقاءَ . . لقَصَدَ طبعُهُ البقاءَ بالطَّاعةِ ، وألزمَ نفسَهُ في العاجِلَةِ القَناعةَ ، ولمْ يَستقبِلْ ما يأتيهِ بحرصٍ ولا بتعَبِ نفسِهِ ما زالَ عنهُ وفاتَهُ بندَمٍ وأسَفٍ ، بل أدَّبَ نفسَهُ تأديبَ الملوكِ الأجِلَّاءِ ، الآخِذينَ نُفوسَهُم بحقيقةِ الأدبِ ؛ فهُم لا يَستقبِلونَ آتياً ، ولا يُودِّعونَ ظاعِناً ، فأمَّا حَشوُ النَّاسِ وهَمَجُهُم . . فمُشيِّعونَ كلَّ غائبٍ ، ومُستقبِلونَ كلَّ آيِبٍ[2] .

فإذا أدَّبَ الإنسانُ نفسَهُ بآدابِ الحقِّ ، وألزمَها دلائلَ الصِّدقِ ، واستَعملَ نَفيَ الغمِّ ، وبُعدَ الحِرصِ ، وزوالَ الهمِّ ، على ما قدَّمناه قَبلُ . . استمتَعَ بالمدَّةِ اليَسيرةِ مِنْ عُمُرِه .

---

(١) هي ضَرورةٌ إلزاميَّةٌ على حدِّ تَعبيرِ المناطقةِ ، يُحتِّمُها العقلُ السَّليمُ والمنطِقُ المستقيمُ ، فمَن لم يُصَبْ بمُصيبةٍ . . غيرُ مَوجودٍ .

(٢) المرادُ هنا بالحَشْوِ والهمَجِ : همُ العامَّةُ العَمياءُ مِنَ الدَّهماءِ ورَعاعِ النَّاسِ ، نقيض الكبارِ الأجلَّاء وعِليَةِ القومِ الَّذينَ ذكرَهم قبلُ مِن صَفوِ النَّاسِ وخِيارِهم .

وفي الاصطلاحِ عند علماء الكلام : كلمةٌ أُطلِقت وأُريدَ بها مَن أخذَ بظاهرِ النُّصوصِ واكتَفى بذلك في معرفةِ مُرادِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منها ، دون الغوصِ في أغوارِ مَرامي تلكَ الألفاظِ الدَّلاليَّةِ الموهمةِ المتشابهةِ الَّتي تحتاجُ إلى علاجٍ ، وأوَّلُ مَن قالَ بها عمرو بنُ عُبيدٍ مِنَ المعتزلةِ ، وقيل : الحسنُ البصريُّ ، وهي لفظةٌ شائعةٌ لدى بعضِ السَّادةِ الأشاعرةِ والماتريديَّةِ ، فيُطلِقونَ في هذا السِّياقِ على خصومِهم بالحشويَّةِ والمجسِّمةِ لذلك .

والمصنِّفُ رحمةُ اللهِ عليه إنَّما يقصدُ المعنى اللُّغويَّ مِنَ الكلمةِ ليس غير ؛ وهو أنأى النَّاسِ بنفسِه أن يَزُجَّها فيما يفرِّقُ ، بل يُحذِّرُ مِن ذلك ويدعو لما يجمعُ الشَّملَ والكلمةَ ؛ لما عُلِمَ مِن مَجموعِ كتُبِهِ ، خاصَّةً كتابَه : « أعلام الهُدى » وما جاء فيه مِن نصوصٍ تَحُضُّ على الأُلفةِ ، وتُحذِّرُ مِنَ الخُلفةِ ، صفَّاه مِن كلِّ ما وجدَه ، وجرَى عليه مَن سبَقَه مِن سِبابٍ واحترابٍ كانت عواقبُه وخيمةً في تاريخِ الأمَّةِ ، ما زلنا نُعانيها إلى يومِنا هذا ، ولو لم يَسبِقوا إلى هذا ، واختاروا مسلَكَ الإمامِ السُّهرَورديِّ في خلافاتِهم إلى الجمعِ والتَّوفيقِ بين النُّصوصِ . . لمَا بَنى عليه مَن بعدَهم ، ولَما فُتِحَ هذا البابُ الَّذي لم نجنِ منه إلَّا الشَّوكَ ، فاتَّسعَ الخرقُ على الرَّاقعِ ، وسبقَ السَّيفُ العذَلَ ؛ ووقعَ الفاسُ بالرَّاسِ ؛ فقَرعنا سِنَّ النَّدمِ ، وَلاتَ حينَ مَندَمٍ .

ثمَّ رأينا العاداتِ في النَّاسِ تَجرِي معَ الطَّبعِ مَجراهُ ، وتَنقُلُهُ وتستَحوِذُ عليهِ ؛ فيَأْلَفُها الطَّبعُ ، وتَلزمُها الهمَّةُ ، ويَنصَرِفُ إليها .

فلو ألزمَ نفسَهُ مَنْ يأكلُ لذيذَ الطَّعامِ ما دُونَهُ . . لأُشبِعَ وَأجزَأَهُ ؛ إذْ كانا يَتساوَيانِ بعدَ ساعةٍ ، ويَبلُغانِ لِقَصدِ المرادِ مِنَ المُشبِعِ ، وإنَّما يحصُلُ لذَّةَ ساعةٍ ؛ حتَّىٰ لو دامَ لهُ ما قدِ استَطابه . . لشَبِعَ منهُ ورَفضَهُ وقَلَاهُ .

وكذٰلكَ الملبُوساتُ ، يَحرِصُ الإنسانُ علىٰ ما قدْ لزِمَهُ طَبعُهُ ، وَأَلِفَتْهُ عادتُهُ مِنْ حامِلِها ومُستَحسِنِها ، ولوْ لَبِسَ ما دونَ ذٰلكَ . . لأقنَعَهُ ، وكلٌّ مُتساوٍ في سَترِ العَورةِ ، وسُرعةِ البِلَىٰ .

ولو تدبَّرَ بالحكمةِ ، وتَزيَّنَ بزينَةِ العلمِ الَّذي هو أفضلُ مَدْخورٍ ومَلبوسٍ وزَينٍ . . لم يَغتَمَّ لِفَقدِ مَلبوسٍ .

وكانَ كما حُكِيَ عن ديوجانسَ الحكيمِ[1] ؛ لمَّا عبرَ عليهِ أيناخُس الملِكُ . . فلمْ يَقُم لهُ ، فوكَّلَ بهِ الحاجِبَ ، فنظرَ إليهِ الحكيمُ ، ثمَّ قالَ : خلقُ إنسانٍ ، وخلقُ بَهيمةٍ ، ما حملَكَ علىٰ ما صَنَعتَهُ بي ؟! قالَ : إذْ لمْ تَقُمْ إجلالاً للمَلِكِ ، فأجابَه الحكيمُ : ما كنتُ الَّذي أقومُ لعَبدِ عبدِي ، فأدركَهُم الملِكُ ، وسمِعَ المقالةَ ، ثُمَّ قالَ : مِن أينَ لكَ أنِّي عبدُ عبدِك ؟! قالَ الحكيمُ : لأنَّكَ عبدُ الدُّنيا وخادِمُها ، ومَن تركَ شيئاً . . فقدِ اقتدَرَ عليهِ ؛ فلمَّا تركتُها أنا اختياراً ، وخدمتَها أنت اضطِراراً . . وجبَ أن تكونَ لها عبداً ، فَعَلِم الملِكُ مُرادَه ، ثمَّ عَطَفَ عليهِ بالقَولِ : هل لك في صُحبتِي ؟ فإنِّي مُفوِّضٌ إليكَ خزائنَ الذَّهبِ والفِضَّةِ ، فأجابَه : ما فضلُ شِبَعِ الملوكِ علىٰ مَنْ دُونَهم ؟ قالَ لهُ الملكُ : فأُزَيِّنَك بفاخِرِ الثِّيابِ ، فأجابَهُ الحكيمُ :

---

(١) ديوجانس الكلبي : فيلسوف يوناني ، عاش فيما بين (٤١٣ ـ ٣٢٧ ق م) قال الشهرستاني في « الملل والنحل » (٢/٢٠٠) : (كان حكيماً فاضلاً متقشفاً ، لا يقتني شيئاً ، ولا يأوي إلى منزل ، وكأنه من قدرية الفلاسفة) . وأورد نخبةً من حِكَمه . انظر أخباره في « تاريخ اليعقوبي » (ص ٤٧) ، و« آثار البلاد وأخبار العباد » لزكريا القزويني (ص ٥٧١) ، و« تاريخ الفلسفة اليونانية » ليوسف كرم (ص ٢١٢ ـ ٢١٣) .

إنَّ الوصِيَّةَ سَبقَتْ لنا مِنَ الحُكماءِ المتقدِّمِينَ : ألَّا نُزَيِّنَ أجسادَنا بزينَةِ الثِّيابِ ؛ لـٰكن بزينَةِ العلمِ والتُّقىٰ ، فبكى الملِكُ ، وانصرفَ مؤيساً منهُ .

ثُمَّ رأينا في عاداتِ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ شِدَّةَ حِرصِهِم على المُكتَسَبِ ، وجمعِ ما يَجمَعونَهُ ؛ حتَّىٰ إذا تكامَلَ معهُم ما فيهِ وَطَرٌ . . عَمَدُوا إليهِ فأتَلَفُوهُ في العَمارِ ، ورأَوهُ غُنماً ، ولو مُنِعوا عن ذٰلكَ . . لَرَأَوهُ غَمّاً ومُصِيبةً .

وكذا المخنَّثُ بالشَّهوةِ الفاضِحَةِ ؛ مِن نَتفِ لحيَتِهِ ، وخَوضِهِ الأخلاقَ الدَّنِيَّةَ ، لو مُنِعَ عن ذٰلكَ ، وأُكرِهَ على الدُّخولِ في زِيِّ أكابرِ النَّاسِ وأجِلَّائِهِم . . لاغتَمَّ بذٰلكَ ورآهُ مُصِيبةً .

وتَرى الشَّاطِرَ معَ ما هو عليهِ مِن قَبيحِ السِّياسةِ ، وكَثرةِ الخَطْبِ بالجِراحاتِ ، وقَطعِ الأعضاءِ وألَمِ العقوباتِ ، ورُبَّما آلَ أمرُهُ إلى القتلِ والصَّلبِ ؛ فلو أكرَهَهُ مُكرِهٌ علىٰ لُزومِ السَّلامةِ . . لرآهُ نقصاً وغَمّاً .

فنقولُ الآنَ : إنَّ غَمَّهُ واجِبٌ في العقلِ ، أم ذٰلكَ عَرَضٌ فاسدٌ مازَجَ حِسّاً فاسداً ؟ وأنَّ العاداتِ المقدَّمِ ذِكرُها جَرَت فيمَنْ ألِفَها وألزمَ نفسَهُ طلبَها مَجرى الطَّبعِ ؛ فتُصلِحُهُ وتُفسِدُهُ ، وتَغُمُّ وتَسُرُّ .

فَلنُلزِم نُفوسَنا طَبعَ القَناعةِ والخيرِ ، وإزالةَ الغمِّ فيما يُدخِلُهُ عليها بسوءِ الطَّمَعِ والِاختيارِ ؛ لأنَّ المحبوبَ والمكروهَ المَحسُوسَينِ ليسَا بشيءٍ في الطَّبعِ لازمٍ ؛ بلِ العاداتِ .

فسبيلُنا : أن نُعوِّدَ نفوسَنا السَّلوَةَ[1] والرِّياضةَ ، وإن أُتعِبت . . فلنَصبِر علىٰ مضَضِ التَّعَبِ والمنازَعَةِ منها ؛ لِما نَرجُوه لها مِنَ الرَّاحةِ في العاجِلةِ والآجِلةِ ، ألَا يُرىٰ : أنَّ كثيراً ممَّن تُعارِضُهمُ العِلَلُ يَرىٰ قَطعَ إِرْبٍ ، وكَيَّ عُضوٍ ، ويَتكلَّفُ مَضضَه ؟!

---

(١) السَّلوةُ : كلُّ ما يُسَلِّي ويشغل .

والصَّبرُ علىٰ مَضَضِ النَّفسِ في المنازَعةِ إلى الباطلِ ، وإكراهُها على المعاوَدةِ إلىٰ طريقِ الحقِّ والسَّلامةِ ؛ إذْ علاجُ النَّفسِ أقلُّ خطراً ، وأخفُّ مَؤونَةً ، وأعظمُ وِزراً ، وإذْ هي مَلِكةُ البَدنِ ، وبفسادِ المَلِكِ يفسُدُ أمرُ الرَّعيَّةِ ، والشَّهَواتُ مَلِكةٌ على النَّفسِ ومُسلَّطةٌ عليها ، والعقلُ مَلِكٌ على الكلِّ ، ومادَّتُهُ مِنَ الأصلِ ؛ فمَنْ كانَ لهُ عقلٌ . . آثَرَ مَصلَحةَ نفسِهِ علىٰ فسادِها ، وبُرأَهَا علىٰ سَقَمِها .

وليُعالِجْها بِأدوِيَةِ الحقِّ ، ومَرارةِ الصَّبرِ ، وكَدِّ النَّفسِ ، والكُلفَةِ ؛ حتَّىٰ تَسلَمَ لهُ وتصفُوَ إلى الشَّهواتِ الباقيةِ ، وسُكنىٰ دارِ البقاءِ بعدَ استِعجالِهِ إسقاطَ الهمِّ والغمِّ ؛ إذْ كنَّا بيَّنَّا أنَّهُما طبعٌ رَدِيٌّ ، غيرُ موجودِ الحقيقةِ في مَقاييسِ العقلِ ؛ كما رُوِيَ عن هُرمُسَ الحكيمِ [١] أنَّهُ قالَ : أَولى النَّاسِ رَحمةً مَنْ وقعَ في أَسرِ المِلكَةِ ، قيلَ لهُ : ومَن ذٰلكَ ؟ قالَ : مَن كَثُرَت شَهَواتُه . . فأُدِيمَت [٢] حسَراتُهُ .

فهو مَتعوبٌ بِتَصاريفِ كُلَفِها ؛ فإنْ نَفاها عقلُهُ ، وقَهَرَها فَهمُهُ . . فهو عَتِيقُ عقلِهِ ، والعقلُ مادَّةٌ مِنَ الأصلِ .

ومَنْ أعتقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، ورَحِمَهُ مِن شَقاءِ الدُّنيا . . كانَ أَولَىٰ مِن رَحِمَتِهِ وعِتقِهِ مِن شَقاءِ الأُخرىٰ ؛ فمَنْ أرادَ طريقَ الحقِّ . . فهو الواضِحُ لمَنْ سَلَكَهُ ، ومَن أرادَهُ أيضاً . . فليفُكَّ نفسَهُ مِن وَثَاقِ الغَمِّ ؛ حتَّىٰ يَتخلَّصَ لِطلَبِهِ ما هو أحوجُ إليهِ ، وَليَفُكَّ رَقَبتَهُ مِن أثقالِ ما في هٰذا العالَمِ الدَّنيِّ التَّالِفِ ؛ فقد رُوِيَ عن سُقْراطَ الإيتِيِّ : أنَّهُ كانَ يأوِي إلىٰ كِسْرِ جُبٍّ قدْ وُطِئَ فيهِ بتُرابٍ ، فقالَ لمَنْ حَضَرَهُ : مَنْ أرادَ قِلَّةَ الغَمِّ . . فليُقِلَّ العَتَهَ ، فقالَ بعضُهم : يا مُعلِّمُ ؛ إنِ انكَسَرَ بقِيَّةُ كِسْرِ الجُبِّ ؟ فقالَ : إنِ انكَسَرَ . . لم يَنكَسِرِ المكانُ ، ولمْ أَعدَمِ التُّرابَ .

---

(١) من حُكماء اليونان ، ذكره ابن النديم في « الفهرست » (ص ٣٠٠) ، وقال : (كان من أكملهم عقلاً ، وأصوبِهم علماً ، وألطفِهم نظراً ، فسقط إلىٰ أرض مِصرَ ، فملك أهلها ، وعمَّر أرضها ، وأصلحَ أحوال سُكَّانها ، وأظهر علمه فيها) .

(٢) في حاشيةِ الأصل : (ولعلَّ : فإذْ تمَّت) .

وقدْ حُكيَ عن أندرَ مَلِكِ رُومِيَّةَ : أنَّهُ أُهدِيَ إليهِ قُبَّةُ بِلَّورٍ ثَمِينَةٌ عجيبةٌ خطيرةٌ ، فَفَرِحَ بها ، وزَادَت بَهجَتُهُ بِوَصفِ مَنْ حضَرَ يُحسِّنُها ، وكانَ في الجُملَةِ الحاضِرَةِ حكيمٌ ، فقالَ لهُ المَلِكُ : ما تقولُ فيها ؛ إذْ أنتَ مُمسِكٌ عنِ الكلامِ ؟ فقالَ لهُ الحكيمُ : أقولُ : إنَّها قدْ أظهَرَتْ منكَ فَقراً وفاقَةً ، ودَلَّتْ منكَ على عِظَمِ مُصِيبَةٍ متىٰ لَحِقَها خَطَرٌ أو عارِضٌ .

فحُكِيَ أنَّ الملِكَ أرادَ التَّنزُّهَ في بَعضِ الجزائرِ بعدَ حينٍ مِنْ مَجلِسِهِ هٰذا ، فأمرَ بحَملِ القُبَّةِ لتُنصَبَ لهُ في مُتَنزَّهِهِ ؛ فَكسَرَها[1] المركَبُ وغَرِقَتْ ، فدَخَلَ على المَلِكِ عِظَمُ مُصِيبَتِهِ ، ولم يَعتَضْ منها بِسَلوَةٍ حتَّىٰ ماتَ ، وكانَ مِن أمرِهِ ما رآهُ الحكيمُ بعَينِ الحكمةِ .

ويَنبَغِي أن تَعلَمَ : أنَّ كلَّ مُصِيبةٍ مِنْ تَالفٍ أو فَائتٍ ممَّا قَدَّمنَا ذِكرَهُ ؛ فإنَّها إنْ تأمَّلتَها . . وجَدتَها تُعصِّبُ مِنْ همِّكَ واشتغالِ قَلبِكَ ، وإذا بَيَّنَّا ذٰلكَ . . زالَتْ عَن طبعِ المصائبِ والمِحَنِ إلىٰ طَبعِ النِّعَمِ ، ومِن ها هنا تَيَقَّنَ أصحابُ العقلِ أنَّ المصائبَ نِعَمٌ يجبُ الشُّكرُ عليها ، والحمدُ لمُولِيها .

فَتأمَّل أيُّها الأخُ هٰذهِ القَضايا مِثَالاً ثابِتاً في ذهنِكَ ، تَستَجِنُّ[2] بها مِنْ آفاتِ الحُزنِ ، وتَبلُغُ بها درَجاتِ أهلِ الزِّيادَةِ ، غيرَ مُمَلِّكٍ أغراضَ الشَّهَواتِ علىٰ نَفسِكَ ، ولا سالِكاً مَسالِكَ الغَمِّ ، لا سِيَّما علىٰ ما ليسَ بواجبٍ في العقلِ ؛ لأنَّا قدْ بَيَّنَّا ما فيهِ مَقنَعٌ لمَنْ تَدَبَّرَهُ .

معَ أنَّ الَّذي يُحزَنُ عليهِ لا يَخلُو مِن أنْ يكونَ فِعلَنا ، أو فِعلَ غَيرِنا ؛ فإنْ كانَ فِعلَنا . . فَينبَغِي ألَّا نَفعلَ ما يُحزِنُنَا ؛ فإنَّا إذا فَعَلنا ما يُحزِنُنا . . فالإمساكُ عَنْ فِعلِهِ إلينا ، فنحنُ نريدُ ما لا نريدُ ، وهٰذا مُحالٌ ، وإنْ كُنَّا نفعلُ ما لا نريدُ . .

---

(١) في المخطوط : (فكسرَتها) .

(٢) في حاشيةِ المخطوط : (استِجنانٌ : استِتارٌ بجُنَّةٍ) .

فهٰذا خاصَّةُ العادمِ عقلَهُ ، وإنْ كانَ المحزِنُ لنا فِعلَ غيرِنا . . فلَا نَحزَنُ علىٰ ما ليسَ لنا ، وما هو عاريَّةٌ معنا ، ولصاحبِهَا استِرجَاعُها إنْ شاءَ .

فمَن رُزِقَ التَّدبُّرَ لِمَا قدْ بيَّنَّاهُ . . فَليُقِلَّ منافستَهُ في الأعراضِ الفانِيَةِ ، وليَتأمَّلْ حقائقَ دَلائلِ الآخرةِ ، وليُنافِسْ في طَلَبِ اللَّذَّاتِ الَّتي لا يُمازِجُها الكَدَرُ ، ولا يُعارِضُها الفسادُ ؛ إذْ كانَتِ المصائبُ عينَ نِعَمٍ ، فكثيراً ما يَعتَدُّ النَّاسُ مُصِيبَةً ونِقمَةً وهُم يَكرَهُونَها[1] .

وأنا أقولُ : إنَّما يَكرَهُ الِاقتضاءَ مَن لمْ يُعِدَّ وفاءَ الدَّينِ ، وأمَّا مَنْ عَدَّهُ . . فهو أشهَىٰ إلىٰ مُقتَضاهُ مِنْ مُقتَضِيهِ .

ولو تَدَبَّرَ النَّاسُ أمرَ الموتِ . . لعَلِمُوا أنَّهُ محمودٌ غيرُ مذمومٍ ؛ لأنَّ الموتَ تَمامُ طبِيعَتِنا ، ولو لمْ يكنْ موتٌ . . لم يكنْ إنسانٌ ؛ لأنَّ حدَّ الإنسانِ وصِفَتَه : هو الحيُّ النَّاطقُ المائتُ ؛ فإنْ لمْ يكنْ يموتُ[2] . . فليسَ بإنسانٍ ، ومعَ هٰذا فهو البَرِيدُ إلىٰ دارِ الآخِرَةِ . وإنْ كانُوا يكرهونَ ذٰلكَ .

ومِثَالُ ذٰلك في الحقيقةِ : لو عَقَلَ الإنسانُ وهو نُطفَةٌ مُمازِجُ القُوَّةِ ، ثمَّ خُيِّرَ نقلَهُ مِنْ نَفسِ الطَّبعِ المُمَازِجِ لهُ . . لمْ يكنْ يختارُ غيرَ ما هو فيهِ ، ثمَّ إذا سَبَقَتِ المَشِيئَةُ مِنْ بارِئِهِ ، والإرادةُ مِنْ خالقِهِ جَلَّتْ قُدرتُهُ ، فنقَلَهُ إلىٰ أنْ صارَ في أُنثَيَينِ ، ولو خُيِّرَ الِانتقالَ . . لمْ يَختَرْ ذٰلكَ ، ثمَّ يُنقَلُ على الرَّحِمِ[3] ، وهو أوسعُ مَحَلّاً مِنَ الأُنثَيَينِ ، فلو خُيِّرَ . . لاختارَ الثَّباتَ ، ثمَّ يُنقَلُ كُرهاً بعدَ كُرهٍ إلى الأحشاءِ والمشِيمَةِ ؛ لتَمامِ الكَونِ والكمالِ .

فلو خُيِّرَ نقلَهُ إلىٰ فُسحَةِ العالَمِ . . لاختارَ مُقَامَهُ ، ثمَّ إنَّهُ مِن جَوفِ أُمِّهِ وخُروجِهِ إلىٰ نَسيمِ هٰذا العالَمِ إنَّما ذٰلكَ على الكُرهِ مِنهُ ، ثمَّ لو قِيلَ بعدَ

---

(١) في المخطوط : (يكرهونَه) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٢) في حاشيةِ المخطوط : (بميِّتٍ) ، وأشار إلىٰ أنها في نسخة .

(٣) في المخطوط : (الرَّحمة) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

مُشاهدَتِه فُسحَةَ العالَمِ : تَرجِعُ إلىٰ جَوفِ أُمّك وما كُنتَ عليهِ شحيحاً . . لكرهَ ذٰلكَ وأباهُ .

فلذٰلكَ أقولُ : مَنْ نُقِلَ إلىٰ عالَمِ البقاءِ وفُسحَتِهِ ، وإنْ كَرِهَ كُلفَةَ النُّقلَةِ لِعِلَّةِ المعرِفَةِ بما هو صائرٌ إليهِ مِنَ الاغتباطِ ؛ بدَوامِ البقاءِ الرُّوحانِيّ ، بِمَا لو خُيِّرَ بعدَ مُشاهدَةِ عالَمِ البقاءِ للرُّجوعِ إلى الدُّنيا ، ويكونُ بجَميعِها كانَ كمَنْ قيلَ لهُ : ارجِع إلىٰ جَوفِ أُمّك مِن بَعدِ مُشاهدَتِه هٰذا العالَمَ .

فليسَ الموتُ مكروهاً لمَنْ قَدَّمَ وعَقَلَ وتدبَّرَ ؛ إذْ نحنُ في عالَمٍ محدودٍ ، ومُلكٍ مَحصُورٍ ، ودارِ زوالٍ ، وسُكنَى انتقالٍ .

فقدْ بَيَّنَّا الآنَ أنَّ الهَمَّ والغَمَّ علىٰ جميعِ مَنْ في هٰذا العالَمِ غيرُ واجِبَينِ في الحقيقةِ ، وتبَيَّنَّا ما بالِغُ الطَّبعِ [1] ، إلىٰ أن يصيرَ مُسلِّماً لِلهَمِّ وسَبَباً للغَمِّ .

وإنَّ كلَّ ما كَثُرَ مِنَ النَّاسِ طالِبُوهُ . . فغيرُ طالِبِي حقيقةٍ ، بلْ باطلٍ ومُحالٍ ، وتَبَيَّنَّا أنَّ الموتَ غيرُ مكروهٍ .

ورأسُ السِّياسَةِ العَقلِيَّةِ تَركُ اتِّباعِ الشَّهَواتِ والهوَىٰ ، وقَمعُ النَّفسِ عن باطلِ الأمانِيّ ، وكاذبِ المواعيدِ ، ولا بُدَّ مِنْ قَطعِ المدَّةِ وبُلوغِ الغايَةِ .

فَمَنْ سامحَ هواهُ ونفسَهُ . . نَدِمَ ، ومَنْ تَدبَّرَ بتَدبيرِ العقلِ . . رَشَدَ ، ومَنْ سَمِعَ الوعظَ والحكمةَ ولم يَعمَلْ بهما . . كانَتا شاهِدَينِ عليهِ ، وهو مَحجُوجٌ بهما .

والله أعلم بالصواب

مؤتي الحكمة وفصل الخطاب

---

(١) وتُقرَأُ : (ما بالَغَ الطَّبعُ) .

من تراث

الإمام أبي حفصٍ عُمر السُّهْرَوَرْدِي

الرّسالة العاشرة

رسالة السيرِ والطيرِ

مقدّمة
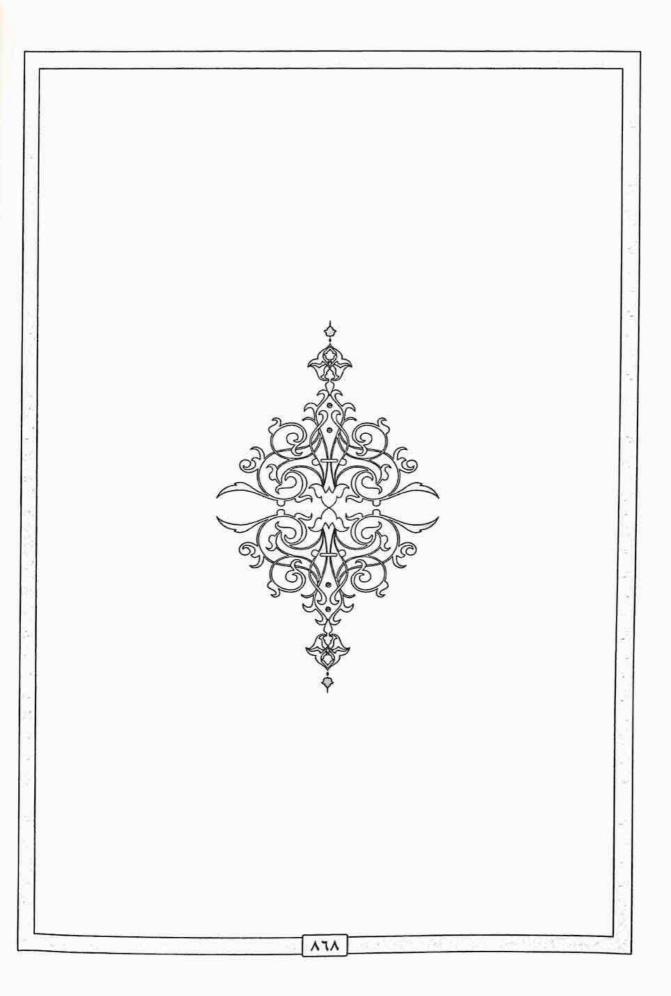
تدورُ الرِّسالةُ حولَ شرحِ حديثِ : « سِيرُوا ؛ سَبَقَ المُفرِّدُونَ »[١] ، وانطَلَقَ منهُ السُّهرورديُّ إلىٰ بيانِ مسائلَ مُهمَّةٍ يُعنىٰ بها السَّالكُ ، وتَتعلَّقُ بالمَقاماتِ والأحوالِ ؛ فشَرَحَ المرادَ بالأمرِ النبويِّ الكريمِ : « سِيرُوا » ، ويُقصَدُ بالسَّيرِ هنا : تَنقُّلُ السَّالكِ مِن مَنزِلٍ إلىٰ مَنزِلٍ[٢] ، ثمَّ بيَّنَ ما يَنبغي أن يَتقدَّمَ علىٰ هٰذا السَّيرِ مِنَ التَّحقُّقِ بحقائقِ الإسلامِ وحقائقِ الإيمانِ ، وبيَّنَ مَنازِلَ هٰذا السَّيرِ ؛ وهي المَقاماتُ المعروفةُ عندَ الصُّوفيَّةِ ، وتَكلَّمَ فيها عن مَقاماتِ الزُّهدِ والتَّوكُّلِ والرِّضا وغيرِها ، وأَوضَحَ كيفَ تكونُ بدايةُ السَّيرِ .

ثُمَّ انتقَلَ إلى الكلامِ على الطَّيرِ ؛ وهي ما يَنتقِلُ إليهِ السَّالكُ بعدَ انتهاءِ سَيرِهِ ، ويُقصَدُ بالطَّيرِ : ما يُعرَفُ في اصطلاحِ التَّصوُّفِ بـ (الأحوالِ) ؛ فكَشَفَ عن دقيقِ الفَرقِ بينَ السَّيرِ والطَّيرِ ببراعةٍ فائقةٍ ، ألا تَرَىٰ أنَّهُ قالَ : (والسَّيرُ جِدُّ العبدِ ، والموهبةُ تَدارُكُ الحقِّ ، وفي تَدارُكِ الحقِّ طيرٌ لا سيرٌ)[٣] ، علىٰ أنَّهُ قدْ أَفسَحَ في كتابِهِ « عوارف المَعارف » المجالَ للتَّفريقِ بينَهُما ؛ وذٰلكَ في البابِ الثَّامنِ والخمسين منهُ .

والشَّيخُ السُّهرورديُّ عندَما يَستعمِلُ مصطلحاتِ التَّصوُّفِ الدقيقةِ ؛ فإنَّهُ يَستعمِلُها بدقَّةٍ مُتناهيةٍ ، ويَضَعُ المُصطَلَحَ ببراعةٍ بالغةٍ في مَوضِعِهِ .

* * *

---

(١) سيأتي تخريجُه في الرسالة (ص ٨٨٣) .
(٢) يُنظر في مصطلحِ (السَّير) : « مُعجَمَ مصطلحاتِ الصُّوفيَّةِ » لعبد المنعم الحفني (ص ١٣٦) .
(٣) وينظر « أبو حفص عمر السُّهروردي ؛ حياتُه وتصوُّفُه » (ص ٧٠) .
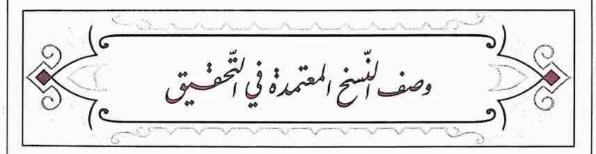
مخطوطُ السَّيرِ والطَّيرِ من فُتوحاتِ العارفِ باللهِ تعالىٰ أبي عبدِ اللهِ عمرَ بنِ محمَّدِ السُّهرَوَرْدِيِّ قدَّسَ اللهُ سِرَّه ، مُشترىً من تَرِكَةِ قاسم باشا ، وأُضِيفت : (٢٦ إبريل ١٨٨١ م) ، مخطوطٌ بدارِ الكتبِ المصريَّةِ رقم (٣٣٠) مجاميع ، في (٨) ورقات .

ورمزنا لها بـ : (أ) .

ونسخةٌ أخرىٰ بمكتبةِ السُّليمانيَّةِ بإستانبول بعنوانِ : « رسالةُ الطَّيريَّةِ » للسُّهرَوَرْدِيِّ ، نور عثمانية ، الأرشيف (٢٤٠٢) رقم التَّصحيحِ (٩٢٧ = ٢٩٧،٢) في (٥) ورقات .

ورمزنا لها بـ : (ب) .

ونسخةٌ ثالثةٌ ضِمنَ مجموعةٍ مِنْ : « أسئلةٍ سُئِلَ عنها السُّهرَوَرْدِيُّ شهاب الدِّينِ وأجوبتِه عليها وجُملٍ من كلَامِه ووصاياه » ، نسخةٌ كُتبت في القَرنِ الثَّامِنِ الهِجرِيِّ بمعهدِ إحياءِ المخطوطاتِ العربيَّةِ بالقاهرةِ ، (٢٩ تصوُّف) ، الورقتان (١٦٧ ـ ١٦٨) .

ورمزنا لها بـ : (ج) .

وتوجدُ منها عشرُ نُسَخٍ عِلاوةً علىٰ ما ذكرنا ؛ وهي كالآتي :

العراق :

مكتبةُ الأوقافِ العامَّة في بغداد ، برقم (١٣/٧٠٧١) ، ورقم (٥/٩٧٧٨) ، وكلاهما في ورقةٍ واحدةٍ .

تركيا :

١ ـ الشَّهيد علي : برقم (١٣٩٣) ، الأوراق (٦٠ ـ ٦٣) .

٢ ـ كوبريلي : برقم (١٥٨٩) .

٣ ـ بروسه أولو جامع : تصوف (٦٥/٥) .

إيران :

مكتبة رَضَوي برقم (٦١١) ، ورقم (١١٤٥٢) والتي كتبت في (١٠١٩ هـ) وقد طبعت الأولىٰ في طهران (١٩٩٣ م) ضمن مجموعةِ أعمالِ المقتولِ .

آذربيجان :

معهد المخطوطات العربية في باكو برقم (٢٧٨٥/٤٤١٠ ـ b)

وهٰذا الرَّقمُ يتوافقُ مع رقمِ مَخطوطِ « وَصيَّةِ السُّهرورديِّ لولدِه » في نفس الدَّولةِ والمركَزِ .

ألمانيا :

١ ـ مكتبة الدَّولة ببرلين : برقم (٣٣٠٤) .

٢ ـ مكتبة جامعة توبنغن : برقم (٨٩/١١) الأوراق (١٠٦ ب ـ ١٠٨ب) .
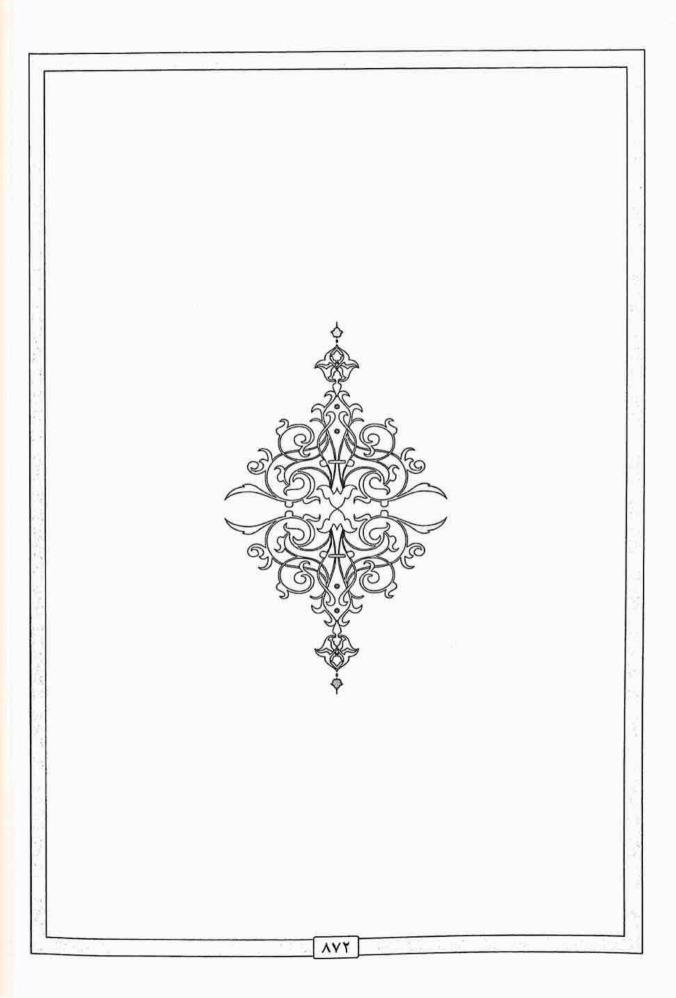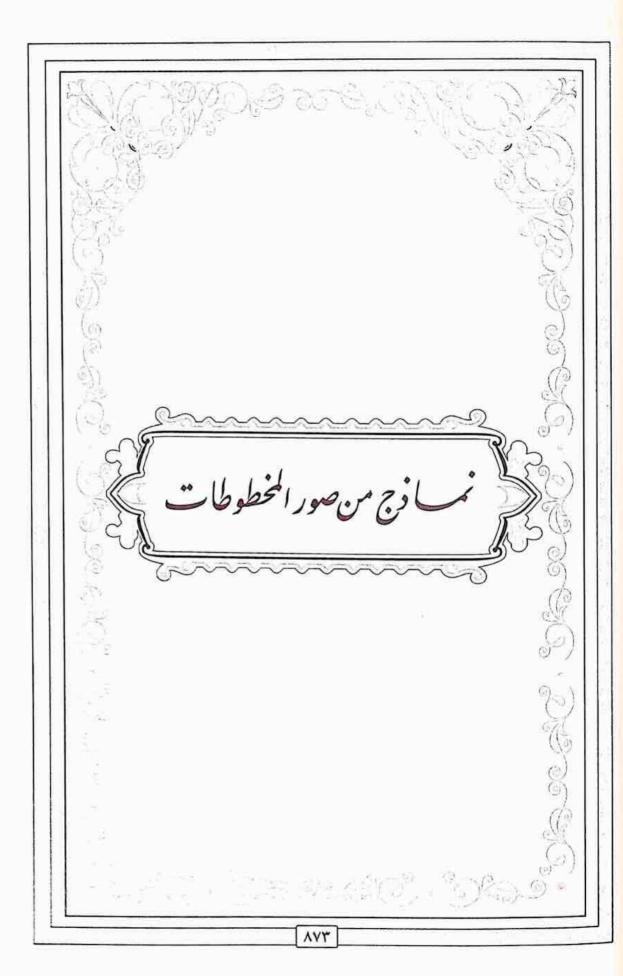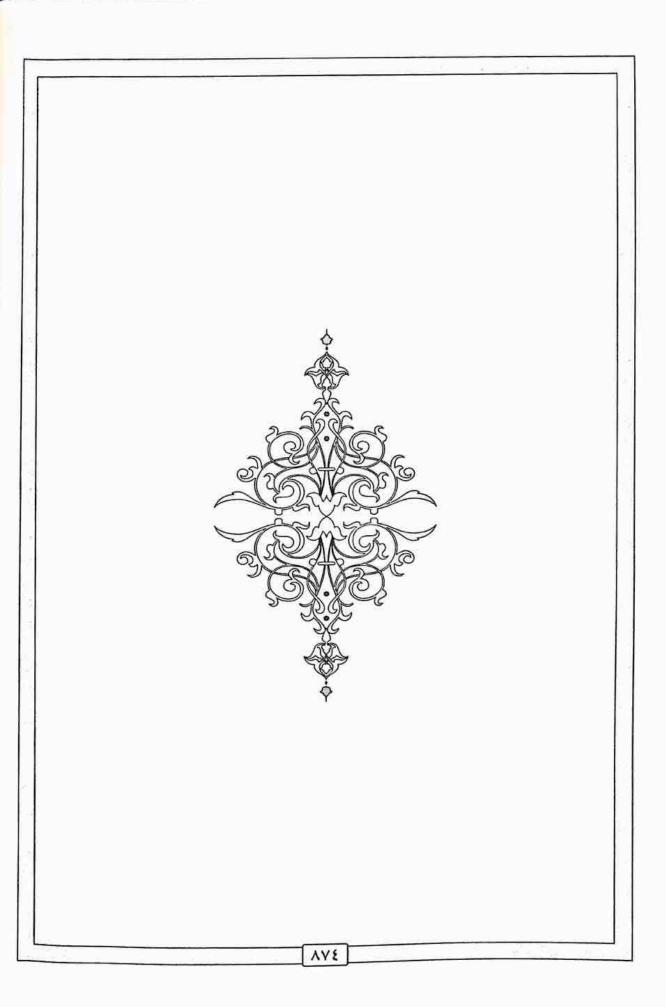
نماذج من صور المخطوطات

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيروا سبق المفردون قيل من المفردون يا رسول الله قال المستهترون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث لأصحابه خاصة ولأمته عامة فقد قال صلى الله عليه وسلم قولي للواحد كقولي للجماعة أمرهم بالسير بعد تحققهم بحقايق الاسلام ثم التحقق بحقايق الايمان ثم التحقق بالسير فمن يتحقق بالاسلام كيف يومر بالتحقق بحقايق الايمان ومن لم يتحقق بالايمان كيف يومر بالسير فالتحقق بالاسلام اجتهاد والتحقق بالايمان سلوك ثم بعد السلوك السير المامور به قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين فالمجاهد

هى

نسخة دار الكتب المصرية (أ)

متصل ازله بابده وابده بازله فاحترقت اوزارهم
وصفت اسرارهم وتكاملت انوارهم نظيرا لهم وصفا
الباطن وسيرهم وصف الظاهر فنظيرالهم وصف
الارواح وسيرهم تقوية القلوب وسلوكهم لتهذيب
النفوس واجتهادهم اول الامر واساسه فالطاير
ساير وسالك ومجتهد ومن اشار الى شيء من الطير
منخرم عليه قاعدة لحصاب الاجتهاد بتحقيق مباني
الاسلام فهو مدع كذاب الا ان يكون مفتتنا تواب.
امن طلبه بالعبودية لايجده ومن طلبه به يوشك
ان يجده ، ؛ الذكر يمنعني والجود يطمعني
والحق يمنع عن هذا وعن ذاكا ، ؛ ، ؛ ؛
؛ ؛ ؛ فلا وجود ولا ذكر اسر به
احيى فؤادي اذا ناديت اياكا ، ؛ تمت الرسالة
بحمد الله وعونه قدس الله سر
منشيها ونفعنا به وبالمليين
امين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيروا سبق المفردون

قيل من المفردون يا رسول الله قال المستهترون

بذكر الله وضع الذكر عنهم اوزارهم فوردوا

القيامة خفافا قال الشيخ شهاب

الحق والدين عمر ابن محمد السهروردي نور الله مضجعه

في السير والطير خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث

لاصحابه خاصة ولامته عامة وقد قال عليه السلام قولي

للواحد كقولي للجماعة امرهم بعد تحققهم بحقايق الاسلام ثم

التحقق بحقايق الايمان بالسير فمن لم يتحقق بحقايق الايمان

الاسلام كيف يؤمر بالتحقق بحقايق الايمان ومن لم يتحقق

كما

نسخة المكتبة السليمانية تركيا (ب)

لم يحوهم حدود الاسماء والصفات ولم يسعهم غير اقطار ذكر
الذات فصار لهم طيران في جو فضاء الثبوت في متسع
غير محدود متصل ازله بابده وابده بازله فافترقت
اوزارهم فطيرانهم وصف الباطن وسيرهم وصف الظاهر
وطيرانهم حظ الارواح وسيرهم تقوية القلوب وسلوكهم
تهذيب النفوس واجتهادهم اول الامر واساسه فالطاير
ساير وسالك ومجتهد ومن اشار الى شيء من الطير
متخرم عليه فاعدم الاجتهاد بتحقق مباني الاسلام
فهو مدع كذاب الا ان يكون مفتتنا توابا تمت

الرسالة الطيرية بحمد الله
وحسن توفيقه

نسخة المكتبة السليمانية تركيا (ب)

رِسَالَةُ السَّيْرِ وَالطَّيْرِ

مِنْ فُتُوحَاتِ العَارِفِ بِاللهِ تَعَالَىٰ

أَبِي عَبْدِ اللهِ عُمَرَ بنِ مُحَمَّدٍ السُّهْرَوَرْدِيِّ

قدس الله سره

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصَلَّى اللهُ علىٰ سَيِّدِنا محمَّدٍ وعلىٰ آلِهِ وصَحبِهِ وسَلَّمَ

قال رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « سِيرُوا ؛ سَبَقَ المُفَرِّدُونَ » ، قيلَ : مَنِ المفرِّدُونَ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قال : « ٱلْمُسْتَهْتَرُونَ[1] بِذِكْرِ ٱللهِ ، وَضَعَ ٱلذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ ، فَوَرَدُوا ٱلْقِيَامَةَ خِفَافاً »[2] .

خِطابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في هٰذا الحَديثِ لأَصحابِهِ خاصَّةً ، ولأُمَّتِهِ عامَّةً ، وقدْ قالَ صلى الله عليه وسلم : « قَوْلِي لِلْوَاحِدِ كَقَولِي لِلْجَمَاعَةِ »[3] ، أمرَهُم بالسَّيرِ بعدَ تَحقُّقِهِم بِحقائقِ الإسلامِ ، ثمَّ التَّحقُّقِ بِحقائقِ الإيمانِ ، ثمَّ التَّحقُّقِ بالسَّيرِ ؛ فمَنْ لمْ يَتحقَّقْ بحقائقِ الإسلامِ . . كيفَ يُؤمَرُ بالتَّحقُّقِ بِحقائقِ الإيمانِ ؟! ومَنْ لمْ يَتَحقَّقْ بحقائقِ الإيمانِ . . كيفَ يُؤمَرُ بالسَّيرِ ؟!

فالتَّحقُّقُ بالإسلامِ اجتِهادٌ ، والتَّحقُّقُ بالإيمانِ سُلوكٌ ، ثمَّ بعدَ السُّلوكِ السَّيْرُ المأمُورُ بِهِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾[4] .

---

(١) ومعنى الحديث هنا : هو نصيحة من الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بأن يكون سيرهم وتعاملهم مع الله تعالىٰ كما يسير من سبقهم من المفردين ؛ وهم الذين تفردوا وتخلوا عن أي شيء ، وانقطعوا لذكر الله تعالىٰ ، والمستهترون ؛ تعني : المولعين بذكر الله دون غيره ، وهنا يقول ابن منظور في لسان العرب : (المفردون : الشيوخ الذين كبروا في طاعة الله وأهتروا في ذكر الله ؛ أي : خرفوا وهم يذكرون الله) . انظر : « لسان العرب » (هـ ت ر) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٦) والترمذي (٣٥٩٦) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، بنحوه .

وللحكيم الترمذي رسالة بعنوان : « مسألة في وصف المفردين » من مطبوعات دار الفتح بالأردن ، يحسن مراجعتها لمزيد الفائدة ، وفي (ب) زيادة : (قال الشَّيخُ شهابُ الحقِّ والدِّينِ ؛ عمرُ بنُ محمَّدٍ السُّهرَوَرْدِيُّ نوَّرَ اللهُ مَضجَعَهُ في السَّيرِ والطَّيرِ) ، جعلَها النَّاسخُ فرقاً بين الحديثِ وشرحِه .

(٣) تقدم تخريجه (ص ٦٧٥) .

(٤) سورة العنكبوت : (٦٩) .

فالمُجاهَدَةُ هي أوَّلُ البِدَايَةِ ، والهِدايةُ هيَ مُرتَّبةٌ عليهَا ؛ فمَنْ أَحكَمَ مَبانِيَ الإسلامِ . . يُرجَىٰ أنْ يكُونَ مِنْ أَهلِ السُّلوكِ ، ومَنْ لمْ يُحكِم مَبانِيَ الإسلامِ ، ولَم يَثبُتْ قَدَمُهُ في الِاجتهادِ . . لا طَمَعَ لَهُ في السُّلُوكِ ؛ فإنَّ مَثابةَ الِاجتهادِ مِنَ السُّلوكِ كمَثابةِ الِاستِنجاءِ مِنَ الوُضوءِ ؛ فمَنْ لا استِنجاءَ لهُ . . لا وُضوءَ لهُ ، ومَثابةُ السُّلُوكِ مِنَ السَّيرِ كمَثابةِ الوُضوءِ مِنَ الصَّلاةِ ؛ فمَنْ لا وُضوءَ لهُ . . لا صَلاةَ لهُ .

وقدْ أخطأَ قَومٌ طَرِيقَ الصَّوابِ ، وأَخَلُّوا بما وجَبَ عليهِم في مَنطُوقِ السُّنَّةِ والكِتَابِ ، وادَّعَوا أنَّهُم مِن أهلِ السُّلوكِ ، فَدَعوَاهُم زُورٌ وبُهتانٌ ، وإِثمٌ وعُدوَانٌ ؛ لأنَّ الطَّرِيقَ إلى السُّلوكِ مَسدُودٌ قبلَ الِاجتهادِ .

والسُّلوكُ كما ذَكَرناهُ : هو التَّحقُّقُ بحقَائقِ الإيمانِ ، وهُم حرَّفُوا الكلامَ عن مَواضِعِهِ ، واعتَقَدُوا السُّلوكَ غيرَ ما هو مَعرُوفٌ بهِ .

فالِاجتهادُ أوَّلُ الطَّرِيقِ ؛ وهو التَّحقُّقُ بحقَائقِ الإسلامِ ، ومِنْ ضَرُورَةِ ذٰلكَ : صِحَّةُ التَّوبةِ ؛ حتَّىٰ يَبقَى المُجتَهِدُ تحتَ عُقْمَةِ التَّحقُّقِ بالإسلامِ ؛ حتَّىٰ لا يكتبَ عليهِ صَاحِبُ الشِّمالِ شَيئاً ، وهـٰذا لِخَواصِّ المُسلِمينَ ، لا لِعَوامِّهِم .

فَإِذَا تَحقَّقَ بالِاجتهادِ . . تَرقَّىٰ إلىٰ حقَائقِ الإيمانِ ، ويَصِيرُ مِن أَهلِ السُّلوكِ .

ومِن ضَرُورةِ ذٰلكَ : التَّحقُّقُ بِقَولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾[1] ، فقَولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾[2] لعوامِّ أهلِ الإيمانِ ، و﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ لخواصِّ أهلِ الإيمانِ .

والتَّقيُّ حَقَّ التُّقاةِ زِياداتٌ يتَّقِيهَا ، غيرَ ما تَصِحُّ بهِ تَوبتُهُ في رُتبةِ الِاجتِهادِ ؛ وهو التَّحقُّقُ بالإسلامِ ـ وهو كالخوضِ فيما لا يعني قَولاً وفِعلاً ـ ولُزومُ المُحاسَبةِ وَدَوامُ المُراقَبةِ والرِّعايةِ وإلىٰ غيرِ ذٰلكَ ، ثمَّ إذَا تَحقَّقَ بِذَٰلكَ . . صار سَالِكاً ، وعندَ

---

(١) سورة آل عمران : (١٠٢) .

(٢) سورة التغابن : (١٦) .

ذٰلكَ يَدخلُ تحتَ أَمرِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وخِطَابِهِ : « سِيرُوا ؛ سَبَقَ ٱلْمُفَرِّدُونَ » ، ويَرتَقِي مِنَ السُّلوكِ إلى السَّيرِ .

والسَّيرُ المَأمُورُ بهِ : تَجرِيدُ التَّوحِيدِ ، ونَفيُ رُسُومِ الأغْيارِ في النَّفعِ والإضرارِ ، والمنعِ والإيثارِ ، وعندَ ذٰلكَ تَقوىٰ جَواذِبُ بَاطنِهِ إلى الحَضْرةِ الإلـٰهيَّةِ ، وتُطالِبُهُ جَواذِبُ الرُّوحِ بِالسَّيرِ إلىٰ مَحلِّ العِندِيَّةِ ، فيَبتدِئُ بِالسَّيرِ .

وأَوَّلُ السَّيرِ : تَحقُّقُ الزُّهدِ في الدُّنيَا بِرفضِ الجَاهِ والمَالِ ، ثمَّ مُجانبةِ خَفِيِّ الهَوَىٰ ودَقِيقِ شَرَهِ النَّفسِ وشَهواتِهَا الخَفِيَّةِ ؛ فبذٰلكَ يَتحقَّقُ بِالزُّهدِ ، ويَتحقَّقُ بالسَّيرِ ، ويُـرزَقُ عندَ ذٰلكَ دَوامَ المُرَاقبَةِ لِلرَّقِيبِ ، ودوامَ التَّطلُّعِ إلَىٰ حَضرَةِ الحَبِيبِ ، ويُفتَحُ عليهِ في هـٰذا المَقَامِ بَابُ التَّعرِيفَاتِ الإلـٰهِيَّةِ ، ويُبادَأُ بالتَّجلِّياتِ الخَفِيَّةِ ، ويَنكَشِفُ لهُ صِرْفُ التَّوحِيدِ بتَجرُّدِ فِعلِ اللهِ تعالىٰ ، ويَتجلَّىٰ لهُ الحَقُّ بِطَرِيقِ الحَوادثِ والعَوارِضِ إذا صارَ الحَقُّ عِندَهُ هو الفَاعِلُ حَقيقةً ذَوقاً وحالاً ، لا نظراً وعِلماً ، وهـٰذا هو التَّجلِّي بِطَرِيقِ الأفعالِ ، ويَدخُلُ في مَحوِ فِعلِ نَفسِهِ ؛ كمَا يدخلُ في مَحوِ فِعلِ غيرِهِ .

ويَرتَقِي إلى المقامِ الثَّانِي في السَّيرِ : وهو التَّوكُّلُ على الوَكِيلِ ، والتَّفوِيضُ إلَى الكَفِيلِ ، ثمَّ تَعُوقُهُ النَّفسُ في مَنزِلِ التَّوَكُّلِ في سَيرِهِ عن صِدقِ السَّيرِ بِوُجُودِهِ مُزاحَمةً يَسيرَةً ، فَيَتخطَّىٰ مَنزِلَ التَّوكُّلِ في سَيرِهِ إلىٰ مَنزِلِ الرِّضَا ، وَفي كلِّ مَنزِلٍ مِن هـٰذه المَنازِلِ في سَيرِهِ يَذُوبُ جُزءٌ مِنْ وُجودِهِ ، ويَضْمَحِلُّ شَيءٌ مِنْ كَونِهِ ؛ حتَّىٰ يَنتهِيَ سَيرُه فَينتهيَ مَا مِنهُ بِانتِهاءِ سَيرِهِ ، ثمَّ يَبدُو لهُ ما مِنَ اللهِ تعالىٰ مِن غيرِ مُكتَسَبِهِ[١] ؛ وهو مَقامُ المُفرِّدِينَ المَحكُومِ لهُم بِالسَّبقِ في قَولِهِ صلى الله عليه وسلم : « سَبَقَ المُفَرِّدُونَ »[٢] ، فكانَ سَبْقُهُم لسابقتِهِم ، ومِنْ سَابِقَتِهِم مَحضَ المَوهِبَةِ[٣] ، والموهِبةُ لا سَيرَ فِيها .

---

(١) في (ب) : عبارتُها : (ثُمَّ يبدأ له مِن وجودٍ من غيرِ مكتَسبِه) .

(٢) تقدم تخريجه (ص ٨٨٣) .

(٣) في (ب) : (فكان سبقهم لسابقهم محض الموهبة) .

والسَّيرُ : جِدُّ العَبدِ .

والمَوهِبَةُ : تَدارُكُ الحقِّ ، وفي تَدارُكِ الحَقِّ طَيرٌ لا سَيرٌ .

والطَّيرُ ليسَ مِنْ شُغُلِ الآدَمِيِّ ؛ وإنَّما شُغْلُ الآدَمِيِّ في السَّيرِ ، فإذَا صارَ طَيراً . . صارَ فِعلُ الحقِّ سُبحانَهُ وتعالىٰ في الطَّيرِ مُكَاشَفةَ الرُّوحِ بِصَريحِ الفُتُوحِ .

وأَوَّلُ ذٰلكَ : المحبَّةُ الخاصَّةُ ، غيرُ المَحبَّةِ العَامَّةِ المُفسَّرةِ بامتثَالِ الأمرِ ، وهٰذه المحبَّةُ خَاصَّةٌ لِخواصَّ مِنْ أهلِ القُرْبِ والطَّيرِ ، وفي هٰذا الطَّيرِ نَوازِلُ ، وَلَوامِعُ ، وَلَوائِحُ ، وَطَوالِعُ ، وَتَلوِيناتٌ (١) ، وهٰذِهِ التَّلوِينَاتُ عَامٌّ وصْفِ الطَّائرِ (٢) .

وفيها تَجلِّياتٌ بِطَريقِ الصِّفاتِ ، ويَكونُ فيها ما يَظهرُ مِنَ الهَيبةِ والأُنسِ والاِبتِهَاجِ والوَجْدِ وغيرِ ذٰلكَ .

ونَفسُ الطَّائرِ مُطمَئِنَّةٌ ، ونَفسُ السَّائرِ لَوَّامةٌ ، ونَفسُ السَّالكِ والمُحِبِّ والمُجتَهِدِ مُتَرَدِّدةٌ ؛ تَارةً لَوَّامةٌ ، وأُخرَىٰ أَمَّارةٌ ، إلىٰ أن تَسلَمَ بها نَسْمَةٌ مِنَ الطُّمَأنِينَةِ .

وفي مَقامِ المُفرِّدِينَ تَجلِّي الصِّفاتِ ، ووصفُهُمُ الخَاصُّ الاِستِهتارُ ، وفيهِ لَوَامِعُ مِنْ تَجلِّياتِ الذَّاتِ ، وذِكرُهُمُ الَّذِي استُهتِرُوا بهِ ذِكرُ الذَّاتِ ، غيرُ ذِكرِ اللِّسانِ وذِكرِ القلبِ المَحدُودِ والمَخصُوصِ (٣) ؛ بِصِفَةٍ مَخصُوصَةٍ واسمٍ مَخصُوصٍ ؛ لأَنَّهُم حَيثُ استُهتِرُوا بالذِكرِ . . لم تَحوِهِم حُدودُ الأسماءِ والصِّفاتِ ، ولم يَسَعْهُم غيرُ أقطارِ ذِكرِ الذَّاتِ ؛ فَصارَ لَهُم طَيرَانٌ في جَوِّ فَضَاءِ القُرْبِ في مُتَّسَعٍ غيرِ مَحدُودٍ ، مُتَّصِلٍ أَزَلُهُ بِأَبَدِهِ ، وأَبَدُهُ بِأَزَلِهِ ، فَاحتَرقَتْ أَوزارُهم ، وصَفَت أَسرارُهُم ، وتَكامَلَتْ أَنوَارُهم ؛ فَطَيَرانُهُم وصفُ البَاطِنِ ، وسَيرُهُم وَصفُ الظَّاهرِ ، وطَيَرانُهم

---

(١) انظر في تفسير هٰذه المصطلحات « الرسالة القشيرية » (ص ٢٧٢) .

(٢) في (أ) : (وهٰذه التلوينات عَلَمُ عامٍّ وصفِ الطائر) .

(٣) في (ب) : (المَحصُورِ) .

حَظُّ الأَرواحِ ، وسَيرُهم تَقويةُ القُلوبِ ، وسُلوكُهم تَهذِيبُ النُّفُوسِ ، واجتهادُهم أوَّلُ الأمرِ وأساسُهُ ، فالطَّائرُ سَائرٌ وسَالِكٌ ومُجتهِدٌ .

ومَنْ أشارَ إلىٰ شَيءٍ مِنَ الطَّيرِ مُنخَرِمٌ عليهِ قَاعدَةُ الاجتهادِ بِتَحقُّقِ مَبانِي الإسلامِ . . فهو مُدَّعٍ كذَّابٌ ، إلَّا أنْ يكونَ مُفتَّناً توَّاباً[1] ، مَنْ طلبَهُ بالعُبودِيَّةِ . . لا يَجِدُه ، ومَن طلبَهُ بهِ . . يُوشِكُ أنْ يَجِدَهُ .

اَلذِّكْرُ يَمْنَعُنِي وَاَلْجُودُ يُطْعِمُنِي[2] وَاَلْحَقُّ يَمْنَعُ عَنْ هَٰذَا وعَنْ ذَاكَا

فَلَا وُجُودٌ وَلَا ذِكْرٌ أَسَرُّ بِهِ أُحْيِي فُؤَادِي إذَا نَادَيتُ إيَّاكَا[3]

تمّت الرّسالة بحمد الله وعونه ، قدّس الله سرّ منشئها ونفعنا به والمسلمين ، آمين

---

(١) إلىٰ هنا ينتهي مخطوطُ (ب) . وختَمَها بقوله : (تمَّتِ « الرِّسالةُ الطَّيريَّةُ » بحمدِ اللهِ وحُسنِ تَوفيقِه) .

(٢) الجودُ والجهدُ : مصطلحانِ مُتقابِلانِ عند السَّادةِ الصُّوفيَّةِ ، يُعبِّرانِ عن حدودِ عَملِ العبدِ في مِعراجِهِ الرُّوحيِّ ، ويُعبِّرانِ عن أنَّ هٰذا المِعراجَ لا يُدركُ بمُجرَّدِ الجهدِ البَشريِّ فحَسْبُ ، وإنَّما يحتاجُ أن يُكمَّلَ و يُكلَّلَ بالتَّوفيقِ ؛ فيُعنَىٰ ويُرعَىٰ بعنايةِ اللهِ ورعايتِه الَّذي يُعبَّرُ عنه بـ (الجودِ الإلٰهيِّ) .
بل إنَّهم يرونَ أنَّ الجهدَ لا يكفي وحدَهُ إن لم تَحُطهُ وتَلحَظهُ العِنايةُ الإلٰهيَّةُ ؛ فيقولونَ : إنَّ الجهدَ تَجلٍّ مِن تَجلِّياتِ الجودِ الإلٰهيِّ ، ونجدُ هٰذا التَّعبيرَ في مقولةِ لأبي يزيدَ البِسطاميِّ : (كنتُ أظنُّ أنِّي أحبُّهُ وأعرفُهُ وأطلبُهُ ، ولما انتهيتُ . . عرفتُ أنَّه هو الَّذي يُحِبُّني ويَعرفُني ويَطلُبُني) ، فما كان العبدُ ليُحِبَّ اللهَ أو يُفكِّرَ في المعراجِ الرُّوحيِّ إليه لو لمْ يُوفِّقْهُ اللهُ ، وهٰذا التَّوفيقُ دَلالةٌ علىٰ عِنايَةِ اللهِ تعالىٰ له ورعايتِه إيَّاه .
وما رسالةُ « السَّيرِ والطَّيرِ » إلَّا بيان وإظهار لهٰذينِ الجانِبَينِ مِن خِلالِ وصفٍ كاملٍ شاملٍ للسُّلوكِ أوِ المعراجِ الرُّوحيِّ ، ولذا ناسبَ أن يختمَ المصنِّفُ رسالتَه بهٰذينِ البَيتينِ .
فالسَّيرُ يُقابِلُه الجهدُ ، والطَّيرُ يُقابِلُه الجودُ ، وبهما معاً يَتدرَّجُ العبدُ ويترقَّىٰ في منازِلِ القربِ ويُوصَلُ ، وإن كان بابُ الوصلِ والوصولِ مِن خِلالِ الجودِ مَقصوراً علىٰ مَن لاحَظته العِنايةُ الإلٰهيَّةُ دون غيره ، وقوله : (يطعمني) كذا في الأصل ، ولعله : (يطمعني) .

(٣) البيتان لأبي الحسن النوري . انظر : « متصوفة بغداد » لعزيز السيد جاسم (ص ١٤٠) ، وهما من البسيط .

من تراث
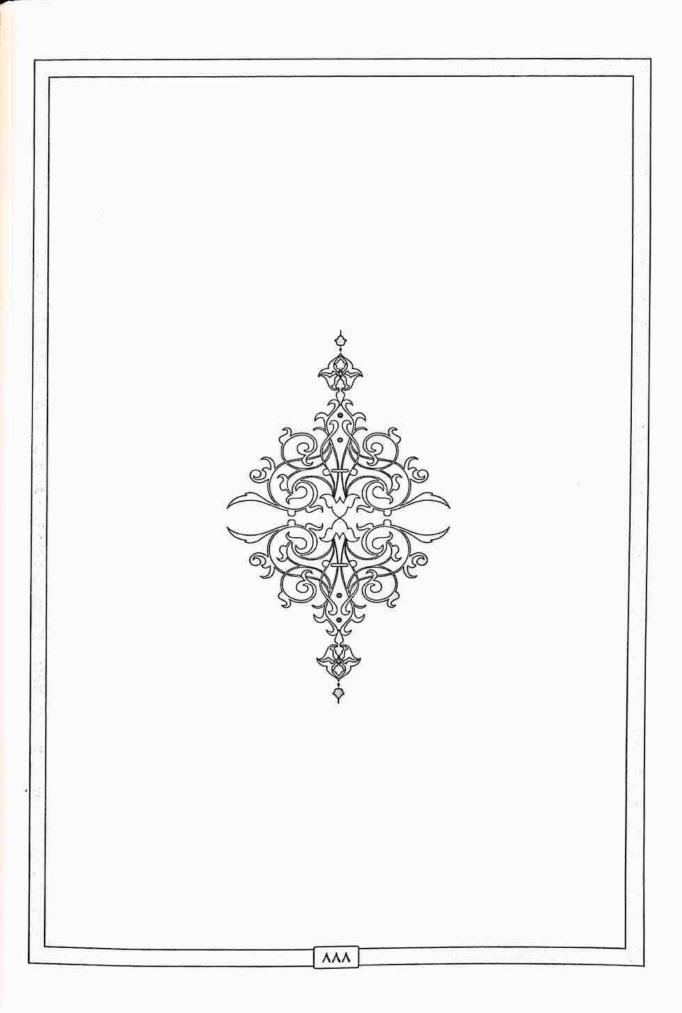
الإِمَامِ أبي حَفْصٍ عُمَر السُّهْرَوَرْدِيّ

الرّسالة الحادية عشرة

كشْفُ الغِطَاءِ لإِخْوَانِ الصَّفَاء

مقدّمة
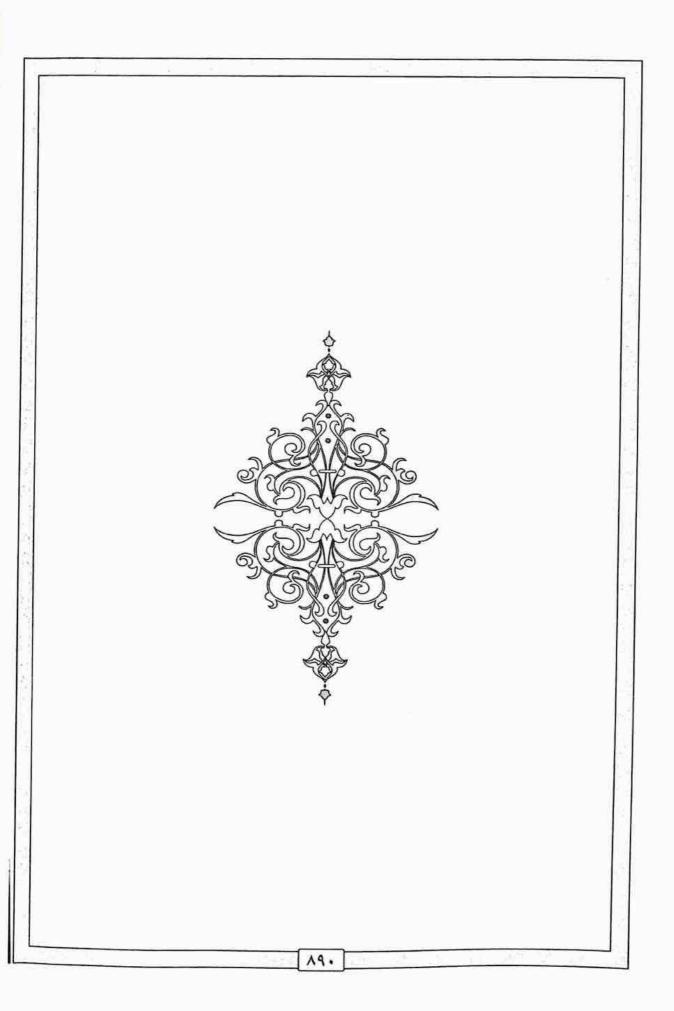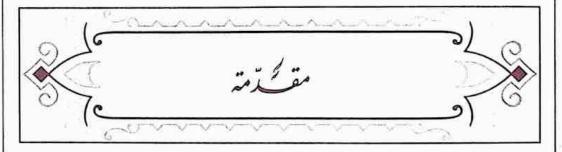
عقَدَ السُّهرورديُّ في هٰذه الرِّسالةِ أربعةَ فصولٍ مُوجَزةٍ تدورُ حولَ بعضِ الحقائقِ المعرفيَّةِ الَّتي مِنْ شأنِها أن تُرقِّيَ أربابَ النَّظَرِ والبرهانِ إلىٰ رُتبةِ أصحابِ العَينِ والعِيانِ ؛ فتكلَّمَ عن المعلولِ وكونِهِ صورةَ العلَّةِ وظاهرَها ، وعنِ العلَّةِ وكونِها حقيقةَ المعلولِ وباطنَهُ ، وأنَّ جميعَ كمالاتِ المعلولِ إنَّما هو أوصافٌ للعلَّةِ وكمالاتِها ، تجلَّت في ماهيَّةِ المعلولِ .

والسُّهرورديُّ في الرِّسالةِ يستعملُ الاصطلاحاتِ الصُّوفيَّةَ الدَّقيقةَ ؛ كالعلَّةِ ، والمشاهدةِ ، والمرآةِ ، والبَيْنِ ، والحَضرةِ الأحديَّةِ ، وغيرِها ، وهٰذا ما جَعَلَ أسلوبَها دقيقاً يحتاجُ إلىٰ تأنٍّ في القراءةِ إذا ما قُورِنَ بكتُبٍ أُخرىٰ لهُ كـ « عوارفِ المعارفِ » .

ونسبة هٰذه الرسالة إلى الشهاب محلُّ شكٍّ ؛ فقد نسبها مفهرسو « خِزانةُ التراث » ، و« معجَمُ تاريخ التراث الإسلامي » (٣٩٠٧/٥) إلى السُّهرَوَرْدِيِّ المقتول (ت ٥٨٧ هـ) .

وما دفعني إلىٰ إخراجِها في جملةِ تراثِ الشِّهابِ أبي حفصٍ هو عِدَّةُ أمورٍ ؛ منها :

أولاً : موضوعُهُ ؛ فهو ذو صلةٍ بعلاجِ النَّفس في تقويمِ اعوجاجِها ، الأمرُ الَّذي يحرصُ عليه الشِّهابُ في سائرِ ما كتبَ ، وسائرُ المتصوِّفةِ .

ثانياً : نَفَسُهُ في الرِّسالةِ ، وتَردادُهُ لبعضِ المصطلحاتِ المعهودةِ عنهُ .

ثالثاً : قدْ صنَّفَ في الرَّدِّ على الفلاسفةِ كتاباً باسمِ : « كشفُ الفضائحِ

اليُونانيَّةِ ورَشفُ النَّصائحِ الإيمانيَّةِ » ، فحاكاهم في ألفاظِهم ، وجاراهم في مُصطلحاتِهم .

وقد نصَّ المؤلِّف علىٰ عنوانِ الرسالة في مُقدِّمتِها ؛ فقال : (هٰذه اللمعة موسومة بـ « كشف الغِطاء لإخوانِ الصَّفاء ») ؛ هٰكذا بالهمز ، وهو ما أثبتناه ، وإن كان مثل هٰذا مما تتصرَّف فيه أقلام النُّسَّاخ ، لٰكنه أَوْلىٰ ؛ لدفع ما قد يُتوهَّم من انتساب هٰذا الكتاب لجماعة « إخوانِ الصَّفا » المعروفةِ تاريخيّاً .
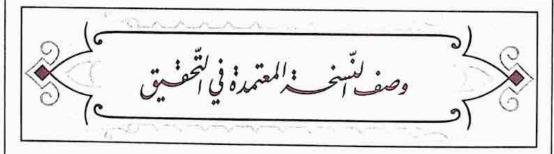
مخطوطٌ بمكتبةِ السُّليمانيَّةِ بإستانبول ، الشَّهيد علي باشا ، رقم المجموعة : (١٣٨٢ ـ ٠٠٤) ، الأوراقُ (٢٢ ـ ٢٤) .

وعِلاوةً علىٰ نسخةِ الشَّهيدِ عليّ المعتَمَدَةِ في تَحقيقِنا يُوجَدُ منها ثلاثُ نُسخٍ أخرىٰ كلُّها في إستانبول :

أحدُها : في أحمد الثَّالث ، برقم (٢١/١٤٦١) ، وتَشغَلُ الورقَتينِ (١٤٠ - ١٤١) .

أمَّا النُّسختانِ الأخُريانِ :

فالأُولىٰ منهما : في راغب ، برقم (٩/١٤٨٠) .

والأُخرىٰ : في وليّ الدِّينِ ، برقم (١٧/١٨٢٦) .

نماذج من صور المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي الا بالله اللهم اعذنا
من غيرك اليك ٥ واعذنا للمثول بين يديك ٥
واجعلنا ممن تغلغل في بصيرته جمالك ٥ وتوغل
في نقيصته كمالك ٥ وصلى الله على الائمة الانبياء ٥ وآلهم
الاتقياء ٥ وخصص محمدا واله باسنى صلواتك وازكى
تحياتك وبعد فان هذه اللمعة موسومة بكشف
الغطاء ٥ لاخوان الصفا ٥ ابرزتها الرحمة الازلية
لترقي رباب النظر والبرهان ٥ الى رتبة اصحاب العين
والعيان ٥ جمع الله سبحانه اخوان التجريد في مقعد
صدق عند مليك مقتدر فصل المعلول صورة
العلة وظاهرها والعلة حقيقة المعلول وباطنه لان
المعلول من حيث هو هو ممكن الوجود وليس له الا قبول
الوجود فاذا اوجدته العلة فجميع ما يشاهد منه من الكمالات

لعل
وصل اللهم

نسخة المكتبة السليمانية (تركيا)

كشف الغطاء
لإخوان الصفاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وما توفِيقي إلَّا باللهِ ، اللَّهمَّ ؛ أعِذْنا مِنْ غَيرِكَ إليك ، وأعِدَّنَا للمُثُولِ بينَ يدَيكَ ، واجعَلنا مِمَّنْ تَغلغَلَ في بَصيرتِهِ جَمالُكَ ، وتَوغَّلَ في نَقِيصَتِهِ كمالُكَ ، وصلَّى اللهُ[1] على الأئمَّةِ الأنبياءِ ، وآلِهِمُ الأتقياءِ ، وخَصِّصْ مُحمَّداً وآلِه بأسنَىٰ صَلواتِكَ ، وأزكَىٰ تَحِيَّاتِكَ .

وبعـد :

فإنَّ هٰذه اللُّمعَةَ[2] مَوسُومَةٌ بـ : « كَشفُ الغِطاءِ لإخوانِ الصَّفاءِ » ، أَبرَزَتْها الرَّحمةُ الأَزَلِيَّةُ ؛ لتُرقِّيَ أربابَ النَّظَرِ والبُرهانِ إلىٰ رُتبَةِ أصحابِ العَينِ والعِيانِ ، جمعَ اللهُ سُبحانَهُ إخوانَ التَّجريدِ[3] في مَقعَدِ صِدقٍ عند مَليكٍ مُقتَدِرٍ .

۞ ۞ ۞

---

(١) علَّق النَّاسخُ في الحاشيةِ بقوله : لعلَّ (وصَلِّ اللهم) .

(٢) اللُّمْعةُ : يُحتملُ أن تكونَ : القِطعةُ مِنَ الشَّيءِ ما يُناسبُ حَجمَها ، أو تكونَ مِنَ اللَّمعانِ والنَّصاعةِ ، وكلاهما وجيهٌ .

(٣) التَّجريدُ : مِن مُصطلحاتِ القومِ ؛ يعنونَ به : الِاعتزالَ ، وقطعَ العلائقِ والعوائقِ من جميعِ الخلائقِ .

فَصْلٌ

[في العلةِ والمعلولِ]

المعلُولُ : صورةُ العِلَّةِ وظاهِرُها .

والعِلَّةُ : حقيقةُ المعلُولِ وباطِنُه ؛ لأنَّ المعلُولَ مِن حيثُ هو هو . . مُمكِنُ الوُجودِ ، وليسَ لهُ إلَّا قَبولُ الوُجودِ ، فإذا أَوجَدَهُ العِلَّةُ . . فجمِيعُ ما يُشاهَدُ منهُ مِنَ الكَمالَاتِ هو أوصافُ العِلَّةِ وكَمالَاتُها الَّتي تجلَّىٰ في مَظهَرِ ماهِيَّةِ المعلُولِ علىٰ قَدْرِ ما كانَ قابِلاً لهُ .

فإذا نظرَ إلى المعلُولِ مَنْ لا يَعلَمُ أنَّهُ مَعلُولٌ لغيرِهِ ، أو يَعلَمُ ولمْ يَتفَطَّنْ لمَعلُولِيَّتِهِ حالَ النَّظرِ إليهِ . . نَسَبَ كَمالَاتِهِ المشاهَدةَ إلى المعلُولِ .

ومَنْ تَفَطَّنَ لمَعلُولِيَّتِهِ ، ونَظَرَ إليهِ حالَ التَّفَطُّنِ . . شاهدَ كمالَ العِلَّةِ على الحقيقةِ ، فكأَنَّ ماهيَّةَ المعلُولِ مِن حيثُ ضَربُ المثَلِ إلى المِرآةِ المصقُولةِ ؛ فإنَّهُ ليسَ للمِرآةِ سِوى استعدادِ حِكايةِ صُورةِ المُحاذِي ، وكأنَّ العِلَّةَ هو صورةُ الشَّخصِ المُحاذِي للمِرآةِ .

فمَنْ نَظَرَ في المِرآةِ ، وغَفَلَ عَن كَونِها خالِيةً عن جميعِ الصُّوَرِ مِن حيثُ ذاتُها . . نَسَبَ الصُّورَةَ المِرآتِيَّةَ فيها إلىٰ كَونِها صُورَةَ المرآةِ ، ومَن عَلِمَ حالَ خُلُوِّها في ذاتِها عَن الصُّوَرِ . . نَسَبَها ـ لا مَحالَةَ ـ إلىٰ شَخصٍ خارجٍ عنِ المِرآةِ .

فاجعَل جميعَ المُمكِناتِ مَرايًا ، وما ترىٰ فيها مِنَ الكَمالَاتِ المحسُوسَةِ والمعنَويَّةِ صُوَرَ المرايا ؛ بلِ اجعَلها مِرآةً واحدةً ؛ لتَصِيرَ مِن أهلِ المشاهَدَةِ .

فَصْلٌ

[في المرتبةِ الثانيةِ مِنْ مراتبِ الإدراكِ]

ثمَّ ارْقَ إلىٰ مَرتبةٍ[1] أعلَىٰ مِن هٰذه ؛ وهي :

أنْ تَتنبَّهَ أنَّ مُدرَكَكَ غيرُ خارجٍ عن ذاتِكَ ؛ لأنَّ المُدرَكَ مُحاطٌ بالمُدرِكِ مِن حيثُ إنَّه مُدرَكٌ ، والمُدرِكُ محيطٌ بالذَّاتِ مِنْ حيثُ إنَّهُ مُدرِكٌ ، ولا شكَّ أنَّ هٰذه الإحاطةَ إحاطةٌ عِلمِيَّةٌ ، والعِلمُ غيرُ مُنفَكٍّ عَنْ ذاتِ العالِمِ ؛ فجميعُ مَعلُوماتِكَ مُحاطٌ لذاتِكَ ، فذاتُكَ مُحيطٌ بهِ .

فإذاً ؛ كلُّ ما أدرَكتَهُ فهو في ذاتِكَ ظَرفيَّةٌ مَعنويَّةٌ ؛ فإنَّ ذاتَكَ مِن عالَمِ المعانِي ، فَلَا بُدَّ مِنْ كَونِها مُحِيطةً بشيءٍ أنْ يكونَ إحاطةً معنويَّةً .

فإذا انكشَفَ لكَ هٰذا المَقامُ . . رأيتَ نفسَكَ مُحِيطةً بجميعِ مَعلُوماتِكَ وكلِّ ما حَضَرَ لكَ ، فتصيرُ نفسُكَ المرآةَ المذكُورةَ ، وهٰذه مشاهَدةٌ أخصُّ مِنَ المشاهَدةِ الأُولىٰ ؛ فإنَّكَ كُنتَ تُشاهِدُ الموجودَ الحقِيقِيَّ قبلَ هٰذا في غَيرِكَ ، والآنَ تُشاهِدُهُ في ذاتِكَ ، وبينَ الرُّتبتَينِ بَونٌ بعيدٌ .

۞ ۞ ۞

---

(١) في الأصل : (للمرتبةِ) ، والتصحيح مِن الحاشيةِ .

فَصْلٌ

[في المرتبةِ الثالثةِ مِنْ مراتبِ الإدراكِ]

ثمَّ فوقَ هٰذه المرتبَةِ رُتبةٌ أُخرَىٰ أمثَلُ منها ؛ وهي :

بأنْ تَتفَطَّنَ لإمكانِ ذاتِكَ ، وكَونِها غيرَ موجودةٍ مِنْ حيثُ هِيَ هِي ؛ فتَرفَعُها[1] مِنَ البَينِ ، فَتُدرِكُ الأشياءَ كُلَّها مِن حيثُ هي تَجلِّياتٌ للحَضرةِ الأَحَدِيَّةِ ، فتَنفَصِلُ عَن ذاتِكَ مِنْ حيثُ هي مَحلٌّ لرُؤيَةِ الأشياءِ فيها ؛ بل ترىٰ كُلَّها مَنسوبةً مِنْ حيثُ القِيامُ إلى المطلوبِ الحقِيقِيِّ ؛ فتَبقَىٰ أنتَ مشاهِداً للتَّجلِّياتِ[2] فقطْ ، فتَرى الأشياءَ كُلَّها قائمةً بالحقِ ، وتَرَىٰ نفسَكَ مُبتَهِجَةً بمُشاهدَتِها ، وإذْ تَعلَمُ أنَّها جَمالاتٌ للحقِ سُبحانَهُ بتأَكُّدِ المشاهَدةِ غايةَ التَّأكُّدِ . . فَيتَّضِحُ المطلوبُ وُضوحاً يُبهِرُ البَصِيرةَ .

* * *

---

(١) في الأصل : (فيرفعها) .

(٢) التَّجليَّاتُ : ما يَنكشِفُ في قلبِ الصُّوفيِّ مِن أسرارِ الغيوبِ .

فَصْلٌ

[في أعلىٰ رتبِ الإدراكِ]

ثمَّ إذا أمعَنتَ النَّظَرَ في هٰذا المَقامِ . . وجدتَكَ غيرَ خارجٍ عنِ المقامِ الَّذي فارَقتَهُ ؛ وذٰلكَ لأنَّكَ كنتَ تَجِدُ الأشياءَ في ذاتِكَ مِن حيثُ إنَّكَ كنتَ تُدرِكُها ، فلِهٰذا النَّظَرِ كُنتَ تَجِدُها في ذاتِكَ .

وأمَّا الآنَ : فقدْ قَطَعتَ النَّظَرَ عَن ذاتِكَ مِنْ حيثُ هي مَحَلُّ الأشياءِ ، وكَونُ الأشياءِ قائمةً بها ، ولٰكنَّكَ بَعدُ في مَقامٍ تُثبِتُ فيهِ كونَكَ مُدرِكاً للأشياءِ ، فيعودُ كونُك مَحَلّاً لها ، وقدْ بانَ لكَ استِحالتُهُ ، فإذاً كونُك مُدرِكاً للأشياءِ يَلزَمُه المُحالُ ، فيكونُ مُحالاً ، فتَنفَصِلُ في هٰذا المَقامِ عَنْ كونِكَ مُدرِكاً للأشياءِ ، فيَظهَرُ لكَ أنَّ المُدرِكَ بالحقيقةِ هو الحقُّ تعالَىٰ وتقدَّسَ ، واللهُ سُبحانَه أعلمُ بحقائقِ الأُمورِ الخَفِيَّةِ ، وهو يقولُ الحقَّ ويَهدِي السَّبيلَ .

الكشّافات العلميّة
لكتب ورسائل الإمام السّهرورديّ

فهرس الآيات القرآنية المجيدة

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة آل عمران		
﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَٰتٍ . . . ﴾	١٩٠	٥٦٠
﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾	١٩١	٥٣٥
﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾	١٨	٥٤ ، ٦٤٣ ، ٧٧٨
﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ . . . ﴾	٢٦	٧٧٨
﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾	٣١	٧٨ ، ٢٠٣
﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾	١٥٩	٤٥٩
﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾	١٥٧	٦٣٦
﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾	٨٥	٥٣٢
﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا . . . ﴾	١٩١	٥٦٠
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾	١٠٢	٣٧٩ ، ٨٨٤
سورة النساء		
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . . . ﴾	٦٥	٦٧٤
﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾	٥٦	٢٩٧ ، ٣٠٥
﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾	١٦٥	٣٠٧
﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾	١٣١	٣٧٩ ، ٣٩٤
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾	١	٣٣٢
سورة المائدة		
﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾	٢٧	٥٤٥
﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾	٧٢	٦٢
﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾	٢٣	٥٧٦

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	الراوي	رقم الصفحة
من حسن إسلام المرء . . .	أبو هريرة وزين العابدين علي بن الحسين	١٢٩ ، ٨٤٢
من درس العلم لله . . .	أبو هريرة	٥٢٨
من رأىٰ رؤيا مكروهة أن يتحول عن الشق الذي كان نائماً عليه	جابر بن عبد الله	٤٩٢
من رق ثوبه . . رق دينه	أنس بن مالك	٥٨٢
من شغله ذكري . . .	عمر بن الخطاب	١٥٩
من صدق . . نجا	ابن أبي أوفىٰ	٥٤٧
من صلىٰ هـٰذه الصلاة في عمره مرة واحدة . . .	عبد الله بن مسعود	٧٧٨
من طلب الدنيا . . فاته العقبىٰ . . .	-	٥٦٤
من عجز عن الشكر . . فقد أدى الشكر	-	٥٤٠
من عرف نفسه . . عرف ربَّه	-	٦٦٥
من عرف نفسه . . فقد عرف ربه	-	٥٦١
من عشق الله تعالىٰ وكتم فمات . . مات شهيداً	عبد الله بن عباس	٥٧١
من عمل عملاً ليس عليه أمرنا . . فهو رد	عائشة	٤٤٧
من كان مسلماً وبدنه في عافية . . .	علي بن أبي طالب	٥٣٢
من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . . .	أبو هريرة	٥٥٣
من كثرت صلاته بالليل . . حسن وجهه بالنهار	جابر بن عبد الله	٥٣٨
من مات . . فقد قامت قيامته	أنس بن مالك	٢٨٥ ، ٣٢٤
المؤمن يفتح له في قبره منتهىٰ بصره	البراء بن عازب	٣١٩
الناجية واحدة	أنس بن مالك	٨٨
الناس نيام فإذا ماتوا . . انتبهوا	علي بن أبي طالب	٣٤٦
نبع الماء من بين أصابعه	أنس بن مالك	٧٦
النبي ﷺ كان أخلى الخلق قلباً . . .	أنس بن مالك	٤٢٧

فهرس الآثار

الأثر	القائل	رقم الصفحة
أفراراً منا ؟ . . .	-	١٤٨
أقدَم علىٰ سيد لم أره (جواباً لمن سأله عن بكائه حالة الاحتضار)	الحسن بن علي بن أبي طالب	١٦٨
أقرب الدعاء إلى الإجابة . . .	سهل بن عبد الله التستري	١٥٩
ألا تنافر فقيراً ولا تعارض غنياً	الجنيد	٢٢٧
ألهتني النار الكبرىٰ عن هـٰذه النار (جواباً لمن سأله عن بقائه ساجداً حالة وقوع حريق في داره)	علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب	١١٧ ، ١١٨
إلـٰهي ؛ دُلَّني علىٰ عمل إذا عملته . . .	موسىٰ عليه السلام	١٤٣
إن أبا يزيد غسل ثوبه	-	١٢٧
أن أبا يزيد قصد رجلاً مشهوراً بالزهد	-	١١٠
أن إبليس مسح الأرض حين أهبط إليها . . .	-	٢٦٨
إن أعطينا شكرنا . . .	شقيق البلخي	٢٢٩
إن العبد يصل بطاعته إلى الجنة . . .	أبو علي الدقاق	١٦٤
إن الفراسة سواطع أنوار . . .	الواسطي	١٥٣
إن المؤمن لا يطمئن قلبه . . .	معاذ بن جبل	١٣٠
أن بعض المريدين تاب ، ثم وقعت له فترة	-	١٢٤
أن رجلاً نام بالمدينة ، فتوهم أن هِمْيانه سُرِق . . .	-	٢٢٨
أن عابداً عبد الله تعالىٰ أربعين عاماً . . .	-	٥٣٣
إن فلاناً يستغيبك ، قال : دعوه بفعله . . . لما قيل له	الحسن البصري	٥٤٩
إن قوماً يقولون بترك الحركات . . .	الجنيد	١٦٩
إن كان بقي في قلبك شيء فقل . . .	الأحنف بن قيس	٥٤٩
إن مردة الشياطين مغلولون . . .	طاووس	٢٣٠
إن نفسي كلب عقور يعقر الخلق	-	١٢٦
أن الله تعالىٰ بشر إبراهيم عليه السلام أنه سيكثر إسماعيل	-	٢١٧
أن الله تعالىٰ قال لعيسى ابن مريم : يا عيسىٰ . . .	-	٥٦٥
إن الله حَكَم عدل	ابن سيرين	١٣٦
انزل إلى الجورة بين فخذي . . .	أبو الحجاج الأقصري	٥٤٧
انشق له القمر	جابر بن سمرة	٧٦

فهرس الأشعار

الصدر	القافية	الشاعر	البحر	الصفحة
(أ)				
إِنِّي شَرِبْتُ بِكَأْسٍ مِنْ مَوَدَّتِهِ	أَحْشَائِي	-	البسيط	٦٢٢
(ب)				
إِنَّ ٱلْمَحَبَّةَ أَمْرُهَا عَجَبُ	سَبَبُ	-	الكامل	٦٤٠
خَيَالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي	تَغِيبُ	أبو الشمر عبد الواحد	الطويل	٦٤٣
كَيْفَ ٱلسَّبِيلُ إِلَىٰ مَرْضَاةِ مَنْ غَضِبَا	سَبَبَا	-	البسيط	٦٠٣
أَبَى ٱلْقَلْبُ إِلَّا أُمَّ عَمْرٍو فَأَصْبَحَتْ	تَجَنُّبَا	الأحوص	الطويل	٦١٦
عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَتْ وَسِلْمٌ لِسِلْمِهَا	وقَرَّبَا	الأحوص	الطويل	٦١٦
فَلَمَّا ٱسْتَبَانَ ٱلصُّبْحُ أَدْرَجَ ضَوْءَهُ	الكَوَاكِبِ	القاسم السياري	الطويل	٦٢٤
رَاحَتْ مُشَرِّقَةً وَرُحْتُ مُغَرِّباً	مُغَرِّبِ	-	الكامل	٦٢٥
أَدَّبْتَنِي بِٱنْصِرَافِ ٱلطَّرْفِ يَا ثِقَتِي	تأديبي	-	البسيط	٦٠٦
(ت)				
هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ	لَقِيتِ	-	الرجز	٦٠٧
(ح)				
حَتَّىٰ إِذَا مَا ٱلْبَدْرُ أَرْشَدَ ضَوْءُهُ	الإِصْبَاحَا	-	الكامل	٤٢٢
حَتَّىٰ إِذَا ٱنْجَابَ ٱلظَّلَامُ بِأَسْرِهِ	لَاحَا	-	الكامل	٤٢٢
مَنْ كَانَ فِي ظُلَمِ ٱللَّيَالِي سَارِياً	المصْبَاحَا	-	الكامل	٤٢٢
تَرَكَ ٱلْمَسَارِحَ وَٱلْكَوَاكِبَ كُلَّهَا	الوَضَّاحَا	-	الكامل	٤٢٢
ثَقُلَتْ زُجَاجَاتٌ أَتَتْنَا فُرَّغاً	الرَّاحِ	-	الكامل	٢٩٦
خَفَّتْ فَكَادَتْ تَسْتَطِيرُ بِمَا حَوَتْ	بالأَرْوَاحِ	-	الكامل	٢٩٦

(ي)

فهرس الأعلام

❊ ❊ ❊

فهرس البلدان والأماكن

فهرس الحيوانات

فهرس القبائل والفرق والأمم

فهرس المصطلحات الكلاميّة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف الياء

❊ ❊ ❊

فهرس المصطلحات الصّوفيّة

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس موضوعات الكتب والرّسائل

* * *